الموسوعة التاريخية الحديثة

الموسوعة التاريخية الحديثة

تاريخ العصر الوسيط في أوروبة

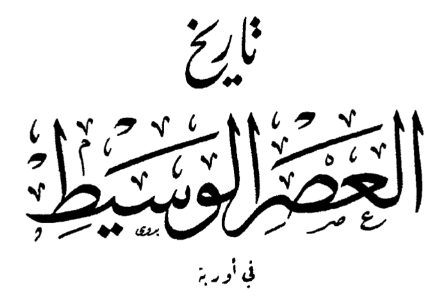
تأليف
الدكتور نور الدين حاطوم
رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق



دار الفكر

تاريخ

العصر الوسيط



تاريخ العصر الوسيط

في أوربة

الجزء الأوّل

من أواخر العصر الروماني الى القرن الثاني عشر

تأليف

الدكتور نور الدين حاطوم

رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق

دار الفكر

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

دار الفكر - دمشق - ساحة الحجاز
ص . ب (٩٦٢) - برقيًا (فكر) هاتف (١١١٠٤١)

المقدمة

العصر الوسيط

بين الغارات البربرية الكبرى في القرن الخامس ، وبين فجر النهضة الأوربية الحديثة في القرن الخامس عشر ، مضت الف سنة من عمر الزمان أطلق عليها عادة اسم « القرون الوسطى » أو « العصر الوسيط » .

غير أن الناس الذين نسميهم « رجال العصر الوسيط » لم يكونوا ليفكروا بهذه التسمية ، ولم يدر بخلدهم مثل هذه العاطفة ، بل انهم كانوا يشعرون ، كما نشعر نحن ، بأنهم يعيشون في عصر يعتبر نهاية لتطور سابق ، وبأنهم « رجال عصرهم » . ولذا كانوا ، كما نحن عليه اليوم ، يعارضون بصورة غريزية رجال العصر القديم . وعندما يتحدثون عن عصرهم يقولون عنه بانه « عصر حديث » ويعتقدون ويرون بانهم اناس « محدثون » يختلفون كثيراً عن رجال « العصر القديم » .

ومن السهل بعد هذا ان ندرك ان الانسان المثقف في العصر الوسيط يفهم ان التاريخ عصران : العصر القديم الراحل ، والعصر الحديث الذي يعيش فيه .

ولكن متى بدأت العصور الحديثة ؟ ان العصر الوسيط الديني لم يعرف الفصل في أدوار التاريخ الا تحت زاوية الدين . ولذا فان الحد الفاصل بين العصر القديم والعصر الحديث عنده هو ظهور المسيحية أو ظفرها في عهد قسطنطين . ولا نجد في العصر الوسيط نصاً يدخل حقيقة غير هذه الحقيقة . وذلك لأن العصر القديم بدأ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالوثنية ، ولا جدل في أن الغارات البربرية في القرن الرابع والخامس قد سجلت بداية حاسمة لعصر جديد في مقدرات الشعوب .

ومنذ متى بدأت فكرة القرون الوسطى بالظهور ثم اصبحت من بعـــد معروفة ، أو بتعبير آخر متى بدأت فكرة تقسيم التاريخ إلى عصر قديم، ووسيط، وحديث ، أي منذ متى ظهرت الفكرة القائلة بأن المرحلة الثانية في حياة المجتمع قد آذنت بالرحيل ؟

لا شك في أن هذا المفهوم لم يظهر قبل القرن الخامس عشر . لأن الثابت ان هذه الفكرة بدأت تظهر وتتسع منذ القرن الخامس عشر وخاصة في القرن السادس عشر . فمن ذلك أن جيوڤاني آندريا، أسقف آليريا في كورسيكا ، الذي أصبح فيما بعد قيماً لمكتبة الفاتيكان ، كان يميز عام ١٤٦٩ بين « قدامى العصر الوسيط ومحدثي عصرنا » . ولذا فقد كان يعلم أن عصر النهضة بدأ يدشن مرحلة جديدة في السير نحو المستقبل. وفي الحقيقة ان عصر النهضة يختتم العصر الذي كان يسميه رجال العصر الوسيط «العصر الحديث» ، غير ان العصر الحديث بحق انما هو «عصر النهضة» كما نفهم نحن في أيامنا هذه . وذلك لأن شعلة القديم، التي عادت وشعر بها عصر النهضة، جعلت العصر الوسيط عصر انتقال، أو برزخ عبور ، أو نفقاً مظلماً بدا فيه العصر القديم مجهولاً او غير معترف به . ولكن عندما مضى زمن الخداع وحل محله عصر النهضة ، بعثت الحضارة القديمة وعثر عليها بعد طول البحث ، وبدأت الحركة الانسانية تتفتح ملء السمع والبصر بوضوح اللغة اللاتينية ، وتوصل الفن إلى درجة النضج والكمال، وأصبح يضاهي بكماله أمجاد الآثار الاغريقية . وأخذت الأفكار الجديدة تدوي دوياً يرافقها اتساع الآفاق في مختلف الميادين ، وفتح المحيط الأطلسي واكتشاف العالم الجديد وتقدم المعرفة. ومما لاشك فيه ان لا شيء يخلق من العدم ، فقد سبق عصر النهضة، بعد العصر القديم، بعصر حمل وتحضير وتخمر ، حتى إذا ما آن أوانه تفجر عن انسانية جديدة مشربة بالقديم الوليد . وفي كل ذلك ما يدل على استئناف السير والاندفاع والرقي والحياة الجديدة .

ويبدو لنا، من دراسة آثار الكتاب والأدباء ورجال المعلمات والمؤرخين، ان

التعبير « **العصر الوسيط** » لم يستقر الا منذ ان دخل المناهج المدرسية وأصبح تعبيراً دائماً ومقبولاً رسمياً ومستعملاً في كتب الغرب الاوربي ومدارسه . ولقد أخذنا نحن العرب هذا الاصطلاح واستعملناه في كتبنا ومناهجنا الدراسية.

غير أن التردد مازال عند نقطة البدء ونقطة الختام . ونقطة البدء توضع في زمن الغارات وغالباً عند وفاة الامبراطور تيودوس عام ٣٩٥ ، وأفضل من ذلك عند سقوط آخر امبراطور روماني عام ٤٧٦ م . أما نقطة الختام ، فبعد ان بقيت طويلاً عند فتح الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٣ أصبح المؤرخون يجنحون اليوم إلى وضعها عام ١٤٩٢ ، أي عام اكتشاف العالم الجديد .

بعد هذا بقي علينا ان نتساءل ما إذا كان تقسيم العصور ، الذي يتضمن العصر الوسيط ، يرى ما يبرره في الواقع ، أي هل يوجد بحق بين العصر القديم والعصر الحديث عصر وسيط ؟

ان اول اعتراض يمكن ان يوجه إلى هذا التقسيم هو ان وصفنا العصر « **الوسيط** » يعني ، سواء شئنا أم لم نشأ ، أننا نصفه عصر « انتقال » . ولكن اليس كل عصر عصرَ انتقال؟ وأي عصر لم يكن سوى ممر بين العصر الذي سبقه والعصر الذي يليه! ان ألمع عصور الحضارة ، كعصر بريكلس وعصر لويس الرابع عشر ، لا تشذ عن هذه القاعدة وإذا كان كل عصر عصراً انتقالياً في جوهره — وذلك لأن الحياة التاريخية كالحياة الفردية تمضي دون انقطاع في صيرورة الزمان المتجانسة — أفلا يدل ذلك على أننا لم نقل شيئاً ، أو ان ما نقوله معاد ومكرور لا فائدة منه وخطر في الوقت نفسه اذا تكلمنا عن « **عصر وسيط** » ؟ أليس كل عصر عصراً وسيطاً . ونحن بدورنا ايضاً سنصبح ذات يوم رجال عصر وسيط بالنسبة لأخلافنا. ولكن يجب ان نعترف دون مواربة ان دحض هذا القول غير مناسب أو حاسم كما يتراءى ذلك : وإذا وجد بحق تباين أساسي بين العصر القديم والعصر الحديث وكانت الألف السنة التي تفصل بين هاتين المرحلتين قد مهدت المرور من الأول

إلى الثاني ، فان التعبير « **العصر الوسيط** » يصبح ذا معنى عميق ويدل على حقيقة جوهرية . وبحثنا في تاريخ العصر الوسيط يوصلنا إلى ان الحقيقة كانت على هذا النحو . وهذا ماينبغي علينا ان نوضحه على قدر الامكان .

اذا تأملنا العصر القديم وجدناه عصراً تعاقبت فيه السيطرة والنفوذ بين الأمم. وكانت كل واحدة منها تحاول ان تلتهم الأخرى : فهنالك المصريون والآشوريون والميديون والفارسيون ثم أتت اغريقية وسادت العالم بفكرها . وسادت بعدها روما اوسع امبراطورية عرفها العصر القديم ،وحققت احلام الفاتحين من رعمسيس إلى الاسكندر ،ممن حاولوا الوصول إلى ذروة القوة والمجد . ومن عهد أوغسطوس إلى قسطنطين نمت الثقافة الاغريقية ـ اللاتينية حول البحر المتوسط ، واعتزت باشعاعها وامتدادها . وضربت روما الرقم القياسي العالمي . وغدت **وحدة رومانيا** دستور البشرية الراشدة المتفوقة التي بلغت مثلها الأعلى . ورافق هذه الوحدة الدوام والبقاء وغدت روما « المدينة الخالدة » وكل ما كان خارجاً عنها بربرياً . وهكذا التهت الامبراطورية الرومانية عندما أصبحت تدل على الحضارة ، كما أله الامبراطور عندما أخذ يتزعم بجلال مهيب هذا الشكل السامي والكامل للحياة الاجتماعية . وما ظفرت المسيحية حتى اضافت ما عندها الى هذا الشعور بتفوق روما . وغدت « روما بطرس » أعظم من روما او غسطوس ، وعاصمة عامة عالمية . واصبحت الامبراطورية باعتناقها المسيحية إلهية مقدسة اكثر من ذي قبل . ولا غرابة بعد هذا اذا بدت الغارات البربرية ، وما جرته من وبال على الامبراطورية ووحدتها ، كارثة عظيمة في نظر رجال القرن الرابع والخامس ؟

حقاً إن الأجيال التي سبقت الغارات البربرية والأجيال التي تلتها ، كانت تشعر بالانحطاط والتخاذل،وتتحمل بشقة آثار الأزمة التي يعانيها المجتمع ؛ غير أنها لم تلاحظ نتائجها الحقيقية بأي حال من الأحوال. لقد كانت هذه الأجيال تتجشم

الاذلال، والخذلان والخسران والأزمات، كما نتجشم نحن المصائب والأزمات التي تنزل بنا . ولم يشعر أحد بأي حدس أن عالماً قد هلك وأودى أو ، على الأقل ، أن دوراً مضى وانقضى .

ان انحطاط الامبراطورية في أخريات أيامها والأزمة التي انتابتها ، ودخول البرابرة اليها، واستقرارهم فيها، أدت جميعاً إلى زعزعة الوضع السياسي والاجتماعي بكامله. ومنذ ذلك الحين بدأ وضع جديد في حال التحضير والتهيئة .

يقول بعض المؤرخين ان السلام الطويل ، الذي عاشت في ظلاله الامبراطورية الرومانية بعد الفتح ، قد اضعف فيها الشعور العسكري ، الذي تملك الغرب اللاتيني في ذلك الحين ، لأن الغرب كان يستهلك أكثر مما ينتج ، كما كان يقيم في روما اثرياء لا عمل لهم إلا الاهتمام برفاههم وبذخهم على حساب الاقتصاد العام ، وعاطلون رسميون يعيشون على حساب الجماعة . ولذا كانت روما تستوعب دون مقابل ، وكان الشرق يجهزها بكل ماتريد . وعندئذ أخذ تيار الذهب اتجاهه الوحيد نحو الشرق دون انقطاع ، وأدى أخيراً إلى العجز وتوالي سقوط النقد ، ولم يعد هنالك ثروة منقولة مستقرة ولا اعتماد منظم ، بل سيطرت الثروة العقارية والحياة القروية والمحلية ، وغدا الغرب على هذا النحو صاحب أطيان، فتبدلت طباعه واختل نظامه . ومن المسلم به أن المجتمع يضطرب إذا كان موضعاً لتبدل عميق في اقتصاده . ولقد شعر بهذا الاضطراب من عاصر الغارات الكبرى . ولم يكن من هذه الأخيرة إلا أن زادت وعجلت بالتطور والسير سريعاً نحو الحياة القروية والمحلية . وقد ساعد على ذلك بطء التيارات الاقتصادية وصعوبة المواصلات وتكيف البرابرة مع حياة الحقول . وعندما ثل عرش رومولوس اوغستول ، آخر امبراطور في روما ، وأرسلت شارات الامبراطورية إلى الامبراطور زينون في القسطنطينية عام ٤٧٦ م أصبح كل ملك من ملوك البرابرة مستقلاً، وغدت على الفور ولايات روما ممالك ناشئة مثل:

وعن هذه الحياه الموضعية والتطور الاجتماعي نشأ **النظام الاقطاعي** . وبعد فكيف يمكن لهذا الاقتصاد المجزأ والمبعثر أن يتفق مع المفهوم السياسي للوحدة ؟ للوصول إلى ذلك يجب على احدى هاتين النزعتين المتضادتين ان تتغلب على الأخرى . فاما أن يفتح الاقتصاد أبوابه أو أن ينهار بناء الوحدة . ولما لم يكن باستطاعة أحد أن يفتح الاقتصاد المغلق ، فقد تحققت الفرضية الثانية بانقسام الأمراء وتجزئه الوحدة الامبراطورية الغربية .

غير أن فكرة الوحدة الامبراطورية بقيت تتردد في الاذهان . لأن العصر الوسيط المجزأ ظل يتعطش إلى الوحدة . لقد بحث عنها في كل مكان ، في تجديد الامبراطورية ؟ وفي الفكرة الدينية المسيحية . أي أنه أراد أن يحققها تحقيقاً مدنياً أو دينياً . وحنين العصر الوسيط إلى الوحدة يوضح لنا لأي درجة كانت تستهويه « **خصومة التقليد العلماني والكنسي** » وبأي هياج واهتمام كان يتتبع « **النزاع بين الكهنوت والامبراطورية** » الذي امتد من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر وشغل العقول والقلوب .

وبينما كانت القوتان المتنافستان تغالب احداهما الاخرى في سبيل نصر مستحيل ، كانت الحوادث تسير على عكس الصوفية . وذلك لأن عالماً جديداً أخذ يرتسم ويتضح منذ القرن الثالث عشر ، ولأن الاقتصاد بدل اتجاهه منذ بداية القرن الحادي عشر . فقد نشط البحر المتوسط علاقاته مع الشرق بسبب حج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة ، والحروب الصليبية ، وتشكل **البورجوازية** ، هذه الطبقة الجديدة التي اهتمت اهتماماً بالغاً بالتجارة والصناعة . وبكلمة مختصرة ان ظروفاً سعيدة تجمعت وساعدت على زوال الاكتفائية وتركت المكان شاغراً إلى الاقتصاد الحديث ، الذي ينزع إلى **الرأسمالية والمبادلة الدولية** . وفي الوقت ذاته أخذت النزعة السياسية ، التي بلغت درجتها الاقطاعية القصوى في القرن التاسع

فرنسا الميروفنجية ، واسبانيا الفيزيغوطية وايطاليا الاوستروغوطية . وحلت الكثرة محل الوحدة ، وقام مقام الامبراطورية دول متعددة .

ومن الجدير بالذكر ان فكرة الامبراطورية ، التي تداعت في الواقع ، بقيت سالمة في عالم الفكرة المحضة . وبقاء هـــذه الفكرة أدى إلى ارجاع الامبراطورية من جديد، في عهد شارلومان عندما توج في روما امبراطوراً يوم عيد الميلاد عام ٨٠٠ .

ولكن القرن التاسع ، الذي بدا فيه فجر الوحدة ، انتهى في ظلام التجزئة والانقسام . وذلك لأنه لم يكن لشارلومان وارث أهل لهذا الارث ، ولذا انهار أثره بعده . ومما لاشك فيه أن مثل هذه الأسباب عارض، غير أن دراسة حكم لويس التقي تدل على أن تطاحن الأحزاب وتصادم المنافع الفردية قد أضر بالوحدة ضرراً بليغاً . وكان الاقتصاد والسياسة يتطوران بصعوبة وباتجاه متعاكس . فمن الوجهه السياسية ، كانت الدولة الكارولنجية دولة مركزية موحـــدة ، وقد استطاعت أن تعيد إلى الغرب شكل الامبراطورية. غير أنها كانت تعيش على اقتصاد موضعي وذلك لأن الحروب والفتوح والدبلوماسية ومفاهيم المثقفين لم تغير شيئاً في شروط الحياة اليومية ، إذ لم يطرأ ما يبدل توزيع الثروة وسير النقود والمبادلات والظروف التي تثبت قيمة الأشياء وشروط العلاقات بين الأشخاص. ولقد قيل بحق ان الامبراطورية الكارولنجية كانت دولة سياسية عظمى، إلا أنها لم تكن دولة اقتصادية عظمى. ولهذا السبب تكيف الغرب مع الاقتصاد المغلق وزاد في ذلك الفتح العربي بما أحدثه من انقطاع وبتر في علاقات البحر المتوسط، كما دلل المؤرخ البلجيكي هنري بيرين ، على مـــا في قوله من مبالغة . يضاف إلى ذلك أن الحياة الكارولنجية كانت موضعية أكثر من الحياة الميروفنجية ، حتى أننا لا نجـد فيهـا مدناً ، بل حقولاً تكتفي بنفسها ، وتعيش في حالة « اكتفائية قروية » .

والعاشر ، تخضع لاتجاهات جديدة وقوة استقطاب شديدة غلبت فيها النزعة المركزية من جديد على النزعة الاميرية (الاقطاعية). وكان هذا التطور الجديد مسوقاً بدافع الملوك ولذا اتجه نحو وحدات لا نحو وحدة، ونحو تشكل ملكيات أي تأسيس دول إلى جانب بعضها . ولا شك أن هذه النتيجة كانت خاتمة لعمل الغارات . وكان وراء هؤلاء الملوك شعوب ، وقد اكتسب كل منها شعوراً بكيانه ، وبدأت في بلاد الغرب حركة قومية تجلت للعيان في القرن الرابع عشر عندما دخلت فرنسا وانكلترا في حرب « المائة العام » وتحملت كل واحدة منها فظائعها وآلامها . وكانت هذه الحرب فرصة نمت فيها ارادة كل من الدولتين واهتزت فرديتها الخاصة . وبعد أن بلغت كل منها سن الرشد ظهرت في الأفق السياسي اسبانيا الفتية التي شعرت بشخصيتها في حربها مع العرب والعمل على استرداد بلادها من أيديهم . وكذا ايطاليا ، فهي وإن فقدت قوة التماسك والارتباط بين أجزائها ، إلا أنها كانت شعلة وضاءة تزهو بثقافتها أمام فظاظة « البرابرة » . أما ألمانيا فقد بدأت، بفضل الأسرة النمساوية، تبشر بالدور الذي ستلعبه في المستقبل .

وهكذا نشأت اوربة، وتألفت دولها، وأخذت كل واحدة منها في تحديد قوى الأخرى ، وتتألب عليها ، وتفرض احترامها واحترام منافعها الحيوية وكرامتها . ولم يكن ثمة مجال للتوحيد بين الدول ودمجها في دولة واحدة ، أو امكان لسياسة توسعية ظافرة ، وكانت كل دولة تريد السيطرة على غيرها تصطدم بحلف من القوى وتجد جزاء مخاطرتها . وغلبت بهذه الصورة الكثرة على الوحدة . ولما سئم العالم من البحث عن السلام في وحدة لا يمكن تحقيقها ، وربما كانت غير مرغوب بها ، لم يجد بداً من أن يراها في توازن القوى ، الذي انبثق عنه احترام الحريات والحقوق ، وما ينشأ عن ذلك من انسجام .

وفي هذه التبدلات، التي أتينا على ذكرها ، نرى أن ألف عام العصر الوسيط

سهلت المرور من عـالم الوحدة القديمة الى عالم الكثرة الحديثة ، وان رجال العصر الوسيط أدوا رسالتهم خـلال التردد و كثرة المنعطفات في طريق طويل . ولما كان هذا العصر قد انتقل بالإنسانية من مرحلة لأخرى لذا كان عصر انتقال . وإذا كان لهذا العصر مايفخر به فهو يفخر بتألق القرن الثالث عشر ،عصر القديس لويس والقديس توماس الاكويني ،الذي يمكن أن يشبه بأمجد الحوليات البشرية وبعصر بريكلس وأوغسطوس أولويس الرابـع عشر. وليس فيه مايناقض الطابـع العام لسير العصور. فقد بدأ العصر الوسيط بالامبراطورية وهي في حال الانحطاط وانتهى بأوربة المنظمة ، أوربة عصر النهضة ، أوربة الحديثة . ودور هذا العصر في التاريخ واضح وضروري ، وهو دور الجسر الوسيط بين عصرين من تاريخ البشرية، لا كما يمثل عادة بهوة سحيقة مظلمة بين أوجين منيرين .

وصفوة القول ان تاريخ كلمة « العصر الوسيط » يرجع الى عصر النهضة. فقد كان الأدباء الانسانيون أول من استعملها ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وغالباً في القرن السادس عشر ، ثم تبناها المؤرخون بدورهم في القرن السابـع عشر ، وأشاعوا استعمالها .

وهذه التسمية تكشف عن عقلية خاصة.فهي تعبر عن الازدراء الذي يشعر به المصلحون والعلماء والفنانون حيال العصور الوسيطة الواقعة بين العصر القديم وعصر النهضة الأوربية . فقد كان الأوائل يرونها دوراً طويـــلا مليئاً بالتشويه المنظم للمسيحية البدائية ،والمحق المتزايد للمثل الأعلى الانجيلي . وكان الأواخر يصفونها بأنها عصور ظلمات. وكانت ايطاليا خاصة تنظر الى هذه العصور بأنها « غوطية» أي بربرية وتعتبرها عصوراً عقيمة باهتة ، واقبـح من ذلك عصور تأخر وإنحطاط.

بيد أن هذا الموقف تبدل فيما بعد على يد رجال الفكر مثل هردر في المانيا وبورك في انكلترا ، وجول دوميستر في فرنسا . وأخـــيراً اكتشف الفلاسفة

أن عالماً جديداً بدأ في دور التحضير والحمل منذ القرن الثالث عشر ، ولا ضير اذا بدأ ابكر من ذلك في بعض الميادين وفي بعض المراكز الدينية والفكرية .

أما الاطار الجغرافي للعصر الوسيط فيشمل جميع البلاد التي أسهمت في إشادة الحضارة المسيحية في الغرب الأوربي وقدمت عناصرها ونخص بالذكر منها بلاد بريطانيا العظمى ، بلجيكا ، ألمانيا الغربية ، ايطاليا اللومباردية ، كاتالونيا ، فرنسا الجنوبية والشمالية ، حيث أعدت هذه العناصر المختلفة والمتفرقة ونسقت بانسجام وصهرت معاً وتكون منها تركيب قوي متين البناء .

هذا ويقسم تاريخ العصر الوسيط الى دورين كبيرين : الأول ويذهب حتى منتصف القرن العاشر . وهو دور اتصال بين الشعوب ، مبهم في أوله ، ولكنه أخذ ينتظم بالتدريج وبدأت تظهر فيه معالم بناء المستقبل . فقد قامت فيه أطر جديدة ومواد حضارية انقذت من غرق العصر القديم ، واستطاعت الكنيسة بالتدريج أن تكسب الأفراد والحياة الاجتماعية . وفي هذه الأطر ، وهذه الروح ، ومن هذه المواد أعد الكارولنجيون التركيب الأولي وهو تركيب غير عقيم بالجملة ولكنه أتى مبكراً وقبل الأوان وسيؤتى ثماره في الآجل البعيد ، وذلك عندما وقعت الكنيسة في أيدي العلمانيين وتناست أصولها وجذورها الأولى ، ثم أصلحت نفسها وتطهرت وتحررت ، وعندما انطلقت الحركة الديموغرافية لتعمل وتنهض من خبالها ويجد العصر الوسيط توازنه في الفترة الواقعة بين ١١٢٥ و ١١٥٠ ويؤلف دوراً عامراً من أدوار التاريخ الكبرى .

أما الدور الثاني فيذهب من منتصف القرن العاشر ليصل الى نهضة إيطاليا في القرن الخامس عشر ونهضة أوربة عامة في القرن السادس عشر . ففي هذه الفترة تحررت البشرية الأوربية تدريجياً من سلطة الدين ، وتراجعت الكنيسة أمام الفكر العلماني ، كما تحررت من سيطرتها السلطات العامة والعلوم والفنون والسياسة والاقتصاد . وتفتت العصر الوسيط بتأثير الاصلاح البروتستانتي والنهضة وقوة الرأسمالية وتركيز الحكم المطلق بيد الملوك . وهكذا ترك العصر الوسيط الى العصور الحديثة تراثاً هاماً وقيماً مازال موضع تقدير ابناء العصر الحاضر وإعجابهم .

وعلماء الجمال والكتاب والمؤرخون العصر الوسيط . لقد نال هذا العصر الوسيط إعجاب « الابداعيين » في القرن التاسع عشر وتشيعوا له كرد فعل على « عبادة العقل » وفلسفة القرن الثامن عشر . ولم تدم هذه العاطفة طويلاً . ولكن الأهمية التي أيقظتها في الأوساط العلمية ، ازدادت ولم تهن ولم تضعف ، وتوالت الدراسات واعادت الى « العصر الوسيط » مع الزمن وجهه الحقيقي ، وبوأته المكانة التي يستحقها في التطور التاريخي وما من أحد اليوم يمثل العصر الوسيط بعصر ظلام حتى ولا بعصر انتقال . بل على العكس ، لقد أخذ المفكرون والمثقفون يرونه « العصر الأول » بالنسبة لأوربة ويسجلون لصالحه واعتماده والثقة به أثراً أساسياً وهو « حضارة الغرب المسيحية » التي ورثت الثقافة الاتباعية القديمة وأصبحت دعامة قوية لحضارة أوربة اليوم .

وإذا كانت هذه هي حال العصر الوسيط ، بما له وما عليه ، فإن أول قضية ، ان لم تكن القضية الوحيدة ، توضع أمام علماء العصر الوسيط ، هي معرفة كيف تهيأت حضارة هذا العصر وأعدت ، وما هي الصفات التي تحلت بها عندما بلغت درجة النضج ، ومتى ولماذا تصلبت وتجمدت وأصيبت بالفقر ولم تضمحل .

لقد وضعت قضية العصر الوسيط على بساط البحث منذ هجرات آخر القرن الرابع وأول القرن الخامس ، وتناقش المؤرخون حول بدايته ونهايته ووضعوا لذلك ، كما رأينا ، أبعاداً زمانية ومكانية . ولا شك في أن كل موقف من المواقف حول البداية يمكن الدفاع عنه ، لأنه يكشف عن جزء من الحقيقة . ولكن الحادث الحاسم كان في عبور القبائل الجرمانية نهر الراين والدانوب وتعاون روما والبرابرة والكنيسة واتصالها مع بعض اتصالاً وثيقاً في عصر الغارات البربرية الكبرى . أما النقاش حول النهاية فلم يكن أقل حماساً وجدلاً . ولكن المشاهد أن تبدلات كبيرة حدثت بين ١٤٥٠ و ١٥٥٠ ، حتى أن العلماء لم يشكوا في

الفصل الأول

نهاية العالم الروماني والغارات الكبرى

الغارات البربرية الكبرى

ان الرأي السائد لدى اكثر الناس عن الغارات البربرية الكبرى هو ان الأقوام الجرمانية والتترية انثالت في القرن الرابع والخامس على الامبراطورية الرومانية وهي في حالة احتضار ؛ وان قبائل الهون والفاندال والاوستروغوط والبورغوند والفيزيغوط والفرنجة اجتاحت ايطاليا وغاليا واسبانيا وافريقية الشمالية ؛ وأن افظع زعماء هذه الأقوام الغازية زعيمان وهما : آلاريك وآتيلا ؛ وأن الامبراطورية الرومانية ، في الغرب الاوربي زالت من الوجود بسبب هذه الغارات ، وحل محلها ملكيات بربرية ؛ وان اعظم هذه الدول قوة وبأساً مملكة الفرنجة ، ومؤسسها الحقيقي كلوفيس ؛ وان هذه الغارات الكبرى تعتبر حداً فاصلاً بين العصر القديم والعصر الوسيط .

ولكن رجل الفكر والبحث لايكتفي بهذا القول ، بل يرى ان حادث الغارات الكبرى كان عظيماً ومعقداً في أسبابه وحقيقته وصداه فيما وخلفه من نتائج. ويدل الألمان على هذا الحادث عادةً بكلمة «حركة» أو «هجرة الشعوب». وهذه التسمية ولا شك توضح الحادث بشكل أقل مسرحية من سواه ، ولكنها لا تدل على معناه العميق بدقة ، ولا تعطي إلا فكرة بسيطة وغير كافية عن

التبدلات والتغيرات التي احدثتها الغارات ، كما لاتظهر إلا الناحية العرقية ، بينا تبطن النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية التي هي أهم من غيرها بكثير .

لقد كانت الغارات الكبرى سبباً في انهيار العالم القديم . ولكن يجب الا نعتبر هذه النكبة ، التي منيت بها الامبراطورية الرومانية ، حادثاً مفاجئاً قصير الأمد ، على حين أنه كان نتيجة لنزاع طويل . ولقد انصرف جهد المؤرخين المعاصرين امثال فوستل دو كولانج وبيرين ودوبش وفرديناند لوط ، وغيرهم من استهوتهم هذه الدراسة الممتعة ، إلى عرض هذه الازمة على بساط البحث وتشريحها. ويبدو من هذه الدراسة ان حادث الغارات الذي اعتبر كثلاجة انقضت على الامبراطورية ، أصبح اليوم مفهوماً على شكل مغاير لما كان في السابق . والصحيح الثابت ان هنالك امتداداً بطيئاً لانحلال مزمن دب في جسم الامبراطورية ولا يمكن اجتنابه ، وان الغارات البربرية قد عجلت في انهائه . ولفهم ذلك تجب العودة إلى بدء الامبراطورية ، الى عهد اوغسطوس ، أي عندما انتهى الفتح الروماني وتشكل حينذاك مفهوم « رومانيا » ومفهوم « برابرة » .

ان كلمة « بربري » كلمة قديمة جداً ، فقد ظهرت في الالياذة ، وتدل على الاحتقار والازدراء . ثم تحول معنى هذه الكلمة ، وأصبحت فكرة الانحطاط أو الصَّغار الاجتماعي والفكري متعلقة ، عند افلاطون وآريسطو ، بالشعوب التي يصفها الاغريق بربرية لأنها لاتنقه اللغة الاغريقية . وإذاً فمفهوم هذه الكلمة عند مفكري اليونان مرادف لكلمة « غير مثقف » و « فظ » و « متوحش » .

ثم أخذت اللغة اللاتينية هذا اللفظ عن الإغريق للدلالة على هذه المعاني . ويعرف بعض المؤرخين المعاصرين هذه الكلمة بأنها تدل على القوى العدائية التي كانت تهدد الثقافة الاغريقية — اللاتينية والدولة الرومانية .

لقد كانت رومانيا محاطة بالبرابرة من جميع جهاتها ، وحضارة البحر المتوسط

في حصار من الشمال والجنوب والشرق ، وحدودها في الغرب تقف عند شاطىء المحيط الاطلسي ، بحر الظلمات ، حيث لا يجرأ أحد على ركوبه إلا إذا سار محاذياً للشاطىء بحيطة وحذر ، ولا يعلم ان قارة عظيمة تمتد على الشاطىء الآخر منه ، وستبقى هذه القارة، قارة امريكا ، مجهولةخلال الف سنة أيضاً ، ولم يكن الجغرافيون يعلمون سوى ثلاث قارات : أوربة ، وآسيا وافريقية . ولم يكن بين برابرة هذه القارات أي صلة أورابطة ، بل كانوا ينتسبون إلى عروق مختلفة ويؤلفون اسراً عرقية كبرى . وهم موزعون كما يلي : الجرمن ، السلاف (الصقالبة) ، الفينيون ، الاتراك المغوليون ، الايرانيون ، الأعراب ، البربر (سكان افريقية الشمالية) ، ويعيشون على شكل شعوب وقبائل تنتقل باستمرار . وقد لعب الجرمانيون،من بينهؤلاء البرابرة ، دوراً أساسياً في تحول العالم القديم إلى العالم الوسيط .

الجرمانيون.ـ كان الجرمانيون يحتلون الاراضي التي تسمى اليوم المانيا الغربية والنمسا على مصوراتنا الجغرافية،ولم ينبتوا في هذا الاطار الجغرافي،بل هم فرع من العرق الآري الذي كان يسكن قديماً آسيا ، وربما كان يقيم على شواطيءبحر الخزر (قزوين) . ولقد تحدر الاغريق والايطاليون من هذه الأرومة ، وانفصلوا عن موجة القبائل الآرية التي كانت تتجه في سيرها نحو الغرب وتوصلت حتى نهر الأودر . اما القبائل الجرمانية الأصلية فقد استقر بها المقام في بداية العصور التاريخية في حوضي نهري الاودر والايلب ، أي في الاراضي التي تحدق بها روافد هذين النهرين مع الجبال والبحر .

ولقد نقل إلينا كتاب العصر القديم اسماءالأقوام الجرمانية باضطراب ودون أي تنظيم .ويرى اللغويون يرون صعوبة كبرى في التعرف اليها . ومما يلفت النظر ان

هذه القبائل لم يكن لديهافيهذه المرحلة أي شعور بالتعاون والتضامن ، ولم يكن في لغتها ما يدل على جمعها ، حتى أن كلمة جرماني، التي نستعملها، ليست جرمانية بل كان يطلقها الغاليون على البرابرة الذين يقيمون ماوراء نهر الراين، ويعنون بها « جيران » ، وقد عرفها الرومانيون وتبنوها بينها كان الجرمانيون يجهلونها مطلقاً . أما التعبير « دوتش » الذي كان له شأنهواختاره الألمانيون ليدل عليهم. فيبدو أنه لم يكن موجوداً قبل القرن الثامن للميلاد . وعلى كل حال فان تطبيقه الأول كان وصفاً للغة لا للشعب .

ومهما يكن فالأدلة كثيرة على قربى القبائل الجرمانية والمجموعة العرقية الجرمانية في فقه اللغة والدين والأخلاق . وليس من الضروري ان تكون العرقية واعية في عصر ما لتوسع نتائجها التاريخية في كل عصر .

ومما يجدر ذكره هو أن تطور ديانة الجرمن بصورة خاصة، دون سائر الشعوب الآرية، كان له أثره وصداه. فقد كان الجرمانيون يعبدون قوى الطبيعة، وكان اودن أو فوتان إله القوة وقد احتلت عبادته مكانها في المعبد الجرماني ، بينما كانت فكرة « الحق » تفوق كل شيء عند الاغريق ـ اللاتينيين، وذلك بفضل جوبيتر وآبولون ومينوفا ، آلهة الحضارة القديمة ، وهذه الفكرة بعيدة كل البعد عن أشياع اودن .

ولم تكن الأفكار الدينية التي يدين بها الجرمانيون لتقلق المتحضرين ، بل الاضطرابات التي تعكر صفو المناطق التي يقطنون فيها، وذلك لأن أمواج البحر الجرماني كانت تزداد تلاطماً باستمرار ، بسبب الهجرات المتعاقبة، التي كانت تحدث ، أما لميلهم الفطري للحرب والسلب والنهب ، أو بسبب الضغط والدفع اللذين يأتيان من الخارج . وفي هذا الاطار الجغرافي ، الذي أصبح فيما بعد المانيا ، كانت القبائل تلتقي وتتصادم ، وتطغي الواحدة على الأخرى دون أن يكون

التاريخ قادراً على احصاء الضحايا وتعداد الهزائم وتقدير الظفر . وفي هذا التزاحم المستمر ، اندفعت بعض هذه الأقوام وهجمت على ثغور روما تحاول اختراقها .

وإذا كانت هـذه الأقوام تريد عبر الحـدود فليس بالضروري أن تجتازها عدوةً تريد الحرب والقتال ، إذ ليس هنالك معارضة عرقية أو حقد قومي بين الآريين الذين أبدعوا الحضارة الاغريقية ـ اللاتينية والآريين المتأخرين الذين أخذوا بسحر جَنّة (فالهاللا) أودن ؛ وليس هنالك ما يدعو إلى أي اختلاف بين هؤلاء واولئك الغالبين ـ الرومانيين الذين تبنوا ثقافة روما ولا يرون في «جيرانهم» الشرقيين عداةً يخشونهم كما كانوا يخشونهم في عهد قيصر .

وقد استهوى بهاء الامبراطورية هؤلاء الجرمانيين . وأوجدت حياتهم البائسة في نفوسهم استعداداً لتقـدير سحر الحياة المستقرة ، والمطمئنة عن غدها ، ففكروا باختراق الحدود ، لا بشكل مهاجمين أو فارين أو رحّلٍ لا يشعرون بما هو أمامهم ، بل زائرين أو مستطلعين أو راجين ، ولا مانع لديهم من أن يقدموا للامبراطورية سواعدهم وسيوفهم ، فهي بحاجة لأعوان يذودون عن حدودها ولعمال يفلحون أرضها . وهكذا يرى أن روما بعد أن رفضت تحضير البربري في أرضه ، منذ اوغسطوس وفاروس ، تعود اليوم فتترك البربري يأتي اليها ليتحضر في دارها .

كان النفوذ إلى روما مزدوجاً: عن طريق **الجندي والمعمر** . وهذا التغلغل السلمي هيأ بحق الغارات . فلو لا الدفاع عن الدانوب ، ولو لا زراعة الحقول الرومانية ، لما كان للغزو الأثر الذي كان له من امتزاج هذين العالمين : عالم روما وعالم البرابرة .

ولقد كان أدب الضيافة ينشط استقرار الجرمانيين على أرض الامبراطورية . فقد استقبل البرابرة اما بشكل انخراط في الجيش أو بشكل تعاقد للعمل .

وبصورة عامة كان هذان النشاطان يتمم أحدهما الآخر ، فبعد أن يقضي الجنود عدة سنوات في الجيش يعودون إلى الارض كمعمرين . ولم يكن هذا الاستخدام ليطبق على أفراد منعزلين بل على قبائل بكاملها ، كانت تأتي إلى أرض الامبراطورية وتضرب جذورها فيها . وبدفعة واحدة حلت المشكلتان : مشكلة الدفاع ومشكلة الزراعة في كل منطقة من المناطق ، وجرى توزيع الأراضي والحيوانات المنزلية والرقيق ، بشكل هادىء ، بين السكان القدامى والمهاجرين الجدد . وكانت أراضي الدولة تقوم بالنفقات الأساسية لمنح الامتيازات وتوزيع الحصص على الضيوف . ولقد اضطر كبار الملاكين إلى تضحية قسم كبير من أراضيهم في سبيل ضمان الأمن والحصول على الايدي العاملة . وإذا بدا لبرابرة آخرين أن يتقدموا معتدين على هذه الاراضي فان البرابرة الضامنين كانوا على استعداد لسفك دمائهم للحيلولة دون تقدم البرابرة الغازين .

وعلى هذا النحو اختلط الغزو بالضيافة وتم الاستعمار . ومن قبلت ضيافته أقام مع أهله وذويه . وهـذا النوع من الاستعمار يخالف الاستعمار الحديث . فبينا نجد المتمدنين يستعمرون البلاد الجديدة الناشئة . نرى استعمار العصر القديم ، عند زواله ، يظهر بمظهر مخالف ، أي أن الأقوام أو البلاد الناشئة تستعمر البلاد العريقة القديمة . وكما أن الاستعمار الأوربي يبدل البلاد المستعمرة فيما وراء البحار ، فقد كان استعمار البرابرة أرض الامبراطورية الرومانية ، في القرنين الرابع والخامس ، يبدل الغرب المتمدن .

وعن هذا الاستعمار أخذت ترتسم جرمنة الثغور . وهـذه الجرمنة عظيمة النتائج لأنها تسجل ختام العهد الامبراطوري . فقـد تألفت في ذلك الحين جيوش البرابرة . وكان الملك منهم يقوم مع شعبه بخدمة الامبراطورية ويرتبط معها بعقد . وقد شوهدت جنود من هذا النوع على الراين والدانوب .

وكانت القاب الشرف تغدق على زعماء القبائل ويمنحها البلاط الامبراطوري لمن أدى منهم خدمات عظيمة . ومن هؤلاء الزعماء : ميروفيه الفرنجي ، وستيليكون الفاندالي وريسيمر السويفي . وكانوا كلهم أنصاراً للجيش الروماني وموظفين في خدمة الامبراطورية .

ولم يتخل هؤلاء الجرمانيون ، الذين يقومون بتعهداتهم على هذا النحو ، عن جنسيتهم . فقد احتفظوا بنظمهم وعاداتهم وطبائعهم واعراف قبائلهم . وكان على رأس كل قبيلة ملك يخوله المحاربون السلطة والسيادة . فهو إذاً زعيم عسكري ويلقب بـ « أمير الأمراء » . ويساعد رؤساء العائلات بدورهم الأمراء والملك . وكان الملوك من الأسر التي يعرف عنها انها متحدرة من أصل إلهي . ويترتب على ذلك حق الدم بالسيادة ، ولكن هذا الحق لا يعني الوراثة ، لأن كل ذكر يجري في عروقه الدم الملكي يمكن أن يُسَوَّد . وكانت اقامة العدل حَسب قانون القبيلة ، وهو قانون غير مكتوب ويطبق بموجب شكليات ومراسم خاصة في المحكمة وبصورة علنية .

لقد كانت الحرب شغل الجرمانيين الشاغل وخاصة في عهد الغارات ، والخدمة العسكرية الاجبارية قاعدة عندهم . وعدا التجنيد الاجباري ، وجد لديهم نظام عرف باسم « نظام الرفقاء » ، وهو نظام عسكري يميز العالم الجرماني . فمن ذلك أن الزعيم اذا فكر بالقيام بحملة ، حضر إلى مجلس القبيلة ودعا الناس للحاق به . فمن قدم منهم نفسه اليه اعطاه عهده .

وقد كان هذا النظام عارضاً في زمن قيصر ، إلا أنه أصبح فيما بعد نظاماً دائماً . وكان ينضم إلى هؤلاء الرفقاء شباب أيضاً . وكان على كل محارب في هذه العصبة أن يحلف اليمين لزعيمه ، وأن يخلص في خدمته اخلاصاً مطلقاً . وعلى الزعيم أن يؤمن له الطعام وقسماً من الغنائم

والاسلاب . وقد يبلغ التضامن الناجم عن اليمين درجة تضطر المحارب الا يعيش بعد رئيسه إذا قتل في الحرب . وقد لعبت هذه العصابات دوراً عظيماً في الغارات .

ولم تكن هذه الغارات أو هجرات الشعوب ، حسب مفهوم الألمان ، لتمر دون أن تترك أثر الألم في البلاد التي تجتاحها . ولقد وصف لنا الكتاب المعاصرون الذين شهدوا هذه الحوادث ، وأوضحوا الذعر والخوف والرعب ، وما كان يتعرض له سكان الأرياف والمدن من أهوال . فهاهو ذا القديس جيروم يخبرنا عن أعمال الغارات وما تجره من خسائر بقوله : « كان المؤمنون يقتلون في الكنائس ، وكانت الأرامل القديسات والعذارى ممن وهبن أنفسهن للسيد المسيح في جملة الغنائم التي سلبتها هذه الوحوش المفترسة . لقد كان الأساقف يقادون أسرى ويقتلون ، والمذابح تهدم ، والشقاء يسود في كل مكان يمر منه البرابرة » .

وكان القديس أمبرواز يرى في البرابرة « حيوانات مغلقة عن كل عاطفة ، ولا تعرف إلا الخطف والسلب والفجور » .

ولم يكتم القديس جيروم ألمه عندما رأى روما تسلب وتحرق فقال : « ومن كان يظن أن روما الظافرة على العالم تنهار في يوم من الأيام » .

ومهما يكن ، فمن العدل الا نبالغ في قيمة هذه الأحكام ، ومن الخطل أن يقال ان الغارات ، وحتى في احرج أوقاتها ، كانت مصحوبة دوماً وفي كل مكان بالشدة والارهاق . وإذا كانت في بعض الأحيان فظة غاشمة ، فقد كانت في الغالب سلمية . وإذا شوهدت بعض الحوادث الفظيعة ، فقد كانت تنشأ عن المنازعات التي كانت تقوم في داخل الامبراطورية . ففي الحروب الأهلية التي تشن في سبيل الحصول على عرش الامبراطورية

كان المتنافسون يرمون البرابرة بعضهم ببعض ، فيلحق كل فريق الضرر بأراضي المتخاصمين ومدنهم . ولكن مثل هذه الأحوال كانت استثنائية . ويمكننا القول بصورة عامة ان البرابرة ليسوا متعصبين ولاهدامين . ولذا فان معظم المدن القديمة بقيت سالمة إلى ما بعد الغارات ، ولم تتضرر الأوابد إلا قليلاً . وإذا لم يبق أبنية امبراطورية فهذا لا يدل على أنها تهدمت أثناء الغارات اكثر مما تهدمت في العصور التي تلتها . والحقيقة ، التي يجب أن تقال ، هي أن أحجار هذه الأوابد قد استلت من مكانها في غضون العصر الوسيط لانشاء الدور والحصون والكنائس . كما القيت التماثيل في الأتن لصنع الكلس . وقد استعملت الكوليزة في روما وملعب نيم وغيرهما من مفاخر الأبنيـــة مقالع حجرية . ولذا يحسن الا يجعل الجرمن في القرن الرابع والخامس مسؤولين عن هذا التهديم ، كما يحسن إلا ينسب دوماً مثل هـذه الأعمال إلى بعض الحوادث الطبيعية كالزلازل أو الفيضانات وغيرها .

وإذا كان البرابرة يحترمون ، في الغالب ، السكان والآثار ، فهم يحترمون الامبراطورية دوماً ولا يحاولون تهديمها . وها هو ذا القديس أغسطينوس يحدثنا عن ذلك بقوله المحكم : « لقد ابتليت الامبراطورية ولكنها لم تتهدم » . وما من أحد كان يفكر بأن تبيد . لقد كانت فكرة الامبراطورية عامة شاملة ، ولا شيء أدل على ذلك من حشد برابرة الغرب ، عندما التفوا حول القائد آتسيوس ضد آتيلا ملك الهون . وحيثما وجـد الجرمانيون كانوا يدافعون عن الامبراطورية .

الهون . — لقد كان أصل الهون موضع جدل ونقاش وما زال مشكوكاً به . والمتعارف عليه أنهم اتراك — مغوليون . وسواء أكان العنصر الأصفر

عندهم أصلياً أم مكتسباً ، فسياؤهم ، كما يبدون ، تدل على أنهم مغوليون أكثر منهم أتراك . وقد استطاعوا أن يؤسسوا امبراطورية حقيقية في منغوليا الخارجية ، ويضعوا أيديهم على طرق الصحراء ، ويفرضوا احترامهم على الشعوب الآسيوية من تخوم كوريا إلى الحدود الغربية لتركستان الصينية . وقادتهم حملاتهم إلى سور الصين العظيم ، ولكن امبراطور الصين يو-تي صد هجماتهم واضطرهم إلى الفرار عام ١٢٨ قبل الميلاد . ولأسباب مازالت في معظمها مجهولة ، وجدت أقوام منهم في روسيا في العام ٣٦٣م على شواطىء بحر الخزر ، وأخذت تزاحم الآلن والغوط . ووصلت بخيولها إلى مياه الدانوب .

لقد كان هؤلاء **الأتراك** — **المنغوليون** فرساناً أشداء يمتطون جياداً صغيرة شبيهة بجياد القوزاك ، وكان الناس يتحدثون عنهم أحاديث عجيبة ، فيقال انهم يحفظون اللحم تحت سروج خيولهم ، وانهم هدامون يفخرون بأنهم يجعلون البـــلاد خراباً يباباً بعد مرورهم منها . ولكن جهودهم ينقصها الانسجام والوحدة ، فقد كانوا يؤلفون عصابات ويأتمرون بأمر زعمائهم . وأتيح لأحد زعمائهم ، روجيلا ، أن يحقق وحدة الهون ، ولا يعلم كيف كان ذلك ، ويوجد دولة ابتدائية في **بانونيا** . وفي عهد روجيلا هذا قام الهون بعدة حملات تارةً ضد الامبراطورية الشرقية ، وطوراً ضد شعوب جرمانيا . وقد خلدت ذكرى حروبهم الظافرة ضد أقوام البورغوند في الملحمة المساة **نيبيلونغن** التي يمتزج فيها العنصر التاريخي بالاسطورة . ومما يجدر ذكره أن فظاعة الهون كانت مضرب الأمثال .

لم يكن لروجيلا وارث منه ، فورثه ابنا أخيه موندزوك وهما **بليدا وآتيلا** . غير أن الأصغر آتيلا ، تخلص من أخيه بقتله وحكم وحده ابتداءً من عام ٤٤٥ م .

كان آتيلا شخصية فـــذة . فقد استطاع في بضعة أشهر أن يؤسس امبراطورية مترامية الاطراف معتمداً في عمله السياسي على الارهاب . ولا شك في أن الاسطورة أضافت إلى حقيقته أشياء كثيرة من نسج الخيال. فمن ذلك أن إله الهون الوحيد كان سيفاً مجرداً غرز فيالأرض ، وان فظاعة هذا الرجل ، جعلت الناس يطلقون عليه اسم «بلاء الرب». ومما يذكر عنه مراراً أن العشب لاينبت انـّى ضرب حافر جواده الأرض . ومهما يكن من أمر ، فان سيرة هـــذا الرجل المشؤوم قد أثرت في خيال الناس . وكانت طريقته في الحروب ابادة المغلوبين أوادخالهم في الجندية، وشعبه مجموعة عصابات لاهم لها إلا القتل والسلب والنهب والتخريب .

كان آتيلا يقيم العدل حيث يستقر به المقام، ويتخذ من هذا المقام عاصمته ، وهي أشبه ما تكون بمعسكر حربي تجتمع فيه سذاجة الملك القبلي مع شدة الوحشية في الحروب والحرص على حفظ حقوق الناس ، كما تتمثل فيه صفات الزعيم الحربي. فهو لايفهم شيئاً خارجاً عن الحرب، وقد شاد امبراطوريته بالسيف، وانهارت هذه الامبراطورية عنـدما كف هذا السيف عن البريق .

لقد كان موقع الهون، على الدانوب عام ٤٤٥م، يساعدهم علىأن يلقوا بأنفسهم نحو الشرق أو الغرب . وقـد اتخذ آتيلا وجهة الغرب وانهال عليه بضرباته . ويقالانالذريعة التي مهدت له هذه الفرصة هي أن الاميرة الرومانية هونوريا، أختالامبراطور فالانتينيان الثالث، أرسلت مع حاجبها خاتماً إلى آتيلا تطلب وده، وكانت تريد بذلك أنتثأر لنفسها، لأنها منعت من الزواج لأسباب سياسية ، وكاد آتيلا يعتقد بصدق هـــذه المغامرة وطلب يد هونوريا بعد أن مهد لهما اجتماع في مدينة رافينه . ومما يدل

على صحة هذا الحجة أن الهون اتجهوا نحو غاليا ولم يتجهوا نحو ايطاليا .

وتحرك جيش آتيلا برمته ، وكان عظيماً في أعين المعاصرين . ويقال ان عدد فرسانه ٦٠٠,٠٠٠ ، ولكن هـذا الرقم كان أكثر من الحقيقة بكثير . وأثار قرب الهون ذعراً عظيماً حتى جعل كل انسان همه أن ينجو بنفسه. وكانت الحرائق وأعمال القتل قائمة على طول الطريق الذي تمر فيه الغارة .

وليس بالسهل تعيين طريق « بلاء الرب » . وذلك لأن كثيراً من سير القديسين أظهرت ملك الهون في أمكنة لم يظهر بها في الحقيقـة ، وذلك بغية اشراك بطلها فيحادث الغارات . فهو لم يمر مثلاً من تريف وتونغر وآرّاس . وكما يحدثنا سيدوان ابولينير ، دخل هـذا البلاء بلاد غاليا عن طريق نهر الراين الاوسط ، واجتازه على قوارب صنعت من أشجار الغابة الهرسينية .

وبلغ الرعب في باريس أشده . فنصحت القديسة جونفيف ، وقـد ضخم مؤلفهـا الدور الذي لعبته ، الأهلين باللجوء إلى الصلاة والاعتصام في المدينة . فلم تصب باريس بأذى ببركة جونفيف ، التي أصبحت تلقب « ربة باريس » واندفع الهون حتى اورلئان ، بلد القديس اينيان .

ان الحادث الهام ، الذي يجب تسجيله ، هو أن الرومانيين والبرابرة الفوا كتلة واحـــدة أمام الخطر المشترك المداهم ، وتألف حلف ضد شعب الهون المتغطرس ، الذي أراد السيطرة على كل شيء . وقد لعب القائد آئسيوس دوراً هاماً في حسن تنظيم الجيش وقيادته .

وتحدثنا سيرة القديس اينيان أن الهون لم يدخلوا اورلئان بفضل وساطة القديس ، واضط آئسيوس الاتراك — المغوليين الى الانسحاب ،

بينما يلمح سيدوان ابو لينير بان واقعة حامية الوطيس وقعت تحت حصون المدينة وأجبرت الهون على التراجع والانطواء في اتجاه مدينة تروا . وبالقرب من هذه المدينة وقعت الواقعة الكبرى المعروفة في التاريخ باسم **واقعة « الحقول الكاتالونية »** عام ٤٥١ م . وغلب آتيلا على أمره ، ولكن خصومه كانوا في حالة اجهاد ايضاً فلم يحاولوا ملاحقته ، ونجت غاليا ، واستطاع المغلوب أن ينجو دون أن يصيبه اذى الغالب . وهلك آتيلا عام ٤٥٣ م بعد محاولة أراد بها الغارة على ايطاليا . وقد اثارت وراثته بعد وفاته حرباً داخلية جعلت فلول الهون غير قادرة على الهجوم والعدوان مرة أخرى .

كان من نتائج غارة الهون المباشرة ان القت الشعوب الجرمانية في غاليا وايطاليا . ولم يقف في سبيلهم اقل حاجز . وكان آئسيوس آخر عظماء الرومانيين ؛ وقد عجل مقتله بجرف الامبراطورية نحو الهاوية ، لاسيما وان الاباطرة كانوا يتوالون على الحكم اسماً لافعلاً . وكان رومولوس اوغستول آخرهم . وقد ثل عرشه أحد زعماء البرابرة اودوآكر ملك الهيرول وأصبح سيد ايطاليا الحقيقي ، وأرسل شارات الامبراطورية إلى زينون امبراطور الشرق القائم على عرش بيزنطية . وهكذا تم انقلاب اودوآكر عام ٤٧٦ م الذي يعتبر بداية للعصر الوسيط .

لم يكن اودوآكر بعمله هذا لينكر الامبراطورية ، بل على العكس ، لقد كان يعترف بها ، وقد كتب الى زينون : « ان الغرب ليس بحاجة إلى امبراطور خاص ، إن امبراطوراً واحداً يكفي للمنطقتين » ويريد بذلك الغرب والشرق . فلم يبق اذن سوى امبراطور واحد . ولكن الواقع الحقيقي كان وراء هذا القناع السطحي ، لأن سلطة زينون في الغرب كانت نظرية ، وليس لها اقل مفعول مادي . فمنذ ان زال الامبراطور في روما

أصبح البرابرة المعسكرون في النصف الغربي من رومانيا مستقلين ، أي ان كل ملك بربري أصبح سيداً في مملكته ، ولا أحد فوقه ، الا هذا الوهم الامبراطوري . وهكذا تداعت الوحدة الامبراطورية وحلت الدول محل الولايات القديمة . وهذا الحادث ينهي العالم القديم ويدشن العالم الجديد ، عالم العصر الوسيط .

الفصل الثاني

نتائج الغارات

بعد ان طغت أمواج الغارات الكبرى على الامبراطورية الغربية في القرن الخامس ، تبعتها امواج اخرى وغطت اوربة في القرون التي تلته . فمن ذلك ان **الآفار** ، وأصلهم من منشوريا ، نفذوا إلى اوربة في منتصف القرن السادس ، وتوصلوا إلى ما يقارب نهر الدانوب الادنى . **واللومبارديون** وهم جرمانيون شرقيون ، بقوا حيث هم عندما اندفع اخوانهم الغربيون على « رومانيا » . ولما هددهم الآفار بغزوهم تحركوا او غزوا بدورهم ايطاليا في العام ٥٦٨ م . وثم **السلافيون** . وأخيراً **النورمانديون والهونغاريون** في القرن التاسع والعاشر . ولقد كانت هذه الغارات تتوالى باستمرار . ولهذا السبب نرى ان المؤرخ لويس هالفن قد أطلق الوصف « بربري » على كامل العصر الذي يمتد من وفاة الامبراطور تيودوس إلى نهضة القرن الحادي عشر ، فضلاً عن ان وجهة نظره هذه تتسع حتى تشمل العالم كله بما فيه الفتح الاسلامي . غير اننا إذا اردنا ان نحدد آفاقنا ونقصرها على أوربة الغربية ، وجدنا في الرأي التقليدي روحاً من حقيقة ، وهو ان نهاية القرن الخامس للميلاد تسجل تاريخاً خاصاً ، لأنها تعتبر نقطة توقف موقت ، واكثر من نقطة توقف ، وذلك لأن مدّ الغارات تلاه جزر موقت . فقد قام، بعد كلوفيس مؤسس دولة الفرنجة ، **جوستنيان**

يحاول ارجاع امبراطورية الغرب ، ولكن محاولته هذه كانت وهماً ويوماً ليس له غد ؛ الا انها تدل ، على الأقل ، على ان قوى الهجوم ، في بداية القرن السادس ، قد اعتراها الاعياء والوهن ، وان اوربة شعرت بحاجة الى الانشاء والبناء .

ويتساءل الآن كيف كانت حالة أوربة في آخر القرن الخامس ؟ كانت ايطاليا في أيدي الاوستروغوط ؛ وشمال غاليا كله إلى نهر اللوار بيد كلوفيس ملك الفرنجة ، باستثناء كتلة الاموريك ، حيث حل بعض البروتون بعد أن غادروا الجزر البريطانية . واحتل الانغلو – ساكسون والجوت جنوب بريطانيا العظمى ، ولبث البروتون الباقون يدافعون عن جزيرتهم واعتصموا في بلاد الغال (ويلز) وكورنواي . أما الفيزيغوط فما زالوا سادة قسم كبير من غاليا ، أي في حوض اكيتانيا وسيبتانيا (وهي تقابل مايسمى اليوم بلاد البيرنة الشرقية واللانغدوك) وبروفانس . واقتطع البورغوند مملكة في منطقة الرون ، واحتل الآلامان هلفيسيا الرومانية أي مايسمى سويسرا اليوم . أما اسبانيا فكانت تابعة إلى الفيزيغوط ، ما عدا الشمال الغربي ، حيث أسس السويفيون مملكة ، ولبثوا فيها حتى الفتح العربي . وأخيراً مملكة الفاندال وتشمل شواطىء افريقية الشمالية .

لقد نبتت هذه الملكيات البربرية ، كالفطور ، على أرض الامبراطورية الغربية المنحلة . بيد انها كانت دولاً موقتة ولم تعمر طويلاً ، ومالبثت أن زالت الواحدة تلو الأخرى ، الا دولة واحدة وهي مملكة الفرنجة . فقد وقع ان أعتلى العرش فيها كلوفيس حوالي العام ٤٨١ ، بعد سقوط آخر امبراطور في الغرب ، وبدا أن دولة الفرنجة تتمم الامبراطورية . وقد ظهر ذلك واضحاً في امبراطورية شارلومان .

وربما يظن أن الأزمة ، التي سببتها الغارات البربرية في اوربة ، أدت إلى انحطاط يصعب علاجه . لاشيء من ذلك البتة . لأن هذه البربرية ، التي عمت ارجاء اوربة وبدت فاسدة في ظاهرها ، كانت تضم بذوراً خصبة . وستتحد هذه البذور مع تقاليد الماضي الروماني الباقية وروح المسيحية المجدد وتعمل عملها ببطء وتساعد على تشكيل حضارة العصر الوسيط المسيحية .

اثر البرابرة السياسي والاجتماعي . — لقد أقام البرابرة ممالكهم في الغرب قبل نهاية الغارات البربرية . وبعد ان زال آخر امبراطور روماني أصبحوا وحدهم سادة هذا الغرب ، فهل سيجعلون من النظم الرومانية صفحة بيضاء ويفرضون حضارتهم الخاصة كما فعلت روما في الماضي ، أو أنهم سيستعملون الأطلال الرومانية ويقيمون نفوذهم بالقوة .

لقد استهوت هذه القضية الاوروبيين منذ القرن الثامن عشر وانقسمت الأوساط العلمية مدة طويلة : فمن جهة : **الجرامنة** الذين يحيون البرابرة ويعتبرونهم مجددين للعالم الروماني المتداعي والآخذ بالانحطاط ، وباعثين لقوة وحرية الشعوب التي قهرها النظام الروماني . ومن جهة اخرى ، **الرومانسيون** الذين يبرهنون على أن البرابرة لم يغيروا الغرب في شيء لأن الطابع الروماني كان عميقاً . ولقد تعلق النزاع قبل كل شيء في المضمار السياسي وتفاقم بمعارضة القوميات وامتد إلى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والفني .

لقد ظفر البرابرة بالقوة على الرومانيين ، بيد أنهم كانوا يمثلون اقلية صغيرة بالنسبة إلى مجموع سكان الامبراطورية ، وربما كانوا بنسبة ٥٪ . وقد ظلوا في البدء مجمعين في بعض المناطق ، حتى أن كثيراً من البلاد كايطاليا واسبانيا وحتى غاليا لم تعرفهم . ثم إن اقامة هذه الأقلية التي

بدأت قبل القرن الخامس ، تمت بالتدريج ولم تكن كالاحتلال الصاعق الذي قام به العرب في افريقية واسبانيا .

وأخيراً ان الجرماني الذي احتل الامبراطورية الرومانية لم يكن معادياً لها ، بل دخلها مسالماً حتى أن الغوطي بصورة خاصة خضع لتأثير الحضارة الرومانية .

وبالرغم من هذه الشروط في الاقامة والاستقرار فان حظ الانصهار مسبقاً كان كثيراً ، لأن كل شيء يضع الغالب والمغلوب وجهاً لوجه في اللغة والدين ، والاريوسية و الوثنية ، والعرف والسلاح ، وخاصة الأنظمة السياسية والاجتماعية .

وبعد فهل يجب الكلام عن نظم سياسية عند البرابرة ؟

ان هـــذه النظم يمكن تلخيصها **بالملكية المطلقة** المعتمدة على القوة العسكرية . ولم يكن للأمراء ، مـلوك الشعب الفرنجي ، والغوطي والفاندالي الخ . . . اي **فكرة عن دولة** يعتبرون أنفسهم مسؤولين عنها . لقد كانوا ملاكاً لفتوحاتهم ويوزعونها بصورة عامة بين ورثتهم واولادهم . ثم إن فكرة استغلال ثرواتهم بصورة منظمة تغيب عنهم أيضاً : لقـد كانوا يعيشون على أرضهم في الدومين حتى ينفد احتياطهم ، ثم يبحثون عن عن موارد أخرى . وبلاطهم يتألف من الموالين ومن أقربائهم . وتنظيمهم العائلي بقي على حـاله كما كان قبل الغارات : « شراء » الزوجة ، حق التأديب الأبوي ، التضامن بين أعضاء الاسرة . الطلاق النادر ، التسري الكثير ، وعلى الأقل عنـد الملوك . والتنظيم القضائي يتصف عندهم بالدية . وهذا التنظيم السياسي والعائلي والحقوقي للغزاة كان بالنسبة للرومانيين عوداً إلى العصر البدائي .

ولكن الجرمان لم يحاولوا فرض هـذه النظم على السكان الأصليين في أوروبة . لقد كان البربري يرفض توحيداً لا يفهمه ، ولذا كان يسهر على أن يحتفظ كل فريق بتشريعه الخاص . فالفرنجي السالي يحاكم بموجب القانون السالي ، والبورغوندي حسب القانون البورغوندي ، وبالتالي الرومانيون حسب القانون الرومـاني . وهكذا كان النظام الحقوقي للقبيلة الأصلية مـع كل انسان منهم أو حيث يذهب ليقيم ، ومهما كان السيد الذي ينتسب اليه . وهـذا النظام المسمى « شخصية القوانـين » هو ولا شك بقية باقية من عصر وجدت فيه بعض الشعوب « متحدة » في الامبراطورية الرومـانية ، ومحتفظة بامتياز أنظمتها . ولما أصبحت سادة الامبراطورية ظلت تحافظ على هذه العادة ، وستبقى هذه التشريعات زمناً طويـلاً ، وعلى الاقل في غـاليا ، وستولد اعراف العصر الوسيط الكثيرة .

وبعد فهل هذان المجتمعان سيعيشان جنباً الى جنب دون أن يؤثر احدهما بالآخر بالتقابل ؟ ان ما قلناه يمكن أن يفهم منه ذلك ، ولكن تبني البربر للغة الرومانيين ودينهم مع المحافظة على النظم السابقة يجعل الانصهار ممكناً . وتبني الجرمن للغة اللاتينية يعتبر حادثاً تاريخياً لا يسعنا الا ان نسجله . فبينا نجد في الشرق ان البلغار والصرب والروس قد حافظوا على لغتهم ، نجـد ان الجرمن منذ القرن الخامس يحررون قوانينهم باللاتينية وبالتالي مراسيمهم ومراسلاتهم . وليس بالامكان أن نعلم مـا اذا سار المحاربون على سنن زعمائهـم . واذا حافظوا طويلاً على اللغـة الجرمـانية فقد اضطروا في جميع الأعمال المكتوبة أن يخضعوا للتعامل الجديد .

لقد تبنى الملوك البرابرة اللاتينية لغة ادارية وتكلموا بها وكتبوا بها أحياناً ، ولكنهم عملوا أكثر من ذلك للتقرب من السكان الرومانيين :

ففي تنظيم « بلاطاتهم » لم يستعملوا المفردات ، مثل عظمتكم ، وفعتكم ، المستعملة في البلاط الروماني فحسب بل انهم استعملوا الألبسة أيضاً . وبعضهم تخلوا عن جلود الحيوانات التي يلبسونها ، وعن الأسلحة البربرية ولبسوا البسة الأباطرة البيزنطيين . ولا شك في أنه يجب التمييز بين الفرنجة والغوط .

وسواءً أكان ذلك منهم عن كبرياء ، أو عن مكر أو عن اعجاب فالواقع حاصل ويتضح اذا عرفنا أن الأمراء البرابرة تركوا الأنظمة الرومانية على الحال التي وجدوها وجعلوا ارستقراطية الامبراطورية تشايع قضيتهم .

ومن الغريب حقاً أن يرى في غاليا وايطاليا وإفريقية واسبانيا ، التي تغيرت قليلاً ، جميع الاطر الادارية الامبراطورية : نفس الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، نفس المحاكم ، نفس النظم البلدية . وأكثر من ذلك ان البرابرة أخذوا عن الرومانيين نظام الكونت لأننا نجد في بداية القرن الخامس كونتاً رومانياً في مارسيليا وتريف . وهذه البقايا التي لا سبيل لنكرانها غدت حجج « **الرومانسيين** » وخاصة فوستل دو كولانج . ومن جهة أخرى كان من الواجب لتأمين سير هذه النظم ، ان يستدعى الذين شكلوا الطبقات الموجهة في الامبراطورية عبر الأجيال . وبسرعة قبلت الارستقراطية الرومانية ، في بعض الأحيان عن عطف ، وفي الغالب الأعم عن منفعة أن تخدم السادة الجدد . وهذا التقارب ، بين الطبقات الموجهة والغالبين ، حادث سياسي يشاهد في كل العهود ، ويساعد على صهر المجتمعين . وهكذا نرى ان الشيوخ الغاليين الرومانيين

قد دعموا الملك آلاريك، ولكن أولادهم انضموا للفرنجة . وقد اعترف مجلس الشيوخ الروماني تباعاً بـ أودوآكر وتيودوريك . ويمكن أن يشار الى أن هنالك بعض المقاومات . ولكن الارستقراطية الرومانية بصورة عامة سبقت البربر . فمن ذلك أنها أرسلت أبناءها لتثقفهم في بلاط الملك وبالتالي ليحصلوا على وظائف عسكرية وادارية . ومن المدرسة الميروفنجية خاصة تخرج القضاة المقرورن ، والكونتات ، والاساقفة الغاليون الرومانيون . وبالتالي ان الطبقتين الارستقراطيتين امتزجتا مع بعضها وألفتا طبقة نبيلة واحدة غنية بالاطيان ، محاربة ، جاهلة .

ولكن الصعب ولا شك هو التقارب بين الجزمن والشعوب الأصلية أي السكان المحليين . لقد عاش البرابرة زمناً طويلاً منعزلين ، ولكن الزمان ساعد على الاختلاط بطريق الزواج ، والسوق العسكري وبخاصة في غاليا واسبانيا . واذا خرجت افريقية الفاندالية وايطاليا عن هذاالتطور فذلك لأن هذين البلدين كانا رومانيين اكثر من غيرهما من جهة ، ومن جهة اخرى لأن البرابرة كانوا يقومون برد فعل ، لا سيما وأن دياناتهم غريبة عن دين الرومانيين ، ونستطيع أن نفرض بأن اعتناق الكاثوليكية ، من قبل هؤلاء المغيرين الوثنيين من كلوفيس وجماعته ، وآجلاً ، الامراء الانغلو - ساكسون او اعتناق الملوك الاريوسيين ، كالبورغوندي سيغيسموند أو الفيزيغوطي ريكاريد ، قد ساعد على صهر المجتمعين . ولقد كان عمل الاكليروس الكاثوليكي في هذا السبيل قطعياً حاسماً لما كان له من أهمية سياسية واجتماعية .

وهكذا فقد تشكل في الغرب الاوربي مجتمع جديد . وهو تركيب غير كامل ، وسيقدم للجرامنة والرومانسيين حججاً دائمة في النقاش والجدل. وهذا الذوبان الاجتماعي يختلف حسب الزمان والمكان ، فمن ذلك أن

المناطق النائية عن البحر المتوسط ، كالبلاد الانغلوساكسونية التي تورمنت قليلاً ، لم تعرف هـذا الصهر . وهنالك بلاد أخرى تورمنت كثيراً ، ولكنها ، لأسباب دينية ، نجت من هذا الحادث كافريقية الفاندالية وايطاليا الاستروغوطية . أما في الملكيات التي واتاها الحظ ان تدوم طويـلاً ، كمملكة الفرنجة والفيزيغوط فقد تم الامتزاج تدريجياً مع الزمن .

اثر البرابرة في الحياة الاقتصادية . — لقد كانت الفكرة السائدة ان انحلال الامبراطورية الرومانية والحضارة القديمة كان بسبب البرابرة . ان هذا الحكم مبالغ فيه . وقد خطأه المؤرخ البلجيـكي هنري بيرين . فهو لا يشك في أن العصر الوسيط قد أتى بشيء جديد ، كما لا يشك في أن عهداً حديثاً بدأ في تاريخ البشرية في هذا العصر. غير أنه يرى أن نقطة البدء يجب أن تتأخر الى عهـد الـكارولنجيين ، أي الى آخر القرن السابع . واذا بدت هذه النظرية متناقضة في الظاهر الا انجمهرة المؤرخين قد قبلوها بالاجماع . يقول بيرين ان ما ميز العالم القديم طابعه الخاص وهو طابع البحر المتوسط لأن حضارته كانت متمركزة على هذا البحر . وان عظمة روما ترجع إلى انها عرفت كيف تجعل من هذا البحر حوضاً داخلياً في امبراطوريتها . ولقد دام العالم القديم بـدوام اقتصاد البحر المتوسط . ودلل المؤرخ على ان الغارات لم توقف هـذا الاقتصاد رغم الاضطرابات التي احدثتها في حيـاة الامبراطورية . ولكن الضربة القاصمة كانت على يـد الفتح العربي . واذن فليس المسؤول الحقيقي عن سقوط الحضارة القديمة الآريك أو آتيلا أو اودوآكر أو كلوفيس بل العرب المسلمين ، لأنهم استطاعوا إغلاق البحر المتوسط في وجه المسيحيين . وهذا الاغلاق جر على اقتصاد العالم الغربي نتائج عديدة ، فمن ذلك : انهاء التجارة والمبادلات مع الشرق ، وخراب الحياة العمرانية التي تغذيها

هذه المبادلات ، والزام الغرب بان يعيش في اكتفائيه تامة ، ونشوء اقتصاد زراعي ، اقتصاد مغلق يقتصر فيه المرء على موارده الخاصة ونتاج اراضيه ، وفي مثل هذه الحالة تصبح المبادلات والاسواق نادرة .

لم يكن لدى بيرين وثائق اقتصادية كافية ليثبت فيها صحة نظريته ، غير أنه جمع عدة علائم ليدلل بها على أن هذا التحول قد وقع ابان الفتح العربي ولم يعمل عمله إلا في بداية العصر الكارولنجي . وهذه العلائم هي : زوال النقود الذهبية بعد أن كانت تصنع بكثرة في عهد الميروفنجيين ، وانقطاع البردي المستورد من مصر ابتداءً من القرن السابع ، وعدم استعماله من قبل النساخين في غاليا ، واستبدالهم إياه برق الحيوانات ، واضاءة الكنائس بالشموع بعد ان كانت تضاء بزيت الزيتون، إنتاج البحر المتوسط الذي يؤتى به من افريقية الشمالية .

وحسب هذه النظرية يرجع بدء العصر الوسيط إلى بعد قرنين . ولذا فإن عصر الميروفنجيين لا يبدو كمقدمة بل كخاتمة مشؤومة للعالم القديم الذي يتطاول على هذا النحو ويجعل الغارات الكبرى بمثابة مرحلة من مراحل التاريخ الروماني .

والطريف في نظرية بيرين لا لأنها تعطي حلا جديداً لقضية العصر الوسيط ، بل لأنها أدت بالمؤرخين الذين أتوا بعد بيرين أن ينظروا إلى هذا العصر من الماضي البشري بعين جديدة ونور جديد ، وهو نور التوسع الاقتصادي . واعادة النظر في هذه القضية على ضوء الافكار الجديدة التي اوحى بها بيرين انما هو عمل ضروري إذا أريد بيان الدور الذي لعبته الغارات الكبرى في تحول العالم القديم بضبط ودقه دون افراط أو تفريط . لقد كان للحضارة القديمة طابع عمراني وصناعي وتجاري . وهذه

الحضارة ، التي تفتحت في القرن الثاني بعد المسيح في عهد الامبراطورية العليا ، كانت في الواقع حضارة شرقية . ففي اغريقية وايونيا ومصر ازدهرت المدن ، وتوطدت هذه الحضارة بفضل الملكيات الملنستية . ثم قلدت روما هذه الملكيات بعد فتوحها واوجدت فن العمران المدني في الغرب وحولت قراه البدائية في ايطاليا وغاليا واسبانيا إلى مدن غنية مأهولة بالسكان . كان هذا الجهد عظيماً ولكنه اصطناعي وعيبه انه كان متأخراً ومنصباً على توسيع العمران المدني . وهذا الرفاه الاقتصادي في الغرب لم يعش بعد الظروف الاستثنائية التي تمتعت بها الامبراطورية الرومانية في ظل الاباطرة الانطونيين (من ٢٩٦ — ١٩٢ م) . فعندما زالت هذه الظروف السعيدة في القرن الثالث للميلاد ، حل الانحطاط سريعاً وبدا التباين بين الغرب الآخذ بالافول والشرق الذي ما زال محافظاً على اقتصاده العمراني التقليدي القديم منذ قرون عديدة .

وفي الحقيقة ان الاختلاف بين الشرق والغرب كان قبل الفتح الاسلامي وقبل الغارات الكبرى . والعوائق التي وضعها الفتح الاسلامي في طريق الملاحة في البحر المتوسط لم تكن الا وقتية ، كما لم يكن لها تلك النتائج التي استخلصها بيرين . وهي لم تزعزع اقتصاد العالم الغربي لو لم يكن هذا الاقتصاد ملحقاً بالشرق منذ عصور مديدة . لأن مطاليب السكان المدنيين في ايطاليا وغاليا وضرورة تموينهم بالحبوب لم تكن لتتأمن الا باستيرادها من آسيا ومصر وافريقية الشمالية . كما أن روما كانت مدينة طفيلية لا تستطيع أن تعيش على مواردها الخاصة وموارد البلاد المجاورة لها التي حاصرها الفتح الإسلامي وحكم على اوربة الغربية بالانطواء على نفسها وجعلها تعتمد على اقتصادها الزراعي . ولقد أدى انحطاطها وعدم قدرتها على الاستغناء عن باقي الامبراطورية إلى السقوط الذي وصفه بيرين .

ولقد توقع اباطرة القرن الرابع هذا الخطر . إن توسع نفوذ الدولة بأخذ كل شيء على عاتقها كانت له فوائده من الناحية السياسية ، ولكنه ادى بالمقابل إلى تفاقم الازمة الاقتصادية . فقد كانت الضرائب باهظة ، حتى أن الاغنياء هجروا المدن ، وتهدمت الطبقات الوسطى . وقامت الثورات وحركات العصيان بسبب التكاليف الساحقة التي تثقل كاهل صغار الناس .

كذلك عدم الأمن الناجم عن أعمال السلب كما هو ناجم عن الغارات الاولى جعل المواصلات الداخلية خطرة وشل حركة التجارة . وأصيبت على هذا النحو حياة المدن بفقر دم شديد أدى بها إلى الاعياء والتقلص والانطواء .

ومن علائم هذا الانحطاط سير الذهب في اتجاه الشرق واستيراد الغرب دون مقابل يعوض ما فاته من معدن ثمين . لقد لوحظ ذلك في آخر القرن الرابع للميلاد وسجل سياك ، محافظ روما ، ندرة الذهب في احدى رسائله . ولم تكن التدابير التي اتخذها الاباطرة ناجعة الا قليلاً . حتى أن التدابير ، التي اتخذت في القرن الثالث لتخفيض قيمة النقد المتداول ، أدت إلى ارتفاع في الأسعار كما تؤدي عادة تدابير التضخم النقدي . ولقد حاول ديوقليسين عبثاً ايقاف هذا التيار الجارف في مرسومه الشهير (المرسوم الاعظم) . واتخذت تدابير أخرى لتأمين التموين بالمواد الغذائية الضرورية . ونظمت صناعة الجبازة بأن حرم على من يتعاطونها وعلى اعقابهم أن يهجروها ، ومثل ذلك على الأصناف الأخرى كصنف الملاحين . وكان من هذه التدابير أن كبلت أيدي الأصناف في صناعاتها . وفي كل ذلك دليل على اقتصاد متعب عاجز عن أن ينجو بوسائله الخاصة وحدها .

أما الغارات الجرمانية فلم تأت بتغير ، ولم تزد في تفاقم الوضع أو تحسنه . وقد استولى ملوك البرابرة على كنوز الامبراطورية التي

اكتشفوها أثناء فتوحاتهم في مدن الامبراطورية وواظبوا على ضرب النقود الذهبية . وفي الفوضى ، التي تلت سقوط الامبراطورية ، خرج كثير من ضاربي النقود الامبراطورية عن السلطة المركزية ، ويدل على ذلك ما وجد من نقود ذهبية لاتحمل إلا اسم ضاربها دون اسم الملك .

وهنالك وقائع أخرى تدل على أن المعاملات التجارية مع الشرق ما زالت باقية بعد الغارات ، كما في السابق ، وكانت تجري على أيدي التجار السوريين واليهود . وعلاقات المملكة الفرنجية في الغرب الأوربي كانت تتم بواسطة ميناء مرسيليا . ومن الممكن ذكر عدة أدلة تبرهن على رغبة الملوك الميروفنجيين ببقاء العلاقات التقليدية مع الامبراطورية الشرقية .

وقد يشكو كثير من الباحثين من قلة الشواهد والوثائق التي تدل هذه العلاقات . ولكن هذه القلة لها معناها : فهي تبرهن على أن ملوك البرابرة ، الذين اقاموا في غاليا ، لم يعملوا شيئاً في حث النشاط الاقتصادي في البلاد ، وان محافظتهم التقليدية أو أنانيتهم جعلتهم يطيلون النزاع والاحتضار لحالة لهم فيها فائدة .

وكذا ايطاليا الاوستروغوطية فقد حافظت أيضاً على تقاليد الامبراطوريه الراحلة وما زالت علاقاتها التجارية مستمرة مع بيزنطة وتدل على ذلك رسائل الملك تيودوريك الكبير التي حررها كاسيودور . وفي هذه الرسائل يشكو الملك من قلة السفن التي تحمل إلى ايطاليا المواد الغذائية والسلع التي هي بحاجة اليها ، ويرى أن تبقى التجارة نشيطة والا يعيقها في ذلك ضرائب أو رسوم جمركية .

وإذا بقي البرابرة محافظين على عادات الامبراطورية القديمة ولم يتحول البناء الاقتصادي في اوربة الغربية بسبب الغارات الكبرى ، فان هذه

الهزة العنيفة قد زعزعت مع ذلك كيانها الهرم الاشل المزيل . إن غزو البرابرة المباشر أو تصادمهم أدى إلى تبدلات في الحياة المدنية والحياة القروية . ولقد كانت هذه التبدلات بطيئة ولا يشعر بها إلا انها كانت عميقة . وعندما جاءت الغارات العربية بدورها لتجرف العالم القديم قام اقتصاد جديد في أوربة الغربية وهو اقتصاد العصر الوسيط ، ولم يحدث فجأة . بل ان الارض التي أنبتته كانت مهيأة لقبوله منذ أمد بعيد .

كان العمران المدني من أعظم مهام الأباطرة في القرنين الاول والثاني، وكانت ثروة المدن دليلاً واضحاً على الرفاه في عهد الامبراطورية العليا . ولقد تمتعت هذه المدن بحرية ساعدتها على الاتساع والنمو ، وذلك بفضل الأمن الذي ساد فيها آنذاك . وسيماؤها الساحرة ناجمة عن الآثار العامة الكثيرة فيها من أقواس الظفر والمعابد والمدرجات والمسارح والحمامات والقصور التي تسكنها الارستقراطية المحلية . وكانت هذه القصور تبنى غالباً في أطراف المدن . ومن الصعب ان نقدر عدد سكان هذه المدن . ولا يمكننا أن نتخذ لذلك قاعدة من عظمة المسارح أو الملاعب ، لأن الذين شادوا هذه الملاعب أو المسارح لم يكونوا مسوقين بدافع نفعي ، بل كان همهم رفع شأن الشعب الروماني وارضاء كبرياء السكان . ولذا يجب الا نضع فرضيات ديموغرافية من هذا النوع الا بحذر شديد وحيطة تامة ، وذلك لأن معظم مدن اوربة الغربية وخاصة مدن غاليا لم تصل إلى درجة العظمة إلا في وقت متأخر . إن عدد سكان هذه المدن يجب الا يتجاوز ما يقارب عشرة آلاف نسمة بالرغم من وجود مدرجات وملاعب مثل مدرج نيم أو آرل ، أو سنت ، التي يمكن أن يستوعب الواحد منها ٢٤٠٠٠ نظار فأكثر . أما روما فكان رقم سكانها مساوياً لسكان أكبر مدن الشرق . ويبدو أن سكانها في القرن الثالث كانوا ٤٠٠٠٠٠ نسمة.

وكان هؤلاء السكان وبالاً عليها لأنهم ساعدوا على افقار الامبراطورية الغربية .

وهنالك صفة أخرى لمدن الامبراطورية ـ العليا ، وهي أنها كانت أوطاناً صغيرة مستقلة استقلالاً ذاتياً أو بشكل مستعمرات تدار بحرية تحت رعاية الامبراطور . وكان السكان يفخرون بمدينتهم ، وقد ظهر هذا الفخر في كثير من النقوش . وكان كبار الأغنياء يبذلون المال بسخاء زائد في تزيين هذه المدن .

غير أن الانحطاط بدأ بعد عهد الأنطونيين ، وكان القرن الثالث شؤماً على العمران المدني ويحمل البرابرة قسماً من المسؤولية في هذا الانحطاط . وذلك لأن الذعر الذي سببته الغارات الأولى في عام ٢٥٧ و ٢٧٥ دفع الغاليين — الرومانيين إلى إحاطة المدن بأسوار بعد أن كانت مفتوحة . وقد بدل بناء هذه الأسوار منظر المدن . فبعد أن كانت آخذة بالإتساع في الامبراطورية العليا إذا بها تتقلص الآن . وحصر المدن على هذا الشكل أدى بالكثير منها إلى تضحية قسم من آثارها . وفي كثير من المدن بقي المسرح والملعب خارج السور وأصاب مثل ذلك « الفيللايات » المبنية في الأحياء الجميلة . ولذا أصبح منظر المدن حزيناً وتألمت الحياة الداخلية في المدن من هذا التحول .

لهذا السبب هجرت الاوستقراطية المحلية المدن . وهنالك سبب آخر ساعد على الاسراع بهذه الهجرة : ففي أوقات الرفاه والخصب حمت الحرية ، التي كان عليها الانطونيون ، المدن وعملت على نهضة الحياة البلدية فيها . غير أن الوضع قد تبدل في عهد السيفيريين لأن الأباطرة قلقوا من اسراف البلديات وبدأوا يطبقون رقابة شديدة عليها وما لبثت هذه الرقابة أن

تحولت ، مع الزمن ، الى وصاية ضيقة . فقد عين لكل مدينة عامل امبراطوري وأصبح هذا سيدها الحقيقي بينا جُرِّد مجلس الشيوخ المحلي والحكام البلديين شيئاً فشيئاً من امتيازاتهم وسلطانهم ولم يبق لهم سوى توزيع الضرائب بين المواطنين وفرضها عليهم .

ونتيجة لهذا الانحطاط هجرت الارستقراطيـــة الوظائف وكفت عن الاسهام في ادارة المدينة وانزوت في أراضيها . ومن الملاحظ البديهي في أوقات السلام والاستقرار والرفاه والخصب أن المدن تستهوي السكان وتجذبهم اليها، وأن جميع الاحصاءات تبرهن على ان السكان المدنيين في الأوقات العادية يزدادون بانتظام على حساب السكان الريفيين . ولكن إذا حـــل ظرف مليء بالاضطرابات والفوضى وحصل اختلال اقتصادي كحدوث قحط أو عوز أو حدوث تقنين وتقتير ، فإن الأرض تستعيد عزها وتبدو ، كما هي ، المغذية الحقيقية والمجهزة الأساسية بالخيرات المادية . وتحسن العودة في مثل هذه الأحوال الى الأرض . ويقوم بهذه المحاولة في أول الأمر الأغنياء لأن طبيعة حياتهم لاتربطهم بالمدينة . وعلى هذا النحو غدت الارستقراطية في القرن الرابع والخامس ملاكة للأراضي .

وتحولت سيماء المدن الداخلية اثر هجرة هؤلاء الأقوياء . يضاف الى ذلك ان الاصلاح العسكري ، الذي قام به الامبراطور قسطنطين ، دحر الجنود البرابرة الذين كانوا يحمون الحـدود . وأصبحت المدن الهادئـة حاميات كالمدن التي في شمال غاليا . ووجود هؤلاء الجنود البرابرة المقيمين في المدن والضواحي ، ووجود زعمائهم ورؤسائهم الذين أصبحوا مع الزمن سادة المدن الحقيقين ، إن كل ذلك أفسد طباعها التقليدية . ولكن هـــذا الطابع العسكري وحده لم يؤثر في المدن ذلك التأثير العميق بل ان الكنيسة

ايضاً طبعت المدن بطابعها الخاص ، وبشكل مغاير ودائم . وقد بدأت سيطرة الكنيسة في عصر الغارات الكبرى . ويبـــدو أن الطوائف المسيحية القديمة تشكلت في خارج المدن ، وأرادت أن تكون مقبرتها بجانب كنيستها اذ كان يحظر تكفين الأجسام في داخل الكتل العمرانية . وعلى العكس ، نرى ان الكاتدرائيات الأولى قد شيدت في داخـل الأسوار . وفي هذا مايدل على أن هذه الكنائس لم تبن إلا بعـد الانتهاء من بناء الحصون والاحساس بخطر الغارات . وبينا كانت الحياة البلدية في حالة افـــول وتغادر الارستقراطية المدن ، كانت هذه المدن تستقبل العبادة الجديدة دون أن تشك في ان النهضة الدينية ستكون باعثـــاً على العمران المدني . ثم ان الدور الذي لعبه بعض الاساقفة أثناء حملات آتيلا يبرهن على انهم كانوا حماة المدن . ولعلنا نذكر دور القديس اينيان في أورلئان ودور القديس ليون في روما . وبعد أن رأى الرومانيون ان اباطرتهم قد تخلوا عنهم ، التمسوا ملاذاً يدافع عن مصالحهم ضد الهون . وقد أفادت الغارات الكبرى البابوية لأن البابا في مثل هذه الأيام العصيبة قام مقام الامبراطور في الدفاع عن المدينة الخالدة . وفي عهد القديس ليون يبتدىء دور روما البابوي . وقد حذا أكثر الاساقفـــة حذو البابا في الدفاع عن مدنهم .

وساعدت الغارات الكبرى على الاسراع بحركة الانحطاط المدنية التي بدأت في القرن الثالث ، وأهملت الطرق شيئاً فشيئاً ، وهجرت الاقنية. ونلاحظ خلال بعض النصوص أن السوريـين واليهود استمروا في تعاطي تجارتهم في باريس واورلئان وبوردو ومارسيليا . وهـذه الأمثلة تدل على على أن نظام الغرب الاقتصادي لم يتزعزع بمجيء الغزاة ، ولكن النشاط

الاقتصادي قد تباطأ شيئاً فشيئاً . وقد ظهر هذا الفساد قبل الفتح العربي الذي ضرب الاقتصاد القديم ضربته الحاسمة .

ولقد كان أثر الجرمانيين في الحياة الزراعية عميقاً . ولكن هذا الأثر يصعب الحصول عليه . وتشكل المنظر الريفي في أوربة الغربية يستهوي العلماء المعاصرين . ولكن القضايا التي تثيرها هذه الدراسة لم تجد بعد حلاً قاطعاً ، وسبب ذلك أن الوثائق لاتلقي عليها إلا نوراً ضئيلاً . ولذا تجب الاستعانة بعلم الآثار واللغة وأسماء المدن وطوبوغرافيا الأرض .

منذ آخر القرن الرابع ، وقبل أن تتجزأ امبراطورية الغرب ، كان نظام الأراضي السائد نظام الملكية الكبرى . ولكن كان يوجد إلى جنبها قرى حرة يسكنها صغار الملاكين . ومما يجدر ذكره أن هؤلاء الملاكين قد نالهم الشقاء كما نال سواد المدن أثناء الغارات واضطروا إلى الاحتماء برعاية أغنياء الملاكين الذين كانوا بجوارهم . وكان بنتيجة هذه الضرورة القاسية أن كثيراً من الملاكين المستقلين الصغار قد ضحوا بحريتهم وادخلت اراضيهم الصغيرة في الفيللايات المجاورة وردوا إلى شروط المستعمرين .

وهنالك ملاحظة تدلنا كيف أن الحقول الصغيرة قد ابتلعتها الفيللايات المجاورة بسهولة : لقد عرفت الامبراطورية الدنيا الملكية الكبرى وجهلت الاستثمار الكبير . كانت الفيللا مقسمة إلى قسمين : **الاول** للسيد الملاك الكبير ويستغله مباشرة لاستعماله الشخصي ؛ والثاني أوسع بكثير من الأول ويحتوي على قطع صغيرة تكفي الواحدة لاعالة اسرة واحدة. وكان المستعمرون الذين يفلحون هـــذه الأراضي الصغيرة يدفعون إلى الملاك اتاوات نقداً ، وغالبـــاً محاصيل طبيعية ، ويؤدون إليه خدمة أيام في أرضه الخاصة . وهذا النظام الداخلي يدفع الملاكين الكبار إلى

زيادة عدد المستعملين للأراضي الصغيرة في وقت كان الرق في حالة تراجع والحاجة إلى الأيدي العاملة ضرورية . ولذا فان مصلحة الملاكين الكبار أن يجلبوا الملاكين الصغار إليهم ليستعمروهم . وكان لكل واحد منهم أرض ومسكن داخل الفيللا . وكان الملاك الصغير يشتري أمنه باستقلاله لأن المستعمر لم يكن إلا نصف حر . ولكن شروطه المادية لم تتبدل لأنه مازال يستثمر أرضه القديمة ولايمنعه نظام الاستعمار من نقلها إلى أولاده . ولكن لا يبعد ان يكون قد تعلق بالأرض منذ أن دخلت أرضه في الفيللا .

وبعد فهل أدى مجيء البرابرة الى تغير عميق في الحياة الريفية وشروط الأرض ؟ ان استعمار الأرض بطريق الضيافة لم يكن له سوى تأثير سطحي . ولكن عندما أصبح ملوك الفرنجة سادة غاليا ، احتكروا أملاك الامبراطورية ، وقد كان الاباطرة قبلهم يعهدون باستثمارها الى منتفعين. ولا نعلم إلا شيئاً قليلاً عن النظام الذي تخضع له هذه الأراضي . بيد أن الفرنجة الذين وضعوا ايديهم على الأموال العامة اهملوها حتى هجر فيها كثير من الزراعات واتسعت الاراضي البور ، وزاد ملوك البرابرة فيها اراضي الصيد .

وفي آخر القرن الثالث تبدل منظر الأرياف ، وغير عدم الأمن العام سيماءها ، كما غيرت المدينة سيماءها أيضاً . وبينا أخذت هذه المدن تشد قوتها أخذ سكان القرى يتجمعون خوفاً من الغزاة . ولايضاح هذا التحول الذي جرى في الأرياف يجب ملاحظة عادات هؤلاء الغزاة . فقد أتى الجرمن والفرنجة والآلامان وغيرهم ، للمناطق التي تكاثفت فيها هجرتهم ، بعادات تخالف عادات اللاتين والغاليين ـ الرومانيين . فقسمت الأراضي إلى قطع

ضيقة وطويلة . وأدى هذا التقسيم الى بعثرة الأراضي التابعة لعائلة واحدة، وسهل فقدان الحواجز سير القطعان على الاراضي المزروعة بعد الحصاد وعلى الأراضي البور ، وفرضت الزراعة على ثلاث سنوات بصورة دورية على الفلاحين المقيمين في قسم خاص وحدهم وظلت قاعدة . كما أن احياء الأرض عن طريق احراق الأعشاب بالنار وامتداد البقع الجرداء في الغابات يذكر ان بالتعامل القديم . ويجب ان نشير ايضاًالى أن اختراع الطاحونة المائية في ذلك العهد إنما يرجع إلى الرهبان الفلاحين اكثر مما ينسب الى المغيرين الجرمانيين . وفي كل ذلك استمرار للحياة السابقة للغارات .

نتائج الغارات الدينية والثقافية .— لاشك ان الغارات البربرية الكبرى احدثت تغيراً في الحياة السياسية والاقتصادية وإنا لنتساءل بعد ، ما إذا كانت هذه الهزة قد هدمت الحضارة نفسها وعن مبلغ الأثر الذي تركته في الحياة الدينية والفكرية والمعنوية . فلقد حدث أن البرابرة أغاروا على الامبراطورية في القرن الذي ظفرت فيه المسيحية أي في العصر الذي وسعت الكنيسة فتوحاتها وكثر اتباعها وثبتت دعائمها ونظامها ومذهبها . ان وقوع هذين الحادثين معاً ضخم بنتائجه ، عظيم في تأثيره . فقد أدى بالمغيرين أن يؤثروا في الديانة المسيحية تأثيراً من الصعب تعريفه ونكرانه. وهذا التأثير عميق حتى أن الحس السليم يقبله لأنه ناجم عن احتكاك يومي بين الكنيسة والدول الناشئة التي قامت على انقاض الامبراطورية الغربية . ان نفسية البربري المقيم على ارض الامبراطورية تختلف مثلاً عن نفسية الغالي — الروماني وليدة العصور العريقة في الحضارة . ومما لاشك فيه ان الكنيسة كانت تحرص على التمسك بالتقاليد الرومانية وتريد حشر نفسها في دوائر الامبراطورية ، وعلى تبني اللغة اللاتينية وبقائها امينة وفية للثقافة الاتباعية القديمة ، ولكنها مادامت تنشر مذهبها بين البرابرة وتسعى لتمثلهم

فهي لاتستطيع أن تتخلص من تأثيرهم . ولكن من الصعب الكشف عن حقيقة هذا التأثير .

ومن جهة ثانيـة ، ان مقدرات المغيرين كان يسيرها وضعهم الديني . وان من المشاكل الخطيرة التي يثيرها تاريخ الغارات السقوط المفاجىء الذي مني به كثير من الملكيات البربرية التي نشأت في القرن الخامس مثل دولة البورغوند التي الحقها الفرنجة عام ٥٣٤ ، ومملكة الفاندال في افريقية الشمالية والمملكة الاوستروغوطية في ايطاليا اللتين قوض دعائمها دون اشفاق الامبراطور جوستنيان بعد سنين ، وكذا الانكسار الذي فرضه كلوفيس عام ٥٠٧ على الفيزيغوط الذين كان يظن بأنهم سيخلفون الرومانيـين ، ولكنهم لم يستطيعوا الا بمشقة زائدة أن يحتفظوا بكيانهم في اسبانيا خلال قرنين . وهذه الأمم التي سقطت في غضون القرن السادس تتصف بصفة واحدة وهي انها اريوسية المذهب أي انها تنكر وحدة جوهر الشخصيات الثلاث في الثالوث الأقدس وبالتالي الوهية السيد المسيح . ويستثنى من هذه الشعوب شعب واحد وهو الشعب الفرنجي الذي استطاع أن ينهض بسرعة في اوائل هذا القرن . وقد رافق هذا النهوض اعتناق ملكه كلوفيس الديانة المسيحية الكاثوليكية .

ولنر الآن كيف اعتنقت هذه الأمم البربرية المسيحية ؟

كان الغوط أول من اعتنق الديانة المسيحية . وقد استقروا حوالي منتصف القرن الثالث في ولاية داسيا الرومانية التي تخلت عنها الامبراطورية ولكنها احتفظت بتقاليدها اللاتينية وما زال الناس حتى يومنا هذا يتكلمون باللغة الرومانية وهي لغة رومانيا اليوم المشتقة من اللاتينية . وقد اتى إليها المبشرون ونشروا فيهـا الديانة المسيحية . وكان للكنيسة الغوطية شهداؤها وأشهرهم القديس سابا الذي اضطهده الملك آثاناريك واغرقه عام

٣٧٢ لأنـــه رفض ان يأكل لحم الأضاحي . وكان القديس سابا كاثوليكياً قحاً . غير ان الأسقف اولفيلا الفيزيغوطي (٣١١ — ٣٨٣م) دعا مواطنيه في آخر القرن الرابع إلى اعتناق الهرطقة الاريوسية التي ابتدعها الكاهن اريوس الاسكندري (حول ٢٥٦ — ٣٢١ م) .

وقد نسج الجرمان الشرقيون على منوال الفيزيغوط (غوط الغرب) واعتنقوا الاريوسية . ونقل الفيزيغوط الاريوسية إلى الاستروغوط (غوط الشرق) ، ثم اعتنقها بالتوالي الجبيديون والفـاندال والروغ والآلامان والتورنجيون واللومبارديون . وساعد تماس هذه الأمم البربرية واحتكاكها مع بعض على نجاح هذه الهرطقة . بيد ان التشريع الامبراطوري طاردها فأفل نجمها في رومانيا لولا ان واتتها ظروف سعيدة وأسباب عميقـة فجعلتها تتقدم بسرعة . ومن هذه الأسباب ترجمة اولفيلا الكتاب المقدس الى اللغة الغوطية . وقد كان لهذه الترجمة من التأثير ما كان لترجمة لوثير في القرن السادس عشر ، لأن غاية الجهدين واحدة وهي جعل النصوص الأساسية للمذهب المسيحي في متناول العامة التي تجهل الثقافة الاغريقية — اللاتينية . يضـــاف إلى ذلك أن مفهوم الثالوث ومذهب الكاثوليكية المسيحي قد بحث فيها وهيأهما علماء اللاهوت الهلنيون الذين ثقفوا الافلاطونية الحديثة . ومثل هذه المفاهيم الدقيقة تخفى ولا شك على ادمغـة البرابرة التي لاتستطيـع استيعاب هذه الأمور الفلسفية وفهمها . ولهذا يمكن القول ان الاريوسية جذبت البرابرة اليهـا لسهوله تصويرها الآله تصويراً قريبـاً من افهامهم .

واعتناق المذهب الاريوسي كان عظيم النتائج لا من الناحية الدينية فحسب ، بل من الناحية السياسية أيضاً فقد رأينا أن تمثيل البرابرة في

الامبراطورية ، لاقى بعض المقاومة في منتصف القرن الخامس .والشيء الثابت أن كاثوليكيي الامبراطورية لم يسيئوا الظن بالبرابرة لأنهم اعتنقوا الأريوسية بل لأنهم يعتبرونهم متوحشين . وقد وصفهم القديس جيروم بأنهم « حيوانات متوحشة » . ولم يكن حكم الشاعر المسيحي برودانس بأخف منه فقد قال فيهم :

« العالم البربري بعيد عن العالم الروماني بعد ذوات الأربع عن ذوات القدمين والعجماء عن المخلوق الناطق » . وما هـــذه الأحكام الا نتيجة لسورة الغضب التي سببتها فظاظة الغزو والغارة . ولكنها لم تمنع التمثيل من أن يعمل عمله حيث استقر البرابرة . غير أن الجرمانيين باعتناقهم الاريوسية وضعوا حائلاً حقيقياً بينهم وبين رومانيا . **فقد بدأ يرتسم شكل جديد للوطنية الرومانية امتزجت فيه فكرة الامبراطورية وفكرة الكاثوليكية معاً** . وهذا الشعور حال دون انصهار العناصر الاصلية والبربرية في الدول الجرمانية التي نشأت عن انحلال الامبراطورية الغربية . وعبثاً حاول تيؤدوريك في ايطاليا ان يطبق التسامح في قسم كبير من حكمه . ولقد قال في هذا الشأن : « اننا لانستطيع أن نفرض ديناً لانه لايمكن اجبار انسان على الايمان رغماً عنه » . ولم تستطع حريته أن توجد دولة متماسكة أو دائمة . وعلى نقيض هذا الملك الاوستروغوطي المتسامح كان جانزريك وخلفاؤه يضطهدون الكاثوليك في الدولة الفاندالية التي اسسوها في افريقيا الشمالية . ولقد دامت ذكرى هذه الاضطهادات ، حتى أن غريغوار تور يتطرق في الكتاب الثاني من تاريخ الكنيسة إلى جرائم الفاندال . ولم تدم هذه الدولة أكثر من قرن حـــتى فتحها جوستنيان وكان فتحه لها أسهل من فتح المملكة الاوستروغوطية .

وكذا الدولة البورغوندية لم تعمر طويلاً . وهكذا كانت الاريوسية عبئاً ثقيلاً على مقدرات الشعوب البربرية وشؤماً عليها . واذ صح لكلوفيس مالم يصح لغيره في بقاء دولته فذلك يرجع إلى اعتناقه المسيحية الكاثوليكية وقد استطاع وخلفاؤه من بعده بهذا العمل أن يشخصوا « رومانيا » . وهذا مالم يستطعه امراء البرابرة الآخرون . فقــد كان ملوك الفرنجة كاثوليكيين وبهذا الاعتبار لقب كلوفيس بـ « قسطنطين الجديد » وكان هذا اللقب مفعماً بالوعود . فمنذ عهد ملوك الميروفنجيين الأوائل استيقظت في رأس الاكليروس ، قادة الرأي ، الفكرة القائلة بان مملكة الفرنجة تتمم امبراطورية الغرب ، ونمت في الكنائس ، كما في الاوساط العلمانية عاطفة مؤداها أن لملوك الفرنجة دوراً خصتهم العناية الآلهية به . وهذا الفضل الذي منحه الله لهم بقي متعلقاً بهم وبالأمة الفرنجية الى ما بعد كلوفيس ، بالرغم من أن أكثر الميروفنجيين لم يكونوا أهلا لذلك. ومن هنا نرى كيف أن ملوك الفرنجــة كانوا مسوقين لارجاع الامبراطورية الرومانية ، وكيف أن كلوفيس باعتناقه الكاثوليكية قــد حضر وهيأ الجو لشارلمان.

والخلاصة ان مقدرات الأمـم البربرية كانت مقيدة بموقفها الديني وبالمقابل ، ان تأثير هذه الأمم على حياة الكاثوليكية الداخلية ونمائها كان غير واضح . لقد جعلت هذه الأمم البربرية من الفكرة المسيحية والعاطفة المسيحية كلًا قاسياً ، ولكن ليس من السهل البرهنة على ذلك أو اثباته . ولنحاول ذلك : لقد كان عهد الغارات مصحوباً بنشاط أدبي مسيحي باللغة اللاتينية ، ويأتي في القمة بيلاج والقديس جيروم والقديس اغسطينوس ، في حين أن غيرهم من اللاهوتيين والأخلاقيين والمبشرين والوعاظ كانوا يقفون حياتهم للكنيسة فقط ، وكانت القضايا التي يثيرونها خطيرة جداً مثل قضية الحرية

والجبرية وقضايا الذنب الاصلي والعفو . وقـد اثيرت هـذه القضايا في اشد اوقات الغارات . ويظهر ان جو هذه الاخيرة لم يساعد على الابطاء والتواخي في البحث في هذه القضايا بل كان دافعاً ومحرضاً لنشاط المفكرين وحماستهم . ويروى أن القديس أغسطينوس قد تصور في فكره « مدينة الله » ليساعد مواطنيه على تحمل البؤس لأن الله قدره عليهم . وبعد وفاة اغسطينوس (٤٣٠ م) بقيت مراكز الحياة الفكرية . والفت الاغسطينية في مرسيليا وجزر ليرن كثيراً من المعارضين الذين يعتقدون بحرية الانسان . وإذا خطونا بضع خطوات ووصلنا إلى آخر القرن السادس ، وجدنا غريغوار تور يقول ان معاصريه قـــد جفت عواطفهم. وضعف تفكيرهم . ولكن يجب الا ننسى أن مؤرخ الفرنجة هـذا كان كاثوليكياً شديـد التعصب لكاثوليكيته ويكره الاريوسية ، بيد أن الحجج ، التي يأتي بها ليدافع عن مذهبه ، كانت فقيرة . فمن ذلك قوله : « من آمن بالله حباه خيراً كثيراً ومن كفر به ابتلاه بالشرور » . وبمثل هذا القول الفقير يدافع عن دينـه . ونراه ، عندما يناقش الملك شيلبيريك الأول في الاعتقـاد بالثالوث ، يكتفي بهذا القول : « عندما تتكلم عن أشخاص فهذه الكلمة يجب أن تفهم بمعنى روحي لابمعنى مادي ، وليس في هؤلاء الأشخاص الثلاثة الا مجد وخلود وقوة » . ولا يبدو في التخاطب أي جهد للعقل . ولانجد في أثر المؤرخ الواسع القضايا الأساسية للحياة الأخلاقية وحياة مافوق الطبيعة ، فهو لا يمسها ولايحاول البحث فيها . وكل ما في الأمر أن الدين أخذ شكلًا مادياً وانمسخ الى نوع من عبادة الأوثان . فكان الناس يحترمون القديسين لفضائلهم اقل من احترامهـم للخوارق والكرامات والاعاجيب التي تقوم بها بقاياهم من ثوب أو شعر أو حـــذاء . ولم تمض مائة وخمسون سنة على وفاة القديس أغسطينوس الا وعقمت روح الكاثوليكية . ولكن ماهي مسؤولية البرابرة في هذا التقلص والقساوة الأليمة في التفكير ؟!

وهذه القضايا التي أتينا على عرضها تضعنا امام قضية من أخطر القضايا وهي ازمة الثقافة القديمة . واذا كان تعريف الثقافة بقولنا انها نتاج الحضارة والتربية ، فان المثقف هو الذي يناقض البربري والجاهل . والثقافة غذاء الحياة الباطنية وانشاء « البناء الروحي » . والشيء يتقرب من الحضارة إذا أبعد عنه مفهوم الفن المادي وكانت الأهمية للعناصر التي تساعد على نمو الفرد اكثر من التي تجنح الى زيادة رفاه الجماعة .

ولكن كيف اصبحت الثقافة القديمة في ظل الامبراطورية ؟ اننا نعلم ذلك من الاخلاقيين وعلماء الفصاحة ومثقفي الاحداث الرومانيين . ان **مؤسسة كونتيلين الخطابية** تعطينا منهج الدراسات المطبق في روما منذ عهد الامبراطور تراجان . فقد كان التعليم يتضمن حلقتين: **النحو والبلاغة**. وليست الغاية من هذا التعليم ، رغم طابع البلاغة ، ايجاد فصحاء فحسب ، بل رجالاً متعلمين قادرين على القيام بالوظائف العامة . والشيء الذي يلفت نظرنا عندما نحلل هذا المنهج هو اننا لانجد فيه الفلسفة ، واذا وجدت فلا تعلم لذاتها . كان كونتيلين يطلب الى التلميذ الا يتعلق بمدرسة معينة . وموضوعات الاخلاق وما وراء الطبيعة لاتدرس الا بالقدر الذي ينمي الفصاحة .وفقدان التعمق أو الاهتمام بالتخلص من ما وراء الطبيعة ربما كان سبباً في بقاء الثقافة الكلاسيكية طويلاً . ونظراً لانتشارها في جميع الامبراطورية نراها تغذي في آخر القرن الرابع المجتمع العالي الراقي . وطابعها السطحي جعلها تبقى الى مابعد تقدم المسيحية . واكثر غالبية الرومانيين وخاصة من كان ينتسب منهم الى الطبقات العالية في المجتمع ، لم يغيروا بعمق نمط حياتهم وعاداتهم ، عندما اعتنقوا الديانة المسيحية . لقد أصبحوا كاثوليك عصرهم ، وكما قيل على سبيل الفكاهة لقد اعتنقوا ديانتهم الجديدة بفتورهم وعدم اكتراثهم اللذين اظهروهما لديانتهم القديمة . وقد استمرت

الثقافة القديمة بقوة العادة لانها كانت خالية من كل عمـــق ومن جذور ميتافيزيكية . ولذا استطاعت أن تتحد مع المسيحية التي هي سطحية مثلها .

ولم يذهب هـذا الأدب الانساني السطحي بين عشية وضحاها تحت ضربات البرابرة ، الذين لم يعملوا شيئاً لمقاومتها . وفي جميـع أجزاء الامبراطورية التي فاضت بالجرمانيين ، حافـظ السكان الاصليون على تقاليدهم وعاداتهم الفكرية . وكانت التمارين الفكرية للتسلية وتزجية الفراغ . وتذوق الثقافة كان يقتصر على « الشكل » اكثر منه على الجوهر . والجدير بالذكر أن المدارس العامة زالت في هـذه الدول البربرية الناشئة . وأصبح التعليم بايدي معلمين خاصين . ويظهر أن المطالعات العامة قد أهملت . وليس في ذلك مايدل على أن ملوك البرابرة كانوا خصوماً للثقافة الكلاسيكية . ان أكثر ملوك البرابرة كانوا محاطين بلفيف من المتعلمين . غير أن السواد الاعظم من البرابرة كان جاهلاً ، وبهجومهم تراجعت الثقافـة . حتى ان غريغوار تور كان يشعر بجهله ويخجل من نفسه ويلعن عصره الذي فقـد فيه دراسة الآداب . ومع هذا فان غريغوار تور لم يصل بعـد الى الدرك الأسفل من الهاوية . وهذا الدرك يظهر في القرن السابع ، وتاريخ **فريديغير** شاهد على ظفر البربرية . وبدا انحطاط الثقافة عاماً ، ولم تنج من ذلك ايطاليا . وقد كان المؤلف الاسباني **ايزيدور** اشبلية آخر ممثل لهذه الثقافة الراحلة .

ولم يكن من البربر سوى ان عجلوا في زوال هذه الحضارة . ومن المحتمل لو أن الامبراطورية الغربيـــة عاشت قرنين أو ثلاثة قرون عوضاً عن ان تنهار في عام ٤٧٦ م لتمكنت المدارس العامة من أن تتابع سيرها البطيء ، ولتمكن الشعراء الامنـــاء لتقاليد كلوديان

وسيدوان ابولنير ان يستمروا في اخراج قصائد وأشعار في المدح والاشادة بذكر المحاسن باسلوب جزل متين تغلب عليه الصناعة . ولكن هل يؤسف على ثقافة في حالة الاحتضار بادر المغيرون اليها وعجلوا في القضاء عليها ؟ ان الجواب الجريء على ذلك هو أن الانسان في مشهد من هذا النوع يشعر براحة عندما يرى المريض المحتضر قد أودى . لقد كانت الثقافة الكلاسيكية تشكو الضعف منذ عدة قرون ، وكانت معرفة الاغريقية في حالة انحطاط ، حتى ان الهلّنية لم تلعب دوراً نشيطاً في حياة الغرب الفكرية . ولم يكن للقديس أغسطينوس نفسه سوى معرفـــة سطحية باللغة الاغريقيـة تكفيه للتحقق من نص من النصوص . وباقتصار الثقافة الغربية على اللاتينية وحدها ضاقت وتقلصت . ولقد كان بالامكان أن تحتفظ بقسم من خصائصها لو بقيت أمينـة على مثلها التقليدي القديم وهو البحث عن الحكمة . وهذا المثل الاعلى أيضاً قدتخلي عنه . فمنذ بداية الامبراطورية ، ومنذ زمن كلوديان وسيدوان لم تكن الثقافـة الأدبية سوى تمارين نحوية وتسلية عصرية . وقل من كان ينشد في دراسته ثروة روحية . ولم يكن المتعلمون ليقدموا على الدراسة الا بسائق الوهم ، وهو رغبتهم في أن يتميزوا عن البرابرة الذين يجاورونهم . وكانت اللاتينية الأدبيـة تبتعد كثيراً عن اللاتينية العامية . وكان تعلم هذه اللغة الاصطناعية يتطلب جهداً يستوعب انتباه المتعلم . وقد دعت شدة الانصراف الى الشكل الى إهمال الدراسة العميقة والجوهر . حتى أن نظم القصيدة أو تحرير الرسالة كان مجرد ألاعيب عقلية . وينجح المؤلف نجاحاً تاماً اذا استطاع ان يلبس الافكار المبتذلة أو النكتة العامية شكلاً ثميناً أو غامضاً . ان ثقافة من هذا النوع لابد وان تنتهي بالفناء ، وإذا عجل المغـيرون في القضاء عليها فليس في عملهم مايدل على انهم ارتكبوا جرماً حقيقياً أو إثماً كبيراً .

ولقد حاول بعض الكتاب ان يقوموا بعملية الانقاذ مثل مارتيانوس كابلاّ وكاسّيودور وبويتشي وايزيدور اشبلية وبيد . ولم ينقذوا الثقافة القديمة لأنه كان محكوماً عليها بالموت . وكل ما انقذوه هو بعض افكار متفرقة من بقايا المعرفة التي تؤلف جوهر هذه الثقافة . وهذه الأفكار افادت آجلاً كمواد استعمال لتأسيس ثقافة جديدة في عهد الكارولنجيين .

غير أن هنالك حادثاً جديراً بالذكر وهو **فضل الكنيسة البريطانية وايرلندة والانغلو — ساكسون** في نقل بقايا الثقافة القديمة بعد حادث الغارات . على أن الانغلو ساكسون لم يأتوا من بلادهم الأصلية من هولشتاين وشلزفيك وجوتلند إلا ببعض اساطير حماسية . وهذا يدل على فقر الحضارة الجرمانية . ولقد حاول كثير من علماء الالمان البحث عن آثار الحضارة الجرمانية في الفن والآداب ، ويرى كريستوفر داوسون في كتابه «أصل اوربا» ان تقاليد الجرمانيين الفنية بقيت في انكلترا حتى القرن الثامن . ولكن هذه الشواهد الفنية كانت فقيرة بائسة ، كبعض الحلي . وكذا في الحقل الأدبي نرى العناصر الجرمانية فقيرة ، حتى أن المؤرخ نفسه يعترف بأن الشعوب الجرمانية لم تجد لها شاعراً كهوميروس. وفي الحقيقة ان تأثير العالم الجرماني على ثقافة العصر الوسيط في اوربة الغربية يكاد يكون عدماً . وأمر ذلك واضح لكل ذي فكر نزيه .

وبعد فهل يجب أن نقول ان كل شيء مضى وكأن البرابرة لم يتوغلوا في غرب اوربة ؟ ان مثل هذا الزعم بعيد عن الحس السليم ، وفقهاء اللغة اول من يعترض عليه . ففي شمال الامبراطورية وعلى تخوم غاليا تراجعت « رومانيا » . ويدلنا على ذلك قول سيدوان ابولينير : « إن سنا اللغة الرومانية قد احتجب في بلجيكا والبلاد الرينانية » . ولقد لخص الاستاذ فرديناند لوط في كتابه « الغارات الجرمانية » ما فقدته اللغة

اللاتينية لحساب اللغات الجرمانية . فمن ذلك ان الربوير جرمنوا الضفة اليسرى لنهر الرين . وطردت اللغة الجرمانية اللاتينية في الالزاس وسويسرا الالمانية عندما احتلها الآلامان . وإذا تكلم اليوم نصف سكان بلجيكا باللغة الفلاماندية وكذا في مقاطعة الشمال الفرنسية فذلك لأن الساليين قد ازاحوا اللغة اللاتينية عن هذه البلاد في القرن الخامس .

اما في **بريطانيا العظمى** فقد كان تأثير المغيرين جذرياً وذلك لأنهم اوغلوا في بلاد تعتبر اقل بلاد اوربا تأثراً بالرومانية . فقد كانت لغة سكانها الأصليين السلتية (او الكلتية) ما خلا بعض المستعمرات الرومانية حيث كان يتكلم باللاتينية . ولقد قام بين الانغلو – ساكسون والبروتون نزاع دام عدة قرون دون ان يتبنى المغيرون لغة البلاد من كورنية أو غالوية . ولم تنعدم بنتيجة الغزو هاتان اللغتان بل دحرتا إلى المناطق التي اعتصم فيها البروتون في بلاد كورنواي وبلاد الغال (ويلز) واحتفظ الانغلو ساكسون بلغتهم الأصلية التي أصبحت اللغة الانكليزية . غير ان هذه اللغة كانت قاسية ابتدائية فقيرة بالمفردات، حتى ان البرابرة اضطروا الى استعارة كثير من الكلمات اللاتينية بواسطة المبشرين ، كما اخذوا فيما بعد عن اللغة الفرنسية ، لغة النورمانديين ، عندما فتح غليوم الفاتح انكلترا . وهكذا نشأت اللغة الانكليزية وتوسعت ولم تصبح لغة الشعب الانكليزي الا بعد استعارات كثيرة عن اللغات الرومانية أي اللغات المشتقة من اللاتينية كالفرنسية والاسبانية .

وفي **غاليا** ، على العكس ، اخذ المغيرون لغة السكان الأصليين . وليست اللغة الفرنسية ، كما يمكن ان يتسرب للظن ، لغة الفرنجة ، بل اللغة اللاتينية الشعبية التي يتكلم بها الغاليون – الرومانيون . يضاف إلى ذلك ان الفرنجة عندما تبنوها ادخلوا إليها كثيراً من كلماتهم . وقد بقي بعض

هذه الكلمات في اللغة الفرنسية الحديثة والبعض الآخر ذهب منذ العصر الوسيط . فمن هذه الكلمات تعابير عسكرية ومفردات حقوقية . وهذه الكلمات تدل على ان الفرنجة فرضوا على البلاد المفتوحة تقاليدهم وبعض مؤسساتهم المدنية. وكذلك ادخلوا في اللغة العامية بعض كلمات من لغتهم الدارجة ، وهذه الكلمات طردت ما يقابلها في اللغة اللاتينية . ولقد بقيت هذه الكلمات التي ادخلها الفرنجة لا لأنها أوضح أو أصح ، بل لأنها قصيرة وقوية البيان والدلالة. هذا ويجب ان نلاحظ ان عامية الكلمة تكون غالباً سبباً في نجاحها ؛ كما يجب ان نقول ان ما أتت به اللغة الجرمانية إلى الفرنسية ليس فيه ما يدل على ثقافة عالية . وكل ما في الأمران للمغيرين كلمات سهلة قصيرة وربما كانت فظة ولكنها جذبت السكان الأصليين واخذوها عن محدثيهم من البرابرة . ومما هو جدير بالملاحظة ان اللغات التي يتكلم بها الغزاة من فيزيغوط وبورغوند واستروغوط وفاندال قد ذهبت وزالت تماماً سواءً في غاليا أو ايطاليا أو افريقية الشمالية ولم تترك أثراً البتة . وبين الدول التي احتلت غاليا في القرن الخامس ، نجد الأمة السلتية . فقد تركت اثراً لغوياً دائماً وذلك لأن البروتون عندما هاجروا إلى شبه جزيرة آرموريكا على اثر غارات الانغلو — ساكسون ، نقلوا معهم لغتهم ، وهذه اللغة السلتية ما زال يتكلم بها في ثلاث مقاطعات فرنسية بينما نحاول عبثاً أن نجد اثراً ولو كان ضعيفاً للغة الغوطية واللغة البورغوندية في اكتانيا وسبتمانيا والسافوا .

وهذه الملاحظة لها معناها : فهي تدل على فقر الحضارة الجرمانية . لقد اتى الجرمانيون الى امبراطورية الغرب في وقت كانت فيه الثقافة الكلاسيكية في حالة أفول ولا تغذي سواد السكان . وكان من الممكن أن يكون حظ البرابرة عظيم الاثر لو انهم كانوا حملة ثقافة حقيقية

وخصيبة وقابلة للتمثيل . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال انتشار المسيحية التي تقدمت تقدماً سريعاً لانها كانت تغذي سكان الامبراطورية بغذاء ديني حرموا منه منذ عدة قرون . غير ان فقر الثقافة الجرمانية ربما يبدو بوضوح عندما نقارن تأثير الغارات الروحي ، الذي هو قريب من العدم ، بالتوسع الاسلامي ؛ اذ لم يمض قرنان على الغارات الجرمانية الا واحتل العرب المسلمون حوض البحر المتوسط وأتوا بدينهم وثقافتهم القائمة على الدين والمشربة بالايمان القوي . وكان منهم أن جعلوا أبناء البلاد المفتوحة يعتنقون دينهم ويقبلون بحضارتهم الناشئة ونفوذهم . وكان للاسلام حضارة ولم يكن للجرمانية حضارة . لقد اكتفى الجرمانيون ببربرة الامبراطورية لأنه لم يكن لديهم ما يحل محل الثقافة الكلاسيكية الآخذة بالانحطاط . ولقد الفوها وتبنوها لأن حضارة الامبراطورية الدنيا المنحلة كانت أعلى من حضارتهم . ولقد عجلوا بانحلالها وكان اثرهم فيها سلبياً . ومن هذه الوجهة يمكن أن يقال انه كان مفيداً . ولو بقيت امبراطورية الغرب عدة قرون لما ربحت شيئاً .

واقامة الجرمانيين في الغرب وتسللهم اليه وضرباتهم التي وجهوه إلى الامبراطورية قدمت عدة قرون خراب الثقافة القديمة ونشوء حضارة العصر الوسيط . وقد كانت هذه الحضارة ثقافة جديدة خصيبة ولم يستثن منها الجرمانيون الذين تمدنوا وتكيفوا مع المسيحية وقدموا لها مساعدتهم، ولكنها لم تكن من صنع ايديهم لأن ثقافة العصر الوسيط لاتينية ومسيحية اكثر بكثير مما هي جرمانية ، ولأن ما اتت به الغارات الكبرى في الناحية الروحية قريب من العدم .

اثر البرابرة الفني : — تدل المخلفات العديدة ، التي جمعت في الغرب الأوربي كله ، على ان الفن البربري حقيقة ، كما يفهم من تأمل قطع

الحلي كالخواتم والشكالات و « أبازيم » الأحزمة المزدانة بالمينا أو التزيينات الحيوانية كما يتجلى في كنوز تورنيه وغوردون في قاعة الميداليات في المكتبة الوطنية بباريس وكذا الصناديق والتيجان. غير ان هذا الفن، على مايظهر ، قد اقتبس تقنيته وتزيينه من الفن السلتي ، وبخاصة من شعوب شواطىء البحر الاسود الايرانية . وفوق ذلك يرى ان التأثير البربري في الفن متواضع بالنسبة إلى التأثير الشرقي والروماني الذي استمر في عمله خلال القرن السادس وطبع الغرب بطابعه في تصاميم الكنائس والتزيين بالفسيفساء ذات الأرضية الذهبية ، وتيجان الاعمدة الكورنثية وتوابيت بروفانس او اكيتانيا .

وسينشأ من تركيب الأشكال القديمة والعناصر البربرية فن أصيل ، وسيكون في أصل فن العصر الوسيط في الغرب . وإذا عاش الفن القديم في افريقية الفاندالية أو في ايطاليا الاوستروغوطية ودلت دراسة الاوابد في رافينه على هذا الاستمرار فقد نشأت في غاليا واسبانيا وخاصة في انكلترا ، في القرن السابع ، أشكال فنية جديدة من هذا المزج بين الفن القديم والفن البربري .

الفصل الثالث

المدخل الى تاريخ الكنيسة

الكنيسة في العصر الروماني . — الكنيسة مكان العبادة عند المسيحيين وتطلق أيضاً على جماعة المؤمنين بالدين المسيحي الذي أنزله الله على المسيح عيسى بن مريم ، ومنه أتت « **المسيحية** » أي دين المسيح . والكنيسه بالاصطلاح جسد المسيح الصوفي . انها شيء إلهي ولا يمكن فهمها بالعقل البشري . وهذه هي الكنيسة غير المرئية . أما الكنيسة المرئية فهي هذه الجماعة المسيحية التي تحيا في عالمنا وأعضاؤها اناس مثلنا يخضعون للتغيرات والتطورات التاريخية .

في العهد الذي ولد فيه المسيح عيسى بن مريم كانت فلسطين تابعة للامبراطورية الرومانية التي كانت تضم آنذاك العالم المتمدن أي بلاد البحر المتوسط وغاليا وبعض أجزاء الجزر البريطانية . وكانت روما عاصمة هذه الامبراطورية ، والفكرة التي تؤخذ عنها عظيمة وظلت عظيمة التأثير في العصر القديم بل والعصر الوسيط .

لقد نما في الأوساط العبرية آنذاك شكلان لفهم الدين : **الأول في فلسطين** والثاني في **الدياسبورا** ، أي في الخارج . ففي فلسطين عم ضيق التفكير ، وسدت الأبواب في وجه ما ليس يهودياً . وكانت حالة الرأي

تضم عدة نزعات تتمثل من جهة بالصدوقيين ، أي اليهود المستنيرين ، ومن جهـــة أخرى ، بالفريسيين وهم أنصار التقيد الحرفي بتعاليم **الناموس** ، وسيلة السلام الوحيدة ، ويؤلفون قوه دينية يحسب حسابها .

وكان اليهود يكرهون الرومان لأنهم قضوا على استقلالهم ، وكان الرومان يقابلون هذه الكراهية بالمثل . ومع هذا فقد كان التوحيد ،الاعتقاد بوحدانية الإله ، والأخلاق ، التي بشر بها الأنبياء والمزامير ، تؤثر فيهم ، حتى أن كثيراً من الوثنيين كانوا يتقبلون فكرة الوحدانيـة ويطلق عليهم اسم « **من يخشون الله** ».

وكان هـذا التفكير نفسه في بلاد الدياسبورا ، ولكن دون تفكير ضيق أو تعنت في الرأي ، أو غير ذلك من الصفات التي تميز اليهود في فلسطين . فقد ظلت الدياسبورا مفتوحة للعالم وللفلسفة الاغريقية . ولقد أدت ترجمة **العهد القديم** إلى الاغريقيـــة ، التي اشترك فيها سبعون حبراً ، إلى النفوذ إلى العالم الكلاسيكي . وهذا النص الذي أصبح يسمى **النص السبعيني** هو كتاب العهد القديم المسيحي . وهذا الكتاب لا يحتوي فلسفة ، بل وحياً دينياً يبشر بالتوحيد والأخلاق المبنية على سلطة الله .

وكان يتملك اليهود في فلسطين قلق مظلم ، وينتظر كثير منهم الأخذ بالثار وظفر « **الشعب المختار** » بمجيء المسيح « **رسول الله** » الذي يعد به الكتاب المقدس . وانتشرت هذه الفكرة بين الناس حتى ساد الاعتقاد باكتشاف المسيح . وظهرت فرق دينيـــة أخرى تحلم بمؤسسها وزعيمها السري « **سيد العدل** » الذي اضطهد وقتل وظل بالنسبة اليها مثلاً أخلاقياً وحامياً . وفي هذا المناخ من القلق العام ، الذي تملك اليهود الذين ينتظرون المسيح ، والوثنيين النهمين إلى التجارب الدينية الجديدة ، ظهر المسيح .

يسوع المسيح . — ولد يسوع المسيح عيسى بن مريم في بيت لحم في عهد الامبراطور اغسطوس ، وقضى شبابه في الناصرة والجليل ، ثم جاب فلسطين في سنه الثلاثين ونادى بنفسه المسيح أي « **رسول** » الله و « **ابنه** » . وانضم اليه أثنا عشر تلميذاً ، وظل خلال ثلاثة أعوام يبشر في الكنيسات أمام الجماهير اليهودية ويبشرها بالحادث الجديد ، **الانجيل** ، وهو الوعد الحق بالسلام والعدل ، ويتوجه إلى المساكين برسالته في المحبة والاخاء بلغة بسيطة يفهمها عامة الناس ، مستعملاً القصص والأمثال والصور الحسية المشخصة .

ولكن يسوع ما لبث أن اصطدم باليهود لأنهم كانوا ينتظرون مسيحاً ماجداً منتصراً . وبالرغم من أن يسوع كان يؤكد تعلقه بالناموس اليهودي لأنه لم يأت ليلغي بل ليتمم ، فان « **أحبار الناموس** » الذين كانوا يجلسون في **المحكمة اليهودية العليا** ثاروا لهذا التبشير الذي يجعل محبة الله والاخاء بين الناس فوق الناموس . فما وسعهم إلا أن أثاروا السلطات الرومانية التي رأت في تبشيره تحريضاً يمكن أن ينقلب إلى حركة ثورية . وما كان من الحاكم **بيلاطس البنطي** إلا أن أخذ بما طلبته المحكمة العليا وصلب عيسى « **ملك اليهود** » ونال بذلك الجزاء الشائن ، الذي يلقاه العبيد واللصوص ، على **رابية الجلجلة** التي تقوم عليها اليوم كنيسة القيامة في شمال القدس .

تعاليم يسوع مؤسس الكنيسة . — تؤلف حياة المسيح وأثره أساس الكنيسة . والمصادر التي تساعد على معرفة حياته هي « **العهد الجديد** » وخاصة **الأناجيل الأربعة** ويضاف اليها بعض أصول وشواهد غير مسيحية .

لم يزعم يسوع ولا تلاميذه تأسيس دين جديد بل اتمام « **العهد القديم** »

في داخل **اليهودية** . إنه رسول الله ، إله اليهود ، الإله الأوحد ، اللامادي الذي لا يمكن تمثيله ، ولا تراه الأعين بل تدركه البصائر والقلوب ، وابتداءً من هنا تبتعد تعاليم المسيح عن المفاهيم اليهودية ، إذ لا يراد من الله الرب المنتقم الجبار الذي ذكره العهد القديم بل الله ، إله المحبة والخير والعفو عن خطايا خلقه ، إله جميع الناس لا إله قوم بذاته . وهو يرى أن الفضائل الشخصية وحدها تدخل في الحساب ، ولا مجال للتمييز الاجتماعي ، وان العبيد الارقاء والفلاحين سواسية مع الشيوخ والامبراطور نفسه ، وان الناس أخوة ويجب أن يحب بعضهم بعضاً ، وان يعفوا عن الذنب ويقابلوا السيئة بالحسنة ، وان الذين يتكيفون مع القواعد الاخلاقية ، التي هي أعلى من الناموس نفسه ، ستكون لهم الحياة الأبدية .

الرسل وانتشار المسيحية . — وبعد موت المسيح قام تلاميذه الحواريون باتمام رسالته التي عهد بها اليهم بقوله : « اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم معمدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس » . ونشر هؤلاء التلاميذ المذهب الجديد .

وكان لشخص الحواري بطرس مكانة خاصة في نفس يسوع ، ويضاف اليه وإلى من آمن بيسوع ، من التلاميذ الأوائل ، مؤمنون أكثر حداثة ، وأشهرهم يهودي من كيليكيا ، وهو مواطن روماني اسمه **بولس تارسا** ، وكان في أول أمره خصماً للنصارى ثم بدا له المسيح وهو في الطريق إلى دمشق فصبأ فجأة وغدا **القديس بولس** . وقد جاب بلاد الشرق كله ثم ذهب إلى روما . وكان فيها داعية ومبشراً عظيماً بالانجيل ، ومنذ ذلك الحين أخذت الديانة اليهودية تنطوي على نفسها بعد أن شقت المسيحية طريقها في الأوساط الوثنية .

وقد أضاف الرسل إلى رسالة السيد المسيح وحياً ممجداً وهو **الموت ، والدفن** في القبر ، **وقيامة** المسيح في اليوم الثالث من دفنه ، وظهوره إلى تلاميذه قبل أن يصعد إلى أبيه في السموات العلى . **« والعهد الجديد » الذي** بشر به السيد المسيح يضم رسائل القديس بولس والأناجيل الأربعة. **وأصحابها هم**: القديس **متى** ، القديس **يوحنا** ، القديس **لوقا** ، القديس **مرقس** ، يضاف لذلك قصة **أعمال الرسل ورؤيا القديس يوحنا** .

وفي القرن الاول للمسيح تألفت طوائف مسيحية في فلسطين وفي مدن الشرق مثل : انطاكية والاسكندرية وقرطاجة ، وفي روما نفسها . وقد تاثرت المدن بالدين الجديد أكثر من الارياف . وكان أول من دان بالدين الجديد الفقراء والمحررون والارقاء لأنهم أكثر شعوراً وحساً برسالته في الاخاء والمساواة ، ولأنهم بحاجة إلى التماسك والأمل ، ولكننا نرى منذ القرن الأول بعض الايمان في طبقات المجتمع العليا ، ومن ثم أخذ الايمان ينفذ بالتدريج إلى البلاط الامبراطوري .

ولا ندري متى نفذ الانجيل إلى روما . ومع هذا فاننا نجد يهوداً مسيحيين في هذه المدينة في عهد الامبراطور كلود (٤١م — ٥٤ م) . وقد اضطروا أن يغادروا روما بأمر امبراطوري مع اليهود . وكان يخلط بينهم وبين اليهود . ولكن هذا التدبير لم يحل دون نمو الطائفة الجديدة كما يستدل على ذلك من رسالة القديس بولس إلى أهل روميا حوالي العام ٥٧ م . ومن هـــذه الرسالة نعلم أن الكنيسة كانت معروفة وسلطتها تأتي من إدارة بطرس وبولس وتكريسها بشهادتيهما وبقاياهما المدفونة في روما . ويعلم من « أعمال الرسل » ان بولس سكن المدينة الخالدة . أما ما يتعلق باقامة بطرس في روما فقد حام الشك حولها لأسباب عقائدية

اكثر منها نقدية . بيد أنه لا ينكر اليوم علمياً بأن بطرس عاش في روما وعذب ، حتى أن الدلائل المعطاة عن هذا الحادث في الآداب القديمة قد ثبتت بالحفريات الجديدة التي جرت تحت كنيسة القديس سباستيان على الطريق الآبي ، والمكتشفات الاثرية التي وجدت في كنيسة القديس بطرس . فقد أماطت النقاب عن القبر الذي ينطبق على قبر أمير الرسل . ومن المهم ان يلاحظ أن أساقفة روما يعتبرون أنفسهم خلفاء بطرس مهما كانت عداوة خصومهم من كنسيين أو سياسيين ، وأن **« اعمال الرسل »** في الاصحاح الاول ، **ورسالة القديس بولس الى اهل غلاطية** في الاصحاح الأول لتدل على سلطة بطرس في الطائفة المسيحية البدائية المقدسية .

ورد في انجيل القديس متى في الاصحاح السادس عشر ، والعددين ١٨ و ١٩ ، ان المسيح جعل بطرس مؤسساً للكنيسة وخوّله **« سلطة المفاتيح »** أي **« سلطة العقد والحل »** . ففي العدد ١٨ جاء : « وأنا اقول لك أنت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » وفي العدد ١٩ : « وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السموات ؛ وكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السموات » . ونقل بطرس الى خلفه اسقف روما هذه السلطة ، ومنه انتقلت الى جميع اساقفتها . وقد اهملت الفكرة التي تعتبر اسقف روما اسقفاً بين الاساقفة ، واتجه الرأي الى الفكرة التي تجعل اسقف روما رئيساً للاساقفة . .

تنظيم الكنيسة . — منذ عهد الحواريين تجمع المؤمنون وانتظموا

في كنيسة . والكلمة من الاغريقية (اكليزيا) وتعني المجلس والجماعة . وكان يوجه كل جماعة اسقف ينتخبه المؤمنون ، ويساعده في مهامه **المشايخ والكهنة القانونيون** في اعداد الحفلات الدينية . وللدخول في الجماعة المؤمنة كان على كل مؤمن جديد ان يخضع لحفلة **التعميد** وذلك بأن ينزل في مغطس مملوء بالماء المقدس . وهذا الطقس قديم ويراد منه ايجاد رابطة لا تنحل بين المؤمن والمسيح . ويعني التعميد ايضا وعداً بالبعث. فالمؤمن الذي ينزل في المغطس ويخرج منه هو كالمسيح عندما دخل القبر ثم بعث حياً . والعبادة بسيطة جداً وتقتصر على صلوات وتأملات مشتركة وتنتهي بالعشاء وهو طعام اخوي مشترك ، وفي الوقت نفسه احياء لذكرى **العشاء الرباني** الذي تناوله السيد المسيح مع تلاميذه ليلة موته . ومناولة المشاركين المسيح كسرة خبز وقليل من الخمر . واخذت هذه المناولة فيما بعد شكل حفلة دينية او « قداس » . ويراد منها تضحية غير دامية لجسد المسيح ودمه ، أي مشاركة المسيح مشاركة صوفية جسدا وروحاً . وليعرف المسيحيون بعضهم بعضا استعملوا الرموز . وكانت الحفلات الدينية تقام غالباً في دار مؤمن موسر . ويدفن الاموات في مقالع حجرية مهجورة أو في الديامس وهي سراديب تحت الارض يدفن على جنباتها الشهداء ، كما في سرداب القديس كاليكست والقديس سيباستيان في روما .

ومع الزمن تشكل نظام التسلسل في السلطات الكنسية وأسس حسب التقسيمات الادارية في الامبراطورية الرومانية : **اسقف** في المدينة ، **رئيس اساقفة** في عاصمة كل اقليم ، **بطريرك** في انطاكية والاسكندرية والقدس والقسطنطينية . وكان اسقف روما كغيره من الاساقفة ، الا انه اخذ يتمتع بسلطة تفوق سلطة الاساقفة الآخرين باعتباره خلف القديس

بطرس . وهكذا نشأت سلطة البابوات ، اساقفة روما . وابتداء من القرن الرابع كانت المجامع المسكونية تضم الاساقفة الآتين من جميع البلاد المسيحية . ولقد كان من حسنات هذا التنظيم ان قوى الكنيسة المسيحية وسهل توسعها في الامبراطورية الرومانية .

وكلما تقدمت المسيحية كانت الشخصيات المثقفة المؤمنة في كل بلد تضع ثقافتها الاغريقية — اللاتينية في خدمة الايمان وتبرره وتدافع عنه وتكون له مديحا وتمجيدا . ونشأ على هذا النحو أدب مسيحي يساعد على التعمق في الحياة الدينية . وكان يمثل هذا الاتجاه في البدء **جوستن النابلسي** ، **وترتولين القرطاجي** ، **واوريجين الاسكندري** . وفي القرن الرابع واول القرن الخامس ، كبار المفكرين الاوائل واللاهوتيين المسيحيين ويسمون « **آباء الكنيسة** » . ونخص بالذكر منهم القديس **آثناس** في الاسكندرية ، والقديس **باصيل** في قيسارية في الشرق الاغريقي والقديس **امبرواز** ، اسقف ميلانو ، في الغرب اللاتيني ، وكان له تأثير كبير على ادارة الكنيسة وتنظيم العبادة والعلاقات مع السلطة الامبراطورية ، والقديس **جيروم** وكان عالماً جواباً رحالة طاف أرجاء الامبراطورية . وكانت ترجمته اللاتينية للعهد القديم السبعيني وللعهد الجديد عن الاغريقية تؤلف الكتاب المقدس الكاثوليكي الرسمي (**الفلغاطة**) . وكان القديس **اغسطينوس** اعظمهم جميعاً . وهو من **نوميديا** أي الجزائر ، اشتغل أستاذا للفصاحة ثم أصبح اسقف **هيبون** (بونة) في الجزائر . وله آثار كبرى سيطرت على الادب المسيحي في عصره واهمها « **الاعترافات** » و« **مدينة الله** » .

بيد ان الكنيسة كلما اتسعت خشيت عدوى الفلسفات والديانات المحيطة . وكان عليها منذ القرن الثالث ان تكافح الهرطقات او البدع ، اي الانحرافات الدخيلة على الدين .

والجدير بالذكر ان المسيحيين كانوا يؤكدون بأنهم رعايا الامبراطورية الرومانية ، امناء على عهدها ، ويحترمون السلطات القائمة . ولقد قال السيد المسيح : « ملكوتي ليس من هذا العالم » واوصى بقوله : « أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وذهب القديس بولس الى ابعد من ذلك فكان يعلم «لا سلطة الا من الرب » وان « من يعارض السلطة يقاوم النظام الذي اقره الرب » .

ومع هـذا فان المسيحية بطبيعتها لا يمكن ان تبدو الا خطرة بل وفاضحة للسلطة الامبراطورية . فقد رفض المسيحيون القيام بالحركات الطقسية الميكانيكية التي كان يقوم بها الآخرون ، كحرق البخور أمام تماثيل الآلهة الرومانية ، ورفض تضحية الضحايا على مـذابح المعابـد ، واكثر من ذلك رفضهم اجلال عبادة الامبراطور وروما . وفسرت هذه الاعمال منهم تقويضاً لقواعد الوحدة الامبراطورية وتمرداً على النظم السائدة. ولذا حذفوا من المجتمع الروماني واعتبروا خطرا عاما على سلامة الدولة وحاق بهم الاضطهاد من كل جانب .

كان أول اضطهاد لاقاه المسيحيون في عام ٦٤ م في عهد الامبراطور نيرون . فقد سرت اشاعة بأنه اشعل النار التي التهمت روما ، وما كان منـه إلا ان نحى بغضب الشعب على المسيحيين فصلب كثير منهم ، أو القي بهم الى الحيوانات المفترسة في مدرجات اللعب ، أو احرقوا أحياء . ولاقى القديس بطرس والقديس بولس في روما الكثير من الاضطهاد . ومنذ ذلك الحين عرف المسيحيون قرابة ثلاثة قرون ، من نيرون إلى ديوقليسيان (٢٨٤ — ٣٠٥ م) دوراً من التسامح النسبي ، واخرى من الاضطهادات العنيفة ، كما في ظل حكم الامبراطور دوميسيان (٨١ - ٩٦ م)

ومارك اوريـل (١٦١ — ١٨٠ م) . ولم تتوصل الاضطهادات الى تفتيت التنظيم المتين في الكنيسة ، بل ان هـذه استمرت في توسعها ، وأكثر من ذلك ، زادها الاضطهاد قوة واندفاعاً ، وكان بعض المسيحيين يلتمس الشهادة طريقـاً مباشراً الى الحياة الابدية ودنيا الخلود . ولقد ابدوا من الحزم والجلد والصبر على الشدائد مما شده انظار الوثنيين ودفع بعضهم الى الايمان . وقد كتب ترتولـين في العام ١٩٧ م « كان دم المسيحيين كالبذار » .

ومنذ ٣١٣ اعترف الامبراطور قسطنطين حسب مرسوم ميلانو بحرية جميع الأديان بما فيها المسيحية ، حتى انه كان يشجعها ويكثر عطاياه لها . وأقام اسقف روما رسمياً في قصر لاتران وهـو ملك قديم لأسرة آل لاتيراني ، في جنوب المدينة . وشيدت الكنائس على مخطط معبد روما ، ككنيسة القديس بطرس في الفاتيكان عام ٣٢٦ وكنيسة القديس بولس خارج الأسوار .

وفي عام ٣٦١ أفاد جوليان ابن أخ الامبراطور قسطنطين من موت عمه واستقر في القسطنطينية . إلا أنه سرعان ماتنكر للمسيحية ولذا لقبه المسيحيون بالمارق أو المرتد . كان معجباً بالثقافة الافريقية — اللاتينية ومتحمساً لقراءة هوميروس ، فاراد ارجاع الوثنية التي صنعت عظمة روما وحضارتها واعتمد على الوثنيين الذين اضطهدهم قسطنطين وعلى الارستقراطية الرومانية القديمة المتعلقة بعبادة الأوثان وطرد المسيحيين من الادارات العامة ، وأسس المدارس الوثنية . غير أن هذه المحاولات كانت متأخرة في وقت انتشرت فيه المسيحية وقوي ساعدها .

وبعد موت جوليان في حروبه ضد الفرس عـام ٣٦٣ م ظفرت

المسيحية نهائياً وانطفأت السلالة القسطنطينية . واستولى على الامبراطورية اناس جدد ، مثل فالانتينيان ، وأخيه فالانس ، ثم آخرون أقل هيبة . وكان عليهم ان يقفوا جهودهم لصد هجمات البرابرة الذين حاصروا البحر المتوسط لرأب الصدع الذي تمثل بتجزأة الامبراطورية . واستطاع الامبراطور تيؤدوس (٣٧٩ — ٣٩٥) لآخر مرة ان يعيد الوحدة الامبراطورية عام ٣٩٤ تحت سلطته بعد أن انقذها بانتصاره العظيم على الغوط .

وامتاز حكم تيؤدوس بحادثين عظيمين :

الأول — ادخال البرابرة في الجيش الروماني لتأمين الدفاع عن الأقاليم . وكان بين هؤلاء البرابرة ستيليكون الفاندالي الذي أصبح قائداً عاماً . وكان تيؤدوس يأمل من عمله هذا أن يستوعب الجرمن ويعدلهم . ولكن في الوقت الذي بدأت فيه الغارات الكبرى كانت الامبراطورية تعج بالبربر من الداخل .

الثاني — تحريم الوثنية . فحتى عهده كان الاباطرة المسيحيون يتسامحون بممارسة الديانات الوثنية بحرية . إلا أنه أمر باغلاق المعابد وتحريم الاضاحي . وهكذا تبدلت حالة المسيحيين تماماً بالنسبة إلى عصر ديوقليسيان ، لأن المسيحية أصبحت دين الدولة والوثنيون مضطهدين . ومع هذا ظلت الوثنية قوية ولم تزل الا مع الزمن تدريجياً . وبينما كانت المعابد تغلق ابوابها ، الواحد تلو الآخر ، كانت الكنائس آخذة بالنمو والتكاثر .

واتضحت في هذه الكنائس قواعد الطقوس الدينية والعبادة وانتظم العشاء الرباني ، الطعام الأخوي للمسيحيين الأوائل ، وأطلق على الكنيسة وصف «كاثوليكية» أي عامة . وفي الوقت ذاته ظهر شكل جديد للحياة الدينية وهو الرهبانية .

الرهبانية . — الرهبانيـــة في الأصل حركة زهد وتقشف وتصوف وانعزال عن الدنيـــا الفانية . والباعث لها هو النفور الذي يتملك المرء بما في الحياة من فساد فيذهب به الى رد فعل سلبي يدفعه الى الانطواء والابتعاد ومحاولة تطهير النفس بتنمية الحياة الدينية بالتبتل والصلاة والتأمل والتفكير والتقوى والنسك والتعزي باللجوء إلى الله .

والرهبانية شرقية المنشأ . وترجع الى القرن الرابع الميلادي . ففي زمن الامبراطور ديوقليسيان (٢٤٥ — ٣١٣) وجد في مصر عدد عظيم من المسيحيين الذين هربوا من الاضطهادات الدينيـــة وبحثوا عن سلام أرواحهم في الصحراء ، وسكنوا المغاور والكهوف في وادي الملوك وفي غيرها من المناطق الجبلية . وكان القديس انطوان أشهر هؤلاء النساك . ففي عزلته أخذ يكافح الشيطان وشتى المغريات ، واستطاع بصلاته وصيامه وتهجده وغنائه المزامير ان ينتصر على نفسه . فقد كان يلبس قميصاً خشناً ويمتنع عن أكل اللحم ، ويتوافد عليه الناس في عزلتـــه في الصحراء ليستمعوا الى نصائحه وإرشاده ، وتلمس بركته للاستشفاء من آلامهم وطرد الأرواح الخبيثة عنهم . ثم قام الى جواره نساك آخرون ، وأصبح انطوان بتعاليمه والمثل الشخصي ، الذي ضربه للناس ، موجهاً روحياً . وقد عمر طويلاً رغم شقاء الحياة وشظف العيش .

ثم شاعت الرهبانية في سورية أيضاً ، ومن أشهر النساك السوريين سمعان العامودي . ولدينا نسخة عن سيرته كما حفظها أحد معاصريه وهو الاسقف تيؤدوريتوس . ذهب به أهله إلى الكنيسة ، فاضطربت نفسه لدى علمه بالسعادة التي وعد بها المتقون الذين يتألمون في سبيل المسيح في هذه الدنيا . والتحق ببعض النساك ، وعندما توفي ابواه باع أمواله وتصدق بقسم منها على الفقراء ، ووقف الباقي على دير ، وغدا فيه راهباً ، وقضى حياة

وورع وعفة وامتناع عن لذائذ الحياة . وبعد عشر سنوات ذهب الى دير آخر بالقرب من انطاكيـة وانعزل في حجيرة صغيرة مكتفياً بقليل من الخبز والماء ، وكان يصوم أربعين يوماً ممتنعاً عن تناول أي شيء، ويجدد الكرة.

غير أن الرهبان الآخرين حسدوه مجده ، عندما رأوه يفوقهم صبراً ونسكاً وزهداً ، فافسدوا عليه حياته واضطروه الى مغادرة الدير ، فذهب يتنقل في الجبـال يتجشم حمارة القيظ وصبارة الشتاء منصرفاً الى الصلاة والتأمل . ثم قرر أخيراً العيش على رأس عمود . وأقبل عليه الحجاج من كل حدب وصوب بعـد أن ذاعت شهرتـه في الآفاق . وكان ينصحهم بالتخلي والعزف عن أعراض هـذا العـالم والتزود بالعمل الصالح وتطهير النفس من ذنوبها ، ويجيبهم بلطف وايناس ، ويخفف آلامهم ، ويصلح ذات ذات بينهم . وبلـغ السبعين من عمره ، قضى منهـا ثلاثين عاماً على العمود. ولا يعلم تاريخ وفاته .

وسرت عدوى سمعان إلى الكثير من الرجال والنساء ، حتى ان العامودين الفوا غابة من الأعمدة يقوم على رأس كل منها تاج آدمي حي . وظل هؤلاء العاموديون حتى القرن العاشر ، غير أن هذه العادة أخذت تضمحل مع الزمن . ومع هذا فقد ظلت الأخبار تتناقل ، الى القرن الثاني عشر ، عن قصص عجيبة لراهب عامودي أقام على ضفاف نهر الاردن وكان يزوره في كل اسبوع أسدان ليطعمها عنـده . وفي القرن التاسع عشر وجد رهبان عاموديون في رومانيا وفي جيورجيا ، بلاد الكرج .

باكوم مؤسس الحياة الديرية . — ان مؤسس الحياة الديرية هو باكوم المصري . فقد استقر في بداية القرن الرابـع بالقرب من طيبة ثم تبعه نساك آخرون وألفوا قرية حقيقية . ويروى عنه أنه رأى ذات يوم رؤيا

واقتنع بضرورة توحيد قوى النساك وجمعها في طائفة واحدة يتعاون أفرادها ويعدل بعضهم بعضاً ويصلحون أخطاءهم ، ويصلون معاً وينصرفون الى أعمال البر والتقوى ويضعون امكانياتهم لخدمة الآخرين ومواساة آلامهم. وهكذا نشأ على أرض مصر أول دير للنساك . ومع الزمن كثر عدد المتطلعين الى الحياة الروحية ، وبنيت أديرة جديدة ضمت الرجال والنساء وكانت اخت باكوم تقوم على دير نسوي . وشهد تاريخ افريقية الشمالية والشرق الادنى اديرة ضمت رجالاً ونساء تحت سقف واحد . ثم ظهرت المفاسد ففصل الجنسان .

ووضع باكوم قواعد مكتوبة تصر على ضرورة الطاعة المطلقة لرئيس او رئيسة الدير . وعلى عكس النساك الاوائل كان الرهبان ملزمين بالعمل في الحقول والقيام بجدل الحصر والسلال من القصب أو ورق النخيل . ومن طيبة امتدت الحياة الديرية الى مصر كلها . وفي آخر القرن الرابع وجدت أديرة كثيرة كان يضم الواحد منها مئات من الرهبان والراهبات ، وما لبثت هذه الحركة الديرانية ان امتدت الى بلدان الشرق الأدنى وبلغت الغرب الاوربي. وأصبحت ذات أهمية تاريخية لما قامت به من جهود موفقة في تبشير القبائل الجرمانية والاخذ بيد المواطنين الرومانيين في تلك الظروف البائسة ، ولا سيما عندما أشرف العالم الروماني على الانهيار والدمار .

ومهما يكن من أمر فان الحياة الدينية المسيحية أدت الى وجود نظامين لرجال الدين (الاكليروس) أي الذين اتخذوا الحياة الدينية مسلكاً ، وهما :

١ — الاكليروس العصري : ويضم رجال الدين الذين يعيشون

في العصر بين ظهراني المؤمنين في الكنائس ويقومون بالصلوات والاعمال الدينية ، ويسهرون على سلامة الارواح ، ويأتي على رأسهم البابا وهو الرئيس الروحاني الأعلى ، ويليه الأساقفة والكهنة القانونيون وغيرهم من الكهنة حتى الخوري القائم على كنيسة القرية .

٢ ــ الاكليروس النظامي : ويضم رجال الدين الذين يعيشون في عزلة الدير ويتبعون نظام هذا الدير الذي يمكن تلخيصه بالصلاة والعمل. وهذه العزلة لا تمنعهم من الحياة المشتركة من جهة ، ومن القيام بالأعمال من جهة أخرى في خارج الدير من تبشير وزرع وحصاد وقطاف وحطب واحسان ومواساة . وعلى اعتبار أن حياتهم مسيرة طبقاً لقاعدة الدير ، أو نظامه ، أو طريقته . لذلك يسمى هذا الاكليروس باسماء مختلفة ، فيقال الطريقة الديرية أو النظام الديري ، أو القاعدة الديرية ، وكلها تدل على مسمى واحد وهو الحياة الرهبانية الديرية .

الفصل الرابع

المملكة الفرنجية

حكم السلالة الميروفنجية

٤٨١ — ٧٥٢

الفرنجة . — الفرنجة قوم من الأقوام الجرمانية . ويبدو أن دورهم لم يظهر على مسرح التاريخ قبل القرن الثالث الميلادي ، حتى اننا لا نرى اسمهم في « جرمانيا » تاسيت المؤرخ اللاتيني (حوالي ٥٥ — ١٢٠ ميلادية) . وكلمة « فرنجي » تعني « حر » وربما كان هذا الوصف يدل على الأقوام التي كانت تنزع الى الاستقلال عن روما والخروج عن طاعتها .

ان تاريخ الفرنجة مبهم غامض والبحث فيه يحتاج الى حيطة وفطنة وحذر . ويميز عادة في الفرنجة ثلاث قبائل : الفرنجة **الساليون** ، أي البحريون الذين ينزلون قرب البحر ، و**الريبوير** ، أي النهريون الذين يقيمون على ضفاف النهر ، و**الشاماف** . وقد وجد اسمهم في التاريخ الروماني حوالي العام ٢٤٠ في ترجمة حياة الامبراطور اوريليان لمؤلفه فوبيسكوس . وكل ما يتحدث عنهم قبل هذا التاريخ ليس الا من قبيل الاسطورة . وقد كتب عنهم غريغوار تور ، في القرن السادس ، وقال عنهم انهم أتوا من بانونيا ، غير أنه لا يمكن الاعتماد عليه كثيرا عندما يتكلم عن عصور

بعيدة عن عصره . وثقتنا تكون أقل بمن أتى بعـــده من المؤلفين . ونجد في كتاب « تاريخ المملكة الفرنجية » المؤلف في القرن الثامن ان أصلهم يرجع الى طروادة هوميروس وفيرجيل . وفي القرن العاشر نجد لهم ذكراً في « كتاب التاريخ » حيث نرى ايضاحاً لا نجده في الكتاب السالف الذكر لأن المؤلف ينسبهم الى آنتينور الطروادي الذي أوجـد هذا الشعب ، الذي تبعثر الى عدة قبائل ، ثم تجمع تحت زعامة فاراموند سليل آنتينور . ولقد تناقش المؤرخون في أصل الفرنجـة دون الحصول الى حل مقنع . الا أنهم اتفقوا على نقطة واحدة وهي ان ملكاً باسم فاراموند لم يكن موجوداً ، وان أقدم زعماء الفرنجة ، الذين يمكن أن يتكلم عنهم بيقين ، هم كلوديون ، وميروفه ، وشيلديريك .

ان ما نعلمه عن الفرنجة هو ان الامبراطور **اوديليان** قهرهم في واقعة جرت بينه وبينهم . وهذه الغلبة كانت فرصة للتنويه عنهم في الآداب اللاتينية ومهما يكن فقد احتل الفرنجة ، منذ آخر القرن الثالث ، جميع البلاد الواقعة بين نهر الراين الادنى ونهر الماين ، وأشهر قبائلهم التي كانت في هذه البقعة هي : **الشاماف والشات** والبروكتير والريبوير والساليون . ورغم ما نلاحظه من نقص في الوثائق التي تبحث عن الفرنجة ، نرى أن قبائلهم تؤلف اتحاداً خطراً على مصالح روما . ونراهم تارة يدافعون عن ارض الامبراطورية ، وطوراً يحاولون الامتداد عليها . وعلى اي حال فقد تأصلت جذورهم في شمال غاليا القديمة . والصحيح الثابت أن اقدم ملوكهم **كاوديون** توصل الى آرّاس وجرت بينه وبين (القائد) الباتويس آتسيوس الروماني واقعة دحر فيها الا انه اعاد الكرة وحل في كامبريه وسيطر على نهر السّوم .

ولا نعلم علم اليقين شيئاً كثيرا عن ميروفه الذي قاتل الهون كما رأينا سابقا .

أما شيلديريك فقد أصبح ملكاً عام ٤٥٧ . وكانت الطقوس المتعارفة لدى الفرنجة ان الملك ، اذا سلم السلطة ، يرفع على ترس كبير ، والهتافات التي تصحب هذه المراسم تعتبر بمثابة اعتراف به . وقد يكون أبوه ميروفه ، واليه تنسب السلالة الميروفنجية . وتوفي شيلديريك في تورنيه عام ٤٨٢ م . وقد اكتشف قبره عام ١٦٥٣ حيث دفن مع جواده واسلحته ومجوهراته . ولقد كان لهذا الاكتشاف فوائد جلى في علم الآثار . فهو يعطينا صورة واضحة عن ملك السالين . وكان خلفه ابنه كلوفيس الذي استطاع ان يمتد بنفوذه على كل غاليا تقريباً .

كلوفيس . — ولد كلوفيس عام ٤٦٦ في مكان ما زال مجهولا وكان عمره عند وفاة أبيه خمس عشرة سنة تقريباً . ويعتبر في هذا السن راشداً لأن القانون السالي يعتبر سن الرشد اثنتي عشرة سنة . وعندما تولى العرش كانت غاليا مقسمة الى أربعة أقسام :

١ً — **المملكة الفيزيغوطية** وهي تضم جميع البلاد الواقعة بين جبال البيرينه ونهر اللوار مع اقليم بروفانس واسبانيا .

٢ً — **المملكة البورغوندية** وتقع في حوض نهر الرون والصون .

٣ً — **المملكة الغالية — الرومانية** التي اسسها القائد الروماني ايجيديوس وقد خلفه عليها ابنه **سياغريوس** وتمتد هذه المملكة بين نهر السوم واللوار .

٤ً — **مملكة الفرنجة** وهي تمتد في الشمال والشمال الشرقي من فرنسا الى ما وراء نهر الراين .

وكان الوضع السياسي والديني في غاليا مضطرباً . فقد كانت تابعة اسماً للامبراطورية الرومانية ، والسكان يسمون « رومانيين » ويعتبرون أنفسهم رعايا الامبراطور . وكان ملوك البرابرة يحملون القابهم وأسماء وظائفهم العسكرية في الامبراطورية . اما ملوك الفيزيغوط فلم يعترفوا منذ أوريك بسيادة الامبراطورية عليهم . ومن الناحية الدينية كان الغاليون — الرومانيون كاثوليكيين ؛ والفيزيغوط والبورغوند اريوسيين ؛ والفرنجة وثنيين . على ان ما يشغل سكان غاليا في القرن الخامس هو معرفة أي الديانتين تتفوق على الأخرى : الأريوسية او الرومانية الحنيفة ، لأن العاطفة الدينية كانت تفوق كل حركة قومية وتسحقها ، حتى ان مقدرات العصر الوسيط كانت منوطة بهذا اللغز الديني .

إن كل ما نعرفه عن كلوفيس مأخوذ عما يحدثنا به غريغوار تور في كتابه الذي ألفه في آخر القرن السادس : يقول لنا اسقف تور ان كلوفيس هاجم سياغريوس وغلبه في سواسّون وأمر بقتله وأصبح سيد البلاد حتى نهر اللوار . وقد رافق هذا الفتح فتح الاوستروغوط لايطاليا . فقد غلب تيؤدوريك الكبير قبائل الهيرول وملكهم اودوآكر وأصبح سيد روما وتأسست المملكة الايطالية . وطلب تيؤدوريك يد الدوفليد اخت كلوفيس وتزوجها عام ٤٩٢ . وقد عقد هذا الزواج بين الدولتين صداقة دامت عدة سنوات وكانت له نتائج هامة .

وتبع هذا الزواج بعد عدة أشهر زواج كلوفيس بكلوتيلد ابنة اخ غوندبود ملك البورغوند ، وكانت كاثوليكية . واختلفت الروايات في هذا الزواج . فكيف يمكن لاميرة كاثوليكية أن تتزوج ملكاً وثنياً ، وهل عملت بوحي الاساقفة طمعا في نشر المسيحية بين الفرنجة ! ? من

الصعب الاتيان برأي حاسم . وكل ما في الامر أن هذا الزواج قد وقع وانصرفت الزوجة الى حض زوجها على اعتناق المسيحية . والثابت ان كلوفيس لم يغير دينه بسرعة ، بل عمّد أولاده وبقي وثنيا عدة سنوات ايضاً . وفي هذا ما يدل على تمسكه بدينه وربما يكون كلوفيس قد تردد بين الاريوسية والكاثوليكية . كانت زوجته كاثوليكية وأخته الدوفليد اريوسية في بلاط الاستروغوط . يضاف الى ذلك ان اكثر الملوك والشعوب البربرية المحيطة بالفرنجة كانت تدين بالأريوسية . وفي ذلك كله ما يحمل كلوفيس على اعتناق الاريوسية . ولكن جماعة كلوتيلد عملوا ما في وسعهم لدى كلوفيس ليدين بالكاثوليكية . ثم جرت حرب بينه وبين الآلامان المقيمين في الالزاس واللورين وانتهت باخضاعهم . ويحدثنا غريغوار تور أن اعتناق كلوفيس المسيحية كان منوطاً بهذا النصر . فقد آلى على نفسه ، بعد ان لاقى الشدائد في حربه مع الآلامان ، ان يدين بدين زوجته ان انتصر عليهم . وتم له ذلك وقبلته الكنيسة في حضنها في يوم عيد الميلاد ، وربما كان ذلك عام ٤٩٧ م ، وشايعه في عمله ثلاثة آلاف من رجاله . ومن المحتمل أن تكون رنس المدينة التي تم تعميده فيها. وهنالك رواية أخرى تقول في تور . ثم اختلط في المستقبل هذا التعميد لأول ملك مسيحي مع المشح بالزيت . ويحكى أن حمامة أتت من السماء الى القديس ريمي بزجاجة تحوي دهناً معطراً لتبارك ريت المشح . واحتفظ بهذه الزجاجة المقدسة في دير القديس ريمي في رنس كذكرى لهذا الاحتفال الذي سار عليه ملوك فرنسا في المستقبل .

وفي عام ٥٠٠ هاجم كلوفيس ملك بورغونديا ، غوندبود ، واضطره لدفع الجزية . وفي عام ٥٠٧ جهز حملة لقتال ملك الفيزيغوط آلاريك الثاني وقهره . وقتله كلوفيس بيده بالقرب من بواتيه ، وبهذا الظفر وقعت

مقاطعة الاوفيرن واكيتانيا حتى جبال البيرينه بيد كلوفيس . وعند عودته من هذه الحرب تقبل في مدينة تور شارات القنصلية التي بعث اليه بها امبراطور الشرق آناستاز . وهذا دليل على الكايد التي كانت تنصبها بيزنطه وترمي منها الى تطويق الاوستروغوط لتستر منهم ايطاليا .

وتوفي كلوفيس عام ٥١١ م بعد أن قضى على ملوك أو زعماء قبائل الفرنجة وتوطدت سلطته على غاليا كلها ، باستثناء بورغونديا التي استقل ملكها ، وبروفانس حيث اوقف تيؤدوريك ، ملك الاوستروغوط ، الفرنجة وحال دون تقدمهم . ولا شك في أن كلوفيس في ظفره هذا كان مديناً لمساعدة الاكليروس الكاثوليكي . وقد استطاع ان يعرف مدى تأثير الاكليروس الكاثوليكي في نفسية السكان الغاليين — الرومانيين وحاول قبل أن يعتنق الكاثوليكية أن يكسب ود الاكليروس ، وساعده هذا الاكليروس ليحمله على اعتناق الكاثوليكية . وكان لاعتناقه المسيحية الكاثوليكية تأثير هام ، لأنه كان الملك الكاثوليكي الوحيد ، ويعتبر زعيم الكاثوليك وحاميهم الرسمي .

ومات كلوفيس ولم يجعل من غاليا دولة واحدة ، ولكنه استطاع أن يوحد الشعب الفرنجي بعد أن كان مؤلفاً من عدة قبائل . وترك نوعاً من مملكة تمتد من البيرينه الى ما وراء نهر الراين في جرمانيا حتى الفيزر والدانوب . وعلى هذه المملكة الغالية الجرمانية قامت الوحدات التاريخية في عهد خلفائه من ملوك السلالة الميروفنجية .

خلفاء كلوفيس .— حكم الميروفنجيون ، خلفاء كلوفيس ، حتى عام ٧٥٢ . وينقسم تاريخهم إلى دورين : **الاول** : (٥١١ — ٦٣٩) وهو دور الفاعلية والحروب . **والثاني** : (٦٣٩ — ٧٥٢) وهو دور الملوك

الكسالى لأنهم كانوا صورة السلطة الحقيقية التي كانت بيد حجاب القصر ، وفيه انتقل الحكم لسلالة جديدة وهي السلالة **الكارولنجية** .

أما الدور الأول فقد كان مليئاً بالاضطرابات ، وهذا يرجع إلى أن ملك الفرنجة إذا مات تقاسم أولاده ملكه كاقتسام الإرث ، وفي هذا العرف من القسمة ما يفسح المجال للمنافسات بين الأخوة . ففي عام ٥١١ م ، عندما توفي كلوفيس ، تقاسم أولاده : **تييري وكلودومير وشيلدوبير وكلوتير** إرث أبيهم . وكانوا كأبيهم محاربين أشداء ، فتحوا تورنجه في جرمانيا عام ٥٣١ م وغزوا أسبانيا وايطاليا وعادوا منها بالغنائم والأسلاب . وفي عام ٥٥٨ ، وجد كلوتير وحده ملكاً بعد أن مات أخوته وأبناؤهم. غير أنه حذا حذو سلفه وقسم امبراطوريته بين أولاده الأربعة : شاريبير ، سيجوبير ، وغونتران ، وشيلبيريك . وماتوا بعد قليل ودخل ورثتهم في منازعات دامية . وظلت وحدة المملكة متماسكة بفضل الكنيسة أي بفضل مجالس الأساقفة . ولعبت الكنيسة على هذا النحو دوراً مشابهاً للدور الذي لعبته الكنيسة في انكلترا حيث أفادت كهمزة وصل بين مختلف الممالك السكسونية .

كانت الأجزاء الهامة في المملكة الفرنجية : **اوسترازيا** أو مملكة الشرق وتضم بلاد الموز والراين وعاصمتها متز ؛ **وبورغونديا** وهي بلاد الصون والرون ، وأول ملك لها غونتران وكان يقيم في أورلئان ومن ثم في شالون على الصون ؛ **ونوستريا** وتمتد من مصب نهر الايسكو حتى مصب نهر اللوار وعاصمتها بالتناوب باريس ، سواسون ، تورنيه . أما المنطقة الواقعة بين اللوار والبيرينه فقد سميت غاسكونيا . وقامت عدة حركات انفصالية في بروتانيا بين الأقوام السلتية التي لم تستطع

حتال الأجانب . وقد ظهر الاستياء خاصة بين طبقة النبلاء .

نزاع الملكات . — ومضت بين عام ٥٦١ و٦١٣ فترة كانت الحرب قائمة في مملكة الفرنجة بسبب المنازعات العائلية . كان سيجوبير الأول ملك اوسترازيا (٥٦١ — ٥٧٥) وشيلبيريك الأول ، ملك نوستريا (٥٦١ — ٥٨٤) . وقد تزوج الاخوان بنتي ملك الغيزيغوط : تزوج سيجوبير برونيهو ، وشيلبيريك غالسويند . وكان زواج سيجوبير وبرونيهو سعيداً موفقاً . ولكن زواج شيلبيريك كان مفجعاً بسبب خطأ خادمة في القصر تسمى فريديغوند ، وكانت امرأة طموحة ، فظيعة ، غادرة ، استطاعت أن تغوي شيلبيريك وتصبح خليلتـه ، ولم يكفها هذا الوضع بل أرادت أن تتزوجه وتكون ملكة وأوحت بقتل غالسويند لتحل محلها . فاستاء سيجوبير وبرونيهو من هذه الجريمة النكراء وحاولا الانتقام ، ولكن خبثها لم يصل إلى درجة خبث فريديغوند . ومات سيجوبير بدوره قتيلاً وسجنت برونيهو ، ونجا ابنها الشاب شيلدوبير بالفرار . واستقبلته الطبقة النبيلة الاوسترازية وحمته ونادت به ملكاً في متز (٥٧٥) . وعندما بلغ سن الرجال حارب اللومبارديين ونقل الحرب الى ايطاليا ، ولكنـه دحر وغلب على أمره ، غير أن مبادهته هذه قوت سلطة الأمراء الذين كانوا يحتلون شمال ايطاليا واتحدوا آنئذ تحت صولجان أوثاريس . وفي الوقت نفسه حاول غونتران ، ملك بورغونديا (٥٦١ — ٥٩٢) أن يصل بمملكته الى الحدود الطبيعية بانتزاع سبتمانيا من الغيزيغوط فخاب ظنه . وأدرك الملكان أن فقدان الاتحاد بين الفرنجة كان سبباً أساسياً في خيبتها ، فتحالفا وتزوج شيلدوبير ابنة غونتران (٥٨٧) وبهذا الزواج يمكن أن تخضع بورغونديا لسلطته

عند وفاة حميه . ومات شيلدوبير شاباً تاركاً ولدين قاصرين تحت وصاية جدتهما برونهو .

بيد أن برونهو ما فتئت تكيد أملاً في إبادة فريديغوند والأخذ بثأر غالسويند زسيجوبير . ولهذه الغاية تزوجت ميروفيه بن شيلبيريك . وليسعد هذا عيني فريديغوند قتل ميروفية ؛ وفاوضت باسم شيلدوبير بتحالف استرازيا وبورغونديا ، وكانت هذه المهمة صعبة غير أنها استعملت مواهبها ودبلوماسيتها . وكان عليها للوصول إلى هدفها أن تفصل بورغونديا عن نوستريا ، عندما تكلف غونتران بالوصاية على الابن القاصر لشيلبيريك وفريديغوند . ومات غونتران مقتولاً ، وبعد وفاته حاولت برونهو توحيد الفرنجة بكسبهم قضيتها . ولكن شيلدوبير ، ليرضي أمه ، هاجم كلوتير الثاني بن فريديغوند ، غير أن جيش نوستريا خذله .

أما أرملة سيجوبير البائسة فكانت تتصرف بالسلطة بصفتها وصية على أولاد شيلدوبير القاصرين : تيودوبير ملك اوسترازيا (٥٩٥ — ٦١٢) وتيري الثاني ،ملك بورغونديا(٥٩٥ ٦١٣)وظنت بأنها تملك الأسلحة الضرورية للأخذ بثأرها . ولكنها رأت بعد ذلك أن وضعها لا يطمئن ، وأقل مما كانت تظن لأن البورغونديين يحتقرونها كأجنبية ورفضوا اطاعتها . وماتت فريديغوند عام (٥٩٧) عندما أوشك الحظ أن يهجرها .

وهذه الحرب التي دامت طوال عشرين عاماً وجاشت بين تاج اوسترازيا وتاج نوستريا ، قامت من جديد عندما أصبح تيؤدوبير بسن تسمح له بقيادة الجيش . غير أن كلوتير الثاني غلبه واضطر إلى التنازل عن العرش ومات في السنة التالية ميتة عنيفة ، وكانت عمره خمساً وعشرين عاماً . ولم يعش

تيري بعده إلا سنة ومات عام ٦١٣ تاركاً أربعة أولاد ، وكان عليهم حسب التقاليد الميروفنجية أن يتقاسموا الامبراطورية . إلا أن برونيهو ألحت على أن يصبح الابن البكر سيجوبير الثاني ملكاً وكان في سن الحادية عشرة . وخافت الطبقة النبيلة من أن تصبح الملكية قوية فلم توافق على هذا التدبير ، وحضت كلوتير الثاني على حرب برونيهو . ولم تعمل الطبقة النبيلة شيئاً للحيلولة دون المؤامرة والغزو . وهكذا وقع أولاد تيري في أيدي أعداء اسرتهم ، وحاولت برونيهو عبثاً أن تلوذ بالفرار . وأخذت وعذبت خلال ثلاثة أيام وعلقت أخيراً بجمل وأخذ يجرها في معسكر كلوتير . ثم ربطت بذنب حصان لم يروض بعد فمزق جسدها أشلاءً (٦١٣) . وكانت سنها سبعين عاماً واتهمت بأنها كانت سبباً في موت عشرة ملوك . وزاد آخرتها بلاءً أن متهمها وقاضيها وجلادها كان ابن فريديغوند .

ومات كلوتير الثاني بن فريديغوند بعد أن حكم وحيداً دول الفرنجة . وخلفه ابنه داغوبير (٦٢٩ — ٦٣٩) . وقد حاول هذا أن يحافظ على النظام وإقامة العدل وتظاهر بالعطف على الكنائس ومنح مساعداته الى كنيسة القديس — دوني ، التي أصبحت مدفناً لملوك فرنسا . وهذا لم يمنعه من أن يكون فظيعاً جشعاً كغيره من الميروفنجيين . وبموته يبتدىء دور **الملوك الكسالى .**

عصر حجاب القصر . — منذ القرون الأولى في العصر الوسيط استطاع فرنجة كلوفيس وخلفاؤه أن يبسطوا نفوذهم على مساحات واسعة من الأراضي التي يمكن أن تؤلف بحدودها الجغرافية ونفوسها ، صورة أولى للامبراطورية الكارولنجية . وكانت هذه الملكية تشمل ، في عهد داغوبير

أي في العهد الذي بلغت أعظم حد لامتدادها ، جميع غاليا وقسماً من البلاد الرينانيـة والمانيا وتورنجة . وبدأ أثرها يظهر في الفريز وساكس وبافاريا ، وتوحي باحترامها الى بعض جيرانها في البلاد السلافيـة . ولم تكن الملكية الميروفنجية إلا ملكية « بربرية » قامت على الفتوح ، وكانت تهدف الى زيادة أراضيها التي تألفت منها مملكة الفرنجه .

ويرى الفرنجة أن أنسال كلوفيس لا يكونون أهلاً للحكم إلا طبقاً للعادة المتأصلة فيهم وهي أن البربر يخصصون العرش الى أسرة الزعيم الذي قادهم الى النصر ؛ وأن الأراضي التي فتحها بقوة سلاحه تعتبر ملكــــه الخاص . ولذا فمن الطبيعي أن يكون إرثها مؤمناً الى أولاده الشرعيين ، ومنهم الى ورثتهم المباشرين الذين يقسمونه فيما بينهم الى حصص أو « ممالك » متساوية القيمة ، الا في حالة الوفاة التي تسمح بجمع الإرث بين حين وآخر في مملكة واحدة .

ويبدو في النصف الثاني من القرن السابع ان الاسرة الميروفنجية قد نهكت قواها وأدى انحطاطها بمملكة الفرنجـــة الى الخراب . وأخذت الأراضي الجرمانية تنفصل عنها . حتى ان غاليا انقلبت عليها وسادت الفوضى في داخل الممالك الجزئية، وجعلت كل واحدة منها تناوىء الأخرى من اوسترازيا ، ونوستريا وبورغونديا ، دون أن تستطيع احداها أن توقف اكيتانيا المنشقة عنها.وحول الملوك الأشباح ، الذين يتوصلون الى العرش بسبب وفاة آبائهم بسن مبكر ، أو يكونون حديثي السن ولم يبلغوا سن الرجال إلا قليـلًا ، كان يلتف اناس ذوو أطماع يتعطشون الى الحكم والسلطة، وأمهرهم كان يجمع حوله انصاره ويعتمد عليهم ويعمل حاجباً في القصر ، بيد أنه كان يتمتع بالسلطة الحقيقية. ويرى في مثل هذه الحال أن

التجزئة السياسية أمر واقع ؛ ولكن الوحدة النظرية مازالت موجودة وما من حاجب من الحجاب الا ويرغب باعادة الوحدة السياسية لصالحه وذلك باستيلائه على مناصب الحجاب في الممالك الأخرى . وليتوصل كل من هؤلاء الحجاب الى حيث اخفق منافسوه كان يسعى في توطيد نفوذه وحصر وظيفته في اسرته . وهذا ماحاوله أجداد الكارولنجيين وشادوا بهذه الطريقة مجد اسرتهم .

قدامى الكارولنجيين وأثر شارل مارتل . — ففي زمن كلوتير الثاني وابنه داغوبير كان بيبن الشيخ ، أحد الكارولنجيين ، يشغل حجابة القصر في اوسترازيا حيث لبث عشرين عاماً ما خلا مدة قصيرة عهد فيها بالوظيفة الى صهره **انسيجيزل** بن اسقف متز ، **ادنولف** . وبعد بيبن هذا قام ابنه **غريموالد** ثم حفيده **بيبن الشاب** ويسميه المؤرخون المعاصرون **بيبن هيرستال** بالنسبة الى مزرعة كاروانجية واقعة بالقرب من مدينةلييج. وقد حكم هؤلاء الثلاثة قصر اوسترازيا . وغلب الثاني منهم النوستريين (أهل نوستريا) في ترتري ثم في بيرون عام ٦٨٧ وأضاف له حجابة قصر نوستريا وبورغونديا .

وبقي بيبن الشاب حتى عام ٧١٤ ، أي السنة التي توفي فيها ، السيد الوحيد في الممالك الثلاث . وقد عهد بحكومة القصر في نوستريا وبورغونديا الى ابنه الثاني غريموالد الثاني . وجرت العادة منذ بداية القرن الثامن أن يعتبر حاجب القصر في أوسترازيا زعيماً للملكية كلها .

وأوشك النظام أن يسود في العام ٧١٤ لولا مقتل غريموالد الثاني . وكان أحفاد بيبن الشاب اطفالاً حديثي السن كما هي حال ملك نوستريا الميروفنجي . ففي مثل هذه الحالة كيف يمكن التوفيق بين ظل الملك وظل الحاجب ؟

لقد حاولت أرملة بيبن بليكترود ان تسوي الأمور بنفسها وتحكم من وراء أحفادها الصغار ، الا ان النوستريين قاوموها وانتخبوا حاجباً منهم . وكادت مملكة الفرنجة أن تقع في الفوضى مرة ثانيـة لولا أن ابناً طبيعياً لبيبن الشاب يدعى **شارل** استطاع أن ينقذ الموقف وينجي ، كما كان المعاصرون يقولون ، المملكة الفرنجية من الانقسام والدمار .

وبعد أن قضى شارل على خصومه حاول ارجاع الأمـور الى حيث تركها والده . ولكن مملكة الفرنجة خرجت متصاغرة بعد هـذه الأزمة .

فقد بقيت اكيتانيا مستقلة رغم أنه تغلب على دوقها اود .

وكذا المسلمون في اسبانيا ، فبعد أن هاجموا روسيون ولا نغدوك السفلى في العام ٧١٩ أو ٧٢٠ تقدموا باتجاه نيم وتولوز ، الا ان أود ، دوق اكيتانيا ، تداخل وسد في طريقهم وادي الغارون . أما في شمال نيم فقد توصلوا عام ٧٢٥ الى وادي الرون والصون أي الى قلب بورغونديا ونهبوا اوتن وعادوا منها بالمغانم والأسلاب دون أن يجرأ أحد على اللحاق بهم . أما في شرق الراين وشماله فقد رفض معظم سكان الأراضي الجرمانية الاعتراف بتفوق الفرنجة ، ولم يستطع شارل أن يهديء الحدود الآلمانية والباڤارية والسكسونية والفريزية الا بشق الانفس .

غير أن شارل كان قوي الشكيمة ، فقد جابه الأوضاع التي أحاطت به بشجاعة هادئة واستطاع أن يفرض احترامه . ولكن الخطر الحقيقي الذي كان يخشاه هو خطر المسلمين الذي بـدأ يتجسم فجأة أمامه . فقد تدفقت فرسان الأمير عبد الرحمن الغافقي من پامبلون على غاسكونيـا وبوردو ، ووصلت الى أبواب پواتيه في (تشرين الأول ٧٣٢) وزحفت على تور وفرنسا الشمالية . الا ان اود ، أمير اكيتانيا ، استنجد بشارل

فانجده وانضم الجيشان الى بعضها ، ووقعت الواقعة ، واستشهد الأمير عبد الرحمن ، واضطر جيش العرب المسلمين الى التراجع .

نجت غاليا من خطر المسلمين ولكن دون أن تتخلص منهم فمازالوا يرابطون في روسيون ولانغدوك السفلى حيث كانوا يقومون بين حين وآخر بهجمات موفقة وخاصة عام ٧٣٧ على آفنيون والمناطق المجاورة . ولكن شارل دفعهم الى جنوب نوبونه وبقوا حيثهم خلال عشرين سنة .

ان ظفر شارل في پواتيه اكسبه سلطة ونفوذاً في جميع غاليا . فكان يعمل كسيد مطلق ، يشرع ويقيم العدل ويلعب بالكراسي الاكليركية وأموال الكنائس ويوزعها على أنصاره مقابل خدماتهم له . وكان يتصرف في الأمور كما لو كان يتمتع بسلطة الملك . ولم يكن ليعترض عليه أحد في سلوكه مع الاكليروس ، بل على العكس ، كان الناس يمدحونه في اخلاصه للدين ويعتبرونه حامياً له ، لأنه كان يعمل على مساعدة أعمال البر والتقوى ويحمي المبشرين . حتى أن البابا غريغوار الثاني طلب عام ٧٢٢ مساعدته للقديس بونيفاس بعد أن أرسله ليهدي الوثنيين في جرمانيا الى دين المسيح . فأجاب شارل على هذا الطلب بكتاب حرره على نسق الرسائل التي يحررها الملوك لحماية رعاياهم ، وهو بهذا يجعل نفسه حامياً للمبشر الرسولي ويعامله وكأنه أحد أتباعه .

ويعتبر هذا التصرف في ذلك الحين خطراً ، لأن سلطته مازالت موضع شك . ويجب أن ينتظر خمسة عشر عاماً ليصبح حاجب القصر رجلاً يشار له بالبنان في المملكة الميروفنجية وفي الغرب كله . وكيف لايكون ذلك بعد أن اتجه البابا غريغوار الثالث في سنة ٧٣٩ و ٧٤٠ صوب شارل وطلب نجدته ضد اللومبارديين بعد أن أخذوا يهددون روما للاستيلاء عليها .

ويبدو أن السدة الرسولية ، منذ عهد جوستينيان ، أصبحت تابعة لسلطة أباطرة الشرق في القسطنطينية . وهؤلاء الأباطرة لايرون في البابوات أكثر من اساقفة ، ولذا كانت سياستهم الدينية ، حتى ووضعهم الديني، غير مطابقين لما عقد البابوات عليهم من آمال . ومنذ عام ٧٣٢ كان الامبراطور **ليون الثالث** يطمع في ادارة الكنيسة فأثار الحرب في دوله. وكان يرغب في الرجوع الى عبادة خالية من الأباطيل مع ماتجره عبادة الايقونات . وقد وقف في هذا الشأن موقفاً صارماً جعل الشرق حوله شعلة نار ، وهيأ الجو لقطع العلاقات مع بابا روما . ولم يعد هنالك مجال للتفاهم مع حكومة الأمبراطور بعد أن تبين للبابا عزمه على إملاء ارادته وتطبيق عقوباته على أموال الكنيسة الرومانية والاعتداء على سلطة البابا بعد أن ضيق ساحة عمله المباشر وأخذ منه بعض أقاليمه مثل كالابر ، وصقلية ، ودالماسيا ، والبلاد البلقانية ، وألحقها ببطر كية القسطنطينية. وفي مثل هذه الأحوال لايستطيع البابا أن يؤمل بمساعدة الامبراطور ، فضلاً عن أن هذا الأخير كان مثقلاً بالأعمال ومنهمكاً في الدفاع عن ممتلكاته في آسيا وأوربة الشرقية . وقد افزع البابا خطر اللومبارديين بعد أن قطعوا جرمانيا حتى شواطىء الدانوب وهاجموا ايطاليا عام ٥٦٨ . وقد عادت ايطاليا منذ ثلاثين سنة إلى حوزة الامبراطورية الرومانية واصبحت جزءاً منها وتحكمها القسطنطينية . حاول اللومبارديون انتزاع ايطاليا من أيدي أباطرة الشرق ، واحتلوا قسماً عظيماً من ايالات الشمال وبعض ايالات الجنوب ولم يستطيعوا الاستيلاء على روما ورافينه عاصمة أباطرة الغرب القديمة حيث يقيم « حاكم » ايطاليا ونائب الامبراطور الرسمي في شبه الجزيرة .

كان اللومبارديون أريوسيين ثم اعتنقوا الكاثوليكية الرومانية . غيران

زحفهم تأخر لقلة تفاهمهم مع بعض ومنازعاتهم الداخليـة ٠ الا أنهم على كل حال كانوا يؤلفون خطراً على البابوية . لقد كان البابا من الوجهـة النظرية اسقفاً من اساقفة الامبراطورية ، غير أنه عملياً حر في أفعاله ، بعيد عن القسطنطينية وعن رافينه وبإمكانه ان يعمل كأسقف عام . وقد أفزعه أن يكون اسقفاً المملكة اللومباردية . والحاق كرسي البابوية بهذه المملكة يمكن أن يكون بالنسبة للبابا كارثـة ، لاسيا وان بطريرك القسطنطينية كان ينازعه سلطته الدينية ويعاضده في ذلك الامبراطور ويعتبره مساعداً مباشراً له . ومادامت الحال هكذا فكيف الخلاص من الخطر ؟

هنالك حل ممكن : وهو اللجوء الى الفرنجة . ومنذ ذلـك الحين ، ولأول مرة تبدى للعيان ان سلام المسيحية في الغرب الأوربي لايمكن ان يكون الا باتحاد شارل الكارولنجي والبابوية . وعن هذا الاتحاد ظهرت نتائج عظيمة ودائمة .

في العام ٧٣٩ كان ملك اللومبارديين ليوتبراند يعسكر على مسافـة خمسة عشر ميلاً من المدينة الخالدة . ولم يكن الوقت وقت تردد . لذا اتجه البابا غريغوار الثالث نحو حاجب القصر الميروفنجي . وكانت الرسائل التي يوجهها الكرسي الاقدس الى « نائب ملك » الفرنجـــة تدل دلالة واضحة على رجائه الحار له ومعاملته « كابن مخلص لأمير الحواريين ، لتأخذه الشفقة بالدموع ، التي تذرفها عينا البابا ليل نهار أمام الخراب والدمار ؛ وليفكر أيضاً باستهزاء الناس الذي قد ينال من قوة الفرنجـة اذا تأخر أو ابطأ » . يضاف الى ذلك أن نغمة هذه الرسائل والبعثه التي أرسلها البابا غريغوار منذ عام ٧٣٩ الى شارل مارتل لتشرح له واقع الحال ، ان كل ذلك يدل على الأهمية التي يعلقها البلاط البابوي على مساعدة أمير الفرنجة وعلى الجاه الذي يتمتع به .

ولكن شارل رفض التدخل في شؤون ايطاليا لأن تحالفه مع اللومبارديين كان ضرورة ماسة لصد الهجوم الاسلامي على شاطئ بروفانس . ولقد كانت هذه الخطة التي اتبعها معقولة ، ولكن يجب ألا نرى فيها دليلاً على ضعف سلطته ، كما لمح في ذلك غريغوار الثالث في آخر رسائله . وها نحن نراه عام ٧٤١ « يستشير كبار رجاله في تقسيم المملكة بين اولاده » كما يظهر لنا ذلك من تاريخ فريديغير الذى يوصح بقوله : لقد اعطى شارل إلى ابنه البكر **كارلومان** : اوسترازيا وبلاد الآلامان وتورنجه والى ابنه الثاني **بيبن** : بورغونديا ونوستريا وبروفانس . واقطع إلى ابنه الطبيعي **غريفون** بعض أراضي في نوستريا واستراتزيا وبورغونديا .

ثم يضيف ان شارل مات في كيرسي في ٢٢ تشرين الأول ٧٤١ ، ودفن كداغوبير الملك العظيم في كنيسة القديس — دوني الشهيد . ولم يكن شارل ملكا بعد ولكنه تصرف كما لو كانت الملكية الميروفنجية غير موجودة.

حكم كارلومان وبيبن . — كان وصول اولاد شارل مارتل الى السلطة مصحوباً بثورة عامة في جميع اطراف الدولة . وسبب هذه الثورة ولا شك فقدان الملك وهذه الثورة تتمثل في :

١) قيام غريفون في وجه اخويه حسداً منه لهم .
٢) قيام دوق اكيتانيا هونالد بن اود
٣) قيام دوق الآلامان ، تيوبالد .
٤) قيام دوق بافاريا أو ديلون .

غير ان الاخوين قضيا على حركات العصيان هذه بشدة ، واضطرا للاحتفاظ بسلطتهما وتقويتها ان يضربا على هذه الحركات مرارا وتكراراً . وكانت جهود الحاجبين منصرفة الى تقوية نفوذهما الشخصي واصدار البراءات

باسمها . وقد بلغت بها الجرأة الى القول عن «مملكتها» ، حتى ان كارلومان عام ٧٤٧ كان يعتبر ان السيد المسيح عهد اليه باعباء الحكم .

كان الاخوان يقومان بمهام المملكة كما لو كانت المملكة مملكتهما . وقد عملا على تجديدها وبعثها، ويعقدان المجامع الدينية ويصدران البراءات التي تظهر ارادتها السنية .

ولكن حكم الأخوين لم يدم سوى ست سنوات . فقد تخلى كارلومان عن حياة العصر وعن السلطة الى أخيه بيبن واراد الانقطاع الى حياة التأمل ودخل أخيراً راهباً في دير مون كاسّينو،وبقي بيبن يحكم وحده . واول عمل قام به اطلاق سراح أخيه غريفون بعد ان قضى في السجن ست سنوات . وكان ذلك منه رأفةً ورحمةً بأخيه ، وفي الوقت ذاته سبباً في جر اخطار عظيمة عليه. فما تخلص غريفون من السجن الا وأخذ يثير المقاطعات على أخيه ، ولكن بيبن استطاع أن يرد أخاه ومن ناصره في حركته : وأخيراً ذهب غريفون ولجأ في اكيتانيا .

ويبدو أن الظروف كانت تلائم بيبن ليخطو خطوة حاسمة لتسنم العرش . فقد ظهر أنه كان يقيم العدل في القصر الميروفنجي الذي يسميه قصره ، ويأخذ مجلسه ويحيط به عظماء المملكة وأساقفتها وأدواقها وكونتاتها، وينفذ السلطة التي منحه الله إياها . وأخيراً قرر أن يزيح شبح الملك عنه ، ويحكم ملكاً حقيقياً ، ويبدل الاسرة المالكة .

انقلاب بيبن القصير .— كان بيبن يحكم المملكة وحده،فأراد أن يستفيد من هذا الظرف المؤاتي.ولمس بعض المعارضةمن دروغون ابن أخيه كارلومان ، فرأى أن يسرع قبل فوات الأوان . ولكن قلب الحكم الذي وطد العزم عليه ، قد يثير عليه مقاومات كثيرة ، لأن عمله يعتبر اعتداءً على الحكم

الشرعي ، وقد يجد مناوؤوه ما يبرر قيامهم ويكون حجة بيدهم . لذا اتجه بيبن نحو روما . وقد أوجد رجال الدين هذا الميل عنده لأخذ رأي البابا في المسائل التي تعرض عليه ، ولا سيا فيا يتعلق بأمور الدين . وفي العام (٧٥٠) أرسل ، إلى البابا زكريا ، بوركارد ، اسقف فرتزبورغ وفولراد أب دير القديس — دوني ليسأله ما إذا كان من العدل أن يحمل الأمير لقب الملك وليس له أي سلطة . فأجاب البابا أن من الأفضل أن يكون ملكاً من كانت بيده السلطة الحقيقية .

كان هذا التصريح قوة لبيبن . وفي تشرين الثاني ٧٥١ جمع كبار الدولة في سواسّون وطلب منهم أن ينتخبوه ملكاً على الفرنجة ، ثم أراد أن يخلع على هذا العمل رداء القداسة ، فأوعز إلى الأساقفة الحاضرين ، وعلى رأسهم بونيفاس ، أن يقدسوه بالزيت ، فجدد بذلك طقساً من طقوس اليهود . وهكذا أيدت سلطة بيبن غير الشرعية بقوة فوق طبيعية . أما الملك شيلديريك الثالث فجزت ناصيته وسجن في دير القديس — برتان .

بيبن والبابا . — توفي البابا زكريا عام ٧٥٢ فخلفه ايتين الثاني . واعترضت هـذا البابا منذ بدء بابويته مصاعب جمة : منها أن ملك اللومبارديين ايستولف كان يعمل على وحدة إيطاليا تحت سلطته ويهدد روما . ولكنه عقد مع البابا صلحاً لأربعين سنة ، ولم تمض بضعة أشهر على هذا الاتفاق إلا وأراد أن يفرض الجزية على سكان دوقية روما فدل بذلك على أطماعه ورغبته في بسط نفوذه عليها .

أثار هـذا العمل بيزنطه ولكن الامبراطور قسطنطين الخامس ، بن ليؤن الثالث وولي عهده ، لم يكن على استعداد لفرض احترام حقوقه في الغرب . وكان البابا يعلم ذلك ، وما أرسل اليه وفداً ليطلب منه العون

إلا لينقذ الموقف شكلياً . ولما وجد البابا نفسه في خطر محدق بعث بيبن يطلب اليه سراً أن يدعوه للمجيء إلى فرانسيا ليشرح له قلقه ، ورجاه أن يرسل اليه رجال ثقته . وكان ذلك فطنة من البابا ، لأن الطرق كانت موبوءة باللومبارديين وغير آمنة . ومن جهة أخرى كان البابا يريد ، قبل الذهاب إلى بيبن ، أن يحصل على شيء يدل على مسؤولية الملك الفرنجي تجاهه .

كان جواب القسطنطينية إلى البابا ان يطلب إلى ملك اللومبارديين الجلاء عن الأراضي التي فتحها . ولم يكن هذا الجواب إلا من قبيل الجواب الافلاطوني والاحتجاج الديبلوماسي . أما بيبن فقد أرسل إلى البابا رسولين ليطمناه عن نوايا سيدهما ويرافقا اتين الثاني إلى فرنسيا حسب رغبته . ولم يتردد البابا بين بيزنطه والفرنجة ، بل أخذ الطريق ميمماً وجهه شطر بيبن . وليريح البابا وجدانه مر في الطريق على ايستولف لينقل اليه ما كلفه الامبراطور به ، فكان جوابه اليه الرفض البات ، وقد توقعه البابا من قبل .

اجتمع البابا وبيبن في بونثيون وافتتحت المفاوضات بينهما ، وفيها رجا البابا بيبن رجاءً حاراً أن يضع حداً لمزاعم ايستولف وتهديداته ويؤمن حماية حقوق القديس بطرس و « جمهورية الرومانيين » . وتعهد الملك مقسماً اليمين أن يسترد من ايستولف مقاطعة رافينه وممتلكات الجمهورية .

كان في وعد بيبن شيء من الغموض . لأن رافينه لم تكن تابعة للبابا ، وقد فتحها اللومبارديون على حساب الامبراطورية . واذا كانت روما تحكم في الواقع من قبل البابا ، الا انها تعتبر من الوجهة الحقوقية

أرضاً من اراضي الامبراطورية . فاذا أعاد بين الى البابا ما أخـــذه ايستولف فمعنى ذلك اغتصاب لحقوق الامبراطور .

وليبرر البابا وجهة نظره اصطحب معه من روما وثيقـة تـدل على « **هبة قسطنطين** » للبابا سيلفيستر الاول وخلفائه من بعده . وفيها يمنح الامبراطور البابا روما وجميع أقاليم ايطاليا والغرب . وكان هذا الصك منتحلا الا انه كان يعكس رأياً مقبولا في روما .

ويضيف قسطنطين الى هذا الامتياز الاول هبة أخرى وهي : قصر لاتران وكنيسة القديس بطرس ، وحق حمل التاج والشارات الامبراطورية : الرداء الارجواني والبزة الحمراء والصولجان وعصا القيادة ، والحق في أن يكون له فرسان يرافقونه كما يرافقون المجد الامبراطوري ، والسلطة في تسمية قادة وقناصل ، وأخيراً السيادة المطلقة في روما وايطاليا والغرب كله .

هذه هي فحوى النص الشهير في هبة قسطنطين التي يرجع اليها غالباً في غضون العصر الوسيط ، وتبنى عليها نظريات كثيرة لها صداها الكبير . ويتضمن هذا النص ايضاً عدة بنود . ويضيف اليها قسطنطين ان احترامه للقديس بطرس يجعله يقوم بوظيفة السائس حيال البابا سيلفيستر الاول وذلك بأن يترجل ويقود « مطية البابا » .

وهذه الوثيقة في مجموعها لم تكن في أصل البروتوكول الذي تبني في بونثيون ، ولكنها تبرر مطاليب ايتين الثاني الارضية . وطلب بين من ايستولف أن يضع حداً لعدائه مع روما . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل . وعندئذ جمع الملك كبار المملكة في آذار وأعرب عن رأيه

في حرب ايطاليا لصالح البابا فقوبل بمقاومة عظيمة . وذلك لأن التحالف بين الفرنجة واللومبارديين يعتبر عندهم تقليداً سياسياً ، فضلا عن أن هذه الحملة بعيدة . وليقوي ايستولف المعارضة حمل كارلومان على مغادرة دير مون كاسّينو ليذهب الى فرانسيا ويحول دون هذه الحملة . ولقد كانت هذه المحاولة دون جدوى ، لأن كارلومان القي عليه القبض ووضع في دير فينا (في فرنسا) وبها توفي . واضطر أولاده أن يعيشوا رهبانا.

وعقد مجلس آخر في كيرسي على الواز . وفي هذه المرة استطاع ان بين أن يحمل كبار المملكة على الأخذ بفكرته والسير عليها . وأوضح تعهداته في بونثيون حيث تعهد بصك ، باسمه وباسم أولاده ، الى البابا بأن يمنحه رافينه ويؤمن له امتلاك هذه الارض مع دوقية روما

وكان بين يعمل بدوافع كثيرة مختلفة . فقد ساءه من ايستولف أن كان على استعداد لاستقبال غريفون ، لولا أن داهمت المنية هذا وقتل في إحدى ممرات الالب ، وكان يعول اذا رجع ظافراً ، أن يحصل على تأييد من البابا لوصوله الى السلطة . وقد تم لبين ما أراد في ٢٨ تموز ٧٥٣ ، فقد مشح البابا بالزيت المقدس بين واولاده وباركهم جميعا كما بارك الملكة حتى انه هدد الفرنجة بالحرمان من جماعة المؤمنين اذا انتخبوا ملكاً عليهم من غير أسرة بين وأنساله .

عزز هذا التقديس أواصر التحالف بين بين وأسرته وبين البابا فقد أوجد بينهم نوعاً من قرابة روحية ، ودل على أن الله والحواري بطرس يؤيدان بين في مملكته ، ويحميانه من كل محاولة يمكن أن تحدث عن طريق الملوك الشرعيين أو من أحد ابناء كارلومان . وفي الوقت نفسه اعلن البابا أن بين واولاده حماة روما . وهذا المنصب يخول

ملك فرنسا الدفاع عن روما وايطاليا الرومانية ، والاعتراف له بالحماية . وهذا العمل اغتصاب جديد لحقوق الامبراطور . وخاف بيبن تعقد الحوادث فلم يحمل ابداً لقب القائد أو الحامي .

حاول بيبن مرتين لدى ايستولف ، مع رسالة من البابا ، أن يجلو عن الاراضي التي هي من حصة البابا ،الا أن جهوده بقيت دون نتيجة . وعندها عبر بيبن جبال الالب وحاصر ايستولف في بافيا ، فاسترحم منه الصلح ، واضطر أن يعيد الى البابا رافينه مع بقية أراضي المقاطعة التي فتحها مع الاعتراف بالسيادة الفرنجية . ولكن بيزنطة لم تتخــل عن هذه الاراضي التي اصبح يتصرف بها بيبن بموجب حق الفتح . وقــد علمت بذلك مؤخراً فأرسلت الى بيبن وفداً تطلب اليه التخلي عن رافينه وأمارتها فرفض الملك رفضاً باتاً .

ولكن ايستولف عاود الكرة ولم يترك أي أرض للبابا ما خــلا أرض نارني ، ثم تجرأ واستردها منه ، واضطر بيبن مرة ثانية أن يعبر الالب ويحاصر ايستولف في بافيا ويجبره على الصلح . ولذا وجب تجديد خضوعه لملك الفرنجة مع دفع الجزية والعـدول عن كل فتوحاتـه في امارة رافينه ونارني ، والتخلي أيضا عن كوماكشيو . ونظم بيبن كل ذلك ومنحه الى القديس بطرس ببراءة مكتوبة ، وكلف الاب فولراد ان يتملك الاراضي ويسلم مفاتيحها حسب الاصول التقليدية الى روما وخليفة القديس بطرس .

وهكذا اصبح البابا سيداً لدوقية روما وأمارة رافينه ، ولا شك في أنه يعترف نظرياً بسيادة الامبراطور عليه ، ولكن هذه السيادة لم تجد

فرصة مؤاتية لتظهر فيها . وفي الواقع بقيت اراضي البابا مستقلة ولكنها لم تجد شكلا حقوقياً معيناً . ولذا يمكن اعتبار الجمهورية الرومانية دولة في حالة التشكل ، والسلطة الوحيدة التي تسيطر فيها هي سلطة بيبن الذي يراقب الى حد ما سياستها الداخلية .

فتح سبتمانيا . — كان العالم الاسلامي في منتصف القرن الثامن في حالة قلق واضطرابات كثيرة أضعفت مقاومته في بلاد الغرب : فمن ذلك قيام الخوارج في افريقية الشمالية عام ٧٤٠ وعصيان البربر في اسبانيا ، والنزاع بين العرب انفسهم من قيسيين وكلبيين في اسبانيا ، وحصول المجاعات التي أبادت البربر في شمال شبه الجزيرة الايبرية ، وانتقال الحكم الى ايدي بني العباس في بغداد عام ٧٥٠ ، وفتح اسبانيا عام (٧٥٥ — ٧٥٦) على يد عبد الرحمن الداخل الذي أسس امارته المستقلة في قرطبة وجعلها عاصمته .

وساعدت هذه الظروف بيبن على فتح سبتمانيا التي رغب فيها شارل مارتل من قبل . واستطاع أن يفتح نيم وماغيلون وآغد وبيزيه وما جاورها . الا ان ناربونه قاومت بشدة ولم تسقط بيده الا عام ٧٥٩ بعد أن قتلت الحامية العربية وأمن السكان على أنفسهم ان يعيشوا حسب القوانين الفيزيغوطية .

فتح اكيتانيا . — وكان بيبن كوالده يرغب في اخضاع اكيتانيا ، لسلطته المباشرة ، والتمس حجة لذلك ، وهي أن دوق اكيتانيا ، عندما التجأ اليه غريفون ، أخذ يضع يده على الكنائس الفرنجية في اكيتانيا ويخرق الامتيازات الملكية الممنوحة لها . وجرت بينه وبين بيبن عدة مواقع ، وطلب دوق اكيتانيا المفاوضة فأخفق ، وأخيرا وقع أسيرا بيد بيبن فقتله . وخضعت اكيتانيا الى الحق العام في المملكة .

علاقته مع الكنيسة . — وحاول بين أن يتبع سياسة التنظيم التي بدأ بها بونيفاس في جرمانيا فسعى في تحسين الوضع المادي لكل كنيسة باعطائها المنح . وأخيراً فرض ضريبة العشر ليعوض على الكنائس بعض أموالها المفقودة .

علاقته مع الشرق . — ان تدخل بين في ايطاليا جعله في علاقة دائمة مع بيزنطة . وجرى بينهما تبادل الوفود والهدايا ، ولكن هذه الصداقة لم تعمر طويلا، لأن الامبراطور أراد أن يزوج ابنه من جيزيل بنت بين فلم يقبل . وكذا اراد الوفد البيزنطي أن يوقع الخلاف بين البابا وبين في مجمع جانتي بشأن عبادة الصور فلم يفلح .

وعندما علم بين بدنو وفاته قسم كأبيه مملكته بين ولديه :

فأخذ **كارلومان** : المناطق الشرقية : بروفانس . سبتمانيا ، بورغونديا الالزاس ، آلمانيا .

و **شارل** : اوستوازيا ونوستريا . وقسمت اكيتانيا بين الاخوين .

وكان هذا التقسيم حداً نهائيا لوحدة الملكية .

الفصل الخامس

الحضارة الميروفنجية

الحياة الاقتصادية

لقد قوضت غارات القرن الخامس أشكال الماضي السياسية ، وبدلت تركيب الشعوب العرقي . ولكنها لم تؤثر في الحياة الاقتصادية الاقليلا .

الزراعة . — لقد كانت الارض ، كما في عهد الامبراطورية ، مصدراً أساسياً للثروة . فقد كانت غاليا وجرمانيا والبلاد المجاورة لهما تعيش على الزراعة وحدها تقريباً . وكانت الملكية الكبرى سائدة ، بيد أنها لم تكن في غاليا كما في ايطاليا وافريقية . لأن الارستقراطية الغالية — الفرنجية كانت تملك عدة دومينات مبثوثة في نواحي المملكة وتتراوح سعة كل واحد منها وسطيا بين ١٢٠٠ و ١٣٠٠ هكتار .

وكان **الدومين** مقسماً الى قسمين رئيسيين : قسم خاص بالامير أي المالك وهو اقل قسم من الاراضي الزراعية ويضم كروماً ومراعي وغابات ومروجاً ، والقسم الثاني يتألف من قطع صغيرة من الاراضي تسمى كل واحدة منها « مانس » وهي تؤلف وحدة الاستغلال ، وتكفي من حيث المبدأ ، لاعاشة فلاح وأسرته . ويحق المتصرف بقطعة الارض هذه التمتع بالغابة والمرج الخاصين بأراضي الامير .

وكان المتصرفون بالاراضي عادة ارقاء اقيموا نهائيـاً على الحصة المخصصة لهم ، وخاصة مزارعين صغاراً . وقد اعتبرهم القانون أحراراً ولكنهم كانوا في الواقع اقناناً وعبيداً للارض .

وقد لوحظ تقسيم الدومين الى قسمين منذ القرن الثالث على الاقل. وكان يشجعه نظام الضريبة في ظل الامبراطورية السفلى . ويقوم استغلال الدومين على الأرقاء الريفيين . غير أن عدد هؤلاء كان آخذاً بالتناقص . وعمل القنانة ضئيل المردود ونكبة للملاك . أما المزارعة فقد زالت ، أو لا توجد الا بشكل حالات فردية متفرقة في غاليا ، لأن المزارع على الطريقة الرومانية لم يكن رأسمالياً صغيراً فحسب ، بـل رجلا مسكيناً فقيراً معوزاً . ولما لم يكن باستطاعته تأدية بدل المزارعـة بانتظام مالاً سائلا ، فقد كان عرضة للطرد ، اذا لم يلذ بالفرار تلقائيا. وقد تدخل تشريع الامبراطور قسطنطين وخلفائه وجعل من المزارع الحر معمراً خاضعاً لظروفه الاجتماعية . وبالمقابل كان يحق له التمتع الوراثي بقطعة أرضه ، المانس ، وثبات اتاواته .

وهذه **الاتاوات** ضريبة تدفع مالاً وخاصة من ثمار الارض مع نقلها. وتدل النصوص على أن وارد المالك من المانس قليل ولكنه أكيد . ومن جهة أخرى ، كان لهذا النظام فائدة تتجاوز الفائدة الناجمة عن المانس وهي فائدة اليد العاملة الوفيرة والدائمة لاستثمار « احتياطي » الامير . وتأمن الزراعة بالسخرة ، وقيام المتصرفين بالاراضي بالأعمال الزراعيـة بالتناوب . وعلى الأقنان أن يخصصوا لاحتياطي الأمير نصف الاسبوع (٣ على ٦ أيام عمل) وعلى المعمرين أقل من ذلك . وبفضل هـذا النظام كان المالك آمناً على وجود سواعد تخدمه ، والكادح الريفي على

عدم طرده من مزرعته ؛ والرقيق نفسه وجد فيه مأوى وقـدرة على العمل لحسابه الخاص نصف الاسبوع .

وكان استغلال الارض سيئاً ، كما في القديم ، بسبب نقص العلم الزراعي . وكانت الزراعة نامية في كل مكان ، وخاصة زراعة الكروم. ثم اعتادت البلاد الجرمانية على زراعة الفواكه والخضار . وكان الدومين منطوياً على نفسه ، كما في الماضي ، ويقتصر على انتاج ما هو ضروري لتغذية سكانه ومسكنهم وتدفئتهم وإضاءتهم ولباسهم. وكان له صانعو عرباته وحدادوه ونجاروه وصباغوه وخبازوه . وكان نساء الاقنان يجتمعن في المشاغل وينسجن القنب والكتان ويغزلن الصوف . ويضم الدومين الطاحونة والمعصرة ومعمل الجعة وهي ملك للامير واستعمالها اجباري وغير مجاني للسكان . ويبدو أن الطاحونة المائية المعروفة في الامبراطورية الرومانية، والقليلة الاستعمال في الأرياف ، قد تعممت في العصر الميروفنجي وكانت تعتبر تقدماً تقنياً ، وفي الوقت نفسه حسنة من حسنات البشرية بعد أن وفرت على الارقاء العذاب الذي يلاقونه من استعمال طاحونة اليد .

وكان الدومين مستقلا من الناحية الروحية ، له كنيسته الخاصة ، وقد بناها الامير لنفسه ولعائلته في العصر الروماني ثم تنازل عنها للمتصرفين بالأراضي ، وخصص لها وارداً يصرف لاعاشة الكاهن القائم على خدمتها وخدمة المؤمنين .

وكان مسكن الأمير بعيداً عن أكواخ الفلاحين ، كما هي الحال في ظل الامبراطورية الرومانية . ويتألف من عدة أبنية كبرى تتقدمها أبواب معمدة ، وتضم اجنحة صيفية وشتوية . ولم يكن القصر ، باستثناء بعض الحالات ، حصناً بعد .

ولا يظن ان الملكية الصغيرة زالت من الوجود ، بل ان النصوص، ولو كانت نادرة ، تؤيد العكس . فقد وجـــدت ألوف من المنازل الصغيرة التي تؤلف قرية من القرى ، ولكن لم يكن لهـذه القرى أي مقوم أو نظام بلدي . وكانت تضم سكاناً من مختلف الأعمال والأشغال : تجاراً وصناعاً ، وخاصة أناساً يعيشون على الزراعة دون أن يكونوا أقناناً أو معمرين . وفي العصر الميروفنجي زالت الملكيات الصغيرة بسبب جشع الملاكين الكبار واعتدائهم ودخلت في الدومينات الخاصة .

هذا وتدل قوانين البرابرة على ان المجتمع كان ريفيا كاملًا ، والملكية العقارية ظاهرة أساسية ، والحياة قروية ، وسعة الدومين تختلف حسب الأقوام . ويسمى احتياطي الأمير بأسماء مختلفة ، وكذلك المتصرفون بالاراضي . ودار السيد مبنية بالخشب . والحياة في الشمال اقل زينة منها في الوسط والجنوب ، ولكن الأساس واحد . وفي القرن السادس كسبت الارستقراطية الفرنجية ، ان لم يكن سواد الشعب ، اراضي في نوستريا واكيتانيا وبورغونديا وبروفانس ، ولم يختلف نوع حياتها عن حياة « الشيوخ » . كذلك لم يختلف المزارعون من العرق الجرمـــاني عن الأقنان والمعمرين الغاليين — الرومانيين .

التجارة . — ان معلوماتنا عن التجارة قليلة وضئيلة . وقد أخذت عن الأخبار المتناثرة في آثار غريغوار تور وفي الدبلومات الملكية التي تعفي المؤسسات الكنسية من دفع الرسوم في بعض الاماكن التي يتأجر فيها ، وبعض الأعمال الحقوقية التي يخول المليك فيها المستفيدَ حق النقل والسكن والنفقات بطريق المصادرة . وبالرغم من فقر هذه المعلومات فهي تكفي لتدلنا على أن التجارة عادت في القرن السادس بعد أن هدأت موجة الغارات ، الى ما كانت عليه في زمن الامبراطورية .

ويبدو أن التجارة القديمة والوسيطة تقع على عاتق طبقة اجتماعية معينة ، طبقة التجار ، وهؤلاء يقومون بصفة فردية وخاصة تعاونية بالبحث في البلاد البعيدة عن السلع الخارجية أو بيع منتجات بلادهم . ومن الملاحظ أن الاخطار التي تواجه البضائع وتهدد الحريات وحياة التجار في أوقات الاضطراب توضح ضرورة اقامة رابطة فيما بينهم وضرورة تجمعهم . فقد كانوا يسافرون قوافل مع قوى مسلحة تواكبها . ويظهر التجمع في الأشخاص والبضائع . ففي كل مدينة يوجد حي أو على الاقل ساحة كبرى مغلقة شبيهة بالبازار أو الفندق في البلاد الاسلامية وتباع فيها البضائع . أما تجار المفرق أو الباعة ، وهم طبقة قليلة ومحتقرة في نظر الأقوياء ، فينتشرون في المدينة ويتجمعون في الشوارع حسب اختصاص تجارتهم الصغيرة .

وكان التاجر في الغالب أجنبياً وبقوة الأشياء . فلتجارة الحبوب والخمر والملح والأخشاب يمكن أن يكون التاجر من غاليا . وعندما يراد التجارة مع البلاد البعيدة كاسبانيا وايطاليا والقسطنطينية وسورية ومصر ، دون الكلام عن البلاد البربرية ، فمن الضروري أن تكون التجارة بأيدي أناس يعرفون الطرق واللغات الاجنبية ، ولهم مستودعات وعلاقات في الموانىء وأماكن لنقل التجارة الخارجية . فلا عجب اذا وجد في المدن التجارية في غاليا مثلا ، مثل باريس وارلئان وكليرمون ومرسيليا وبوردو ، عدد من اليهود والسوريين والاغريق . ولقد حل السوريون في وقت مبكر محل الإيطاليين في تجارة البحر المتوسط . على أن ضرورة التجارة كانت تقتضي من بعض التجار الاغنياء الاقامه والبقاء في البلاد التي يتاجر بها . ولنذكر ، على سبيل المثال ، أن الملك غونتران عندما دخل اورلئان ، في ٥ تموز عام ٥٨٥ ، هلل له الجمهور وهتف بحياته

حاملا الأعلام والرايات ، وكان يتغنى بمديحه « في لغـــة السوريين ، ولغة اللاتين ولغة اليهود » . ولم يكن هذا الجمهور مؤلفاً فقط من كبار التجار العائدين ، بل من كبار التجار المقيمين ايضاً ، وكان بين هؤلاء التجار السوريين أناس اشتهروا بتقواهم وصلاحهم . وقد حصل أحدهم ، عزيب ، من الملك في العام ٥٩١ على كرسي أسقفية باريس . غير أن السنة السوء زعمت أنه توصل الى هذا الكرسي بفضل ثروته وغناه .

وكان اليهود كثرة منتشرة في كل مكان ، ويتناول نشاطهم شتى الأعمال . وقد أرادت المجامع الدينية أن يحرم الملوك عليهم جباية الرسوم القضائية واستخدام خدام مسيحيين . وظلت هذه المطاليب مدة طويلة دون نتيجة . وفي العام ٥٨٠ أو ٥٨٢ قام الملك شيلبيريك بتعميد اليهود بالقوة في مملكته ، ثم استؤنف الاضطهاد في عهد داغوبير ولكنه لم يبلغ درجة الفظاعة التي وصل اليها ملوك الفيزيغوط في اسبانيا .

وأخيراً كان يرى التجار الاغريق في مارسيليا وآرل وناربونه .

اما النقل فكان يتم على الطرق الرومانية . وكان الملوك يتعهدونها بالعناية لحاجات الادارة والتجارة ويجبـون الرسوم على المركبات وحمولة الحيوانات ، كما كانوا يفيـدون من أعمـال السخرة في هـذه الطرق . وكانت البضائع تحمل على مركبات بدولابين أو ثلاثـة دواليب أو على ظهور الحيوانات أو البشر . وكان النقل على هذه الطرق متعباً ومكلفاً وخطراً . ولذا فضلت الطرق السيارة عليها كأنهار الرون والصون واللوار والسين والموز والراين مع رافده الموزيل . وكانت العنـاية بالموانيء وجسور الأنهار وعدواتها تؤمن بواردات الرسوم .

ومن أشهر الموانيء التي كانت تقوم بالتجارة : في الشـمال روان

وايتابل التي حلت محل بولون بعد أن خربها الساكسونيون في القرن الخامس . وكانت هذه الموانىء تتاجر مع بريطانيا العظمى . وفي آخر العصر الميروفنجي نهض ميناء دوروشتد على الراين الأدنى ، على حدود بلاد الفرنجة والفريزون . وعلى المحيط الاطلسي كانت نانت تتاجر مع اسبانيا واحياناً ايرلندا ، وبوردو مع اسبانيا أيضاً .

وكان **البحر المتوسط** ، كما في العصر القديم ، مسرح التجارة العالمية واشهر موانيه : ناربونه ، آرل ، مارسيليا . وعن طريق هذه الموانى كان البلاط الملكي والطبقة الارستقراطية وغيرها من الطبقات التي تحب البذخ والظهور تتمون بالحرير والعطور والخمور والتوابل (القرنفل والقرفة) والبلح والفستق التي يؤتى بها من بلاد الشرق وبخاصة من القسطنطينية التي أصبحت ممونا للعالم الأوربي . ومن مصر كان يؤتى بالبودي لصنع الكتب والديبلومات والمراسيم الملكية والصكوك الخاصة .

وتقوم **التجارة البرية** على الط ق الذاهبة من غاليا الى ايطاليا وهي: جبل جونيفر ، القديس برنار الكبير ، القديس برنار الصغير ، سبتيمر. وطريق الدانوب والقسطنطينية وآسيا الصغرى . غير أن هذا الطريق كان خطراً خلال قرون ثلاثة بمجيء الهون في القرن الخامس ، والآفار في القرن السادس ،والسلاف والبلغار في القرن السابع . واذا استثنينا ادوار الطمأنينة والهدوء فقلما كانت القوافل أو جموع الحجاج الذاهبة من غاليا أو جرمانيا تصل الى أهدافها .

ومع الفتح الاسلامي خفت **التجارة البحرية** بين بلاد الغرب والشرق . وفي بعض الاوقات توقفت . ولم يظهر الانحطاط مباشرة . ولم يكن الخلفاء الامويون مسؤولين عنه ،وذلك لأنهم تركوا الحياة الاقتصادية والنظام الضريبي البيزنطيين على حالها في سورية ومصر ، ولم يفكروا

بمضايقة التجارة الدولية لأنها كانت مصدراً من مصادر وارداتهم . غير أن فتح اسبانيا على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير عام ٧١١ أبعد الفرنجة عن البحر المتوسط وجعل المسلمين سادة الحوض الغربي منه . وقد اتفق توقف التجارة المتوسطية مع تفتت الدولة الفرنجية ونهاية حكم الميروفنجيين (٧١١ - ٧٢١) .

العملة . ـ كان نظام النقد الميروفنجي امتداداً للماضي . وكانت غاليا تعيش في الظاهر ، في ظل نظام العيار الذهبي . وبهذا المعدن كانت تدفع الضرائب . ووحدة النقد هي السو الذهبية التي تزن ٣٢٧ غ .

والقطع الذهبية ذات الوزن الجيد هي المضروبة بصورة الامبراطور البيزنطي ، واذا كانت غير ذلك لا تقبل في عالم تجارة البحر المتوسط . وكانت هذه العملة تضرب في مشاغل وادي نهر الرون . وهذا يدل على أن باقي غاليا وجرمانيا كان يتاجر قليلا أو لا يتاجر مع البحر الابيض المتوسط . وهذه العملة الامبراطورية المستعارة توقفت في بداية القرن السابع .

وأول ملك فرنجي تجرأ وضرب النقد الذهبي بصورته على مرأى من استياء بيزنطة ، هو تيبر . بيد ان هذا الضرب كان خاصاً بايطاليا التي احتلها خلال فترة من الزمن ، ثم قلده ابتداء من القرن السادس بقية الميروفنجيين . وفي بروفانس ومارسيليا كان السك الوحيد للعملة الذهبية سك ملوك الفرنجة وخاصة ملوك اوسترازيا من كلوتير الثاني (٦١٣ - ٦٢٩) الى شيلدوبير الثالث (٦٩٥ - ٧١١) ثم توقف . ومع ذلك فان العاديات ، أي المخلفات النقدية التي تركها سك العملة الملكية، كانت نادرة . وهذا ما يجعلنا نعتقد أن هذا النقد كان حادثاً عارضاً .

ووجد أيضاً سك نقود اسقفية وديرية ، ولكنه كان مبعثراً ولم يكن موفوراً بغزارة . غير أن ضاربي النقد منَ الأفراد تركوا نماذج متعددة ومتنوعـــة عن نشاطهم . ومن المهم أن نذكر أنها ظهرت لأول مرة في وادي نهر الرون في النصف الثاني من القرن السادس . ومن هـذه المنطقة نقل الضاربون خبرتهم إلى سائر بلاد غاليا .

غير أن ضرب العملة الذهبية قد توقف في بداية القرن الثامن . وهذا التوقف يتفق مع خراب تجارة البحر المتوسط ، لأن الشرق سحب ذهب غاليا دون مقابل ، إذ لم يكن لديها بضاعة لتبيعها له أو أنها كانت في حال لا تمكنها من ارسال شيء له . ولذا كانت العملة الفضية العملة الوحيدة التي تدخل في الحسابات حتى حكم الملك القديس لويس .

هذا بالاضافة الى أن ندرة العملة دعت الى اعادة ضربها من جديد وتخفيض وزنها . وهذه الندرة أدت ، على الأقل في اوسترازيا ، الى دفع الديون عيناً فتدفع بالحيوانات قياساً إلى وحدة النقود الذهبية المعتبرة .

الصناعة . ـــ لقد كان الدومين الأميري والمدينة الحرة يعيشان من منتجات أرضها ويصنعان معظم أدواتها وملابسها وكل ما يحتاجان اليه . وكانت ممارسة هذه الصناعة الريفية عادة دائمة . وكذلك الأديرة كانت تكتفي بنفسها . ويبدو أن أجمل الانسجة كانت تخرج من أديرة النساء . والنتيجة الحتمية لذلك هي أن الريف لم يكن بحاجة لصناعة ، ولم يكن في المدينة صناعة ، ولم يكن فيها ، على ما يبدو ، هذا التخصص الذي اشتهرت به المدن من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر وهو صناعة الاقمشة .

والصناعة الوحيدة التي عاشت في المدن الفقيرة هي الصياغة وعمل المينا وصنع الاسلحة . لأن البلاط ورجال الطبقة الارستقراطية يحبون الجواهر والألبسة الفاخرة والأسلحة المتينة والجميلة . وكان من الضروري أن يوجد في

بعض المدن ، ان لم يكن في كلها ، صياغ وصناع دروع ومطرزون . غير أن الطلبات المتباعدة التي هي من هذا النوع كانت محدودة ولا تكفي لاعاشة هؤلاء الصناع المهرة .

غير أن الصناعة وجدت أحسن زبائنها في الكنيسة . فقد بنيت في ذلك العصر كاتدرائيات وكنائس كثيرة . وهذه الابنية كانت بحاجة الى جهاز دائم من البنائين والنجارين والزجاجين والنحاتين . وكانت هذه الكنائس مزدانة من الداخل بالرسوم والفسيفساء والرخام والجلائل . وهذا العمل للأسقف خاصة يوضح كيف أن صناع المدن وقعوا تحت سلطته الزمنية والروحية .

المدن . — إذا استثنينا المنطقة الرينانية وبلجيكا وجدنا المدن القديمة على حالها حية باقية . ويجب أن نشير إلى أن المدن التي تهدمت مثل ماينس وكولونيا نهضت في القرن السادس . ولكن لم تظهر أي مدينة هامة في العصر الفرنجي . وفي الحقيقة كانت هذه المدن تختلف تماما عن المدن المعاصرة في العالم الإسلامي ، مثل بغداد وقرطبة والقاهرة ومراكش . لقد كانت مدن هذا العصر صغيرة ومثلها المدن التي يسكنها الملوك مثل باريس ، اورلئان ، شالون على الصون ، سواسون ، رنس ، متز ، ولم تزد مساحتها خلال مدة كبيرة امتدت من آخر القرن الثالث الى آخر القرن الحادي عشر . وكان سكان الضاحية التي تحيط بالمدينة سكان الاديرة لان المدينة صغيرة ولا يمكنها استيعابهم .

وكان يغلب على هذه المدن الطابع الريفي . ففيها توجد حدائق وكروم ، وفي شوارعها تطوف أسراب الخنازير والبقر والطيور . ولما كانت هذه المدن لا تستطيع أن تتسع خارج الاسوار ، لذا كان الريف يدخل اليها ويقيم فيها ؛ فضلاً عن أن هذه المدن كانت متكاثفة على نفسها

وتلتصق منازلها ببعض ، وسكانها قلائل ، ولا يتجاوز نفوسها من ٨ الى ٩٠٠٠ نسمة . وأكثر المدن يتراوح نفوسها بين ٢ و ٥٠٠٠ نسمة . وكان جوها خانقاً ومنظرها حزيناً ، ولذا كان الملوك يفضلون أن يعيشوا في الريف في دومينهم . ولم يكن لهذه المدن مجلس بلدي ، وزوال هذا المجلس كان مرتبطاً بالحياة الاقتصادية التي جعلت منها جسداً بلا روح ، حتى أن الكونت جعلها مقراً عادياً له وأخذ يديرها كما يدير الريف بصورة استبدادية . غير أن شخصية أخرى أخذت تحل محل الكونت وهي الاسقف لان سلطته الروحية واحسانه وثروته جعلت منه مواطناً أصلياً في المدينة ، حتى أن المدينة في آخر العصر الميروفنجي أصبحت بكاملها بين يديه ، ولم يبق للكونت نفسه مكان لسكناه . واذا صرفنا النظر عن المجتمع الموسر ، وهو بالضرورة محدود ويضم عدداً قليلاً من التجار وأكثرهم أجانب ، وجدنا سكان المدينة صناعاً فقراء يعيشون على توصيات الكونت وأكثر من ذلك الاسقف ، واكليركيين وفلاحين . وفي آخر العصر الفرنجي فقد هذا العالم الصغير حريته لان سكان القرن العاشر والحادي عشر أصبحوا أقناناً متعلقين بالارض .

ولا شك في أن هذه الظاهرات خطرة على الحضارة لانها تؤدي الى ركود المدن ، ولان الفن والعلم والآداب لا تعيش إلا في المدن وانحطاطها يؤدي إلى تأخر الحضارة .

وصفوة القول ان الحياة الاقتصادية في العصر الميروفنجي كانت تسير على خطا الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الرومانية الراحلة ، وان الاقتصاد كان في تدهور مستمر منذ عصور مديده ، والعصر الميروفنجي نفسه يتمم انحطاطاً سابقاً . فامتداد المدن الضعيف ، وزوال الحياة المدنية ، وفقدان العاصمة أو المدن الجديدة لتدل جميعاً على أن الحياة الاقتصادية لم

تنهض من القرن السادس الى القرن الثامن . واذا قلنا بوجود تجارة دولية وصناعة وطبقة تجار ممتهنين فما هو حجم المبادلات ؟ نجهله . ومن عجب أن يقال أن مارسيليا مركز اقتصادي منتعش بصورة خاصة ، وان ملاحتها النشيطة تربطها بالقسطنطينية وسورية وافريقية ومصر واسبانيا وايطاليا ، بينا ظلت مدينة صغيرة يبلغ محيطها ٢٥٠٠ متر على الاكثر، وسكانها يتراوحون من ٨ الى ٩٠٠٠ نسمة . ومن المحتمل جداً أن تقتصر هذه « الملاحة النشيطة جداً » في كل سنة على ارسال اسطول صغير يتألف من هذه السفن القديمة القليلة المحمول . أما تجارة البذخ فهي بالضرورة متباعدة ولا تمثل وزناً ضخماً من السلع . وفي الحقيقة ان الرأسمال كان في بدء تكونه ، والتجارة الميروفنجية لا تدل على النظام الرأسمالي الا من بعيد .

الفن

البناء . — لقد كثر البناء في العصر الميروفنجي وخاصة بناء الكنائس ولسوء الحظ لم يصلنا منها أي بناء كامل سليم . ولم يحافظ تقريباً الا على الكنائس التي انشئت تحت الارض وعلى مدافنها . وبالمقابل عرفت أبنية تعميد وأشهرها بيت تعميد القديس يوحنا في بواتيه . واذا اضيفت هذه الاطلال الكنسية الى الاوصاف المبهمة لتأكدنا أن الكنائس في غالبا حافظت دوماً على المخطط البازيليكي . وينقسم داخل هذه الكنائس الى ثلاثة أقسام : القسم الاوسط وهو الاعرض والاكثر ارتفاعاً من القسمين الجانبيين . والبناء مغطى بالخشب ، ويتلقى النور من النوافذ العليا في جدران القسم الاوسط . والداخل مزين بالفسيفساء والصور ، والورق الملصوق على الجدران والجلائل. ولم تكن هذه الابنية كبيرة جداً .

ان تواضع ابعاد هذه الكنائس يوضح لنا ضعف كثافـة السكان المدنيين . وعندما نهضت الحياة الاقتصادية في القرن الحادي عشر وازداد سكان الحواضر المدنية ، قوضت هذه المباني الجليلة الكنائس التي التهمتها النيران او دمرها العدو ، وبنيت من جديد لتكون متناسبة مع الحاجات الجديدة ورغبات السكان .

أما الكنائس ذات القبة المركزية (الوسطى) فقد نشأت في الشرق ولم تصل غاليا ، وكذلك كان استعمال الآزج الحجري مجهولاً أيضاً . أما البناء المدني فلم يبق منه شيء . ومن المحتمل أن تكون القصور التي شيدت في الشمال في الاراضي الملكية قد بنيت من خشب .

التصوير والنحت . — ولم يبق شيء من التصوير الذي كان يزين الكنائس وفيلات الملاكين . وسقط فن التشكيل سقوطاً ذريعاً وسريعاً منذ عهد قسطنطين . ولم يعد أحد قادر على صنع تمثال أو لوح منحوت. وما مضى القرن الخامس في الغرب ، وحتى في القسم الشرقي من الامبراطورية ، الا وكان الفنانون غير قادرين على نسخ الجسم البشري بشكل منحوت ، يضاف الى ذلك أن نحت الحيوانات كان فيه من عدم الحذق وقلة الخبرة شيء كثير . وكان يرسم على تيجان الاعمدة تزيينات مأخوذة عن الماضي المسيحي كالصليب والسمكة ؛ أو عن الفن الروماني الشرقي كالجدائـل والشباك والنجوم والسعف ؛ أو عن الفن الايراني الذي نقله الجرمان كأسنان المنشار والتزيينات المتشابكة أو المعوجة الملتوية . وهذه الزخارف منحوتة بشكل سطحي . وهكذا أصبح النحت تزييناً وينفذ بأيدٍ غير ماهرة . وكانت التوابيت الحجرية أو الرخامية ، التي تسجى فيها الشخصيات المرموقة ، خالية من اللوحات المنحوتة كما في القرن الخامس أيضاً . وباستثناء الجنوب الغربي من غاليا كان يكتفى بضع ملامح لتصوير الصليب وطغراء المسيح

والحمامات وأواني تخرج منها عناقيد العنب . أما النحت على العاج الذي لاقى في القسطنطينية مصيراً جميلاً ، فيبدو أنه انقطع عن الوجود في غاليا ابتداءً من القرن السادس .

الفسيفساء . — أما الفسيفساء التي تضيء امبراطورية الشرق الرومانية ، وحتى ايطاليا ، فلم يحفظ منها نموذج الا قليلاً ونادراً . وان التزيينات الحيوانية ، كالاسد والتنين والطاووس والوعل والحوت البحري وغيرها ، لتذكر بالانسجة الفارسية التي كان لها تأثير كبير على الفن في الغرب ، بالرغم من أن أنسجة من هذا النوع لم تصنع في الغرب .

التصوير والمنمنمات . — لقد كانت جدران الكنـائس وصالات الفيلاّت الغنية مزدانة بالصور ، ولكن زال كل شيء منها .

أما تصوير المخطوطات فلسوء الحظ لم يصنع الغرب شيئاً مرموقـاً بالنسبة الى منتجات الامبراطورية الشرقية ذات النشاط الفني العجيب ، وأشهرها أسفار التوراة الخمسة في تور . فقد نفذت في القرن السادس أو القرن السابع ، وكانت نتاجـاً فنياً هزيلاً ومضحكاً . لقد كان فنان الغرب غير قادر على تأليف مشهد ، أو تصوير الجسم البشري ، ولذا اهتم برسم الاحرف الاولى بأبعاد عظيمة ، وتصوير الحيوانات ذات الاربع ، والاسماك والزواحف والطيور ، ورسم التزيينات النباتية بألوان حمراء وخضراء وصفراء .

وفن تصوير الكتب يرجع في أصله ، كفن صياغة الحلي ، الى الشرق . وقد استلهم فنانو الغرب هذا الفن بحرية عن النماذج الساسانية في فارس .

الكتابة . — وكانت الكتب مؤلفة من دفاتر من الرق وتصبغ

أحياناً بالارجوان من أجل النصوص المقدسة . ويستعمل فيها ثلاثة أنواع من الكتابة الرومانية . أما ورق البردي فقد نفد استعماله في غاليا في آخر القرن السابع ، وكان يخصص للأعمال الادارية وعقود الافراد . وابتداءً من القرن السابع خاصة وجدت عليه نصوص تاريخية مثل مخطوطة غريغوار تور وفريديغير ، وقد كتبت بالكتابة الميروفنجية الفظيعة . أما الكتابة اللاتينية في القرن الخامس فقد أدخلت في الآثار المقدسة والادبية لانها تشغل مكاناً قليلاً وتكتب بسرعة .

فن الصياغة . — لقد ترك هذا الفن منتجات فخمة احياناً وكان منتشراً في اوربة كلها . وقد ظن ان هذا الفن ابداع جرماني ولكنه في الحقيقة ايراني الأصل . ومن المحتمل ان يكون الغوط اثناء اقامتهم في اكرانيا في القرن الثالث والرابع قد اخذوه عن السارماط ونشروه في هجراتهم عند الجبيديين والفاندال والآلامان والبورغوند ، ثم وصل الفرنجة والانغلو ساكسون والاسكاندينافيين . كما راجت صياغة المجوهرات ووصلت بيزنطه ولعبت هذه دورها في نقلها إلى الغرب .

وهذا الرواج ،الذي لاقته الصياغة في مجتمع قاس متكبر مزهو ، ساعد على صياغة حلي ذهبية وفضية وبرونزية مزدانة بالاحجار الكريمة من خواتم وعقود ودمالج وشكالات وازرار وأسلحة وقبضات سيوف وأغمدة وأحزمة وأدوات عبادة كالكؤوس والصناديق التي تحفظ فيها بقايا القديسين والتيجان النذرية .

وصفوة القول ان الفن في غاليا وجرمانيا ، من القرن السادس إلى القرن الثامن ، كان مجرداً من الأصالة . لقد كان تكملة لانحطاط القديم أو تقليداً ضعيفاً لفن جديد من أصل ايراني كما في صناعة الحلي وتزيين

الكتب . ومن عجب أن النهضة الفنية في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، في القرن السادس ، كان لها تأثير ضعيف جداً في مناطق ما وراء الألب ولم تدب فيها أي قوة جديدة .

الآداب

الأدب . — لانستطيع ان نجد في هذا العصر كاتباً كبيراً . فمنذ اربعة قرون ، من امبراطورية تراجان ، لم تعد الآداب اللاتينية . وعلى الأقل الآداب الدنيوية ، لتنج سوى آثار تقليدية . لقد عقمت عبادة النماذج القديمة الفكر ، وسم حب الفصاحة الشكل ، وأصبحت المدرسة عاجزة عن تقويم هذا الطيش بل وكانت تفسد الذوق .

وابتداءً من القرن الثالث كان الأدبُ الحي الأدبَ اللاتيني المسيحي ويتمثل باسماء لامعه : ترتولين . أرنوب ، القديس سيبرين ، القديس امبرواز ، القديس جيروم ، القديس اغسطينوس ، وفي الشعر برودانس . ولسوء الحظ لم يعرف هؤلاء الكتاب أو لم يستطيعوا التخلص تماماً من جاذبية الفصاحة الساحرة .

وهنالك عقبة أخرى وهي حالة اللغة . فالاختلاف بين اللغة ، التي تستعملها الطبقات العليا في المجتمع ، وخاصة عندما تكتب ، ولغة التخاطب المبتذلة أيضاً في ظل الامبراطورية العليا ، كان في حالة تفاقم ، وعلى الاقل ابتداءً من القرن الرابع . ومع الزمن أصبحت اللغة اللاتينية الدراجة العادية لغة وطنية جديدة . وتقوض شكل الكلمات وزال الاعراب ،وفقدت اللغة ثلاثة ارباع الكلمات أو بدلتها بتعابير عامية ،وتأثر تركيب الجملة بهذه التغيرات الكثيرة ، وغدت اللغة التركيبية لغة تحليلية .

غير ان الطبقات العليا ، التي حافظت على ذكرى اللاتينية الكلاسيكية ، لم تكن سوى اقلية في المجتمع . فالموظفون والشيوخ الاغنياء ظلوا يتكلمون اللاتينية التقليدية في ظروف استثنائية . ولكنهم ، في سياق الحياة العادي، اخذوا ، منذ القرن الخامس على الأقل ، يستعملون اللغة العامية مع افراد الشعب من مواطنين ومعمرين وارقاء ، وحتى فيما بينهم أيضاً .

وفي الحقيقة ظلت اللاتينية ضرورة بدوام الامبراطورية في الغرب ، لأنه لا يمكن لأحد الوصول إلى الوظائف العليا في الدولة مالم يعرف اللاتينية المكتوبة معرفة واسعة . يضاف إلى ذلك ان نظم الأشعار وانشاء الخطب والمدائح التقليدية حسب هوى الزمن وذوقه بقيت متماسكة واستمرت رغم ضعفها في ايطاليا تحت حكم اودواكر ومن بعده تحت حكم الاوستروغوط .

اما في غاليا فقد زالت هذه التقاليد ، وخاصة عندما وضع الميروفنجيون ايديهم على البلاد . ولا شك في ان بعض الملوك، مثل سيجوبير وشيلبيريك ، قد اعجبوا بمدح الشاعر فورتونا ، أو أظهروا انهم فهموا اشعاره المعقدة ، ولكن كان على من يريد الوصول إلى البلاط الفرنجي أن يسلك طرقاً أخرى أكثر مباشرة من الشعر اللاتيني .

وكذلك زالت المدارس العامة في غاليا قبل منتصف القرن الخامس ، ولم يبق سوى اساتذة خاصين ، وأصبح التعليم يكلف غالياً ، وأخذ عدد الاساتذة يتناقص باستمرار .

ومنذ منتصف القرن السادس كف الغاليون — الرومانيون ، وحتى في الاوساط الارستقراطية ، عن التكلم فيما بينهم بلغة أخرى غير اللغة اللاتينية العامية . وقد دلت كتاباتهم على عدم الحذق والصحة ، وأصبحوا

كمن اقاموا في الخارج ونسوا استعمال لغة الأم ، وحاولوا انعاش ذكريات بعيدة عنهم ، وقلما ينجحون في هذه المحاولة . اما المتعلمون أو المثقفون من درجة أدنى، مثل محرري الوثائق والدبلومات والصيغ القانونية والاستمارات وغيرها فكان جهلهم وقلة معرفتهم ظاهرين لذي عين .

وهناك عقبة أخرى ، من نوع أخلاقي وديني ، تتعارض مع كل محاولة تجديد للآداب ، وعلى الاقل في الناحية الدنيوية . فقد ظل الوثنيون يأخذون على المسيحيين الفقر أو عدم الانتاج . بيد أن القرون الثالث والرابع والخامس شهدت تشكل ادب مسيحي عظيم . وسواء عن تقليد أم عن حرص على الادب الانساني ، لم يشأ القديس جيروم والقديس اغسطينوس وسيدوان ابولينير ان يشجبوا الآداب الدنيوية ، بل حافظوا على ضرورة دراستها .

أما في القرن السادس فقد كان القديس سوزير نفسه في آرل (٤٧٠ — ٥٤٣) مفعماً بهذه الثقافة القديمة ، ولكنه تجرأ على شجبها والحكم عليها بالبطلان ، وقال : على المسيحي أن يتكيف مع النصوص الدينية المقدسة وكتابات آباء الكنيسة . وسيعود هذا الشجب ثانية بعد قرون ، ومن سلطة أقوى وهي سلطة البابا القديس غريغوار . وعلى هذا النحو ظفر التعليم الديني الجديد في غاليا وايطاليا نفسها في النصف الثاني من القرن السادس ولولا تأثير الرهبان الارلنديين لزالت الآداب القديمة نظراً لعدم الاهتمام بنسخها .

وبعد فلا عجب إذا منيت الآداب القديمة بالانحطاط ، لاسيما وان حماتها الأبرار أخذوا يودعون الدنيا الواحد بعد الآخر . فقد مات سيدوان ابو لينير عام ٤٨٤ ، وهو آخر أمير كبير مثقف في غاليا . وكان أكبر حبر في المملكة البورغوندية آفيتوس ، أسقف فينّا في فرنسا من ٤٩٠

إلى ٥١٨ . فقد كتب اشعاراً مسيحية ورسائل في المعلومات الدينية ، باسلوب ناعم دقيق وغامض يكاد يكون صحيحاً ولا غبار عليه . ثم خلفه آخرون في بروفانس يتذوقون الآداب القديمة ، ولكنهم لم ينتجوا أي أثر هام . وعلى ما يبدو ان أواخر الادباء الانسانيين في الجزء الأول من القرن السابع كانوا أساقفة ، مثل ديدية فينا وديديه كاهور .

وفي الشعر لانجد انتاجاً يستحق الذكر خارجاً عن انتاج **فورتونا** ، وهو الشاعر الوحيد في العصور الميروفنجية ، ولكنه شاعر لاتيني أجنبي . ولد في تريفيز حوالي العام ٥٣٠ ودرس في رافينه ، وحج عام ٥٦٥ لزيارة ضريح القديس مارتن في تور ، ولم تر عيناه الغزو اللومباردي الذي عاث في وطنه . لازم الملوك الفرنجة ، وكان صديقاً للملكة راديغوند ، زوجة الملك كلوتير الأول ، ومحبها ، وأقام في بواتيه وأصبح اسقفاً لها ، ومات في السنوات الاولى من القرن السابع . وكان الملوك يقدرونه مع المثقفين العلمانيين والاكليركيين . وترك فورتونا قصائد في المدح والرثاء ومناسبات الأفراح والاتراح والهجاء وسير القدسين ، وأثره الشعري يتألف من أحد عشر كتاباً .

والمطلع على آثار فورتونا يحكم عليه بضعف الذوق وعدم الاخلاص . ففي عرس سيجوبير وبرونيهو يشيد بالمدح ويشبه العروسين بكوبيدون وفينوس . وفي تعزيته لفريديغوند على مصابها بفقد أولادها يعدد شيوخ وملوك العهد القديم الذين تحملوا وطأة القدر . وهو في كل ذلك تافه ومضحك ، ويرائي بشكل دنيء ، غير أنه لايخلو من لمعة ، فاشعاره عن موت غالسويند وعن خراب تورنجة مثلاً تنم عن هياج وعاطفة وحساسية منبعثة عن نسمة شعرية حقيقية . وهو يكتب الشعر بسهولة ويسر ، ولكن وتر قيثاره لايرن دوماً بدقة وصدق ، والتباين واضح

بينه وبين سيدوان ابولينير اكبر مثقف في العصر الفائت . ولم يكن سيدوان بأقل منه ذوقاً سيئاً وربما كان اكثر تفاهة . ومع هذا فقد سيطر فورتونا على عصره بشعره ، وعندما توفي لم يجرأ أحد على كتابة الشعر .

يضاف إلى ذلك ان النظـــام الجديد والتعليم المسيحي الذي فرضه سوزير آرل لم ينتج عنها أي أثر لاهوتي أو اخلاقي ، وكانت غاليا في هذا الحقل عقيماً . غير أننا نجد في هذا العصر مؤرخين أو اخبـــاريين ، ومؤلفين في سير القديسين .

التاريخ . — غريغوار اسقف تور (من ٥٧٣ إلى ٥٩٣ أو ٩٥٤) أشهر المؤرخين . كتابه الأساسي « تاريخ الكنيسة الفرنجية » . وقد كتبه معترفاً بنقص ثقافته القديمة ، وجمع حوادثه من الماضي القريب وقص فيه ما رآه دون اعمال أو تصنع في الاسلوب ، محـاولاً الكتابة باللغة اللاتينية الصحيحة ، ولو لم تكن رشيقة ، احتراماً منه للقارىء . ولكنه لم يوفق كثيراً . كان قليل الذكاء ، شغفاً متحمساً عاطفيـــاً يعتقد بالخوارق ، وتشوب كتاباته معلومات غير صحيحة وخاصة عندما تتعلق بأحداث غربية عن غاليا الرومانسية . ويؤخذ عليه اسلوبه الركيك وتحيزه وهواه ، ولكن عدم الاهتمام باعمال الاسلوب وتنقيحه جعل لاثره حلاوة وطلاوة خاصة ، وأمن له مكاناً فريداً مرموقـــاً في أعلى العصر الوسيط . واثره على مافيه من عيوب لايخلو من قيمة أدبية تتميز باللون ووصف الأشخاص والأحوال ، وهذه المتعة التي يشعر بها القارىء تشفع للمؤرخ وتعتبر أفضل شهادة لصالحه .

وعندما ينتقل القـارىء من « تاريخ الفرنجـة » لغريغوار تور إلى تكملته حتى عام ٦٤٠ يشعر بسقوط مفاجىء . وقد كتب هذه التكملة

عام ٦٦٠ راهب بورغوندي مجهول سماه ناشروه الأوائل في القرن السادس عشر فريديغاريوس (فريديغير) ، ولا يعلم سبب هذه التسمية . والمعروف عنه انه انسان غير معجب بنفسه . كتب في مقدمة كتابه : « لقد شاخ العالم ، ونبا حد المعرفة ، وما من انسان في عصرنا يضاهي خطباء الماضي » . ونراه يتكلم بحق عن غلاظة أسلوبه .

أما الكتيب المسمى « تاريخ الفرنجة » أو « تاريخ حكم الفرنجة » الذي الفه راهب من دير القديس — دوني بعيد ٧٢٧ فهو مصدرنا الوحيد عن السنوات التي تذهب من ٦٥٧ إلى ٧٢٧ لأن البؤس الأدبي يصل إلى الدرك الأسفل . وبعد ذلك اقتصرت الكتابة التاريخية على جمع الحوادث الجوية السنوية بشكل **حوليات** .

سير القديسين . — لقد كانت سير القديسين نوعاً أدبياً رائجاً يستجيب لحاجات العصر ، لأن كتابة حياة قديس ، سيد كنيسة من الكنائس أو دير من الأديرة ، كانت تعتبر واجباً دينياً وعملاً تقياً ، كما كانت وسيلة لجذب المؤمنين والحفاظ عليهم لزيارة القديس . فقد كانت تقرأ صفحات من حياة القديس أمام الاتقياء والحجاج في يوم عيده أي في اليوم الذي ولد فيه للحياة الجديدة بعد الموت . وكانت حياة القديس الأرضية من حيث المبدأ موضع تمجيد واطراء . ومما لاشك فيه أن السيرة كانت توضع لخدمة غرض من الأغراض . فقصة الخوارق التي تتم على قبر القديس أو في حياته كانت عنصراً اجبارياً في السيرة كالتوابل أو الملح في الطعام ، وبدونها لاتظهر كرامة القديس . واذا كان المؤرخون يشكون من أن هذه المؤلفات لاتزودهم الا بحصيلة علمية ضئيلة ومشكوك بصحتها في الغالب ، فهم ينسون انهم أمام مؤلفات غرضها الاول التمجيد والاشادة لا الإعلام .

ولقد احتفظ بعدد عظيم من « سير » القديسين النساك و « آلامهم » من أساقفة وآباء القرن الخامس والسادس والسابع والثامن ، واعيد تأليف بعضها او الفت في العصر الكارولنجي او بعده أيضاً . واقدم سير القديسين سيرة القديس جرمن الاوسيري المتوفى عام ٤٤٨ التي الفها عدد من تلاميذه . وهي سيرة رصينة وبسيطة ومثقلة بالعجائب والخوارق ، لغتها صحيحة ، وليس في اسلوبها كثير من البلاغة ، وتغلب عليها الصفة الأدبية .

وكانت السير في القرن السابع مفيدة وقيمة رغم ما تخدمه من اغراض سياسية . ولكن اسلوبها فسد فيما بعد ، واكثر من ذلك ايضاً أن السيرة أصبحت نوعاً ادبياً تقليدياً . فقد كان المؤلفون ، وخاصة عندما لا يعلمون شيئاً أو يعلمون قليلاً عن بطلهم ، لا يترددون في سلب سير القديسين السابقين ، او في سد نقص اخبارهم ومعلوماتهم بتوسيعات من بنات افكارهم . ومن هنا غلبت على هذه المؤلفات صفة الانتحال والرتابة والملل لأنها تسبب للقارىء الضجر والسأم بل والكراهية ، وخاصة لكثرة مافيها من اخبار غير قابلة للتصديق مطلقاً .

كسوف اللغة اللاتينية الاتباعية — لم يبق حوالي منتصف القرن السابع أحد في غاليا قادر على الكتابة باللاتينية الصحيحة ، ان لم يكن بالنقية السهلة . ولولا الاكليروس الاسكوتلاندي والانكليزي والايرلندي وتلاميذه لزالت اللاتينية كلغة للأدب والتأليف . وقد اضطر هؤلاء الرهبان بحكم جهلهم اللغة الرومانية إلى تعلم اللاتينية في نصوصها ، وتوصلوا إلى امتلاكها بصحة وضبط وكتبوا فيها .

ولم تكن الآداب الكلاسيكية في متناول عامة الشعب الروماني وحتى من كان يعرف القراءة ، وزادت الفجوة اتساعاً عندما تم الانفصال بين لغة الشعب والأدب ، لا سيما وان رجال هذا الأدب كانوا قلة نادرة

آخذه بالتناقص يوماً عن يوم . يضاف إلى ذلك أن الأدب المسيحي نفسه كان بعيداً عن العامة وحرفاً ميتا عند الشعب . وهكذا آلت الحال إلى ان صنع الشعب أدبه بنفسه ، وكان للأجزاء الجرمانية في المملكة الفرنجية ادبها وقصائدها الغنائية . وكان الشعر الغنائي ينشد في بلاط الملوك يرافقه العزف على « القانون » . ولكن لم يحفظ من قصائده شيء . وكان العصر الممتد من القرن الرابع إلى القرن الثامن عصراً ذهبياً لادب الملحمة عند الشعوب الجرمانية حيث يمجدون ملوكهم وفعالهم ومغامراتهم . ومن الجدير بالذكر ان سيغفريد بطل ملحمة النيبيلونغن أصبح في هذا الأدب الجديد رجلاً فرنجياً عند فرنجة منطقة الراين .

الاخلاق والعادات والمجتمع

بلاط الملك . — كان العصر الميروفنجي يتمتع بشهرة سيئة . وقد دافع بعضهم عنه وهاجم غريغوار تور مصدرنا الاساسي لتاريخ هذا العصر ، ولم يقبل شهادته بغية انقاذ شهرة الفرنجة أو رجال الكنيسة ، ولكن هذه المحاولة كانت عبثاً .

كان القصر « مركز الدولة » بؤرة فساد ، ومكاناً للفسق والخيانة والفظاعة والخطف والشراسة . وكان الملوك يضربون المثل ، غير اننا لا نعرف عنهم إلا قليلاً . فقد كان كلوفيس ، مؤسس الدولة الفرنجية قوة تاريخية من الطراز الاول ، ولكن الانسانية فيه معدومة . وكذلك كانت حال ابنه تيبري وابن هذا ، تيبير ، اللذين لعبا دوراً كبيراً . وايضاً كلودومير وشيلدوبير وكلوتير ويأتون في الصعيد الثاني . ونعلم قليلاً عن سيجوبير الاول وكلوتير الثاني وحتى داغوبير الاول . وبعد هؤلاء لم يكن الميروفنجيون شيئاً مذكوراً ولا ظلالاً . لقد كانوا مجرد أسماء

لا تذكر بشيء ولا تثير اهتماماً . وفي الحقيقة ان الملوك الوحيدين الذين نعرفهم هم معاصرو غريغوار تور ، سيجوبير ، وخاصة شيلبيريك وغونتران وكان غريغوار تور يكره شيلبيريك ويتهمه بشتى الاجرام والرذائل . ويصنع من الثاني قديساً . وما يقوله في غونتران يدعنا نرى فيه شخصاً مرعباً يخفي الجشع والطمع والفظاعة والجبن تحت ظاهر من السذاجه ٠

انحطاط الميروفنجيين . — ولم تكن الملكات بأفضل من الملوك . وإذا اخذنا بقول غريغوار تور نرى ان كلوتيلد زوجة كلوفيس الاول تحب الثأر والانتقام ؛ وان اوستريخيلد ، وتدعى ايضاً بوبيللا ، زوجة غونتران ، أخذت على زوجها عهداً وهي على فراش الموت ، باعدام الطبيبين اللذين عالجاها ، وهذا ما بادر اليه الملك الساذج ونفذه . وافترى فريديغير على برونيهو كذباً ، ولكن وجدانها عذبها بعد اقتراف كثير من الجرائم . أما فريديغوند فكانت لوحة مرضية . ويستوى في ذلك الغاليات — الرومانيات والجرمانيات . فقد قضت البروفانسبة دوتري على ابنتها خوفاً من ان تحظى بفضل الملك تيبير مكانها . ولم تكن الملكات الاخريات إلا ظلالاً . لقد كن قنات يفيد منهن جنون الملك ، ومسخرات مستسلمات لشتى انواع الرغبات . وشذت بينهن قديستان أجنبيتان ، راديغوند التورنجية وهي اسيرة حرب ، وبولشيلد الانكليزية وهي رقيقة ، وقد اتهمها بعض كتاب السير بأنها اوحت بقتل اسقف ليون .

الحجاب والأدواق . — لم يكن معظم حجاب القصر إلا اسماء ، ومنهم من ترك الاستقراطية تفعل ما تشاء ، ومنهم من اشتهر بفظاعته . أما أسلاف الكارولنجيين مثل آرنول وبين القديم ، وبين هيرستال ، والمغتصب غريمود فكانوا رجالاً لهم قيمتهم وشأنهم . ولم يكن رجال البلاط بأفضل منهم ، بل ان بعضهم كانوا حيوانات مفترسة يقومون

بالمؤامرات وأعمال الخيانة والغـــدر . وقد ظهر خداعهم ومخاتلتهم في حياة الدولة الداخلية وفي العلاقات الخارجية . ومناقبهم كمثالبهم تقوم على الطيش الحربي والفكر المغامر ولا تمتاز عنهم الاستقراطية المحلية إلا قليلاً. والتباين ظاهر بين القرن الخامس والسادس . ففي القرن الخامس كانت الارستقراطية مهذبة مصقولة الطباع ، مأخوذة بحب الآداب والفنون . ولكن هذه الطبقة زالت في القرن السادس . وفي غضون العصر الميروفنجي تشكلت الطبقة النبيلة الفرنجية ثم الفرنسية التي تحب الحرب ولا تبالي بقيم الفكر ، وكانت أنانية فوضوية وسبباً في بلاء فرنسا حتى وصول لويس الرابع عشر إلى السلطة .

وقد يكون من الجور أن يحكم على مجموع رجال البلاط هذا الحكم العام . فقد وجدت بين أفراده أرواح نقية تقية مختارة استطاعت أن تنجو من عدوى الفساد والرذيلة . ومما تجدر الاشارة اليه أن كثيراً من قديسي القرن السابع خاصة كانوا من رجال البلاط وشغلوا فيه وظائف كبرى مثل آرنول ، شاودولف ، ايلوا ، وان ، ديديه ، بونيتوس ، فيليبير . ولكن هؤلاء الأتقياء لم يأمنوا على سلامة أرواحهم إلا بالفرار إلى كرسي الأسقفيه أو العزلة في رحاب الدير . وهـذا دليل واضح على أن العالم العلماني في نظرهم فاسد لا يمكن شفاؤه . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة نفسها لم تنج من تأثيرات العصر المفسدة .

الشعب . — أما الطبقات الدنيا من الشعب فلا يعلم تقريباً شيئاً عن حالتها الخلقية خارجاً عن تعلقها بالأباطيل الوثنية والخرافات ، وتذوقها الساذج للخوارق والمعجزات ، ولا مجال للافتراض بأنها كانت أفضل أو أقبح ممن كانت تعيش في ظل الامبراطورية الرومانيـة ، ومن الممكن

ملاحظتها في أيام الأعياد حيث ترى ترقص وتغني وتثمل، شأنها في كل عصر .

الأوبئة والأمراض والمجاعات . — لقد اغطشت كثرة الأوبئة سماء هذا العصر . وتاريخ غريغوار تور مفعم بالقصص التي تنقل لنا فتك الأمراض المعدية وخاصة **الطاعون** ، وربما كان يفد إلى أوربه عن طريق التجارة مع بلاد حوض المتوسط الشرقي . وأفظع هذه الوافدات وأشهرها الطاعون الدبيلي الذي ظهر في مصر عام ٥٤١ أو ٥٤٢ ، وانتشر عن طريق سورية في ايران والهند ، ولم تنج منه أوربه . وكان هذا المرض يبدأ باضطرابات التصور والخيال ، تتلوها حمى قصيرة ، ثم التهاب مفاجىء في أسفل البطن تتبعه اغفاءة مميتة .

الاضطرابات النفسانية . — ولم توفر هذه الوافدات أي طبقة من طبقات المجتمع . فقد أصيبت بها الملكة أوستر يخيلد زوجة غونتران وماتت عام ٥٨٠ . وفقد الملك شيلبيريك وخليلته فريديغوند أولادهما وكاد الملك يقع ضحيتها . وكانت الأفكار تضطرب ، وينسب انتشار هذه الأوبئة إلى سوء النية والأعمال الطالحة والسحر . ونذكر على سبيل المثال أن ملكة بورغونديا الآنفة الذكر ، وهي تحتضر ، انتزعت من زوجها غونتران وعداً باعدام طبيبيها ؛ وان فريديغوند قامت بأعمال انتقامية فظيعة بمن اتهمتهم بتسميم أولادها .

أسس القومية الفرنسية

ظهور فرنسا . — لقد تشكلت في غضون العصر الميروفنجي نبتة القومية الفرنسية ، وارتسمت صورة فرنسا بشكل قلق لم يستقر ولم ترتسم معالمه بوضوح . وبالرغم من بربرية الفرنجة واستحكام شخصية القوانين تم في

هذا العصر التقارب بين الغازين والسكان الغالبين — الرومانيين ، وعلى الأقل سكان شمالي غاليا . وانقطعت الصلة مع الامبراطورية . فمنذ وفاة آئيسيوس وفالانتينيان الثاني (٤٥٥) انقطع الاتصال بين غاليا وايطاليا. وعاش سياغريوس ، وهو آخر زعيم روماني ، وأبوه آنجيدوس المتوفى عام ٤٦٤ ، اميرين مستقلين وعدوين للحماة البرابرة الذين سيطروا على اواخر اباطرة الغرب . وفي اليوم الذي أصبحت فيه القسطنطينية مقراً وحيداً للامبراطورية عام ٤٧٦ كانت القطيعة الواقعية بين غاليا الشمالية وروما البوسفور البعيدة أمراً لا يمكن اجتنابه . وعندما اعتنق كلوفيس الكاثوليكية شايعته الارستقراطية العالية والاكليروس وجمهور الشعب دون التفكير بالعودة الى سلطة الامبراطورية الجديدة .

والملاحظ ان المعارضة الدينية ، التي فصلت الفيزيغوط عن الاسبانيين الرومانيين والاوستروغوط ، ثم اللومبارديين عن الايطاليين ، قد زالت حالاً في غاليا بين الغالبين — الرومانيين والفرنجة . كما ان العقبة الأخرى ، التي قامت في وجه الشعوب واختلاطها مع بعض وهي تقسيم الاراضي بين سكان البلاد الاصليين والغزاة ، زالت ايضا . فقد اقتطع فرنجة الراين والساليون قسماً كبيراً من الاراضي الرومانية في القرن الخامس ولم يبق لكلوفيس فائدة بالقيام بمصادرات أرضية تولد احقاداً دائمة ومستحكمة . يضاف الى ذلك ان المساواة التامة سادت مجموع رعايا ملك الفرنجة منذ عهد كلوفيس وأولاده ، وغدا التزاوج المختلط كثيراً ومألوفاً في جميع الطبقات . وهكذا تم التقارب بين الشعبين بشكل عاجل وأكيد .

ويبدو ان هذا التقارب كان ضرورة أملتها الظروف وبدأت اول ما بدأت في البلاط الملكي . فقد كان الاختلاف الى القصر اجبارياً لكل من اراد ان يشق طريقه في الوظائف العامة ، أو من يبحث عن الغنى

والثراء . وكان المراهقون الشباب المنتفعون من كل جنس يعيشون في القصر مع بعضهم في ود وصفاء خلال عدة سنوات .

وكان البلاط الملكي يتكلم بلغتين . فقد كان الملوك ، مع الحفاظ على استعمال « **الفرانسيسك** » وهي اللغــة الفلاماندية القديمة ، يتكلمون اللغة الرومانية ايضا . وبعضهم مثل شاريبير وشيلبيريك وكلوتير الثاني كانوا يتذوقون اللاتينية الكلاسيكية .

وفي الجيش كانت جماهير الناس الاحرار تلتقي ببعضها . وعندما قسمت المملكة الى اربع حصص كان معظم المحاربين في ثلاث منها يتألف من الغاليين — الرومانيين ، وحتى في اوستوازيا كان هؤلاء يؤلفون قسماً كبيراً في الجيش لأن أوستوازياالميروفنجية لا تضم البلاد الرينانية فحسب بل كانت تدخل فيها اقاليم الشامبانيا والاوفيرن والبواتو والتورين والبروفانس .

وكانت التأثيرات المتبادلة بين الشعبين عديدة وعميقة في مختلف المجالات السياسية والحقوقية والفكرية والجمالية واللغوية والعرقية . ومع الزمن بدا أن التأثير الجرماني كان غالباً . فقد أظهر الملك الميروفنجي الشخصية الجرمانية أكثر من الرومانية وساعدها على النمو ، وساد القانون السالي على حساب الحقوق الرومانيه ، ولم يعد للآداب اللاتينية ، خارجاً عن عالم الاكليروس ، إلا تأثير سطحي جداً على الأقسام الفرنجية الصرفة في المملكة ، وكذا الحال في الفن .

وفي ميدان اللغة حدث تبادل نشيط بين اللغة الجرمانية واللغة اللاتينية العامية . ومن الطبيعي أن بنية كل لغة ظلت على حالها لم تتبدل ، ولكن مفردات اللغتين غنيت باقتباسات متبادلة . وازداد عدد الكلمات التي أخذتها اللغـــة الرومانسية في غاليا عن الجرمانية بنسبة عظيمة لاسيا وان تلك

اللغة فقيرة ومفرداتها محدودة . لقد أخذت اللغة القديمة عن لغة الفرنجة تعابير تتعلق بالحياة العسكرية والقيادة والأسلحة والألبسة والنظم والحقوق والسكن والبناء ، والأثاث والطعام والتسلية ؛ وكلمات تمثل الطبيعة والنبات والأشجار والثمار والحيوان .

وتكشفت أيضاً تأثيرات أعمق كأسماء الجهات الأربع ، والألوان والتعابير النفسانية من أسماء وصفات وأفعال .

ومن جهة أخرى ، قام الجرمانيون باقتباسات كثيرة عن اللاتينية وبدأوا بذلك قبل فتح غاليا ، وتناولت هذه الاقتباسات بخاصة الادارة والتجارة والثقافة والنبات والخضار . كما اشتقت كلمات كثيرة عن لاتينية الكنيسة .

وفي المضمار العرقي كان تفوق التأثير الجرماني ظاهراً ، فمن أعلى المجتمع إلى أدناه وجدت الأطماع والشراسة من كل نوع والتعطش إلى الثأر . ومنذ حكم أولاد كلوفيس لم يتميز الجنسان عن بعضهما في الشر . ومن غير اللائق أن تنسب أعمال الشدة والفظاعة والخيانة والغدر إلى الجرمانيين وحدهم .

ومنذ آخر القرن السادس تمثل الغاليون — الرومانيون الجرمان وأخذوا عنهم أسماء جرمانية . وزالت الأسماء الخاصة الرومانية في القرن السابع، وبالتالي ان جميع أسماء الأشخاص التي لم تكن مشتقة من أسماء الألقاب أو المأخوذة عن أسماء المناطق ، أصبحت جرمانية ، دون عد أسماء الملوك وكلها جرمانية .

وزالت آخر عقبة بين الطرفين وهي شخصية القوانين . فقد سقطت عملياً وساد الجميع قانون واحد .

وأدى اختلاط الأعراق والقوانين إلى اختلاط السكان ببعضهم ، حتى

ان كلمة فرنجي في القرن السابع فقدت معناها العرقي وأصبحت تدل على إنسان حر ، رعية الملك ، مهما كان أصله . واعتقد انسال الرومانيين عن حسن نية أنهم فرنجة منذ قرون مديدة . وقد تم اتحاد السكان الأصليين بالغزاة في القرن السادس وتعززت أواصره في القرن السابع ، وجرى الذوبان بين العناصر وصهرها مع بعضها عندما تخلت السلالة الميروفنجية عن مكانها للكارولنجيين .

ومع ذلك فلم يكن الانصهار تاماً وعاماً في جميع أجزاء غاليا ففي المناطق الرينانية لم يبق العنصر الجرماني شيئاً عظيماً من الماضي الروماني . واكيتانيا ، التي ظلت مجزأة زمناً طويلاً بين مختلف الدول الفرنجية ، ألفت لنفسها كياناً خاصاً وامارة مستقلة ذاتياً حول آخر القرن السابع . وظل العنصر الروماني فيها سائداً باستثناء المنطقة الواقعة بين نهر الغارون والبيرينه ، حيث أقام الغاسكون .

فرنسا العصر الوسيط . — وهذه المنطقة ، التي قام فيها هذا الذوبان والاتحاد الجديد وتمتد من نهر الموز إلى اللوار وتضم شمال بورغونديا ، هي فرنسا العصر الوسيط الحقيقية ، ومملكة كلوفيس قبل العام ٥٠٧ ، وهي بالإجمال نوستريا ، فرنسا الرومانية . ومنذ بداية القرن السابع ، عندما بدأ غرب المملكة وشرقها يتناحران ، اقتصر التعبير **« فرنسي »** على النوستريين ، حتى ان السلالة الكارولنجية التي كانت اوسترازية بعواطفها، لم تجرؤ ، في القرن الثامن على الأقل ، على نقل حفلات المباركة إلى الشرق . ولا يكون الملك ملك الفرنجة إلا إذا انتخب وقدس ودفن في كومبين، ونوايون ، والقديس — دوني .

نشأة فرنسا . — إن هذا الحادث السياسي والنفساني ، وهو نشأة القومية ، ليس خاصاً بفرنسا . وإذا كانت انكلترا وألمانيا غير مستعدتين للحياة القومية قبل آخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر ، فإن اسبانيا وايطاليا كانتا في دور تهيئة أمة كغاليا في العصر نفسه . غير أن عاصفة الإسلام في اسبانيا وعداء البابوية للومبارديين في ايطاليا قد أجهضا هذه النبتات الاولى . أما في فرنسا فقد استطاعت هذه النبتات أن تخرج للحياة في وقت مبكر وستظل هذه الحياة ضعيفة زمناً طويلاً . ولو لم توضع قواعد القومية الفرنسية في العصر الميروفنجي ، لانهار البناء الضعيف ببعث الامبراطورية ، أو في الآجل ، بنعرة الإقطاعية .

الفصل السادس

الكنيسة في العصر الميروفنجي

الأسقف . — عندما تداعى المجتمع الروماني ، في القرن الخامس والسادس ، كانت الكنيسة الكاثوليكية القوة المعنوية الوحيدة التي ظلت متماسكة أمام عوامل الاضطراب والفوضى والتخريب . لقد زالت الوطنية الرومانية ، وضعفت عاطفة المصلحة العامة . وأصبح الغد مظلماً أكثر من أي وقت مضى . وما كان من الشعب إلا أن تجمع بغريزته حول الكنيسة فأصبحت له موئلاً ووطناً ، وغدت هذه الكنيسة والقومية الرومانية شيئاً واحداً . وظلت الأسقفية ، كما في عهد قسطنطين ، منطبقة على المدينة . ولما كان قطيع المؤمنين مهدداً باستمرار فقد توجب ألا يكون الاسقف انساناً متأملاً . وفي الغالب كان يؤخذ من أقوى الطبقات وأغناها ، وخاصة طبقة « أعضاء مجلس الشيوخ » . وكان الشعب يفضل أن ينتخب علمانياً تقياً عارفاً بالقضايا ممارساً لها على أن يختار اكليركيا دون خبرة في الحياة ودون نفوذ . وقد دام هذا التقليد في العصر الميروفنجي .

وبعد أن صبأ كلوفيس واعتنق الكاثوليكية حيّت فيه الأسقفية الغالية — الرومانية قسطنطين جديداً ، وشجعت أهدافه في غاليا ، ووجد كلوفيس وحده عاهلاً كاثوليكياً في الغرب الاوربي . وفرحت كنيسة غاليا بهذا الظفر الذي يمكنها من سحق الأريوسية ، فتركت الملكية

البربرية تسيطر عليها سيطرة تكاد تكون مطلقة . واعتقد الملك الميروفنجي بأن له الحق في مراقبة انتخاب الأساقفة ، وأخذ ينتخب من حوله وجواره أساقفة ولو كانوا علمانيين ، وراقب الاسقفية مراقبة شديدة ، وخاف أن تخونه لصالح قريب له ، ولم يتردد لأتفه الأعذار أن يحاكم الأحبار ، بل وأجلهم قدراً . ومن المعلوم أن محاكمة الاسقف لا تجري إلا أمام المجمع الديني ، غير أن هذه المجامع ما كانت لتنعقد دون سماح الملك . وكان العاهل يخيفها بحضوره ويؤثر في القرار الذي يتخذه الآباء . أما العلاقات بين الأسقفية وروما ، باستثناء البروفانس ، فكانت تتم بطريق الملكية . ويعتبر الاسقف موظفاً ، ويشترط فيه أن يكون مطواعاً ، ويكلف بمراقبة الكونت ومقاضاة الاكليروس مدنياً وجزائياً ، لحد ما ، وفي بعض الأحوال .

ومن جهة أخرى كانت النعم تغدق على الكنيسة ، فما من ملك أو ملكة إلا وأنشأ مؤسسات دينية . وما من كنيسة شيدت في القرن السابع إلا ووضعت تحت حماية الملك الخاصة وحصلت على صك حصانتها. وهذه الحصانة تقتضي الإعفاء من الضرائب العقارية والجزية ودفع حصة الغرم القضائي المتوجب للملك ورسم الإيواء والوكالة مع منع القاضي (الكونت) من الدخول على المحصن لعقد المحكمة أو ممارسة أي عمل من أعمال السلطة القضائية . وينتج عن ذلك نتيجة لم توضح في الدبلومات ولكنها حتمية ، وهي أن يستولي المحصن على ادارة القضاء ، وعلى الأقل في القضايا الصغرى ، ويمارسه على العلمانيين ، وحتى الأحرار منهم ، في دومينه . وأخيراً اغدقت أفضال خاصة تعفي المؤسسات الدينية من رسوم المرور والعبور والسوق والجمارك على البضائع والسلع الضرورية لإعاشة رجال الدين .

وخضعت الأسقفية لسلطة الملك ، وعلى الأقل في القرن السادس ،

ولا تقاوم إلا عندما يريد الملك أن يطغي على الجغرافية الكنسية أو يقاوم العقيدة . ولكن مثل هذه الحالات كانت نادرة لأن « الميروفنجيين لم يكونوا مسيحيين صالحين ليصبحوا هراطقة » .

وفي الواقع ، يصعب تمييز الكنيسة عن الدولة لأن المجال العائد لكل منها غير محدد بوضوح ، وأكثر من ذلك أن الحكومتين لم تهتما بتحديد نطاقهما ، ولم يكن أحدهما ليستغني عن الآخر .

ولم يكن الأسقف راعياً روحياً لقطيعه فحسب ، بل كان مديراً أيضاً . ففي القرن الخامس كانت الثروة الأرضية للكنيسة الكاتدرائية صغيرة ، وأحياناً لاوجود لها . أما في القرن التالي فان كرم الملوك والمؤمنين والاحبار ، خاصة ، الذين اعتادوا على توريث مالهم للكنيسة ، زوجتهم الصوفية ، جعل منها مالكاً غنياً . وكان للحبر شعب لايحصى ، من الاكليركيين والأقنان والمعمرين والأحرار الفقراء ، ويؤمل به ويعقد عليه رجاءه. وبسرعة رأت المدينة ، مقر سلطته ، أرضها تنتقل برقعتها الصغيرة بكاملها وتصبح تحت ادارته . وامحت المجالس البلدية المحتضرة أمام الأسقف ووقع شعب الصناع والباعة الذي يعيش في المدينة في عداد زبائنه . وليس هذا كل شيء . فالدولة الميروفنجية لم تهتم بواجب الاسعاف والتعليم . وكان الضعفاء من يتامى وأيامى تحت حماية الاسقف ، والمعوزون والمرضى ينتظرون منه ما يقوم بأودهم .

وكانت إدارة المستشفيات والملاجىء وزيارة السجون تقع على كاهل الحبر . وكان البرابرة في حروبهم الدائمة يخطفون الأسرى ، والانغلو-ساكسون أقبح من الفرنجة يتاجرون بالرقيق ويبيعون مواطنيهم . وكان افتداء البائسين واجباً من واجبات الاسقف الاساسية ، وأكثرهم كان يقوم بهذا الواجب بكل عناية واهتمام . فمن ذلك ان القديس سوزير

آرل باع زينة كنيسته ليفتدي الأسرى . ولم يقبل القديس جرمن الدعوة على عشاء إلا إذا تعاهد المدعوون على افتداء رجل فقير على الاقل .

وقبل نهاية الامبراطورية كفت المدن الغالية عن مساعدة المدارس ، ولم يعد التعليم عاماً ، بل انصرف لخدمة كبار الامراء ، وتناقص عدد الاساتذة باستمرار في القرن الخامس والسادس ، وأوشكت الثقافة على ضآلتها وشكلها البدائي أن تضيع ، لولا أن الكنيسة انقذت ما يمكن انقاذه . وفي كل مكان ، في القرى كما في المدن ، وجدت مدارس يديرها الكهان ، ولكن التعليم فيها كان قاصراً على الضروري : القراءة، والحساب (بغية تعين الأعياد الكنسية) وانشاد المزامير .

ومن العبث محاولة تعداد وظائف الاسقف . فقد كان يتدخل في كل شيء ، لان الجميع يرجونه . فالشعب يرجوه الاهتمام بشؤون العائلة والدفاع عنه أمام مطالب الضريبة ، وحمايته من الكونت وعماله والتدخل لصالحه لدى الملك . كان الاسقف حكماً أعلى ، وقاضياً معنوياً ، وأباً لمن في أسقفيته . وكان الشعب يجل رعاته ، حتى أن تقواه حولت كثيراً منهم إلى قديسين . ولم ير عهد من العهود تطوياً عفوياً للاساقفة من قبل الرأي العام كما رأى في عهد الميروفنجيين . وكان الرأي يعتقد بأن رفاه البلد متعلق بحياة الحبر الصالح ، ولذا كان يراقب سلوكه بحرص شديد . فاذا كان متزوجاً عند انتخابه وجب عليه أن ينفصل عن زوجته ، ويعيش عفيفاً ، وينقضي عمره تحت أعين الجمهور محاطاً ، مصاناً ، تحدق به العيون والجواسيس والارصاد . وليس له أن يتمتع بنعمة الانطواء والتأمل والتفكير أو العزلة والانفراج .

وفي الحقيقة ان عمل الاسقف ساحق ولا حد لمسؤوليته ،ولا يتجشم أعماله الا الاشخاص الذين يتمتعون بجاه كبير ويمتازون بمواهب للانقطاع للعمل ، والقيام بمثل هذه الوظيفة المليئة بالاعمال عن جدارة واستحقاق . ولهذا السبب كان الاسقف يختار في الغالب من الطبقة الارستقراطية صاحبة الاطيان ، ومن العلمانيين المتمرسين على الاعمال والوظائف الادارية العليا . ويكفي أن نتذكر أسقفية شخصيات لامثيل لها مثل سيدوان أبولينير ، اسقف الاوفيرن في القـرن الخـــامس ؛ وآرنول أسقف ميتز ، وايلوا أسقف نويون في القرن السابع ، لنفهم ان هذا التعامل كانت له نتائج سعيـدة ولم تكن الاسقفية لتلائم في ذلك العصر المتأملـين أو الحجولين ، ولا الرجال الاتقياء الشجعان دون نشأة طيبة ودون ثروة وجاه .

وبالرغم من أن هذه الوظيفة كانت كثيرة المتاعب فقد كان لها سحر فظيـع ، ونظراً لانها غير قاصرة على الاكليركيين المتهنين الذين لايتوصلون اليها الا درجة درجة في السلم الكهنوتي ، فقد كانت تثير جشع العلمانيين الطموحين ، ومنهم من كان يجند كل شيء للوصول اليها بجميـع الوسائل كالرشوة خاصة . ولذا كان يرى ، إلى جانب الاحبار القديسين ، كثير من المغامرين ممن لاخلاق لهم يحتلون كرسي الاسقفية .

كفاح العقيدة ضد الهرطقات . — ويجب الا ننتظر من الكنيسة في الغرب ، خلال هذا الدور ، أي تقدم أو تعمق في أمور العقيـدة المسيحية . لقد كانت القضايا الكبرى في طبيعة المسيح موضع نقاش في الشرق ، وكانت روما نفسها ، من منتصف القرن السادس إلى منتصف القرن الثامن ، تابعاً بعيداً للامبراطورية البزنطية . وقد حاول الامبراطور عبثاً أن يرد أسقف روما إلى دور بطريرك القسطنطينية .

واستطاعت الكنيسة الغالية أن تقهر البدعة **البيلاجية** التي تنكر نفاذ العفو والذنب الاصلي ، وأن تسحق **الأريوسية** ، بفضل قوة الفرنجة ، وفكرت أن تستجم وتنعم بنصرها لولا أنها أحست أو أدركت قيام بعض الهرطقات القديمة والحديثة ، التي نشأت في الشرق ، مثل **هرطقة بونوزوس وهي** هرطقة **التبنية** التي تقول بان المسيح ليس ابن الله إلا بالتبني ، وليس من جوهر الاب منذ الازل ؛ وقد القت انصاراً في القرن السادس ولم تنطفىء تماماً إلا في القرن السابع ؛ وهرطقة **نوفاسيان** المتزمت من رجال القرن الثالث ، التي أنكرت على المرتدين عن المسيحية ، تحت الضغط والاكراه ، عودتهم إلى حظيرة الكنيسة بعد ذهاب المانع ، ووجدت لها اتباعاً في منطقة الاوفيرن في القرن السابع ؛ **وهرطقة الطبيعة الواحدة** للمسيح التي ظهرت حوالي ٦٤٥ . وعندما شجب البابا مارتن الاول هذه الهرطقة فرض على القديس أرمان واساقفة غاليا توقيعهم على الحكم ٦٤٧ . ولكن لاشيء من كل هذا بدا مقلقاً وخطراً بشكل لاتمكن مقاومته وكفاحه .

المجامع الدينية . — لقد انصرفت كنيسة غاليا قبل كل شيء إلى التنظيم والتهذيب . وينعكس نشاطها في قوانين المجامع التي انعقدت في القرن السادس : فقد عقد ٤٢ مجمعاً من ٦١١ الى ٦١٤ ؛ و ١٢ من ٦١٤ إلى ٦٨٠ ، والأخير عام ٦٩٥ . وترمي هذه القوانين إلى اصلاح حياة الاكليركيين من محبي الولائم والرقص واحياناً المتزوجين ، واستئصال الوثنية والاضاليل السحرية ومراعاة الصيام والاحتفال بالاعياد المسيحية ، والدفاع عن شخص الكنسيين وشخص أموال الكنيسة ضد اعتداء الافراد وتجاوز السلطة .

التعليم . — لم يكن المذهب الذي دعا اليه الاساقفة من نوعية عالية

جداً . فقد كان الاحبار قليلي الثقافة . وكان القديس آفيتُ آخر اديب انساني في فينّا ، وتوفي عام ٥٢٥ . وكان زميله القديس سوزير الآرلي يحتقر الآداب القديمة ويوصي بالثقافة القائمة على دراسة المؤلفين الكنسيين وحدهم . وساد هذا المذهب . وافضل المفكرين كانوا يكتفون بهذه الثقافة الفكرية ، ويجهلون ايضاً انتاج آباء الكنيسة الكبار الذين كتبوا بالاغريقية ، لأن معرفة هذه اللغة زالت في الغرب . ولم يكن عند المثقفين أي ثقافة فلسفية او دينية حقيقية . حقاً لقد كان ايمانهم قوياً ولكن دون ثقافة وعلى الأقل في القرن الخامس . وتقواهم غير واضحة أحياناً ، ويتصورون انفسهم ، مثل غريغوار تور ، يعيشون في أعجوبة سرمدية ، ويتساهلون بقبول نوعية الخارقة . فالمصباح الذي يسقط دون ان ينكسر ، أو الحقل السليم بعد العاصفة يكفي لاثارة اعجابهم ، وحضور الشيطان يشغل اهتمامهم والفوق طبيعي بالنسبة إليهم أمر طبيعي .

صبء الوثنيين . — لقد كان صبء الوثنيين من مهمة القديس مارتن ومعاصريه ، ثم تابع تلاميذه هذا العمل بنجاح في القرن ، الخامس ولكنه توقف في القرن السادس ، عند الشعوب الجرمانية على الاقل . ولم يكن مثل كلوفيس معدياً لغيره من الفرنجة ، فقد ظل الساليون والريبوير والآلامان وثنيين جفاة قساة . ويبدو ان بربرية الفرنجة وجيرانهم قد ثبطت همة كل محاولة للتبشير عند اساقفة بلجيكا وجرمانيا ، ولم يعد التبشير الى نشاطه بحق الا في القرن السابع على ايدي الرهبان الايرلنديين والانكليز . فقد بدأ القديس كولومبان حوالي ٦١٠ ، وتلميذه سن ـ غال ، ثم فريدولن بصبء المان سؤاب وسويسرا ، وتابع هذا العمل بيرمن في القرن الثامن . وساعد تأسيس اسقفية في كونستانس ودير في سان — غال على نجاح هذا التبشير .

وفي القرن السابع ارسل دير لوكسوي بعثات تبشيرية الى بافاريا ، وفي القرن الثامن صبأت البلاد كلها . وصبأت تورنجه على ايدي المبشرين السلتيين واشهرهم القديس كيليان . واخفق التبشير في الفريز ،ووجب لذلك قوة الانكليزي ويلليبرورد من ٦٩٠ الى ٧٣٤ يدعمه سيف بيبن هيرستال وشارل مارتل لغرس الايمان المسيحي في شعب الفريزون .

تبشير القوى . — لقد لعبت الاسقفية الغالية — الفرنجية دوراً ضعيفاً في صبء الوثنيين في جرمانيا بالنسبة لضخامة العمل الذي يجب القيام به لدى سكان البلاد الاصليين . وهكذا لم تكلل جهود وينفريد (بونيفاس) حواري جرمانيا بكبير نجاح .

لقد كانت المسيحية في القرون الثالث والرابع والخامس في الغرب ديناً بين سكان المدن . اما الارياف فقد ظلت وثنية بسبب فقدان الموارد في الرجال ٠ وقد قام بهذا العمل القديس مارتن ومعاصروه في آخر القرن الرابع ، ثم توالى بصورة مبهمة . ولم يكن بالسهل تأمين حاجات الأرواح في كل اسقفية . وكان التعليم الديني في باديء الأمر قاصراً على المدن ، ولم يكن في كل مدينة سوى كنيسة واحدة ٠ الأمر الذي يدل على ان القرى كانت محرومة من المساعدة الروحية . ووجد من المناسب بناء كنيسة في كل قرية على أن يخدمها خوري محلي وترتبط بالكنيسة الكاتدرائية في المدينة . وهكذا وجد على رأس كل كنيسة في القرية كاهن وتم هذا العمل في العصر الكارولنجي .

أصل الحياة الديرية في غاليا . — وفي الحقيقة ان الاسقف والكاهن لا يستطيعان مهما كانت قيمتها عالية ، أن يكفيا لتغذية الحياة الروحية والعناية بها . لقد كان الكاهن في الريف قليل الثقافة ومن نشأة متواضعة وتحت رحمة الملاك الاكبر . فهو الذي ينتخبه ، وسيظل دون شأن وجاه

طوال العصر الوسيط ، حتى ولو كان صالحاً ، وهذا ما لا يحدث دائماً . اما الاسقف فان كثرة أعماله كانت تلتهمه ولا تترك له متنفساً

وعلى هذا النحو يرى ان المصادر الحية لكل مجتمع ديني ، وهي النسك والتصوف ، تتبع بصعوبة في اوساط الاكليروس العصري . ولذا انتشرت هذه النزعة في عالم الاكليروس النظامي ، بين الرهبان والراهبات . ولقد نشأ **النسك** بشكله المزدوج **التقشف والعيش المشترك** في بلاد الشرق كما رأينا ، وازدهر وظل مجهولاً زمناً طويلاً في الغرب . ويبدو ان سيرة القديس انطوان ، التي اتى بها الاسقف آثاناس الاسكندري عام ٣٣٦ إلى مدينة تريف ، قد عرفت غاليا لأول مرة بأعمال التقشف التي كان يقوم بها كبار القديسين في مصر. ومع هذا فقد لاقت حركة النسك معارضة شديدة لدى المسيحيين العاديين والاكليروس ايضاً . وأول من نظر في غاليا إلى النظم الرهبانية نظرة قبول ورضى ، اسقف تور ، القديس مارتن. فقد اقرها في ليغوجية ، بالقرب من بواتيه ، وفي مارموتيه بالقرب من تور ، والاسقف فيكتريس ، اسقف روان .

ولم يكن القصد من ذلك لزوم حياة الدير بالمعنى الصحيح ، بل ان اناساً اتقياء ، غير اكليركيين ، بنوا لانفسهم اكواخاً ووضعوا ثرواتهم معاً وبدأوا يمارسون حياة التقشف . كذلك لم تشكل النساء المتحجبات بعد جمعيات حقيقيـــة ، وماكن ليجتمعن الا في الكنيسة . ويعشن في بيوتهن ، عذارى أو أيامى ، متقشفات منقطعات للعفة ، « زوجات المسيح » .

الأديرة . — توطدت حياة الزهد المشتركة في غاليا في القرن الخامس . وضربت المثل في ذلك مقاطعة بروفانس . ففي العام ٤١٨ رجع كاسيان من الشرق وأسس في مرسيليا دير القديس فيكتور للرجال ، ودير

القديس مخلص (أصبح فيا بعد دير القديس كاسيان) للنساء . وفي العام ٤١٠ اعتزل هونورا في جزيرة لورَنْ في خليج كانْ ، وأصبحت لورن بعد سنوات قليلة ملجـأ للقديسين ومدرسة تجهز كنائس جنوب غاليا باساتذة المذهب والاحبار الافاضل . وعندما أصبح هونورا اسقف آرل عام ٤٢٦ أسس ديراً في جزيرة في نهر الرون . ثم بنى أحد خلفائه ، وهو القديس سوزير ديراً للنساء سمي دير القديس سوزير الآرلي . وأنشىء عدد عظيم من المؤسسات في ابوشية فينا واشهرها دير غريني . وفي القرن السادس بلغت الحركة غاليا الشمالية . وقام الاساقفة بهذه المبادهة . فقد كان اكثرهم اغنياء ويستطيعون أن يستخدموا مالهم في هذه المؤسسات ، كما كانوا احراراً باستعمال الموارد الخاصة بالكنيسة الكاتدرائية . ولذا كانت هذه الأديرة تحت اشراف الاسقف بشكل وثيق .

ولكن الملوك والملكات بدورهم انشأوا مؤسسات غنية جداً . فقد انشأ كلوفيس وكلوتيلد ، على رابية تطل على باريس من الجنوب ، ديراً أخذ فيا بعد اسم دير القديسة جونفيف . وبنى ابنها شيلدوبير ديراً في آرل ، وأسس مع الملكة اولتروغوط بالقرب من باريس دير سان فانسان الشهير والذي سمي فيا بعد سان جرمن دي بريه . وأسس كلوتير دير القديس — ميدار في سواسّون . وقلدت الملكاتُ الملوك .

وفي القرن السابع أخيراً دخل الكبار حلبة التنافس والزحام في بناء الأديرة ، وأحياناً شاركوا الملوك ، وهكذا عم بناء الأديرة .

الرهبان الايرلنديون . — وفي آخر القرن السادس ، حوالي العام ٥٩٠ ، أتى سكوتيون من ايرلندا إلى القارة بشكل جديد للتقشف والنسك واقاموا منعزلين في اطراف الغابات ، وأشهرهم **كولومبان** . فقد

أسس في اسفل جبال الفوج أديرة آنغري ، لوكسوي ، فونتين ، ثم هرب من حرب برونهو وانعزل مع رهبانه في ويثيا . وقبل عام من وفاته (٦١٥) ذهب إلى ايطاليا وأقام على منحدرات الآبنن في بوبيو .

وكثرت المؤسسات من النموذج الايرلنـــدي في القرن السابع في آلمانيا والالزاس وبورغونديا وفي فرنسا في ابوشية مو وقـام الرهبان بحركة تبشير نشيطة . ولقد رأينا ان جنوبي المانيا قد صبأ خاصة على يد السكوتيين . وقد وجهت المؤسسات حسب « طريقة » القديس كولومبان. ومن المشكوك فيه أن توجد قبله في غاليا انظمة مكتوبة للحياة الديرية . وفي القرن الخامس حكم كاسيان وهونورا بموجب جاهها الشخصي . وجرى من بعدهما على تقليدهما . وحرر سوزير اسقف آرل من ٥٠٣ إلى ٥٤٣ قاعدة لرهبانه وراهباته استلهمهـا من تقاليد لورن حيث نشأ . ولاقت هـــذه القاعدة نجاحاً عاماً . وإذا نجحت قاعدة كولومبان ونشرها تلاميذه في كل مكان ، فان هذا النجاح كان موقتاً ، باعتبارها غريبة عن غاليا وجرمانيا، فضلاً عن أن الاكليروس العصري كان ينظر اليها نظرة سيئة .

قاعدة القديس بندكت (حوالي ٤٨٠ — ٥٤٧) . — أما المستقبل فكان لقاعدة أخرى وهي القاعدة التي وضعها ايطالي يدعى بندكت نورسيا أب دير مونكاسّينو المتوفى عام ٥٤٣ ، وهي تقع في ٧٣ فصلاً ، وتعتبر قانوناً حقيقياً للحياة الديرانيـــة . ولم يكن الراهب البندكتي متأملاً فقط يفرض على نفسه تقشفاً غير طبيعي كآباء الصحراء المصريين والسوريين ، بل كان يخضع للعمل اليدوي والمطالعة . ويتكيف النسك حسب هذه القاعدة مع اقليم اوربة ومع المزاج الغربي . وظلت هـذه القاعدة زمناً طويـلاً مجهولة في غاليا ، وبعد أن نفذت اليها ، حوالي العام ٦٣٠ ، لاقت تحبيذاً

واثارت تقوى ديرانيــة جديدة . وفي بداية القرن الثامن حلت قاعدة القديس بندكت محل قاعدة كولومبان وقواعد أخرى غامضة .

تحاول القاعدة البندكتية التوفيق والتوازن بين التأمل والتمارين الدينية والعمل اليدوي والفكري وتطبيق الفضائل المسيحية .

الدير ـ فالدير يجب أن يهيأ فيه كل ماهو ضروري من ماء وطاحونة وحديقة ومشاغل لممارسة المهن المختلفة في داخل اطار الدير .

الأب ـ وعلى من يقبل منصب الأب في الدير أن يحكم تلاميذه بتعليم مزدوج وذلك بان يطبع فيهم كل ماهو صالح وسليم بالقول والفعل . وان كل شيء يجب أن يعمل حسب ارادة الأب .

العمل ـ البطالة عدو الأرواح . وعلى الاخـــوة في الدير أن يخصصوا ساعات للعمل اليدوي وأخرى لقراءة الأشياء المقدسة .

التضامن والخضوع ـ وعلى الاخوة أن يتبادلوا الخدمـــة فيما بينهم ، وان يقوموا جميعاً بخدمة المطبخ ولا يعفى الواحد منهم إلا اذا كان مريضاً او أوكل إليه عمل اكثر أهمية وفائدة للدير . » وعلى كل من يغادر خدمة المطبخ في آخر الاسبوع ان يكنسه يوم السبت وينظف كل ماله علاقة بهذه الوظيفـــة . فعليه أن يقوم بغسل كل ما أفاد في مسح أيدي اخوته وارجلهم ، وعليه أيضاً وعلى سلفه أن يغسلا ارجل جماعته كلها .

الفقر ـ واذا ملك أخ شيئاً ما فعليــه أن يوزعه على الفقراء قبــل دخول الدير أو يهبه الى الدير هبة شخصية دون أن يحتجز شيئاً منه لنفسه . وعليه أن يعلم منذ اللحظة الاولى بأنه لايستطيع التصرف بجسده الخاص .

القراءة العامة ـ ويقرأ دوماً على مائدة الاخوة أن مقرئاً نظامياً يقوم بهذه الوظيفة يوم الأحد ويبقى طوال الاسبوع . ويحافظ على الصمت

التام على المائدة بشكل لايسمع فيه همس أو كلام إلا صوت المقرىء وحده . ويعنى بان يوضع على الموائد كل ماهو ضروري للشراب والطعام، وعلى الاخوة أن يخدم بعضهم بعضاً بشكل لا يحتاج أحد منهم الى طلب شيء .

ولقد تمتعت المؤسسة الديرانية اكثر من الكنيسة الكاتدرائية بحظوة المؤمنين والملوك ، واغدقت عليها العطايا والهبات من كل نوع في القرن السابع والثامن وأصبحت بعض الاديرة مالكة لأغنى ملكيات المملكة . ولم يكن الاكليروس النظامي في أي عصر من عصور فرنسا باغنى مما كان في آخر عصر الميروفنجيين . فقد كان يتمتع بحصانات وامتيازات كالاعفاء من الضرائب ، ورسوم المرور والجمرك ونقل العربات التي تحمل السلع والاشياء الضرورية للرهبان ، كما كان يحق له ممارسة العدل في القضايا الصغرى .

ومع ذلك فقد ظل الأب في الدير والأم في ديرها خاضعين لسلطة اسقف الابرشية . وكان هذا الوضع يثقل تدريجياً كاهل ابويات « اديرة » القرن السابع الكبرى ، وحصلت من الاحبار انفسهم على تحديد السلطات المطلقة التي يمارسونها على الرهبان ، وسمح الاساقفة للرهبان والراهبات بانتخاب ابهم وامهن طبقاً لقاعدة القديس بندكت . ولم يتبع هذا المثل في كل مكان وظلت الامتيازات الاسقفية نادرة في العصر الميروفنجي .

غير أن غنى الأديرة وقواها ادت لخراب المؤسسات الكنسية في عهد امارة شارل مارتل . فقد كانت موضوعة خارج الدولة ولا تؤدي لها أي خدمة زمنية ، ووجدت الألوف والملايين من الناس ، أحراراً وغير أحرار ولا يدفعون أي ضريبة ، ولايقومون بالخدمة العسكرية ، بحجة أنهم كانوا متصرفين ، أي رعايا ابوية محصنة . غير أن ضرورة الكفاح ضد اعداء

المملكة الفرنجية من برمن واكيتانيين ومسلمين اقتضت تدبيراً شديداً . فقد وضع شارل مارتل ومحاربوه ايديهم على الاديرة وتملكوا وارداتها . وبالرغم من الاعادات الجزئية التي قام بها شارلومان وابنه لويس التقي ، وبالرغم من المؤسسات الجديدة التي اقيمت في كلوني . سيتو وكليرفو وغيرها، من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر فمن المشكوك فيه أن يكون الاكليروس النظامي قد استطاع استعادة ثروته العقارية التي كان يمتلكها في القرنين السابع والثامن .

عبادة القديسين . — لم تكن عبادة القديسين صفة من صفات العصر الذي امتد من القرن الخامس الى الثامن . فقد نشأت قبله وعاشت بعده . إلا ان هـذه العبادة اتسعت في العصر الميروفنجي في غاليـــا اتساعاً عجيباً ومميزاً .

ان الاعجاب الذي يبعثه الشهيد في النفس كان من شأنه أن يذهب بالمؤمنين إلى ان ينسبوا الى « ابطال المسيـح » سلطة الوساطة لدى الآله الذي يتأملونه على الدوام . فالصلوات والهدايا التي تقدم للكنائس المشادة على الأماكن التي لاقوا فيهـا العذاب كانت تعتبر في القرن الثالث وسيلة ناجعة لتأمين وساطتهم القادرة على كل شيء وعندمـا أصبحت الامبراطورية مسيحية انتقل الاجلال الى النساك ، ومنهم الى اساقفة اتقياء محسنين خاصة . وكان ينسب اليهم عند وفاتهم هبة الخوارق كالشهداء ، وأحياناً تتوطـد شهرتهم بالمعجزات التي تصدر عنهم في حياتهم .

المخلفات . — كانت المنطقة ، التي تحافظ على مخلفات شخص قديس ، تعتبر سعيدة لأن هبات السماء تنزل عليها ، ولأن هذه البقايا تملك صفات فوق طبيعية ضد امراض الجسم والعقل .

وكان يبحث عن هذه المخلفات بشتى الوسائل المشروعة وغيرها . ومع هذا فقد كان الناس في هذا العصر يحجمون عن تشويه الجسد المقدس لاقتسامه بين المعجبين به ، وكانوا يكتفون بغبار ضريحه ، وبقطعة من لباسه اعتقاداً منهم بان السلطات الفوق طبيعية تتصل بكل شيء يمسه الجسد المقدس .

ولم تصنف هذه السلطات بعد ، لأن القديسين يصبحون في المستقبل اختصاصيين في شفاء مرض من الأمراض ككبار الأطباء في عصرنا . ولكن كان بينهم ذوو شهرة كبرى . ولذا اقتضت الضرورة زيارة ضريحهم لكسب فضلهم . وكلما كانت المسافة طويلة ومصحوبة بالمتاعب والاخطار كلما كان طالب الوساطة اكثر استحقاقاً ، لأن الثواب على قدر المشقة . ومن هنا راج الحج إلى المزارات المقدسة .

وكانت مراكز العبادة كثيرة لا حصر لها . ولكن وجد في الغرب مركزان يفوقان غيرهما وهما : **روما** ، وتضم بقايا القديسين الحواريين ، القديس بطرس في الفاتيكان ، والقديس بولس على طريق اوستي ؛ و **تور** التي تقوم بالقرب منها كنيسة القديس مارتن ، ويعتبر هذا القديس قديس غاليا القومي ، وكان الميروفنجيون يبجلونه دون سائر القديسين ، وكان غضبه كابحاً لشراستهم .

المسيحية والوثنية . — من الممكن ان يتساءل ما إذا كانت عبادة القديسين هذه بقية باقية من عبادة الآلهة والابطال القدامى: « اليس القديس الشهير إلهاً متنكراً فاراً من البانتيؤن (مدفن العظماء) ومرتدياً البسة رثة مسيحية » ! ولكن هذه النظرية لا تسمع الا بتشابه سطحي وبتقارب يمكن الرد عليه ، وليس لها في جميع الأحوال تطبيق في غاليا . لأن المقدسين المبجلين في هذه المنطقة كائنات واقعية وغير اسطورية مطلقاً .

ويكفي لايضاح عبادة القديسين ، ان يمثل « الألم الفوق طبيعي وحاجة الايمان بالاتصال المحسوس بالله » عند المسيحيين ، كما هي الحال عند الوثنيين ، حاجة عميقة للنفس البشرية .

ولا يمكن أن ينكر ان انتصار المسيحيـــة اتى إلى الكنيسة بجماهير غير مهيأة بصورة كافية للحياة الجديدة . وظلت هذه الجماهير نصف وثنية فرضيت عن عبادة الأبطال المسيحيين . فالاحتفالات التي احاطت بها والأفراح الدنيوية التي رافقت الأعياد الدينية كانت ، بالنسبة للشعب ، ذات جاذبية قوية . ومن سخرية القدر ان يدخل اجلال الشهداء ، الذين بذلوا حياتهم في كفاح عبادة الأصنام ، الوثنية وظاهر الوثنية عرضاً في الطوائف المسيحية .

طقوس التوبة . — لقد ظفرت الكنيسة الكاثوليكية على المذاهب المتزمتة ، كالمونتانية والدوناتية ، التي توقع المذنب في وهدة اليأس وتوشك ان تطرحه في الوثنية ، ولكنها حافظت على ضرورة التكفير عن السيئات المرتكبة ضد العقيدة والاخلاق . وقد اختص المبشرون السكوتيون بنظام التوبة الذي تصوروه في ايرلنــده في القرن السادس ونشروه في القارة . وهذا النظام هو نظام التوبة المسعرة ، وبموجبه تفرض على المذنب توبة خاصة امام الكاهن ، دون أي احتفال ، حسب تعرفات اعمال ، تكفر عن الذنب ، مجموعة في كتيبات تسمى « كتب طقوس التوبة » . وتتناسب اعمال الكفارة مع شدة الذنوب المرتكبة ومدتها . فالجرائم الخطيرة كسفاح ذوى القربى وقتل الأب واليمين الغموس ، يحكم عليها ، حسب الظروف ، اما بالنفي او الاقامة في دير مدى الحياة او عشرة ، او سبعة أو ثلاثة أعوام . وتقتضي كفارة الذنوب الأقل خطورة الصيام مــدة طويلة أو

قصيرة أو تكراره خلال اربعين يوماً ، وسنوات ؛ أو الصلوات ، والجلد بالسياط ، وتقديم الصدقات .

لقد كانت غاية القديس كولومبان وخلفائه أن يفرض ، على المؤمنين المذنبين ، الاعتراف والتوبة وتقديم مساعدة سهلة إلى « صديق الروح » أي **المعرّف** . ويرى ان التوبة اذا كانت مفصلة ودقيقة لا تترك مجالاً للتردد والهوى الفردي . غير أن التوبة على هذا النحو تعني الذهاب في اتجاه ممارسات العالم الدنيوي الذي يفهم القانون بشكل تسويات . ولكن مثل هذه التسويات قد يكون لها تأثير مشؤوم على قانون التوبة الديني ، لأن كل ذنب او جريمة يمكن ان يفتدى بالمال أو بطريق ملتوية ، كبناء مؤسسة دينية مثلا . ومع الزمن كان لممارسة طقوس التوبة تأثير مفسد للعاطفة المسيحية والأخلاق العامة .

ان هذه اللوحة التي اعطيناها عن الحياة الدينية في العصر الميروفنجي لا تستطيع ان تقدم لنا ألواناً مشعة ، لأن كثيراً من الابخرة الكثيفة تمتد على البلاد المسيحية . فما لا شك فيه ان الشعب مسيحي حقاً ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن العقائد ، لأن ديانته مصنوعة من مجموعة اباطيل وممارسات سحرية ، وتقواه تقوم على ظواهر وثنية ساذجة وبريئة ، فضلًا عن ان الكنيسة لم تستطع أو لم تعرف كيف تلطف وتخفف بربرية السلالة الحاكمة ومن حولها .

يضاف إلى ذلك أن الاكليروس نفسه لا يخلو من العيوب . فقد كان التعليم الديني في الارياف بائساً ، والغيرة على الدين والاخلاق ظاهرية ومدعاة للشك والطعن ، والتعليمات القانونية التي تفرض عزب الكهان ظلت في الغالب حرفاً ميتاً طوال العصر الوسيط . ويدلنا غريغوار تور

وقوانين المجامع الدينية المحلية على أن بعض اعضاء الاكليروس كانوا طموحين جشعين دون ضمير، يفترون الكذب على اسقفهم ويشكونه للملك لأتفه الامور؛ وان الاحبار نفسهم كانوا ضعيفي الثقافة ، ويشاركون قطيعهم اضاليله وأوهامه . وقد وضعت الملكية يدها على الأسقفية واقامت في الغالب إلى جانب الاساقفة المقدسين موظفين غير اكفاء للقيام بعمل . ومع الزمن تفاقم الشر ، وفي القرن السابع ، وخاصة في النصف الثاني منه كان الاسقف أميراً كبيراً عنيفاً يشارك في مكايد القصر أو يحرض عليها ، حتى ان بعض الاساقفة الفوا لأنفسهم امارات ولم يهتموا بامور الدين ، كما تدل على ذلك ندرة المجامع الدينية المحلية ، بعد أن كانت كثيرة ، وزوالها أخيراً من ٦٩٦ إلى ٧٤٢ .

واستطاع الاكليروس النظامي ان ينقذ الكنيسة المسيحية من الخراب والدمار الروحي والاخلاقي . ولكن ليس في ذلك ما يدل على أن آباء الاديرة والرهبان كانوا مثال التقوى والصلاح ، لان غنى الاديرة كان خطراً على الحياة النسكية والمادية . بيد أن الروحانية على ما يبدو كانت اقل خللاً في الاديرة منها في سلك الاكليروس العصري .

وبالرغم من هذه العيوب التي تلطخ لوحة الكنيسة الميروفنجية فيجب الا يحكم عليها بشدة ولا سيما اذا تصورنا أنها كادت تنهار تحت ضربات الغارات البربرية وضياع الحضارة بعد أن فقدت كل قوة معنوية . حتى ان الافلاطونية الحديثة ، وهي الفلسفة الوحيدة التي ظلت حية ، لم يكن لها من تأثير الا على عدد قليل من الاتباع . ولم يخل هؤلاء من الاضاليل التي يتساوى فيها المسيحيون والوثنيون . ولذا يجب الاعتراف دون مواربة ان القليل من المثل الاعلى، في هذا العالم المضطرب وفكره المتقهقر، قد التجأ إلى الكنيسة المسيحية وقلما وجد في غيرها .

وكذلك الاحسان لم يجد له ملجأً غير الكنيسة . ولم يجد الفقراء والجياع والاسرى والسجناء من معين الا الاسقف أو الاب للتخفيف عن شقائهم . ولقد كان الاساقفة في الغالب جهلاء طموحين شكاكين ولكن احسانهم الواسع يغفر لهم صغائرهم وضعفهم .

ولولا المدارس الاسقفية والديرية وتشغيلها النساخ بنسخ المؤلفين القدامى لما وصلنا أي أثر كلاسيكي . وفي الدير وحده وجدت العاطفة الصوفية موئلًا وملجأً . ففيه بحثت النفوس المضطربة المتقززة من قبح العــالم وشروره عن ملاذ لتعيش حياة فوق طبيعة . وفي الكنائس وجد الآثمون والفارون من غضب الملوك وحقد الكبار حرارة العطف والايواء لأن الدين يحب الرحمة ويشفق على المنكودين . وأمام المذبح وقف الاستبداد الملكي لاهثاً يخشى سلاح **الحرمان** الذي شهره الاسقف في وجه كل معتد أثيم .

المملكة الفرنجية

حكم السلالة الكارولنجية

٧٦٨ – ٨٩٩

الفصل السابع

تأسيس الامبراطورية الكارولنجية في الغرب

٧٦٨ – ٨٠٠

بداية الحكم . – لقد كان عمل بيبن القصير عظيماً ولكنه لم يجن ثماره إلا بفضل ابنه البكر شارل ، فقد استطاع هذا الاخير بسلطته ونفوذه ، خلال خمس واربعين سنة من حكمه المجيد ، أن يصبح سيد الغرب دون منازع .

ولد شارل عام ٧٤٢ ولكن انساله كانوا يسمونه **شارل الكبير** أو **شارلومان** . ولقد كان أول عمل يتطلب منه الحفاظ على مملكة بيبن وشدة تماسكها . لأن بيبن عاود الخطأ ، الذي ارتكبه ملوك الميروفنجيين وولد كثيراً من المنازعات ، وهو تقسيم المملكة كإرث بين اولاده .

اعتلى العرش كل من الأخوين عام ٧٦٨ وكانت عاصمة شارل نويّون وعاصمة كارلومان سواسّون . ولكن التفاهم بينهما كان قصير الامد . فلم تمض سنة على اعتلائهما العرش حتى قامت ثورة في اكيتانيا ، فطلب شارل

من أخيه المساعدة فرفض كارلومان . ولكن شارل استطاع ان يعيد اكيتانيا إلى حظيرة الطاعة .

وفي بدء عام ٧٧٠ تصالح الاخوان بفضل مساعي امهما برتراد . ويبدو ان شارل قد تأثر كثيراً بآراء أمه فوجه سياسته في اتجـاه سلمي ، وبمساعيها تم اتفاق بين ملك الفرنجة ودوق بافاريا . وفي هـذه السنة أيضاً زوجت ابنها **ديزيره** ، بنت ملك اللومبارديين ، وعملت على التفاهم بين المملكتين . ولكن البابا احتج على هذه السياسة التي قد تؤدي إلى التفاهم على حسابه . ولم ترض هذه السياسة كارلومان ، لأنه كان يخشى على نفسه من التطويق . ولم يمض شهر على اتفاقهما الا وتوترت العلاقات بينهما من جديد .

ظهر اختلاف في مشاكل روما : وذلك أن البابا بولس الأول مات في ٢٨ حزيران ٧٦٧ م . وكانت الارستقراطية العسكرية في روما تكره البوروقراطية الاكليركية ، التي تمتعت بالسطة في عهد البابوين الاخيرين . فقد قام الدوق توتو على رأس الميليشا وفرض على الجميع انتخاب اخيه قسطنطين . وكان هذا علمانياً ، ولكنه استطاع في عدة أيام أن يحصل على جميع القاب الاكليروس ، حتى توج في ٥ تموز ٧٦٧ بابا في روما . ولكن حزب الاكليروس لم يقف مكتوف الايدي تجاه هـذا العمل ، فقام رئيسه **كريستوف** وطلب النجدة من ملك اللومبارديين فانجده، وبفضل الجنود التي ارسلها هذا الأخير ازيح قسطنطين وسملت عيناه . وفي ١ آب ٧٦٨ نادي الحزب الفائز باتيين الثالث بابا في رومـا . وسعى هذا البابا أن يمنع كل محاولة من هذا النوع تعتمد على القوة . وفي المجمع الذي عقد في لاتران عام ٧٦٩ ، وكان بـين أعضائه اثنا عشر اسقفاً

فرنجياً ، تقرر ان **الكهان والشماسين في روما يمكن انتخابهم لكرسي البابوية على الا يشترك أي علماني في الانتخاب .**

وقلق اتين الثالث من تحالف شارل مع ديديه ملك اللومبارديين ولكن برتراد أتت الى روما وأخذت على ديديه وعداً لارجاع المدن والأراضي المتنازع عليها . وهـــذا التقارب اقض مضجع كريستوف الذي طلب مساعدة اللومبارديين ، ولكنه بدأ يسيء الظن بهم وجعل يوطد علاقاته مع كارلومان . وليحول ديديه دون التدخل الفرنجي قرر الزحف على روما واتفق مع البابا على أن يسلمه كريستوف وابنه سرج فاهلكهما اشياعه . وعندما طلب إليه البابا ان يستأنف مفاوضاتـــه المتعلقة بشأن **ارجـاع الاراضي التي وضع يده عليها رفض ذلك بصراحة .**

وادرك شارل الخطر الذي ينجم عن نفوذ ديديه في روما . وفي صيف ٧٧١ ردّ دزيرة الى أبيها ، وفصم عرى التحالف الفرنجي اللومباردي. وتزوج في آخر السنة هيلدوغارد من أسرة دوق اليانيـا . وفي ٤ كانون الثاني ٧٧١ توفي كارلومان في شامو ـي . فبادر شارل الى احتلال مملكة أخيه بينما كانت أرملته جيربرج وولداها يبحثون عن ملجأ لهـم عند ملك اللومبارديين .

شارلومان وايطاليا . ـ منذ زمن بين القصير ارتبطت ايطاليا بالبابوية ولفتت انتبـاه شارل ، وشغلت في سياسته مكاناً هامـــاً . ولقد دلت حوادث السنوات الأخيرة الخمس ان البابوية لاتستطيع ان تستغني عن الحماية الفرنجية . وعندما توفي البابا اتين الثالث خلفه هادرين على كرسي البابوية .

وكان ديديه ملك اللومبارديين حريصاً على تحقيق برنامج اسلافه . ورأى ان الوقت مناسب لتحقيق الوحدة الايطالية تحت سلطته لاسيما وانه وجد فرصة في التجاء اولاد كارلومان الى بلاطه . وطلب الى البابا أن يبارك

أولاد كارلومان ليحول دون تفاهم شارل مع البابا . ولكن البابا رفض وما كان من ديديه الا أن زحف على روما مستولياً على البلاد التي مر منها في طريقه ، وأصبحت روما في حالة دفاع . وعندها جدد هادرين مافعل اتيين الثاني واسترحم المساعدة والنجدة من ملك الفرنجة . واستقبل شارل رسول البابا في ٢ كانون الثاني عام ٧٧٣ ، وكان مشغولاً انذاك بحدود مملكته الشرقية ولذا رجح اجتناب الحرب في ايطاليا . وحاول أن يتفاوض مع ديديه ، حتى انه أراد ان يقدم مبلغاً من المال اذا أصلح اخطاءه مع البابا ، ولكن عبثاً حاول لأن ديديه كان مصمماً على فرض ارادته . وزحف على روما مصطحباً معه أولاد كارلومان ليباركهم . حشد هادرين تحت أسوار المدينة حرس دولة الكنيسة وهدد ديديه بالحرمان أي بالخروج عن الجماعة اذا تابع سيره فخاف ديديه وعاد أدراجه .

ولكن الخطر كان يهدد شارل لأن ديديه اذا نجح في محاولته وأخضع روما فربما أثار حوله المنافسين من أبناء أخيه . ولذا وجب أن يقرر بالمبادرة الى السلاح والحرب ، وقد جهز جيشين : احدهما تحت ادارة برنار عم الملك ؛ والآخر تحت ادارة شارل نفسه . ودك الحصون اللومباردية في جبل سوني ، وعندما التقى الجيشان في سهل البو وقعت الهزيمة الكبرى . وفر ديديه إلى بافيا وحاصر فيها ، وكان ابنه آداجيز في ڤيرونه مع ارملة كارلومان وأولادها . ولكن ڤيرونا لم تقاوم واستطاع آداجيز أن يفر الى بيزنطه وسلمت جيربرج وأولادها الى شارل . وبقيت بافيا تدافع بقوة . وفي هذه الأثناء أراد شارل زيارة روما ليصلي على ضريح الرسل (الحواريين) . وتلقى هادرين الخبر بمفاجأة وخوف ، غير أنه تماسك واستقبل « حامي الرومانيين » باحتفال مهيب وبما هو أهل له . والتقى الملك والبابا في كنيسة القديس بطرس ، وتبادلا الايمان والضمانات المشتركة ، وبعد

أن استسمح شارل من الحبر الأعظم دخل روما . ثم طلب البابا من شارل تجديد هبة أبيه للبابا في كيرسي عام ٧٥٤ ، فأعطاه نيابة رافينه ودوقتي سبوليت وبينيفن والبندقية وايستريا . وهاتان الأخيرتان ايالتان بيزنطيتان ، ولم يكن لديه مبرر للتصرف بها . وكتب صكاً بذلك الى البابا ، ثم عاد الى بافيا ، وسلمت الحامية وأخذ ديديه وعائلته اسيراً الى لييج . ولم يكتف شارل بضم لومبارديا لملكه بل أعلن نفسه **ملك اللومبارديين** وهذا اللقب الجديد يدل على أنه يريد أن تكون له في ايطاليا اليد الطولى ويمارس فيها سلطة الحكم الفعلية . ولكنه ترك الى المملكة اللومباردية موقتاً حكماً ذاتياً موسعاً واكتفى بتسمية بعض الأدواق ووضع حامية في بافيا . وأعاد الى البابا الأراضي التي اغتصبها ديديه عام ٧٧٢ . وسبق أن وعد بالتخلي عن بولونيا وايمولا منذ ٧٥٦م ولكن هذا الوعد لم ينفذ .

ان وقوع المملكة اللومباردية في يد شارلومان اوقع مصالح البابوية ومصالح المملكة الفرنجية في اختلاف . ولقد كان فتح المملكة اللومباردية بالنسبة لشارل ، يعتبر نهاية لمرحلة ، وذلك لأنه يعتبر نفسه قد تحرر من جميع المشاغل التي تقلق راحته من جهة ايطاليا الشمالية ، ويرى الآن أن باستطاعته ان ينصرف بكليته الى مشاكل ساكس ، وكانت تتطلب من قبله تدخلاً جدياً . أما البابا هادريان ، فعلى العكس ، كان يرى ان هذا الدور الجديد ، الذي فتح أمامه ، انما هو دور تحقيق لاحلام سابقة . لان الوعد ، الذي قطعه الملك على نفسه ، يمكنه من ان يجني منه بعض الفوائد المباشرة وذلك بانهاء ما قد بدىء به منذ بيبن ، والاعتماد على ما أمناه به الملك الفرنجي .

وما كاد شارلومان يضع يده على العرش اللومباردى الا وطلب الحبر

الاعظم ان يتدخل لصالحه . فمن ذلك انه كان يأمل من شارل أن يؤمن له الجلاء عن الاراضي التي يطمع الكرسي الأقدس برجوعها اليه . ويرى ان شارل عندما اتى الى روما قد صرح علناً بأنـــه لن يستسلم لشهوة « الذهب والأحجار الكريمة والفضة » ولن يتعطش للمجد أو الفتوحات بل ان جل ما يطمع اليه ، كما كان ابوه من قبل ، ان يناضل ليعطي الحق إلى القديس بطرس ، ويرفع من شأن كنيسة الله المقدسة ويزيد في سلامة رئيسها وأمنه .

وحدث ان علم هادريان بمؤامرة تدبر ضد شارل والبـابا وتضم دوق فريول وسبوليت وبينيفن وشيوزي حول آداجيز ، وربما كانت هذه المؤامرة تلقى عوناً من بيزنطـــه . ووقع أن شق دوق فريول عصا الطاعـة وحده ، فاراد شارل أن يقضي على هذه الحركة قبل ان تتسع وتم له ذلك والغى الدوقية ، ووضع فيها حاميات فرنجية وكسرت كل مقاومة في ايطاليا الشمالية .

وشغلت حروب ساكس واسبانيا شارل فلم يأت الى ايطاليا الا في آخر العام ٧٨٠ . وقضى بضعة أشهر في تنظيم المملكة اللومباردية وحضر عيد الفصح في روما عام ٧٨١ ، حيث عمد ابنه الثاني بيبن وباركه البابا المباركة الملكية مع اخيه لويس ، ولقب بيبن ملك ايطاليا . امـا من الناحية السياسية والعسكرية فقد طبق شارل اصلاحاته الادارية والقضائية في ايطاليا واوجد كونتات مستحدثين عوضاً عن القدامى .

وفي غضون هذه الفترة كان من السهل ابرام اتفاق بين شارل وبيزنطه ولا سيما بعد أن مات الامبراطور ليؤن الرابـع (٧٨٠) وقامت على الوصاية الامبراطورة ايرينه مكان ابنها قسطنطين السادس . ولقد كانت

ايرينه توغب في اعادة عباده الصور وتقربت من البابا والكنيسة الغربية . وفي العام ٧٨١ قدم وفد بيزنطي على شارل يطلب يد ابنته روترود للملك الحدث وابرم عقد الخطبة .

وكانت حروب ساكس تستوعب نشاط شارل . فقد اكتشف مؤامرة دبرت للقضاء عليه . وتأثر شارل لهذا الحادث حتى فرض على جميع الشخصيات الكنسية والعلمانية يمين الولاء . وبعد ان هدأت الاحوال عاد الى ايطاليا لحل المشاكل البينيفنتيه ، لان البابا كان يتهم دوق بينيفن بالتآمر على شارل ، ولكن هذا الاخير اضطره إلى الطاعة .

وفي هذه الاثناء ، وبينما كان شارل في كابو ، جاءه وفـــد من ايرينه ليخبره بفسخ الخطبة بين قسطنطين وابنته روترود . ويبدو أن الامبراطورة خافت من أن تعمل كنتها في المستقبل على تخفيض سلطتها ونفوذها الخاص . يضاف إلى ذلك أن ظفر الفرنجة كان يؤلف خطراً جديداً أكبر من الخطر الذي كان يهدد به دوق بينيفن أراضي بيزنطه في ايطاليا .

على أن جهود ايرينه في ارجاع الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الدين الحنيف ، بعد أن حكم مجمع نيقية على عبادة الايقونات بالبطلان (ايلول- تشرين الأول ٧٨٧ م) ، جعلت للأمبراطورة بعض الحظوة في روما . وليعدل شارل من حدتها فيما اذا وقع يوماً ما في خلاف مع بيزنطه تخلى للبابا عن جنوب توسكانا اللومباردية وعلى شاطىء غروسّيتو و بيومبينو وعاد إلى فرنسيا .

ولكن أمير بينيفن لم يسلم البابا المدن والاراضي التي وعد بها . غير أن هادرين كان يخشى ماهو أخطر من ذلك ، لأن دوق بينيفن آريشيس

كان يفاوض بيزنطه بمعاهدة دفاعيــة على أن يحصل في حال النصر على منصب باتريس (حامي) ويمثل الامبراطور في ايطاليا وحتى في روما . ولكن المنية وافته ورفض البينيفنتيون أن يتعهدوا بشيء لبيزنطـه خوفاً من أن يحرم شارل ابن دوق بينيفن ،غريموالد، من حكم الدوقية . وكان البابا يرغب في ضم بينيفن له، ولذا أشار على شارل الا يسلم غريموالد السجين الذي أخذ رهينة بعد مؤامرات أبيه . وفصل شارل النزاع باعتراف غريموالد بسلطته ووضع جنود بينيفن تحت تصرفه فيما إذا فاجـأه هجوم بيزنطي محتمل الوقوع. وقعت الحرب عام ٧٨٨ غير أن القوى الامبراطورية ، وكان يرافقها آداالجيز بن ديديه ، كسرت ورجعت على عقبيها . وربما يكون للتدابير التي اتخذها الملك ضد بيزنطة التي قاومت عبادة الصور ، دخل بهذا الخلاف .

لقد كان لحوادث النصف الثاني من القرن الثامن تأثير عميق في ممارسة السلطة في روما والأراضي التابعة للبابا . وكان هادرين كأسلافه يمارس الحكم المباشر فيها ويسهر على حسن ادارتها . وحاول أن يصلـح أسوار المدينة ومجاري الماء فيها . ولكن الحادث الجديد الذي يجدر ذكره هو زوال السلطة الامبراطورية بالتدريج . ومع هذا لم يقطع هادرين علاقاته مع بيزنطه ، ولم يتوجه اليها إلا بكل تقدير واحترام ، ولم يشك بسلطتها وسيادتها ، ولكنه كان يعمل كما لو كانت غير موجودة . فمنذ عام ٧٨١ كان يؤرخ مراسيمه بسني بابويته ، ويضرب النقود باسمـــه وصورته ، وكان عمال الامبراطورية القدامى طوع أمره .

غير أن هنالك سلطة أخذت تتكشف بأنهـــا أقوى من سلطـة البابا وهي سلطة « **حامي الرومانيين** » . وظن هادرين أنـه الفى في هذا الحامي ما يجعـله في مأمن من جميـع الأخطار الخارجية وحليفـاً له

في سياسته التوسعية الأرضية ، ولقد رأينا كيف اخفقت آمـــاله هذه . لقد كان شارل حامياً له وسيداً : فقد كان يطلب إلى سكان دولة البابا أن يقسموا له يمين الطاعة وللبابا أيضاً .، ويراقب حكومة الحبر الاعظم ويتقبل الظلامات من رعاياه . ولقد شبهت دولة الحبر الأعظم في آخر باوية هادرين بأمارة كنسية ذات حصانة تتمتع ببعض السيادة ولكنها تعتبر داخلة في نطاق الدولة الفرنجية .

ولما مات هادرين في ٢٥ كانون الأول ٧٩٥ كان خلفه ليون الثالث. ورغم أن انتخابه كان بالاجماع ، الا انه اصطدم بعداء الارستقراطية العسكرية والعائلية . وهذه المعارضة اضطرته أن يضع نفسه تحت تصرف الحامي ، وأرسل اليه راية المدينة ، رمز القيادة العسكرية . وهذا اعتراف صريح بسلطة شارل وتفوقه ، ورجاه أن يبعث إليه بكبار دولته ليتقبلوا يمين الشعب الروماني . وقد أوفد شارل لهذه المهمة مستشاره انجيلبرت وأوصاه أن يتحدث مع البابا في شؤون الكنيسة ، وينصحه أن يكون حسن السيرة ، ويبين له أخيراً حدود فاعليته . وخصص شارل لنفسه دوراً نشيطاً وهو حماية كنيسة المسيح أي المسيحين جميعاً ضد هجوم الوثنيين أو الكفار وصيانة الدين الحنيف من كل شائبة . وما على البابا إلا أن يساعده في مهمته بالابتهال إلى الله تعالى والدعاء له . وهذا معناه أن ليون الثالث أصبح أسقفاً كأساقفة الفرنجة .

توسع الفرنجة في الشمال — الشرقي

خضوع الفويز .— في الشمال الغربي من وستفاليا بين أفواه نهر الراين ومصب الفيزر كانت تسكن أقوام الفريز ، وهي أقوام قريبة من أقوام الساكسونيين وتتشابه معها في شروط الحياة والاخلاق والعادات والعقائد .

وقد عرفوا باستقلالهم وشدة حرصهم عليه وعبادة الأوثان رغم الجهود التي بذلتها البعثات الانغلو – ساكسونية منذ القرن السابع لتبشيرهم بالديانة المسيحية . ولم يخضعوا للفرنجة قبل القرن الثامن إلا ظاهراً ، حتى أن المناطق الواقعة في الشمال الشرقي من خليج زويدرزه كانت أشد مقاومة للنفوذ الفرنجي . وفي العام ٧٥٤ وقع القديس بونيفاس (وينفريد) شهيد الدين الذي أتى ليبشر به بعد معاضدة بيبن له . وبعد خمس عشرة سنة أتاها مبشر آخر من انكلترا يدعى ويلهاد فلم يوفق في كفاحه ضد عبادة الأصنام .

ولبثت الفريز في معظم اجزائها في السنوات الأولى من حكم شارلومان في حالة قلق والفتح فيها غير مستقر . غير أن محاولات الفريز للتخلص من حكم الفرنجة وسيطرتهم كانت في آخر عهدها ، وذلك لأن سحق الساكسونيين عام ٧٨٥ اجبرهم على الاستسلام . وقام المبشر ليودغر بنشر الدين بينهم بحماسة واندفاع . وقد جعلها شارل ايالة من ايالاته وقسمها إلى كونتيات وتوجب على سكانها أن يقدموا الجنود للدخول في الجيش الملكي .

ومضى وقت طويل حتى قضي فيها على الوثنية القوية والمتأصلة ، وانتشرت فيها الديانة المسيحية بفضل صبر شارلومان وحزمه . ولقد كان التبشير مساعداً ومفيداً للسياسة الكارولنجية في هذه البلاد .

فتح ساكس . — كان سكان ساكس أقواماً صعبة المراس وتؤلف خطراً على سلامة الفرنجة . وكان القتال بينها وبين الفرنجة دائماً ، إلا أنه لايخرج عن عمليات عسكرية سريعة دون أن تكون مستمرة ومنظمة ولم ينجم عن هذه العمليات سوى هدوء موقت ، حتى إذا لمست هذه الشعوب ضعفاً في سلطة الملك وفي الايالات الفرنجية المتاخمة لها مثل

تورنجه وهسّ والبلاد الرينانية عاودت الكرة على هذه البلاد وأعملت فيها السلب والنهب . وكانت وثنية عنيدة رغم جميع المحاولات التي بذلت لادخالهـــا في حظيرة الدين المسيحي . وهي تشغل السهول الممتدة بين البلاد المنخفضة ونهر الإلب وهاورتز وبحر الشمال وتصل إلى البالطيك حتى حدود البلاد الدانيمركية . ولم يكن بين هذه الشعوب وحدة تجمعها بل تتألف من جماعات عرقية مختلفة وميول متباينة ، منها : الوستفاليون في الغرب ؛ والأستفـاليون في الشرق ؛ والانغراريون بينهما والنوردـ ـالبنجيون وسكان بلاد الفيمود على جانبي نهر الإلب الأدنى . وهذه الشعوب شديدة التعلق باستقلالها، ولا تلبث أن تؤلف كتلة واحدة مذ ترى هذا الاستقلال مهدداً . وهذا ما حدث في عهد بيبن القصير وفي عهد خلفه مرات عديدة .

لم يكن تدخل شارلومان في أول الأمر خارجاً عن الطرق التقليدية المعروفة في قتال هذه الشعوب التي لايراد منها سوى فرض احترام السلطة الفرنجية ، ولكن ضغط الظروف اضطر شارلومان إلى تبديل خطته وسياسته وتهيئة خطة في النفوذ التدريجي ائلا يقع في كل مرة في المشكل نفسه .

اتخذ شارلومان عدة تدابير دراكونية ضد هذه الشعوب وأداع مرسوماً يقضي بنشر الحضارة الفرنجية والديانة المسيحية في ساكس ، ومن امتنع جزاؤه الموت ، وطلب الاطاعة العمياء وحرم الاجتماعات العامة والمجالس إلا التي يدعو اليها . وعاشت ساكس بضع سنين في ظل الارهاب ، ولكن أهلها كانوا يتحينون الفرص ليزيلوا نير شارلومان عنهم ، ويقتلون الموظفين الملكيين والمبشرين المسيحيين . ولم يترك شارلومان وسيلة من وسائل القمع الا استعملها ، فمن ذلك أنه اقتلع الشعوب المتمردة من أرضها ونقلها جماعات صغيرة إلى داخل المملكة الفرنجية ، واستعاض عنها بالفرنجة

أو من غيرهم من الشعوب الموالية لشارلومان . وبفضل هذه التدابير القاسية استطاع شارلومان فتح ساكس بعد أن كلفته وكلفت أهلها جهوداً طويلة وضحايا كثيرة . وقد وسع شارلومان بهذا الفتح حدود مملكته إلى مصب نهر الإلب ، وعمل بجد ونشاط على نشر الدين المسيحي وإزالة عبادة الأوثان .

كان فتح ساكس عظيم النتائج . وذلك لأن شارلومان ضم الساكسونيين إلى الشعوب الجرمانية المجاورة من فرنجة وتورنجيين وبافاريين وآلامان . وأمكن من هذا المزيج تشكيل المانيا ، كما أن هذا الفتح ربط شمال أوربة الوسطى بأوربة الغربية وصهر العناصر الكاثوليكية واللاتينية والجرمانية ونشأت عنها حضارة العصر الوسيط التي تعتبر أساساً لحضارة أوربة الغربية الحالية .

التوسع الفرنجي في الجنوب الشرقي

خضوع بافاريا . — كان الشعب البافاري شعباً من الشعوب الجرمانية ، ويمتاز عنها بانه لم يغادر جرمانيا ولم يتعرض لرومانيا الا في حصونها الأمامية . وقد خضعت بافاريا لحكم الفرنجة منذ عهد بيبن القصير . وأظهر دوقها تاسيلون الثالث اطاعته له ، وقام بواجباته العسكرية تجاه بيبن عام ٧٥٦ وفي الحملات الأولى التي وجهها الى اكيتانيا . غير أن سلطة بيبن في بافاريا كانت ضعيفة ولا يشعر بها الا قليلًا . ومن بافاريا هذه نفذت المسيحية والحضارة الجرمانية الى بلاد السلاف في ستيريا وكارانثيا .

ويبدو ان تاسيلون ملّ الحرب في اكيتانيا ، لاسيما وأنها لا تعود بالفائدة

على بافاريا ، فترك الجيش الفرنجي واعلن استقلاله . ولم يستطع بين تنظيم حملة ضده . ثم جرى بينه وبين شارل اتفاق عام ٧٧٠ وهدأت الحال بينهما ، حتى ان مفرزة بافارية ساهمت مع شارل في الحملة التي وجها الى اسبانيا عام ٧٧٨ . ولم يعجب شارل ان يبقى تاسيلون مستقلاً في بافاريا ويحكمها حكماً ذاتياً . غير ان ظفره في ايطاليا وساكس جعل تاسيلون في دياط فورمز يجدد تعهداته التي قطعها على نفسه تجاه بين .

ولم يكن هذا التصريح من تاسيلون الا شفوياً . أمـــا في داخل حكومته فلم يتغير شيء . وقام نزاع بين البافاريين والفرنجة ، وخاف تاسيلون على نفسه ، فأرسل وفداً للبابا عام ٧٨٧ م يرجوه التوسط بشأنه لدى شارل فطلب هذا من تاسيلون خضوعاً تاماً . ولما لم يكن للبابا سياسة خاصة فقد هدد البافاريين بالحرمان والطرد من الجماعة اذا قاوموا الملك شارل . وهجر البافاريون دوقهم . فخاف من الطرد وسلم نفسه لشارل وتخلى عن دوقيته . غير ان شارل أعادها إليـــه بعد ان تعهد بالطاعة واقسم شعبه يمين الولاء أيضاً . ورغم هذا فقد كان تاسيلون مصمماً على الانتقام حتى أنه حاول ان يغرر بقومه لئلا يحلفوا اليمين لشارل . وبأيحاء من زوجته ليوتغارد ابنة ديديه ملك اللومبارديين ، تحالف مع الآفار والبيزنطيين الذين يحاولون الهجوم على ايطاليا . غير أن هذه السياسة لم ترق لقومه واخبروا شارل بخبره فأوقفه . وحكمت عليه المحكة الملكية بالاعدام . ولكن شارل عفا عنه واكتفى بجز ناصيته وسجنه في جوميج ثم في فورمز . وفي عام ٧٩٤ تخلى تاسيلون علناً أمام مجلس في فورمز عن كل حقوقه ومزاعمه في دوقية بافاريا .

كان خضوع بافاريا وملحقها كارانثيا نجاحاً هاماً للملكية الكارولنجية

وذلك لأنه يدل على زوال الاستقلال الذاتي في هذا الاقليم ويجعل طرق التيرول ووادي الدانوب بين يدي شارل .

خضعت بافاريا لادارة المملكة العامة وطبقت فيها الإرادات الملكية . وأصبحت أراضي الدوقية اموالاً للملك . هذا ولما كانت هذه الدوقية تخشى خطر غارات الآفار ، لذا رأى شارل ان يعهد بالسلطات العسكرية والادارية الواسعة الى حاكم دائم وجعل من مهامه الخاصة السهر على الثغور الشرقية .

وكما ادمجت بافاريا في جسم المملكة الفرنجية فكذلك خضعت كنيستها للكنيسة الفرنجية وعمل رئيس الاساقفة فيها على اخراج اكليروس متعلم ومنظم وغيور على الدين .

خضوع الآفار . — أتى الآفار من اواسط آسيا بعد تقلبات كثيرة واستوطنوا وادي الدانوب الأوسط من نهر تيسزا الى كارانثيا . ولم يكن لهم حدود ثابتة وذلك لأنهم يقومون على الدوام بأعمال السلب والنهب في جميع الجهات على حساب البلاد البلقانية ومختلف مناطق اوربة الغربية . وكانوا يأتمرون بأمر زعيم عسكري يلقب بالخاقان . ولبث خطرهم عظيماً حتى آخر القرن الثامن . واتفقوا عدة مرات مع تاسيلون دوق بافاريا ضد شارلومان وتعددت هجماتهم . وكان شارل يقابلهم بالقوة . ولم يكن من هذه المقابلات سوى حماية الثغور . وأخيراً ، في العام ٧٩١ ، قرر حربهم والقضاء على مقاومتهم وعدائهم . وتم له ذلك في ثلاث حملات : في ٧٩١ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ م . وبنتيجة هذه الحملات ضمت أراضي الآفار الى المملكة الفرنجية ، وقسمت البلاد الى مناطق ، والحق بعضها ببافاريا وبعضها الآخر بايطاليا . وفي كل مرة ينتصر فيها الجيش الفرنجي كان يرافقه انتصار في الدعاية والتبشير للدين المسيحي .

ومما يميز التبشير الديني في البلاد الدانوبية انـــه سار حسب طرق وأصول مسيحية حقيقية معتمداً في ذلك على الاقناع واللطف بخلاف ما كان يجري في بلاد ساكس حيث كان التبشير والتعميد معتمدين على القوة .

وكان من خضوع الآفار أن زال الخطر عن جنوب المانيا وايطاليا وحرم المستائين في هذين البلدين من الحكم الفرنجي من الاعـــتماد على الآفار اذا ما قامـوا بحركات عصيانية أو ثورات . وتمكنت الشعوب السلوفينية والكرواتيـة الخاضعـــة للآفـار بهذا الفتح من الدخول في حظيرة العالم المسيحي الغربي .

غير أنه لم يكن في سهل الدانوب الأوسط قوى كافية لايقـــاف الغارات الشرقية الجديدة . وذلك لأن الاستعمار الألماني والتنظيم السلافي لم يكونا على درجة من القوة حوالي آخر القرن التاسع لصد هجوم الهونغاريين واستيطانهم في هـــذه المنطقة وجعلها خلال ثلاثة أرباع القرن منطلقاً للغارات والسلب في أوربة الوسطى .

التوسع نحو الجنوب والغرب

شارلومان واسبانيا . — كانت اسبانيا منـذ منتصف القرن الثامن تعيش منفصلة عن الخلافة الإسلامية بعد أن نقل العباسيون العاصمة الى بغداد . وكان ممن نجا من فتك أبي العباس السفاح الأمير عبد الرحمن . فقد فر ونزل في المغرب الأقصى ومنه ذهب إلى قرطبة وأصبـح أميرها عام ٧٥٦ م . غير أن وضع اسبانيا لم يستقر على حال، وكانت تعكره حركات العصيان منذ ٧٦٣ م التي يغذيها أنصار الخلافة العباسية من اليمنيـين أو البربر . ولكن الأمير عبد الرحمن قضى عليها بين أعوام ٧٧٠ و ٧٧٧ . وفي ٧٧٧ دبرت مؤامرة ضد عبد الرحمن تسندها بغداد واشترك فيهـا

سليان بن يقضان الاعرابي الكلبي والي سرقسطة ، وكان يريد الاعتماد على قوة خارجية فاستنصر بملك الفرنجة وذهب اليه في ساكس في مدينة بادربورن . وكان شارلومان في ذلك الحين على اتم استعداده ، ولا سيما بعد أن نجح في مشاريعه فيما وراء الالب والراين . وقد خامرته فكرة بسط نفوذه فيما وراء البيرينه ، أو على الاقل إظهار نفسه حامياً للمسيحيين من رعايا المسلمين في اسبانيا . وقرر أخيراً تجهيز حملة قوية . وفي ربيع ٧٧٨ جهز جيشاً وسار في طريقه إلى اسبانيا وترك في شاسنوي زوجته هيلدوغارد حيث أتته بتوأمين لويس ولوثير . وعندما وصل نهر الغارون قسم جيشه إلى قسمين على أن يسير كل منها بجهة ويلتقيا أمام سرقسطة . فعبر الأول البيرينه الشرقية ، والثاني ، وكان تحت قيادته المباشرة ، عبر بلاد نافار ، ويسكنها البشكنس والغاسكون . وفي هذه الاثناء بلغه الخبر بأن عبد الرحمن بن حبيب أحد المتآمرين ، وكان على رأس بربر افريقية ، نادى بسيادة الخليفة العباسي في « مرسيه » واختلف مع ابن الاعرابي ، وقتله عامل من عمال الامير عبد الرحمن . وساء شارلومان ذلك ، غير أنه سار بجيشه وسقطت بيد الفرنجة هويسكا وبارشلونة وجيرونا . والتقى الجيشان أخيراً أمام سرقسطة . غير أن زعيماً عربياً يدعى الحسين بن يحيى الأنصاري انتهز فرصة غياب الوالي ونصب نفسه والياً على المدينة ورفض تسليمها وأنزل بشارلومان خسارة فادحة ، واضطره إلى التراجع بفلول جيشه . ولما وصل إلى بامبلون وجد أن لا سبيل إلى البقاء في نافار ودمر حصون المدينة ، وعندما اخترق منعطف رونسوفو هاجم مؤخرة جيشه مطروح وعيشون ابنا سليان مع من انضم اليهما من الغاسكون ومزقا المؤخرة . وقتل في هذه الواقعة ايجيهارد قائد جيش شارل ، كوونت بالاتن آنسلم ، و« حاكم » ثغر بروتانيا ،

رولان . وكان لهذه الواقعة أثر كبير في الانتاج الادبي وشعر الملاحم .

وهكذا فان حملة اسبانيا قد أخفقت وانتهت بكارثة . وانتقل بعد هذا عبد الرحمن من دور الدفاع إلى دور الهجوم وفرض ارادته على بشكنس نافار وعلى كونتات سيردانيا الواقعة جنوب سبتيمانيا والخاضعة اسماً للفرنجة .

وعندما عاد شارل من حملته في اسبانيا توقف في اكيتانيا وسعى في تنظيمها خوفاً من أن تسبب أخبار اخفاقه ثورات وحركات عصيان . فمن ذلك أن عين شارلومان كونتات فرنجة وجعل لكل منهم كونتيتين أو ثلاث ، ووضع على الاسقفيات اناساً أمناء .

غير أن هذه التدابير لا تعتبر كافية في بلد اعتادت طويلاً أن تحتفظ بحكمها الذاتي . لذا سمى شارلومان ابنه لويس عام ٧٨١ ملك اكيتانيا واتبع في سياسته هذه خطته التي اتبعها في ايطاليا وأرضى الاكيتانيين في حبهم للحكم الذاتي .

وكانت هذه المملكة الجديدة تضم اكيتانيا ، عدا تور ، وسبتيمانيا وغاسكونيا . وجعل شارلومان لابنه الصغير وصيين : آرنولد وميجيناريوس وترك شارلومان لنفسه السياسة الخارجية . وفرض تشريعه على اكيتانيا . وكانت مهمة ملك اكيتانيا تنفيذ التدابير التي يتخذها ابوه . وكان هذا يتداخل بشؤون المملكة هذه بصورة مباشرة أو بواسطة رسله .

فتح التخوم الاسبانية . — كانت المنازعات الداخلية في اسانيا لا تنقطع وقد ألفت فيها القوى الفرنجية واسطة للتدخل ومعاودة الكرة على المسلمين . وفي العام ٧٨٥ استولى الفرنجة على جيرونا ؛ وفي العام ٧٨٨ توفي الخليفة عبد الرحمن الاول ونشبت الحرب بين ابنه وخليفته هشام

واخوته ، فاغتنمها الفرنجة فرصة أيضاً للاستيلاء على المنطقة الساحلية في جنوب سبتيمانيا . ولكن الاحوال هدأت عام ٧٩٣ وتوطدت سلطة هشام ، فجهز جيشاً تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك لاسترجاع ما استولى عليه الفرنجة . وعلم أن شارلومان كان منهمكاً آنذاك في حرب الآفار وليس باستطاعته أن يرسل نجداته الى الحدود الاسبانية . فاستولى على جيرونا وأحرق ضواحي ناربونه وتقدم الى قرقسونة ثم عاد ، ولكنه لم يحتفظ بالمواقع التي فتحها .

وفي العام ٧٩٥ عاود الفرنجة الهجوم واحتلوا كاردونا ، وفيش ، وكاسّر على التخوم الغربية في البيرينه . ثم توالت الحملات في العام ٧٩٦ و ٧٩٧ و ٨٠٠ دون الحصول على ظفر حاسم . وفي العام ٨٠١ م توفي الخليفة هشام وخلفه ابنه **الحكم** الملقب بالمنتصر وثار عليه عماه سليمان وعبد الله بعد أن عفا أبوه عنهما . وذهب عبد الله الى شارلومان في ايكس لاشابل يطلب مساعدته ، فأوفد معه جيشاً استولى على طليطلة بينما استولى سليمان على بلنسية . وزحف شارل ولويس ابنا شارلومان على البلاد الواقعة في شمال البيرينه وأعملا فيها السيف ، وقد أظهر الحكم في هذه الظروف العصيبة نشاطاً وحزماً وأجلى الفرنجة إلى ما وراء البيرينه ، وعاد إلى طليطلة بعد أن نشبت بينه وبين عمه سليمان معركة حامية قتل فيها سليمان ، وسلم عبد الله فعفا عنه . وفي غضون ذلك استولى الفرنجة على برشلونة . ويرجع ذلك الى خيانة حاكمها الذي استدعى الفرنجة طمعاً في الاستقلال بها . وأصبحت ممتلكاته الاسبانية تشمل **كتالونيا** ، وقاعدتها برشلونة ، **وغاسكونيا** والمدن الفرنجية في نافار وآراغون .

وهكذا كانت الحرب سجالاً بين الفرنجة والعرب في اسبانيا دون الوصول الى موقعة حاسمة .

بروتانيا . — كانت بروتانيا حتى بداية القرن التاسع غير خاضعة للأسرة الكارولنجية . ومعظم سكانها من البروتون وقد أتوا اليها عندما هاجم الانغلو — ساكسون الجزر البريطانية . وهم يختلفون عمن يجاورهم بالأخلاق واللغة والاشكال الاجتماعية والاوضاع الدينية والمدنية . ولم يستطع الميروفنجيون اخضاعهم رغم محاولاتهم العديدة في القرن السادس . وتعهد البروتون خلال عدة مرات أن يدفعوا الجزية ولكن هذه التعهدات لم يكن ليعمل بها . ولم يعترف البروتون بتفوق الفرنجة عليهم إلا إذا لم يستطيعوا عمل شيء تجاههم . وكانوا كثيري الشغب . لذا وجب تنظيم تخوم أو منطقة عسكرية بينهم وبين المملكة الفرنجية . وكان من حكامها رولان الذي قتل في رونسوفو عام ٧٧٨ ، وقد اضطربت الاحوال فيها بعد موته . واضطر شارلومان الى ارسال حملات متوالية لتهدئتها ، ولم يستطع الحاقها بمملكته بصورة دائمة . والشيء الايجابي الذي حصل في هذه المنطقة هو تنظيم الثغور فيها أي الحصون العسكرية الرابضة على حدودها .

علاقة شارلومان بانكلترا . — لم يكن لشارلومان سلطة سياسية فيما وراء المانش ، إلا أن تأثيره كان عظيما ، حتى أن ملوك الانغلو — ساكسون كانوا يؤدون له آيات الاحترام العميق . ولكن العلاقات السائدة بين شارلومان وملك مرسيا ، اوفا ، سيد جنوب انكلترا انقطعت في العام ٧٩٠ بعد أن طلب هذا الامير ابنة شارلومان لاحد أولاده ورفض طلبه ، وانقطعت التجارة بين المملكتين . إلا أن العلاقات عادت ودية فيما بعد أي في العام ٧٩٦ م . فمن ذلك أيضاً أن شارل تدخل بعد بضع سنوات في النازعات الداخلية في نورثامبريا بعد أن خلع الملك ايردولف عام ٨٠٧ بوحي من الاكليروس . والتجأ الى نيميغ بالقرب من شارلومان بعد أن أصبح امبراطوراً . وبطلب من هذا ضغط البابا على

رئيس أساقفة يورك ليخضعه الى مليكه المعزول . وفي العام ٨٠٩ بعث الامبراطور بعثة فرنجية مع رسل البابا ليعيدوا الملك الى عرشه بعد أن أقصي عنه .

كان امتداد الدولة الكارولنجية في العقود الاخيرة من القرن الثامن حادثاً هاماً في تاريخ أوربة الغربية . فمنذ موت بين اتسعت رقعة المملكة الفرنجية وتضاعفت . وأحسن من هذا أن الدولة الكارولنجية أصبحت الدولة الوحيدة الكبرى في الغرب ، وغدا الملك الذي باركه وقدسه ايتين الثاني معادلاً لجاره الامبراطور البيزنطي . ونافست ايكس لاشابل مقر شارلومان القسطنطينية مركز الامبراطور في الشرق ، وصارت العاصمتان مركزي السياسة في العالم المسيحي . وأخذت فكرة الامتداد تتجاوز فكرة المملكة . وإذا كانت هذه الدولة الواسعة تتصل على المصور بالامبراطورية الشرقية فلم لا يوجد امبراطورية غربية في غرب أوربة كما في شرقها !

لقد خامرت هذه الفكرة رجال العصر . وربما قال كثير منهم كما قال بين عندما رشح نفسه للملكية : « المنصب لمن يمارس السلطة بيده » . وقد كانت الظروف مؤاتية وحاسمة للاندفاع بفكرة الامبراطورية ، منها : استحكام ذكرى الامبراطورية ؛ وبقاء فكرة امبراطورية الغرب رغم زوالها ؛ وعودة فكر العصر القديم لجيل يعتبر مثقفاً أكثر ممن تقدمه ، وتسهويه ثقافة هذا العصر ؛ وحرص سياسة الحبر الأعظم على التخلص من تبعية القسطنطينية وتعلقه بمن يعترف به دوماً ، ويتمثل هذا في شخص الامبراطور الذي يتناول التاج من يديه . وقد تعددت التلميحات الشفافة الى الامبراطورية في العقد الاخير من القرن الثامن . ففي رسائل آلكوين ،

مستشار شارلومان ، وايجنهارد مؤرخه ومترجم حيـاته ، وفي أشعار تيؤدولف ومنافسيه . وهم إذ يحجمون أمام كلمة امبراطور إلا أنهم يستعملون الصفة « الامبراطورية » . وكان رجال البلاط من سياسيين ومفكرين يحاولون أن يوجدوا حول سيدهم جواً ملائماً لبعث الامبراطورية . وعلى ما يبدو أن شارل تظاهر بأنه لا يفهم ما يعنون . وكان الناس فيما حوله يفكرون بالامبراطورية إلا هو وحده ؛ وربما راودته هذه الفكرة ، إلا أنه كان ينظر إلى أبعد من ذلك .

لقد كان شارلومان بربرياً وهو وإن كان بطلاً من أبطال الحضارة إلا أنه فرنجي المنبت ؛ واعتلاء العرش الامبراطوري من قبل رجل لا يجري في عروقه الدم الروماني أو اليوناني ، ذلك لعمري تجديد خطير ويحتاج إلى جرأة واقدام .

الفصل الثامن

امبراطورية شارلومان

٨٠٠ — ٨١٤

تتويج شارلومان . — اذيعت عن البابا ليون الثالث اشاعات سيئة ونمي بها الى شارلومان ، فرأى أن ينصحه ، ويعيش شريفاً ويحترم قوانين الكنيسة . واستثمرت هذه الاشاعات ضد الحبر الاعظم فئة من الارستقراطيين والكنسيين ممن كانوا ينعمون بالحظوة في عهد البابا هادرين ورأوا أنفسهم في الحاضر قد حرموا من امتيازاتهم وناب عنهم قوم آخرون . ودبرت مؤامرة هوجم على أثرها البابا وجرح ، حتى أن المتآمرين حاولوا سمل عينيه وقطع لسانه ، وسجنوه أخيراً ، غير أنه استطاع أن يعود في الليل الى كنيسة القديس بطرس حيث أتى دوق سبوليت وألجاه في عاصمته .

وما علم شارلومان بالخبر إلا وأرسل يستدعي البابا فلحق به هذا في بادربون . وبعد بضعة أيام على وصوله ، تبعه رسل من أعدائه ، واتهموه أمام شارلومان بالزنا ونكث اليمين وشهادة الزور . وتردد شارل فيما يجب عمله تجاه البابا . غير أن رسالة من آلكون جعلته يعدل عن كل تدبير قاس يمكن اتخاذه بحق الحبر الاعظم ، وكلف رئيس الاساقفة آرن سالزبورغ وهيلدوبالد كولونيا أن يوصلاه الى روما فأدى الرسولان الملكيان رسالتها

وأعادا البابا ليون الثالث إلى عرشه . ثم أجريا تحقيقاً فتبين لهما أن جميع الشكاوى التي وجهت ضد البابا كانت خاطئة ومفتعلة وأوقفا المتآمرين وأمرا بنفيهم الى فرانسيا .

على أن شارل وحده ، بما لديه من قوة ونفوذ ، يستطيع أن يقطع دابر الخصام ويبت في الأمر ، ولكنه لا يتمكن من ذلك الا في روما . وفي ربيع عام ٨٠٠ كان في تور حيث اجتمع بمشاوريه وأصغى لاحاديثهم . ويبدو أن جميع الاعمال التي قام بها فيما بعد لا تخرج عن المقررات التي بحث فيها مع رجاله في هذا الاجتماع . وقد رأى في خريف هذه السنة أن السلام مخيم في أرجاء المملكة فعزم على الذهاب الى ايطاليا .

وفي ٢٤ تشرين الثاني دخل شارل روما باحتفال مهيب . وفي ١ كانون الاول عقد اجتماعاً عاماً في كنيسة القديس بطرس حضره كبار الدولة من اكليركيين وعلمانيين وفرنجة ورومانيين . ودام الاجتماع عدة أيام بحث خلالها في التهم الموجهة ضد البابا . ومن المعلوم أن البابا ، من الوجهة الحقوقية ، لا يمكن أن يحاكم باعتباره زعيم الكنيسة . ومع ذلك فقد قرر المجلس المنعقد أن ليون الثالث ملزم ، لتبرير سلوكه ، بحلف اليمين التي تطهره من كل ما الصق به من تهم . ونفذ ذلك فعلاً في ٢٣ كانون الاول . ولحماية « الشكليات » صُرِّح علناً أن ما قام به البابا من حلف اليمين لم يكن إلا عملاً ارادياً خالصاً ، ولم يكن للمجلس دخل في اكراهه على ذلك . أما أهل روما فلم تخف عليهم خافية . وما من أحد كان يشك في أن شارل والاساقفة فرضوا اليمين على البابا .

وبعد يومين ، أي في يوم عيد الميلاد ، كان شارل في كنيسة القديس بطرس يحضر القداس . وبينا كان يصلي أمام « اعتراف » القديس بطرس فاجأه البابا ووضع على رأسه تاجاً ذهبياً . وما رآه شعب روما ممن كان في الكنيسة إلا وحياه بهذا النداء :

« الى شارل المبارك ، وقد توجه الله ، العظيم ، محب السلام ، امبراطور الرومانيين ، حياة وبجداً ! » . وبعد هذا انحنى البابا أمامه و « عبده » كما يقتضي البروتوكول الامبراطوري الذي دشن في عهد ديوكليسيان . ثم بارك البابا شارل الصغير بن شارلومان .

وعلى ما يبدو أن شارلومان استاء لما حدث ، لا لأنه لم يكن يتطلع الى منصب الامبراطور ، بل لانه يأخذ على ليون الثالث تسرعه ومفاجأته ، واقحامه الامور ؛ وربما كان يرغب في اختيار الوقت المناسب ليتفاوض مع بيزنطه ، لا سيما وأنه يخشى بحق حقدها عليه . وعلى كل حال كان يرغب أن يكون امبراطوراً عندما يريد ، أو على الاقل ، أن يكون امبراطوراً دون تدخل البابا .

ولو بحثنا في قيمة هذا التتويج لرأينا أن شارلومان أصبح امبراطوراً حسب الشكليات المتعارف عليها في بيزنطه . و « المناداة » في معناها الدستوري تمثل انتخاب الشعب الروماني ومراسم تقليد المنصب . أما تتويج البابا و « عبادته » فقد أضافها البابا ، ولم يكونا أكثر ضرورة مما كان عليه تدخل البطريرك في بيزنطه . وعلى هذا فان شارلومان لم يقبض على زمام سلطته الامبراطورية من البابا ، ولكن الظواهر بطبيعتها أوجدت هذا الضلال ، واستطاع خلفاء ليون الثالث أن يزيدوه ثقة واعتماداً .

لقد كان وصول شارلومان الى الامبراطورية نتيجة لوضعه العام في حينه . فقد قهر السكسونيين والآفار ، وكان ملكا على دولة اكبر واقوى من ملكية بيزنطة ، وسيد روما عاصمة الامبراطورية القديمة . فهو يجمع اذاً جميع الشرائط التي تخوله العمل امبراطوراً . واذا كانت « الامبراطورية » سلطة عامة لحماية الكنيسة « وبسط السلام في العالم ، واقرار ملكوت الله في الارض » ، فشارلومان بذل جهده في تحقيق هذه الاهداف ، ووسع

حدود العالم المسيحي ، وسهر على مصالح الكنيسة الروحية ، وضرب على ايدي الهراطقة ، واتخذ تدابيره ضد الافراط في « عبادة الايقونات » ، وكما كتبت عنه آلكون ان سلام الكنيسة يعتمد عليه وحده .

واذا اضفنا الى ذلك ، الجو الذي كان يحيط بشارلومان ، هذا الجو الذي يجبب اليه الامبراطورية ، فلا عجب اذا قلنا انشارلومان كان مطلعا على الحالة الفكرية العامة حوله . وماذهب لروما الا ليخطو الخطوة الحاسمة.

ولم يكن ارتقاء شارل الى منصب الامبراطورية في روما حادثاً غريبا بل كان عاديا ، فقد كانت سلطته فيها عظيمة ، ونرى اسمـــه في الاحتفالات الدينية حل محل الامبراطور . وقبل ذلك بسنوات وضع البابا في غرفة طعام (تريكلينيوم) كنيسة قصر لاتران فسيفساءتمثل ،من جهة، يسوع وهو يسلم المفاتيح الى القديس بطرس والراية الى قسطنطين ، ومن الجهة الاخرى، القديس بطرس يسلم الوشاح « الباليوم » الى ليون الثالث والراية الى شارل . وهـذا يعني ان شارل يبدو كقسطنطين جديد او كمن يريد ان يصل ما انقطع من تقاليد الامبراطور المسيحي العظيم . ومن كان يرى هذه الصور في روما يفهم ان ملك الفرنجة حل محل الامبراطور البيزنطي في ممارسة السلطة .

وواتت الظروف شارلومان في تحقيق احلامه ومطامعه ، وذلك لأن اعتلاء الامبراطورة « ايرينه » عرش بيزنطه لم يغير رأي كثير من الناس ، لانهم يعتبرون العرش الذي تعتليه امرأة في حكم الشاغر . يضاف الى ذلك ان راهبين قدما روما في ٢٣ كانون الاول وحملا الى شارل من بطريرك القدس راية مع مفاتيح مزار القبر الاقدس . اما البابا فقد كانت مقدراته بين يدي شارل ، ولهذا فهو لا يفكر في امر يخالف ارادته ، ويرى في ارتقاء شارل الى الامبراطورية ضمانا قويا لحمايته في روما

تجاه اي تدخل يخشاه من قبل بيزنطه ، ويقيناً بأن مدبري المؤامرة التي كادت تودي بحياته سيلقون جزاءهم من شارل . وفي الحقيقة كان اول عمل قام به الامبراطور في حياته العامة محاكمة المشتركين في المؤامرة والحكم عليهم بالموت لارتكابهم جرم « الاعتداء على الجلالة »، الا ان شارل عفا عنهم ونفاهم .

وبعد ان اصبح شارل امبراطورا بدل لقبه، واستعمل صيغة العبارات التي استعملت عندما نودي به امبراطورا ، واكد بانه امبراطور روماني وخليفة قسطنطين وتيؤدوس . وقد وجد خاتم نقش عليه : الامبراطور الروماني الجديد .

ومع هذا فان شارل لم يتخل عن لقب الملك . فقد احتفظ باسم **ملك الفرنجة واللومبارديين** ، وذلك لانه يعلم بان دعامة سلطته المتينة تعتمد عليها . ولم تتبدل سياسته ولا تنظيم دولته .

ولكن سلطة الملك ارتقت وقويت معنوياً بتأثير اللقب الامبراطوري ، ورأى شارل نفسه انه ارتفع الى مستوى اعلى ، وأن منصبه الجديد يجعل منه حاميا للكنيسة ويعين شعوره بمسؤولياته تجاه الله ، وطابع سلطته الديني. ويعلق شارل اهمية خاصة على المنصب الامبراطوري ويظهر ذلك في ٨٠٢ عندما فرض على رعيته ، وعلى الذين حلفوا يمين الطاعة للملك ، ان يحلفوا يمين الولاء للامبراطور ، واستعار صيغة هذه اليمين من صيغة التعهدات التي يقوم بها التابع حيال أميره في النظام الاقطاعي .

اما في روما ودولة الكنيسة ، فقد خول الوصول الى الامبراطورية شارل سلطة اعظم من التي يخوله اياها لقب « حامي ». فقد اصبح سكان المدينة وملحقاتها ، بما فيهم البابا ، رعية له . اما سلطته في الواقع فلا تختلف عما كان يمارسه في السابق ، وبقيت الادارة مستمرة وتتعلق بعمال

الحبر الاعظم ، واقتصر الامبراطور على مراقبتهم وضبطهم بواسطة رسله ومبعوثيه ، وأصبحت روما اول مدينة في بلدان التي يحكمها .

الخلاف مع بيزنطة . — كان وقع التتويج في بيزنطه اليما . فمنذ العام ٧٨٨ تحسنت العلاقات بين ايرينه وشارلمان . وفي ٧٩٧ و ٧٩٨ و ٧٩٩ ارسلت ايرينة بعوثا الى فرنسيا ، واستقبلت بحفاوة ، دون ان تتوصل الى تسوية في المسائل المختلف عليها ، مثل قضية **ايستريا** التي فتحها شارلومان على حساب بيزنطه وضمها اليه عام ٧٨٨ .

اما التتويج الامبراطوري فتعده بيزنطه « اغتصابا » لان الامبراطورية واحدة وهي امبراطورية خلفاء اوغسطوس وقسطنطين الحقيقيين الذين استقروا على شواطيء البوسفور، ولهم وحدهم الحق في الحفاظ على التقاليد الرومانية والاحتجاج على هذا الاغتصاب. وقد احتجوا فعلاً. وكان من جملة الصعوبات، التي اصطدمت بها الحكومة الكارولنجية بعد عام ٨٠٠، هذه الصعوبة الناشئة عن الخلاف في قضية الامبراطورية بين الشرق والغرب .

اما من جهة الفرنجة فقد حاولوا ان يبينوا ان رقي شارل الى الامبراطورية كان امرا صحيحا تاما. فقد نودي بشارل امبراطوراً حسب الاشكال المشروعة وحسب البروتوكولات القديمة التي ما زالت مطبقة، لا سيما وان عرش اوغسطوس كان شاغرا .

ومهما يكن من امر فان الانقلاب الذي قامت به ايرينه عندما خلعت ابنها قسطنطين السادس وحلت محله ، وانهزامها امام خليفة بغداد وقبولها دفع الجزية له عام ٧٩٨م ، واستعداد شارلومان للاستيلاء على الاراضي الامبراطورية التي تقع في متناول يده، وخاصة صقلية ؛ ان كل ذلك حمل ايرينه على محاولتها المخزية ودخولها في مفاوضات مع الغاصب، وقد ارسل شارلومان، عام ٨٠٢ ، رداً على هذه المفاتحة، بعثة لتقترح على

ايرينه ان تتزوج بمنافسها شارلومان ، وبهذه الصورة تتم الوحدة وتفض المشاكل والمنازعات . الا ان ايرينه ثلت عن عرشها قبل ان تعود البعثة الفرنجية، وقد ارسل نقفور الاول القائم بالانقلاب الى شارلومان يفاوضه بغية التوصل الى التفاهم بين الطرفين. فتقدم شارلومان الى رسل نقفور باقتراحات يطلب اليه الاعتراف بـــه ، وبوجود امبراطوريتين مستقلتين الواحـدة عن الاخرى . ولم يجب البازيلوس شارل ، وظن نفسه على درجة كافية من القوة وقطع علاقاته معه ، كما قطع في الوقت نفسه علاقاته مع الخليفة العباسي هارون الرشيد .

اما شارل فقد برهن على صبره وطول أناته ، هذه الميزة التي تعتبر في جملة صفاته السياسية . فقد كان يعلم ان نقفور مهدد بهجمات العرب والبلغار ، ولذا يكفي ان يضغط عليه عسكريا ليزيد في صعوباتـه ومشاكلـــه ويضطره لقبول شروطه . وكانت منطقة البندقية وشاطىء دالماسيا خـير موطن لتدخل شارلومان ، لا سيما وان فتح هذه الاراضي يتمم فتح ايستريا وكرواسيا .

كانت البندقية منذ منتصف القرن الثامن آخذة بأسباب الغنى والثروة بفضل التجارة . ولبث سكانها رعايا بيزنطيين يتمتعون بحماية الامبراطور ويستوردون من القسطنطينية وبلاد الشرق المنتجات الفاخرة من ادوات الزينة ويصدرون اليها الارقاء الذين يخطفونهم من بـلاد سلاف الجنوب وكانت جزيرة تورشيللو سوقا هامة لهذه « العروض » . كما انهـا كانت تغذي ، من قبل ، سهل لومباردیا بالملح حسب اتفاق عقد مع ليوتبراند ملك اللومبارديين .

وخضعت البندقية للبازيلوس . الا ان هذا الخضوع لم يكن في الواقع الا متقطعا ، لان العسكريين فيها انقلبوا الى ارستقراطية من الامراء

الاقطاعيين . وقد ملأت منازعاتهم الدامية تاريخ القرن الثامن . اما الحكومة العليا فكانت بيد دوق أو « دوج » منتخب يقيم في هيرا كليانا في مالاموكو ، وفي بداية القرن التاسع في احد جزر ريالتو وهي البندقية الحالية . وقد ساعدت المنازعات الاهلية على توسع سلطة الدوج ، ونهج « الأدواج » سياسة ثابتة ، وإن بدت في الظاهر غير متماسكة ، وهي احترام سيادة بيزنطة الملائمة للحياة الاقتصادية، والاعتماد على قوى خارجية ، كالملكية الفرنجية ، ليحولوا دون تطبيق هذه السيادة فعلياً . ولهــذا كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يعتبر خيراً من الاستقلال .

وبفضل المنازعات الداخلية استطاع شارلومان أن يجد له منفذاً إلى البندقيه، وأمر ابنه بين بفتحها واضطر ادواجها الى الخضوع . وكان ضياع البندقية شديد الوقع على امبراطور بيزنطة . واضطره موقفــه العصيب أمام العرب والبلغار إلى المفاوضة مع شارلومان . وفي تشرين الأول ٨٠٠ أرسل وفداً إلى ايكس ــ لا ــ شابل لعقد الصلح . واتفق الطرفان على أن يجلو شارل عن البندقية ، وأن تعترف بيزنطة بالامبراطورية الكارولنجية . وواصلت المفاوضات سيرها في عاصمة الامبراطورية الشرقية وانتهت في العام ٨١٢ . وفي هذا التاريخ كان رسل ميخائيل الأول، الذي خلف نقفور في عام ٨١١ ، قد وصلوا ايكس ــ لا ــ شابل وصادقوا باسم سيدهم على التسويات التي اتفق عليها مع نقفور ، و اعترف بموجبها رسمياً لشارل بلقب « **امبراطور** » **وبازيلوس** . وتبودلت الوثائق بين الطرفين وحمل رسل ميخائيل نسخه الخاصة . وفي عام ٨١٣ توجه الوفد الفرنجي إلى القسطنطينية ، وتلقى في العــام التالي من ليؤن الخامس الأرمني ، الذي قلب عرش ميخائيل ، الوثائق التي حملها إلى لويس التقي، خلف شارلومان .

لقد ترك الصلح ، الذي ابرم في العام ٨١٢ لشارل جميع فتوحاته في ايطاليا وايستريا و كرووامسيا ، مقابل تخليه عن شاطىء دالماسيا والبندقية . وألزمت هذه بدفع ضريبة سنوية إلى ملك ايطاليا . وبالمقابل حصل سكانها على فوائد تجارية في الامبراطورية الغربية . أما من الناحية السياسية فقد توطدت فيها سلطة بيزنطة الفعلية .

وهكذا تم الاتفاق بين بيزنطة وامبراطور الغرب على النظـــام الجديد واعترف بوجود امبراطوريتـين وامبراطورين ، كل منهما سيد في دولته الخاصة ، وتجمع بينهما عرا الاخاء المسيحي .

حكم شارلومان

٨٠٠ — ٨١٤

إذا نظرنا إلى حكم شارلومان بعد تتويجه نراه لا يختلف كثيراً عما كان عليه من قبل . فقد رأينا أن الامبراطور قد أتم مشاريعه التي بدأ بها : فتح ساكس ، وثغور اسبانيا ، وعملياته الحربية في بروتانيا ودوقية بينيفن . وإلى جانب هذه العمليات قام شارلومان بعمليات أخرى ضد السلاف والدانيمرك والعرب في البحر المتوسط . ولم يحصل شارلومان على ظفر حاسم في جميع العمليات الحربية التي قام بها ضد هؤلاء ، وكل ما في الأمر أنه استطاع ، الى حـد ، أن يقف في وجههم . غير أن الدانيمرك والعرب سيحملون حملة شديـدة على المملكية الفرنجية في عهـد أخلافه وعلى الدول التي نشأت عن تجزئة الامبراطورية .

على أن شارلومان وإن كان في نزاع مع عرب اسبانيـا ، إلا أن علاقاته ، على ما يبدو ، مع الدولة العباسية في الشرق، كانت متممة للسياسة التي نهجها والده من قبل . لقد كانت العلاقات بين شارلومان والخليفـة

هارون الرشيد ودية . فقد أرسل شارلومان إلى هارون الرشيد وفداً في العام ٧٩٧ وفي العام ٨٠٢ . وتلقى من الخليفة رسلًا في العـام ٨٠١ وفي العام ٨٠٧ . وأهداه هارون الرشيد هدايا أثارت اعجاب الغربيين ، فمن ذلك أن بعث إليه بفيل وخيام وساعة مائية وشطرنج من عاج .

وقد أدت المفاوضات بين الطرفين في العام ٨٠٧ إلى أن يمنح الخليفة هارون الرشيد إلى شارلومان حق حماية الأمكنة المقدسة في فلسطين مع المؤسسات المسيحية فيها والسكان والزوار المسيحيين في الأراضي المقدسة ، كما يحدثنا بذلك ايجنهار في كتابه « حياة شارلومان » .

والفكرة السائدة لدى مؤرخي الأسرة الكارولنجية أن حالة المسيحيين في الأراضي المقدسة ، في آخر القرن الثامن ، كانت سيئة ومليئـــة بالصعوبات لما يلاقيه المسيحيون من ضروب الاضطهاد التي كانت تقوم بها السلطات المحلية والسكان المسلمون . ولذا فحماية أمـير مسيحي يشفع لهم لدى الخليفة يمكن أن يحسن وضعهم . وقد صادف إذ ذاك أزمة الايقونات وانقلاب ايرينه والحرب بين نقفور والخليفة . كل ذلك حال دون طلب وساطة بيزنطة إلا أن سلطة شارلومان وهيبته وقوته العامة جعلت الانظار تتجه نحوه . وكانت البعثات التي أوفدها بطريرك القدس إلى شارلومان في عام ٧٩٩ و٨٠٠ و٨٠٧ لهذه الغاية .

هذا القول مبالغ فيه لأن ما نعلمه عن عهد الخليفة هارون الرشيـد وسهره على مصلحة الرعية يجعلنا نشك في قيمة التهم الموجهة إلى المسلمين في اضطهاد المسيحيين ، ولامبرر لهذا الاضطهاد المزعوم . غير أن ما يعلم عن شارلومان واهتمامه في نشر الدين المسيحي في أوربة وعلاقاته الودية مع الخليفة العبـاسي هي التي حـدت ببطريرك القدس إلى إرسال الراية ومفاتيح القبر المقدس إلى شارلومان لا سيما وأن الكثيرين يعتقدون أن

عرش الامبراطورية البيزنطية شاغر ما دامت تشغله امرأة وما دام نقفور غاصباً لهذا العرش . ومن الطبيعي في مثل هذا الجو الودي الذي نشأ بين شارلومان وهارون الرشيد أن يتوجه الامبراطور إلى الخليفة بتوصية ودية يطلب فيها رعاية الخليفة لمسيحيي الشرق . أما تقارب وجهة النظر بين الخليفة والامبراطور فقد كان على حساب بيزنطة والأمويين في الاندلس .

نهاية حكم شارل . — : لقد أسس شارلومان امبراطورية مترامية الأطراف وليس بالسهل تحديدها بدقة وضبط . إلا أنه يمكن أن نقول ان هذه الامبراطو ية تتشكل من فرنسا الحالية ومن غربي ألمانيا ونصف ايطاليا الشمالية وجزر البحر المتوسط الغربية ويدخل فيها جزر الباليئار ، وثغور نافار وكاتالونيا . يقول ايجنهار ان هذه الامبراطورية تمتد حتى نهر الفيستول . وليس ببعيد أن يكون الفرنجة قد صاقبوا بعض النقاط في هذا النهر البولوني ، ولكن الشعوب التي تسكن البلاد الواقعة بين الاودر والفيستول ، وبين الاودر والإلب لم تدخل في جسم الدولة الفرنجية .

وعندما يتكلم ايجنهارد عن نهر الايبر كحد للامبراطورية يجب ألا نعتقد أن مجرى هذا النهر يؤلف حداً فاصلاً بين الامبراطورية والاسلام من منبعه الى مصبه . والحقيقة أن نهر الإيبر لا يؤلف حداً فرنجياً إلا في مجراه الاعلى وفي مجراه الادنى . أما القسم الواقع من واديه بين نهر سيغر ونهر آراغون فخارج عن سيطرة الفرنجة تماماً .

ويذكر ايجنهارد أن **بانونيا وداسيا** كانتا في جملة البلاد التي فتحها شارلومان وهاتان المنطقتان تنطبقان على بلاد الآفار الذين فرض شارلومان عليهم الجزية والتعميد، وموطنهم يمتد على هونغاريا ورومانيا في مصوراتنا الجغرافية الحالية . أما حدود الامبراطورية الاصلية فتتألف من ثغور فريول وكارنتيا وبافاريا الشرقية . وما تبقى من الحدود المجاورة لمنابع الساف فهي بلاد

ملحقة ، وكذلك الكارنيول . أما حدود الامبراطورية مع الدانيمرك فهي نهر الأيدر مع بعض مواقع ستراتيجية على الضفة اليمنى لهذا النهر .

وفي ايطاليا ، كانت دولة البابا تؤلف نطاقاً في وسط شبه الجزيرة وتقع تحت حماية الامبراطور وذلك لأن من أسباب وجود الامبراطورية حماية الكنيسة وصيانتها .

إن هذا الرسم الذي أعطيناه للامبراطورية يدل على سعة الأراضي التابعة للامبراطور شارلومان ، كما يدل على أن الامبراطورية الكارولنجية ، وارثة الامبراطورية الرومانية ، لا تختلف عن هذه إلا من حيث الاتصال الأرضي . فقد كانت الامبراطورية الرومانية متوضعة على البحر المتوسط وتضم جميع الأراضي التي تستند على شواطىء هذا البحر . أما الامبراطورية الكارولنجية فكثيفة الشكل قارية ، انسلخ عنها الشاطىء الافريقي وأصبح تابعاً للعرب المسلمين ، وغدت جرمانيا جزءاً مقوماً لهذه الامبراطورية الجديدة . وبذا بدأت ترتسم معالم أوربة .

كان السكان في هذه الامبراطورية الواسعة يخضعون لمؤسسات سياسية واحدة وقوانين واحدة ، ومنظمة كنسية واحدة ، وثقافة قديمة اتباعية آخذة بالتجديد في قالب مسيحي وروح مسيحية . وقد انقسمت هذه الوحدة بعد وفاة شارلومان بثلاثين سنة الى دول قومية أخذت بالتشكل ولكن الطابع الذي تركته هذه الوحدة كان قوياً جداً ، حتى أننا نجد في كل من هذه الدول عناصر مشتركة في المؤسسات والحقوق والتنظيم الكنسي والثقافة وفي هذا ما يدل على بقاء وجود حضارة أوربية واحدة في أعلى العصر الوسيط . وقد جعل حكم شارلومان هذه الحضارة ممكنة .

ولقد شعر المعاصرون بعظمة حكم شارلومان . وكلما تقادم العهد أخذت صورة هذا الحكم تتعاظم في خيال الناس . ففي الأدوار المضطربة

في النصف الثاني من القرن التاسع والقرن العاشر والحادي عشر كان عصر شارلومان يمثل العصر الذهبي . وتذكر على الدوام فتوحات الامبراطور ومغامراته العسكرية ، وهذا ما يتجلى غالباً في « أغاني الملاحم » الفرنسية ، وتتردد بالذهن ذكرى المشرع العادل موطد السلام والنظام ، التي سادت في التقاليد الألمانية . وأخيراً زادت الكنيسة في مجد شارلومان وجعلته في عداد القديسين .

أما شخصية شارلومان فلا نعرفها جيداً . فمن ذلك أن منظره الطبيعي يغيب عنا تماماً . وكل ما نعرف عنه أنه كان طويل القامة ضخم الجثة ، قنوعاً بسيطاً في هيئته الخارجية ونوع حياته . ومزاجه القوي يفسر لنا شغفه بالصيد ، ورغبته الشديدة في اللذائذ الجنسية . لقد كان جرمانـي الأصل لغة وذوقاً ولكنه تربى تربية لاتينية . يتكلم اللاتينية الفصحى واللاتينية العامية . أما أن يجعل منه ألمانياً أو فرنسياً فذلك خطأ عقيم وضلال بعيد .

يرجع أصله إلى المنطقة الواقعة بين نهر الرين والايسكو ، من هذه المنطقة النصف جرمانية والنصف رومانسية ، ويقيم في ريفين من أراضي عائلته الواقعة على جانبي نهر الموز أو على طول نهر الموزيل . ولكن المياه المعدنية في ايكس ـ لا ـ شابل جذبته اليها للاستشفاء ، وجعلته يقيم فيها ، منذ عام ٧٨٦ م ، بضعة أشهر في السنة . وفي آخر حكمه تعتبر ايكس عاصمة الامبراطورية .

إن الصفة البارزة في شارلومان هي تعلقه العميق بالديانة المسيحية وهو لا يكتفي بالايمان بل يعمل ويواظب على اقامة الشعائر . حتى أن نشر المسيحية والدفاع عنها كانا شغله الشاغل . وهو لا يتراجع تجاه أي تضحية ، ولا أمام أي وسيلة للوصول إلى هذه الغاية . ولقد نجح في ذلك

الى حد بعيد . وكان يجل كنيسة روما ورئيسها اجلالاً خاصاً ويعمل كل ما في وسعه لنشر الشعائر والطقوس الدينية الرومانية في الامبراطورية. غير أن تقواه لا تمنعه من القبض على زمام الكنيسة ، وربطها به ربطاً وثيقاً . ونراه يتداخل في قضايا العقيدة ، ولا يتوانى عن فرض رأيه الخاص ، ويجبر الأساقفة والبابا نفسه على الاطاعة الشديدة . ولقد دفعه تعلقه بالدين وحرصه على تشكيل اكليروس أهل للقيام بمهامه الأساسية ، الى الاهتمام بالثقافة الأدبية وتنميتها رغماً عن أن ثقافته كانت ضئيلة ، ولم يتعلم الكتابة إلا في سن متأخرة .

ولقد رأى على نمط متقدميه ، وهو على قيد الحياة ، أن يقرر شيئاً فيما يتعلق بوراثة العرش . فأذاع مقرراته في شهر شباط ٨٠٦ وحمل نصها إلى البابا .

ويظهر من هذا النظام الذي وضعه شارل أنه يفهم فكرة الامبراطورية المجردة فهماً ضعيفاً ، لأن ممارسة السلطة الامبراطورية مجردة عن الشخص المنسوبة اليه كان يجب ان يكون منها الحفاظ على وحدة الأراضي التي تمارس فيها هذه السلطة . ولم يكن تقسيم المملكة عام ٨٠٦ سوى تتمة لتقليد سابق كان مطبقاً منذ عهد الميروفنجيين وأوائل الكارولنجيين . وهذا التقسيم مستوحى من المفهوم القديم الذي يجعل السلطة الملكية إرثاً يتقاسمه الورثة بعد وفاة المورث . ورغم أن شارلومان يعتبر أن رتبة الامبراطورية شخصية ، وقد حصرها بشخصه الخاص ، إلا أنه لم يتعرض لها في تسوية ٨٠٦ . ونراه قسم امبراطوريته بين أولاده كما يلي :

١ً — إلى شارل : البلاد الواقعة في شمال الخط الممثل بنهر اللوار والدوب والدانوب . وهذا القسم أعظم الأجزاء .

٢ً – إلى بيبن : آليانيا وبافاريا في جنوب الدانوب والمملكة اللومباردية .

٣ً – إلى لويس : اكيتانيا وجنوب غاليا .

وليس لأحد منالاخوة أي سيطرة علىالآخرين ، بل يجب أن يسود السلام ، بين هؤلاء الملوك ، بتحالف دائم . وعليهم جميعاً حماية الكنيسة الرومانية .

غير أن الحوادث التي جرت حالت دون تحقيق هذا المخطط الذي رسمه شارلومان ، وكان من الممكن أن تنجم عنها نهاية الامبراطورية الكارولنجية . ففي ٨ تموز ٨١٠ مات بيبن وهو في سن الثالثة والثلاثين . فأرسل الامبراطور بعوثاً منهم آدالارد أب كوربيا ليقوم بالادارة والدفاع عن ايطاليا . وأخيراً في العام ٨١٢ قرر أن يجعل فيها حكماً دائماً بعد أن ثبت لديه ضرورة ذلك لا سيما وأن العرب كانوا يوالون هجماتهم عليها . وفي خريف هذه السنة أرسل برنارد بن بيبن لهذا الغرض . وفي الحقيقة كانت السلطة بين يدي آدالارد وأخيه فالا . وفي عام ٨١٣ أتم شارلومان ترتيباته وجعل برنارد ملكاً على ايطاليا .

أما موت بيبن فلم يبدل شيئاً في المقررات التي اتخذها الامبراطور عام ٨٠٦ ولكن موت شارل الشاب (أو شارل الصغير) المفاجىء في ٤ كانون الاول ٨١١ بدل الوضع تماماً ، ولم يبق للامبراطور سوى ابن واحد وهو لويس ملك اكيتانيا . ولذا كان من الطبيعي أن يؤمن له الارث بتمامه ويحتفظ برنارد بن بيبن بصفة ممثل السلطة الملكيـــة في ايطاليا . وفي اجتماع عقد في ايكس – لا – شابل في ربيع عام ٨١٣ وافق كبار الدولة على هذا القرار . وفي ايلول دعي لويس الى اجتماع

جديد في ايكس ونودي به امبراطوراً . وفي اليوم التالي توّجه أبوه بنفسه دون تدخل الاكليروس ثم أعاده الى اكيتانيا .

وفاة شارلومان .— ان أحزان العائلة والقلق الناجم عن الأخطار التي قد تحدق بالامبراطورية وما اليها قد سودت آخر سني حياة شارلومان . ففي عام ٨١١ نظم وصيته بثروته وأثاثه ووهب القسم الأعظم منها . وفي ١ تشرين الاول ٨١٣ عاد الى ايكس بعد فصل قضاه في الصيد في جبال الآردن. وفي كانون الثاني ٨١٤ أصيب بذات الجنب ولزم الفراش في ٢٢ منه ، ولفظ أنفاسه في ٢٨ كانون الثاني ٨١٤ ، وله من العمر واحد وسبعون سنة . وقد وضعت جثته في تابوت قديم ودفن في كنيسة نوتردام التي بناها بجانب قصره .

الفصل التاسع

الامبراطورية الكارولنجية

من وفاة شارلومان الى معاهدة فردن

٨١٤ — ٨٤٣

سياسة لويس التقي العامة. — كان لويس في السادسة والثلاثين من عمره عندما توفي أبوه شارلومان . كان واسع الثقافة . ولكن لم تكن له تلك القوة والعزم والوضوح التي اتصف بها والده . فقد كان ينقصه بعد النظر وفكرة الدأب والمثابرة على العمل . وكثيراً ما كان يتخذ قرارات فجائية ومتناقضة . وليس له من قوة الشخصية ما يجعله يسير الأمور باملاء ارادته الخاصة ، فهو بحاجة دائمة الى من يسيطر عليه ويوجهه . لقد كان لويس تقياً ورعاً ، وقد نسب اليه وصف التقي بعد موته بقليل ، كما كان كلفاً بشهوات الحس ومستسلماً لنفوذ الاكليروس والنساء .

ولقد أوحت شخصية لويس التقي بالشك وسوء الظن الى من كانوا من أهم مساعدي شارلومان ومعاونيه ، وخاصة آدالارد وأخيه فالا . غير أن الامبراطور لم يلق بعد أي مقاومة حقيقية . دخل ايكس — لا — شابل في ٢٧ شباط ، وما عتم أن أبدى ميله في اقصاء من يشك في أخلاقهم وأخلاقهن . فمن ذلك أن أخواته كن يعشن عيشة مريبة فألزمهن الحجاب والرهبنة في الدير . وبوحي من حاشيته الاكيتانية أقصى آدالارد وأخاه فالا ، وبدل الجهاز السياسي الذي كان على زمن أبيه

ووضعه تحت زعامة هيليساشار مشاوره في مملكة اكيتانيا . وقد قدم له كبار أجزاء الامبراطورية ولاءهم وطاعتهم اما بصورة شخصية أو بمن ينوب عنهم . كما دعا ابن أخيه برنارد الى ايكس فمثل بين يديه وأقسم له يمين الطاعة .

وحاول لويس منذ استلامه عرش الامبراطورية أن يضرب على أيدي الموظفين الذين يسيئون استعمال وظيفتهم ، ولكن جهوده على ما يظهر لم تكلل بكبير نجاح . غير أن الفكرة الموجهة لسياسته العامة كانت ترمي الى الكنيسة ورفع شأنها وتنقيتها من كل شائبة ، وقد اعتمد في هذا الشأن على الأب بندكت مستشاره في اكيتانيا أيضاً . وبتأثير بندكت هذا أخذت حكومة لويس التقي وجهة كنسية وديرية . فقد منح المنح الكثيرة الى الكنائس وعقد مجمعاً في ايكس ـ لا ـ شابل عام ٨١٦ والزم الاكليروس العصري باتباع قاعدة أو طريقة في الحياة ، واهتم بحياة الراهبات والرهبان وحضهم على التمسك بأهداب الدين .

إن شدة الورع والتقوى ، التي يمتاز بها لويس ، والأهمية الزائدة ، التي يعلقها على مصالح الكنيسة ، تظهران مدى التأثير الذي كان لهما في توجيه سياسته العامة ، وعلاقاته مع البابا . وبالرغم من أن أباه شارلومان كان تقياً ، إلا أنه لم يتساهل مرةً ويسمح للبابا بأي فعل يدل على الاستقلال والخروج على طاعته . بيد أن الامور اتخذت وجهة جديدة في عهد الحكم الجديد . فمن ذلك ان لويس لم يعترض على البابا عندما امتنع عن تحليف الرومانيين يمين الولاء للامبراطور الجديد ؛ وان البابا ليون الثالث كان يتصرف بكثير من الأمور دون أن يأخذ رأي الامبراطور . وكثيراً ما كان هذا الاخير يكتفي ببعض الايضاحات .

وزاد البابا ايتيين الرابع على سلفه ، فقد طلب إلى الشعب يمين الولاء

إلى الامبراطور ، وعندما بورك بعد اعتلائه السدة الرسولية ، لم يرج من لويس تثبيتاً لانتخابه مع ان التثبيت والاقرار من حقوق الامبراطور . واكتفى لويس بالايضاحات التي حملها اليه السفراء وتكرر هذا الحادث ايضاً عند موت ايتين الرابع وبابوية باسكال الأول .

وفي هذه الفترة جرى حادث له شأنه وأهميته : وذلك أن البابا ايتين الرابع ذهب الى فرانسيا في تشرين الأول عام ٨١٦ وتوج لويس التقي في رنس . وهذا التتويج بالنسبة الى لويس ليس سوى تثبيت لسلطانه من قبل خليفة السيد المسيح . أما البابا فقد بين ان مساعدة البابا في هذا الشأن ضرورية ولا مندوحة عنها في منح اللقب الامبراطوري . وهذه هي الخطوة الاولى في جعل هذه الشكلية خاصة من خصائص البابا .

ولم يقف لويس عند هذا الحد ، بل انه منح البابا ٨١٧ امتيازاً . وبموجبه يثبت لويس ويؤيد حقوق الكنيسة الرومانية التي تمارسها على اراضيها في ايطاليا، والحقوق التي تزعم بانها تملكها في أرضها وفي جنوب ايطاليا ؛ وأهم من ذلك انه يتخلى عن كل سلطة في روما ، ويمتنع عن أي تدخل في انتخاب الحبر الاعظم وتثبيته . ومعنى ذلك التخلي عن امتيازات السيادة الامبراطورية في روما .

براءة ٨١٧ (اوردیناسیو آمبيري) —. لقد كانت لفكرة الامبراطورية قيمة كبرى في نفس لويس التقي . ومنصب الامبراطورية في نظره أعلى من سائر المناصب . وقد دل على ذلك بتبديله اسم «ملك الفرنجة واللومباردين» الذي حافظ عليه شارلومان ، وتسمية نفسه امبراطوراً فحسب .

وهذا الموقف الذي وقفه لويس يتساوق خير تساوق مع الأفكار الدينية الكنسية التي تسير سياسته العامة . والا فلا فائدة من الامبراطورية اذا لم تؤمن حماية الكنيسة وتوسع انتشار المسيحية . ولتستطيع الامبراطورية

أن تؤدي رسالتها على الوجه الأكمل يجب أن تكون واحدة وفي يد رجل واحد كالكنيسة .

ولقد كانت هذه الفكرة ولا شك منبعثة عن حاشية الامبراطور امثال مستشاره هيليساشار وخلفه فريدوجيز ورئيس كنيسته هيلدوين وأمين سره الخاص ايجنهارد .

وقـــد اوحى هؤلاء اليه باصدار براءة تموز ٨١٧ التي تقضي بعـدم تقسيم الامبراطورية . فـاذا توفي الامبراطور فلن تكون الامبراطورية عرضة لأي تقسيم ، وبموجب هذه البراءة تقرر مايلي :

١) ان يكون ابنه البكر لوثير ، وعمره آنذاك اثنان وعشرون سنة ، وارث ابيه الوحيد على عرش الامبراطورية . وقد نودي به امبراطوراً رسمياً وعلنياً والبس التـاج الامبراطوري واشرك في ممارسة السلطة إلى جانب أبيه .

٢) يحتفظ بيبن بتاجـه الملكي في اكيتانيا ، ويصبح لويس ملكاً على بافاريا . ويتولى الحكم كل منهما تحت رقابة الامبراطور ، أي انهما يبقيان ملحقين بأخيهما الأكبر .

٣) عند وفاة الأب ، يلحق بمملكة اكيتانيا ، التي يقوم على عرشها بيبن ، غاسكونيا وثغور تولوز وكونتية قرقسونه وأوتن وآفالون ، ونوفير ؛ ويأخذ لويس كارانثيا وبوهيميا وثغور الآفار والسلاف . ويبقى كلاهما تابعاً للسلطة الامبراطورية .

٤) تبقى مملكة ايطاليا بيد برنارد حفيد شارلومان الذي اعطاها اليه ٨١٣ م .

٥) متى اصبح لوثير امبراطوراً يجب ان يترك لأخويه ، عنـدما

يبلغان سن الرشد (١٥ سنة) ، حرية التصرف في مملكتيها ، والقاب الشرف وحصيلة الرسوم والضرائب والغرامات وواردات الخزينة . وفيما عدا ذلك يحتفظ باليد العليا فوق الجميع . وعلى هذين الأخوين أن يأتيا لزيارة اخيهما الامبراطور مرة كل عام « في الوقت المناسب » أي حين انعقاد المجلس الامبراطوري ، ويقدما اليه هداياهما السنوية ويتفاهما معه « بروح الحب الأخوي » على تسوية القضايا المشتركة بينهم .

٦) يجب على لوتير بالمقابل ان يستقبل اخويه استقبالاً اخوياً ويذكر دوماً أنه يتصرف « برضى الله » بسلطته العليا التي تفوق سلطهم ، ويمنحها المنح والهدايا ، كما يجب عليه أن يمدهما بعونه وحمايته العسكرية ضد عدوان « الأمم الخارجية » .

٧) ولئلا تلاقي المقررات السابقة أي اعتراض ، في حالة وفاة أحد اخوي لوتير ، نصّ على أن يدعى شعبه لانتخاب احد ابنائه ممن هو أهل لشغل العرش الشاغر . وإذا لم يكن للمتوفى اولاد شرعيون فان مملكته تؤخذ وتوضع بيد الامبراطور . وإذا داهم الموت لوتير نفسه فان المؤمنين مدعوون ، « لتأمين سلامة الجميع وسكينة الكنيسة ووحدة الامبراطورية أن يلزموا جانب التأمل ويدعوا الله تعالى ان يلهمهم من يدلهم على تسمية احد الاخوة الباقين ليسندوا اليه منصب الامبراطورية .

ان مجموع هذه التدابير يؤلف كلًا متجانساً لا يضم من التقاليد المتعارفة في المملكة الا القليل الضروري لتأليف القلوب وتهدئة الأطماع التي لا يعجبها النظام الجديد .

يضاف إلى ذلك ان لويس التقي انصرف في السنوات الاولى من حكمه إلى توحيد التشريع والقوانين ، وذلك باذاعة عدة براءات غرضها

ادخال التجديد على القوانين النافذة بغية تخفيف الاختلافات . والواقع ايضاً أن كلمة « الوحدة » ابتداءً من ٨١٧ اخذت تتردد بلا انقطاع على اقلام انصار الامبراطور وخصومه . وسيكون النضال مع « الوحدة » او ضدها في الامبراطورية . وكثيراً ما يذكر بهذه المناسبات فكرة الوحدة المسيحية ووحدة الايمان التي كانت تؤلف في ذلك الحين امتن أساس للامبراطورية .

عصيان برنارد في ايطاليا . — ورغم ان براءة ٨١٧ لم تبدل شيئاً في وضع ايطاليا ، الا ان برنارد لم يعجبه هذا التصرف من عمه لأنه كان يطمع بالاستقلال التام ، وحاول ان ينظم حركة عصيان ضد سلطة الامبراطور فأخفق اخفاقاً تاماً وحكم عليه بالاعدام ، لولا ان عمه عفا عنه ونجاه من الموت . ولم يمنع هذا من سمل عينيه ، ومات بعد أيام . ولقد اوجس لويس خيفة من افراد اسرته فجز ناصية دروغون وهوغ وتييري وهم ابناء طبيعيون لأبيه ، وبعث بهم إلى الدير .

وتوفيت بعد قليل أي في العام ٨١٨ الامبراطورة هرمانغارد فتزوج بعدها جوديث الآلمانية ، وكانت ذكية جميلة مثقفة استطاعت أن تسيطر على زوجها بسهولة . ولكن هذا التأثير لم يظهر مباشرة . فبعد وفاة القديس بندكت كان الحزب الامبراطوري ، الذي هيأ براءة ٨١٧ مسيطراً . وقد أوحى اليه رجاله باعادة آدالارد وفالا من المنفى لانهما من اشياعه . وكان لهؤلاء اليد الطولى في الدولة ، فطلبوا من الامبراطور أن يعيد الكرة ويثبت في تشرين الاول ٨٢١ في مجلس نيميغ وتيونفيل براءة ٨١٧ ، وذلك بأن طلب من عظماء الدولة حلف اليمين . وفي مجلس آتيني عام ٨٢٢ صالحوا بين لويس ونصفي اخويه هوغ ودروغون وعين الثاني اسقفاً على مدينة ميتز . وطلبوا إلى الامبراطور اصلاح الادارة .

وعلى ما يبدو ان الامبراطور لم يحقق ما عقدوا عليه من آمال ، ولذا رأوا ان يعتمدوا على انفسهم قبل كل شيء . واظهر الامبراطور أسفه في مجلس آتيني على الموقف الذي وقفه من ابن اخيه برنارد ، حتى انهم اضطروه إلى الاعتراف العام بأخطائه دون أن يروا في ذلك صغاراً واذلالاً لجلالة الامبراطورية . ولكن أملهم كان في لوثير بن لويس . فقد دعي الى روما وتوج مرة ثانية من قبل البابا ، وكان هذا التتويج فرصة جديدة للحبر الاعظم ليظهر فيها ان أمر ذلك يعود له دون غيره . كما أن وجود لوثير في ايطاليا كان فرصة لفرض ارادة الامبراطور على الكرسي الاقدس ومراقبة السلطة الامبراطورية لانتخاب البابا، وقد وقع ذلك عند وفاة البابا باسكال الاول في أيار ٨٢٤ وانتخاب البابا اوجين الثاني وإقرار دستور ٨٢٤ .

دستور روما ٨٢٤ . — أقر لوثير دستور روما ويتلخص فيما يلي :

١) حصانة الاشخاص الذين هم في حماية البابا والامبراطور الخاصة .

٢) يخول هذا الدستور الرومانيين اختيار القانون الذي يرغبون العيش في ظله .

٣) تخول مراقبة موظفي الادارة في روما إلى رسولين (مفتشين) دائمين ، يسمي احدهما الامبراطور وله حق التدخل عند مالا يستطيع البابا تعديل المفاسد أو تقويم اساءة التصرف .

٤) يفرض على البابا المنتخب ان يحلف يمين الولاء بين يدي رسل الامبراطور قبل تثبيته في منصبه . ويلزم الرومانيون جميعاً بحلف يمين الولاء الى الامبراطور .

لقد كان هذا الدستور ظفراً للامبراطورية، وبه استطاع لوثير أن يوطد السيادة الامبراطورية في روما . وهذا النجاح الذي أحرزه لوثير يبرر الثقة التي يعلقها عليه أنصار الامبراطورية . وقد تمكنوا في آب ٨٢٥ أن يشترك لوثير مع أبيه في الحكم وادارة الامبراطورية . ومنذ ذلك التاريخ ظهر اسمه إلى جانب اسم أبيه في الوثائق الرسمية والبراءات الامبراطورية .

السياسة الخارجية . — كانت سياسة لويس التقي الخارجية متمماً لسياسة أبيه شارلومان .

ففي **ايطاليا الجنوبية** كانت دوقية بينفن تحتفظ باستقلال ذاتي واسع . وكان دوقاتها عرضة للثورات . ولهذه الدوقية سياسة خاصة ترمي إلى وضع يدها على ايطاليا الجنوبية ، وهذا ما جعلها في نزاع مع دوقية نابولي التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي بالنسبة إلى بيزنطة أكثر من بينيفن بالنسبة إلى الامبراطورية الغربية . على أن أدواق بينفين ، وإن اعترفوا بسلطة الامبراطور العليا عليهم ، إلا أن هذه السلطة كانت نظرية في الواقع .

وفي **البحر المتوسط** كان العرب يوالون هجماتهم على الجزر . ففي العام ٨١٥ حاول الساردنيون الاتفاق مع السلطات الفرنجية ضد العرب ولكن لم يكن لتدابيرهم كبير نفع . وعندما ظهر الاسطول الفرنجي في مياه ساردينيا دمره الاسطول العربي في اسبانيا . وحاول لوثير القيام بحملة الى كورسيكا ولكن دون جدوى . ثم هدأت الأحوال نسبياً بعد حملة كورسيكا وساردينيا لأن العرب وجهوا ضرباتهم صوب صقلية . وفي العام ٨٣١ كانت بالرمو في أيديهم . وفي ٨٤٠ كان غرب الجزيرة تابعاً لهم . وفي الوقت نفسه كانوا ينتشرون في جنوب ايطاليا القارية بفضل المنازعات

التي كانت تجري بشأن بينيفن بين المتنافسين راديلشي وسيكونولف ، وكان كل منها يعتمد على العرب للوصول إلى غايته ، ولذا نراهم عام ٨٤٠ في باري ، وفي ٨٤٢ اقتلعوا ترانْتْ من الاغريق . ولبث العرب حتى ٨٤٢ ينشرون الرعب والخوف في مياه الادرياتيك .

وفي بلاد الدانوب جرى تحديد ، بناء على طلب البازيلوس ليون الخامس ، بين دالماسيا البيزنطية ودالماسيا الفرنجية ، وأظهر الكرواتيون ولاءهم للامبراطور واعتنق معظمهم الديانة المسيحية على أيدي المبشرين الفرنجة كما حصلوا على اسقفية خاصة بهم في نونا .

وسببت الحرب مع البلغاريين تعديلات أرضية واسعة في بلاد الدانوب . وقد اتخذ الامبراطور لويس عدة تدابير من شأنها أن تجعل البلاد التي يغمرها نهر الدانوب وروافده غير مقسمة ، كما كانت في السابق ، بين ايطاليا وبافاريا وألحقها كلها ببافاريا ، وفتح بذلك مجالاً للنفوذ الجرماني في هذه البقاع . وكان يرافق الاستعمار الالماني فيها التبشير بالدين المسيحي ، وإحداث أمارات كنسية وكونتيات وأراضي تابعة للملك .

وفي بلاد سلاف الشمال كانت بوهيميا تحت سلطة الامبراطور . ولكن هذه السلطة كانت نظرية . وكذا مورافيا كانت بحالة مماثلة في علاقاتها مع الامبراطوريه . وبينما كانت بوهيميا مجزأة إلى عدة دوقيات ، توحدت مورافيا . وقبل عام ٨٣٦ فرض أميرها الدوق موامير سلطته على الشعب كله .

وفي بلاد الدانيمرك حاول لويس أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أبوه في اتباعه سياسة دفاعية ضد الدانيمرك ، وتدخل فيها بشكل نشيط ، وأراد أن يفرض عليها هارالد الثاني الذي اعترف بسيادته واستطاع أن يخضع قسماً من جوتلند إلى سلطته . وقد تعمدها رالدفي مايلس وكرهه شعبه وطرده وحاول أن يعود بمساعدة القوى الفرنجية إلا أنه أخفق .

وفي ثغور اسبانيا جرت حوادث هامة سجلت فيها حكم لويس التقي . فمن ذلك انفصالها عن دوقية تولوز حسب براءة ٨١٧ . وبقيت الدوقيـة ملحقة باكيتانيا ، وانفصلت الأراضي الواقعة في جنوب البيرينه عنها وألفت مع سبتيمانيا اوغوطيا ثغوراً خاصة متميزة .

ووالى لويس كفاحه ضد العرب ابتداءً من العام ٨١٥ وظلت الحرب بينه وبينهم سجالاً وتقتصر على هجومات متكررة من كلا الطرفين .

بوادر الأزمة في الامبراطورية . — في ١٣ حزيران ٨٢٣ ولدت جديث في فرنكفورت طفلاً سمي شارل وهو من سيكون شارل الأصلع في المستقبل . وقد تعهد لوثير بحمايته ووعد بألا يعارض فيما إذا ترك له أبوه قسماً من الأراضي .

غير أن جديث لم تكن لتهتم بمفهوم الامبراطورية وكانت تعتبر أرض الدولة ، كبقية الأموال ، يمكن اقتسامها كما يقتسم الإرث عادةً . ولذا كان همها أن تؤمن لابنها شارل أكبر حصة ممكنة من إرث أبيه .

وقد كانت هذه السياسة سبباً في تشكيل معارضة ضدها من عـدة جوانب وهي :

١ — عند أولاد لويس التقي وخاصة عند لوثير الذي كان يحرضه حموه هوغ بعد أن عزل عام ٨٢٨ وجرد من منصبه في دوقية تور لأنه تخلى عن نصرة الامبراطور والذهاب إلى بارشلونة لمحاربـة العرب ورفع الحصار عنها .

٢ — عند الحزب الامبراطوري ، وخاصة عند زعيمه « فالا » الذي يرى في ذلك خطراً يهدد الامبراطورية التي يجب أن تؤمن الدفـاع عن البلاد وحرية الكنيسة وسلامة أموالها وتوزيـع مواردها .

٣ — وأخيراً عند زبائن الحزب الامبراطوري من كبار الدولة ، وهم لا يستطيعون تحقيق ما يصبون إليه خوفاً من أن يحل بهم ما حل بهوغ وماتفريد.

ولقد كانت الظروف ملائمة للقيام بالمعارضة . ففي الخارج اخفقت الامبراطورية في ثغور الدانيمرك وفي بلاد الدانوب . ومرت بالبلاد سنوات كانت شديدة البرد صحبها القحط والجدب والوباء . وفي الداخل كان عمال الامبراطور يسيئون استعمال السلطة . وكانت الأراضي والأملاك توزع على الأنصار والمقربين . ويسود بين رجال الكهنوت الفوضى وعدم الانصياع للنظام . ولقد حاول الامبراطور اصلاحاً لهذه المفاسد ولكن جهوده ذهبت عبثاً . فمن ذلك أنه أرسل المفتشين إلى أنحاء الامبراطورية للضرب على أيدي المفسدين ووضع حد لها ولكن دون كبير فائدة .

وعقدت عدة مجامع في ماينس وليون وباريس وتولوز حتى أن الأساقفة ذهبوا في مجمع باريس إلى القول بتفوق الكهنوت على الملكية . وظل الاكليروس الأعلى الامبراطوري مستمراً في تهديم السلطة الامبراطورية ظناً منه بأنه يقوي سلطته الخاصة .

أمام هذه الشكايات حاول لويس التقي مرة أخرى القيام بالإصلاح وإرسال مندوبيه في البلاد . وعقد مجلساً في مدينة فورمز وأذيعت فيه ثلاث براءات ولكن لم تؤد إلى شيء.وذلك لأن أصل المفاسد وجد في نظام الدولة نفسه . وهذا ما حاول دون رغبة الامبراطور في تنفيذ ما يريد وفرض سيطرته على ممثليه في البلاد .

وفي مجلس فورمز أي في سنة ٨٢٩ أقر الامبراطور إعطاء ابنه شارل بن جديث أراضي خاصة به، وتضم هذه الأراضي: ألمانيا والألزاس وريثيا وقسماً من بورغونديا .

وإذا نظرنا إلى هـذا القرار نرى أن ليس فيه ما يعد خرقاً لبراءة ٨١٧، ولكن كان يخشى من أن هذا العمل يمكن أن يعتبر خطوة أولى في إعادة النظر في تقسيم الامبراطورية بتمامها ، وحاول الامبراطوريون شجب هذه السياسة .

واستاء لوثير لما حصل واحتج على هذا التدبير الذي اتخـذه أبوه ، فأرسله إلى ايطاليا وحذف اسمه من الوثائق الرسمية للامبراطورية .

أما جديث فقد رأت أن تدعم ابنها شارل فأوعزت إلى الامبراطور أن يستدعي إلى قصره برنارد سبتمانيا . فسلك هذا في البلاط مسلك الحزبي المتعصب وأقصى جمـاعة الامبراطوريين وأبـدلهم بأناس مخلصين له وللامبراطورة .

وأخذت المعارضة تشتد ضدهم حتى أن جديث وبرنارد اتهما بالسيطرة على الامبراطور بالوسائل السحرية التي يستعملونها لهذه الغاية ، ومنهم من زعم بوجود علاقات بينهما . ولبثت المعارضة تنتظر الفرص المواتيـة للقيام بالثورة .

ثورة ٨٣٠ . — ولقد اتيحت هـذه الفرصة عندما اتخذ برنارد في شباط ٨٣٠ ، قراراً يقضي بتجهيز حملة إلى بروتانيا حيث أعلن أهلهـا العصيان ، وزاد في سخط الرأي العام على هذه الحملة أنها دعيت لتكون على اهبة الاستعداد في مدينة (رين) يوم ١٤ نيسان الموافق ليوم خميس العهد . واتخذ أعداء برنارد وجديث من ذلك ذريعة للقيام بحركة عصيان في الجيش. وبادر لوثير على جناح السرعة من ايطاليا ، وخاف بيبن ولويس من أن يفضي هذا الحادث إلى فوائد جديدة لشارل ، وانضما إلى الثائرين .

ولم يكن لويس على استعداد للمقاومة، واضطر برنارد إلى الالتجاء في بارشلونة ، وخضع لويس التقي نفسه إلى ارادة المتألبين عليه في مدينة كومبين . وكان منهم من يريد خلع الامبراطور عن العرش . غير أن لوثير وفالا اتبعا حلًا معتدلاً : وهو أن يعترف الامبراطور بأخطائه ويعد في الوقت ذاته باحترام (ارادة ٨١٧) ، ويحكم بمشورة كبار الدولة . وأخذت جديث وسجنت في دير القديسة راديغوند في بواتيه ، وطبقت بعض العقوبات على أنصارها وأقاربها . واستلم لوثير السلطة وظهر اسمه مجدداً في الوثائق الرسمية وبقي أبوه في حالة تشبه الأسير محاطاً بالرهبان .

على أن نجاح الثوار لم يكن منه سوى إبدال فئة بأخرى ، حتى أن إساءة استعمال السلطة من قبل الفئة الحاكمة الجديدة أدى إلى رد فعل شديد وخاصة عند الشعوب الجرمانية . وقد استطاع راهب من حاشية الامبراطور اسمه غونتبالد أن يجلب لويس وبيبن إلى صف أبيهما بعد أن طمعهما بتوسيع أراضيهما . وفي تشرين الأول ٨٣٠ رأى لويس التقي في دياط نيميغ أن كبار جرمانيا يساندونه في رأيه وأن باستطاعته أن يستعيد سلطته معتمداً عليهم . وفي شباط ٨٣١ عقد الامبراطور مجلساً في ايكس — لا—شابل بحضور أولاده الثلاثة الكبار وحكم على مدبري المؤامرة بالاعدام ولكنه عفا عنهم واكتفى بسجنهم . فمن ذلك أن فالا سجن في نوار موتيه وهيلدوين في كورفيه . أما لوثير فحذف أسمه مرة أخرى من الوثائق الرسمية وأرسل إلى إيطاليا . واعيدت جديث وأقسمت اليمين لرفع تهمة القذف بالزنا التي وجهها إليها خصومها وعادت تتمتع بامتيازاتها السابقة . وأقسم برنارد اليمين على أنه بريء مما نسب إليه .

ولما رأت الامبراطورة أن لويس التقي قادم على أن يفي بوعده لولديه لويس وبيبن في توسيع أراضيهما ، وجدت الفرصة مواتية لتطالب بحق

ابنها شارل . وجرى تقسيم ٨٣١ كما يلي :

١ ـ أن يأخذ بين ، عدا اكيتانيا ، جميع البلاد الواقعة بين نهر اللوار والسين وفي شمال هذا النهر وكونتيات شالون وآميَن وبونتيو .

٢ ـ أن يأخذ لويس ، عدا بافاريا ، شمال جرمانيا والمناطق التي تسمى اليوم البلاد المنخفضة وبلجيكا والشمال الشرقي من فرنسا .

٣ ـ أن يأخذ شارل ، عدا عن الوقف الذي خصص له في عام ٨٢٩ ، القسم الأعظم من بورغونديا وبروفانس وغوطيا وباجي ، وَويفر وكاستريا وبورسيَن ، ورَنس ولان وموزيلغو وتريف .

ولا يدخل هذا التقسيم في حيز التنفيذ إلا بعد وفاة لويس التقي ، ويقصر لوثير على ايطاليا،ويعود إلى مذهب تقسيم الامبراطورية بكليتها ولا يتخذ أي حيطة لصالح السلطة الامبراطورية كما لا يحترم مبدأ الوحدة الامبراطورية.

ولم يعجب هذا التقسيم بين ولا لويس ، فقد استاء كل منهما من الحصة المخصصة لشارل ، حتى أن بين أظهر عصيانه في آخر ٨٣١ ، واجتاح لويس عام ٨٣٢ آليانيا . غير أن السكسونيين كانوا أمناء على عهد أبيه ، وسبّب عصيانه ضياعه واضطر الى الخضوع . وفي ايلول نظمت حملة ضد بين ، ولكنها انتهت بكارثة . وأعلن الامبراطور سقوط ابنه وأدخل اكيتانيا في حصة شارل .

ولقد سبب تقسيم ٨٣١ امتعاضاً في أوساط الامبراطوريين ، وكانت الظروف مؤاتية للقيام بحركة ضد الامبراطور وجديث . وشايع هذه الحركة أيضاً لوثير ولويس وبين . ورأي لوثير أن يخلع على هذه الحركة صفة شرعية وطلب من البابا غريغوار الرابع ، الذي وصل إلى السدة الرسولية عام ٨٢٧ ، في ظل دستور روما (٨٢٤ م) أن يتدخل في الامر .

وأخذت المعارضة تزداد شيئاً فشيئاً . وكان هدف الامبراطوريين خلع الامبراطور ومساعدة الحبر الأعظم لهم ، حتى أن فالا زعيمهم ، الذي سعى في عام ٨٢٤ في اخضاع البابا لسلطة الامبراطور ، يعود اليوم فيقلب للامبراطور ظهر المجن ويستعين بالبابا على الامبراطور .

رأى لويس التقي أن الوضع رصين ويحتاج إلى حيطة . فجمع جيوشه في حزيران ٨٣٣ في فورمز . وكتب الأساقفة الذين يرافقونه إلى « أخيهم » اسقف روما (البابا) يعنفونه على حنثه بيمين الطاعة للامبراطور . ولكن البابا غريغوار الرابع كان على اتفاق مع فـــالا وهيليساشار وآغوبارد وغيرهم من زعماء الامبراطوريين وأجابهم بعبارات شديدة مؤكداً لهم تفوقه عليهم وعلى الامبراطور ومتهماً هذا الأخير بتعكيره سلام الامبراطورية وفصم وحدتها بعد خرق براءة ٨١٧ . وفي ٢٤ حزيران من السنة نفسها كان جيش لويس التقي وجيش أولاده وجهاً لوجه في الالزاس بالقرب من كولمار في روتفلد . وأراد الامبراطور المفاوضة مع البابا ، فاغتنم أولاده هذه الفرصة ليفسدوا جنوده عليه وتم لهم ذلك . وفي ٣٠ حزيران رأى لويس التقي أن أنصاره قد انفضوا من حوله فاضطر للتسليم . وأعلن لوثير سقوط أبيه واستلامه السلطة بدلاً عنه . وعوضاً عن أن يلجأ إلى الإصلاح ، كما هو منتظر ، اقتسم هو واخوته الغنيمة ، ولم يؤمنوا وحدة الامبراطورية .

أعطى لوثير إلى أخيه **لويس الجرماني** : الیانيا والالزاس وساكس وفرانكونيا وتورنجه ؛ وإلى **بيبن** : آنجو والبلاد الشاطئية بين اللوار والسين . ومن عجب أن يصدر هذا التقسيم عمن اتخذوا وحدة الامبراطورية شعارهم ومثلهم الأعلى . واستاء البابا بعد أن عرف أخيراً أنه اتخذ ألعوبة بأيديهم وعاد إلى إيطاليا حزيناً .

أما لويس التقي ، فسجن في كنيسة القديس ميدار في سواسّون ، وشارل في بروم في الآردين ، وجديث في تورتونا في ايطاليا . وفي الأول من تشرين الأول انعقد دياط كومبين تحت رئاسة لوثير ونظر في جرائم الامبراطور وفي الطرق التي يجب اتباعها للحيلولة دون رجوعه إلى السلطة . فتقرر أن يدعوه إلى التوبة وأن يتخلى بنفسه عن سلطته وأجبر على تجريده من أسلحته وملابسه الملكية وارتداء ألبسة التائب .

إرجاع لويس التقي إلى السلطة . — ويبدو أن هذا الإذلال الذي فرضه الأبناء على أبيهم الشيخ أثار عليه العطف ، وأنكر هذا العمل كثير ممن وخزهم ضميرهم الحي . فقامت حركة جديدة ترمي إلى إرجاع لويس التقي إلى السلطة . يضاف إلى ذلك أن لوثير وزبانئه جنوا وحدهم ثمرة هذا الظفر وأساءوا إلى كثير من أنصارهم . وفي كانون الثاني سار لويس الجرماني يريد تخليص أبيه ، بينما كان برنار دسبتيمانيا وكونت بورغونديا ، غيرَنْ ، وضابط الامبراطورية الأول غليوم في غربي غاليا ، يحشدون الجيوش للغرض نفسه . وكذا بيبن زحف على السين لنفس الغاية . ولما رأى لوثير اتساع الحركة غادر ايكس — لا — شابل مصطحباً أباه وأخاه الصغير شارل وتركهم في سن — دوني بالقرب من باريس في ٢٨ شباط . وفي ١ آذار تصالح الامبراطور فيها مع الكنيسة وتقلد أسلحته من جديد . وفي منتصف آذار التحق به ابناه لويس وبيبن ليوجهوا حملتهم جميعاً ضد لوثير . وقد ظفر هذا في أول الأمر ولكنه اضطر أخيراً للاستسلام والانسحاب إلى ايطاليا . واتسعت أراضي كل من لويس وبيبن ، فأخذ **لويس الجرماني** : اليمانيا والالزاس وفرنكونيا حتى نهر المين ؛ والثاني **بيبن** : آنجو . أما لويس التقي فقد رأى أن من الخير أن يتوج مجدداً في ٢٨ شباط ٨٣٥ في كارتدائية ميتز .

غير أن فكرة لويس التقي في منح ابنه شارل قسماً هاماً من الأراضي كانت تتردد في ذهنه فبدأ بتحقيقها عام ٨٣٧ . وأخذ شارل أراضي واسعة تضم الفريز والبلاد المنخفضة وبلجيكا اليوم ، والمناطق الواقعة بين نهر الموز الأوسط والسين وبحر الشمال وشمال بورغونديا وبعض كونتيات في جنوب السين . وفي السنة التاليـــة أي في ايلول ٨٣٨ بلغ شارل سن الرشد وتوّجه أبوه في كيرسي وأعطاه دوقية مين مع جميع الشاطىء بين نهر السين واللوار .

ولكن هذه التدابير في صالح شارل أقلقت أخويه لوثير ولويس الجرماني حتى أنهما اجتمعا في ٨٣٨ م في الالب للمذاكرة في هذا الشأن . واغتاظ لويس التقي من ذلك فجرد ابنه لويس الجرماني من الأراضي الجرمانية التي خولت إليه عام ٨٣٤ مع ساكس وتورنجه التي يحكمها أيضاً في الواقع منذ ٨٣٣ . وفي العام ٨٣٩ اضطر الامبراطور للذهاب إلى فرنكفورت . وبمساعدة الساكسونيين أجبر ابنه على الفرار .

وفي هذه الأثناء توفي بيبن ملك اكيتانيا في ١٣ كانون الأول ٨٣٨ م تاركاً ولداً يسمى باسمه بيبن . ولم يمنحه الامبراطور مملكة أبيه بل أعطاها لشارل وذلك بوحي من زوجته جديث وعندئذ تشكل حزبان :

١ — الحزب الارستقراطي ، وعلى رأسه كونت بواتيه ايمنون وبرنارد سبتيمانيا وقد نادى ببيبن الثاني ملكاً .

٢ — الحزب الآخر ، ويتزعمه أسقف بواتيه ايبرون ، وكان من أنصار شارل . وفي خريف ٨٣٩ رأى لويس التقي أن يعترف الاكيتانيون بشارل ملكاً عليهم ونادى به ملكاً على اكيتانيا في مدينة كلرمون .

أما لوثير فمذ اعتزل في إيطاليا أخذ يمارس الحكم محاطاً بأنصاره القدماء أمثال فالا والكونت لامبر وماتفريد وهوغ . وكان يعمل مستقلاً ، وحتى في السياسة الخارجية . وسمح هو وحده لمدن شمال ايطاليا أن تعقد في عام ٨٤٠ معاهـدة تحالف وتجارة مع البندقية، وأتم هذا التدبير ، في السنة التالية ، بتثبيته أملاك البندقية في الامبراطورية .

وفي غضون ذلك تصالح الأب وابنه . وكانت جديث في هذه المرة واسطة الصلح . فقد ثبت لها أن لوثير وحده يستطيع دون أخوته ، أن يحمي ابنهـــا شارل عندما يودي الامبراطور . وجرت مفاوضات بين شارل ولوثير على أساس تقسيم الامبراطورية عدا بافاريا . واستقبل لويس التقي ابنه في ٣٠ أيار ٨٣٩ . وفي اليوم التالي جرى التقسيم ، واتخذ الخط الفاصل بين الأخوين نهر الرون والصون والموز ، على أن يأخذ لوثير القسم الشرقي وألا تكون هذه المقررات نافذة إلا بعد وفاة الامبراطور . ولم يتطرق البحث بسلطة عليا للوثير ، بغية الحفاظ على وحدة الامبراطورية.

غير أن اضطراب الامبراطورية منذ عام ٨٣٠ فتح المجال لكثير من الشعوب الخاضعة أن ترفع رأسها وتوالي هجماتها على الامبراطورية . فمن هـــذا اضطراب الحالة في بروتانيا ، وفي البلاد السلافية ، الأمر الذي اضطر الامبراطور إلى تجهيز حملات لتهدئة الحالة .

وكانت غارات القرصان النورمـــانديين تقلق الامبراطور . فقد لبثوا من ٨٣٠ — ٨٤٠ يوالون هجماتهم واعتداءهم على شواطىء الامبراطورية. وقد كانت الفريز مسرح مغامراتهم . ولم يضع تدخل الامبراطور بجانب هورويك ملك الدانيمرك حداً لهجومهم ، ولم يكن للتدابير الدفاعيـة التى اتخذت من تأثير فاعل إلا قليلاً .

وكذا الجنوب الغربي من غاليا كان عرضة لزيارة القرصان . وقد أخذت هذه الزيارات في بعض الأحيان شكل الحرب .

ولم تكن أساطيل العرب في البحر المتوسط أقل هجوماً من أساطيل الدانيمرك في المحيط وفي بحر الشمال . ففي عام ٨٣٨ م جاء الاسطول العربي من ترّاغونه وماجورقه وهجم على مرسيليا وأعمل فيها السلب . وفي عام ٨٤٢ جاء فريق آخر وكان أشد جرأة من السابق فصعد وادي الرون وتوصل إلى آرل ونهبها .

وفاة لويس التقي . — وفي هذه الأثناء كان حكم لويس التقي في أخريات أيامه . ففي عام ٨٤٠ كان الامبراطور يحارب فيما وراء الراين ، بعد أن ثار عليه لويس الجرماني مرة أخرى . وعند عودته وقف متعباً في جزيرة في نهر الراين أمام انجلهيْم حيث لقي الموت بين يدي أخيه (دروغون) وله من العمر اثنان وستون سنة .

النزاع بين أولاد لويس التقي . — لم يكد لوثير يعلم بوفاة أبيه إلا وأرسل رسله في كل الامبراطورية ليخبر الناس باستلامه زمام السلطة طالباً طاعة الجميع ومهدداً جزاء المخالف بالموت . ولقد رأينا أن لويس الجرماني اقتصر على بافاريا بموجب القرار (٨٣٩) وأخذ يحاول استرداد أراضي الضفة اليمنى لنهر الراين التي حكمها فعلياً من ٨٣٣ إلى ٨٣٨ . وبقي لوثير تجاهه في حدود الحق . إلا أنه خرق تجاه شارل اتفاقات ٨٣٩ بصورة علنية ، واعتبر جميع التدابير التي اتخذت عقب براءة (٨١٧) لاغية .

كان لوثير يطمع في التمتع بالسلطة وحده فاكتسب بذلك عطف المتعلقين بوحدة الامبراطورية من رجال الاكليروس ، من أمثال اسقف ميتز دروغون ، ورجال الارستقراطية العلمانية التي كانت متعلقة بهذه الفكرة لعامل نفعي وهو التعطش للكسب والفائدة .

وكان لويس أقرب خصوم لوثير وأكثرهم خطراً . ولذا رأى الامبراطور أن يخضعه أولاً ، فاجتاز نهر الراين إلى فورمز ، واتجه نحو فرنكفورت وتقابل مع جيش أخيه على مقربة من ماينس واضطر إلى عقد هدنة مع لويس ليصفو له الجو ويتفرغ لسحق شارل .

قلق شارل من مناورات أخيه بعد أن رآه يعمل على اثارة أتباعه ضده ، واستطاع لوثير أن يتقدم في فرانسيا حتى وصل إلى أورلثان وأصبح أمام شارل وجهاً لوجه ، وعوضاً عن أن يتقاتلا عقدا بينهما هدنة .

وكان هذا الاتفاق يقضي بمنع لوثير من مهاجمة لويس الجرماني . غير أن الامبراطور كان لا يعرف لوسوسة الضمير معنى وأقلقه أن أخاه أمن طاعة الفرنجة الشرقيين والالامان والساكسون والتورنجيين . فعزم على مهاجمته واستطاع أن يوقع الاضطراب في بافاريا . وفي غضون ذلك علم أنأخاه شارل ، بعد أن أمن الوضع العام في بروتانيا وسبتيمانيا ، قد عبر نهر السين يريد مهاجمته فترك عندئذ حامية في فورمز وتهيأ للوقوف في وجه أخيه . وعندما وصل شارل إلى آتيني أتاه وفد من لويس يعلمه بأنه آت لنجدته .

واستطاع شارل بفضل ضابط مملكته آلارد أن يؤلف جيشاً قوياً ، وانضمت جنوده إلى جنود أخيه لويس بالقرب من شالون (على المارن) وسحقت قوى الامبراطورية . وكان لوثير ينتظر نجدة من بيبن الثاني ، فحاول أن يلهي أخويه بمفاوضات ،وكانا يترددان في القتال ، لأن الحرب بين المسيحيين مخالفة للدين . وعندما وصلته النجدات الاكيتانية حاربهما في منطقة أوسير عند فونتنوا آن بويزي وانتهت الحرب باخفاقه . غير أن الظافرين لم يستثمرا فوزهما ، واستطاع الامبراطور أن يقاتل متراجعاً دون قلق، وعاد لويس إلى بلاد الراين ، وكان حريصاً على تقوية سلطته فيها .

أما لوثير فقد انسحب إلى ايكس - لا - شابل وفكر أن يأخذ بثأره ، فأثار الاقنان في جرمانيا ضد امرائهم ، ووعد المتألبين بالعودة إلى الحق الذي كان يسود السكسونيين في الزمن الذي كانوا فيه وثنيين . ومن جهة ثانية أمن لنفسه تحالفاً مع القرصان النورمانديين مقابل منحهم بعض الأراضي في الفريز ، ثم حاول لوثير الهجوم ولكنه لم يلحق بأخيه لويس . ولم تمض بضعة أيام إلا وأخذ يقاتل متراجعاً . ثم عاد إلى أخيه شارل وأجبره على الانطواء وراء السين بمساعدة بين اكيتانيا . وفي هذه الأثناء زحف شارل نحو الشرق للقاء لويس الجرماني . وقرر الاخوان شارل ولويس الانتهاء من المشاكل مرة واحدة . وفي ستراسبورغ ، في ١٤ شباط ٨٤٢ ، أقسم الرؤساء والجنود الايمان ، وتعهد كل من الأخوين بمساعدة الآخر وعدم التفاهم مع لوثير . ثم وعد كل من الجيشين بالتخلي عن رئيسه إذا حنث بيمينه . وزحف جيش الاخوين الى كوبلنس وعبر نهر الموزيل واضطرا قوى الامبراطور المكلفة بحماية هذه المناطق إلى الفرار .

فاجأت الحوادث لوثير فالتجأ إلى ليون ومنها إلى ايطاليا . ولم يتردد اخواه بعد هذا في أن يعلنا سقوطه ويوزعا بينهما الأراضي التي خصصت له بموجب اتفاق ٨٣٩ ، ثم لاحقاه . وفي الطريق اتاهما وفد من لوثير يقترح عليهما الصلح على أساس التقسيم . وجرت مفاوضات بين الطرفين أدت الى عقد تقسيم موقت والتقى الاخوة الثلاثة وقرروا أن يكون التقسيم النهائي في أول تشرين الأول المقبل على أن يجتمع مائة وعشرون مفوضاً في مدينة ميتز لتهيئة الأسس اللازمة . وانصرف بعدها كل من لويس وشارل إلى تهدئة الحالة العامة في مملكته . وشاء سوء ارادة لوثير أن يفسد ويعرقل تحقيق المفوضين واجتماعاتهم في ميتز ، وتأخر الاجتماع

حتى شهر آب على أن يعقد في مدينة فردن . وفي هذه الأثناء قامت بعض حركات العصيان في بروتانيا فانصرف شارل إلى تهدئتها . وهاجمه النورماندیون على سواحل المانش وقاموا باعمال التخريب والنهب في افواه اللاوار وأحرقوا نانت وبعدها عادوا الى جزيرة نوارموتيه ليتحصنوا فيها .

معاهدة فردن آب ٨٤٣ . — وفي شهر آب ٨٤٣ تحقـــق اتفاق الاخوة وجرى التقسيم في فردن كما يلي :

١ً) يأخذ **لوثير** ، علاوة عن ايطاليا ، الفزيز والبلاد الواقعة بين نهر الايسكو والراين بما فيها الماينوت وكامبريزي وباجـــي لوم وكاستريس والكونتيات القائمة على يين الموز والصون والرون ، عدا كونتية شالون فقد تركت بتمامها الى شارل ؛ وعلى اليسار الأقسام الغربيـة من منطقة ليون وفينا وفيفاريه وأوزيج . وجعلت حدود الشرق نهري الراين والآر .

٢ً) يأخذ **لويس الجرماني** اسقفيات ماينس وفورمز وسبير الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين مع جميـع البلاد الواقعة على الضفة اليمنى .

٣ً) يأخذ **شارل** جميـع المناطق الواقعة في غرب دول لوثـير ، باستثناء ابوية القديس واسْط في آراس التي تركت لهذا الأخير .

وتكفل الاخوة الثلاثة بسلامة دولهم وتعهدوا بأن تجري بينهم علاقات أخوية . ولم يجعلوا اقل ميزة للامبراطور على أخوته إلا هذا اللقب الشرفي .

وفي الحقيقة يعتمد هذا التقسيم على أساسين :

الأول : إن كلًا من الحصص يجب أن تنضم إلى أرضٍ كانت في السابق تابعة لأحد المتقاسمين كايطاليا الى لوثير ، وبافاريا الى لويس الجرماني ، واكيتانيا الى شارل .

الثاني : تأمين واردات متكافئة بين الأخوة .

ولم يراع في هذا التقسيم أي اعتبار للعرق واللغة والقومية ،ولم تحترم

سلامة المناطق الكبرى التقليدية ، فمن ذلك ان فرانسيا وبورغونديا قسمتا بين شارل ولوثير ؛ وآليمانيا – بما فيها الالزاس – بين لوثير ولويس . وكذا الحال فيما يتعلق بالتقسيمات الكنسية .

لقد قضت معاهدة فردن نهائياً على وحدة الامبراطورية وعلى آمال الذين يعتقدون بأن هذه الوحدة كانت ضرورية للدفاع عن الشعب المسيحي وتعظيم الكنيسة . ولقد أوضح الشماس فلوروس ليون هذه العواطف بقوله : « إن هذا التقسيم لم يبق امبراطوراً ولا ملكاً بل مليكاً ، ولا مملكة بل بقايا مملكة » . غير أن « بقايا المملكة » هذه ستكون في المستقبل نطاقاً جغرافياً تتشكل فيه أمتان كبريان : فرنسا وألمانيا .

وقبل معاهدة فردن بأشهر، أي في ١٩ نيسان ٨٤٣ ،توفيت في تور الامبراطورة « جديث » التي سببزواجها بلويس التقي هذه الحوادث الآنفة الذكروكانت معاهدة فردن خاتمة لها .

الفصل العاشر

الممالك الفرنجية والامبراطورية الكارولنجية

٨٤٣ — ٨٨٧

من معاهدة فردن الى وفاة لوثير الاول

٨٤٣ — ٨٥٥

نظام الاخاء . — لقد قضت معاهدة فردن على وحدة الامبراطورية وأوجدت مكانها ثلاث ممالك مستقلة يسود بينها نظام الزمالة والاخاء والتحالف الذي يرمي إلى المحافظة على السلام وإبقاء الوضع الراهن الارضي . ولعل أهم ميزة لهذا النظام هو القضاء على المشاحنات التي كانت تقوم بين الأخوة من حين لآخر .

أما لقب الامبراطور فلم يكن له أقل ميزة تفضل لوثير على اخوته ، ولا يؤمن له إلا رتبة شرفية . وكان لوثير يطمع بالامتيازات التي تتعلق بهذا المنصب من حماية للكرسي الأقدس وسيادة في روما وأراضي الحبر الأعظم. غير أن الحروب التي وقعت بين الاخوة في السابق جعلت البابا يتحرر من كل قيد . وعندما توفي البابا غريغوار الرابع في كانون الثاني عام ٨٤٤ ، انتخب سيرج الثاني وبورك بابا دون استشارة الممثل الامبراطوري ، ودون مبايعة الامبراطور. وقد أرسل لوثير منايكس — لا — شابل ابنه البكر ، لويس الثاني ، إلى إيطاليا بعد أن نصبه ملكاً عليها ، واضطر البابا أن يبرر

سلوكه ، وألزم الرومانيون بمبايعة الامبراطور ، وبارك سيرج الثاني لويس ملكاً وتوطدت على هذا النحو سلطة الامبراطور في روما رغم أنها ضعيفة .

حاول لوثير أن يستغل عمله في روما ويستعيد سلطته في مملكتي أخويه وطلب من البابا رفع اسقف ميتز ، دروغون ، إلى منصب النائب الرسولي في غاليا وجرمانيا . غير أن هذه المناورة فشلت أمام معارضة اسقفية « فرانسيا الغربية » التي عقدت مجمعاً في فير في كانون الأول ٨٤٤ . وفي هذا المجمع أيضاً دعا الأساقفة الملك إلى إشغال كرسي اسقفية رنس الشاغر . وفي السنة التالية انتخب له هنكمار وهو كاهن عالم وراهب قديم من سن — دوني .

حكم لويس الثاني في ايطاليا . — بقي لويس الثاني في ايطاليا يتابع باستمرار وبوسائل غير كافية سياسة التوحيد والإصلاح منصرفاً إلى توطيد السلطة الملكية وإعادة النظام واصلاح أخلاق الاكليروس . وفي عام ٨٤٥ داهمه خطر العرب على شواطىء البحر التيراني ، حتى أن نابولي تخلت عن تحالفها مع مسلمي صقلية لتنظم دفاعاً مشتركاً مع المدن البحرية الأخرى مثل غايت وآمالفي وسورانته . ولذا اندفع هجوم المسلمين نحو الشمال ، وفي ٢٦ آب ٨٤٦ وقع حي روما الواقع على الضفة اليمنى لنهر التيبر في أيديهم وعادوا بالغنائم والأسلاب .

كان وقع هذه الغارة على روما أليماً . فرأى لوثير ولويس الثاني أن يحررا ايطاليا الجنوبية من المسلمين . وقام لويس الثاني على رأس حملة عام ٨٤٦ وظفرت جيوشه على المسلمين واستردت بينيفن من يد حماتها المسلمين والزم كل من راديلشي دوق بينيفن وسيكونولف دوق ساليرن أن يكتفي بدوقيته ، لأن تنافسهما أدى إلى الهجوم الاسلامي على البلاد ، وان واجبهما يقتضي منهما الآن متابعة النضال ضد المسلمين . غير أن هذين الدوقين

لم يكونا أهلاً لما يتطلب منهما . وفي عام ٨٤٩ استرجع المسلمون مواقعهم ووالوا هجماتهم ودامت الحالة هكذا بضع سنين أخرى . وفي سنة ٨٥٢ حاول لويس الثاني الاستيلاء على باري ، التي كانت قاعدة هامة للمسلمين ، ولكنه أخفق ولم يدعمه أمراء ايطاليا الجنوبية .

وفي عام ٨٤٧ توفي سيرج الثاني وخلفه ليون الرابع . وقد جرت مباركته دون انتظار موافقة الامبراطور ، ولكنه اعترف خطياً بحقوق هذا الأخير عليه . وامتاز ليون الرابع بتحصين روما . فقد أحاط الضفة اليمنى مع حي كنيسة القديس بطرس بسور . وفي عام ٨٤٩ نهب المسلمون شواطىء بروفانس ولوني وحاولوا هجوماً على المدينة الخالدة ولكنهم أخفقوا أمام مقاومة اسطول المدن البحرية والحرس الروماني .

وفي عام ٨٥٠ نصب لوثير ابنه لويس امبراطوراً . وفي نيسان من هذه السنة باركه البابا ، وترك الامبراطور الشاب يمارس في روما سلطاته بصورة فعلية ويفرض احترامها . حتى أن البابا بنوا الثالث الذي خلف ليون الرابع عام ٨٥٥ لم يبارك إلا بعد أن صادق على انتخابه مندوبو الامبراطور .

وشكت بروفانس ، كايطاليا ، من عصيان زعمائها وغارات القرصان عليها . وكانت الفريز عرضة لغارات النورمانديين . حتى أن الامبراطور أحدث فيها دوقية دانيمركية على مصبات الراين والموز والايسكو لتنعم هذه المناطق بعض الشيء بهدوء نسبي .

شارل الأصلع . — وكانت الحالة في فرانسيا الغربية أشد خطراً . حتى أن سلطة شارل الأصلع لم يعترف بها لا في اكيتانيا أو في بروتانيا ولا في منطقة الثغور التي أمامها . ولقد حاول شارل أن يفتح غرب مملكته وجنوبها . وفي آخر عام ٨٤٣ زحف على اكيتانيا ضد بيبن وحاصر

تولوز ولكنه اضطر أخيراً إلى التراجع وأخذ يحارب متراجعاً . وفي السنة التالية تخلى عن قسم عظيم من اكيتانيا إلى ابن أخيه بين الثاني الذي اعترف بسيادة عمه واعتبر نفسه تابعاً له .

وضاعت من شارل **بروتانيا** كاكيتانيا ولم يعترف دوقها له إلا بسلطة نظرية فقط .

ووالى النورمانديون هجماتهم من قاعدتهم **نوارموتيه** على مناطق الغارون والشواطىء الاسبانية واجتاحوا بوردو وشواطىء المانش . وفي عام ٨٤٥ صعد أسطولهم نهر السين ونهب باريس . ولبث جيش شارل على جموده لا يبدي حراكاً حتى اضطر إلى دفع مبلغ من المال ثمن انسحابهم .

حاول شارل أن يدعم سلطته الملكية أمام هذا الخذلان الذي مني به فأقام حفلة دينية عام ٨٤٨ في كنيسة اورلئان لمباركته ، ومنها اندفع إلى اكيتانيا فهزم بين واستولى على تولوز (عام ٨٤٩) . وفي العام ٨٥٢ سُلّم إليه بين ، وحاول كبار اكيتانيا أن يستعطفوا لويس الجرماني ويستمدوا منه العون ، فأرسل إليهم إبنه لويس الشاب ولم يجد تدخله شيئاً . غير أن بين تمكن من الفرار ، وحاول شارل مرة أخرى القضاء على مقاومة بين فرأى أن يسترضي الاكيتانيين ويمنحهم استقلالاً ذاتياً ، وفي تشرين الأول جعل ابنه (شارل) ملكاً على اكيتانيا .

وجرى شيء مشابه لذلك في **بروتانيا** . فقد منح شارل الأصلع زعيم البروتون ايريسبو لقب الملك ، وتخلى له عن التخوم مقابل اعترافه بالطاعة . وعاد النورمانديون إلى اعتداءاتهم وجعلوا يهاجمون أطراف المملكة من ثلاث قواعد : من الجيروند ، من جزيرة في نهر السين ، ومن جزيرة في نهر اللوار ، ويعيثون في الأرض الفساد والسلب والنهب . ولم تكن التدابير التي اتخذها شارل الاصلع ضدهم ناجعة للضرب على أيديهم .

مملكة لويس الجرماني . — لم تضطرب الحالة في فرنسيا الشرقيـــة بمثل ما كانت عليه فرنسيا الغربيـة . ففي الجنوب الشرقي كان التوسع المسيحي والالماني يتابـع سيره كالمعتاد غير أن النتائج لم تكن كلها واحدة في المملكة . ففي **بوهيميا** كانت سلطته نظرية . وفي **مورافيا** كانت السلطة الملكية ضعيفة الشأن . وفي **بانونيا** تقدم التبشير المسيحي بسبب توطد السلطة . وكانت كنيسة سالزبورغ مركز الدعاية المسيحية . ولم يتعكر السلم إلا في عام ٨٥٣ عندما هجم البلغاريون ، بتحريض من شارل الأصلع ، للحيلولة دون تدخل لويس الجرماني في اكيتانيا .

وفي شمال المملكة اضطر لويس إلى القيام بعدة حملات ضد الاوبودريت والوند والسورب حرصاً على بقاء هذه الأقوام في طاعتـه . ولم تكن هذه الحملات مصحوبة بجهود رصينة في أعمال التبشير . كما أن البعثات المسيحية كانت توالي أعمالها في الدانيمرك والسويد تحت ادارة القديس آنشير .

وفي ٢٩ ايلول ٨٥٥ توفي لوثير الأول في بروم ، بعد أن تخلى عن مثله في الوحدة وقسم دوله بين أولاده :

١ — أن يحتفظ لويس بايطاليا .

٢ — أن يأخذ لوثير الفريز وفرنسيا .

٣ — أن يأخذ شارل بروفانس والبلاد الرودانية (الواقعة في وادي نهر الرون) .

وبوفاة الامبراطور لوثير يذهب عنصر أساسي في سياسة « الاخاء » التي سلكها أولاد لويس التقي فيما بينهم.

من وفاة لوثير الاول الى وفاة لوثير الثاني

٨٥٥ — ٨٧٠

لقد أصبحت الامبراطورية الكارولنجية عند وفاة لوثير الأول كقطعة فسيفساء تتألف من خمس ممالك غير متساوية ، لا تماسك بينها ، فضلاً عن ان الاتفاقات، السابقة رغم الأيمان المغلظة التي رافقت عقدها ، لاتستطيع حمايتها ضد اخطار جديدة وتبدلات وتعديلات أرضية . وكان من الضروري على الأقل ان يوجد اتفـــاق بين ابناء لوثير الثلاثة ليستطيعوا تدارك الاخطـار . ولكن كلاً من الأخوين **لويس الثاني** و **لوثير الثاني** كان يرى بأنه مغبون في حصته ،ولا يبعد ان كانا يفكران باقتسام حصة اخيهما الصغير شارل لولا ان امراء بروفانس كانوا الى جانبه . وقد احتدم النقاش بين الاخوة الثلاثة مرة في اوربْ عام ٨٥٦ في جنوب بحيرة نوشاتيل وكادوا يشتبكون مع بعضهم ، ولم يتوطد السلام فيما بينهم الا بعد كبير عناء .

وكذا التفاهم بين شارل الأصلع ولويس الجرماني كان ضعيفاً . كانت الحالة مضطربة جداً في مملكة شارل الأصلع أي في فرنسيا الغربية ففي العام ٨٥٦ استرجع بيبن الثاني نشاطه في اكيتانيا واتخذ وضعاً مهدداً . ولذا اتفق شارل الأصلع مع البروتون ضده ، حتى انه خطب ابنة ايريسبو لابنه لويس الملقب بالألكن بعد أن نصبه ملكاً على منطقة مين . وفي سنة ٨٥٧ قتل ايريسبو وخلفه **سالومون** وتحالف هذا مع كبار نوستريا وطرد لويس الألكن عن الحكم عام ٨٥٨ .

وكذا النورمانديون لم يبقوا دون حراك . فقد احرق النورمانديون المقيمون في جزيرة في نهر السين ، مدينة باريس ، وبايو ، وشارتو . وأحرق

نورمانديو نهر اللوار اورلئان وتور وبلوا . وهاجم اسطولهم شواطيء اسبانيا . وفي العام ٨٦٠ اجتاحوا سبتيمانيا وبروفانس ، الا انهم غلبوا على امرهم من قبل الكونت جيرارد الذي كان يحكم المملكة باسم شارل بن لوثير الأول . وجبن اهل فرنسيا عن مقاومة هؤلاء الغزاة . غير ان شارل الأصلع جمع جيشاً وتحالف مع ابن اخيه لوثير الثاني وحاصر النورمانديين في نهر السين في جزيرة واسّل . واغتنم لويس الجرماني هذه الصعوبات التي يتخبط بها اخوه وهاجم مملكته .

وكانت الظروف مؤاتية لمثل هذا الغزو ، فقد توطدت سلطة لويس الجرماني في مملكته ولم ينازع سلطته منازع . وفي العام ٨٥٦ تألف حزب في فرنسيا الغربية من أهل اكيتانيا وكبار فرنسيا ومين وبورغونديا . ورجا هذا الحزب لويس الجرماني أن يأتي لفرنسيا ويطرد منها شارل الأصلع . وسبق للويس أن قاوم هذا الرجاء ، ولكنه استجاب في هذه المرة لداعي الهوى ورغب في تأسيس دولة فرنجية واسعة . وفي آب ٨٥٨ عبر الحدود ، وكان زحفه أشبه بنزهة عسكرية لم يلق فيها مقاومة تذكر . ولما رأى شارل الأصلع ان معظم الارستقراطية قد انفضت من حوله استسلم للهرب . غير أن الاكليروس كان أميناً على عهده فانقذه بفضل هنكمار رئيس الأساقفة . ولما دعا لويس الجرماني الأساقفة الى رنس لمباركته رفض هنكمار باسمهم . ويئس حلفاء لويس بعد أن خيب ظنهم وتخلوا عن نصرته ، ولما رأى أن لا سبيل للمقاومة والغلاب قفل راجعاً في كانون الثاني ٨٥٩ يجرر اذيال الخيبة . وتوطد السلام اثر تدخل لوثير الثاني في مؤتمر كوبلَنْس (حزيران ٨٦٠) . واضاع لويس الجرماني في هذه المغامرة كثيراً من جاهه حتى في أعين رعيته . وبالمقابل ازدادت سلطة شارل الاصلع في مملكته ، كما عظم نفوذ هنكمار .

أما **ايطاليا** فكانت فريسة المنازعات الداخلية . فقد استأنفت ساليرن وبنيفن الكفاح . واستقلت كابو وقامت ضد ساليرن . وثار لامبر دوق سبوليت في وجه الامبراطور ، حتى اضطر لويس الثاني أن يجهز جيشاً ويوقفه عند حده . واستفاد المسلمون من هذا الوضع فأعملوا النهب في نابولي والتخريب في بينيفن وكابو وكامبانيا ، ولم ينالوا مون كاسّينو بأي اذى بعد أن دفع لهم مبلغ من المال . وفي هذه السنة نفسها طرد النورمانديون من بروفانس فنهبوا بيزا ولوني .

وجدّ لويس الثاني في عمله . وكانت علاقاته طيبة مع البندقية التي اخذت تستقل بالتدريج استقلالاً ذاتياً عن بيزنطة . ووطد سلطته في روما . وفي العام ٨٥٨ توفي البابا بنوا الثالث وانتخب مكانه الشماس نيقولا ، وجرت مباركته بحضرة لويس الثاني ، ورغب هذا أن يكون البابا الجديد طوع بنانه . الا ان نيقولا الأول كانت له وجهة نظره . فقد كان يسعى في توسيع سلطة البابوية ، وواتته الظروف ، لا سيما وان الامبراطورية فقدت جاهها منذ ثلاثين عاماً خلت .

دعوى توتبرج زوجة لوثير الثاني . — كانت توتبرج زوجة لوثير الثاني عقيماً فأراد لوثير طلاقها وزواج خليلته والدراد بعد أن أتاه اولاد منها . وفي العام ٨٥٧ سجن زوجته واتهمها في اخلاقها ثم ارجعها اليه بعد أن برأتها المحكمة الملكية .

وفي العام ٨٦٠ كانت السياسة في الغرب تحوم حول طلاق لوثير الثاني من زوجته ليتزوج والدراد . ولقد اضاف إلى السبب، الذي ذكره آنفاً ، سبباً آخر وهو ان زواجه بوالدراد كان قبل زواجه بالملكة . وعقد مجمعاً دينياً في ايكس - لا - شابل في شهر كانون الثاني ، إلا انه لم يقض بما رغب به الملك . ثم عقد مجلساً آخر في ١٥ شباط بفضل مساعدة رئيس

اساقفه كولونيا غونتر ورئيس اساقفه تريف تيتغود ، فحرم عليه كل علاقة مع توتبرج دون ان يحصل على فسخ الزواج .

غير أن هنكمار احتج على ذلك وحكم ببطلان الأصول الذي جرى عليه هذا المجمع ودافع عن الملكة . ولقد كانت هنالك عوامل دينية ومعنوية تضطره للعمل على هذا النحو . فقد كان على اتفاق مع شارل الأصلع الذى كان يأمل بأخذ لوتارانجيا (مملكة لوثير) اذا بقي ابن اخيه زوجاً لتوتبرج العقيم . وقد غدت معارضة طلاق لوثير واخذ دوله عاملا أساسياً لسياسة شارل التي كان هنكمار يوحي بها . وقد ذهبت توتبرج والتجأت اليهما وضما احتجاجهما إلى احتجاجها الذي وجهته إلى قداسة البابا .

سعى لوثير في البحث عن دعم له عند لويس الجرماني وأطمعه بالألزاس . وبعد أن أمن اتفاقه معه ، عقد في ايكس مجمعاً ثالثاً . فأعلن هذا المجمع ان توتبرج ليست زوجة شرعية للملك ، وباستطاعة هذا ان يتزوج امرأة أخرى غيرها . ولم تمض مدة إلا وعقد لوثير زواجه على والدراد وتوجها ملكة .

وكان لويس الجرماني يرغب بالسلام فدعا إلى عقد مجلس لتسوية الخلاف بين أخيه شارل الأصلع وابن أخيه لوثير الثاني . وانعقد هذا المجلس في سافونيير في خريف عام ٨٦٢ وكان ظفراً لشارل الاصلع واذلالاً إلى لوثير . وبه وعد لوثير ان يبين سلوكه أمام مجلس مؤلف من كبار الممالك الثلاث ليحكم له أوعليه ، ولم تظهر أي نتيجة ايجابية لهذا التعهد .

غير أن عمل البابا كان انجع تأثيراً ، فلم يكد يطلع على مقررات المجمع الثالث في ايكس الاوكلف رادوالد ،اسقف بورتو،وجان، اسقف سيرفيا، بعقد مجمع واجراء تحقيق في قضية زواج لوثير . وكان هذا العمل

فرصة لاظهار سلطته على زعماء الكنيسة الفرنجية ، وسلطته التي يزعم بأنها فوق سلطة الملوك أنفسهم . ولكن لوثير توصل إلى افساد ضمير المندوبين الرسوليين ، حتى ان مجمع الاساقفة اللوتارانجيين الذي ترأساه في ميتز عام ٨٦٣ صرح بأن لوثير تزوج بوالدراد قبل زواجه بتوتبرج،وان هذا الزواج الأخير باطل . وكلف غونتر وتيتغود بحمل هذا القرار الى روما . ولكن نيقولا الأول كان قانعاً بخداع لوثير وشركائه ، فشجب مقررات مجمع ميتز ، وعزل الرسولين من منصبها الديني في مجمع عقده في لاتران، وحرم على لوثير معاشرة والدراد . وتدخل الامبراطور لويس الثاني في الامر تدخلاً مسلحاً في بداية عام ٨٦٤ ، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً أمام ارادة البابا الحازمة .

وكان لوثير ، في ذلك الحين ، يحارب النورمانديين في الفريز ، عندما علم بحكم البابا ، فأعلم نيقولا الاول بخضوعه عام ٨٦٤ . ولكنه كان يحرص على حليف ضدالبابا وشارل الاصلع، وجرت بينه وبين أخيه لويس الثاني مقابلة في اورب .

ودعا تدخل البابا في قضية لوثير إلى التنبؤ بضياع مملكة لوثير بعد وفاته . وأمام هذا الاحتمال تقرب الملك الالماني من أخيه وتقابلا في توزي في شباط ٨٦٥ واتفقا معاً ودعوا ابن اخيها إلى اصلاح سلوكه . وقد قلقا من توسع سلطة البابا، فقررا الا يرسلا اساقفتها إلى المجمع العام الذي دعا اليه نيقولا الاول ليعرض عليه في روما قضية طلاق لوثير وقضية انشقاق بطريرك القسطنطينية فوتيوس .

خاف لوثير من تفاهم عميه ، واستخزى مرة ثانية ، ورجا البابا التوسط بينها وبينه . واغتنم نيقولا الاول هذه الفرصة ليجعل نفسه حكماً بين الملوك ، فأرسل الى فرانسيا آرسين، اسقف اورتا ، ليجبر لوثير على ارجاع

توتبرج ، ويمنع شارل الاصلع وأخيه لويس الجرماني من مهاجمة ابن ابن اخيها لوثير ، ويعيد روتاد ، اسقف سواسون ، إلى كرسيه بعد أن ازيح عنه بتشبث من هنكمار يدعمه شارل الاصلع . أدى آرسين رسالته وعاد ومعه والدراد ، غير أن هذه فرت وعاودت علاقاتها مع عشيقها .

وأراد البابا أن يخضع أيضاً شارل الاصلع وهنكمار ، وطبق على هذا الاخير قاعدة المساواة في التبعية للكرسي الاقدس الذي يخضع له الاساقفة جميعاً . وحنق الملك على نيقولا الأول ، وساءه ان سياسة هنكمار قد أفسدت عليه أموره ، فقطع علاقاته معه ومع سياسته ، ثم انضم إلى لوثير الثاني، بعد أن أعطاه أبوية (دير) القديس واسط في آراس ، ليرجو البابا في الغاء الزواج بتوتبرج . ولكن هذه المحاولة كانت عبثاً .

وفي هذه الاثناء والى النورمانديون المقيمون في نهر السين هجماتهم ودحروا جيوش شارل الاصلع ، ولم يتخلص منهم إلا بعد ان اشترى رحيلهم بمبلغ من المال . أما نورمانديو اللوار فكانوا يعملون النهب في المناطق المجاورة . ولم يستطع الملك صدهم الا بصعوبة . ثم عقد صلحاً مع البروتون وجعل ابنه لويس الالكن ملكاً على اكيتانيا ومنحه سلطات محدودة .

غير ان انذاراً شديد اللهجة من البابا سبب انقلاباً في الاحلاف : فقد تقرب شارل الاصلع من هنكمار وتقابل مع لويس الجرماني في ميتز ، وبحث معه فيا يجب اتخاذه في حالة تقسيم مملكة لوثير . فقلق هذا وحاول مرة ثانية أن يتصالح مع عمه الاكبر وتخلى له عن أمارة الالزاس .

وفي ١٣ تشرين الثاني ٨٧٦ توفي البابا نيقولا الاول بعد أن رفع عالياً سلطة الحبر الاعظم في الكنيسة وفي العالم . وكانت سياسته على خلاف

سياسة الملوك المتحولة ثابتـــة لا تتغير وفي سبيل فكرة واحدة : وهي توطيد سلطة البابا المطلقة التي تجسد القانون الآلهي وخلفه على عرش البابوية هادريان الثاني ، وبورك برضى الامبراطور ، وكان أميناً للمثل الاعلى الذي كان عليه سلفه ولكنه أقل منه عناداً في التطبيق ، وبضغط من الامبراطور لم يثبط المساعي التي حاولها لوثير. وعندما ذهب هذا عام ٨٦٩ إلى ايطاليا ، للحصول على فسخ الزواج ، رفض طلبه ومات على أثر حمى اصابته وهو في طريق العودة في بليزانس في ٨ آب .

وواتت الفرصة شارل الاصلع ليستولي على لوتارانجية . فقد هدأت غارات النورمانديين ، وكان لويس الجرماني منهمكاً في قمع الفتن والثورات ، فضلاً عن أنه كان مريضاً وبقي في راتسبون .

دخل شارل الاصلع لوتارانجية واعترف به حزب من كبار الكنسيين والعلمانيين . وفي ٩ ايلول ٨٦٩ باركه هنكمار في ميتز . وفي ٦ تشرين الاول فقد زوجته ، وفي ٢٢ كانون الثاني ٨٧٠ تزوج ريشيلد أخت الكونت بوزون ليرتبط ارتباطاً وثيقاً بأعظم اسرة في المملكة . غير أن لويس الجرماني بعث اليه بانذار فاضطر إلى المفاوضة . وفي ٨ آب عقدت معاهـــدة تقسيم في ميرسن . ودخلت الفريز في حصة شارل وجعلت الحدود نهر الموز والاورط والموزيل والمارن والصون والجورا . وفي هذه السنة اقتلع الملك من الكونت جيرارد دوقية ليون وعهد بحكومتها إلى بوزون . وتدخل البـابا عبثاً لدى شارل وهنكمار ليفرض عليها حق الامبراطور في إرث أخيه . ولم يتلق من هنكمار إلا جواباً مستعلياً يدعوه فيه ألا يعرض نفسه لنزاع مع مليكه .

وبقيت الحالة مضطربة في ايطـــاليا والفوضى مستحكمة . وكان المسلمون يفيدون من هذا الوضع ليوسعوا هجومهم . وحاول الامبراطور

لويس الثاني عام ٨٦٦ الكرة عليهم ، وانضمت إليه نابولي وآمالفي ودوق بينيفن واسطول البندقية . ولم يبق للمسلمين سوى باري وتارنت ، وحوصرت الاولى عام ٨٦٩ بفضل معاهدة مع امبراطور بيزنطة ، وأتى اسطول لحصار المدينة من جهة البحر . غير أن سوء التفاهم ساد بين الحلفاء ولم تؤخذ المدينة الا في عام ٨٧١ . ثم توترت العلاقات بين الحلفاء حتى أن باصيل الأول ذهب إلى منازعة الامبراطور الكارولنجي حق تسمية نفسه بالامبراطور المبارك ولم يعترف له إلا بلقب (ركس) الذي تنادي به بيزنطه ملوك البرابرة . واقتضى البحث في شرعيـــة الامبراطورية الغربية جواباً نشيطاً من لويس الثاني أثبت فيه حقه باللقب الامبراطوري الروماني .

وبعد سقوط باري أرسل جيش الى تارنت وانسحب الامبراطور الى بينيفن . غير أن أميرها ادلشيس سجن لويس الثاني ولم يحرره إلا بعد أن أخذ عليه عهداً بألا يدخل الأراضي البينيفنتية . وبفضل هـذه الحالة المضطربة عاود المسلمون هجومهم ورفع الحصار عن مدينة تارنت .

وفي الوقت نفسه دخلت المسيحية في البلاد الدانوبية في مرحلة جديدة ، وذلك أن خان البلغاريين بوريس اعتنق المسيحية عام ٨٦٤ وطلب إرسال المبشرين المسيحيين فأتاه من روما مبشرون نشيطون حتى انسحب أمامهم مبشرو جرمانيا . ومنذ العام ٨٧٠ أصبحت بلغاريا في منطقة نفوذ بيزنطة .

ولاقت الكنيسة الألمانية إخفاقاً آخر . فقـــد رأى دوق مورافيا راتيسلاف مكافحة نفوذ الاكليروس البافاري ، فطلب أن يرسل إليه كهان اغريقيون فأرسل إليه الامبراطور ميخائيل الثالث عام ٨٦٤ أخوين : قسطنطين وميتود . وترجم الاول العهد الجديد إلى اللغـة السلافونية .

ومات قسطنطين بعد عودتها الى روما . ثم أرسل البابا هادربان ميتود مفوضاً لدى جميع الأمم السلافية وجعله رئيساً لأساقفة بانونيا . وهكذا انفصل التبشير بالمسيحية عن الجرمنة في البلاد الدانوبية .

امبراطورية الغرب من وفاة لوتير الثاني الى وفاة شارل الأصلع
(٨٧٠ — ٨٧٧)

قضية وراثة لويس الثاني . — في سنة ٨٧٢ تحلل الامبراطور لويس الثاني من تعهداته ، وأعيد تتويجه ، ونادى مجلس الشيوخ الروماني بآدلشيس عدو الامبراطورية ، وتركت ايطاليا الجنوبية في حالة فوضى . ووضع الامبراطور مشروعاً لحملة الى بينيفن عام ٨٧٣ ، ولكن هذا المشروع اوقف بعد مناورة الاسطول البيزنطي الذي جعل هذه الامارة تحت حماية بيزنطه .

هذا ولم تنجب الامبراطورة انجلبرج أولاداً الى زوجها . ولذا وضعت وراثة لويس الثاني على بساط البحث أمام لويس الجرماني وشارل الأصلع . وقد وعد الامبراطور الأول بتاج ايطاليا الى ابنه كارلومان . وكان يساند الثاني البابا هادريان الثاني وخلفه جان الثامن الذي بورك بابا في ١٤ كانون الأول ٨٧٢ .

ولم يكن لويس الجرماني على درجة من القوة ليفرض مزاعمه ، فقد ثار عليه ولداه لويس وشارل السمين عام ٨٧٠ و ٨٧٣ ، وتوترت العلاقات بين الأب وولديه . ولم تكن الحالة هادئة بوجه عام في فرنسيا الشرقية . وواتت الظروف شارل الأصلع . وساعده البروتون عام ٨٧٣ على طرد النورمانديين من آنجه . وفي العام ٨٧٤ قتل الملك سالومون ونشبت

الحرب بين المطالبين بإرثه . كل ذلك جعل بروتانيا في حالة لا تستطيع معها الهجوم والغلاب .

وبعد أن توفي لويس الثاني في بريشيا في ١٢ آب ٨٧٥ ، بعد جهود قضاها في خدمة المثل الاعلى الامبراطوري ، زحف شارل الأصلع في طريقه الى ايطاليا حيث دعاه البابا جان الثامن ، وكانت الحال فيها عصيبة . فقد نهب المسلمون جنوب ايطاليا ، وتحالفت معهم نابولي وغايت وآمالفي وساليرن وكادت الاساطيل العربية والقرصان الدالماسيون أن تحول دون الملاحة في بحر الادرياتيك لولا مقاومة البنادقة . وكانت السفن الاسلامية تجوب أنحاء البحر التيراني وتهاجم أراضي البابا وتصل في غزوها الى أفواه الرون . ولذا كان البابا يأمل من شارل الأصلع أن ينقذه مما هو فيه من ضيق .

ووصل شارل الأصلع الى روما وانتخب امبراطوراً وباركه البابا في ٢٥ كانون الاول ٨٧٥ . مقابل ذلك تخلى شارل عن المندوب الامبراطوري في روما وأيد امتيازات أسلافه ووسعها . ثم ذهب إلى بافيا ونودي به ملكاً على ايطاليا ، على أن يقوم بواجباته الملكية تجاه كبار ايطاليا الذين أعلنوا انضمامهم اليه . غير أنه لم يعمل شيئاً لتهدئة الحال في ايطاليا أو يتخذ علاجاً لفوضاها ، وكل ما فعله هو أنه عهد الى بوزون بحكم المملكة وعاد الى فرنسيا . وضم القسم الذي يخص لويس الثاني من بروفانس ، بعد أن اقتسمها هذا الاخير مع لوثير الثاني عندما توفي ملكها شارل اخوهما . وفي حزيران ٧٧٦ بويع في بونثيون بالامبراطورية من قبل كبار دولته . وفي ٢٦ آب توفي في فرنكفورت لويس الجرماني . وما علم شارل الأصلع بالخبر حتى ألقى بنفسه على ضفاف الراين يريد الاستيلاء على مملكة أخيه ؛ بعد أن رأى الخلاف بين

أبنائه . ولكن الأخوة استطاعوا أن يسووا خلافهم ويقتسموا مملكة أبيهم :
أخذ **كارلومان** بافاريا وبانونيا وكارانثيا والبلاد السلافية التابعة لها .

ولويس الشاب : فرنكونيا وساكس وتورنجه .

وشارل السمين : سؤاب .

وبقيت لوتارانجيا غير مقسمة .

وساءت في هذه الأثناء حال ايطاليا رغم ماأبداه البابا جان الثامن من حزم : فقد كان يناضل ضـد الاغتصابات والتعديات على أموال وواردات البابوية ، ونظم الادارة ليحد من ساطة الارستقراطية الرومانية . وحاول أن يجمع كلمة امراء ايطاليا الجنوبية ويفصل المدن البحرية عن المسلمين ، ولم يكن لهذه الجهود كبير مفعول . فقد والى المسلمون هجماتهم وتوصلوا الى القرب من روما . ولم يبق لايطاليا الجنوبية من حام سوى الامبراطور البيزنطي باصيل الأول . فقد وضع حامية في باري عام ٨٧٦ واعترفت دالماسيا بسلطته عام ٨٧٧ .

وتحت الحاح البابا جان الثامن قرر شارل الاصلع الحملة على ايطاليا وفي الطريق أصابه زحار ، وتوفي بحالة يرثى لها وهو يعبر شعب جبل مون سوني في ٦ تشرين الأول ٨٧٧ .

وفي الحقيقة لم تكن حياة شارل الاصلع بالحياة السهلة بـل كانت مملوءة بالمغامرات ، وكان حز همه أن يتوصل الى الامبراطورية ويعد في صف الاباطرة . وما حياته ، وهو امبراطور ، الا سلسلة من الخيبة والحسرة واليأس . فقد اخفق في المانيا حيث اراد التدخل ليستولي على مملكة أخيه لويس الجرماني ، ولكن لويس الشاب ابن هذا الاخير قهر عمه في آندرناخ على الراين ، في ٨ تشرين الاول ٨٧٦ . وأخفق في ايطاليا ،

ولم يستطع شيئاً . ومات ملك فرنسا الجديدة «حزيناً» كما يقول محرر حوليات فولدا . ولم تكن الممالك التي خلفت الامبراطورية على شيء من القوة لتحتفظ بكيانها . فقد كان العالم الغربي تنقصه أنذاك قوى الوحدة المركزية ، وذهب في طريق التجزئة والانقسام . وتوالت المصائب على فرنسا والبلاد المجاورة من كل حدب وصوب : الغارات البربرية في تجدد دائم ، والانانية الزعماء التي لم تستطع سلطة المليك الحد منها ، وتوضع الحياة المحلية ، واضطراب حبل الامن العام وعدم الطمأنينة ، كل ذلـــك مهد السبيل الى الكارثة الكبرى التي حلت بالسلالة الكارولنجية عام ٨٨٨ .

امبراطورية الغرب من وفاة شارل الاصلع الى خلع شارل السمين

٨٨٧ — ٨٧٧

لقد لاقى لويس الألكن بعض الصعوبات للقبض على ناصيـة الملك بعد وفاة أبيه شارل الاصلع . وباركه هنكمار في ٨ كانون الاول ٨٧٧ في كومبين ، بعد أن وعد باحترام امتيازات الاكليروس وكبار الدولة . ونصحه هنكمار أن يتقرب من أبناء عمـــه الالمانيين . وفي ١ تشرين الثاني ٨٧٨ عقدت معاهدة في فورون بينه وبين لويس الشاب على أساس الاحترام المتبادل . وكان كل منهما بحاجة الى السلام ليقضي على المقاومات التي تناوئه في مملكته . وفي العـــام ٨٧٨ اقتسم اولاد لويس الجرماني لوترانجيا ، غير أن ملك بافاريا **كارلومان** تخلى عن حصته منها لأخوية . ومرض كارلومان وعاد الى مملكته الاولى بافاريا . وبقي البابا دون حام، وفي وقت كانت فيـه ايطاليا تتخبط في الفوضى : المسلمون يهـددون بهجماتهم والتنازع قائم بـين امراء الجنوب . لذا عزم البابا جـان الثامن

عام ٨٧٨ ان يذهب بنفسه الى فرنسيا ليطلب منها العون فلم يلق فيها ما كان يبغي .

وفي السنة التالية توفي لويس الالكن وقد أتاه من زوجته الاولى ولدان : **لويس الثالث وكارلومان** . واعترف بهما ملكين كبار الدولة وأعظمهم نفوذاً فيها . غير أن هنالك فئة اخرى ، وعلى رأسها الأب **غوزلن** قدمت التاج الى ملك فرنسيا الشرقية ، لويس الشاب ، وقد زاد هذا في قوته بضم بافاريا مملكة أخيه كارلومان المصاب بمرض عضال . ودخل لويس الشاب مملكة أبناء عمه ولكنه ماعتم أن أجلي عنها ، ولكنه عاود الكرة في عدوانه عام ٨٨٠ ولم يلق في فرنسيا الغربية الانصار الذين يعول عليهم . ثم جرى اتفاق بين أبناء العم اعترف بموجبه لويس الشاب بملكية ابني عمه على ان يأخذ جميع لوتارانجيا . وعارضه في هذه المملكة هوغ بن لوثير الثاني ووالدراد ، وكان يحاول استرجاع مملكة أبيه . واقتسم لويس الثالث وكارلومان أراضيها على النحو التالي :

اخذ **لويس الثالث** : فرنسيا ونوستريا .

و **كارلومان** : بورغونديا واكيتانيا .

وفي هذه الأثناء حدث حادث خطير ، وهو أن قسماً من أراضي الفرنجة استقل تحت حكم ملك أجنبي عن الأسرة الكارولنجية . ففي مجمع مانتاي في ١٥ تشرين الأول ٨٧٩ انتخب كبار الاكليروس والعلمانيين بوزن ملكاً على بروفانس وبورغونديا .

أمام الخطر الماثل من ثورة هوغ وبوزون حدث تقارب بين الملوك الكارولنجيين . وتقابلوا في غوندروفيل في حزيران ٨٨٠ وقرروا القيام بعمل مشترك ضد اعدائهم . وسحقت جنودهم جيش هوغ وأخذت قسماً

من اراضي بوزون ولم يبق له سوى جزء من بروفانس .

وكذا ايطاليا لم تنعم بالهدوء فغارات المسلمين عليها متوالية ، ووضع الحبر الاعظم في خطر . وقد اخذ هذا يحض شارل السمين ملك سؤاب ، وقد ظهر له هذا اللقب في القرن الثاني عشر ، ان يأتي اليه ليتوجه ملكاً على ايطاليا فأتى اليها واعترف به ملكاً ولكن دون أن يقوم بشيء لصالح البابا ، وتركه وعاد الى سؤاب . وفي شباط عام ٨٨١ اتى إلى روما وتوج فيها امبراطوراً . وهكذا انتقل التاج الامبراطوري إلى ورثة لويس الجرماني بعد أن تخلى عنه لويس الألكن وريث شارل الأصلع . وسيصنع بيت لويس الجرماني ، من الامبراطورية الكارولنجية المتطورة ، الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، وبتعبير آخر « **الويخ الاول** » (٩٣٦) .

ومات لويس الشاب في ٢٠ كانون الثاني ٨٨٢ ولويس الثالث بن شارل الأصلع في ٥ آب ٨٨٢ على اثر حادث ، وتبعه اخوه كارلومان في ١٢ كانون الأول في العام ٨٨٤ ، واعترف كبار المملكة بشارل السمين خلفاً له .

وشاءت الظروف أن تجمع الممالك الكارولنجية في شخص شارل السمين عن طريق الارث والوفاة ، وإذا استثنينا قسماً من بروفانس رأينا الوحدة الكارولنجية تعود بعد التجزئة ، ولكنها وحدة نظرية .

ومات بوزن في ١١ كانون الثاني عام ٨٨٧ ولم يستطع ابنه لويس الأعمى مقاومة الكبار في بروفانس ،فأتى الى شارل السمين وقدم طاعته ،ودخلت بروفانس جميعها في الوحدة الكارولنجية . ولكن هذه الوحدة كانت على وشك الانهيار . ولم يكن شارل السمين بذلك الرجل الذي يستطيع الحفاظ على هذه الوحدة وتقويتها . فقد ظهر عجزه وضعفه من الناحية

الجسمية والفكرية والخلقية لذي عينين . وتوالت عليه الضربات من كل جانب ، وتبع الاخفاق الاخفاق دون انقطاع ، فسحق تحت ضغط المسؤولية الملقاة على عاتقه . واتفق آنذاك ان حاصر النورمانديون باريس ، فأتى شارل السمين لنجدتها ، ولكن لم يجرأ على القيام بأي حرب ، واشترى رحيل النورمانديين بالمال ، وسمح لهم بنهب بورغونديا .

واحدث عجز شارل استياء عاماً في الاوساط الالمانية ، وفي الخريف ثار آرنول كارانثيا بن اخيه كارلومان ، وفي تشرين الثاني أعلن نفسه ملكاً في فرنكفورت .

وفي دياط تريبور ، المنعقد في كانون الأول ٨٨٧ ، تخلى عنه الجميع وغادر منصبه الملكي ، ومات في ١٣ كانون الثاني ٨٨٨ في نيدنغن . وانفصمت عرا الوحدة الكارولنجية إلى الابد ، وانتهى تاريخ المملكة الفرنجية ، وستنشأ على انقاض الامبراطورية ثلاث أمم : فرنسا ، المانيا ايطاليا .

الفصل الحادي عشر

نهاية الامبراطورية الكارولنجية

٨٨٧ — ٨٩٩

تجزئة الامبراطورية الى ممالك

لقد خلع الدياط المنعقد في تريبور (تشرين الثاني ٨٨٧) الامبراطور شارل السمين . ولم يعمر هذا بعد خلعه طويلا وتوفي في نيدنغن في ١٣ كانون الثاني ٨٨٨ . وقد كتب المؤرخ ريجينون : « لقد انقسمت الممالك التي خضعت له ، وقطعت الصلة التي تربطها ، ولم تنتظر أميرها الطبيعي ، بل ان كل واحدة منها حاولت ان تجد لنفسها ملكاً من أبنائها » .

ان تقسيم الامبراطورية إلى ممالك وانتخاب كبار كل منها ملكاً عليهم منهم وفيهم ، تلكم هما الصفتان الأساسيتان للأزمة السياسية التي افتتحت بزوال الامبراطور العاجز الرخو الذي استطاع في حين من الزمن ان يجمع تحت سلطته الضعيفة مختلف البلاد التي كانت خاضعة في السابق لسلطة شارلومان .

آرنولف ملك جرمانيا . — وعندما توفي شارل السمين لم يكن للسلالة الكارولنجية الا ممثل شرعي يدعى « شارل » وهو ابن لويس الألكن ، وقد ولد بعد وفاة ابيه ، وكان عمره آنذاك سبع سنين ، ولم يكن باستطاعته في مثل هذه الظروف الحرجة أن يدعي بالامبراطورية أو ان يطالب بزاعم من هذه النوع . وعدا عن شارل هذا كان السليل

الوحيد لشارلومان ، الذي يستطيع أن يدعي بحقه بالامبراطورية ، آرنولف دوق كارانثيا وهو ابن طبيعي لكارلومان ملك بافاريا من امرأة نبيلة .

كان آرنولف طموحاً قوي الشكيمة نشيطاً ، وقد ظهرت عليه منذ حداثة سنه صفات رجل الحكم متحدة مع الاستعداد العسكوي . فحوالي العام ٨٧٠ ، أي عندما كان له من العمر خمس وعشرون سنة ، عهد اليه بتخوم بانونيا وكارانثيا ، ثم تولى ادارة بافاريا عندما كان ابوه مريضا . وعندما توفي هذا في العام (٨٧٩) عهد آرنولف بادارتها إلى عمه لويس الثالث . وكان شارل السمين يخشاه لذكائه وجاهه وقوة تأثيره ، فاضطر إلى الاعتزال واستطاع ان يجذب اليه المستائين ، ممن كانوا يشكون جمود الامبراطور ، ويتحبب اليهم . وعندما اطمأن لهذه الشعبية قام في العام ٨٨٧ وتزعم الثائرين ونادوا به ملكاً واكرهوا شارل بعد خلعه على الاعتراف به خليفة له في المانيا . غير أنه لم يستطع المطالبة بالامبراطورية مباشرة ، وذلك لأنه خشي ، ولا شك ، من أن ولادته غير الشرعية ربما تثير حوله كثيراً من العوائق لا قبل له بها ، ولذا اكتفى في الأشهر الأولى من العام ٨٨٨ بتوطيد سلطته بكل تواضع على المملكة التي عهد بها اليه .

ولكن لم يفكر أحد بمنازعته السلطة التي تناولها ، كما لاحظ ذلك كثير من معاصريه ، عن طريق الانتخاب والوارثة . يضاف إلى ذلك ان توليه العرش لم يكن له أي طابع ثوري ، وكل ما في الأمر ان كبار جرمانيا ارادوا انقاذ البلاد بتخلصهم من الامبراطور العاجز ، بعد أن دلت قرائن الاحوال على ضعفه في ادارتها والدفاع عنها ، ولم يدعوا مجالاً للتردد بل انهم ظلوا امناء على عهدهم للسلالة الكارولنجية .

اود ملك فرنسا . — اما الحالة في فرنسا فكانت مغايرة لما تقدم .

ان الظروف الحرجة ، التي أحاطت بها ، ازالت الولاء للسلالة الكارولنجية أمام الاوضاع الخطرة . فقد هز الغزو النورماندي بلاد الغرب وما زالت فرنسا تئن تحت حصار باريس (٨٨٥ — ٨٨٦) وما تلاه من تسليم مخجل . فالخوف من القتل والسلب والنهب كان طاغياً ، ولا مجال للانشغال بغيره . هذا ولما كانت السلالة الكارولنجية تتجسد بابن صغير لا حول له ولا قوة ، وليس فيها زعيم حربي ، فقد كان الرأي السائد بالاجماع ان يبحث عن رجل ، في غير هذه الاسرة ، يستطيع انقاذ البلاد وانتشالها من الخطر المحدق . ولقد ظن فولك ، مطران رنس ، أنه وجد هذا الرجل في دوق سبوليت غي الثاني . وكان جده لامبر ، قبل ان يغادر وطنه إلى ما وراء لالب ، دوقاً على نانت . غير ان الامراء أحبطوا مشاريع هذا الحبر الطموح الذي كان يؤمل ، بالنظر لقرباه من هذه الأسرة المتأصلة منذ نصف قرن ، ان يحكم باسم غي . وبادر هذا اثر نداء فولك ، وباركه جيللون اسقف لانغر ، إلا أن الامراء نادوا بأود ، كونت باريس ، ملكاً وتوجه غوتيه مطران سانس في ٢٩ شباط ٨٨٨ في كومبين .

ولا شك في ان هـــذا الانتخاب كان موفقاً . فقد ولد اود في حوالي العام ٨٦٠ . وكان ابن روبير القوي الذي اشتهر في عهد شارل الاصلع بكفاحه ضد النورمانديين . كما اشتهر اود نفسه منذ حداثة سنه بشجاعته وميله للحرب ومقاومته الشديدة التي دامت خلال سنة اثناء حصار باريس الشهير (٨٨٥ — ٨٨٦) وزادت في نفوذه وجاهه .

ولا عجب اذا عهد امراء نوستريا وفرنسا وبورغونديا ، عندما مات شارل السمين ، بالتاج إلى هذا الزعيم الذي جمع قوة الشكيمة والغلاب إلى شدة الشجاعة والمهارة .

وقد استقبل تولي اود العرش بارتياح وغبطة ، ولكن هذا لم يحل دون بعض المعارضة . فمن ذلك ان غي سبوليت عاد ادراجه إلى ايطاليا بعد انتخاب منافسه ، ولبث فولك ، ولم يذهب مباشرة الى ما ذهب اليه الامراء . فقد اتفق مع كونت فلاندر ، بودون الثاني ، حفيد شارل الاصلع من أمه جديث ، ومع اساقفة **بوفيه ونويون وكامبريه** وذهب إلى ملك جرمانيا في فورمز ودعاه بالحاح الى المطالبة بالمملكة الفرنجية الغربية التي أضحت ، على اثر اغتصاب السلطة ، تابعة الى أمير لايمت الى الارومة الملكية بصلة . اما آرنولف فلم يكن ليفكر حتى ذلك الحين ان يضع نفسه منافساً لاود ، ولكن هل استقبل بترحاب طلب الاسقف وفكر بمهاجمة مملكته ؟ ان النصوص لا تسمح بأن نؤكد ذلك ايجابياً . وعلى كل حال فقد دشن اود حكمه بظفر على النورمانديين في مونفوكون (٢٤ حزيران ٨٨٨) واحبط ترتيبات فولك . كما أن بودون فلاندر لم يتماد في معارضته . أما آرنولف فقد اكتفى بدعوة اود إلى اجتماع فلبى طلبه ، وتقابل الاميران في فورمز في أول آب . وفي هذه المقابلة اعترف آرنولف باود . ورضي هذا بأن يكون تجاه ملك جرمانيا في وضع لا يشبه التبعية في شيء ، وكل ما في الامر ان الارتباط بينهما ليس له من غاية سوى حفظ الوحدة المعنوية بين الدولتين الاساسيتين الناشئتين عن تجزئة الامبراطورية الكارولنجية .

وهذا التفاهم بين المليكين سوى الوضع في فرنسيا الغربية ، ولم يكن بامكان مطران رنس إلا الانصياع للأمر الواقع وتقديم خضوعه لاود الذي انتخبه كبار المملكة ليكون خليفة شارل الثالث الكارولنجي .

مملكة بروفانس . — اما الممالك الاخرى التي شملتها في زمن ما امبراطورية شارل السمين فقد اخذت تسترجع استقلالها .

ففي الجنوب كانت بروفانس ، منذ وفاة لوثير الاول (٨٥٥) ، تتمتع خلال مرات عدة باستقلالها الذاتي . وقد حكمها شارل أصغر اولاد الامبراطور من (٨٥٥ — ٨٦٣) . وبعد عدة تقلبات قام اساقفة فينّا (في فرنسا) و بيزانسون وليون وتارانتيز وايكس وآرل ، ونادوا بالكونت بوزون ملكاً ، واحتفظ هذا بالتاج حتى وفاته في ١١ كانون الثاني ٨٨٧ أي قبل عام من وفاة شارل السمين .

وترك بوزون ولداً حدث السن يدعى لويس ، ولم يكن اهلاً للحكم غير أن ارملته ارمنغارد كانت امرأة قوية نشيطة ، فقد وطدت العزم على ان تؤمن انتقال الملكية إلى اعقابها ، وحكمت بروفانس بنفسها في تلك الفوضى العامة . وبعد ان مات شارل السمين استطاعت ، بمساعدة البابا ايتيين الخامس وآرنولف ملك جرمانيا ، ان تعقد في فالانس مجلساً من الاساقفة والكبار ، واقنعته بأن يعهد بالتاج إلى لويس ويباركه ملكاً . ولكن جميع البلاد التي كانت تابعة في القديم لابيه بوزون لم تعترف به . وقبلت بسلطته بروفانس الاصلية والفينّوا (منطقة فينا) ومنطقة ليون . أما بورغونديا وبيزانسون فقد خرجتا من يده . وقامت ارمنغارد بالوصاية حتى موتها في (٨٩٦ أو ٨٩٧) . وكانت تعتمد على آرنولف في توسيع مملكة بروفانس ، الا ان آمالها خابت ، لان آرنولف لم يستطع أن يحول دون تشكل مملكة بورغونديا لصالح رودولف الاول . كما أنه اوجد نفسه مملكة اللورين لصالح ابنه زونتيبولد .

مملكة بورغونديا . — لقد ظهرت مملكة بورغونديا في التاريخ بعد وفاة شارل السمين بقليل . ففي بدايه العام ٨٨٨ اجتمع كبار الدوقية في كنيسة آغون ، ونادوا بالمركيز رودولف بن كونراد كونت اوسر ، ملكاً عليهم . وفي الواقع أن هذا الأمير لم يكن منه سوى أن أبدل

لقبه بلقب آخر، وذلك لأنه كان يمارس سلطته منـــذ السابق على البلاد الواقعة بين الجورا وألب بنين والتي تتألف منها هـذه الدولة الجديدة . غير أنه كان يطمح ويحلم بأن يجمع تحت صولجانه جميع لوتارانجيا . فما كاد يتسلم التـــاج إلا واحتل الالزاس وقسماً من اللورين. ثم توج ملك لوترانجيا في مجلس عقد في تول وباركه آرنود أسقف هذه المدينة , غير أن عزف الأمراء عنه اضطره في حزيران ٨٨٨ الى التخلي عن اللورين وحتى عن الالزاس . وبعد أن تفاوض مع آرنولف لبث أخيراً ملكاً على بورغونديا .

مملكة اللورين — هذا وان إخفاق رودولف بورغونديا في اللورين يمكن إيضاحـــه بسهولة : وذلك لان معظم الامراء فيها من علمانيين وكنسيين كانوا موالين لآرنولف ملك جرمانيا . ففي حزيران ٨٨٨ كان الاساقفـة ، باستثناء آرنود اسقف تول ، في مجمـع ماينس الذي عقـده آرنولف . وهذا يدل على أنهم كانوا يعترفون بسلطته منذ ذاك الحين وبقيت مقدرات اللورين متحدة بمقدرات المانيا حتى عام ٨٩٥ . وبالرغم من أن الملكة اودا أتت بغـلام اسمه لويس في العام ٨٩٣ ، فان آرنولف ، وكان منصرفاً الى تنظيم المانيا وفتح ايطاليا ، أراد أن يحول دولته في الغرب الى مملكة متميزة لصالح ابنه الطبيعي زونتيبولد الذي كان يشعر نحوه بحنان خاص . وظل يصطدم بمقاومات شديدة خـلال سنتين ، غـير انه تماسك . وفي أيار ٨٩٥ قـرر الامراء اللورينيون المجتمعون في فورمز الاعتراف بزونتيبولد ملكاً عليهم .

وزونتيبولد ، على ما هو عليه من صفات ممتازة ، كان حاد المزاج ، استبدادي الطبـع ، ولم يستطع أن يحبب شعبـه بنفسه ، حتى ان الارستقراطية لم تكن لتتحمله إلا مكرهة ، ووقفت منه موقفاً متحفظاً

ملؤه الشك وسوء الظن، وما لبثت هذه العاطفة أن تحولت إلى حقـــد وبغض وعداء ، وذلك عندما قام الكونتات **ايتيين** و **جيرارد** و **ماتفريد** **واودو آكو** واحتجنـوا شيئاً من أموال كنائس تول وتريف، وعاقبهم الملك على عملهم وجردهم من اقطاعاتهم . وتدخل آرنولف في الامر وتوسط في الصلح بين زونتيبولد والاقطاعيـين ، وأعاد إليهم ما أخـــذ منهم في (٨٩٧) . وفي العـــام التالي (٨٩٨) أثار زونتيبولد حوله عاصفة جديدة من الاستياء عندما صادر أموال الكونت رينيه . فذهب هذا إلى فرنسا واستنجد بالملك شارل الساذج بن لويس الالكن الذي خلف اود المتوفى في ١ كانون الثاني ٨٩٨ على عرش فرنسا . وأجاب شارل دعوة رينيه واجتاح اللورين . غير أن السكان كانوا يفضلون حكم زونتيبولد على أن يحكمهم هذا الكارولنجي الغربي ، ولم يستقبلوه كما كان ينتظر منهم . وما كاد الجيشان يلتقيان في بروم إلا وفضل المفاوضة وعقد الصلح ثم عـــاد من حيث أتى . وبقيت اللورين الى زونتيبولد ولكن سيرته الاستبدادية حالت ، رغم جهود أبيه ، دون اتفاق دائم مع رعيته . ولما مات آرنولف (في ٨ كانون الاول ٨٩٩) نادى اللورينيون بابنه **لويس الطفل** ملكاً عليهم ، وخلف أباه على عرش جرمانيـا . فثأر زونتيبولد لنفسه بكل ما أُوتي من قساوة ، غير أنه أودى (في ١٣ آب ٩٠٠) في حرب مع جيش أخيه الصغير على ضفاف الموز . ولم يشأ لويس الطفل أن يضم اللورين الى جرمانيا بـل تركها تتمتع باستقلالها الذاتي وعهد بالحكم فيها الى كونت فرانكونيا جيبهارد وصار لقبه من بعد ذلك دوقاً .

مملكة ايطاليا . — لقد رأينـا ان **المانيا** و **بروفانس** و **بورغونديا** و**اللورين** قد تألفت بعد وفاة شارل السمين ، بشكل دول مستقلة ، ورأينا

أيضاً أن ملوكها انتخبوا انتخاباً دون منازعة شديدة . أما ايطاليا ، فعلى العكس ، كانت مليئة بالاضطراب والقلاقل ، وذلك لان المنافسات بين الامراء في سبيل العرش غذت الحرب الاهلية خلال سنوات طويلة .

ففي الايام الاولى من عام ٨٨٨ انعقد مجلس في بافيا وانتخب ملكاً بيرانجيه مركيز فريول ، وهو حفيد لويس التقي من أمه جيزيل . ولم يكن لدى بيرانجيه أنصار إلا في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، لذا قام دوق سبوليت غي الثاني ينافسه على الملك . وكان هـذا الاخير سليل اسرة قديمة فرنجية ، من ضفاف الموزيل ، أتت في النصف الثاني من القرن التاسع واستوطنت ايطاليا بفضل عقود الزواج التي عقدتها وأحسنت اختيارها ، وبفضل سياستها القوية الحازمة . وهكذا كسب غي الاول أبو غي الثاني دوقية سبوليت . وبعـد وفاته في (٨٧٩) خلفه ابنه البكر لامبر عليها وأخـذ غي كونتية كاميرينو . ولما مات لامبر في العام (٨٨٢) انتقل إرثه الى أخيه . وكان هـذا طموحاً يعرف كيف يعقد الصفقات ويدبر الدسائس ، ولم يتردد في سبيل توسيع رقعة دولته أن يتحالف مـع البيزنطيين والعرب ، الامر الذي أقلق البابا والامبراطور . وقد أعلن جرمه بالخيانة العظمى ، حتى أن شارل السمين كلف بيرانجيه بالقبض عليه واحتلال أراضيه (٨٨٣) . غير أن بيرانجيه لم يستطع تأدية هذه الرسالة . فقـد انتشر الطاعون في جيشه ومنعه من القبض على غي . ثم عفا عنه الامبراطور في العام (٨٨٥) .

وعندما مات شارل السمين بدا أن دوق سبوليت لم يكترث بايطاليا لانه فكر بتاج فرنسا الذي عرضه عليه فولك مطران رنس . وعندما طرده اود ارتد الى ايطاليا وظفر على مركيز فريول دون كبير عناء لا سيما وانه كان يحقد عليه تدخله في العام (٨٨٣) . ودارت رحا

الحرب بينها في بريشيا ، وكانت ضروساً وغير حاسمة ، وغدا كل من الخصمين في حالة لا يستطيع معها المثابرة على القتال ، فعقدا هدنة حتى ٦ كانون الثاني ٨٨٩ ، ريثما يستعيدان نشاطها ويستأنفـــان القتال مرة أخرى . وقد حاول بيرانجيه أن يحصل على مساعدة ملك جرمانيـــا، وذلك بأن يعترف له بنوع من تفوق على ايطاليا ، كما فعل ملوك فرنسا وبورغونديا . غير أن آرنولف كان منهمكاً بشؤون مملكته الخاصة فلم ينجده . ولما عادت الحرب في العام ٨٨٩ أخفق بيرانجيه وغلب عند نهر لاتريبيا أحد روافد البو . وقد فسر هذا الخذلان الذي مني به بحساب عسير ابتلاه الله به . وتحزب الاساقفة لغي سبوليت وانتخبوه في بافيا (شباط ٨٨٩) ملكاً وفرضوا عليـــه شروطهم ، وتتلخص في أن يتعهد غي باحترام الكنائس ويبرهن على خضوعه للكرسي الاقدس خضوع الابن لابيه .

ايطاليا البيزنطية . — لم تمتد سيادة الملك الجديد على كل ايطاليا . ففي الشمال الشرقي بقي بيرانجيـة . وفي الجنوب استقر البيزنطيون في باري منذ (٨٧٦) واخذوا يتطلعون الى الاستيلاء على الاراضي التي كانوا يحتلونها من قبل . وزاد نفوذهم في العـام ٨٨٨ — ٨٨٩ عندما ردوا هجوم المسلمين وظفروا عليهم، حتى ان امير الماء (الاميرال) البيزنطي ميخائيل استطاع ان يستحوذ على قائد الجيش العربي مكبر بن ابراهيم ويرد جنوده إلى صقلية . ولكن معارضة الامراء اللومبارديين وقلة تشبث حكومة الامبراطور في القسطنطينية لم تساعد البيزنطيين في ايطاليا على متابعة هذه الفوائد التي جنوها . ففي تموز ٨٩١ وقف سيمبا تيكيوس في بينيفن، ولكنه لم يستطع الحفاظ على الوضع وعادت المدينة إلى آل سبوليت . واكتفت بيزنطه في ايطاليا الجنوبية بسيبونتو وباري على أن تكونا في المستقبل

نقطة انطلاق لمؤسسات جديدة في شبه الجزيرة حيث يخيل أن نفوذها قد زال إلى الابد .

بقاء فكرة الامبراطورية في الغرب . — وعلى هذا فقد انحلت الامبراطورية الكارولنجية في العام ٨٨٨ . وعن تجزئتها نجمت ست ممالك مستقلة . غير ان فكرة الامبراطورية لم تزل تماماً من الوجود ، فقد اعترف كل من اود فرنسا ورودولف بورغونديا وبيرانجيه فريول للملك جرمانيا آرنولف بنوع من تفوق ، لأنـــه ، كان من ارومة شارلومان ولو كان ابن سفاح . ولكن هل يمكن لهذا التفوق ان يستحيل إلى شيء ايجابي ؟ وهل لمن بقي من الأسرة الكارولنجية أن يكون كفوًا لبعث الامبراطورية لصالحه والتي تعتبر كشيء خاص بأسرته ، هذه هي القضية التي وضعت على بساط البحث غداة وفاة شارل السمين وتفكك دوله .

محاولة ارجاع الامبراطورية

خطط البابا ايتيين الخامس . — ان الممالك ، التي نشأت عن تجزئة امبراطورية شارل السمين ، ترجع في أصلها إلى الانتخاب . اما انتخاب الامبراطور فلا يمكن ان يتم حسب هذا الاصول ، فضلًا عن ان تدخل الكرسي الأقدس أصبح مع الزمن ضرورة ماسة . وقد رأينا أن جان الثامن انتقى تباعاً شارل الأصلع ولويس الألكن وشارل السمين . فهل يقوم خلفه ايتيين الخامس ويمارس هذا الحق الذي لم يفكر أحد بمنازعته ؟

لقد كان وضع البابا حرجاً . فهو لا يستطيع أن يعهد بالتاج الامبراطوري إلى **شارل الساذج** لأن فرنجة الغرب لم يشاءوا ان يكون ولو ملكاً . كما أن ولادة آرنولف غير الشرعية كانت تخلق أمامه عقبة كأداء ومن الصعب التغلب عليها . غير ان الخدمات التي أداها إلى

الكنيسة وإلى المسيحية جعلت البابا ينسى بسرعة هذا العار الذي لصق به من أصله .

ومنذ ان اعتلى آرنولف عرش جرمانيا أخذ يتظاهر بالاحترام والاكرام حيال الاساقفة الألمان . واستطاع هؤلاء ، بفضل حمايته ، ان يعقدوا في صيف عام (٨٨٨) في ماينس مجمعاً دينياً عاماً ، وهذا مالم يره الناس منذ أمد طويل . ومن جهة ثانية ، اعلن الملك الجديد ارادته ووطد عزمه على أن يضرب على أيدي الشعوب الوثنية التي كانت تتدافع على حدود البلاد المسيحية ويدفع عن هذه غائلة هجومهم وغزوهم. ومنذ مجلس فورشهيم المنعقد في أيار ٨٨٩ قرر القيام بحملة ضد قبيلة الاوبوتريت السلافية . ووقعت الواقعة في شهر ايلول. وهي وان لم تكن موفقة الا انها دلت ، على الأقل ، على ان الملك كان يشعر ويدرك قيمة رسالته وحمايته .

وعندما علم البابا ايتيين الخامس بهذه الوقائع في بداية العام ٨٩٠ ، دعا آرنولف بوساطة امير المورافيين شفاتوبلوك ان يأتي إلى روما ويزور القديس بطرس و « ينجي ايطاليا من المسيحيين الفاسدين والوثنيين المهددين » ومثل هذه اللهجة لا تترك ادنى شك فيما يكنه البابا من نيات واسرار ؛ ومن جهة أخرى ، كان ايتيين الخامس يعلم ان ملوك فرنسا وبورغونديا كانوا يظهرون استعداداتهم لصالح آرنولف الا غي سبوليت ، ملك ايطاليا، الذي لزم الحيطة لأنه كان يخفي في نفسه كثيراً من المشاريع للمطالبة بالتاج الامبراطوري ، وإن لم يكن من الاسرة الكارولنجية .

وشاء سوء الحظ الا يجيب آرنولف بالحال الدعوة التي وجهت اليه ، وذلك ان اسباباً خطيرة داخلية وخارجية اضطرته إلى البقاء في المانيا حتى عام ٨٩٤ . وفي الوقت الذي كان فيه البابا منصرفاً إلى هذه السياسة ،

كان القلق يساور آرنولف بشأن سؤاب . وذلك ان ابناً طبيعياً لشارل لسمين واسمه برنارد كان يحاول فيها العصيان والثورة .

ولكن برنارد هذا قضى عليه الكونت رودولف ريثيا. وبفضل التدابير التي اتخذت بالضرب على ايدي العصاة عاد النظام إلى ما كان عليه ، غير أن اخطاراً أخرى اخذت ترتسم في الحدود .

في الشرق كانت الامبراطورية المورافية الكبرى ، التي تمتد من نهر الاودر الى نهر السّال وإلى الساف والتيزا ، تؤلف خطراً على جرمانيا . وجرت مقابلة مع الدوق شفاتوبلوك واحيط فيها علماً بمقترحات ايتيين الخامس (آذار ٨٩٠) إلا أنها لم تنجح في قشع الغيوم التي تراكمت في هذه الجهة . وفي الغرب لم يكن النورمانديون بأقل خطراً وخشية : ففي ٨٩٠ — ٨٩١ جابوا منطقة الموز واجتازوا النهر إلى ليبج وانطلقوا يخربون ايكس — لا — شابل . ولذا كان من المستحيل في مثل هذه الظروف الحرجة ان يغادر آرنولف المانيا ، ورأى ان ينقذ مملكته الخاصة قبل ان يستسلم للحلم الامبراطوري .

لقد وطد آرنولف العزم على التحرر . ففي ١ تشرين الثاني ٨٩١ ظفر على النورمانديين بالقرب من لوفن ، غير أنه لم يستطع ردهم في العام التالي عندما أتوا واجتاحوا البلاد الرينانية . وفي ذلك التاريخ كان منهمكاً في الشرق . ومنذ شباط ٨٩٢ نجده في بافاريا حيث جرت مقابلة بينه وبين شفاتوبلوك ، غير ان هذا تهرب وأصبحت الحرب محتمة الوقوع . دخل آرنولف الامبراطورية المورافية وترك جيشه فيها يرتكب كل فظاعة ولم يحصل على نتيجة لأنه لم يستطع أخذ أي مدينة . ثم توجه إلى قيصر البلغار فلاديمير وتبادل وإياه الهدايا دون الوصول الى اتفاق إيجابي . وكذا

كانت حملة ٨٩٣ عقيمة كحملة السنة الفائتة ، إلا أن هـذه الغارات في بلاد الاعداء قد أضعفت قوة كفاح الخصم وأخرت امكانية الغزو .

امبراطورية غي سبوليب (٢١ شباط ٨٩١) . — لقد اضطر آرنولف تحت ضغط الظروف التي ألمت به الى البقاء في المانيا . وهذا ماجعل التاج الامبراطوري يفر من يديه ، وكان غي سبوليت ملك ايطاليا يطمع به أيضاً .

ولم يكن لدى البابا ايتيين الخامس مايجعله محبباً إلى غي‌سبوليت لأن هذا الأمير ، كأسلافه ، لم يعمل ما من شأنه أن يبرهن على إجلاله للكرسي الأقدس ، فضلاً عن ان سلطة البابا الزمنية في ايطاليا الوسطى كانت تناوىء طموحه وتقف في سبيله باستمرار ، غير انه حاول ، على الأقل مذ تولى العرش ان يصلح هذه الشهرة الشائنة التي لصقت بأسرته . وقد أقر مجلس بافيا الذي انتخبه ، ان الكنيسة الرومانية ، وهي رأس الكنائس جميعاً ، يجب ان تحافظ على حقوقها ومناصبها وامتيازاتها ، كما دل على ان غي قـد أقسم اليمين على ان يحب هـذه الكنيسة الرومانية ولذا انتخب « **ملكاً وحامياً** » . أفلا يحق للبابا بعـد هذه الضمانات الاكيدة وما لازمها من تصريحات ان يمنح غي عفوه أو يكافئه بهذه المكافأة التي طالما تاقت نفسه اليها وتمناها وهي ان يكـلل رأسه بتاج الامبراطورية ! ؟ .

وظل آرنولف مصماً أذنيه لدعوة الحبر الاعظم ، ولم يكن باستطاعة ايتيين الخامس ان يطيل أجل وضع لايخلو من محاذير . وبعد مفاوضات لم تعرف تفاصيلها كلـل جبين غي سبوليت بالتاج الامبراطوري في ٢١ شباط ٨٩١ في كنيسة القديس بطرس . وبذا ذهب هذا التقليد المديد الذي ترك للأسرة الكارولنجية اكبر منصب زمني في الغرب المسيحي .

اما غي سبوليت فقد حمل هذا الفعل محملاً رصيناً وأراد ان يلعب الدور الذي يخوله اياه لقبه الجديد . فمن ذلك انه اخذ يذيع أعماله التشريعية على نمط شارلومان ، وأراد ان يجعل الامبراطورية وراثية في أسرته فدعا البابا فورموز ، الذي خلف المرحوم ايتيين الخامس ، ان يتوج ابنه لامبرت فتم له ما أراد في ٣٠ نيسان ٨٩٢ . ولا مرية في ان امبراطورية سبوليت لم تكن سوى كاريكاتور باهت للامبراطوريه الكارولنجية حتى انها لم تمتد على كل ايطاليا حيث مازال بيرانجيه محتفظاً بزاعمه ، كما لم تعترف بها أي مملكة من الممالك التي نشأت عن لوتيرانجيا القديمة . فمن ذلك ان أود ملك فرنسا يجهلها ، وآرنولف ملك جرمانيا يتربص الفرص السانحة ليعيد التقاليد الامبراطورية الكارولنجية .

حملة آرنولف الاولى في ايطاليا (٨٩٤) . — ويبدو ان الوقت قد حان للقيام بمثل هذا العمل في آخر العام ٨٩٣ . فقد كانت المانيا تنعم بسلم نسبي . وكانت ايطاليا تبعث اليه النداءات الحارة . وقد ارسل البابا فورموز في بحر عام ٨٩٣ الى الأمير الكارولنجي بعثة وكلفها بتجديد دعوة خلفه ايتيين الخامس . كما ان بيرانجيه فريول منافس الامبراطور غي كان على استعداد لتشجيع أي مشروع يمكن به التخلص من نفوذ آل سبوليت . ولم يكن باستطاعة آرنولف ان يعفي نفسه من التدخل . وأرسل تحت قيادة ابنه الطبيعي زونتيبولد جيشاً لدعم بيرانجيه . وما اقترب هذا الجيش الا وتملك الذعر غي وبادر الى الحصار في بافيا . غير ان خصومه لم يحاولوا استثمار الفوائد التي نجمت عن هذا الفرار غير المنتظر . فقد ظل زونتيبولد خلال ثلاثة أسابيع دون حراك ، ومن ثم قفل راجعاً يحارب القهقرى ، وقد لايبعد ان يكون الامبراطور السبوليتي قد اشتراه بالمال فلم يعمل شيئاً . وعند ذلك قرر آرنولف

ان يأتي بنفسه الى شبه الجزيرة ، وأخذ طريقه في بداية كانون الثاني ٨٩٤ رغم قساوة الشتاء والتحق ببيرانجيه في فيرونه وزحف الى برغام التي كان يحميها الكونت أمبرواز واستولى عليها بعد حصار قاتل وحرب شوارع شديدة تتخللها المذابح الهائلة ؛ والتجأ امبراوز الى برج وحاول ان يطيل أمد المقاومة فالقي القبض عليه واعدم شنقاً وأخذ الاسقف أدالبرت أسيراً وسلم الى هاتون مطران ماينس .

عودة آرنولف.—أمام هذا المصاب القاسي الذي حل بأمبرواز خضعت معظم المدن في ايطاليا الشمالية واستسلمت ميلانو وبافيا الى آرنولف وفر غي سراعاً الى سبوليت . وكذا الامراء التوسكانيون فقد قدموا خضوعهم لملك جرمانيا وقد وصل الى بليزانس في آذار ٨٩٤ وفكر بالزحف على روما ، وفي الوقت الذي أصبح النصر منه قاب قوسين أو أدنى ، نجده يتوقف عن الأعمال الحربية ويرجع الى المانيا .

أما أسباب هذه العودة المفاجئة فمازالت سرية . وحوليات فولدا تعزوها الى المرض الذي ألم بالجيش الألماني . ومن المحتمل جداً ان يكون لانشقاق المار كيز آدلبرت توسكانا والموقف العدائي الذي وقفه ملك بورغونديا ، رودولف ، دخل في هذا القرار الذي اتخذه آرنولف . وذلك لأن رودولف لم يكن ليغفر لملك جرمانيا معاكسته له عندما طمع باللورين ، ولذا فان آرنولف ، عوضاً عن أن يعود مباشرة الى المانيا عن طريق برينير ، ذهب وحاصر حصن ايفريه ، شمال غربي بافيا ، في يوم الفصح (٣١ آذار ٨٩٤) . وكان يدافع عن هذه المدينة المار كيز آنشيه قريب غي سبوليت . وشوهد أن جيشاً بورغونديا كان يساهم بالعمليات الحربية ؛ وفي هذا ما يدل على أن رودولف كان متحزباً ضد آرنولف . وقد حاول

هذا عبثاً خلال ثلاثة أسابيع أن يقتحم هذه العقبة ، وأخيراً أخذ طريقه الى المانيا دون ان يستولي على ايفريه . وحقد على رودولف ، غير ان هذا لم يمنعه من الحكم مطمئناً حتى وفاته (٩١٢) .

حملة آرنولف الثانية وتتويجه (٨٩٥ — ٨٩٦) — في آخر العام ٨٩٤ تبدل وضع شبه الجزيرة الايطالية لصالح آرنولف . فقد مات غي سبوليت وخلفه ابنه لامبرت دون صعوبة ، غير انه ما زال فتياً ولم يكن أهلاً للكفاح . ومن جهة أخرى عاود البابا فورموز رجاءه لآرنولف ، فلم يكن من هذا إلا ان بادر الى ايطاليا ليغسل العار الذي لصق به في العام الفائت . غادر مملكته في تشرين الأول ووصل بافيا في غرة كانون الأول ٨٩٥ ، ثم زحف على روما ، غير ان الطريق كانت شاقة : المطر دائم الهطال والتموين عسير ، لأن جيش سبوليت عندما انسحب ترك البلاد وراءه خراباً يباباً وصحراء قاحلة . كما ان الحلفاء وخاصة آدالبرت توسكانا الذي ارتد عن انشقاقه ، لم يبدو كبير حماس . وبالجملة فقد وصل الجيش الألماني أمام روما منهوك القوى خائر العزم ، وعوضاً عن ان يدخلها منتصراً ، كما كان يؤمل ، وجد أبوابها مغلقة في وجهه . وكانت روح المقاومة في هذه المرة آجيلترود ، أرملة الامبراطور غي القوية والمحبة للسلطة ، فقد وطدت العزم على ان تبقى امبراطورة وتدافع عن المدينة حتى النهاية . غير انها لم تستطع منع آرنولف من النفوذ اليها من ثغرة بالقرب من باب القديس - بانكراس . واستقبل البابا ملك جرمانيا في كنيسة القديس بطرس وتوجه امبراطوراً حسب الترتيبات المعتادة في حفلات التتويج ، وما لبث الرومانيون إلا ان انضموا اليه دون عناء وبايعوه في (٢٢ شباط ٨٩٦) .

مرض آرنولف ووفاته . — لقد تم لآرنولف ما أراد ، وكان عليه

ان يحصل من هذه الحوادث على جميع النتائج التي تترتب عليها ، غير ان روما وإن وقعت في يد آرنولف إلا ان وضعه كان قلقاً ضعيفاً ، لأن آجيلتورود ولامبرت قررا المضي في مناوءتها له ، ولذا وجب على الامبراطور الجديد ان يعمل ما من شأنه ان يحبط مسعاهما . ففي اول آذار ٨٩٦ أقام في روما فارولد أحد مخلصيه ، وسار متجهاً صوب سبوليت حيث انزوت الامبراطورة السابقة . وفي الطريق أصابه شلل فنقل الى المانيا حيث عاش حتى عام ٨٩٩ وأجلى جيشه عن ايطاليا تاركاً فيها أسوأ الذكريات .

نهاية الامبراطورية الكارولنجية . — كان آرنولف آخر أباطرة السلالة الكارولنجية . وقد ترك في النفوس ذكرى الأمير الشجاع العامل. وربما كان باستطاعته ان يكون رجلاً عظيماً لولا ان الظروف عاكسته وحال المرض المفاجيء دون ما يريد . ويسجل موته في التاريخ زوال الامبراطورية الكارولنجية بصورة قطعية . وقد قام من بعده سادة آخرون تزملوا باللقب الامبراطوري ، ولكن لم يكن لهم أي سلطة فعلية على الدول المسيحية الغربية ، ولم يتوصلوا الى ممارسة سلطتهم على دولهم الخاصة بهم ، ولو كانت قليلة ضيقة الرقعة . وفي الحقيقة ان اخفاق محاولة آرنولف قضى الى اجل طويل بتجزئة الامبراطورية الى ممالك مستقلة ، ولم تستطع السلالة الكارولنجية البقاء .

اذا ألقينا نظرة عامة على الامبراطورية الكارولنجية نجد ان تاريخها الطويل مشوب باللبس منذ نشأتها ، فلم يكن لدى شارلومان ومستشاريه أي فكرة واضحة عن الغاية التي يجب الوصول اليها . وعندما أصبح امبراطوراً لم يسلك مسلك الزعيم الذي يسود الغرب المسيحي بأجمعه ، ولم يشعر بالضرورات التي تنجم عن هذا الوضع الجديد . ان كل ذلك يحملنا على الظن بأنه يرى ان الوضع موقت ومرهون بشخصه فقط .

واذا نظرنا الى شارلومان هـذه النظرة ، فلا نعني منها ان نبخسه حقه او نحط من عبقريته ، ان كل ما نريد هو ان نضع الرجل في ميزان عصره . لقد شاء بعضهم ان يجعل من شارلومان سياسياً عظيماً ونسب اليه كل ما هو هام وعظيم ، والى خلفائه مسؤولية العواقب الوخيمة التي حلت بالامبراطورية . ولكن مثل هذا التفكير من قبيل الوهم . والثابت ان شارلومان انقاد للحوادث أكثر مما يقال عنه ، وان شخصيته القوية وشعوره بما هو ممكن قد دفعا عنه غائلة التهور الذى مني به ورثته ولم يستطيعوا الاحتراس منه .

ولم يكن لدى شارلمان سياسة معينة ، بل ان اعماله تتعاقب ويتمم بعضها بعضاً حسب الظروف . وهذا ما يوضح لنا كيف انه أسس الامبراطورية عام ٨٠٠ ثم ارتأى تقسيمها منذ العـام ٨٠٦ بين أولاده الثلاثة ليحول دون وقوع حرب وراثية في الغرب المسيحي . ويجب ألا يستنتج من هذا انه لا يقدر قيمة الفوائد التي تعود على البلاد المسيحية من الوحدة التي أوجدها من جديد موت ولدين من ورثتـه الثلاثة بعد ان اصبحت دولة بأجمعها ، والتاج الامبراطوري في يد أمير واحد ، وبامكان هذا الأمير ان يتابع سياسة والده ويقوي أثره الذي تعب في ايجاده ويجعل من الامبراطورية حقيقة دائمة .

إن خطأ لويس التقي ومشاوريه انهم كانوا يريـدون تحقيق كل شيء دفعة واحدة ، ويولون وجوههم عن كل ما هو حقيقي ومحسوس ، ويضحون بالتقاليد والمنافع في سبيل فكرة واحدة وهي الحفاظ على وحدة الامبراطوريه وعدم تعرضها للخطر . لقد كانت خطتهم واضحة ومنطقية ولكنها لاتستطيع الحياة إلا إذا تحققت على مراحل . لقد أرادوا ان يفرضوها بسرعة ولذا أخفقوا . ودشن لويس التقي حكمه بالوحدة وانتهى بالفوضى وولد الاضطراب

في الأفكار التي غيرت وجهتها وحادت عن طريقها بسبب تعديل الحصص التي خصصت لكل من ورثة العرش بينما كانت تستنكر اجراء اي تقسيم .

ان الشك الذي لازم المملكة الكارولنجية في البدء استمر بها حتى عام ٨٤٠ وانتهى في معاهدة فردن الى انحـــلال نهائي . واذا منيت الامبراطورية بالخراب في الوجهة الأرضية ، الا أنها بقيت في ذلك التاريخ حقيقة حية في الناحية الروحية والمعنوية . حتى أن سلطة الأمراء الذين يحرزون اللقب الامبراطوري كانت تعتبر أقل من الفكرة التي يمثلهـــا ويشخصها هذا اللقب . وهذه الفكرة هي فكرة وحدة الغرب المسيحية ولذا نرى الكنيسة تعود الى قيادة هذه المجموعة المثالية التي تتألف منها الشعوب بعد أن أصبحت غريبة بالنسبة لبعضها ولكنها بقيت متضامنة في الدين والحضارة .

ولهذا السبب تغيرت ميزة الامبراطورية الكارولنجية : ففي البدء كانت السلطة السياسية مسيطرة على الدين . وفي الآخر أصبح الدين سيداً. وبينما كان البابا في عهد شارلومان منفذاً لأوامره إذا بـه الآن يمنح التاج الامبراطوري ويطلب الى من يمنحه هذا التاج حماية الكرسي الأقدس . وتبدل هذين الدورين ، دور البابا ودور الأمبراطور ، كان منه أن أضعف بالتدريج في أعين المعاصرين ، قيمة اللقب الأمبراطوري . وبعد أن كان الامبراطور سيد الغرب أصبح في آخر القرن التاسع مساعداً للحبر الأعظم في حماية الدين ، حتى إن الإخفاق الذي مني به أباطرة العهد الأخير من أمثال شارل الاصلع وشارل السمين أفقد وظيفة الامبراطور كثيراً من اعتبارها ، وبقيت الحال هكذا إلى أن جاء اوتون جرمانيا وبنى، على أنقاض الامبراطورية الجرمانية، امبراطورية أخرى لها شأنها وتاريخها الطويل .

الفصل الثاني عشر

الكنيسة في العصر الكارولنجي

كان نفوذ الكنيسة عظيما في العصر الكارولنجي ، ولقد ظهر في مختلف نواحي الحياة الخاصة والعامة : الأسرة ، المدرسة ، العدل ، الاحسان ، الحكم . واذا اقتصرنا على الحياة الكنسية في ذلك العصر لوجدنا أنها تتمثل في ثلاث ظاهرات :

١ ـ انتشار المسيحية في أوربة وتنظيم الكنيسة الفرنجية .
٢ ـ الجدل الديني والمرطقات .
٣ ـ علاقة البابوية بالملكية الكارولنجية .

انتشار المسيحية فى أوربة وتنظيم الكنيسة الفرنجية . ـ لقد كان التعاون وطيداً بين السلالة الكارولنجية والكنيسة في محاربة اعداء الدين من جهة ونشر المسيحية من جهة أخرى . وبدت هذه الظاهرة منذ أوائل الكارولنجيين . فبينما كان شارل مارتل يدفع هجوم الإسلام في بواتيه عام ٧٣٢، كان معاصره بونيفاس (٦٨٠ ـ ٧٥٥) ينشر الدين المسيحي في أراضي جديدة .

لقد صبأت **بريطانيا العظمى** وأوجد فيها البابا غريغوار الكبير مركزاً واسعاً للتبشير . وكان الانغلو ـ ساكسون همزة وصل بين روما وجرمانيا . ونشر الرهبان السلتيون من أمثال القديس كولومبان مؤسساتهم الرهبانية هنا وهناك . وكان دير ميليفونت في ايرلانده مهداً

للتبشير في اوربة الوسطى ، وكان وينفريد ، المعروف تحت اسمه الروماني بونيفاس ، وزملاؤه رسل التبشير في المناطق الجرمانية . فقد أسسوا فيها اسقفيات ليكون عملهم دائماً . وكانت مساعدة روما ضرورية لهم ، وتركت مجالاً رحباً لنمو سلطة الحبر الأعظم في ذلك العصر .

ففي **البلاد الآليانية** الممتـــدة من الفوج الى الألب الريثية ، قام العمل التبشيري ونظمت الاديرة ، وتألف التسلسل الأسقفي ، ولم تمض بضع سنوات إلا وأصبح قوياً ، وبامكانه امداد بونيفاس بالمساعدين والأعوان .

بيد أن تبشير **الفويز** كان عملاً شاقاً وبذل فيه بونيفاس كل جهده وغيرته حتى استشهد عام ٧٥٥ . وتابع التبشير عمله على يد ويلليبرورد فكان اسعد حظاً ، واستطاع بحماية الفرنجة أن يحقق انتصارات هامة ، وأيد البابا سيرج الاول رسالته التبشيرية ورسمه اسقفاً إقليمياً . واعطاه بيبن أرضاً في اوترخت اقام فيها أسقفيته .

وفي **ساكس** أخفقت محاولات التبشير وذهب ضحيتها الكثير من المبشرين . وفي العـام ٧٢٢ رسم البابا غريغوار الثاني بونيفاس أسقفاً لجرمانيا ، فاستعان برهبان وراهبـات الأديرة الانـكليزية وبنى اديرة في هسّ وتورنجه للنساء والرجال ، وكانت هـذه الأديرة مراكز زراعية ومدارس ، ومعاهـــد اكليركية ، وملاجىء للحياة الروحية ودوراً للآداب والفنون .

لقد كانت طريقة العمل التبشيري تقوم على الاتصال بالسكسونيين بلطف وايناس وهدوء واعتدال واجتناب كل مامن شأنه إثارتهم ، والقيام بالمقارنة بين ماهم عليه من اباطيل وحقائق المذهب المسيحي ؛ وبالاقناع

سبيلاً إلى قلوبهم ، والالحاح على جاه العالم المسيحي ومايملكه من مناطق خصبة غنية بالزيت والخمر والكنوز الاخرى ، وإظهار الوثنيين قطيعاً يعيش في المناطق الباردة ويعمه في الجهالة والضلال ؛ أو بوضع آلهتهم من أشجار وينابيع وأصنام لاتضر ولا تنفع بل لاتغضب حتى ولو اعتدي عليها . وضرب بونيفاس للوثنيين مثلاً بقطع شجرة غيسار الكبرى المبجلة أمام زملائه وبحضور جمهور من الوثنيين ، وما حارت الشجرة جواباً ، وأخذت أخشابها المقدسة وبنيت منها كنيسة على شرف القديس بطرس .

ولزم التنظيم بعد التبشير . وكانت رومـا تتابع باهتمام بالغ تقدم المسيحية في البلاد الجرمانيـة . ولم يكد غريغوار الثالث يعتلي الكرسي الأقدس عام ٧٣١ الا وارسل الوشاح الى بونيفاس ورسمه رئيس اساقفة . وكان اقليمه يضم بافاريا ، آليمانيا ، هس ، تورنجه. وانشئت في هذه المنطقة الأخيرة عدة أديرة اشهرها دير فولدا ، وكان يعتبر مركزاً هاماً من مراكز الحضارة في قلب جرمانيا .

وكانت الكنيسة الفرنجية تعاني أزمة فساد خلقي في الفترة الواقعة بين أواخر القرن السابع ومنتصف القرن الثامن . فاتفق بونيفاس مع البابا زكريا (٧٤١ - ٧٥٢) وكارلومان وبين القصير على اعادة بناء النظام الكنسي وتقويتـه لدى الفرنجة ، واستطاع ، عن طريق المجامع الدينية الاقليمية والمحلية ، أن يصلح نظام التسلسل الكنسي،ويجدد سلطات رؤساء اساقفة رنس وسانس وروان ، ويدعم سلطة المجامع السنوية المكلفة بالسهر على انتظام الانتخابات الاسقفيـة والأبوية (الديرية) واصلاح النظـام الكنسي وإبادة بذور الهرطقـة ، ويقيم المؤيدات الصارمـة لاحترام قواعد العزب الكنسي ، وفرض الزيارة الأسقفية للابرشية كل عـام . واهتم باعادة الأموال الكنسية المغتصبة ولو جزئياً .

وهكذا اندفع بونيفاس وزملاؤه وتلاميذه في العمل التبشيري ، وما أتى آخر القرن الثامن إلا وأصبحت الفريز مسيحية . وظلت ساكس تقاوم زمناً طويلاً لأن الأباطيل الوثنية كانت فيها قوية ومستحكمة ،لاسيا وأنها ظهرت بظهر رمز استقلال البلاد . ولم تنظم الكنيسة فيها إلا بعد فتح شارلومان عام ٧٧٦ . وفي القرن التاسع نظمت فيها الاسقفيات ، وكثرت الاديرة وأشهرها دير كورفيه .

وفي البلاد الاسكاندينافية اخفقت أعمال التبشير التي قامت عام ٨٢٢ برعاية إبون رنس ، ثم اندفع التبشير بدعوة من لويس التقي في السويد . وبالرغم من الاضطرابات التي لاقاها في طريقه من اعمال القرصنة التي قامت بها اقوام الفايكنغ فقد شيدت كنيسة في شلزفيغ وموقع امامي في السويد ولم ينته التبشير إلا في آخر القرن العاشر بمساعدة الامراء الاسكاندينافيين أنفسهم .

وظلت **البلاد السلافية** حتى الغزو المجري في آخر القرن التاسع على حالها دون أن تؤلف دولاً متميزاً بعضها عن بعض . وقد دخلتها المسيحية عن طريق المورافيين . ففي العام ٨٦٢ كتب الدوق **راديسلو** الى الامبراطور ميخائيل الثالث يشكو كثرة المبشرين من مختلف البلاد ، ويرجو أن يدله على رجل كفوء يهديهم سبيل الرشاد ، فارسل إليه الامبراطور البيزنطي الأخوين : **قسطنطين وميتود** ، وكانت لهما معرفة بالسلافيين ولغتهم ، وقد استخدما هذه اللغة في التبشير والصلاة والاحتفالات الدينية ، وثبتا اللغة ، وأوجدا أدباً سلافياً . ولم يرق هذا النجاح الذي احرزاه للألمان فانتقدوهما على استعمال لغة ليتورجية غير مقدسة ، مستشهدين بان النقش المرسوم على صليب المسيح كان بالعبرية والاغريقية واللاتينية ، وبهذه اللغات الثلاث فحسب كان يسمح القيام بالخدمة الالهية ، وشكوا امرهما الى البابا نيقولا

الأول والى هادريان الثاني ، واضطر الاخوان أن يذهبا مراراً الى روما لتبرير عملهما . ومات سيريل عام ٨٦٩ .

وتابع ميتود عمله ورسم اسقفاً في **بانونيا و سيرميا**، غير أن اسقف سالز بورغ سجنه عامين ، ولكن الكرسي الأقدس تدخل لصالحه ، وظل حتى وفاته اسقفاً على بانونيا (٨٨٥) . وشمل عمل الأخوين البلاد السلافية . فقد بشر ميتود في بوهيميا وعمد زعيم البلاد بيريفوج ، وأخذت بولونيا المسيحية عن بوهيميا . وكان تلاميذ ميتود دعاة المسيحية في شبه جزيرة البلقان كلها .

لقد قام هذا العمل التبشيري على سواعد الرهبان ، واعطى في أوربة كلها نتائج دائمة ، وزاد في سلطة الكرسي الأقدس ، وسهل امتداد المملكة الفرنجية التي كانت له قوة ودعماً وسنداً ، وهيأ عمال هذا التبشير حضارة العصر الوسيط بربط وسط اوربة البربري بغربها المثقف برباط وحدة الدين والايمان .

وكان جل اهتمام القديس بونيفاس ، في غاليا ، اصلاح النظام الكنسي الذي هو أساس لكل اصلاح جدي . وساند هذا النهوض الديني كهنة اسقفية ميتز بكل قواهم وحياتهم المشتركة ، وبالاصلاح الذي قام به القديس بندكت راهب ديرآنيان ، وحاول عن طريقه بمساعدة لويس التقي مراعاة القاعدة البندكتية في الحياة الديرانية .

الجدل والهرطقات . — لم يحدث خلال فترة طويلة من هذا العصر أي تجديد في المملكة الفرنجية خارجاً عن القضايا التي تمس الاسرار المسيحية والنظام الكنسي . لقد تلقت الامبراطورية صدى النظريات التي نشأت في الشرق أو في اسبانيا ، ولم تقف منها موقفاً سلبياً بل ردت بشدة ، وارادت أن تفرض نظراتها العقائدية على البلاد المسيحية .

إن الجدل ، الذي يتعلق بطبيعة « **عبادة** » الايقونات أو الصور ، أي التمثيل التصويري للسيد المسيح ومريم والملائكة والحواريين والقديسين ، دخل فجأة بلاد الفرنجة عندما انتهى في الشرق . فقد أعاد مجمع نيقية ، المنعقد في ايلول وتشرين الاول ٧٨٧ ، عبادة الصور ، ولكنه قرر أن تكون هذه العبادة عبادة شرف لا عبادة حقيقية واجبة لله وحده .

وبالرغم من النعت « المسكوني » الذي نعت به مجمع نيقية الثاني ، فلم يشترك به إلا آباء الامبراطورية البيزنطية مع مندوبَين حبريين ، ولم يضم اسقفاً من المملكة الفرنجية أو من اسبانيا المسيحية ، ولم تعرف قرارات المجمع في الغرب إلا بترجمة لاتينية . ويبدو أن المعنى الصحيح لكلمة « عبادة » لم يفهم ، وظن أن أساقفة الشرق يوصون بالعبادة الصرفة للصور . وقامت على اثر ذلك حركة استياء ، حتى ان شارلومان أمر عدة علماء من حاشيته بتأليف « كتب شارلية » هاجم فيها المجمع . وفي العام ٧٩٠ وجه الى البابا هادريان الاول براءة في ٨٥ مادة بشجب كل نوع لعبادة الصور ، كما شجب مقررات نيقية في مجمع فرنكفورت . ولا يرجع رد الفعل ضد مجمع ٧٨٧ الى خطأ أو ضلال فحسب ، بل الى حذر الملك الفرنجي وحاشيته من عبادة الصور . ولحسن حظ مصير الفن لم يحرم ملوك الفرنجة والجامع الفرنجية استعمال الصور في النحت والتصوير لتزيين الكنائس ، ولم يكونوا مهدمين للايقونات بالمعنى الدقيق للكلمة .

وفي العام ٨٢٤ طرأ حادث غير منتظر وهو أن الامبراطور البيزنطي ميخائيل الألكن طلب رأي الامبراطور لويس التقي والبابوية في هذا الموضوع ، وفي العام التالي انعقد مجلس أساقفة في باريس وأبقى على الحكم الذي اتخذ ضد مجمع نيقية الثاني دون اعتبار لتحفظات البابا هادريان

الاول ، وارسلت وثائق ضد هذا المجلس الى روما والقسطنطينية ، ولم تعرف بعد نتيجة هذا الحبر في كل من العاصمتين . وظل كل فريق عند مواقعه .

ويبدو أن القضية سويت لولا أن الاسباني كلود ، الذي رفعه الامبراطور الى الكرسي الاسقفي في تورينو ، دخل في النقاش وذهب فيه حتى النهاية ، ولم يشجب عبادة الايقونات فحسب ، مهما كانت هذه العبادة ، بل شجب أيضاً اجلال الصليب وعبادة مخلفات القديسين ووساطتهم. وهذا الافراط في المنطق افزع دونغال وخاصة جوناس اورلئان ، وقبلا بأن يميز بين عدة « عبادات » . ومن المحتمل ، عندما وطدت العبادة نهائياً في الشرق ، في المجمع الرابع في القسطنطينية عام ٨٦٧ ، أن يكون الغرب قد تنازل لتأثير روما ، وقبل في آخر القرن مذهب نيقية رغم ما يبدو معاكساً لمزاجه الديني .

وهناك هرطقة أخرى وهي **هرطقة التبني** . نشأت هذه الهرطقة في اسبانيا حوالي آخر القرن الثامن . وعلى ما يظهر أنها تتصل بالنسطورية وتقول ان : « الابن الوحيد للأب (**الكلمة**) هو الابن الحقيقي لله ، بينما ابن مريم ابن تبناه الله » . وبتعبير آخر : ان المسيح ، باعتباره انساناً ، هو ابن تبناه الله . ولا يعترف انصار هرطقة التبني ، كالنسطوريين ، وحدة الشخص في المسيح ، وبالتالي ، ان المسيح — الانسان لا يمكن ان يقوم بتضحية ذات قيمة لامتناهية . ومن هنا تفهم النتائج الهدامة لعقيدة فداء البشرية .

كان **ايليباند** ، رئيس اساقفة طليطلة ، صاحب هذه الهرطقة . فقد صرح بأن التمييز ازلي ولا شك ، غير ان شخص المسيح بن مريم

لا يساوي الأب والروح القدس . وهو بذلك يناقض مجمع نيقية لعام ٣٢٥ . وأخذ بهذا المذهب اتباع مثقفون وأصبحوا له حماة ، ونشروه في اسبانيا ، ولم تخل الدعوة له من المعارضة .

عندما علم البابا هادريان الأول بالجدل يقسم الاكليروس الاسباني ، كتب رسالة عقائدية إلى أساقفة اسبانيا عام ٨٧٥ ، ورد فيها على أخطاء ايليباند وأتباعه مع شواهد عديدة من آباء الكنيسة . ورأى ايليباند نفسه مهدداً فالفى عوناً له في فيلكس اسقف اورجيل ، وأعلن هذا تشيعه للمذهب الجديد ، قبل ٧٩٢ ، وأصبح أول لاهوتي فيه . وأطلع هادريان الاول شارلومان على أخطاء فيلكس . فأراد وضع حد لها في مجمع راتسبون (٧٩٢) ، وبدا أن فيلكس ارتد عن مذهبه وشجب هرطقة التبني . غير أن فيلكس لم يكن مخلصاً في تراجعه ، وما لبث أن بشر بالهرطقة من جديد ، وذهب إلى ايليباند ليكون في أمان ، وعندئذ تدخل ألكوين في القضية وكتب إلى فيلكس رسالة مفعمة بأقوال من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ودعاه ألا يمزق وحدة الكنيسة . فعقد ايليباند مجمعاً وحرر رسالتين : احداهما لشارلومان وفيها يدعو الملك لدعم فيلكس اورجيل ؛ والاخرى موجهة إلى أساقفة غاليا واكيتانيا واوسترازيا ، ويبرر فيها مذهب التبني .

جمع شارلومان في فرنكفورت عام ٧٩٤ أساقفة بلاده ، واحتل نزاع التبني في هذا المجمع مكاناً هاماً . ومثل البابا هادريان فيه مندوبان ، ودعي اليه فيلكس فامتنع عن المثول . وخرجت عن هذا المجمع وثيقتان : الاولى تلح على مسلمات الكتاب المقدس ، والثانية توسع هذه المسلمات ، وأيدها المجمع بسلطته ، واتخذ قراراً بشجب مذهب فيلكس وايليباند .

وأخطر شارلومان البابا . وقد كتب هذا في حينه رسالة ينصح فيها الاسبانيين ،

ويعرض بمهارة كامل الحجج التي تشجب مذهب التبني ، وقد اعتبر خطأً أن هذه الوثيقة ، التي كتبها البابا ، كانت من قبله موافقة رسمية على مجمع فرنكفورت .

وبالرغم من هذه الوثائق الخطيرة التي بعث بها الى الاسبانيين، فقد ظل فيلكس اورجيل يبشر بهرطقته . وقد كتب بعد المجمع إلى شارلومان رسالة لا نملك منها إلا نتفاً ، وأكد فيها آراءه بجلاء أكثر من أي وقت مضى ، وبلغ الملك الفرنجي هذه الوثيقة الى الكُوَنْ والبابا ليؤن الثالث وبعض الأساقفة ، ففندها الكوَنْ تفنيداً كاملاً في سبعة كتب . وعقد شارلومان مجمعاً في ايكس — لا — شابل في خريف ٧٩٩ ، مثل فيه فيلكس اورجيل ، ودافع عن نفسه بعناد خلال ستة أيام ضد الكون . وأخيراً اعترف بغلبه ، وتخلى من جديد عن خطاه . وحرمه البابا في المجمع الروماني الذي عقده في السنة نفسها ، وعهد به الى ليدراد ليون . وقبل فيلكس بانكار أخطائه علناًفيرسالة وجهها الى كهاناورجيل. ويعتقد أنه توفي في ليون عام ٨١٨ بعد أن تصالح مع الكنيسة ، لولا أن آغوبارد وجد في أوراقه كتيباً مهدى الى لويس التقي ، وفيه يظهر أنه ظل ثابتاً على رأيه . ويبدو ايضاً أن ايليباند ظل متمسكاً بعناده حتى وفاته ، وهدأ النزاع بعد موت هذين الداعيين المناضلين .

وما سكن الجدل في هرطقة البتني إلا وأخذت **هرطقة الجبرية** تعكر صفو الأفكار طوال شطر كبير من القرن التاسع ، والقائل بها **غوتشالك**. وكان فكراً لامعاً ، مخالفاً ، عنيداً ، استهوى معاصريه بسر الجبرية حتى وفاته حوالي العام ٨٦٨ .

كان أبوه كونتاً ساكسونياً . أرسل منذ حداثة سنه الى ابوية فولدا

ثم حصل على إلغاء تعهده الديراني ، لعدم موافقته ، في مجمع ماينس لعام ٨٢٩ . وألغى لويس التقي هذا القرار وسمح له بتبديل الدير ، فاختار غوتشالك اوربيه في أبرشية سواسون ودرس فيـــه القديس اغسطينوس والقديس فولجانس روسْبْ ، وأخذ عنها مقاطع منفصلة عن نصها الأصلي وذات لون ينم عن الجبرية المطلقة التي قدرهـا الله على عباده وجعل منهم **مصطفين** و **اشقياء** ، واستخلص منها أن المسيح مات في سبيل من قدر الله عليهم السلام وحدهم .

وأسهم في النقاش مشاهير علماء العصر . وفي مجمع ماينس ٨٤٨ شجب غوتشالك وسلم الى المطران هنكمار لمعاقبته فحكم عليه مجدداً بأنه هرطقي لا يمكن إصلاحه في مجمع كيرسي على الواز لعام ٨٤٩ ، وجرد الهرطقي من منصبه وجـلد علناً ثم زج في سجون دير هوتفيـل حيث مات مصراً على عناده ومقاومته (٨٦٨) .

وكان **الجدل الثالوثي** أقل حدة ودوياً في الظاهر من النزاع في عبادة الايقونات والتبني ، ولكنه أنتج مع الزمن نتائج مخربة باسهامه في ابعاد مسيحية الشرق عن مسيحية الغرب .

لقد وضعت قضية علاقات الروح بالآب والابن أمام الفكر المسيحي عندما قام الجدل في الاريوسية . ولم يؤد تفكير الآباء الى قرار عقائدي ، واستطاعت كل كنيسة من الكنائس الكبرى أن تهيء مذهبها في هـذا الموضوع دون أن تلقى عوائق . وفي القرن الخامس كان سيريـــل الاسكندري يرى بأن الروح القـدس تنبثق من الابن بالطبيعـة ، ومن الآب بالابن .

ولم يلق هذا الرأي أي حظ في الشرق . ويبدو ان أحد كبار جهابذة الكنيسة ، وهو القـديس يوحنـا الدمشقي ، في القرن الثامن ،

كان يردد ما قال سيريل ، ومع هذا فهو لا يريد بأن يعتقد بأن الروح القدس تنبثق من الابن ، بل تنبثق بالابن . وفي الغرب ، بعد القديس اغسطينوس ، صرحت كنائس افريقية واسبانيا وغاليا وانكلترا ، بدون تردد ، بأن الروح القدس تنبثق من الآب والابن . وعندما أنكر الملك الفيزيغوطي ريكاريد الأريوسية عام ٥٨٩ تلا رمزاً مطابقاً لهذا المذهب الذي نادت به مجامع طليطلة . وكان الانبثاق ، على هذا النحو ، يعتبر سوياً في الغرب ، حتى ان شارلومان في الكتب الكارولنجية يأخذ على بطريرك القسطنطينية تاراسيوس تبشيره بالإيمان « من الآب بالابن » الذي لم يحتج عليه المندوبون الحبريون . غير أن البابا هادريان الثاني دافع عن قدامى الآباء ضد ملك الفرنجة اللاهوتي المندفع جداً .

ثم طرأ حادث أثار الخلاف العتيد من جديد . ففي ٨٠٨ تلا رهبان فرنجة مقيمون في دير في فلسطين ، في القداس ، الرمز مع إضافة الانبثاق « من الآب والابن » فاعتبروا هراطقة ، وهددهم الرهبان الاغريق بالطرد ، فاشتكى الفرنجة ، للبابا وللامبراطور أيضاً ، بقولهم إنهم سمعوا تلاوة الرمز مع هذه الاضافة في كنيسة البالاتن ، فحمل شارلومان على المذهب المعاكس ، وطلب الى تيوذلف أن يحرر كتاباً في « الروح القدس » ودعا الى ايكس — لا — شابل (٨٠٩) مجمعاً وحكم لصالح الانبثاق « من الآب والابن » .

ولاقى الامبراطور من جانب روما مقاومة شديدة . فقد قبلت الاضافة من الوجهة المذهبية ، ولكنها من الوجهة العملية رفضت أن تدعها تمر في تلاوة الرمز وانشاده حتى في كنيسة البالاتن . وبعد قرنين أي في ١٠١٤ ، رضيت روما إدخال الاضافة في ترتيب القداس ، تحت ضغط الامبراطور هنري الثاني . وعرفت البابوية ، في الحال ، خطر

هذا الجدل وعملت كل ما في وسعها لاخماده . وهذا الشعور الغامض له ما يبرره . لأن فوتيوس في العام ٨٦٧ سيشهر ، في ساحة الصراع اللاهوتي، هذا السلاح على روما وسيستخدمه سهماً مسمماً ضد كنيسة الغرب .

ومنذ ذلك العصر أصبح الجدل الثالوثي إحدى النقاط المذهبيـة التي رفضت الكنيستان « العامتان » التسامح بها . وهذا التعنت يدع المؤرخ غير اللاهوتي حائراً لأنه لا يرى فرقاً جديراً بالتقدير بين « من الابن » و « بالابن » . ومع ذلك يوجد فرق ولو بدا متناهياً في الصغر ، لأن الصدع الخفيف اتسع خـــلال العصور وانتهى بحفر هوة بين المذهبين ، وسينمحي في الغرب الشخص الثالث لدرجة يصبح فيها فضلاً من القول بالنسبة للمؤمنين غير المحترسين ، أي الاكثرية . وفي الشرق سيحافظ الروح القدس على شخصية متميزة لدى عامة المؤمنين .

البابوية والملكية الكارولنجية . لقد ساد العلاقات بين البابوية والملكية الكارولنجية جو من التفاهم ، وهذا التفاهم نمـــا بتأثير أسباب مختلفة : منها أن الفرنجة لم يكونوا أريوسيين ، واعتـبر صبأ كلوفيس دليلاً على فضل الله . وكانت روما تقدر ولاءهم . فقد التمس البابا فيرجيل مساعدة شيلدوبير الأول ضد الغوط ، وحذا حذوه البـابا بيلاج الثاني وطلب مساندة شيلدوبير الثاني ضد اللومبارديين ، واعترف البابا غريغوار الكبير بالملكية الفرنجية ملكية ممتازة ولم يتنبأ ولا شك بتبدل الجبهة في السياسة الحبرية التي كانت تهيأ على هـذا النحو وارتسمت فيما بعد تحت ضغط اللومبارديين عند زوال الامبراطورية .

وفي العصر الكارولنجي حقق الايمـان المسيحي فتوحات واسعـة في قسم عظيم من اوربة بمساعدة خلفاء يبين على أن هنالك حادثاً عميقاً وهو أن

الفكرة الرومـــانية في الدولة أخذت تستوعبها الفكرة المسيحية تدريجياً التي تنزع إلى اجتياح كل شيء وتأسيس الأنظمـــة السياسية نفسها على الكنيسة واعتبارها قاعدة وحيدة لها .

ولقد أعطى ايزيدور اشبلية في القرن السابع التعبير الواضح الذي تكرر ذكره كثيراً في القرون التالية «إن أمراء العصر يحتلون أحياناً قمم السلطة في الكنيسة ليحموا النظام الكنسي بسلطتهم . ومع ذلك فان هذه السلطات ليست ضرورية في الكنيسة إذا لم تفرض بوهبة النظام ما يعجز الكهان عن فرضه بالكلام » . إن نظرية « العضد الزمنية » كلها تكمن هنا ، لأن سبب وجود السلطة الزمنية هو خدمة الكنيسة . ولكن الأمراء لا يفهمون ذلك دوماً في التطبيق . وهـذه الفكرة تكمن تحت جميع المنازعات الكبرى التي تقوم بينهم وبين البابوية . ومن الممكن القول دون مبالغة ، بأن هذا المفهوم قد عظم بنظرية السلطتين الدينية والزمنية التي قيل بها في القرن الثاني عشر .

ولقد ظهرت آثار هذه النزعة الفكرية منذ بداية السلالة الكارولنجية لأن أول ملك ، قبل ان يضع التاج على رأسه ، طلب من البابا زكريا ما اذا كان من الافضل ان يكون لقب الملك خاصاً بمن يمارس وظائفه اكثر من سليل محمي لجنس منحط . وعلى اثر جواب الحبر بالايجاب بورك بين من قبل بونيفاس أولاً في سواسون عام ٧٥١ ، كما باركه البـــابا ايتيين الثاني من جديد في كنيسة القديس — دوني في ٢٨ تموز ٧٥٤ .

وهـذه المباركة اكثر من رمز تقارب بين السلطتين . انهـــا الختم الكنسي على الملكية ، والدمج الرسمي للنظام الملكي في الكنيسة ، والتسلسل الكنسي الذي يعطي لسلطة الملك تقايداً دينياً . والملك الذي اختاره الله يعد

بخدمته ، وان يكون عادلاً ، وبكلمة أن ينفذ ارادته . ولكن من هو المعبر المجاز اكثر من غيره ؟ الكنيسة .

ولم يتأخر بين باعترافه بجميل كرسي بطرس . وعندما جاء ايتيين الثاني ليبارك بين كان لرحلته سبب آخر ، وهو طلب العون وانشاء علاقات مع المملكة الفرنجية . وما كان بوسعه أن يعمل غير ذلك، فقد حاول ايستولف،ملك اللومبارديين ، فتح ايطاليا بعد أن أخذ رافينه وهدد روما . وطلب ايتيين الثاني مساعدة البازيلوس البيزنطي دون جدوى ، وسعى لدى ايستولف فلم يحظ بما يريد ، وما كان منه إلا ان ذهب الى فرنسا وبارك السلالة الجديدة ومنح بين لقب حامي الرومانيين ، واستنجد به ليخلص روما من تهديد اللومبارديين ويجبر ايستولف على اعادة نيابة رافينه الى الجمهورية الرومانية . وعبر ملك الفرنجة الالب ، ووقف أمام بافيا وقبل ايستولف شروطه دون قتال ، وتخلى عن النيابـــة والمناطق المجاورة لا ليردها إلى الامبراطورية البيزنطية بل ليهبها إلى القديس بطرس .

ولم يقم ايستولف بعد ذهاب بين اي اعتبار لتعهداته وحاصر روما في ١ كانون الثاني عام ٧٥٦ ، وعاود البابا شكواه ، وثاربين ووقف ثانية أمام بافيا ، واستسلم ايستولف في هذه المرة دون قتال أو مقاومة . واتضحت الحالة هذه المرة . فقد وهب بين البابابهة حسب الأصول وأضاف كوماكشيو إلى المدن المتنازل عنها سابقاً . وسلمه فولراد آب دير القديس — دوني المفاتيح مع الرهائن ، ووضع ايتيين الثاني علناً ورسمياً الوثائق والمفاتيح على ضريح القديس بطرس . وهكذا تألفت الدولة الحبرية .

وقد دلت الأحداث على أن عمل الكرسي الأقدس لا يمكن ان يستغني عن دعم زمني ، وان هذا الكرسي عوضاً عن أن يتجه صوب بيزنطة سيوجه وجهه منذ الآن فصاعداً شطر المملكة الفرنجية ، وان الالفة

المتزايدة مع الملكية الكارولنجية شجعت مزج السلطات التي عرفناها تحت اسم « الاغسطينية السياسية » وستلعب أولاً لصالح شارلومان .

لقد حاول البابا هادريان الأول ان يدفع عن نفسه وصاية شارلومان الكاسحة وتفاهما على ان يصرحا ويستوضحا عن حدود سلطة كل منهما . وكانت علاقاتهما ودية عادية واحياناً باردة ، ولا نجد أي رسالة من هادريان تتعلق بالدور الممتد من ٧٨٨ إلى ٧٩١ . غير ان نزاع الايقونات في مجلس فرنكفورت ٧٩٤ كاد يفسد علاقاتهما . والكتب الشارلومانية التي الفت بهذه المناسبة تكشف في آن واحد عن انفصال الغرب عن الشرق وعن النزعة القيصرية — البابوية للمليك الفرنجي ومعيته .

وظل هادريان حتى وفاته (٧٩٥) وهو لا يرضى بان تختلف حماية شارلومان عن حماية بيبن . ونراه في الرسائل التي حررها حول العام ٧٩١ لا يخرج عن قيود اللغة الدبلوماسية ويناشد الملك ان يحذر التجديدات . أما من جهة شارلومان فقد ترك إلى القديس بطرس الحماية الفعلية التي تنازل عنها ابوه بيبن وأيدها من عنده .

ثم أن موت هادريان واعتلاء ليؤن الثالث عرش البابوية ، وجاه شارلومان المتزايد ، وفقدان حظوة البلاط البيزنطي وسير الحوادث والافكار ، ان كل ذلك ادى الى تزيين رأس شارلومان بالتاج الامبراطوري . ومذ اعتلى ليؤن الثالث الكرسي الأقدس بعث الى شارلومان مفاتيح القديس بطرس وراية المدينة الخالدة . وكان جواب شارل له مرحباً . فقد حضه بشدة أن يحيا حياة شريفة ، وان يراعي قوانين الكنيسة ويحكمها بتقوى . كما دل في هذا الجواب على المفهوم الذي كونه لنفسه عن السلطة الامبراطورية والسلطة الحبرية بقوله : « بينا يناضل المليك يرفع البابا يديه إلى الله ، كموسى » ، أي ان الدور النشيط المسيطر منوط بالأمير ،والبابا مندوب لخدمة

الصلاة ، وللأمير « ان يحكم كنائس الله في كل شيء ويحميها من الأشرار » . ويصرح شارل ايضاً بأنه يريد تقوية الكنيسة من الداخل في فهم الايمان الكاثوليكي . ولم يقم ابتيين الثالث بأي جهد للتخلص من سيطرة شارل ونفوذه بل أعلن على رؤوس الأشهاد « بأن لا شيء ، الا الموت ، يمكن ان يفصله عن الحب الذي يكنه لشارل » .

ولقد حقق شارلومان الدستور الايزيدوري الذي ذكرناه آنفاً وبين ان السبب الأسمى لوجود سلطته هو خدمة الكنيسة : « اسهروا على ان يقوم كل واحد ، حسب ذكائه وقواه وحالته بخدمة الله القدسية » . وان نظام الرسل والمندوبين الذي وضعه كان لهذه الغاية ايضاً ، إذ لم يقتصر عملهم على النظر ما اذا كانت الشرطة صالحة ، او العدل سائداً ، او المكاييل والموازين صحيحة أو العملة غير مزيفة ، بل كان عليهم أن يراقبوا سلوك الأساقفة والكهان والرهبان ، ويتأكدوا بانهم يمارسون وظائفهم باحسان ، ويعرفون قوانين الكنيسة ، ويبشرون بالدين بشكل ملائم ويتبعون قواعد القداسات والانشاد المقدس ، ولا يقتنون كلاب صيد ولا عقبان ، ولا يتعاطون القمار ، وباختصار ، بأنهم يؤدون رسالتهم خير الأداء وأنهم قدوة صالحة للمؤمنين .

أما ان يكون لشارلومان سلطة واسعة على الكنيسة فليس ذلك بالحادث التاريخي العجيب ، لانه كان يقبض على اكبر سلطة في الغرب الاوربي ، ولكن الكنيسة ادخلت على هذه السلطة شيئاً من نفوذها . ومن جهة أخرى كان شارل يمارس سلطته عادة في الاتجاه الملائم لمصالح المسيحية . والقضية الحقيقية التي تطرح في علاقات الكنيسة والدولة في العصر الكارولنجي هي انتقال السلطة في فترة قصيرة من الزمن . ففي فجر القرن التاسع كان توجيه الغرب المسيحي بيد الامبراطور . وفي اقل

من خمسين عاماً بعد وفاة شارلومان (٨١٤) انتقل التوجيه إلى يد البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) .

ولو كانت سلطة الأمبراطور مبنية على حق متميز عن الحق الكنسي كسلطة قدامى الاباطرة المسيحيين ، وكانت تمارس فقط في صعيد واحد وهو الدولة ، متميز عن صعيد الكنيسة ، لما امكنت مهاجمتها . ولكن سلطة شارلومان تكمن في شخصه اكثر منها في بناء سياسي يصنعه مرة ثم يهدمه أخرى. ويدل تقسيم الامبراطورية بين اولاده عام ٨٠٦ على أن شارلومان ظل غريباً عن الفكرة الرومانية للامبراطورية . ومن جهة أخرى خول سلطته رسالة اساسية لتكون في « خدمة الله » وتأمين سلام الأرواح ، وبذلك أمن لسلطته اساساً حقوقياً واخلاقياً ودينياً وكنسياً. لقد وطد شارل الامبراطورية في الكنيسة وجاراه في رأيه كتاب العصر السياسيون مثل ممارأغد ، جوناس اورلئان ، سيدوليوس ، سكوتوس ، آرغوبارد ، هنكمار ، وتطوروا في هذا الجو الفكري نفسه .

وما لبثت نتائج هذه المفاهيم الاساسية ان ظهرت ، وكان تنازل لويس التقي عن العرش نتيجة مباشرة لها . فقد حنق اولاده من التقسيمات المتتابعة في فورمز (آب ٨٢٩) وايكس - لا - شابل (شباط ٨٣١) ، وانتهوا باذلاله في سواسون (تشرين الأول ٨٣٣) . ويمكننا ان ندرك بسرعة قوة نفوذ الاساقفة في المحضر الذي حرروه في توبة لويس التقي العامة التي انتهت بتنازله عن العرش . لقد عددوا سلسلة اخطاء تؤول كلها الى سبب أساسي واحد وهو ان الامبراطور نكل عن أداء رسالته . وتدخلوا في الأمر « لأنهم نواب المسيح وحملة مفاتيح ملكوت السموات » و « أظهروا قوة وظيفتهم الكهنوتية بالكشف عن الأخطاء المرتكبة في

الحكومة الامبراطورية ، لأن هذه الأخطاء كانت فضيحة في الكنيسة وعامل خراب للشعب وهلاكاً للمملكة » .

ومن الممكن ان يرى في هذا التدخل الأسقفي بدايه لنظرية « التيوقراطية » او « المشيئية » اي الحكم الآلهي ، ولكن لا شيء في النصوص يكشف عن ان الاساقفة كانوا مقتنعين للقيـــام بأنفسهم بخلع « الامبراطور » .

وعندما أتى لوثير الى ايطاليا والتحق باخوته الثائرين تبعه البابا غريغوار الرابع فكتب اليه بعض الاساقفة رسالة تلوم تدخـــله وتسجل تبعيته لوارث شارلومان ، فأجاب البابا جواباً سامياً وبرر تدخله في هذه القضية السياسية المتعلقة بوراثة الاراضي وتقسيمها بقوله : « وكيف يمكنكم ان تعارضوني وكنائسكم عندما أؤدي رسالة سلام ووحدة ، هي هبة المسيح بل ووظيفة المسيح » . لقد خول الامبراطور نفسه هذه الرسالة بيد انه لم يكن على مستواها وخار عزمه ، ولذا فالبابا حاضر لينوب عنه .

ومن الممكن ان نتتبع بقاء أفكار غريغوار الرابع عند اخلافه . فنرى ان سيرج الثاني (٨٤٤ – ٨٤٧) ، في الرسالة التي رسم فيها دروغون نائباً للسدة الرسولية ، يصرح بأن يتدخل ضد اولاد لويس التقي الثلاثة إذا لم يبقوا متحدين « في السلام الكاثوليكي » ، واستمر ليون الرابع (٨٤٧ – ٨٥٥) وبنوا الثالث (٨٥٥ – ٨٥٨) على الموقف نفسه واعتبرا نفسيها مكلفين بالحفاظ على السلام . وكانت الطرق معبدة أمام نيقولا الاول (٨٥٨ – ٨٦٧) ، فلم يدشن على عرش بطرس برنامجاً جديداً ، ولكنه اتاه بقوة جديدة . أخذ النصوص القديمة وأحياها ووسع تطبيقها ، ووضع بحزم وعزم سلطته فوق جميع السلطات الموجودة كنسية وزمنية وطالب بحق إحلال النظام في كل مكان .

ونراه ، في قضية طلاق لوثير الدقيقة الشائكة ، لم يكسر قرار مجمع ميتز (حزيران ٨٦٣) بخلع الاسقفين توتغو وغونتر مندوبي المجمع ، بل هدد الملك باللعنة والحرمان إذا لم يندم على ما فعل . وطالت هذه القضية . وكان لوثير الثاني خبيراً بأساليب المماطلة والامهال ، ولم يشأ نيقولا الاول ان يعجل . وبالرغم من الغموض ، الذي يغلف العمل الحبري ، يبدو ان البابا حرم الملك وطرده من الجماعة .

وفي تدخلاته لتوطيد السلام ، بين لوثير الثاني وشارل الاصلع ولويس الجرماني ، كان يعمل دوماً باسم الطابع الديني للسلام ، وباسم المسيح « الذي هو السلام الكامل والعدل الكامل والحق الكامل » . ومن هذا الصعيد الفوق طبيعي انزلق بشكل غير محسوس نحو الصعيد السياسي وفرض احترام المواثيق السياسية والمعاهدات . وكان يجب ان يستشهد بالقديس اغسطينوس الذي يميز بوضوح بين الصعيدين : الديني والزمني . وأخفضت الاغسطينية حدودهما ونزعت الى استيعاب النظام الطبيعي والسياسي في النظام الفوق-طبيعي والكنسي ، وبذلك أسهمت في النهوض الحبري نحو قمة المسيحية .

وصفوة القول ان الامحاء التدريجي للحدود الدقيقة بين الكنيسة والدولة أعطى للعامل الشخصي وللسلطة الفردية ، ملكاً أو بابا ، أهمية كبرى . وفي القرن الذي رأى ظفر الهيمنة الامبراطورية شهدنا أيضاً نقل هذا التفوق الى شخص البابا نيقولا الاول . ولكن هذا التفوق كان قصير الأجل ، لأن القوى الفوضوية العتيدة للاقطاعية ، في آخر هذا العصر الكارولنجي، انطلقت من عقالها وهدمت الامبراطورية ، وأضعفت بل وأذلت البابوية .

وفي العام ٩٦٢ تنهض الامبراطورية ومعها القيصرية ـ البابوية وتدعي ظاهراً بحق تخويل الأسرار المسيحية بصورة غير مباشرة ، وتقلد الاسقف وظيفته "كتلة" واحدة دون تمييز بين روحي وزمني . وسيقوم نضال البابوية ضد الامبراطورية الجديدة ولن تنتصر نهائياً إلا بتطبيق المبادىء التقليدية التي وضعتها موضع العمل والتنفيذ في العصر الكارولنجي .

الفصل الثالث عشر

الحضارة الكارولنجية

الحياة الاقتصادية

كان المجتمع الكارولنجي في اساسه ريفياً قبل كل شيء ، وبالرغم مما كان فيه من نشاط صناعي وتجاري فقد كانت الارض مصدر الثروة والاقتصاد قروياً في القرن الثامن والتاسع في اوربة الغربية .

الزراعة . — لقد انتشر نظام الملكية الكبرى العقارية منذ العصر الروماني وأصبح في القرن الثامن والتاسع حادثاً عاماً . ومما لاشك فيه ان الملكية الصغيرة لم تزل تماماً ، لأن المصادر تذكر لنا وجود ملاكين متواضعين منتشرين هنا وهناك في غربي اوربة . ويبدو في القسم الشرقي من الامبراطورية ، وخاصة فيما وراء نهر الراين ، أن هذه الطبقة الاجتماعية كانت عديدة ولها اهميتها . واذا كان صحيحاً أن التعصيرات التي تمت في القرن الثامن قللت السطح العام للملكية الكنيسة ، فقد استطاعت الكنائس ، في عهد شارلومان ولويس التقي ، ان تسترد بعض الاراضي المصادرة الغنية . ونذكر على سبيل المثال ان ملكيات ابوية القديس جرمان دوبريه تقارب مساحتها في اوائل القرن التاسع ٣٣٠٠٠ هكتار . وكان الملوك على رأس دومين عقاري واسع ، والملكيات الضريبية متناثرة في انحاء المملكة . اما الثروات العقارية لكبار العلمانيين فيبدو في كثير من

الحالات انها كانت عظيمة جداً وتضم كثيراً من قرى اليوم . وكانت الملكية الكبرى بل والكبرى جداً شكلاً سائداً للنظام العقاري في الامبراطورية الكارولنجية .

ولحسن الحظ حفظ عدد كبير من البيانات المفصلة والنصوص التشريعية المتعلقة بالدومينات الكارولنجية وخاصة الدومينات الكنسية والضريبية . وبين هذه المصادر نخص بالذكر الوثائق المسماة « البوليبيك » وتحتل المكان الأول ، وتحتوي وصفاً منظماً لأموال وواردات الابويات (الأديرة) والابرشيات . واكثر هذه الوثائق الكارولنجية اهمية وتفصيلاً الوثائق المتعلقة بابوية القديس جرمان دوبريه التي وضعها الأب ايرمينون في آخر حكم شارلومان واول حكم خلفه

وبعض هذه الوثائق الاقتصادية الكارولنجية الشهيرة براءات تضم كثيراً من المعلومات الادارية ، وانواع الاشجار والنباتات والخضار والحيوانات والادوات المستعملة التي يملكها الدومين ، ومعلومات فنية تتعلق بزراعة الأرض وتربية الحيوانات وصيد الاسماك والعناية بالأخشاب والغابات والصيد البري وتربية النحل . ومثل هذه البراءات تعطي ولا شك فكرة واضحة عن حياة الدومين الاميري في العصر الكارولنجي .

كان **الدومين** الإطار الأرضي الذي تنمو فيه الزراعة ، ويرجع أصله إلى العصر الروماني والعصر الميروفنجي ، ومن الممكن تتبع مراحل نموه المستمر ، إلى أن بلغ التنظيم فيه درجة عالية من الكمال في القرن التاسع وأصبح سائداً وازال القرى الحرة . وكان الدومين الكارولنجي واسعاً جداً ويطابق في الغالب قرية من قرى اليوم . ويحتوي الدومين (الفيللا) عنصرين متميزين وهما :

١ — الاحتياطي الاميري ويستثمره المالك مباشرة .

٢ — قطع الاراضي الموزعة بين الفلاحين .

والدومين الاحتياطي واسع جداً ويضم ، عدا الابنية ، حقولاً وكروماً ومراعي وخاصة" غابات . أما مجموع قطع الاراضي ، فعلى العكس ، يضم خاصة اراضي زراعية . وتدل الوثائق على وجود نسبة بين احتياطي الأمير وقطع الأراضي . فقد كانت القطع تحتوي مانساً أو عدة مانسات ، بل واجزاء المانس . والمانس ، كما نعلم ، وحدة زراعيــــة وبشرية ، وهي نظرياً غير قابلة للقسمـة ، وتتألف من أراضي تختلف سعتها ما بين ٥ و ٣٠ هكتاراً وتتراوح وسطياً بين ١٠ و ١٥ هكتاراً . وهي مستغل صغـير يمكن ان يعيش عائلة .

ومن المهم ان نميز بين استغلال الدومين واستغـلال قطع الأراضي . وهذا الأخير يقوم به الفلاحون ويدخل فيهم **المعمورون** وهم أحرار نظرياً ، ولكنهم وراثياً متعلقون بالتراب منذ عهد الامبراطورية الدنيا ، وهم كثر على الضفـة اليسرى لنهر الراين ، والى جانبهم يرى مزارعون آخرون ، **الأقنان** ، وهم سليلو قدامى الأرقاء الرومانيين أو الجرمانيين ، **ومعمورون جرمانيون** .

ولا شك في ان الشرط الحقوقي للفلاح لا يطابق بالضرورة في القرن التاسع شرط المانس الذي يأخذه من المالك . لأن الفلاح كان في حالة تبعية وثيقة لمالك الدومين . ولم يكن هذا المالك أميراً عقارياً فحسب ، بل ايضاً ، ولحد واسع قليلاً أو كثيراً ، أميراً قضائياً . وكان الفلاح يجني محاصيل مانسه شريطة أن يدفع للأمير اتاوة ثابتة عينية غالباً . وقلما يؤتى باليد العاملة المأجورة لاستغلال الاراضي الخاصة بالمالك ، بل كان الفلاحون يقومون باعمال السخرة في احتياطيه خلال ثلاثة أيام في الأسبوع .

وكانت السخرة ثقيلة على الفلاح الكارولنجي . ويبدو أن الاقنان ، ممن ليس لهم اراضي ، كانوا متعلقين بمركز الاستغلال ويسهمون في استغلال احتياطي الأمير .

وفي أراضي المانسات يسود نظام المستغل الصغير . وفيه يهتم الفلاحون بانتاج الحبوب والخضار والفواكه وتربية الحيوانات الكبرى والصغرى. ولهم الحق في التمتع بالغابة والمرعى الاميريين . وكانت اراضي الامير تضم عادة غابات واسعة ترعى فيها قطعان الخنازير ، وتنتج الحقول الحبوب والمراعي والعلف . وفي ايطاليا كانت زراعة الزيتون مزدهرة في عدد من الدومينات الكبرى . وكانت كروم العنب عديدة نسبياً حتى أنها تمتد قليلاً شمال منحنى الحرارة المتساوية الحالي للكرمة .

ولم يقتصر الأمير على الزام الفلاحين باستغلال الحقول والمراعي والغابات في احتياطيه ، بل كان يفيد ايضاً من معارفهم المسلكية ومهارتهم الفنية . فقد كان تحت تصرفه صناع عربات ونجارون وحدادون وخبازون ، ونساء قنات ينسجن ويغزلن في المنزل أو في مشغل الأمير صوف الدومين وكتانه ، وبالاجمال كان الدومين مشروعاً واسعاً ، مزرعة ومصنعاً معاً ، ولكنه بخاصة مزرعة .

وكان الدومين مستقلاً من الوجهة الاقتصادية ، ويغطي حاجات الأمير والفلاحين بانتاجه الزراعي والصناعي ، وما كان الدومين ليشتري شيئاً . ومن النادر ان يبيع شيئاً من محصوله . واذا باع فبكمية قليلة جداً . وفي أغلب الاحيان كان احتياطي الغلال يجمع ويدخر لأوقات الشدائد والمجاعات المحتملة الوقوع . ووجدت علاقات تبادل غير تجارية بين مختلف الدومينات التابعة لأمير واحد ، أو ابوية واحدة ، أو اسقفية واحدة

ولئلا يحرم الدومين من بعض المحاصيل التي يصعب الوصول اليها او زراعتها كالملح والزيت والخمر والكتان والحَمّر (مادة صمغية لزجة تستخرج من الصنوبر والسرو) تمكنت بعض الابويات من الحصول على دومينات بعيدة عن أرضها واستغلتها لتجهزها بهذه المحاصيل المختلفة ، وكانت تلزم فلاحيها بالذهاب إلى هذه الاراضي البعيدة بواسطة الزوارق أو العربات والعمل بها . ونذكر كشاهد على ذلك ان كثيراً من الابويات في البلاد المنخفضة كانت مالكة لكروم في شمال فرنسا أو على طول نهر الراين والموز . وكانت كنيسة رنس تملك في الفوج دوميناً يجهزها بالحَمّر خاصة . ومن الممكن تعداد الأمثلة . ولا يفترض هـذا التنظيم الاقتصادي بيعاً أو شراء بل يطابق ما اتفق على تسميته بالاقتصاد الدوميني دون منافذ .

ويجب ألا يظن بأن نمو نظام الدومين كان منشطاً للاقتصاد الريفي لأن العصر الكارولنجي لم يحي أرضاً بوراً ولم يستغل أرضاً متروكة ، إلا في بافاريا وكارانثيا وروسيون حيث أقام شارلومان ولويس التقي لاجئين اسبانيين . ووجدت اراضي كثيرة مهجورة دون استغلال . وكان استعمال الدورة الزراعية على سنتين أو ثلاث سنوات أمراً شائعاً ، ولا تكشف النصوص التشريعية عن مفاهيم اقتصادية وفنية أصيلة . وكل ماوجد ليس إلا من قبيل التعليمات البسيطة التي يمليها الحس السليم والنصائح العملية . ومع هذا فقد اهتمت بعض السلطات الكنسية الكبرى ، من امثال ايجنهارد وآدالارد وتاتو ، بتنظيم الدومين وتحسين الطرق الفنية . وربما كانوا متأثرين بأدب علماء الزراعة اللاتينيين لأن آثار كولوميل نسخت في القرن التاسع ، وكتاب ولافريد سترابون في الزراعة وان كان قبل كل شيء تدريباً أدبياً ، فهو يدل من جهة أخرى على الاهتمام بعلم الزراعة .

التجارة — لم يكن نشاط الدومين المغلق صالحاً لنمو نشاط تجاري كبير . ولا شك في أن المصادر المعاصرة تذكر لنا وجود تجار وأسواق ولكن هذا النشاط التجاري ، الذي يلمح له ، كان ضعيفاً جداً . بيد أن تجارة الأشياء الفاخرة والمنتجات الأجنبية عرفت اهمية نسبية في القرن التاسع لأنها كانت تعتمد على اقلية اجتماعية صغيرة غنية .

ونرى بعض الأسواق في المدن والقرى والدومينات ، ويأتي اليها الفلاحون كل اسبوع ويبيعون فيها السلع الغذائية . وكان لهذه التجارة بعض الاهمية وبخاصة في أوقات المجاعة في المناطق المجاورة . وهؤلاء الفلاحون ، الذين يقومون بالمبادلات من حين لآخر حسب الظروف ، لا يصح مزجهم بالتجار المتهنين . ولقد تأكد بصورة لا تدع مجالاً للشك ان هؤلاء التجار وجدوا في العصر الكارولنجي ، ولكن المهم الا نبالغ بدورهم وأهميتهم ، لأن عدداً منهم لم يكونوا سوى باعة جوالين يحملون بضاعة قليلة القيمة وينتقلون من مدينة لأخرى ، ومن دير لآخر في عهد شارلومان ولويس التقي . ويلاحظ في ايكس لا — شابل ، مقر الامبراطور ، عدداً كبيراً من التجار الذين يمونون البلاط بالاقمشة الحريرية والتوابل والعاج والبضائع الأخرى النادرة والثمينة . وكان يعيش بالقرب من بعض الاساقفة أو في جوار بعض الاديرة تجار يجهزون الكنائس بالبخور والعطور والحرائر والحلي والجواهر . ويستوردونها من اسبانيا والبندقية ونادراً من البحر البالطيكي بكمية قليلة . ولقد كانت من الندرة بشكل يحرص عليها وتعتبر من الهدايا الفاخرة التي تقدمها الشخصيات الممتازة لاصدقائها بشكل بضعة مثاقيل من الفلفل والعقاقير والعطور والكمون والبخور والصباغ على أمل أن تتلقى بالمقابل بعض النباتات الطبية أو قليلاً من العطر أو قطعة حرير . وهذه المبادلات المجانية تدل ولا شك على قلة العلاقات التجارية العادية .

وكثر عدد التجار اليهود في القرن التاسع ، وكان هؤلاء يذهبون إلى خارج الامبراطورية بحثاً وراء الأشياء الفاخرة والنادرة . وكانت بعض المدن تضم جالية يهودية كثيرةُ العدد مثل ليون واكس - لا - شابل وناربونه و بوردو ومايتس .

وبالاضافة إلى تجارة التوابل والمنسوجات الحريرية كانت تجارة الرقيق عنصراً تجارياً هاماً اختصت به البندقية وكان التجار البنادقة يأتون بالرقيق من المناطق السلافية ، التي لم تتمسح بعد والواقعة فيما وراء نهر الايلب ، ويصدرونه بخاصة نحو بيزنطة وافريقية الشمالية . كما ان التجار من فردن كانوا يذهبون إلى اسبانيا ليبيعوا فيها الرقيق .

ووجدت في الامبراطورية الكارولنجية بعض مناطق تتمتع بموقع جغرافي ملائم ساعدها على التفتح التجاري كالمنطقة الواقعة بين نهر السين والموز . ووجدت ثلاث مراكز مجاورة للشاطىء وتفيد في انزال التجارة الانكليزية والفرنجية وهي روان ، آميان ، كانتوفيك ؛ وفي وادي الايسكو ثلاث مراكز أخرى : فالانسين ، تورنيه ، غاند ؛ ونحو الشرق نجد على طول الموز مدينتين تجاريتين : ماستريخت ، فردن ، وعدداً من الموانى مثل دينان ، نامور ، هوي . وكان الانتقال سهلاً في هذه المنطقة . وفيما عدا ذلك كان وادي الدانوب وبلاد سالزبورغ مركزاً نشيطاً لتجارة الملح . وفي ساكس وعلى طول الحدود الشرقية كانت تقوم تجارة الاسلحة والالبسة والخيول مع السلاف والآفار .

وفي الدلتا المتشكلة من مصب الراين والموز كان للفريزون مركز تجاري هام ومركز للزوارق وهو دورشتيد وقد دمره النورمانديون حوالي منتصف القرن التاسع . وكانوا يشحنون الاقمشة والخمر ويعبرون إلى

انكلترا وفرنسا الشمالية ويصعدون مجرى الراين إلى منطقة اقتصادية لنشاطهم . وكان تجارهم في فورمز وكسانتن وستراسبورغ وكولونيا ودويسبورغ . ولهم علاقات تجارية مع التجار الاسكاندينافيين الآتين من البالطيك . وكان للدانيماركيين مستودعات تجارية على شاطىء ميكلامبورغ وشلزفيغ . وهنا ينتهي التيار التجاري البالطيكي الآتي من جزيرة غوتلانـد وشواطىء روسيا . وكانت زوارق النورمانديين تجوب هذه المنطقة ويتعاطى ملاحوهم التجارة والقرصنة معاً .

وكانت دور البندقية في ايطاليا الشمالية كدور دورشتيد في بلاد الفريز مركزاً تجارياً ممتازاً في أعالي العصر الوسيط . ولم تنقطع العلاقات بين هذا الميناء وبلاد البحر المتوسط البيزنطي والاسلامي . وكان البنادقة يذهبون بالرقيق إلى هذه الموانئ ويأتون منها بالمحاصيل الاجنبية ، وفي سنة ٨٤٠ أبرم لوثير الأول مع البندقية معاهدة تجارية جددت فيما بعد مرات عديدة . وانطلاقاً من بداية القرن التاسع دل البنادقة على نشاط اقتصادي كبير في شمال ايطاليا واهتموا خاصة بتجارة الملح . وفي العصر نفسه كانت مدينة كوماكشيو منافساً مخيفاً لهم وكان سكانها يصعدون نهر البو وروافده حتى بافيا مستوردين الملح من مودينا ، وكريمون وبولونيا وبليزانس وبافيـا ، ويحدثون في سهل البو نشاطاً تجاريا . وفي آخر القرن التاسع دمرت البندقية كوماكشيو وأصبحت وحدها نقطة اتصال اقتصادي هام بين ايطاليا والشرق .

وعلى نقيض الفريز والبندقية ، اللتين تؤلفان في القرن التاسع مركزين للتجارة العالمية مع الامبراطورية الكارولنجية ، بدت بروفانس وميناء مرسيليا المزدهرتين في الماضي ، في حالة تأخر اقتصادي . وبالرغم مما يفد

على مرسيليا من سفن ايطالية ، وما يلاحظ على طول الشاطىء الليغوري من نشاط تجاري ، فان الملاحة العربية اضعفت ملاحة اوربة في حوض المتوسط الغربي . وقد عبر عن هذا الانقطاع في العلاقات المديدة بين جنوب فرنسا وشواطىء افريقية وروسيا راهب دير القديس غال عندما ابدى عن اسفه إلى شارلومان بقوله ان هوة تفصل امبراطوريته عن امبراطورية البازيلوس البيزنطي .

كانت الطرق المائية والطرق الرومانيـة القديمة تؤمن سير المسافرين والبضائع عبر الامبراطورية . ولم ير في أي مكان أي رسم لطرق جديدة في هذا العصر . على أن الملاحظ هو أن السادة في بعض المناطق كانوا يحرصون على العناية بشبكة الطرق القديمة واعادة بناء بعض الجسور . فقد شيد جسر خشبي على الراين في ماينس في أول القرن التاسع . وفي بولون رفع شارلومان المنـار القديم من الاطلال . وكانت شعاب الجبال مون سوني ، سبتيمر ، القديس برنار الكبير سالكة ومطروقة ، بينما كانت الطرق المؤدية من ايطاليا إلى بروفانس مهجورة تقريباً .

الصناعة . — لم يعرف العصر الكارولنجي صناعة كبرى . فقد كان الأمير في كل دومين يشغل الفلاحين ممن يلمون بشيء من المعرفة المسلكية في تحويل بعض المنتجات الزراعية ، أو نسج الأقمشة أو صنع الادوات الابتدائية . ولم يكن هؤلاء الصناع كثراً أو مختصين ونذكر على سبيل المثال : الحداد والنجار وصانـع الأسلحة والدروع والبناء والخياط وغيرهم .

ويجدر بنا أن نذكر أن صناعة النسيج في منطقة الفلانـدر والفريز تنتج أقمشة مشهورة ناعمة ولها مكانة هامـــة نسبياً في التجارة العالمية . وكان التجار الفريزون ينقلونها ويتاجرون بها في البلاد البعيدة ، وبفضلها

نهضت صنـــاعة الفلاندر في القرون التالية نهوضاً عظيماً ، وغدت هذه المنطقة منذ القرن التاسع في عداد المناطق المنتجة للأقمشة .

وكان معظم الصناع من الفلاحين الذين يجمعون بين الزراعة والصناعة . والى جانب هذه اليد العاملة غير الاختصاصية وجد عمال عرفوا بمهارتهم الفنية ويفوقون الفلاحين بأعمالهم . وكان لدى الكنائس والابويات مهندسون معماريون وصياغ يعملون في تزيين الأبنية الدينية وتجميلها ، وكان أكثرهم اكليركيين . وكان بين هؤلاء الصناع المهرة رجـال أحرار يقيمون في المدن وآخرون طوافون يجوبون أنحاء الامبراطورية ، وأشهرهم بناؤو كوم . وليس بالمستحيل أن نجد في ايطاليا ، في رافنـه وروما ، في القرن التاسع ، تجمعات أصناف مهنية يعود تشكلها الى عهد الامبراطورية الدنيا . وكان الحدادون والصياغ يتمتعون ببعض الامتيازات ولهم أوضاع خاصة .

وكانت الصناعات الفاخرة تخصص منتجاتها للعبادة والعالم الاكليركي كصناعة الصلبان والصينيات وحقات القربان والثريات والصناديق الذهبيـة والفضية والنحاسية لحفظ المخلفات ، والنواقيس ، وتجليـــد الكتب ، والزجاج الفاخر . وكان عدد هؤلاء الفنانـين قليلاً ويبحث عنهم في في كل مكان .

وكان هؤلاء الصناع المهرة يصنعون الألبسة الثمينة والأسلحة الفاخرة لكبار الأمراء العلمانيين . وكان للحديد دور أساسي في تسليح الجيوش .

وفيما عدا إنشاء بعض الكنائس والقصر الامبراطوري في ايكس – لا – شابل لم يكن للعصر الكارولنجي كبير نشاط في البناء . فمن حين لآخر يبنى جسر أو يصلح آخر ، أو قنطرة أو بناية عامـة . وكان الملوك يتدخلون في بعض الأحيان لحسن سير الأعمال . ويأخذ الأساقفة

والآباء وكبار العلمانيين على عاتقهم القيام بالمبادهة . وكان النشاط واضحاً في نطاق بناء الحصون والأسوار بسبب الغارات النورماندية ابتداء من منتصف القرن التاسع . وكانت هذه الأبنية بدائية ، والحواجز والتصوينات والدكوك المبنية بالخشب والتراب أكثر من الأسوار الحجرية .

النقد . — لقد حدث في القرن الثامن حادث هام من الوجهة الاقتصادية وهو حلول العيار الفضي محل العيار الذهبي بسبب فقدان المعدن الأصفر الذي امتصه الشرق . أما الاصلاح النقدي الذي بدأ به بين القصير فقد انتهى في عهد شارلومان . وبعد كانت **السو** حتى ذلك الحين عملة ممتازة ، أصبحت عملة حساب كالليرة وأصبحت العملة الحقيقية منذ الان **الدينار الفضي** ووزنه القانوني ٢٫٠٤ غرام . وفي عهد بين كان كل ٢٦٤ دينار يساوي ليرة . وفي عهد شارلومان وصل هذا الرقم إلى ٢٤٠ . وكانت الليرة النقدية تساوي ٢٠ سو ، والسو ١٢ دينار . وقد ذاع نظام النقد الكارولنجي في جرمانيا دون أن يزيل الأنظمة النقدية السابقة له . ويلاحظ من جهة أخرى ، أن العملة البيزنطية في وادي الدانوب ، والعملة الانغلو — ساكسونية والاسكاندينافية في شمال جرمانيا . ولا شك في أن الأعمال التجارية توضح هذا التغلغل النقدي الأجنبي .

وكان ضرب النقد الكارولنجي وحيد المعدن . ومع ذلك فقد ضربت بصورة استثنائية بعض النقود الذهبية باسم شارلومان ولويس التقي ، وأصلها من الفريز وكانتوفيك واوزيس (في جنوب فرنسا) حيث بقيت جزئيا ذكرى السك الفيزيغوطي وحيث كان اليهود يشخصون إلى اسبانيا لينافسوا فيها الذهب العربي . وأخيراً عرفت ايطاليا السك الذهبي خلال فترة أطول مما في فرانسيا . وكان مشغل لوقا يصدر بعد ٧٧٤ ثلثي

نقود السو الذهبية باسم شارلومان على نمط نقود ديديه ملك اللومبارديين كما ظلت النقود الذهبية تضرب أيضاً في بينيفن في القرن التاسع .

وحتى الثلث الثالث من القرن التاسع كانت العملة الكارولنجية عملة ملكية يظهر عليها اسم الملك لا اسم الضارب . وعمل الملوك الكارولنجيون ما في وسعهم ليثق الجمهور بالعملة . فكانوا يسهرون خاصة على صحة وزنها ويحاولون ، ولكن دون جدوى ، ألا تضرب الدنانير إلا في المشاغل الرسمية . ولقد حدد موسوم بيتْر الصادر في ٨٦٤ تسعة مشاغل في فرانسيا الغربية لضرب النقود . ومع هذا نرى في آخر عهد شارل الأصلع عدداً عظيماً من النقد ضربه الكونتات والكنائس لصالحهم ، ولكن بعد أن حصلوا على امتيازه من الملك ليؤمنوا تداوله . غير أن تجميد النماذج النقدية وتوضعها بسبب اغتصاب العملة أصبحا أمراً شائعاً ابتداء من القرن العاشر .

وكان الدفع عيناً منتشراً ويؤدي الفلاحون الضرائب المتوجبة عليهم من منتجات الأرض والتربية الحيوانية . وكان ينص في عقود البيع على الثمن بخيول أو حيوانات أو ألبسة أو أسلحة وغيرها . وعندما يراد دفع مبلغ هام كان الدفع معدناً ذهبياً أو فضياً موزوناً .

الحياة الفكرية

النهضة الكارولنجية . — لقد تمثلت الحياة الفكرية في العصر الكارولنجي بالنهضة ، وهذه النهضة ، من حيث المبدأ ، كانت تجديداً في تعليم الاكليروس ، لأن الحالة البائسة التي تردت اليها ثقافة الاكليركيين دفعت شارلومان إلى القيام باصلاح فكري كبير . وتدل البراءات التي

أصدرها في هذا السبيل على القلق الذي ساور الامبراطور . كانت النهضة الكارولنجية قبل كل شيء ، وفي أساسها اصلاحاً مدرسياً لصالح الأطفال المخصصين للاكليروس . فقد أمر شارلومان أن تؤسس المدارس للأطفال المربين في الأديرة لتعليم القراءة والكتابة ومبادىء اللاتينية وبعض شروح اجمالية للكتاب المقدس والكتب الليتورجية . وكان هذا التنظيم المدرسي الديري أساساً لكل شيء . وحافظت المدارس الأسقفية التي ظهرت في الامبراطورية في تور ، سانس ، ليون ، تريف ، مـــاينس ، فورمز وغيرها على هذا الطابع العملي في تعليم النحو والبلاغة والجدل ؛ وتعليم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، وبكلمة مختصرة الفنون الحرة . وهذا ما يسمى **الثالوث** و **الرابوع** . وكان الاساتذة يرجعون في تعليم هذه العلوم إلى مؤلفـــات الآباء مثـــل بيد ، ايزيـدور ، كاسيودور ، أو شيشيرون ، بريسيان ، دونات .

ثم أصبحت هذه المدارس الأسقفية مراكز فلسفية نظرية عاليـــة ، ولكنها في أصلها مدارس تعليمية بسيطة دون أصالة ، غير أنها جـدية ومتعلقة بالتقليد . وقد استطاع شارلومان ، باعطاء هذه المدارس أساساً مدرسياً تقليدياً ، وفي متناول الجميع دون تمييز طبقة اجتماعية ، أن يؤمن مستقبل هذا التجديد الفكري كله .

وكان **الكوين** أكبر أعوان شارلومان . وهو انغلو — ساكسوني أتى إلى غاليا بدعوة من الملك الفرنجي عام ٧٨٢ . وفي ٧٩٦ قصد دير القديس مارتن في تور واستقر فيه ابتداءً من ٨٠١ ، ومات عام ٨٠٤ . ولم يكن مبدعاً ، بل ناقلاً جامعاً . ولكنه في هذا الدور من النهضـة الكارولنجية كان يساوي أكثر من عبقرية ظلت منعزلة . وقـد حفظ

عدد من مؤلفاته ، ومنها نستشف اهتمامه باعطاء المدارس كتباً مدرسية يدوية ، وانقاذ القسم الأكبر من ثقافة العصر القديم الفكرية من النسيان .

وكان **بطرس بيزا** (المتوفى قبل ٧٩٩) **وبول دياكو** مساعدين ثمينين للملك . ولقد أتى شارلومان ببطرس بيزا إلى غاليا بعد انتصاره على ديديه ، ملك اللومبارديين ، وكان بطرس نحوياً . وكان بول دياكر نحوياً ومؤرخاً عرف الأوساط الكارولنجية بالتاريخ الروماني وتاريخ اللومبارديين وعلم في ميتز وألف تاريخاً لأساقفة هذه الابرشيه . غير أن **تيؤدولف اورلئان** كان أعظم رجل في هذا العصر وأكثر معرفة بحاجات زمانه . أصله من اسبانيا ، دعي إلى بلاط شارلومان عام ٧٨١ ، ورسم اسقف اورلئان في ٧٨٦ وتوفي عام ٨٢١ . نظم مدارس عديدة في ابرشيته : مدرسة الصليب الأقدس ، والقديس اينيان ، والقديس بندكت ، والقديس ليفار . ولم تكن هذه المدارس خاصة بمن يعدون للحياة الدينية ، بل مفتوحة لكل من يريد الاختلاف اليها . وذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد طلب إلى كهان الأرياف أن يكون لديهم مدارس مجانية للأطفال في القرى الأميرية (الفيلايات) أو الحرة . وامتد هذا التعليم إلى الوعظ والارشاد . وكان الرعاة لا يألون جهداً في توجيه إلى المؤمنين كل يوم أحد .

ومما يلفت النظر أن هؤلاء الأعوان كانوا أجانب عن غاليا . فقد جاء الكون من انكلترا ، وديكويل وكليان من ايرلنده ، وتيؤدولف من اسبانيا ، وبطرس من بيزا ، وبول دياكر وبولن اكيليه من ايطاليا. وعلى الرغم من أن حضارة غاليا قد تدنت في آخر الدور الميروفنجي وبداية العصر الكارولنجي ، فلم تكن عموماً أدنى من حضارة البلاد

المجاورة ، ولا يفهم بادىء بدء أن هذا اللجوء الى الاجانب وحدهم كان لتنقية لغة النصوص وكتابتها ، وبخاصة النصوص المقدسة . لقد تطورت اللاتينية بصورة عجيبة منذ نهاية الامبراطورية الرومانية . وكان الناس المتعلمون ، وحتى الاكليروس ، يلفظونها كجماهير الشعب ويكتبونها كما يلفظونها . وإذا اضيف إلى ذلك أن الإعراب والتصريف كانا في حالة خراب ، وإن جرس الشدة حل محل الجرس الموسيقي ، أمكننا أن نوضح أن فهم الكتابات القديمة من مقدسة ودنيوية لم يكن في المتناول دون دراسة طويلة وشاقة ، وأن مربيي غاليا لم يكونوا قادرين على فهم اللاتينية بحق ، وعلى عمل التجديد المنشود . ولذا كان الأساتذة الأقحاح في النحو والاملاء والفكر من سكان الجزر . فقد حافظت الأديرة في بريطانيا العظمى وايرلندة على كتابة اللاتينية ولفظها نقية . واستطاع هؤلاء العلماء أن ينجحوا في اصلاحهم اللفظ والكتابة وفهم الطرق القديمة . ولكن الهوة وجدت بين اللاتينية الصحيحة واللاتينية المتكلم بها وأصبحت اللاتينية لغة ميتة ولا يفهمها الشعب حتى إن المجامع سمحت بالتبشير باللغة العامية ، اللغة الرومانسية ، لغة غاليا وإيطاليا واسبانيا . وهذه اللغة ليست اللاتينية بالمعنى الكلاسيكي القديم .

ومن مدرسة القصر ودير القديس مارتن ، حيث استقر الكون ، شع الاصلاح ، ونقل رابان ، تلميذ الكون ، طرقه إلى فرنسا الشرقية ، إلى فولدا ، وكون بدوره تلاميذ آخرين . وأصبح لكل كاتدرائية مدرسة . وكانت الأديرة مراكز المعرفة . ومما يلفت النظر أن الاكليروس الأعلى رجا لويس التقي عام ٨٢٩ تأسيس ثلاث مدارس عامة، جامعات امبراطورية ، ولكن هذه الامنية لم تتحقق .

وكان من الضروري ، للقيام بالدراسات ، وجود وسائل عمل أي نسخ

من الكتـــاب المقدس وكتب ليتورجية ونصوص من آباء الكنيسة مع ما يلحق بها من مؤلفات الكلاسيكيين اللاتين . وكانت ايكس ـ لا ـ شابل ، تور ، ليون ، القديس دوني ، اورلئان ، رنس ، كوربي ، ميتز ، القديس جرمن دوبريه ، فولدا ، كولونيا ، مراكز هامة للنسخ .

وأخذ نوع الكتابة في هـذا العصر اسم « الكتابة الكارولنجيـة » وهي كتابة مستديرة تختلف بوضوحها وبساطتها عن الكتابة المتشابكة في العصر الميروفنجي . وتوصلت أبحاث علماء الكتابات الأثرية إلى تعيين مراكز مختلفة لاصلاح الكتابة .

وكان الكثير من هذه المخطوطات مرفقاً بنمنمات وتزيينات ، وبعضها رائع جـــداً ، ونخص بالذكر « كتاب الاناجيل لجميع القداسات » لشارلومان وهو من عمل غوتشالك في ايكس ـ لا ـ شابل ، وكتاب « المزامير » الذي أعطاه شارلومان إلى البابا هادريان الاول .

تطور النهضة وتفتحها . ـ لقد تطورت النهضة في عهد لويس التقي ومن الممكن من الوجهة البديعية الجمالية ، أن يقال انها نشأت ، لان اهتمام الكون كان دينياً فقط ، ويخشى بل يكره الادب الدنيوي القديم من أعمـــاقه . كما يمكن القول ان النهضـة أصبحت انسانيـة وصارت الآداب تدرّس لذاتها .

وتتمثل سيماء هذه النهضة الثانيـــة بالفكر الموسوعي ، والانساني ، والجدلي . فقد كان الفكر الموسوعي يتمثل في **رابان مور** ، وكان أعظم وجوه هذا العصر . فقد ولد في ماينس عام ٧٨٤ ودرس على يد الكون في تور ثم أصبح أب دير فولدا . ثم اسقف ماينس وتوفي في ٤ شباط ٨٥٦ . أتم برنامج استاذه ، وكتب عدة كتب مدرسية بفكر

الملاحظة والحس المشخص اللذين لا نجدهما عند الكون . وكان رابان مور أول الموسوعيين ، ونراه في القرن التاسع يذكرنا بأحد أبناء وطنه في القرن الثالث عشر وهو **البير الكبير** . لقد جعـــل الكتاب المقدس ، النحو ، الحساب ، الموسيقى ، الليتورجية في متناول الجميع . وبالاضافة إلى ذلك كان يلاحظ الطبيعة ويتأمل في الكون ، وهذا مظهر جديد من مظاهر النهضة الكارولنجية .

وكان الفكر الانساني يتمثل في **لوب فوريير** ، ويذكرنا في القرن التاسع بجان سالزبوري في القرن الثاني عشر . ونراه في مراسلاته يبحث عن مخطوطات الشعراء والبلغاء وفلاسفة العصور القديمة . وقد نسخ بنفسه هذه الآثار ، وكون لنفسه أجمل مجموعة تضم المؤلفين القدامى مثل : سالوست ، سويتون ، اوريليوس ، فيكتور ، سنك . فاليو مكسيم ، وحاول أن يحرر مراسلاته بريشة شيشيرونية .

أما الجدل فقد تمثل في **اغوبارد** تلميذ رئيس اساقفة ليون ليدراد وخلفه من ٨١٦ إلى ٨٤٠ . وكان مزاجاً جدلياً عنيفاً . قضى حياته في كفاح المفاسد ، والأباطيل الشعبية ، والايمان بالسحر ، وعبادة الصور ، واغتصاب أموال الكنيسة ، والمبارزة القضائية واختلاف القوانين العصرية ، وعرف بكرهه لليهود ووقاحتهم . وكان مرأ متهكماً في جدله اللاهوتي والليتورجي ضد فيلكس اورجيل ، كما كان يكره جداً الامبراطور لويس التقي والامبراطورة جديث ويرى أن الاولاد كانوا على حق في الثورة على أبيهم غير الكفء الذي كان العوبة بيد حاشيته .

الأنواع الأدبية . — لقد كان الاهتمام منصرفاً في هذا العصر إلى **الشعر** المعروف دون اهمال الشعر الايقاعي . وكان الشعراء الكارولنجيون

يستلهمون النماذج القديمة مثل فيرجيل واوفيد وغيرهما ، والشعراء المسيحيين مثل برودانس .

نظم **جوزيف الايرلندي** المتوفى حوالي ٧٩١ قصائد تقية ، ولكن الشعر العظيم كان في تمجيد انتصار شارلومان على تاسيلون بافاريا عام ٧٨٧ الموقع باسم مؤلفه « الايرلندي المنفي » وهو **دونغال** الذي نشأ وتربى في دير القديس — دوني .

والاسباني **تيؤدولف** (المتوفى في ٨٢١) وكان أمهر شعراء عصره . كتب في ٦ كتب مقطوعات دينية وأخلاقية .

وكان للفرنجة شعراؤهم مثل : **انجيلبير** (المتوفى عام ٨١٤) . وهو أب علماني في دير القديس ريكيه ، تغنى بالملك وأبنائه وبناته . وكان محباً لاحداهن ، بيرته . ولقب بهوميروس في أوساط البلاط الثقافية . وغنى **مودوان** ، اسقف اوتن حوالي ٨٤٠ ، سعادة العالم في ظل حكم شارل في حوار على طراز قصائد فيرجيـل الريفية . وكان لقبه الشعري نازو أي اوفيد .

ومن شعراء البلاط **ارمولد الأسود** الاكيتاني (المتوفى بعد ٨٣٨) . مجد أحداث لويس التقي السامية وابنه بين في أشعار تخالطها نسمة الملحمة في الفينة بعد الفينة ، ولكن الذي يفسدها هو المبالغة واساءة استعمال الميثولوجيا .

و**فالافريد** السؤابي ، ولقبه سترابو (المتوفى عام ٨٤٩) تثقف في اليانيا في دير رايخناو (في جزيرة في بحيرة كونستانس) ثم في فولدا . وسمي مربياً للشاب شارل بجهاية هيلدون عام ٨١٩ . مجد الأسرة الامبراطورية في أشعاره « على تمثال تيؤدوريك » . ونراه في « رؤيا الجحيم » يهجو

الاخلاق والطباع ، ولا يوفر حتى شارلومان بسبب شبقه ، ولكنه يفتديه أخيراً . و « حياة القديس ماميس » تصف بسذاجة وسحر الطفل الناسك يبشر بالانجيل حيوانات الغاب . وأخذ وصفه لحديقة ابويته القديمة بمجامع قلوب ادباء عصر النهضة فنشروها عدة نشرات . وكان فالافريد وحيد عصره بهذا الانطباع الندي الغض الذي نلمسه في شعره بالنسبة إلى معاصريه من الشعراء الذين لا يقدمون إلا أزهاراً من ورق .

وهناك موضوعات أقل دنيوية تستهوي المثقفين . فقد فسر **فلوروس ليون** (م . حوالي ٨٦٠) الاناجيل والمزامير وبكى تفتت الامبراطورية . ومجد غوتشالك الراهب الساكسوني (م . حوالي ٨٦٦) ، الذي اضطهد لنظرياته في الجبرية ، تقواه في أشعار مؤثرة على شرف السيد المسيح .

ونظمت شعراً سير بعض القديسيين على يد : **هيريك** في سيرة القديس جرمن ، و **ميلون** في سيرة القديس آمان ، و **هوكبالد** في سيرة ركترود . ولكن هذا الأخير كان يتسلى أيضاً في « مدح الصلع » .

وفي آخر القرن مجد **آبون** راهب دير القديس جرمن دوبريه مقاومة الباريسيين للنورمانديين عام (٨٨٥ — ٨٨٦) في قصيدته « الباريسية الحسناء » ولغتها غامضة ومصحوبة بتفسيرات وشروح .

وفي لوتيرانجيا اهدى الايرلندي سيدوليوس (م ٨٥٨) مقطوعات إلى الامبراطورة ارمنغارد والملكين شارل ولويس الجرماني ، وإلى اساقفة لييج وكولونيا . و **فانداليوت** أب بروم (م ٨٤٨) نظم حياة الشهداء شعراً .

وفي جرمانيا كتب **آجيوس** أب كورفيه ترجمة حياة هاتومود رئيسة دير غاندرشهيم ، وقيمتها ضعيفة . وهناك راهب آخر من كورفيه

مازال مجهولاً ، الف بين ٨٨٨ و ٨٩١ تاريخاً في مدح شارلومان بنظم الحوليات الرسمية شعراً .

ووصف **سالومون الثالث** أب دير القديس غال واسقف كونستانس (٨٩٠ – ٩٢٠) ، في رسالتين منظومتين حالة المانيا الفظيعة التي مزقتها المنازعات الداخلية ، وهاجمها الهونغاريون وحكمها لويس الطفل آخر الكارولنجيين في الشرق .

التاريخ : — لقد اهتم الكارولنجيون بتاريخهم الخاص وأرادوا أن تراهم الأجيال التي تخلفهم على ضوء ملائم . فقد كتب تاريخ امارة شارل مارتل وبيبن القصير بايحاء من أخ شارل الخاص هيلدو براند وابن هذا نيفيلون بشكل تكملة لتاريخ فريديغير حتى السنة ٧٦٨ .

وابتداءً من هذا التاريخ تعرف الحوادث من « **الحوليات الرسمية** » التي كان يحررها اكليركيو كنيسة البالاتن . وكانوا يجمعون في اطار كل سنة الأحداث التي تبدو لهم اكثر نفعاً من غيرها دون أن يبحثوا عن ايضاح أهميتها . وكانت لغة هذه الحوليات فقيرة رفلاء حتى شعر ، في القرن التاسع ، بحاجة الى إعادة تحريرها حتى السنة ٨٠١ . وقد نسب هذا العمل الجديد دون مبرر مقنع الى ايجنهارد أمين سر شارلومان ومترجم حياته . وتقف هذه الحوليات عند السنة ٨٢٩ . غير أن التمزق الذي اعترى الامبراطورية قطع هذا العمل . ولم يعرف المحررون أي وجهة يتجهون ، وفي أي صف يكونون . ثم اكملت هذه الحوليات من جانبين : من فرنسا الشرقية التي أصبحت فيما بعد المانيا ، ومن فرنسا الغربية . ففي المملكة الاولى امتدت الحوليات حتى السنة ٨٨٧ وحررت من قبل مؤلفين مختلفين ، وبخاصة مؤلفين من دير فولدا . ومن هنا أخذت هذه

الحوليات اسم « **حوليات فولدا** » . وهي موالية بكاملها الى ملوك جرمانيا . وفي الغرب تابع مجهول سرد الحوادث حتى السنة ٨٣٥ ثم اتمها **برودانس** اسقف تروا حتى سنة ٨٦١ ومن بعده هنكمار مطران رنس حتى وفاته سنة ٨٨٢ . وقد بدل هذا المحرر طبيعتها وجعل منها يوميات شخصية عرض فيها افكاره ، ومجد فيها شكاواه واحقاده ، وعند الحاجة ، ضد الملك . وقد وجدت اقدم مخطوطة لها في دير القديس برتن ، وجرت العادة على تسميتها « **الحوليات البرتنية** » .

التراجم . — أما سير الملوك الحاكمين فكانت نوعاً آخر . وقد أعطى ايجنهارد نموذج هذه السير في كتابه « **سيرة شارلومان** » التي ألفها بعد وفاة الامبراطور . وتعتبر من حيث الاسلوب رائعة من روائع النهضة الكارولنجية . ويبدو فيها أن الشكل والمخطط مستوحيان من المؤرخ اللاتيني سويتون . ومن الممكن أن يتساءل ما إذا كان هذا التقليد يضعف قيمة الجوهر أو يلغيه تقريباً .

ولا يوضع هذا التساؤل بشأن « أعمال الامبراطور شارلومان » ، الذي ألفه نوتكر الألكن راهب دير القديس غال في آخر العصر . وهو كتاب مغرض ، والقصص التي ينقلها ليس لها طابع شعبي .

وكان لويس التقي بطل مؤلفين نشرا بعد وفاته : الأول ألفه تيغان نائب اسقف تريف ؛ والثاني ألفه مجهول اتفق على تسميته بالفلكي بسبب الأهمية التي يعلقها على الحوادث السماوية . وهذان المؤلفان يعارضان ويردان على الأحكام البغيضة التي حملُ بها على الامبراطور لويس التقي .

أما الملوك الآخرون فلم يكن لهم تراجم . بيد أن حكم شارل الأصلع كان موضع اهتمام التاريخ . فقد ألف **نيثار** ابن عمه انجلبيرت بناءً على طلبه كتاب « تاريخ أبناء لويس التقي » باللاتينية معتمداً في

ذلك على مذكرات شخصية ووثائق رسمية . وفيه يصف الحوادث التي اشترك بها من ٨٤٠ حتى ٢٠ آذار ٨٤٣، غير أن موته المفاجيء في العام ٨٤٤ في خدمة الملك الشاب شارل حال دون متابعة كتابة هذا الأثر التاريخي لهذا العصر .

لقد كان نيثار أميراً من أمراء الكارولنجيين ، شغل عدة مناصب مدنية وعسكرية ، وكان متعمقاً بدراسة الآداب المقدسة ومثقفاً ثقافة عالية . وبالرغم من انه نصب رئيساً لأحد الأديرة إلا أنه كان علمانياً يكتب باللاتينية . وفي ذلك دليل على أن الثقافة لم تكن وقفاً على رجال الدين .

يضاف إلى ذلك المؤرخ اللاتيني بول دياكر ، وهو نبيل لومباردى تثقف ثقافة عالية وعقد صلات مع البيت الملكي اللومباردي ، وعمل مربياً لابنة الملك ديديه اللومباردي وألف لها قبل ٧٧٤ « ملحق التاريخ الروماني » لمؤلفه ايتروب . وقد قربه ديديه وأطلعه على أسرار كثيرة من أمور الدولة . ومنذ ٧٨٧ أقام بول دياكر حتى وفاته في دير مونكاسينو وأطلق العنان لنشاطه الأدبي . وأعظم ثمرة لهذا الجهد هو كتاب « تاريخ اللومبارديين » الذي ذهب به من الاصول الاسطورية حتى ٧٤٤ . وقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً عظيماً . وفيه يظهر حياد المؤرخ باسلوب مفعم بالحركة والحياة .

كتب السياسة . — لقد رأى رجال الكنيسة من واجبهم أن يسدوا النصح إلى الامراء . فمن ذلك أن سمارا غدوس ، أب دير القديس مييل ، المتوفى سنة ٨٣٠ ، ألف لشارلومان كتاباً أسماه « الطريق الملكي » ، وجوناس اورلئان وجه في ٨٣١ كتابه « النظام الملكي » إلى بين اكيتانيا الاول ، وسيدوليوس كتابه « العمداء

المسيحيون » إلى لوثير الثاني ؛ وهنكمار كتابه « الشخص الملكي ومهنة الملك » إلى شارل الأصلع .

وهذه الكتب التي سميت فيا بعد « **مرايا الأمراء** » مخيبة للغاية وليس فيها ظل لفكرة سياسية ، بل هي مواعظ رخيصة مبتذلة وحض تافه للفرار من الذنب ودعوة لممارسة العدل .

تاريخ الاسقفيات والأديرة . — وبدأت الاسقفيات والاديرة تنحو منحى تراجم البابويات المعروفة باسم « **سير الأحبار** » ، وتكتب تاريخها الخاص معتمدة في ذلك على حياة القديسين الحقيقيين جهد المستطاع ، وعلى حوليات صغرى محلية ، وعلى صكوك منسوخة غالباً ، وأخيراً على ذكريات وملاحظات .

سير القديسين . — لقد قل في هذا العصر عدد الشخصيات التي يقدسها الرأي ، على حين أننا لا نجد في العصر الميروفنجي اسقفاً أو أباً إلا واشتهر بأنه قديس بعد موته . فقد عرف ما لا يقل عن ٣٥٠ سعيداً في غاليا وجرمانيا بعد اعوام ٤٨١ و ٧٥١ بينا لا نجد سوى خمسين قديساً جديداً بين أعوام ٧٥١ و ١٠٠٠ . ومع ذلك فلم يفتر التأليف في سير القديسين .

ولم توضع لكل قديس سيرة ، بل ان عدداً عظيماً من سير القديسين التي كانت معروفة في العصر الميروفنجي اعيدت كتابتها من جديد لتتفق مع روح العصر وذوقه . وقد شذب اسلوب هذه السير حتى أفسد الجوهر . واخطر من ذلك ان الكتاب كانوا يؤلفون سيراً للقديسين على انماط معروفة وحسب سير بعض شخصيات من العصر الروماني لم يبق منهم سوى اسمهم لتعلق الناس بهم في بعض الأماكن وجهلهم لحياتهم .

وهناك نوع آخر من سير القديسين نما نمواً عظيماً وهو نقل رفاة

القديس أو مخلفاته بسبب الغزو النورماندي وما نجم عنه من نكبات . فقد كتب عدد كبير من هذه السير وذكر فيها اغتراب رجال الدين وهم ينقلون رفاة القديس الى ضريحه ثم لا يلبثون ان يعيدوها حيث كانت واحياناً يعاودون الكرة ويفرون . وقصة هذه التنقلات والاسفار مصحوبة بالخوارق والكرامات مثل سير القديسين : دوني ، جرمان ، واسط ، فيليبر ، فاندريل . وكلها تتضمن معلومات وفيرة من كل نوع . ويبدو أن القديسين من أبناء البلاد ما كانوا ليشبعوا رغبة التقوى والورع في نفوس المؤمنين ، بل كثيراً ما كان يبحث عن نقل بقايا القديسين من أماكن بعيدة للتبارك بها ودفع الأذى . ويبدو ان دير القديس — دوني كان مركزاً لهذا الاتجاه الجديد في تأليف سير القديسين .

اللاهوت والفلاسفة . — لقد كان جان سكوت الايرلندي في المقام الاول بين رجال التجديد الفكري في القرن التاسع . ولد في ايرلنده وجاء إلى بلاط شارل الأصلع قبل ٨٤٥. وبين ٨٦٠ و ٨٦٦ اعاد النظر في ترجمة دونيس التي وضعها هيلدون . وستستعمل هذه الترجمة المنقحة خلال العصر الوسيط كله ، حتى بعد ترجمة جان سارازن وروبير غروستيت . وبعد ذلك بقليل أي بين ٨٦٢ و ٨٦٦ الف جان مؤلفه العظيم « اقسام الطبيعة » . ووضعه بشكل حواربين الأستاذ والتلميذ على نمط كتاب «طيماوس» لافلاطون . ولأول مرة يطالب فيلسوف بحق العقل بقوة . ولأول مرة في هذه النهضة الكارولنجية نجد رجلاً يفكر بنفسه . فهو يتصور الطبيعة بأربعة مظاهر : الطبيعة الخالقة وغير المخلوقة ؛ الطبيعة المخلوقة التي تخلق بدورها ؛ الطبيعة المخلوقة التي لاتخلق ؛ الطبيعة التي لاتخلق وهي غير مخلوقة . وهذا الكتاب يضم مجموع المذاهب الأساسية للافلاطونية الحديثة التي وصلت اليه بطريق دونيس ومكسيم المبشر ، وغريغوار دونيس والقديس اغسطينوس .

وسيدخل كتاب « اقسام الطبيعة » عنصراً أساسياً في فلسفة العصر الوسيط حتى نهضة القرن الخامس عشر .

مناقشات في سر القربان المقدس . — لقد قام في عهد شارل الاصلع جدل في طريقة حضور جسد ودم المسيح في الافخاريستيا . ففي ٨٢٣ تناول آماليرهذه القضية في « الوظائف الكنسية » وقبل بالحضور الحقيقي ، ولكن دون ان يقدر على ايضاح طريقة هذا الحضور ، ولم يعرف كيف يميز جسد المسيح بن مريم والجسد القرباني والجسد الصوفي المتمثل بالكنيسة . وشجبه فلوروس ليون عام ٨٣٨ في مجمع كييرسي . واول لا هوتي اقترح في هذه النقطة الصعبة مذهباً متجانساًومنظماً هو باشاز رادبير في كوربيه . فقد حلل طريقة الحضور الحقيقي وقبل استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح وأصر على تطابق الجسد التاريخي للمسيح مع الجسد القرباني . وكانت تنقص باشاز المعرفة بما وراء الطبيعة ولكن اتجاهه صالح . ثم تناول القضية راترام جزئياً (٨٥١ — ٨٥٩) وحاول وضع تناقض بين وجود الجسد القرباني وعدم رؤيته . ورأى أنه لا يوجد تطابق بين هذ الجسد القرباني والجسد التاريخي . وفي الحقيقة كان النزاع قائماً على الكلمات . ودافع رابان مور نفسه عن مذهب راترام . وتبناه مع شيء من الفروق الدقيقة فلوروس ليون وفالافريد سترابو وغوتشالك . ويبدو أن جان سكوت جنح إلى رأي هؤلاء اللاهوتيين ، بينا دافع هنكمار رنس دفاعاً مراً عن مذهب باشاز .

الجبرية . — وكان النزاع في الجبرية اعنف المنازعات في القرن التاسع . فقد أوقع مفكري العصر في تنــــاحر مع بعضهم . فحوالي العـــام ٨٤٨ دعم الراهب غوتشالك فكرة وجود قدر مزدوج غير قابل للتبديل

والتحويل : قدر للصالحين وآخر للاشقياء ، فصدم هذا المذهب هنكمار ومن الممكن القول ، دون الدخول في تفصيل المنـــاقشة ، ان برودانس تروا ، وابان مور ، راترام ، لوب فيريير كانوا في جانب غوتشالك في القسم الجوهري من مذهبه . ودخل ايريجين في النقاش وصرح بأن العقل سلطة كافية للفصل في هذه القضية . وبموجب العقل لا يمكن أن يوجد قدر مزدوج . وهل يمكن الكلام عن جبرية ؟ وهل يمكن الكلام عن جهنم ان لم تكن شكلاً أو حالة من حالات الوجدان ؟ وكتب فلوروس ليون عقب هذه التصريحات مؤلفاً عن حماقة جان سكوت ايريجين وعذر غوتشالك على خرفة ، ولام استعلاء هنكمار وقساوته وازعاجه للجميـع . وأخيراً بقي كل واحد منهم على مواقعه . ولأول مرة في الغرب ، منذ القرن الخامس ، تناقش قضايا هامة في اللاهوت بطريقة عقلانية .

اسهام الاغريق في النهضة الكارولنجية . — كان الايرلنديون كثراً في بلاط ملوك الفرنجة منذ شارلومان . ومن الخطل المبالغة بتأثيرهم حتى في عهد شارل الأصلع . ومعظمهم مثل جوزيف ، كليمان ، دونشاد ، توماس ، ليسوا سوى نحويين وناظمي أشعار . لقد كانوا عمالاً طيبين ولكنهم لم يكونوا فنانـين ، ولم يكن لهم أثر عميق في معاصريهم ، وهم يتدخلون في الاصلاح دون ان يكونوا له مؤلفين وعمالاً .

ولقد أراد بعضهم أن ينسب إلى القديس اغسطينوس قسطاً كبيراً في صعود الاصلاح الكارولنجي . بيد اننا نعتقد أن هذا التأثير ظل محدوداً وقاصراً على بعض قضايا اللاهوت .

أما الأمر فيختلف بالنسبة للاغريق ، فهم موجودون وحاضرون في جميـع الافـكار الصالحة ويرجع اليهم في اللاهوت ، والليتورجيا ، والكتاب المقدس والنحو . ويراد ان تناقش القضايا الـتي ناقشوها بانفسهم . وازداد

نفوذهم تدريجياً . ففي ٧٥٤ بارك البابا ايتين الثاني بين القصير في أبوية القديس — دوني . واعترافاً بهذا الحادث الرئيسي ارسل بول الأول ، اخو ايتين، إلى بين القصير عام ٧٥٨ مخطوطات اغريقية لاريسطو ودونيس . ورأى شارلومان بان للاغريق كنوزاً ادبية يمكن أن تغني الفكر الأوربي ، فتعلم لغتهم واستدعى بيزنطيين لتصحيح نص الأناجيل ، ومع ذلك فقد كان هذا التاس سريعاً بين الشرقيين والغربيين .

وفي ٨٢٧ أتى رسل الامبراطور ميشيل الألكن الى كومبين بنسخة جديدة من مجموعة دونيس . ولترجمته استنجد هيلدون بالاغريق واعتمد على رهبان بيزنطيين مقيمين في روما في دير القديس ايتيين والقديس سيلفستر . ونحتوا لغة لاهوتية وفلسفية ، وانتشر تأثير الاغريق في عهد لويس التقي على ايدي اغريق اتوا من روما . وتبدلت الحال في عهد شارل الاصلع . فقد كان ايريجين يعرف الاغريقية بصورة كافية ويترجمها بنفسه دون مساعد . وترجم أيضاً غريغوار نيس وغريغوار نازيانس و مكسيم المعرّف .وكان يعرف ابيفانوس الفلسطيني (حوالي ٣١٥ – ٤١٣) شخصياً . ومن يدري ان كتاب « اقسام الطبيعة » ليس إلا تحضيراً اعده جان سكوت عن بعض المؤلفات الاغريقية .

ومن جهة اخرى وضعت لغة اغريقية — لاتينية عظيمة دلت على ارادة الغربيين في الدخول بتماس مباشر مع الفكر اليوناني . وعندما يلكون في العام ٨٧٥ ترجمة انسطاس لـ « دروس مكسيم » يكون لديهم مجموعة مؤلفات اغريقية تؤثر حقاً في فكرهم .

ومهما يكن فان الواجب يقضي الا نبالغ او نحط من قيمة النهضة الكارولنجية . ولا شك في أنه لم يخرج عنها مثقف كبير اوفنان كبير

او مفكر كبير ، باستثناء جان سكوت ، ولكن يجب أن نعترف بانه لولا هذه النهضة لزال الأدب القديم والفكر القديم بشكلها الغربي بكاملها تقريباً ، لأن المؤلفات اللاتينية لم تحفظ لنا بغالبيتها الا بفضل المنشورات والنسخ التي حصل عليها خلال هذا الدور . ولو لم توقد الشعلة في عهد شارلومان لتكاثفت ظلمات الجهل ، ولما عرف كيف يمكن الخروج من البربرية . ومما يبرهن على فضل هذه النهضة ، مهما كانت ضئيلة وهزيلة ، هو انها اجتازت ازمة القرن العاشر ، وان المناطق التي لم تلامسها إلا بشكل ضعيف ، مثل جنوبي غاليا واسبانيا وايطاليا ، ظهرت في تدهور تام بالنسبة لبلاد « الفرنجة » ذاتها . وستكون هذه البلاد الممتدة من اللوار الى الراين والجورا مركز الحياة الفكرية في اوربة خلال قرون عديدة ، من آخر القرن الثامن إلى آخر القرن الثاني عشر .

الحياة الفنية

ان الانحطاط الفكري والفني ، الذي شهده آخر القرن السابع ، تدهور في بداية القرن الثامن ، فلا نكاد نرى سوى بعض مراكز حضارية عاشت فيها التقاليد القديمة كالأديرة الانغلوساكسونية واللومباردية والفيزيغوطية . ومن هذه المراكز أخذ شارلومان مستشاريه الانسانيين واحاط نفسه بهم ، وأسس بمساعدتهم مدارس ومشاغل للنساخ والمنمنمين والمزخرفين ، ودعا الابويات الكبرى على ضفاف الراين والموز وشمال غاليا ووسطها وشمال ايطاليا وسويسرا ان تسير على منواله . وشجع الفنانين والمهندسين المعمارين والرسامين والمنمنمين والنحاتين وصناع العاج والصياغ . ولم يكتف بنسخ مؤلفات آباء الكنيسة والمؤلفين القدامى ، بل أمر بجمع الآثار الفنية القديمة من البرونز والفخار والخزف والعاج والاقمشة والمخطوطات ذات المنمنمات

وتراث الرومانيين ، وما أتى به السوريون وتجار الشرق والاكليركيون المكلفون بجمع مخلفات القديسين والرهبان الحاجون إلى القدس والعائدون من مصر وفلسطين . واعطى من كل من هذه الآثار الفنية نماذج مختلفة يستلهم منها الفنانون . وقد اقترح ايجنهارد على ابنه أن يدرس المهندس المعمار الروماني فيتروف .

المباني الكارولنجية . — لقد بنى الامبراطور شارلومان واولاده واحفاده قصوراً مثل قصر ايكس وانغلهيم ، وشادوا حصوناً ، وساعدوا الابويات على بناء الكنائس والأديرة في غاليا وسويسرا وجرمانيا . ووجد فن رسمي أجرأ من فن العصور السابقة يبشر من عدة وجوه بالفن الرومانسي ، ولكننا لانعرفه الا من الوصف والمنمنمات والرسوم وبقايا البناء وقطع التزيين ولوحات الجدران المحفوظة في بعض الابنية ، لان الحروب والثورات والحرائق وعمل العصور وتبدلات الذوق ازالت كل شيء . وهنالك بعض ابنية مازالت موجودة بتمامها وأخرى في اجزاء منها . وأهمها كنيسة شارلومان التي شادها بالقرب من قصره في ايكس — لا — شابل حيث كان يحب الاقامة . وقد بدىء ببنائها عام ٧٩٦ وباركها البابا ليون الثالث في ٦ كانون الثاني ٨٠٥ . وهي أثر من آثار المهندس المعمار اود ميتز ، ودفن فيها شارلومان في ٢٨ كانون الثاني ٨١٤ .

وكانت الكنائس الكارولنجية ، التي بنيت في هذا العصر ، تنسخ تصميم الكنائس المسيحية الاولى ، وتقلد النماذج الشرقية التي تأثرت بها . وكانت هذه الكنائس تبنى عادة بالحجر المكسر بالمطرقة وتقام على المونة فوق بعضها وتجلل بالكلس أو الجص ، وتضم عقوداً آزجية وحنايا مرتفعة تتجاوز ابعاد نصف قطر الدائرة . وكثيرا ما كانت هذه الكنائس تبنى بمواد الأبنية الغالية — الرومانية المهجورة أو المخربة وبخاصة الأعمدة وقواعدها

والتيجان ، واحياناً أحجار الجدران. وكانت الافنية الداخلية تغطى بالاخشاب، ثم عدل عنه في آخر القرن العاشر وبنيت العقود الآزجية . ونوافذها عريضة تعلوها اقواس بشكل نصف دائرة .

الرسم والفسيفساء . — لقد كانت الكنائس الميروفنجية تبنى بأحجار فقيرة وغشيمة ، وتزين برسوم جدرانية أو بالفسيفساء . ولم يكتف المزخرفون بتمثيل الموضوعات الايرلندية الانغلوساكسونية والبربرية والاسلامية والزخارف المتواشجة ذات الترتيبات الطائشة والتزيينات المسلوبة التي أكثر منها الفن الميروفنجي ، بل حاولوا ان يرجعوا إلى الفن القديم الكلاسيكي ويمثلوا ، حسب التقاليد الاغريقية — الرومانية المثقلة بالتأثيرات الشرقية والبيزنطية ، مشاهد مأخوذة عن العهد القديم والجديد والتاريخ الدنيوي . بيد انه لم يبق من هذه المجموعات الكثيرة التي وصفها الشعراء والمؤرخون إلا الشيء القليل ، حتى ان الفسيفساء التي كانت شائعة في العصور السابقة لتغطية الارض وتزيين الجدران زالت بتمامها تقريباً .

وكانت الرسوم مطبوعة بطابع النهضة الكارولنجية الموسوعي . وكثير من رسوم الكنائس تأثرت بالفن الشرقي في سورية ومصر وبلاد الرافدين وكلها تدل على البحث عن الحركة والواقعيــــة في المواقف والتعبير والملابس التي تختلف عن الطابع المقدس للفسيفساء الأخرى .

وفي رسوم المخطوطات نشاهد ، من جهة ، التقاليد الهلنستية : كالتاليف الفخم العظيم ، والمواقف النبيلة وجمال الصور المثالي ؛ ومن جهة أخرى التقاليد السورية والشرقية : التركيب الجميل الفاتن والمواقف الطبيعية والبحث عن الحقيقه التاريخية والتفصيل الدقيق الواضح . وفي كلا الحالين نشاهد عودة إلى الزخارف التزيينية ذات الرسوم النباتية والحيوانية القديمة وظهور الوجه البشري من جديد .

فن الصياغة . — لقد نما فن الصياغــــة في العصر الكارولنجي نمواً عظيماً . فقد كثر عدد الأشياء الذهبية والفضية المزدانة بالصور والمحلاة بالأحجار الثمينة في فرنسا ، ايطاليا ، بلجيكا ، انكلترا ، ألمانيا ، على المذابح والأضرحة وصناديق مخلفات القديسين والاكواب وحقاق القربان المقدس والمنابر وصفائح التجليد وتمثـــال يسوع المصلوب وغيره من التماثيل الأخرى . ولكن أكثرها صهر في أوقات الفاقة والعوز ولم يبق لنا منها إلا النذر القليل .

البرونز . — وتدل النصوص على صهر المعدن وصناعة التماثيـل من البرونز . فمن ذلك تمثال شارلومــان وهو ممتط صهوة الجواد الذي أتي به من كاتدرائية ميتز وحفظ في متحف اللوفر في باريس . وكان في كل من روما واكس — لا — شابل ومايانس والقديس — ريكيه مشاغل يصهر فيها الفنانون المعدن ويصنعون أبواباً ودربزينات وأعمدة ومصابيح .

العاج . — ظهر فن النحت بخاصة على العاج . فقد صنعت منحوتات عاجية قلدت العاج المسيحي والهلنستي والسوري والاسكندري . وتضمنت مشاهد دينيــة ودنيوية وحفلات دينية وصلب السيد المسيح وصوراً رمزية عن كتاب المزامير ، والعهد القديم ، وسير القديسين ، والعذراء ، ورؤيا يوحنا المعمدان .

النحت على الحجر . — لم تحسن النهضــة الكارولنجيــة النحت على الحجر ، ولم يعادل هذا النوع من النحت نحت العاج وقص البرونز وانتاج الأوراق الذهبية والفضية . وجرت العادة أن تزين الأوابد بتباريز ونوافر داخلة في البناء تتضمن زخارف بشكل الحصر أو الأغصان المتواشجــــة المتشابكة ووروداً وزخارف هندسية ما زالت نماذجها كثيرة في ايطاليـــا

وسويسرا وألمانيا وفرنسا وانكلترا . وقلما تأتي هذه المنحوتات من تزيينات الأوابد ، بل من قطع الاثاث والحواجز وموائد المذابح .

على أن المنحوتات البارزة على الحجر ، التي احتفظ بها في الشرق وفي أرمينيا وجيورجيا ، عاشت أيضاً في الغرب في بعض الصلبان الفخمة الفاخرة في بريطانيا العظمى وايرلنده السلتيتين ، ولكنها تطورتا من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر بتأثير تيارات الفن الكبرى التي سيطرت في هذه المناطق كالمؤثرات السورية — المصرية التي ادخلت في القرن السابع ، وربما كان ذلك على يد الرهبان الأقباط الذين كانوا يقيمون في جنوب غاليا مثل دير ليرن ؛ أو بطريق شمال انكلترا ، حيث يوجد بعض النماذج التي نقلت عن فن البحر المتوسط ؛ أو بتأثير فن الحلي الكارولنجي وفن الايقونات الشمالي الممزوج بفن الايقونات المسيحي الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثامن ؛ أو أخيراً بتأثير الصور الكارولنجية في القرن التاسع التي تمثل أفاعي تنغل على بعضها وزخارف متشابكة أخذهـا النحاتون الايرلنديون ونسخوها في نقوش مدورة أو بيضوية وأدخلوا عليها شيئاً من عبقريتهم وأصالتهم .

إن هذه النهضة الفنية الكارولنجية ، التي تمثل العودة إلى القديم بارادة الامبراطور ، ظلت سطحية . لقد كان الفن فيها فن هواة وغواة وجماعين للآثار الفنية ولم يدخل إلى قلب الجماهير . ولكن الفن الشعبي ، من جهة موازية ، عاش في زخارف الحجر وفي تزيين المخطوطات والحلي والاثاث ولكن لم يضع جهد شارلومان وأنساله : لويس التقي ، شارل الأصلع ،

لوثير المأخوذين بالفن والأدب ، لأن النهضة الكارولنجيـة توكدت بفن العمارة الدينية من حيث التصميم والاشادة . ويحوي هـذا الفن نبتة فن العصر الوسيط وهي « أول الفن الرومانسي » الذي ظهر بتقنية المنحوتات البارزة وعودة ظهور الوجه البشري والزخرفة القديمة . وامتدت هـذه النهضة في رينانيا وفي جنوب ألمانيا وفي أديرتها وأديرة سويسرا وايطاليا وغاليا حيث حوفظ على التقاليد والنماذج التي خرج عنها فن العصور التالية .

الفصل الرابع عشر

النظم الميروفنجية

الاستبداد الملكي

الملكية نظام أساسي . — لم تكن الدولة الميروفنجية مدينة بوجودها إلى فتح شعب شعباً آخر ، بل إلى إرادة شخصية كلوفيس القوية . فقد استخدم قبيلة الفرنجة الساليين ، التي كانت تحت أمره ، لتحقيق طموحه ، ودحرت هذه الأقوام الفرنجية الغاليين — الرومانيين وهاجمت البلاد التي ظلت رومانية للحصول على الغنائم والاسلاب ، أو بكل بساطة للانطلاق في رياضة الحرب . ولم يكن لدى هذه الأقوام أي فكرة بفتح غاليا وجرمانيا بصورة منظمة ، وإذا افترض أنها وضعت خطة لذلك لما عرفت كيف تنفذها . وكل ما في الأمر أن القوة والمواهب السياسية والحربية ساعدت الملك على قيادة هذه الأقوام الصغيرة المحاربة المقيمة بالقرب من تورنيه على تحقيق خارقة تاريخية نقلت محور السلطة في الغرب من ايطاليا أو وادي الغارون إلى وادي السين . وعن هذا الحادث وجد أن الملكية تمثل النظام الأساسي للدولة الفرنجية ، **وأن هذه الملكية هي الدولة .** ولم يحتفظ الغاليون — الرومانيون ، والفرنجة الريبوير والآلامان والتورنجيون ، الذين اعترفوا بسلطة الفاتح طوعاً أو كرهاً ، بشيء من

الحق السياسي الخاص ، كما أن مواطني الملك ، وهم الساليون ، فقدوا كل امتيازاتهم القديمة وكفت مجالس الشعب عن الانعقاد عفوياً . وابتعد الملك عن شعبه ولم يعد يقيم بين أفراده ، بل أقام في باريس ، وأقام أولاده في باريس ، سواسون ، اورلئان ، رنس في البلاد الرومانية .

ولم تكن الملكية وظيفة ، ولا تعبر عن الحياة السياسية العميقة للأمة . ان مفهوم « الامبراطورية » ، أي تجسيد الشعب الروماني المنطبق على العالم المتمدن في شخص رجل يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع وشرف البشرية ، غريب عن الملكية الفرنجية . لقد كانت الملكية الفرنجية قبل كل شيء حالة واقع ونتاج القوة . وعندما مات المؤسس لم يتدخل أي اعتبار سياسي لتأمين استمرار عمله بانتقال معقول للسلطة . فقد كانت غاليا وجرمانيا تعتبران غنيمة في نظر هؤلاء الفرنجة ولذا قسمها أولاد كلوفيس الاربعة إلى أربعة أقسام متساوية واختص كل منهم بقسم كما يقسم الارث .

وكان على السلالات البربرية التي أقامت على الأرض الرومانية أن تسوي قضية وراثة العرش . فقد فهم جنزريك ملك الفاندال وحده أن الملكية لا تقبل القسمة مهما كان عدد الأولاد الذين خلفهم الملك ، واتخذ تنظيماته تبعاً لذلك . ولم تتحقق وحدة السلطة عند الفيزيغوط إلا بقتل الأخ لأخيه . أما البورغونديون فقد قسموا الحصص على عدد الاخوة . ودل الفرنجة في ذلك العصر على العجز وعدم القدرة . والحق يقال انه لم يكن لديهم أي فكرة سياسية . وظل الحق العام مجهولاً عندهم . وعندما تشكلت المملكة اعتبرت إرثاً كالارث العادي وأخذت تنتقل حسب قواعد الحق الخاص دون تدخل الشعب ودون أن تضفي الكنيسة ، بالمباركة ، على الملكية شيئاً من المثل الأعلى .

وفي الحقيقة ان واقع التوريث بين الملكية الفرنجية والفرنسية . لان سابقات ٥١١ ، ٥٢٥ ، ٥٥١ ، ٦٧د لها صداهـــا عبر العصر الوسيط على تاريخ فرنسا ، وكادت خلال مرة أن تقوض عمـل الوحدة الفرنسية . ولم تأخذ هذه التقسيمات بـ الاعتبـار قضية العرق واللغـة والجغرافية والمصـالح الاقتصادية والدينية الرعايا بل اعتبرها الرأي قطعية .

ومن الممكن أن يظن أن الممالك الفرنجية الصغيرة ، التي نشأت عن هذه التقسيمات المتكررة ، تؤلف جزءاً من كل ، وان الوحدة السياسية للمملكة الفرنجية موجودة . لا شيء من ذلك البتة . لقد تشكلت هذه الممالك العجيبـة من أجزاء أخذت من يمين وشمال في غاليا وجرمانيـــا وكانت بحق ممالك مستقلة ذاتياً ولا يمكن الانتقال من واحدة إلى أخرى دون سماح . وكان المستاؤون في مملكة يلجأون إلى بلاط أحـد الملوك الآخرين كما يلجأون في بلد أجنبي . حتى أن الملوك أرادوا أحياناً تبديل الجغرافية الكنسية . فاذا تملكوا قسماً من ابرشية رغبوا أن يجعلوا منه مقراً لاسقفية فردية خاصة . ولذا لا يوجد مملكة بل مملكتان وثلاث ، وأربـع ممـالك فرنجية في نزاع دائم . ولا شك في أن عاطفة التضـامن بين ملوك الفرنجة ظهرت باختيار مقاطعات غير متباعدة عن بعضهـــا كباريس ، سواسون ، اورلئان ، رنس ، وأن الوحدة كانت تتشكل بين حين وآخر ، ولكنها لا تدوم زمناً طويلاً لأن الفرقة حالة عادية .

ولم يكن للملكية من أساس الا القوة . ولذا لا يمكن أن تكون غير استبدادية . ولا يوجد أي حد قانوني لممارسة سلطتها . فـكان الملك الفرنجي يملك حق حياة رعاياه وموتهم ، واوامره مطلقة ، ويجازي العصيان بغرامة ضخمة تقدر بـ ٦٠ سو ذهبية . وفي حال عدم الدفع يوضع العاصي

خارج القانون . وكان الكابح الوحيد لاستبداده العواطف الدينية ، التي يظهر تأثيرها متقطعاً ، والخوف من القتل .

وعندما تأكد الامراء البرابرة من توحيد سلطتهم واحتلالهم الأراضي الرومانية بصورة قطعية كتبوا أعراف شعبهم ، حتى انهم أمروا بتأليف مختصرات القوانين الرومانية لرعاياهم الرومانيين . فقد أمر كلوفيس بتحرير القانون السالي ؛ وأمر ميروفنجيون آخرون بتحرير القانون الريبويري وربما كان ذلك للآلامان والبافاريين . ولم تكن هذه القوانين إلا تقنيناً فجاً ناقصاً عن الأعراف البربرية . ولا يظهر فيها نشاط الملك ، وبخاصة عندما سجلت للمرة الاولى . ولم يكن الحق الخاص ليهم الملك فيكلف نفسه عناء التجديد في هذا المضمار . لقد كانت حكمة الأقدمين ، بالنسبة له كما هي بالنسبة لرعاياه ، تحافظ على سرية مقدسة لا تمس . ودامت هذه الصفة خلال العصور ، ويجب النزول حتى حكم لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ليسمح الملك لنفسه بالتدخل في الحق الخاص .

وعلى العكس كان الملك الفرنجي ينظم الحق العام والعدل والشرطة وعلاقات الكنيسة والدولة ويصدر البراءات . وكان الديوان الملكي يقلد أو ينسخ في المقدمات (الديباجات) براءات الاباطرة الرومانيين .

غير أن التشريع كان قليلاً جداً . ولم يحفظ إلا عدد قليل من البراءات لبعض ملوك الفرنجة أو بعض المعاهدات بين الملوك . ولذا تبدو مواد القوانين السالية والريبويرية قليلة بالنسبة إلى تشريع الاباطرة الرومانيين ، فضلاً عن أن بربرية لغة البراءات الميروفنجية وفوضى المواد القانونية توقعان القارئ الحديث في كثير من اللبس .

سلطة الملك على الكنيسة . لقد كان عمل الملك عميقاً في حياة الكنيسة ، وكانت الأسقفية قوة مسيطرة في الكنيسة بل ومعنوياً في المجتمع . واستحوذ الملك الفرنجي على تسمية الأساقفة دون مراعاة القوانين الكنسية ، واعتاد أن ينتخبهم من محيطه في القصر الملكي . وكانوا في الغالب موظفين علمانيين يتسلمون المناصب المقدسة دون اعداد وتهيئة ، وكثيراً ما يشرى الكهنوت بالمال . حتى ان الانتخاب النظامي للاسقف من قبل الاكليروس وشعب الابرشية كان أمراً نادراً وشاذاً في عهد الميروفنجيين. وكان المنتخب في هذه الحالة يخشى غضب الملك . فمن ذلك أن هراكليوس انتخب في مجمع بوردو اسقفاً فوضعه الملك شاريبير الأول في عربة ملأى بالشوك وحكم عليه بالنفي . وكان الملك يدعم مطاليب الرهبان الذين يطالبون الاسقف بحرية انتخاب آباء الاديرة ، لأنه يعلم أن هؤلاء سيكونون تحت رحمته . وكانت المجامع كثيرة ، وعلى الأقل في القرن السادس ، ولكنها لا تجتمع إلا بعد سماح الملك ، وقوانينها بحاجة الى تأييده . وكان الأساقفة يتناقشون وهم يرجفون من سخط الملك إذا دافعوا عن زميل لهم . وكانت العلاقات المتقطعة بين اكليروس غاليا وجرمانيا والبابوية تخضع لرقابة الملك ، لأن كل شيء يجب أن يمر على يده ، بل إن أحد هؤلاء الملوك ، وهو شيلبيريك ، كان يريد أن يحشر نفسه في شؤون العقيدة ويفرض رأيه في الثالوث الأقدس .

وامحت الحدود بين **الزمني** و **الروحي** . فالدولة والكنيسة تتواشج وظائفها واختصاصاتها . وكانا يعيشان يوماً يوماً دون مبادىء ودون شروط مقررة . ويلتقيان في كل شيء ، وفي كل مكان ، ويتصادمان ويختلطان ويتنازعان وسائل العمل ، مناضلين حيناً ، ومتسامحين حيناً آخر في الظلام وحسب الظروف .

وما كان الملك الفرنجي ليقيد نفسه بأي مذهب أو نظام لتنظيم البلاد المفتوحة . أما أن يوصف بناؤه بأنه جرماني أو روماني فذلك لا معنى له . فهو يأخـــذ من المـــاضي الروماني أو الجرماني ما يوافق مصالحه ويتفق مع مزاجه ، ولا يقرم بتجديدات منظمة ، بيد أنه لا يتردد عند الحاجة بعمل شيء جديد

كان معظم المملكة في ٥١١ ، سنة وفاة كلوفيس ، بلداً رومانياً وفيها حافظ الرومانيون والغاليون ـ الرومانيون بطبيعة الحال على لغتهم وحقهم الخاص وجنسيتهم المتميزة منذ زمن طويل عن الجنسية الفرنجية . غير أنهم لم يكونوا محكومين كما كانوا في ظل الامبراطورية . فقد كان يعهد بادارة الغاليين السياسية والقضائية في ذلك العهد إلى سبعة عشر حاكماً على رأس سبعة عشر اقليماً تحت سلطة نائبين تابعين لوالي اقليم غاليا . وكان للادارة المالية موظفوها وصلاحياتها الخاصة كما كان الجيش يؤلف مهنة خاصة تحرمها السلطة على طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وقضاة المدن أي على نخبة المجتمع .

ولقد انهار كل ذلك في اضطرابات النصف الثاني من القرن الخامس ، اثر الغارات البربرية الكبرى ، ولم تعد موضع بحث اعادة بناء الاقليم كما كان في ظل الرومانيين .

ولكن وجد تحت الاقليم **المدينة** أي الدولة الصغيرة السلتية ، البلجيكية ، الايبرية السابقة الوجود للفتح الروماني نفسه . ولقد انتزعت روما في بادىء الأمر استقلال المدن السياسي بواقع الفتح ، ثم خففت امتيازاتها القضائية والادارية ، وأخيراً وضعت يدها على أموالها ، وانتهى الخراب الاقتصادي بهلاك المدن . ومع هذا عاشت ، فمجلس الشيوخ الصغير ما زال باقياً ، ولم تتبدل أراضيها . ولقد أمدتها الكنيسة بالقوة

عندما جعلت اقامة الاسقف في مدينته اجبارية . وكان في غاليا في القرن السادس نحو ١٢٠ أسقفاً .

وتبنى الملك الفرنجي بصورة طبيعية « **المدينة** » اطاراً ادارياً ، ولم يبدل امتدادها زمناً طويلًا . ولم يزد أو ينقص امتيازات القضاة والمدافعين ، ولكنه أقام في كل مدينة ممثلًا عنه وهو **الكونت** . والاسم من أصل لاتيني . ومنذ عهد ديوقليسيان اختلطت الخدمة الشخصية للأمير مع خدمة الدولة . وما كان الامبراطور ليعهد بالوظائف الكبرى إلا لرجال البلاط من أصدقائه المخلصين ، وتوجب منذ الآن ، لقيادة جيش وادارة مصلحة عامة كبرى أو حاكم اقليم ، أن يكون المرشح كونتاً . ومع هذا لم ير بأن روما وضعت كونتات في المدن إلا بصفة انتقالية ، نحو منتصف القرن الخامس . غير أن هذا التنظيم وإن لم تعممه الامبراطورية الراحلة ، فقد عممه الملوك البورغونديون والغوط . ولم يجدد كلوفيس وخلفاؤه شيئاً في هذا المضمار بل انهم اتبعوا تقليداً حديث القدم وساروا عليه .

ولم يكن الكونت حاكماً ادارياً وقضائياً بسيطاً ، بل كان كالكونت الروماني في آخر عهود الامبراطورية الرومانية ، وله وظائف عسكرية . فهو يجمع الجيوش ويقودها في دائرته ، وبيده القوة ، وقادر على جباية الضرائب ، ولذا عهد اليه بالادارة المالية العليا . لقد كان الكونت نائباً حقيقياً للملك . وفي عهد الملوك البرابرة تابع النظام الروماني تطوره ، وكان موظفو الكونت في أغلبيتهم من أصل روماني .

ولم يجد الملوك الجرمانيون في الأقسام الجرمانية من دولتهم شيئاً يطابق الكونت فأدخلوا الكوميتا وأكثروا من الدوائر ووضعوا على رأس كل منها كونتاً ، لا سيا وأن المدن القديمة ، في حوض الايسكو والموز الادنى وعلى طول الراين ، تقوضت بسبب الغارات .

وأخذ الميروفنجيون عن الادارة الرومانية نظـام ادارة أملاك الملك . فقد وضع الملك المـيروفنجي أو البورغوندي أو الغوطي يده على الاملاك الاميرية ، وظلت هذه الاملاك تدار كما في الماضي كالأملاك الامبراطورية . وكانت الفيللا أو أملاك الميروفنجي خارجة حقوقياً عن أرض المدينـة . وتدفع تدخل قضاة المدن ، الكونتات . وكان الدومين من الوجهة المالية معفى من الضرائب العامة ويتمتع بالحصانة ، وكان من الوجهة القضائية مستقلاً أيضا إلا في القضايا الجنائية . ولذا كان **الناظر** (الدومستيكوس) لعدد من الدومنيات شخصية عظيمة ؛ ويبدو في سلم الالقاب مساوياً للكونت على الاقل .

الضرائب . — لقد وجد الملك الفرنجي الضريبة في القسم الروماني من غاليا بشكل مزدوج : المباشرة (كالضريبة العقارية والجزية) وغير المباشرة (كالرسوم على الاشياء والسلع المباعة في الاسواق ورسوم الترانزيت) . وحاذر أن يمسها بشيء ، بل على العكس طالب بها بجشع ووحشية ، واستمر في تحميل السكان الاعباء العامة ، مثـل حق ايواء واعاشة الملك والموظفين والسفراء والنقل والمهات على الاقدام أو الخيل ، وأخيراً العناية بالطرق والجسور والموانى وانشائها .

وحاول المليك أن يدخل الضريبة بأشكالها المختلفة في الاجزاء الجرمانية من دولته ، ولكنه اصطدم بمقاومة عنيدة : فلم يشأ الفرنجة أن يخضعوا ويقبلوا بها وبخاصة بالجزية لما لها من صفة شائنة .

وكانت حصيلة الضريبة وحصيلة اتاوات الدومين تتجمع في صنـدوق الملك « الخزانة » . ولم يكن ليوجد أقل مفهوم لصندوق الدولة يختلف عن صندوق الملك الخاص ، لان حصيلة الضرائب تدخل في ثروة الامير

الخاصة ، وبتعبير آخر ، إن الضريبة تفقد طابعها « العام » . وبالمقابل لم يكن الملك ليعطي شيئاً لرعاياه . فهو لا يهتم مطلقاً بالمصالح الكبرى العامة ، كاسعاف الفقراء والمرضى والتعليم والاعمال الفنية ، ولا يدفع شيئاً للجيش والادارة . ولذا كان الذهب يتكدس عقيماً في صناديقه .

النقد . — ورث الملك الفرنجي عن الامبراطورية الرومانية حقاً مربحاً ومشرفاً ، وهو حق سك النقود . وتردد طويلاً بوضع اسمه على قطع النقود الذهبية لان تجارة البحر المتوسط لا تقبل إلا القطع التي تحمل صورة الامبراطور . ولذا اقتصر الفرنجة على تقليد النماذج البيزنطية . وحوالي ٥٤٠ تجرأ تيبير وكسر التقليد وضرب قطعاً ذهبياً باسمه مع وصف « فيكتور » على الوجه ، وصورة النصر يمسك تاجاً على القفا . ثم قلده أعمامه وأولاده فيما بعد .

الخدمة العسكرية . — يرجع نجاح كلوفيس إلى العصابات المحاربة السالية في مملكته الصغيرة في تورنيه ، وإلى الامارات الميروفنجية التي ضمها تحت يده . وكانت هذه العصابات قليلة العدد ، ولكنها كانت تكفي على الاقل ، بمساعدة الريبوير والبورغونديين ، للتغلب على الامبراطورية الغوطية .

وعلى نقيض السويفيين والفيزيغوط والاوستروغوط والفانـدال واللومبارديين ، الذين انقطعوا عن العالم واستقروا في ايطاليا وغاليا واسبانيا وافريقية ، كان لدى ملوك الفرنجة جنود احتياطية يمكنهم الاعتماد عليها : واذا وضعنا جانباً « شعوب ما وراء الراين » ، التي لا يدعونها إلا في الحالات القصوى ، خشية من وحشيتها ، فقد وجد في متناول يدهم الساليون الذين يسكنون الوادي الادنى لنهر الموز والايسكو ؛ والريبوير في المجرى

الادنى لنهر الراين ؛ والمسيون في وادي نهر الموزيل . ولقد كان للملكة الفرنجية في ضم هذه الاقوام فائدة كبرى ، فهي توضح قوتها ودوام هذه القوة بالرغم من الفساد وكثرة الاخطاء .

وكان طموح الميرفنجيين يتجاوز مصادرهم بالرجال . فقد كانوا يتطلعون إلى فتح غاليا وجرمانيا وايطاليا وبانونيا ووادي الدانوب . ولم يكن هذا الجاهز البشري الفرنجي كافياً لمثل هذه الاهداف الكبرى . ولذا استنجدوا برعاياهم الجرمانيين والرومانيين ، واعتمدوا بحملاتهم في ايطاليا على الجنود الآلامان ، وتركوا للساكسونيين والتورنجيين أمر الدفاع عن انفسهم وحماية المملكة من السلافيين والآفار . وفرض الميروفنجيون الخدمة العسكرية على الرومانيين ، وقلدوا بذلك الفيزيغوط والبورغونديين الذين كانوا يلجأون الى ابناء البلاد الأصليين في آخر حكمهم . وابتداءً من حكم اولاد كلوفيس ، ان لم يكن من حكم كلوفيس نفسه ، كان يتوجب على كل انسان حر أن يقوم بالخدمة العسكرية للملك ، لدى كل طلب وعلى نفقته . وينتج عن ذلك ان الجيوش المسماة « فرنجية » كانت تتألف في معظمها ، باستثناء الشرق ، من الغاليين — الرومانيين . أما القيمة العسكرية لهذه الجنود المرتجلة فكانت رقيقة جداً . لأن الملك الميروفنجي وطد حكمه بفضل الحماسة الحربية التي الفاها عند هذه الجماعات الفرنجية الصغيرة ، وهي آخر جنود مشاة عرفها أعلى العصر الوسيط . وكان يثق بالجماهير ويستعين بها على سحق اعدائه ، ولم يكن صعباً في البحث عن الكيفية ، لأنـــه لا يدفع للجنود مرتباً ولا يعلم جنوده طرق الحياة العسكرية وأساليبها .

وقد قبل الغاليون — الرومانيون الخدمة العسكرية بارتياح وقاتل بعضهم بعضاً لدعم المنازعات التافهة التي كانت تقوم بين سادتهم الميروفنجيين

بسبب تقسيم المملكة أو التنازع على الملك . ولذا ايقظ الملك الفرنجي عند الغالين روح الحرب وتذوق الفوضى والعنف والتعطش الى النهب . وكان مرور الجيش الفرنجي في منطقة من المناطق مخيفاً ، كجيش العدو ، لما يرتكبه من أعمال وقباحات . وكثيراً ما كان الشعب يثأر لنفسه فيقتل المتأخرين عن الركب أو الهاربين .

العدل الروماني . – لقد كان البت في الدعاوي المدنية والجزائية خاصاً بمحاكم الاقليم في آخر الامبراطورية الرومانية باستثناء الدعاوى الصغرى المتروكة للمحامي المدني بل ولكبار الملاكين . وكان الحاكم يعقد جلساته في نقاط مختلفة من دائرته الواسعة ويفصل في الدعاوى محاطاً بأمنائه وخدمه بعيداً عن الجمهور وبشيء من السرية في غرفة خاصة . وكان الأصول الذي يعمل بموجبه مكتوباً .

العدل الجرماني . – لقدكان الفيزيغوط والبورغونديون قليلي العدد منقطعين عن العالم الجرماني ، ولذا تبنوا نظام القاضي الوحيد وخولوه سلطات واسعة . أما عند الفرنجة فقد دام العرف الجرماني في الحكم . ويبت في هـذا الحكم مندوبون أحرار كل عن منطقة . وكان المندوب منهم يقتصر على رئاسة المحكمة الاقليمية (ماللوس) وتنفيذ الحكم . ولا يكون هذا الحكم كاملاً الا بموافقة الجمهور الظاهرة أو الضمنية . وكان أصول المحاكمة في اساسه شكلياً أو رمزياً،ونظام الاثبات غير مكتوب، ويستعمل الشهادة الشفهية وحكم الله (الاختبار بالحديد المحمي والماء وغير ذلك) والمبارزة حيث يظهر الله بالضرورة الى جانب الحق الصالح ويمنحه النصر .

تبني النظام الجرماني . – لقد اناب الملك الميروفنجي الكونت مناب

المندوب الاقليمي ، وترك لهذا الآخير النظر بالدعاوى الادنى ، وخص الكونت بملاحقة المجرم ، اذا لم يوجد تظلم من الضحية ، وعقوبة المجرمين المباشرة . وانتقل هذا التنظيم السالي الى الاجزاء الرومانيـة في المملكة وتأصل بسرعة .

وكان لهذا النظام فوائد عمليه كبرى . فقد اقتضى تعايش السكان المختلفين اقامة جهاز قضائي مختلط في كل محكمة . ولم يشأ الملك مكافأة القضاة على عملهـم ، فرأى من الاصلح اقتصادياً أن ينتقي عدداً من وجهاء الغاليين - الرومانيين في كل « مدينة » ، واجبرهم أن يأتوا دوريـاً إلى المحكمة ويحكموا بين أفراد بني جنسهم . وكان الكونت ، يمثل السلطة الملكية في الاقليم ، يعلن حكمهم أمام الجمهور وينفذه

ومن الملاحظ في هذه المحكمة الاقليمية أن عمل الحق الجرماني وأصوله كان سائداً : فافتداء الجنحة أو الجريمة بمبلغ من المال ، ويمين الأطراف المتنازعة مع مساندة المحلفين ، وحكم الله ،والمبارزة انتشرت في كل مكان . وساعد تقهقر المجتمع على تحبيذ الاعراف البربرية في أوساط الرومانيين . وكان للكنيسة أثرها في هذا الاتجاه . فقد دفعت إلى الافتداء بالمال ، والى الاتفاق واخماد الثأر والحيلولة دون سفك الدماء . وكان الملك يجبي ثلث ما يجبي الكونت من حصائل الدعاوى . وكان هذا الكونت يعيش من جزء مما يجبيه ومن التمتع بدومين ملكي في دائرته . وتألف عن طريق هذه المحاكم الاقليمية فقه محلي ودخلت فيه ، بنسب مختلفة وحسب الأمكنة ، القوانين الرومانية والقوانين البربرية . ومن هنا خرجت الاعراف البلدية في العصر الوسيط .

ولم تكن المحكمة الاقليمية مجلساً قضائياً فحسب ، بل كان الكونت أو موظفوه ينشرون فيهـا أوامر الملك ، والدعوة إلى الجيش والبراءات

الملكية وغيرها . فهي تمثل بالاجمال وسيلة حكم سهلة . ومن فائدتها انها تنتزع الوجيه كل شهر من عزلة الحياة المحلية وتذكره بواجباتـــه نحو الملك .

المساواة السياسية بين الرعايا . – كانت المساواة السياسية بيـن سكان المملكة الفرنجية شيئاً عادياً . وكان بامكان كل ساكن في غاليا فرنجياً كان أو رومانياً أو بورغونديا ، حراً أو معتوقاً ؛ غنياً أو فقيراً أن يدخل في خدمة الدولة ويتخذ لنفسه مهنـة . وكان الجميع سواسية سياسياً لانهم متساوون في الخدمة . ولم يكن الملك الميروفنجي مقيداً بنظام أو أباطيل عرق أو لغة أو شرط اجتماعي ، ولا يبحث في علاقاته مع الناس الا عن رضاه الشخصي ، فهو يصنع من المعتوق بل والرقيق ، اذا كان يسره ذلك ، متطوعاً في خدمته أو كونتاً أو ناظراً للدومين الملـكي أو اسقفاً ؛ ومن رئيس الكتاب قائـد جيش ؛ ومن اليهودي محصل ضريبة ؛ ويبيـع الاسقفية الى سوري . ومن دواعي سروره إلا يطيـع إلا طيشه . لقـد كان كل شيء ينطلق من العرش ، وكل شيء يعود اليه ، وما من طبقة نبيلة يعادل نفوذها وجاهها حكم الملك المطلق .

طبقة الشيوخ . — لقد وجد عند الرومانيين طبقة شيوخ وظلت عائلاتهم تفخر بأصلها ولكنها كانت قليلة العدد ، بضع مئات على الاكثر . وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية أصبحت امتيازاتها القانونية ذكرى . بينما دام نفوذها الاجتماعي والاقتصادي .

الطبقة النبيلة ووظائف البلاط . – لا يوجد طبقة نبيلة عند الفرنجة على عكس ماهو متعارف عليه عند بقيه الشعوب الجرمانية . بيد اننـا نرى ، في العصر الميروفنجي ، تشكل طبقة ارستقراطية قوية تتألف من

كبار ملاكي الأطيان وكبار الموظفين ، ولكن هذه الطبقة لم تكن طبقة نبيلة بالمعنى الأصلي ، بل كانت طبقة تتألف من اناس يتمتعون بامتيازات قانونية ناشئة عن حق الولادة ، ولايجاد طبقة نبيلة حقيقية يجب النزول حتى فجر الأزمنة الاقطاعية . والتمييز القانوني الوحيد بين الناس مبني على خدمة الامير . ومالم يتغير شرط أصل الانسان يبقى المعتوق معتوقاً ، والروماني رومانياً دون أن يشتهر بأنه فرنجي .

وكان على كل من يريد أن يعتبر في المجتمع أن يتصل اتصالاً مباشراً بالمليك ، ويعقد معه روابط اوثق من جمهور الرعية . وليصبح الانسان شيئاً في الدولة يجب عليه ان يتقرب من المليك ويتوسل اليه ويعرض خدماته عليه ويصبح له موالياً وأميناً ويبايعه بالمعنى الضيق للكلمة أو بتعبير آخر ان يكون رجله . ولهذا الغرض لم يكن جهاز الحرس الملكي قاصراً على العصبة المحاربة التي تحرس الملك على الطريقة الجرمانية ، بل كان يضم جميع الموظفين في معية الملك ، وممن يتطلعون الى التوظف ، بل وممن يتحينون الفرص للحصول على رتبة كنسية ، حتى ان التعبير « موظفين » لا يستعمل إلا عند فقد ماهو افضل من الوظيفة . وكانت هذه الشخصيات الكبرى ، التي تحيط بالملك من أدواق وكونتات وناظرين خداماً للملك متفانين في سبيله اكثر مما هم موظفون . وقد بولغ في العصر الميروفنجي في الصفة الشخصية لخدمة الدولة اكثر بكثير مما كانت عليه في عهد الامبراطورية الرومانية الدنيا

الادارة المركزية المزعومة . — وهذه الصفة الشخصية للخدمة هي التي توضح لنا أن الكلام عن « ادارة مركزية » معنـــاه المجازفة بتشويه الواقع . ومهما يكن تنظيم السلطة ابتدائياً فان طبيعة الادارة تقضي التنسيق بين عمل العمال المحليين والاطلاع على تقاريرهم وقبول ظلامات

السكان واعطاء الاوامر والتحقق من جباية الضرائب وتدقيق حسابات موظفي المالية . ولا بد لكل هذا من مكاتب ورؤساء يديرونها ويسهرون على مصالحها . ولكن الملك الميروفنجي لم يبذل في هذا الميدان أي جهد أو يقم بأي ابتكار . فقد ورث مكاتب حكام الامبراطورية الدنيا مع رجالها وكل ما يتعلق بها من قواعد وأصول واساليب عمل .

كان بلاط الملك الميروفنجي مليئاً بالكتاب من كل نوع ويقوم على رأسهم « كبار الكتاب » . وقد أصبح هؤلاء الرؤساء ضروريين للدولة لاغنى عنهم ، واكتسبوا مع الزمن سلطة . وكانوا يستخدمون في مهات سياسية وأحياناً في قيادة الجيوش وذلك لأنه لايوجد فصل قوي في الوظائف حسب الاختصاص .

وكانت « الخزانة » أي بيت المال لاتغادر الملك ، فهي في غرفة بالقرب من الغرفة التي ينام فيها المليك . ويشرف على ادارة الحرس وادارة السلطة رؤساء غرف تحت سلطة خدام غرفة الملك .

وعهد بخدمة الفم إلى رئيس السقاة ، وبخدمة الاصطبل إلى كونتات الاصطبل ، ومن هذه الوظيفة اتى اسم القائد الاعلى للجيش ، وتحت أمره سائس خيول الملك (الماريشال) . والحق بخدمة الأمير أطباء ومنشدون .

وعهد بتنظيم جهاز القصر إلى « اقدم الخدم » (سينيشال) . ومع الزمن أصبح لكونتات الاصطبل وخدام الخيول وأقدم الخدم صفات عسكرية .

ويتمثل نظام الاكليروس بعدد من الكهان يؤلفون كنيسة « قابلة » الملك أى سدنة كنيسة الملك .

وعهد بادارة القصر والبلاط واعاشته إلى **ماجوردوم** أي كبير القصر أو **حاجب القصر** ، ولقد كان لهذه الوظيفة أهمية خاصة حتى ان صاحبها أصبح الكل في الكل في حياة القصر .

محكمة القصر . — ان حل الخلافات التي قد تنشأ بين رجال البلاط أو بينهم وبين الناس من خارجه ، او حل الاخطاء المرتكبة ضد الملك ، لايمكن ان يعهد بها الى محاكم محلية ، بل الى السيد العام وهو الملك . وقد اعتبر الملك الفرنجي دوماً ان العدل يتجسد في شخصه حيث يختلط بمنفعته واهوائه وطيشه ، لأن كل شيء حل له . فله الحق ، اذا اعتبر أحد رعاياه مجرماً ، أن يجرده من ثروته ويطرده ويحكم بقتله دون أي شكل من أشكال الدعوى . ودام هذا التقليد في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر . ويعتقد ملك فرنسا ان له الحق دون محاكمة في اعدام شخصيات كبرى يخشى خطرها ونفوذها . ولكن الملك في الأحوال العادية الجارية لا يبادر إلى القضاء في شؤون يمكن أن تنتزعه من لذائذه أو مشاغله . ولذا شكل بالقرب من شخصه محكمة تتألف من مخلصيه ورجاله وتدعى « محكمة القصر » وكان يترأسها شخصية كبرى ، كونت ، ويدعى « كونت القصر » .

وكانت محكمة القصر صادرة عن ارادة الملك . وليس لها اختصاص معين أو تركيب مستقر أو دورة انعقاد منتظمة أو أصول نوعي خاص . وهي اكثر مرونة من المحكمة الاقليمية الشكلية والجرمانية جداً . وليس لها محكمة استئناف لأن عقول البرابرة لاتفهم الاستئناف . وكل مافي الأمر أنها محكمة خاصة للمحاسيب ممن يعيشون بعيداً أو قريباً من الملك . وقد حلت محل المحاكم المحلية . ورفع الدعاوى العائدة للمحاكم العادية واختصاصها إلى المحكمة المركزية يمكن الملك من ان يؤلفها حسب هواه . ودامت هذه المحكمة حتى نهاية الملكية الفرنسية .

القصر عاصمة متنقلة . — لم يكن للمحكمة ادارة « مركزية » حقيقية

لأن الادارة ليس لها مركز ، ولأن الملك لايستقر في مكان . وليست سواسون ، اورلئان ، باريس ، رنس عواصم حقيقية ، لأن الملك لايقيم فيها الا نادراً وقليلاً . ان تذوق التغيير وهواية الصيد وضرورة استهلاك المنتجات الطبيعية للدومينات في مكانها ، وطبيعة السلطة الاستبدادية التي تتطلب من الملك ان يكون في كل مكان ، ان كل ذلك يجبر الملك الميروفنجي أن ينتقل من فيلا الى اخرى ، ويجر في ركابه ادارته المزعومة ، ومايسميه خزانته ومحكمته ووثائقه عوضاً عن ان يتركها في مكان ثابت . ودامت هذه الطرق والأساليب قروناً في اوروبة حتى القرن الثالث عشر . وكان هذا الوضع يختلف تماماً عما كان عليه الخليفة في الدولة الاسلامية ، لأن هذا الخليفة كان يتمتع بسلطة تجعله يستقر ويتأصل حيث هو ويجد له مقاماً ثابتاً لايلبث أن يصبح في الوقت نفسه مركز جذب وسوقاً تجارية ومدينة كبرى .

بهاء الملكية الزائف . — لقد كانت الملكية الميروفنجية بسبب تركيبها استبدادية لاحد لاستبدادها . ولم يكن هذا الاستبداد مزداناً بالبهاء الذي يمكن أن ينعكس على الدول التي هي من هذا النوع مع مايرافقه من الاحترام والاحتفالات والتقاليد القديمة . لقد كان الملك الفرنجي يريد أن ينادى « السيد » . وان صيغة الرسائل والدبلومات تتكلم عن عظمته وعزته وسيادته ورفعته . وعند الكلام عن نفسه يكتب « عفونا » « رحمتنا » ، « سماحتنا » ، ويبسط بسذاجة ثروتة وهدايا الأمراء الأجانب وخاصة الأمراء البيزنطيين . وتقليداً للامبراطور كان له عرش ووضع وآداب للسلوك ومراسم . ويطلق على رعاياه اسم « الاقليميين » ، ويريد أحياناً أن يمنح الشعب بعض التسهيلات . وكان بعض الملوك الميروفنجيين ، مثل شيلبيريك وشاريبير ، يفخر بمعرفة اللاتينية الجميلة وليس

كل ذلك الا زخرفة وزينة ، فليس التقليد الا سطحاً وتمثيلاً يستوجب الهزء والسخرية . ولم ينجح الملك الميروفنجي في « ملء اطار الملكية الامبراطورية الواسع » . وظل في أعماقه حديث نعمة وبربرياً . وبقي الشعر الطويل عنده خاصة من خصائص السلطة . وتنقصه الهيئة واللياقة . وحب الخادمات عنده ، عدا سيجوبير ، قاعدة . وكان يبحث عن « ملكاته » في بيوتات الحريم ، ولا يكاد يدرك سن البلوغ والزواج الا ويتمرغ في الدعارة والفجور . ومن عجب ان تأثير الدين قليل على هذه الارواح الناقصة . فهي ليست مسيحية الا اسماً . وليس دينها الا اباطيل واوهام بدائية فجة ويتلخص في الخوف من القديسين وخاصة من القديس مارتن .

الفوضى والاسراف . — كانت هذه الملكية نهمة الى الضريبة لاترحم ، وكانت في الوقت نفسه مسرفة مبذرة . وقد نتساءل على أي شيء يمكن الملك الميروفنجي أن ينفق وارداته ! فهو لايدفع أي خدمة عامة : كأعمال الفن والتعليم والاحسان وغيرها . ولا يعطي رواتب الى رجال ادارته وقضاته . فالكونتات ، كما رأينا ، يعيشون من نتاج فيلا أو عدة فيلات ملكية في الدائرة التي تترك لهم ، ومن جزء من حصة الغرم القضائي الذين يعود للملك عندما يوجد « تسوية » قضائية . وليس للجيش اعطيات . فكيف اذن لاتنتفخ الخزانة ، التي تغذيها الضريبة والدومين بصورة فاحشة وهي آلة ماصة لا دافعة ؟ الواقع انها تفرغ سريعاً جداً .

لقد كانت قوى المجتمع من وطنية وبذل واخلاص متكسرة أو تعبة ، وكان الرابط الوحيد هو البذل الشخصي من انسان لانسان ، وهذا هو اساس التبعية . ولكن القوة العاطفية لهذه الرابطة بدت ضعيفة جداً في عهد الميروفنجيين ، وعلى الأقل بين الملك ومعيته ، ولم يعرف الملك الميروفنجي كيف يحبب نفسه الى أحد . لقد كان الرابط الوحيد

المنفعة . وكان ولاء المولى والموظف متذبذباً ضعيفاً ، ولذا كان بحاجة للاطعام والدعم بالمال . وإذا كان للملك نظرات في ارث قريب ، كانت الخزانة تساعد أيضاً على رشي الموالين لجاره . ولقد كان هذا السلاح أنجع من معركة لكسب مملكة جديدة .

انحطاط الضريبة العقارية . — ومع هذا فقد بدأ النضوب يظهر على هذا المصدر الضريبي الذي كان يغذي الخزانة . فمن المعلوم ان معظم الواردات في الحضارة الزراعية يأتي عن الضريبة العقارية . ولئلا يضعف الانتاج ، وليتنفذ فرض الضريبة يجب أن يعاد النظر بين حين وآخر في مادة الضريبة ، وأن تكون مصلحة المساحة على بينة من الأمر . ولكن مثل هذه العمليات الدقيقة كانت مكلفة ، حتى ان عدم الاهتمام الملكي كان يساعد على اهمال تنفيذها . فاذا ما صدأت عجلة الضريبة تعطلت ولم تعط شيئاً . ويبدو من قراءة غريغوار تور ، مؤرخ هذا العصر ، أن جباية الضريبة ، منذ حكم احفاد كلوفيس ، كانت متقطعة ولا يمكن ان تتم دون مشاهد مخيفة . فكل مقاومة للدفع كانت تقمع بالتعذيب والقتل .

كثرة الضرائب غير المباشرة : — اما الضريبة غير المباشرة فقد قاومت بشكل افضل لسهولة جبايتها ، وكان يكفي لذلك اقامة موقع مسلح في سوق أو على رصيف أو في منعطف طريق أو على جسر او على طريق مائي . وقد اكثر الملك ضرائب التجارة وضريبة المرور في النصف الثاني من القرن السادس نظراً لضعف حصيلة الضريبة المباشرة .

الحصانات . — وكان الملك نفسه يعتبر جباية الضريبة نهباً ، ويرى ان سلام روحه في خطر ، وخاصة عندما يقوم عماله بالجباية على اراضي الكنيسة . ولذا أخذ الملك الفرنجي ، منذ وقت مبكر ، يغدق دبلومات

امتيازات « الحصانات » ويعفي بموجبها الاسقفيات والاديرة من دفع كل شيء يعود للضريبة الملكية ، وحرم في الوقت نفسه على القاضي (الكونت) وعلى اتباعه دخول الأراضي المحصنة لممارسة حق الايواء والوكالة ، كما حرم فيها اقامة محكمة قضائية وجباية **الفريدا** . ومن الممكن أن يفكر ان الملك اراد من هذا الاجراء ان يلحق المحصن به مباشرة لبدفع نتاج الضريبة والفريدا الى الخزانة . ولكن الدبلومات تنص على ان حصيلة الضرائب تركت للكنيسة في سبيل سلام روح الملك. وفي هذا ما يدل على ان الأسقف ومجلس الكهان والأب والرهبان هم الذين يفيدون من الحصانة لا السكان الريفيين . وفضلاً عن ذلك كان المحصن الكنسي يقوم بالقضاء في الدعاوى الدنيا ويحصل على الغرم القضائي . وقد حصل العلمانيون ايضاً على افضال من هذا النوع .

وهكذا اقتصرت جباية الضريبة العقارية والجزية على عدد قليل من الناس دون أن تزول بحكم قانوني ، بيد أنها زالت بزوال المكلف .

ويصادف أيضاً اعفاء رجال الدين وخدمهم من دفع ضريبة التجارة ورسوم العبور على الارض والنهر . كما يصادف إلى جانب الاعفاء القانوني الاغتصاب المبكر وقد تكاثر مع الزمن والاهمال .

خراب الادارة النقدية . — وهناك مصدر آخر للواردات ، وهو النقد ، نجا من الملوك . فقد كانت الكنائس والأديرة تضرب قطع النقد الفضية والذهبية باسم القديس السيد الحامي ، ويتم ذلك دون أخذ علم بأي امتياز رسمي من الملكية . ولم يكتف ضاربو النقد بالضرب في البلاد ، في السكولا ، أو في المشاغل الامبراطورية القديمة ، بل كانوا يضربون في كل مكان ، وفي اماكن صغيرة جداً . وعلى ما يبدو أن

السلطة لم تمارس عملها بشكل كامل على هذه الاعمال منذ القرن السابع وربما لم يكن هذا العمل منتظماً .

زوال الدومين العقاري . — ويبدو ايضاً أن الملك الميروفنجي في القرن السابع ، كجيرانه الملك الغوطي في اسبانيا ، واللومباردي في ايطاليا ، والساكسوني في بريطانيا العظمى ، كان يعيش خاصة من انتاج دوميناته ، وإن هذه الدومينات كانت عديدة وتبلغ المئات ، وان امتدادها يساوي وسطياً امتداد قرية حديثة .

ولكن عدداً من هذه الدومينات كان مخصصاً لاعاشة الكونتات والأدواق وحجاب القصر . وكثيراً ما كانت التقوى والندم يحضان الملوك على منح الاسقفيات والاديرة الهبات تلو الهبات . فمن ذلك ان المنطقة الباريسية كانت ملأى بالفيلات الملكية ، ثم أصبحت بكاملها أرضاً للكنيسة . ومن الملكات من كن كريمات سخيات .

على أن ولاء الموالين كان مذبذباً وعرضة للتغير ، ولذا كان بحاجة مستمرة إلى البذل والعطاء والدعم العقاري . وقد ضعف الدومين الملكي بهذا الدعم والامداد .

أما الامتياز الموقت وهو **الانتفاع** فهو مجهول في الامتيازات الملكية في العصر الميروفنجي ، أو على الاقل ، ان النصوص لا ترينا إلا هبات بشكل تمليك كامل . ولا شك ان الانتفاع كان موجوداً من قبل . ولكن منح الامتياز لم يدع ، على مايبدو ، مجالاً لصك ملكي مكتوب .

ولا مرية في أن الملوك كانوا ، لدى أقل اشتباه أو سبب للخيانة ، يستعيدون أموالهم التي منحوها ويضمونها من جديد إلى أموالهم . غير أن هذه الطريقة العنيفة كرهت الناس بالملكية الميروفنجية ، ولم يعد

مطمئناً ، لأن الملك ليس له ايمان أو عهد . ولكن هـــذه المصادرات كانت وسيلة أكثر منها علاجاً ، ولا يمكن أن تعوض نقص الدومين الا قليلاً . وفي الحقيقة ان هذه الملكية كان محكوماً عليها بالدمار والهلاك لأنه لم يكن لديها من طريقة في الحكم الا شراء الطاعة .

وهكذا نرى أن الملكية الميروفنجية كانت دون تقاليـد ، ودون مثل أعلى ، ودون فضائل عامة أو خاصة ، وجسداً دون روح وعاجزة عن خلق البذل والتفاني عند الناس في سبيل الملكية . ولم يقم بـــين بين الرعايا والمليك تيار عاطفي ، هـذا التيار الذي لا يدوم بدونه أي حكم . لقد كانت الملكية الميروفنجية حالة واقـع وسلطة شخصية ولا تساوي شيئاً إلا بقوة الملك . فاذا ماضعفت هذه القوة بسبب أو بآخر ، قامت المنافع والاحقاد المضغوطة والاطماع غير الراضية على البناء الملكي تعمل فيه الهدم والتخريب .

ضعف السلطة الملكية ودمارها

سلبية السكان . — لقد كان الحكم الملكي المطلق ثقيلاً على الشعب ، ولكن الجماهير الشعبية لم تقم بأي رد فعل بشكل ثورة عامة أو جزئية. حقاً لقـد قامت مشادات بسبب خرق دائرة الضرائب أو افراطها ، ولكن كان من السهل قمعها . كما أن بعض الموظفين لم يتمكنوا من القيام بالوظائف التي أسندت إليهم بسبب أعمال الشغب التي كان يحركها منافسوهم عليهم ، ولكن لم يقم بها أحد ممن في معيتهم من رجـــال الادارة . غير أنه كان يرى عند احتشاد الجيوش للدخول في حملة عسكرية أن الحرس الوطـني غير المسلح جيـداً ودون نظام وتماسك يسمح لنفسه بالصراخ والتهديد إذا لم تعجبه الحملة ، أو على العكس اذا

كان يؤمل منها المغانم ويريد الملك أن يؤجلها . وفيما عدا هذه الحالات ظل الشعب مستسلماً دون حراك كما في زمن الامبراطورية الرومانيـة . ويراد بكلمة « الشعب » الناس الريفيون الأحرار . اما الاقنـان بل والمعمرون والتجار فلا يلعبون أي دور في المجتمع .

قوة القصر . ـ لقد كانت المعارضة تأتي في الغالب من رجال القصر ممن يعيشون في معية الملك وفي أكنافه . فالبلاط هو الكل في الكل في الدولة كما يقال . فهو يمسك بيديه كل الوظائف والامكنة الحساسة . وعن طريق هذه الوظائف يوزع الثروة القائمة على الملكية العقارية . ولم يكن في الدولة أقوياء او أثرياء إلا رجـــال القصر ، فالادارة وحكم النبلاء (الارستقراطية) وحكم الأغنياء (البلوتوقراطية) كلها تخرج من القصر وتختلط به .

في البدء شاد المليك « القصر » ليرضي نفسه وأنانيته ، وما كان ليريد أن يرى فيه الا امتداداً لشخصيته . بيد ان هذه الصنيعة،التي خلقها فسواها ، وعت مع الزمن ذاتها ، وأرادت ان تحيا حياتها الخاصة ، فاذا ما ضعف سيدها او زال ، استطاعت ان تتابع سيرها ووجودها . إن هؤلاء الناس الذين يؤلفون رجال القصر ، ويعرف بعضهم بعضاً منـذ الطفولة ، ويحيون حياة واحدة معاً وفي معية الامير ، كانت تتملكهم اهداف واحدة ، ورغبات واحدة ، ويقوم بينهم تضامن وثيق . وعلى ما يبدو ان يمين النجدة ، التي اقسموها للملك للمبادرة لنجدته إذا دعاهم ، قد أقسموها لأنفسهم . فهم في الواقع يشكلون مجتمعاً ضيقاً وينزعون الى تأليف طبقة خاصة بهم ، ونراهم يتزاوجون ويتصاهرون فيما بينهم ويريدون ان يؤمنوا لأولادهم ولأنفسهم جميع الفوائد الممكنة من الدولة .

ولا يغرب عن البال ان « القصر » لا يشمل من يعيشون في

البلاط فحسب ، بل يضم ايضاً من كانوا يعيشون فيه من قبــل . فالأدواق والكونتات والنظار ، الذين يقيمون في الأقاليم ، يعتبرون جزءاً من القصر . حتى ان الاساقفة انفسهم ، الذين حرجوا كلهم من القصر ، كانوا يتقاعسون غالباً عن الخروج منه . وفي غضون القرن السابع اعتاد اعضاء القصر ، ممن انفكوا عنه وعاشوا في الاقاليم ، ان يجتمعوا مرة في العام ، في شهر آذار ، مع زملائهم ممن بقوا في المركز فهم يؤلفون على هذا النحو نوعاً من « قصر كامل » وهو المجلس السياسي الوحيد الذي عرفته فرنسا في تلك الأزمنة . وهذا « القصر » الميروفنجي، الذي لم يكن في الواقع ادارة حقيقية مركزية ، استطاع مع الزمن أن يتطاول في عمله بأقوى مما سيفعله « بلاط » لويس الرابع عشر في المستقبل .

وعلى هذا فالقوة المنافسة للملكية الميروفنجية ليست الارستقراطية ، كما يقال عادة ، بل القصر ، او على الاقل ، الارستقراطية من حيث انها تختلط بالقصر .

القصور الشرعي وسلطة القصر . — ظهرت قوة القصر فجأة بمناسبة قصور الملوك . وكانت اوستوازيا الاولى التي كان لها ملوك قاصرون ، وهذا الوضع ساعد على ظهور الارستقراطية. فقد بدا الملك تيبود (تيؤبالد) بن تيبير (تودوبير) خلال عهده القصير (٥٤٧ — ٥٥٥) ضعيفاً جسداً وروحاً ، ومع ذلك جردت عدة حملات هامة إلى ايطاليا .

وقد تقرر تجريد هذه الحملات من قبل حاشية مجهولة . وفي فترة قصور شيلدوبير الثاني (٥٧٥ — ٥٨٤) تجلى حكم ادواق واسقف رَنس . فقد كان الملك الشاب تحت نيرهم ، وكان على الأم برونيهو أن تتحمل شتى انواع الاذلال . وعندما حاولت أن تتدخل بين جيشين على وشك الاشتباك صرخ بها الدوق أورسيون : « اليك عنا ايتها المرأة

يكفيك انك حكمت في عهد زوجك . اما الآن فابنك الذي يحكم تحت حمايتنا لا تحت حمايتك. اليك عنا والاسحقتك سنابك خيلنا على الارض ».

وفي القرن التالي انتزع الفجور والفساد الملك الفرنجي وهو في زهرة العمر ، وأصبح القصور نظاماً عاديا لجميع الدول الفرنجية . ومثل هذا القول ينطبق على اسم الملوك « الظاهريين » ، عدا داغوبير ، لأن القصر في القرن السابع أخذ على عاتقه حكم المملكة الفرنجية ، وقام تحت تأثير الضرورات مقام الملكية المستبدة التي لم يجرأ أحد في القرن المنصرم على مهاجمتها والوقوف في وجهها .

ظفر القصر . — وفي ازمة ٦١٣ — ٦١٤ انتصرت الارستقراطية ، كنسية وعلمانية ، وارادت فرض شروطها على الملكية . فقد انعقد مجمع للغاليين في باريس ضم ٧٩ اسقفاً ووجه عدة تظلمات إلى الملك كلوتير الثاني ، فلم يقبل بها جميعاً وهو المعروف انه صنيعة الكبار والأساقفة . ولم تكن براءته عام ٦١٤ ميثاقاً دستورياً ، كما قيل ، بل هي محاولة بسيطة لاصلاح المفاسد الصارخة اكثر من غيرها . وإذا تبين أن الملكية كانت ضالعة في هذه المفاسد ، فان اخطاء الاكليروس والكبار كشفت أيضاً . ومهما يكن فقد اتخذت الملكية عدة تدابير لصالح الكبار وأهمها .

١ — الحفاظ على الاموال التي منحت لهم من قبل اسلاف كلوتير .
٢ — الغاء كل هبة اكتسبت بالكذب والموالسة والخداع .
٣ — اختيار القضاة من المنطقة التي يقومون على ادارتها .
٤ — اعتبار هذه المطاليب تعهدات قابلة للتجديد .

وبعد عامين قبل كلوتير الثاني « بالمطاليب العادلة التي قدمها كبار بورغونديا واساقفتها » كما قبل بالشيء نفسه شيلديريك البائس .

واذا حل القصر بسرعة محل الملكية ، على ما هي عليه من قوة كما

يبدو ، فليس مرد ذلك إلى بنيته القوية وروح جماعته ، بفضل تطور حتمي ، بل لأن القوى المسلحة كانت بيده ، ووجد له الزعيم الذي يستطيع ان يوجه هذه القوى التي خوله اياها الادواق ، كما خوله زعيم الخدم (الماجوردوم) وحدة القيادة .

الادواق . — لم تكن وظيفة الدوق لتظهر الا نادراً في الجزء الاكبر من القرن السادس . وكان الكونت كافياً لتوجيه العمليات العسكرية تحت سلطة الملك ، الزعيم الحقيقي في البلاد . وفجأة ظهر الادواق منذ بداية الحرب الاهلية الكبرى التي دامت اربعين عاماً (٥٧٣ — ٦١٣) وأصبح يتكلم عنهم لقيادة الجيوش ، وبالمقابل أصبح الكونت استثناءً لأن وظيفة الدوق في أساسها عسكرية ان لم تكن خاصة . ويبدو انه لم تكن هنالك دوائر ثابتة « دوقيات » فكان يعهد إلى الدوق ، على الاقل، بمدينتين ، واحياناً بثلاث مدن واربع أو أكثر. وتخلى الملوك مثل شيلبيريك وغونتران وشيلدوبير الثاني ، عن قيادة الحملات بصورة فعلية ووضعت الجيوش تحت قيادة دوق ، أو احياناً ، تحت اوامر عدة أدواق ، وربما كان ذلك تقليداً للشعوب الأجنبية كالبيزنطيين واللومبارديين المشهورين بكثرة الادواق . وبسرعة ظهرت هذه الشخصيات الواعية لمصالحها وقوتها فظة متكبرة ، وأخذت تتزعم في القصر وتظهر وقاحتها وشراستها فكانت اشبه بالحيوانات المفترسة . وقد أرخ ظهور الدوق في التاريخ الميروفنجي بداية تشكل الحزب الارستقراطي .

حاجب القصر . — لم يرتفع أسم رئيس الخدم (الماجوردوم) عالياً في النصف الأول من القرن السادس . ومهما يكن عمله هاماً فلا يجعل منه موظفاً سامياً على رؤساء خدم الممالك الجرمانية الاخرى المعاصرة. على ان هنالك بعض الموظفين السامين ، كزعيم الكتاب أو كونت

القصر أو رئيس الحرس ، يستطيع أن يفرض سلطته على البلاط كله . فالوضع الرفيع منوط ولا شك بتأثير الشخصيات الذين شغلوا هذه الوظيفة في الثلث الاخير من القرن السادس ، وصعود الموظف رفع في الوقت نفسه الوظيفة . وهكذا قويت حالة الواقع وأصبحت نظاماً . وعندما انفجرت أزمة ٦١٣ ظهر الماجور سيداً حقيقياً للقصر والدولة في الدول الثلاث .

الكبار وحاجب القصر . ـ لقد أصبح الحاجب بحكم الواقع سيداً وما لبث « القصر » ان لاحظ ان الحاجب انتقل من ممثل لشكاواه وطموحه وغدا مستبداً مستأثراً بالسلطة ، وممسكاً بيده حياةالقصر الاقتصادية، وظيفته الأساسية ، ورئيساً للحرس المسلح وزعيماً للمتطوعين في خدمة الملك وحامياً ووصياً على المحاسيب والمحميين .

وفزعت الارستقراطية منه وحاولت أن تحذف الوظيفة او ان تختص بتسمية الحاجب لتستطيع الاشراف عليه ومراقبته . ولكنه استطاعأن يكون في مأمن من محاولات الارستقراطية لتهديه . وابتداءً من ٦٨٧ اصبح حاجب قصر اوسترازيا سيداً حقيقياً في المملكة كلها ولن يبدل لقبه الا بلقب الملك عام ٧٥١ .

ولقد بقي من الماضي الميروفنجي عند الملوك الكارولنجيين عاطفة مداراة الرؤساء وعدم القيام بأي محاولة دون الاسترشاد بنصحهم . وستكون وجهات نظر الكبار ، الذين يملأون « القصر » الكارولنجي ثم بلاط الكابسيين، وجهات نظر « القصر » في القرن السابع ، وستعتبر العائلات الكبرى بأنها تملك حقاً طبيعياً في وظائف الدولة وفي انعام الملك ومرتباته ، وان الملك ليس إلا منتفعاً وموزعاً لثروة ، المملكة ، التي يعود ملك رقبتها إلى مجتمع الناس من أهل الحسب والنسب . وسيظل هذا المفهوم للدولة مفهوم الطبقة النبيلة الفرنسية حتى النهاية .

الفصل الخامس عشر

النظم الكارولنجية

لقد كانت حالة الملكية الفرنجية في عهد الكارولنجيين كحالتها في عهد الميروفنجيين ، ولم يكن هنالك شعب سيد وشعوب خاضعة ، بل ان المملكة كانت ، بالرغم من اختلاف الاعراق ، تخضع لأنظمة واحدة .

فكرة الدولة . – ان الفكرة المجردة للدولة والقوة العامة مفقودة في عهد الكارولنجيين كما في عهد الميروفنجيين ، لأن السلطة الشخصية للملك كانت في أساس النظم ، وظلت هذه السلطة وراثية تقريباً ، وظل تقسيم المملكة وتقسيم الممالك التي انبثقت عنها بعد تجزئة ٨٤٣ ، قاعدة كما يقسم الارث الخاص . أما أن يفهم ان فكرة الامبراطور سلطة عامة لا يمكن تقسيمها ، وسلطة خالدة لا تتعلق بشخص الامير وتموت معه ، فذلك أبعد ما يكون عن أنظمة الدولة الفرنجية . ولقد حاول بعض كبار الامبراطورية أن تظفر هذه الفكرة الامبراطورية كفكرة مجردة فوق الاشخاص ، في عهد لويس التقي ، ولكن هذه المحاولة منيت بالاخفاق .

الملكية والوصول الى العرش . – النظام الملكي هو النظام السائد في الدولة الكارولنجية وفي الدول الناشئة عن تفتتها . كانت الملكية وراثية وتقتضي التقسيم بين اولاد الملك المتوفى . بيد أن الانتخاب الذي

قام به الكبار وتوصل بموجبه بيبن الثالث إلى العرش عام ٧٥١ عاد للظهور بفضل اضطرابات النصف الثاني من القرن في **فرنسيا الغربية** : ورأى لويس الألكن ولويس الثالث وكارلومان حقوقهم الوراثية مؤيدة بالانتخاب ، وانتخب شارل السمين ، مع أن الوارث الشرعي كان الشاب شارل الساذج ابن لويس الألكن من زوجته الثانية . وانتخب شارل الأصلع ملكاً على إيطاليا عام ٨٧٦ ؛ وبوزون ، ملكاً على بروفانس عام ٨٧٩ ، وارنولف ، ملكاً على جرمانيا عام ٨٨٧ .

وهنالك عامل أساسي آخر للوصول إلى العرش وهو **المباركة** التي لم يعرفها الميروفنجيون واراد منها بيبن في ٧٥١ و ٧٥٤ أن تؤمن لانقلابه تصديقاً إلهياً . ان المسح بالزيت المقدس الذي يقوم به الأسقف في هذا الاحتفال هو في الواقع عمل ديني من حيث المبدأ ، ويقرب في قيمته الروحية من السر أي انه ينيل الملك فضائل خاصة ، ويجعل منه مخلوقا مقدساً ، ويمنحه صفة كهنوتية . وبعد شارلومان أتبع المسح بعمل آخر يدخل في حفلة المباركة وهو **التتويج** ، وهو تقليد يخول بموجبه المنصب الامبراطوري ويمكن أن يتم بصورة مستقلة عن المسح . وكانت المباركة والمسح قاعدة في **فرنسيا الغربية** ، إلا انهما لم يكونا كذلك في **فرنسيا الشرقية** ، حيث لم يخضع لها لويس الجرماني ، أو أولاده ، أو ارنولف .

الحكم الملكي المطلق . — كان الملك الكارولنجي سيداً مطلقاً في مملكته ولا يخضع لأي التزام يلزمه الدين بموجبه باحترام الحق وبممارسة العدل والتقوى ، شروط سلطته ، ولاشيء في الأنظمة يحدد هذه السلطة . ففي عهد بيبن وشارلومان وبداية حكم لويس التقي لم يكن لمجالس الكبار التي تنعقد في الربيع أو الصيف أو الخريف ، إلا صفة استشارية . أما يمين الولاء التي يفرضها الملك على رعاياه ، فلا تخول أي صفة عقدية

للعلاقات التي تجمع السيد والمسودين الملحقين به ، وليست الا من قبيل تحصيل الحاصل .

ومع هذا يرى بعض التقييد ، للحكم الملكي المطلق ، بحكم الواقع وبحكم الحق . فقد فرض الكبار المجتمعون إرادتهم على لويس التقي ، وفي **فرنسيا الغربية** تعهد شارل الأصلع ، في مجلس كولين ، عام ٨٤٣ ، حيال كبار الكنسيين والعلمانيين ، باحترام حقوقهم ، وهذا التعهد شرط للطاعة الواجبة للملك . ودام هذا التقليد في عهده وفي عهد خلفائه ؛ وكذا الحال في ايطاليا وفي بروفانس . وحقيقة الأمر ان الملوك في فرنسيا الغربية ، ابتداء من شارل الأصلع ، لم يكونوا على درجة كافية من القوة تجعلهم قادرين على ممارسة سلطتهم المطلقة . وإذا وجدت بعض الظاهرات المنعزلة لهذا الحكم المطلق ، فلا يمكن ان تتخذ دليلاً على الخداع وتجاهل الواقع .

الملك المشرع . — كان الملك يشرع بشكلين : وذلك باصدار **القوانين والبراءات** . أما القوانين فتؤلف حقاً خاصاً بشعب من الشعوب الداخلة في المملكة ، وهي ، بصورة عامة ، سابقة للكارولنجيين . ولكن شارلومان اعاد النظر في كثير من التشريعات الوطنية ، وخاصة في القانون السالي ، وعني بأن تحفظ هذه التشريعات الوطنية مكتوبة ، ولم تكن من قبل محررة . وهكذا نشأ في العام ٧٨٥ قانون الساكسونيين . وأخيراً نشر عدة **أوامر** بغية ادخالها في جميع التشريعات او في بعضها . وقد سار على منواله لويس التقي ولوثير الاول .

أما البراءات فهي أوامر مقسمة على فصول وتمثل نشاطاً تشريعياً أصيلاً . ونجد فيها قليلاً من الحق العام . ولكن الأحكام المتعلقة بالأصول وحق البينات والحقوق الجزائية ليست نادرة ويتعلق القسم الأعظم

من البراءات بادارة الدولة والجيش والتنظيم القضائي وحفظ السلام العام . وهناك بعض الأوامر المتعلقة بالكنيسة وبتنظيم الاملاك . وتطبق البراءات على الدولة كلها أو على جزء من البلاد . وعلى خلاف القوانين ، يكون الحق الذي تتضمنه هذه البراءات عاماً في المملكة . وفي فرنسيا الغربية استمر شارل الاصلع وخلفاؤه في اصدار البراءات ، ودام تطبيقها في ايطاليا ايضاً . وبالمقابل لم تحفظ براءات لويس الجرماني أو براءات اولاده .

ويشك في ان الاجماع يخول كبار جماعه عرقية اصدار قانون أو براءة ، أو ان تكون له صفة الزامية تربط الملك ، بيـــد انه من المؤكد ، في فرنسيا الغربية ، على الأقل ، ابتداءً من شارل الأصلع ، ان ضعف الملكية كان بحيث ان « قبول » الكبار لتدابير الملك التشريعية يكفي لأن يفرض نفسه ويأخذ طابع نظام .

الامتيازات الملكية الأخرى . — لقد كان الملك يمارس سلطته في القيادة والعقوبة باشكال مختلفة . فهو يدعو رعاياه لحمل السلاح ويقود جيشه ويقيم العدل في محكمة القصر ، ويحرص على حفظ السلام العام بالتدابير الآتية :

١ — باصدار عقوبات في براءاته ضد كل من يخرق السلام وإلزامه بدفع غرامة ملكية ثقيلة قدرها ٦٠ سو .

٢ — بشجب كل من يخرق السلام .

٣ — بمطاردة كل من يؤلف خطراً على النظام : من اشقياء وقطاع طرق ومحرضي الحروب الخاصة واعضاء التجمعات المشبوهة المحرمة . غير أن القوة كانت تنقص ملوك فرنسيا الغربية في النصف الثـــاني من القرن التاسع ، وفي عهد شارل السمين ، ملك فرنسيا الشرقية ، لفرض احترام السلام العام لأن الحفاظ عليه سبب أساسي لوجودهم .

الامبراطورية والوصول الى المنصب الامبراطوري . لقد وجد المنصب الامبراطوري مرتبطاً بصورة منتظمة بصفة ملوك الفرنجة ، ولم يكن مع ذلك متمماً ضرورياً .

وقد استطاعت الوراثة أن تكون شرطاً في بلوغ الامبراطورية وكان الاباطرة الكارولنجيون حتى لويس الثاني « يعينون » من قبل آبائهم . غير أن التعيين والحق الوراثي ليسا شرطين كافيين . وليصبح الملك امبراطوراً لابد له من التتويج . وقد استطاع هذا التتويج أن يكون علمانياً : كتتويج لويس التقي بيد أبيه ، عام ٨١٣ ؛ وتتويج لوثير الاول بيد لويس التقي في ٨١٧ . وقد تم كلا التتويجين في ايكس — لا — شابل . ولكن بعد أن توج البابا للمرة الثانية لويس عام ٨١٦ ولوثير الأول في ٨٢٣ تمت التتويجات التالية طبقاً للطقس الذي اتبع في تتويج شارلومان امبراطوراً في ٨٠٠ : وذلك بأن « ينادى » بملك الفرنجة او بصورة رسمية « ينتخب » امبراطوراً ، كما جرى مع شارل الأصلع عام ٨٧٥ عندما نادى به الكبار امبراطوراً وتوجه البابافي كنيسة القديس بطرس . ومنذ ٨١٦ أضيف المسح بالزيت المقدس إلى التتويج .

وإذا اعتبرنا التتويجات الثانية من ٨١٦ إلى ٨٢٣ التي يبدو انها تتضمن عدم كفاية الاولى وتفيد من ضعف سلطة ملوك الفرنجة ، فقد استطاع الباباوات ان يجعلوا الناس يقبلون بانهم وحدهم يخولون السلطة الامبراطورية . ونادى البابا نيقولا الأول بهذا المبدأ ، وطبقه يوحنا الثامن بالإيعاز بانتخاب شارل الاصلع وتتويجه . وعندما فكر البابا ان يجعل من بوزون امبراطوراً ، كان على استعداد لتضحية الحقوق التقليدية للسلالة الكارولنجية .

السلطة الأمبراطورية . — لامجال للشك في طبيعة السلطة الامبراطورية

فقد كان شارلومان وخلفاؤه يعتبرون أنفسهم ورثـــة شرعيين للاباطرة الرومانيين ، ولقد كان جواب لويس الثـــاني إلى باصيل الأول ، في العام ٨٧١ ، صريحاً ورسمياً بهذا المعنى . وبهذه الصفة كانت السلطة الامبراطورية عامة ، وكانت كذلك أيضاً في أعين الناس الذين يفكرون ، وجلهم من رجال الكنيسة ، بان الرسالة الأساسيـة للامبراطور تقتضي حماية الكنيسة ، العامة في جوهرها . وكان الامبراطور حقاً سيد العالم ، العالم الغربي على الأقل .

وواقع الأمر ان اللقب الامبراطوري لم يضف إلى السلطة الملكيـة الا قليلاً : لقد جعلها اكثر جلالاً وبهاءً ، وزاد عنـــد المليك الوعي لحقوقه وواجباته ورسخها بشكل أعمق في مفهومه الديني لواجباته كعاهل مسيحي . ولم يجلب من العناصر الايجابية الى الملوك الفرنجة الا حقوق السيادة على روما وعلى اراضي الكنيسة الرومانية . ولا ابعد في الواقع عن السيادة العامة للامبراطور من الامبراطور لويس الثاني . ومهما كانت مزاعمه فلم يكن سيداً الا على ايطاليا .

القصر . — كان القصر مركز الحكومة ، وكان متنقلاً كالملك ، الا المملكة اللومباردية وحدها فقد كان لها مقام دائم نسبياً وهو بافيا . ومع ذلك فقد أخذت ايكس — لا — شابل وجه عاصمـــة في عهد شارلومان ولويس التقي ولوثير الأول ولوثير الثاني .

وكان تنظيم القصر شبيهاً بما كان عليه في عهد الميروفنجيين . ولاشك في ان الكارولنجيين لم يستعيضوا بدلاً عن حاجب القصر ، ولكن السينيشال أصبح مكلفاً بالتدريج بالنظام العام وخدمة المائدة . وكان خدام غرفة الملك ، ونظـار خموره و « الكونيتابل » و « الماريشـــالات » ، و « رؤساء الحرس » يعتبرون من بين كبار ضباط البيت الملكي . أما

نظار الاملاك الملكية في العهد الميروفنجي فقد زالوا في العصر الكارولنجي وعهد شارلومان بوظـــائفهم الى السينيشـال والى ناظر الخمور ، بينما حافظ رئيس غرفة الملك على « الخزانة » .

أما كونتات القصر فقد ازدادت اهميتهم . وبعـــد ان كانوا في السابق اعواناً للقضاة في المحكمة الملكية ، أصبحوا في الحاضر يؤمنون رئاستها في الغالب . ويبدو أنهم قاموا باعمال متفوقة بصفتهم مشاوري الملك في القضايا السياسية والقضايا الادارية . ويبدو في فرنسيا الشرقية ان كونت القصر كان مختصاً بمنطقة من المناطق الرئيسية في المملكة .

وكانت هذه الوظائف كلهـا في أيدي العلمانيين ، اعضـــاء الطبقة الارستقراطية ، وكان أصحابهـا مشاورين عادين للملك ، وهـذا الملك يكلفهم في المناسبة بمهام سياسية أو قيادات عسكرية ويأتمر بأمرهم رجال مصالح دون مكاتب ، الا فيا يتعلق بمحكمة القصر ، أو ربمـا بادارة الاملاك الملكية أو بالخزانة .

الديوان الملكي والقابلة الملكية . — وكان تحت تصرف الملك ، كما في عهد السلالة السابقة ، كتاب لارسال وثائقه الرسميـــة ورسائله ولتحرير أعماله التشريعية ويحملون بوجه عام اسم **نوتادي** ، وكلهم من الاكليروس ، ويحتكرون التعليم ويسمى رئيسهم في الغالب **مشاوراً** ، وفي عهد لويس التقي أصبح بالتدريج يسمى **رئيس المشاورين** . وكان هو والملحقون به يؤلفون « قابلة » الملك أي جماعة الاكليركيين الذين يعيشون في القصر الملكي . وابتداءً من ٨٥٤ ، أصبح رئيس القابلة ، في فرنسيا الشرقية ، رئيساً للديوان الملكي والحق به مشاور وهذا الخلط في الوظائف ، الذي وجد أيضاً في فرنسيا الغربية ، وعلى الأقـل في عهد شارل الأصلع ، ابتداءً من ٨٦٧ ، لم يحدث في ايطاليا .

المفتشون والتحقيق .— لقد جرى بيبن وشارلومان أكثر من اسلافهما على ارسال مفوضين خاصين (ميسى دومينيسي) مكلفين بتفتيش عمال السلطة الملكية والضرب على أيدي المفاسد . وفي العــام ٨٠٢ ضبط النظام : فقد قسمت ارض الامبراطورية إلى مفوضيات ، واختصت كل مفوضية في الغالب بمفتشين : كنسي وعلماني . وكان هؤلاء المفتشون يتلقون تعليمات واضحة ويلزمون بتقديم تقرير عن أعمالهم . ويبـدو أن سلطاتهم كانت نفس السلطات التي يمارسها الملك بنفسه .

وفقد عمل المفتشين الكثير من قوته وتأثيره عندما ادخلت ، في عهد لويس التقي ، العادة في تخويل المفوضيات في الغالب إلى أساقفــة وكونتات من المنطقة . وبهذا الشكل أخذ المفتشون ، في ايطاليا وفرنسيا الشرقيـة أو الغربية بصورة عامة ، صفة دائمة . وفي النصف الثـاني من القرن انحط النظام تماماً . وحيث احتفظ بصفة المفتش ، لم يكن لهذه الصفة من أهمية سوى زيادة سلطة الاساقفة والكونتات أو اتبــاع الملك الذين كلفوا القيام بها .

الكونتات والكونتيات . — لقد بقيت الكونتية الدائرة النموذجية للملكية . حتى أن الحركة التي تنزع منذ القرن السابع لتجزئة « مدن » وسط غاليا وجنوبها إلى عدة كونتيات ، قد قويت ، وكذا الحال في المناطق الجرمانية ، باستثناء ساكس ، حيث ضمت عدة مقاطعـات إلى بعضها لتؤلف كونتية . وظلت سلطات الكونتات على حالها . وبعـد أن كانوا أكثر خضوعاً وانقياداً لسلطة بيبن وشارلومان، بدأوا يتحررون في عهد لويس التقي . وما كانوا ليكافأوا على أعمالهم بأكثر مما كانوا عليه في عهد الميروفنجيين . وكان الملك يمنحهم وقفاً يتألف من عدة دومينـات ويخولهم إياه بشكل انتفاع ، على أن يؤمن حياتهم . ويجب أن يضاف

الى هذا الانتفاع الاديرة . ولم يكونوا راضين وأخذوا يضغطون على المقاطعات . ومنذ حكم شارلومان ارتبطوا بالملك بروابط التبعية . وفضل الكارولنجيون اختيار الكونتات من بين أعضاء الطبقة الارستقراطية « الفرنجية » بخاصة في بلاد الموز والراين والموزيل والماين ، ومن بين عدد محدود من العائلات مازلنا نجد عدداً من أعضائها في ايطاليا والمنطقة الدانوبية وفي فرنسيا وبافاريا . ولكن هذا الاصطفاء لم يكن فريداً خاصاً، بل ان البلاد المفتوحة حديثاً مثل ساكس وثغور اسبانيا وجدت فيها سلالات كونتية . وجرى التعامل ، في عهد لويس التقي ، على اعطاء عدة كونتيات الى شخص واحد .

ودخل التنظيم الكونتي الى ايطاليا ، وحل الكونتات محل الادواق اللومبارديين ، ومحل الغاشتالد ، في المناطق التي لم ينشىء فيها اللومبارديون درقيات . وفي دوقية سبوليت رفع الغاشتالد الى رتبة كونت .

وكان الملك يسمي الكونتات وينقلهم ويعزلهم . ولكن هذا الحق لم يمارس في عهد شارل الأصلع في فرنسيا الغربية الا بشقة زائدة : فقد تكون مع الزمن استمرار ووراثة واقع . وكانت ممارسة هذه الامتيازات في فرنسيا الشرقية تلاقي ايضاً عقبات في عهد شارل السمين .

الثغور والدوقيات . ـ لم يرجع الكارولنجيون الدوقيات التي الغاها اسلافهم في القرن الثامن ، ولكنهم انشأوا على الحدود دوائر جديدة وهي **الثغور** . وتضم هذه الأخيرة بصورة عامة كونتية او كونتيات من المملكة القديمة وبلاداً مفتوحة تسكنها شعوب من عروق أخرى ولكنها لم تنظم الا أخيراً بشكل كونتيات: مثل الثغور الدانيماركية الشرقية في ساكس، والشرقية في بافاريا ، كارانثيا ، فريول ، ايستريا ، اسبانيا ، بروتانيا .

والرئيس في الثغور كونت ويحمل احياناً لقباً آخر : محافظ ، دوق ، ماركيز ويتمتع في سبيل الدفاع بسلطات اوسع من سلطات الكونت العادي، وخاصة باقامة جيوش بمبادهته الخاصة . واحياناً تكون هذه السلطات خاصة ايضاً بالكونتات الذين يقومون على رأس الكونتيات الواقعة على الحدود وغير المتجمعة في ثغور أي في مواقع محصنة

وكان رئيس الثغر صاحب كونتية او عدة كونتيات ، وعلى رأس الكونتيات الأخرى يوجد كونت او « فيكونت » . وقد وجد في البلاد المفتوحة أحياناً امراء محليون كالزعماء السلافيين في بانونيا تحت سلطة ماركيز.

وبعد شارلومان انشئت موقتاً قيادات في المناطق المهددة ووجد على رأسها دوق . ومنها اتى اسم الدوقية التي تنسب اليه غالباً مثل دوقية مين، دوقية« مابين السين واللوار » ، دوقية اوتن ، الفلاندر في فرنسا الغربية في عهد شارل الأصلع ، ودوقية ساكس في فرنسيا الشرقية . وأصبح بعض هذه الدوقيات دائماً . وفي ايطاليا كان زعيم مثل هذه القيادات يحمل في الغالب لقب ماركيز : مثل مراكيز طوسكانا المكلفين بالدفاع عن الشاطىء ضد هجمات المسلمين .

الدوائر والعمال الملحقون. ـ وفي القرن الثامن تمّ تماثل بين نائب الكونت او مساعده في الاجزاء المرومنة في الملكية وبين العامل الملحق بالكونت في الأقسام الجرمانية . وكانت صلاحية هؤلاء الضباط الملحقين بالكونت محدودة بالطبع اكثر من صلاحية الكونت وخاصة فيما يتعلق بالقضاء.

وفي عهد شارلومان ظهر موظف آخر وهو **الفيكونت** ، نائب الكونت. وهو يسمى من قبل الكونت ويمارس سلطاته . وعندما أصبح تحت سلطة الكونت عدة كونتيات جعل على رأس كل كونتيةمنها نائباً عنه ، فيكونت .

ولا يوجد أي اثر يدل على ادارة مستقلة للمدن . فقد اعطيت هذه الأخيرة كلياً أو جزئياً الى الاسقف ليديرها بنفسه . ويبدو في ايطاليا ان المدن القديمة حافظت ، تحت سلطة الكونت او الاسقف العليا ، على بعض الاستقلال الاداري .

التنظيم القضائي ، (المالوس) . - لقد ظلت المالوس المحكمة الاقليمية الممتازة . وقد دخلت في القرن الثامن في بروفانس وسبتمانيا وايطاليا ؛ وفي القرن التاسع في ثغور اسبانيا . ويوجد ، ولا شك ، محكمة في كل كونتية ، ولكنها كانت تنعقد تباعاً في كل دائرة من الدوائر الملحقة بالكونتية . وظل دور الكونت او مندوبه الذي يترأس المحكمة ومساعديه ، الذين « يجدون » الحكم ، على حاله كما في العصر السابق .

ولا مرية في ان شارلومان قام في ٧٨٠ باصلاح هام جداً يحدوه في ذلك رغبة مزدوجة في تخفيف الأعباء التي تثقل على الناس الأحرار ، وفي تأمين عدالة افضل . فقد حدد ثلاثة مجالس قضائية في العام يحضرها الناس الأحرار . ومن جهة أخرى ربط بكل محكمة هيئة دائمة من المساعدين « قضاة بلديين » يسميهم الكونت ويشرف عليهم .

ولقد نفذ هذا النظام الى المناطق الجرمانية غير الفرنجية التي حافظت حتى ذلك الحين ، على نظامها القضائي الخاص : في الساكس ، حيث حل نائب شيخ البلد محل المساعدين العارضين ؛ وفي الامانيا وبافاريا حيث ازيل « موجدو الحكم » . وفي هذه البلاد كلها ظل الحكم خاضعاً للتصديق الشعبي الذي لانجد له أثراً في فرنسيا في زمن الميروفنجيين .

أصول المحاكمات وحق الاثبات . - وما فتئت الشكلية سائدة في

أصول المحاكمات ، كما ان حق الاثبات لم يتبدل في خطوطه الكبرى ومع ذلك ، يذكر لجوء المفتشين والكونتات الى التحقيق في قضايا الردع والزجر وخاصة للكشف عن الأشقياء . ثم يتبع هذا التحقيق بملاحقة الأشخاص الذين كشف أمرهم . ويصادف ايضاً التحقيق في القضاء المدني ، ولكنه مازال استثناء بعد . أما حالات الجرم المشهود فتبقى من اختصاص الضابط القضائي دون تدخل المحكمة .

وليؤمن شارلومان الحفاظ على القرارات القضائية واحترامها بشكل افضل الحق بالمحكمة « **الكاتب العدل** » ومهمته تسليم المتداعين مذكرة الحكم . ولكن هذا الاصلاح لم يعمل به الا بصورة متفرقة ولم يحافظ عليه الا في بعض الامكنة .

محكمة القصر . — لقد ازدادت اهمية محكمة القصر ، وظل تركيبها نفسه في المملكة الكارولنجية الموحدة وفي كل من الدول التي نشأت عن تجزئتها : فخارجاً عن كونت القصر كان المساعدون كباراً يعينهم الملك ، ولا يرى فيهم « قضاة دائمون » الا في ايطاليا حيث يرى ان المحكمة الملكية تضم شيوخ بلد دائمين (قضاة بلديين » ومن المفروض ان يصدر القرار عن الملك حتى ولو كان غائباً . وكان أصول المحاكمة فيها اكثر مرونة مما في الماللوس ، واللجوء إلى التحقيق يبدو غالباً .

ولا يعرف استئناف المحاكم البلدية لدى محكمة القصر ، ولكن الملك يقبل اللجوء اليها في حال انكار العدالة واعمال الطعن في حكم المحكمة أي التظلم ضد القضاة المتهمين باعطاء حكم مخالف للقانون .

اما « **المجالس القضائية** » التي يعقدها المفتشون اثناء جولاتهم فيمكن ان تشبه لحد ما بجلسات محكمة القصر .

شخصية الحقوق . — لقد دام نظام شخصية الحقوق في عهد

الكارولنجيين ، وادخاوه بدورهم الى ايطاليا . وفي المناطق الخليطة السكان كانت هيئة القضاة البلديين تضم اعضاء عاشوا في ظــل حقوق مختلفة مازالت مرعية الاجراء في بلدهم . غير ان تطبيق هـذا النظام لايكون ممكناً إلا من أجل شعب له اهميته . وفي الاحوال التي يكون فيها جهل او شك كان يطبق الحق الغالب في التعامل ، حق اكثرية السكان . وهذا ما ساعد على تشكل أعراف اقليمية .

وكذا الحق الملكي ، عمل في اتجاه الحق المتعارف عليه في الاقاليم، وفي الميادين التي كان يمارس فيها هذا الحق، كان يساعد على نشر نفوذ الحق الفرنجي .

الجيش . — ظلت الخدمة العسكرية اجبارية على جميع الناس الاحرار وعلى نفقتهم . ولم يخضع لها الأقنان والمعمرون باكثر من الناس الذين وهبوا أموالهم أو اشخاصهم الكنيسة ، ويدفعون لها ضريبة انتفاع او اتاوة « الاربعة دنانير » . على ان العبء الاكبر كان يقع على كاهل الناس « الفرنجة » الأحرار الذين أصبحوا اقلية . وفي عهـد شارلومان كانت الخدمة العسكرية ، من حيث المبدأ ، على الرجل الحر الذي يملك او ينتفع بملكية تتراوح من ٤ إلى ٥ مانسات أي من ٤٠ — ٦٠ هكتاراً. ومثل هذا المستغل يعتبر في ايامنا متوسطـــاً . وفي بعض الظروف الحرجة يمكن للملاكين او مستفيدين من مستغلات اقل من ٣ ، ٢ مانس ان يتجمعوا بشكل بنطلق محارب بجمع ٣ + ٢ أو ٢ + ٢ ، او ٤ مانسات منعزلة . ومن الممكن حقوقياً ان يدعى للخدمـة « فرنجة » دون أي مورد .

وفي الواقع ان تفوق سلاح الفرسان وظهوره تدريجيـــاً في الطرق التعبوية الزم بالايدعى الا الاتباع والملاكون الاغنياء لتحمل النفقـات

الباهظة جداً لتجهيز الفرس . وهذا يعني ان الجنود كانوا قلة . وفي آخر القرن التاسع كان الجيش يتألف من الفرسان فقط . وفي بعض اجزاء فرنسيا الشرقية ، كما في ساكس ، يبدو ان جيش المشاة كان يشكل عنصراً هاماً في الجيش اكثر منه في أي اقليم آخر .

وكان الملاكون الأحرار يزحفون تحت اوامر الكونت . وكان اتباع الملك يلتحقون بجيش الملك مباشرة . وعندما تداهم البلاد غارة يحتشد الجميع حول الكونت . وفي هذه الحالة لايوجد أي تحديد لحمل السلاح والدفاع عن البلاد ،

الاسطول . — لم يكن للملكية الفرنجية والدول التي نشأت عن تفتتها اسطول حربي اهل لهذا الاسم . وقد ذهبت عبثاً جهود شارلومان لانشاء اسطول في بحر الشمال . بيد ان جهود لوثير الأول في ايطاليا كانت أسعد حظاً وحازت بعض النجاح على المسلمين . ولكن هذا النجاح ظل يوماً ليس له غد .

النقد . لقد خضع التنظيم النقدي في الملكية الفرنجيـــة لنفوذ الكارولنجيين كالعدل والجيش . فقد استعاضوا عن سك النقد الذهبي بالسك الفضي ، وصنعوا من النقد مصلحة عامة بضرب النقد في المشاغل الملكية . وقد منحت امتيازات حق ضرب النقد للكنائس منذ عهد لويس التقي راقتضت لزوم الحفاظ على النموذج الملكي .

وفوق ذلك غير بين بصورة عميقة نظام النقد وأعطى إلى الوحدة النقدية وهي الدينار الفضي ضعفاً حسابياً وهو **السو** وطبق بينها نسبة ١٢ **ديناراً** في السو . وهذه النسبة أخذت عن القلنون الريبوري وترجع في الأصل الى بيزنطة . وأتم شارلومان الاصلاح قبل ٧٧٩ باعطاء السو بدورها ضعفاً حسابياً وهو **الليره** وتساوي ٢٠ سو .

الواردات الملكية . — كانت واردات الملوك الكارولنجيين تأتي من دوميناتهم العديدة وتقدر بعدة مئات . غير ان الهبات الدائمة التي يهبها الملوك الفرنجة إلى الكنائس والى الموالين لهم انقصت بشكل عظيم ثروتهم العقارية . وكانت هذه الأخيرة تدار بعنـــاية حسب قواعد وضعها شارلومان في ارادة شهيرة له . ولم تكن الدومينات بنجوة من الاغتصابات .

وكان للملك الحق بضرائب لنفسه ولعماله اثناء انتقالهم وتجوالهم مثل حق الايواء والاطعام وحيوانات الجر والحمل . ويحق له ، من اجل الجيش ، مصادرة تجهيزات العربات او مايقوم مقامها من اتاوات ، ويعود له جزء من الغرم وكثيراً ما كان الكونتات يغتصبونه لانفسهم .

ويحسن ان يضاف إلى هذه الضرائب العينية سخرة العمل ويلزم بها الملاكون الاحرار لصيانة الطرق والجسور والقصور الملكية، ومن الممكن ان تلزم جميع الرعايا دون تمييز ببناء الحصون .

ولم يبق من الضرائب المباشرة الرومانية القديمة في بلاد غرب الراين هنا وهناك الا اتاوات منعزلة عقارية أو شخصية واجبة للملك . ووجدت اتاوات مماثلة لها في كل من اليانيا وفرنكونيا والبلاد الرينانية وأصلها غامض . ولنذكر أخيراً الهبات السنوية التي يأتي بها الكبار إلى الملك في مجلس الربيع في الاجزاء الجرمانية من المملكة .

أما الضرائب غير المباشرة كضريبة التجار والرسوم الملحقـــة على المواصلات فقد حوفظ عليها اكثر من الرسوم المباشرة ، ولكن الملوك منحوا عدداً من الامتيازات إلى الكنائس والى الموالين لهم ، وأكثر من ذلك أن كثيراً من هذه الرسوم كان موضع اغتصاب وخاصة في فرنسيا الغربية وفي ايطاليا .

وابتداء من ٨٤٥ وجد تنظيم جديد وموقت للتكاليف المباشرة في فرنسيا الغربية . ففي كل مرة يراد بها شراء رحيل النورمانديين — مث مرات حتى ٨٧٧ — كانت تجبى ضريبة عقارية حسب المانسات تفرض بخاصة على اراضي الكنيسة وانتفاعات التابعين . ولا شك في أنها كانت تثقل كاهل المزارعين . وكان يتممها رسم شخصي على الناس الأحرار غير الملاكين أو المزارعين .

ويبدو انه لم يوجد ، ولو في حالة اولية ، ادارة لخزانة الملك ، او أي انتظام في النفقات . ومهما يكن فان المصالح العامة ما كانت لتمتص شيئاً من واردات الملك .

الحصانة . — لقد وزع الكارولنجيون اكثر من أسلافهم امتيازات الحصانة . بيد ان طابع الامتياز تحول منذ عهد شارلومان . ولا شك في ان الحصانة تتضمن ايضاً منح المستفيد كل مايكن ان تجبيه الضريبة الملكية من الدومين المحصن . وبموجبها منع لكونت من النفوذ إلى داخل الدومين . ورافق هذا المنع امتداد القضاء الذي كان يمارسه سيد الدومين باعتباره ملاكاً كبيراً . وظلت الجرائم الاكثر خطورة من غيرها ، وعلى الاقل نظرياً ، الخلافات بين سكان الحصانة والاجانب من صلاحية المحكمة العامة. والحق معترف بكل حصانة . وكان يعين من قبل الملك ووظيفته السهر على تأدية المحصن وسكان دوميناته واجباتهم العسكرية والقضائية وغيرها حيال الملك .. وعليه ايضاً أن يحمي الحصانة ويمثل المحصن و « رعاياه » أمام عمال الملك والمحاكم العامة . وكان إلى جانب المعرف في الاسقفيات وكيل كنسي .

ومنح شارلومان وخلفاؤه امتياز الحصانة إلى معظم الابويات والكنائس الاسقفية الهامة في ممالكهم ، وجعلوا منهـا « حقاً عاماً » للمؤسسات

الكنسية . وكان الكارلنجيون يعتقدون بان تقوية الاساقفة والآباء تساعدهم على تقوية سلطتهم الخاصة باعتمادهم على رجال الدين في مراقبة الكونتات والزامهم بواجباتهم .

ولا يعلم بامتيازات حصانة للأمراء العلمانيين من قبل الكارولنجيين ، ولكن لويس التقي وشارل الاصلع خولا اللاجئين الاسبان المقيمين في سبتيمانيا وفي الثغور الاسبانية نظاماً شبيهاً جداً بالحصانة . وكان المراد من هذه الحالة أو تلك الحصول على الضمانات الكفيلة ضد استبداد الكونتات وعنفهم .

ايستريا . — لقد كان لاقليم ايستريا البيزنطي ، الذي ضم للملكية الفرنجية عام ٧٨٨ ، صفات خاصة تجدر الاشارة اليها . فقد قام فيه دوق فرنجي مقام الحاكم العسكري الامبراطوري . اما الموظفون الاداريون والقضائيون الادنون المنتقون من بين الملاكين الكبار المحليين ، خلفاء قدامى قادة الوحدات العسكرية البيزنطية وورثتهم في القابهم ، فقد جردوا من سلطاتهم العامة . وأما الضريبة القديمة العامة التي كانت تجبى في السابق لصالح الخزانة الامبراطورية فقد ظلت تجبى لحساب الدوق .

الامارات اللومباردية في جنوب ايطاليا . — وكانت الحالة تختلف تماماً في دوقية بينيفن وفي امارات سالرن وكابو الناشئة عن التجزئة الامبراطورية . فقد كانت السيادة الفرنجية على هذه البلاد أسمية ويعبر عنها بدفع ضريبة غير منتظمة . وكان الدوق فيها سيداً حقيقياً ويسمى « برنسيبس » ويعتبر وارثاً شرعياً لملك اللومبارديين

الأراضي الحبرية . — اما في الاراضي التي تؤلف دولة الكنيسة فقد كان السادة الفرنجة يحتكرون حق السيادة بصفة « حماة » أولاً ، ثم « اباطرة »

وظهر حق السيادة بشكل اشراف واعمال عدلية جزائية او مدنية في حالات خطيرة بصورة خاصة . وكان الاباطرة يقومون بهذا الاشراف اما بأنفسهم أو بواسطة مفتشين « ميسّي » فوق العادة أو بواسطة مفتش امبراطوري دائم اقيم عام ٨٢٤ ثم حذف فقط بين ٨٦٥ و ٨٨١ .

وكانت السيادة الفعلية بيدي البـابا ويمارسها بمساعدة هيئات ادارية مختلفة . وربما ظل مجلس الشيوخ الروماني مؤلفاً من اعضاء الطبقة الارستقراطية باعتباره هيئة ملحقة بالسلطة الحبرية . وكان اسمى موظف في روما ، محافظ المدنية ، مخولاً بسلطات الشرطة والقضاء الجنائي والقضاء المجاني . وكان يمارس هذه الوظائف في وافينه قناصل . وكان القناصل والأدواق يسهرون ، في روما ، على ان يَمثُل المتهمون في القضاء . وكانت المليشا الرومانية تتألف من اثنتي عشرة وحدة .

وبالمقابل كان زعماء الديوانية الحبريـة ، الذين ترأسوا ادارة الدولة والكنيسة واموال القديس بطرس ، اكليركيين يقيمون في قصر لابران ويجزيهم البابا . وعدا عن هذه الوظائف الادارية كانوا يقومون بوظائف القضاء . وكان إلى جانبهم كبار موظفي البلاط الحبري بتأثيرهم ونفوذهم على الحكومة ، ونخص بالذكر منهم « **قيم المكتبة** » انسطاس الملقب بـ « المكتبي » وكان من الأعوان المامين في بلاط نيقولا الأول وهادريان الثاني ويوحنا الثامن ؛ **وحادس اللباس** الليتورجي في الاحتفالات الدينية والمصوغات المقدسة .

وكان على رأس المدن والدوائر البلدية « **الأدواق** » و « **الحكام** » وهم من زعماء المليشات المحلية ، والملاكين الكبار واعضاء الطبقة النبيلة الرومانية

وكانوا في الغالب اعداء الداء للديوانية الحبرية واستطاعوا ان يتغلبوا عليها غداة وفاة البابا يوحنا الثامن .

ووجد خصم آخر للحكم المطلق الحبري ويتمثل في شخص اساقفة رافينا فقدكان أصحاب هذا الكرسي ينزعون إلى ان يحتلوا ، تحت سلطة الامبراطور السامية ، وضعاً موازياً لوضع البابا في دوقية روما ومستقلاً عنه ، ولكنهم لم ينجحوا في مسعاهم .

الفصل السادس عشر

تحول المجتمع الفرنجي

الاصول الاقطاعية

لقد اطلق اسم « النظام الاقطاعي » على النظام الاجتماعي والسياسي الذي يميز العصر الوسيط ويناقض النظام القديم من جهة والنظام الحديث من جهة أخرى .

ولا بد لنا قبل البدء في البحث من ان نعين مايجب فهمه من كلمة « الاقطاعية » ولذا ينبغي علينا باديء ذي بدء ان نبعد كل تعبير مجازي يجري على الألسن . فقد درجت كلمة « الاقطاعية » وصار الناس يتكلمون عن اقطاعية بيزنطية ويابانيـة ومصرية وهندية وغيرها .

غير أن هذه التعابير ليست الا تعابير كلامية ولا ينتج عنها إلا أثر أدبي ، ولكنها في الوقت ذاته خطرة ولا تخلو من محاذير ، وذلك لأن استعمال هذه الكلمة ، في كل مناسبة وكيفما اتفق ، يزيل عنهـا كل معناها ويجعل هذه المجتمعات المختلفة ، التي وصفناها بهذه الصفة ، بشكل واحد . وفي ذلك ما فيه من خداع وضلال . ولذا يجب الا يتكلم عن النظام الاقطاعي الا عندما يراد الكلام عن الأرض ، التي نشأ فيها هذا النظام ونمـا واتسع واخيراً زال من الوجود ، وهي أوربة الغربية وبصورة خاصة « المملكة الفرنجية » .

وفي الحقيقة ان الاقطاعية خاصة بالعصر الوسيط وبأوربة الغربية في هذا العصر . ولكن هذا لا يمنع من وجود اقطاعية في غير اوربة قد تشبه الاقطاعية الاوربية في العصر الوسيط من بعض الوجوه او تختلف عنها في وجوه أخرى .

تعريف الاقطاعية . — لقد عرفت الاقطاعية بتعاريف كثيرة ولكن هذه التعاريف تؤدي إلى صيغة واحدة وهي : تجزئة الملكية والسيادة لأن المتقاسمين ، الأمير وتابعه ، أو الملك وتابعه ، يعيشان عيشة مشتركة ولا يمكن تصور أحد الشريكين دون الآخر . وليس هناك تفتت حقيقي ، ولو كانت الحالة هكذا لوقع المجتمع في فوضى تامة . ان المثل الأعلى الذي يرمي اليه المجتمع الاقطاعي يخالف هذا الوضع . فهو يريد ان يحقق اتفاقاً منسجماً بين الاشخاص والأشياء والحقوق التي يتصورها متحدة بالطبيعة. وعلى هذا فالاقطاعية انحلال غير تام وغير قابل لأن يكون تاماً ، انه حالة التصاق للمادة السياسية والاجتماعية .

طبيعة الاقطاعية السياسية والاجتماعية . — لاعطاء فكرة واضحة عن هذه الطبيعة السياسية والاجتماعية للاقطاعية يجب أن نوضح الصفات الأساسية للنظام السياسي والاجتماعي للاقطاعية .

تمتاز الاقطاعية من الوجهة الاجتماعية بالشكل الذي تملك فيه الأرض. ومن الوجهة السياسية بوجود تسلسل في السلطات تعمل مستقلة ، ماعدا الالتزام الذي من شأنه تأدية واجبات شخصية . والمفهوم الاقطاعي من الناحية الاجتماعية والناحية السياسية يخالف الماضي والحاضر أي النظام القديم والنظام الحديث . ففي الحقوق الرومانية ، كما في أيامنا هذه ، تعتبر الملكية أساساً للعلاقات الحقوقية . أي ان لكل أرض مالك ، والملكية التامة

تبدو حالة طبيعية . أما في العصر الوسيط ، فعلى الأرض الواحدة تقوم حقوق تختلف طبيعتها ، حتى ان فكرة الملكية تزول عنها او تفقد كل معنى . وكذا الأمر ، اذا انتقلنا من الناحية الاجتماعية الى الناحية السياسية، نرى عند الرومانيين ، كما عند المحدثين ، ان فكرة الدولة فكرة أساسية مستقلة عن الشكل المشخص للحكومة . وليست الحكومة سوى شكل لتحقيق فكرة الدولة التي تعتبر شيئاً عاماً . وسيادة الدولة عند الرومانيين، كما هي عند المحدثين ، تمارس سلطاتها بواسطة الحكام أو الموظفين . أما في النظام الاقطاعي فليس هنالك حكام ولا موظفون ، كما لايوجد دولة. لأن الموظف في القديم ، أصبح بصفته الشخصية ، يمارس الوظائف التي كان يمارسها سابقاً بصفته مندوباً عن الدولة . وهكذا نرى تسلسلاً في السلطات من الناحية السياسية وتوضعاً في الحقوق من الناحية الاجتماعية . وان هذا التسلسل في السلطات ، الناشيء عن التمليك المتحقق في جميع الدرجات، يطابق في الناحية السياسية توضع الحقوق الذي يقوم مقام الملكية التامة في الناحية الاجتماعية .

ومن هنا يمكن القول ان الاقطاعية نشأت عن تجزئة الملكية من الوجهة الاجتماعية وعن تجزئة السيادة من الوجهة السياسية .

فكرة التطور الاقطاعي . — على ان النظام الاقطاعي ، وان كان يختلف عن النظام الذي سبقه ، فقد نشأ عنه مباشره . وليس هنالك أي ثورة أو ارادة فردية عملت على غرسه ، بل ان التطور البطيء أوجده . ولذا فمن الممكن ان تعتبر الاقطاعية داخلة في زمرة « الحوادث الطبيعية » في التاريخ . وقد تشكلت تدريجياً مع الزمن وبقوى ميكانيكية .

على ان هنالك حادثاً ظاهراً استدعى اهتمام الباحثين في قضية «الاقطاعية»

وهذا الحادث هو الغارات البربرية التي وقعت في مطلع العصر الوسيط وبلغت درجة من السعة لم يبلغها أي حادث آخر . حتى ان التطور الناجم في الغرب لم يكن سوى نمو منطقي للحالة التي أوجدتها الغارات ، وان حادث الغارات في ذاته لم يكن سوى نفوذ وسطين بقيا حتى الغارات جنباً الى جنب وهما الوسط الامبراطوري والوسط البربري .

اذن نرى ، في نقطة البدء ، انضمام عناصر وتلاقي عالمين . ولذا تبدو قضية الأصول الاقطاعية ، في اعين المراقبين ، وكأنها محاولة بواسطة تمييز السابقات التاريخية . هذا ولما كان المجتمع في العصر الوسيط قد نجم عن انصهار المجتمعين ، فيكفي اذن ان نميز من أي العنصرين الروماني او البربري اشتق هذا العنصر الاقطاعي . ومثل هذا النمط في تفهم القضية يبدو مشروعاً ، لاسيما وان التعابير التي تدل على النظم في العصر الوسيط كانت طوراً رومانية وطوراً بربرية ، وأن اللغة الفنية في أعلى العصر الوسيط كانت خليطاً دائماً من اللغتين . وليس بالغريب في هذه الشروط ان نرى الفقهاء والمتعمقين في الدراسات قد جهدوا حثيثاً في البحث عن ايضاح النظم الاقطاعية في العالم الامبراطوري او العالم البربري ، واتجه بعضهم في اتجاهه الى المصادر الرومانية ، وآخرون الى المصادر الجرمانية ؛ ونشأ عن اتجاههم مدرستان : المدرسة الرومانية والمدرسة الجرمانية ، وأخذت كل منهما تناوىء الأخرى . وقد خرج عن كليهما ممثلون مشهورون وآثار ومؤلفات هامة أغنت المصادر التي تتناول هذا الموضوع . الا ان كلًا من المدرستين لم يف بالغرض . ونرى ، على كل حال ، ان تعالج القضية بشكل يختلف عن شكل النظريات المعقدة التي كان يجابه كل من الفريقين بها الآخر .

ولاشك في ان معرفة السابقات التاريخية أمر مفيد . غير ان السابقة ليست عاملًا وحيداً ، أو انها ليست اكثر دلالة من غيرها ، وليس

المهم ان يعرف من أين اتى العنصر الاقطاعي ، بل لماذا أصبح هـذا العنصر اقطاعياً وكيف اخـذ في المجتمع الاقطاعي هذا المكان وهـذه الوظيفـة اللذين نعترف بها له ، أو بتعبير آخر ان السابقات في حال الاقطاعية سواء أكانت رومانية أم بربرية ليست سوى مادة وشكل . وإذا أصبحت هذه العناصر على ما كانت عليه اقطاعية فذلك يرجع إلى تطور لايبحث عن سره في روما أو في جرمانيا . ان الاقطاعية حادث من « الحوادث الطبيعية » في التاريخ ، وان تشكلها حدث بتأثير قوى شبيهة بالقوى الجيولوجية ؛ وان هذه القوى أثرت في المادة أي في هذه السابقات التي لايتطلب منها ان تأتينا وحدها بايضاح كامل للتطور .

ومن السهل ، بعد وضع هذه المبادىء ، ان نستنتج منها الطريقة التي يجب سلوكها لنعطي فكرة عن نمو الاقطاعية ونبين على وجه الصحة ، ما امكن ، السابقات التي لامندوحة عن الرجوع اليها ، والقوى التي أثرت في هذه السابقات وأعطتها حيوية جديدة ومنظراً جديداً .

ونتساءل بعد هذا عن القوى المؤثرة التي أدت الى الاقطاعية فنجدها في زمرتين : الاولى اجتماعية والثانية سياسية. تظهر الاولى في اندفاع النزعة الاقتصادية المؤثرة على الملكية ، وتظهر الثانية في قوة تنافس الدولة وهي مبدأ التضحية الشخصية .

إذا رجعنا إلى العصر الفرنجي وجدنا أنه لم يكن « اقطاعياً ». فقد ظلت سلطة الملك مطلقة نظرياً ، وكان الأدواق والكونتات والمراكيز موظفين قابلين للعزل ولم تختلط وظيفتهم بعد بالانتفاع أو **الاقطاع** .

وكذا امتيازات الملكية ، فقد ظلت باقية ولم تخدش الا قليلاً ، وما زالت الملكية تتمتع باقامة العدل وضرب النقود واقامة المعارض الموسمية

والاسواق . وبقيت الضريبة المباشرة بشكلها العقاري والشخصي حتى آخر القرن التاسع ، كما بقيت « الهبة السنوية » تجبى حتى هذا التاريخ

وظل الجيش ملكياً وقومياً في آن واحد . وكان على كل رجل حر القيام بالخدمة العسكرية للملك وللملك وحده .

وما زال التضامن الاجتماعي موجوداً . فقد اختلط الفرنجة بالغاليين ـ الرومانيين وانصهروا مع بعض وشعر الجميع بأنهم فرنجة اوفرنسيون كما بدأوا يقولون . حتى ان عاطفة الاخاء ، بين الفرنجة الناطقين باللغة الجرمانية العامية والفرنجة الناطقين باللغة الرومانسية ، مازالت قائمة ولم تنمح حقاً الا بعد عام ٨٨٨ . يضاف إلى ذلك ان من كان داخلاً في عضوية الامبراطورية الفرنجية من البورغونديين والاكيتانيين والغوط وغيرهم كانوا يعتبرون فرنجة . وربما كان الآلامان والبافاريون فرنجة ايضاً . اما الساكسونيون والفريزيون والتورنجيون وبصورة خاصة السلافيون ، وفي ايطاليا اللومباريون ، فكانوا رعايا الامبراطورية ولم يعتبروا فرنجة .

وظلت الدولة قوية ظاهراً . وكانت تتمثل بالملكية التي مازالت تحتفظ بسلطتها . وكان لهذه الملكية مثل اعلى سام لم يكن موجوداً عند الميروفنجيين . فقد اعترفت منذ مباركة (٧٥١ — ٧٥٤) بأن للشعوب عليها حقوقاً . يضاف إلى ذلك ان التتويج الامبراطوري عام ٨٠٠ كان يتراءى وكأنه يسمح لها بشمول العالم المسيحي باجمعه في الغرب وتحقيق « ماكوت الله » على الأرض .

وهكذا يبدو ان العصر الكارولنجي لايدل على العصر الاقطاعي بل ان التباين بينهما شيء ظاهر للعيان . وفي الحقيقة ، لم تكن الدولة

الكارولنجية دولة اقطاعية ، بل كانت دولة سابقة للاقطاعية وممهدة لها أي انها كانت دولة تبعية .

ولكن التبعية ليست الا صورة من صور نظام « الرعاية » مع مايقابله من تطبيق « الاحسان » . ولذا يجدر بنا ان نتعرض لنشأة هذا النظام والتدرج الذي مرّ به .

الرعاية والاحسان في العصر الروماني

الرعاية الرومانية . — تقتضي الحضارة وجود نظام سياسي يخضع فيه المواطن للدولة والرعية للمليك . غير أن كثيراً من الحضارات عرفت تبعية رجل فقير أو ضعيف الى رجل أقوى منه وأغنى . وهذه الرابطة التبعية تختلف اختلافاً تاماً عن رابطة العبد بسيده او المعتوق بمولاه ، وذلك لأن الانسان الضعيف المحتاج الى الحماية انسان حر ؛ وتعهداته تجاه الانسان ، الذي يجب ان يكفله من البؤس والشدة ، هي من نوع مشرف ، يضاف إلى ذلك ان تعهد الفقير او الضعيف ارادي وغير وراثي وقد لايدوم طوال الحياة . ومثل هذا النظام يعتبر خارجاً عن القانون ولا تخشاه الدولة ابداً . ولقد عرف الماضي الروماني هذا النظام كما دلت عليه أقدم النصوص ، وعرفت هذه العلاقة بين الحامي والمحمي في آخر الجمهورية ودامت في ظل الامبراطورية . ويبدو انها امتدت إلى طبقات بقيت حتى ذلك العهد سليمة ، وخاصة ابتداء من القرن الرابع . فقد كان صغار الملاكين ، في الأرياف وحتى القرى الحرة ، يرجون حماية الملاكين الكبار ، الذين يشغلون في الوقت نفسه الوظائف العليا في الدولة . ولم يطلب الفقراء وحدهم حماية القوي بل اننا نرى منذ القرن الأول اشخاصاً ، ممن مارسوا وظائف القضاء والادارة ، كانوا في عداد

زبائن هؤلاء الملاكين الكبار . ونرى في عهد الامبراطورية الدنيا رجالاً نبلاء واغنياء يرجون رعاية موظف كبير ليرقوا بسرعة في وظائفهم. ومن الطبيعي أن يكون الامبراطور الشخص الذي كانت ترجى حمايته اكثر من غيره . وكان عدد « **زبائن** » السيد و « **أصدقائه** » عظيماً ، حتى انهم يقسمون إلى ثلاثة أصناف ، أي انه كان للأمير « **أصدقاء** » من المرتبة الاولى والثانية والثالثة . وكان حمل الخاتم ، الذي نقشت عليه صورة الأمير ، دليلًا على شارة الشرف الممنوح لهم .

وتغير التعبير مع الزمن باساءة استعماله . واستعيض عن كلمة «**الزبون**» بكلمة « **مقبول** » وأصبح زبائن الامبراطور منذ القرن الرابع يسمون « **كوميتس** » اي صحب الأمير ، وهؤلاء ، كالاصدقاء ، مقسمون الى طبقات .

وكان يدل على احتماء الانسان بحماية غيره بتعبير فني وهو : طلب الحماية ، وقد طبق اولاً على الوديعة بين يدي الآخر . ومنذ الجمهورية وجد لهذا التعبير معادلان الحماية والرعاية ويقصد بها تعهد مبهم . والحماية هي شيء آخر غير « التوصية » في المعنى الحديث . وقد أقامت هذه العلاقة بين الرجلين نوعاً من تعهد،ولايفهم من هذا التعهد أي رابطة دينية أو حقوقية بل رابطة قوية من نوع أدبي ووجداني تربط بين الطرفين . فعلى الأعلى الدفاع عن المحمي . وإذا كان هذا الأخير ملاكاً صغيراً فعلى السيد الاعلى ان يقاوم مزاعم ادارة الضرائب . وإذا كان رجلًا كريم الأصل فعلى القوي ان يفيد من علاقاته العليا ليجد له في الادارة وظيفة . وبصورة عامة يجب على السيد الذي تطلب حمايته ان يدافع عن مصالح اصدقائه لدى القضاء ، ويطعم الطعام لفقراء المدينة ويقدمه لهم في الكشكول .

أما واجبات المحمي فيعبر عنها بكلمات لم تعرف تعريفاً جيداً . ويراد منهـــا ان يحترم الزبون سيده ، وان يتكيف غالباً مع رغباته وأن يمثل كل صباح بين يديه ، ويحييه ويتلقى أوامره ، ويواكبه في حرس الشرف ؛ وفي العهد الجمهوري أن يصوت له في الانتخابات . وكل هذا هو ما يطلق عليه اسم التعهد الشخصي .

تعهد الأموال . — وقد اضيف في ظل الامبراطورية الدنيا تعهد الأموال إلى التعهد الشخصي . فكان الملاك الصغير يبيع صورياً أو يعطي أرضه على أن يستعيدها من الحامي بصفة «منتفع» . وهكذا يعهد الشاب الطموح بثروته إلى القوي في شروطه ليست مُعَرَّفة تماماً .

الحماية الامبراطورية . — أما زبائن الامبراطور فقد أصبحوا ، في عهد ديوكليسيان وخلفائه ، سادة الدولة وأصبحت الصحبة مهنة وعملاً وانقلب مجلس الأمير إلى مجمع يعج بأصدقائه . وغـــدت كلمة صاحب لقباً . وسمي وزير المالية « كونت السّعة المقدسة » و « كونت المالية » . وسمي حاكم الشرق « كونت الشرق » وكان العمال الماليون يكافأون بمنحهم هذا اللقب . ولم يكن رؤساء الجيوش المرابطة على الحدود ادواقاً بل « ادواقاً وكونتات » . ويسمى قائدا حرس جيش الامبراطور من فرسان ومشاة « صاحبي الحرس الملكي » .

تعهد الزبون . — قد نتساءل ما إذا كانت الحماية تتضمن في العهد الروماني ، يميناً أوعملاًرمزياً كوضع يدي الأدنى بين يدي الأعلى أو مس يد الأعلى يد الأدنى . ولا شك في ان الجواب بالايجاب ، اذا اخذنا بعين الاعتبار صفة الثقة المتبادلة بين السيد وزبونه . غير أن النصوص ساكتة عن هذا الموضوع ويجب ان نستخلص ، على كل حال ، ان الحماية الرومانية لا تتضمن أي التزام من نوع عسكري لأن الزبون المقبول أو الصديق ليس جندياً لسيده .

الرعاية العامة . — وأخيراً ، عندما استقر البرابرة في غاليا وفي جميع الغرب ، وجدوا انفسهم في مجتمع يطبق فيه الناس ، من صغيرهم إلى كبيرهم ، نظام « الرعاية » . ويرى المجتمع كله ان هذه الرعاية طبيعية وضرورية وأساسية وكان مقبولاً لدى جميع الناس أن الوظائف الكبرى في الدول كانت قسمة بين صحب الأمير .

الاحسان الروماني . — ان تطبيق « الاحسان » يلازم تطبيق « **الرعاية** » . وكلمة « إحسان » عند الرومانيين يراد منها الكرم المحض البسيط ، انها « الخير يفعله الانسان دون أن يكون ملزماً على فعله بقانون أو واجب ». وهذا الاحسان يتضمن فقدان كل التزام من طرف المحسن وكل عبء على كاهل المحسن اليه ، لأن كل وعد فيه يهدم طابعه المنزه عن المنفعة ويعرضه لان يعتبر مناورة أو عملية خفية . وعلى هذا فالاحسان على نقيض العقد .

ولذا لا مجال لعمل القانون في الاحسان . وقد شاع استعمال الاحسان في العهد الامبراطوري نظراً لكونه خارجاً عن القانون . ولكن إذا تعمقنا في حقيقة الأمور وجدنا ان المجانية صورية غالباً ، حتى ان المحسن المزعوم ، وقد تغطى بمظاهر الاحسان في الاتفاق ، لايمكن أن يحال إلى القضاء . ولكن الاحسان يضع المحسن اليه تحت رحمة المحسن .

ضرورة الاحسان . — ومع هذا فليس من العدل أو من الصحة في شيء ان ينسب انتشار الاحسان الى الرغبة في الغبن والخداع بل ان استعماله كان يستجيب الى ضرورة الحياة : « ففي الحق الروماني ، الذي لا يفترق عن الحق الجرماني في هده النقطه ، كان لكل عقد شروطه الخاصة ومفاعيله الخاصة . لقد كان أداة قليلة المرونة جداً ، واستعمالها

مضبوطاً بعناية ومحدوداً بدقة ولذا فالوقائع لايمكن أن تكون موضع بيع ولا الخدمات موضع اجار . وكثير من الاتفاقات المشروعة كانت خالية من كل مؤيد ولا يحظرها القانون . ولما لم يسمح بها ، فقد حكم ببطلانها . ولذا وجب على الطرفين أن يلجآ الى الوسائل المنحرفة » . ولذا لقد كان « الاحسان » القالب الذي تصاغ فيه اكثر الاتفاقات التي لا تجد لها مكاناً في النطاق الضيق والمحدود للعقود المعترف بها » .

لقد كان الاتفاق الذي يطبق فيه الاحسان دوماً هو الانتفاع . وقد دام حظه طويلاً ولذا لا بد لنا من الوقوف عليه .

الاحسان الروماني . — هو تعامل قديم وخارج عن القانون الا انه ظهر في كتابات الفقهاء منذ القرن الثالث للميلاد . ولولا رجاء مسبق من قبل الطامح بامتياز أرضي لما وجد الاحسان . وهذا الامتياز لا يخول المحسن اليه إلا التمتع والحيازة لا الملكية . وهو غير وراثي ولا يخول الانتفاع مدى الحياة . وفيه يستطيع المحسن في كل وقت ان يستعيد ماله دون أن يبين السبب حتى ولو أعطى كتاباً يثبت فيه مدة الامتياز لأن هذا الكتاب لا يخول المستفيد الاعتراض ، بل يحميه ضد شخص آخر يريد أن يعكر عليه تمتعه . والاحسان باعتباره مجانياً لا يكون اجاراً ولا يدخل في صنف من أصناف العقود : لأن « الاحسان » ليس صكاً .

تطبيق الاحسان . وفي الحقيقة لم يكن الاحسان كرماً الا في اسمه وظاهره وانما كان شكلاً من أشكال الاستغلال . وهو يغطي ثلاث عمليات :

١ ــ الاجار المقنع ، وهو يضع المزارع تحت رحمة الملاك لأنه يسمح لهذا بتجريد الآخر دون اقامة الدعوى .

٢ ــ القرض بكفالة عقارية . فالملاك المعوز يتعهد بأرضه ويتناولها بصفة منتفع ، ولا ترجع اليه ملكيتها الا بعد وفاء كامل دينه . وإذا مات دون أن يسدد دينه طرد أولاده من بعده .

٣ ــ يفيد كبار الملاكين في توسيع أراضيهم وذلك لأنهم ، مقابل حمايتهم غير القانونية فعلًا ، يحصلون من الفلاحين على وضع اموالهم الصغيرة في أيديهم ويعيدونها اليهم بصفة إحسان . واذا دخلت هذه الاراضي الصغيرة في الأراضي الكبرى خرجت من نطاق عمل رجال العدل ومستخدمي مصلحة الضريبة .

وعلى هذا فمجانية الاحسان « كذب حقوقي » .

واجبات المستفيد . ــ ونتساءل أخيراً : هل واجبات المستفيد من طبيعة واجبات المحمي ؟ قد يحتمل ذلك لأن المستفيدين ليسوا بالضرورة « محمين » . وعلى كل حال ان الاعتراف المبهم الذي يلزم به المستفيد لايؤدي إلى أي خدمة شخصية ، وبالأحرى إلى أي خدمة عسكرية .

الرعاية والاحسان في العصر الميروفنجي

الرعاية . ــ استمرت الرعاية والاحسان في العصر الميروفنجي كما في السابق واحتفظا بصفاتها الأساسية وطبقها كل السكان الاصليين ،الغاليين ــ الرومانيين والجرمانيين الغازين .

ويبدو أن هذا النظام توسع منذ القرنين السادس والسابع وازداد فيه تعلق الادنى بالأعلى . ولم يكن الأدنون من صغار الملاكين الريفيين

الذين يبحثون عن حماية الكبار ، بل كانوا جمهوراً من الناس الاحرار يضعون انفسهم في خدمة الاقوياء الخاصة .

ولم يكن العلمانيون وحدهم يرجون رعاية الكبار فحسب ، بل كان يبحث عن هذه الحماية الاكليركيون ايضاً . وقد حاولت المجامع الدينية ، منذ القرن السادس ، ان تمنع تطبيق هذه الأمر لما فيه من خطر يهدد رجال الكنيسة من جراء انتزاع الاكليركيين من سلطة الاسقف .

ولقد طبق العالم الكنسي الرعاية ايضاً . فمنذ القرن السادس والسابع كان الاساقفة محاطين بالعلمانيين الاحرار الذين يقومون بالخدمة المنزلية ليل نهار . وكما هي الحالة في العهد الروماني ، كان الناس من ابناء الطبقات العليا يبحثون عن حماية كبار « القصر » ليستطيعوا الوصول اليه .

وكان النبلاء الفتيان يعيشون في البلاط في جوار حاميهم الذي يعلمهم ويمرنهم على خدمة الأمير أو الدولة . وذلك لأن الأمير والدولة يؤلفان كلًا واحداً . وبهذه الصورة نرى أن **آرنول** جد الكارولنجيين بدأ حياته تحت سلطة **غوندولف** حاجب قصر بلاط ملوك اوسترازيا . وتوصف هذه التربية في القصر بـ « الاطعام » . وكان بعض الاساقفة المشهورين يقبلون في كنفهم اناساً يثقون بهم ويحمايتهم .

رعاية الملك . — وكما في العهد الروماني كان المليك هو الشخص الذي يبحث عن حمايته اكثر من غيره . وكان على الملك ان يحمي جميع رعاياه وخاصة الكنسيين والارامل واليتامى والمسافرين والحجاج وبصورة عامة الضعفاء والمضطهدين . وكان الواحد من هؤلاء ينقذ نفسه بهذه الحماية ، كما كان كثير من الرجال والنساء والكنسيين والمحامين والمسافرين واليهود يبحثون عن رسائل تحفظهم مقابل مبلغ من المال يدفع نقداً .

وبموجب رسائل الحماية كان المحميون يرون مصالحهم القضائية خاصة مصونة في محكمة الملك . ولما لم يكن للملك من الوقت ما يجعله يتفرغ بنفسه لممارسة حمايته ، لذا كان يخول رعايته في العهد الميروفنجي إلى حاجب القصر .

وكان على ابناء كبار العائلات « الطاعمين » في القصر أن يؤدوا يمين الولاء إلى الملك إذا بلغوا سن الرشد أو حصلوا منه على لقب كونت أو دوق أو اسقف .

شكل الدخول في الرعاية أو « طلب الحماية » .— وإذا لم تؤد حماية الملك لليتامى والأرامل والحجاج وغيرهم إلى أي طلب رعاية فان هذه الحالة لم تكن كذلك عند الفئات الأخرى من المحميين . وكانت هذه الرعاية تجري باليدين وذلك بأن يضع المحمي يديه بين يدي سيده أو انه يمس يديه . وقد نجد هنا تجديداً ناشئاً عن الجرمانيين . وهـذا الأمر ممكن ولكن لم يبرهن عليه . ورمز اليدين كانت ترافقه يمين الولاء أي الطاعة والاخلاص .

ويكتسب الأعلى ، الذي أطلق عليه اسم **السيد** ، سلطة على من دخلوا في حمايته . ولا يمكن مقارنة هذه السلطة الا بسلطة الأب على اولاده والسيد على معتوقيه . فالمرأة التي طلبت حماية الملك لا تستطيع أن تتزوج دون سماح منه . والرجل المحمي يمثل أمام المحكمة العامة بسيده واذا مات دون أعقاب كان السيد يرث أمواله .

وكانت واجبات المحميين تختلف كثيراً ، ولها علاقة بمكانتهم الاجتماعية فالرجل الفقير الذي ليس له ما يطعمه أو يكسيه ، كان ملزماً بواجبات تختلف طبيعتها عن طاعة النساء والكنسيين وفتيان النبلاء للحامي الذي يتعهدهم في بلاطه .

ولكن النصوص لا تعرف ماذا يقتضي الولاء من جانب المحمي .

الاحسان . — لم يعق مجيء البرابرة تطبيق الاحسان ، بل ان هذا نما وازداد كالرعاية وظل طريقة لاستثمار الارض واطلق عليه اسم « الانتفاع » وقد شاع استعمال الانتفاع وخاصة على يد الكنيسة التي كانت تعتبر أغنى ملاك في اوربة الغربية .

وقد تعددت استعمالات الانتفاع . وافاد منه الاكليركيون والعلمانيون الذين يقدمون خدماتهم . وتعتبر الارض ، التي وضعت عليها اليد بطريق الاحسان ، بمثابة تقاعد لكنسي عاجز أو مسن .

تطبيقات الانتفاع المختلفة . — يعتبر « الانتفاع » تأجيراً للأرض مع الدلالة على دفع الاتاوة السنوية نقداً . وبما أن هذا الاجار هو اجار إحسان وليس أجاراً بعقد ، فقد كان يضع المزارع تحت تصرف المحسن المزعوم ويختلط مع البيع والهبة . فالرجل الذي يتخلى عن أمواله إلى الكنيسة يتمتع فيها بالانتفاع . ومنذ القرن الثامن والتاسع كان ينص على ان يمتد الانتفاع إلى ابناء المتخلي واحفاده . وقد انتشر هذا النص شيئاً فشيئاً وأدى إلى نظام وضع اليد في آخر القرن التاسع . وهو يخول الكنيسة الحصول على الملكية التامة للأرض اذا تنازلت للواهب عن أرض تعادل سعتها سعة أرضه ليستثمرها طوال حياته . فمن وهب للكنيسة أرضاً مساحتها ١٠٠ فدان حق له ان يأخذ مقابلها ١٠٠ فدان أخرى وان يتمتع باستثمار ٢٠٠ فدان لآخر حياته . وهذا الاستعمال يكون بمثابة تثمير (وضع المال بالفائدة) بفقد رأس المال .

وقد نجح هذا التعامل . ومنذ بداية القرن التاسع كانت المجامع الدينية توصي العلمانيين بحرارة بالا يعطوا شيئاً إلى الكنيسة دون أن يأخذوا بالمقابل ضعفه أو ثلاثة أضعافه . ونحن في هذه الحالة أمام « تعهد » حقيقي .

ضريبة المنتفع . - كان على المنتفع في العهد الميروفنجي أن يدفع سنوياً ضريبة عينية أو اسمية . وقد ناب هذا الدفع مناب الرجاء الذي كان يتجدد كل خمسة أعوام . ويؤدي التأخر في دفع الضريبة إلى رفع يد المنتفع بل إلى دفع غرامة . ونجدنا في هذه الحالة أمام « تعهد » أو على الاقل أمام اتفاق دقيق . ومع هذا فقد كانت تتخذ بعض الاحتياطات وذلك بأن يسجل رجوع الأرض إلى المحسن دون تدخل العدالة عند انتهاء مدة الامتياز .

ويستطيع المحسن ان يسترجع امتيازه بطريق وضع اليد فيما إذا ادعى المدين ، على غير حق ، بأنه مالك للأرض واراد التصرف بها . واذا كان المدين في حالة يستطيع معها مقاومة نزع اليد ، وجب عندئذ التوجه إلى العدالة العامة وخاصة إلى محكمة الملك .

ولا يتطلب امتياز الانتفاع يميناً ولا مصافحة . وليس من الضروري أن يكون المنتفع رجلا « محمياً » بل يكفي أن يقدم رفيعة أو رسالة تنم عن عبارات الاحترام إلى المحسن ويبين فيها ان حقوق مانح الامتياز مضمونة بصراحة وان يحصل على موافقة خطية حسب صيغة معينة من قبل المحسن ، ويتجدد هذا العمل المزدوج كل خمسة أعوام . ثم انيب عن هذه الطريقة بدفع ضريبة سنوية ضئيلة اسمية تؤكد بصورة لا تقبل الرد ارتباط المنتفع وحق المحسن في الملكية .

وفيما عدا الضريبة نرى أن واجبات المنتفع غير معرفة تعريفاً جيداً ولم تكن هذه الواجبات بالطبع عسكرية بل تدل على احترام المنتفع للمحسن .

الطبقة النبيلة والانتفاع . - لقد كان الحصول على الانتفاع مفيداً جداً وخاصة عندما جعل الامتياز لمدة ثلاثة أجيال . وقد شوهد ان كبار

الشخصيات كانت تبحث عن الانتفاع دون أن تأبى على نفسها الرجاء والخنوع. وكانت الكنيسة تحرص على أن تؤمن لنفسها حماية مشاهير الرجال وتتخلى لهم عن كثير من الانتفاعات . وتوالت الامتيازات التي هي من هذا النوع في النصف الاول من القرن الحادي عشر ، حتى ان كثيراً من القصور شيدت على الانتفاعات الكنسية .

ضآلة ضريبة المنتفع . – وبصورة عامة لم تكن الطبقة النبيلة لتأبى على نفسها الحصول على الانتفاعات حتى ولو أصبحت تتطلب منها دفع ضريبة كما هي الحال في آخر القرن الحادي عشر ؛ وذلك لأن الربح الذي تجنيه من هذه الانتفاعات كان عظيماً على ما يظهر . ففي القرن الثامن سلم أب سان – فاندريل ٢٨ دومين مقابل ضريبة ٦٠ سو . وتخلت ابوية بروم عن ٢٠ فيللا مقابل ضريبة ليره واحدة . ومن هنا نرى ان الاتاوة كانت وهمية ، وذلك لأن الانتفاع ليس مصلحة اقتصادية بل « احساناً » . واذا كان المنتفع قوياً كان الانتفاع بمثابة ضمان لدفع طمعه وسوء نياته .

وفي آخر العصر الكارولنجي ثبت الانتفاع بشكل « وضع يد » وامتد على جيلين وثلاثة اجيال ونما التعامل به حتى أن ٩٠٪ الصكوك التي حفظت من آخر القرن التاسع الى عهد متقدم في القرن الحادي عشر كانت كلها صكوك « وضع يد » .

ومع هذا فلم يكن المستقبل مقتصراً على هذا الشكل من « الاحسان » . لقد كان الانتفاع خاضعاً للضريبة وليس عليه واجب حربي ولذا لا يمكن أن يكون مولداً للاقطاع . اما المستقبل فقد كان لنوع آخر من « الاحسان » وهو الاقطاع الذي يرتبط تاريخه ارتباطاً وثيقاً بالتبعية .

الحماية الحربية

الخدمة العسكرية العامة . — في معرض بحثنا عن الحماية في العصر الروماني والميروفنجي لم نر دليلًا على ان السيد أو الامير كان يتطلب خدمة مسلحة ممن كان في خدمته مهما كان شرطه الاجتماعي . اما الملك فهو الوحيد الذي له الحق في الخدمة العسكرية .

كان على الاحرار جميعاً ان يدخلوا في خدمة الملك العسكرية وكان الملك بحاجة لرجال يحيطون به ويحمونه بصورة دائمة أي يؤلفون حرسه الخاص . وهذا الحرس يوجد طبعاً في كل الدول الملكية . وقد أخذ هذا النظام في المجتمعات البربرية طابعاً عاطفياً . وكان هؤلاء الحراس « صحباً » للزعيم يحاربون معه ويحارب معهم ، وكان كل منهم على استعداد لأن يضحي بحياته او بحريته لانقاذ سيده ، وبصورة عامة كانوا يتفانون في سبيله .

ومن المؤكد ان هذه الحال نفسها وجدت في الاوساط الجرمانية فقد كان كل أمير يحيط نفسه بلفيف من المحاربين الأقوياء . وكان جاه هذه العصبة ، أي الحاشية ، عظيماً حتى ان الارستقراطية تعتبر شرفاً عظيماً لها اذا قبل الملك أبناءها في خدمته ولو كانوا في سن الفتوة . وكانت عصبة المخلصين هذه تواكب الزعيم وترفع من جاهه في زمن السلم كما كانت في زمن الحرب تحدق به وتؤلف حوله حصناً يحميه ويذود عنه .

ولا شك في ان هذا النظام كانت مزدهراً في زمن الغارات البربرية ودام كذلك في الدولة الميروفنجية حيث نرى المحاربين المقبولين في خدمة الملك خلفاً للرفقاء . وتدلنا النصوص على ان الأمين المخلص كان يمثل بسلاحه امام الملك ويصافحه ويبايعه على الطاعة والولاء .

ومنذ هذا الحين يصبح الأمين في عداد المخلصين ويتمتع بالامتيازات المتعلقة بهذا اللقب او المنصب . وكان باستطاعة جميع الناس من مختلف طبقات المجتمع ان يدخلوا في خدمة الملك .

خدمة الافراد المسلحة .— لقد انكر بعضهم ان يكون للأفراد الحق في استخدام محميهم خدمة عسكرية . وفي الواقع ان النصوص لاتقول بأن الرجل الذي يدخل في خدمة غيره يجب ان يكون محارباً . ولكن الحاجة إلى الأمن في مجتمع مضطرب كانت ضرورة لامحيد عنها . فما من احد يستطيع الانتقال دون ان يكون محاطاً بجنود تحميه . ولم يكن المسكن آمناً ان لم يكن له حرس تحميه . غير أن هنالك نقطة تجب الاشارة اليها وهي ان الخدمة العسكرية التي يقوم بها المحميون لسيدهم لاتقتضي منهم الحرب ، كما هي حال التابع تجاه أميره في العهد الاقطاعي ، الا انهم كانوا يدافعون عن سيدهم ضد اعدائه او ضد اللصوص والأشقياء والسلاح في ايديهم . وهذا يعني ان خدمتهم كانت خدمة مسلحة وليست خدمة حربية .

وتدل النصوص على ان هذا النوع من الخدمة كثير . ولم يكن للكونتات والأدواق وحدهم اتباع بل الاساقفة والآباء ورئيسات الأديار كانوا محاطين بتابعين يحمونهم . وفي الحقيقة ان كل هذه الشخصيات ، بما فيهم الكنسيون ، كانوا عمال الدولة ، وهذا مايوضح لنا كيف ان الملكية لاترى اي محذور في تطبيق هذا النظام .

نشأة خدمة الأفراد المسلحة . — لم تسمح الدولة الرومانية ولا الدولة الجرمانية للافراد ، الذين يتمتعون بمكانة عالية ، ان يقيموا حولهم اشخاصاً مخلصين مسلحين . ومع هذا فان الواقع يدل على ان كبار الشخصيات في آخر القرن الرابع وفي العالم الروماني كان لهم حراسهم

المخلصون . فمن ذلك ان روفين مدير معسكر « القسم الشرقي » في الامبراطورية الرومانية ؛ وستيليكون منافسه في الغرب كان لهما حرس مسلح . وكذا الأمر عند قادة الجيوش ، حتى ان حرسهم أصبح هاماً من حيث الكمية والكيفية ، وغدا في القرن السادس في بيزنطه يُؤلف عصب الجيش « الروماني » تحت أوامر بيليزير أو نارسيس .

وكان هذا الحرس مقسماً الى فئتين : **دووريفودس و بوكسيلليرس** ويذكرون في هذه النقطة ، بقيمتهم واخلاصهم للقـائد ، « صحب » الملوك الجرمانيين في الأزمنة القديمة . ومعظم هؤلاء الموالين من أصل بربري في الغالب ، وكانوا يخلصون لزعيمهم « الروماني » ، وكان في الغالب بربرياً ، اخلاصاً وراثيـاً . وقد شوهد ان « آخر الرومانيين » آئسيوس ، عندما اعدمـه الامبراطور فالانتينيان الثالث ، قـد ثأر له مخلصوه الغوطيون كأمير جرماني .

ومن الطبيعي ان يستمر هذا النظام وينمو بعد القرن الخامس ، حتى اننا نراه في الدولة الميروفنجية بل وفي جميع الدول الرومانيةالجرمانية في الغرب وفي بيزنطية أيضاً . والقضية الحقيقية التي يجب ايضاحها هي كيف ان اناساً أغنياء وغير مستخدمين في المصالح العامة ، كان لهم الحق في اقتناء المخلصين . أما الشرق فلم يقبل بهذه القضية من حيث المبدأ على الأقل . وفي الغرب لم يستطع ملوك البرابرة منع هذا التعامل . وربما لم يشاءوا ذلك لأنهم يعتبرون ان كل انسان قوي كان داخلا في خدمتهم .

الاحسان الى المخلصين المسلحين . — لم يكن أجر الخدمات التي يقوم بها المحميون الا عاشة في البلاط فحسب ، بل ان الملك كان يكافيء هذا « الاخلاص » بالهدايا والمنح ووهب الاراضي الاميرية .

وبهذه المناسبة تعترضنا قضيـة : فمن المنتظر ان يكون الامتياز موقتاً ويؤلف بالنسبة الى المستفيد قطعة ارض من طبيعة الانتفاع . أما في الواقع فقد ظهرت امتيـازات المحميين الملكيـة في النصوص بشكل ملكية تامة ولم توصف بانهـا احسان . وقد جرت محـاولات لاجتناب الصعوبة ، لان الملكية لم تكن إلا ظاهرية . وذلك لان العقليـــة الجرمانية لاتعتبر الهبة مطلقة دون تقييد . فقد كان الواهب يحتفظ معنوياً وحتى حقوقياً بحقوقه في الأموال التي تنازل عنها ولذا فانّ الهبات الملكية لاتخول الا حقـاً محـــدوداً للمستفيدين ولم يكن هـذا الحق مؤمناً بصورة جيدة .

ولدعم هذه النظرية تذكر بعض مقاطع من غريغوار أسقف مدينـة تور . وهي تدل على ان الملك يستعيد الاراضي التي وهبهـا إلى كبار الشخصيات عند وفاتهم او في حياتهم . فمعاهدة انديلو (٥٨٧) ومرسوم (٦١٤) يدلان على تجريد المحميين من الأموال التي تكرم الملك بها عليهم . وقد ظن بعضهم انه وجد في العصر الميروفنجي ما يمكن أن يسمى في المستقبل « احسـان الاقطاع » أو على الاقـل لقد حاول ان يقلل الفرق بين « احسان الاقطاع » هذا والهبة الملكيـة في الفترة الواقعة بين القرنين السادس والثامن . وليس هذا الا من قبيـل الوهم لانه كان من الطبيعي ان يستعيد الملك الأراضي من موظفيه عند وفاتهم لان ايرادها كان راتبهم . اما المصادرات التي كانت تجرى في حياتهم فعذرها الخيانة ان كانت حقيقية أو مفترضة . وكان جشع الميروفنجيين وسوء ظنهم سببين كافيين لايضاح سلوكهم هذا .

وبعد فهل هذا يعني القول ان الملوك الميروفنجيين لم يعملوا أي امتياز بشكل « احسان » أي بصفة موقتة ؟ ان انكار هذا الامر معناه عدم

الاعتراف بالماضي وبالتاريخ اللاحق للاحسان المؤدي إلى الاقطاع . أما سكوت النصوص فيوضح بفقرها وطبيعتها .

تعايش شكلي الامتياز . — وبعد فما هو شأن ١٠٠ دبلوم ميروفنجي و ٥ أو ٦ مراسيم بالنسبة الى ١٢٠٠ او ١٥٠٠ دبلوم كارولنجي وعدة مئات من الارادات الملكية ! ومع هذا فاننا نكاد نشك بوجود احسان ملكي في العصر الكارولنجي ، لان هذه الدبلومات عندما يكون موضوعها هبة ملكية فان هذه الهبة تكون دوماً ملكية تامة . أما الارادات الملكية ، فعلى العكس ، لم تكن لتبحث الا في الاحسان . غير ان التناقض ليس الا ظاهراً . وذلك لان الارادة الملكية لاتهتم بالاموال التي تخلى عنها الملك بل تعنى بالاموال التي هي في حيازة التابعين أو في الغالب بالأموال التي اتلفوها . ولم يكن الدبلوم ليتكلم الا عن هبات الملكية التامة وذلك لان هذه الهبات وحدها تترك مجالاً لتحرير صك مكتوب . وفقدان وثائق هذا الصنف او ذاك جعل الفكرة عن المنحة الملكية في هذا العصر خاطئة . وزوال الاعمال التشريعية الميروفنجية بعد ٦١٤ يمكن ان يوضح فقدان المعلومات الواضحة عن « الاحسان » الانتفاعي في هذا العصر .

احسان الأفراد . — وكان الافراد يكافئون الاخلاص والخدمة الدائمة باعطاء ارض اما بشكل ملكية تامة او مقابل اتاوات . ولم يكن من يأخذ الأرض فلاحاً يشتغل بذراعية لأن المال المتنازل عنه ، وان كان قسماً من فيللا ، كان يضم اراضي قابلة للزراعة ، ومراعي ، وكروماً ودوراً وجماعة من البشر .

ولقد ظهر ، منذ النصف الأول من القرن الثامن ، بان هنالك امتيازات بشكل انتفاعات كانت تعطى إلى المخلصين وقد بدأ هؤلاء يحملون اسم تابعين .

الرعاية والاحسان في العصر الكارولنجي

التجديد المزعوم في هذا الدور . ـ لقد شهد العصر الكارولنجي جميع التعاملات الجارية في العصر السابق كما شهد نموها واتساعها . ولقد ارادت مدرسة تاريخية وتريد ان تجعل من هذا النمو في القرن الثامن ثورة حقيقية ، حتى ان نظام التبعية نشأ في هذا التاريخ وتبدل الانتفاع تبدلاً عميقاً .

وظن بعضهم ايضاً انهم وجدوا اسباب هذا التبدل ، وجعلوها على صلة بتعصير اموال الكنيسة الذي قام به شـــارل مارتل ، وبضرورة الكفاح ضد المسلمين .

لقد كان شارل مارتل بحاجة إلى فرسان لكفاح العرب . وكان الدومين الملكي مبدداً . ولذا وضع يده على أموال الكنيسة ووزعها على محاربيه والمخلصين في خدمته . وقد اخذ هؤلاء المخلصون يسمون **تابعين** . وعلى هذا النحو استطاع هؤلاء المخلصون ان يجهزوا انفسهم بكل ماهم بحاجة اليه لأن الخدمة على ظهر الخيل تتطلب كثيراً من الموارد . وقد وزعت هذه الأراضي بسخاء وكانت العملية مفيدة ومربحة حتى ان الارستقراطية لم تتورع من الدخول في **الحماية** بشكل خدمة شخصية مسلحة أي بشكل تبعية ، بعد أن كان يبحث عنها ، حتى ذلك الحين ، فقراء النـــاس وابناء الأسر الصغيرة .

وفي الوقت نفسه تبدل شكل الامتياز تبدلاً كلياً . ولم يعد هبة ملكية تامة لأن هذه الأراضي لم تكن تابعة لحاجب القصر . ولذا وجد حل وسط : وذلك ان المحاربين الذين يحتلون أموال الكنيسة بأمر الملك لايستلمونها الا اذا دفعوا الى الاسقفية او الأبوية المنهوبتين ضريبة

الشهر (الزكاة)والعشر . ويبدو ان تمتع التابعين بهذه الاراضي قد أخذ طابع الانتفاع ، وان هذا النوع من الامتياز قد إئتلف مع الظروف وأصبحت هبات الملوك الكارولنجيين لاتعطى في سبيل ملكية تامة بل بقصد انتفاع يدوم مدى الحياة .

وهذا القول لايخلو من حذق ، ولكنه مجرد فرض ، لأنه لايبرهن ، على الأقل ، كيف ان الفرسان نابوا مناب المشاة عند الفرنجة بهذا الشكل المفاجىء مع ان هذا الامر قد تم بصورة تدريجية ، وفرسان العرب غير كثيرة . ولذا فان تعصير اموال الكنيسة لايمكن ايضاحه بكفاح المسلمين بل بضرورة مكافأة انصار الكارولنجيين الاوائل الذين كانوا يناضلون اعداءهم ان في الداخل او الخارج . يضاف الى ذلك ان اعمال التعصير قد بدىء بها قبل شارل مارتل . ولذا فان هذا التركيب الحقوقي ، لايضاح قيام الانتفاع مقام الهبة المطلقة ، ضعيف وغير مقنع ، ويجب ان نضيف بانه غير مفيد لأن الاختلاف بين الامتياز الملكي في في العصر الميروفنجي والامتياز الكارولنجي لم يوجد بمثل هذا الشكل الذي قيل فيه .

هذا ونستطيع القول ان التعصير قد اعاق اكثر مما ساعد على نمو التبعية وتوسعها ، حتى انه سرّد في بعض الاحيان مبادئها وجعلها مظلمة . فالقابض على الأرض الذي هو تابع في نظر الحاجب والملك ، كان منتفعاً حيال الأسقف أو الأب . ووضعه هذا لايخلو من التباس وسيتضح في آخر القرن التاسع : وذلك لأن التابع اما ان يغتصب بصراحة الدومين الذي في حوزته ولايرتبط الا بالملك ، أو انه يعترف بسلطه المؤسسة الدينية التي يحتل أرضها .

التبدلات الحقيقية .— وفي الحقيقة ، ان العصر الكارولنجي كان مثبتاً

للاوضاع اكثر مما كان مجدداً ، لان النظم السابقة كانت توالي تطورها وربما كان ذلك بصورة أسرع . وكان ما تبدل بادىء بدء هو التسمية . فلم تمض بداية حكم شارلومان الا وزالت بعض الاسماء مثل « المحمي » . كما زالت سابقاً كلمه « زبون » أمام كلمة « مقبول » واستعيض عنها باسم « تابع » وعم استعمالها . وكانت تدل على الخادم غير الحر . ولاقت هذه الكلمة نجاحاً لانها تدل على الارتباط بين المحمي وأميره . هذا ويمكن القول ان المحميين استعملوها قبل غيرهم كدليل على التواضع الذي كان مظهراً من مظاهر التهذيب في ذلك العصر . وبالمقابل وصف الامراء خدامهم بـ « اصدقاء » و « طاعمين » .

الاحترام . — ولاقى الشكل الحقوقي للحماية تطوراً موازياً . وبدا ان الطرق القديمة والتعهدات الرمزية او الكتابية لاتفي بالغرض وغير ناجعة . فمنذ منتصف القرن الثامن ، على الاقل ، أصبح حلف يمين الطاعة يقوم على الانجيل او على « البقايا » وكان يرافقه عمل شكلي وهو الاحترام .

كان التابع يجرد من اسلحته للدلالة على شخصيته المدنية ويركع على ركبتيه أمام أميره ويضم يديه إلى بعضها ويضعها بين يدي الامير واحياناً يقبل قدم سيده .

وكان هذا العمل يعبر بصورة واضحة عن طاعة التابع . ومع ذلك فان هذه الطاعة لا تشبه الدخول في القنانة بالرغم من ضعة الطقس الذي تجري فيه . لان الرجل التابع يبقى رجلاً حراً خاضعاً لواجبات معروفة بأنها واجبات شريفة .

وبعد حلف يمين « الولاء » ينهض الامير بتابعه ويقبله ويقدم له هدية كأن يضع في يده بضع سو او بضعة دنانير . وهذا

الطقس يجعل من التبعية عقداً ثنائي الجانب يربط السيد والتابع معاً ويبدلها إلى شريكين . وكانت السلطات العامة تسهر على جعل هذه الرابطة وثيقة لاتنحل . حتى ان شارلومان حرم على التابع ان يترك سيده بحال من الاحوال .

الكارولنجيون والتبعية . — ربما كان من اهم مميزات السياسة الكارولنجية الحظوة التي منوا بها التبعية . فقد احب الكارولنجيون ان يحيطوا أنفسهم بعدد عظيم من التابعين وارادوا ان يكون هؤلاء التابعون مبجلين محترمين كالكونتات والاساقفة والآباء ، حتى انهم كانوا يمارسون في البلاط وظائف عامة وخاصة في محكمة الملك .

وبعد ان يقضوا في الخدمة زمناً طويلاً او قصيراً ، يقيمون على اراضي الملك او على اراضي الكنيسة . وتدل **الدبلومات** على ان الملك كان يمنح مخلصيه اموالاً أميرية ويتملكونها منه ملكية تامة . اما الارادات الملكية فتقول انهم يأخذونها بطريق الانتفاع . وهم ، باعتبارهم محميين ، لايخضعون للمحكمة الاقليمية ولا يمثلون أمام القضاء الا في المحكمة المركزية أي محكمة « القصر » . وسواء أكان امتيازهم ملكية تامة أم انتفاعاً من ارض أميرية أم « حصانة » فهو يحتفظ بامتياز الحصانة التي تضعهم في معزل عن تدخل الموظفين المحليين.

وكان التابعون من الناحية العسكرية يرتبطون مباشرة بالملك . ولا يسيرون تحت امرة الكونت في الدوائر (المقاطعات) . اما في حالات الغارة المفاجئة من قبل العدو فانهم يذهبون الى الجيش الملكي مصحوبين باتباعهم الخاصين . ويبدو ان تابعي الملك كانوا يؤلفون نخبة الجيش الفرنجي وسلاحه الممتاز أي فرسانه ، في حين ان صغار الملاكين يؤلفون المشاة .

(وتتضح امتيازات التابعين بما يلي : فهم عمال السلطة ، يرسلهم الملوك بمهمات او يثبتونهم في جميع نقاط الامبراطورية حيث يكونون بحاجة الى

توطيد سلطتهم . ويظهر ان هذا النظام قد تكيف مع ضرورات العصر وأصبحنا لانعجب الا من شيء وهو انه لم ينقذ المملكة الفرنجية ولم يحفظها من هجوم الموظفين المزعومين وخاصة الادواق والمراكيز والكونتات الذين كانوا في حالة عصيان دائم سري وعلني .

ومما يدعو الى التباس بعض المؤرخين ان الملكية الكارولنجية لم تناوىء رعاية الكبار فحسب ، بل دعت السذج من الناس الأحرار الى الدخول في التبعية الخاصة ، حتى قيل انها كانت تجبرهم على ذلك . ولكن لم يكن هذا الا بنتيجة تفسير النصوص تفسيراً خاطئاً .

ان مصلحة الملك ، في أن يرى موظفيه العلمانيين والكنسيين وتابعيه الخاصين يحيطون انفسهم بحرس مسلح ، ليست بالأمر العسير الفهم : لأنه كان من المفيد ان يصل الكونت او الاسقف او الأب الى الجيش على رأس جيش من الفرسان الأقوياء .

ولكن لمَ ينصح الملك الفقراء الأحرار ان ينضموا تحت لواء الاغنياء ؟ الا تتعامى هذه السياسة عن الكونتات ، وهم خدام الملك العصاة ، وتجعلهم يضمون حولهم اناساً مسلحين ؟ لقد فكر بعضهم بازالة الصعوبة فانكر ان يكون التابعون مسلحين . ولكن هذا الانكار دليل عدم الفهم . لذا يجب ان يوضع الأمر خارجاً عن هذا النطاق .

لقد عرف الملك ان النقص في المال والرجال الذين يطمئن اليهم يجعل حكم الرعية امراً مستحيلاً فعلا . فقد كانت الملايين وهي الاكثرية الساحقة لاتخضع مباشرة لسلطة الملك ؛ والطبقة المنحطة خارجة عن الدولة ، وطبقة المعمرين الريفيين ، وان كانت حرة نظرياً ، إلا أنها كانت متعلقة بالأراضي لا بشخص المالك والسيد . وكذا حال المحررين . وكان الملك يعتمد على « المحصن » ليحكم هذه الطبقة الشعبية الريفية . أما السكان المدنيون

فكانوا قلة تتألف من التجار الاجانب واليهود ولا يتمتعون بأي اعتبار وليس لهم في المجتمع إلا شأن ضئيل .

أما الطبقة التي لها شأنها فهي طبقة الملاكين الريفيين كباراً أو صغاراً وكان الملك يقبض بيده على الكبار لأنهم كانوا يبحثون عن الوظائف لعامة . أما الصغار فكانوا غير خاضعين لسلطته . وكان الكونتات الذين يديرون أمورهم ويقضون بينهم يهملون شؤونهم ويضطهدونهم . وبعد فماذا يجب أن يعمل من هذه الكتلة التي ليس للملك سلطة عليها ؟ اذا تمكن الملك أن يصبها في قالب التبعية كان باستطاعته أن يحكمها بصورة غير مباشرة . والواقع ان « السيد الأمير » كان مسؤولاً عن تابعيه، فكان يجب عليه ان يسوقهم إلى المحكمة العامة (الماللوس) ويقودهم في الجيش . وقد أصبح على هذا النحو ممثلاً للسلطة وموظفاً ويفتخر الملك بأنه قابض عليه في يده . ولذا فالطريقة الناجعة هي ان يحشر في نطاق الامارة عدة مئات من الألوف وحتى عدة ملايين من الرجال . وبذلك يستطيع الملك أن يحكمهم . وهكذا يصبح الفقراء الأحرار رعايا الملك بعد أن أصبحوا تابعي الكبار ويدخلون فعلاً في تبعيته بعد أن كانوا في السابق تابعيه نظرياً .

على ان الكارولنجيين مافتئوا يعتبرون تابعي الكبار رعاياهم، ولم يكن الأمير يمارس أي سلطة قضائية على تابعيه . وإذا سلحهم فذلك في سبيل خدمة الملك وحده .

ثم ان الملك يضع نفسه حامياً لتابعي الأفراد . وهو اذا أخضعهم لخدمة تدوم مدى الحياة ومنعهم من استقبال تابع لم يخوله أي سلطة أو مهمة ، فهو من جهة ثانية يريد من التابع الذي أصيب بشرفه أو منفعته ان يكون له الحق في ترك سيده . وقد صرح بأنه يتقبل ظلامة التابعين

ولم يكن هذا الوعد عبثاً . ومـــا قضيته هنكمار اللانوزي التي انتهت بتعذيب هذا الاسقف وفقده بصره الا نتيجة ظلامة رفعت من تابع لهذا الحبر إلى بلاط الملك .

ولم يخش الكارولنجيون بان يوماً سيأتي ، في حال خلاف بينهم وبين الكبار ، يشايع فيه التابعون أميرهم المباشر . وهذا ما حصل فعلاً في فرنسا في آخر العصر الكارولنجي .

التضاد بين المبدأ الملكي والمبدأ التبعي . — يعتمد نظام التبعية على مبدأ خطر على الملكية إذا لم تتخذ هذه حذرها وتحتفظ بهذا المبدأ وتحصره فيها . فالاخلاص المطلق عند كاب أمين لسيده لايمكن أن يتفق مع اخلاص الرعية للملك إلا إذا حافظ الملك على سلطته عند سيد التابع . والتوازن بين المبدأين لا يمكن أن يدوم بصورة غير معينة . فعندما يصبح جلياً أن حماية الملك بعيدة ومتقطعة وليس لها تأثير أو عمل ، لا يتردد التابع في ان يفضل عليها سلطة الأمير المباشرة ، نظراً لما له من صلات يومية تربطه به .

ولا يستطيع تابعو الملك انفسهم ان يقاوموا طويلاً ضغط الكونتات والأدواق الاقوياء بكثرة تابعيهم . ولذا يضطرون لانعزالهم ان يخضعوا للأمراء ويعترفوا بسيادتهم عليهم . وهكذا تأسست السلالات الحاكمة في الأقاليم في آخر القرن التاسع والعاشر .

الملكية والارستقراطية . — ورغم ان التبعية ظلت زمناً طويلاً اداة الحكم الناجعة إلا انها لم تكن السبب الوحيد في تداعي الملكية في فرنسا . كانت الارستقراطية عدو المملكة الفرنجية . فقد اضعفت الملكية وقوضتها ووضعت يدها على الوظائف العامة وجعلتها « انتفاعاً » وطالبت بأن يكون « الانتفاع » دائماً مدى الحياة بل وراثياً .

وربما قدر لهذه الارستقراطية الا تنجح في مسعاها لولا ان تقسيم المملكة مرات عديدة اضطرها ان تنفرد في مقاطعتها في ممالك آخذة بالصغر يوماً عن يوم . وعندما توقفت الحملات المثمرة في ايطاليا والمانيا واسبانيا وعادت للدفاع المنهك ضد هجمات النورمانديين لم تستطع الارستقراطية ان تبرح مكانها ولبثت حيث كانت واستحكمت في الارض .

وراثة الوظائف . — ومنذ منتصف حكم شارل الاصلع كان من الجلي أن يلاقي الملك متاعب لا تنتهي في زحزحة الكونتات عن أماكنهم . وفي آخر حكمه كان أمراً عاداً ان يخلف الابن اباه . وبعده أصبحت الوظائف وراثية ، على الاقل في فرنسا ، وصارت السلالات الحاكمة في الاقاليم تمارس امتيازات الملك في السلطة .

الثغور والدوقيات . — ثم ان إنشاء القيادات العسكرية الكبرى أي « الثغور » ، للكفاح ضد الأعداء في الخارج والداخل (من نوستريا ، تولوز ، غوطيا ، فلاندر ، بورغونديا) ، أنهى تفكك المملكة الفرنجية . وكانت هذه الثغور تضم ارضاً واسعة (عدة كونتيات) . وأدت ضرورة الكفاح بالملك إلى التخلي إلى المركيز أو الدوق عن سلطاته ، وإلى البروتانيين عن ثغر رين ونانت ، والى النورمانديين عن مجرى نهر السين الأدنى والأورن وشبه جزيرة كوتانتان .

ولتستطيع المملكة الفرنجية البقاء أيضاً كانت تضطر كل يوم ان تتنازل شيئاً فشيئاً عن سلطاتها .

تعميم الروح التبعية — اجتاحت الروح التبعية المجتمع في غضون العصر الكارولنجي ، ونابت التبعية مناب الحماية في أشكالها المختلفة . وكان كبار الشخصيات في الدولة من لدواق وكونتات ومراكيز واساقفـة وآباء

يقسمون بين الولاء للمليك ويؤدون احترامهم له كسائر التابعين ، حتى ان الناس المعتبرين في المجتمع في القرنين العاشر والحادي عشر كانوا داخلين في النظام التبعي . ولما كان لكل تابع اتباع ، ولكل تابع أمير فالمجتمع يؤلف هرماً من عـدة طبقات آخذة بالضيق حتى الرأس حيث يكون العرش الملكي . وبذا أصبح المجتمع التبعي عالماً مغلقاً ، أي طبقة .

زوال الملكية الحرة . — وفي خارج هـذا العالم المغلق وجد **ملاكون أحرار** . وقد شعر هؤلاء بانعزالهم فرأوا أن يعترف بهم جيرانهم الاقوياء تابعين لهم . وهكذا أخذ عددهم بالتناقص في المناطق الشمالية وزالت الملكية الحرة في نورمانديا وبروتانيا في آخر القرن الثاني عشر .

مصير الملاكين الصغار . — أما صغار الملاكين فكانوا فقراء لا يستطيعون القيام بالخدمة العسكرية أو رفضوا فيها ولذا وقعوا في طبقة الادنياء المنحطة . وفي القرن الحادي عشر كان الأحرار الوحيدون أو النبلاء السادة الامراء واتباعهم .

التبعية في الأسرة . — ونفذت التبعية إلى حرم الروابط العائلية والعاطفية . فالزوجة والأولاد يعتبرون اتباعاً لرب الأسرة . فهو يعتبر أميرهم أو بارونهم . وفي الأسر الملكية ، وفي الطبقـة النبيلة كانت الصلات بين الأبوين والأولاد تخضع إلى طقوس ومراسم تبعية . ودامت هذه الطقوس عشرة قرون أخرى كان فيها ابن النبيل يدعو أباه « سيدي » وأمه « سيدتي » .

التبعية في الحياة العاطفية . — وكان العاشق يعتبر معشوقته سيدة ويقف حيالها موقف التابع أمام سيده . وكل عبارات الحب في العصر الوسيط تنم عن هذه التبعية .

تبدل العلاقات بين الرعاية والاحسان . — وفي غضون هذا العصر والعصر الذي يليه تبدلت الرابطة التبعية تدريجياً . وبعد أن ظل السيد زمناً طويلاً يدفع اخلاص مريديه باطعامهم وكسائهم وتقديم الهدايا لهم انتشرت العادة شيئاً فشيئاً بأن تكافأ الخدمات الدائمة أو العظيمة بمنحها أموالاً عقارية بطريق **الملكية** أو **الانتفاع** . وقد لوحظ هذا الحادث ، من أجل الافراد ، منذ بداية القرن الثامن ، وتعددت الأمثلة مع الزمن . وفي القرن التاسع ، أصبح هذا الأمر قاعدة . ومن المؤكد أن بقي عدد من « الطاعمين » المنزليين ومنهم من كان ينهي أيامه دون أن يرى اخلاصه مكافأً بقطعة أرض ، غير أن الرأي العام أخذ يرثي لهم ويشجب أعمال أميرهم . وكلما دخل ابناء النبلاء في نظام التبعية قلت مدة الخدمة المنزلية وازدادت سعة المكافأة بالأموال النقدية « الاقطاعات » . وصار يطلب في القرن العاشر والحادي عشر تقليد المال مباشرة بعد طقوس الاحترام والولاء . ولم يعد الانسان تابعاً إلا في سبيل الحصول على الانتفاع . وهذا هو عكس الوضع الذي كان في السابق بين السيد والزبون .

وأخيراً ، وبعد أن أصبحت العلاقات التبعية النموذج الوحيد المقبول في العلاقات بين الناس ، طلب كثير من الملاكين والأغنياء ، الذين كرهوا عزلتهم ، أن يكونوا اتباعاً لجار قوي وذلك باعترافهم ظاهراً أنهم يأخذون ملكيتهم منه . ومثل هذه الاقطاعات المستردّة ساعدت على الاكثار من عدد « الامارات » .

ظهور كلمة الاقطاع . — ورغم شكلية الاحترام والولاء التي دامت حتى عام ١٧٨٩ في العقود بين السيد والتابع فلم تأخذ التبعية المقام الأول

بل « الالتفاع » أو الكلمة العامية التي اكتشفت حوالي آخر القرن التاسع وهي كلمة « الاقطاع » .

ولقد ظل « الالتفاع » و « الاحسان » المحض شيئاً واحداً خلال زمن طويـــل . ولذا كان خلواً من كل محتوى حقوقي ولا يقتضي أي التزام واضح . أما الواجبات الخاصة بالقابض عليه فتتعلق بصفته منتفعاً أو تابعاً . ولذا لم يكن الاقطاع منفصلاً عن التبعية . ولو حاولنا عزله لزال .

تسلسل الاقطاعات . — ولكن كلما أخـذ العنصر التبعي بالضعف أخـذ الاقطاع المقام الأول . وعندما لايمكن استرداد الامتياز ويصبح وراثياً ، كما هي الحال في القرن الحادي عشر ، يبدو المجتمع تسلسل اقطاعات أكثر مما هو تسلسل اشخاص ، ويقوم فيه النظام « الاقطاعي » مقام النظام التبعي .

وأخيراً سرت نبتة الموت في المبدأ التبعي عنـدما جرى التعامل في تناول عدة اقطاعات من عدة أيدي أي عندما أصبح للشخص عدة أمراء .

تطور لا ثورة . — ان هـذه التبدلات الكبرى كانت في حـالة تهيئة في العصر الكارولنجي بل ومنذ العصر الميروفنجي . غير أن التبعية التي بدلت النفوس والأشياء لم تبلـغ بعد درجتها القصوى . وإذا قرأنا الوثائق ظهر لنـا رغم قلتها وضآلتها أن الناس الأحرار المستقلين كانوا أكثر من الأحرار الذين دخلوا في التبعية ؛ وأن الاراضي المملوكة ملكية تامـة تؤلف الاكثرية اذا ما قيست بالنسبة إلى الاراضي التي وضعت عليها اليد بطريق « الاحسان » . ولكن النسب ستتبدل في بداية العصر الكابسي دون حدوث أي ثورة اجتماعية . وهكذا نرى أن

الاقطاعية التي نشأت في ظلمة الامبراطورية الدنيا ، قد تابعت سيرها ببطء ولكن بقـــوة طبيعية لا تقاوم . ولقد تراجعت الملكية والحرية والدولة دون انقطاع أمام هـذا العدو ، الاقطاعية ، الذي اتخذته مساعداً زمناً طويلاً .

وبعد فليست الاقطاعية موجة من أمواج الاعماق تتقدم بهياج عظيم فتجتاح الشواطيء ، بل هي فيضان تدريجي لا يدرك الا بصعوبة . ويبدو طفيفا ولكنه سيغطي كل شيء .

الفصل السابع عشر

العالم الاسكاندينافي حتى آخر القرن التاسع

لقد كان منتصف القرن الثامن ، بالنسبة للبلاد الاسكاندينافية ، بداية لعصر جديد اتفق على تسميته باسم « **عصر الفايكنغ** » . ففيه بدأت الاقوام العديدة ، التي تؤلف جرمانيي الشمال ، بتشكيل وحدات عرقية ظلت لغتها حتى ذلك الحين لغـــة واحدة بالرغم من الاختلافات المحلية ، ولكنها أخـذت تولد لغـات مختلفة : كالسويدية والدانيماركية والنورفجية ، لم تستكمل شخصيتها الخاصة الا في القرن الحادي عشر .

لقد كان الدانيماركيون يحتلون في ذلك الحين جزر غرب البالطيك وجوتلاند وجنوب السويد الحالية (هاللانـد ، سكانيا ، بليكنـغ) . وثبت النورفجيون على طول الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة الاسكاندينافية. واستقر السويديون في بلاد السويد الوسطى الحالية في المنطقة التي يتألف وسطها من بحيرة ميلار . وفي الجنوب تمتـد البلاد التي يسكنها **الغوت** وهم فرع من الشعب الغوطي ظل حيث كان ولم يهاجر . أما شمال شبه الجزيرة ، حتى خط عرض اخفض مما هـــو عليه اليوم ، **فقد سكنه** اللابونيون وهم شعب متخلف جداً .

وكانت اوربة الغربية تطلق على مجموع هؤلاء السكان اسماً عاماً : نوردماني أي الشماليون وهم **النورمانديون** .

ولم تكن اسكاندينافيا عالمـــاً مغلقاً . فقد كانت السويد تتصل ، عبر البالطيك ، بالشاطىء الشرقي لهـذا البحر ؛ وبفضل الخلجان ومصبات الأنهار ، التي تتفتح عليه عبر السهل الروسي ، بالشرق . وأمن الموقـع الجغرافي للدانمارك دوراً وسيطاً بين البالطيك وبحر الشمال . وجعلت فيوردات شواطىء النورفيج الغربية والجنوبية من سكانها ملاحين ، وفتحت البلاد لعمل المؤثرات الخارجية .

المظاهر الاخلاقية .— تتصف حضارة الشعوب الاسكاندينافية بخصب تنوعها واختلافها ، حتى ان بعض المظاهر المادية لهذه الحضارة ذات أشكال متطورة جداً ، وما هو معروف من المظاهر الأخلاقية يدل على حالة قريبة من البربرية . ومعلوماتنا في هذه النقطة ناقصة : فالوثائق المعاصرة التي تتناول الحقوق تنقصنا تمامـــاً ، غير أن النصوص الغربية تسمح بالتأكيد من أن الشعوب النورمانـدية لا تعرف حـداً أو قيداً لميولها الفظة والدموية ، ويستهويها الانتقام وتعـــدد الزوجات وارتكاب ادنى الرذائل .

الدين .— لقد كانت الشعوب الاسكاندينانية تـــدين بالوثنية الجرمانية . فكانوا يعبدون قوى الطبيعة وبخاصـة الشمس واليها تصعد الآلهة الأساسية : **تور** ، **اودن** ، **فرو** ، وإلى جانبها وتحتها آلهة أخرى مثل **آل آس** و**آل فان** ، كما يعبد الشعب الأشجار والينابيع ، وتتطلب الآلهة ضحايا بل وضحايا بشرية أيضاً ، ويقدم هذه الضحايا زعماء الشعب والقبائل. ووجد في أبسالا معبد خشبي يعتبره السويديون معبداً قومياً .

وكان الاسكاندينافيون شديدي التعلق بعاداتهم الوثنية ، ولم تصلهم المسيحية الا بصعوبة . واشتهر الفايكنغ باعتداءاتهم ، في أوربة الغربية ، على الاكليروس والكنائس بالفظاعة والعنف . واعتنق التجار الاسكاندينافيون المسيحية لأسباب عملية في موانيء الفريز وساكس وانكلترا ، ولكنهم لم ينفذوا إلى روحها ، ولم يكن للبعثات التبشيرية التي ارسلت إلى الدانيارك ، في غضون القرن التاسع ، أي تأثير دائم .

الابجدية الاسكاندينافية . - عرفت الشعوب الاسكاندينافية الكتابة بالابجدية « الرونية » وقد نشأت هذه الابجدية عند الغوط على شواطىء البحر الأسود حوالي آخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث . وتقوم على تلاؤم عناصر من الأبجدية اللاتينية والابجدية الاغريقية ، وعن الغوط انتشرت منذ آخر القرن الثالث بين معظم الشعوب الجرمانية وتطورت ، منذ ذلك الحين ، بشكل خاص في اسكاندينافية . وفي حوالي العام ٨٠٠ نجد فيها ابجدية رونية مبسطة تضم ١٦ رمزاً عوضاً عن ٢٤ . وكانت احجار الشواهد مغطاة بنقوش كتابة رونية .

الحضارة المادية . - ان الحضارة المادية للشعوب الاسكاندينافية في عصر الفايكنغ معروفة بشكل واضح ، ونستطيع ان نستشف معالمها من الآثار العديدة في المناطق التي كانت مراكز أساسية لنموها : في **النورفيج** ، فيستفولد على فيورد اوسلو ، وينجيبريك في شمال اوسلو . في **الدانيارك** ، جزر شونن وسيلاند . في **السويد** ، او بلاند أو بلاد ميلار . في **البالطيك**، جزيرة غوتلاند المأهولة بالغوت .

وهذه الحضارة اسكاندينافية في أساسها ، ولكنها تأثرت بقوة بتيارات

خارجية . ولم تكن شيئاً فنياً وجديداً ، بل نتاج تطور خمسة عشر قرناً . وهذا التطور وحده يوضح نعومتها . فهي تتميز بالبذخ والبحث عن الأثر الفني ، والأمثلة على ذلك كثيرة : كان اثاث الزعماء وعرباتهم وزحافاتهم واسرتهم الخشبية محفورة بكاملها ، واسلحتهم اقل زينة ولا شك مما كانت عليه في العصر السابق ، ولكن الأتراس وقبضات السيوف وبلطات الأسلحة كانت مزدانة بتزيينات وخيوط نحاسية . واهتموا بالحلي وخاصة بصياغة الاساور والأطواق والأقراط والشكالات وافادوا من الذهب مادة مفضلة حتى آخر القرن السادس ثم استعاضوا عنه بالفضة وصاغوا منها حلياً وادوات. وعنوا في تزيينهم باسلوب الزخارف الحيوانية المعروفة منذ عدة عصور ، ولكنهم طوروها وادخلوا عليها تعديلات وتحويلات كثيرة . وكانت الحيوانات الغريبة تنتهي في اطرافها برؤوس حيوانات ، وتحاط بحيوانات أخرى باجسام منفصلة مجزأة وزخارف متشابكة ترى فيها زواحف مسلوبة . وهذه الزخارف مشتقة ، على مايبدو ، من « فن حيواني» من جنوب روسيا ، وقد تطورت باستمرار بتأثير المجلوبات الشرقية ، وربما ببعض مؤثرات كارولنجية وانغلو - ساكسونية وايرلندية .

الحياة الاقتصادية . ـ لقد كان النشاط الاقتصادي للشعوب الاسكاندينافية متعدداً متنوعاً نذكر منه الصيد وتربية الحيوانات وزراعة الحبوب كالقمح والشيلم والشعير . ومنذ القرن الثالث اتجه الميل الى تعرية الغـــابات وجعلها صالحة للزراعة ، وامتدت هذه الحركة من الساحل نحو الداخل . وكان الشعب يعيش متجمعاً في قرى أو يسكن المزارع المنعزلة تحت رحمة الشروط الجغرافية ، ويبني منازله من الخشب والغضار . ويشيد معسكرات وملاجىء يحميها بتاريس مستديرة مبنية بالحجر او التراب .

وكانت الأسوار التي هي من هـذا النوع تحيط على وجـــه العموم بالتكتلات التجارية .

وكانت الملاحة والتجارة تؤلفان في القرن التاسع نشاطاً اقتصادياً أساسياً وهاماً عند الشعوب الاسـكاندينافيـة . وكان الملاحون يركبون سفناً نحيلة متطـاولة ، ذات جؤجؤ مزين برأس غول ، تسير بالشراع والتجديف ، وجوانبها محمية بأتراس مستديرة من الخشب . وكانت هذه السفن سريعة جداً وثابتة وتساعد الملاحين النورمانديين على تغطية مسافات كبرى في البحر .

وعلى هذا النحو يتضح كيف ان البلاد الاسكاندينافية استطاعت ، في آخر القرن الثامن والقرن التاسع ، ان تقيم علاقات تجارية متتابعة مـع الشرق البيزنطي والاسلامي الذي تصعد منتجاته نهر الفولغـــا والدنيبر وتبلغ شواطىء البالطيك بينما كانت الفراء والرقيق التي يصدرها النورمانديون تسلك باتجاه معاكس الطرق نفسها إلى القسطنطينية وبغداد . ويبـدو ان جزيرة غوتلاند ، ومدينة بيركا في جزيرة بيوركو في وسط ميلار ، وفي الدانيمارك ميناء شلزفيـغ وهيثابو على ضفتي نهر شلاي ، كانت مراكز أساسية لهذه التجارة .

وكان دورها بخاصة دور وسيط بين العالم الشرقي والعـالم الغربي . وقد أخذ هذا الدور أهمية كبرى منذ ان تعذرت الملاحـــة في البحر المتوسط الغربي بسبب هيمنة العرب . وكان التجار والملاحون الدانيماركيون والسويديون ، ويبدون شك مـــلاحو جنوب النورفيـج ، يختلفون إلى الموانيء الانكليزية والساكسونية والفريزية وخاصة ميناء دورشتيد ، وينقلون اليها منتجات الشرق كالاقمشة الفاخرة ، بينما كان يبيـع فيها ملاحو شمال

النورفيج الفراء والسمك المملح . ويأتون من الغرب بالأدوات الحديدية وبخاصة السيوف والرماح .

ويبدو ان هذه الشعوب الاسكاندينافيـــة لم تضرب النقد قبل آخر القرن التاسع . ففي حوالي ٩٠٠ نجد القطع الاولى بشكل تقليد بدائي للدنانير الكارولنجية لميناء دورشتيد الفريزوني والمضروبة ولا شك في هايثابو . ومنذ آخر القرن الثامن وفي القرن التاسع شوهدت النقود الاسلامية الكوفية وبعض النقود البيزنطية في جزيرة غوتلاند وفي السويد. وإذا استثنينا السلع التي يصنعها الشرقيون للاسكاندينافيين وجدنا ان معظم المدفوعات في القرن التاسع كانت ، على مايبدو ، فضة غير نقدية .

المجتمع والدولة — لقد كانت الشعوب الاسكاندينافيـة في آخر القرن الثامن وفي القرن التاسع تمتاز بطابع ارستقراطي . فقد وجدت بينها طبقة عديدة من الزعماء (يارل) ذات نفوذ حاسم على الناس الأحرار الآخرين الذين يتبعونهم في حملاتهم العسكرية . وكانت السلطة العامة في ايدي مجالس الناس الأحرار اكثر مما هي بين يدي الملك الذي يتسلم سلطاته بالانتخاب . اما في الدانيمارك فقد فرضت السلطة الملكية عليهم بأقوى مما كانت في السويد وبخاصة مما في النورفيج .

وفي آخر القرن الثامن بدأت تتشكل في النورفيج دول حقيقية ، حول فيورد اوسلو ، على يد ملوك فيستفولد مثل **هالفدان** الكريم ، في السنوات الاخيرة من القرن ، وابنه **غودفريد** ، اللذين حررا البلاد من سيطرة الدانيمارك بعد ان توطدت فيها . ثم أخذ خلفاؤهما في القرن التاسع يفرضون سلطتهم بالتدريج على الشعوب المجاورة لجنوب البلاد .

أما المملكة السويدية فقد انشأها ملوك اوبلاند . غير انهـــم لم

يستطيعوا ان يتوصلوا في القرن التاسع إلى وضع غوطيا القـاوية تحت سلطتهم تماماً ، كما لم تقبل جزيرة غوتلاند ان تدفع لهم ضريبة الا بعد مائة عام .

وبدت المملكة الدانيماركية اقوى من غيرها . ولقد أصبح بامكانها القيام بسياسة خارجية تسلطية (امبرياليـــة) . واذا فقدت جنوب النورفيج ، الذي فتحه الدانيماركيون في القرن الثامن ، فقد حاول الملك غودفرواد ان يمتد بسلطته الأرضيـة نحو الجنوب على حساب الاوبودريت والفرنجة . غير ان شارلومان وضع عقبة أمام فتوحاته . وكان مقتل غودفرواد ، عام ٨١٠ ، بداية لحروب داخلية سببها التنازع على العرش .

الحملات البحرية . — يتميز تاريخ الشعوب الاسكاندينافية في القرن التاسع بكثرة حملاتهم البحرية . فقد كانت الملاحة والتجارة الخارجيـة نشاطاً اقتصادياً فائقاً لسكان الشواطيء في اسكاندينافيا . وكانت الأعمال التجارية في حملاتهم البحرية تتبع ، حسب الظروف ، اعمال القرصنة ، حتى ان القرصنة تفوقت على التجـارة بشكل حاسم ابتداء من الربـع الثاني من القرن التاسع .

لقد انطلقت منذ القرن السابع حملات من النورفيج وبلغت جزر هبريد وشتلاند وفيروه وانشأت فيها مؤسسات . وفي القرن الثامن انحدرت سفن نورماندية من جزر في شمال ايكوسيا (سكوتلاندا) نحو الجنوب : ففي ٧٨٧ ولأول مرة بالقرب من دورشستر هاجمت الشاطيء الانكليزي ؛ وفي ٧٩٥ اتجهت إلى الجزر في عرض ايرلنده . ويبدو ان هذه الغارات على الجزر البريطانية كانت حتى ٨٣٥ من عمل القرصـان النورفجيين . أما النورمانديون ، الذين اخذوا يهاجمون شواطيء المملكة الفرنجيـــة وازداد فتكهم انطلاقاً من العام ٨٣٤ ، فكانوا دانيماركيين .

وفي العصر نفسه كانت الحملات الاسكاندينافية تتجه صوب شواطىء بحر البالطيك . وفي بداية القرن التاسع مارس الدانيماركيون سلطة عليا على ميناء ريريك في بلاد الاوبودريت ، وقام السويديون بعملياتهم في هذه المنطقة الجغرافية : ففي القرن الثامن انشأوا مؤسسات موقتة وضعيفة في كورلاند ؛ وفي القرن التاسع ثبتوا على شواطىء فنلاندا وضفاف بحيرة لادوغا . وانطلقوا على مايبدو من هذه القواعد بشكل عصابات من الغامرين وشقوا ، تحت اسم الفاريغيين أو الروس ، الطرق التجارية التي تتجه نحو الجنوب ، عبر السهل الروسي ، تارة تجاراً وتارة محاربين . وفي ٨٣٩ وجد سفراؤهم في القسطنطينية . وكان زعماء العصابات السويدية تحت امرة امراء اخذتهم المدن التجارية السلافية لخدماتهم ، مثل مدينة فولشو — نوفغورود وكييف على الدنيبر ، فأصبحوا سادة لها واوجدوا في النصف الثاني من القرن اولى الدول في روسيا . وفي العام ٨٦٠ هددوا القسطنطينية ، وترك عملهم آثاراً في اسماء الأماكن الروسية ، فضلاً عن ان هذه البلاد مدينة لهم باسمها .

أسباب الغارات النورماندية . — كان التوسع النورماندي حادثاً عظيماً ومفاجئاً . وقد عبر عنه بخاصة في انكلترا وفي المملكة الفرنجية بغارات حقيقية . واثارت هذه الغارات ايضاحات مختلفة ، بيد اننا لانجد فيها ايضاحاً جامعاً مانعاً ومرضياً لأن كل واحد منها يتضمن شيئاً من الحقيقة ، ويمكننا ان نجملها فيما يلي :

١ — تكاثر السكان بالنسبة إلى الاراضي المزروعة التي لاتكفي لتغذيتهم .

٢ — تشكل دول قوية أدت بالمحاربين المتعلقين بحريتهم إلى مغادرة أوطانهم .

٣ — حب المغامرة والحملات البعيدة في سبيل السلب والنهب وأعمال القرصنة كانت نشاطاً طبيعياً عند هذه الشعوب البحرية الحربية

٤ — شدة التجارة الاسكاندينافية في القرن الثامن والتاسع مع بلاد الشرق والغرب دفعت الأقوام الشمالية إلى الثروة والغنى .

٥ — احتكاك الشماليين بالعالم الغربي عرف الشماليين بموارده فغامروا في سبيل الحصول عليها .

٦ — المقاومة الضعيفة التي ، أبدها الغربيون أمام الغارات الاولى ، كشفت عن امكان تحقيق غنائم عظيمة بفضل حملات متتابعة أقوى وافضل تنظيماً .

الفصل الثامن عشر

الجزر البريطانية من القرن الخامس الى القرن العاشر

البروتون

في أواخر العهد الروماني لم تجل روما عن بريطانيا العظمى ، كما يقال ، بل الحقيقة ان القاده ، الذين كانوا في الجزيرة ، قاموا بانقلاب في بداية القرن الخامس وزحفوا على القارة ومعهم جنودهم . ورغم ان الغاصبين او الاباطرة الايطاليين او القسطنطينية لم يتخلوا عن الجزيرة بصورة رسمية فان الواقع يظهر ان بريطانيا ابتداء من العام ٤٠٧ قد تركت وشأنها .

وفي السنة التالية هاجمها الساكسون الذين مافتئوا يهاجمونها منذ أكثر من قرن . وبعد ٢١ عاماً تألب الساكسون واقوام البيكت في كاليدونيا وحاربوا البروتون ، سكان الجزيرة الاصليين ، بالقرب من فيرولام (سنت البانس) في شمال لندن فأخفقوا في مسعاهم عام ٤٢٩ . ولكنهم اعادوا الكرة في ٤٤١ — ٤٤٢ فتم لهم كل شيء ووقعت بريطانيا في أيدي الساكسون .

ومع هذا فقد تمالك البروتون قواهم ، وإذا فر قسم كبير منهم ، أمام هجوم الساكسون ، وخاصة السكوتيون في ايرلنده وبحثوا عن ملجأ لهم في شبه الجزيرة الارموريكية في غاليا ، وحتى في غاليس في اسبانيا ،

واعطوها اسمهم وأصبحت « بروتانيا » فقد تماسك الباقون في النصف الغربي من الجزيرة البريطانية .

وتبدو هذه النتيجة مفاجئة لأن السكان ، كما هي العادة ، لم يستطيعوا مقاومة البرابرة الذين اتخذوا الحرب مهنة وشاغلا ، وإذا استطاعوا أن يقاوموا فذلك بفضل تنظيم اقرباء الغاصبين في سنتي ٤٠٦ - ٤٠٧ . ويذكر المؤرخ الاغريقي بروكوب (بروكوبيوس) في القرن السادس ان الجزيرة تركت دون دفاع واستقلت ذاتياً « تحت حكم الطغاة » .

اما تقلبات النزاع في النصف الثاني من القرن الخامس بين أبناء البلاد والغازين فمجهولة . وكل مانعلم انه قامت حوالي العام ٥٠٠ حرب كبرى على « جبل بادون » انكسر فيها تقدم الساكسون ، وتبع ذلك سلام او بالأحرى هدنة دامت نصف قرن . وفي منتصف القرن السادس كانت حالة العرقين المتنازعين كما يلي :

لم يشكل البروتون دولة واحدة ، بل توزعوا في ممالك صغيرة متنافسة في الكونتيات الانكليزية الحالية في كورنوي ، ديفون ، دورسيت ، سوميرست ، وفي جنوب الغال وشمالها ووسطها وفي الجنوب الغربي وفي الغرب في كمبرلاند و وست مورلاند الحاليين .

وتوغل البروتون في الشمال الغربي بين شعوب البيكت في كاليدونيا واستقروا في وادي نهر كلايد ودحروا أمامهم البيكت في غولوي .

ومن الممكن ان توجد مملكة بروتونية في الشمال الشرقي في المنطقة الواقعة بين سور هادريان وفيرث فورث ، وربما وجد بروتون في لانكشاير .

والجدير بالذكر ان النصوص المكتوبة ، التي تعطينا أخبار البروتون،

تتفق مع علم الآثار ويعطيان معاً نتائج متطابقة مع بعضها فيما يتعلق بتاريخ البروتون السلتيين في الجزيرة البريطانية .

على ان بعض البروتون لم يفقدوا الأمل من طرح الغازين الجرمانيين إلى البحر ، بيد ان هذا الأمل كان خيالياً لأن البروتون السلتيين كانوا مضطرين إلى التراجع باستمرار أمام الأقوام الغازية ، هذا فضلًا عن أن الممالك البروتونية لاتوجد بينها رابطة تجمع شملها . وهذه التجزئة السياسية ترجع ولا شك إلى تركيب بريطانيا الجغرافي أكثر مما ترجع إلى انقسام البروتون إلى سبع او ثماني دول ، لأن أعداءها الانغلوساكسون كانوا منقسمين على انفسهم ايضاً . وابتداء من القرن السابع تسارع افول الامارات البروتونية وأخذت تتساقط في ايدي الانغلو-ساكسون .

غير أن التقلبات السياسية لم تكن وحدها مسؤولية عن طرح البروتون في الصعيد الخلفي ، بل ان اعتناق الانغلو - ساكسون المسيحية وجه اهتمام الكنيسة الرومانية نحو هؤلاء . فقد كان البروتون الجزريون متعلقين بطقوسهم الدينية الخاصة ورفضوا أن يخضعوا لتعاملات كريهة قبلها اعداؤهم وطبقوها . لقد كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب جدول توريخ أخنى عليه الدهر ، ويقبلون العلمانيين في صف الاكليروس بشكل يغاير طريقة الرومانيين ، ولذا اعتبروا كالمنشقين تقريباً ، وارادت روما أن تخضع اساقفتهم إلى العاصمة الانغلو ساكسونية ، كانتربوري ، يضاف الى ذلك أن مقاومة الغالويين (سكان بلاد الغال) العنيدة أوجدت لهم عبر العصور شهرة سيئة في القارة .

وأخيراً ، ان بريطانيا الرومانية في الماضي لم تعد تحسب منذ وقت مبكر في عداد بلاد الثقافة الاوربية . فقد ترومنت بصورة سطحية ولم تعط أي كاتب للآداب اللاتينية . وفي القرن الخامس ضاعت معرفة

اللاتينية ، الا عند الاكليركيين والأمراء ، وأخير زالت الحقوق الرومانية أمام الاعراف المحلية .

حقاً لقد ترومنت بريطانيا ولكنها لم تأت باي اسهام لامع في الآداب اللاتينية المسيحية . وكان جيلداز يشعر بانه روماني ولكنه كان كاتباً مقيتاً واسلوبه ركيكاً . أما سير القديسين الغالويين المزعومة للقرن الخامس والسادس فقد كتبت في القرن الثاني عشر . وفي الحقيقة ان خسائرنا عظيمة عن تاريخ هذا العصر : ففي القرن التاسع أحرق الدانيمركيون والنورفجيون الوثائق ومكتبات الاديرة والاسقفيات الغالوية . والكاتب الوحيد ذو القيمة ، آسير ، مترجم حياة الفريد الكبير كان موالياً للملكية السكسونية .

وبالمقابل عرف البروتون الجزيريون منذ القرن السادس والسابع نهضة أدبية في لغتهم القومية ، ولسوء الحظ لم يصل الينا شيء . فالأشعار الغنائية والحماسية الموضوعة تحت اسم شعراء بطولين وغنائيين مثل : آنورين ، تاليزان ، ليوارك هن ، ليست سابقة للقرن الثاني عشر . أما قصيدة غودودن التي ترسم لنا صراع البروتون في الشمال ضد البيكت والانغلو — ساكسون في آخر القرن السادس فلا يمكن أن تكون سابقة في شكلها الحالي للقرن العاشر أو الحادي عشر . فضلاً عن أن فهمها صعب جداً .

انغلو — ساكسون

توطد الجوت والساكسون والآنغل . — لقد كان المستقبل في الجزيرة الكبرى لصالح الغزاة . وهم يعتبرون من أشد الجرمانيين وحشية وفظاعة ، ومن أقلهم ثقافة فكرية وأخلاقية .

وفي القرن الخامس لم يقتصر الساكسون والآنغل والجوت على القرصنة، كما في القرن السابق، بل انهم قاموا بهجرة كبرى (خروج) حتى أضحت مساكنهم في القارة من بعدهم خلاءً بالنسبة للآنغل، أو مهجورة بالنسبة للدانيماركيين (في جوتلانـد) والسلاف (في هولشتاين) .

ومع هذا فقد كان استقرارهم في بريطانيا دون مخطط عام شامل . فقد أقام الجوت في كنتْ وجزيرة وايْتْ وفي قسم منهامبشاير. وكانوا، نظراً لثقافتهم المادية، على حــدة بالنسبة إلى الشعبين الآخرين . واحتل الساكسون شواطىء بحر الشمال ومصب التاميز في واش وشواطىء المانش وكنتْ حتى الدومنونه البروتونية . وكانت الطرق الرومانية، كما في القارة، تسهل الغزو . وأقام الآنغل على طول بحر الشمال من واش إلى فيرث فورث ثم توغلوا في داخل الجزيرة .

ولم يكن بين هؤلاء القادمين الجدد أي اتفاق وانسجام، وكانت الدول تؤسس صدفة واتفاقاً . وحسب العادة عرفت بريطانيا الجرمانية تحت اسم هيتاركي أي السبع ممالك، ولكن العدد الحقيقي لهذه الأقسام يتجاوز كثيراً رقم سبعة .

توزع الجوت على ثلاث فرق : كنت، جزيرة وايت، هامبشاير . وسميت الدول الساكسونية، حسب وضعها : اسكس (مع لندن)، سوسكس، وسكس (مع ونشستر) . ولكن يجب ان يضاف اليها الستوايج وهي اليوم سري، والهويكس وهي قبيلة ساكسونية غربية اقامت على نهر الآفون والسيفرن الادنى .

وكان الانغل مبعثرين : ففي اسكس و واش حلّ الانغل الشرقيون (انغليا الشرقية) . وفي شمال هامبر وحتى سور هادريان وجدت دولة الدايرا وعاصمتها يورك . وفيا وراء ذلك تذكرنا دولة البرنيشيا باسم

ارض **القرصان** (بريغانتز) البروتون : وقد امتدت هذه الدولة حتى فيرث فورث عندما انتزعت غودودن من يد البروتون (آخر القرن السادس؟) وكانت العاصمة في البدء قصر بامبرا على الشاطىء ، ومن ثم أصبحت ادمبرا مقاماً لملوك برنيشيا .

وفي داخل الجزيرة نجد « المتوسطين » ،كما كان يسميهم المؤرخ الانكليزي ، **بيد الجليل** ، ومرسيا ، ولاندسي بين واش وهامبر .

وبالاجمال نجد ١٦ - ١٨ دولة انغلو - ساكسونية - جوتيه عوضاً عن ٧ دول . وكانت هذه الدول دون أي تضامن قومي ، متعادية فيما بينها. وكان ملوكها يتحرقون لوعة لاخضاع الملوك الآخرين ، وليكونوا ملوكاً سامين ، سواء على الانغلو - ساكسون ام البروتون . ولكن قلما لعبت الممالك الصغيرة دوراً هاماً . وفي آخر القرن السادس هيمنت كنت حسب رأي بيد الجليل ، ولكنها كانت صغيرة لاتستطيع الحفاظ على ما كسبت من ثروة. وبين ٦٥٨ و ٧٩٢ احتدم النزاع بين مرسيا الانكليزية ونورثامبريا الى ان تفوقت مرسيا أخيراً . وفي القرن التاسع هيمنت وسكس وظلت مهيمنة حتى آخر الدور الساكسوني في تاريخ انكلترا

اعتناق الانغلو - ساكسون المسيحية . - لقد قامت الأقوام الجرمانية على انقاض الامبراطورية الرومانية ، ودخلت اليها مسيحية على المذهب الاريوسي ، ثم انضمت الى المذهب الكاثوليكي ، الا ان الفرنجة وحدهم انتقلوا مباشرة من الوثنية الى الكاثوليكية . وفي آخر القرن السادس لم يبق من الوثنيين الا اللومبارديون والانغلو - ساكسون . ويبدو ان البابوية كانت في مشاغل دينية وسياسية مع اولئك ، وكانت على حق في اهمال الآخرين . ولكن غيرة البابا غريغوار الاول لم تساعده على ارجاء صبء وثني الجزيرة زمناً طويلاً .

لقد حفر النزاع على امتلاك الجزيرة بين البروتون والانغلو ـ ساكسون هوة معنوية لم يستطع الدين سدها ، لأن الغزاة الجرمانيين لم يهتموا باعتناق دين المغلوبين ، ورفض البروتون ان ينقذوا روح الغزاة المتوحشين واعتبروهم لصوصاً وأشقياء . وكان اكليروس غاليـا ضعيفاً دون شعلة رسولية ، وغير قادر على تمسيح المناطق الرينانية ، وليس لديه فكرة في رد بريطانيا الجرمانية الى حظيرة الايمان .

داعب هذا المشروع احلام البابا غريغوار الأول منذ السنوات الاولى لحبريته (٥٩٠ ـ ٦٠٣) ، وبدأ بافتـداء شباب كان الانغلو ـ ساكسون يبيعونهم عبيداً ، وعلمهم الدين في أديرة غاليا ليكونوا مبشرين في المستقبل. ولكنه في عام ٥٩٦ عجل الأمور . فقد رجاه الانكليز ، أو على الأقل اقنع نفسه ، بأن يعلمهم الايمان المسيحي وقرر ان يرسل الى الجزيرة جيشاً من المبشرين الرومانيين مؤلفاً من الرهبان ، تحت ادارة **اغستن** . وبعث برسائل توصية الى اكليروس غاليا والى الملكة برونيهو وصية الملكين الحدثين تيبر وتييري فأمنت لهذه الجمعية المبشرة المرور من غاليا ، كما امنت لها في الوقت نفسه مكان انطواء في حال الاخفاق . ولاقى التبشير الكاثوليكي نجاحاً واستطاع اوغستن ان يقيم مقره في دير كنيسة المسيح ، في كانتربوري التي أصبحت عاصمة دينية في انكلترا . وهكذا استطاعت الكنيسة ان تخرج الجزيرة البريطانية من عزلتها وتربطها من جديد بالحضارة الغربية ، وتعمـــل على نشر الوحدة القومية فيها . ويرجع الفضل في ذلك الى تيؤدور الطرسوسي (٦٦٩ ـ ٦٩٠) ،اسقف كانتربوري. وهو من كيليكيا ويعتبر اقوى شخصية عرفتها انكلترا . فقد قوى الكرسي الاسقفي وانشأ عدداً من الاسقفيات . ورفع هذا العدد الى ١٤ اسقفية تهيمن عليها كانتربوري. وعقد مجالس الاساقفة فأخذت تصدر القرارات المتعلقة بنظام الاكليروس

و « حصانة » الأديرة ، وبمى القضاء الكنسي . وبدأت الأسقفيات والأديرة تغنى بفضل هبات الأمراء .

وبعد وفاة تيؤدور بقي على الكنيسة عمل هام وهو تنصير الأرياف وكان هذا العمل منذ قرن خاصاً بالملوك والملكات . وكان الشعب يتبع الملوك ولكنه ظل بربرياً ، لا اخلاقياً ، وثنياً . ولذا وجب أن تشاد في كل قرية أو دومين كنيسة ريفية . وبدأت بريطانيا الانغلو ـ ساكسونية بهذا المشروع الهام في القرن الثامن بعد أن انتهى في غاليا . ولكن الغارات الاسكاندنيافية في القرن التاسع والعاشر حالت درن الوصول به إلى غايته أو أبادت ثمار الجهود الماضية .

غير أن تعلق روما باللاتينية اعاق انتشار المسيحية لأن الكهان سذج ولا يملكون ناصية هذه اللغة الصعبة ، فضلاً عن أن معظم الاكليروس لايعرف منها شيئاً كثيراً وأن المؤمنين لايفقهون الليتورجيا اللاتينية إلا قليلاً .

ولكن الكنيسة الانكليزية أدت خدمات جلى في نشر المسيحية في الاوساط الجرمانية الوثنية ، ونذكر على سبيل المثال الجهود العظيمة التي قام بها القديس ويلّيبرورد والقديس بونيفاس .

النزاع بين الدول الانكليزية . — لم يكن بين الغزاة الجرمانيين وحدة سياسية ، بل انهم اقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع وكانت الحروب مستمرة بينها ، وظلت انكلترا تعاني الكثير بسبب هذه المنازعات والانقسامات الداخلية حتى استطاع **ايغبرت** ملك وسكس (٨٠٢ — ٨٣٩) أن يغزو الجزء الجنوبي من الجزيرة سنة ٨١٥ وأن يهزم مرسيا سنة ٨٢٩ ، وبذلك أصبح سيد انكلترا وصارت وسكس أكبر قوة سياسية عندما بدأت غارات الفايكنغ توالي هجماتها وتتخذ مراكزها في الجزيرة

وتعمل فيها النهب ممهدة لفتحها بكاملها . وجرت بين الغازين وبين ملوك وسكس مواقع كثيرة ، ونخص بالذكر الملك الفرد الكبير ، فقد حاربهم وتغلب عليهم ، غير أن هجماتهم المتوالية والباغتة اضطرته إلى التعاقد واقتسام الجزيرة معهم . ولكن هذا لم يمنع من هجمات جديدة .

الفرد الكبير . — لقد لقب الانكليز الفرد ملك وسكس بلقب «الكبير» وكان هذا اللقب في محله . فلولا ثباتة وشجاعته ومهارته لسقطت انكلترا بكاملها في أيدي الدانيماركيين . ولا يرى كيف استطاعت أن تتخلص من نيرهم بعد أن بقيت وسكس وحدها مركزاً للمقاومة . وبعد الفرد تفوق خلفاؤه وأصبح بامكانهم أن يسيطروا على الاسكانديناقيين في وسط الجزيرة وشمالها .

يضاف إلى ذلك أن الفرد كان مصلحاً.أصلح الجيش واوجد فيه مشاة وانشأ اسطولاً . وكان مشرعاً إلا أن تشريعه قليل ودون أصالة ومستوحى من اسلافه . غير أن فضله الأكبر يظهر بنهوضه بالكنيسة وتنشيط التعليم . أنشأ ديراً للرجال وآخر للنساء . ودعا رجال الدين من الأجانب ، ولكنه بالرغم من كل شيء لم يستطع انعاش الحياة الديرانية.

وحاول نشر الثقافة اللاتينية بعد أن اعترف بعدم وجود احد يعرف اللاتينية ، وأقام في البلاط على نمط الكارولنجيين مدرسة لتعليم أبناء كبار الدولة القراءة باللاتينية والساكسونية .

ولكن هذه الجهود لم تؤت أكلها إلا بعد زمن بعيد . واتخذ الفرد قراراً هاماً وأصيلاً سبق به رجال القارة باربعة أو خمسة قرون . فقد وضع في متناول الاكليركيين والعلمانيين أهم النصوص اللاتينية المعروفة أكثر من غيرها واعمها نفعاً بترجمتها إلى اللغة العامية . وعهد إلى الأسقف ورفرث بترجمة كتاب « محاورات » للقديس غريغوار الكبير، وهو من أعذب

مؤلفات العصر الوسيط . واوحى بترجمة كتاب « المزامير » وفهرس الشهداء الساكسوني .

ولكن معظم الترجمات الساكسونية يرجع إلى الملك نفسه ، رغم أنه لم يتعلم القراءة إلا في الثانية عشرة من عمره ، كما يقول آسير مترجم حياة الملك . وأقدم آثاره مؤلف يضم منتخبات من المزامير ومجموعة أدعية ، وقد سماه انشيريديون ، وكتاب « السلوى بالفلسفة » لمؤلفه الفيلسوف بوئيس ؛ وآخر اثر له في الفصاحة الكتاب المسمى « الأزهار » وهو مجموعة « منتخبات » منتقاة في كتابيها الاولين من كتاب « المناجيات » للقديس اغسطينوس ، والكتاب الثالث يعتمد على رسالة اغسطينوس إلى بولين في رؤيا الله مع اضافات مأخوذة من كتاب « مدينة الله » و « الأخلاق » للقديس غريغوار .

واهتم الفرد بشغف في التاريخ ، فاليه يرجع الفضل في ترجمة « التاريخ العام » لمؤلفه اوروز ، وترجمة (غير منقحة) « تاريخ الكنيسة في المملكة الانكليزية » لمؤلفه بيد الجليل . واوصى بتأليف « التأريخ الساكسوني » الذي حرر نحو ٨٩٢ واريد به سرد تاريخ الجزيرة البريطانية حتى هذا التاريخ . وقد قيل ان معلوماته عن القرن الخامس والسادس عديمة القيمة ، ويمكن الحذر منها من أجل السابع . أما حوليات وسكس فلم تتألف قبل ٦٤٠ وهو تاريخ تأسيس كنيسة ونشستر . وليس بالمستحيل أن يسهم الملك فيها أيضاً : وقد اعتقد بعض الحكماء أنهم عرفوا طابعه في تتمة القصة ، من ٨٩٣ إلى ٨٩٧ .

وفي الحقيقة ، نجد في هذه الترجمات كلها اضافات وملاحظات ثمينة عرض فيها الملك ثمرة تفكيره وتجربته . وقد جد في أن يعطي الكلمات اللاتينية تعابير سكسونية . وكان التاريخ القديم يضايقه أحياناً فلا يتوصل إلى التعبير عن الاسم المزدوج للقناصل الرومانيين .

ونسبت اليه خطأ ترجمة مفقودة للعهد القديم والجديد ، لأن تقواه لا تسمح له بمس نص مقدس. وحرمنا وهم آخر من تحرير الأغاني الشعبية الساكسونية التي حفظها عن ظهر قلب في طفولته .

وبالأجمال ، ان اثر الفرد عظيم وأصيل . فقد تجرأ في وقت مبكر ونشر باللغة العامة مؤلفات ثمينة للاكليركيين ومفيدة للمؤمنين . ونعت بابي الأدب الانكليزي ، ويبدو انه يستحق هذا النعت .

حضارة العصر الانغلي — الساكسوني

المصادر . - يجدر بنا أن نعترف بأن معلوماتنا عن العصر الأنغلي - الساكسوني ناقصة . اما « القوانين » المبكرة التي ترجع إلى حوالي العام ٦٠٠ فلا تتعلق إلا في كنت ثم وسكس . وضاعت قوانين اوفا ملك مرسيا ، ولا يوجد منها شيء مكتوب يتعلق بنورثا مبريا وانغليا الشرقية . ولا نستطيع ان نعرف بهذا المصدر في القرن العاشر الا جنوب انكلترا والجوت والساكسون ، لا الآنغل .

وكذلك المواثيق وعددها نحو ٢٠٠٠ ، فهي لاتستعمل الا للنصف الثاني من القرن الثامن . أما معظم الصكوك التي ترجع إلى عصر سابق فهي مجرد تزييف . يضاف إلى ذلك أن المعلومات النادرة ، التي نجدها في « تاريخ المملكة الآنغلية » لمؤلفة بيد الجليل وفي سير القديسين ، لا تسد العوز إلا قليلاً .

احتلال الأرض واستغلالها — لقد ظن طويلاً أن الغزاة جماعة ديموقراطية محاربة يقودها زعماء منتخبون ، وأن هؤلاء المحاربين تقاسموا الأرض المفتوحة حصصاً متساوية فيما بينهم وفلحوها بسواعدهم . ان هذا

محض تصور وخيال . لقـــد كان الانغلو ـ ساكسون ، كالجرمانيين الآخرين ، يشكلون مجتمعاً ارستقراطياً جـداً . وكان المحاربون ، وهم اناس أحرار ونبلاء ، يتركون إلى الارقاء والمعتوقين عمل الأرض . ولم تكن القرية جماعة اناس أحرار ، بل دومين مالـك يوزع الأرض إلى حصص يعمل فيها الأقنان المتعلقون بالتراب . وكانت الأرض الصالحة للزراعة مقسمة بوجه عـام إلى ثلاث **قطع** او **فصول** وتخصص بالتوالي للزراعة القوية (الحنطة وخاصة الشيلم) والخفيفة (الشوفان أو الخضراوات) ثم تترك بورا . وكال لكل صاحب قطعة أرض حق في حصته في كل من هذه **الفصول** ، والحصة تكون بشكل حقل رقيق متطاول جداً ، شريط حقيقي . وله ايضاً حق التمتع بالمروج والغابات المجاورة بشكل يتناسب مع سعة الارض الزراعية المخصصة له .

ان توزيـع الأرض وزراعتها دوريـاً على ثلاث سنوات والتضامن الشديد في الزراعة ، شيء مألوف في غاليا ، وعلى الأقل في شمالهـا ، وفي جرمانيا وفي العالم السلافي . وهو ولا شك ارث مشترك بين شعوب اوربة القارية غير المتوسطية . ولذا لا مجال للقول بأن الانغلو ـ ساكسون أتوا بهذا النظام من جرمانيا أو انهم أخذوه عن البروتون .

الحياة المدنية والتجارة . ـ كانت اهمية الحياة المدنة ثانويـة . وربما يعتقد بأن السبب في ذلك يرجـع إلى ان الانغلو ـ ساكسون قوم يكرهون المدن والتجارة . لا شيء من هذا البتة ، وكل ما في الأمر ان المدن الرومانية في بريطانيا كانت في الأصل قليلة العدد والسعة، فضلاً عن ان بعضها دمر اثناء الغزو . وكان الانغلو ـ ساكسون يقيمون حيث يجدون سهولة في الموقع وتقاليد تجارية تساعد على نهضة الحياة ، حتى انهم حافظوا على الأسماء البريطانية لهذه المدن . وظلت الحياة المدنية

بدائية . ولكن هذا الوصف ليس خاصاً بانكلترا ، ولنلاحظ ان لندن كانت ، كما في الماضي ، موقعاً هاماً .

وكانت التجارة تتم بصورة طبيعية مع بلاد غاليا على وجه التفضيل . وكانت الصناعة ريفية بخاصة ، ويقوم بها الاقنان على الأملاك الأميرية .

طبقات المجتمع . — نرى في « كنت » الطبقات الاربع الكبرى التي ترى عند الشعوب الجرمانية : الأرقاء ، انصاف الأحرار أو المعتوقون ، الأحرار ، النبلاء . وكانت كل طبقة من هذه الطبقات منقسمة بدورها إلى عدة طبقات ايضاً . وفي « وسكس » وجد انقسام في الطبقات ، بيد أنه لم يكن على شاكلة كنت : فمن ذلك ان طبقة المعتوقين غير موجودة . وقد حلت محلها طبقة البروتون أو (ولش) ، الرعايا ، وهم منقسمون ايضاً إلى طبقات حسب ثروتهم الأرضية .

الحقوق . — لقد كانت النظم الخاصة ، من مدنية أو جزائية ، جرمانية . وكان من الممكن افتداء الاعتداء على الحياة أو الملكية بالمال حسب تقديرات دقيقة ومعقدة تعرفها القوانين ، ولم تكن هذه القوانين ، كالقوانين الفرنجية الميروفنجية ، الا تعريفات تسوية ومصالحة . ويقتضي تضامن الأسرة اسهام اعضائها في دفع الدية سواء دفعها الجاني أو دفعت الى أهــل الضحية . ولا يمكن للفرد ان يتخلى عن حقه الطبيعي دون سماح أهله . وهؤلاء ملزمون بحمايته والاجابة عنه في القضاء . وكانت المرأة والأولاد تحت سلطة رب الاسرة .

النظم السياسية والادارية . تتلخص الدولة في الملكية كما في سائر الممالك البربرية في القارة . بيد أن النظم الملكية تطورت كثيراً . وكان الملوك ، قبل اعتناقهم المسيحية ، زعماء حرب يفتحون البلاد ، ولن تزول

عنهم هذه الصفة قبل آخر القرن العاشر . ولم ينقص التعميد شيئاً من من صفاتهم الحربية بل أوجد واجبات جديدة حيال الكنيسة وتجاه رعاياهم . وكان الهدف من كتابة القوانين تأمين السلام بشكل افضل . وهذا السلام يقع على كاهل الملوك . وتخول مباركة المسح بالزيت الملوك الانغلو - ساكسون اكليلا من المجد . وقد ورث الملوك هذا التقليد عن القديم اليهودي ، وكان الفرنجة يجهلونه قبل الكارولنجيين . وعرف اكثرهم بالتقوى والورع ، ومنهم من كان يحج ليبارك نفسه في روما ويموت فيها .

يضاف الى ذلك ان قوانين بعض الملوك تشهد على حس في الادارة والمنفعة العامة ، وتشبه القوانين الكاروانجية . وليس ببعيد أن تكون الدولة الفرنجية قد اثرت على سياسة الملوك الساكسونيين وتشريعهم في القرن الرابع والقرن العاشر .

ولم تكن سلطة الملك مطلقة ، ولا يمكنه القيام بأمر هام دون رأي « الحكماء » . وكانت الملكية وراثية في الواقع ، ولكن اذا توفي الملك ولم يكن له وريث مباشر ، ووقع الاختيار على أحد اعضاء السلالة ، فعلى هذا ، اذا اراد أن يتولى العرش ، ان يحصل على رضى الحكماء لتأمين سلطته الجديدة ، وفي بعض الظروف المؤلمة تقع على كاهل « الحكماء » مهمة خلع الملك غير الكفوء أو الظالم ، ولا يحق للملك دون موافقتهم التصرف بالأراضي العامة وأموال التاج .

لم يكن مجلس « الحكماء » ليمثل الأمة الساكسونية أو الانكليزية فهو يتألف من عدد قليل من الأشخاص : من اساقفة (وهم قلة في كل مملكة) ، واعضاء من العائلة الملكية ، وموظفي البلاط ، وحكام الاقاليم ، وبعض اتباع الملك . ونادراً ما بلغ عدد اعضاء المجلس

٦٠ شخصاً حتى في القرنين التاسع والعاشر ، ولم يكن من قبل ليضم إلا نصف أو ربع هذا الرقم .

ولم يكن لمجلس « الحكماء » دور انعقاد أو مكان معين . فهو ينعقد حيث ومتى يشاء الملك . وليس له اختصاص معين ومعروف ولكن من المقبول ان يحكم والملك باتفاق وانسجام . وطوراً وصوراً يكون مجلساً ملياً وعائلياً ، ومجلس موالين ، ومع تقدم الزمن أخذ هذا الطابع .

الادارة . — كانت الادارة المركزية ، إذا استطعنا ان نستعمل هذا الاصطلاح الطموح ، يتألف من موظفي المليك ، كما في غاليا .

أما التقسيم الارضي إلى كونتيات فلم يظهر في النصوص القديمة . وكان المعنى العام للكونتية يدل على الابرشية .

وتدل هذه الابرشية في الغالب على مملكة صغيرة أو مملكة أصغر من هذه ، ثم على دائرة تقوم حول مدينة محصنة أو موقع اقيم لصد هجوم الدانيماركيين .

وكان يعهد بادارة كل كونتية إلى حاكم وهو في الغالب من دم ملكي ، ويسميه الملك و « الحكماء » ، ومنصبه في الواقع وراثي . وتعقد المحكمة جلستها مرتين كل عام ويتألف أعضاؤها من النبلاء ، وربما من اغنى احرار الكونتية . وفي القرن العاشر قبل حضور ١٢ تابعاً من شيوخ الحكماء في المحكمة ، مثل حضور ١٢ حاكماً في المحكمة الاقليمية (المااللوس) في التشريع الكارولنجي . وفي العصر نفسه كانت رئاسة المحكمة خاصة بموظف جديد وهو **الشريف** .

ومنذ ذلك الحين أخذ الملوك يغدقون الحصانات على الكنائس ، ولم يعد الناس ، وحتى الأحرار منهم ، المقيمون على الاملاك المحصنة خاضعين ،

كما في غاليا ، لسلطة قضاء المحكمة الاقليمية للكونتية . وكان « صحب » الملك يتمتعون بحصانة قضائية في الأراضي التي يجود بها عليهم كما هي حال الاتباع الخاصين (فاسي دومينيسي) في القارة .

وكانت الكونتية مقسمة إلى **دوائر** (المئويات) وتختلف اسماؤها حسب المناطق . ولكل دائرة مجلسها القضائي . وفي الحقيقة ان تنظيم الدوائر لم يعرف إلا في آخر القرن العاشر وفي القرن الحادي عشر .

وتنقسم الدوائر إلى دوائر اصغر منها تسمى (**العشريات**) . **وهذا** التقسيم خاص بجنوب انكلترا وتنظيمه غير معروف جيداً .

وكان **نظام المالية** غامضاً ، ويبدو أنه لم توجد ضريبة عقارية أو شخصية قبل الضريبة التي تدفع للدانيماركيين . غير أن الاعفاء من الخدمة العسكرية ، كما في فرنسا ، كان يعوض ببدل نقدي يفرضه الشريف .

كان الملك يعيش من ملكه الخاص . ولكن ، على خلاف القارة ، لايوجد هوية بين الملك الخاص والأرض العامة . لأن الملك لايستطيع ان يتصرف بكل منها دون رأي « الحكماء » . غير أن الملكية بدأت تتحرر من هذا الاشراف منذ عهد الفرد الكبير .

وكان مدير الأملاك الملكية في كل دائرة يسمى **الشريف** وهو يعادل (الناظر) الميروفنجي والغاشتالد اللومباردي . ووظيفته الاساسية استغلال الدومين وجباية وارادته . وكان الملك يستخدم الشريف في رئاسة محكمة الكونتية ويسمي وحده هذا الشريف، ووظيفته غير وراثية ، وهو الموظف الوحيد في الدولة الانغلو — ساكسونية .

وكما في الدول الرومانية — الجرمانية في القارة ، كان كل رجل حر ملزماً بالخدمة العسكرية على حسابه . وهذه الخدمة هي أحد واجباته

الثلاثة تجاه الدولة ، والواجبان الآخران هما اصلاح الجسور والعناية بالحصون . ويؤلف تابعو الملك قوة الجيش ، كما هي حال الفامي دومينيسي في فرنسا . ومن الممكن متابعة هذه الموازاة بتفاصيلها مع النظم العسكرية الكارولنجية .

النزوع الى الاقطاعية . - وكما كانت عليه الحال في فرنسا ، يرى في المجتمع تحويل تدريجي بطيء ولكنه قوي بروح التبعية

وحافظ الملوك الانغلو - ساكسون ، كسائر الأمراء الجرمانيين ، على حاشيتهم المسلحة و « صحبهم » . وكما حصل في فرنسا تبدل في المفردات فقد زالت في القرن التاسع كلمة « صاحب » وحل محلها تابع ، وهي مطابقة ، تماماً للتابع الكارولنجي .

ومن الطبيعي أن يكون للحكام ، الذين يأتمرون بأمر الملك ، مخلصون ومريدون ، ومثل ذلك للاساقفة والآباء . وآل الأمر إلى أن اعتبر كل رجل نبيل أو غني مخلصاً للملك أو لكبير . وأصبح مجلس « الحكماء » مجلس موالين للملك حتى ان خلف الفرد الكبير ، وهو ادوار الشيخ ، طلب من الحكماء أن يقسموا يمين التبعية .

ويبدو في الأقاليم أن المحاكم في القرن العاشر أصبحت تتألف من الحكماء المحليين ، كما هي الحال في فرنسا في العصر نفسه في الماللوس . وقد وقعت هذه المحاكم في حوزة الكبار .

وعرفت انكلترا ايضاً هذه الفئة من فقراء الناس الأحرار الذين يعترفون بسيادة سيد عليهم ليطعمهم ، حتى ان أقدم القوانين تدل على ان هذا الطاعم إذا قتل ، استطاع سيده ان يقبض دية (٦ شلنات) . ومن الجدير بالذكر ان « الأمير » في انكلترا يسمى « لورد » (هلافورد) أي « مطعم الخبز » .

وكما كانت حال الملك الفرنجي ، كان الملك الساكسوني يحذر الرجل الحر الفقير . فقد تخلى عنه إلى سلطة المحصنين القضائية والتابعين «المالكين». وإذا وجد أحد يعمل على دومين (وقد أصبح يسمى مانوار في العاشر والحادي عشر) وقع تحت السلطة الاميرية التي يمارسها بلاط المانوار . وقد فرض نظام التبعية على كل رجل حر دون أمير أن يتبع اميراً ، تحت طائلة الخروج عن القانون . وكان الملك دون قوة ضابطة (شرطة) ، ولذا كان يلجأ إلى الامارة لسلامة الأمن العام ومثول الناس المتشردين أمام المحاكم .

وكان الملوك الانغلو - ساكسون ، كالملوك الفرنجة ، يهبون أراضي لتابعيهم . وكما هي الحال في غاليا كانت هذه الهبات بخاصة ملكية تامة . وهذه الصفة التمليكية للمال المتنازل عنه لايحصل عليها إلا بموجب صك مكتوب باسم الملك وموافقة الحكماء . وعندئذ تصبح الأرض ملكاً يستطيع المستفيد التصرف بها حسب هواه .

ولا يسعنا إلا ان تؤكد ، في الوقت الذي انتهى فيه الدور الانغلو - ساكسوني ، بان الاقطاع الحقيقي قد تألف في انكلترا . ولم يكن هذا البلد دولة اقطاعية بعد ، بل هو على الأقل دولة دون « طاعة » . ولكن الأرض تهيأت لتستقبل دون جهد النظام الاقطاعي الفرنسي الذي سيدخله النورمانديون .

وصفوة القول ان نظم انكلترا الساكسونية تبدي تماثلاً كثيراً مع انظمة غاليا الفرنجية .

ولا شك في ان هذا التماثل يتضح خاصة بالتشابه العقاري والاقتصادي والاجتماعي والسياسي . ومع هذا فمن المسموح ان نرتاب ، في تفاصيل التشابه ، بتأثير غاليا المتقدمة على الجزيرة المجاورة .

الحالة المعنوية . – ورغم المسيحية السطحية ظل الانغلو - ساكسون شعباً بربرياً فظاً لا أخلاق له ، حتى ان الجامع وطقوس التوبات لاتترك مجالاً للوهم في هذا الموضوع . فقد حافظت زمنـــاً طويلاً على تعامل تجارة الرق المسيحي الذي الغي على القارة . وحسب قول الانكليزي القديس بونيفاس : لايوجد مدينة في ايطاليا وغاليا وجرمانيا الا وفيها بغايا وسمسارات انكليزيات . وكان ادمان السكر عند الانكليز يتجاوز مثيله في البلاد الأخرى . ومن الأفضل الا نتكلم عن اخلاقهم .

الادب . – غير أن الانكليز كانوا يبدون مؤهلات غير عادية في الآداب . فقد كان الشعب يحب الغناء مصحوباً بالعود ، ومغامرات الابطال والملوك لاتزدري الالهام الشعبي .

ان بعض بقايا هذه المؤلفات ، وبخاصة **البوولف** المنقول بشكل يرجع تاريخه إلى القرن الثامن تقريباً ، ولكنه حرر في البدء على القارة حوالي القرن الرابع – الخامس عندما كان الاجداد يناضلون ضد الدانيمارك والسويديين والغوط ، تدل على عاطفة حماسية ، وكذلك مقطوعات **ولدر** في معركة فنسبوري .

وعندما تحضر الانكليز اسهموا اسهاماً ممتازاً في الأدب المسيحي . فقد وجدت بقايا العلم القديم ملجأ في المدارس الأسقفية في كانتربوري ويورك وفي مدارس الشمال الديرية ، ريبون ، جارو ، ورماوث .

لقد ثقف الانغلو – ساكسون ، من فرعي المعرفة القديمه : **الثالوث** (النحو ، البلاغة ، المنطق) و**الرابوع** (الحساب ، الهندسة ، **الفلك** ، الموسيقي) الثالوث واهتموا في هذا بالنحو .

ونذكر من المهتمين بالآداب **آلدهلم** (المتوفى عام ٧٠٩) اسقف

شيربورن (في ويلتشاير) . وهو أول انغلو — ساكسوني ترك اسماً في في الأدب اللاتيني . وبيد الجليل (المتوفى عام ٧٣٥ م) وكان تأثيره عميقاً في اوربة القارية وفي انكلترا ، وخاصة بكتبه في تاريخ الحوادث زمنياً ، وسير القديسين ، وتفاسيره ، اكثر من مؤلفه في « تاريخ المملكة الانغلية الكنسي » ، وهو أفضل مؤلف تاريخي لهذه الأزمنة بعد تاريخ غريغوار تور .

وعندما اراد شارلومان اصلاح التعليم اللاتيني في غاليا ، بعد أن سقط إلى الحضيض ، وجد لهذه النهضة افضل مساعديه في تلميذ مدرسة يورك وهو الانكليزي آلكوين .

الفن . — ظهرت العاطفة الفنية عند الانغلو — ساكسون في التزيين وفي هذا المجال ايضاً لم يؤت بشيء جديد كل الجدة ، لأن طرق تزيين الشكلات ، والدبابيس ، وصفائح الأسلحة والمواعين (حلزون ، وحيوانات غريبة ، ونقوش متشابكة ، زخارف زوايا) هي من أصل روماني — بيزنطي أو ايراني ، بل ومصري . . وكذلك الحال في الصياغة ذات الحواجز . وعندما يظهر الالهام جرمانياً لا يعبر عن شيء يميز نوعياً الانغلو — ساكسون عن غيرهم من الجرمن . ومن بين غزاة بريطانيا الذين اظهروا كثيراً من الذوق والمهارة كان جوت كنت وجزيرة وايت . وان قربهم من القارة يوضح ولا شك الوضع البارز الذي يحتلونه في هذا المجال . ففي الصياغة ذات الحواجز خاصة ، انتج فنانو كنت تحفاً تتجاوز في الكمال نماذجها في غاليا الميروفنجية .

وعندما اعتنق الانغلو — ساكسون المسيحية تعلموا الكتابة ونسخ النصوص المقدسة . واشتهر في ذلك بخاصة مشغل ليند سفارن (الجزيرة

المقدسة) في نور ثامبريا . فقد نشر استعمال الخط الثلثي والرقعي العزيزين على الرهبان السكوتيين .

ولزخرفة المخطوطات (العناوين والبدايات) فاق الانغلو ساكسون في القرنين السابع والثامن الكتاب القاريين ، ولم يكن لهم في زخارفهم التي لا تقلد من منافسين الا اساتذتهم الايرلنديون .

أما ما يتعلق بالبناء فان بقايا الكنائس في كانتربوري وسيلشستر فيمكن الصعود بها إلى بداية القرن السابع ، وكذا مدافن الكنائس يمكن العودة بتاريخها إلى آخر هذا القرن . غير أن هذه الرسوم والأطلال تهم علم الآثار اكثر مما تهم تاريخ الفن .

وجود انكلترا . — ونتساءل أخيراً هل كانت انكلترا موجودة ؟ أو بتعبير آخر هل بالامكان أن نرى وجداناً جماعياً ، ولو كان بدائياً ، وعاطفة قومية في حال التشكل ؟

حقاً لا حتى آخر القرن التاسع . لأن المنازعات الطويلة ، خلال القرون بين الدول الصغيرة الجوتية والانغلية والساكسونية ، تركت احقاداً شديدة . ثم ان هذه الدول ردت إلى ثلاث فئات : وسكس ، مرسيا نورثامبريا ، بينما الممالك الأخرى الصغيرة جداً (كنت ، سوسكس ، سري ، اسكس ، انغليا الشرقية الخ ..) كانت تابعة . ويبدو ان الانصهار بين هذه الفئات الثلاث كان مستحيلاً ، وحتى في القرنين الثامن والتاسع . فقد كانت الواحدة منها تستطيع أن تسيطر ، ولكنها لا تتمثل الأخريين .

وقد استطاعت محن الغزو الدانياركي الفظيعة ان تسهم في توحيدها في عاطفة مقاومة الاسكاندينافيين والبرابرة والوثنيين .

وفي القرن العاشر نشأت انكلترا بالرغم من وجود نعرة اقليمية

قوية في الوسط وخاصة في الشمال . وإذا لم تكن الحال كذلك ، فيجب الا ينسب الاخفاق فقط إلى عدم جدارة الملوك الساكسونيين في النصف الثاني من القرن العاشر بل بخاصة إلى سبب اعمق وهو جمود الشعب الانكليزي .

لقد كانت لا مبالاة عامة الشعب ظاهرة في الجزيرة كما في غاليا واسبانيا وايطاليا . ففي كل هذه البلاد كانت الملكية والارستقراطية والاكليروس الأعلى هي المعتبرة وحدها في المجتمع ، ولا يوجد رابط وطني عند اكثرية الشعب . ولذا فان فاتحين قلائل بعد نصر أو نصرين يمكنهم ان يستولوا على بلد كبير دون أن يلقوا مقاومة رصينة من سواد الشعب . ان هذه اللامبالاة المخيفة هي التي ستسلم انكلترا اولاً إلى نورمانديي الدانيمارك ، ومن بعد إلى نورمانديي فرنسا ، وستؤخر إلى أجل طويل تفتح العاطفة القومية الانكليزية .

ايرلنده

الموقع والتاريخ السياسي . — لقد عاشت الجزيرة الصغرى حتى القرن الخامس على هامش العالم القديم ، ولم يكن ذلك بسبب جهل الملاحين والجغرافيين القدامى بها ، فقد عرفها الفينيقيون والملاحون الاغريق والغاليون والايبريون ، بل لان ما نقله سترابون وديودور الصقلي عن السكان ، مع ما نسبا اليهم من فظاعة واخلاق وحشية ، يبرهن على ان شعب هذه الجزيرة لايعرف عنه شيء .

ينتسب شعب الجزيرة إلى العرق السلتي ولكنه يؤلف في هذا العرق جماعة وحدها : فهو يتقارب من الوجهة الانسانية من النموذج الشمالي : القامة عالية كقامة جرمن الشمال ، والجمجمة مسطحة ، والشعر كستناوي

فاتح ، والعيون رمادية . ويتكلمون اللغة الغائلية ، وهي تختلف كثيراً عن المجموعة السلتية القارية (السلتية والبجيكية) والبريتونية (الغالية والقرنية والبروتونية) . وبالاجمال ان اختلاف الايرلندي عن الجماعة السلتية الأخرى يدعنا نقبل بان الغائليين انفصلوا عن سلتيي القارة الآخرين وذهبوا إلى الجزر البريطانية في عصر غابر ربما يرجع إلى القرنين الثاني عشر والخامس عشر قبل الميلاد بل واكثر من ذلك .

ولم يعرف تاريخهم مع شيء من التفصيل الا منذ القرن الخامس الميلادي ، عندما عرفوا بفضل اعتناقهم المسيحية الكتابة اللاتينية وكتب تواريخ الاعياد المتنقلة وأصبح بامكانهم الاشارة إلى التعاقب الزمني للاحداث التاريخية والجوية . اما القصص الحماسية الكثيرة التي حوفظ عليها فتكشف عن لغة غير سابقة للقرن التاسع الميلادي . وأما المعلومات التي تتضمنها عن الملوك والابطال فهي اسطورية أكثر منها تاريخية .

وعندما فتح الرومانيون جزيرة بريطانيا كاد الفتح يوصل التوغل اللاتيني الى الجزيرة الشقيقة . ففي العام ٨٢ كان لدى القائد الروماني آغريكولا جنود في الغرب تنتظر المناسبة للتدخل . وقد طرد احد الملوك الصغار بحرب داخلية فاستقبله اغريكولا صديقاً واحتفظ به ليستخدمه متى سنحت الفرصة . ولكن الحكومة كانت ترى ان الامبراطورية قد توسعت بالنسبة لقواها فتركت هذه الفرصة تفوت من يدها .

وبعد ثلاثة قرون ، كان على بريطانيا المرومنة والمستقلة (كاليدونيا) أن تتحمل اعمال النهب التي يقوم بها القرصان الايرلنديون الذين بدىء بتسميتهم سكوتي . وفي آخر القرن الرابع سقط معظم القسم الغربي من الجزيرة في سلطة الايرلنديين فأتى بريطانيون من الشمال ، من غودودين وخلصوا في بداية القرن الخامس البلاد التي تسمى في المستقبل بلاد الغال

من السكوتيين . ولم يتماسك هؤلاء الا في الشمال الغربي في المنطقة التي تحتفظ اليوم باسمهم القديم وهي كونتية آرجيل (البلاد الايرلندية) .

غير أن اعتناق ايرلنده المسيحية ، دون أن تزيل الفوضى السائدة فيها ، جذب الجزيرة الصغيرة في فلك الثقافة الاغريقية — اللاتينية . وكان ذلك ابتداء من ٤٣٢ من عمل البروتوني باتريسيوس (القديس باتريك) الذي انتصر على مقاومة طبقة الدرويديين (كهان الغاليين) واستطاع ان يؤسس كرسياً اسقفياً في ارماغ (٤٤٤) وتوفي نحو ٤٦١ . وتغطت ايرلندا بالاديرة — الاسقفيات . وقد انصرف السكوتيون المسيحيون الجدد بشغف لدراسة الآداب اللاتينية والاغريقية . وعندما انهارت الثقافة القديمة في القارة وجدت ملجأ لها في الجزيرة الغائمة الضائعة في اقصى اوربة .

ان تاريخ ايرلنده السياسي لا يمكن ان يعرض بتفصيل في التاريخ العام . فقد صنع من حروب لاتنقطع بين قبيلة وقبيلة ، وملك وملك ، ومليكات ومليكات ، وفي الحقيقة ليس لهذا البلد وحدة حقيقية ، بل هو مقسم بالتقليد إلى خمس ممالك : اولتونا (اولستر) لاجينيا (لاينستر) كوناسيا (كونوت) ؛ مومّونيا (مونستر) . ومع هذا فقد وجد ملك اعترف به الآخرون ملكاً أعلى (آرد — دي) وأقام في حصن تيمور (تارا) على حدود لا ينستر واولستر . وهناك تواتر يقول بأن ملك الملوك ، تواثال ، عاش في آخر القرن الأول وشكل للملك الأعلى دوميناً ملكياً .

غير أن نظام الآرد — ري لم يأت بالوحدة بل وسع الشر وآثار رغبة الحصول على هذا المنصب الأسمى عند الملوك الخمسة .

وكانت كل مملكة بدورها مقسمة إلى قبائل يحكم كل واحدة منها شخص يسمى ملك . ويوجد من هؤلاء الملوك ٢٠٠ ملك . وتنقسم كل

قبيلة إلى بطون متحاسدة . وأخيراً ان نظام الوراثة لم يأخذ بنظام البكورة . وبالاجمال لقد كانت الفوضى الدموية مرضاً عضالاً وحالة دائمة في ايرلنده عبر العصور .

وقد وجد الاسكاندينافيون الأرض مهيأة للنهب واقامة مؤسسات دائمة في هذه الجزيرة التي مزقتها الاحقاد بين الأمراء وبين القبائل وليس لها وحدة سياسية حقيقة .

ظهر الاسكاندينافيون في العام ٧٩٥ واجتاحوا جزيرة ريشرو (لامبي اليوم) وهي الى الشمال قليلاً من دبلن ، فردوا على اعقابهم أكثر من مرة ، وانتقلت اخبارهم إلى بلاط شارلومان ، وعرفت الجزيرة الهدوء احدى عشرة سنة . وفي العام ٨٢٣ عاود القرصان هجوماتهم ولم يوفروا شيئاً بفظاعتهم وكرههم المسيحية . وكانوا يحرقون الكنائس ويقتلون الاكليروس ، واضطر الرهبان السكوتيون إلى الهجرة إلى القارة ، وخاصة إلى غاليا ، مع بقايا القديسين والكتب والمخطوطات القديمة الثمينة .

وابتداء من العام ٨٣٤ انقلبت القرصنة الى فتح منظم . وقاوم الايرلنديون ولاقوا بعض النجاح ، ولكنه نجاح جزئي لأن المقاومة لم تكن محكمة .

ثم هاجمتهم موجة أخرى من الاعداء . وحتى منتصف القرن التاسع كان المهاجمون نورفيجيون ويسميهم الايرلنديون (البيض الوثنيين) وقد اتوا من جزر ايكوسيا أو من النورفيج (بلاد البحيرات) مباشرة . وفي العام ٨٥١ ظهر الدانيماركيون (السود الوثنيون) . ولو انهم ضموا هجومهم لهجوم النورفيجيين لضاعت ايرلنده واصبحت اسكاندينافية . ولكن المقاومين الجدد فكروا في البدء أن يضعوا أيديهم في الموانيء على أيدي

(البيض الوثنيين) . وقامت منازعات فظيعة بين الدانياركيين والنورفيجيين غلب فيها هؤلاء الأخيرون .

أما الملوك الاعلون فقد أوقفوا الدانياركيين ولزم هؤلاء الصمت من ٨٧٥ الى ٩١٦ في الموانيء وهدأت ايرلنده نسبياً .

ولقد كان من الممكن لايرلنده ان تتحرر من سيطرة الاجانب لولا منازعاتها الداخلية ، حتى ان بعض المليكات كانوا لايتواتون عن التحالف مع الأجانب . ومن جهة ثانية ، ان اقامة الدانياركيين في الموانى ساعدت على تحضيرهم ، وبدأوا باعتناق المسيحية ، وعقدت عقود زواج بين الأمراء من ابناء البلاد والأمراء الأجانب .

ومع الزمن عاد الحظ الى الايرلنديين ، ومرت منذ العام ١٠٠٢ اثنتا عشرة سنة مجيدة على تاريخ الجزيرة العجوز شيدت فيها الكنائس والحصون والطرق والجسور بفضل حكم الملك بريان وكان بلاطه ملتقى المليكات السكوتيين وملوك البحر من دانياركيين ونورفيجيين . ورغم المحاولات العديدة التي كان الايرلنديون يقومون بها لطرد الاسكاندينافيين من بلادهم ظل الدانياركيون والنورفيجيون سادة الموانى ، غير انهم بدلوا القرصنة بالتجارة ، ولم يبق غزو جديد . ولكن هذا الحادث لم يحل دون المنازعات الداخلية لأنها عادت بأشد مما كانت عليه في السابق . وفي القرن الثاني عشر كانت سبباً في تدخل الانغلو — النورمانديين وضياع استقلال ايرلنده .

النظم والحضارة . — يعتمد المجتمع في ايرلنده على قرابة الذكور و « الاسرة » ، بالمعنى العريض القبيلة ، تعني كل من يتحدرون أو يعتبرون متحدرين من جد واحد ويحملون اسمه مسبوقاً بكلمة وي ui (اليوم O') وهي بمعنى آل في لغتنا العربية .

والمجتمع مبني على نظام التسلسل ، يأتي في الرأس المقدمون ويضمون **الملوك** و **المليكات** ، و**النبلاء** ملاك الأرض ، ويعتبرون حسب عدد مزارعيهم احراراً وغير احرار . ثم يأتي بعد ذلك **ملاك قطعان الابقار**، و **الاحرار** وهم غير مالكين ، ويمكن ان يلتبس بينهم وبين المتصرفين الأحرار، ويختلف عمل هؤلاء ووضعهم الاجتماعي قليلاً عن الأقنان. وفي آخر السلم الاجتماعي يأتي **الرقيق** كأن يكون أسير حرب أو محكوماً بالاعدام أو مجرماً .

وكان لتربية الحيوانات أهميـــة اجتماعية خاصة ، لأن بنية الجزيرة الطبيعية والمناخية منافية لزراعة الحبوب ولكنها ملائمة لتربية الحيوانات . وهذا مايفسر لنا طرق استغلال الأرض والبناء الاجتماعي بل وحتى الحياة السياسية . ان تملك الأرض يقدر بالحيوانات التي يمكن رعيها فيها . فالرجل الغني هو من يملك حيوانات . ومن لا أرض ولا قطيع له يكون تحت رحمة المقدم الذي يؤجره الحيوان ويطلب منه اتاوات باهظة . والخلافات بين البطون والقبائل ترجع في اسبابها إلى غزو القطعان ونهبها . وظلت البقرة زمناً طويلاً وحدة للنقد في المعاملات التجارية .

وفي مضمار **الحقوق** بقيت ايرلنده عتيقة . فقد حافظت على حق الأخذ بالثأر مع ما يعدله من دية : وذلك بان يدفـــع الجاني إلى الضحية أو إلى العائلة « ثمن الوجه » أي الشرف . وتتناسب التعريفة مع الظروف الاجتماعية للأطراف المعنية ، وتنظمها هيئة قضاة أو حكام وخبراء . ولا بد من الاشارة إلى تعامل يوجد أيضاً في الهند والصين : وهو ان الضعيف الذي ييأس من عدل القوي يصوم أمام بيت هذا الأخير فاذا مات ، فرضت روحه اقبح الويلات على الرجل الظالم .

ولنشر أخيراً إلى القرابة الصورية : وهي ان الاولاد من الجنسين عندما يكونون في سن منخفضة يمكن ان يرسلوا إلى عضو من القبيلة يتكفل بتربيتهم ، الأولاد حتى السابعة عشرة ، والبنات حتى الرابعة عشرة ، وبعد ذلك يعودون إلى عائلتهم . والواجبات المتبادلة بين الاب المتبني والأطفال تنظم بكل دقة زائدة .

اللغة والأدب . — تتصف اللغة السلتية الايرلندية بطابعها القديم البالي المحافظ على الاعراب ونظام اللفظ المعقد ، وبخاصة في اللغة الايرلندية القديمة ، لغة القرنين الثامن والتاسع . والخط فيها تقليدي ولا صلة بين الكتابة واللفظ .

وبالرغم من التأثيرات اللاتينية ، حتى القرن الخامس ، حافظت ايرلنده على أدب غني وأصيل ، ونقلت الينا قصصاً حماسية وهي عبارة عن ملاحم غريبة منثورة مع بعض مقطوعات شعرية . وكان السحر والمحرمات روح هذه القصص ، وابطالها آلهة أكثر منهم بشراً . وظهور الجنيات الآتيات من « ارض الخلود » ليجذبن اليهن الابطال ، هو طابع آخر لهذه القصص .وكان الشعر الغنائي في الغالب هجائياً يظهر فيه الطابع السحري للرقية . والويل لمن يسبب لنفسه غضب الشعراء المتهنين .

الفن . — يتمثل المجلوب الأصيل ، الذي اتحفت فيه ايرلنده الفن العام ، بتزيين المخطوطات .

لقد اعتنقت ايرلنده المسيحية في القرن الخامس ، وجدّت في نسخ النصوص القديمة وخاصة نصوص الأدب المقدس . ولما كانت هذه النصوص منسوخة في الغالب بالخط الثلثي أو الرقعي فقد استعمل الرهبان السكوتيون خاصة هذين النوعين من الكتابة اللاتينية ، ونقلوا هذا الذوق إلى الآنغل في الجزيرة البريطانية .

وقد استعان النساخ لتزيين المخطوطات بالزخرفة المنحنيـة والتزيينات الحيوانية دون النباتية ، والزخارف المتشابكة والزخارف ذات الزوايا . وقد أخذت عناصر هذا التزيين عن الشرق ، عن القديم ، وعن التقاليد المحلية القديمة جداً . غير ان الفنانين ، في استعمال هذه الزخارف التزيينية وخاصة الحيوانات الغريبة ، برهنوا على خصب خيالٍ لاينضب . وفي اختيار الالوان اجتمعت الجرأة والذوق الاكيد . وكان الفنـــانون يتذوقون التجانس والوضوح والاشراق والمنطق الداخلي للاشكال ، ويختلفون في ذلك عن الجرمن ، لأن الفن الجرماني ينزع طوعـاً الى اللبس والغموض ، ويرى فيها عنصراً للجمال ، ويتمسك بما يحير الفكر ، وباذلال كل ما يبحث فينا عن الفهم ، ويحتقر الوضوح . وان الكيفية ، التي يعالج فيها هذا الفنان أو ذاك الأشكال الحيوانية ، تدل على هذا الاختلاف . فالفنان الايرلندي لايستعمل إلا الحيوانات ، ويرتب لها المنظر الذي ابتكره بنفسه . فهو يدفع حيواناتٍ خاصة به ، وله قواعده التي لايخرج عليها ، وإذا لم تكن حيوانات من العالم الحقيقي ، فهي على الأقل عظيمة ، ومن الممكن أن يوجد فيها علم حيوان من تشابك حيواني ايرلندي ، ونباتاً من زخرفته النباتية . أما الجرماني ، فعلى العكس ، يأخـــذ حيواناً قويم البنية ، ويجد في تخريبه ، ويريد أن يمحو كل أثر للبنية ، ويخلط كل جهد لايجاد شكل منظم . والايرلندي يحب التعقيد، ولكنه يحرص على انشائه من ترتيب عناصر واضحة تماماً . أما الجرماني فيبحث عن الظلام والابهام ، وبذا يصل في الغالب إلى الارهاب .

وفي **البناء** تعرف ايرلنده بأبراجها المستديرة الضيقة المزينة بمخروط والمنثورة في الريف . وفي **النحت** بصلبان المقابر أو الطرق التي تحمل اكليلاً مزيناً في نقطة التقاء الذراعين .

ايكوسيا (سكوتلاندا)

تشكلت مملكة ايكوسيا باتحاد أربعة عروق مختلفة تحت سلطـــة واحدة . وهـذه العروق هي : البيكت ، السكوت ، البروتون ، الانكليز ، دون ذكر الاسكاندينافيين الذين اقاموا في القرن التاسع في الجزر وعلى الشواطىء وسكنوا القسم الشمالي من بريطانيا فيما وراء نهر التويد الذي يصب في بحر الشمال وخليج سولوي على بحر ايرلنده .

وبين هذه الشعوب كان السكوتي يمتاز بتفوق محسوس منذ منتصف القرن الحادي عشر . فقد فرض اسمه **سكوتي** (ايسكوت ، ايكوسي) على الشعوب الأخرى ، ولكنه كان اجنبيـاً : اتى من الجزيرة الصغرى ايرلنده أو **سكوتيا** ، وحوالي القرن الحـادي عشر أعطى اسم الجزيرة الصغرى خاصة على القسم الشمالي من الجزيرة العظمى ، بريطانيا .

وكانت هذه النتيجة غير منتظرة ، لأن الشعب ، الذي ساعده الحظ على انشاء مملكة الشمال ، كان شعب البيكت الذي زال اسمه ايضاً في القرن الثاني عشر . ويؤلف البيكت اقدم عرق في الجزيرة العظمى . ويمثلون **البريتاني** الذين عرفهم الملاحون القدامى قبل عصرنا المسيحي بعدة قرون وما زال يوجد منهم بقايا في الجزيرة الصغرى وخاصـــة في الشرق في اولستر و لاينستر .

وعندما وجه القائد اغريكولا الحملة الرومانية الى الجزيرة العظمى في العام ٨٤ لم يظهروا . ولا يعرف المؤرخ تاسيت خصومـــاً للرومان في شمال فيرث فورث الا البروتون الذين يسمون بصورة خاصة « الكالدونيين » . فهل هذا يعني أن البيكت بدلوا اسمهم ؟ هذا ممكن . ولكن من الممكن ايضاً أن يكونوا سكنوا « الاراضي العليا » (هايغلاندز) في الشمال الغربي حيث لم يوغل الرومانيون .

غير ان الامبراطورية بعد الاعياء لم تقم بفتح في شمال فيرث فورث ، واكتفت بسد الطريق في وجه برابرة الشمال بخط تحصينات ثم بسور محصن يذهب من نهر كلايد إلى فورث . ولقدشاد الامبراطورانطونانهذا السور حوالي العام ١٤٠ م ولم يكن متيناً ولذا هجر حوالي آخر حكم كومود . وترك المجال حراً أمام هجمات الاعداء حتى سور هادريان (من التاين إلى خليج سولوي) . وقد أفاد البيكت من ذلك وظهر اسمهم لأول مرة في العام ٢٩٦ م . وفي القرن الرابع كانوا افظع خصم للسيطرة الرومانية ، واكثر خطراً في ذلك العصر من الساكسون .

وفي العام ٣٦٧ م لزمت كل قوة تيؤدوس ، أب الامبراطور في المستقبل ، لتحافظ الامبراطورية على بريطانيا . وفي القرن الخامس ، وبعد انسحاب آخر الجيوش التي كانت في خدمة الامبراطورية ، لم يبق للبروتون المترومنين الا الاعتماد على انفسهم . وقد ظفروا على البيكت والساكسون المتألبين في ٤٢٩ م في معركة « اللولويا » في مكان غير معروف وربما كان حوالي سانت البانس في شمال لندن .

غير ان توسع البيكت توقف باقامة برابرة آخرين ، الانكليز ، على طول شواطىء بحر الشمال ، وسكوت ايرلنده على شواطىء البان (ايكوسيا) الغربية في كانتاير . وأخيراً ، إذا شئنا الا نتكلم عن الكالدونيين ، واحتل البيكت كل البلاد في شمال خليج فورث ومصب نهر كلايد ، فقد لاقوا في عصر مجهول ، ضغط اولئك البروتون الذين ظلوا في شمال سور هادريان وكانوا مستقلين عن روما .

لقد اقام البروتون بين التاين والفورث في المنطقة التي احتفظت زمناً باسمهم : غودودين . ثم انتزع ان بروتون آخرون الكلايد من البيكت

واسسوا مملكة تسمى (صخرة كلايد) وتسمى أيضاً (حصن البروتون) وكانت العاصمة . ثم دحر البيكت في هذه المنطقة في غالووي" وظلوا خاضعين للبروتون .

وبالمقابل،في القرن السادس والسابع طرد انكليز برنيسيا او اخضعوا بروتون غودودين وتوصلوا حتى خليج فورث .

وأقــام البيكت في شمال هذا الخليج وظلوا سادة أعظم جزء مما سيكون ايكوسيا ، وتوزعوا في القرن السابع إلى سبع ممـــالك صغيرة .

وفي منتصف القرن السابــع سحق البيكت السكوت وسيطروا على القسم الأكبر من ايكوسيا الحاليـة ، وأصبحت سكون" (بالقرب من برث) عاصمة المملكة المتحدة من هذه السبعة أقاليم .

وفي ذلك العصر ، لم يكن البيكت همجاً تمامـــاً . وبعد محاولة تنصير غامضة على يد القديس نينيان لدى البيكت في غالووي" ، هـذه المحاولة التي لايمكن تأريخها بصحة (القرن الرابع أو الخامس) استؤنف عمل التنصير على يد السكوتي كولومبا حوالي ٥٦٢ ، وقضى هذا ٣٤ سنة في التبشير واشادة الكنائس وامتد تأثـــيره أيضاً إلى الجزر المجاورة للشاطىء .

وكان كل شيء يدعو إلى التفاؤل بأن مملكة البيكت ستكون نواة لتشكل ايكوسيا في المستقبل . ولكن الحـــال لم تكن كذلك لأن هذا الدور في القرن التاسع عاد إلى السكوت او الغايـل الذين أتوا من ايرلنده .

هـذا وينبغي القول ان هجوم الاسكاندينافيين العنيف على الجزر البريطانية اضعف البيكت.فقد بدأ هذا الهجوم بالجزر ، واحتل النورفيجيون

شتلاند واوركاد في القرن الثامن وسقطت هبريد في سلطة القرصان ، وكذا جزيرة مان في عرض بحر ايرلنده . ومن هذه الجزر انطلق الفايكنغ للاستيلاء على ايكوسيا . وأقام النورفيجيون في الجزر على طول الشاطىء حتى كامبرلاند واستوطنوا هذه المناطق .

وفي منتصف القرن التاسع زحف السكوت على البيكت وبدأ هؤلاء يأخذون عادات السكوت واخلاقهم ولغتهم ، وما أتى القرن الثاني عشر الا ولم يبق منهم سوى ذكريات .

وفي القرن العاشر نهضت الملكية في انكلترا ، واضطرت الملوك السكوت إلى تبني موقف متواضع . وفي أواخر القرن الحادي عشر تشكلت مملكة ايكوسيا ، ولكنها لم تتم الا في وقت متأخر بخضوع الاسكاندينافيين في شمال **الالبان** وقسم من الجزر للملوك الايكوسيين .

ومع هذا فقد كتب ان ملكية الشمال لم تكن سكوتية اكثر منها بيكتية لغة" ونظماً . ولكن الحضارة الانغلو ـ نورماندية جذبتها في فلكها فتبنت النظم الاقطاعية ؛ واقامت هذه الحضارة في « الاراضي الدنيا في لوثيان وتأنكلزت لغة" واخلاقاً . وعوضاً عن أن تكون ايكوسيا مركزاً للسلتية أصبحت دولة انكليزية ثانية ، رغم أنها ظلت عدواً لا يمكن مصالحته لمملكة الجنوب .

الفصل التاسع عشر

اسبانيا المسيحية

من ٧١١ الى ١٠٣٧

التاريخ السياسي

مملكة استورياس (آستوديا) . — فتح المسلمون ، من عرب وبربر ، شبه جزيرة ايبريا في بداية القرن الثامن الميلادي ، ولزمهم لفرض سلطتهم على هذه البلاد الواسعة أربع او خمس سنوات فقط . ومع ذلك ، فقد كانت هذه السلطة ، في شمال نهر دويره ، اسمية اكثر منها فعلية . لأن بعض بقايا الارستقراطية الاسبانية اعتصمت في كتلة استورياس اوفييدو ، واتخذت فيها ملجأ في معزل عن طرق المواصلات . وفي سنة ٧١٨ قرر هؤلاء ان يتخذوا احداً منهم ملكاً عليهم ، فوقع اختيارهم على بيلاج (بيلايو) . وكان هذا ، رغم اسمه الروماني ، من أصل غوطي ، وشغل وظيفة عامة في ظل حكم آخر الملوك الفيزيغوطيين .

وجذبت هذه الظاهرة الاستقلالية سادة اسبانيا الجدد إلى استورياس . ولكن ماذا حدث على وجه الصحة ؟ لايعلم . غير اننا إذا سلمنا بما تقوله مصادر مسيحية متأخرة نرى ان بيلاج أحرز نصراً على المسلمين في كوفادونغا ، ولكن مصادر عربية معاصرة لتلك تقول ان جليقية

(غاليس) ، وهـذه المنطقة تضم استرياس . عنـد هؤلاء المؤلفين ، لاقت جزاءها ، ورد المتمردون إلى ثلاثين رجلا وعشر نساء .

والحقيقة هي ان بيلاج وخلفاءه المباشرين ، ابنه فافيلا (٧٣٧ — ٧٣٩) ثم صهره الفونسو الأول (٧٣٩ — ٧٥٧) رأوا السلام بسبب المنازعات الدموية التي قامت في ذلك العصر بين العرب والبربر وكادت تدمر الحكم الاسلامي في اسبانيا . يضاف إلى ذلك ان المجاعة الـتي اجتاحت البلاد منذ ٧٤٩ ساعدت في رد البربر ، القليلي العدد والمقيمين في الشمال الغربي من شبه الجزيرة ، إلى الوسط والجنوب .

واستطاع الفونسو الأول أن يثبت سلطته في الغرب على جليقية ، وفي الشرق على آلافا(آلبه) ، بوربيا ، ريوجا ، وان يسترد ، في الجنوب، كما قيل ، ٣٢ مدينة . والثابت انه كان سيد توي ، وآستورقه ، وليون ، وآمايا ، وسيطر على الطريق الرومانية الذاهبة من البرتغال إلى البيرينه ، وإلى الجنوب من ذلك يمتد ثغر صحراوي عريض كانت حصونه تنتقل ، حسب الأحوال ، من أيدي المسيحيين إلى ايدي المسلمين ، والعكس بالعكس .

ولم يكن لتأسيس امارة قرطبة على يد عبد الرحمن الداخل،في البدء ، أثر خطر على مملكة الشمال المسيحية ، لأنه كان منهمكاً طيلة حكمه (٧٥٦ — ٧٨٨) بمقارعة خصومه ومنافسيه ، وهذا ماجعله يهمـل الآستوريين ، فضلاً عن التزاوج الذي تم بين أمراء مسيحيين وامراء مسلمين . فقـد كانت ام الملك سيلو (٧٧٤ — ٧٨٣) وام الملك موريغاتو (٧٨٣ — ٧٨٨) مسلمتين .

ولكن هذا الدور من الهدوء كان مخالفاً للطبيعة لأن الجهاد (الحرب

المقدسة) كان واجباً مقدساً على الأمير . وما فتيء هشام الأول (٧٨٨ — ٧٩٦) والحكم الأول (٧٩٦ - ٨٢٢) وعبد الرحمن الثاني (٨٢٢ — ٨٥٢) يوجهون الحملات ضد امراء آستوريا المعاصرين ، برمود الأول (٧٨٨ — ٧٩١) ، الفونسو الثاني (٧٩١ — ٨٤٢) ، راميو الاول (٨٤٢ — ٨٥٠) ، وكانت حالة المملكة المسيحية حرجة خلال مرات كثيرة . وقد سلك الزعماء العرب طريقة تعبوية جديدة ، فكانوا كل ربيع يهاجمون اليه ثم ينقضون على آستوريا . واذا لم يسحق الاسبان فذلك لأن قوى الأمراء كانت مقسمة لحرب ثورات طليطلة ، وماردة ، وسرقسطة وضد غزو الفرنجة الذين عبروا جبال البيرينه الشرقية واستولوا على برشلونه (٨٠١) واسسوا « ثغراً » في الشمال الشرقي من اسبانيا وهو قطلونية (كاتالونيا) في المستقبل .

وفي منتصف القرن كان على الملك اوردونو الأول (٨٥٠ — ٨٦٦) ان يناضل ضد الأمير محمد (٨٥٢ - ٨٨٦) الذي وجه اليه عدة حملات ظافرة ، وضد مسيحي مرتد يدعى موسى اقتطع لنفسه امارة في اراغون ونافار السفلى . غير ان الاستوريين قهروا هذا الاخير وانتزعوا حصن البلدة الذي شاده هذا المغامر ليؤمن لنفسه الاشراف على طرق قشتاله والبه (الافا) ونافار (٨٥٩) .

وكان على الفونسو الثالث ، بعد أن خلف اباه اوردونو عام ٨٦٦ أن يقمع ثورة الآستوريين ، ثم القى بهم في فتح بورتو فاستولوا عليها عام ٨٦٨ وأمرهم باستيطان المنطقة الواقعة بين نهري منهو ودويره . وتحالف الفونسو الثالث مع ابن مروان الذي الف لنفسه امارة مستقلة عن الامير بين ماردة وباداجوز ، واستطاع ان يستولي على قسم كبير من

البرتغال الحالية : وكسب ، عدا بورتو ، كوايبر ، براغا، شاف ، لاميغو فيزول ، قوريه . ولما رأى هذا النجاح اندفع في غاراته حتى جبال الشارات (سيرا مورينا) ٨٨١ .

ثم ان الأمير محمد قام بعدة حملات قوية ضد المناطق التي أصبحت تسمى ليون وقشتاله ، ولم يحصل على نجاح حقيقي . وابتداءً من ٨٨٣ توقفت الحملات مدة عشرين عاماً لأن خلفاءه شغلوا باخضاع اسبانيا الاسلامية التي ثارت عليهم .

وشغل الفونسو الثالث آخر حكمه بشروع تحصينات واستيطان . وفي السنوات الأخيرة هاجم طليطلة ولم ينسحب إلا بعد أن دفع له ثمن انسحابه . وعند عودته أخذ حصن بلد الوليد (فاللادوليد الحالية) . وظل الفونسو يخشى خطر انسال موسى الذين اقاموا في الشمال الشرقي في طليطلة وطرزونه . ومات الفونسو الثالث الكبير في ٢٠ كانون الأول ٩١٠ .

مملكة ليون . — وتقاسم ابناء الملك دوله فيما بينهم . وثبت غارسيا الاول اقامة المليك في ليون بعد ان كانت متنقلة بين المدن في عهود الملوك السابقين .

وخلف غارسيا عام ٩١٤ اخوه اوردونو الذي يسمى ملك غاليس . ثم خلف اوردونو بدوره اخوه فرويلا (٩٢٤ — ٩٢٥) . وتوطدت على هذا النحو وحدة المملكة ولكن بمجرد الصدفة .

وفي عام ٩٣١ كان الملك راميرِ الثاني بن اوردونو الثاني وكان شخصية عظيمة . حارب عبد الرحمن الثالث خليفة قرطبة وتغلب عليه أكثر من مرة .وسرت ضجة انتصارات ملك ليون،وخاصة نصر سمانقه (سيانكاس) (٥ آب ٩٣٩) ، وبلغت شمال البيرينه حتى المانيا .

وعندما توفي راميرو الثـاني (٩٥٠ أو ٩٥١) عادت الاضطرابات وارادت نافار وقشتاله التدخل في وراثة العرش . ولذا لم يقم اوردونو الثالث (م ٩٥٦ أو ٩٥٧) واخوه سانش السمين بشيء ضد المسلمين . حتى ان هذا الاخير بعد خلعه عن العرش اعيد بمساعدة عبـد الرحمن الثالث الناصر عام ٩٥٩ . وعندما توفي هذا الخليفة رفض سانش تنفيذ بنود المعاهدة التي أبرمها معه وتحالف مع خصميه السابقين ، فرنان غونزاليز ، كونت قشتالة ، وملك نافار . وبالرغم من ان عواطف الخليفة الجديد ، الحكم الثاني ، كانت سلمية فقد ارسل جيوشاً قاتلت المسيحيين المتحالفين . وطلب سانش السمين الصلح (٩٦٦) ومات بعد ذلك بقليل اثر عودته من حملة شنها ضد ثورة غاليس .

وكان الملك الجديد ، راميرو الثالث ، طفلاً ، وكان سنده الوحيـد عمته الفيرا وهي راهبـة في دير سان سالفادور في ليون فوقعت البـلاد مباشرة في فوضى تامة . ولزيادة وطأة المصيبة انقض القرصان الدانيمار كيون على غاليس بعد أن طردهم ريشار دوق نورمانديا. ولكن كونت غاليس، غونزالو سانشير ، استطاع ان يخلص البلاد من البرابرة .

لقد كانت الفيرا والملك الصغير وكبار المتمردين كلهم ينظرون صوب قرطبة . فقد ارسلوا إلى الخليفة الحكم الثاني وفداً يعرضون عليه شكاواهم . وهذا لم يمنعهم من اقلاق المسلمين وتغلب هؤلاء عليهم بانتظام . ففي ٩٨٢ ثل عرش راميرو الثاني وكان عمره عشرين عاماً ، وطلب نجدة الحاجب المنصور ، ولكنه مات بعد قليل ، وخلفه برمود الثاني المصاب بنقرس القدم وتوج في ١٥ تشرين الاول ٩٨٢ ، في سانتياغو (شنتياقب) كومبوستيل واستطاع ان يتماسك على العرش بفضل جيش من المسلمين ودفع ضريبة إلى قرطبة .

غير أن برمود اراد أن يزيح نير المسلمين عن كاهله ، ولكنه كان أمام خصم يخشى خطره وهو الحاجب أبو عامر الملقب بالمنصور الذي كان يوجه الخلافة تحت اسم الخليفة هشام الثاني الذي خلف الحكم الثاني منذ ٩٧٦ . وكان المنصور سياسياً مخاتلاً ومحارباً ماهراً في عصره . وقد استطاع في حملتين (٩٨٧ ، ٩٨٨) ان يستولي على كوايبر وسمورة والعاصمة ليون ويخضع كبار المملكة . غير ان المؤامرات التي كانت تحاك في قرطبة حولت انظار المنصور لجهة أخرى . ولكن برمود لم يحافظ على ظاهر السلطة الا بمساعدة الخليفة مقابل ضريبة يدفعها له .

وكانت اشهر حملة للمنصور تلك الحملة التي وجهها إلى غاليس وانتهت بأخذ كومبوستيل (١١ آب ٩٩٧) حيث كانت تجل وتحترم ، منذ القرن الفائت ، المخلفات المزعومة للحواري القديس يعقوب (جاك) . وتعتبر شنتياقب كومبوستيل من اعظم امكنة الحج المسيحي بعد كنيسة القديس بطرس في روما . وقد اعتبر أخذ كومبوستيل نكبة في كل اوربة المسيحية ، حتى حور اسم المنصور إلى « اوماسور » وأصبح في فرنسا اسماً عاماً يدل به على كل زعيم غاز .

وفي العام ١٠٠٢ قاد المنصور آخر حملة له وهي حملة قناليش وهدم اشهر دير في قشتاله وهو دير القديس ميللان . وكان مريضاً ويقود العمليات وهو في محفة . وعندما انتصر عاد ومات في مدينة سالم (مدينا سيلي) غير ان المصادر المسيحية المتأخرة جداً تنسب هذه النهاية إلى جرح أصابه في معركة « قلعة النسور » التي غلب فيها عند قولهم . وهذه المعركة، على ما يبدو ، يجهلها المؤرخون العرب بكاملها والمسيحيون المعاصرون .

لقد كانت قوة خلافة قرطبة مرتبطة بشخص المنصور . ولما اختفى هذا الشهاب قضت الامراض ، على هذه الدولة ، في أقل من ثلاثين عاماً .

واستطاعت مملكة ليون المهددة ان تسترجع انفاسها . ولكن سلالة انسال بيلاج الضعيفة كان محكوماً عليها بالزوال . وخلف برمود الثاني المتوفى عام ٩٩٩ الاولاد : الفونسو الخامس ، ثم برمود الثالث وبعد عشرة أعوام على حكم غامض هلك الملك في حرب بينه وبين ابن حميه فرديناند الاول ، بن سانش الاكبر ، ملك نافار (١٠٣٧) . ووجدت مملكة ليون منافساً مسيحياً مخيفاً في دولة البيرينه الصغيرة التي ظلت حتى ذلك الحين غامضة ولكنها انجبت ولداً مجيداً ولكنه لا يخضع لنظام ، وذو مزاج مستقل ، الا وهو كونتية قشتالة .

قشتالة . — لقد كان اسمها القديم **باردوليا** . وفي النصف الثاني من القرن التاسع زال هذا الاسم ، وسميت المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من ليون ، والمغطاة بالقصور الحصينة (كاستيلا) بهذا ألاسم « قشتاله » أي منطقة القلاع . وباعتبار قشتالة « ثغراً » فان حاكمها يتمتع بالضرورة بسلطة واسعة ، ولم يكن امراؤها مستقلين مطلقاً . ولكن الحالة تغيرت بعد وفاة المنصور (١٠٠٢) لان البربر ثاروا على ظلم الخليفة الجديد محمد المهدي وطلبوا مساندة أمير قشتالة ، سانش - غارسيا . ودخل الحلفاء قرطبة ونهبوا (١٠٠٩) واعادت لهم معاهدة لاحقة المواقع التي فقدوها في السابق . وبعد وفاة سانش غارسيا (١٠١٧ أو ١٠٢١) خلفه ابنه غارسيا — سانشيز ، وقد قتل في ظروف غامضة (١٠٢٨) . وفي هذه السنة نفسها استولى ملك نافار ، سانش الأكبر ، على هذه البلاد باعتباره زوجاً لإلفيرا الأخت البكر لغارسيا - سانشيز . وفي ١٠٢٩ لقب فرديناند ، احد أولاد سانش بلقب « كونت » قشتالة ، وما لبث أن بدله بلقب « ملك » قشتالة ، عند وفاة أبيه في العام ١٠٣٥ . وهذا التغيير في اللقب يؤكد حالة قشتالة منذ قرن تقريباً . وابتداءً من ذلك

الحين الفت قشتالة وليون دولتين متميزتين ولم تنضما لبعضها نهائياً إلا في القرن الثالث عشر في شخص فرديناند القديس .

النافار . — ما من شك في أن البشكنس ، الذين يحتلون المجرى الأعلى لنهر الابره ، والنـــافاريين اعترفوا في البدء بسلطـة المسلمـين . وعلى الرغم من أن القادة العرب والبربر الأوائل وصلوا بنبلونه (بامبلون) فقد بقيت في أيديهم بشكل غـــير منتظم ، والحقيقة هي أن السكان البشكنس ، كما في زمن الملوك الفيزيغوط ، كانوا ينطوون بعض الأحيان ولكنهم لم يخضعوا أبداً .

ويبدو في آخر القرن الثامن وفي القرن التاسع أن النافاريين تحالفوا مع « العرب » ضد الفرنجة . وعندما قام شارلومان بحملة على سرقسطة أجبر بامبلون على الاستسلام وعند عودته هدم أسوارها ؛ وهـذا ما دفع النافاريين الى الانتقام في ١٥ آب ٧٧٨ في رونسوڤو (باب الشزري) . ومع هذا فإن الامبراطور لم يتخل عن خطته في بسط سلطته في ما وراء البيرينه في الغرب الأوربي كما فعل في الشرق . وفي ٨٠٦ تخلى النافاريون وأهل بامبلون عن تحالفهم مع المسلمين وأعلنوا خضوعهم .

غير أن شارل في العام ٨١٣ ارسل ابنه لويس فأقام هذا في بامبلون واتخذ عدة تدابير لإخضاع البلاد ، وعند عودته حاول البشكنس القيام بنفس الضربة التي قاموا بها آنفـــاً ، ولم ينجحوا في هذه المرة ؛ ولكنهم أخذوا ثأرهم بعد اثنتي عشرة سنة ، وذلك أن جيشاً من البشكنس المجاورين للبيرينه ، الغاسكون ، توصل الى بامبلون ، ولكن البشكنس أبادوه عبر البيرينه عند عودته ؛ وقد أرسل أحد الزعيمين ، **ايبل** ، الى قرطبة ، وهذا ما يدعنا نفترض وجود مشاركة وتآمر بـــين البشكنس والمسلمـــين . أما الآخر واسمه **آزنار** فقد أطلق سراحه بسبب قرابته

(٨٢٤) . واستمر التوتر بين البشكنس والفرنجة ولكننا نجهل مراحل النزاع بين الفريقين . وفي ٨٥٠ قدم زعيمان نافاريان مع الهدايا واجتمعا في فيربيري بالملك شارل الأصلع ، « ويبدو أنهم طلبوا الصلح وحصلوا عليه » . ولا تعلم النتيجة .

وإذا تصالح النافاريون مع الفرنجة فقد قاوموا المسلمين الذين أرادوا بسط نفوذهم عليهم . فمن ذلك أن عبد الرحمن الثاني أرسل في العام ٨٤٣-٨٤٤ جيشاً لقتال المسيحيين بالقرب من بامبلون ، وهلك زعيم بامبلون في العمليات . وفي ٨٦٠ — ٨٦١ اجتاح الأمير محمد النافار ، وأسر فورتون بن غارسيا « زعيم بامبلون » وظل عشرين عاماً أسيراً في قرطبة .

وفي هذا التاريخ نفسه (٨٥٩ — ٨٦٠) تقدم النورمانديون (الدانيمارك) حتى بامبلون وأخذوا زعيمها غارسيا ولكنه افتدى نفسه بالمال .

وقد شغف كثير من الباحثين بأصل مملكة النافار ونسب ملوكها في القرن التاسع وشادوا لذلك أنظمة لاجدوى منها للتاريخ العام . كما قيل أيضاً بأنه وجدت دولتان ، نافار و بامبلون ، ولم تتحدا إلا عام ٨٦٠ .

وأول ملك كشفت حياته من غيوم الاسطورة هـــو الملك سانش غارسيا الأول . فقد حكم من ٩٠٥ إلى ٩٢٥ وناضل نضالاً عنيفاً الخليفة عبد الرحمن الثالث . بعد أن اجتيحت النافار مرتين واحتلت بامبلون .

أما خلفاؤه فقد خضعوا خضوعاً حقيقياً للخلفاء ، وبدأ هؤلاء يتدخلون في تاريخ الدولة المسيحية المجاورة كما تدخلوا في المنازعات بين ليون وقشتالة .

وكان اشهر ملوك النافار سانش غارسيا الثالث (حوالي ١٠٠٠ ، ١٠٣٥) . فقد افاد من انحطاط الخلافة بعد موت المنصور ، وانحطاط سلالة بيلاج ، وحاول ان يجعل من مملكته الصغيرة اول الدول المسيحية :

ضم غريبو زكوا ، آلافا ، وقسماً من قشتالة وليون ، الرياغورز البيرينية ، والنافار فيا وراء الجبال (النافار السفلى) .

وعندما علم بنبأ مقتل كونت قشتالة الشاب ، غارسيا ، بعد أن سبق وتزوج اخته ، وضع يده على هذه البلاد (١٠٢٨) واتخذ حيطته وزوج ابنه فرديناند اخت برمود الثالث ، ملك ليون .

وعند وفاته (١٠٣٥) خلفه ابنه البكر غارسيا على النافار . اما الولد الثاني ، فرديناند ، فقد أخذ قشتالة ، ولكنه لم يرض أن يظهر اقل من أخيه ، فأخذ لقب ملك . وبعد عامين هاجم ابن حميه برمود الثالث الذي هلك في معركة تامارا (١٠٣٧) . وفي السنة التالية نصب نفسه ملكاً على ليون .

الآراغون . — وهنالك ابن آخر لسانش الاكبر وهو رامير ، وربما كان ابناً غير شرعي ، أراد أن يكون هو أيضاً ملكاً . اعطى الوصف « مملكة » على الوادي الذي أخذ اسمه من السيل الذي يجتازه واسمه الآراغون . وكانت العاصمة مدينة صغيرة في جبال البيرينه واسمها جاقه . واستطاع سانش غارسيا في بداية القرن العاشر ان يكسب بزواجه هذه « الكونتية » التي لعبت قليلاً حيال النافار دور قشتالة حيال ليون . ورغم ان آراغونة تضخمت بضم سوبرارب وكونتية ريباغورز فقد ظلت حتى ١١١٨ (أخذ سرقسطة) دولة صغيرة وفقيرة .

النظم والحضارة

الملكية . — الملكية هي النظام الأساسي للدولة . وكان الملك الآستوري يكمل الملك الفيزيغوطي ، وظل حتى القرن العاشر يقول

عن نفسه « **الملك** » دون ان يتبع هـذا اللقب باسم شعب او بلد . وفي الحقيقة ، كان تركيب المملكة رخواً : فقد كان الغاليسيون في الغرب ، وبشكنس آلافا في الشرق يثورون غالباً ويقفون بجـانب الآستوريين دون ان ينصهروا معهم في بوتقة واحدة . وفي القرن العاشر مـا كاد مقر السلطـــة ينتقل إلى ليون الا وارادت كونتية قشتاله ان تنفصل عنها .

وكما كانت الحال في الدور السابق ، عاش الملك محاطـاً بالدسائس والمؤامرات التي يديرها الكبار ، واخوته ، بل واولاده . ومـع ذلك فقد انتصر المبدأ الوراثي على المبدأ الانتخابي ونقل البنـات العرش إلى ازواجهن . فمن ذلك ان الملك الأول ، بيلاج ، كان خلفه الثاني صهره .

وتوطدت سلطة الملك حيال الكنيسة أيضاً وبأقوى مما كانت حيـال العالم العلماني . وبعد أن كانت الأرض الآستورية ، التي بعث فيها الملك بيلاج الملكية ، خالية من أي كنيسة اسقفية أخذ خلفاؤه الملوك يقيمون الاسقفيات في المدن كلما دفعوا امامهم المسلمين حتى نهر دويره وما وراءه .

ولكن العودة إلى استيطان هذه المدن وارجاع الحياة المسيحية اليها كان من عمل الملك . فهو الذي يعين الاساقفة سواءً فيها أم في الكراسي الاسقفية المنشأة في المدن الجديدة . وعليهم ان يخضعوا له ، ومـا من أثر يدل على مزاعم استعلاء لمجامع طليطلة تضع الكهنوت فوق الملكية ، أوتتطلب من الملك تعهداً أثناء تنصيبه ومباركته .

وكان **العدل** ، كما في كل مكان ، خاصاً بالملك . وكانت المحكمة العليا محكمة ملكية تتألف من الكنسيين والكبار من رجال البلاط . غير أن هنالك صفة خاصة في اسبانيا المسيحية وهي أن الملك وحده ،

في ظروف استثنائية ، يمكن أن يمثل أمام هذه المحكمة . والحق النافذ في البلاط وفي الكونتيات هو دوماً الحق الفيزيغوطي السائد في القرن السابع ، وهو بكامله روماني وكنسي .

وظل التشريع الفيزيغوطي وافراً حتى النهاية ، ولكنه توقف بعد ٧١١ مع الفتح العربي ، ولم يعد الا بعد ثلاثة قرون تقريباً وبشكل امتيازات تخول إلى سكان مدن ليون وقشتالة اللتين دعم وفاؤهما وقيمتها الدولة بتقوية استيطان المناطق المستردة . واقدم هذه الامتيازات يرجع تاريخه إلى النصف الثاني من القرن العاشر .

وكما هي الحال في كل مكان كان الملك يحكم بمساعدة الملكة واولاده والارستقراطية العلمانية وكبار الكنسيين . وهذه هي بداية متواضعة للمجالس (كورتز) في المستقبل .

أما « الادارة المركزية » ، إذا صح التعبير ، فقليلة العدد : كونت القصر ، القائد الأعلى للجيش (كونيتابل) ، والناظر (ماجور دوموس) ورئيس القضاء الأعلى (نوتاريوس) .

وتتبع الأقاليم الكونتات وأهمهم كونتات : غاليس ، بيرزو ، الافا ، قشتاله . وكانوا ، كالكونتات الفرنجة ، يجمعون في أيديهم كل السلطات العسكرية ، والادارية والقضائية ، ويساعدهم في مهامهم عمال التنفيذ (سايّون) من العصر السابق . أما الفيكونتات فلا يظهرون في الصكوك الأصلية على الأقل إلا حوالي منتصف العصر الذي نتكلم عنه .

ولا مجال للضرائب المنتظمة (العقارية والشخصية) في هذا الدور خارجاً عن ضرائب المرور والرسوم المختلفة . وكان الملك يعيش من

وارد املاكه المنتثرة في الأقاليم ، وتختلط الاملاك العامة مع ملكه ، ويضاف لها حصيلة الغرامة القضائية (كالومنيا) ورسم الحرب (فونسادیرا) ورسوم السوق ، ولكن دون نقد وذلك لأنه لايوجد ضرب نقدي ملكي قبل آخر القرن الحادي عشر .

والخدمة العسكرية واجبة على الناس الأحرار . أما المعمرون والمنتفعون بالأراضي فلا يقومون الا بخدمة التموين والنقل . ففي قشتالة ، يشبه الفلاحون بالنبلاء إذا كانوا على درجة من الغنى تؤهلهم للخدمـــة العسكرية على الفرس . وكان الدخـول في الحرب على العموم في شهري أيار وحزيران ، وفي هذا مايبرهن على أن القوة الأساسية للجيش تقوم ، كما في كل مكان آنذاك ، على الفرسان ، وهذا لايعني الاستغناء عن المشاة . فكان على ثلثهم أن يبقى مكانه لتأمين الأمن المحلي أثنـاء الحملة (كافالكادا) . ولا يستثنى سكان المدن ، من حيث المبدأ ، من الخدمة في الحرب ، ولكن يطلب منهم خاصة الحفـاظ على أسوارهم . ومن المحتمل في حالة الحرب الدفاعية (آبيليدو) أن يدعى كل الناس . وتمتاز التعبوية الاسبانية بميزة وهي الغارة (الغاراد) ، تقليداً للعرب ، ويقصد بها الهجوم المفاجىء المندفع جهد المستطاع في بلد العدو بغيـة النهب والارهاب مع تجنب اللقاء .

وكان الملك قائد الجيش ويحيط به حرس قليل مخلص وفدائي . غير ان التنظيم والتعبوية (التاكتيك) مجهولان . وكذا الحال في الجنود ، ولم يكن عددها كثيراً . ولنذكر أن القوات الاسلامية لم تكن اكثر من ذلك ايضاً . فقد كانت تتشكل في الاندلس وعليها أن تجتاز وسط شبه الجزيرة ، وهو صحراء تقريباً ، لتصل إلى أهدافها متعبة قليلة العدد .

وإذا انتصرت ، فلا يكون لديها عدد كافٍ من الرجال للقبض بقوة على البلاد المفتوحة . وعليها في العام التالي أن تعاود الكرة .

الكنيسة . — لقد تضررت الكنيسة كثيراً في الأجزاء التي ظلت مسيحية في اسبانيا بسبب الحروب الدائمة ، على حين ان الاجزاء التي دخلت في ذمة الاسلام ، كانت تعيش بسلام ولم يصب الاشخاص والمباني باذى . ولذا خربت الكنائس والأديرة في الشمال ، وجهد الملوك في تأسيس الأسقفيات أو النهوض بها .

ولم تظهر المؤسسات الديرانية قبل منتصف القرن الثامن، ولم تتكاثر الا في النصف الثاني من القرن الذي يليه . وهي أكثر من أن تعد . ومع هذا فلم تستطع الكنيسة استرجاع نفوذها المتفوق الذي كان لها في العصر الفيزيغوطي . لقد خضعت كثيراً للملكية ، ولم تكن منظمة جيداً . ولا يوجد مجامع . ويكاد التسلسل الكنسي في المركز يكون موجوداً ، والعلاقات مع روما مقطوعة تقريباً .

والحياة الروحانية فقيرة جداً : فما من كاتب ذي قيمة أو نشاط لاهوتي ، ولا يظهر هذا الأخير الا في اسبانيا الفرنجية (كاتالونيا) أو في المناطق الخاضعة للمسلمين مثل طليطلة .

وظلت الكنيسة المسيحية في اسبانيا ، أو بالأحرى كنيسة المملكة المسيحية ، منطوية على نفسها لولا اختراع جسد الحواري القديس يعقوب (شنتياقب) حواري اسبانيا المزعوم حوالي ٨٣٠ في ايريا (كومبوستيل). ولاقت الخرافة نجاحاً سريعاً في الغرب ، وعاود الحج ، وخاصة الحج الفرنسي ، الى كومبوستيل سيرته الاولى عندما أعيد بناء المدينة بعد كارثة ٩٩٧ . وكانت لهذا الحج نتائج دينية وسياسية وأدبية : فقد أسهم في ربط أسبانيا الشمالية بباقي العالم المسيحي .

الطبقات الاجتماعية — تنقسم **الطبقة النبيلة** ، كما في كل مكان ، إلى عليا ودنيا . ويسمى الكبار بأسماء مختلفة . ويشكلون حاشية الملك ويتقبلون افضاله عليهم .

وتأتي تحتهم طبقة **الفرسان** . وهم ملاكون ريفيون ، وفي حوزتهم بعض المال ومن هنا جاء اسم « ابن بعض الشيء » (هيدالغوس) أما من ليس لهم موارد فيدخلون في خدمـة آخر : وهم يعادلون « السواس » في فرنسا .

غير أن الفقر بالنصوص يساعد بصعوبة على أهمية **الطبقة الحرة الريفية** فقد وجد في اسبانيا المسيحية رجل يشبه من بعض الوجوه « المنتفع » في غاليا . وهو يرتبط بعرفانه بجميل غني وهبه عن كرم ، بصفة مستفيد ، دوميناً ليزرعه . الا انه يبقى مالكاً ، ويبدو ان البهيتريا التي ينتسب اليها تؤلف جماعة من القرويين . وهم سادة أرضهم وليسوا مرتبطين بأسرة اميرية كما هم أحرار في تغيير « المحسن » .

وتحت ذلك يأتي **المعمرون** وهم يشبهون المعمرين الغاليين — الرومانين و « حريتهم » وهمية .

أما **الاقنان** ، من ريفيين مرتبطين بالارض ومن خدم ، فقد عاشوا بعد الدولة الفيزيغوطية . ثم ان العادة ، في رد اسير الحرب إلى العبودية أو في شراء الأسرى ، اطالت على وجه التأكيد اجل الرق في اسبانيا .

هذا ويجب أن نترك مكاناً خاصاً لطبقة **سكان المدن** . ونشأتها أو نهضتها تسبق بقرن وسطياً نهوض هذه الطبقة نفسها في باقي اوربة المسيحية . ان العمل المثمر الذي قامت به استوريا وليون كان منذ منتصف القرن الثامن في استيطان المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال كانتابريا ونهر دويره ، ثم في

القرن الحادي عشر ، بين هذا النهر وجبال سيرا وادي الرملة وغريدوس . ففي هذه المناطق الخصبة والخطرة استطاعوا ان يجذبوا ويثبتوا رعاياهم ومهاجرين « مستعربين » ، مسيحيين من الوسط والجنوب ، راغبين في الفرار من سلطة الخليفة أو حكامه .

ولم يكن هذا الاستيطان ممكناً لو لم يحم القادمون الجدد بحصون منشأة على المدن القديمة المصلحة (مثل استرقة ، ليون) أو على مواقع جديدة (مثل برغش) .

واذا استثنينا كاتالونيا ونظمها الفرنجية ، فان اسبانيا لم تكن دولة اقطاعية ، والملك لا يتنازل عن سلطاته . ووراثة الوظائف العامة لم توطد بعد . ولم تحصل الكنيسة نفسها في العاجل أو الآجل على امتيازات الحقوق العدلية والغرامات القضائية والاعفاء من الرسوم والخدمات العامة والحصانات وغيرها مما كان جارياً في غاليا . وكذا الأمر بالنسبة للكبار . ولا يوجد « اقطاعات » بالمعنى الضيق للكلمة ، لأن امتيازات الملوك كانت ملكية تامة .

ومع هذا فقد كان المجتمع ، كما في كل مكان في اوروبة المسيحية ، « تبعياً » بصورة عميقة : ان تفاني الوفي للملك وبذل الذات من رجل لرجل ، والمنتفع لأميره و « المحسن » ، ان كل ذلك يعتبر دافعاً ودليلاً .

ومن الطبيعي أن تؤدي التبعية الى الاقطاعية . وقد دخلت هذه الاقطاعية بتأثير من فرنسا إلى ليون وقشتالة ونافار وآراغون ثم الى البرتغال حوالي آخر القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر ، ووجدت في اسبانيا ارضاً مهيأة لتتفتح فيها مع احتفاظها بلونها المحلي الخاص .

الحياة الاقتصادية . — كانت الممالك المسيحية تحيا حياة زراعية ،

وتقوم الزراعة في مناطق قليلة الخصب في معظمها ومعرضة لاجتياح الحرب ولذا كانت بالضرورة قليلة الازدهار .

وكانت الصناعة ريفية أكثر منها في باقي اوروبة المسيحية في نفس الدور . ومن الطبيعي أن الناس كانوا يبنون وينسجون ويصنعون الأسلحة ويصوغون الحلي والمجوهرات وكل هذا كان لحاجات محلية .

وكانت التجارة محلية ايضاً . ووجدت علاقات أعمال مع المناطق الاسلامية ولكن هذه التجارة كانت ضعيفة وغير مستمرة .

وكانت المدن التي تقوم فيها الأسواق صغيرة . فلم تكن ليون لتتجاوز بضعة هكتارات مساحة ، وكان سكانها محاربين أكثر منهم تجاراً. ولقد أدخل المهاجرون المستعربون بعض النشاط كما تدل الاسماء العربية على الأشياء المستعملة . فالكلمة « زكو » تدل على السوق ، وكلمة « زابازوك » تدل على الموظف الأول الذي ينتخبه الشعب ويراد بها « صاحب السوق » أي « مفتش السوق ». ولعب اليهود أيضاً دورهم في نهضة الحياة الاقتصادية . غير أن فقدان ضرب النقد في المملكة الآستورية — الليونية التي تستعمل قطع النقود الفرنجية وغالباً العربية ، يدل على ركود الحياة الاقتصادية . ولا مجال للقول بنهضة اقتصادية قبل القرن الثاني عشر .

الحياة الفكرية . — لقد هجرت اللغة والادب اللاتينيين لصالح اللغة العربية ، منذ القرن التاسع ، في الاجزاء الاسلامية من اسبانيا بل ومن قبل المسيحيين ، ولم يتماسكا إلا في الشمال وبخاصة في استوريا وغاليس . ولقد حفظ الفتح الفرنجي ، منذ بداية القرن التاسع ، الثقافة القديمة في نطاق ضيق وعلى طول البحر المتوسط الثغر «الغوطي »(كاتالونيا) ولكنه ربطها بـ « النهضة الكارولنجية » .

ولا نعلم شيئاً عن اللغة والادب العاميين لأننـا لا نملك أي نص ليوني – قشتالي أو غاليسي – برتغالي قبل منتصف القرن الثاني عشر . غير ان بعض الكلمات انزلقت في مواثيق القرنين العاشر والحادي عشر وبلاتينية بدائية .

وكادت **الثقافة اللاتينية** ان تزول حتى في الشمال . ففي آستوريا لا يوجد في البدء اسقفية او دير يمكن أن يكون لها ملجأ . وفي مناطق « الاسترداد » خسرت المكتبات الاسقفية والديرية الغنية حتى القرن السابع كثيراً من مقتنياتها . ولكن الجهد بذل لاعادة انشاء المكتبات منذ القرنين التاسع والعاشر .

وكانت **المخطوطات** خاصة بالنصوص الكنسية . اما النصوص القديمة الدنيوية فيبدو انها لم تكن ممثلة بشكل جدي، وما زالت الكتابة هي الكتابة «الفيزيغوطية» المزعومة ، ولم يظهر التأثير الفرنسي بالكتابة «الكارولية » إلا آجلًا في آخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر .

وكان الأدب باللاتينية فقيراً . فقد وجدت تآريخ مختصرة جداً في نظرنا مثل : التاريخ الذي يذهب من ٦٧٢ إلى ٨٦٦ وينسب خطأً إلى الملك الفونسو الثالث ؛ والتاريخ المسمى تاريخ البلدة أو تاريخ سان ميللان وقد حرر في اوفييدو في ٨٨١ و ٨٨٣ ؛ والتاريخ المسمى تاريخ سامبيرو (اسقف آستورغا) ويبدأ من ٨٦٦ إلى ٩٨٢ ؛ وحوليات هزيلة : قشتالية (٦١٨ – ٩٣٩) ، وبرتغالية (تأريخ لوربانس ، ٨٦٦ – ١١١٠) ، ونافاريه (في مجموعة ميا ، من ٨٨٢ إلى آخر القرن العاشر) . ونص واحد ذو قيمة في سير القديسين وهو « سيرة القديس فروبلاني » وربما الفها الشماس خوان عام ٩٢٠ بعد خمسة عشر

عاماً على وفاة اسقف ليون هذا . وقيل بأن النشاط اللاهوتي كان أضعف كل هذه الآداب . ولا يوجد شعر لاتيني قبل القرن الحادي عشر .

ومع هذا فقد وجدت بعض المدارس الاسقفية والديرية التي تلقى فيها الاكليروس والملوك والكبار تعليمهم الابتدائي الديني قبل كل شيء . واشهر هذه المدارس مدرسة كومبوستيل .

الحياة الفنية . — لقد حافظت آستوريا ، فيما يتعلق بالبناء ، على مباني كثيرة من هـذا الدور . ويصعد اقدمها حتى حكم الملك سيلو (٧٧٤ — ٧٨٣) الذي اقام عاصمته في برافيا . وتتمثل هذه الأبنية في معابد قصور ملكيّة .

ويميز في هذا الفن اسلوبان : اسلوب الكنيسة ـ المعبد بمخطط مستطيل أو مربع وثلاثة صحون وثلاثة صـدور (محـاريب) وسقف خشبي ، كما يشاهد ابنية عقدية . وهـذا النموذج من أصل « فيزيغوطي » أي روماني — بيزنطي .

ومنذ آخر القرن التاسع ظهر تأثير الفن العربي في الاسلوب « المستعربي » الذي ساد في ليون وقشتالة خلال القرن العاشر ويعرف بالقوس النضوي (على شكل حدوة الفرس) والتزيين المختلف السماكة في الزخرفة والتذويق. وفي حوالي منتصف القرن التالي دخلت إلى البناء في اسبانيا المسيحية عناصر فرنسية بتأثير الرهبان الكلونيين .

ولا يوجد في هذا العصر تمثال يستحق الذكر . غير أن الكنائس أو المتاحف في افييدو ، كومبوستيل ، ليون ، برغش ، سيلوس ، احتفظت بصلبان و كؤوس وصناديق وعصي تدل على ان تقاليد صياغة الحلي التي كانت سائدة في العصر السابق ما زالت موجودة .

وكانت جدران الكنائس وقبابها مزدانة بالفرسكات ولكن لم يبق منها شيء . ويتمثل الرسم بمنمنمات المخطوطـــات التي يرجع عهدها إلى منتصف القرن الثامن . ويضاف إلى التقاليد القديمة تأثير المستعربين وهو تأثير لا يمكن نكرانه ، ويبدو ان هنالك جهداً في تصوير الشخصيات المعاصرة .

وفي الختام ، ان تاريخ الدول المسيحية الصغيرة في اسبانيا في القرون الثلاثة الاولى ، التي تلت الفتح الاسلامي ، يبدو قليل الأهمية. لأن اشراق خلافة قرطبة والحضارة العربية أسر الانظار فلم تتحول عنه الا بأسف نحو مناطق الشمال الفقيرة التي لم تترك فيها الثقافة القديمة الا حياة واهنة . هـذا فضلاً عن الحروب العقيمـة التي كانت تقوم بين آستوريا وغاليس وليون وقشتاله ، والحروب التي كانت تقوم بينهـــا وبين المسلمـين . ويجب القول ان المسيحيين في هذه البلاد لم يكونوا متحدين فيما بينهم في داخل كل اقليم . فقد كانت المؤامرات تحاك من قبل الأخ على أخيه ، والابن على أبيـــه ، وثورات الكبار على الملك ، والتحالف مع المسلمين على بعضهم .

وبالرغم من ذلك ، فقد استطاعت هذه الدول المسيحية الصغيرة ان تنتقل بجهدها من الدفاع إلى الهجوم والاستيطان ومعاودة الفتح واسترداد البلاد تدريجياً منتهزة ضعف المسلمين وتناحرهم على الملك .

الفصل العشرون

المانيا وايطاليا

من وفاة ارنولف إلى اوتون الأول

المانيا

من ٨٩٩ إلى ٩٣٦

الخطر الخارجي : السلاف والهونغاريون . — لقد كان تاريخ المانيا في بداية القرن العاشر متأثراً إلى حد كبير بالاخطار الخارجية ، لأن وجود السلاف على نهري الايلب والدانوب ، وظهور الهونغاريين بغاراتهم المتكرره اثقلا مصير المملكة الجرمانية .

كانت حدود المانيا ، من جهة الشرق ، تتألف من الايلب ورافده السّال . وقد اقامت القبائل السلافية في بعض النقاط على الضفة اليسرى لهذين النهرين ، وتسلل بعضها إلى غابة تورنجة ووصل حتى نهر الماين . وكانت المانيا تحت رحمة أقل حادث ، لأن السياسة التي سلكها شارلومان وخلفاؤه لم تولد نتائج يطمأن لها ، وظلت مواقع السلاف على ضفتي الايلب ، على الأقل ، سليمة لم تمس .

يميز بين هذه الشعوب ثلاثة أقوام أساسية :

١ - الاوبوتريت ، ويقيمون في الشمال على الايلب الأدنى .

٢ ـ الفيليتاب أو (الفيلز) والليوتيس ، وهم في الوسط بين نهر الاودر والبحر البالطيك .

٣ ـ السوراب أو الصرب الشماليون ، بين نهر السّال وجبال ارزغيبيرغ ونهر الايلب .

وظلت هذه الشعوب وثنية بعيدة عن النفوذ الجرماني ، رغم كثرة المحاولات ، وظل خطرها ماثلاً محتمل الوقوع .

وفي شرقي جبال ارزغيبيرغ وجد فرع سلافي آخر يضم :

١ ـ التشيكيين ، النازلين في وادي الايلب الأعلى .

٢ ـ الموارفيين ، على حوض نهر الموارفا .

٣ ـ السلوفين ، على ضفة الدانوب اليمنى .

ولمع نجم الموارفيين في النصف الثاني من القرن التاسع . وبعد أن كانوا تابعين لشارلومان استطاعوا ان يتحرروا ، وجمعوا الشعوب المجاورة حولهم وانشأوا امبراطورية امتدت على بانّونيا وبوهيميا وبلاد السوراب وغاليسيا الشرقية . ودانوا بالديانه المسيحية على يد المبشرَين البيزنطيين ، سيريل وميتود ، كما رأينا، وهذا لم يمنعهم من الدخول أخيراً في الكنيسة الرومانية . وكانت هذه الامبراطورية الموارفية تؤلف على أبواب المانيا دولة قوية يحسب حسابها ويخشى خطرها .

ولقد خامرت الموارفيين حيال المانيا نزعتان : نزعة تريد الوقوف موقف العداء ، ونزعة تجنح إلى السلم . وغلبت هذه النزعة أخيراً ، ولا سيما بعد أن بدت ضرورية أمام الخطر الداهم ، عندما أوغل الهونغاريون في بانونيا سنة ٨٩٤ .

يرجع أصل **الهونغاريين** إلى آسيا الوسطى حيث يعيشون عيشة بدوية وهم **المجر** ، ثم أطلق عليهم فيما بعد اسم الهونغاريين . دخلوا اوربة في

بداية القرن التاسع ، وأقاموا حوالي ٨٦٠ بين نهري الدون والدنيبر حيث حاول ميتود ، اسقف بانونيا انذاك ، دون نجاح ، ان يبشرهم بالمسيحية ، ولكن بمجيء البيتشينيغ ، وهم من آسيا الوسطى ايضاً ، اضطرهم الى عبور الدنيبر ثم الدنيستر ، ثم توقفوا قليلاً في البغدان (مولدافيا) والافلاق (فالاشيا) ، وعبروا جبال الكربات في ٨٩٥ أمام دفع البيتشينيغ ، وحلوا في هذه المرة منطقة نهر التيزا والدانوب الاوسط بين السلوفين والمورافيين . وقد سبق لآرنولف ملك جرمانيا أن تعاون مع الهونغاريين على السلاف ، وهاجمهم مرتين ، وكان يحقد عليهم ولم يدرك الخطر الجديد ، وعندما ساءت الأحوال في الامبراطورية المورافية دون الوصول الى صلح بين الأطراف المتنازعة كانت السياسة الألمانية تبث في داخلها روح الانقسام والتفرقة عوضاً عن أن تفيد من جوارها لدفع الغزو الداهم .

ولم يجد الهونغاريون منافساً ينازعهم احتلال البلاد فأطالوا اقامتهم . وكانت الأرض والمناخ صالحين لنمو الزراعة ، ولكن هؤلاء الرحل لم يحاولوا الافادة من الامكانيات التي أمامهم ، وكل مافعلوه هو انهم اكتفوا بتربية الخيول في سبيل أهدافهم الحربية ، والقيام بهجمات سريعة ، وظلوا على هذا النحو سنوات طوالاً وهم يبذرون الرعب في ايطاليا والمانيا .

بدأ الهونغاريون هجومهم على ايطاليا . ففي سنة ٨٩٩ اجتاحوا لومبارديا ، ثم عادوا واعملوا النهب في بانونيا (تموز ٩٠٠) ، ولم يجدوا اي عقبة تحول دون تقدمهم لولا انهم لاقوا بعض المقاومة فارتدوا على اعقابهم ، ولكن قواهم ظلت سليمة لم تصب بضعف .

ومن جهة ثانية ، لم يكن في جرمانيا ملك قادر على الدفاع ضد المغيرين . فقد مات ارنولف في ٨ كانون الأول ٨٩٩ وكان خلفه الشرعي الوحيد لويس . وفي ٤ شباط ٩٠٠ انعقد مجلس في فودشهايم

ضم رجال المانيا ، ونادى بالأمير الشاب ملك جرمانيا تحت اسم لويس الثالث الطفل . أما اللورين ، التي كان يتنازع عليها زونتيبولد وملك فرنسا شارل الساذج ، فقد اعترفت بلويس الثالث ملكاً ، وجاء هذا إلى تيونفيل ليقبل البيعة من رعاياه في الغرب . وبالرغم من الجهود التي بذلها زونتيبولد للاحتفاظ باللورين ، فقد غلب على أمره أخيراً وقتل ، وظلت هذه البلاد حتى عام ٩١١ متحدة مع المانيا .

ولد لويس الطفل عام ٨٩٣ ، واتم السادسة من عمره في العام ٨٩٩ ، وكان بحكم سنه غير قادر على الحكم وتنظيم المقاومة ضد الغزو . ولذا الحق به مجلس فورشهايم مجلس وصاية ، وابعد أمه الملكة **أودا** عن التدخل في شؤون الحكم . وانتقلت المملكة إلى يد الأساقفة وبخاصة اسقف ماينس ، هاتّون ، واسقف اوغسبورغ ، ادالبيرون ، وضم هذان الاسقفان اليها بعض الأمراء العلمانيين : مثل مارغراف بافاريا لويتبولد ، وهو شخصية قوية وستكون له شعبية خاصة بظفره على الهونغاريين ، والكونتين الفرانكونيين : غيبارد وكونراد .

وقد يبدو اعتلاء طفل العرش ، في وقت احوج ما تكون فيه المملكة إلى زعيم عسكري من النوع الممتاز ، خفة ورعونة ، ولكن الأوصياء برهنوا على حس سليم ، وحسن تصرف في الأمور . لقد اعتبروا بغزو عام ٩٠٠ ، ولذا بادروا برد فعل ضد سياسة ارنولف وابرموا الصلح مع المورافيين عام (٩٠١) . ولكن هذه السياسة أتت بعد فوات الأوان لأن المورافيين ، على ما يظهر ، قد تأثروا كثيراً بعدوان المجر ، وما لبثت امبراطوريتهم ان تداعت في ٩٠٥ — ٩٠٦ وخضعت لنير الهونغاريين . وهكذا أصبحت المانيا مهددة بخطر مباشر ، ولاقت اخطاء سياسة ارنولف الشرقية نتائجها الوخيمة .

وفي السنتين ٩٠٦ و ٩٠٧ اجتاح الهونغاريون ساكس وارتكبوا فيها أعمال العنف ، ثم انثنوا على بافاريا . واضطر جيش شارل الطفل للقائهم ولكنه ابيد بكامله . وبعد هذه النكبة توالت هجمات الهونغاريين ، وظل الوضع حرجاً على هـذا النحو عندما داهمت المنية شارل الطفل في ٢٤ ايلول ٩١١ .

تشكل الدوقيات القومية . — لقد انهكت الغارات الهونغارية المانيا وادمتها ودمرتها بما اقترفته من قباحات وفظاعات لم توفر فيها الشيوخ والنساء والأطفال ، وكان الشعب يعيش في حالة ارهاب دائم وعدم طمأنينة ، وكانت الملكية عاجزة عن قمع الفوضى وسد الطريق في وجه الغزاة ، وباءت جميـع المحاولات التي اتخذها شارل الطفل بالخيبة ، ولم يفكر أحد بخلعه بعد أن ظهر ادنى من مستوى قضيته ، بل ان هذا الموقف منه جعل كل بلد يقرر مصيره بنفسه معتمداً على وسائله الدفاعية ، ووجد في كل منها زعماء عرفوا بحسن البلاء ومقاومة الاعداء مثل لويتبولد في بافاريا ، وهنري في ساكس ، وقد أخذ كل منها على عاتقه حماية المناطق المتعلقة بسلطته .

ولا غرابة اذا تحول هؤلاء الزعماء العسكريون ، الذين يتناقلون وظائفهم كابراً عن كابر ، الى زعماء قوميين وأصبحوا ادواقاً مستقلين عن التاج بعد أن التف حولهم الكونتات والمارغرافات . ولقد ساعدت ظروف عديدة على تشكل هذه الدوقيات القومية ، وكان العامل الأساسي فيهـا وجود جماعات عرقية لها فرديتها الخاصة ، وقد حافظت هذه الأقوام ، بالرغم من دخولها في الامبراطورية الكارولنجية ، على لغتها وعاداتهـا واخلاقها وقوانينها ، وكانت كل واحد منها يقيم في منطقة جغرافية خاصة ، وفي اليوم الذي تصبح فيه السلطة الملكية عاجزة عن ممارسة نفوذها تأخذ هذه الأقوام استقلالها في اطارها التقليدي الذي تعيش فيه تحت سلطة زعيم

عسكري ينتسب إلى الارستقراطية المحلية . وقد اغتصب الأدواق بهذه الصفة الحقوق الملكية وورثوا ، منذ آخر حكم لويس الثالث الطفل ، كل الامتيازات وكل السلطات الخاصة بالملك .

ولكن الكنيسة لم تحبذ هذا التطور ، وظل الأساقفة متعلقين بالسلالة الكارولنجيه التي اغنتهم واختارت في الغالب مستشاريها منهم . وظهر حكمهم اثناء الوصاية على لويس الطفل . ولذا لم يروا بعين الارتيـاح هذه القوى الناهضة أمامهم ، وناضلوا في بعض البلاد ضد الادواق . غير أن قوة منافسيهم كانت تعتمد على ضرورات آنية وعاجلة وعلى تقاليـد قديمة جعلت من المستحيل على رجال الكنيسة الذهاب ضد هـذا التحول الذي اقتضته الظروف الجديدة .

ومنذ آخر حكم لويس الطفل انقسمت المانيا الى خمس دوقيات قوية ولكل منها سياؤها الخاصـة وهي : ساكس ، بافاريا ، فرانكونيا ، سؤاب ، اللورين التي زالت موقتاً من الخارطـة الجرمانية عام ٩١١ . وظهور هذه الدوقيات حول سياء المانيا . لأن الوحدة الـكارولنجية ، التي قاومتها القوى المحلية ، انفصمت نهائياً واستعادت الشعوب ، التي تؤلف جرمانيا القديمة ، من ساكسون وبافاريين في الشرق وآلامان ، فرديتها التي لم يستطع شارلومان وخلفاؤه أن يمحوهـا تماماً ، حتى ان المملكة التي أوجدتها معاهدة فردن لصالح لويس الجرماني لم تتماسك إلا بسائق التقليد والعادة والشعور بالخطر الخارجي المشترك ، ولكنها تفتتت أخيراً ولم يعد لمليكها الا سطة نظرية على الدول التي تؤلفها . ولا هنك في أن الادواق لم يفكروا بالغاء النظام الملكي ، ولكنهم في الواقع كانوا

يتصرفون كما لو كانت الملكية غير موجودة . وحتى وفاة لويس الطفل عاشوا بسلام مع الملك ، لأنه كان يتغاضى عن اغتصاباتهم . وكانوا يحترمونه ولكنهم يتجاهلونه ويحكمون بأنفسهم دون مشاورته والرجوع اليه .

ان انشاء الدوقيات أضعف الملكية وهدد الكنيسة . لقد تمتعت الكنيسة في الامبراطورية الكارولنجية بوضع ممتاز . وكان الكارولنجيون، ان عن رغبة برحمة السماء أو عن خدمة لمصالحهم السياسية أو لكليهما معاً ، يغدقون الهبات والمساعدات على الكنيسة حتى غنيت واستطاعت ان تعتمد في سلطتها الروحية على ملكيات عقارية واسعة . وكان الأساقفة يتمتعون بوظائف كهنوتية واملاك وموارد هامة جداً ، وأصبحوا في عهد أواخر الكارولنجيين من أوائل الشخصيات في الدولة ، وخلال مرات عديدة انتقل الحكم إلى ايديهم . وهذه الفوائد يمكن ان تفسد بدخول الأدواق الساحة بعد أن أصبحوا يملكون سائر الحقوق الملكية . ولم يكن في وسع هؤلاء الأدواق أن يتساهلوا بوجود اسقفية فوقهم غنية ومنظمة تخضع لتوجيهات مطران ومن الممكن احياناً أن يكون كرسي المطرانية خارج حدود الدوقية وتعقد جلساتها في مجامع قومية تملي قواعد مشتركة وعامة لكل المانيا . ولم يكن الاساقفة ، من جانبهم ، على استعداد لقبول تضحية تبدو ضارة بالكنيسة والدولة . لذا كان الخلاف حتمياً ، ومالبث أن تفجر في دوقية سؤاب في عهد لويس الطفل ، وأصبح بالامكان ان ينتشر في كل مكان .

وكان من صالح الكنيسة ، للدفاع عن نفسها ، أن تبعث سلطة التاج لأن الملكية القوية وحدها تستطيع أن تحميها من طغيان منافسيها . ومن جهة أخرى ، كان للدوقيات صفة قومية ، ولزعمائها شعبية ، ولذا

كانت الكنيسة حليفاً وحيداً ممكناً للملك عندما يريد استرجاع السلطة والجاه اللذين فقدهما . وقد ارتسم هذا التفاهم منذ حكم خلف لويس الطفل ، كونراد الأول ، وباركه نهائياً اوتون الكبير .

حكم كونراد الأول (٩١١ - ٩١٨) . — توفي لويس الثالث الطفل في ٢٤ ايلول ٩١١ دون أن ينجب اولاداً . ولم يكن للسلالة الكارولنجية ، في ذلك التاريخ ، يمثل الا ملك فرنسا ، شارل الساذج ، واليه يرجع أيضاً تاج جرمانيا حسب قوانين الوراثة . ولكن لم يفكر أحد بتقديم هذا التاج له . فقد اجتمع الامراء الألمان في فورشهايم وانتخبوا ملكاً عليهم ، ، دوق فرانكونيا ، كونراد الشاب ، الذي أصبح كونراد الاول (١٠ تشرين الثاني ٩١١) .

ويبدو ان قرابة كونراد بالسلالة الكارولنجية ، التي يرتبط بها عن طريق امه ، لم تكن غريبة عن هذا الانتخاب . لقد كان الملك الجديد معروفاً ، حسب قول المؤرخين ، بشجاعته وتقواه وفطنته ، وربما فضل على غيره من ادواق ساكس وبافاريا لأن قدرته الشخصية اقل من غيره ، ولا يخشى من جانبه محاولة ارجاع الملكية .

وفي الواقع لقد كان حكم كونراد الاول مقروناً بعدة اخفاقات : فقد بدأ بانفصال اللورين عن جرمانيا . وكانت هذه الدوقية مرتبطة بالسلالة الكارولنجية ، وعندما مات شارل السمين قضت آرنولف على اود ، واعتبرت في العام ٩١١ كونراد مغتصباً وقدمت نفسها هدية إلى شارل الساذج . ولكن كونراد لم يستسلم لهذا التخلي عنه وأراد استرداد الدوقية . وبعد حروب بين الطرفين بقي كل منهما عند مواقعه دون الحصول على نتيجة ، وبقيت اللورين لشارل الساذج . وعندما سقطت السلالة الكارولنجية المرة الثانية في فرنسا عادت اللورين والتحقت بجرمانيا .

وشغلت اللورين كونراد دون نتيجة ، وصرفت انظاره عن حوادث خارجية وداخلية خطيرة ، ولم يستطع بسببهـــا دفع الغزو الهونغاري والحيلولة دون معارضة الأدواق .

دفع الهونغاريون هجومهم في المانيا حتى اللورين وعاثوا فيها الفساد ، ولم يستطع كونراد التدخل ، لأنه قضى عامين وهو في اللورين ووجد نفسه أمام معارضة داخلية شغلته وصرفت جهوده .

ولم تكن هذه المعارضة ، في الأصل ، موجهة ضد الملك ، بل ضد الكنيسة التي حماها كونراد الأول من طغيـــان الأدواق لمصلحة التاج . وقد بدأت بوادر هـــذا الخلاف منذ آخر حكم لويس الطفل وما لبث ان انتشر في كل مكان في بافاريا وساكس وسوَاب .

في بافاريا ، دشن ارنولف سياسة تعصير جعلته يشبه شارل مارتل . فقد جرد الاديرة من املاكها ووزع أموالها بشكل اقطاعات على العلمانيين الذين أصبحوا اتباعه وزبائن يطمئن لهم ويتفانون في خدمته . وقد بسم له الحظ بسبب انتصاراته على الهونغاريين وتمتع بشعبية خاصة في دوله ، ولكن هذا لم يمنع حقد الاساقفة عليه .

وفي ساكس ، خلف هنري اباه اوتون في ٣٠ تشرين الثاني ٩١٢ ، وكان يشعر بميوله وعواطفـــه ، فلم يكن ليحترم الكنيسة كاسلافه ، ويرى ان جميع الوسائل صالحة إذا كان منها تقوية سلطته . ولكنه كان يخشى رئيس اساقفة ماينس ، هاتّون ، وكان هذا فكراً ذكياً ألمعياً ماهراً عارفاً بدخائل الأمور . وقد أوحى إلى كونراد الأول بسحب تورنجيه من يد الدوق الشاب التي حكمها ابوه من قبل ، ولكنه مات دون أن يحصل على نتيجة ايجابية وأصبح الدوق هنري عدواً للملك والكنيسة اكثر منه في أي وقت مضى .

وارتسمت حركة مماثلة في سؤاب ، حيث استطاع سالومون الثالث ، اسقف كونستانس أن يتخلص بمقتبـل الدوق بركارد ، ولكن احد الكونتات أراد أن يثأر للدوق الراحل او يحل محله وقام يناهض الحبر الفظيع واستطاع أن يسجنه .

ودخل النزاع مع الكنيسة في هذه الدوقيات الثلاث مرحلة حادة ، وظل الملك سنتين ممتعاً لايعمل شيئاً بسبب مشاغله في اللورين ، غير انه في اليوم الذي يتخلى فيه نهائياً عن المطالبة بها يعود فيتدخـل لصالح الاساقفة الذين يعتبرهم أفضل دعامة للعرش .

وحاول كونراد في البدء ان يهدىء المنازعات بعد ان اوشكت تهدد بالحرب الأهلية فسعى الى التقرب من دوق بافاريا وكونتات سؤاب ليعزل هنري ساكس بعد أن تبين له خطره على الملكيـة ، كما حاول عن طريق الزواج الدبلوماسي أن يصل إلى مايريد ، ولكن كل هـذه المساعي لم تكن لها تلك النتائج المنتظرة .

ولم يفلح السلاح ايضاً في اخماد مقاومة الادواق . ولذا لجأ كونراد إلى الوسائل السلمية واستخدم الكنيسة . وعقد في ٢٠ ايلول ٩١٦ مجمعاً قومياً في **هوهنالتهايم** على حدود بافاريا وسؤاب وفرانكونيا مؤملاً أن الحديث بين اساقفة الدوقيات يمكن أن يؤدي إلى مصالحـة عامة ، واستطاع ان يثير في هذا المجلس اهتمام البابا جان العاشر فبعث هذا ممثلاً عنه إلى المجلس . ونجح كونراد في هذه المرة لأن الاحبار الالمان استجابوا للنداء الا الأحبار السكسونيين لأن هنري احتجزهم في الدوقية ولم يستطيعوا الاسهام بالمناقشات .

وقد حفظت قرارات مجمع هوهنالتهايم وهي على نوعين : بعضها ذو أهمية عامة ويتعلق بالنظام الكنسي وتقويته بالاصرار على الاساقفة بضرورة

التبشير وتفسير الكتاب المقدس ، وعلى العلمانيين باحترام أموال الكنائس والامتناع عن محاكمة الاكليروس ودفع ضريبة العشر ، وعلى الجميع بتجنب اقامة علاقات مع المحرومين المطرودين من الجماعة الذين حلت بهم اللعنة الكنسية . وبعضها الآخر ، على العكس ، كانت له أهمية حالية . وبعد أن قدم الأحبار احترامهم للسلطة الملكية التي لاغنى عنها لتقدم الايمان حكموا باللعنة سلفاً على كل من يتآمر على الملك بغية القضاء على حياته او خلعه ، ونحوا باللائمة على غياب زملائهم الساكسونيين وهددوهم بالاحالة على روما إذا لم يبدلوا موقفهم .

وهكذا انحازت الكنيسة بوضوح ووضعت سلطتها الروحية في خدمة قضية الملك وجعلتها قضيتها . ولكن سرعان ما تبين عدم جدوى هذه المؤيدات القانونية لأن الأمراء لم يبدوا أي اهتمام للقرارات المتخذة ولما ينصاعوا لما امروا به ، حتى أضطر كونراد الاول إلى اتخاذ تدابير زجرية بحقهم . وباءت السياسة الملكية في كل مكان بالاخفاق الذريع .

ومات كونراد الأول في ٢٣ كانون الأول ٩١٨ تاركاً ذكرى الملك الخاسر : فقد تخلى عن اللورين إلى شارل الساذج ، ولم يستطع دفع الغزو الهونغاري واخماد المعارضة . ولكنه استطاع ، بالرغم من ظروفه الحرجة ، ان يرسم للملكية الألمانية خط السير في المستقبل ، وذلك بأن جعل من الكنيسة نقطة استناد له ضد الأدواق . وسيأخذ اوتون الأول هذا البرنامج ويوسعه . وخلف كونراد الاول مباشرة دوق ساكس ، هنري ، وقد تصالح معه الملك في أيامه الاخيرة وسماه وهو على فراش الموت وفضله على أخيه ليكون خلفاً له . ولكن هنري ، على العكس ، سلك اتجاهاً مخالفاً لما أراد كونراد .

السلالة الساكسونية . — اجتمع الأمراء الألمان في فريتزلار في ١ أيار ٩١٩ وصادقوا على ارادة كونراد الأخيرة وعهدوا بالتاج الملكي إلى هنري دوق ساكس بعد أن أجمعوا على أنه يفوقهم قيمة وانه الوحيد القادر على تأمين النظام الداخلي والأمن الخارجي .

ولد **هنري** سنة ٨٧٦ ، وقد خلع عليه مؤرخو العصر الوسيط لقب « الصياد » نظراً لرياضته المفضلة . وكان أبوه اوتون دوق تورنجه ثم أصبح دوق ساكس عام ٨٨٨ . وخلف هنري أباه على هذه الدوقية عام ٩١٢ ، واستطاع بانتصاراته على السلاف والهونغاريين أن يقوي نفوذه . وقد مجد المؤرخون صفاته العسكرية واستقامته وحبه العدل وطيبه ، مما زاد في احترامه وولاء الشعب له . ومنذ توليه العرش كان ينوي توطيد السلام في الداخل والخارج . وذلك من جهة ، بالبحث عن تفاهم بين الملكية والأدواق . ومن جهة أخرى ، بوضع سد في وجه الغزو الهونغاري الذي طغى من جديد على المانيا في السنوات الأخيرة من حكم كونراد الأول . وقد استطاع بما عنده من ذكاء وقوة وحس سياسي وشعور بالواجب أن يكون على مستوى المهمة التي ندب اليها غداة انتخابه .

تختلف سياسة هنري الأول تماماً عن سياسة كونراد الاول . فقد حكم هذا الأخير مع الكنيسة ضد الأدواق . أما هنري فقد انطلق من وجود الدوقيات القومية ، وعوضاً عن ان يكسر الأطر الجديدة ، التي فرضت عليه بظروف قاسية ، حاول أن يلينها ويمرنها ليسمح للسلطة الملكية بالتكيف معها أو بوضع نفسه فوقها .

وكانت اولى أعمال الملك الجديد ذات مغزى في هذا الاتجاه . حقاً لقد سماه كونراد ليكون خلفاً له . ولكن هنري اراد أن يأخذ التاج من اقرانه . وبعد ان انتخب ملكاً رفض بالمقابل ان يبارك ويتوج على

يد رئيس اساقفةماينس ، هيريغر ، بحجة انه غير اهل لهذا الشرف . وهذا التواضع المتكلف لايخدع ولا ينطلي على أحد ، لأن الملك الجديد برهن على انه لايريد التنكر لماضيه ، واكد بجزم عن عزمه بانه يكون مستقلاً عن الأسقفية التي كانت تتمتع بنفوذ حاسم في عهد الحكم السابق .

وقد ظهرت هـذه الاتجاهات بالتقرب من الأدواق والحاق الأساقفة بهم . لأن سياسة هنري الأول كانت ترمي إلى تضحية الكنيسة وبقاء سلطة الادواق سليمة . ولكن هذه السياسة كانت عظيمة النتائج بالنسبة للملكية لو لم يقم خلف هنري الأول ، اوتون الأول ، برد فعل يعاكس اتجاه ابيه . لأن ما يخشى منه هو ان تنجرف الكنيسة ، التي حافظت حتى الآن على وحدتها القوية ، بالحركة الـتي فتتت مملكة جرمانيا . ولكن سياسة هنري الأول المسالمة لم تعط حتى الآن إلا نتائج طيبة ، لأن الاعتراف الرسمي بالدوقيات تقبله الادواق بترحاب وأصبحوا مساعدين للملكية . وعندما اطمأن هنري الأول لمساندة الأدواق ودعمهم أصبح بامكانه توسيع المانيا باتجاه الغرب ، وفي الوقت نفسه ، حمايتها من الغزاة في الشمال والشرق .

ضم هنري الأول مملكة اللورين القديمة ، ولم تتمتع هذه المملكة في ظل النفوذ الفرنسي الا بهدوء نسبي . فقد ثار اميرها الكونت جيلبيرت بن الكونت رونيه على شارل الساذج وربما كان ذلك منه بتشجيع من هنري الأول . وعلى أي حال نشبت الحرب بين ملك فرنسا وجرمانيا عام ٩٢٠، ولا تعرف على وجه الدقة المراحل المختلفة لها، وكل مايعلم هو انها انتهت بمعاهدة بون وبموجبها تعهد الملكان بعبارات غامضة بصداقتهما المتبادلة واعترافهما بالممتلكات العائدة لكل منهما .

غير ان سقوط شارل الساذج حل القضية . وبعد تردد طويل دام سنتين في حرب أهلية اعترف اللورينيون نهائياً بهنري الأول ملكاً عليهم في ٩٢٥ . وفي العام ٩٢٨ منح هنري جيلبيرت لقب دوق وزوجه ابنته جيربيرج . والفت اللورين دوقية المانية كسائر الدوقيات الأخرى .

وبالرغم من ان الملك بارك حقوقياً الانقسام إلى دوقيات كما كانت الحال قبل توليه العرش ، فقد اهتم برفع جاه الملكية وتوجيه النضال ضد الهونغاريين والسلافيين والدانماركيين ، وتحرير المانيا من الأخطار الخارجية .

لقد عاودت الغارات الهونغارية هجومها في السنوات الاولى لحكم هنري الأول ، ولكن الغزو الحقيقي كان في العام ٩٢٦ عندما انقض الغزاة على بافاريا وسؤاب واعملوا فيها النهب والحريق . وتألم هنري الأول لهذا الحادث وعقد في اول تشرين الثاني ٩٢٦ مجلساً في فورَمز ضم اساقفة وامراء علمانيين وتقرر فيه اجراء مفاوضات لانسحاب الهونغاريين . ثم تلا هذا الغزو هدنة دامت سبع سنوات دفع هنري خلالها ضريبة للأعداء . ولكنه افاد من هذه الهدنة واتخذ استعداده ليجعل المانيا في حالة تمكنها من الدفاع .

ولم يشأ الملك انشاء ثغور جديدة خشيةً من ان يتأتى عنها ضعف في السلطة الملكية . ولكنه انشأ حول المدن تحصينات في ساكس وتورنجة ونظم مقاومة السكان . وضم ادواق بافاريا وفرانكونيا واللورين جهودهم لجهود المليك وساعدوه في كل ما أراد ، وخرجت السلطة الملكية من الأزمة قوية مرفوعة الرأس . ولا أدل على ذلك من النصر العظيم الذي حققه على الهونغاريين في العام ٩٣٣ . وكان لهذا الظفر أثره في تأمين مستقبل الملكية .

وفي الوقت الذي كان فيـــه هنري الأول يحمي المملكة من غزو الهونغاريين ، قام بهجوم على السلاف . ولم يكتف الأدواق الساكسونيون كما كان يفعل الكارولنجيون ، باستقرار الأقوام حول الايلب بل كانوا يهاجمونها في عقر ديارها . وهكذا فعل الملك هنري الأول واخضع بلاد الايلب أخيراً للنفوذ الساكسوني (٩٢٩) .

وامتد نشاط هنري الأول إلى بوهيميا ودخلت هذه البلاد في ملك السياسة الألمانية التي شجعت فيها تغلغل المسيحية كما في سائر البلاد السلافية الأخرى .

وآخر حادث عسكري في حكم هنري الأول كان في حرب الدانياركيين واجبارهم على دفع الضريبة وتهيئة عمل التبشير الذي توجهه كنيسة هامبورغ وقد بدأ هذا العمل في ٩٣٥ .

وتوفي هنري الاول في ٢ تموز ٩٣٦ بعد حكم دام ثماني عشرة سنة . وهذا الحكم إذا ماقورن باسلافه ظهر مثمراً وخصباً . ففي الخارج صد هجوم المغيرين من هونغاريين وسلافيين ودانياركيين . وفي الداخل وطد السلطة الملكية بوسائل قد تبدو خطرة على المستقبل ولكنها الآن ناجعة ، ووضع حداً للحروب الأهلية باعترافه بالدوقيات ، وبارك بعمله هذا قوة منافسة للتاج واضعف الكنيسة حليفته ، وسيدرك ابنه وخلفه اوتون الأول اخطار هذه السياسة فيعمل على معالجتها بحدس عبقريته ، وستتجه في عهده المانيا وجهة جديدة . لقد رفع هنري الأول الملكية بعد أن أضناها الأدواق ، وسيبعث ابنه اوتون الأول الامبراطورية لصالح جرمانيا .

ايطاليا

من ٨٩٦ إلى ٩٤٧

نهاية امبراطورية سبوليت (٨٩٦ — ٨٩٨) . — لقد استطاع آرنولف الكارولنجي ملك جرمانيا ان يدخل روما في العام ٨٩٦ . ولكن عمله كان ضعيفاً ، فلم تمض بضعة اسابيع الا واستعادت ايطاليا استقلالها ورجعت امبراطورية سبوليت التي قلبها ارنولف . لأن لامبر بعد ذهاب الجيوش الألمانية عاد بعد ان طرده ارنولف وأخذ يقوم بتدابير انتقامية ، واستطاع بهذه الطرق الارهابية ان يخضع لومبارديا لسلطته . ثم تصالح مع بيرانجيه ، منافسه القديم ، واعترف بسيادته على البلاد الواقعة ماوراء نهري الآدا والبو ، واحتفظ لنفسه ، عدا دوقية سبوليت ، بميلان وبافيا مع اللقب الامبراطوري . ولم يكن ليفعل ذلك إلا في سبيل الزحف على روما التي عادت لحوزته في بداية عام ٨٩٧ . وهكذا بعثت امبراطورية سبوليت ، ولكن دون أن تكون طويلة الأجل ، واعترف امراء ايطاليا الوسطى بسلطة لامبر وتعاونوا معه ، واتخذ هذا عدة تدابير اصلاحية من شأنها اعادة النظام والرفاه إلى شبه الجزيرة الايطالية . ثم مات اثر حادث صيد في ١٥ تشرين الأول ٨٩٨ ولم يخلف وارثا . واستطاع بعده بيرانجيه أن يستحوذ على التاج دون أن ينازعه أحد ، ولكن شتان ما بينه وبين الامبراطور الراحل الذي حقق اتحاد الايطاليين جميعاً وحمى شبه الجزيرة من ويلات الغارات التي حلت بها في فجر القرن العاشر .

الغارات الهونغارية والاسلامية . — لقد هاجم الهونغاريون ايطاليا قبل المانيا . فما استقر بهم المقام في سهل الدانوب الا وانقضوا في ربيع

عام ٨٩٩ بجموعهم على ايطاليا دون أن يلقوا مقاومة ، لأن انسحاب آرنولف وموت لامبر حرما شبه الجزيرة الايطالية من هذين الرجلين القادرين على حمايتها .

واستطاع بيرانجيه بعد أن زين رأسه بالتاج أن يجهز جيشاً للدفاع ، ولكنه لم يستطع رد الهجوم الكاسح الا قليلا . وعاود الهونغاريون الكرة واعملوا في البلاد الخراب والدمار . ثم عرفت ايطاليا بعد هذه النكبة فترة راحة لأن الهونغاريين وجهوا هجومهم إلى المانيا ، ولكن هذا لم يمنعهم من العودة عام ٩٢١ و ٩٢٢ واكثر من ذلك عام ٩٢٤ وآخر مرة عام ٩٢٦ عندما بلغ الغزو طوسكانه وهدد روما بالخطر .

وعرفت ايطاليا الجنوبية غزو المسلمين . فبعد أن أقام المسلمون في افريقية الشمالية وصقلية وكامبانيا وفي المشارف المطلة على مصب نهر غاوليانو ، قاموا في السنوات الاولى من القرن العاشر بسلسلة هجومات على شواطىء بروفانس وايطاليا .

كان انطلاق المسلمين في بادىء الأمر من افريقية ، لأن المسلمين في صقلية عاشوا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع بسلام مع المسيحيين ولم يكونوا على استعداد لاستئناف القتال .

ولكن أمير القيروان ابراهيم بن أحمد لم يتخل عن الجهاد ، وكانت صقلية تابعة له ، بيد أن زعماءها حاولوا أن يستقلوا عنه فبعث إليهم بابنه عبد الله ليوطد نفوذه في الجزيرة ، وجهز اسطولاً عظيماً واتجه صوب مزّاره حيث نزل في ١ آب ٩٠٠ ثم دخل بالرمو وجعلها قاعدة لعملياته . ورأى اغريق كالابر الخطر فنظموا جيشاً لنجدة تاورمينا وكاتان ، وكانتا معرضتين مباشرة للخطر . وحاول عبد الله دون تدخلهم بهجوم على

ريجيو عام ٩٠١ ونهبها . وخافت المدن المجاورة أن يصيبها ما أصاب ريجيو فعرضت على الفاتح ضريبة قيمة فقبل . لاسيا وأنه كان يفكر بتقوية النظام الاسلامي في صقلية ولا يطمح بفتوحات جديدة . ولكن هذه السياسة كانت تخالف سياسة ابيه ابراهيم الطموح إلى الفتوحات والمغامرات .

في العام ٩٠٢ استدعى ابراهيم ابنه عبدالله إلى افريقية، واتجه بنفسه صوب صقلية ليحل محله . احرق تاورمينا وعبر مضيق مسّينا ورفض مقترحات مدن كالابر وطوف في البلاد من الجنوب إلى الشمال حتى كوسانزا ولاقى فيها مقاومة غير منتظرة ومات أثناء الحصار بالزحار في تشرين الاول (٩٠٢) . ثم تخلى حفيده زيادة الله بالحال عن مشروع جده ، الذي كان يحلم بالوصول إلى روما ، وقفل راجعاً بالجيش إلى صقلية ونجت على هذا النحو ايطالية الجنوبية .

وبعد موت ابراهيم قامت اضطرابات في أفريقية وحالت دون هجوم جديد على كالابر ، فضلًا عن أن صقلية اعلنت ولاءها لسلطة خلفاء بغداد وتعاهدت مع اغريق ايطاليا الجنوبية . وانتهت الغارات الكبرى . إلا ان المسلمين في منطقة غارليانو قاموا بهجمات في منطقة كابو (٩٠٥) وفي الريف الروماني . ولكن سرعان ماردت . وفي العام ٩١٤ نظم البابا جان العاشر مع ماركيز سبوليت ، البيريك ، وامير كابو والقائد البيزنطي ، حملة صليبية بمساعدة الاسطول الاغريقي . وانتهت في العام ٩١٥ باجلاء المسلمين عن منطقة غارليانو ، ولكن ايطاليا القارية بقيت معرضة لهجوم المسلمين من صقلية وافريقية .

غير ان الهجومات التي توالت ابتداءً من ٩١٥ لم تكن ذات أهداف كبرى ، رغم ماسببته من خسائر : ففى ٩١٨ هاجم المسلمون ريجيو ،

ثم تجدد الهجوم عام ٩٢٢ واتبع بآخر هام اشترك فيه سلاف الادرياتيك (٩٢٤ — ٩٢٥) . وفي العام ٩٢٥ نهبت اوديا وأخذ عدد عظيم من الأسرى . وفي ٩٢٦ سقطت تارنت بدورهـــا تحت ضربات أمير صقلية والقرصان السلافي سبّان . وهاجم القرصان سالرنو ونابولي دون أن يتدخل الاسطول البيزنطي بقوة . ولم يكن في هذه الحملات تلاحم واستمرار ، كما يظهر ان المغيرين لايرغبون بالاستقرار في ايطاليا الجنوبية . إلا أن أمير صقليةالحسن حاول في العام ٩٥٠ ان يحتـل كالابر : وقعت ريجيو في يده ، ونجت جيراس وكاسّانو من النهب مقابل ضريبة ، ثم ظهر الحسن مرتين في ٩٥٢ و ٩٥٦ في ايطاليا القارية ودب فيها الخوف والرعب . وعلى ما يبدو ان الطرفين سئما القتال . فقد كانت بيزنطه ، في الشرق، في صعوبات ، والمسلمون في نزاع وشقاق ، فما وسع الجانبين من مسلمين وبيزنطيين إلا أن وقعوا معاهدة الصلح في ٩٥٦ وتلت ذلك فترة هدوء نسبي .

وانتشرت الغارات الاسلامية في الشمال : ففي آخر القرن التاسع تناولت شاطىء بروفانس وادت في ٨٩٠ و ٩٠٠ إلى انشاء موقع إسلامي في فراكسينيتوم بالقرب غارد — فرينيه ، في المنطقة الواقعة بين سان — تروبيز والبحر . ومن هذه المنطقة انتشر العرب بين جبال الالب ونهـر الرون دون أن يجرأ أحد على ازاحتهم . وجهزت حملتان على فرينيه : الواحدة من قبل الاسطول الاغريقي عام ٩٣١ ، والأخرى من قبل ملك ايطاليا هوغ ، وامبراطور القسطنطينية رومان ليكابين عام ٩٤٢ ، ولكنها لم تؤديا إلى النتائج المتوخاة منها ، ولم تمنعا المسلمين من صعود وادي الرون الأعلى وعبور ريثيا والوصول إلى دير القديس — غال ونشر الرعب

في تلك الأرجاء . وظل هذا دأبهم إلى ان ارجع اوتون الأكبر الامبراطورية وأخلى العرب فرينيه بعد أن ظلوا فيها قرابة ثمانين عاماً .

المنازعات السلالية (٩٠٨ - ٩٢٦) . — وخارجاً عن الغزو ، مرت ايطاليا في النصف الأول من القرن العاشر بمحن أخرى وأصابها ما أصاب الممالك الناشئة عن تجزئة الامبراطورية الكارولنجية من احتلال أجنبي وحرب أهلية .

بعد موت لامبرسبوليت عام ٨٩٨ قبل بيرانجيه ملكاً ، وما لبث بعد سنتين إلا أن رأى منافساً له في شخص ملك بروفانس ، لويس ، بن بوزون ، حفيد الامبراطور لويس الثاني من جهة أمه ، ولا تعلم الأسباب التي دفعت الامراء الايطاليين إلى دعوة لويس : فهل يجب أن يرى في ذلك تعلق بالسلالة الكارولنحة ، أو أن بيرانجيه خيب الآمال التي عقدت عليه لأنه لم يستطع في العام ٨٩٠ دفع آثار الغزو الهونغاري. ان سكوت النصوص لا يسمح بأي فرضية في هذا الاتجاه . ولكن الصحيح الثابت هو ان لويس بروفانس دخل روما ، وزين البابا بندكت الرابع رأسه بالتاج الامبراطوري في ١٥ أو ٢٢ شباط ٩٠١ ، وقامت على اثر ذلك منازعات بين لويس وبيرانجيه انتهت أخيراً بأن قبض هذا الأخير على لويس وسمل عينيه ثم سمح له بالعودة إلى بروفانس وتمتع وحده بالتاج ولكن دون سلطة . ولم يستطع الذهاب إلى روما لأن ماركيز طوسكانة اداليبر سد الطريق في وجهه ، ولأن البابا سيرج الرابع (٩٠٤ - ٩١١) لم يكن مستعداً لمنحه اللقب الامبراطوري هدف احلامه . غير أن البابا جان العاشر في العام ٩١٥ أبدى رغبة طيبة حيال بيرانجيه ودعاه إلى روما ليتوجه امبراطوراً ، بالرغم من أن لويس الأعمى (لويس بروفانس) مازال على قيد الحياة .

وبالرغم من هذا اللقب الجديد ظـــل بيرانجيه وجهاً شاحباً ، على ما فيه من حب للسيطرة والاستبداد . وهذا ما أثار عليه ايطاليا الشمالية وحمل الثائرين على دعوة ملك بورغونيا رودولف الثاني . ولكن هـذا لم لم يستطع عمل شيء عظيم ، ووجد في موقف حرج لأن أكثر البلاد لم تعترف بسلطته ، فضلا عن ان بيرانجيه كان يعتمد على الهونغاريين . ومن جهة أخرى كان هوغ آرل يحكم بروفانس باسم لويس الاعمى ، وبدا منذ ٩٢٣ منافساً ممكناً . وظل مصير ايطاليا قلقاً ولكن موت بيرانجيه في ٧ نيسان ٩٢٤ جعل الحل سهلاً . فقد هجر الايطاليون رودولف وعاد إلى مملكته في بورغونيا ، وتقبل هوغ في بافيا (تموز ٩٢٦) تاج ايطاليا واحتفظ به عشرين عاماً .

ومات لويس الأعمى عام ٩٢٨ دون وارث شرعي . وخلفه على بروفانس شارل — قسطنطين ، ابنه الطبيعي ، واعترف هذا بسيادة ملك بورغونيا . ولم يشأ هوغ آرل أن يكون خلفـــاً للويس الأعمى وحرص على ابعاد أي منافس له في ايطاليا . وهكذا عادت مملكة بروفانس القديمة إلى رودولف الثاني الذي حكم « مملكة آرل » الممتدة من بال إلى دلتا الرون . وعندما مات رودولف الثاني (٩٣٧) حاول هوغ آرل ان يصادر لصالحه ارث الأمير المتوفى، غير أن تدخل ملك جرمانيا اوتون الأول حال دون مايريد وحافظت مملكة آرل على استقلالها ودام هذا الاستقلال قرناً (٩٣٣ - ١٠٣٢) .

ان تشكل مملكة آرل التي ضمت دولتين من لوتيرانجيا القديمة ، بينما أصبحت المملكة الثالثة ، اللورين ، دوقية المانية ، كان نتيجة من نتائج المنازعات السلالية التي انتابت ايطاليا من ٩٠٠ الى ٩٢٠ . غير أن

المنازعات بدأت تهدأ في ايطاليا بعد هذا التاريخ ، وظل هوغ حتى ٩٤٥ بعيداً عما يعكر الصفو ، ولكنه ظل دون سلطة . ولم تكن الملكية الايطالية في الربع الثاني من القرن العاشر بأقوى من الملكية الجرمانيه في زمن لويس الطفل وكونراد فرانكونيا الأول .

ايطاليا تحت حكم هوغ آدل (٩٢٦ ٩٤٧) . — ان الأسباب التي دعت إلى تشكل دوقيات قومية في المانيـــا أدت إلى تطور مماثل نوعاً في ايطاليا وان اختلف عنه في نتائجه . ان المنازعات السلالية ، وبخاصة الحادة في شبه الجزيرة في النصف الأول من القرن العاشر ، كسفت السلطة الملكية تماماً . وفي كل مكان قامت قوى محليه مستقلة استقلالاً يكاد يكون تاماً . وكانت ايطاليا تحت حكم هوغ آدل (٩٢٦ — ٩٤٧) مجزأة إلى امارات علمانية وكنسية لا سيطرة للمليك عليها .

ان مملكة **ايطاليا** الكارولنجية كان مركزها لومبارديا وعاصمتها بافيا . وعندما مات شارل السمين ، استقل بيرانجيه مركيز **فريول** وتطلع إلى تاج الملك ، ومثله مراكيز آخرون .

وإلى الجنوب **طوسكانا** ، وفيها استطاع المركيز ادالبير ان يؤخر خلال سنوات عديـــدة تتويج بيرانجيه امبراطوراً ، ولم يعترف له بأي سلطة عليه .

وإلى جانب هؤلاء المراكيز الذين اغتصبوا الحقوق الملكية تألفت **اقطاعية كنسية** قوية وخاصة في لومبارديا . واستطاع الأساقفة ، في زمن الفوضى والاضطراب ، بعد وفاة شارل السمين ، بفضل نفوذهم على الشعب وازدياده بسبب الغارات الهونغارية والحروب الأهلية ، ان ينتزعوا من المطالبين بالسلطة والمتنازعين على التاج امتيازات هامة أمنت لهم سلطة

زمنية واسعة على المدن التي يوجهونها روحياً . وكان الأسقف في كثير من المدن يجبي الاتاوات التي كانت في السابق تغذي الخزانة الملكية ، وبحجة الدفاع عن البلاد ضد الغزاة يبني قصراً يساعده على نمو سلطته المادية .

ولم يكن لملك ايطاليا الذي أصبحت سلطته اسمية في شمال شبه الجزيرة ووسطها ، مايدفعه إلى فرض نفوذه على روما والمناطق المجاورة .

فمنذ أن زالت الامبراطورية الكارولنجية سقطت **روما** في يد الارستقراطية الرومانية ، التي كبح جماحها شارلومان وخلفاؤه ، واستبدت بالأمر واخذت تلعب بالكرسي الأقدس كما تشاء .

وفي شرقي وجنوبي روما كانت دوقية **سبوليت** تغطي وادي التيبر الأوسط وجزءاً كبيراً من الآبروز ، ووجد بين امرائها من أصبح ملكاً على ايطاليا وامبراطوراً .

أما **ايطاليا الجنوبية** فلم تخضع للفرنجة . وكان امبراطور القسطنطينية يطالب بها ولم يتخل عن حقوقه عليها . وكانت ، من الناحية العملية ، مقسمة بين الاغريق واللومبارديين والمسلمين .

وإذا أخذنا بالنصوص الاغريقية أمكن الاعتقاد بأن النفوذ البيزنطي ظل قائماً في ايطاليا الجنوبية بعد سقوط نيابة رافينه وفتح شارلومان ، وان الامبراطور قسطنطين السابع الارجواني ربط ممتلكات امبراطورية الشرق في ايطاليا بقيادتين : قيادة صقلية وقيادة لونغوبارديا . ولكن هذا التقسيم الرسمي ، وان تركنا نفترض بأن القسطنطينية لم تتخل عن املها في ارجاع السيطرة الاغريقية إلى حيث كانت تمارسها في كل مكان ، لا يتفق والواقع . لأن صقلية كانت محتلة من قبل المسلمين والقيادة التي ترتبط باسمها اقتصرت على كالابر وعاصمتها ريجيو . أما قيادة لونغوبارديا ، وان شملت مبدئياً ايطاليا كلها وادعت بيزنطه بسيادة حقيقية عليها ، فهي لا

تمتد في الواقع إلى ماوراء البلاد التي يمارس حاكم باري سلطته عليها أي في بوي واوترانت . وظل الحكم البيزنطي ضعيفاً ، حتى ان الادارة السيئة التي رافقته هيأت الشعب المرهق بالضرائب والموظفين الذين يعيشون على حسابه ، لأن يقبل ، متى سنحت الفرصة ، السادة الجدد الذين يتقدمون لحكمه .

وبين الممتلكات البيزنطية في بوي وكالابر ودول كامبانيا الصغيرة التابعة قليلاً أو كثيراً للقسطنطينية ، توجد دوقية بينيفن وامارة سالرنو ، وهما أثر من مخلفات الحكم اللومباردي في ايطاليا . وبفضل الأمراء اللومبارديين ساد النظام والسلام ، واصلح الدمار الذي سببته الغارات ، وبدت بشائر يقظة حضارية في ايطاليا اللومباردية التي كانت أول من خرج من الفوضى التي تخبطت بها شبه الجزيرة . وقد تجلت هذه النهضة ببناء الاديرة ونسخ المخطوطات وتزيينها .

أما صقلية فلم تتخلص من حكم الأغالبة ، لأن المسلمين ، وان اخرجوا من القارة ، بقوا في الجزيرة ، وكانت لهم قاعدة ممتازة لجولاتهم في البحر المتوسط الشرقي . وكان خلاص صقلية هدفاً مشتركاً اتجهت اليه جهود البابا وامبراطور القسطنطينية ، ومن ثم ايضاً امبراطور الغرب بعد رجعة الامبراطورية عام ٩٦٢ .

هذه هي حالة ايطاليا السياسية اثناء حكم هوغ آرل . لقد بلغت التجزئة فيها نسباً أوسع مما في المانيا الدوقيات، ووجدت فيها وحدات عرقية : لومباردية ، اغريقية ، اسلامية، ولكنها لم تبلغ قوة ظهورها في جرمانيا . واستطاع امراء هذه الوحدات ان يتحرروا من سلطة الملك بحكم الواقع، فضلاً عن أن سلطة المليك كانت بسبب المنازعات السلالية أضعف منها في

أي مكان آخر ، ولم يكن هوغ آرل بالمليك الذي يستطيع أن يعيد إلى الملكية الجاه الذي فقدته منذ أمد طويل .

ولقد شعر هوغ آرل بضعف سلطته واراد أن يؤمن وراثة العرش لابنه لوثير ، فرأى من الخير في العام ٩٣١ ان يشركه في الحكم ، وحاول أن يثبت قواعده باسناد المناصب العليا في الدولة إلى اقربائه الاقربين والى امراء بورغونيين . ولكن هذه الطرق جعلته مكروهاً في أعين الايطاليين بعد أن رأوا انفسهم مبعدين عن الاسهام في خدمة بلادهم ، وهذا ما يفسر لنا كيف ان أمير الرومانيين البيريك عمل مافي وسعه ليحول دون تتويج هذا الملك الكريه امبراطوراً . كما ان الارستقراطية الايطالية فكرت بالخلاص منه والسعي لدى اوتون الاول ملك جرمانيا بالتدخل ،ولكن الحالة الداخلية والخارجية لم تكن لتسمح له بالابتعاد عن جرمانيا دون التعرض للاخطار . وباءت المساعي بالفشل . غير ان النقمة بدأت تتفاقم على هوغ ومات اخيراً في ١٠ نيسان ٩٤٧ وخلفه ابنه لوثير ولم يكن يتمتع بأي سلطة حقيقية وسيزول في العام ٩٥٠ عندما تنضج ايطاليا وتصبح على استعداد للتدخل الالماني واستقبال أوتون الاول مخلصاً ومحرراً . وفي الحقيقة ان ايطاليا لم تستطع التغلب على الازمة الفوضوية التي خلفتها تجزئة الامبراطورية الكارولنجية والغارات والمنافسات السلالية . ولذا فان نهوض الملكية فيها لم يتم على شاكلة المانيا ، ولم يأتها السلام الا من الخارج .

الفصل الحادي والعشرون

فرنسا بين الروبيرتيين والكارولنجيين

من ٨٨٨ إلى ٩٨٧

حكم اود (٨٨٨ — ٨٩٨) . — لقد كان انتخاب اود ملكاً على فرانسيا الغربية ، بعد موت شارل السمين ، حلاً املاه الخطر النورماندي، كما رأينا ، ولكنه لا يقتضي سقوط السلالة الكارولنجية نهائياً. لقد وجد في فرنسا ، كما في المانيا وايطاليا ، ولاء كارولنجي عتيد وعلى استعداد للقيام متى سنحت الظروف المواتية . وإذا حصل اود على التاج فذلك لأن الممثل الوحيد للسلالة الكارولنجية ، وهو شارل ، المولود بعد وفاة ابيه لويس الألكن ، وعمره آنذاك ٨ سنوات ، كان هزيلاً ضعيف البنية ، وليس باستطاعته أن يقوم بمهات السلطة ومسؤولياتها .

ولذا سمى الكبار اود ، لأنه برهن على زعامته العسكرية وقوة شكيمته . وكان اود يملك كونتية باريس واملاكاً هامة في منطقة اورليئان ، وكان سيد نوستريا ودوق المملكة الفرنجية بفضل اللقب الذي منحه اياه شارل السمين . ولقد بدا اكفأ من غيره على رد الغزو النورماندي عن منطقة السين واللوار التي يمارس عليها سلطاته مباشرة .

أما في باقي المملكة ، على العكس ، فلا يتمتع بأي سلطة فعلية . وإذا لم ينته التطور الذي ولد النظام الاقطاعي ، فمن الممكن أن

نقول إن الانتفاع ، منذ آخر القرن التاسع ، أصبح بالتدريج وراثياً ، وان التشابه بين الوظائف والانتفاعات أصبح شيئاً واقعاً . ولقد وجد في زمن اود سلالات كونتات مستقلين يعتبرون انفسهم كونتات اكثر بكثير مما هم موظفو التاج . ولذا تراخت الروابط التي تربط مختلف اجزاء المملكة بالمليك . وما لبث هذا التطور ان ازداد في عهد الملك المنتحب . فقد كان كبار الملاكين يحسدون اود ونخص بالذكر منهم بودون الثاني كونت فلاندر ، وريشار بورغونيا ، ورامولف الثاني كونت بواتو . ولذا كان اود بحاجة إلى كثير من الفطنة والقوة في الحكم لاسيما وان سلطته ضعيفة وتهدد بالانهيار عند أول صدمة .

ويبدو ان هذا الأمير قد برر الآمال التي عقدت عليه لان حكمه بدأ بنصر عظيم . قارع النورمانديين وتغلب عليهم في مونفوكون — في الآرغون (٢٤ حزيران ٨٨٨) . وكان لهذا النصر أثر كبير . ثم عاود النورمانديون غزوهم ، ولكن اود في هذه المرة فعل مافعله شارل السمين من قبل واشترى انسحابهم ، ولم يستطع في شتاء العام ٨٩١ ان يمنع عودتهم الدورية واجتياحهم البلاد الواقعة في غرب فرنسا وشمالها وشرقها . إلا ان ارنولف بظفره في لوفن (٢٥ حزيران ٩٨١) انقذ الوضع واجبر النورمانديين على مغادرة القارة ، التي لاتكفي جشعهم ، والذهاب في هذه المرة للقيام بعملياتهم في انكلترا . وهذا الاخفاق ، الذي مني به اود ، مع مارافقه من عدم تبصر احياناً وفتور عزم أحياناً أخرى ، فتح الاعين عليه ، وولد عند بعض خصومه احقاداً ، وعند الآخرين طموحاً يخشى خطره في المستقبل . وقد ظهر ذلك في الثورة التي فجرها في ٨٩٢ بودون كونت فلاندر وثوره اكيتانيا والمؤامرة التي حاكها مطران رنس فولك عندما رأى الافكار ناضجة للقيام برد

فعل كارولنجي . ففي ٢٨ كانون الثاني ٨٩٣ اصطحب معه إلى الكاتدرائية شارل الساذج وكان لاجئاً عنده ، وباركه حسب المراسم التقليدية . وهذا العمل من شارل يعني المطالبة بتاج أجداده . غير ان اود لم يكن مستعداً للانمحاء أمام منافسه . وفتح احتفال ٢٨ كانون الثاني ٨٩٣ دور منزاعات سلالية كبرى بين الكاروانجيين والروبيرتيين (سلالة اود) .

كان مع شارل الساذج كبـــار اوسترازيا القديمة ، ومع اود أهل نوستريا .

شعر اود بالخطر يهدده ، عندما علم ، وهو في اكيتانيا في بداية شباط ٨٩٣ ، بخبر مباركة شارل . ولذا تصالح مع خصميه ادبمار بواتيه وغليوم اوفيرن ووعداه بالبقاء على الحياد مقابل التنازل عن امتيازات كثيرة ما زالت مجهولة .وهاجم اود دوق بوروغونديا واجبره على التخلي عن مناصرة الكارولنجي ، ومن بورغونيا انطلق وحاصر رنس ، واسترد مملكته في بضعة اسابيع ولكن شارل الساذج تماسك واجبر اود على الابتعاد عن المدينة المطرانية ووقع معه هدنة عيد الفصح ٨٩٤ .

وعلى اثر ذلك قام فولك بمناورات دبلوماسية منذ شباط ٨٩٣ . استكتب الأمير الشاب بعد حفلة المباركة رسالة إلى البـــابا فورموز اعرب فيها عن اعمق احترامه واجلاله فأجابه فورموز بالتفاتة كريمة . وسعى فولك للحصول على مساندة الامبراطور ، غي سبوليت ، ومنافسه ملك جرمانيا ، ارنولف ، ولكن غي كانت له هموم أخرى ، وارنولف يحذر فولك بسبب مفاوضاته مع غي . غير أن فولك لم يتأثر وكتب إلى ارنولف يعلمه بأن شارل كان شاباً عـــام ٨٨٨ ولم يخلف شارل السمين في فرنسا ، اما الآن فهو قادر على حكم المملكة التي نفرت من ظلم اود ، ولمح في الوقت نفسه بالتضامن الذي يوحد بين أعضاء الأسرة

الـكارولنجية ، وان يمثل الفرع الفرنسي للسلالة على استعداد لقبول تفوق ارنولف ، والعمل يوماً ما ، بالمقابل ، على مساعدة ابنه على أخـــذ الارث الجرماني .

قنع ارنولف بهذه الحجج واستقبل شارل الساذج في فورمز (أيار أو حزيران ٨٩٤) وقبل الاعتراف به مقابل وعود مازلنا نجهل فحواها على وجه الدقة . وعاود شارل هجومه ولكنه اخفق اخفاقاً ذريعاً أمام انصار اود ولم تفده مساندة ملك جرمانيا في شيء .

بدل هذا الاخفاق موقف ارنولف ، ودعـــا المتنافسين إلى بلاطه للوصول إلى تحكيم يعيد له جاهـه بعد ان ناله ما ناله بسبب الحوادث الأخيرة . وتخلف شارل ، ومثل اود بين يديه في فورمز في آخر أيار ٨٩٥ وحصل كما يقول المؤرخون على كل ما جاء من أجله . وابتداء من هذا التاريخ شغلت الحملة الثانية إلى ايطاليا ارنولف (تشرين الاول ٨٩٥) فلم يعد ليهتم بالمنازعات السلالية في فرنسا . ولذا كان السلاح الحكم الفصل بين شارل واود . وعندمـــا اوشك اود أن يتغلب على خصمه ، عاد النورمانديون الذين ذهبوا إلى انكلترا ، وظهروا من جـديد في مصب نهر السين وصعدوا النهر ، حتى ان شارل الساذج فكر ، في فترة من الزمن ، ان يستعين بهم لفتح مملكة آبائه .

ولكن مطران رنس اقنع شارل بالعدول عن هذا العمل غير المشرف ، ولجأ إلى التفاوض مع اود وما وسع هذا الاخير الا ان قبل بالمفاوضة أمام خطر النورمانديين . وتم لقـاء بين المتنافسين ، قبل فيه اود أن يتنازل لشارل « عن قسم من المملكة » ووعـده « باكثر من ذلك ايضاً » . وهذا التعبير الغامض الذي استعمله مؤرخ سان — واسط

آثار عند المؤرخين المحدثين جميع أنواع الفرضيات التي يستحيل الخيار بينها . غير انه من المعتقد ان اود احس بدنو أجله ، وقـد مات فعلاً في السنة التالية ، فوعد شارل الساذج بأن يقترحه ليكون خلفاً له .

ثم بادر اود إلى التعاهد مع النورمانديين ، لأن وجودهم في البلاد سبب اضراراً فاحشة في منطقة السين وحول باريس ، وما وسعه إلا ان سمح لهم باجتياح نوستريا واكيتانيا . ولا شك في ان هـذا الاتفاق لا يشرفه ، ولكن الحرب النورماندية والحرب الاهلية أدتا إلى الاعياء بشكل أصبح من المستحيل القيام بأي مجهود جديد . ولم يعش اود بعد هذه التسوية الا قليلاً ومات في أول كانون الثـاني ٨٩٨ بعد أن أوصى الكبار بانتخاب شارل الساذج خلفاً له .

ولا يمكننا الا ان نعترف بصراحة اخفاق محاولة تجربة ٨٨٨ التي أحلت منتخب الارستقراطية محل السلالة التقليدية . لقد دشن اود حكمه بنصر لامـع على النورمانديين في مونفوكون ، ولكنه انتهى بالعقم . فقد كان تهديد النورمانديين اكثر خطراً في ٨٩٨ منه في ٨٨٨ . ومن جهة ثانية ، لقد فتكت الحرب الاهلية بالسلطة الملكية وساعدت الكبار على ممارسة دور الحكم بين ادود وشارل الساذج ، وكسفت الملكية أمام الاقطاعية الكبرى التي أخذت تعمل وتحكم كما يحلو لها . وهكذا نرى ان التطور الذي بدأ بعد موت شارلومان أخذ يزداد ولا شيء يمنعه من الوصول إلى نهايته .

شارل الساذج . — وبدت عودة السلالة الكارولنجية امراً لامندوحة عنه في الوقت الحاضر . لقد سمى اود شارل الساذج واعترف به ملكاً دون صعوبة . وبايعه روبير اخو اود ، وريشار بورغونيا وغليوم اوفيرن ، وهربرت فيرماندوا ، إلا بودون أبى واستكبر وحاول أن يعكر صفو

السلام بنهب الاموال الكنسية والاستيلاء على أملاك الآخرين ، ولكن ظهور شارل أمامه في أراس كان كافياً ليعلن ولاءه . وفي الحقيقة ان الامراء الفرنسيين ما كانوا ليطلبوا غير ان يتجمعوا حول الملك الكارولنجي الذي حافظ على روح التوازن فيما بينهم . وهو وان انتخب من قبلهم إلا انه كان اعز منهم نسباً وأقوى قصباً .

وفي الحقيقة كان شارل لايخلو من مناقب : لان القوة لاتنقصه ومن الممكن ان نتساءل ما إذا كان اللقب «الساذج »، الذي الصقه به مؤرخو آخر القرن العاشر ، كان له في الاصل هذا المعنى السيء الذي أخذه فيما بعد . ولانجد لسوء الحظ شاهداً معاصراً يسمح برسم شخصه بدقة . غير أنه من الممكن ان نحكم على هذا الامير من عمله ، فهو على مايبدو ، كريم وصالح .

تأسيس دوقية نورمانديا . — لقد كان الحادث العظيم في حكم شارل الساذج **معاهدة سان — كلير — على الابت وهي** محاولة تصفية للقضية النورماندية .

عندما خلف شارل الثالث (الساذج) اود على العرش كانت القضية النورماندية على حدتها المعهودة ، لان المعاهدة التي ابرمها الملك الراحل لم تكن الا هدنة موقتة ، فضلًا عن ان السنة ٨٩٨ كانت سنة غزو نورماندي هائل . وقد تصدى للقائهم كبار الاقطاعيين واضطر أخيراً زعيم النورماندنيين رولون ، بعد معركة دامية قتل فيها سبعة آلاف رجل (٢٠ تموز ٩١١) ، إلى القتال متراجعاً ، وتوقيع معاهدة سان — كلير — على — الابت مع شارل الساذج التي يمكن أن يكون تاريخها في تشرين الاول ٩١١ .

ومن الممكن معرفة الاسباب التي دعت شارل الساذج ورولون إلى ابرام هذا الصلح المتبادل . فقد كان كل من الجانبين يرنو إلى الراحة ، لأن الغارات النورماندية الاخيرة لم تأت بنفس الفوائد السابقة بل وادت أحياناً إلى الاخفاق وقتل المغيرين وذهاب المغانم ، عدا عن أن بعض الزعماء ممن عرفوا بالروح العملية ، أخذوا يتساءلون في السنوات الاولى من القرن العاشر ما إذا كان من المفيد التخلي عن أعمال الغزو غير المثمرة في الغالب واستغلال منطقة غنية وخصبة يمكن الحصول منها على موارد اكيدة . وتعزى هذه الخطة ولاشك إلى رولون الذي الزم محاربيه بحياة الاستقرار وثبتهم حول وادي السين الادنى .

وأخذ شارل الساذج بهذا الرأي ، لان الانتصارات التي حققها منذ توليه العرش تركت الحالة غير مستقرة ، والتنظيم العسكري للمملكة غير كاف لوضع سد لايتزعزع أمام سيل الغزاة . وكما لوحظ بحق كان الجيش في عهد شارل الساذج مطبوعاً بطابع الاقطاعيـــة ولذا فقد كل تلاحم . وكان « الموالون » ، ادواق ، كونتات ، اساقفة ، الذين يؤلفون هذا الجيش ، لايعرفون من زعماء آخرين لهم الا الزعماء الذين يخدمون تحت أوامرهم المباشرة . وكان هؤلاء الزعماء يهتمون بالدفاع عن أملاكهم الخاصة ويتقبلون بصعوبة التجمع تحت قيادة وحيدة للمبادرة إلى مشاريع ذات نفع عام . وكانوا ، حسب القوى التي يتصرفون بها ، يردون الغزاة او يتفاهمون معهم ، ولكنهم كانوا يعملون بنظام مشتت فضلاً عن انهم يقومون بتأليف تآلبات موقتة كما في ٩١١ . والقاعدة العامة هي أنهم غير قادرين على الارتفاع فوق الافق المحدود لاراضيهم ، حتى ان فكرة الاسهام في عمل السلام ، في نطاق المملكة ، كان غريباً عنهم تماماً .

وقد ظهر فضل شارل الساذج في استغلال هذه الصفات التي تسيطر على حالة مملكته حوالي العام ٩١١ . ومن هنا أتت فكرة انهاء الغارات النورماندية بتخويل امتيازات أرضية .

لم يصلنا نص معاهدة سان ـ كلير ـ على الابت ، ولكن إذا سلمنا بالفائدة القليلة التي يجهزنا بهـا المؤرخ دودون سان كنتان وجدنا شيئاً من الحرج في اعادة بنائه . وفي رأي هذا المؤرخ يمكن رد الصلح الذي ابرم بين رولون وشارل الساذج إلى أربعة بنود أساسية .

١ ـ التنازل عن أرض ليتملكها الزعيم النورماندي بنفسه .
٢ ـ التخلي عن بروتانيا لمحاربيه ليعيشوا فيها كما يشاؤون .
٣ ـ زواج رولون بجيزيل ابنة شارل الساذج .
٤ ـ تعميد رولون .

ان البلاد التي تنازل عنها شارل الساذج إلى رولون عـام ٩١١ هي ماتسمى الآن نورمانديا العليا .

اما ما يتعلق ببروتانيا فان دودون يضيف بان رولون وجد أن منطقة السين المنخفضة مدمرة فطلب إلى شارل أن يدله على بلد ينهبه ، فقدم اليا شارل الفلاندر ، ولكن الزعيم النورماندي اعترض بأن هذه المنطقة مرزغية لتكون غنيمة كافية ، وبين أنه يفضل عليها بروتانيا فحصل أخيراً عليها . وهنا يوجد ، كما لوحظ ، اسطورة لتبرير المزاعم التي رفعهـا الادواق النورمانديون المعاصرون لدودون . فكيف يستطيـع رولون وهو المغلوب عام ٩١١ تحت أسوار شارتر أن يشير إلى مثل هذا المطاليب التي من شأنها أن تقطع المفاوضات الجارية بناء على طلبه ؟

واما الزواج بين رولون وجيزيل فهو من قبيل الاسطورة ايضاً . لأن

جيزيل ، بنت شارل الساذج وفريرونه ، لم تولد في العـــام ٩١١ على وجه التأكيد ، والملك نفسه تزوج عام ٩٠٧ . اذن من المحتمل أن يكون دودون نقل مقطعاً للمؤرخ ريجينون ذكر فيه ان الزعيم النورماندي غودفريد ، عندما أخذ الفريز ، تزوج ، في الوقت نفسه ، جيزيل بنت لوثير الثاني ؛ وانه علق على ذلك بعض تفصيلات جميلة تخيلهـا بنفسه ، مثل مشاورة الزعماء النورمانديين الذين الزموا رولون بالزواج من فتـاة شرعية فارعة ، عذراء بلادنس ، راجحة العقل ، عذبة الحديث .

أما فيا يتعلق بتعميد رولون فمن الممكن قبوله ، لأننا إذا أخذنا بما يقول فلودوار رأينا ان النورمانديين بعد الهزيمة ، هزيمة شارتر « بدأوا يدخلون في دين المسيح مقابل التخلي عن بعض الكونتيات البحرية ومدينة روان » ، إلا ان دودون زين الاحتفال بتفاصيل فريدة . ولكن التعميد يبقى ويتمم سياء المعاهدة : لأن نورماندي رولون ، الذين ظلوا حتى هذا التاريخ وثنيين ، دخلوا في ٩١١ في زمرة مسيحيي البلاد الغربية .

وقد أثار هذا الاتفاق بين شارل الساذج ورولون تفسيرات مختلفة ، وظل المؤرخون زمناً طويـلًا مجمعين على استهجان سياسة شارل الساذج واتهامـه بالجبن واستسلامه للنورمانديين واقتطاعه اقليماً غنياً واعطـائه إلى القرصان .

إلا أن هذا الرأي تغير واعتبرت معاهدة سان ـ كلير ـ على ـ الابت اليوم عملًا املاه العقل وسداد الرأي ، لأنه أنهى الغارات النورماندية وأعاد السلام إلى بلاد السين وادخل عناصر حياة جديدة في المسيحية الغربية . وربما يكون هذا التفاؤل ، بعـد التشاؤم المفرط ، مبالغاً فيه ايضاً . ولاشك في ان عصر الغارات النورماندية الكبرى قد ولى وانتهى ، ولكن المعجبين المتحمسين لمعاهدة سان ـ كلير ـ على ـ الابت ، بالرغم من كل

شيء ، يوافقون على أن الغارات لم تنته تماماً ويضيفون بأن الغارات لم تعد تظهر مع ذلك إلا بشكل « مشاريع خاصة وخارجة عن عمل الدوق ان لم تكن مخالفة لارادته » .

ولكن كيف لهؤلاء النورمانديين ، وهم الذين عاشوا على النهب والشقاوة والقرصنة ، أن يصبحوا بين عشية وضحاها فلاحين وديعين ، وما كادوا يدخلون في المسيحية الا وتخلوا دفعة واحدة عن عاداتهم الوثنية ؟ ان تحويلاً كهذا مفاجئاً لا سابق له ، ومن الممكن أن يؤكد بأنه لم يحدث. وفي الحقيقة ، كان صحب رولون يتكاثرون كل يوم بنجدات جديدة من المهاجرين . ولذا وجدوا أنفسهم في ضيق في دولتهم ، وكلما سنحت لهم الفرصة ، كانوا يجددون هجومهم ،رغم اتفاقهم مع شارل ،على البلاد الواقعة في الشمال والشرق. ولقد رأى أواخر الكارولنجيين وأوائل الكابسيين ، أكثر من مرة، يقظة غرائزهم في النزاع والقتال وحبهم المفرط للكسب والنهب. حقاً لقد تغير طابع الحرب ، ولكنها . استحكمت حتى اليوم الذي ضمت فيه نورمانديا إلى الدومين الملكي .

وإذا لم تزل الاخلاق والعادات الاسكانديناڤية تماماً فان الدولة النورماندية على الأقل ، التي أصبحت تعرف في القرن الحادي عشر تحت اسم دوقية نورمانديا ، أخذت سيماء شبيهة بسيماء الاقطاعات الكبرى الأخرى ، واعترفت بادىء بدء بسيادة ملك فرنسا . ولا مرية في أن دودون يصف الارض المحولة إلى رولون بأنها ملكية وراثية معفاة من الاتاوات، ولكنه يذكر بأن رولون دعي لمبايعة شارل الساذج وتقديم يمين الولاء له ، وهذا يعني بأنه استلم نورمانديا من الملك ، وسيحلف، في الآجل ، غليوم ذي السيف الطويل ، خلف رولون ، يمين الولاء إلى رؤول (٩٢٧) ،

وسيجدد كبار نورمانديا ، باسم ريشار الأول ، وهو في سن صغيرة ، هذا العمل لدى لويس الرابع .

ان النتيجة الواضحة لمعاهدة سان ـ كلير ـ على الابت هي دخول النورمانديين في المملكة . ومن البديهي أن يتغلغل العنصر الفرنسي في هؤلاء الشماليين ، وهذا يرجع ولا شك إلى أن رفاق رولون لم يأتوا بنسائهم معهم ، وانهم تزوجوا من بنات منطقة السين . ولا شك في ان بعض اسماء الامكنة وبعض تعابير الحياة البحرية تذكر باصل النورمانديين الاسكانديناقي ، ولكن حضارة الدولة التي أسسوها ، في مجموعها ، كانت حضارة فرنجية ، فلا الحقوق ، ولا الادب ، ولا الفن ، باستثناء بعض الخصائص النحتية ، تحمل ما يشير إلى طابع البلاد الشمالية .

ومن الصعب أن نعرف كيف جرى هذا التمثل . ان المصدر الوحيد المحفوظ عن تاريخ نورمانديا في القرن العاشر هو تاريخ دودون سان ـ كنتان ، وقد عرفنا كم هو موضع حذر وشك . ولذا يجب ان نعتبر في حكم الاسطورة قانون رولون الشهير الذي أسبغ عليه مترجم حياته سيماء شعرية . ان خلف رولون وهو غليوم ذي السيف الطويل (٩٣٧ — ٩٤٢) يتصف بأنه امير فرنجي واميرمسيحي. غير أن التطور الذي تم في عهده قد قد انقطع فجأة بقتله في ١٧ كانون الأول ٩٤٢. ثم حدثت بعد ذلك رجعة شديدة اسكاندينافية وثنية، اثر مجيء مهاجرين جدد، ولكن هذه الرجعة كانت عابرة ، لأن ملامح الدولة النورماندية في العصر الوسيط قد ثبتت في النصف الثاني من القرن العاشر في عهد الدوق ريشار الأول (٩٤٣ — ٩٩٦) وفي عهد ريشار الثاني (٩٩٦ — ١٠٢٧) .

المنازعات السلالية (من ٨٩٨ الى ٩٣٦) . – يتصف حكم شارل الساذج بصفتين أساسيتين :

١ – محاولة تصفية الغارات النورماندية بانشاء دوقية نورمانديا .

٢ – ضم اللورين التي أعطيت لآخر من بقي من الكارولنجيين عند وفاة لويس الطفل (٩١١) .

وهذا الكسب ، الذي وسع المملكة الفرنجية من الغرب حتى بحر الشمال إلى الراين والفوج ، يمكن أن يثبت السلطة الملكية، ولكنه ، في الواقع ، ساعد لحد عظيم على اثارة الحرب الأهلية التي اجتاحت فرنسا ابتداءً من ٩٢٠ .

لقد جذبت دوقية اللورين شارل الساذج باعتبارها مهد عائلته وأعجبته الاقامة بها . وهذا ما اثار عليه استياء الامراء النوستريين ، فقد أخذوا عليه استغناءه عن نصائحهم واتباعه انجاءات هاغون وهو لوريني من أصل منحط .

وزعزعت هذه السياسة وضع شارل الساذج في اللورين نفسها ، عندما قامت عليه ثورة دبرها جيلبيرت بن رونيه ذي العنق الطويل . فقد ذهب هذا الى المانيا وتظلم إلى الملك هنري الأول الذي خلف كونراد الأول عام ٩١٩ ، وكان يحلم بأخذ اللورين من فرنسا . وساء شارل الساذج مارآه من دعم هنري لجيلبيرت وفكر باجتياح المنطقة الرينانية ولكنه قهر في فورمز ٩٢٠ ورأى من صالحة أن يبرم مع ملك جرمانيا اتفاقية على مبدأ الحفاظ على الوضع الراهن . وانقذت اللورين في هذه المرة ، ولكن كل شيء يجعلنا نفكر انها ستضيع من يد شارل الساذج عند أول فرصة .

ولم يكن من هذه الأعمال جميعاً الا ان قوت معارضة نوستريا المعادية

لمحاولات شارل الساذج في نقل مركز ثقل السلطة نحو الشرق ، وعوضاً عن ان يهدىء الملك الحالة زاد في اشعالها بتحديات مغيظة .

وقد وقع في هذه الآونة ان توفي في (آب ٩٢١) دوق بورغونيا ريشار العادل وكان موالياً للكاروانجيين . وخلفه ابنه روول صهر روبير أخو الملك اود السابق وكان قد رضي عن المعارضة النوسترية .

انتخاب روبير وتتويجه (٢٨ — ٣٠ حزيران ٩٢٢) . — ونشبت الثورة في نيسان ٩٢٢ ، وانضمت فيها قوى روبير ورؤول . وانفض الناس من حول شارل الساذج ، ولم يعد في أمان حتى في دوله الشرقية. وفي ٢٩ حزيران ٩٢٢ انتخب المتآمرون روبير أخا اود ملكاً وتوج في اليوم التالي في كنيسة القديس — ريمي في رنس على يد غوتيه مطران سانس الذي سبق ان توج رأس اود بتاج الملك عام ٨٩٨ .

لم يفكر شارل الساذج بالانحناء أمام هذا الخصم الجديد وقرر أن ينازعه التاج بشدة . وفجأة جهز جيشاً في اللورين وزحف على سواسون، مقر روبـــير ، وهاجم منافسه في ١٥ حزيران ٩٢٣ ودب الذعر في جنوده . وقتل روبير في المعركة ، وبدأت الهزيمة لولا أن هوغ ، بن روبير رد الخطر . وأخيراً تراجع الجيش اللوريني وهو في حالة فوضى تامة .

وأوجدت معركة سواسون حالة مختلطة : فقد انتصر فيها الثوار ولكن ملكهم قتل ، ومن الصعب وجود شخص يحل محله . وتقدم هوغ ، بين روبير ليخلف اباه ، ولكنه لم يعط بعد الدليل على انه أهل لذلك . ومن جهة أخرى الا يكون معنى انتخابه بعد حكم اود وروبير ارجاعاً ضمنياً للمبدأ الوراثي لصالح سلالة جديدة يمكن ان يمل منها في يوم من الأيام ؟

انتخاب رؤول دوق بورغونيا (١٣ تموز ٩٢٣) . — وبعد لأي قر الرأي أخيراً على انتخاب رؤول صهر روبير لقيمته الشخصية وقوته . ولكن شارل الساذج لم يقطع أمله وحاول أن يصلح بالدبلوماسية ما افسده السلاح ، ولكن محاولاته باءت بالاخفاق . وفي ١٣ تموز ٩٢٣ انتخب الكبار رؤول في مجلس عقد في سواسون وتوج ملكاً بيد مطران سانس ، غوتيه .

ومع هذا فلا يمكن القول بأن المملكة كلها قد قبلت به ملكاً . لأن الناخبين كانوا من امراء الشمال وبورغونيا فقط . أما نورمانديا وبروتانيا وجنوب فرنسا واللورين فما زالت على العموم متمسكة بالملك الكارولنجي .

ولم يكن لدى شارل متسع من الوقت للبحث عن أحلاف . فقد وقع في كمين نصبه له هربرت فرماندوا في آخر ٩٢٣ وحرمه من حريته . حتى ان الملك رؤول ، على ماعرف عليه من طباع كريمة ، استنكر هذا العمل ولكنه لم يعمل شيئاً لتخليص منافسه . وفي الحقيقة كانت الضربة موجهة في آن واحد له وللضحية ، فقد أصبح بيد هربرت رهينة ثمينة ولن يأل جهداً في استعمالها ضد مليكه إذا ما ناوأ اطماعه ولم يرض جميع متطلباته . وبامكانه ايضاً ، اذا أراد ، أن يقوم بحركة لصالح الأمير الأسير . وكان هذا الحساب صحيحاً : ففي ٩٢٤ لاقى رؤول معارضة شلت نشاطه خلال خمس سنوات ومنعته من الحكم .

بدأت الاضطرابات في نورمانديا بعد خمسة عشر عاماً على معاهدة سان — كلير — على — الإبت ، وبالرغم من جميع التعهدات المعقودة ، وتركت نتائج وخيمة على فرنسا .

وفي العام ٩٢٥ ، وبينما رؤول منهمك في النزاع ضد النورمانديين

عبر هنري الأول ملك جرمانيا نهر الراين واحتل اللورين التي اعترفت في في البدء برؤول دون صعوبة . وفي ٩٢٦ ولنفس الأسباب لم يستطع هذا الأمير أن يعمل شيئاً ضد الهونغاريين الذين اجتاحوا الشامبانيا ونهبوا عديداً من الأديرة . وفي السنة نفسها ثارت اكيتانيا ضد رؤول بعد ان عرفت أنه منهمك بالنورمانديين ولا يستطيع أن يقوم بأي تدبير زجري ضدهم . ، كما ثار ايضاً هربرت فرماندوا حباً في الحصول على كونتية لان لتكون لابنه اود ، فضلاً عن ان له مطامع كبرى في التاج الملكي . وعندما رأى أن رؤول لم يستجب لطلبه اثار الحرب الأهلية في شمال فرنسا واعترف من جديد بشارل الساذج ملكاً ونقله في ٩٢٧ من بيرون إلى سان كنتان .

ثم بحث عن حليف له وجر معه النورمانديين الذين يخشون رؤول . وظلت اكيتانيا جامدة رغم ولائها الكارولنجي . وتوسل إلى البابا ليون السادس أن يمنح دعمه المعنوي ، فلزم البابا الصمت ولم يحر جواباً . وكذلك ملك جرمانيا ، هنري ، لم ير ضرورة للانخراط في مغامرة لا تفيده في شيء. ولذا اخفقت مناورة هربرت على طول الخط ورأى من الخير تأجيل تنفيذ مشاريعه الكبرى . وفي ٩٢٨ أعاد شارل الساذج الى السجن ، وبادر إلى مصالحة رؤول مقابل الحصول على لان التي اجلت عنها الجنود البورغونية

ومات شارل الساذج في ٧ تشرين الأول ٩٢٩ . أما ابنه لويس فقد التجأ ، بعد خيانة هربرت فرماندوا ، إلى انكلترا ، مع أمه اوجيف بنت الملك ادوارد الأول الشيخ ، ولم يفكر بالمطالبة بالعرش . أما رؤول فلم يبق له منافس ، ولكنه يحتاج إلى بضع سنوات لتوكيد سلطته قبل أن يقوم باصلاح ما افسدته الحرب الأهلية بعد الغارات الكبرى .

واستطاع رؤول أن يقضي على مقاومة النورمانديين ومقاومة اكيتانيا ، ويتصالح مع هربرت فرماندوا ، ويفرض سلطته في كل مكان في الجنوب والشمال . وحوالي العام ٩٣٥ عادت وحدة المملكة . وبالاجمال ، ان هذا الأمير الذي انتخبه الكبار آملين أن يكون حسب هواهم ، زاد في السلطة الملكية ، واكسبها شعبية بصفاته الشخصية . وما من شك في أنه يفوق أسلافه ، لأنه لم يكن زعيماً ذا قيمة وأهلاً للقتال فحسب ، بل أيضاً لأنه في بعض الظروف وضع خططاً ستراتيجية لا تخلو من مهارة ومكنته من أن يظهر على خصومه . لقد كان رجل حكم : وعلى عكس اود ، الذي ترك الظروف تسيطر عليه ، كانت لرؤول سياسة وتابعها رغم الصعوبات العديدة التي اعترضت تحقيقها . هذا فضلاً عن ان المؤرخين مدحوا ثقافته وتقواه وكرمه وحبه للعدل والنظام وغيرها من هذه الصفات التي قوت نفوذه ورفعت جاهه .

ومات رؤول قبل أن يعطي كل امكانياته . وفي الوقت الذي ظهر فيه على مختلف المقاومات التي شغلته خلال عشرة سنوات أصيب باعزائه : فقد في آخر ٩٣٤ زوجته ايمّا التي ساندته بكل ما تستطيع من قوة وعزم ، وفي ٩٣٥ أخاه بوزون. وأخيراً سقط مريضاً ولفظ انفاسه في ١٤ أو ١٥ كانون الثاني ٩٣٦ .

لم يترك رؤول وارثاً مباشراً ، وخلفه اخوه هوغ الأسود دوقاً على بورغونيا . بيد أنه كان ممحياً ولا قدرة له على المطالبة بالتاج . وكانت الشخصية المرموقة في المملكة ابن حمي رؤول ، هوغ ، الملقب بالأكبر ، بن روبير سيد نوستريا القديمة ، كونت باريس ، وكان يملك كثيراً من الأراضي بل كان اغنى ملاك في المملكة . وكانت زوجته اثيلد أخت ملك الانغلو — ساكسون اثلستان . ويضم إلى هذه القوة المادية ذكاءً

من النوع الأول . ولا مرية في أنه لم تكن له تلك القيمة العسكرية التي كانت لأسلافه ، ولذا كان يميل إلى الدبلوماسية اكثر من السلاح . كان سياسياً نيراً ماهراً ، لا يعرف إلى وسوسة الضمير سبيلا ، ولكنه يعرف كيف يعقد المكايد وكيف يحلها . وكان لديه من المؤهلات ما يجعله يقوم بالعمل الملكي ويتمم العمل الذي رسمه رؤول .

ولم يشأ هوغ الأكبر على ما هو عليه من طموح ان يجرب حظه في الانتخاب . ورأى بثاقب نظره أن الظروف غير مواتية له تماماً . فقد لاحظ حذر الارستقراطية وحسدها له وخوفها منه بسبب حزمه ومرونة طبعه . ولذا فضل ان يتخلى عن اللقب الملكي وحاول ان يمارس السلطة فعلاً ان لم تكن حقاً ، وأعلن بعد وفاة رؤول ولاءه الكارولنجي ، ولم يخل هذا الولاء من منفعة ، وأقنع الكبار بدعوة لويس ، بن شارل الساذج الذي سبق والتجأ في انكلترا .

لويس الرابع ما وراء البحر (١٩ حزيران ٩٣٦) . — نال اقتراح هوغ الاكبر القبول وارسل وفد إلى لويس فجاء هذا وذهب إلى لان وباركه مطران رنس ارتود في يوم الأحد في ١٩ حزيران ٩٣٦ .

وهكذا آل الامر ، بطريق الانتخاب ، إلى رجعة كارولنجية جعلتها انقسامات الأمراء حتمية . وعلى نقيض رجعة ٨٩٨ ستدوم هذه الرجعة نصف قرن وربما امتدت اكثر من ذلك لو لم تقطعها حوادث غير متوقعة عام ٩٨٧ .

الرجعة الكارولنجية (٩٣٦ — ٩٨٧) . — لم يكن لويس الرابع الملقب بلويس ماوراء البحر ليشبه اباه شارل الساذج في شيء . كان قوياً شديداً فارساً ممتازاً ، مرناً ، واهلاً لتجشم اقسى المتاعب . كان قليل الثقافة ، ولكن كان عنده من قوة الذكاء ، والمتانة ونشاط المزاج

ما يساعده على قهر الصعوبات . كان يريد أن يحكم ويتمم عمل الرجعة الذي بدأ به رؤول ومهد الأرض أمامه .

بيد أن هذا البرنامج جعله في نزاع مع هوغ الأكبر . فقد كان هذا ثاني شخصية بعد الملك في الدولة ، ومن ثم « دوق الفرنجة بفضل الله » . ولذا كان الملك مضطراً ، في سبيل سلطته الخاصة ، أن يقبل حمايته الثقيلة ، لأن النفوذ العظيم الذي تتمتع بها هذه الشخصية القوية يمكن ان تكون له عوناً حقيقياً . ولذا انقاد إلى بورغونيا مع هوغ فاستخدمه لاشباع احقاده الشخصية ضد هوغ الأسود وارث رؤول . وأجبر هذا الأخير أن يسلم دوق الفرنجة قسماً من أرث اخيه ، وعوضا عن ان يذهب إلى لانْ العاصمة الكارولنجية الحقيقية رافق هوغ الاكبر إلى باريس وخيل لهذا ان حلمه تحقق ، وانه الوصي على الأمير ، وسيحكم باسمه .

وسرعان ما أحبط هذا الحساب كله لأن لويس الرابع شب عن الطوق وعطل مشاريع هوغ الاكبر واراد استرجاع استقلاله . رجع إلى لان واتخذ مطران رنس ، آرتود ، مشاوراً له . وهذا العمل وحده كاف للكشف بوضوح عن نواياه .

لقد تجنب لويس اعطاء مسلك عدائي لانطلاقه . ولكن دوق الفرنجة خاب ظنه وأصيب في كبريائه . وكان النزاع لابد واقعاً . وقد فرضت هذه الفكرة على الطرفين وشغلتها فلم يفكرا بدفع الهونغاريين عندما هاجموا في العام ٩٣٧ الشامبانيا وبورغونيا . وبينما كان هؤلاء الغزاة ينهبون الاديرة كان لويس الرابع وهوغ الأكبر منهمكين في البحث عن سند لنزاعهما المقبل .

حاول هوغ الحصول على حلف الماني بزواجه من آفوا ، أخت ملك جرمانيا اوتون الأول (٩٣٧) ، وتصالح مع منافسه القديم هربرت فرماندوا وغيره من الكبار . وتقرب لويس من دوق بورغونيا هنري الاسود

وتقابل معه عام ٩٣٨ وجرى بينهما تفاهم ضد العدو المشترك . وهكذا نرى أين وحدة المملكة التي تحققت بصعوبة على يد رؤول قد انكسرت عام ٩٣٨ وفسد عمل الملك البورغوني .

وبينا كانت تجري هذه المفاوضات قامت الحرب بين الطرفين : حاول لويس الرابع ، قبل كل شيء ، ان يعيد بناء الدومين الملكي الكارولنجي القديم ، واستطاع أن يثبت وضعه حتى أصبح في حالة تمكنه من مقارعة تابعيه الكبار .

ثم قدم عليه أمراء اللورين وابدوا تعلقهم بالسلالة الكارولنجية فقبل بسيادته عليهم . وهذا القبول الف بين قلوب هوغ الاكبر والمعارضين الفرنسيين الآخرين وملك جرمانيا . ففي ٩٣٩ ابرم اوتون الأول اتفاقاً مع هوغ الاكبر وهربرت فرماندوا وارنول فلاندر وغليوم ذي السيف الطويل وانحازو اليه ضد مليكهم . وبقي هوغ الأسود وحده مخلصاً للملك الذي اضطر ان يجابه في آن واحد الحرب الأهليـــة والحرب الخارجية .

اجتاح اوتون الأول ملك جرمانيا اللورين عام ٩٣٩ ثم انسحب اثر معارضة قامت على الراين وكادت تطيح به ، ولكنـــه تغلب على هذه الأزمة الداخلية واسترد اللورين وسلمها إلى الكونت اوتون بعد ان تصالح معه .

وفي العام التالي ٩١٠ عاد إلى اللورين ونفذ إلى الشامبانيا وتقبل في آتيني البيعة من الأمراء ، ثم لاحق لويس الرابع بعد أن فر بسرعة إلى بورغونيا ، وبلغ هوغ الأسود على ضفاف السين واجبره على الخضوع ، واعتبر نفسه انه روى غليله وعاد إلى المانيا .

وبينا كان لويس الرابع يناضل اوتون الكبير ، كان يقاتل اتباعه الخاصين . واستمر في الدفاع . وفي العام ٩٤٢ تطور الوضع لصالحه .

فقد ارسل البـــابا ايتيين الثامن إلى فرنسا المفوض داماس ليعرض وساطته الحبرية وهـدد باللعنة كل من يلاحق الملك بيد مسلحـة ، وفي الوقت نفسه ابدى اوتون جرمانيا استعداده للتفاوض بعد أن تزوج لويس الرابع اخته جربرج ارملة جيلبرت اللورين . وتم التفـــاهم بين المليكين في فيزيه في آخر تشرين الأول او في بداية تشرين الثاني ٩٤٢ ، وابرم الصلح على قواعد مازلنا نجهلها لسوء الحظ .

وكان لهذه الحوادث صداهـــا المبـاشر . فقد توطد السلام في الداخل والخارج ، وحمى البابا لويس الرابـع ، واعترف بسلطته ملك جرمانيا وتسامح بها الكبار التابعون . وبدا ان لويس الرابع ، وقد اعترف به في كل مـكان ، يستطيـع الآن أن يحـكم مملكته بسلام ، وان ولادة ابنه لوثير ٩٤١ قد أمنت بقاء السلالة .

غير ان طموح هوغ الأكبر منع لويس الرابـع أن يظهر كفاءته. لقد كان يبدي احترامه لملكه . ولـكنه كان يجتر الانتقام ، ويبحث عن كل المناسبات التي تضعف منافسه وتقوي قضيته لاستئناف النضال في فرماندوا و نورمانديا و بروتانيا .

واضطر اوتون الاول ، ملك جرمانيا ، باعتباره ابن حمي لويس الرابـع وهوغ الأكبر ، لأن يلعب دور الحـكم في فرنسا . وكان كل من الطرفين يخطب وده ، وكل شيء يدعوه لأن ينحاز إلى الملك الـكارولنجي. ولـكن مـــا هي الفـائدة التي يجنيهـا من زيادة قوة دوق الفرنجـة بعد أن أخذت اطماعه تقلقه ، ومن تشجيـع ثورة في مملكة مجـاورة مباشرة يمكن أن تـكون مثلاً سيئاً لتابعيه الخاصين ، فضلاً عن أن الطرق التي يتبعها هوغ الأكبر تستحق اللوم ، وان انضمامه إلى تابـع

فاسد ، لاجهاد ملك أسير خانه تابعه ، يمكن أن يعتبر حركة غير شريفة وليس فيها فروسية . لذا استجاب لرجاء اخته جربرج ورفض مقابلة هوغ ، ولكن تدخله لن يغير الحالة مباشرة .

لاشك أن نتيجة هذا التدخل خلاص الملك لويس الرابع ، ولكن هذا الخلاص بيع غالياً ، لأن جربرج سلمت لان الى هوغ الاكبر وكان يطمع بهذا الموقع منذ زمن بعيد ، لانه يعتبر بحق مفتاحاً للدومين الكارولنجي ، ولان وجوده بيده يجعل نجدة ملك جرمانيا إلى لويس الرابع غير مجدية .

وتوترت الحالة بين لويس الرابع وهوغ الاكبر عندما اعتدى هذا الأخير على كنيسة رنس وازاح المطران الشرعي ونصب شخصاً يدعى هوغ بن هربرت كونت فرماندوا . وقد عقد لذلك مجمع انغلهايم ، حضره اثنان وثلاثون اسقفا ، وحكم بخلع هوغ وحرمانه . ثم صوت المجمع على قرار صرح فيه بانه لايمكن لاحد ان ينال من السلطة الملكية أو يخونها ، وبان اللعنة ستحل بهوغ الاكبر إذا لم يبرر عمله أمام مجمع .

وصوتت الكنيسة علناً لصالح المملكة الكارولنجية ، ولكن هوغ لم يكترث للقرارات المتخذة وتهديدات مجمع انغلهايم ، وأخذ يرتكب أعمال الفظائع في ابرشية رنس . ثم دعي إلى مجمع يعقد في تريف (ايلول ٩٤٨) لاعلان خضوعه . فلم يبال بشيء . غير ان الوضع انقلب عليه لصالح الملك لويس الرابع عندما دخل لان بحيلة وطلب منه هوغ هدنة فقبل . وكان هذا العمل منه بداية لخضوع تام لاسيما وان المجمع الروماني ايد الحرمان الذي اتخذ في انغلهايم وتريف . وفي بداية ٩٥٠ ابرم الصلح بين لويس الرابع وهوغ . ورغم أن العداء لم ينته تماماً إلا ان المملكة تمتعت بهدوء لم تعرفه منذ زمن طويل .

وانقطعت فترة الاستقرار هذه بموت لويس الرابـع ما وراء البحر في (١٠ ايلول ٩٥٤) .

ومن الصعب الحكم على هـذا الامير الذي لم تسعفه الحوادث على اظهار قدرته : فمن بعض الوجوه يمكن أن يعتبر حكمه تراجعاً بالنسبة للسابق ، لان نورمانديا كانت تحت سلطـة سيادة دوق الفرنجة ، وفي ذلك خطر بانقطاع التوازن . ومن جهة أخرى ، لقد تغلب لويس الرابـع على هوغ ، ولم يعد هذا الأخير يفكر بالمطالبة بالتاج .

انتخاب لوثير (١٢ تشرين الثاني ٩٥٤) . — وخلف لويـس ابنه لوثير دون صعوبة ، رغم أنه لم يكن له من العمر سوى ثـلاث عشرة سنة . وهذا الحادث الوحيد يكفي للبرهنـــة على الطابـع الدائم للرجعة الـكارولنجية في عام ٩٣٦ .

في ١٢ تشرين الثاني ٩٥٤ انعقد مجلس الكبار والاساقفة في رنس وانتخب لوثير بن لويس الرابع ثم كلله اسقف رنس ، آرتود . ولم يبد هوغ الاكبر أي اعتراض ، ومات في ١٦ أو ١٧ حزيران ٩٥٦ . وذهب هذا الرجل غير مأسوف عليه ، الا ان موته افاد قضية السلام في البلاد. وترك ثلاثة اولاد : هوغ وقد عرف باسم **هوغ كابيت** ، اوتون ، أود — هنري . وكان الثلاثة قاصرين وغير قادرين على وراثة قوة أبيهم .

وكان لمطران كولونيـا ، برونون ، تأثير على اختـه جربرج ، وهذا ماجعله يتدخل في حـكم فرنسا . وكان برونون في الوقت نفسه اخ هاتويد ارملة هوغ الاكبر ، ومن جهة أخرى كان دوق اللورين ، ويرى من صالحه الا تكون الملكية الفرنسية قوية . ولاجتناب كل خطر من هذه الجهة ، وجد ان احسن وسيلة هي القبض على مـيزان المساواة بين الـكارولنجيين والروبيرتيين .

ومات برونون في ١٠ أو ١١ تشرين الاول ٩٦٥ واستطاع قبل وفاته بقليل ان يذهب بلوثير إلى المجلس الكبير المنعقد في كولونيا تحت رئاسة اوتون الاول (٢ حزيران ٩٦٥). وهذا يعني توكيد السيطرة الجرمانية على المملكية الفرنسية . وتحمل لوثير ذلك بعض الوقت . وفي آخر ٩٦٥ وبداية ٩٦٦ تزوج ايما بنت الامبراطورة آديلانيد من زوجها الاول لوثير ملك ايطاليا . وعندما مات مطران رنس **اوددي** (٦ تشرين الثاني ٩٦٩) سمي ادالبيرون خلفاً له وكان شخصية ذكية طموحة متحمساً لاصلاح الاكايروس ، مصمماً على انتزاع كنيسته من ضغط العصر . ولكنه كان مقتنعاً أيضاً بأن النظام لايمكن ان يسود العالم الغربي الا بنفوذ الامبراطور الالماني . ولا شك في أن وجود حبر غير بعيد عن الحدود الشرقية للمملكة الكارولنجية ، وعنده من الاستعداد والعزم ما يجعله ينفذ افكاره ، يؤلف خطراً ، وما لبث لوثير أن أدرك مدى هذا الخطر .

ولم يستطع الملك الشاب أن يقوم برد فعل بالسرعة التي ترجى ضد سياسة خاله برونون كولونيا . ولكنه رغب بان يعيد إلى سلالته جاهها القديم . وإذا أخذنا بما قال به المؤرخون وجدنا انه لايخلو من قيمة شخصية : فقد كان شجاعاً كابيه ، ويمتاز خاصة بروح العزم والتقرير ، وسرعة الانجاز ، مع ما يضاف لها من نعومة تذهب احياناً إلى الخداع والمكر . وكان هم والدته جربرج ، التي توفيت في ١٤ آذار ٩٦٨ ، ان تعلمه مهنة الملك وتنمي عنده الصفات التي لاغنى عنها للحكم . وقبل وفاة برونون مارس عمله الشخصي في بعض الظروف وتدخل في عدة شؤون . وهذا التدخل يؤكد مزاجاً نشيطاً وارادة في ارجاع الامتيازات الملكية . وبعد موت برونون وموت اوتون الاول (٧ أيار ٩٧٣) الذي يكن

له لوثير كل احترام ، تابع هذا الأخير اندفاعه الخاص وقطع العلاقات مع جرمانيا ، وزحف نحو اكس — لا — شابل ، ولم يستطع عمل شيء واكتفت جنوده بنهب القصر الامبراطوري ثم اعطى الامر بالانسحاب .

واراد اوتون الثاني أن يغسل هذا العار ، فجمع جيشاً كبيراً ، وفي ١ تشرين الاول ٩٧٨ اجتاح فرنسا واستولى على لان حيث نودي بشارل اللورين ملكاً ، ثم اجتاح البلاد المجاورة محاذراً مس الاديرة والكنائس ، وتوصل حتى نهر السين وعسكر فوق مرتفعات مونمارتر ، ولاذ لوثير بالفرار . ولكن هوغ كابيت حمى مدينة ايتامب أمام الالمان . وانكسر هؤلاء في اندفاعهم واكتفوا باحراق ضاحيــة باريس . ونظراً لقرب الشتاء ومقاومة هوغ كابيت ، استطاع لوثير تأليف جيش وراء السين ، وخاف اوتون الثاني على جنوده من المجاعـة فقرر العودة (٣٠ تشرين الثاني ٩٧٨) . ولاحقــه لوثير واستطاع ان يبيد مؤخرة جيشه . وفي ٢٥ كانون الاول دخل اوتون الثاني فرنكفورت ولم يحصل على نتائج اكثر من النتائـج التي حصل عليها لوثير أثنـاء زحفه على اكس — لا — شابل .

ولم يبق أخيراً الا تصفية هذه الحرب العقيمة . وفي ٩٧٩ ارسل لوثير وفداً إلى اوتون الثاني للبدء بمحادثات السلام . وكان اوتون على أهبـة الذهاب إلى ايطاليا ويتمنى المصالحة مع قريبه . وفي لقاء **مارغوت — على — الشيير** اقسم الملكان على الصداقة والتحالف (تموز ٩٨٠) .

لقد كانت حرب المانيا اكبر خطأ ارتكبه لوثير ، لانه لم يكن لها أي داع رصين ولا يمكن ان تؤدي إلى أي نتيجة من طبيعتها ان تقوي شوكة السلالة الكارولنجية التي تزعزعت بالخلاف بين لوثير وشارل

اللورين . وكان مشغولاً بما يترتب من نتائج على الملكية من عداوة أخيه . ومنذ ٩٧٨ اشرك ابنه لويس ، وعمره ثلاث عشرة سنة ، في الحكم وبورك في ٨ حزيران ٩٧٩ . ثم فاوض بزواج غني واستطاع ان يزوجه آديلايد ارملة أمير اكيتانيا ايتيين ، كونت جيفودان . ولسوء الحظ كانت آديلايد اكبر منه سناً وغير رصينة على ما يبدو . فهجرها وذهبت إلى بروفانس وتزوجت غليوم الأول كونت آرل ، وتأثر جاه السلالة الكارولنجية بهذه المغامرة المضحكة .

وفي الوقت ذاته كان نفوذ البيت الروبيرتي في ازدياد ، وكان يمثله هوغ كابيت الابن البكر لهوغ الاكبر . فقد حظي بشعبية كبرى في دفاعه اللامع عن باريس عام ٩٧٨ ، كما ان غيرته الدينية أمنت له مساندة الاكليروس العصري والنظامي الذي غني بما منحه من هبات . وكان من البديهي ، إذا حدث حادث بين الملك ودوق الفرنجة ، ان يجد هذا الأخير من يعتمد عليهم . وقد أغاظ لوثير هوغ بابعاده عن المفاوضات التي أدت إلى معاهدة مارغوت — على الشيير بينا افاد منه في الدفاع عندما اجتيحت البلاد . ولم يخف الدوق استياءه ، وليظهره بشكل محسوس ذهب في بداية ٩٨١ إلى روما والتقى بأوتون الثاني وجرت بينهما مقابلة ودية . فجرح لوثير بدوره بهذا العمل غير الودي ، ولولا ضغط حاشيته لعادت الحرب إلى فرنسا عام ٩٨١ .

ولما رأى لوثير الهدوء مخيماً على المملكة في الداخل عاد من جديد واتجه نحو الشرق إلى سياسة المغامرات التي لاتتناسب مع الوسائل الموجودة تحت تصرفه . ان وفاة اوتون الثاني (٧ كانون الاول ٩٨٣ اسلمت المانيا إلى سلطة طفل عمره ثلاث سنوات ، اوتون الثالث ، وتحت سيطرة وصيته وهي الامبراطورة الأم تيوفانو الاغريقية الأصل . وفكر

لوثير ، بتأثير مطران رنس ، ادالبيرون ، بالحلم الخيالي وهو ان يطلب بان يعهد اليه بالوصاية على الامبراطور الفتى ، ولكنه تخلى بسرعة عن هذا الوهم وتفاهم مع دوق بافاريا هنري ، زعيم المعارضة في المانيا . وعلى اثر ذلك وقعت حرب في الالزاس تراجع فيها لوثير والكنه لم ييأس ، وجرت بينه وبين هوغ كابيت مواقع أخرى انتهت بالصلح (٩٨٥).ثم تهيأ لأخذ اللورين ولكنه توفي في (٢ آذار ٩٨٦) .

حكم لويس الخامس (٩٨٦ – ٩٨٧) . — ولم تترك وفاة لوثير أي صعوبة . حتى ان هوغ كابيت رغم علاقاته والمساندات التي يمكنه الاعتماد عليها لم يحاول ان ينازع ابن المتوفى على العرش . وكانت عمر لويس الخامس تسع عشرة سنة ، ولكن لم تكن له قيمة ابيه كان خفيفاً متردداً ومثار استهزاء الناس بمغامرة زواجه ،وبالرغم من كل ذلك ورث الملك ، وهذا يدل على مدى قوة الملكية الكارولنجية .

ودام حكم لويس الخامس سنة واحدة فقط ، وتركز خاصة حول النزاع بين الملك ومطران رنس ادالبيرون .

وكان الامير الشاب يكره هذا الحبر الذي يدفعه للتفاهم مع ملك جرمانيا . وكانت امه ايما ، بنت الامبراطورة اديلايد ، أرملة اوتون الكبير ، تميل إلى سياسة التقارب مع المانيا التي يشعر لويس الخامس نحوها بنفور ، وما لبث أن أفسد علاقاته مع أمه وتحالف مع هوغ كابيت ضد مطران رنس ، ولكن دوق الفرنجة حرص على مداراة ادالبيرون لغاية في نفسه ، فعزم الملك على الاستغناء عن منافسه القوي واصغى إلى حقده وعاث في رنس . فعرض ادالبيرون أن يبرر أعماله أمام مجلس يعقد في كومبيين في ٢٧ آذار ٩٨٧ وطالب برفع الحصار عن المدينة . وتأجلت الدعوى إلى ١٨ أيار . ولكن في الوقت الذي

بدأت فيه المناقشات مات لويس الخامس فجأة في ٢١ أو ٢٢ أيار ٩٨٧ .

انتخاب هوغ كابيت . — ولم يبق الا ممثل واحد للأسرة الكارولنجية : وهو شارل دوق اللورين الدنيا واخو لوثير وكان غير محبب الى الكبار ، وينظر اليه البلاط الجرماني نظرة سوء بسبب اطماعه في اللورين العليا . وعندئذ رأى هوغ كابيت ان وقته قد حان ودقت ساعة عمله . ترأس مجلس كومبين وأعاد لادالبيرون اعتباره . ثم قرر المجلس تأجيل أعماله بعد أن اقسم الاعضاء اليمين بالا يقوموا بأي مبادهة لانتخاب الملك حتى ينعقد مجلس آخر في سانليس في أواخر شهر أيار .

ومرت الأمور كما اتفق عليها . وفي سانليس تكلم ادالبيرون أمام كبار المملكة بالقول الفصل . وقد حفظ المؤرخ ريشيه معناه على الأقل : « ان العرش لايكتسب بحق وراثي ، وانما يجب أن يوضع على رأس المملكة من لا يتميز بنبله الجسماني فحسب ، بل أيضاً بصفات عقله ، من يوصي الشرف به ، وتدعمه مروءته وشهامته » . ولا مجال لأي تردد بين شارل « من لايوجهه الشرف ، وهدمه الخبل ، وفقد رشده حتى أصبح لايخجل من خدمة ملك اجنبي ، وهوغ الذي تشفع له أعماله ونبله وجيوشه » .

وفي الحقيقة ، لقد كان جميع الناس يحبذون هوغ كابيت ابتداءً من كبار التابعين. ولذا قبلت النتيجة بسرعة ، وانتقل المجلس من سانليس إلى نويّون ونادى بهوغ كابيت ملكاً في ١ حزيران ٩٨٧ . وباركه المطران ادالبيرون في رنس في ٣ تموز .

وانتهت السلالة الكارولنجية . وبالرغم من بعض الكسوف الموقت الذي لاقته عاشت كثيراً ولأمد طويل في فرنسا اكثر مما عاشت في الممالك المجاورة . وكان من الممكن أن تدوم اكثر من ذلك لولا

موت لويس الخامس غير المنتظر ، وشخصية شارل اللورين غير المحببة الذي فقد كل اتصال بمملكة أخيه وابن أخيه .

هذان هما السببان الأساسيان في تغيير السلالة عام ٩٨٧ الذي بني عليه كثير من الفرضيات التي يكذبها الواقع صراحة . وفي الحقيقة ان سقوط الكارولنجيين يرجع إلى الظروف ، وقد فاجأ في الوقت الذي كانت فيه السلالة تشد قواها بعد أزمة آخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر ، والمعارضة الكبرى التي تحملتها مراراً من جانب دوق الفرنجة . ولا شك في أن أواخر الكارولنجيين لم يتصرفوا الا بدومين قليل الاتساع لايتجاوز الا قليلا السين من جهة والموز من الجهة الأخرى . ومهما يكن هذا الدومين ضيقاً ، وخاصة إذا ماقورن بالنسبة إلى دومين هوغ كابيت ، فقد كان من الممكن أن يقدم موارد لاسبيل إلى اهمالها ، ولاسيما بعد أن اعترف بسلطة الكارولنجيين اكبر جزء في المملكة أو اكبر الاقطاعات إلا دوقية نورمانديا وحدها التي كانت تابعة لدوق الفرنجة .

وعلى هذا فالسلالة الكارولنجية لم تسقط بسبب ضعفها . وكما اوضح مؤرخ أواخر الكارولنجيين « يبدو طوال النصف الثاني من القرن العاشر ان السلطة الملكية كانت محترمة اكثر مما كانت في المائة سنة السابقة » . ولا أدل على ذلك من نقل التاج من لويس الرابع إلى اوثير ، ومن لوثير إلى لويس الخامس ، ولم يكن في العام ٩٨٦ انتخاب ، بل يمين ولاء بسيطة من قبل الكبار إلى ملك يحكم من قبل بسبب اشتراكه في السلطة .

ولم يكن تغيير السلالة إلا حادثاً عارضاً ، بيد أن نتائجه كانت ذات أهمية بعيدة جداً .

الفصل الثاني والعشرون

الكنيسة في أيدي الملمانيين

الاوستقراطية الرومانية والكرسي الأقدس . — لقد أحدث انقسام الامبراطورية الكارولنجية تغيرات سياسية كان منهـا تجزئة الامبراطورية إلى عدة ممالك ، وانتخاب الملوك من قبـل الكبار في كل دولة مثل ارنولف ملكاً في جرمانيا ، واود ملكاً في فرنسا ، وكذا الحال في مملكة بروفانس ومملكة بورغونيا ، ومملكة اللورين ، ومملكة ايطاليا ، ومن بعد ذلك محاولات اعادة الامبراطورية على يد ارنولف، وأخيراً بعثها على يد اوتون الكبير من الأسرة الساكسونية في جرمانيا . ولقد زعزع هذا الانقسام سلطة البابوية وأدى إلى أزمة دينية .

في العصر الكارولنجي عاشت السلطتان الروحية والزمنية متحدتين مع بعض ، وإذا وجد بعض الفتور بينها فلم يكن الا نادراً ودون أهمية عظمى . واذا أثقل الاباطرة أحياناً على السدة الرسولية ، وخاصة بتدخلهم في انتخاب الحبر الأعظم ، الا أنهم أدوا اليها خدمات جلى في كبح جماح الطبقة النبيلة الرومانية التي كانت دوماً على استعداد للقيام في وجه البابوية ، وحموا دولة البابا من الاخطار الخارجية ؛ واحترموا ايضاً الرتب

الكنسية وأخذوا بناصر النفوذ المسيحي بين شعوب الغرب . ولذا بقيت البابوية متعلقة بالنظام الامبراطوري ، وعملت اثنـــاء الدور الذي سبق التجزئة النهائية على حفظ السلام والوحدة لأنها كانت تخشى من أن يؤدي زوال الأمبراطورية بالكنيسة الى أقبح النكبات .

ولقد كان هذا الخوف معقولاً وعلى حق ، لأن روما وقعت فريسة الاضطراب والفوضى، حتى آل الأمر إلى مقتل البابا جان الثامن (٨٨٢م). وهذا ما يوضح لنا كيف ان الكرسي الاقدس ، بعد موت شارل السمين (٨٨٨) ، تعلق ببعث الامبراطورية الكارولنجية التي يعتبرها أفضل ضمان لبقائه . غير أن سقوط الامبراطورية الكارولنجية حرم البابوية من حماتها الأبرار وفتح لها دوراً حرجاً لم ينته إلا بتتويج اوتون الكبير امبراطوراً في ٢ شباط ٩٦٢ م .

ويبـــدو اثر زوال الامبراطورية الكارولنجية ان أسرة **تيوفيلاكت** أصبحت قوية في روما واستطاعت أن تغتصب لصالحها انتخاب الحبر الأعظم . ولقد حاول البابا **جان التاسع** ان يحول دون هذا الاغتصاب بوضع دستور ٨٢٤ ، المسمى دستور روما ، موضع التنفيذ والاجراء ؛ وبموجبه لا يجوز تسمية البابا إلا بحضور مندوبي (ميسّي) الامبراطور . غير أن فقدان الامبراطورية لم يجعل لهذا الدستور أي قيمة تذكر . ففي العام ٩٠٤ كان اعتلاء **سيرج الثالث** كرسي البابوية بفضل تيوفيلاكت وزوجته **تيودورا** . ولذا فان من اخطر النتائج التي ولدها تداعي الامبراطورية الكارولنجية على الكنيسة ان البابوية أصبحت خاضعة لنير الارستقراطية الرومانيـة .

وبالاجمال فان هذا النظام كان شؤماً على الكرسي الأقدس وعلى الكنيسة. ولقد شهد تاريخ الدين في القرن العاشر كسوفاً ، ولو جزئياً ، في السلطة

الرسولية ، ونجم عنه ضعف عظيم في النظام الاكليركي والاخلاق المسيحية. حتى ان كثيراً من البابوات ضربوا لغيرهم المثل في الخلاعة والرذيلة . ولكن يجب الا نعمم هذا القول ونقبل ، كما قبلت طويلاً على علاتها ، ودون اي فحص انتقادي ، اقاصيص الفضائح التي ينقلها الينا ليودبراند كريمون مداحة اوتون الكبير . لقد اراد هذا المؤرخ أن يشيد بالخدمات التي قدمها الامبراطور الجرماني إلى الكنيسة ، ولذا اجاز لنفسه تسويد صحيفة الدور الذي سبق مجيء اوتون الأول إلى ايطاليا ، واساءة الظن بجميع الاحبار الذين اعتلوا عرش البابوية على ايدي الارستقراطية الرومانية. ولكننا اذا فحصنا دقائق الوقائع ، شاهدنا بسرعة ان هذا الحكم العام يكاد يكون جائراً ، وان كلمة « **البورنوقراطية** » ، أي تأثير الخليلات في الحكم ، لايمكن تطبيقها بصورة مشروعة على جميع تاريخ الكرسي الاقدس في هذا الدور .

إن البابا سيرج الثالث ، الذي يدشن هذا العهد ، قد اثقل عليه ليودبراند بصورة خاصة . وإذا اخذنا بقول هذا المؤرخ ، كان ذلك البابا عشيقاً لابنة تيوفيلاكت ، **مادوزيا** ، ومن اتحادهما الشائن ولد البابا **جان الحادي عشر** . ومهما يكن من قول في شأن هذه الابوة فلا يمكن ان نعتبرها اكيدة . ولكن المقبول هو أن اخلاق سيرج الثالث كانت مدعاة للشك وعدم الثقة ، وان نفوذ اسرة تيوفيلاكت عليه كان عظيماً ، وقد استطاع بفضلها أن يحتفظ بسلطة الحبر الاعظم رغم الكراهية العامة التي كان يلاقيها بسبب مزاجه الاستبدادي وطبعه الحاد واحقاده الشخصية . وهذا ما صرفه عن الاهتمام بحكم الكنيسة وجعله يسير السياسة كيفما اتفق ، فأدى إلى الاضرار بسلطة الكرسي الاقدس ، وبالتالي بحفظ النظام الكنسي . ويبدو ، على كل حال ، انه لم يكن مهملاً اسقفيته

الخاصة كل الاهمال ، فبفضل عنايته أعيد بناء كنيسة القديس يوحنا في قصر لاتران بعد أن تهدمت وأصبحت اطلالاً .

حكومة الكنيسة . — ان سلطة الكرسي الأقدس الزمني التي بناها غريغوار الاول الاكبر (٥٩٠ — ٦٠٤) وخلفاؤه لم يكتب لها البقاء بعد زوال الامبراطورية الكارولنجية ، حتى ان جميع المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ذهبت عبثاً وكانت وقتيـــة ، لان البابوية لبثت سجينة الارستقراطية الرومانية ولم تلعب دوراً سياسياً في ايطاليا ، وإذا اتيح لها في بعض الاحيان ان تدخلت في المانيا او فرنسا فلم يكن لها ذلك الجاه الذي كانت تتمتع به بين الامراء المسيحيين في عهد البابا نيقولا الاول (٨٥٨ — ٨٦٧) والبابا جان الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢) . الا انها على الاقل احتفظت بسلطتها الروحية التي لم تمس ، وهـذا ما جعل الكنيسة الرومانية تبقى ، في القرن العاشر « أم جميع الكنائس » .

وما زال تفوق السدة الرسولية مستمراً نافذ التأثير . ويكفي لذلك ان نتصفح مجموعة القوانين التي ظهرت خلال السنوات الاولى من القرن الحادي عشر فنتأكد من ان سلطة الحبر الاعظم ما زالت سارية المفعول على جميع الاسقفيات . فمن ذلك ان بركارد فورمز ، الذي انتشرت مجموعته « ديكريتوم » في فاتحة القرن الحادي عشر ، يذكر بان القديس بطرس كان اول من تسلم سلطة العقد والحل ، ويستخلص من هذا ان لخلفائه الحق في ان يحكموا في القضايا التي تستعصي على الاساقفة ، ويعترف أيضاً ان المجمع الديني لا يكون عاماً ما لم يدع اليه الحبر الروماني ، وهذا وحده يستطيع ان يتصرف بالوشاح المطراني فيبعث بـه إلى من يشاء من المطارنة (رؤساء الاساقفة) . وفي هذا الوقت ايضاً يقبل آبّون فلوري في فرنسا « ان سلطة السدة الرومانية الرسولية تضيء في

جميع « الكنيسة » العامة لان احبار هذه السدة انما ينوبون عن بطرس السعيد أمير « الكنيسة كلها » ويؤكد بقوة « ان من يخالف الكنيسة الرومانيه ينفصل عن اعضائها ويدخل في جسد خصوم المسيح » .

ويبرهن تحري الحوادث على ان هذه الصيغ القانونية كانت تعبيراً للحقيقة والواقع . فهي تدل على ان البابوات الذين تعينهم الارستقراطية الرومانية مازالوا يمارسون سلطتهم الرسولية على الكنيسة العامة ويتناول نشاطهم القضايا الروحية والزمنية .

على أنه يجب الا نبالغ في اهمية هذا التدخل البابوي وفي قيمته . وكل ما في الامر انه يشهد بصورة بسيطة ان البابوات استطاعوا في القرن العاشر ان يحتفظوا بامتيازاتهم الاصلية ، وان حكم الكرسي الأقدس ما زال محترماً في الكنيسة ، وان احداً لم يفكر في انكار السلطة الرسولية . غير أن الوصاية الثقيلة التي فرضتها الارستقراطية الرومانية على البابوات كانت تضايق ممارسة هذه السلطة ، ولاتسمح للاحبار الذين تعاقبوا على كرسي بطرس أن يديروا الكنيسة ولا المسيحية بصورة فعلية . لأن عمل البابوات كان يقتصر خاصة على القضايا الحقوقية ولا يهتم غالباً بالحوادث الكبرى الكنسية أو الدينية التي بدلت بالتدريج سيماء العالم الغربي .

وامحاء السلطة الحبرية كان محسوساً أكثر في داخل الكنيسة . وذلك لأن البابوية ، وان بقيت في أوج الرتب الكنسية ، ظلت لا تمارس العمل التوجيهي الذي يتطلبه مثل هذا المنصب ، حتى ان المجامع الدينية ، التي كانت عديدة في العصر الكارولنجي ، أصبحت نادرة في القرن العاشر ولم يكن لقوانينها الا اشعاع محدود ، فضلًا عن أن الغارات والحروب الأهلية جعلت حكم الكنيسة صعباً ، وآل الأمر إلى ضعف النظام .

واذا بدت البابوية عاجزة عن الدفاع أم الارستقراطية الرومانية ، فلم تكن قادرة أيضاً على الحيلولة دون سيطرة الملوك والامراء على الكنائس. ومما لا شك فيه أن الاغتصابات التي كان يرتكبها هؤلاء العلمانيون كانت كثيرة قبل القرن العاشر . ففي آخر العصر الكارولنجي كان انتخاب الاساقفة والآباء تابعاً للملك : في المانيا كان الملك يحتفظ بهذا الحق كامتياز من امتيازاته الاساسية . وفي فرنسا تخلى الملك عن هذا الحق وتركه لتابعيه . ولقد تعممت هذه الحالات في القرن العاشر وفسحت مجالاً لكثير من المساوىء التي وقف الكرسي الأقدس حيالها مغمض العينين .

السيمونية . — ولم يكن الامراء الزمنيون، الذين يخولون ادارة الاسقفيات والابويات أي الأديرة ، ليهتموا الا قليلاً بقيم المرشحين الروحية ، وكانوا في الغالب يتصرفون بالمناصب الكنسية لصالح اقربائهم واعضاء اسراتهم الخاصة أو مقربيهم . كما ان الملكيات العقارية الغنية التابعة للكنائس والأديرة كانت موضع اطماع الكثيرين . ولا يتردد هؤلاء في بذل الأموال الطائلة ليقطعهم اياها الملك أو الأمير ويحصلوا بذلك على ادارتها الزمنية والروحية معاً . ومن هنا نشأت تجارة الاشياء المقدسة التي أطلق عليها اسم « السيمونية » بالنسبة إلى سيمون الساحر اليهودي الذي أراد أن يشتري من القديس بطرس هبة الخوارق والاتيان بالمعجزات . وهكذا امتلأت الاسقفيات برجال الأموال لا برجال الفضائل التي تؤهلهم للكهنوت .

النيقولاوية . — واذا كانت السيمونية نتيجة لاغتصاب العلمانيين انتخاب الاسقف ، فقد ولدت هي بدورها عادة سيئة عرفت باسم « النيقولاوية » ، بالنسبة إلى نيقولا ، وهو زعيم فرقة لا أخلاقية

كما تروي لنا التقاليد الكنسية . ويقصد منها تفسخ وانحلال الاخلاق الاكليركية .

ان الاسقف الذي حصل على كرسيه بماله أو بعلاقاته لا يكون على استعداد للخضوع إلى النظام الكنسي ، واذا رغب بهذه الوظيفة فليستمتع بوارداتها . وهو بدوره يبيع المناصب التي تتعلق به ، ولا يتوانى منذ تقلده مهام وظيفته ، عن الانغماس في أهواء عصره : فمن ذلك انه يستمر في الصيد ويتردد على الحانات ويعاقر الراح ، ويزور المواخير ، ويسخر بقانون العزب الكنسي الذي فقد مع الزمن قوة الاجراء . وحذا على هذا الشكل الاكليروس الادنى حذو الاكليروس الأعلى . وقد كتب آتون فيرسي في منطقة بيمونت إلى كهنة اسقفيته : « انني اخجل أن أقول ، ولكني أعتقد أن من الخطر أن أسكت ، ان كثيراً منكم انقادوا للهوى وسمحوا لنساء السوء أن يقمن في منازلهم ، ويقاسمنهم غذاءهم ويظهرن معهم أمام الجمهور ... وأخيراً جردت الكنائس لتزيين هؤلاء النساء » . وقد امتد هذا الانحلال الخلقي إلى الابويات ايضاً .

أمام هذا الوضع الدال على الفوضى الخلقية ، وقفت البابوية موقفاً محايداً ، وكانت هنالك فئة صالحة من الاحبار ، ممن وخزهم ضميرهم لهذه الحالة وراحوا ينبهون البابوية إلى الخطر الذي يهدد الدين من سوء سيرة رجاله . ومن هؤلاء الأحبار الأفاضل آتون فرسي و راتيه فيرونه . فقد اشارا عدة مرات إلى فداحة الشر في النصف الأول من القرن العاشر ، ولكن الكرسي الاقدس بقي يصم آذانه عن سماع النداء .

على أن المحاولات الوحيدة ، التي اجريت لالغاء السيمونية والنيقولاوية كانت من عمل الاساقفة الذين هزتهم الروح المسيحية الخالصة ، فحاولوا الوقوف في وجه هذا التيار الجارف ، مثل الحبرين اللذين تقدم ذكرهما

بالاضافة إلى اولريخ أوغسبورغ في المانيا وفولكران لوديف في فرنسا . غير ان هذه الغيرة ، التي دفعت هؤلاء الاحبار ، لم تكلل جهودها بالنجاح ، بل باءت بالخيبة والعجز والعقم لانها جهود مبعثرة دون أي تلاحم أو استمرار . وما دام الانتخاب رهن السلطة الزمنية ، فان الاسقف المصلح يكون ثمرة صدفة سعيدة لا تتجدد دوماً . لان خلفه على الغالب لا يشبهه ، وكثيراً ما ينقطع العمل الذي بدأ به ، أو يفسد أو يتهدم بكليته . ولذا كان من الضروري القيام بحركة جماعية لاستئصال هذه المساوىء التي تلطخ وجه الكنيسة . والبابوية وحدها تستطيع أن توجه هذه الحركة وتنظمها بما لديها من سلطة وجاه ونفوذ . غير ان البابوية كانت سجينة السلطة الزمنية ولذا فانها لا تريد ولا تستطيع القيام بأي محاولة من هذا النوع لا يرضى عنها او يعاكسها بالطبع حماتها الطغاة.

وهكذا استمرت الفوضى الخلقية حتى إلى ما بعد ارجاع الامبراطورية على يد أوتون الكبير . وظلت السيمونية والنيقولاوية تفتكان بالكنيسة فتكاً ذريعاً خلال آخر القرن العاشر والنصف الاول من القرن الحادي عشر . ولا شك ان هذه الفوضى الخلقية كانت نتيجة من جملة النتائج البعيدة والمؤسفة لزوال الامبراطورية الكارولنجية .

البابوية والحركة الرهبانية . — ولما حرمت « الكنيسة العصرية » من توجيه السدة الرسولية انحرفت واستسلمت للسلطات الزمنية وعجزت عن القيام بعمل ضد المساوىء والرذائل . غير ان « **الكنيسة النظامية** » سبقتها في التجديد ، وباشرت به منذ بداية القرن العاشر ، وتابعت سيرها في هذا السبيل وحظيت بتشجيع الكرسي الاقدس .

طريقة كلوني . — وعلى هذا النحو تأسست **ابوية كلوني** في ١١ تشرين الثاني (٩١٠) على ضفاف نهر الغرون في اسقفية ماكون

ومؤسسها دوق اكيتانيا ، غليوم التقي . وقد حُفِظ الصك الذي تأسست بموجبه هذه الابوية . ويلفت النظر فيه خاصتان :

١ — ان هذا الدير الجديد كان متحرراً من كل سلطة علمانية .

٢ — ان ابوية كلوني كانت متحررة من كل قيد زمني ، ومن سلطة الاسقف الروحية أيضاً .

وهذه الابوية تتعلق مباشرة بالحبر الروماني ، وفي ذلك ضمان لمستقبلها . ولذا كانت بمأمن من أن تقع في أيدي العلمانيين أو أن يكون على رأسها أمير من هؤلاء الأمراء الجشعين الذين قتلوا ، في الاديرة الاخرى ، روح الرهبانية وقلبوا بيوت العبادة والتوبة الى امكنة فسق وفجور . وقد احتفظت هذه الابوية باستقلالها التام وبقيت مأوى للحياة الدينية في وقت اجتاح الفساد الكنيسة نفسها .

ولم تكن قاعدة كلوني في ذاتها الا بعثاً للتقاليد التي سارت على قاعدة القديس بندكت آنيان المأخوذة عن طريقة مون كاسّينو . وبموجبها يعيش الرهبان في عزلة الدير بعيدين عن حياة العصر ، ويتخلون عن أموالهم الشخصية وعن كل ملكية فردية . وهذه هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى سلام الروح الذي هو مصدر وشرط لكل سلام . ويتفق نذر **الفقر** مع نذر **الطاعة** التي هي شكل أساسي للخضوع ، فضيلة الرهبانية الفائقة. وليس للكلونيّ من ارادة الا ارادة الاب ، فبين يديه يتنازل الراهب عن حريته وينفذ أوامره بسرعة وغبطة . وكذا **العفة** فريضة أساسية ولمراعاتها ينبغي الحذر : فلا يمكن لامرأة ان تدخل الابوية كما لا يسمح لراهب أن يدخل الى دار توجد فيها امرأة . وكبح جماح الشهوة الحسية يكون بالصوم والسهاد والجلد بالسياط ، عند الحاجة ، وبكل المتاعب التي تهدم الجسد وتنهك قواه .

واذاً فالفقر والخضوع والعفة والتوبة انما هي وسائل يتخذها الراهب ليقطع السلاسل التي تربطه بالعالم للوصول إلى الله . وهو وان هجر حياة العصر الا انه يطبق قانون **الاحسان** الفضيلة الاجتماعية الفائقة . وتصر قاعدة كلوني على ضرورة الصلاة والتقديس الشخصي بحضور الحفلات الدينية وغناء المزامير . وتعتبر العمل عنصراً أساسياً في الحياة الرهبانية التي تتلخص بهاتين الكلمتين : **صلاة وعمل** . وتختلف أشكال هذا العمل : كالخدمة الداخلية ، والحصاد ، وقطاف الكروم ، والحطب ، ونسخ المخطوطات ، ودراسة الكتاب المقدس ، والفنون الحرة . ولقد لعب الكلونيون ، نظراً لنشاطهم الاقتصادي والفكري ، دوراً في تاريخ الحضارة ، وأسهموا ببنائهم الكنائس في تشكل الفن الرومانسي ونموه . ووسعوا أعمالهم في البر والاحسان وتوزيع الصدقات .

وقد انتشرت قاعدة كلوني ونمت نمواً عظيماً ، وظهرت منذ تأسيسها أبوية انموذجية جعلت كثيراً من أتباع غليوم اكيتانيا يحذون حذو سيدهم .

وكان المؤسس لكلوني الاب برنون وقد توفي عام (٩٢٦) وخلفه إعليها القديس أودون . وبقي هذا أباً في كاوني من ٩٢٦ إلى ٩٤٢ . وكان صفحة عظيمة من صفحات القرن العاشر لا يتراجع أمام أقسى الاماتات الجسدية ، ولا أمام الخشوع والضراعة التي يتوب بها المؤمن الى الله توبة نصوحة ، ويراها ضرورية لتبرير شخصه وتقديسه .

ولكنه كان أيضاً رجل عمل نشيطاً يلتهب حماسة في هدى الارواح الى الله ، ويرى أن أفضل وسيلة للسير في طريق السلام يكون في قيادتها إلى شاطىء الرهبنة ، ولذا قضى حياته في الكفاح لظفر النظام الكلوني ،

وان لا سلام لمعاصريه إلا بالرجوع إلى المثل الذي رسمه هذا « القائد الذي ارسلته العناية الربانية للناس في سيرهم نحو السماء » .

واستطاعت قاعدة كلوني ، بفضل هذا الاب المتحمس ، ان تحقق فتحاً عظيماً وتطهر كثيراً من الابويات مما لحق بها من عدوى اخلاق العصر . وساعده في مهمته هذه بعض الاساقفة ممن حافظوا على الروح الكهنوتية القديمة وسط الانحلال العام ؛ وبعض الأمراء ممن كانوا يأملون ، اذا اتبعوا خطا غليوم اكيتانيا ، ان يشتروا حياتهم الملطخة بالظلم والرذيلة ، وينالهم العفو الالهي ، ويجزيهم الله بما فعلوا جزاءً وفاقا . وكان كل من الفريقين يدعو اودون ويطلب منه ارجاع قاعدة القديس بندكت واصلاحها في اديرته .

ورغم هذا النجاح العجيب الذي لاقاه القديس اودون فقد صادف كثيراً من الصعوبات التي قاومت حركته واستقبلته دون حماسة كبيرة . وقد أراد ان يجعل عمله ناجعاً ودائماً ، ففكر في جمع الابويات المختلفة التي اخذت تراعي قاعدة القديس بندكت في نظام مركزي يرأسه زعيم مطلق السلطة . واستحصل في العام ٩٣١ من البابا جان الحادي عشر على امتياز خاص يقضي بالحاق الاديرة المصلحة بكلوني . وبهذا أصبح اب كلوني اباً لجميع الاديرة الفرعية الملحقة ، وبامكانه أن يندب لتمثيله فيها رئيساً . وهكذا ألفت كلوني جمعية رهبانية .

وإذ طبع البابا جان الحادي عشر كلوني بهذا الطابع فقد أدى للكنيسة خدمة جلى وان لم يشعر بذلك ، لأنه سمح للاصلاح الرهباني بالاستمرار والنماء . ولقد لمس خلفاؤه أهمية هذه الحركة وأخذوا يشجعون ويكثرون من الامتيازات . وكانت الرهبانية القوة الوحيدة التي يمكن للكرسي الأقدس أن يعتمد عليها ، على حين أن الكنيسة العصرية

كانت تخضع بالتدريج للعلمانيين . وهـــذا أمر تحررت منه طريقة كلوني وفروعها .

وهكذا ظهر نظام كلوني ، وسط فوضى القرن العاشر ، مبدأ من مبادىء المحافظة . واستطاع هـذا النظام ، تحت سلطة الكرسي الأقدس العليا وحدها ، أن يحقق وحدة الكنيسة النظامية . وقد وقف دوره عند هذا الحد ، لأن الحركة الكلونية كانت رهبانية فقط ولم تدخل الكنيسة العصرية الا قليلاً . ومما لا شك فيه ان روح كلوني قد تسربت هنا وهناك إلى بعض الأحبار ، فحاولوا أن يعيدوا الاكليروس إلى الأخلاق الفاضلة ، كما حاولت طريقة كلوني أن تخلق حول ابوياتها في بعض الكنائس جواً من الطهارة والنقاوة ملائماً لاصلاح الكنيسة الخلقي . غير ان دورها يقف عند هذا الحد ولم تجد للسلام مصدراً إلا في التخلي عن حيـــاة العصر الفانية ، والاكثار من الابويات الكلونية ، حيث يرقى الانسان إلى السماء إذا عاش مسيحياً بكل مايتضمنه هذا القول من معنى .

الطريقة اللورينية . — ولم يتركز الاصلاح الرهبـاني في القرن العاشر حول كلوني وحدها ، فهنالك حركة أخرى أخذت ترتيبم معاصرة للحركة التي احدثها غليوم اكيتانيا في مملكة اللورين حيث شعت وانتشرت منها في شمال فرنسا وشرقها . وأول من حاول هذه الحركة أمير شاب يدعى جيرارد خامره النفور من حياة العصر فبنى عام ٩١٤ ، على ارضه في برونيو بالقرب من نامور ، كنيسة جمع فيها الكهنة القانونيين وغرس في نفوس رفقائه قاعدة القديس بندكـت ، ثم تخلى عن العالم وأصبح رئيساً للدير الذي أسسه ، وضرب للناس مثلاً في حياة الزهد والتقشف ، واكتسب بسرعة شهرة القداسة ، واستطاع ان يستميل إلى الرهبانية عدداً

من الأمراء مثل جيلبرت لورين ، وآرنول فلاندر ويصلح كثيراً من الابويات .

وكان لجيرارد هذا عدد من المنافسين واكثرهم نفوذاً جان غورز . وكان هذا ابن أمير غني في منطقة الموزيل أحب حياة التقى والزهد وسافر إلى ايطاليا وزار روما ، ودير مون كاسينو ثم عاد وانتخب أباً لدير غورز . وعرف هذا الدير في عهده دوراً مضيئاً وما لبث ان امتد تأثيره على جميع ابويات اللورين العليا . وبينا كانت الحياة الدينية تنتعش في هذه الاديرة القديمة ، قامت حركة عمران جديدة في أديرة الراهبات .

وهكذا كان في اللورين العليا والدنيا حركة رهبانية كثيفة تتميز بصورة جلية عن حركة كلوني وتختلف عنها ببعض المميزات الخاصة . فقد كانت اكثر منها زهداً ونسكاً . ولم يكن هذا هو الطابع الوحيد الذي تختلف به عن كلوني ، بل ان الفارق يبدو في أن كلوني كانت تؤلف « جمعية » بينا كانت الاديرة اللورينية تحتفظ باستقلالها الذاتي . وبينا كانت كلوني ترتبط مباشرة بالكرسي الأقدس ، كانت الأبويات اللورينية خاضعة لسلطه الاسقف ، وكان التماس بينها وبين الاسقفية وثيقاً . وبينا كانت كلوني واخواتها ترجع في الأصل إلى البابوية وتحصل منها على امتيازات استثنائية تجعلها على هامش الكنيسة العصرية وتجعلها في حذر بل وفي عداء مع الأسقفية ، كانت محاولات الاصلاح في اللورين تقوم على أيدي الأساقفة . فمن ذلك أن الاساقفة آداالبيرون متز وغوزلن تول وريشيه ليبج كانوا يساندون المصلحين ويوجهونهم . ولولا الاساقفة لما أثمرت جهود هؤلاء المصلحين .

يضاف إلى ذلك ان هذه الحركة كانت محلية . فبينا كانت كلوني

تفتح العالم المسيحي بأجمعه ، كان المصلحون اللورينيون بعيدين عن كل فكرة واسعة الدعاية ، ولا يمتدون بعملهم إلى أبعد من اللورين والفلاندر والمانيا الرينانية . وفي الحقيقة ، ان تأثيرهم كان من نوع آخر وستظهر نتائجه في الآجل البعيد . ففي اللورين هذه ، ولأول مرة ، عرفت الأسباب الحقيقية للأزمة التي تشكو منها الكنيسة منذ زوال الامبراطورية الكارولنجية ، ووضعت على بساط البحث مشكلة الاصلاح العام . وهذا ما لم يدركه الكلونيون بدقة ووضوح لأنهم كانوا منصرفين إلى مثلهم الأعلى الرهباني ، ولم يعرفوا أن اضطراب الأخلاق الاكليركية كان نتيجة استعباد السلطة الزمنية للسلطة الروحيـــة ، ولم يروا أن اصلاح الكنيسة لاينجح إلا في اليوم الذي تستعيد فيه البابوية ، سيدة العالم المسيحي ، كامل الحرية والاستقلال .

على أن هذه الأفكار التي نجد صورتها البعيدة عند راتيه ليبج ، في منتصف القرن العاشر ، ستلبث سنين طويلة لتتفتح وتتضح . ولن تدخل في ساحة الجدل والكفاح إلا في اليوم الذي يأتي فيه كثير من المصلحين اللورينيين إلى روما ، كما هي الحال في عهد البابا ليون التاسع (١٠٤٨ — ١٠٥٤) ،ويتوصل أحدهم إلى البابوية باسم ايتين التاسع (١٠٥٧ — ١٠٥٨) . ولكن الكرسي الأقدس ، في الوقت الحاضر ، يجهل المميزات الحقيقية لهذه الحركة اللورينية ، ومازال الباباوات في معزل عن الطرق التي تؤمن استقلاله التام . وعوضاً عن أن يسير الحوادث جعل الحوادث تقوده وتسيره. وإذا خلصه ارجاع الامبراطورية على يد اوتون الكبير عام ٩٦٢ من طغيان الاوستقراطية الرومانية ، إلا أنه لم يعد اليه استقلاله وحكمه الذاتي . وسيخضع الباباوات حتى بابوية ايتين التاسع إلى الوصاية الامبراطورية التي قامت مقام اسرة تيوفيلاكت ، ولا يتمتعون بالحرية الحق ، لانه ليس لديهم من السلطة ما يكفي لكفاح المساوىء التي تسربت إلى كل درجة من درجات الكهنوت .

الفصل الثالث والعشرون

اوتون الكبير

و

ارجاع الامبراطورية في الغرب

بقاء الفكرة الامبراطورية في الغرب . — في غضون النصف الاول من القرن العاشر عاشت كل دولة من الدول الناشئة عن تجزئة الامبراطورية الكارولنجية حياتها الخاصة دون أن يحاول أي ملك من ملوك هذه الدول ان يضم تحت لوائه هذه الافنان التي انفصلت عن تلك الدوحة الام . وكذلك البابوية ، التي أصبحت حكرة بيد الطبقة النبيلة الرومانية ، لم تحاول بعث النظام الامبراطوري كما كان موجوداً في السابق . وبالرغم من ذلك فما زالت ذكرى الامبراطورية ماثلة في الاذهان ، حية في الآداب التي تمجد شارلومان والنظام الذي أقره .

ومنذ النصف الثاني للقرن التاسع أخذت اسطورة الامبراطور العظيم ترتسم في القصائد والاغاني العامية . وإذا رأينا الكتاب « الوجيز في السلطة الامبراطورية في مدينة روما » ، الذي الف على الاكثر حوالي ٨٩٦ أو ٨٩٨ ، يشيد في مدح النظام الذي وضعه شارلومان ويرثي لفقدانه فقد استحكمت هذه العاطفة وازدادت في القرن العاشر بتأثير الشرور والمصائب التي سببها الغزو والغارات . ففي حوالي العام ٩٥٠ نجد

آدسون راهب مونتيراندر (في منطقة المارن الاعلى) في كتابه « حياة عدو المسيح » يقول : ان مجيء عدو المسيح ، الذي يتفق مع الزمن الذي تنفصل فيه جميع الممالك عن الامبراطورية الرومانية ، مازال بعيداً لانه « ما دام هنالك ملوك فرنجة يقبضون على زمام الامبراطوريا الرومانية ، فالمنصب الامبراطوري لايزول ». ولقد كان تأثير هذه الآثار الادبية عظيماً . ففي كل مكان تتجاوب الاصداء ويتكرر النداء لوان شارلومان جديداً يأتي فيضع حداً لهذه المحن الشديدة التي ألمت بالمسيحية جمعاء .

وتألق الفجر في القرن العاشر فانبثق عن شارلومان جديد أتى من المانيا . لان هذه المملكة استطاعت ، منذ تسنم الاسرة الساكسونية العرش عام ٩١٩ ، ان تصل إلى استقرار يتلاءم مع أثر بعيد المدى ويحتاج في تحقيقه إلى زمن طويل . وكان من حسن طالع هذه الاسرة أن انجبت رجلاً عبقرياً يتمثل في شخص اوتون الاول ، بن هنري الاول وخليفته ، الذي لقب بالكبير واليه يعود الفضل في ارجاع الامبراطورية الى حيز الوجود عام ٩٦٢ .

اوتون الكبير . — ولد اوتون الكبير في ٢٣ تشرين الاول ٩١٢، ولم يكن له من العمر سوى اربع وعشرين عاماً عندما خلف أباه هنري الاول ٩٣٦ على عرش جرمانيا.لقد كان يتمتع بجميع الصفات التي تؤهله لاكتساب عطف شعبه : كان طويل القامة ، ضخم العظام، كث اللحية ، أشقر ، حاد النظر شغفاً بالرياضة البدنية ، شجاعاً ، جلداً لايتراجع أمام أقسى المتاعب ولا يخشى في الحروب مجابهة الاخطار . وكان يضم في هذا الكيان الجسماني العظيم روح الحرب وتوقد الذكاء . ومما لاشك فيه ان اوتون لم يكن مثقفاً لان تربيته العسكرية لم تجعل

منه رجلاً متعلماً . فهو يجهل اللاتينية ولا يتقن السلافية والفرنسية ، وقد تعلم القراءة على كبر وفي سن متأخرة ، غير أن هذا النقص الذي نراه في تعليمه لم يحل دون نبوغه وتفتق عبقريته اللذين جعلا منه رجل دولة وقائد جيش ، فضلاً عن ان مزاجه العذب وطيبه الباسم قد طبعـــا حكمه بطابـع العدل والاعتدال ، فنال بذلك محبة الشعب وولاءه . وتأتي بعد هذا تقواه فتجعله قريباً إلى قلب رجال الدين . غير أنه كان في شبابه ، كسائر ملوك عصره ، لايراعي قوانين الاخلاق المسيحية . فقد أتاه ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، ابن طبيعي من أسيرة سلافية حسناء ، ولكنه تعقل مع تقدم السن واشترى غواية الشباب بالعدول عن شهوات الحس ، والتمسك بأهداب الدين ، والقيام بما يتطلبه من عبادات عن أمانة واخلاص . وكان يؤمن بحماية القديسين ويجل آثارهم وبقاياهم عن ورع ، ويشرف على الحفلات الدينية بنفسه . ومن جهة أخرى ، كان يحاول دوماً أن يكيف حكمه مع المبادىء الانجيلية ويحقق ، على قدر جهده ، نموذج الملك المسيحي الذي يراه متمثلاً في شخص شارلومان .

ولم يشترك اوتون في شؤون الدولة في حياة ابيه الا انه ، عندما اعتلى عرش جرمانيا ، عرف المسؤولية التي يلقيها على عاتقه تسنم هذا المنصب . ولذا كان همه في المانيا توطيد الاثر الذي بدأ به والده ، ليستطيع بعد ذلك المطالبة بتاج ايطاليا والمنصب الامبراطوري . وهذه هي الغـاية التي كان يهدف اليها اوتون ويسعى في تحقيقها بكل ما أوتي من قوة ومتانة ومعرفة في أصول الحكم .

لقد كانت سياسة اوتون الأول تختلف عن سياسة أبيه هنري الأول . وبينا نرى هذا الأخير يحاول أن يعيش قبل كل شيء على اتفاق تام مع

أدواق جرمانيا ويشركهم في سياسته حتى كسب ودهم ولم يحاول أحد منهم أن ينازع ابنه في مملكته ، نرى ان اوتون الاول يدشن حكمه بباركته في كنيسة اكس — لا — شابل ويتسلم الشارات الملكية من يدى مطرانماينس بينا كانت ترتل الانشودة الدينية « تودم » . وهو في هذه الحفلة الدينية يصل ما انقطع من التقاليد الكارولنجية في عهد هنري الأول ، ويخلع على الملكية الساكسونية طابعاً دينياً لم يكن لهـــا في الاصل . ومن جهة أخرى ، تدل هذه الحفلة على رغبة اوتون الاول في التفاهم مـع الاسقفية وربط الادواق بالسلطة الملكية بعد أن اتوا اليه وقدموا ولاءهم بين يديه .

ونحن إذا اطلعنا على توطيد الملكية الساكسونية في جرمانيا نرى ان اوتون الاول قد اعتمد كثيراً على مساندة الكنيسة له . وبالمقابل كان يمنحها الامتيازات الارضية والاقطاعية ، وحفر بذلك غوراً بينـه وبين الادواق . فاذا ما وقف هؤلاء في وجه التاج ، وقفت الكنيسة إلى جانب الملك أمام العدو المشترك .

لقد كانت سياسة اوتون الاول ترمي الى السيطرة على الكنيسة بوضع يده على الاسقفيات ، والى اثراء الكنيسة لتكون عوناً له ، وهذه هي السياسة التي سار عليها طيلة حكمه في علاقاته معها .

في اول الامر كان تعيين الاساقفة من قبل الملك أو على الاقـل برضى منه . وبعد ذلك أصبـح الانتخاب لايجرى دون تدخل الملك ، حتى ان اوتون لايتردد في الانتقال من مكان لآخر ليقوم بهذا الامتياز الذي خوله لنفسه . فمن ذلك أننا نراه ، في العام ٩٤١ ، عندما شغر كرسيا اسقفيتي فرتزبورغ وسبير ، لايتوانى عن الذهاب من ساكس الى فرانكونيا. وكذلك نراه في العام ٩٤٢ يقوم بسفر شاق طويل ليشرف على انتخاب

اسقف راتسبون . وكان في الغالب يعين الاسقف ولكنه يحاول دوماً الا يذهب مع ما يخالف أماني الناخبين القانونيين . وفي بعض الاحيان لايتورع عن القيام بترشيح رسمي ويبقى حراً في المصادقة على المقترحات التي تقدم اليه .

واستطاع اوتون على هذا النحو ان يشغل الاسقفيات باناس من صنع كفيه أو من أعضاء اسرته : فمن ذلك ان ابنه غليوم أصبح مطران ماينس وأخاه برونون مطران كولونيا ، وغيرهما من ذوى قرباه . ويجب أن نعترف أن هذا الانتخاب كان موفقاً بوجه عام . لأن من تقلدوا هذه المناصب كانوا على جانب عظيم من التقوى والصلاح وسعة الثقافة والمعرفة .

ويعتبر اوتون الاول هؤلاء الأساقفة الذين يعينهم تابعين يرتبطون مباشرة بالتاج الملكي . فهم أمراء زمنيون ويتمتعون بامتيازات عديدة . ولا شك ان اوتون الأول اتبع في سياسته هذه السياسة التي اتبعت في عهد أسلافه ، وكان منها أن منحت الاسقفية حصانات متعددة ، ولكن حكمه يسجل في هذه الناحية تقدماً محسوساً ، فقد زاد في السلطات القضائية الممنوحة لمحكمة الاسقفية على الارض التي تتمتع بالحصانة ، وتخلى لكثير من الأحبار عن بعض الحقوق الملكية الهامة مثل ضرب النقود وجباية الضرائب التي تفرض على التجار . ولم يكتف بذلك فحسب ، بل انه خول الاسقف سلطات الكونت في داخل المدينة وملحقاتها كما حصل ذلك في سبير عام ٩٤٦ ، وماكدبورغ ، وماينس ، وكولونيا ، وشور ، وجرى خلفاء اوتون الكبير على هذه السياسة . وهكذا توصلت الاسقفية الالمانية ، خلال النصف الثاني من القرن العاشر ، لأن يكون لها سلطة ونفوذ عظيم في الاراضي الواقعة تحت يدها .

وأصبح الأسقف على هـذا النحو أميراً زمنياً لايختلف عن كبار الاقطاعيين العلمانيين . وكان الملك يرى فيه تابعاً من تابعيه المباشرين ، ويتصرف تجاهه تصرف الأمير حيال تابعه . ولم يكتف بممارسة السلطة التقليدية التي تعترف له بها القوانين أثناء الانتخابات الاسقفية ، بل اراد أن « يقلده منصبه » بتسليمه بيده عصا الراعي ، والا يجـري له أي احتفال لمباركته في منصبه الجديد إلا بعد اجراء هذه الشكلية . وهكذا أصبح الاسقف يأخذ كنيسته من الملك ، واليمين التي يحلفها بين يديه يميناً اقطاعية . هذا ولما كان الروحي والزمني في الاسقفية يؤلفان كلّاً واحداً ومن الصعب الفصل بينها ، فقد نشأ التباس اثقل علاقات الكنيسة والدولة وخاصة عندما استرجعت السلطة العليا في الكنيسة ، ممثلة بالكرسي الأقدس ، كامل الحرية والاستقلال .

وهذا النظام الذي وضعه اوتون لايخلو من محاذير . إلا ان هـذه لاتظهر في الوقت الحاضر لان الأسقفية الألمانيـة في عهد اوتون الاول كانت قوية الأخلاق وتهتم في وظائفها الروحية . لقد كان برونون كولونيا مثال الأسقف الكامل . ويمكننا القول كذلك عن اولريخ اوغسبورغ الذي حمى المدينة عندما هددها الهونغاريون ووقف حياته على خدمـــة الكنيسة والتبشير بعناية فائقة . ولكن هذين الحبرين لم يكونا الامثالين من نوع ممتاز خاص . ومـع الزمن أخذت المشاغل الزمنيـة تنمو عند الأساقفة وتضطرم في نفوسهم حتى طغت الآمال السياسيـة على المصالح الدينية الكبرى . وإذا كانت المساوىء سهلة الاجتناب مع أمير كأوتون الأول فإن الحاق الأسقفية بالملكية أو ارتباطها بها ارتباطاً وثيقاً لايخلو من محذور في المستقبل ، و يكفي لذلك تغيير الملك حتى تتسلل الحوادث المؤسفة في داخل الكنيسة الامبراطورية .

وإذا حد اوتون الأول من نفوذ الأدواق واعتمد على الكنيسة فقد منح الملكية الساكسونية قوة عظيمة لا تجارى . وهذا مايوضح لنا كيف ان ملك جرمانيا ، بعد عشر سنوات من توليه الحكم ، استطاع أن يفكر بوصل ما انقطع من تقاليد شارلومان ، ويفتح ايطاليا ويبعث الامبراطورية لصالحه .

فتح اوتون ايطاليا ونظمها وظفر على الهونغاريين والسلافيين وبدا حامياً مجيداً للمسيحية . رد هجوم الشعوب الوثنية في الشمال والشرق وعمل على اشعاع الانجيل في بلاد الشمال أي في البلاد الاسكاندينافية . وتابع هذا الجهد في البلاد السلافية . وساهم في تنظيم البعثات المسيحية وبدا كأنه متمم لما قام به شارلومان . وإذا ملأ اوتون الأول الكنائس برجاله واستعملها لتحقيق أهـــدافه الزمنية إلا أنه ما أنفك يساعدها كشارلومان ويمنح قرارات مجامعها الدينية قوة القانون . واستطاع بما قام به من خدمات للكنيسة أن يكسب عطف الاكليروس ويسخره لخدمته والدعاية له في ارجاع الامبراطورية . ولهذه الغاية نراه ، في ٣١ كانون الثاني ٩٦٢ ، أمام روما ، ولكنه لم يستطع اجتياز عتبة « المدينة الخالدة » إلا بعد أن أقسم اليمين التقليدية التي تطمئن البابا والرومانيين على سلامة نياته . ولقد كانت وعوده أكثر وضوحاً من الوعود التي فاه بها من قبل أباطرة الكارولنجيين . فقد تعهد أن يعمل على تمجيد الكنيسة الرومانية واعلاء شأنها ، وألا يقوم بشيء ضد حياة خليفة بطرس وشرفه ؛ كما اقسم أيضاً الا يعقد مجلساً في روما دون موافقة البابا ، والا يتدخل في شيء في ادارة دولة الحبر الأعظم ، وأن يعيد كل ما قبض عليه من تركة القديس بطرس ، ويحمي أموال

الكرسي الأقدس الزمنية . وبالمقابل يقسم البابا جان الثاني عشر والرومانيون ببقايا القديس بطرس الا يدعموا أعداء اوتون في ايطاليا .

وهذا التبادل في الوعد يدل بوضوح على استعداد جان الثاني عشر. فهو يريد أن يحافظ على السدة الرسولية ويصون لها ممتلكاتها . بيد أنه كان مجبراً على تحمل الحوادث ، ولم يقبل إلا عن غير رضى بالتخلي عن أطماعه الايطالية . وهو يريد على الأقل أن ينقذ كل ما بقي له من سلطة زمنية ويحول دون الحاق الكنيسة الرومانية بالامبراطورية ، فدل بذلك على مهارة حقيقية . هذا ولما كان اوتون يرغب في دخول رومـــا فقد أقسم على كل ما طلب منه . وهو وان لم يشأ لنفسه أن يكون مغلوباً فقـــد كان يفكر بتتويج نفسه امبراطوراً ولسوف يأخذ بثأره في في الساعة التي يختارها .

وفي ٢ شباط ٩٦٢ ذهب اوتون الأول إلى كنيسة القديس بطرس تصحبه الملكة اديلائيد وتناول من يدي البابا جان الثاني عشر التـــاج الامبراطوري بمقتضى الاحتفالات والمراسم المتعارف عليها في بزنطة ودولة الفرنجة . ونادى به الشعب الروماني امبراطوراً حسب الاصول التقليدية ثم انسحب البابا والامبراطور بعد أن تبادلا الهدايا الثمينة .

وبعد أن تقلد اوتون المنصب الذي يتوق اليه منذ سنوات عـدة واطمأن به المقام أخذ ينتزع من البابا سلسلة من الامتيازات كان يعتبرها ضرورية لتأمين مستقبل الامبراطورية التي بعثها على شرفه .

وفي ١٢ شباط انعقد مجمع ديني في كنيسة القديس بطرس واتخـذ تدبيرين هامين :

اولاً : يحدث جان الثاني عشر ، بنـــاءً على طلب اوتون ، في

ماغدبورغ مطرانية ويلحق بها أسقفية مرسبورغ وتصبح على هـذا النحو ماغدبورغ مركز مطرانية البلاد السلافية والتبشير والنفوذ الجرماني .

ثانياً : يخلع جان الثاني عشر هيرولد من كرسي مطرانية سالزبورغ بعد أن أظهر معارضته لسياسة اوتون الدينية ويعهد بوشاح المطرانية إلى فريديريك المرشح الملكي .

إن البابا جان الثاني عشر في هـذين المرسومين يوافق ويصادق على سياسة اوتون الكبير الدينية : فهو يعطيه الوسائل التي تتوسع بها المانيا نحو الشرق ، ويعترف بسلطته المطلقة على الكنيسة في مملكته . ولكنه أثبت في هـذه المناسبة رفعة البابا . فقد ذكر في أعلى المرسوم الذي جعل فيه ماغدبورغ مطرانية أن من حق الكنيسة الرومانيـة أن تنظم شؤون المسيحية وان ما فعله إنمـا هو تنازل عند « توسلات اوتون الخاشعة » . وهو في الوقت الذي يمنح اوتون الوسائل التي يزيد بها قوته ، لايتوانى عن اعلان تفوق البابا على الامبراطور .

وفي يوم ١٣ شباط أتى دور اوتون الأول وبرهن للبابا أن خليفة بطرس إذا كانت له السيادة العـامة في الحقل الروحي والكنسي ، فالامبراطور يتمتع بالامتياز نفسه في الحقل الزمني . ففي هذا اليوم أعلن امتيازه الشهير الذي أثبت فيه حقوق البابا على ممتلكات الكنيسة الرومانية وخاصة على الاراضي التي كانت منحة من بين وشارلومان . واستوحى من **دستور روما ٨٢٤** فوضع رقابته على ادارة الدولة الحبرية ، ونص على أن مندوبيه (ميسّي) يجب أن يقدموا اليـه كل سنة تقريراً عن الشروط التي يقام فيها العدل ، وينبؤوه عن القلاقـل التي يمكن أن تحدث . فهو بهذا يؤكد بأنه سيد روما التي وعدها منذ بضعـة أيام خلت باحترام استقلالها .

يضاف إلى ذلك أن الدستور الذي يجدد به أحكام دستور ٨٢٤ يقرر بان الحبر الذي ينتخب في المستقبل بصورة قانونية لايبارك إلا بعد أن يقسم اليمين للامبراطور أو لمندوبيه (ميسّي) . وهكذا نرى أن البابا إذا نادى بتفوقه على الامبراطور فليس ذلك إلا من قبيل الضلال والوهم ، وليس بامكانه أن يحصل على منصبه دون مساعدة الرئيس الزمني للمسيحية .

ونرى بعد أن اتضحت لنا مراسيم مجمع ١٢ شباط وامتيازات الامبراطور في ١٣ منه ان الاتفاق بين البابا جان الثاني عشر والامبراطور اوتون الاول كان شكلياً محضاً ، وان وضع كل منهما بالنسبة للآخر مازال قلقاً يشوبه سوء تفاهم عميق . لقد قبل جان الثاني عشر مجيء اوتون إلى ايطاليا أملاً في أن يضع حداً للفوضى التي كانت تسود في ايطاليا الشمالية وخوله منصب الامبراطورية شريطة ان تبقى الدولة الحبرية مستقلة استقلالاً تاماً ، ولم يدعه يدخل روما إلا بعد ان حصل منه على الضمانات الكافية في هذه القضية . أما ملك جرمانيا فلم يكتف بلقب الامبراطورية الشرفي فحسب بل أراد أن يحيي شارلومان . ويقتضي ذلك في الزمني سيادة روما وايطاليا ، وفي الروحي الوصاية على الكنيسة الرومانية بعد أن تحررت من نير الارستقراطية المحلية .

وهذان المفهومان المتضادان يوضحان لنا كيف ان اوتون ، بعد أن ارجع الامبراطورية ، اصطدم بشتى المصاعب التي اضطرته أن يعود إلى ايطاليا مراراً ؛ وان جان الثاني عشر وان خضع عن كراهية لامتياز ١٣ شباط ، إلا انه عزم على الا يتقيد به ويصرف النظر عنه لاسيما وان الرأي العام في ايطاليا كان غير ملائم للألمانيين . وقد راجت عنهم الاخبار بأنهم محاربون أشداء يخشى شرهم . واذا نودي باوتون امبراطوراً إلا انه

في ١٤ شباط ، أي عندما غادر العاصمة المسيحية ، لم يكن مطمئناً عن غده ويستطيع أن يتنبأ بوقوع انقلاب في العاجل القريب .

ولكن أوتون الأول لم يكن من اولئك الذين تلين قناتهم بسهولة ، فقد استطاع بما أوتي من قوة أن يثبت دعائم الامبراطورية في الغرب . ورغم أن الظواهر بدت معاكسة له ، فقد تغلب مفهومه على مفهوم جان الثاني عشر . ودام هذا الظفر ما يقارب القرن على الأقل ، وبقي الاباطرة الجرمانيون حتى الاصلاح الغريغوري ، رغم المعارضة الشديدة في بعض الاحيان ، يسيطرون على روما ويمارسون نفوذهم على الحكومة الحبرية .

وبهذا الاعتبار تحقق حلم اوتون . لقد بعث امبراطورية شارلومان . وهذا هو المعنى الذي علقه المعاصرون على حادث ٢ شباط ٩٦٢ . وإذا قلنا بعث الامبراطورية فليس في ذلك ما يدل على أن الامبراطورية التي ارجعها اوتون الكبير تنطبق على امبراطورية شارلومان . لاشيء من ذلك البتة . لقد حكم شارلومان بلاد الغرب كلها . اما اوتون فقد كان سيداً في ألمانيا وفي قسم من ايطاليا ، لأن جنوب شبه الجزيرة بقي تابعاً لبيزنطة حتى آخر القرن الثاني عشر ، وليس للنفوذ الجرماني أي سيطرة عليه . فضلاً عن أن هذا النفوذ كان وقتياً في وسطها . أما فرنسا فقد كانت خارجة عن امبراطورية اوتون . ولذا يمكننا القول ان الوحدة المسيحية التي حققها شارلومان لم ترجع إلى ما كانت عليه عندما توج اوتون الكبير امبراطوراً في ٢ شباط ٩٦٢. عدا ان سلطة هذا الامبراطور بقيت ادنى مما كانت عليه سلطة شارلومان التي بقيت ذكرى تردد في خلد اوتون الاول وتوجه سياسته . وعلى هذا ظلت سلطته المانية اكثر منها عامة .

ومهما يكن فليس من العدل ان نبخس قيمة الاثر الذي شاده الملك الساكسوني . لقد استطاع ، في هذه البلبلة التي تخبط فيها الغرب بعد وفاة شارل السمين ، أن يدخل النظام بعد الفوضى ، والحياة بعد الموت. واذا تضاءل ظل الامبراطورية وضاقت رقعتها الأرضية ، فقد بعثت على كل حال من جديد وطبعت تاريخ الغرب اعتباراً من العـــام ٩٦٢ بطابـع مغاير لما كان في السابق ، وانتهت الأزمة التي نجمت عن تفكك الامبراطورية الكارولنجية .

الفصل الرابع والعشرون

النظام الأميري

النظام السياسي والاداري في ممالك اوربة الغربية

سيماء أوربة الغربية في منتصف القرن العاشر . — لقد بدل زوال الامبراطورية الكارولنجية مصور أوربة الغربية تبديلاً عميقاً . وذلك بأن احل الانقسام إلى ممالك محل الوحدة الامبراطورية التي أعيد انشاؤها على يد اوتون الكبير بصورة غير تامة . ولم يقف عمل التفكك عند هذا الحد ، ففي منتصف القرن العاشر لم تكن كل مملكة من هذه الممالك الا فسيفساء من الدول ، وعلى رأس كل منها دوق أو مركيز أو كونت وليس للسلطة الملكية على هؤلاء فى الغالب أي تأثير ، لأن هذه السلطة كانت ، في الحقيقة ، وهمية اكثر منها واقعية . يضاف إلى ذلك ان الكونتيات نفسها انقسمت إلى امارات مستقلة علمانية أو كنسية . وكان القائمون عليها يمارسون معظم الحقوق الملكية ولا يرتبطون بالكونت إلا بروابط التبعية ، أي بالولاء الشخصي ، الذي يربط الكونتات والأدواق بالملوك .

ولم يكن هذا النظام الأميري شيئاً جديداً ، فقد وجد ، كما رأينا ، في غضون العصر الكارولنجي ، وترجع اصوله الاولى إلى اعلى من ذلك ايضاً . فالتبعية التي تلحق شخصاً يسمى التابع بشخص آخر يسمى

الأمير كانت تعترف بها الصكوك التشريعية منذ عصر شارلومان . وتعتبر في عهد خلفائه عنصراً من عناصر تشكيل الدولة : فكل شخص يستطيع ان ينتخب لنفسه أميراً ويقسم له يمين الولاء والاخلاص ؛ وبالمقابل يلقى منه الحماية والرعاية والتمثيل أمام الملك . وعلى الغالب يكون هذا التابع في الوقت نفسه مستفيداً يعهد اليه الامير بطريق **الانتفاع** بأرض يفلحها مقابل اتاوات معينة وينقلها الى أنساله غالباً .

وعلى هذا الحادث الاجتماعي ، الذي نشأ منه النظام الاميري ، تعلقت بعض التعاملات التي سببت تجزئة الدولة ومهدت لتحويلها السيامي بشكل لم يكن في الحسبان : فقد تخلى الملك ، بالحصانة ، عن الحقوق الملكية على اراضي الملاكين العقاريين الكبار وأخذ هؤلاء يقضون بين الناس ويجبون الضرائب لأنفسهم . وأفادهم هذا الوضع وحصلوا على الاستقلال التام تقريباً على حساب الدولة . فقد قبل الملك خاصةً ، وهذه هي المرحلة الحاسمة ، بتمثيل الوظائف بالانتفاعات وتخلى ، الى الكونتات ممثلي السلطة العامة ، عن جميع املاك الدولة والحقوق الملكية الداخلة في نطاق منطقتهم الادارية ، كرواتب تدفع لهم . وأصبح هؤلاء الموظفون مستفيدين ولهم حصانة ، وعوضاً عن أن يكونوا منتدبين ومسؤولين وقابلين للعزل من مناصبهم ، أصبحوا لا يرتبطون بالسلطة المركزية الا بروابط رخوة من الولاء والاخلاص . ولا شك في أن هذه الحال تعتبر ثورة لأنها حولت **الكونتات** ، وهم مبدئيا عمال الدولة ، الى **موالين وتابعين** . ومن الطبيعي أن تجعل الفوضى السياسية ، التي عمت تقريباً كل مكان خلال النصف الأول من القرن العاشر ، هذا « الولاء » نظرياً ، وأن تكسر العقبات التي تلحق الموظفين الكارولنجيين القدامى بالتاج الملكي .

ونرى في غضون هذا العصر ان جميع الممالك كانت مسرحاً للمنازعات

السلالية التي هزت السلطة الملكية . فقد كان الملوك ، في سبيل الحفاظ على التاج الذي كان ينافسهم عليه كثير من المطالبين ، يهتمون خاصة بتأمين مساعدة مخلصيهم ويرون أن خير وسيلة للحصول على مساندتهم هي التخلي لهم عن امتيازاتهم التي حافظوا عليها . وهكذا فان الأدواق والمراكيز والكونتات الذين كانوا منذ العصر الميروفنجي يطلبون حماية المليك ، قبل الدخول في الوظائف ، قد آل بهم الأمر الى ان أصبحوا تابعين للملك . واكتفى الملك باعتباره أميراً بالاحترام ويمين الولاء دون أن يمارس أي رقابة عليهم . وهناك اكثر من هذا : وهو ان الوظائف الكبرى التي تأتي عنها الاقطاعات الكبرى أخذت تنتقل بالوراثة . وعلى هذه الصورة تألفت اسر حقيقية لا تخضع للسلطة الملكية . ففي فرنسا مثلاً نجد ان أدواق بورغونيا ، منذ ريشار العادل (٨٧٧) يتوارثون وظائفهم كابراً عن كابر ، وكذا الحال في نورمانديا في عهد غليوم ذي السيف الطويل (٩٢٧ — ٩٤٣) وريشار الأول (٩٤٣ — ٩٩٦) وريشار الثاني (٩٩٦ — ١٠٢٧) او في فلاندر ، منذ بودون زند الحديد (٨٦٣ — ٨٧٩)، لم يفارق منصب الكونتية هذه الأسرة . ونجد الحالة نفسها في ألمانيا لان انتقال اللقب الدوقي لايضايقه الا معارضة الاسر المنافسة . وهكذا توطد نظام الاخلاص الشخصي بعد ان حذف تدخل السلطة المركزية في الاقاليم المحلية التي اصبحت أمارات مستقلة .

وهذا التطور الذي نشاهده عاماً في جميع ممالك الغرب لم يقف في كل بلد في نفس المرحلة بل نتج عنه اختلاف وتنوع ولا يسعنا إلا أن نصر على هذه الناحية لأن النظام الأميري لم تكن له سياء واحدة في المانيا و ايطاليا و فرنسا .

النظام الأميري في المانيا . — ففي المانيا شهدت الملكيه دور كسوف

تام في زمن لويس الطفل (٩٠٠ – ٩١١) وكونراد فرانكونيا (٩١١ – ٩١٨) ثم نهضت بعد وصول الاسرة الساكسونية إلى السلطة (أيار ٩١٩) .

وقد استطاع أوتون الأول أن يجعل من الأدواق موظفين يعينهم ويعزلهم حسب هواه . وما كان صحيحاً من أجل الأدواق كان صحيحاً بالنسبة إلى الكونتات والمارغرافات الذين كانوا على رأس الكونتيات في في الثغور أو الحدود المتاخمة للسلافيين والهونغاريين ويعتبرون جميعهم موظفين مقلدين بالحقوق الملكية وممثلين للسلطة المركزية يقومون بالعدل ويقودون الجيش باسم الملك .

ورغم النهوض الذي قام به اوتون الكبير فقد ظلت الكيانات الموجودة واصطدمت ارادة الأمبراطور ببعض العادات المكتسبة . وإذا تخلص الملك في بعض الظروف من الأدواق والمارغرافات أو الكونتات العصاة المتمردين وتصرف بالقابهم لصالح اقربائه وأصدقائه فقد كان مضطراً في حالات عديدة ان يتكيف مع التقليد ويقبل بانتقال ارث الوظائف العامة حتى ان هذه الوظائف كانت تؤلف قسماً من تركة العائلة وظلت تشبه الانتفاع . ولكن السلطة الملكية ضعفت بتأثير هذا السبب او ذاك ، وهذا ما حصل في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، ونجم عن ذلك أن أصاب المانيا ما أصاب بقية الدول الغربية الأخرى . هذا ولما قاوم اوتون الكبير النظام الأميري كان هذا النظام قد تأصل فيها متأخراً عن غيرها ولكنه دفع بجذوره إلى الأعماق وسيدوم فيها إلى زمن طويل .

ومن جهة ثانية ، كان اوتون الكبير وخلفاؤه يحاولون تعديل سلطة الأدواق وساقتهم الظروف إلى ايجاد امارات كنسية لصالح الكنيسة ، وأغدقوا عليها الهبات وتنازلوا للأحبار ، الذين يشبهون بالامراء الزمنيين ،

عن الحقوق الملكية التي ظلت حتى ذلك الحين قاصرة على الكونتات : ففي مملكة اللورين القديمة مثلاً أخذ أساقفة لييج كونتية هوي ، بروونا نجيرونز وهاسبينغا وكوندروز تقريباً . وفي ماينس وكولونيا وماغدبورغ وكواره قلد اوتون الأول الاساقفة سلطات كونتيه على ادارة المدينـــة أو الأبرشية مع الحق بجباية الموارد المتعلقة بها . وكذا الحال في عهد اوتون الثاني في فورمز ومندن . ثم وسع اوتون الثالث وهنري الثاني هـذه السياسة . وهكذا أصبحت الأسقفية في المانيا عنصراً من العناصر الأساسية في النظام الأميري . وبما أن العزب الكنسي يدعو إلى تبديل الأسقف عند كل وفاة فقد حافظ الملك على حق التسمية والتعيين . ولذا فان التصرف بالحقوق الملكية في أيدي الأحبار كانت محاذيره اخف على الملكية من محاذير التصرف بهذه الحقوق في أيدي الامراء الزمنيين .

النظام الاميري في ايطاليا . — على الرغم من أن ايطاليا ، منذ ٩٥١ ، كانت تابعة لملوك جرمانيا ، فقد حافظ النظام الأميري فيها ، خلال النصف الثاني من القرن العاشر ، على حيويته ونشاطه : ففي ظل الاوتونيين ، كما في العهـــد الفوضوي الذي تلا زوال الامبراطوريـة الكارولنجية ، بقيت شبه الجزيرة مقسمة إلى عدة امارات كان الامراء فيها أشبه بملوك حقيقيين . وقد أصبحت هذه الامارات وراثية ، ولم يستطع أوتون الكبير أن يذهب إلى ما يخالف هـذه التعاملات القديمة : ففي طوسكانا مثلاً ورّث الماركيز هربرت لقبه لابنه هوغ الكبير وأصبح هذا الأخير احدى الشخصيات الأساسية في السياسة الايطالية في آخر القرن العاشر . وكذا الحال في تورينو وكانوسّا وسبوليت وايفرة . إلا ان فريول ، التي تهم الدولة الجرمانية في ايطاليا ، اعتبرت ثغراً المانيا مرتبطاً بالملكة مباشرة . وكذا الأساقفة أيضاً حافظوا على استقلالهم وعلى اراضيهم

الكبرى . ولما كان المراكيز والكونتات يحسدونهم فقد ظلوا ، كما في المانيا ، مرتبطين بالتاج الذي يحميهم ويثريهم ليكون مطمئناً من مساعدتهم .

النظام الأميري في فرنسا . — وفي فرنسا كما في ايطاليا زالت الامتيازات الملكية بتمامها تقريباً ولم يستطع اوتون الكبير استرجاع السلطة الملكية ، بل ، على العكس ، نرى أن هذه السلطة كانت في ضعف مستمر بنتيجة المنازعات الطويلة بين الأسر والضرورة التي وجد فيها الكارولنجيون أو الروبيرتيون واضطرتهم إلى التصرف ببعض الحقوق التي استطاعوا أن يحافظوا عليها ، ليشتروا المساعدة الضرورية لهم . ومن جهة أخرى ، لا نجد في فرنسا ما يشبه الدوقيات الألمانية . فقد كانت المملكة مقسمة إلى اثني عشرة أو خمس عشرة امارة دون أي ميزة عرقية ظاهرة وكان زعماؤها ، من الدوق او المركيز أو الكونت ، يضمون تحت سلطتهم عدة كونتيات كارولنجية . وكانت هذه الكونتيات دولاً حقيقية تحكمها سلالات وراثية ، وتمارس فيها جميع الحقوق الملكية . ولقد اضاع الملك فيها سلطة الاشراف ، وقلما نراه يحافظ في بعض هذه الامارات على تعيين بعض الأساقفة . وما من أحد منهم فكر في أن يرجوه باستلام الدبلوم منه . ولم يكن في وسع هذه السيادة النظرية للملك أن تطلب من هؤلاء التابعين ، وهم أنسال الموظفين الكارولنجيين القدامى ، أي واجب يقتضيه الاخلاص والامانة . وهكذا توصل النظام الأميري إلى حد تطوره ، وسيمضي زمن طويل قبل أن يصبح باستطاعة الملكية أن تستعيد هذه الحقوق التي تخلت عنها .

سلطة التابعين الكبار . — لقد كان النظام الأميري يختلف بين مملكة واخرى في أوربة الغربية . وهذه الاختلافات كانت اختلافات

درجة لا اختلافات طبيعية. فقد وجدت في كل مملكة امارات كبرى كان اصحابها في السابق موظفين قابلين للعزل من قبل الملك سيدهم ، وأصبحوا الآن لحد قليل أو كثير تابعين وراثيين له ، وهو زعيمهم وسيدهم ومولاهم . ولا شك في أن صفة هذه العلاقة لم تتبدل . ففي العصر الكارولنجي لم يكن الادواق والكونتات ليدخلوا في وظائفهم إلا بعد أن يكونوا قد وضعوا أنفسهم تحت انتداب سيدهم واقسموا له يمين الولاء . وفي الحقيقة ان عقد التبعية في القرن العاشر والحادي عشر ينتج عن هـذا الطقس ، ويتضمن الاحترام الناشي عن الحماية القديمة ويمين الاخلاص التي تقسم على الانجيل . وهما عملان يتمم احدهما الآخر دون أن يتعارضا . وكما قيل على وجه الصحة : « إن التعهد التبعي ينشأ من اتحادهما الصميمي الذي لا يقبل الحل » .

ولكن إذا بقيت الصيغ الحقوقية كما هي نفسها ، فان الحالة التي تشملها تغيرت بصورة عميقة . فمن جهة ، أصبح التابعون الكبار وراثيين ينقلون إلى ابنائهم دوقياتهم وكونتياتهم ، إلا في الحالة التي لا يكون لهم أعقاب مباشرة منهم ، أو عندما يكون الوارث قاصراً . وفي هذه الحالة يتدخل الملك . وبصورة عامة يكتفي الملك بقبول احترام ابن الدوق أو الكونت المتوفى . ومن جهة أخرى ، كان الملك في القرن العاشر يحتفظ ببعض المراقبة ، إلا في المانيا ، ويتمتع التابع الكبير شخصياً بالسلطات التي خولت اليه كمندوب عن التاج . وأصبحت المحكمة الملكية محكمته الخاصة ، وصار يجبي الضرائب لحسابه بعد ان كانت في القديم تجبى وتسلم مبالغها إلى الادارة المركزية وله بلاطه ويذيع فيه اراداته الاميرية . وكان ، من النـاحية النظرية على الأقل ، يستأنف قرارات المحاكم الدنيا . وكان في فرنسا ، في كثير من الحالات ، يعين

الأسقف ، ويمارس الحقوق الملكية على الكنيسة والأديرة ، اللهم إلا إذا تخلى عنها بطريق الانتفاع . يضاف إلى ذلك ان سلطته كانت متغيرة .

وقد حدث في داخل هذه الأمارات الكبرى حادث مماثل للحادث الذي انشأها في نطاق المملكة ، وهو ان الامراء من صنف ادنى كانوا يتمتعون ، بنتيجة سلسلة من التصرفات المتتالية في آخر القرن العاشر ، بالحقوق الملكية التي تؤمن استقلالهم . ولقد توصل الاقطاعي الكبير في القرن الثاني عشر ، في فرنسا على الأقل ، إلى أن يأخذ منهم جميع ما اكتسبوه في القرن العاشر . ولكن تفتت السلطة الملكية ظل حتى ذلك التاريخ يرافق التجزئة الأرضية واستحكم طويلاً .

ولقد كانت هذه التجزئة الارضية نتيجة للغارات الكبرى التي حصلت في القرن التاسع والعاشر وكان تأثيرها في انشاء النظام الاميري حاسماً اكثر من تأثير المنازعات السلالية .

ورأينا كيف ان الدولة ضعفت في آخر العصر الكاروانجي ولم تستطع في اكثر الحالات ان تؤمن المقاومة ضد غارات المسلمين والهونغاريين والنورمانديين ، وان السكان تركوا وقواهم الخاصة فحاولوا ان يحموا أنفسهم باستعمال الموارد التي كانت في متناول يدهم مع تنظيم الدفاع المحلي . ولعبت سلالات الامراء الكبرى في بعض الاحيان دوراً وعبرت في حال النجاح عن ازدياد قوتها . فالسلطات المحلية التي كانت تتمثل بالاسقف او الكونت او الملاك العقاري ، وتتصرف بالوسائل الكافية ، تدخلت بشكل حاسم وردّت جميع المخاوف الملازمة لهذه الغارات . وهكذا ولدت ضرورات النزاع سلسلة من الحوادث الاجتماعية واجتاز النظام الاميري بواسطتها مرحلة جديدة .

وعندما كان النورمانديون والهونغاريون يهاجمون منطقة من المناطق ،

كان هم السكان فيها ان يجدوا لانفسهم ملجأ يعتصمون به من شر القتل، يدفعهم في ذلك حب البقاء، وقد يضطرهم إلى تضحية قسم كبير من أموالهم لانقاذ حياتهم المهددة . وكان لديهم ثلاث معاصم : **المدن** ، **الاديرة المحصنة** ، **القصور** .

دور المدن . — لقد كانت المدن في بادىء الأمر ملاجىء، وتذكر التآريخ ان السكان يفرون اليها إذا داهمهم العدو . وكثيراً ماتعطينا هذه التآريخ عنهم صفحة سوداء قاتمة . ففي مدينة سانس شوهد مرتين أثناء الغزو النورماندي (٨٩٨) والغزو الهونغاري (٩٣٦) ان رهبان دير سن بيير لوفيف يتركون الأبوية مع « البقايا » المقدسة ويلجأون إلى داخل الحصن . وفي آنجو كانوا يضحون بالارياف . وفي داخل آنجه وسومور وآمبواز كانت تتجمع نقاط المقاومة . وقد لعبت اوغسبورغ في **المانيا** و **بافيا** في ايطاليا الدور نفسه .

هذا ويمكننا ايضاح هذه الوظيفة التي كانت تقوم بها المدن : ان كثيراً من هذه المدن قد حافظت على أسوارها التي يرجع العهد بها إلى زمن الرومانيين . وهذه هي حال ماغدبورغ وفرتزبورغ وهيلدشهايم . وفي الغالب كانت هذه الحصون لاتكفي للدفاع . ولذا كان من الضروري ان يعاد بناؤها واصلاحها . ففي المانيا، في عهد حكم هنري الأول ، كان السلافيون يهددون المدن الساكسونية . وقد حصنت هذه المدن بتشبث من الملك . وفي مدينة نانت ظل الأسقف فوشيه من عام ٩٠٠ إلى ٩١٥ يشيد الكاتدرائية ويحيطها بسور . وقد هدم النورمانديون هذا السور فاعيد بناؤه عام ٩٤٠ وتم عام ٩٩٠ . وتوطدت مع الزمن قيمة **المدن العسكرية** بعد أن فقدت في القرن العاشر كل أهمية تجارية وكانت معصماً كما كانت سداً يرد سيل الغارات .

دور الأديرة . — وقد يقع في بعض الحالات ان المدن تكون بعيدة جداً لتؤمن وظيفة الدفاع . وعندما لايستطيع الرهبان ، نظراً لبعد المسافة ، أن ينقلوا اليها « بقاياهم » وكنوزهم كانوا يحصنون الابويات ، وتصبح هذه الاديرة بدورها ملاجيء . ففي عام ٩٢٦ لما خبر في سن غال في سويسرا منبئاً بقدوم الهونغاريين . وما كان من الاب انجلبرت إلا ان قام بحفر الخنادق ولكن هذه لم تجد نفعاً ولم تمنع من نهب الدير وسلبه . وفي مكان آخر كانت الأعمال أقل ارتجالاً . ففي بداية القرن العاشر استولى بودون كونت فلاندر على أبوية سن برتن وحصنها لتقوم بدور الدفاع ضد النورمانديين . وكذا الحال في ليموج حيث جعل لابوية سن مارسيال برجان لتكون على أهبة الدفاع وصد الغارات . غير أن هذه التحصينات كانت على الغالب ابتدائية واستعمل فيها الخشب أكثر من الحجر .

ظهور القصور . — ولنفس الغاية في الدفاع ، شهد القرن العاشر في مختلف بلدان الغرب ظهور القصور المنيعة التي استعملت لرد غارات العدوان والغزو قبل أن تستعمل في الحروب الخاصة ، وظلت المدن وحدها حتى وصول النورمانديين محاطه بالأسوار . ثم تبين أن هذا الشكل من الدفاع لايكفي ، ولذا شاد الكونتات والأسافقة وكبار الملاكين العقاريين مدناً محصنة (الابراج) تسد الطريق في وجه الغازين وتعصم السكان الريفيين من شر أذاهم . ففي المانيا ظل بناء القصر حقاً ملكياً . ولكن الاساقفة والامراء استطاعوا في بعض الاحيان أن يغتصبوا هذا الحق . وفي فرنسا وايطاليا أصبحت مراقبة السيد المولى وهمية كغيرها .

وحتى آخر القرن العاشر عندما حقق فن انشاء المعسكرات تقدماً عظيماً ، كان منظر القصر بدائياً . ويحتوي سوراً من الخشب يمنع

الدخول منه بواسطة خندق . وفي الوسط الحصن ، وهو في الغالب من الخشب ويشرف على الموقع . وقد نظمت فيه كل وسائل الدفاع : من أقبية تجمع فيها الاتاوات الاقطاعية عيناً وكل ما يلزم لدعم الحصار زمناً طويلاً . وفي آخر القرن العاشر تحسن بناء القصر الأميري ، وحل الحجر محل الخشب في البناء وأصبحت الحصون ترد عدوان الهجوم . ومهما كانت هذه الحصون بدائية فقد لعبت المدن الاولى المحصنة أثناء الغارات دوراً عسكرياً لايمكن نكرانه ، وكانت المدن والأديرة والقصور محور الدفاع . وهذا ما يوضح لنا كيف أن الاساقفة والآباء وسكان القصور أخذوا على عاتقهم مهمة الحماية وانتهى الحال بهم إلى الاستفادة من النظام الأميري .

حياة القصر . — كان القصر في النصف الثاني من القرن العاشر يؤلف وحدة سياسية حقيقية . وكانت سماء هذا القصر مختلفة . وكان ساكن القصر كونتاً . وإلى جانب الكونتات ، الذين توصلوا بطريق السلاح أو بطريق الدبلوماسية الزوجية لتوطيد وحدات ، وجد كونتات آخرون اكتفوا بالحصول على استقلالهم وملكوا قصراً أو عدة قصور على أرض الكونتية . ووجد أصحاب قصور من ورثة الموظفين ، الذين هم أدنى من الكونت في الكونتيه ،كالفيكونت وآخرون ملاكون عقاريون قدامى يتمتعون بالحصانة ويمارسون الحقوق الملكية على أراضيهم ، وآخرون مخلصون للكونت الذي يعهد اليهم بحراسة هذا القصر أو ذاك . ونظراً لهذه الامتيازات ، التي منحت لهم ، أصبح القصر يؤلف بداية لامارة جديدة .

ومهما يكن فان صاحب القصر ، بعد أن كان في بداية القرن العاشر زعيماً عسكرياً ، استطاع أن يأخذ على عاتقه مهمة السلطة الادارية . وكانت هذه السلطة تختلف حسب المناطق وحسب سعة الأراضي

التي يمارس فيها سيادته . فهو يقوم بالوظائف القضائية والمالية التي اختصها بنفسه على حساب مولاه . وكان هذا الاغتصاب متفاوتاً : ففي بعض الاحيان نجد أن الأمير قد تسلم زمام السلطة القضائية باوسع حدودها . وأحياناً يجري العكس فلا يكون له من السلطة الا جزء يسير . ومن هنا ظهر التمييز بين العدل الأعلى والعدل الأدنى ، وكان مصدراً لالتباس حقيقي ومنازعات عديدة . وبالمقابل ورث الامير الضرائب التي كانت في السابق تدفع إلى موظفي الملك ولا تذهب إلى الكونتات ورثة اولئك الموظفين . ولم يكن في القرن العاشر ضرائب للدولة بل استعيض عنها بالرسوم الاميرية التي حافظ الملك عليها في ملكه الشخصي ، ولكنها كانت خارجة عن يده في غيره من الأملاك .

الرسوم (الحقوق) الاميرية . — ليس لدينا تصنيف دقيق عن هذه الرسوم لأنها مبعثرة وكثيرة . فهنالك رسوم على الاراضي تجبى من الفلاح باعتباره منتفعاً لا ملاكاً للأرض ؛ ورسوم يرجع أصلها إلى الملك . ثم دغم النوعان معاً وأصبح من الصعب عزلها عن بعضها . لذا يجب التمييز بينها من حيث الطبيعة .

من الممكن عزل بعض الخدمات وأهمها **السخرة** التي تجبر الفلاح على القيام في أرض الأمير ببعض الأعمال ذات النفع العام مثل صيانة القصر وكري الخندق وزراعة أرض الأمير كما كان يفعل ذلك الارقاء قديماً . وإلى هذه الخدمات تضاف **الاتاوات عيناً** مثل « ضريبة الانتاج » وبموجبها يدفع الفلاح إلى الامير قسماً من محصوله ومن قطيعه أو من نتاج دواجنه ؛ **والاتاوات النقدية** مثل **ضريبة** (السانس) وتمثل في الاصل سعر أجار الأرض ، **وضريبة الرأس** ، **وضريبة القامة** وكانت شخصية وأخيراً أصبحت تدفع بمقدار تتناسب مع الموارد ؛ ثم رسوم

الانتقال مثل رسم البضاعة المباعة ، ورسم الارث ، ورسوم الاطفاء عندما تترك الأرض للكنيسة ؛ ورسوم التجارة والصناعة ، ورسم العبور وكذا ضريبة الطاحون والفرن والمعصرة وغيرها .

وكان الأمير في القرن العاشر يتمتع بضرب النقود . وكثيراً ما كان يزيف هذه النقود فيجعلها منتجة . وله حق جباية الرسوم القضائية ، ويأتي بعضها من الابراء ، وبعضها من اغتصاب الحقوق الملكية ، وتفسح هذه مجالاً لغرامات باهظة ، وفي الوقت ذاته لجبايات ليست أقل منها رحمة كضريبة الختم والطابع .

الاستبداد الاميري . — يبدو مما تقدم أن الأمير كان يتصرف بعدة موارد هامة ، وان هذه الموارد كانت ظالمة وتعسفية ، ثم نظمت تدريجياً مع الزمن . غير أن شيئاً من هـــذا لم يحدث بعدُ في القرن العاشر والحادي عشر . كان الأمير في ذلك التاريخ سيد أرضه المطلق ، يقيم في قصره ويشكل أحياناً مع الامراء المجاورين حلفاً حقيقياً ويتحدى انذار مولاه . الا أن الجهد الذي بذل في سبيل المركزية في آخر القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر أدى إلى ايجاد اقطاعـــات كبرى وأخذت سلطة الامير تتناقص بصورة محسوسة لحساب سلطة كبير الاقطاعيين .

المدن وسلطة الاسقف . — كانت منطقة الامير غالباً منطقة ريفية ولم يكن حول القصر ، في أكثر الاحيان ، تكتل عمراني حقيقي . أما في داخل السور فلم تكن الحصون التي أوجدت في زمن الغارات لتلجىء الا الرجال الضروريين للدفاع أو لخدمة الامير الشخصية . ومع هذا فقد وجدت بعض الابراج في داخل المدن . وكان محتلوها يشاركون الاسقف في سلطته . وكان لهذا الاسقف ، ولا سيما في المانيا ، سلطة

ادارية عليا يمارسها مباشرة في داخل المدينة أو يخولها الى ممثل عنه أو الى نائبه الزمني .

وما فتئت سلطة الاسقف آخذة بالتزايد منذ العهد الميروفنجي ، وذلك بفضل الحصانة التي يتمتع بها . ومنذ القرن التاسع كانت المدينة، مركز الابرشية ، حيث يقيم الاسقف باستمرار ، خاضعة لسلطته التي يمارسها على الزمني والروحي . وله فيها محكمة ويرأسها رئيس الكهان القانوني ، واليه يرفع الاكليركيون والعلمانيون عدداً عظيماً من القضايا ، ونخص بالذكر منها قضايا الوصايا والزواج . وكان مكلفاً بمصلحة الطرق والشرطة وبناء الحصون واصلاحها ، ويحل محل الادارة المدنية المقصرة في كل شيء . واذا احتفظ الملك أو الكونت بحق تعيينه الا أنه لم يكن كسائر التابعين الا اميناً يتوجب عليه القيام بالخدمات التي يتطلبها الفداء الشخصي . ولقد أخذ مكانه في التسلسل الاميري وأفاد من الاستقلال الذي اكتسبه واستطاع أن يسترجع الأموال والحقوق التي انتزعت منه في العصر الكارولنجي وبالاجمال ، ان الاسقفية نظمت نفسها في داخل النظام الاميري . وكذا الحال في الابويات التي استطاعت بفضل الاصلاح الرهباني أن تحقق نجاحاً في مهمتها الدينية وتستعيد نشاطها .

ينتج مما تقدم أن النظام الاميري نشأ عن تجزئة السياسة تجزئة عديدة بنتيجة الازمة التي وقع فيها الغرب الاوربي بعد زوال الامبراطورية الكارولنجية . ففي آخر القرن العاشر وأول القرن الحادي عشر كانت السلطة في اوربة الغربية بيد الاقطاعي والاسقف . ولا نجد الملك قد احتفظ ببعض امتيازاته في السيادة الا في المانيا . ومع هذا فاننا

نرى الاقطاعي والأسقف ، وان حكما حسب مشيئتها في الحق ، يرتبطان بمولاهما . ويمكن أن يكون هذا المولى ملكاً أو دوقاً أو كونتاً . ونراهما يتمتعان في أراضيها بحرية ؛ إلا انها من الوجهة الحقوقية لا يتمتعان إلا بحق الانتفاع ، ويحتفظ المولى بحق الملكية العليا في اراضي تابعه . وفي الوقت الذي تحررت فيه السلطات المحلية من كل مايؤلف في السابق السلطة المركزية ، كانت الالتزامات التبعية ، التي تربط مختلف درجات التسلسل ، تعرف بكثير من الضبط والدقة ولو كان هذا الأمر نظرياً .

علاقة التابع بالمولى . — ويستند النظام الأميري في القرن العاشر والحادي عشر على تسلسل مزدوج : **تسلسل الأشخاص وتسلسل الأموال .** وقد انضمت فيه **التبعية** المتحدرة من الحماية القديمة إلى **الانتفاع** الذي اخذ اسم الاقطاع واختلطا ببعضها . وأصبح التابع يأخذ اقطاعه من مولاه كما غدت الروابط الشخصية القديمة روابط أرضية . وعليه فالاقطاع ليس سوى انتفاع أصبح مع الزمن وراثياً . ولكن صفته الاولى لم تسقط بتامها في عالم النسيان ، بل أخذت توضح ، لحد بعيد ، الشكل الذي أخذته الروابط التبعية .

يمين الولاء . — في العصر الكارولنجي كان الانتفاع ، موضوع العقد بين المولى والتابع ، يدوم مدى الحياة . وفي القرن العاشر والحادي عشر ، عندما يتوفى أمير من الأمراء ، كان ابنه يذهب إلى مولاه ويقسم له يمين الولاء والطاعة وذلك بأن يمثل أمامه حاسر الرأس ، جاثياً على ركبتيه ، واضعاً يديه في يدي مولاه . فيقبله هذا على فمه . ثم يحلف الابن على الانجيل وعلى « البقايا » . وبفضل هذه اليمين يصبح « رجل » مولاه ويتوجب عليه تجاهه القيام بجميع الالتزامات . وبالمقابل يأخذ منه اقطاعه

بشكل رمزي كأن يتناول منه عصا أو رمحاً . ثم يتمم هـذا الطقس بشكلية أخرى وذلك بأن يذهب المولى وتابعه الجديد إلى الأرض حيث تجري « رؤية الأرض » .

ومن النادر أن يكون التابـع ، كما سيجري فيما بعد ، تابعاً لسادة متعددين حسب مختلف الأراضي التي يتمتع بها . وبصورة عامة لم يكن له إلا مولى واحد يتعهد له دون أي قيد . ويبقى الاحترام شكلاً اساسياً للفداء الشخصي ، وتوضح يمين الولاء معنى هذا العمل ، وبانضمامها اليه تمهر العقد التبعي .

الالتزامات المتبادلة بين المولى وتابعه . — وبموجب هذا العقد يتوجب على كل من المتعاقدين القيام بالتزامات خطيرة حيال الآخر . فالتابـع الذي أقسم يمين الولاء لمولاه يعده ، حسب تعبير فولبير شارتر في رسالة له إلى غليوم الخامس دوق اكيتانيا عام ١٠٢٠ بأن يكون :

نافعاً ، **سهلاً** ، **ممكناً** ، وهذا يعني أنه لن يقوم بأي عمل من شأنه الاعتداء على شخص مولاه ، وانه سيكون له في كل الظروف خـادماً شريفاً غيوراً . ويتعهد المولى بدوره بان يقابله بالمثل . ولكن بينا يكون المولى غير مكلف الا بواجبات معنوية ، يتوجب على التابـع التزامـات أخرى ايجابية . ويلخصها فولبير في كلمتين : النصح والعون .

النصح (كونسيليوم) . — ويراد بها خدمة البلاط قبل كل شيء. فقد كان التابـع مكلفاً بأن يهرع ورجاله كلما دعاه المولى ليهيء معـه جميـع الارادات العامة والمشتركة في الامارات التابعـة له ، واكثر من ذلك أيضاً اقامة العدل . وهذه هي إحدى امتيازات المولى الرئيسية . وهو لم يجرد في الغالب من العدالة الـتي بقيت من خصائص البلاطات

الاميرية . أما تنظيم القضاء نفسه فيختلف حسب البلاد . ففي المانيا يرى في القرن الحادي عشر نوعان للمحاكم :

١ ـ **المحاكم العامة** وهي في العصر الاميري تعتبر امتداداً للمحاكم العامة في الدور الكارولنجي ولها نفس الاختصاص .

٢ ـ **المحاكم الخاصة** وهي محاكم من نوع جيد ولا تنظر إلا في الدعاوى التي تربط التابع بمولاه . اما في فرنسا فلا يوجد إلا محكمة واحدة وهي المحكمة الاقطاعية التي تتفرع عن المحكمة المحلية الكارولنجية وتضم ، لمعرفة الدعاوى نفسها ، القضاة التابعين الملزمين بهذه الخدمةالتي تؤلف أحد التزاماتهم الفعلية .

العون (اوكسيليوم) . ـ وهذه الخدمة مزدوجة . فقد كان التابع ملزماً بتقديم العون لمولاه بشخصه وأمواله . وهذا يعني أنه ملزم تجاهه بالخدمة العسكرية والمعونة المالية . أما الخدمة العسكرية فستتضح في القرن الثاني عشر بقواعد مضبوطة ودقيقة . ولكنها كانت غير محدودة في بداية العصر الاميري . كان على التابع أن يستجيب لنداء مولاه لحراسة القصر أو الاسهام في **الحروب التي يقوم بها ، وعليه أن يأتي وتابعيه الخاصين ويبقى معهم تحت تصرف المولى وحسبما يشاء** . ويأتي احياناً عن هذه الخدمة اساءة استعمال تؤدي إلى انقاص الواجب العسكري . ويبدو هذا الواجب بشكل آخر ايضاً : فكان على التابع ان يسلم قصره إلى المولى « الغاضب أو الهادىء » عندما يطلبه منه اما للحيلولة دون حركة تمرد وعصيان ؛ أو لأن القصر يمكن أن يفيد نقطة استناد في حرب ضد العدو . وكذلك لا يستطيع التابع أن يبني حصوناً جديدة دون رضى المولى . وهذا تحفظ لابد منه ؛ إلا انه كان وهمياً من

الناحية العملية في هـذا النظـام الذي كثيراً ما استعملت فيه القوة فيا يخالف الحق .

وعلى التابع أن يساعد مولاه بالمال . **وهذا الالتزام يتصف بصفة التعسف والشدة ايضاً** . ففي القرن الثاني عشر تذكر بعض الحـالات التي يجب فيها العون إلا أن هذا في الأصل لم يكن سوى ضرورة . ولكنه أصبـح ، مع الزمن ، مصدراً للكثير من المطاليب التي تطلب في غير موضعها . فاذا كان التابـع ضعيفاً استسلم للضغط ؛ وإذا كان قوياً قاوم ونشأ عن ذلك خلاف مسلح . وكان هذا الخلاف جرحاً دامياً في القرن العاشر والحادي عشر .

الاتاوات الاقطاعية . — لم يكن العون التكليف المالي الوحيد الذي يؤديه التابـع لمولاه ، فالى جانب هذا الالتزام الملازم للعقد التبعي كالخدمة العسكرية أوجدت التقاليد السالفة للعصر الاميري عدة اتاوات معرفـة بشكل أفضل .

لقد نشأ الاقطاع عن الانتفاع مدى الحياة ، ثم أصبـح وراثياً من الناحية العملية ، الا أنه يعود من الناحية النظرية إلى يد المولى في حال موت التابـع ، ويشتريه منه الوارث مقابل رسم يؤديه الية . وقد اختلف اسم هذا الرسم كما اختلف مقداره بين الطرفين . وكان للمولى الحق في التصرف بالاقطاع إذا لم يشأ أن يورثه للوارث . واذا شاء التابـع أن يبيـع الاقطاع فلا يستطيـع ذلك إلا إذا نص صك البيـع على اذن المولى . وهذا السماح لا يحصل عليه الا بعد أن يدفع التابـع رسوم الانتقال . وكذا يجب الا يتصرف التابـع بالاقطاع دون رضى المولى . ومثل هذا التصرف الجزئي يمتد إلى كثير من الحالات كتحرير القن أو إنشاء قومون (مدينة) . وكل هـــذا يدل على أن التابـع ، من الوجهة النظرية ،

ليس له الا حق الانتفاع لا ملكية الاقطاع . غير ان المفهوم الحقوقي الذي يعمل بموجبه الأمير وتابعه لا يأتي بحدود واضحة لممارسة سلطة الأمير في داخل الامارة . لذا كان الأمير أو الأسقف يتصرف بأرضه كما يريد ويديرها حسب هواه دون أن يستطيع التابع اظهار « **حقه الاعلى** » هـذا التعبير الذي أصبح مع الزمن في عداد العبارات القديمة البالية .

الارث . — ولقد كان الارث دليلاً محسوساً لهذا الاستقلال الواقعي. وبالرغم من الشكليات الرمزية التي تذكرنا بأصل الاقطاع مدى الحياة ، فقد أضاع المولى كل سلطة للتدخل في ارث التابع . ففي القرن العاشر كان المولى يمارس حق الإرث عندما يموت التابع دون أن يترك وارثاً ذكراً أو عندما يكون الوارث قاصراً . ولكن تأسست مع الزمن قواعد تدعو إلى حذفه تماماً . فقد اعترف كونراد الثاني من اسرة فرنكونيا بارث الاقطاع من أي نوع في ايطاليا والمانيا وهذا ما اكسبه عند قول مترجم حياته ويبون شعبية كبرى بين تابعيه . وانتشر هـذا المبدأ في كل مكان ولم ينازعه أحد .

وهذا الاقطاع ، الذي غدا وراثياً في القرن العاشر ، لم يتبع القوانين العادية في الارث التي يتقاسم بموجبها الاولاد أرث أبيهم. وبما أن المولى يحتفظ بالملكية فهو يستطيع نظرياً أن يتصرف بها كما يريد ، وبالتالي أن ينتخب أحد أولاد التابع ليخلف اباه . وبصورة عامة كان يفضل الابن البكر وهكذا أوجد في كثير من الاقطاعات حق الابن البكر المطلق الذي يبعد القسمة ويحتفظ بالوحدة . وليس هنالك إلا كونت واحد في فلاندر وكونت واحد في نورمانديا ودوق واحد في بافاريا . غير أن عرف التقسيم أبدى مقاومة عنيفة لهذه الميول الجديدة . وكثيراً ما ذهبت

الوقائع ، في هذه النقطة ايضاً ، إلى ما يناقض هـذا الحق . واحياناً كان يتوصل إلى حل وسط بين هذين المبدأين المتناقضين : ففي **بروتانيا** **وتورين** كان للابن البكر ٢/٣ الارض ، و يتقاسم بقيـــة الأولاد الثلث البـاقي .

ونشأت صعوبات أخرى عن وراثة الاقطاع وخاصة عند فقدان الورثة الذكور أو الاعقاب المباشرة ؛ أو عندمايكون الوارث الشرعي قاصراً . ولم يفصل في هذه القضايا بشكل واحد في جميـع البلاد . ففي **ايطاليا** نص دستور الانتفاع ، الذي أذاعه عام ١٠٣٧ كونراد الثاني على أن المرأة مستثناة من الارث الاميري . وفي فرنسا كانت المبادىء بعيدة عن توريث المرأة لأنها لا تستطيـع الخدمة العسكرية . غير انـه قبل ابتداءً من القرن الحادي عشر بأن يسمح لها بأن تمثل نفسها . وانتقلت بهذه الصورة عدة امارات إلى أيدي النساء ؛ وبالتالي كان يبحث عن الوارثة الغنية في سبيل الزواج . وكان المولى يسرع في زواجها ليزيد في أرضـــه . وكان هذا النوع من العوامل عقبة في سبيل التجزئة الناجمـة عن النظام الاميري .

وإذا لم يكن للتابـع أعقـاب مباشرة أخـذ المولى الاقطاع . هذا من الوجهة الحقوقية . إلا أنه قبل فيما بعد أن يرث الأخ أخاه ، وكذا من أجل الأعمام وأبناء العم . وقد يقع عندما يفقد الأمير ابنه البكر أن تحدث منافسة بين حفيده القاصر وابنه الثاني أو بين الاخوة الباقين ، ولذا فضل احترام امتياز الابن البكر .

وقد يقع إلا يوجد إلا وارث قاصر . ففي هذه الحـالة كان المولى في القرن العاشر يأخذ الاقطاع . وفي القرن الحادي عشر بالعكس أدخل نظام « **التأجير** » : وذلك بأن يعين المولى « **وصياً** » . وفي غالب

الاحيان ينتخب نفسه وصياً . وهذا التدبير يسمح له بالتمتع بالموارد حتى يبلغ التابع القاصر سن الرشد . ثم انيط هذا الأمر إلى أقرب الاقرباء . ولا يخلو الأمر هنا من خطر على القاصر الذي يموت أكثر من مرة وفي شروط مشبوهة . وإذا كان القاصر بنتاً كان لحق « التأجير » أهمية أكثر لأنه يتطلب من الوصي أن يزوج البنت أو أن يتزوجها .

تطور النظام الأميري . — ولقد سهل هذا الزواج الأميري تجمع الاقطاعات . وبدأ رسم ذلك يتضح منذ النصف الثاني للقرن الحادي عشر . وبدأت بعد البعثرة والتفتت حركة نحو المركزية أدت في فرنسا إلى تشكل الاقطاعات الكبرى التي يمارس فيها السلطة اقطاعي كبير دوقاً أو كونتاً . ولقد توصلت التجزئة في القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر إلى أعظم حد ؛ ولم تضعف فكرة الدولة بمثل هذه الضعف الذي وصلت اليه . وزوالها بكليتها تقريباً يوضح لنا ولا شك التأخر والانحطاط اللذين منيت بهما الاخلاق والطباع . هذا ولما كان البارون أو ساكن القصر غير مسؤول أمام أي إنسان ولا يعرف أي قيد لطيشه وأهوائه ، لذا كان يعطي لنفسه ولغرائزه مطلق الحرية . وعلى هذا فان أهم ما يميز النظام الاميري هو : التجزئة الارضية وكثرة الحروب التي ترافقها القسوة والشدة والعنف والاعتداء على الاشخاص والأموال .

الحروب الاميرية ونظم الصلح

إن ضعف الدولة ، الذي يدخل في أساس النظام الأميري ، يوضح لنا كثرة النزاع المسلح في القرن العاشر والحادي عشر . ولم يكن هنالك سلطة عليا قادرة على قمعه أو القضاء عليه . ونظراً لتفوق القوى المحلية ، كانت الحروب بين مملكة وأخرى حتى القرن الثاني عشر أمراً شاذاً

واستثناء . وكل ما يمكن القول في هذا الصدد هو أن كبار الاقطاعيين كثيراً ما كان يحارب بعضهم بعضاً أو يتألبون على مولاهم الملك كما هي حال اوتون الأول في المانيا ولويس الرابع ولوثير في فرنسا . وكان على هؤلاء الملوك أن يناضلوا اتباعهم الثائرين عليهم . وفي الغالب نرى في هذه المنازعات الداخلية أميراً يثور على أمير أو لفيفاً من الأمراء على لفيف آخر . ولكن حرباً من هذا النوع لا تدوم أكثر من بضعة أسابيع أو بضعة أشهر إلا انها تتجدد باستمرار . وهي لا تتعلق بمصالح سياسية واقتصادية بل هي ناشئة عن طيش الامراء وأهوائهم ومصالحهم الفظيعة ومزاجهم الحربي وأطماعهم الشديدة . فكثيراً ما تقوم هذه الحروب للفصل في خلاف . وعوضاً عن أن يرفع هذا الخلاف إلى محكمة من المحاكم أو إلى حكم من الحكام كان يسوى بطريق السلاح . وأحياناً يكون السبب في الحرب أمراً تافهاً : لكلام لم يفهم جيداً ، أو بسبب النساء ، فيعتدى على الجار ويعاث في أرضه الفساد . واحياناً لا لسبب ظاهر : كان يذهب المولى للحج أو لحملة بعيدة ويتوفى تاركاً وراءه وارثاً قاصراً . ومثل هذه الحالة كانت تعتبر فرصة سانحة للتابع ليوسع اقطاعه بضربة جريئة أو ليزيد في ثروته بالنهب والسلب . او أن يحارب الابن أباه بعد أن طال عمره ولم يلق وجه ربه في الحدود المعتادة واضطر ابنه أن ينتظر كثيراً ليرثه . أو أن يثور الأخ على أخيه البكر لأنه أكثر حظاً منه . أو أن يجرد العم ابن أخيه « المجرم » لأنه أوتي حظاً كبيراً من الأرث . أو أن ينازع الأولاد أمهم الأرملة فيما خصصه لها بعلها بعد وفاته . وفي بعض الأحيان ، عندما لا يوجد عذر يعترف به ، كانت الحرب لمجرد اللذة في النهب . كانت الحرب عند البارون هوى يتملكه في كل وقت : ولقد كان مسيحياً ولكن أعماله الدينية ليست سوى طقوس، ولا

تقتضي أي التزام خلقي أو معنوي . فهو يحضر يوم الأحد الصلاة التي تقام في كنيسته ويقضي الأيام الستة البـــاقية في ارتكاب السرقة والغصب والخطف والقتل ولا يترك هذه الأعمال العدوانيـــة إلا ليستسلم للذائد الموائد والفجور .

نماذج من البارونات . — وهذا النموذج التقليدي للبارون ليس ضرباً من ضروب الخيال في الأدب بل هو حقيقة واقعة . ويكفي للاقتناع بهذا القول أن يفتح على سبيل المثال كتاب « خوارق القديسة فوا »، ففي أقسامه الأولى ، التي حررت في بداية القرن الحادي عشر تفصيلات كثيرة عن اخلاق الأمراء في جنوب فرنسا في ذلك العهد . وكثيراً ما كان الرهبان ضحاياهم البريئة . فمن هؤلاء البارونات : رينون اوبن ، الذي طرد من الجماعة لكثرة أعماله في السلب والنهب والشقاوة ؛ وآديار ليموج ؛ الذي سرق أحد تابعيه خيوله ، فما كان منه إلا أن انقض عليه وسمل عينيه . وكذا ويغون موناستيه ، فقد قبض على ثلاثـة من تابعيه من كنيسة نوتردام دوبوي والقاهم في غياهب الأقبية في قصره . وفي جنوب فرنسا كله نجـــد النماذج نفسها مثل بونس دوفرنيه سارق الخراف والجبن من ابويـة سن مارتن في كانيغو . وكذا غارسند ، فيكونتس بيزيه وآغد ، التي انتزعت عام ١٠١٣ بالقوة من اختها سينيغوند قرية باليه في ابرشيه آغد ثم قامت باثبات شرعية حقوقها .

وامثال هؤلاء البارونات الجشعين الفظيعين لم يقتصر وجودهم على جنوب فرنسا ، بل اننا نجد أشباههم في شمالها . وكلهم اناس لا يعرفون الا اعمال النهب والقتل والتخريب ولا يتراجعون امام اي شدة لاشباع غرائزهم الجامحة .

وليس من الصعب أن نجد مثل هؤلاء البارونات في **المانيا** ، وعلى الاقل حتى أوتون الكبير ، وكذا في **ايطاليا** حيث استمروا طويلاً . والأمثلة على ذلك كثيرة حتى ان الريف الروماني كان يعج بالقصور وساكنيها ممن كانوا ينصبون المكايد والمكامن في طريق البابا والامبراطور .

كثرة الحروب . — كانت الحرب بين هؤلاء الأمراء شراً لازباً . وإذا كانت ويلات الحرب في بعض المناطق أكثر من غيرها فان حوليات آخر القرن العاشر مليئة قليلاً أو كثيراً بالمنازعات المسلحة . والأمثلة أكثر من أن تحصى في فرنسا في السنوات الاولى من حكم لوثير. ولا يمكن أعتبار عهده دوراً كثير الاضطراب . فقد توج الملك وبورك في ١٢ تشرين الثاني ٩٥٤ . وانقضى آخر السنة بالحرب بين رينو صاحب روسي وهربوت صاحب فرماندوا . ومن الممكن تعداد الأمثلة الكثيرة. وإذا كان من هذه الحروب ما هو هام ومنها ما هو تافه فقد كانت وبالاً على الأموال والأرواح في جميع الأحوال .

أصول نظم الصلح . — وهذه الأمثلة التي أتينا على ذكرها في كثرة الحرب تدل دلالة كافية على اضطراب حبل الأمن وعدم الطمأنينة والقلق التي أوجدها النظام الأميري . إلا أن هناك اختلافاً بين المناطق . ففي **المانيا** أعادت رجعة الملكية السلطة الملكية إلى المملكة بعد أن حلت بها المصائب منذ سقوط الامبراطورية الكارولنجية . وفي **فرنسا** كان الضرر أقل في الشمال حيث نجد أن الملك روبير ، منذ آخر القرن العاشر ، قد خضد شوكة الأمراء الذين يعكرون النظام . أما في الجنوب ، حيث لم يعترف بالملكية الكابسية وحيث نجد أن مركيزة **غوتيا** ليست إلا تعبيراً جغرافياً، فكان الضرر أكثر . ومثل هذه الحال تؤدي إلى التجزئة الأرضية

وتزيل كل كبح للغرائز الحربية . ومهما تكن سعة الضرر فقد وجد في كل مكان . وأمام فقدان الدولة تحركت الكنيسة ووجدت حروب الأمراء في فرنسا وبورغونيا في وجهها نظم الصلح، وترجع هذه النظم في أصلها إلى جذور كنسية .

ومن الصعب إن نعين العصر الذي تصعد إليه بداية رسم هذه النظم التي اتسعت بالتدريج دون أي مفاجئة . ففي العصر الكارولنجي عندما نشبت الاضطرابات بعد معاهدة فردن ، قامت الكنيسة باصلاح ذات البين وسعت جهدها لمنع المنازعات بين الأمراء وهددهم البابا سرج الثالث بالعقوبات القانونية . وقد صرح نيقولا الاول في رسالته الشهيرة إلى البلغاريين بان الحرب شيطانية في أصلها ولذا يجب البعد عنها . وفي القرن العاشر ضعفت السلطة الجبرية في البلاد المسيحية ولم يسمح هذا الضعف للكرسي الاقدس بممارسة تبشيره السلمي . غير أن الاساقفة في المناطق المعرضة لجنون البارونات الحربي ، أخذوا يتبادلون الرأي في وضع حد لهذا الوباء ، وما لبث تدخلهم الخجول في البدء إلا أن ثبت قدمه بعد ذلك بقوة عظيمة . وأول حركة قامت لصالح السلام كانت في المجامع الدينية التي انعقدت عام ٩٨٩ في شارو في اكيتانيا ؛ وفي عام ٩٩٠ في ناربونه في سبتمانيا . وواقع الامر ان هذين المجمعين رفعا احتجاجاتها ، وأذاعا عقوباتها على من يعكر صفو السلام . غير أنه لا يوجد في قراراتها إلا حكم غير مباشر على الحرب الاميرية . وعبثاً حاولا العثور على فكرة مذهبية أو أثر لتنظيم من شأنه أن يقمع هذه المبالغات الباطلة . والجدير بالملاحظة ان حماية الكنيسة تناولت العلمانيين والاكليروس ، وان الذين يريدون أن يسرقوا مال الفلاحين أو الفقراء ستنزل عليهم ضربات اللعنة وشدة الحرمان .

وقطعت خطوة أخرى في المجمع الذي عقده الأسقف غي آنجو في مدينة بوي عام ٩٩٠ واشترك فيه معظم أحبار آمبرَن ْ وفينّا (في فرنسا) وناربونه . وفي هذا المجمع صوت لاول مرة ، بناءً على طلب غي ، على ميثاق السلام . وهذا الميثاق يعدد العقبات في وجه الحرب ، وفي الوقت ذاته يخلق قوة ضابطة لقمع جميع المخالفات ، كما يحرم إحراق الكنائس وخطف الخيول والقطعان واستعمال الاشخاص الاجانب في الانتفاع لانشاء القصور أو حصارها والاعتداء على الرهبان أو رفقائهم ممن يسافرون معهم دون سلاح ، وإيقاف الفلاحين لاجبارهم على افتداء أنفسهم بالمال . ومن جهة أخرى ، وضع مشروع يعين الوسائل العملية لاحترام المقررات التي تتخذ في المجامع الدينية ؛ وشارك الفرسان والفلاحون ، دون كبير اندفاع ، في اقتراح الاسقف وأقسموا اليمين على مراعـــاة هـذا الميثاق . ويعتبر عملهم هذا رسماً أولياً للتجمع في سبيل السلام .

ثم اتضحت الفكرة وكانت موضع بحث يربط بين الصلح والعدل في مجمع ليموج (٩٩٧) ومجمع بواتيه (حول ١٠٠٠) حيث مثل أسقف بوردو وأساقفة بواتيه وليموج وانغوليم وسانت وتقرر بأن يسوى كل نزاع بين الافراد بموجب الحق ، وإن كلًا من الاسقف والكونت يستطيعان طلب المساعدة من الموقعين على الميثاق ضد أعمال الشدة والقسوة . وقبل آخر القرن العاشر بدأت هـذه الحركة في ڤيلي ومنها انتشرت في حوض اكيتانيا . وفي بداية القرن الحادي عشر أخذت تمتد في قسم كبير من فرنسا . وتألفت عصبات في سبيل السلام في بيكارديا بـين سكان كوربيه وآميَنْ . وفي العام ١٠٢٣ حرر وارَنْ أسقف بوڤيــه وبيرولد أسقف سواسّون لامراء اقليم رَنْسْ صيغة خاصة ممتعة نقرأ فيها العبارات التالية : « لن أجتاح بأي شكل من الاشكال الكنائس ولا

مخازن الكنائس اللهم إلا إذا كان القصد من ذلك القبض على الاشرار الذين يخرقون السلام أو يرتكبون القتل . ولن أقبض على الفلاح أو الفلاحة أو التجار أو آخذ منهم أموالهم أو أجبرهم على افتداء أنفسهم ، ولن اخرب أو أحرق البيوت . ولن أقتلع الكروم من جذروها أو أقطف ثمارها بحجة الحرب وسأرعى في هذه المعاهدة زمام كل من أقسم عليها ويرعاها تجاهي » . وفي السنة نفسها تألفت عصبات أخرى في مملكة بورغونيا حيث عقد مجمع فردن على الدوب (١٠١٦) وأقسم الحاضرون اليمين على « المحلفات المقدسة » وتعهدوا بالتزامها . وفي عام ١٠٣٨ عقد مجمع في بورج بدافع من المطران ايمون ، وأعد فيه تنظيم أوضح مما في السابق : وهو أن كل مؤمن بلغ من العمر خمسة عشر عاماً ملزم صراحة بأن يحلف اليمين على السلام والدخول في (مليشا) الابرشيه المكلفة باحترامه .

وعلى هذا النحو تألف نوع من حرس قومي مهمته احترام السلام . على أن أهم ما يميز في الحقيقة حركة الكنيسة لصالح السلام ، عدا عن التعهد الصريح بعدم الاعتداء على الاشخاص العزل من السلاح وتحديد وباء الحرب على المتحاربين وأموالهم ، إنما هو هذه الرابطة التي تربط أعضاءها بميثاق يدوم مدة معينة من الزمن . ونجد في هذا العمل رد فعل منظم ضد النظام الاميري ومحاولة هامة لاحلال التحكيم المبني على الحق محل الظلم الذي تمثله الحرب .

وقد أدرك الملوك في بداية القرن الحادي عشر أهمية هذه الحركة التي قامت بمبادرة الكنيسة وساهموا فيها . وفي ١٠١٠ — ١٠١١ عقد روبير التقي مجلساً في اورلئان ونادى بالسلام . وفي المقابلة التي جرت في ايفوا (١٠٢١) بين روبير التقي ملك فرنسا وهنري الثاني امبراطور المانيا ، دلت الظروف على أن كلًا منهما كان يرغب بالسلام وتعهدا بوجوب

احترام «سلام الكنيسة المقدسة» في بلديها . غير أن موت هنري الثاني في ١٠٢٤ والبابا بندكت الثامن المفاجىء في السنة نفسها حال دون الوصول إلى تحقيق هذه الاحلام في تعميم السلام بين الدول المسيحية كلها . ومن جهة أخرى ، ساعدت بعض الظروف الطارئة كالمجاعة الكبرى في عام ١٠٣١ — ١٠٣٤ على عودة أعمال الشقاوة والنهب ، إلا أنها لم تحد من نشاط الاساقفة الذين يدعمهم الرأي العام .

هـــدنة الله . — وفي حوالي العـام ١٠٤٠ تبدلت سيماء الحركة قليلًا . فأضيفت « **هدنة الله** » إلى « **سلام الله** » وتهدف إلى جعـل الحرب أكثر صعوبة وأكثر ندرة ، وذلك بقطعها ، في كل حين ، بحجة احترام ذكرى الايام الدينية .

ويبدو منذ ١٠٢٧ أن أول مجمع عقد لهذه الغاية في تولوج في اقليم روسيون حيث حرمت يوم الاحد . ودست كل فكرة من هذا النوع في بعض مواثيق السلام . إلا أن « هدنة الله » تجسمت في العام ١٠٤١ بشكلها في رسالة حررها أساقفة أقليم آرل الكنسي بمساعدة اوديلون أب كلوني . ونقرأ في هـذه الرسالة الشهيرة : « نطالب منكـم ، ونتوسل اليكم جميعاً ، يامن تخشون الله وتؤمنون به ، ويامن اشتريتم بدمائه ، أن تحافظوا على السلام فـيما بينـكم لتستحقوا أن تكونوا بهذا في سلام مع الله ولتبلغوا الراحة الأزلية . أقبلوا وحافظوا على هدنة الله التي قبلنا بها نحن وحافظنا عليها كما لو نزلت من السماء بوحي من الرحمة الالهيّة . انهـا تقتضي من جميـع المسيحيين أصدقاء كانوا أم أعداءً أن يراعوا السلام التام بهدنة تامة من مساء الاربعاء إلى مطلع الشمس في صباح الاثنين » . ووسع الاحبار الأسباب الـتي أوحت بهذا النظام الجديد بقولهم « لقد خصصنا لله أربعة أيام : الخميس

صعود المسيح ، الجمعة لذكرى آلامه ، السبت لدفنه ، الأحد لذكرى قيامته ، لئلا تقع في هذه الأيام أي حرب ولئلا يخشى أحد عدوه » .

وهكذا قضت هدنة الله بتحريم الحرب خلال الأيام التي تذكر بالمراحل الاليمة أو المجيدة من حياة المسيح . وكان لهذا الاختراع نجاح مباشر . وفي السنة نفسها عقد مجمع في مونتوبوند في ابرشية لوزان وقرر هدنة الله في جميع الاسابيع من مساء الاربعاء إلى صباح الاثنين خلال الآحاد الأربعة التي تسبق عيد الميلاد وفي أيام عيد الميلاد حتى الأحد بعد عيد الملوك أو الغطاس (أي عيد ظهور المسيح للمجوس ويقع في ٦ كانون الثاني وهو عيد يذكر بهذا الحادث ويسمى يوم الملوك) ، وأخيراً من الصوم الأربعيني ، أحد السبعين ، إلى أول أحد بعد عيد الفصح .

وفي العام ١٠٤٢ أدخل هذا الاستعمال نفسه في نورمانديا ، ومنها امتد إلى دور سنة الصلوات المحصورة بين صلوات الربيع العامة وآخر اليوم الثامن لعيد العنصرة .

وتعممت مع الزمن هدنة الله في انحاء فرنسا . وفي المجمع الذي عقد في ناربونه (٢٥ آب ١٠٥٤) تحت رئاسة المطران غيفرد تقرر تقنين التشريع السابق كله . هذا ويمكن اعتبار هذه القوانين صيغة نهائية لهذا النظام المستحدث . وكلها تفتتح بشجب الحرب الأميرية . « إن المسيحي الذي يقتل مسيحياً آخر انما يهرق دم المسيح ». وهنالك قرارات أخرى تتعلق بهدنة الله وسلام الله . فقد أعلنت الهدنة في كل أسبوع من مساء الاربعاء إلى صباح الاثنين فيما تقدم وذكرنا من أيام ، كما أعلنت في جميع أعياد العذراء والقديس يوحنا المعمدان والرسل ووقفات الاعياد الهامة وأوقات أيلول الاربعة . هذا وإن كثرة الأيام ، التي حرمت فيها الحرب ، جعلت هذه الحرب مستحيلة عملياً .

نظم السلام في المانيا وايطاليا واسبانيا . — وامتدت هدنة الله ببطء في خارج فرنسا . ففي ، **المانيا** لم تكن موضع بحث قبل ١٠٨١ عندما ادخلت في ابرشية ليبج على يد هنري مطران تول . ثم تعممت خلال السنوات التالية . وتدل التآريخ في العام ١٠٨٣ على أن المملكة كلها كانت تتمتع بانظمة السلام .

وفي **ايطاليا** صوت مجمع ملفي (١٠ أيلول ١٠٨٩) على سلام الله في مقاطعة بوي وكالابر . وفي ١٠٩٣ عقد مجمع آخر في تورويا وقرر هدنة الله في المنطقتين الآنفتي الذكر . كما نفذت الهدنة إلى **اسبانيا** ونظمت فيها منذ ١٠٦٣ عندما انعقد مجمع جيرون

وعندما أصبحت البابوية على رأس العالم المسيحي ، في آخر القرن الحادي عشر ، أخـــذت على عاتقها قضية السلام وعممت جميـع الالتزامات التي قررتها المجامع الفرنسية وغيرها . ويذكر لنا المؤرخ فوشيه شارتر ان البابا أوربينو الثاني ، في مؤتمر كلرمون (١٠٩٥) الذي قررت فيه الحرب الصليبية الاولى ، قـد ندد بالحروب الأميرية وما تجره من ويلات بغية الوصول إلى هذه الخاتمة : « أطلب اليكم باصرار أن تحافظوا بقوة على الهدنة في كل ابرشية . وإذا خرقها أحد لجشع أو غطرسة فلا تترددوا بموجب السلطة الالهية وهـذا المجمع المقدس أن تضربوه بالحرمان » . ومهما يكن الكلام الذي نطق به اوربينو الثـاني ، فمن المؤكد أن هدنة الله قد أعلنت في كلرمون بنفس العبارات التي نودي بهـا في ناربونه . كما نص قانون آخر بتمتع الرهبـان والاكليركيين والنساء بسلام الله في كل يوم . ونظراً لغلاء المعيشة آنذاك أمتد هذا السلام خلال ثلاث سنوات على جميـع الفلاحين وجميـع التجار .

نظم السلام والنظام الاميري . — يسجل مؤتمر كلرمون نقطة الذروة

التي توصلت اليها نظم السلام ورد الفعل الكنسي ضد الحروب الاميرية وما تجره من أضرار . لقد نشأت هذه الحركة في جنوب فرنسا وكانت من أجمل صفحات تاريخ العصر الوسيط ، وشرفت الأساقفة الذين أوحوا بها وغذوها . ولكن من الصعب أن نعين الحدود التي نجحت فيها ، ونقول إن العقوبات الروحية كانت كافيـــة لتعديل مغالاة البارونات . ويظهر لنا أيضاً ان الرابطات التي أوجدت في كل مكان تقريباً ، بعد مجمع بوي ، لم تقم طويلاً بنشاط كبير . وقد نتساءل بعد هذا ما إذا كان السكوت عن هذا النشاط كان بسبب التعب والاعياء واليأس . ويبدو لنا أن الكنيسة كانت تنقصها القوة الضرورية لتفرض احترام مقرراتها . إلا أن هذه الفكرة قد بذرت وستنبت نباتاً حسناً . حتى ان ملوكاً ، من أمثال غليوم الفاتح وهنري الأول في انكلترا ولويس السادس في فرنسا ، وبعض الاقطاعيين الكبار قد خامرتهم هـذه الفكرة وانتهى بهم الأمر إلى أن عمـــلوا على ظفرها عندما اتيحت لهم الوسائل الضرورية ، ولكن يجب أن ننتظر إلى آخر القرن الحادي عشر بل وحتى بداية القرن الثاني عشر . فحتى ذلك التاريخ ما زال النظام الاقطاعي ، بنتائجه السياسية والاخلاقيـــة ، يثقل حياة الدول ويسيطر عليها في كل الظروف .

الفصل الخامس والعشرون

السياسة الامبراطورية

من اوتون الأول إلى وفاة هنري الثالث

٩٦٢ - ١٠٥٦

المانيا بين ايطاليا والعالم السلافي

٩٦٢ - ٩٩٦

نتائج ارجاع الامبراطورية . - لقد استطاعت السلالة الساكسونية ، في منتصف القرن العاشر ، أن تكسب قوة ونفوذاً عظيمين ، وذلك لأنها أدركت قبل كل شيء الرسالة التي فرضتها الحوادث عليها ، وعرفت كيف تنجح في درء الأخطار الجسيمة التي تهدد الغرب . لقد استطاع اوتون الأول أن يدفع الغزو الهونغاري ويرد وثبة السلاف ، ولكنهم لم يبيدوا وظلوا متكتلين فيما وراء الايلب والاودر يهددون بالانقياد لعواطفهم أمام سحر الغرب وتخريب ساكس ووستفاليا من جديد . وقد ارتسم منذ الآن البرنامج الامبراطوري بوضوح وهو : الدفاع عن المسيحية ضد غارات الشرق ، وافضل من ذلك التبشير بالمسيحية في أوساط السلاف بعد أن تحولوا إلى تابعين للتاج الألماني . هذه هي الرسالة التي فرضت على اوتون وخلفائه .

رأى اوتون الكبير بحسه السياسي هذا الاتجاه الممكن للجهد الجرماني بعد انتصارات ٩٥٥ على السلاف والهونغاريين ، ولكن الظروف كانت أقوى من إرادته الشخصية . ففي اليوم الذي دعيت فيه السلالة الساكسونية للتدخل في ايطاليا لاقت موهبتها التقليدية محنة قاسية وساقها التتويج الامبراطوري إلى مصير آخر . وإذا كان الامبراطور الجديد وارث قسطنطين وتيودوس وشارلومان فهل يمكن أن يزدان بلقبه إذا لم يسيطر على روما وايطاليا ؟ إن الحوادث الأخيرة لا تترك مجالاً لوهم: حقاً لقد كان يتوجب عليه فتح ايطاليا ، وكيف لاينقاد إلى هذه الجاذبية ؟ عندئذ يمكن أن تعرف القضية التي وضعت غداة رجعة الامبراطورية في العام ٩٦٢ . لقد كان يجب على السياسة الامبراطورية أن تثابر وتستمر ، طبقاً لتقليد طويل ، في تقدمها نحو الشرق ، أو ، بالعكس ، تنزلق نحو الجنوب . وهل سيكون محورها على الايلب أو على البو ؟ السؤال مربك ، ولكن اوتون أجاب عليه محاولاً مواجهة العملين مهما كانا ثقيلين : فقد رمى إلى تقوية امبراطوريته في آن واحد بفتح ايطاليا وبتوسيع النفوذ الألماني في البلاد السلافية ، ولكن خلفاءه لم يكونوا أهلاً لاتمام هذا العمل العظيم ، واعجزتهم الحوادث واصطدموا بصعوبات انقلبت ، في بعض الاحيان ، إلى نكبات .

ايطاليا بعد التتويج الامبراطوري . — لقد لاحظ اوتون الاول عقب تتويجه أن سلطته ضعيفة في ايطاليا . لأن الملك السابق بيرنجه لم يغلب مطلقاً ، والبابا جان الثاني عشر ، رغم موقفه الصحيح وتنازله ، لم يتخل عن اطماعه الزمنية ، بل كان يتطلع إلى سيادة ايطاليا أكثر من أي وقت مضى . ولما كان الامبراطور عقبة أساسية أمام تحقيق أحلامه فقد قرر ، رغم وعوده ، أن يضع جميع المتاعب الممكنة في وجه اوتون .

ولم يكن الاغريق في شبه الجزيرة راضين عن الحوادث الاخيرة ، وكانوا يراقبون الاحداث تاركين أمر التدخل للوقت الذي يختارونه . وباختصار كانت طريق اوتون الأول مفروشة بالاشواك ، وإن أي خطأ منه يوشك بالقضاء على النتائج التي كسبها بسهولة في بداية العام ٩٦٢ .

كان على اوتون الاول ، في بادىء الامر ، أن يقضي على بيرنجه ، فذهب من روما واتجه صوب البحيرة الكبرى في ايطاليا الشمالية ، لأن بيرنجه بدافع من زوجته فيللا قرر الذهاب بالحرب حتى النهاية . ولكن اوتون مالبث أن عاد إلى روما بعد أن أتته منها أخبار مزعجة وبدلت برنامجه .

لقد كان البابا جان الثاني عشر يراسل ادالبير بن بيرنجه . وفي الوقت الذي كان يطمن فيه اوتون عن حسن نواياه كان يهيء دخول الأمير الشاب إلى روما ، بعد أن تحالف معه لاحباط أعمال ملك جرمانيا . ولما دخل ادالبير روما ، في تشرين الأول ٩٦٣ ، انطلق اوتون في اعقابه وبدا أمامها في ٣ تشرين الثاني ٩٦٣ .

ولم يتخل عن اوتون جميع الرومانيين ، وما وسع جان الثاني عشر إلا أن لاذ بالفرار يصحبه ادالبير ، وعاد الامبراطور من جديد سيداً على روما ، ودعا دون طلب موافقة البابا إلى عقد مجمع في كنيسة القديس بطرس في ٦ تشرين الثاني ضم أربعين أسقفاً وكرادلة — كهاناً أو شماسين وممثلين عن الطبقة النبيلة الرومانية . ووجهت في هذا المجمع الاتهامات الثقيلة ضد البابا ، وتقرر أن يدعى الحبر الروماني للمثول ، فرد مهدداً اوتون بالحرمان إذا سمى بابا آخر . وفي ٤ كانون الاول جرم جان الثاني عشر بتهمة الخيانة العظمى وخلعه المجمع ونادى بالموظف ليون خلفاً له .

امتياز ٩٦٣ . — كان لخلع البابا جان الثاني عشر غير الشرعي والمخالف للقواعد القانونية نتائج خطيرة : فقد عدل الامتياز الممنوح إلى الكنيسة الرومانية غداة التتويج الامبراطوري وحرر من جديد وبشكل يزيد سلطات ملك جرمانيا في الانتخاب الحبري . ونص فيه : ان من ينتخب لهذه الوظيفة المقدسة الرسولية لاينصب حبراً أعظم قبل ان يقسم أمام رسلنا أو ابننا ، لارضاء الجميع وللسلام ، يميناً مماثلة لليمين التي اقسمها عفوياً سيدنا وأبونا الروحي الجليل ، ليون » . لقدكانت صيغ الادارة الحبرية غامضة قصداً . ولكن التطبيق ، الذي أجري للدبلوم قبل أن يذاع ، يكشف عن المعنى الحقيقي الذي لامجال للشك فيه : لقد كان الامبراطور يعني تسمية الحبر الروماني ، وبذلك انتهى استقلال السدة الرسولية . ولتوطيد النفوذ الالماني في ايطاليا ، أراد اوتون السيطرة على روما ، وللسيطرة على روما كانت تلزمه الوسائل لابعاد كل بابا يجرأ على الذهاب إلى ما يخالف مقاصده . وهكذا أدت السياسة الايطالية إلى ارجاع القيصرية البابوية الامبراطورية بشكل أقسى بكثير مما كانت عليه سلطة جستنيان وشارلومان .

وبعد أن ظن اوتون الاول أنه انهى المقاومة الرومانية عاد إلى سان — ليو على البحيرة الكبرى وتقبل خضوع بيرنجه وزوجته وارسلها أسيرين إلى المانيا،ولقد حان الوقت للقضاء عليها ، لان الامبراطور،كما رأينا، ما كاد يغادر روما إلا وعقد جان الثاني عشر مكايده . وفي ٣ كانون الثاني نشبت مشادة في المدينة فاسرع اوتون وقمعها دون عناء ، ثم غادرها قبل الاوان ، وبفضل ثورة جديدة دخل جان الثاني عشر عاصمته وفر ليون الثامن مسرعاً إلى حاميه .

وانعقد مجمع في كنيسة القديس بطرس في ٢٦ شباط ٩٦٤ ، ويكاد

يكون تركيبه مطابقاً لتركيب مجمع تشرين الثاني ٩٦٣ ، وكسر جميع أعمال هذا المجلس وخلع ليون الثامن وحكم باللعنة على جميع من ظلوا يعترفون به بابا . وما كان جان الثاني عشر ليرجو أكثر من اعادة اعتبار رسمي له ، ولم يعش بعدها كثيراً ومات في ١٤ أيار ٩٦٤ .

وحمل اوتون الاول خلال أربع مرات على روما لفرض سلطته الامبراطورية . وفي المرة الرابعة أراد أن يؤمن المستقبل فأتى بابنه اوتون الثاني إلى روما ، وفي يوم عيد الميلاد ٩٦٧ تقبل الابن بدوره التاج الامبراطوري .

كان اوتون الاول يتصور في ذهنه أن تشمل الامبراطورية شبه الجزيرة كلها . ومن هنـــا ظهرت رغبته في فرض سلطته على الإمراء اللومبارديين في الجنوب الذين يعتبرهم تابعين له . ولكنه اصطدم في هذه النقطة بعقبات رصينة أتت من وجود الاغريق في ايطاليا الجنوبية . وإذا اعترفت بيزنطه بجميل الملك الجرماني لانه خلص الكنيسة من جان الثاني عشر وحياته الملطخة التي أثارت الاستياء من حوله ، فبالمقابل كان ينظر نظرة سوء إلى محاولات اوتون المتكررة لوضع عاصمة المسيحية تحت اشرافه . ونجم بين بلاطي القسطنطينية و اكس — لا — شابل ، اللذين ظلا حتى ذلك الحين على علاقات طيبة ، فتور في العلاقات ومن الممكن ان يزداد إذا تابع اوتون الاول خطته في فتح ايطاليا .

المفاوضات مع الاغريق . — رأى الامبراطور هذه الصعوبة وحاول ازالتها بالدبلوماسية . لقد بدا له ان زواج ابنه اوتون مع تيوفانو ، بنت رومان الثاني وربيبة البازيلوس الحاكم نقفور فوكاس ، يمكن أن يؤدي إلى انفراج سعيد . ولكنه ضل ضلالاً بعيداً : لقد دشن نقفور

حكمه باخفاق في صقلية غير أنه لم يكن مستعداً لترك المجال حراً للتوغل الالماني . وعندما كان اوتون الأول في رافينه في نيسان ٩٦٧، قدم عليه وفد بيزنظي وأفهمه أن امبراطور الشرق متمسك بجميع حقوقه في ايطاليا الجنوبية . وبنتيجة هذه المحادثات أرسل بدوره إلى القسطنطينية دومينيكو البندقي حاملاً اقتراح الزواج . ولم يستقبل دومينيكو بترحاب ، وطلب نقفور في البدء تخلياً رسمياً صريحاً من قبل الألمان عن كل فكرة ضم أراضي اغريقية . ورأى دومينيكو ان التعليمات تنقصه فتوارى . وذهب وفد بيزنطي جديد وقابل اوتون في كابو (كانون الثاني ٩٦٨) ولم يحصل على تعهدات أوضح ، وبدا أن مشروع الزواج بين اوتون الثاني وتيوفانو قد عدل عنه .

عندئذ خيل لاوتون الأول أن يصل إلى أهدافه بشكل أفضل وهو أن يجدد سياسة التخويف التي نجحت في روما . وتدبر أمر مساندة أمير كابو باندولف الاول رأس الحديد بعد أن جعله مارغراف كاميرينو ودوقية سبوليت . أما أمير سالرنو جيزولف فلم يقبل الاعتراف بسيادته .

ولما اطمأن اوتون الاول إلى مساندة باندولف وحياد جيزولف جاء إلى كابو في بداية عام ٩٦٨ واستقبل السفراء البيزنطيين ، ثم اجتاح آبوليا وزحف على باري عاصمة قيادة لونغوبارديا . وأدرك أن فتح الممتلكات البيزنطية أصعب مما تصور . وقد لزمه جيش عديد واسطول لانتزاع باري ، ثم اضطر لرفع الحصار أمام فقدان الوسائل الكافية .

ولما اجهضت محاولة التخويف لجأ إلى الدبلوماسية ، وأرسل إلى القسطنطينية ليود براند كريمون ، وكان عارفاً بالاغريقية ، وشخصاً مغروراً متفائلاً لدرجة الافراط ، ومفعماً بالاوهام ومقتنعاً بان اتخاذ الاوضاع

القوية يمكن أن يؤثر على مماطلة البيزنطيين . غير أن تنبؤاته خابت . فقد بدا نقفور فوكاس متغطرساً صلباً ، مزدرياً . وبعد أن ترك ليودبراند ينتظر عدة أيام المقابلة التي يرجوها أخذ يلومه بلهجة قاسية ومحتقرة على الاعمال التي ارتكبها الالمان في روما ومهاجمة المدن الاغريقية في جنوب ايطاليا . فارتبك ليود براند وحاول جهده أن يبرر سياسة سيده ، ولم يستطع التغلب على آراء البيزنطيين ، وعومل أسيراً لا دبلوماسياً بعد أن أشبعوه اهانة وخزياً ، ولم يعــد له هم سوى تحرير نفسه . ولم يكتم فرحه اذ غادر القسطنطينية في ٢ تشرين الاول ٩٦٨ وكان سعيداً أن نجا من الاغريق بعد أن رأى من خيانتهم ما رأى .

وما علم اوتون الاول بمعاملة سفيره على هذا النحو حتى غضب وقرر البدء بالحرب دون ابطاء . وقــد أعرب عن نواياه بطرد الاغريق المتغطرسين من ايطاليا وحقده عليهم . وفي ربيع ٩٦٩ اجتاح كالابر ، ولم تنجح الحملة بالاجمال . لأن الاغريق تجنبوا مجابهة الجيوش في العراء . وكان من الصعب الحصول على نجاح حاسم . وبعـد أن عاث في بوفينو قفل راجعاً إلى ايطاليا الشمالية تاركاً لصديقه باندولف رأس الحديد متابعة الحصار مع الجيش الالماني الذي وضعه تحت أوامره . غير أنه قبض على باندولف وسيق إلى القسطنطينية بينما كانت جنوده تفر باضطراب تاركة الاغريق يتقدمون حتى منطقة كابو . ولما علم اوتون الكبير بهذه النكبة أرسل جيوشاً جديدة انتصرت أخيراً بالقرب من آسكولي . وجاء بدوره في ربيع ٩٧٠ وحاصر بوفينو ، وقام بين امبراطوريتي الشرق والغرب نزاع لارحمة فيه ، واتسعت سياسة اوتون اتساعاً غريباً . وبالرغم من ان كثيراً من المصالح كانت تتطلب وجوده في شمال الالب ، فقد برح مكانه على شواطىء المتوسط .

زواج اوتون الثاني وتيوفانو (١٤ نيسان ٩٧٢) . — غير ان موت نقفور فوكاس المفاجىء بالمناسبة سمح بمعـالجة موقتة . واظهر الامبراطور الجديد جان تزيميس استعداده للسلام باطلاق سراح باندولف رأس الحديد . ولما كان اوتون يرجو ايضـاً انهاء الخلاف مع الحفاظ على اطماحه الزواجية ، فقد بـدأ السير نحو التفاهم . وفي ٩٧١ ارسل مطران كولونيا ، جيرون ، إلى القسطنطينية فاستقبل استقبالاً يختلف عن استقبال ليودبراند ، وفي ٧ نيسان ٩٧٢ عاد إلى روما مصحوباً بالفاتنة تيوفانو ، وكان عمرها آنذاك ست عشرة سنة . فسحرت عذوبتها القلوب بدءاً من قلب خطيبها ، واحتفل بالزواج في كنيسة القديس بطرس يوم الفصح (١٣ نيسان) وتوج البابا جان الثالث عشر الامبراطورة الجديدة ، وبلـغ اوتون الاول أهدافه وهدهد نفسه بالامل في أن هذا الزواج سيجعل الاغريق أكثر تساهلاً وسيساعده على تقوية النفوذ الالماني في ايطاليا .

الصلح مع الاغريق . — وللمرة الثانية ضل ضلالاً بعيداً . فما لاشك فيه أن هذا التحالف الزواجي يمكن أن يحدث انفراجاً ويهيء سلاماً لبضع سنين ، ولكن ما من نص يدل على أن جان تزيميس قد أعترف باللقب « امبراطور روماني » الذي خص أوتون به نفسه . ومن جهة ثانية ، بالرغم من ان كابو وبينيفن بقيتا تحت السيادة الالمانية فلم يكن للبازيلوس أي نية في ان يسـلم بوي وكالابر ونابولي وسالرنو مهراً إلى تيوفانو . وبقيت الاوضاع على حالهـا : وهي ان ملوك جرمانيا اذا استمروا في احلامهم في الهيمنة على ايطاليا فسيصطدمون بالعقبة نفسها . ولذا لم يكن هنالك موضع اتفاق دائم في العام ٩٧٢ بل هدنة موقتة فقط . ولكن بامكان أوتون الاول على الاقل ان يعود إلى المانيا حيث لم تعرف السياسة التقليدية للبيت الساكسوني اي توقف ، تجاه السلاف ، بالرغم من حضور الامبراطور الدائم في ايطاليا .

المانيا والسلاف بعد ٩٥٥ . — لقد كان لاوتون الاول في الواقع سياسة سلافية وسياسة ايطالية ، وإذا لم يساعده الموت على جني ثمارها فعلى الاقل هيأ عدة مفاهيم عظيمة بدأت تنفذ من ٩٦٢ إلى ٩٧٢ .

لقد كانت خطة الامبراطور اوتون الأول ترمي إلى :

١ — القيام بحملات بين الايلب والاودر لانماء النفوذ الجرماني في هذه المناطق .

٢ — الحفاظ على المجرى الادنى لنهر الايلب للحيلولة دون هجوم أقوام الاوبوتريت والفاغريين وحتى الليوتيس .

بيد أنه في السنوات الأخيرة من حكمه طبع سياسته بطابع سلمي وأراد أن ينمي النفوذ الألماني بطريق التبشير بين أقوام الفيند الوثنيين . فمن ذلك أنه قام بعمل تنظيمي هام في البلاد السلافية فقسمها إلى اسقفيات وأسس فيها أديرة بندكتية كما حاول أن يستخدم وسائل النفوذ الالماني نفسها في بولونيا ولكن موته أوقف هذا العمل .

وفي بلاد سلاف الجنوب قام الاساقفة بعمل تبشيري عظيم بغية توطيد النفوذ الألماني في بوهيميا وكارانثيا وبانونيا . وشادوا الكنائس والأديرة وأصلحوا الاكليروس لصبء الهونغاريين . واستطاع النفوذ الألماني بهذه المحاولات المختلفة أن يصل حتى ضفاف نهر الليثا .

غير أن وفاة الامبراطور أعقبت نتائج خطيرة إن في هونغاريا أو في غيرها . وذلك لان الاضطرابات الداخلية التي طبعت بداية حكم اوتون الثاني أفسدت جاه المانيا وأبعدت عنها الهونغاريين والسلاف .

وفاة اوتون الكبير (٧ أيار ٩٧٣) . — وباختصار ، لم يكن للسياسة الايطالية ، حتى وفاة اوتون الاول ، صدى سيء على الحدود

الشرقية . فقد استمر التوغل الالماني في البلاد السلافية في آخر الحكم ، وإذا لم تؤخذ الجماهير إلا بصعوبة فان الامراء على الاقل كانوا أكثر انقياداً وطاعة . وعندما رجع اوتون في العام ٩٧٣ من إيطاليا واحتفل بعيد الفصح في كويدلينبورغ قدم عليه وفد هونغاريا وأدواق بوهيميا وبولونيا لتحيته وبرهنوا تجاهه على احترام ودي . وهذا يدل على ظفر سياسته . فمنذ تتويجه عام ٩٦٢ وهو يحلم بامبراطورية جرمانية كبيرة كامبراطورية شارلومان ، ولكن تبين له أن من المستحيل إعادة بناء ما كان موجوداً في فاتحة القرن التاسع ، فأراد أن يعمل شيئاً آخر ، وعوضاً عن أن يتابع ضم فرنسا إلى المانيا وايطاليا ، حاول أن يمتد نحو الشرق ونحو الجنوب . وكان فتح ايطاليا أصعب مما توقع وشغله عشرة أعوام ، ولكن هذا الفتح لم ينجح في تحويله عن بلاد الايلب والاودر والفارت . وأخيراً عند ما رأى نفسه حراً في تصرفه في بدء عام ٩٧٣ تهيأ لتوكيد السيادة الجرمانية على السلاف ، ولكن الموت فاجأه في مرسبورغ في ٧ أيار ٩٧٣ ، ولسوء حظ المانيا انه تركها بين يدي ابنه ، اوتون الثاني ، وكان فتى غراً غير مجرب وخلواً من العبقرية .

اوتون الثاني . — كان عمر اوتون الثاني آنذاك ثمانية عشر عاماً . كان صغيراً بدينا ولم تكن له هيئة ابيه الجليلة . إلا انه كان اكثر منه ثقافة . وهذا هو التفوق الوحيد له . لقد اندفع بعيداً في تعليمه وأكثر من ذلك ان تربيته لا ترضي تماماً ، ولم تؤثر في مزاجه الشهواني ولا في اعجابه بنفسه . وكان شطط سلوك الامير الشاب سبباً في الاستياء بعد أن جعلته غطرسته ، التي كانت مضرب الامثال ، في متناول رياء بطانة السوء التي شجعت غرائزه الرديئة ، وارادت أن تغرس فيه الميل إلى الاستبداد . لقد ورث طموح أبيه غير أنه لم يكن له نفاذه أو قوته ولا الطريقة

الضرورية لتحقيق مـآربه . كان ضعيف الذكاء ولذا انقاد للحوادث عوضاً عن أن يسيرها ، ومن هنا اتت الـاخفاقات المتكررة التي تتضح في آن واحد بعدم كفاية أوتون الثاني وبالصعوبات الحقيقية لحالة ما فتئت تزداد حرجاً .

الصعوبات الداخلية والخارجية . — لا شك أن انتقال المملكـة والامبراطورية قد تم دون أقـل مضايقة . فقد بورك اوتون الثاني ملكاً في أيار ٩٦١ وتوج امبراطوراً في يوم عيد الميلاد ٩٦٧ . ولكن على الرغم من أن الامراء بعد وفاة أوتون الاول كانوا مجمعين على تجديد يمين الولاء ، فقـد ظل اوتون الثاني حتى ٩٧٦ مجمداً تماماً بمعارضة سؤاب واللورين وبافاريا . وعلى الحـــدود ، لم يظهر سلاف الشمال في الحال أي بادرة حربية ، الا أن دوق بوهيميا بوليسلاس الثاني انضم إلى جانب دوق بافاريا هنري اللدود الذي ثار على اوتون الثاني وكسر التفاهم الذي وجد في عهد اوتون الاول . ومن جهة أخرى ، اجتاح ملك الدانيمارك هارالد المانيا . وأخيراً ، في الغرب ، تأثرت العلاقات مع فرنسا بصدى وفاة أوتون الكبير ، وأدت قضية اللورين عام ٩٧٨ إلى قطيعة دامت حتى ٩٨٠ .

الثورة الرومانية ٩٧٤ . — ولم تكن حالة ايطاليا بأمثل . ففي العام ٩٧٢ ، عندما توفي جان الثالث عشر الذي أظهر بعض الاستقلال حيال أوتون الكبير ، كانت شبه الجزيرة الايطـالية إلى جانب الهيمنة الالمانية وأيدت انتخاب بندكت السادس الذي أقيم على العرش في ١١ كانون الثاني ٩٧٣ ، وبدت أنها تكرس انتصار الامبراطور . غير أن كريسانت ، الذي يمثل حزب الارستقراطية القديمة في العـام ٩٧٤ ، أثار روما على البابا الامبراطوري فقبض عليه وأعــــدم في أقبية قصر سانتانج ، ثم أقام

على الكرسي الرسولي ، في حزيران ٩٧٤ ، الكردينال الشماس فرانكون باسم بونيفاس السابع . ولكن مجيء مبعوث الامبراطور ، الكونت سيكون ، كان كافياً لفرار الغاصب وترك مكانه لاسقف سوتري فنصب هذا بابا تحت اسم بندكت السابع . وبالرغم من اعتزال بونيفاس السابع في القسطنطينية وشجبه في مجمع عقد لهذا الغرض ، فقد تزعزعت السيطرة الألمانية في ايطاليا ، وبدا مجيء الامبراطور ضرورياً اليها .

اوتون الثاني في ايطاليا . — ولكن اوتون الثاني لم يأت إلى ايطاليا إلا في العام ٩٨٠ بعد أن أخمد المعارضة الداخلية ، ورد الدانيماركيين وحاول حملتين غير مثمرتين في بوهيميا ، وأبرم الصلح مع فرنسا . وكان القصد من هذه الحملة توكيد النظام وطلب القيام بالواجبات التبعية التي تجوهلت وتنسيت . ولم يأخذ الامبراطور معه أي جيش . وكانت ترافقه الامبراطورة تيوفانو وأمه اديلاييد وحاشية من الأساقفة والأمراء . وكانت روما فريسة الاضطراب ، ولكن البابا بندكت السابع ، على ما فيه من شعور بواجباته ، كان غير قادر على فرض سلطته . ودخل الامبراطور روما واستقبل بها . وفي يوم الفصح (٢٧ آذار ٩٨١) ترأس اوتون الثاني والبابا مجلساً شجب السيمونية وفصل في مختلف القضايا الكنسية . وبقي الامبراطور في روما حتى بداية الصيف وثبت السلام بعد انسحاب كريسانت في أحد الاديرة وحرمان المعارضة من رئيسها . وأصبح بامكان الامبراطور أن يفرح بهذا النجاح السهل الذي شجعه على متابعة ارجاع الامبراطورية الرومانية بمغامرة خطرة كثيراً .

الحملة الامبراطورية على ايطاليا الجنوبية . — لقد تطورت الحالة في ايطاليا الجنوبية ، منذ وفاة اوتون الكبير في اتجاه مغاير للمصالح الجرمانية . فقد مات باندولف رأس الحديد (٩٨١) الموالي للسلالة

الساكسونية ، وأحدث وضعاً منافياً للامبراطور الالماني وملائماً الاغريق . وشاء أوتون الثاني توطيد سلطته مهما كلف الأمر ، واتخذ ظهور الخطر الإسلامي وتهديد الاغريق ذريعة للتدخل . وفي الواقع كان يفكر بالافادة من ارتباك البيزنطيين لتوطيد الهيمنة الالمانية في الجزيرة ، لاتمام « مملكة ايطاليا » ، الجزء الأساسي من الامبراطورية الرومانية « التي يريد » كما يقول المؤرخ تيتمار « الحفاظ عليها كما تركها أبوه له » وارتأى أن يرجع ايطاليا الجنوبية بنصر مبين على المسلمين ويقوي جاهه في هـــذه المناطق التي لم يستطع أبوه ، رغم عبقريته ، أن يوصل فيها القوة الالمانية .

غير أن هذه المشاريــع الخيالية أخفقت جميعاً . ففي ١٣ تموز ٩٨٢ جرت موقعة بينه وبين المسلمين بالقرب من رأس كولون دحر فيها ومني باخفاق ذريــع . وكان هذا الاخفاق بالنسبة للامبراطورية الاوتونية نكبة لا سابق لها . فقد هدم لقرنين خطط الهيمنة الألمانية على ايطاليا الجنوبية وولد في الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة قناعة بأن القوة الجرمانية ليست قوية كما يعتقد حسب الظواهر الخداعة . لقد أوحى أوتون الكبير بالخوف والاحترام ؛ ولكن أوتون الثاني انهار تحت الشك والريب ولم يعـــد لقراراته أي حساب : وقد شعر الامراء بثقل الخزي وتساءلوا بقلق ما إذا كان هذا الامبراطور الفار ، الذي شهد عاجزاً خراب جيشه ، له من السلطة الكافية ما يجعله يفرضها على أعـــدائه التقليديين ويدعهم واثقين من ان الجيش الامبراطوري لا يقهر . إن نصر العرب ، في أقصى جنوب ايطاليا ، وضع القضية السلافية من جديد وبحدة أكثر من أي وقت مضى ، على ضفاف الايلب والأودر .

القضية السلافية في عهد أوتون الثاني . — وكان لهذا التساؤل عدة

أسباب . فمنذ بداية الحكم لوحظ تراجع النفوذ الالماني تدريجياً في البلاد السلافية . ولم يكن للحملات التي وجهها إلى بوهيميا أي تأثير على الدوق بوليسلاس . يضاف إلى ذلك ضعف التبشير المسيحي بعد اهمال اوتون الثاني له . وهذا الامتناع أيقظ الاهواء المعادية للدين والجرمانيين . وستنفجر لدى أول فرصة . ولا غرابة اذا اجتاز الداتياركيون الحدود بعد نكبة رأس كولون وهدموا القصور وقام أمير الاوبوتريت باحراق هامبورغ والاسقفيات .

وعلى ضوء هذه الأحداث يفهم هياج الالمان بعد اخفاق رأس كولون فقد كشف الهجوم الدانيمركي والسلافي ابعاد النكبة الايطالية . وأرسل وفد إلى اوتون الثاني لاسترعاء انتباهه إلى الاخطار التي نشأت في الشمال . فعقد الامبراطور مجلساً في فيرونه لدراسة الوضع . وظهر في هذا المجلس عدم وعيه للأمور . وفي الوقت الذي كانت فيه المملكة الجرمانية مهددة كان يفكر باسترجاع السلطة الامبراطورية في ايطاليا . لقد وجد أمام سياستين : اما الهجوم على إيطاليا أو الدفاع عن التراب الالماني ضد السلاف ، فوقع اختياره على الأول وأراد الثأر المستحيل وضحى لاعتبارات انانية لا جدوى منها بأمن دوله . وكانت خطته في هذه المرة اجرأ ايضاً : فقد عبر مضيق مسينا وأراد تقويض سلطة المسلمين في صقلية . ولذا تقرب من البندقية وأبرم معها في ٧ حزيران ٩٨٣ معاهدة تكفل للجمهورية حرياتها التجارية وانتظر من وراء ذلك مساندتها عند العودة أو على الأقل حيادها الكريم في حرب الثأر التي أراد القيام بها ضد المسلمين .

موت أوتون الثاني (٧ كانون الاول ٩٨٣) . — وانطلق اوتون الثاني من فيرونه نحو الجنوب ، وفي الطريق بلغه نعي بندكت السابع فرأى من الحكمة ، خوفاً من حدوث اضطرابات ، أن يذهب إلى روما

ليعين خلفاً له ، فوقع اختياره على بطرس أسقف بافيا وسمي هـذا بابا باسم جان الرابـع عشر . ولم تثر هذه التسوية أي صعوبة . ولكن الامبراطور عاش بعد هـــذا الحادث قليلا ، وتوفي بدوره في ٧ كانون الأول ٩٨٣ تاركاً ابناً عمره ثلاثة أعوام ، أوتون الثالث .

هجوم السلاف . — وزال أوتون الثاني عن الوجود دون أن يحقق مشروع الحملة الصليبية ضد المسلمين ، ولكنه ، قبل أن يلفظ روحه ، عرف مرارة سياسته في ألمانيا . فقد كان هجوم السلاف مصحوباً بالمكاره من كل نوع : التهديم والحريق والاعدام ورد الفعل الوثني ضد كل ما هو مسيحي وألماني . ولم يبق من العمل الكبير الذي شاده أوتون الاول في شرقي مملكته الجرمانية شيء بعد أن ركم عجز خلفه فيما وراء الايلب وفي ايطاليا انقاضاً لايمكن اصلاحها .

المعارضة الالمانية والايطالية . — وبدا المستقبل قاتماً لا سيما وان وارث العرش كان طفلاً عمره ثلاثة أعوام . ولذا فان المعارضات الالمانية والايطالية العتيدة بدأت تستيقظ الواحدة بعـد الاخرى بفضل هذه الظروف .

في المانيا ، كان دوق بافاريا هنري اللدود يتطلع لطرد السلالة الساكسونية ، واستطاع في فترة من الزمن أن ينتزع الفتى أوتون الثالث من أمه . وأعتمد على مساندة ملك فرنسا لوثير الذي يطمع في اللورين ، ومساعدة دوق بوهيميا بوليسلاس الذي يتابع بثبات سياسة التحرر .

وفي روما ، رأت الارستقراطية أن الوقت مناسب للخلاص من البابا الامبراطوري ، وعاد بونيفاس السابع من القسطنطينية وظهر فجأة عام ٩٨٤ وبمشاركة كريسانت قبض على جان الرابـع عشر وسجنه في قصر سانتانج وتركه يموت جوعاً

ثم حل محله على الكرسي الرسولي دون أن يمنعه الحزب الالماني بعد أن حرم من رئيسه . ومثل هذا الحبر الحقود لايمكن أن يكون في صالح أوتون الثالث الذي أوشك أن يخسر الامبراطورية وممالكه في المانيا وايطاليا .

وصاية تيوفانو . — غير أن الامير الفتى انقذته سياسة أمه الماهرة التي عهد اليها بالوصاية عليه . وهذه الاميرة الاغريقية الجميلة المشعة رقة وعذوبة وعقلاً كانت على ما يبدو غير مهيأة للدور الذي فرضته الظروف عليها . إلا أنها برهنت على عقل راجح وحس سياسي أعلى جداً من زوجها . لقد كانت تعلم أنها غير شعبية في المانيا ، لأنها نطقت ببعض كلمات بائسة اثناء اخفاق رأس كولون ، ولذا انمحت أمام أسقف ماينس فيليجيز الذي بارك اوتون الثالث في اكس – لا – شابل يوم عيد الميلاد ٩٨٣ وتركت له أمر إخماد المعارضة البافارية وخصت نفسها بالقضايا الايطالية .

لقد وجهت تيوفانو هذه القضايا بكثير من الحصافة وحاولت أن تصلح الاخطاء التي ارتكبها اوتون الثاني . ومن البديهي أن تبادر إلى اسقاط مشروع الحرب الصليبية ضد المسلمين الذي لم يرض عنه الالمان والايطاليون والاغريق ايضاً الذين أغرتهم تيوفانو بانفراج لصالح الامبراطورية الجرمانية . لقد كان يهمها قبل كل شيء أن تمنع الكراهية حيال النظام الاوتوني . وبفضل دعم حماتها اديلايد ، أرملة اوتون الأول ، التي تتمتع نظراً لماضيها بجاه عظيم ، وأيضاً بفضل تحالف الاسقفية الشديدة التعلق بالسلالة التي مافتئت تغنيها ، والموقف الملائم الذي وقفه هوغ طوسكانا الذي لاحظ في ضعف اوتون الثالث الفتى ضماناً للاستقلال ، استطاعت تيوفانو الحفاظ

على ايطاليا الشمالية والوسطى تحت طاعتها . وخدمتها الظروف في روما . فقد توفي البابا بونيفاس السابع ٩٨٥ بعد أن اتعب الرومانيين بشدته ، وعوضاً عن أن تحاول تيوفانو فرض بابا من اختيارها سمحت للرومانيين بانتخاب خلفه جان الخامس عشر ، ولم تعارض في أن يأخـــذ زعيم الارستقراطية جان كريسانت بن كريسانت المتوفى عام ٩٨٤ ، لقب حامي . واعترف الجميع لها بهذا الاعتدال ، وفي مقدمتهم كريسانت . وفي ٩٨٩ كان بامكانها أن تأتي إلى روما بمناسبة عيد الميـلاد وتستقبل فيها بكل ترحاب . وقد استطاعت بداراتها القوى المحلية أن تنقذ السيادة الامبراطورية .

كانت سياسة تيوفانو الايطالية سعيدة بعامة . كما برهنت الوصية ، بمساعدة اسقف ماينس ، على الحكمة والعقل والطريقـة والقوة والعزم لدى مواجهة القضية السلافية . لقد رأت بأم عينها ان الخطر الحقيقي يأتيها من بوليسلاس بوهيميا الذي كان يحـلم بتأليف امبراطورية كبرى على أبواب جرمانيا ليهجم بقواه على القوة الجرمانية . فحـاول أولاً أن يهاجم دوق بولونيا ميسكو ، وكان هذا في جانب اوتون الثالث ٩٩٠ ، فاهتمت تيوفانو حالاً بانقاذ بولونيا ، ثم تصالح بوليسلاس وميسكو وساد الهدوء على حـدود الايلب وفي كل هذا لم تعوز تيوفانو المهارة ولا القوة .

وفاة تيوفانو (١٥ حزيران ٩٩١) . — لقد استطاعت تيوفانو ، بنت شاطىء البوسفور ، أن تقوم السياسة الجرمانية التائهة على يد اوتون الثاني بعيداً عن طريقها التقليدية ، وفهمت ضرورات الزمن ولاحظت بعين صافية كيف يجب أن يكون المصير الحقيقي للامبراطورية الاوتونية . ولو اكتفت بالتخلي عن مشاريع فتح جنوبي ايطاليا لقيل بأنهـا خدمت

مصالح البيزنطيين ، ولكن محاولتها لتثبيت السيطرة الامبراطورية في ايطاليا في حدود معقولة ، وجهدها الواعي البصير للحيلولة دون تشكيل امبراطورية كبرى سلافيـة تحت ادارة دوق بوهيميا يبرهنان على أنها عرفت في أي اتجاه يجب أن تتجه الامبراطورية التي شادها حموها وكانت له متممة أكثر من زوجها الراحل اوتون الثـاني . ولسوء الحظ ماتت تيوفـانو ، وهي في زهرة العمر ، في ١٥ حزيران ٩٩١ ، ولم يكن لابنها غير احد عشر عاماً . ومع هذا فان توجيهاتها استمرت سائدة إلى أن أصبح اوتون الثالث راشداً وحكم بنفسه .

وصاية اديلاييد (٩٩١ – ٩٩٤) . — وإذا أخذنا بما كتبه تيتمار انتقلت الوصاية ، بعد وفاة تيوفانو ، إلى يدي أرملة اوتون الاول ، اديلاييد ، التي عاشت حتى عام ٩٩٩ ، ولكن لم يكن لها أي نفوذ ابتداءً من ٩٩٤ وهو التاريخ الذي انسحبت فيه من البلاط . وكان فيليجيز مستشارها المفضل كما كان مستشار تيوفانو ، ولذا سادت الاتجاهات نفسها : وهي أن يسود النضال ضد السلاف على أي اهتمام آخر . وما من سنة إلا وتشير التـآريخ فيها إلى حمـلة جديدة . وخضع السلاف للقوة ولكنهم عرقلوا عمل المبشرين وجعلوا حياتهم جحيماً .

رشد اوتون الثالث . — وبالرغم من أن سياسة تيوفانو وفيليجيز السلافية قد اثمرت فان كثيراً من الثبات كان ضرورياً . واذا أريـد الحصول على نتيجة دائمة وجب التخلي نهائياً عن اغراءات ايطاليا لتتركز فيما وراء الايلب جميـع القوى المادية والمعنوية التي تتصرف بها الامبراطورية. وعندما استلم الفتى اوتون ادارة الاعمال وجد أمام موقف حرج أكثر من أي وقت مضى وهو : هل ينبغي لالمانيا الواقعة بين ايطاليا والعالم السلافي أن توجه جهدها الاساسي إلى الشمال أو إلى الجنوب ، وهل ترد

حدود المسيحية الى الاودر والفيستول أو تشع السيطرة الجرمانية حتى صقلية ؟ ومن التناقض الفريد أن الساكسوني اوتون الثاني جذبه سراب المتوسط بينما الشرقية تيوفانو عادت إلى التقليد الساكسوني المحض واستأنفت النزاع ضد السلاف . لقد أختار اوتون الثالث طريقه بين هاتين السياستين اللتين رسمها الآباء له وتعلق باخطاء أبيه وبالغ فيها وجعلها مثالية .

حلم الامبراطور اوتون الثالث

٩٩٦ — ١٠٠٢

اوتون الثالث . — لقد حكم أوتون الثالث الشاب المانيا وايطاليا ست سنوات . وكان وجهاً يلفت النظر في تاريخ العصر الوسيط . ومن الصعب الكشف عن ملامح سيمائه المتقلبة المتحركة التي تلتقي فيها المتناقضات الغربية والمؤثرات المختلفة . وربما تساعد دراسة هذه المؤثرات المتتالية على معرفة هذه الشخصية اللينة المتغيرة التي لاتلبث على حال .

كان اوتون الثالث بن اوتون الثاني وتيوفانو . وقد ترك منذ طفولته إلى غرائزه وذوقه ، وأسلمته أمه لهواه خشية من أن تعاكسه فتخسر عطفاً تحرص عليه فوق كل شيء . ولذا حاولت ، أقل مايمكن ، أن تهذب هذه الروح الموهوبة ، ولكنها غير متزنة وكثيرة الاحلام وتائهة. ينتابها طوراً طوراً طموح غير معتدل فينطلق بها بعيداً إلى أجواء فوق طبيعيه تفقد فيها الشعور بحقائق الدنيا وخيرات هذا العالم . كان مثقفاً تفيض عروقه بالدم الشرقي . وأخذته الحضارة الملنية فأظهر احتقاراً حقيقياً للشدة الجرمانية ، ولكن هذا لم يمنعه من تقدير أساتذته وذكائهم

وطرق تعليمهم . كان مسيحياً وتربى على أيدي رجال كنيسته وتغذى ايمانه بمصادر صوفية حادةجداً فأصبح لايتراجع أمام أقسى الاماتات الجسدية . وظل طوال حياته متقلباً بين التطلع إلى النسك الشديد وغريزة السيطرة التي تؤدي به إلى الحلم بأمبراطورية واسعة تفوق امبراطورية شارلومان .

يضاف إلى ذلك أن المؤثرات التي تأثر بها ماكان منها إلا أن قوت عنده هـــذه التناقضات . لقد تأثر بالثقافة اللاتينية فطبعت فيه الاعجاب بالقديم وإرادة ارجاع الامبراطورية الرومانية وتسلسلها الوظيفي واحتفالاتها الفخمة وحضارتها المشرقة . وما وسعه إلا أن استسلم لكل هـــذا . فتارة تتفجر عنده الرغبة في احياء قسطنطين ، أو على الأقل شارلومان ، والسيطرة على العالم وبهره بالبذخ ؛ وتارة يستسلم لدافع معاكس فيكره البلاط ، ويهيم على وجهه في الطرق الكبرى نحو العزلة عارياً جائعاً متأثراً بآراء القديس ادالبير والقديس نيل .

وهذه التأثيرات المتباينة المتنوعة توضح تعقيد طبع اوتون الثالث . لقد كانت تسيطر عليه ارادة ثابتة لاتتزعزع في أن يكون « امبراطوراً مباركاً للعالم الروماني » . ونادى بنفسه « رومانياً ، ساكسونياً ، ايطالياً »، ولكنه روماني أكثر منه ساكسوني ويحلم قبل كل شيء بتثبيت مقامه في روما واقناع الرومانيين بأنه ، وان كان ابن الماني واغريقية ، أهل لان يكون مواطناً مثلهم ويشيد حول روما العاصمة امبراطورية عامة لايرى ولا شك حواشيها وأطرافها وحدودها إلا في الضباب البعيد . ولكن إذا بدا مفهومه هذا حلماً لم يدع الموت الغاشم له وقتاً لتحويله إلى حقيقة ووجود ، فقد ظل ثابتاً وأكيداً على نقيض مفهوم أبيه وجده اللذين حاولا بخاصة بسط شوكتها الالمانية دون الاهتمام بامتيازاتها الامبراطورية . لقد أراد اوتون الثالث أن يكون امبراطوراً وسيعمل ويقرر ويشرع امبراطوراً ، على شاكلة الامبراطور شارلومان الذي

بقيت ذكراه عالقة في ذهنه . وكانت هذه الامبراطورية أكثر من عامة أيضاً ، وستكون امبراطورية مسيحية تنمي حكم المسيح ، وسيكون للكنيسة فيها مكان ممتاز . ونظراً للتربية التي تلقاها اوتون الثالث والصداقات التي عقدها كان ايمانه حياً جداً ، وعبر عنه بأعماله العامة والخاصة . ففي بعض الاوقات كان يتغلب مزاجه الاستبدادي على دينه ويجعله يرتكب افراطاً يخالف الاخلاق الانجيلية ؛ وأحياناً أيضاً ، على اثر حديث مع استاذه القديس ادالبير أو القديس نيل ، كانت تخامره فكرة العزف عن العالم ليكون قديساً ويتخلى عن تاج بال ليحصل بالتأكيد على آخر ، تاج المصطفين الأخيار ، الذي يقاوم الزمان ويتحدى الموت . وسيقوم بين تذوق البذخ واندفاعات النسك نضال دائم محفوف بالقلق : فتارة يكون اوتون الثالث متغطرساً مستبداً طائشاً يفيض بالطموح ، وتارة يكون متواضعاً ، زاهداً ، نادماً ، متقشفاً ، كريماً هذه هي سيماء هذا العاهل الذي تتجمع فيه التناقضات وتتصادم ، وهذا حكمه الذي هو أشبه ما يكون بالخط المنكسر الذي يعطي طابعاً متناوباً بين صعود وهبوط ويعكس شخصيته .

حملة اوتون الثالث إلى ايطاليا (٩٩٦) . — وتحت تأثير استاذه جيربير كانت الفكرة الامبراطورية عنده غالبة وأخذت تتوكد بقوة . ففي شباط ٩٩٦ رأى اوتون الثالث أن الوقت قد حان للذهاب إلى روما والبحث عن التاج الذي ازدان به رأس أبيه وجده . وكانت المانيا هادئة بعد أن سكنت نأمة السلاف وضعفت اثر الحملات المتعاقبة . وفي ايطاليا كانت الاسقفية في صالح النظام الاوتوني . اما الارستقراطية الرومانية فوقفت متحفظة . وظل اوتون الثالث متفائلاً ، وفي الوقت

نفسه عازماً على كسر كل مقاومة . وكان حضوره في شبه الجزيرة كافياً لتوكيد الاحترام والخوف .

انتخاب غريغوار الخامس بابا . — بعد وفاة البابا جان الخامس عشر جاءه رسل الرومانيين يرجونه أن يعين لهم بابا رغم أنه لم يكن امبراطوراً بعد . وكانت هذه المناسبة فرصة للاعراب عن تنظيم سير العلاقات بين الكهنوت والامبراطورية . لقد كان أسلافه في الماضي يخصون أنفسهم بحق تسمية البابا ، ولكنهم ، بحياء له ما يبرره ، كانوا يختارون اكليركيا رومانياً أو اسقفاً ايطالياً . أما هو فقد رأى للسيطرة على روما والكنيسة أن يخول التاج البابوي الى الماني : وهو ابن عمه اوتون كارانثيا ، وكان اكليركي كنيسته ، وأصبح هذا بابا باسم غريغوار الخامس . ثم ذهب هذا البابا الجديد إلى روما وبورك دون أقل مقاومة في ٩ أيار ٩٩٦ .

تتويج اوتون الثالث . — وبعد أن عبر أوتون الثالث جبال الالب من شعب برنير وتقدم من بافيا نحو رافينه حكم على الكبار ممن سببوا خسائر للكنائس ، ثم اتجه صوب روما ، وفي ٢١ أيار ٩٩٦ توجه البابا غريغوار الخامس امبراطوراً حسب المراسم المعتادة . ولتوكيد سلطته نفى كريستانت ، وكان يخشى عداوته ، ولكنه عفا عنه بعد طلب البابا الذي حرص على الا يثير الارستقراطية ضده . وساد ، ولو ظاهراً ، الوفاق بين الامبراطور والبابا والرومانيين .

عودة اوتون الثالث إلى المانيا . — وبدا الأمن سائداً . وفي بداية حزيران ٩٩٦ غادر أوتون الثالث روما عائداً إلى المانيا بعد أن عادت الغارات السلافية . وحاول الامبراطور ردعها قبل أن تستفحل . ولم يكن له ذوق اسلافه في الحرب ، ولذا جنح إلى السلم واحترام استقلال

السلاف تحت سيادته في ظل الامبراطورية التي يترأسها .

ثورة روما ضد غريغوار الخامس . — وفي روما حاول البابا غريغوار الخامس أن يقوم بدوره بكل جد وشدة الجبلية ، وأراد إصلاح المفاسد بكل حماسة ، وأثارها حرباً على السيمونية وتوظيف المحاسيب والأقرباء . إلا أن هذه العودة إلى التقـــاليد المقدسة لم ترق في عين الارستقراطية . وبعد أن غادر أوتون الثالث ، أخذت تقاوم البابا حتى أضطر لترك مكانه وعاد كريستانت سيداً في روما ورأى أن يقيم على الكرسي البابوي جان فيلاغات ، وهو مرب قديم لاوتون الثالث ، تحت أسم جان السادس‌عشر . وتخلصت روما مرة أخرى من السيطرة الجرمانية ، ولكن لأمد قصير .

وعاد أوتون الثالث إلى روما بعد أن أمن جانب السلاف ، وأعاد البابا غريغوار الخامس إلى عرشه ، وقضى على المتمرد كريسانت وصحبه بفظاعة ، وعفى عن استاذه فيلاغات . ثم انتابته نوبة من النسك والصوفية فأخذ يتجول في انحاء ايطاليا ،ثم عاد إلى روما بعد أن نزل من سماء أحلامه ومارس وظائفه امبراطوراً .

وتوفي في هذه الاثناء البابا غريغوار الخامس في ١٨ شباط ٩٩٩ تاركاً ذكرى البابا المصلح ، الذي لايعرف في الحق لومة لائم ، ويحاول جهده الحفاظ على النظام الكنسي بكل شدة ، والضرب على أيدي الاساقفة المتمردين على توجيهات الكرسي الأقدس ، غير مبال بارتباطاتهم وعلاقاتهم . وحالت وفاته العاجلة دون تحقيق إصلاح الكنيسة كما يرجو .

البابا سيلفستر الثاني . — وسمى أوتون الثالث في هذه المرة مستشاره وصفيه جيربير مطران رافينة وبورك تحت اسم سيلفستر الثاني .

وهذا الاسم سيلفستر له مغزاه . فقـد كان البابا سيلفستر **الاول**

معاصراً للامبراطور قسطنطين عندما أعد تنظيم الامبراطورية المسيحية . وكان سيلفستر الثاني كسميه من أفضل أعوان السياسة الامبراطورية ، وهذا الوضع لم يجنبه الأخذ باتجاهات سلفه في إصلاح حكم الكنيسة . كان يشجع أهداف أوتون الثالث في الامبراطورية العامة ، ولكنه كان مقتنعاً ، في المضمار الروحي ، بأن لا حد للسلطة الحبرية ، وجهد في فرض احترامها على الكنائس .

وهذا المفهوم الذي كونه سيلفستر الثاني عن السلطة الرسولية لم يمنعه من أن يكون أميناً مخلصاً لاوتون الثالث ويمده باشعاع ذكائه . وبدا في فاتحة القرن الحادي عشر ان البابا والامبراطور ، حسب التعبير الاتباعي، مشعلا العالم .

واقد عبر هذا العمل المتواجد عن اتجاه جديد كل الجدة في حكم المسيحية. فعلى حدود الامبراطورية حاول اوتون الثالث وسيلفستر الثاني أن يضما إلى الامبراطورية الشعوب التي دانت بالمسيحية حديثاً مع تمتعها باستقلال ذاتي واسع عوضاً عن أن تفرض عليها وصاية المانيا السياسية والدينية . وطبقت سياسة الحكم الكنسي الذاتي في بوهيميا كما في بولونيا وهونغاريا .

ولقد أخذ على أوتون الثالث اضعافه الامبراطورية بهذه السياسة . وهذا الرأي لا يخلو من حقيقة ، لأن مفهوم الامبراطور ، المتأثر ولا شك بآراء سيلفستر الثاني ، لا يشبه في شيء مفهوم أسلافه . فقد ظل هؤلاء المانا قبل كل شيء واستخدموا المسيحية لبسط نفوذ عرقهم . أما أوتون الثالث فكان اغريقيا بأمه ورومانياً بتبنيه ، ولذا كان يحلم بامبراطورية مسيحية ، غير جرمانية ، عامة ، مركزها روما لا اكس — لا — شابل ، تضم بحرية جميع الشعوب التي اعتنقت قانون المسيح دون أن تضم إلى هذه

الدولة أو تلك من الدول الموجودة . ومن الممكن أن يتساءل عما يمكن أن تعطيه هذه الخطة العظيمة والمثالية نوعاً ، لو عاش أوتون الثالث بصورة كافية لتوسيعها . وإذا بدت انها قبل الأوان فقد كانت ، على الاقل ، تعبيراً لالهام كريم انحرف أكثر من مرة بتأثير مزاجه الاستبدادي .

وكانت روما في الخطة عاصمة هذه الامبراطورية العامة . ولذا اهتم اوتون الثالث قبل كل شيء بتوكيد سلطته فيها وجعلها مقراً له ابتداء من ٩٩٩ ، وفي بداية العام ١٠٠٠ اضطر إلى الذهاب إلى المانيا والاقامة فيها ستة أشهر بعد أن توفيت جدته الامبراطورة اديلاييد وعمته الأم ماتيلد ، ثم عاد إلى ايطاليا وأقام في روما وزعم أنه يحكم العالم .

كان اغريقياً ولذا أدخل إلى البلاط بعض تعاملات المراسم البيزنطية . كان يأكل وحده ، على مائدة منفصلة ، غير محفوف بالكبار ، كما كان يفعل أبوه وجده ؛ ويلبس رداء ذهبياً تقليداً للرداء الذي كان يلبسه أجداده لأمه ؛ وأخذ كبار الموظفين الالقاب الدارجة في القسطنطينية ، ويرى فيهم موظف المشجب ، وهو سيد المليشا الامبراطورية . وكان الامبراطور الشاب يتطلع إلى زواجه من أميرة اغريقية ، وقام خلال مرتين بمفاوضات لهذه الغاية : اولاً في عام ٩٩٦ بوساطة فيلاغات ، ثم في ١٠٠١ بوساطة مطران ميلانو ، آرنولف . وكل هذه العلائم تدل على قوة وراثة الأم ، ولكن الفكرة الرومانية أقوى ايضاً . ويرى تيتمار « ان الامبراطور أراد أن يجدد في عهده التعاملات الرومانية القديمة التي زال معظمها » . لقد كان الاوتونيان الاولان ملكي المانيا وايطاليا معاً ، ولكن لا يوجد بين هاتين المملكتين إلا اتحاد شخصي محض ، وكل منها تحافظ على ادارتها المتميزة . أما اوتون الثالث فاراد ، على العكس ،

صهرهما في بوتقة الوحدة الامبراطورية ، باعتباره امبراطوراً رومانيا مباركاً. وهكذا تحول التنظيم الاداري . ففي عهد اوتون الاول واوتون الثاني وجد ديوانان متميزان أحدهما في المانيا ، والآخر في ايطاليا ، ومثل ذلك في عهد وصاية تيوفانو . ولكن اوتون الثالث ، منذ تسلم السلطة ، قلب كل شيء . ومنذ رحلته الاولى الى ايطاليا أصبح الجهاز الأدنى في الديوان ايطالياً وينتقل من ايطاليا إلى المانيا أو بالعكس . وفي كل ذلك دليل ملموس على نزعة المركزية والوحدة الرومانية التي سادت في الحكم الامبراطوري .

وكانت هذه الامبراطورية امبراطورية مسيحية ايضاً . فقد أعلن أوتون الثالث أنه « عبد الحواري » ، واعتبر الكنيسة الرومانية أماً لجميع الكنائس على أن تبقى ملحقه وتابعة للامبراطور الحاكم ومدينة له بكل شيء . فلاهبة قسطنطين التي يطعن بها ، ولاهبة شارلومان بقادرتين على أن يكون لهما بعض القيمة ، بل القيمة لاوتون الثالث الذي برهن بكرم عظيم على اعترافه بالبابا ، استاذه القديم ، ومنحه ثماني كونتيات في المارش واكسرخوسية رافينه التي أعلن أنها تابعة له ، وربما كان في هذا الزعم في التفوق على الكرسي الاقدس بزور خلاف خنقها الموت وهي ما تزال في المهد .

ولولا هذا الزوال قبل الأوان لكان من المحتمل أن يصطدم حلم الامبراطور في ايطاليا نفسها بعقبات عنيفة ، لأن أوتون في عين الرومانيين رغم مساعيه ، يحمل عيب أصله الالماني ، ولا يستطيع ، بسبب الذكريات السيئة التي تركتها حوادث عام ٩٩٨ ، أن يكون شعبياً محبباً لدى الشعب . لقد أدت سياسته الدينية إلى تجريد الارستقراطية لصالح الكنيسة فسبب

بذلك استياء شديداً ، هذا فضلاً عن الاحقاد التي اشتد اوارها لدى الحزب المعادي للهيمنة الالمانية

وفي روما أخذت المعارضة شكل مهدداً . فقد قامت الثورة ضده وقتل عدد من الجنود الالمان وغدت الحالة خطرة على الامبراطور نفسه حتى اضطر إلى مغادرة روما سراً في ١٦ شباط ١٠٠١ ، وذهب إلى رافنه حيث خامره العطش إلى الاشياء الازلية ، ولم يفكر الا بالتوبة عوضاً عن معاقبة الرومانيين ، ثم عاد من جديد وغرته الحياة الدنيا فعاقب البينيفنتيين وكان له ما يشكو منهم .

ولم يستطع الدخول إلى روما ، وبعد جولة في الجنوب عاد إلى رافنه وفكر بالعودة إلى المانيا عندما وصلته منها أخبار مزعجة ، ومات فجأة في باتيرنو في أسفل جبل سقراط في ٢٤ كانون الثاني ١٠٠٢ ، في الوقت الذي جاء فيه مطران ماينس من باري مع الاميرة البيزنطية الشابة التي خطبت لتكون زوجاً له . ونقل جثمانه إلى مملكته في جرمانيا من سهل لومبارديا الصاخب باصوات الحقد .

ولم يترك أوتون الثالث وارثاً مباشراً ، فشغر التاج في ايطاليا وفي المانيا . فهل ستقاوم وحدة الامبراطورية ، وهي هدف أسمى لحكومة الامبراطور أوتون الثالث ، هذه المحنة ؟ وثم إلا يهدد عمل اوتون الكبير بالانهيار اثر زوال آخر سليل للأسرة الساكسونية !

حكم هنري الثاني

(١٠٠٢ — ١٠٢٤)

هنري الثامن . — كان خلف اوتون الثالث الأمير البافاري ، هنري . وهو آخر حفيــد للملك هنري الاول الصياد ، وابن دوق بافاريا هنري اللدود وجيزيل بنت ملك بورغونيا ، كونراد المحب للسلام . ولم يتسلم التاج الامبراطوري إلا في ١٠١٤ ، ولكنه ، باعتباره ملك جرمانيا ومن بعد ملك ايطاليا ، استعمل امتيازات أسلافه نفسها .

لقد تربى هنري الثاني تربية دينية في مدرسة هيلدسهايم ، وكانت تحركه العواطف الدينية التي تحرك اوتون الثالث . واذا رسم قديساً لقداسته الكبرى فان إيمانه لم يكن كايمان اوتون الثالث . كان ايمانه متزناً ، قاسياً ، وأقل صوفية ، وله تأثيره في حياته العامة والخاصة .

أما هو فـكان كريماً محسناً محباً للسلام كارها للحروب . ويجب أن يضاف إلى هذه الصفات البشاشة والشجاعة والقوة والصبر على البلاء وحب العدل وطيب المزاج وغيرها من هذه الخصال التي تحببه إلى الشعب . لقد كان هنري الثاني نموذج الامبراطور المسيحي الـكامل ، ولكنه امبراطور بقدر ما هو مسيحي ؛ وبالرغم من رغبته الصادقة في خدمة الكنيسة ، كان يعتبر نفسه ، ويرتبط في ذلك بالاوتونيين ، مقلداً حيالها بكهنوت اسمى ، وله الحق باداوتهـا في الزمني والروحي . ولكنه دل في كل ذلك على اعتدال حقيقي تجاهها . لقد كان بطبيعته متزناً راجحاً ونصيبه من الفطنة أكثر من الذكاء .

وفي الحقيقة ، كان البرنامج الامبراطوري يتحول تبعاً لمن يطبقه . لقد حلم اوتون الثالث بامبراطورية عامة ، أما نظرات هنري الثاني فكانت

متواضعة لأن كل ما يريده هو إقرار السلام وحماية الكنيسة في الداخل والخارج ورد الوثنية واعطاء الامبراطورية بسياسته وتشريعه طابعاً دينياً عميقاً . ولذا عزف عن المشاريع الكبرى والخيالية التي شغلت سلفه وجعل همه الاساسي الحفاظ على ايطاليا ووضع سد في وجه السلاف .

ومهما يكن هذا العمل معقولاً فهو يبدي صعوبات حقيقية نشأت عن الحالة المضطربة التي تركها اوتون الثالث إلى خلفه .

في المانيا ، كان على هنري الثاني أن يناضل لعدة سنوات معارضة قوية على الحدود في عالم السلاف لدى الاقوام الشرقية وفي بوهيميا وبولونيا . وفي ايطاليا ، أخذت الحوادث وضعاً حرجاً . فقد قام آردوَنْ ماركيز ايفريه وتوج ملكاً في بافيا . وفي روما مات البابا سيلفستر الثاني بعد اوتون الثالث بقليل وترك الكرسي الاقدس من جديد تحت رحمة الارستقراطية الرومانية . فمن ذلك أن الحامي جان كريسانت عين تباعاً البابا جان السابع عشر ثم البابا جان الثامن عشر وظلت الارستقراطية تتصرف بالتاج البابوي خلال نصف قرن .

وانقسمت المانيا واجتاحها الغزاة ، وتحررت ايطاليا من الهيمنة الجرمانية وبدا على هذا النحو أن عمل اوتون الكبير أوشك ان ينهار ، ولذا توجب على هنري الثاني ، وارث السلالة الساكسونية ، ان يحزم أمره ويعيد الاوضاع إلى ما كانت عليه .

بدأ هنري الثاني قبل كل شيء بتهدئة الحالة في مملكة جرمانيا . واضطر إلى الحرب في بولونيا رغم حبه للسلام . واسترعت ايطاليا اهتمامه ايضاً . وكلما هدأت الحالة على جهة الايلب ذهب إلى سهل البو والعكس بالعكس. ومنذ ان هدأت بولونيا بادر إلى روما للبحث عن التاج الامبراطوري الذي انتظره اكثر من عشر سنوات .

تتويج هنري الثاني امبراطوراً (١٦ شباط ١٠١٤) ٠ — وفي روما تم له ما أراد وتوج امبراطوراً في ١٦ شباط ١٠١٤ على يد البابا بندكت الثامن ، وعقد مجمعاً لانعلم عنه شيئاً إيجابياً .

وساعده الحظ بموت اردون في ١٤ كانون الأول ١٠١٤ وتوطد السلام في ايطاليا الشمالية .

ثم عاود النضال في بولونيا ودام هذا النضال من ٤ ١٠ إلى ١٠١٨ وانتهى بالصلح . ويبدو من خلال النصوص أن بولونيا لم تعترف بالسيادة الجرمانية . ولا شك في أن البلاد بين الايلب والاودر كانت مسيحية ولكن النفوذ الالماني فسح المجال فيها للنفوذ البولوني .

وكان لهذا الوضع صداه لدى السلاف ، فقد أوشكت المسيحية الكاثوليكية أن تزول أمام عودتهم إلى الوثنية وميلهم إلى الاستقلال ، حتى ان العمل الذي قام به اوتون الكبير كان على شفا جرف هار . وبدا أن الامبراطورية تنطوي على نفسها دون أي تعويض من جهة الغرب حيث لم يسجل هنري الثاني أي نجاح عندما هاجمه كونت فلاندر بودْوَنْ الرابع الألحى في فالانسيينْ . ولئلا يكون هنري قلقاً في نزاعه ضد بولونيا رأى من الخير أن يتخلى لهذا الأمير عن بعض الجزر في بحر الشمال .

ولم يكن هنري الثاني في مملكه بورغونيا بأسعد منه في الفلاندر ، وظل المستقبل أمامه غامضاً لايطمأن له .

وجذبته ايطاليا الجنوبية بسحرها كما جذبت أسلافه ولم يسعده الحظ مثلهم .

وهكذا اصطدمت سياسة هنري الثاني في الجنوب كما في الشمال

بعقبات كأداء ، ورغم أنه كان يحب السلام من كل قلبه ، إلا أنه اضطر إلى القيام بحروب مستمرة وغير مثمرة . ولم يستطع توطيد تفوقه على ايطاليا ، وظلت الملكية الجرمانية تمارس فيها سلطة نظرية أكثر منها فعلية . وتخلى لبولونيا عن الاراضي التي فتحها أسلافه في بلاد السلاف . ولكنه ، على الاقل ، حاول أن يدخل إلى امبراطوريته المتصاغرة حياة جديدة باشباعها بالمسيحية .

الامبراطورية المسيحية . — لقد أشرنا آنفاً أن هنري الثاني كانت لديه فكرة كهنوتية تماماً عن وظيفته . فقد كان يعتبر نفسه مقلداً بمهمة الدفاع عن الايمان ضد الاعداء في الداخل والخارج ، وملاحقة الهراطقة ، وهذا مافعله خاصة في ١٠١٢ عند دخول الكثريين (فرقة الالبيجوازيين الذين يعتقدون بوجود إله للخير وإله للشر وبالتناسخ) إلى المانيا ، وأكثر من ذلك السهر والحفاظ على قوانين المجامع لدى الاكليركيين والعلمانيين . وكان مشبعاً بغيرة المصلح، يحب رئاسة المجامع واسهامه الشخصي في المناقشات وفرض وجهة نظره ، ويمارس تدخله لصالح الدين الحنيف كعقد الزواج بين أقرباء من الدرجة الثالثة ، أو قضايا الطقوس مثل تثبيت وقفة (بيرمون) العيد ، أو بدء الصيام ، ويشعر بواجبه في رفع المستوى الاخلاقي للاكليروس .

وأهتم الامبراطور بالأبويات . فالحياة الرهبانية ، التي تفرض التخلي عن الأموال الأرضية وتأمل الأشياء الأزلية ، ظهرت لهذا الأمير ، المتعلق بالكمال النفسي ، شكلاً نقياً للتخلي المسيحي ، واعتبر انتشارها في الامبراطورية أهلاً لخلق الجو الديني الذي يرجوه. وشجع هنري الثانيدخول الاصلاح الكلوني إلى المانيا ، ولكنه فضل الاصلاح الداخلي الذاتي الذي قام به بوبون ستافيلوت تلميذ ريشار سان — فان . وكان بوبون هذا أقل صرامة من

استاذه الذي بدا مستقلاً جداً حيال السلطات الزمنيـــة ، وتقبل من يدي هنري الثاني منصب أبوية دير ستافيلوت ـ ماليدي ، وانحاز إلى العاهل الحريص على أن تكون له اليد العليا على الاديرة ، وبدعمه نجح في مسعاه في تطهير الاكليروس النظامي . ودخل هذا الاصلاح في نطاق الاصلاح الامبراطوري كما تصوره هنري الثاني .

وحلم هنري الثاني بعض الوقت في تعميم هذا الاصلاح على الغرب كله . وعندما فاجأه الموت اقترح أن يعقد ، باتفاق مع روبير التقي ، مجمعاً كبيراً يضم الاساقفة الالمان والايطاليين والفرنسيين للتنسيق بين الاتجاهات الدينية الخاصة وتأمين السمو الخلقي للاكليروس الذي تعلق به قلب الامبراطور ، ولكن وفاته اجهضت هذا المشروع .

القيصرية البابوية الامبراطورية في عهد هنري الثاني . — وهذه الغيرة المصلحة التي لاسبيل إلى نكرانها لم تمنع هنري الثاني من البقاء أميناً على التقليد القيصري البابوي لأسلافه . لقد كان يعتبر نفسه مقلداً في الكنيسة بسلطة عليا في التوجيه والتقويم . وجعل يسمي الأساقفة ويعارض كل المحاولات التي ارتسمت خاصة في ماغدبورغ وتريف لارجاع حرية الانتخابات ؛ وفعل مثل ذلك تجاه الأديرة وأراد أن يكون لها سيداً مطلقاً . ولم يتردد أيضاً في خلع الاحبار الذين يشك في اخلاصهم السياسي ، أو الآباء الذين انتخبهم اخوتهم ولا يبدون له ضمانات ضرورية ، وأكد سلطته السامية على الكنيسة بتدخلات دائمة في المضمار الروحي ، ووضع نفسه بدلاً عن السلطة الكنسية في كثير من الظروف ، ولعب أيضاً دور الحكم في المنازعات التقليدية بين الاسقفية والرهبان الذين ينزعون إلى التخلص من ادارة الاسقف المحلي ، وحافظ بشدة على

حق زيارة الاساقفة الذين تعاون معهم في اصلاح الابويات مثل فيليجيز ماينس ، تاجينون ماغدبورغ ، ادالبيرون بال ، جيبار راتسبون ، وغيرهم ممن عملوا بنجاح على توطيد النظام بعد أن ناهضه بعض الآباء ممن حولتهم ثروتهم الأرضية إلى امراء زمنيين .

هنري الثاني والبابوية . — وتأكدت القيصرية البابوية أيضاً في علاقات هنري الثاني مع الكرسي الأقدس ، حتى رد البابا ، في ظل الاوتونيين ، إلى دور نائب متواضع للامبراطور . وقد لوحظ ذلك أثناء المجمع الذي عقد في روما غداة السويج . فقد كان هنري يدير المناقشات وينشر القرارات ويظهر أنه الرئيس الأعلى للكنيسة . وفي العام ١٠٢٠ دعي البابا بندكت الثامن إلى المانيا كأسقف بسيط . ورغم ما أحيط به من اجلال وتقدير لم يستطع أن يعبر عن ارادة تخالف ارادة الامبراطور .

ولا غرابة إذا تراخت الأواصر التي تربط روما بالكنائس المحلية ، لأن السلطة الامبراطورية حلت محل سلطة الكرسي الأقدس ، وفقد الأحبار الاعلون معنى التسلسل الكاثوليكي أيضاً .

أثر هنري الثاني . — لقد كانت السلطة الرومانية في عهد هنري الثاني اسمية صرفاً بعد أن استلم الامبراطور زمام المبادرة في كل شيء . وإذا راعى الامبراطور في حياته الخاصة تعاليم الاخلاق الانجيلية وبرهن حيال الكنيسة على بعض التنازلات ولم يتسامح بأي اعتداء على القانون الديني ، فلم يقبل بتفوق السلطة الروحية أو استقلالها والحقها بسلطته . وأثره الاصلاحي في مثل هذه الظروف لايمكن أن يكون قطعياً ، لأن أي تغيير بسيط في الحكم يضعه من جديد موضع بحث ، وستبرهن الاتجاهات المعارضة لخلف هنري الثاني ، كونراد الثاني ، صراحة بأن هذا الاثر غير قابل للحياة .

ومات هنري الثاني في ١٣ تموز ١٠٢٤ دون أن يترك وارثاً مباشراً . وانتقل التاج ، بعد انتخاب ابن عمه الذي حكم باسم كونراد الثاني ، من البيت الساكسوني إلى البيت الفرنكوني .

اوائل الاباطرة الفرنكونيين

١٠٢٤ — ١٠٥٦

كونراد الثاني . — لم يكن كونراد الثاني ليشبه سلفه . كان جندياً لايعرف من أعمال الفكر إلا ماهو ضروري للحفلات الدينية ، وشجاعاً جلداً ، وعلى استعداد لبذل شخصه . يحب العسكرية ويرى في الحرب خير وسيلة لفرض احترام الارادة الامبراطورية . وكان حاد الطبع ، عنيفاً ، فظاً ، يرفض كل معاكسة أو مقاومة ، ومقتنعاً بأن لاحد لممارسة سلطته ، ولا يقبل برقابة الكنيسة ورقابة العلمانيين ، ولا يهتم بمراعاة القانون الكنسي إلا قليلا تزوج في العام ١٠١٦ ابنة عمه ، جيزيل سؤاب ، وهي قريبة من درجة محرمة ، وابقاها إلى جانبه ، رغم تحذير بعض رجال الدين ، ولم يعبأ بقوانين الكنيسة وكهانها ، وأخذ يبيع الاسقفيات ويعتبرها ملكاً تابعاً للتاج خاصة . وهذا المزاج الاستبدادي لم ينضب عنده مصادر الذكاء : فقد كان فكراً قوياً ، خصباً بالموارد ، واضح النظر ، عائقاً ، مرناً في اختيار الوسائل . وهذا ما ساعد كونراد الثاني على أن يكون سياسياً طيباً ومحارباً باسلاً مقداماً وعلى يده دخلت السياسة الامبراطورية في دور التحقيق .

وفي الحقيقة ، ان كونراد الثاني عاد إلى تقاليد اوتون الكبير ، ولم

يعد مجال للكلام عن امبراطورية عامـــة ولا امبراطورية مسيحية بل امبراطورية جرمانية . لقد سيطر اوتون الثالث وهنري الثاني على الكنيسة، ولكنها كانا يشعران حيالها بالعطف والاحترام وحاول كل منهما بحسبه أن يأخـذ بيدها ويشجع جهدها . وكان التبشير والاصلاح في اطـار الحـكم المطلق الامبراطوري همهما الاول . أما كونراد الثاني فقد حاول بكل بساطة أن يوسع المانيا ويسيطر عليها بالحاق جميـع السلطات العلمانيـة والكنسية بالامبراطور . وليست الفكرة الامبراطورية والفكرة المسيحية عنده إلا بقايا من الماضي . لقد كان المانيا قبل كل شيء ، ويريد بالفتح توسيـع مملكته في الشرق والغرب والجنوب . ولا يهم الاصلاح الكنسي هذا الأمـير السيموني الذي يشبه الأموال الكنسية بالاقطاعات ويرى في القائمين عليها اتباعاً . وليست الكنيسـة في نظره إلا واسطة أو قوة يحسن استخدامها لتحقيق السياسة الامبراطورية .

قضى كونراد الثـاني الأشهر الاولى من حكمه في تقوية الوضـع الداخلي واستقراره لاسيا وان التاج لم يستطع في العام ١٠٢٤ الانتقال بالوراثة وتوطيد الهدوء بسرعة . وبفضل السلام المدني استطاع كونراد أن ينصرف بكليته لقضايا السياسة الخارجية .

وساعدته الظروف : فقد مات بوليسلاس شروبي في بولونيا في ١٧ حزيران ١٠٢٥ بعد أن زين رأسه في بداية العام ١٠٢٥ بالتاج الملـكي هدف أحلامه ، وترك خلفاً له ابنه ميسكو الثاني بعد أن سماه ليكون ملكاً بعده ، ولكن هـذا الاختيار لم يرض الشعب عنه بالاجماع . واضطر الملك الجديد إلى قتال انصار أخيه . وبذلك زال الخطر البولوني عن المانيا ، واستطاع كونراد في الوقت نفسه أن يبرم بمهـارة معاهدة حسن جوار مع ملك الدانيمارك ، كنوت الكبير ، قريب بوليسلاس .

ولما اطمأن من جهة الشمال ولى وجهه شطر الجنوب حيث سلكت الحوادث مسلكاً قلقاً .

لقد ايقظ موت هنري الثاني مقاومة ايطاليا ، ولم يكن الحكم الألماني شعبياً في شبه الجزيرة . وظل الاكليروس وحده ، بما أنعم عليه اوتون الثالث وهنري الثاني ، موالياً للامبراطورية ، ولكن الارستقراطية العلمانية لم تقبل إلا بطاعة ظاهرة وموقتة . أما شعب المدن فكان معادياً صراحة ومن الممكن ملاحظة ذلك بالحال . فما أن اذيع نبأ وفاة هنري الثاني في بافيا إلا وثار السكان وخربوا القصر الملكي ، وحاول بعضهم البحث عن مليك وقدموا التاج تباعاً إلى ملك فرنسا روبير التقي ، ودوق اكيتانيا غليوم الخامس ، ولكنهما لم يستسلما لهذا الاغراء . وهكذا وجدت الارض ممهدة تحت أقدام الملك الفرنكوني ، فبادر بقطع دابر القلاقل وذهب بنفسه مطالباً بحقوقه .

كونراد الثاني في ايطاليا . — غادر كونراد الثاني المانيا إلى ايطاليا . وتوج في ٢٣ آذار في ميلانو ليبرهن بهذا التغيير للتعاملات التقليدية عن شعوره حيال سكان بافيا ، ثم اجتاح الريف المحيط بها واتجه نحو الجنوب الشرقي صوب رافينه ، حيث قامت بين السكان والجنود اشتباكات دامية أخمدت بتدابير قامعة فظة ، وتابع زحفه على روما ، وكان على ابوابها في ٢١ آذار ١٠٢٧ .

استقبله البابا جان التاسع عشر ، وفي ٢٦ آذار ١٠٢٧ توجه امبراطوراً بحضور ملك بورغونيا رودولف الثالث وكنوت ملك الدانيمارك ، ووضع التاج على رأس الملكة جيزيل على الرغم من أن الزواج الملكي كان محرماً قانوناً . ولكن البابا ليس له مايجعله يعترض عليه ، لأن انتخابه نفسه كان غير قانوني . ألم يتجاوز الرتب الكنسية كلها في يوم واحد ليكون بابا !

ودل البابا على ضعف خبرته وعدم اهتمامه . فقد انعقد مجمع في لاتران في ٦ نيسان ونوقشت فيه قضايا عديدة وحلها الامبراطور بشكل يتفق ومصالحه السياسية أكثر من القواعد القانونية . ونال الكرسي الوسولي من الخزي ما ناله في هذا المجمع ، ونجح كونراد في فرض سلطة القيصرية البابوية ، ونظم كل شيء حسب هواه . وبدأت ترتسم خلال هذه الاقامة سياسة جديدة . لقد اعتمد هنري الثاني ، كما رأينا ، على الاكليروس الأعلى خاصة ، أما كونراد الثاني فلم يتخل عن هذه المساعدة العظيمة القيمة ، ولكنه تعلق أيضاً بمصالحة الملكية الألمانية مع الارستقراطية العلمانية التي تحسد الكنيسة وتطمع بأملاكها الغنية . وأراد أن يمسك بميزان المساواة بين هاتين القوتين اللتين تتجاذبان ايطاليا ، فلقي هذا التدبير منه صدى في نفوس الأمراء . وحاول أيضاً أن يزيل الانطباع السيء الذي تركته الجنود الألمانية عند الجماهير بعد العنف الذي ارتكبته . وبرهن بذلك على أن السلطة الامبراطورية تضمن السلام والنظام . وبدت الهيمنة الالمانية في ايطاليا أقوى منها في أي وقت مضى . وأصبح بامكان كونراد الثاني أن يغادر ايطاليا مطمئناً قرير العين . وكان الوضع في بولونيا يستدعي عودته ، لأن ميسكو الثاني كان يغذي كابيه نفس العواطف تجاه المانيا . فجهز عليه حملة ، وحاول ميسكو الثاني المقاومة لولا أنه خشي هجوماً روسياً من خلفه يتفق مع هجوم الألمان . ولذا فضل الاستسلام . فعفا عنه الامبراطور واعترف له بجزء من بولونيا .

وتم لكونراد في بوهيميا ما أراده في بولونيا وأصبحت تابعة لألمانيا التي أصبحت سيدة الدول الواقعة على حدودها الشرقية .

وفي الشمال أيضاً ، تحررت الشعوب السلافية بعض الوقت من الوصاية الجرمانية ثم اضطرت للخضوع من جديد .

وأراد كونراد الثاني أن يمد بسيادته الالمانية على هونغاريا ولكنه ، في هذه الجهة ، مني باخفاق كامل ، وحافظت مملكة المجر على استقلالها .

وبفضل الأمن الذي تم على الحدود الشرقية استطاع كونراد الثاني في آخر حكمه أن يحقق في الغرب كسباً هاماً وهو كسب مملكة بورغونيا بسبب صلات زوجته جيزيل التي كانت حفيدة كونراد المحب للسلام . وفي ١٠٣٨ تم هذا الكسب نهائياً وأعطى كونراد الثاني مملكة بورغونيا لابنه هنري واشركه بالسلطة في حياته ،ودل بذلك على من سيكون خلفاً له ، وأقسم الحضور اليمين . وعندما توفي كونراد الثاني في ١٠٣٩ انتقلت السلطة إلى الابن دون أقل صعوبة .

لقد كان ضم بورغونيا أكبر حادث في عهد كونراد الثاني . فقد توسعت بهذا الضم رقعة الامبراطورية ، لأن قسماً من سويسرا الحالية مع بلاد نهري الصون والرون وبعض الاراضي الواقعة على الضفة اليمنى لهذين النهرين دخلت في الامبراطورية .

ولكن الاوضاع في ايطاليا كانت قلقة ولا سيما في المدن اللومباردية . لقد عرفت مدن سهل البو في آخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر ، بفضل نهضة الحياة الاقتصادية ، دوراً من الرفـــاه والخصب ، وغنيت بتجارة الأقمشة والحبوب ، وتشكلت على هذا النحو طبقة تجار ثرية تكره سيطرة الاسقفية والامراء العلمانيين وتنزع إلى الاستقلال . وظهرت هذه النزعة أيضاً عند الطبقة الاقطاعية الدنيا بحقدها على الاقطاعية العليا كنسية أو علمانية . وفي ١٠٣٥ — ١٠٣٦ قامت ثورة المدن اللومباردية على الاكليروس الأعلى والارستقراطية العليا . وتركت هذه الثورة آثارها في المانيا . وانحدر كونراد الثاني إلى ايطاليا وحاول أن يلعب دور الحكم بين الاطراف المتنــازعة . ثم عاد إلى المانيـا

وتنازعته الأحزان : مات صهره ، هرمان سؤاب ، وكنته كونيغوند ، زوجة هنري الثالث . ومرض بدوره في ربيع ١٠٣٩ ومات في ٤ حزيران في اوترخت .

اثر كونراد الثاني . — يتصف حكم كونراد الثاني بعودة ظاهرة جداً إلى تقاليد اوتون الكبير ، والحصول على مكاسب أرضية : في الشرق، ارجعت الاراضي التي تنازل عنها هنري الثاني ؛ وفي الغرب ، ضمت مملكة بورغونيا . وامتدت الامبراطورية من الاودر إلى الرون والصون . غير ان السنتين الاخيرتين من حكمه كانتا مشؤومتين وأضعفت الأزمة الايطالية في ١٠٣٧ — ١٠٣٨ الوضع بعد أن كان قوياً غداة انتصاره على السلاف وضم بورغونيا . غير أن كونراد الثاني ، بعنفه على الاحبار واحتقاره القانون الكنسي، فصل عنه الكنيسة وخلق من هذه الجهة معارضة، وسيكون لهذه المعارضة صداها على الامبراطورية بعد عشرين عاماً .

المعارضة الكنسية . — كان كونراد الثاني يعتبر الاساقفة تابعين له ، ولا يتوانى عن الاعتداء على القوانين الكنسية أو فرض عقوبات دينية رغم أنه لا يملك هذه الصفة . وسبب هذا السلوك الجريء استياءً ، وهذا الاستياء يوضح، اكثر من السيمونية، كراهية الكنيسة للنظام . ولا شك في ان محاولات المعارضة ما زالت خجلى بعد ، ولكن بعض القرائن تدل على تحول الافكار .

ورأى هنري الثالث الخطر فحاول أن يتداركه بالعودة إلى تقاليد هنري الثاني ، ولكن حكمه المصلح لم يستطع التخلص من العادة المتأصلة ، القيصرية البابوية ، غير أنه كفر عنها برفعه إلى السدة الرسولية رجالاً يمتازون بفضائلهم العالية ، وجمع حوله الأفكار والافئدة رغم تصرفاته الاستبدادية وعدم احترامه للقوانين الكنسية

هنري الثالث . — خلف هنري الثالث اباه كونراد الثاني ، في بدء حزيران ١٠٣٩ ، وله من العمر اثنان وعشرون عاماً . ربته أمه جيزيل على يد الاساقفة فنشأ أكثر ثقافة وديناً من أبيه ، ولكنه ورث عنه غرائزه وحبه للسيطرة . وهو يشبه هنري الثاني باعتداله وكرهه السيمونية وغيرته المصلحة التي نال بها عطف الكنيسة . بيد أنه كان ، كهنري الثاني ، يريد البقاء سيداً مطلقاً على الاسقفيات بما فيها اسقفية روما ويخلع صاحبها ويعينه كما يشاء ، ولا يمكنه أن يتصور كنيسة دون أن يكون رئيساً عليها ، وافكاره عن الوظيفة الامبراطورية سامية ويمتاز بهذا عن سلفيه المباشرين .

وكان أول اهتمام العاهل الجديد أن يأتي بحل للقضية الميلانية ، لأن الموقف الذي اتخذه ابوه حيالها صدم عواطفه الشخصية ولم يجرأ على اعلان استيائه . واراد أن يبرهن على احترامه لقوانين الكنيسة ، ولذا حل الجيش الذي كان معداً في عهد ابيه كونراد الثاني ضد المطران آريبير ، وما وسع هذا المطران امام هذا العمل إلا ان جاء إلى المانيا وقدم خضوعه (١٠٤٠) واقسم يمين الولاء لهنري الثالث وتقبل منه العفو واسترجع منصبه وعادت السكينة إلى ايطاليا واصبح بامكان الملك ان يوجه انتباهه الى الحدود الشرقية وظل منهمكاً بقضايا السلاف والهونغاريين خلال سبع سنين الى ان تم له ما اراد واعلنوا خضوعهم . كما قوي وضعه في بورغونيا ولم تسبب له قلقاً .

زواج هنري الثالث (تشرين الثاني ١٠٤٣) . — لقد فقد هنري الثالث زوجته الاولى الاميرة كونيغوند الدانماركية في آخر ايام ابيه كونراد الثاني واستطاع بزواجه الثاني من آنيس ، ابنة دوق اكيتانيا

غليوم الخامس ، في تشرين الثاني ١٠٤٣ ، أن يشد الاواصر التي تربطه بمملكته الأخيرة لأن الملكة الشابة ، من جهة أمها ، التي تسمى آنيس أيضاً ، كانت حفيدة أوت — غليوم ، كونت بورغونيا .

القضية الايطالية . — وبعد أن أمن هنري الثالث جانب الشرق والغرب أصبح بامكانه أن يفكر بالنزول إلى ايطاليا لاسيما وان الوضع فيها كان يحمله على الاسراع دون ابطاء . ففي **لومبارديا** قامت الحرب الأهلية بين النبلاء واتباعهم . وفي **روما** ثار الشعب على البابا بندكت التاسع وأقام محله ، في ٢٢ شباط ١٠٤٤ ، سيلفستر الثالث . وبعد بضعة أسابيع امحى هذا البابا أمام منافسه ، وبعد قليل مل هذا الأخير الحبرية وتنازل عن البابوية في ١ أيار ١٠٤٥ لصالح جان غراسيان الذي أخذ اسم غريغوار السادس .

وايطاليا الجنوبية ايضاً ، عرفت دوراً مليئاً بالاضطراب . وبفضل المنافسات القائمة بين الأمراء أخذ النورمانديون المقيمون في افيرسا منذ عهد دوق نابولي سيرج الرابع يتسللون تدريجياً في البلاد .

في سنة ١٠١٦ حاصر المسلمون سالرنو فانجدها بعض فرسان نورمانديين عائدين من الأرض المقدسة بعد الحج ، وكان عددهم اربعين فارسا ، واستطاعوا أن ينقذوا المدينة . وعندما عادوا إلى نورمانديا قصوا مغامراتهم على اخوانهم وحضوهم على الذهاب إلى جنوب ايطاليا . ثم كثر عدد المغامرين وأخذوا يقدمون عونهم وينخرطون في الجيوش كجنود مرتزقة ، ثم انقلبوا إلى فاتحين وأسسوا لانفسهم جاليات ومستعمرات .

وفي العام ١٠٤٢ أخذ زعيمهم رينولف مدينة غايت من أمير سالرنو ، غيار الخامس . وتجمع حوله مغامرون خفاف ذو اقدام ودون ضمير نذكر منهم ولدي تانكريد ، صاحب هوتفيل ، وهما غليوم زند الحديد .

و درو . وتدخل هؤلاء في النزاع بين الاغريق واللومباردي آردُوَنُواستطاعوا أن يكونوا سادة بوي الغربية ، حتى أن سلطة البازيلوس اقتصرت على شاطيء آبوليا وكالابر وتارَنْتْ وارض اوترانت . ولكن الوضع لم يكن مؤنساً لبيزنطة بسبب الانقسامات الموجودة في المعسكر الآخر . وإذا تفاهم غيار الخامس مع هذين النورمانديين وأصبح أحدهما ، درو ، صهره ، زوج ابنته ، فقد ساء التفاهم بينه وبين النورمانديين في آفيرسا . وبالاجمال كانت ايطاليا تتخبط في الفوضى وبـــدا الوقت مناسباً للتدخل الجرماني .

هنري الثالث والكرسي الاقدس . — في خريف ١٠٤٦ عبر هنري الثالث الالب وكان حضوره في لومبارديا كافياً لاعـادة السلام . وفي بليزانس التقى بالبابا غريغوار السادس ورجاه أن يدعو إلى مجمع يعقدفي سوتري، وفي هذا المجمع خلع الحبر الروماني دون أن يرفع ضده أي اعتراض (٢٠ كانون الأول ١٠٤٦) . وفي الوقت نفسه حكم ضد البابا الزور سيلفستر الثالث . وفي مجمع آخر عقد في روما ، في ٢٤ كانون الأول ، اتخذ المؤيد نفسه حيال بندكت التاسع الذي قد يكون ارجاعه مفروضاً اذا اعتبر غريغوار السادس غير شرعي . وبعـــد ذلك ، ودون أن يشاور أحداً احل محل البابوات الثلاثة المخلوعين صديقه أسقف بامبرغ ، سويدغر ، ووافق عليه الاكليروس والشعب وبورك يوم عيد الميلاد باسم كليمان الثاني . ولم تؤيد القيصرية البـابوية في أي وقت مضى كما أيدت بمثل هذا الشكل الفظ . لقد قلب هنري الثالث ، الذي ينعت بالمصلح ، التقاليد القانونية كلها ، وتجرأ أكثر من أبيه السيموني الطاغية وشد وثاق الكنيسة الرومانية التي هو بحاجة اليها لكسر آخر المقاومات الايطاليـة وفرض حكمه الاستبدادي المطلق في كل مكان . وفي الحقيقة كان البابا

الألماني غير قادر على معاكسة ارادته القوية وكسر العبودية التي اذل بها الكرسي الرسولي .

تتويج هنري الثالث امبراطوراً (٢٥ كانون الاول ١٠٤٦) . — ودل كليمان الثاني على خضوعه يوم مباركته ووضع التاج على رأس هنري الثالث وزوجته ، آنيس ، وأخذ الامبراطور لقب حامي الرومانيين الذي يجعل منه سيد المدينة الخالدة والانتخابات الحبرية . وبعد ذلك واصل زحفه نحو الجنوب لانهاء ايطاليا ووضعها تحت رحمته .

وكان هم هنري الثالث أن يستعيد كابو ، حيث استقر غيمار سالرنو ، ويردها إلى أميرها باندولف لتوطيد التوازن . ثم قرر بان يلحق الاميرين النورمانديين مباشرة به ، فقلد **درو** كونتية بوي و**دينولف** كونتية آفيرسا .

ولا تخلو هذه السياسة من مهارة : فهي تحول دون تشكيل سلطة قوية في ايطاليا الجنوبية . وكان هنري الثالث يأمل في الحفاظ على الانقسام والتجزئة ليبسط أخيراً سيطرته الجرمانية حتى اقصى ايطاليا . ولكنه اخفق أمام بينيفن بعد أن رفضت أن تفتح له الابواب ، وكان هذا الاخفاق كافياً للدلالة على أن الوصول إلى الاهداف الكبرى للسياسة الامبراطورية،منذ اوتون الكبير ، بحاجة إلى كثير من الثبات والمثابرة. ولكن هنري الثالث اضطر للعودة إلى المانيا لأمور هامة وتخلى عن حصار المدينة وسيكون لهذه العودة المفاجئة اثر على جاهه .

الامبراطورية المسيحية في ١٠٤٦ . — لا شك ان تتويج هنري الثالث امبراطوراً يسجل نقطة القمة في الطريق المقطوعة منذ ٩٦٢ ، لأن برنامج اوتون الكبير بدا على وشك التحقيق، ولم تكن الامبراطورية في أي وقت مضى باوسع مما هي عليه الآن : لقد بلغت الادور من جهة، والرون والصون من جهة أخرى ، وتقدمت على طول الدانوب وفي جنوب

روما . وحكم هنري الثالث ثلاث ممالك : جرمانيا ، بورغونيا ، ايطاليا، واعترف السلاف والهونغاريون بسيادته والولاء له ، وخضعت الكنيسة نفسها لسلطة الامبراطور فأمسك بادارتها الروحية والزمنية في البلاد المسيحية ، باستثناء بلاد الغرب التي نجت من نفوذه . ولكن أسباب الضعف كانت تختفي تحت هذه الظواهر : ان امتداد الامبراطورية ، ونقص التلاحم والتمثل غير التام للأجناس المختلفة ، تؤلف جميعاً قوى انحلال . ولمنع عملها كان يتوجب وجود جيش قوي وموارد كافية . ولكن الملك لا يستطيع أن يعتمد إلا على الجنود الاقطاعيين وعلى موارد ملكه . ومن جهة ثانية ، إذا ساعدت القيصرية البابوية على تشكيل السلطة الامبراطورية فقد هيأت أفولها : لقد ذهب كونراد الثاني وهنري الثالث بعيداً في الطريق التي سلكها الاوتونيون ، فأثارا رد الفعل الكنسي ، ومنه خرج تحرير الكنيسة الرومانية ، وافتتحت ازمة ، بعد وفاة هنري الثالث ، ظهرت بوادرها الاولى في آخر حكمه .

رد الفعل . — لقد كان لهذه السياسة صداها في هونغاريا وبلاد السلاف وايطاليا والكنيسة .

حاولت **هونغاريا** زحزحة النير الامبراطوري فوجه اليها الامبراطور حملة باءت بالخيبة . ونجا الهونغاريون من السيادة الجرمانية وبدأوا في العام ١٠٥٤ بهجومهم وفتكوا بكارنثيا .

وظهرت التطلعات الى الاستقلال في **بوهيميا** وطرد الألمان من البلاد ، وهذا يدل بوضوح على سلوك سياسة جديدة . وحال موت هنري الثالث دون تدخله ، ولم يستطع الأمراء الساكسونيون رد السلاف الغزاة . وهكذا أصبح أثر اوتون الكبير ، مع ما يكمله من عمل اوائل الفرنكونيين ، موضع بحث وتساؤل .

وكذا الحال في ايطاليا ، فقد انتهى تتويج هنري الثالث، عام ١٠٤٦ ، بانكد الايام .

إن مقتل بونيفاس طوسكانا (٦ أيار ١٠٥٢) حرم الامبراطورية من افضل خدامها . ولم يترك الامير الراحل الا اولاداً قاصرين . وبادرت أرملته بياتريكس ، التي تملك اموالاً في اللورين ، الى المطالبة بركيزة طوسكانا فلم يهتم هنري بارضائها ونشأ عن ذلك فتور محسوس في العلاقات وسيزداد في اليوم الذي تتزوج فيه بياتريكس ، دون علم الامبراطور ، دوق اللورين ، غودفروا ، رأس المعارضة الالمانية في ١٠٥٤ .

وكانت ايطاليا الجنوبية أيضاً موضع قلق . فقد أقبل عليها النورمانديون باعداد ضخمة . وبعد ذهاب هنري الثالث دخل المسرح أصغر أبناء تانكريد ، **روبير غيسكار** ، وانخرط في خدمـــة باندولف الثالث ، و**ريشار** ، الذي انتخبه سكان افيرسا كونتاً بعد وفاة رينولف (١٠٤٧) . وكلا الاثنين محاربان باسلان واختصاصيان في النهب وأعمال الشقاوة ، ومكرهما مضرب الأمثال ويتفق واحتقار كل ما هو ولاء أو اخلاص أو ضمير . فالقتل والسرقة في نظرهما توافه وترهات لا أهمية لها ، وكل الوسائط صالحة لكسب الأراضي مها كانت الخسارة التي يمكن أن تنجم عنه للقريب العلماني أو الكنسي العصري أو النظامي ، وعليه يقع واجب اغنائها بأوسع ما يمكن . ولقد ولد تطبيق هذه المبادىء ارهاباً ملائماً لنجاح مشاريعها . فمنذ ١٠٤٨ انتزع نورمانديو بويْ ترويا ، وتوغل روبير غيسكار في اقليم كالابر وأراد متابعة الفتح ليطرد الاغريق طرداً كاملاً . وكان الوقت مناسباً : فقد ضاق صدر حكومة القسطنطينية بمشاغل الشرق ، ولم تستطع ارسال جنود إلى ايطاليا . وربما كانت تخشى ما هو اكثر من ذلك من جهة الشمال حيث كان البابوات الالمان :

كليمان الثاني (١٠٤٦ — ١٠٤٧) ، داماس الثاني (١٠٤٧ — ١٠٤٨) ليون التاسع (١٠٤٨ — ١٠٥٤) يعملون بقوة لانقاذ مصالح وطنهم . لقد حاول ليون التاسع خاصةً أن يجمع حوله ضحايا النهب النورماندي وتقبل تظلمات البينيفنتيين المستقلين المنعزلين الذين بدأوا يندمون على موقفهم حال الامبراطور عام ١٠٤٧ . وباتفاق مع هنري الثالث ، عندما ذهب الى المانيا في العام (١٠٤٩ و ١٠٥٠) ، ارسل الكاردينال همبرت لحيازة المدينة باسم الكرسي الاقدس (١٠٥١) . وحاول من بعد أن يعتمد على الأمراء الصغار المهددين قليلًا أو كثيراً ، ولكنه شعر بخيبة أمل ، وخاصة في سالرنو حيث اعترف النورمانديون بجيزولف ، خلف غيمار الخامس القتيل عام ١٠٥٢ ، سيداً . وبالتالي اضطر أن يدعمهم ضد أعدائهم . وعندئذ تقرب من الاغريق وحاول معهم في ١٠٥٣ القيام بهجوم ، وفي الوقت الذي ذهب فيه لاجراء الاتصال بهم في بوني الشمالية هاجمه ريشار افيرسا و روبير غيسكار (٢٣ حزيران ١٠٥٣) بالقرب من سيفيتاتِ . وهزم الجيش الجبري . وسقط البابا نفسه في أيدي النورمانديين وردوا اليه حريته بعد تخليه ، ان لم يكن عن المدينة فعلى الأقل عن ريف بينيفن . وانهارت جميع مشاريع الامبراطور التي يمثلها ليون التاسع . وفي الحقيقة إن السقوط النهائي للسيطرة البيزنطية في ايطاليا الجنوبية كان في صالح النورمانديين دون الألمان .

وما فتئت الحالة تزداد سوءاً في جنوب شبه الجزيرة وفي وسطها منذ التتويج الامبراطوري. وفي ١٠٥٥ تأثر الامبراطور لدى سماعه بزواج بياتريكس وهزيمة سيفيتات فأتى إلى ايطاليا محاولاً استرداد ماخسر ، ولكنه لم يصل إلى شيء كثير . والتجأ جوفروا في اللورين دون أن ينتظره . وانتقم الامبراطور بسجن بياتريكس واضطر أن يطلق سراحها دون

ابطاء . وأرسل وفداً إلى الجنوب فلم يتقدم بخطوة في حل القضية النورماندية ، واضطره الهجوم على الليوتيس إلى العودة إلى المانيا قبل أن يجد تسوية عامة للقضايا الايطالية . ولم يستطع الاعتماد إلا على الكرسي الأقدس ، ولكن ثورة في روما قامت تحطم السلاسل التي غلت الامبراطورية بها عنق الكهنوت . وانتهت الهيمنة الجرمانية . حقاً لقد أعدت هذه الثورة ، ولكن زمام المبادرة فيها لم يكن بيد الارستقراطية الرومانية في هذه المرة بل بيد الاكليروس الأعلى ، وفي ذلك خطر عظيم .

رد الفعل الكنسي . — لقد ارتسمت بوادر رد الفعل على استعباد الامبراطور للكنيسة منذ بداية الحكم ، واتضحت في الواقع بعد اعتداء ١٠٤٦ . ويرجع الفضل في ذلك إلى أسقف ليبج ، **وازون** الذي كشف الستر عن مفاسد السلطة التي ارتكبها هنري الثالث في مجمع سوتري وعندما أخذ رأيه في انتخاب البابا الجديد ، بعد موت كليمان الثاني (٩ تشرين الأول ١٠٤٧) ، لم يتردد في لوم الامبراطور ، رغم ولائه له ، على خلع غريغوار السادس وتسمية في حياة البابا الشرعي ، بابا جديداً للسدة الرسولية ، مع أن « القوانين الالهية لاتخوله بكل بداهة هذا الحق لأن الحبر الأعظم لايمكن أن يحاكمه أحد الا الله وحده » . وسبق لوازون أيضاً في العام ١٠٤٤ ان دافع بنفس القوة عن حقوق السلطة الروحية وعن استقلال الكهنوت عندما أظهر هنري الثالث رغبته في خلع فيدغر مطران مدينة رافينه . وهذا يعني شجب كل السياسة الدينية للسلالة الساكسونية والسلالة الفرنكونية . ان فكرة تحرير الكنيسة الرومانية من القيصرية البابوية الامبراطورية نشأت في مملكة اللورين

القديمة ، حيث وضع سلف وازون ، واتيه ليبيج ، قبل قرن ، بوضوح مدهش ، مبدأ تفوق السلطة الكهنوتية بالنسبة للسلطة الملكية .

سياسة هنري الثالث الاصلاحية . — رأى هنري الثالث الخطر فحاول انقاذ سياسته الدينية بسياسة مصلحة . ولا شك في أن البابوات كليمان الثاني (١٠٤٦ — ١٠٤٧) وداماس الثاني (١٠٤٧ — ١٠٤٨) وليون التاسع (١٠٤٨ — ١٠٥٤) ، وفيكتور الثاني (١٠٥٥ — ١٠٥٧) الذين عينهم كانوا مثال التقوى والصلاح والقداسة وطيعين لارادة الامبراطور ، ومندفعين بحماسة في حركتهم الاصلاحية ، ومافتئوا يكافحون مساوىء الاكليروس . ففي العام ١٠٤٩ عقدت ثلاثة مجامع برئاسة البابا ليون التاسع نفسه في روما و رنس و ماينس ، وجددت فيها الأحكام السابقة ضد السيمونية والنيقولاوية وارفقت بمؤيدات (عقوبات) ناجعة . ودعم هنري الثالث الحركة ومنح قرارات هذه المجامع قوة القانون في الامبراطورية كلها ، «حتى مدحه **بطرس داميان** وشبهه بدانيال جديد وهنأه على انتزاعه المسيحية من فم التنين النهم وفصله بحسام الفضيلة الالهية رؤوس الافعوان المسمى السيمونية » .

ومع هذا لم يغير هنري الثالث برنامج سياسته الكنسية وأراد أن يبقى سيد الاسقفيات المطلق يعطيها من يشاء وينزعها ممن يشاء ، وكذلك حاله مع السدة الرسولية ، ولم يفكر البتة بالخضوع أمام قوانين الكنيسة التي أخذت تتضح بشدة في حبرية ليون التاسع الذي نشأ في الوسط اللوريني . على أن هذا البابا وان لم يجرأ على القيام في وجه الملك الذي رفعه للسدة الرسولية ، فقد كان على الأقل مصلحاً ومفعماً بالأفكار الجديدة .

أثر البابا ليون التاسع . — وفي الحقيقة ، لقد صنع ليون التاسع الأسلحة التي تساعد خلفاءه على التحرر من قبضة القيصرية البابوية . فقد دفع دراسة قوانين الكنيسة وحقوقها دفعة قوية . والفت في محيطه ، جوالي ١٠٥٠ ، مجموعة تضم ٧٤ عنواناً وتبدأ بسلسلة نصوص أخذت عن مجموعة المراسيم المنتحلة التي الفت حوالي ٨٥٠ في اقليم تور تحت اسم ايزيدور وأدرجت فيها ، تحت عنوان له مغزاه ، « التفوق الكنسي » ، حقوق الحبر الروماني وسلطاته ، كما عرضت أيضاً بشكل عقائدي في المطول « اتهامات الاغريق العدائية » الذي حرره باسم البابا الكاردينال همبرت موراينموتيه ليرد به على مزاعم بطريرك القسطنطينية ، ميخائيل سيرولير .

وشهدت هذه الأفكار في عهد حبرية ليون التاسع بعض التطبيق . فقد حاول البابا ، بعقد المجامع المتكررة ، أن يشد الاواصر التي تربط روما بمختلف الكنائس المسيحية ، ويظهر في شتى التدخلات تفوق التشريع الروماني . فأخذت الانظار تتجه شيئاً فشيئاً نحو السدة الرسولية التي لم يبق لها إلا أن تسترد حريتها تجاه الامبراطورية . وسمح موت هنري الثالث وقصر خلفه للمصلحين اللورنيين ، الذين اتوا إلى روما في حبرية ليون التاسع ، أن يجتازوا المرحلة العليا ويضربوا القيصرية — البابوية الامبراطورية الضربة القاضية .

وفاة هنري الثالث (٥ تشرين الأول ١٠٥٦) — بدأت بوادر الازمة تترى تباعاً ، بين ١٠٤٦ و ١٠٥٦ ، من كل جهة : فقد نزعت الشعوب السلافية والهونغارية إلى التحرر من الوصاية الالمانية ، وطردت ايطاليا السيطرة الجرمانية ، وتهيأت الكنيسة لتزيح عن عنقها نير القيصرية

البابوية . ولم يكن باستطاعة هنري الثالث أن ينال من هذه المحاولات المختلفة التي تهدم البناء الذي شاده اسلافه . وتفاقمت الحال بموته في (٥ تشرين الاول ١٠٥٦) . وكان وارثه ، هنري الرابع ، غلاماً عمره أربع سنوات ، وضع تحت وصاية أمه آنيس . وفي الوقت نفسه ضعفت قوى المقاومة ولا شيء يستطيع احكام السد في وجه الامواج التي تهاجم الامبراطورية من جميع الجهات . وفي العام ١٠٥٧ تحررت الكنيسة الرومانية بانتخاب ايتين التاسع وفتح عهد جديد في تاريخ المسيحية الغربية .

الفصل السادس والعشرون

التوسع الدانيماركي

أصول الامبراطورية الدانيماركية

بينما كان الاباطرة الساكسونيون والفرنكونيون يتابعون سياستهم المتوسطية ، كانت سيماء اوربة الشمالية الغربية آخذة بالتحول . ففي فجر القرن العاشر ، وفي بضع سنوات ، فتح الدانيماركيون النورفيج وانكلترا وانشأوا حول بحر الشمال امبراطورية موقتة ، ولكن بشائرها دلت على اشراق عظيم .

مملكة الدانيمارك في فاتحة القرن العاشر . – كانت مملكة الدانيمارك في مستهل القرن العاشر تضم جوتلاند ، شلزفيغ حتى نهر الآيدر ، فيونيا ، سيلاند ، جزيرتي لالاند وفالستر ، سكانيا ، هاللاند مع مواقع أمامية على الشاطىء السلافي للبالطيك في المنطقة التي تطابق بروسيا الحالية . واعترف قسم من النورفيج بهيمنتها ، وكانت الدانيمارك أكبر دولة في الشمال دون منازع .

وكان غورم الشيخ يحكم البلاد . وما لدينا عنه اساطير أكثر منها معلومات يطمأن لها . ولقد رأينا في السابق أن الملك الجرماني هنري الصياد غزا الدانيمارك في العام ٩٣٤ وفرض عليها الجزية ، وخضعت في السنوات التالية للنفوذ الجرماني وأخذ المبشرون الذين أرسلتهم كنيسة هامبورغ

ينشرون هذا النفوذ وينصرون الشعوب الوثنية في هذه البلاد وساندهم البلاط في أداء رسالتهم ، وأظهر الملك غورم وابنه هارالد كل عطف عليهم ، واعتنقت الملكة ثيرا الدين الجديد . وإذا أخذنا بالاسطورة وجدنا أن هذه الملكة لعبت دوراً هاماً في الحكم وحاولت ، مع تشجيعها التبشير بالانجيل ، أن تحد من الهيمنة الالمانية ، واليها ينسب انشاء السور العظيم **دانيويرك** للحيلوله دون غارات الجيران من الجنوب . ولذا لم تعد محاولة هنري الأول ممكنة قبل عام ٩٧٥ .

هارالد السن الزرقاء (٩٥٠ — ٩٨٦) . — ولا يعلم تاريخ وفاة غورم ، ومن الممكن أن تكون في منتصف القرن العاشر . وكان خلفه ابنه هارالد السن الزرقاء الذي نظر اليه بشيء من المبالغة مؤسساً للدولة الدانيماركية .

وفي الداخل لم يضع هارالد أي عقبة في وجه التوغل المسيحي . وشيدت الكنائس ونظمت الاسقفيات . وفي تاريخ لايمكن تحديده بالضبط تعمد الملك مع زوجته غونهيلد وابنه سفيند . وكان هذا الأخير ضعيف الايمان ، فأثار في آخر الحكم رد فعل وثنياً عنيفاً ، ولم يستطع هارالد اخماده فأفسد النتائج المكتسبة سابقاً .

وكان لهارالد سياسة قومية رغم علاقاته الممتازة بكنيسة هامبورغ . وكان يتحمل بمشقة دفع الجزية الى ملك جرمانيا ، ولم يستطع في حياة اوتون الكبير أن يتهرب منها ، ولكنه حاول بعد موته أن يتحرر ، وبالرغم من أن سفراءه جددوا ، في العام ٩٧٣ ، في مجلس كويدلانبورغ ، يمين الولاء التقليدية لاوتون الثاني ، كان يتخذ استعداداته للهجوم . ولكن مشاريعه افشيت لمنافسه فسبقه وزحف عليه . ولم يكن اللقاء الاول في صالح الالمان ، فما وسعهم إلا أن أغاروا انتقاماً على شلزفيغ واشعلوا

النـــار في السور دانيويرك واجـبروا هارالد على طلب الصلح والوعد بدفع الجزية .

ولم تكن محاولات هارالد السن الزرقاء سعيدة أيضاً في بسط نفوذه على النورفيج .

كانت النورفيـج في منتصف القرن العاشر فريسة الحروب الأهلية التي أفسدت وجودها كمملكة . لقد تحققت وحدتهـا في النصف الثاني من القرن التاسع على يد هارالد فيرهير ، وكان هذا أميراً على المنطقة المحصورة بين بحيرة فينير والدوفرفيلد ، ثم بسط سلطته شيئـاً فشيئاً على البلاد كلها ، وحتى على الجزر المجاورة لايكوسيا وعلى ايرلندة . غير أن موت هـذا الأمير الذي نجهل تاريخه الصحيح خلف أزمة وراثة دامت زمناً طويلاً ، وأفاد منها هارالد السن الزرقاء في فتح النورفيـج واحتفظ لنفسه بالشاطىء الجنوبي وسلم أراضي الشمال إلى الكونت هاكون الذي أعلن ولاءه للسيادة الدانيماركية . ثم بدا له وأراد أن يكون مستقلاً ، فقام هارالد لمعاقبته بعدة هجمات على الشـاطىء النورفيجي . ولكن اسطوله دمر في جون هيوورونغا واضطر إلى التخلي موقتـاً عن مشروع التوسـع في شمال البالطيك .

وبالاجمال ، ان سياسة الغزو التي سلكها هارالد السن الزرقاء أدت إلى الاخفاق في جهة المانيا وفي جهة النورفيج ، وفقد الملك شعبيته ولامه الناس على استسلامه للجيش الجرماني . وفي العام ٩٨٣ انقلب الاستياء إلى ثورة ، وقبل ابن هارالد ، سفيند ذو الذقن الفرقاء أن يكون على رأس المعارضين ، وتنازل أبوه له عن العرش . وأراد سفيند أن يرضي من رفعوه إلى السلطة فحـارب الامبراطور ، وأفاد من الفوضى التي

سببها اخفاق رأس كولون، وهاجم أحد القصور التي شادها اوتون الثاني أمام الشاطىء الدانيمركي وعاث في الشواطىء الالمانية وبقيت الأمور عند هذا الحد .

أهمية حكم سفيند (٩٨٦ – ١٠١٤) . — لقد أسهم سفيند في تشكل الامبراطورية الدانيماركية أكثر من أبيه بكثير ، وكانت تحركه روح الفايكنغ القديمة ، ويهوى الحرب والقرصنة ، ويضطرب برغبة الفتح ولا يتراجع أمام أي مشروع مع البقاء أصولياً في جرأته ، وقد وجه ضرباته لانكلترا والنورفيج وضمها تباعاً للمملكة الدانيماركية .

كان القرن التاسع في انكلترا ، كما في كل بلاد اوربه الغربية ، عصر غارات الفايكنغ الكبرى . وأدت هذه الغارات فيها إلى تشكيل مناطق احتلال عند وفاة الفرد الكبير ضمت مملكتي نورثامبريا وانغليا — الشرقية وقسماً من مملكة مرسيا ، وبقيت وسكس وحدها محافظة على استقلالها مع بقايا من مرسيا التي يحكمها الدوق اثلرد . وبالرغم من انتصارات الفرد والحفاظ على الامارات المتناثرة في البلاد ، ظلت انكلترا الانغلية — الساكسونية قابعة في جنوب التاميز ، ولكنها أخذت تمتد في النصف الأول من القرن العاشر بفضل سياسة خلفاء الفرد الكبير .

الاسترداد الانغلي — الساكسوني في عهد ادوارد (٨٩٩ — ٩٢٥) . — حكم ادوارد الشيخ بن الفرد الكبير من ٨٩٩ الى ٩٢٥ وكان اميراً من الطراز الأول . لم تكن له قيمة أبيه الفكرية ، غير انه كان جندياً حقاً ، قوياً ، جلداً ، جريئاً ، قادراً على جلب النصر بذكائه وحسن توجيهه ونشاطه الجم . لقد أراد تخليص انكلترا من حكم الدانيمارك ، وظهر أنه من أفضل عمال الوحدة القومية ولو لم يتوصل إلى ذلك تماماً . وقد ساعده في عمله التحرري ، الذي شغله طوال حياته ، صهره اثلرد

وأكثر من ذلك بعد وفاة هذا الأخير ، أخته الخاصة اثلفلد التي يسميها المؤرخون سيدة المرسيين . وكانت امرأة مسترجلة بروحها الحازمة القوية وعندما أصبحت ارملة كشفت عن مواهب فائقة في حكم دولها وفي توجيه الحرب ضد الدانيماركيين .

حاول الدانيماركيون أن يفيدوا من تغيير الحكم لاسترداد ما انتزعه الفرد منهم ، ولكنهم ردوا على اعقابهم بعد أن اجتاروا نهر السفرن ، واعطى هذا النصر المبين لادوارد واخته ثقة بنفسها بعد أن ظلا خلال عشرة أعوام يقومان ببناء التحصينات استعداداً لهذا النصر . وقد أراد الدانيماركيون تقويض هذه الحصون ، قبل أن يتم انشاؤها ، فأخفقوا ، ولم ييأسوا ، وبمساعدة الفايكنغ الآتين من بروتانيا الفرنسية جددوا عزمهم ، ولكنهم اصطدموا بعقبة كأداء . وفي ٩١٨ هاجم الانغلو — ساكسون بدورهم ، وتوالى الفتح في السنوات التالية واستطاع ادوارد قبل وفاته (في ١٧ تموز ٩٢٥) أن يسترد مرسيا كلها مع المدن الخمس: لنكولن ، نوتنغهام ، دربي ، ليستر ، ستامفورد التي تؤلف محور تنظيم العدو ، ثم انغليا — الشرقية ومنطقة كامبردج . ونادى به الايكوسيون وملكهم قسطنطين الثالث (٩٠٠ — ٩٤٢) « أباً وأميراً » ، وفتحت هذه النتائج آمالاً كبرى للمستقبل ، لا سيما وان روح الفايكنغ القديمة قد ضعفت عن ذي قبل بعد أن انهكت الحروب الداخلية انسال القرصان الأوائل الذين لم يتكيفوا مع الحرب الدفاعية التي فرضت عليهم ولم يكونوا مستعدين لها ، ولم يكن لهم من هم إلا ان يثروا دون الاهتمام باستقلالهم السياسي .

واستمر الفتح الاستردادي في عهد خلف ادوارد الشيخ ، ابنه آثيلستان (٩٢٥ — ٩٣٩) . وكان هذا الملك الجديد كريماً مثقفاً مثل الفرد

الكبير ، ولم يكن له مزاج أبيه في الحرب ويفضل العمل بالدبلوماسية اكثر من السلاح .

وبعد أن اعتلى العرش التقى بزعيم الدانيماركيين **سيتريك** في تاموورث عاصمة مرسيا ، وقدم اليه يد اخته مقابل وعده باعتناق المسيحية ، فقبل سيتريك ، وما لبث أن نكث وعده ورمح بزوجته ودينه الجديد وتوفي بعد ذلك . وزحف آثيلستان نحو الشمال في ٩٢٦ واحتل مملكة نورثامبريا واصبح منذ الآن سيد كل انكلترا الحالية . وفي ٩٣٣ تألب عليه ملك ايكوسيا ، قسطنطين الثالث ، وحاول أن ينتزع منه ثمار فتحه . وبعد نزاع قاس سمح النصر المبين في برونانبوره في ٩٣٧ للانغلو - ساكسون بالحفاظ على مكاسبهم كلها . وأصبح آثيلستان بحق ، حسب التعبير المضروب على نقوده ملك بريطانيا كلها وازداد جاهه بزواج احدى اخواته بشارل الساذج ، والاخرى بدوق الفرنجة هوغ الكبير والثالثة باوتون الكبير .

الهجوم الدانيماركي في عهد ادموند (٩٣٩ — ٩٤٦) وادرد (٩٣٦ — ٩٥٥) . — ان موت هذا الملك المجيد قبل اوانه ، في ٢٧ تشرين الأول ٩٣٩ كاد ان يفسد النتائج التي جناها . ففي ٩٤٠ اراد الدانيماركيون ان يفيدوا من وضع ادموند اخي آثيلستان وخلفه ، وكان عمره ثمانية عشر عاماً ، وثاروا ونادوا ملكاً **اولاف غوثفريثسون** فاجتاز هذا الويلاند واحتل تاموورث ، فقوبل بهجوم معاكس منظم ، وتوفي وخلفه اولاف كواران الذي فر الى دبلن . واضطر ادموند في العام ٩٤٥ في سبيل التحالف مع ايكوسيا ان يسلم الكمبرلاند لملك ايكوسيا مالكولم خلف قسطنطين .

ولسوء الحظ قتل ادموند في العام ٩٤٦ ولما يبلغ سن السادسة والعشرين

وكان ابناه **ادوي وادغار** صغيرين فعاد التاج الى أخيه ادرد ، وكانت سنه ثلاثاً وعشرين سنة . وحاول الدانيماركيون من جديد التخلص من نير الانغلو — ساكسون ، ودفعهم الى ذلك مطران يورك ، **ولستان** عدو سلالة الفرد الكبير . وقام الشعبان يتنازعان على الارض الانكليزية وكانت المعركة لصالح الانغلو — ساكسون . وبدا في العام ٩٥٤ من جديد ان ادرد « ملك بريطانيا كلها » ، ولكنه لم يتمتع بظفره ومات في ٢٣ تشرين الثاني ٩٥٥ تاركاً المملكة إلى **ادوي** ، بن ادموند ، وعمره اربع عشرة سنة .

المملكة الانغلية ـ الساكسونية في عهد ادوي (٩٥٥ — ٩٥٩) وادغار (٩٥٩ — ٩٧٥) . — دام حكم ادوي أربع سنوات فقط لم يتعكر خلالها صفو السلام الخارجي ، ولو دام أكثر من ذلك لكاد نزاع الأحزاب أن يضعف المملكة الانغلية ـ الساكسونية . وبموته انتقلت السلطة إلى أخيه ادغار وكان أكثر منه ذكاء وقوة .

كان عهد ادغار (٩٥٩ — ٩٧٥) دور سلام لأن انكلترا بعد فتح الاسترداد شعرت بحاجة الى التنظيم . وان قسماً من تشريع العصر الوسيط يرجع إلى هذه الست عشرة سنة المليئة حقاً . قام الأب غلادستون الذي أصبح مطران كانتوربري يصلح الكنيسة الانكليزية بعد أن أصبحت حالتها المعنوية لاترضي ، وطرد الرهبان الفاجرين ، وسهر على مراعاة قاعدة القديس بندكت وكافح السكر والفجور عند الاكليروس العصري ، ونظم بمساعدة الملك إدارة الكنيسة ووضع نظاماً حقوقياً لأموالها .

ويبدو أن الدانيماركيين ، من جهتهم ، لم يحاولوا تعكير السلام . وإذا أخذنا بقول فلورنت ورستر وغليوم مالمسبوري وجدنا أن ثمانية **ملوك**

حضروا حفلة التتويج التي أجلت حتى عام ٩٧٣ لأسباب مجهولة ، مما يؤكد في آن واحد هدوء المملكة وجاه الملك الملقب بلقب المحب للسلام . ولكن هذا الهدوء لم يدم بعده . وفتح موته، في ٨ تموز ٩٧٥ ، ازمة ساعدت ملك الدانيمارك سفيند على فتح انكلترا .

ازمة ٩٧٥ - ٩٩٠ . — ترك ادغار ولدين : البكر ، ادوارد ، من زواجه الأول من اثلفلد ، وعمره ثلاث عشرة سنة ؛ والثاني ،اثلرد ، وليد الملكة الفثريث ، وقد أتم الثامنة . وتوج ادوارد على يد مطران كانتوربري ومات قتيلاً في ٩٧٨ بعد حكم قصير انقضى في النزاع بين الأحزاب وخصوم الاصلاح الديني . وخلفه اثلرد ، ولم يكن له عشر سنوات ، وهذا القصر الجديد كان نكبة أكثر مما سبقه .

وبدا أن انكلترا ماضية إلى خرابها ودمارها وتركت لنفسها . واستيقظت في هذه الآونة روح الفايكنغ بعد أن نامت في بداية القرن العاشر . ففي العام ٩٨٦ خلف سفيند الفظيع أباه هارالد السن الزرقاءفي الدانيمارك وكانت روحه فايكنغية ويحلم بمغامرات بعيدة ، وفكر بنجدة الدانيماركيين في انكلترا بعد أن دحرهم الانغلو ـ ساكسون واستعبدوهم دون أن يتزوجوا بهم . وكان هؤلاء الدانيماركيون متهيئين لطاعة أول اشارة تأتيهم من وطنهم الأصلي . وغادر سفيند النورفيج موقتاً ووجه وجهه شطر انكلترا ، وكان اثلرد غير قادر على حمايتها ، وهكذا فسحت الفوضى مجالاً للغزو .

الحملات الدانيماركية الاولى في انكلترا (٩٨٦ - ٩٩٤) . - بعد الغارات الأولى في ٩٨٠ و ٩٨٢ ساد هدوء نسبي من ٩٨٣ الى ٩٨٦ . وفي هذه السنة الأخيرة التي بدأ فيها حكم سفيند في الدانيمارك ظهر الفايكنغ من جديد في ايرلنده . وفي ٩٨٨ ظهر اسطول مؤلف من

عناصر دانيماركية ونورفيجية في بحر بريستول . وكانت هذه الأعمال فاتحة لهجوم انطلق في ٩٩١ واشترك فيه مع الدانيماركيين كثير من النورفيجيين .

لم يكن الانغلو- ساكسون في حالة تمكنهم من الدفاع . ولا شك في أن اثارد بلغ سن الرشد ولكنه بدا أميراً جامداً وضعيفاً ، دون ذكاء ، واهي العزيمة ، وغير كفء لتنشيط وتنسيق القوى التي أنشأها الحكم السابق لأسلافه . وتهاونه يوضح انتصار الدانيماركيين . وبالرغم من الأعمال الخارقة التي قام بها بعض الأمراء ، وكانت مدعاة للاعجاب ووحي الشعراء ، فقد ابيدت قوى الانغلو- ساكسون في ٩٩١ . وفي العام ٩٩٤ جاء سفيند الى انكلترا ؛ وهزم في بادىء الأمر أمام لندن ، ولكنه عوض عن ذلك بالنهب في سسكس وهامبشاير ونشر الذعر بين انصار اثارد . وبدا استمرار النضال مستحيلاً فارسل مطران كانتوربري ، سيريك ، إلى معكر العدو للتفاوض بالصلح . وقبل الفايكنغ أن يكونوا مرتزقة في خدمة ملك انكلترا ووعدهم من جانبه بدفع الجزية لهم . وفي الحقيقة ، ان كلًا من الطرفين عزم على النكث بوعده . وبعد توقيع المعاهدة بادر اثارد إلى إنشاء اسطول له ، بينما قام الدانيماركيون يضعون أيديهم على القصور في منطقة الممبر ، ولكن سفيند اضطر إلى العودة إلى الدانيمارك لحوادث خطيرة جعلت حضوره ضرورياً ونتج عن ذلك هدوء نسبي في انكلترا .

القضية النورفيجية . — ومن الممكن أن يكون السبب في عودة سفيند غزو السويد للدانيمارك . ولكن التوقيت الذي أعطته مصادر حديثة نسبياً غير يقيني ليسمح بتوكيد إيجابي في هذا الموضوع . ان حالة النورفيج أيضاً تستحق فحصاً دقيقاً . لقد أصبحت حكومة هاكون غير شعبية وارتسم حزب قوي لصالح اولاف تريغفسون الذي كان آنئذ في انكلترا

يحارب إلى جانب الدانيماركيين في مولدن . وقد أرسل اولاف في آخر ٩٩٤ لابرام الصلح مع اثلرد ووعده بالا يقوم بشيء ضد المملكة الانغلية ـ الداكسونية . وبعد أن اعتنق المسيحية وعمد ، غادر انكلترا ويمم وجهه شطر النورفيج ، وفي ظروف غير معروفة جيداً نودي به ملكاً في ٩٩٥ .

الهيمنة الدانياركية في البالطيك . — اقلقت هذه الثورة النورفيجية سفيند ، فنسي خلافاته مع السويد وبادر ، بعد أن طلق زوجته الأميرة السلافية غونهيلد وتزوج أرملة عدوه القديم ايريك ، سيغريد . وعلى هذا إذا ماوقع خلاف بين الدانيارك والنورفيج اصطفت السويد إلى جانب الدانيارك ، بينما يكون السلاف في صالح اولاف . واهتم سفيند أيضاً في خلق عطف عليه لدى أنصار هاكون القدامى ، ورغم اعتناقه المسيحية، لدى وثنيي النورفيج الذين اقلقتهم غيرة اولاف الدينية .

وبعد أن اطمأن سفيند لهذه الأحلاف هاجم اولاف تريغفسون ، وفي صيف العام ١٠٠٠ قامت معركة بحرية كبرى في هيلسينبورغ بين النورفيجيين والفيند من جهة ، والدانياركيين والسويديين من جهة أخرى ، ودارت لصالح هؤلاء الأخيرين . وهلك اولاف في الملحمة وقسمت النورفيج بين الغالبين ، واحتفظ سفيند لنفسه بالشاطىء الجنوبي ، وترك القسم الشمالي كله لابن هاكون ، ايريك ، باستثناء سبع كونتيات في بلاد تروندهيم تركت للملك السويد ثمن خدماته .

تسجل معركة هيلسينغبورغ بداية الهيمنة الدانياركية في شمال غربي اوربة . وإذا لم يكن سفيند بعد سيد النورفيج فهو يحكم على الأقل شاطىء البالطيك ويسيطر على المضائق ، ويستطيع ، عندما يريد ، أن ينهي فتح المملكة المجاورة ، إلا أنه في الوقت الحاضر فضل أن يصل

إلى حل مع الجهة الأخرى لبحر الشمال،مع الدولة الانغلية ـ الساكسونية .

فتح سفيند لانكلترا . — وبينما كان سفيند من ٩٩٥ الى ١٠٠٠ يركز جهوده نحو النورفيج ، كان اثارد يعد ثأره . فقد جمع اسطولاً وهاجم به ، دون كبير نجاح ، المؤسسات النورفيجية في جزيرة مان ، بينما كانت تدور رحا معركة البالطيك التي قررت مصير البلاد الاسكاندينافية . وفي السنوات التالية تحالف مع دوق نورمانديا ، ريشار ، وتزوج اخته ايما في (١٠٠٢) واكثر من أعمال الدفاع ، وعندما رأى نفسه أنه قوي بشكل كاف عدل عن دفع الجزية وحاول التخلص من خصومه بذبحهم واتهم الدانياركين باعداد قتله ، وبهذا العذر أمر بكل برودة بقتل كل من يمكن الوصول إليه . وكانت مذبحة القديس — بريس الشهيرة (١٣ تشرين الثاني ١٠٠٢) التي تركت عدداً عظيماً من الضحايا الدانياركين من بينهم اخت سفيند ، غونهيلد ، وزوجها باليغ .

أدت هذه الاثارة الدموية بالحال إلى أعمال انتقامية من جانب الدانيارك فقد أراد سفيند أن يثأر لأخته وصهره . وفي ١٠٠٣ ظهرت السفن الدانياركية على الشاطىء الانكليزي . وبفضل التحالف النورماندي والدفاع البطولي في انغليا ـ الشرقية قاوم اثارد الصدمة في السنتين ١٠٠٤ و ١٠٠٥ . وفي العام ١٠٠٧ و ١٠٠٨ أعد هجوم عظيم . وفي العام ١٠٠٩ جاء فايكنغ جوم في خدمة سفيند ، وأحتلوا التاميز ، بينما ذهب اسطول ثان وعاث في كونتيات الجنوب . وفي ٥ أيار ١٠١٠ أحرز الدانياركيون نصراً عظيماً في **وينغمير** في جنوب نورفولك واستولوا على كانتوربري وقتلوا المطران **آلفيج** . وبدت مقاومة الانغلو ـ ساكسون غير قوية في كل مكان ، ولم تر حاشية اثارد وسيلة للسلام غير دفع جزية عظيمة . وقبل بها الدانياركيون إلى جانب الأسلاب والغنائم وتعهدوا بان يكونوا كما

في السابق جنوداً مرتزقة عند الملك الانكليزي ، وهذا لم يمنعهم من إعداد غزو هائل يؤمن لهم امتلاك الجزيرة البريطانية .

وفي ١٠١٣ رأى سفيند أن وقته قد حان ، وبدا أن كل شيء معد لتأمين فوزه : فقد ضعفت المملكة الانغلية ـ الساكسونية اثر الغارات المستمرة وأعمال السلب المتكررة ، وساد الهدوء في النورفيج ، وظلت السويد له حليفاً مخلصاً ، والسلاف في نزاع مع المانيا ، ولم يكن هنري الثاني بقادر على التدخل بعد نضاله العقيم ضد بولونيا ، وبدت الدانيمارك قوة بحرية لاتقهر ، ورسخت قدم السلالة الحاكمة ،حتى ان الأبن البكر ، هارالد ، استطاع الحفاظ على المملكة في غياب أبيه . وفي هذه السنة ١٠١٣ أيضاً ذهب اسطول عظيم نحو شواطيء كنت و سسكس وانطلقت من المواطن الدانيماركية في انكلترا حملة على وسكس . وأتى سفيند نفسه ليستلم قيادة القوى الاسكاندينافية في انكلترا ، وفي ايلول عبر بلاد الميدلاندز واتجه بجيشه نحو الجنوب وعبر التاميز عند اوكسفورد التي استسلمت مع ونشستر . إلا أن لندن قاومت بعناد واضطر سفيند إلى حصارها . وارتبك فرار اثلرد الى نورمانديا الانغلو ـ ساكسوني ، في كانون الثاني ١٠١٤ ، وفتحت لندن أبوابها . وعندما تم فتح انكلترا وأوشك الفاتح العظيم أن يقطف ثمار انتصاره فاجأه الموت في ٢ شباط ١٠١٤ .

الامبراطورية الدانيماركية عند وفاة سفيند . ـ لقد كاد العمل الذي قام به سفيند الا يعيش بعده . لأن الامبراطورية التي شادها تفتتت بعد زواله . وخلفه في الدانيمارك أبنه البكر ، هارالد ، ونادى الجيش في انكلترا ابنه الآخر ، كنوت ، الذي قام بدور لامع في الحملة على وسكس . ويبدو ، من جهة أخرى ، أن النورفيج ، التي دخلت في حصة كنوت، قد نزعت إلى التخلص من السيطرة الدانيماركية ،

وبعث فيها موت سفيند روح الاستقلال . لقد كان التفتت حتمياً ، وكاد عمل الفاتح العظيم أن ينهار في قليل من الزمن لولا أن تداركه أبنه كنوت الذي لقب فيما بعد بالكبير . فقد عمل خلال حكمه الذي دام عشرين عاماً (١٠١٤ — ١٠٣٥) على تحقيق برنامج أبيه ولكن دون أن ينجح في خلق شيء دائم .

كنوت الكبير

١٠١٤ — ١٠٣٥

الملك كنوت . — عندما نادى الدانيماركيون بكنوت ملكاً لم يكن له من العمر أكثر من تسعة عشر عاماً . ابوه سفيند وأمه غونهيلد البولونية . وطبقاً لارادة أمه ، التي كانت تهتم بابعاده عن البلاط الدانيماركي وتهيئته لمصير مجيد ، قضى معظم شبابه في جومسبورغ حيث اقيمت مستعمرة فايكنغ لمراقبة أقوام الفيند . وكان يسود هذه الجماعة نظام قاس : فمن ذلك وجوب طرد كل من يتراجع أمام الخصم ، والخضوع في كل شيء لارادة الزعيم ، وله وحده الحق في التصرف بالغنائم . كما كان محرماً عليهم التغيب أكثر من ثلاثة أيام ، ولا يمكن لامرأة أن تدخل بينهم . وكان الشاب كنوت ملزماً بهذه الواجبات ، ولم يعوزه الاعتياد على الحرب واقتحام الشدائد والأخذ بتقاليد آبائه وأجداده . وعندما دعي فايكنغ جومسبورغ للاسهام في فتح انكلترا صحبهم كنوت وفتحت أعماله البطولية اعين الجيش عليه فنادى به ملكاً عند وفاة أبيه ، بينما خلف هارالد أباه سفيند على عرش الدانيمارك .

رد فعل الانغلو ـ ساكسون (١٠١٤ - ١٠١٥) . لقد كانت المملكة التي ترأسها كنوت حديثة العهد بالفتح . ولذا فان أول عمل يفرض عليه هو توطيد سلطته على انكلترا التي مازال مستقبلها غير يقيني ولا يطمأن له . لأن وفاة سفيند احيت الأمل في نفوس الانغلو ـ ساكسون . ولا شك في أن اثلرد لم يجرأ بعد على مغادرة نورمانديا . ولكنه أرسل ابنه الشاب ادموند يجزي الوعود الجذابة لرعاياه التي تخلى عنها بجبن في أوقات الخطر . وقنع بهذه الأقوال امراء المناطق الواقعة في جنوب نهر التاميز ، ولم يؤمنوا بقوة الدانيمارك التي نكبتها الحروب المميتة ، وتصوروا أن موت سفيند يجعل وصول جنود جدد أمراً صعباً ،وافترضوا أن ليس لكنوت تجربة أبيه ولا خبرته ، ورأوا أن حظهم الأخير في استرداد الأراضي التي خسروها ، ولذا صفحوا عن اثلرد وأصبح بامكانه أن يعود إلى انكلترا .

وهذه العودة التي اتبعت بهجوم مباشر ، فاجأت كنوت فبادر بسرعة إلى سفنه واضطر إلى مغادرة مملكته ليلجأ عند أخيه هارالد في الدانيمارك . وبدأ الحكم بداية سيئة . وأوشكت انكلترا أن تنجو من السيطرة الدانيماركية بعد أن أبادت المذابح المروعة العناصر المرتزقة في الجزيرة الكبرى . أما من عاش بعدهم فقد اعترفوا باثلرد ، حتى ان توركيل زعيم مستعمرة الفايكنغ قبل عرض المال الذي قدم إليه مقابل التعهد بوضع نفسه تحت أمر اثلرد .

ولم يستطع كنوت العزف عن فتوح أبيه . ولذا أتخذ اعداداته في الدانيمارك في ربيع ١٠١٥ ، وفي آخر آب عاد إلى انكلترا يصحبه توركيل والكونت اريك النورفيج ، ونزل في ساندويتش واتجه نحو الجنوب ، وبسم له الحظ في هذه المرة : فقد كان اثلرد مريضاً واضطر

إلى ترك الجيش ، وساء التفاهم بين ابنه ادموند قائد الجيش وبين أفضل مساعديه الكونت ادريك الذي انتقل إلى صف الدانيماركيين . وقدمت وسكس خضوعها بعد أن اخلاها ادموند ، وحذت حذوها نورثامبريا ، وأبدت لندن بعض المقاومة . وزاد موت اثلرد في ٢٣ نيسان ١٠١٦ في حظ كنوت فأصبح سيد أعظم جزء في المملكة ، وما عليه إلا أن يطلب التاج من خصومه القدامى .

اجتمع مجلس من الوجهاء في ساوثامبتون في الأيام الأولى من شهر أيار واعترف بكنوت ملكاً على انكلترا ، ولكن مجلساً آخر اجتمع على عجل في لندن ونادى بادموند . ولم يبق إلا السلاح وحده حاسماً بين المدعين بالتاج . حاصر كنوت لندن ، ولم يستطع منع ادموند من مغادرة المدينة ، وهذا مااضطره إلى ترك قسم من قواه تحت قيادة توركيل وملاحقة منافسه . واستطاع ادموند أن ينجو من ضغط الدانيمارك ويتصالح مع الدوق . فاحرج كنوت واضطر إلى ترك حصار لندن والمبادرة إلى سفنه ، وهذا لم يمنعه أثناء مروره من نهب مرسيا التي سارت في ركاب ادريك . وترك قسماً من جيشه في جزيرة شيبي على مصب الميدوي وأرسل اسطوله إلى الشمال نحو مصب اورويل ، في سفولك ، حيث وجد نقطة استناد لحملات المستقبل .

وهكذا هرب النصر مرة أخرى من أيدي الدانيماركيين . وأستطاع أدموند أن يشكل جيشاً جديداً ، وأعاد خلاص لندن الثقة إلى أنصاره ، ولكن نقص الوحدة في القيادة ظهر بفظاعة من جديد . لأن الزعماء الانغلو-ساكسون لم يتفاهموا على سير العمليات : كان ادموند يريد أن يهاجم قبل أن يستجمع كنوت قواه بينما يرى ادريك أن يتمهل ، وكانت

معركة آشينغتون في ١٨ تشرين الأول ١٠١٦ دون مساعدة ادريك هزيمة نكراء لادموند وسقط فيها خيرة رجاله ، وأضطر إلى الفرار نحو السيفرن . وعاد كنوت إلى حصار لندن .

وانقطع كل أمل للانغلو - ساكسون ، ولكن الدانياركيين أيضاً نكبوا بهذه الحروب المتكررة وتمنوا الصلح . وأدرك ادموند هذه الأوضاع وحاول أن ينقذ بالدبلوماسية قسماً من أرثه ، وأرسل إلى كنوت سفراء وكلفهم بعرض مقترحاته عليه ، وقبل كنوت بفكرة التقسيم . وابرمت معاهدة بهذه الروح : وهي اتفاق ديرهرست ١ تشرين الثاني ١٠١٦ ، وبموجبها يحتفظ ادموند ب وسيكس ويحكم كنوت مرسيا ونورثامبريا ، ويشكل التاميز حداً فاصلاً بين الدولتين ويبدو أن لندن بقيت لكنوت واستمر هذا في فرض الجزية على مملكة ادموند .

ونص اتفاق ديرهرست على أنه إذا مات أحد الأميرين ، خلفه الأمير الآخر . وفي ١٠١٧ مات ادموند في ظروف سرية . ولم يكن لكنوت فيها أدنى يد ، واستلم ارثه ولم يلق أي مقاومة : فقد مات أولاد ادموند ومامن أحد بين الانغلو - ساكسون له من القدرة مايجعله ينازع الفاتح الدانياركي على التاج ، واعترفوا به ملكاً . وكما كان في الماضي اثيلستان أصبح كنوت « ملك بريطانيا كلها » .

ضياع النورفيج (١٠١٥ - ١٠١٧) . — وبينما كان كنوت ينهي استرداد مملكته الانكليزية ، تحررت النورفيج ، التي تركها سفيند له ، من السيطرة الدانياركية . وكان المدعي بالعرش **اولاف القوي** الذي عاش حتى ذلك التاريخ اما في انكلترا أو في نورمانديا حيث تعمد . وبعد أن خدم تارة عند اثارد ، وتارة عند ريشار ، فكر بالافادة من حوادث انكلترا لأخذ التاج ، غرض أحلامه . وبلغه خبر اسهام ايريك النورفيج

في الحملة التي اعادت إلى كنوت الاراضي الـــتي خسرها ، فهيأ مشروعه بتوقيت عجيب موافق للوقت الذي كان فيه كنوت يجتازبحر الشمال لفتح انكلترا ، وأبحر إلى النورفيـج . ونزل فيها دون عناء واعترف به سكان السواحل واستقر في نيداروس وجعلها عاصمة له وبنى فيها كنيسة وضاعت النورفيـج موقتاً من يد الدانيمارك ، لأن كنوت كان منهمكاً في انكلترا ولم يستطع منازعة اولاف ، ولكنه صمم على أخذها منه متى سنحت الفرصة .

كنوت ملك الدانيمارك . — لقد شغل كنوت في توطيد سلطته في انكلترا وحاول أن يصلح ماأفسدته الحرب والفوضى الحكومية التي صحبت حكم اثلرد . وبينما كان متعلقاً بهذا العمل الأساسي مات أخـوه هارالد ملك الدانيمارك في العام ١٠١٨ بعد حكم دون ضياء . ولم يترك هارالد وارثاً له فعاد التاج حتماً الى كنوت ونودي به ملكاً في ١٠١٩ أثناء رحلة إلى الدانيمارك . وكان هذا الحادث أساسياً بالنسبة له ، لأن الدانيمارك بأساطيلها وجنودها كانت مساعداً ثميناً له . وفتحت بوضعها الجغرافي أمام كنوت آفاقاً جديدة نحو الشرق . ويستطيـع بعد هذا أن يعود إلى أحلام أبيه ومشاريعه الكبرى في تحويل البالطيك إلى بحيرة دانيماركية .

كنوت والسلاف . — حاول كنوت بادىء بدء أن يدفع شعبه نحو السلاف المقيمين على طول الشواطىء البالطيكية . وكانت مستعمرة جوم على الأودر قاعدة ممتازة للعمليات . انطلق منها في العام ١٠٢٢ بسفنه على البلاد الواقعة في شرق الفيستول ، وأدت هذه الحملة إلى إنشاء مراكز على ضفاف الاودر والفيستول والدفينا ، وشع النفوذ الدانيماركي في هذه الأرجاء دون أن يكافحه أحـد . ولم يستطع ملكا جرمانيا ، هنري الثاني ، ثم كونراد الثاني ، بسبب صعوباتها مع بولونيا ، معاكسة هذه السياسة

التوسعية واضطروا طوعاً أو كرهاً إلى التكيف مع تقدم التجارة الدانياركية في البحر البالطيك . حتى ان كونراد الثاني فكر بالتحالف مع كنوت واشتراه عام ١٠٣٥ بثغر شلز فيغ ، وختم هذا التقارب بعقد قران غونهيلد ، ابنة كنوت ، على ابن كونراد الثاني ، هنري الثالث ، في المستقبل ، ولم يبق على كنوت الا فتح النورفيج لانهاء بناء الامبراطورية الشمالية .

النورفيج في عهد اولاف القديس — لقد حاول اولاف القديس ، الذي استولى على السلطة في النورفيج ، أن ينصر البلاد بحماسة مفاجئة أثارت عليه مقاومة قسم من الشعب الشديد التعلق بوثنيته . ومن جهة جهة أخرى ، أثار حكمه الاستبدادي الاقطاعية التي كان يهمها ارجاع الامتيازات التي تمتعت بها في عهد هاكون . وتكونت على هــذا النحو معارضة توجهها ارستقراطية زعماء جريئين وأقوياء ، بعضهم وثنيون مثل تور وهاريك رأسي الفتنة التي كلفت اولاف حياته ، والآخرون مسيحيون مثل ايرلنغ واينار .

شعر اولاف بهبوب العاصفة ، فقرر كسر الحركة بالقوة وقام بعدة تدابير قمع لاتتفق والمثل الأعلى المسيحي الذي بشر به . فانفض من حوله انصاره ، وبدا كنوت محرراً ممكناً لانهاء نظام الارهاب الذي فرضه اولاف .

معركة نهر هيلج (١٠٢٦) . — وكان كنوت منهمكاً حتى ١٠٢٤ بتنظيم انكلترا وتهدئة الدانيارك والحملة ضد الفيند ، فلم يتمكن من نجدة المعارضين النورفيجيين . وفي شتاء ١٠٢٤ — ١٠٢٥ أرسل إلى بــلاط اولاف وفداً يطالبه بالتاج لشخصه ، فطرد اولاف هؤلاء الرسل ولم يعد بالإمكان اجتناب الحرب .

ولم يكن كنوت مستعداً للقتال في صيف ١٠٢٥ فانتهز اولاف هذه المهلة غير المنتظرة وفاوض بحلف مع ملك السويد الشاب ، آنوند جاكوب

الذي خشي من أن يمتد كنوت بفتوحه نحـو الشرق إذا ماأصبح سيد النورفيـج . وفي ربيـع ١٠٢٦ اضطر كنوت إلى الذهاب إلى انكلترا ، ولم يظهر في بحر البالطيك ، فقرر الأميران الهجوم . واجتمع الاسطول في مصب فيورد ترونجهيم ، ولكن كنوت بعد أن علم ببرنامج خصميه ، اندفـع بقوة في تعبئته ، وبسرعة لاتتصور وصل المياه الدانيماركية وسد الطريق في وجه أولاف الذي وصل في ذلك الحين إلى مقربة من شواطىء سيلاند . وقامت معركة كبرى بالقرب من مصب نهر هيلـج في شرق سكانيا ولم تدر في صالح كنوت ، وانطوى أولاف بانتظام ولم يستطع كنوت بسبب الخسائر الجسيمة التي تكبدها أن يفكر بملاحقته .

فتح النورفيغ (١٠٢٨ – ١٠٣٠) . – ولما لم يستطع كنوت تجديد هجومه مباشرة عمـد الى المناورات الدبلوماسية . فسعى إلى حل إلب النورفيج والسويد ، وحاول كسب آنوند . وفي آخر ١٠٢٦ قام بحجه الشهير الى روما واعلن غيرته الدينية المخلصة . واستدر عطف البابا وأمن مساندة الزعماء النورفيجيين ، وخـاصة ايرلنغ ، وفي الوقت نفسه اندفـع في تعبئتـه العسكرية ، وفي ١٠٢٨ اجتاز بحر الشمال باسطول مجهز على أحسن طراز وحاذى شواطىء جرمانيا ونزل في النورفيج وزحف على نيداروس ، وبعد ان اخضع البلاد المجـــاورة لها نودي به ملكا ، واضطر بعد ذلك ان يعود للدانيمارك ومنها الى انكلترا ، وعندئذ عاود اولاف الهجوم ، ولكـنه اضطر الى الهرب بسرعة الى السويد . وفي ١٠٣٠ قام باقصى محاولة لاسترجاع مملكته ، وغلب على أمره ، وقتل في معركة دامية في الشمال الشرقي من ترونجهيم (٢٩ تموز ١٠٣٠) وبقيت النورفيـج اخيراً لكنوت وخول سلطته فيها الى ابنه سفيند .

الامبراطورية الدانيماركية . — وبسقوط اولاف زالت آخر عقبة في تشكيل الامبراطورية الدانيماركية . وتجمعت تحت صولجان كنوت الكبير ثلاث ممالك : الدانيمارك ، انكلترا ، النورفيج ، يضاف لها الاراضي السلافية في وديان الاودر والفيستول السفلى . وصرح ملكا ايكوسيا وايرلندة بانهما تابعان للفاتح ، واعترفت بسلطته جزر شيتلاند واوركاد وربما هبريد ايضاً . ومخرت الأساطيل الدانيماركية عباب بحر الشمال والبحر البالطيك والجزء الشمالي من المحيط الاطلسي . وما من ملك في البلاد المسيحية اللاتينية مارس سلطته او نفوذه على اراض بمثل هذه السعة .

غير ان هذه الامبراطورية ينقصها التماسك والتلاحم . فهي تتألف من أجناس مختلفة ، وليس فيها شيء مشترك ، وانشئت على عجل وحسب الظروف ، وتعتمد على شخص المليك وحده . وادرك كنوت ان من المستحيل عليه ان يمارس سلطته بنفسه في كل مكان ، فخولها الى نوابه ومتعهم بسلطات واسعة : ففي الدانيمارك أخذ افتى ابناء كنوت ، هارتا كنوت ، لقب ملك ؛ وقسمت النورفيج بادىء بدء بين هاكون و ويك ، وليس لهما الا لقب كونت ؛ ثم سلمت في ١٠٣٠ الى الابن الآخر ، سفيند . وحكم كنوت انكلترا وحدها مباشرة ، واقام عادة في وسكس في وينشستر ،وضم بلاطه دانيمركيين ونورفيجيين وسويديين وحتى نورمانديين وانغلو – ساكسون . وهذا هو عنصر الصهر الوحيد بين مختلف اجزاء الامبراطورية. وفيما عدا ذلك حافظت كل مملكة على نظمها وتشريعها ، ومجالسها الخاصة ، دون وجود أي رسم لتنظيم عام .

حكم كنوت في انكلترا . — كانت انكلترا موضع اهتمام كنوت

الكبير . فقد وضعت أمامه قضايا دقيقة وبخاصة غداة الفتح . فكان يجب في آن واحد ارضاء الدانيماركيين وتمثيل الانغلو — ساكسون . وقد برهن الملك الشاب في هذا المعنى على مهارة حقيقية . كافأ الزعماء الذين ساعدوه في حملاته المتوالية بتوزيع الجزية ، ومنحهم امتياز الاراضي المصادرة وبعض وظائف الكونتات . ومن جهة أخرى ، حذف كل معارضة ساكسونية ، بالتخلص ، من كل من تسول له نفسه برئاسة حركة ضد النظام الدانيماركي ، واعدم على هذا النحو الأمراء الذين لايثق بهم مثل ادريك الذي تزوج بنت اثلرد ، واتيلنغ أحد ابناء الملك اثلرد وكان منفياً وتجرأ على الدخول لانكلترا : وارسل الى دوق بولونيا ، بوليسلاس اولاد ادموند ، وليحول دون أي هجوم من قبل ولدي اثلرد وايما ، الفرد وادوارد اللاجئين في نورمانديا ، تزوج امها وانتزع منهـا وعداً بان الاولاد الذين يلدون من زواجهما يفضلون في أخذ التاج على على اولادها من اثلرد .

ونظم كنوت انكلترا سياسياً واداريا بشكل يحول دون قيام أي ثورة ، واحتفظ بتقسيم المملكة إلى أربع دوائر كبرى تطابق الممالك القديمة ، ووضع على رأس كل منها (اوورلدومز) أي حكاماً عسكريين كباراً وقد عرفوا أحياناً بقساوتهم وجفائهم . وأنشأ بنفس الفكرة حرس الثينغمن ليحل محل الجيش الدانيماركي الذي سرحه في ١٠١٨ ، ويتألف من أغنى رجال البلاد من انغلو - ساكسون واسكانديناڤيين . وكان النظام في هذا الجيش المختار شديداً لدرجة فائقة ، وكان بيد كنوت أفضل اداة للسيطرة على انكلترا .

وحاول كنوت أن يدعم قوته ، وفي الوقت نفسه أن يتقرب من رعاياه باحترام اعرافهم . وفي ١٠١٨ عقد في اكسفورد مجلساً كبيراً قرر ، بناء

على طلبه ، بأن تستمر قوانين ادغار في إدارة انكلترا . وما من شك في أن هذا التدبير زاد في حب الشعب للفاتح ، فضلاً عن أن انكلترا تمتعت باستقلال ذاتي تام ولم يسهم سكانها إلا استثناءً بالحروب التي اقتضاها التوسع الدانيماركي . ولا نجد في الوثائق مايشير إلى أي جهـــد لادخال النظم الاسكانديناڤيـة في البلاد إلا في نقاط تفصيلية دون أهمية . ومـع هذا فقد تمتـع كنوت بشهرة المشرع ، ولكن نشاطه كان دوماً في اتجاه التقليد الانكليزي الذي نماه بكل بساطة ، ودل بذلك على روح سياسية حقيقية .

حكم كنوت في الدانيمارك . — ولا نعلم جيداً التدابير التي تسجل حكم كنوت في الدانيمارك . وشعبيته فيها أقل ظهوراً منها في انكلترا . في ١٠٢٦ قـامت حركة مقاومة رصينة ضده وكان روحها الكونت اولف وكان المعارضون يلومون كنوت على إقامته دون انقطاع في انكلترا ، ونادوا بابنه هارتا كنوت ملكاً ، فجاء كنوت إلى الدانيمارك حيث جعل الهجوم النورفيجي والسويدي حضوره ضرورياً ، وخضع المتمردون وأسهموا في معركة نهر هيلج ، ولكنه حقد على اولف وأمر بقتله في سورة غضب . ولم يعش بعدها في الدانيمارك وتنازل عن ادارة المملكة لهارالد بـــن تور كيل . ويبدو أنه لم يحاول أن ينشر فيها النظم الانكليزية ، وكل مايمكن أن يشاهد هو أنه نزع إلى إحلال مطران كانتوربري محل مطران هامبورغ عند مباركة الأساقفة ، وكان الملك يسمي هؤلاء الأساقفـة ، ولذا ادعى كنوت بأن له نفس السلطات الكنسية التي كانت للملوك في أوربة المسيحية الغربية .

حكم كنوت في النورفيج . — لقد كانت النورفيـج أثناء الفتـح الدانيماركي تتخبط في فوضى يرثى لها . وحاول كنوت أن يعيد إليها النظام .

وهنا نرى بعض التجديدات التي تشير إلى نفوذ الأعراف الأنغلو ــ ساكسونية : فالهبة العينية التي يهبها الرعايا النوروفيجيون في عيد الميلاد ، وبعض القوانين على الايرادات ، وقوانين الجزاء ، إنما هي تكيف واضح مع القوانين الانكليزية . لقد كان أثر كنوت قليل الشعبية في النوروفيج ، وما لبثت المعارضة أن قامت ضد ابنه سفيند الشاب .

سياسة كنوت الكبير الدينية . ــ كانت الامبراطورية الدانيماركية في آخر حكم كنوت الكبير فسيفساء ممالك متميزة يحكمها عاهل واحد . وكان الرابط الوحيد بين هذه الممالك خارجاً عن هذا الاتحاد الشخصي ، الرابط الديني ، لأن الامبراطورية الدانيماركية كانت امبراطورية مسيحية .

لقد أعتنق الملك نفسه قانون المسيح بكثير من الإخلاص ، وهذا الاخلاص يرى في كل ظاهرات تقواه . ولا شك في أنه خرق أكثر من مرة تعاليم الإنجيل الأخلاقية : فقد كان محباً للحرب ، فظيعاً ، شرساً عند المناسبة ، محباً للثأر والانتقام ، قليل الضمير عندما تكون له منفعة ، ومحافظاً على روح الفايكنغ ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يقدر كل التقدير تأثير الايمان المسيحي في نمو الحضارة . ولقد حقق التبشير بالإنجيل في البلاد الاسكاندينافية خلال حكمه تقدماً جديداً بمساعدة المبشرين الذين أتوا من الجزر البريطانية . ومنذ أن فتح كنوت النوروفيج لم يتخذ أي حيطة حيال الوثنيين الذين اضطر لمداراتهم حتى ذلك الحين ، واشتد النضال ضد عبادة الأصنام .

وأظهر كنوت الكبير حيال الكنيسة كل احترام ، ولكن علاقاته معها لم تكن على وتيرة واحدة . ففي بداية الحكم رأى فيها قوة يمكن أن تسهم في عمله فأخذ يداريها في سبيل منفعته ولكنه راعى بعض الحيطة

لئلا يثير عليه الجيش الدانيمركي الذي يضم كثيراً من الوثنيين والمنفيين النورفيجيين وكانوا كثراً في بلاط وينشستر . ولذا اقتصر على تعمير الكنائس التي دمرتها الغارات ، واغناء الأديرة بالهبات ، وتخويل الاكليركيين بعض الحرية ، ولم يجرأ على الذهاب إلى أبعد من ذلك . وتحت تأثير الأحبار الانكليز مثل اثلنوث الصالح ، مطران كانتوربري ، ولايفنغ ، اسقف كريديتون ، أصبح ايمانه أكثر عمقاً وأكثر اقتناعاً ، وتطورت بالتالي علاقاته مع الكنيسة ، وفي ١٠٢٢ نظم الكنيسة الدانيماركية ورسم المطران اثلنوث بناء على طلبه ثلاثة أساقفة جدد .

الحج الى روما (١٠٢٦ — ١٠٢٧) . — ثم قطعت مرحلة اخرى في آخر عام ١٠٢٦ بالحج الشهير الى قبر الحواريين . ومن الصعب الكشف عن أسباب هذه الرحلة . فقد صرح كنوت في رسالته إلى الشعب الانكليزي بانه يريد إيفاء نذر قديم للعفو عن ذنوبه . وربما كان يريد التكفير عن قتل أولف بعد أن ندم حقــاً على مافعل . ولكن هنالك أسباباً أخرى سياسية تضاف لذلك . ففي الوقت الذي انتزع فيه كنوت النورفيج من أولاف القديس ، حرص ولا شك ، على توكيد غيرته على الدين ، وحاول إقناع البابا بشرعية مزاعمه . وربما كان يريد تطمين كونراد الثاني على نتائج المشروع النورفيجي ، ولذا لم يكن حضور كنوت عرضياً في روما في آذار ١٠٢٧ أثناء التتويج الامبراطوري . وأخيراً كانت الكنيسة الانكليزية موضوع محادثاته مع البابا جان التاسع عشر ، ونظمت شؤونها باتفاق مع الكرسي الأقدس . وقد أصر كنوت في رسالته إلى الأنكليز على ضرورة دفع الاتاوات التي وعد بها إلى القديس بطرس ، وفي الوقت نفسه أعلن بانه حصل على تخفيض الحقوق الباهظة التي يتطلبها المطارنة لإرسال الوشاح (الطيلسان) الأسقفي. ومن جهة أخرى ، لاشك أنه عند عودته من

روما زاد في سلطته على الكنيسة الانكليزية : وابتداء من ١٠٢٧ تدخل بلاط وينشستر باستمرار في الشؤون الكنسيةوواجهها بشكل واقعي . وهذا يدل عند كنوت على اهتمام ظاهر لكل مايتعلق بالكنسية . وشيئاً فشيئاً أخذت الامبراطورية الدانيماركية شكل امبراطورية مسيحية ولا تتميز عن دول أوربة الغربية الأخرى إلا ببعض بقايا من روح الفايكنغ المصطبغة بالوثنية .

وفاة كنوت الكبير (١٢ تشرين الثاني ١٠٣٥) . — توفي كنوت في ١٢ تشرين الثاني ١٠٣٥ في شافتسبري ودفن في وينشستر في الابوية المهداة للرسل القديسين . وترك ثلاثة أولاد ، سفيند ، هارالد ، هارتا كنوت ، وبنتاً ، غونهيلد ، زوجة الامبراطور في المستقبل ،هنري الثالث . ومن الجلي أن امبراطوريته لم تعش بعده لأن الشقوق صدعت البناء الذي شاده على عجل . ففي انكلترا يجب الاعتماد على سلالة اثلرد وممثلوها لاجئون في نورمانديا ولهم أنصارهم وخاصة في ايكوسيا التي لم تستطع السيطرة الدانيماركية النفوذ إليها . وظلت الدانيمارك تكره الاتحاد مع انكلترا . وفي النورفيج ولد الحكم السيء للشاب سفيند وأمه والأزمة الاقتصادية ، التي عبر عنها بجاعة فظيعة ، إستياء فظيعاً ، فضلاً عن أن الكنيسة الاسكاندينافية اعلنت قداسة أولاف في (٣ آب ١٠٣١) وأصبح موضع إجلال شعبي ، وقبل عامين على موت كنوت ، في ١٠٣٣ ، تفجرت ثورة ولكنها اخفقت . وفي ١٠٣٥ أثار وصول **ماغنوس** بن القديس أولاف الحماسة . واضطر الشاب سفيند إلى اللجوء في الدانيمارك قبل أن يكون لدى كنوت المريض متسع من الوقت للتدخل ، وهذا الفرار كان ناقوس الخطر بالنسبة للامبراطورية الدانيمركية التي انهارت بسرعة كما أنشئت : ففي أقل من عشر سنوات على موت كنوت زال كل أثر له .

تفتيت الامبراطورية الدانيماركية
١٠٣٥ — ١٠٤٢

خلافة كنوت الكبير . — اذا أخذنا بما قاله بعض المؤرخين رأينا أن كنوت نظم في حياته مصير امبراطوريته وقسمها بين أولاده الثلاثة : فكانت النورفيج حصة سفيند ، والدانيمارك إلى هارتا كنوت ، وانكلترا إلى هارالد . وهذا الرأي مبني على حادث واحد وهو أنه في الوقت الذي زال فيه الملك تقلد هارتا كنوت حكم الدانيمارك وسفيند النورفيج بينما هارالد كان يقيم في انكلترا ، ولكن لاشيء يدل على أن كنوت اتخذ ترتيباته للمستقبل . ان تفتيت الامبراطورية الدانيماركية حالاً بعد وفاته كان ثمرة الظروف أكثر بكثير مما كان ثمرة إرادته .

ماغنوس ملك النورفيج . — كانت النورفيج في العام ١٠٣٥ في طريق استرداد استقلالها . فقد اعتزل سفيند في الدانيمارك ومات عام ١٠٣٦ ، ولم يبق أمام ماغنوس أي منافس . كان ماغنوس ، بن القديس أولاف ، قوياً بجاه اسمه وبصفاته الحربية اللامعة . اعترفت به في البدء بلاد ترونجهيم ثم كامل المملكة . وفتح موت كنوت أمامه مستقبلاً مليئاً بالوعود . وأيد موت سفيند آماله . وليزيل عن هارتا كنوت كل فكرة في الغزو انطلق عليه بهجوم قوي قاده إلى المياه الدانيمركية وبدأت حرب دامت سنتين (١٠٣٦ — ١٠٣٨) وعلى أثرها تصالح الأميران واعترف كل منهما بالآخر ملكاً ، واتفقا على أنه إذا مات أحدهما دون وارث خلفه الآخر ، وأدى موت هارتا كنوت في ١٠٤٢ إلى تطبيق هذا البند لصالح ماغنوس النورفيج الذي ورث عندئذ الدانيمارك . وحتى ١٠٤٧ حكم ابن القديس أولاف المملكتين . وحرصاً منه على تقاليد أبيه ، حمى

الايمان المسيحي ونشره في اسكاندينافيا بمساعدة ملك السويد ، آنوند جاكوب الذي يشاطره عواطفه وقناعته . وناضــل ضد الفيند وبمساعدة الجنود الساكسونية انتصر عليهم في شلزفيــغ . وأدى موته عام ١٠٤٧ إلى فصل النورفيج وخلفه عليها صهره ، هارالد ، واعترفـت الدانيمارك بسفيند استريشسون ملكاً .

هارتا كنوت ملك الدانيمارك . — إن تاريخ الدانيمارك تحت حكم هارتا كنوت (١٠٣٥ — ١٠٤٢) غير معروف جيداً . ويمثله المؤرخون كائناً نحيفاً هزيلاً مريضاً يخامره طوال حياته قضاء الله والخلود ، ولكنه كان مجرداً من هذه الجرأة التي ساعدت أباه وجده على كتابة صحيفة من أمتع صفحات العصر الوسيط . ولم يفكر هارتا كنوت بالمطالبة بعرش انكلترا حيث هيأ الاضطراب السياسي المديد فيها سقوط النظام الدانيماركي .

هارالد ملك انكلترا (١٠٣٥ — ١٠٤٠) . — وبعد موت كنوت تنازعت زوجتاه السيطرة على انكلترا . فاعتمدت إحداهما ، أوجيف ، أم هارالد ، على مرسيا وعلى بلاد الاحتلال القديم (دنلو) . وكان يدعمها كونت مرسيا ، ليوفريك . والأخرى إيما ، أم هارتا كنوت ، على وسكس والكونت غودون الذي لعب دوراً هاماً في السنوات الأخيرة من حكم كنوت الكبير ، وكافح بنشاط لصالحها .

انتصرت اوجيف في البدء . فقد انعقــد مجلس في اوكسفورد ساد فيه العنصر الدانيماركي ، وبفضل ضغط ملاحي التاميز ، نادى بهارالد ملكاً مع اعترافه بهارتا كنوت ملكاً على الدانيمارك . وحاولت وسكس الخروج على هذا القرار ؛ ولكن امتناع هارتا كنوت جعل هذه المعارضة غير ناجعة . ولارضاء الكونت غودون الذي يجب الاعتماد عليه ، سمح لايما

أن تحافظ على حكم وسكس . ولكن الملكة الطموحة على اثر المكايد التي دبرتها لصالح أحد أولادها من زواجها الأول ، الفرد ، الذي نزل في انكلترا في ١٠٣٧ ، نفيت إلى نورمانديا وتعلقت منذ ذلك الحين بتهيئة عودة أولاد اثلرد إلى مملكة أبيهم القديمة .

هارتا كنوت في انكلترا (١٠٤٠ - ١٠٤٢) . — إن موت هارالد في ١٧ آذار ١٠٤٠ أوقع ايما في ورطة كبرى ، وكان عليها أن تختار بين هارتا كنوت وأولاد اثلرد . وأدركت بسرعة ان انكلترا لم تنضج بعد لارجاع سلالة الفرد الكبير فلم تحاول معاكسة مجيء هارتا كنوت، الولد الحي الوحيد الذي بقي من أولاد كنوت . وهكذا توج الأمير الشاب ملكاً على انكلترا في ١٨ حزيران ١٠٤٠ . ودام حكمه سنتين (١٠٤٠ - ١٠٤٢) وكرهه الشعب فيها بسبب مطاليبه المالية وتدابيره الانتقامية من أنصار هارالد . وأدى موته (٨ حزيران ١٠٤٢) بسرعة إلى عودة الملوك الانغلو — ساكسون .

ارجاع السلالة الانغلية - الساكسونية الى انكلترا . — لقد تقدم ثلاثة مرشحين لحكم انكلترا : ملك النورفيج ، ماغنوس ، الذي أصبح ملك الدانيمارك ، وبه يمكن أن تتشكل من جديد امبراطورية كنوت لصالح بيت القديس اولاف ؛ ثم ابن أخ لكنوت ، سفيند ايستريشون ؛ وأخيراً ادوارد ، ابن اثلرد وايما . ونودي حالاً بهذا الأخير . وحاول سفيند أن ينزل انكلترا ، ثم بدا له واكتفى بأن ينتزع من منافسه وعداً بأن يكون خلفه . ولما كان ادوارد ، الملقب بـ المعرف قد نذر على نفسه نذر العزب فبامكان سفيند أن يتصور آمالاً لاتتحق لان غليوم الفاتح هو الذي سيحكم بعد ادوارد .

أثر كنوت الكبير . — تسجل السنة ١٠٤٢ اخفاقاً باتاً لمحاولة كنوت الكبير في ضم شاطئي بحر الشمال تحت السيطرة الدانيماركية ، ومن الممكن أن تعتبر تاريخاً هاماً في تاريخ اوربه الغربية التي قد يختلف تطورها كثيراً لو عاشت الامبراطورية بعد مؤسسها .

ومهما يكن عمل الفاتح الدانيماركي موقتاً فقد ترك آثاراً تدل على قيمته . لقد أدخل كنوت شعوب الشمال في اطار البلاد المسيحية الغربية . وعلى الرغم من ردود الفعل الوثنية ، العنيفة أحياناً ، فان تأثير الانجيل ظهر تدريجياً ومعه تأثير الكنيسة والبابوية . وفي العام ١٠٥٣ صدر قرار عن البابا ليؤن التاسع نظم ايسلاندة وغرونلاندا اللتين الحقتا كسائر البلاد الاسكاندينافية بطرانية هامبورغ وبعدها أتت جزر اوركاد بدورها واعتنقت المسيحية .

وفي الوقت نفسه تحولت الحضارة الاسكاندينافية وتقربت من حضارة الممالك الأخرى في اوربه الغربية . ولقد قبل بحق بأن حكم كنوت يسجل آخر عصر الفايكنغ ، وبالنسبة للبلاد الاسكاندينافية فجر عصور جديدة . فقد انتهت الغارات البحرية الكبرى ، وانطوت المملكتان الدانيماركية والنورفيجية على نفسيهما وانصرفتا للتجارة عوضاً عن القرصنة . وأوجد الاتحاد الموقت بين انكلترا والدانيمارك والنورفيج وتوسع النفوذ الدانيماركي في بلاد الفيند حركة مبادلات منظمة . ووصلت الفراء والحاصلات الشمالية الأخرى الى الموانئ الانكليزية . وباختصار لقد أصبح العالم الاسكاندينافي عنصراً من عناصر الحياة لا التخريب ؛ وهذا ولاشك نتيجة أساسية من نتائج الأثر الذي انجزه كنوت الكبير .

الفصل السابع والعشرون

الملوك والتابعون

في النصف الأول من القرن الحادي عشر

النتائج السياسية للنظام الأميري . — ان استقرار النظام الأميري في ممالك اوربه الغربية يعتبر أعظم حادث في تاريخ القرن العاشر السياسي الى جانب ارجاع الامبراطورية على يد اوتون الكبير . وان الصفة الأساسية لهذا النظام ، في ذلك العصر ، هي اغتصاب الموظفين للحقوق الملكية . وقد وضعت الأسئلة نفسها في كل مكان : هل يقبل الملوك نهائياً بهذا الوضع المتصاغر ويتركون الأمراء ينزعون منهم امتيازاتهم الأخيرة التي حافظوا عليها ، أو انهم ، على العكس يحاولون استعادة ما أجبروا على التخلي عنه ؟ وهل يحاول الاتباع بدورهم تخطي العوائق التي تقف عثرة في طريق استقلالهم التام ؟ لقد بدأ هذا النزاع في كل مكان وبصفات مشتركة ومتنوعة ، حسب البلاد ، ولذا يحسن أن نستعرضها ونبرز أهميتها .

ضعف السلطة الملكية في المانيا

سلطة اوتون الكبير الملكية . — لقد كانت المملكة الجرمانية ، من بين جميع الدول الغربية ، المملكة التي كوفح فيها النظام الاميري

بالقوة ، واستطاعت السلطة الملكية ، بفضل سياسة النهوض وتقويم الوضع التي سلكها هنري الاول واوتون الاول أن تسترد المواقـع التي خسرتها أثناء الدمار العام الذي تلا زوال الامبراطورية الكارولنجية . وبفضل اشراك الابن في التاج في حياة أبيه استطاع المبدأ الوراثي أن يتماسك ويبقى : فعند وفاة هنري الأول (٩٣٦) ووفاة خلفائه وثق الانتخاب الروابط الدموية وأصبح هذا التقليد قوياً ، وفي اليوم الذي تنطفيء فيه السلالة الساكسونية يرتفـع أخيراً صوت الأمراء لصالـــح أقرب قريب للأوتونيين . وفوق ذلك ، استعادت السلطة الملكية في عهد أوتون الأول صفة السيادة التي خسرتها أثناء حـكم لويس الطفـل (٩٠٠ — ٩١١) وكونراد الأول (٩١١ — ٩١٨) . وكان للملوك الساكسونيين نفس البانـّوم ، أي نفس السلطة العامة في لأمر كالملوك الكارولنجيين ، ويضاف إليها حق العفو ، وبموجبه يستطيعون في آن واحـد أن يلغوا العقوبات التي أعلنها أتباعهم ويفرضوا بأنفسهم عقوبات على مخالفة أوامرهم . وكانوا يتصرفون بادارة قوية تخـدم نزعاتهم الاستبدادية : فقـــد بقي البلاط الكارولنجي مع كبار موظفيـه الذين يعتبرون مشاورين عاديين للملك . وجرت العادة مجدداً على عقد مجالس كبرى ، وجعل الحضور فيها إجبارياً على كل من يدعون إليها تحت طائلة اعتبارهم متمردين . ووجـد أخيراً أن اوتون الكبير استطاع أن يصنـع ادواتاً كانوا سادة ألمانيا الحقيقيين في منتصف القرن العاشر ، وأن يفرض على المارغرافات والكونتات بـل وحتى الأساقفة دور مندوبين مقلدين وظائف عامة . وبكلمة ، لم يكن الجميـع من علمانيين وكنسيين إلا ادوات في يد الحكم المطلق الملـكي .

وإذا طور أوتون الأول النظم في اتجاه ملائم للتاج فلم يستطـع محو ذكريات الماضي وحذف الطموح والجزع والتوق إلى إرضاء الرغبات في

الأطر القديمة التي مازالت قائمة . ولكنه شلها بمهارة بتصنيفها من جديد وجعلها دوقيات ووضعها في أيدي أقربائه وأصدقائه . فقد أعطيت بافاريا إلى أخيه هنري ، زوج جديث ، أرملة الدوق آرنولف القديم ، والسؤاب إلى صهر هذا ، بركارد ، وفرنكونيا إلى هرمان بيلونغ رجل ثقته . وبفضل هذه التدابير الحاذقة لم تعرف الملكية الساكسونية مقاومة حقيقية حتى ٩٧٣ . ولكن لم يكن لهذه الوسائط إلا تأثير موقت ، فضلاً عن أن إرجاع الأمبراطورية وضع القضية الايطالية واضطر أوتون الأول الى الغياب كثيراً عن المانيا ، فنشأ عن ذلك بعض الانفراج في ممارسة السلطة ساعد على الأقل بعض الأدواق الطموحين على الامـــل . وعندما زال الامبراطور الكبير قامت معارضة وبدأت تنمو تبعاً للظروف الخارجية : وذلك أن الالتزامات الناشئة عن ارجاع الامبراطورية أدت إلى أفول الحكم الملكي المطلق في المانيا نتيجة للمقاومات والمنازعات التي نشبت في في الأقاليم الألمانية .

الملكية الجرمانية عند وفاة هنري الثالث . — كانت وفاة هنري الثالث في ٥ تشرين الأول ١٠٥٦ نكبة حقيقية لألمانيا . لأن الوضع الخارجي كما رأينا ، لم يكن لامعاً . وفي الداخل كان على الملك أن يحسب حساباً للأدواق الذين لم يستطع أن يحركهم حسب هواه ، وأخذوا يطالبون بامتياز التصرف بمناصبهم حسب التعاملات الوراثية .

وكان لهنري الرابع ، وريث الامبراطور الراحل ، أربع سنوات من العمر ولذا كانت الوصاية ضرورية ، وليس في ذلـــك مايعيد القوة إلى السلطة الملكية الضعيفة . ولذا فان النظام الأميري الذي استقر في ألمانيا عند وفاة هنري الثالث رسخ أكثر من ذي قبل . فقد كان الأدواق والمارغرافات والكونتات يظهرون باعمال إيجابية أنهم مستقلون عن التاج ، وتهيأت على هذا

النحو حركة أدت في بدء النزاع بين الكهنوت والامبراطورية إلى انتخاب ملك ثان عوضاً عن هـــنري الرابـع المخلوع ، دوق سؤاب رودولف راينفيلدن (١٠٧٧) .

قصر هنري الرابع . — أخذت الامبراطورة آنيس الوصاية على ابنها هنري الرابـع عند وفاة أبيه هنري الثالث . فاصطدمت مباشرة بصعوبات مختلفة حلنها بكثير من الفطنة والحكمة . وكان بودون الخامس في فلاندر يؤمل بفضل هذا القصر أن يتمم الفوائد التي اكتسبها سابقاً . وفي ثغور الشمال فتح موت المارغراف غليوم ، الذي قتـــل في كفاح بائس ضد الليوتيس (١٠ أيلول ١٠٥٦) ، ازمة وراثة مزعجة : لأن أخ الراحل من أمه ، أوتون الذي طرده اودون شتاد الذي يتمتع بثقة البلاط ، حاول إثارة ساكس . وفي فرانكونيا ، ثار فريديريك غلايشبرغ ، بينما أخـذ السلافيون يتحركون على حدود الأيلب .

أمام هذا الفوران العام ، سلكت الوصية سياسة رشيدة أصوليـة : جردت بودون من سلاحه باعترافها بتملكه جميـع الاقطاعات التي كانت مرتبطة بالفلاندر في زمن هنري الثاني . وفي صيف ١٠٥٧ قلدت هنري الرابـع إلى بادربورن ، وأمن موت اوتون في حرب هاوس ـ نايندورف إلى أودون وراثـــة ثغور الشمال ، وأدى إلى الهدوء في ساكس . وفي فونكونيا أخيراً ، قمع خروج فريديريك غلايشبرغ دون صعوبة . وتوطد الهدوء في كل مكان ، واستمر حكم هنري الثالث بفضل حصافة آنيس . غير أن الوصية ، للحيلولة دون استياء الأمراء ، كانت مضطرة لسلوك سياسة التخلي . وعندما مات اوتون الثالث السؤابي (٢٨ ايـــلول ١٠٥٧) اسلمت الدوقية إلى رودولف راينفلدن ، عـدو الملك في المستقبل ، واهتمت بخطوبته إلى إحدى بناتها ، ماتيلد ، ولتعوض على الكونت برتولد الذي

وعده هنري الثالث بوراثة اوتون قلدته كارنثيا (١٠٦١) . وتخلت في الوقت نفسه عن حكم بافاريا التي كانت تديرها منذ وفاة ابنها الثاني ، كونراد ، لصالح الكونت الساكسوني اوتون نوردهايم . ورغم كل هذه التنازلات خلعت في نيسان ١٠٦٢ ، إثر انقلاب نظمه مطران كولونيا ، آنون ، ودوق بافاريا الجديد . وهكذا تأكد ظفر الاقطاعية العليا الألمانية وأصبحت أقوى من الملكية . وفي الوقت نفسه تحررت الكنيسة من الوصاية الجرمانية ، وأتفق سقوط القيصرية البابوية الامبراطورية مع سقوط الحكم الملكي المطلق . وافتتحت أزمة فظيعة بالنسبة للملكية الفرنكونية ، وأتسمت في آن واحد بالنزاع ضد البابوية والنزاع ضد الأمراء الألمان ، وأصبح كل من هذين النزاعين غير منفصل عن الآخر .

فرنسا في عهد أوائل الكابسيين

اوج النظام الأميري . — لقد اتفق تغيير السلالة في فرنسا عام ٩٨٧ مع أوج النظام الأميري . وعندما قبل هوغ كابيت التاج ، بعد أن أصبح شاغراً بموت لويس الخامس الكارولنجي ، انقسمت المملكة إلى خمسة عشر ملكاً كبيراً ، دول اقليمية حقيقيـــة ، تحكمها سلالات وراثية تخرج بتمامها عن نفوذ الملك وتنقسم بدورها إلى عدد من الأمارات التابعة التي اغتصب أصحابها بدورهم الحقوق الملكية . وبدت خارطة فرنسا على هذا النحو فسيفساء واسعة تعلوها بعض وحـــدات مهيأة لتشكيل إقطاعات كبرى .

ان الاختلاف بين فرنسا وألمانيا يبدو في أن المانيا منقسمة إلى دوقيات أقل عدداً وذات طابع جنسي أكثر ظهوراً . ومن جهة ثانية ، بينما كان الأدواق وتابعوهم في المانيا ، في زمن الأوتونيين ، موظفي الملك ،

لم يكن لهوغ كابيت على الوحدات الأقليمية الكبرى إلا سيادة وهمية . وفي المانيا ، كان هم الملكية الإبقاء على إمتيازاتها ، بينما كان همها ، في فرنسا ، استرداد هذه الإمتيازات .

الكنيسة . — في المملكة الجرمانية ، دخلت الكنيسة في أطر النظام الأميري وأصبحت قوة أرضية كبرى ، ولكنها غير وراثية ، وظل الملك سيد الاسقفيات ويسمي القائمين عليها . وفي فرنسا ، كانت سلطة الملك على الكنيسة محدودة كثيراً ، وسلطة الاقطاعيين الكبار ، سادة « الأسقفيات الأميرية » نامية بالمقابل . لقد كان الأسقف يتمتع في الغالب باستقلال حقيقي ، واستطاع أن يكسب السلطة الزمنية على الأقل في مدينته الأسقفية ، ولكنه في جرمانيا لا يتمتع بالسلطة الدومينية الواسعة التي خولت إليه ، وسيكون للأسقفية دور سياسي هام جداً في بعض الحالات ، وبدت الكنيسة مع الاقطاعية ، في فرنسا ، أكبر قوة تحسب الملكية حسابها .

السلطة الملكية . — ينتج مما تقدم أن السلطة الملكية ظلت ممحية جداً : فقد كان هوغ كابيت مرتبطاً بصورة وثيقة بالاقطاعية التي انتخبته ، وبالكنيسة التي باركته ، ولا يستطيع شيئاً دون واحدة منها . ومع هذا ينبغي ألا نبالغ بضعف السلطة الملكية ، فقد احتفظت ، على قلتها ، ببعض الحظ ومن الممكن أن تستغله في الوقت المناسب .

لقد كان هوغ كابيت سيد دولة شبيهة بهذه الوحدات الاقليمية . وهذه الدولة هي الدومين الملكي الذي أثقل فقدانه ابتداء من القرن الحادي عشر مصير الملكية الجرمانية . ويتألف هذا الدومين من البلاد التي كان يملكها شخصياً عند انتخابه ، ومن البلاد التي عادت إليه من الارث الكارولنجي : فمن جهة ، منطقة باريس ، ايتامب ، اورلئان ، مولن ؛

ومن جهة أخرى ، بلاد الراين والواز مع كومبين و رنس ولأن . ومع هذا فقد قلت قيمة هذا الدومين في آخر القرن العاشر لما منحه الملك من اقطاعات عديدة لمقربيه أو اعترافا منه بجميل ، فضلاً عن أن سلطة الملك انيبت بسلطة تابعين علمانيين صغار في بعض المناطق .

ومع هذا ، لايمكن إهمال هذا الدومين . فهو يتمتع بموقع ممتاز ، وسينمو ويكبر عندما تتاح للملك القوة المادية الكافية ويجعل إمتيازاته النظرية ، المرتبطة بوصفه سيداً ، عملية .

ولا مجال في الواقع لانكار قيمة الحقوق التي حصل عليها الملك من الرابط التبعي الذي يربط كبار الاقطاعيين به . وإذا كانوا ، واقعاً ، متساوين ، فهو ، حقوقياً ، أعلى منهم : لأنه يستطيع أن يطلب منهم خدمة البلاط ويدعوهم إلى مجالس النظر ، حسب التعبير الشهير لفولبير شارتر ، في قضايا « العـدل والصلح وحالة المملكة وشرف الكنيسة » ؛ وهو مصدر كل حق، ويستطيع أن يصدر إرادات عامة مشتركة لكل من هو داخل في المملكة الفرنجية ؛ وهو أيضاً حارس السلام ، وعدله أعلى من أي عدل آخر . ويضاف إلى هذه السلطة المبنية على الحق الاقطاعي ، سلطة تأتيه من المباركة : فالملك « مسيح الرب » ، وهـذه الصفة تخوله قوة معنوية وجاهاً دينياً يجعلانه أعلى من كبار تابعيه . وسيأتي يوم يمارس فيه هذه الامتيازات المختلفـة ويبني الحكم الملكي المطلق على انقاض النظام الأميري ، وسيخلق الوسائل الكفيلة لتوسيع الدومين الملكي بتدخـلات ماهرة في الخلافات بين كبار التابعين . وسينصرف أوائل الكابسيين لهذا العمل المزدوج في علاقاتهم مع العالم الاقطاعي . ولكن يجب في البـدء تسوية القضية السلالية التي كانت تفوق في العـام ٩٨٧ سائر القضايا الأخرى كلها .

القضية السلالية . — بعد انتخاب هوغ كابيت ومباركته وجد نفسه أمام منافس ، شارل ، دوق اللورين الدنيا ، اخي لوثير وآخــــر ممثل للعائلة الكارولنجية . ولم يكن حظه قليلا . فقد وجد في دوقيته القوى الضرورية للنزاع ؛ ومن جهة أخرى ، حافظ في الدومين الكارولنجي القديم على علاقات سرية وبفضلها يستطيع فرض سلطته وتأمين مستقبل عائلته .

حكم هوغ كابيت (٩٨٧ – ٩٩٦) . — لقد انصرف هوغ كابيت في السنوات الأولى من حكمه لتأمــين مستقبل سلالته ببعث تعامل كارولنجي . فبعد بضعة أشهر على انتخابه أشرك في الملكية ابنه البكر روبير (٣٠ كانون الأول ٩٨٧). وكان هذا العمل منه جرأة عبقرية . فبفضله أصبحت السلطة الملكية التي يمارسها الملك وابنه معاً غـــير قابلة للقسمة ووراثية ، ولذا ، عندما يزول أحد الملكين ، يبقى الأخر مقلداً الوظيفة التي يمارسها وحده ولا ضرورة للانتخاب ، كما أن فكرة التقسيم بين اولاد المتوفى تصبح غير واردة . وهذه السابقة التي بعثها هوغ كابيت دامت في عهد خلفائه . فقد اشرك روبير معه ابنه هوغ ، وبعد موت هذا الأخير ، ابنه الآخر ، هنري الأول ، وسيبارك هذا الملك في حياته ، ابنه فيليب ، رغم أنه مازال قاصراً .

كذلك حدد هوغ إتجاه السياسة الكابسية في علاقاتها مـع تابعيها . فمن جهة ، حاول إنماء الدومين الملكي ، ولم يكتف بان يشمل الممتلكات الكارولنجية ، بل ضم سانليس و درو اثر إنطفاء السلالات المحلية . ومن جهة أخرى ، تدخل في الحرب القائمة بين تابعين من تابعية الكبار ، كونت آنجو ، فولك نيرا ، وكونت بلوا ، اود الأول . وفي شباط ٩٩٦ ، أي في الوقت الذي يحاصر فيه اود فولك في لانجيه ، ظهر على اللوار وأجبر كونت بلوا على طلب هدنة ساعدت الانجفي على تجنب الاخفاق .

على أنه يجب ألا نبالـغ في قيمة هذه الحوادث . والصحيـح هو أن الدور السياسي ، الذي لعبه هوغ كابيت ، يؤكد من جانبـه على تفهم حقيقي للوضع . فقد استطاع طوراً وطوراً أن ينمحي ويتقدم ، وحافظ ، باعتداله الذي لاينفي القوة ، على مواقـع الملكية تجاه التابعين الكبار وساعـد سلالته على البقاء .

روبير التقي (٩٩٦ - ١٠٣١) . - وأكمل روبير التقي من ٩٩٦ إلى ١٠٣١) عمل أبيه وسلفه هوغ كابيت . وقد صور مترجم حياته ، هيلغود ، سيماءه بكثير من الفـن وأعطى صفتين أساسيتين لطبعه : التقوى والنشاط . ولم يكن ، كما ظن طويلاً ، أميراً يجيد الانشاد على المقرأ في الكنيسة ، بل أيضاً كان فارساً يحب الصيد والحرب، وأسهم بشخصه في حملات عهده ، ولم يخش أن يعرض نفسه للخطر . غير أنه رغم خضوعه لقوانين الكنيسة ، لم يضح بمطالب مزاجـــه الشهواني : فقد عشق ابنة عمه بيرت أرملة كونت بلوا ، وتزوجها زواجاً غير شرعي بعد أن طلق زوجته الأولى ، سوزان ، وقبل أن يكون خـــلال خمسة أعوام تحت ضربة الحرمان (اللعنة) غير أن عقم هذا الاتحاد الذي شجبته الكنيسة جعله ينفصل عنّ بـيرت ويتزوج كونستانس آرل التي عوضت كثرة نسلها قباحة طبعها .

فتح بورغونيا . — سار الحكم سيراً لامعاً في البدء .ففي ١٥ تشرين الاول ١٠٠٢ توفي دوق بورغونيا ، هنري ، عم روبير ، دون أن يترك ولداً ، فطالب بارثه الملك وتابـع لهنري ، كونت بورغونيا ، أوت ـ غليوم . وتقدم اوت واحتل الدوقية . فلم يخف روبير . وفي ربيـع ١٠٠٣ عاث في بورغونيا حتى الصون . وفي ١٠٠٥ انتصر انتصاراً حاسماً وتم له فتـح

بورغونيا التي زادت شوكة الملكية . وعهد روبير بادلرة الدوقية إلى ابنه هنري ، ولكنه ظل فيها سيداً ، ولكن هنري الأول أقطعها فيمابعد إلى أخيه روبير فأضاع بهذا فائدة المغامرة التي قام بها أبوه .

روبير التقي والاقطاعية . — وفي الوقت الذي كان ينمي فيه روبير الدومين الملكي ، حاول تثبيت سلطته على العالم الاقطاعي . فقد دعم حركة سلام الله . وقاوم الاقطاعية الصغرى في الدومين وقمع شططها بشجاعة ، ولم يتردد في تهديم القصور .

إلا أن روبير كان أقل حظاً من غيره في علاقاته مع كبار التابعين . وعندما توفي في ٢٠ تموز ١٠٣١ ، كان وضع الملكية قلقاً في بعض جوانبه .

هنري الاول (١٠٣١ — ١٠٦٠) . — كان خلف روبير الأول ، ابنه هنري الأول ، ولم تكن له قيمة أبيه وجده . ورغم الظلال التي تغشى سماءه ، يمكن القول بأنه لايشبه أسلافه . فقد أثار استياء رجال الكنيسة بجشعه المثالي الذي دفعه دون عذاب ضمير إلى بيع الأسقفيات والمناصب الكنسية الأخرى . وذكاؤه على مايبدو ضعيف . وإذا برهن في عدة ظروف على الشجاعة الفروسية فلم يستطع مقاومة خصومه الكبار .

الازمة السلالية والنزاع ضد آل بلوا . — افتتح الحكم بأزمة عائلية عندما قام أصغر أولاد روبير التقي ، ويسمى روبير أيضاً ، ينازع أخاه على التاج بمساعدة أمه الملكة كونستانس التي كانت تظهر تفضيلها له . ورأى أود بلوا في ذلك فرصة للدخول في النزاع وأبدى رأيه لصالح المنافس الفتى . وبقي جيرانه ، منافسوه ، مثل دوق نورمانديا و كونت آنجو و كذلك كونت فلاندر مخلصين لهنري . وبمؤامرة كونستانس احتل أود سانس . واضطر هنري إلى اللجوء في نورمانديا ولكنه ماعتم

أن عاود الهجوم ووقف بمساعدة فولك نيرا كونت آنجو أمام سانس ولم يستطع دخولها على مايدو (تموز - آب ١٠٣٢) . ثم عادت كونستانس إلى عواطفها الطيبة وتوطد السلام ، وعوض هنري على روبـــير بدوقية بورغونيا وألغى بذلك أكبر فائدة حصل عليها روبير التقي . واستمر في نضال اود الذي كان ينازع كونراد الثاني على مملكة بورغونيا . ومن هنا تم تقارب بين الامبراطور وملك فرنسا وتقابلا في دوفيل على الموز (أيار ١٠٣٣) وبذلك نقلت الحرب إلى الشامبانيا واللورين وتوالت حتى موت اود في حرب بار (١٥ تشرين الثاني ١٠٣٧) . ولم يؤد موت الأمير إلى السلام . وكان على هنري أن يكافح لعدة سنوات أخر ضد ولديه : إيتين وتيبو اللذين تقاسما دوله ، وأخذ احدهما بلوا وشارتر ، والآخر الشامبانيا . ولكنه حول بجبارة الحرب نحو آنجو ، وقلد الكونت جوفروا مارتل ، خلف فولك نيرا ، منطقة تورين ، وأخيراً غلب ايتين وتيبو في نوي واضطرا إلى الصلح (١٠٤٤) . وبعد لأي استطاع هنري في العام ١٠٥٥ ، عند وفاة الفيكونت رينار ، أن يعوض سانس وانتهت الأزمة التي بدأت في فاتحة الحكم .

هنري الأول ونورمانديا . — وكان لهذه الأزمة صدى آخر غير منتظر . فقد استنجد هنري الاول بالنورمانديين في حربه ضد اود بلوا . وليشكرهم على مساعدتهم ترك للدوق روبير الشيطان ، الفيكسان الفرنسية . ولكنه جوزي جزاء سنمار بهذا الاقتطاع للدومين ، وذلك لأن خلف روبير الشيطان ، غليوم الدعيّ (ابن حرام) ، رغم نجدة الملك له ضد باروناته الثائرين ومساعدته له في نزاعه ضد كونت آنجو ، جوفروا مارتل ، أصبح أفظع عدو له ، ومات هنري الأول في ٤ آب ١٠٦٠ والحرب مازالت قائمة .

المملكة الكابسية عند وفاة هنري الأول . — ان الوضع الذي اورثه هنري الأول لابنه فيليب الأول ، الذي بورك في ٢٣ أيار ١٠٥٩ كان أخطر من الوضع الذي وجده عند تسلمه العرش. ودام حكمه ثلاثين عاماً وكان مطبوعاً بتراجع السلطة الملكية . لأن الدومين الملكي باقطاع دوقية بورغونيا والتخلي عن الفيكسان الفرنسية إلى نورمانديا ، اقتصر على المنطقة الباريسية مع الملحق مونترويي — على — البحر ، وهو صداق الملكة سوزان ، الذي حافظ عليه روبير بعد طلاق الأميرة البائسة . وفوق ذلك لم يكن الملك قادراً على فرض احترامه على تابعيه الكبار الذين لم يخشوا مهاجمته وفرض هزائم مخزية عليه . غير أنه يرى ، من جهة أخرى، عمل تعمير وتجمع في الدول الاقليمية المجاورة للدومين الملكي : في الفلاندر و نورمانديا وآنجو .

وباختصار ، ان خارطة شمال فرنسا لم تتطور لصالح الملك الكابسي. ولا شك في أن الرابط الحقوقي ، الذي يربط التابعين الكبار بالملك ، مازال مرعياً . ففي مباركة فيليب الأول (٢٣ أيار ١٠٥٩) وجد دوق اكيتانيا وممثلون عن دوق بورغونيا وكونت فلاندر وكونت آنجو . ولكن هذا العمل ليس سوى عمل طقسي ودون أهمية ، لأن كل واحد من هذه الشخصيات سيد في اقطاعه ويعامل الملك معاملة الندللند . وقد أخفقت جهود الملكية ، فلم يكبر الدومين . وكانت امتيازات السيادة وهمية . وترك هنري الأول خلفاً له ، ولداً عمره ثمانية أعوام ، فيليب الأول . وزاد هذا القصر في وضع الملكية خطورة .

قصر فيليب الأول (١٠٦٠ — ١٠٦٧) . — عهد هنري الأول قبل وفاته بالوصاية إلى كونت فلاندر ، بودون الخامس . ولا يعلم جيداً تاريخ المملكة في هذا الدور الذي امتد حتى موت بودون (١٠٦٧).

ولكن ينتج من بعض سير القديسين ومراسلة مطران رنس ، جرفية ، وجود قلاقل اقتضت تنازلات من جانب بودون . وكان لهذه السياسة فائدة في الحفاظ على هدوء نسبي . ولكن الصحيح هو أن الاقطاعية قوت مواقعها : ففي داخل الدومين ، اضطرب الأمن خلال حكم فيليب الأول كله وفي الخارج ، بدأ الحكم الشخصي للمليك الشاب باخفاق مدوٍ في فلاندر ، وحدث في آخر وصاية بودون حادث آخر خطير : وهو أن دوق نورمانديا ، غليوم الفاتح ، الذي يمكن اعتباره أقوى تابعيه الكبار ، أصبح في العام ١٠٦٦ ملك انكلترا ، ولم يكتف بانشاء قوة أرضية لا حد لها بالنسبة لقوة الكابسيين ، بل بدا للملك نداً ومساوياً في التسلسل . ولذا فان قضية علاقات الملكية الكابسية بالاقطاعية امحت ، نوعاً ما ، أمام تنافس الملكين . وسيسلك كبار التابعين أحد سبيلين : أما التجمع حول الملكين ، واما الوقوف مراقبين خلافاً من أكبر خلافات العصر الوسيط في الغرب الأوربي . وكما تطور تاريخ جرمانيا الداخلي حول نزاع الكهنوت والامبراطورية في اليوم الذي تحررت فيه الكنيسة ، كذلك الحقت جميع ظاهرات الحكم وسياسة الكابسيين ، ابتداءً من ١٠٦٦ ، بمنافستهم مع السلالة النورماندية التي نشأت عن فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح .

انكلترا في عهد ادوارد المعرف

النظام الأميري في انكلترا . — لقد وجد النظام الأميري في انكلترا ، وأصوله فيها قديمة جداً ، وحقق تقدماً كبيراً في القرن العاشر أثناء النضال ضد الدانيماركيين . ففي عهد آثيلستان (٩٢٥ — ٩٣٩) كان كل رجل حر مجبراً على أن يكون له أمير أو (ثان) . ويوجد أمراء بقدر ما يوجد قرى . وهذا الأمير ، في الغالب ، ملاك أراض

ويملك على الأقل خمس هايـدات من الارض ، وملزم في الوقت نفسه بالتزامـات عسكرية . ويمكن أن يتبـع الملك مباشرة أو أن يكون ملحقاً بأمير (ثان) آخر . وسلطاته ، مثل سلطات التابعين في القارة ، متغيرة : فأحياناً يكون له حق القضاء في أراضيه ، وأحياناً يكون مجرداً من هذا الحق .

وفي الوقت نفسه يرى نشوء اقطاعية كبرى وراثية أخذت بعد الدور الدانيماركي تحتكر السلطة . ولمقاومة الغزاة بقوة جمـع ادوارد الشيـخ (٨٧٩ — ٩٢٥) وآثيلستان (٩٢٥ — ٩٣٩) عدة كونتيات تحت امرة رئيس واحـد (الدورمان) وكانت سلطته القضـائية في الاصل قاصرة على الكونتية ، ثم امتدت على أراضي تضم كثيراً من الكونتيات المشابهة للوحدات الاقليمية الفرنسية الكبرى : فقد كانت وسكس في عهد اثلرد (٩٧٨ — ١٠١٦) مقسمة بين حاكمين (الدورمان) وفي مرسيا ، يدير الالدورمان معظم المملكة القديمة تقريباً . وقد أخذ هؤلاء الحكام ، بسبب وظائفهم ، أهمية كبرى ، وسيجدونها بعد الدور الدانيماركي . وقد حافظ كنوت عليهم ، ولكنه خفض عددهم إلى أربعة ، وحكم كل واحد منهم مملكة من الممالك القديمة ، وقبض عليهم بيده لئلا يعتدوا بشيء على السلطة الملكية . وعندما زال الفوا بسرعة ارستقراطية وراثية أخذت تعادل قوتها قوة الملك .

السلطة الملكية . — بقي الملـك ، نظرياً على الأقل ، سيداً على انكلترا ، وكان كذلك فعلاً في ظل النظام الدانيماركي ، وتمتع بامتيازات هامة : فهو رئيس الجيش والقاضي الاعلى ؛ وله دومين واسع ، وعدا عن الايرادات التي تأتي منه ، كان يأخذ أيضاً موارد هامة من الغرامات ورسوم المرور ورسوم السوق والضرائب غير المباشرة الاخرى ، ولكنه

لايستطيع أن يشرع ، أو يقضي ، أو يعلن الحرب ، أو يجبي الاتاوات دون تدخل **مجلس العقلاء** أي الاساقفـــة والالدورمن وموظفي البيت الملكي . وهكذا كانت سلطة الملك محدودة جداً ، ومحدودة أكثر من ذلك أيضاً في الادارة المحلية لان هـذه الادارة في معظمها تخرج من يد الملك .

والادارة المحلية شيء كثير التعقيد . والدائرة هي الكونتية (شاير) التي يحكمها في آن واحد **الاسقف**، الدورمـان ، وهو مشترك لعدة كونتيات ، وهو فيها الزعيم العسكري ؛ **والشريف** (سيرمان) ويسميه الملك ويكلف بجباية الضرائب والقضاء وتطبيق القانون . وهذه الازدواجية في الادارة لايمكن إلا أن تضر بسلطة الملك . وفي الواقع كان الشريف يقبض على محكمة الكونتية ويرأس جلساتها . ولكنه لايملك حرية حركاته : فمن جهة يساعده الملاكون العقاريون ومندوبو القرية الذين يؤلفون محكمة الكونتية ويقومون لديه بدور «**مجلس العقلاء**» لدى الملك ؛ ومن جهة أخرى ، يصطدم دوماً بالالدورمان الذي كان في القديم ينتخب انتخاباً ثم أصبح وراثياً وأصبح زعيماً قومياً ، نائباً حقيقياً للملك وتفوق سلطته بالضرورة سلطة الملك . وعلى أثر الاضطرابات التي تلت موت كنوت الكبير نجد ارستقراطية الالدورمان ، وكل منهم يسيطر على عدة كونتيات ، احتجزت السلطة لصالحها ، وتوصلت بعد الرجعة الانغلية ــ الساكسونية لان تقوم في عهد ادوارد المعرف (١٠٤٢ — ١٠٦٦) بالدور الذي لعبه الكارولنجيون سابقاً لدى أواخر الميروفنجيين . وبهذا الاعتبار ظهر ظفر النظام الاميري في انكلترا أكثر مما ظهر في ممالك اوربة الغربية الاخرى .

ادوارد المعرف . ـــ كان ادوارد ، الذي دعي لحكم انكلترا عـام

١٠٦ ابن اثلرد ، ولقب بالمعرف . وهـــذا اللقب يكفي لتميز هذا الملك الذي هيأته تقواه الحارة ليكون راهباً . ويمتدح المؤرخون أيضاً سيرته الجليلة وصلاحه العظيم الذين خولاه بعض الجاه ان لم يكن كثيراً من السلطة . وخطأه الكبير هو أنه عاش خمساً وعشرين عاماً في نورمانديا ولم يعرف جيداً المملكة التي دعي لادارتها . وكان مزاجه السلمي يتراجع أمام الصعوبات ، ويترك الامور تجري على عواهنها . غير أن بطانتـه النورماندية المؤلفة خاصة من اكليركيين ، مثل اولف و روبير جوميـج، الذين خولها المناصب العليا في الكنيسة الانـكليزية ، كانت أحياناً تقوم برد فعـل ضد الارستقراطية التي استحوذت على السلطة خلال هذا الحكم .

دور غودون . — وبين **الانلوسكسون** ، الذين يسيطرون آنذاك على انـكلترا ، وجد من يتجاوز الجميـع بثروته وطموحه : وهو حاكم وسكس غودون . فقد تصور قبل غيره وفي وقت مبـكر مشروعاً ينقل بموجبه التاج إلى اسرته أو يخلف بشخصه ادوارد المعرف ، وللوصول الى ذلك حاول قبل كل شيء أن يكون سيد انـكلترا المطلق . واستطاع أن يزوج ادوارد المعرف ابنته الخاصة اديث . وظل هـذا الزواج عقيماً وزادت اطماح غودون الشخصية ، وتابـع عمله ، وفي العام ١٠٤٣ وضـع ابنه البكر سفيند في وادي السفرن ، وفي ١٠٤٥ أصبـح ابنه الثاني هارولد الدورمان في انغليا — الشرقية ، وبذلك أمن لنفسه التصرف بمملكتين من الممالك الانغلية — الساكسونية القديمة .

ومع هذا ، أوشكت بعض العوائق أن تقوم في وجه هذه المشاريع ، وقد أتت بخاصة من النورمانديين الذين يحيطون بادوارد المعرف ويظهرون معادين لها بصراحة . ولذا يمكن تصور وقوع نزاع وضرورة البحث عن حلفاء . ولهذا السبب زوج غودون اقتى أولاده ، توستيـغ ، إلى أميرة

فلاماندية ووضع في مرسيا حاكماً ، ابن أخيه ، بيورن ، أخا سفيند ايستريشون . وهكـذا سيطرت عائلته على القسم الاعظم من انكلترا وأصبح بامكانه في حالة حرب أهلية ، أن يؤمل بمساعدة النورمانديين وحتى الدانماركيين .

أزمة ١٠٥١ — ١٠٥٣ . — ولم تؤد هـذه الخطـة الموضوعة إلى شيء . فقد افسد أبناء غودون عمل أبيهم بفضائحهم : فمن ذلك أن البكر سفيند خطف في ١٠٤٦ رئيسة دير ليومنستر ونفي بسبب ذلك إلى الدانمارك ثم استطاع العودة إلى انكلترا ليقتل بيورن . وتحولت الانظار عن غودون ، وتبدلت نظرة البلاط اليه حيث أصبح روبير جومييج في العام ١٠٥١ مطران كانتوربري وأراد التخلص منه . وفي ٢١ كانون الاول ١٠٥١ وبحجة انه دعم سكان دوفر في ثورتهم ضد ابن حمي الملك ، اوستاش بولوني ، وضع خارج القانون ونفي ، وانسحب في الفلاندر وشكل فيها جيشاً ونزل به مصب نهر التاميز ، بينما هاجم أولاده انكلترا من الغرب . وكان ادوارد المعرف يخشى الحرب فقبل بالتفاوض وأفضل من ذلك استسلم أمام مطالب غودون . واستطاع هذا أن يستعيد ما خسره . أما سفيند فقد مات وهو يطـأ تراب انكلترا . واضطر روبير جومييج واولف إلى مغـادرة انكلترا . وسلم كرسي كانتوربري إلى ستيغاند الذي أعطى جميع الضمانات إلى غودون . وكان النصر مبيناً: فقد انمحت الملكية وخزيت أمام زعيم الارستقراطية ، وبدا أن المستقبل يبسم له .

ولم يكن هذا الظفر طويل الامد . ففي ١٥ نيسان ١٠٥٣ سقط غودون مريضاً اثر نزيف دماغي قبل أن يصل إلى نهاية حلمه العظيم .

حكم هارولد . — ورث هارولد سلطته . وكان مودوداً ولم تعوز

حكومته القوة ولا المهارة . قام بعدة حملات إلى ايكوسيا وبلاد الغال وفتح قسماً منها . ولم يهمل أمر عائلته وتقديم العون لها . ففي ١٠٥٥ مات حاكم نورثامبريا ، سيورد ، فعين خلفاً له ، أخاه توستيغ الذي حل محل الورثة الطبيعيين . وكذلك في العام ١٠٥٧ عين خلفاً إلى ليوفريك في مرسيا ، أحد اخوته ، غايرث ، وأنشأ كونتية أخرى إلى ثالث ، ليوفواين . وأمسك على هذا النحو بكل انكلترا تحت سلطته وبدا أنه مهيأ لقبول التاج في اليوم الذي يزول فيه ادوارد المعرف . ومع هذا فان الحزب النورماندي قاوم هذا الزعم . وعندما أزال الموت الملك ادوارد بن ادموند ، آخر سليل لاسرة الفرد الكبير ، وضعت قضية الخلافة بكل وضوح : كان من الممكن أن يفضل على هارولد مرشح واحد وهو دوق نورمانديا ، غليوم النغيل ، وكان طموحه مساوياً لطموحه . وبدا أن الحرب لامحالة واقعة عند وفاة ادوارد في١٠٦٦. وغيرت هذه الحرب مقدرات انكلترا الاقطاعية وكان لها صداها على مستقبل المملكة الفرنسية .

ظفر التبعية في منتصف القرن الحادي عشر . — وبدافع من الحادثين العظيمين اللذين حدثا في منتصف القرن الحادي عشر ، تحرير الكنيسة الرومانية (١٠٥٩ — ١٠٧٦) وفتح انكلترا على يد غليوم النغيل (١٠٦٦)، سيتغير التطور السياسي لمملكتي الغرب ، وسيكون النزاع بين الملوك والتابعين ملحقاً بالقضايا الكبرى التي ستنشأ عن هذين الحادثين ونتائجها العديدة . وفي منتصف القرن الحادي عشر ظفر التابعون في كل مكان : ففي المانيا ، ظهر تراجع الملكية ؛ وفي فرنسا ، لم يستطع الكابسيون الحفاظ على بعض النتائج التي حصلوا عليها في عهد روبير التقي ؛ وفي انكلترا ، لم يكن على ادوارد المعرف ما يدل على أنه ملك . وبعد قرن تتغير الحال تماماً ويسجل الحكم الملكي المطلق اكثر من نصر على النظام الاقطاعي .

الفصل الثامن والعشرون

تحرير الكنيسة الرومانية

حبرية ايتين التاسع

١٠٥٧ — ١٠٥٨

انتخاب الحبر الأعظم في ٢ آب ١٠٥٧ . — توفي الامبراطور هنري الثالث في ٥ تشرين الأول ١٠٥٦ ، ومات بعده بقليل البابا فيكتور الثاني الذي عينه الامبراطور في العام ١٠٥٥ ، حسب التعامل الجاري ، ليكون خلفاً للبابا ليون التاسع . وبعد أن عرف البابا فيكتور الثاني بهنري الرابع ملكاً على جرمانيا والامبراطورة آنيس وصية عاد إلى ايطاليا في بدء العام ١٠٥٧ وتوفي في آريزو في السنة نفسها في ٢٨ تموز .

وما كاد الخبر ينتشر في روما إلا واجتمع الاكليركيون وانتخبوا بموافقة الشعب الروماني أب مونتكاسينو فريديريك اللورين بابا باسم ايتين التاسع وبورك مباشرة في (٢ آب ١٠٥٧) . وبعد هذا أرسل الاكليروس رئيس الشماسين هيلدبراند إلى جرمانيا ليعلم الامبراطورة الوصية آنيس ، أرملة هنري الثالث ، التي تحكم باسم ابنها هنري الرابع ، بنتيجة الانتخاب. ولم يكن في وسع آنيس إلا أن اعترفت بالبابا الجديد .

إن اعتلاء ايتين التاسع كرسي البابوية كان انقلاباً حقيقاً أو ، على الأصح ، رد فعل شديداً ضد القيصرية البابوية التي فرضت نفسها في زمن هنري الثالث على الكنيسة الرومانية . وهذه المحاولة تدل ولا شك على

عزم الكنيسة على التخلص من الربقــة الجرمانية . وانتخــاب أب مونكاسينو يدل على هذه النزعة الجديدة .

ايتين التاسع . — كان ايتين التاسع أخاً إلى غودفروا الألحى دوق اللورين . وقد تزوج هـذا بياتريكس أرملة بونيفاس مونفرا ، ماركيز طوسكانا ، وأصبح له نفوذ كبير في ايطاليا الوسطى وعمل فيها على مكافحة التفوق الالماني بشدة . وكان ايتين التاسع يمثل في الكنيسة النزعة اللورينية المعاكسة لأي تدخل للسلطـــة الزمنية في الشؤون الكنسية . ولبث حتى عــام ١٠٤٩ رئيساً للشماسين في ليبج ، أي كان احـدى الشخصيات البــارزة في اسقفية وازون ، حيث خرجت المقاومات الاولى ضـد السلطـــة الامبراطورية في الأمور الكنسية . أرسله البابا ليون التاسع في عدة بعثات هامة وخاصة في المفاوضات التي كان يراد منها قطع دابر الخصام في الكنيسة والقضاء على الشقاق الشرقي . وكان الامبراطور هنري الثالث ينظر اليه نظراً سيئاً ، وإذا أخـذنا بقول ليون اوستي ، كما ذكر في كتابه « تاريخ دير مونكاسينو » ، نرى أن الامبراطور اوعز إلى فيكتور الثاني للقبض عليه . وليدفع عن نفسه غائلة الخطر ، اعتكف في دير مونكاسينو وأصبح أباً له . وعندما تصالح الامبراطور مع أخيـه غودفروا خف الضغط عليه قليلاً ونال من يدي فيكتور الثاني لقب كاردينال . غير أن هذا لم يغير وجهة نظره ولم يتردد في ٢ آب ١٠٥٧ في قبول التاج البابوي الذي قدمه له الرومانيون دون موافقة البلاط الالماني .

ولقد كان من المنتظر أن يأتي ايتين التاسع بمخطط لبرنامج جديد ، غير أن حبريته لم تدم أكثر من ثمانية أشهر ولم يسمح له قصر هـذه المدة بالاشراف على مقدرات الكنيسة وممارسة النفوذ المرتقب من قوته

الاستقلالية . وكل ما حفظ عنه يدل دلالة أكيدة على عزمه على الحد من تدخل العلمانيين في الكنيسة . على أن الحادث الهام لحبريته يبقى قائماً في المطول « خصوم السيمونية » الذي بين فيه الكاردينال همبرت ، صديق ايتين التاسع ، برنامج المصلحين اللورينيين ورثة تقاليد وازون ليسج وخصوم القيصرية البابوية الامبراطورية .

الكاردينال همبرت . — دخل همبرت أبوية موينموتيه في اسقفية تول . وقد أعجب به الأسقف برونون، ولما أصبح بابا باسم ليون التاسع دعاه إلى روما . وفي المجمع الذي عقد في عيد الفصح في ١٠٤٩ منحه لقب كاردينال وعينه أسقف سيلفا — كانديدا ، فلبى دعوة الحبر وساهم في حكم الكنيسة الرومانية . وأرسله البابا ، نظراً لمعرفته الاغريقية ، إلى القسطنطينية مع فريديريك لورين ليحولا دون القطيعة الدينية بين الغرب والشرق . ولم يكن له دور في عهد البابا فيكتور الثاني . غير أنه في عهد البابا ايتين التاسع كان من أبرز الشخصيات في الكنيسة الرومانية ، وقد نشر في آخر ١٠٥٧ وبداية ١٠٥٨ مطوله « خصوم السيمونية » وعرض فيه جميع الأفكار الجديدة المتعلقة بحكم الكنيسة .

ولا مجال هنا للبحث عن التحليل العميق الذي يجريه الكاردينال في مختلف أشكال « الهرطقة » ، فتصويره للأسقف السيموني تهكم لاذع، ولوحته عن دمار الكنائس التي ينهبها الرعاة السيؤون تهيج الشعور . غير أن المهم في القسم الأصيل من أثره هو العلاجات الخاصة التي يدل عليها لشفاء الكنيسة .

ان بعض هذه العلاجات قانوني : لأن الكاردينال همبرت يعد السيمونية هرطقة ، ويعتبر مباركة الاسقف الذي اشترى كرسيه لاغية ، وينكر قيمة التوفيع في الرتب الكنسية على يده . لأن « الفضل »

إذ لم يؤخذ مجاناً لايمكن أن يسمى فضلاً . وإذا كان القديس بطرس داميان يكتفي بأن يفرض على المخطئين التوبة والتخلي عن وظائفهم ، فان الكاردينال همبرت ، على العكس ، يرى الغاء جميع الاعمال السيمونية وتحرير الكنيسة ممن دخلوا اليها على يدهم . وهذا الرأي يمكن الاعتراض عليه من الوجهة القانونية ، وهو خطر من الوجهة العملية لأنه يخشى من أن يضعف عدد الاكليركيين بصورة شاذة .

وينكر الكاردينال همبرت اغتصاب السلطات العلمانية للامتيازات الكنسية ويشجب تدخلهم في الانتخابات الاسقفية ، لأن قواعد النظام الكنسي كانت تقتضي بان ينتخب الاسقف من قبل الاكليروس والشعب مع موافقة المطران ورضى الأمير . أما في الوقت الحاضر فان الأمراء يعينون الاسقف بأنفسهم .

برنامجه الاصلاحي . — ولذا فان برنامجه الاصلاحي يرمي إلى تحرير الاسقفية من كل نفوذ علماني والعودة إلى قواعد الانتخاب القديمة من قبل الاكليروس والشعب . وهذا البرنامج يمكن أن يعتبر مبرراً قانونياً للانتخاب الذي جرى في ٢ آب ١٠٥٧ وكان منه اعتلاء ايتين التاسع كرسي البابوية . ويقترح الكاردينال أن يعمم هذا الأصول الذي اتبع في هذه الظروف على جميع الاسقفيات . كما يحاول أيضاً أن يلحق السلطة الزمنية بالسلطة الروحية ويقول في هذا الصدد: « ان من يريد بحق ومنفعة مقارنة المنصب الكهنوتي بالمنصب الملكي يستطيع أن يقول ان الكهنوت في الكنيسة شبيه بالروح ، والمملكة بالجسد ، وهما يتحابان وكل منها بحاجة للآخر ، وكل منها يستمد العون من الآخر . ولكن لما كانت الروح تسيطر على الجسد وتسيره فكذلك المنصب الكهنوتي ، انه أرفع شأناً من المنصب الملكي ، كالسماء بالنسبة للارض . وليجري كل شيء بانتظام

يجب على الكهنوت ، كالروح ، أن يعين مايجب عمله ؛ وعلى المملكة ، التي هي الرأس ، أن تسير جميع الأعضاء وتقسمها حيث يلزم » .

وهذا البرنامج الاصلاحي ليس إلا طباقاً للتقاليد القيصرية البابوية التي لبثت حتى وفاة هنري الثالث تسير سياسة الاباطرة الكنسية . وهو ايضاً برنامج البـــابا ايتين التاسع ولم يستطع تطبيقه لمعـــاجلة المنية له . غير أن خلفه نيقولا الثاني (١٠٥٩ — ١٠٦١) تبناه وحققه بصورة جزئية وذلك بتحرير الكرسي الأقدس من نير السلطات الزمنية .

حبرية نيقولا الثاني (١٠٥٩ — ١٠٦١)

لم يكد البابا ايتين التاسع يلفظ آخر أنفاسه إلا واجتمعت الطبقة النبيلة الرومانية وانتخبت جان مينشيوس أسقف فيللتري باسم بندكت العاشر ، وبدا أن الحالة رجعت إلى ما كانت عليه عندما كانت اسرة تيوفيلاكت تتصرف بالتاج البابوي .

ورغم هذه الظواهر فان الوضع لم يتبدل لأن حزب الاصلاح لم يكن على استعداد للتساهل مع هذا التدخل الخطر ، بل انتخب جيرارد أسقف فلورنسا بابا باسم **نيقولا الثاني** .

لذا وجب التخلص من البابا الدخيل في روما . إلا أن هذا لم يبد مقاومة شديدة بعد أن ساءه الدور الذي لعبه ناخبوه ، ودخل نيقولا الثاني روما ، بعد قتال في الشوارع ، وأعتلى عرش القديس بطرس .

المراسيم الحبرية . — وفي ١٣ نيسان ١٠٥٩ عقد مجمعاً في قصر لاتران حضره ثمانون أسقفاً ، جلهم ايطاليون ، وأذاع أمام هذا المجلس مرسوماً يتعلق بالانتخاب الحبري . ويتلخص هذا المرسوم في أنه « إذا شغرت السدة الرسولية فعلى الكرادلة — الاساقفة أن ينظموا كل شيء بعناية

كبرى ، ثم يدعون الكرادلة ـ الاكليركيين ، وأخيراً ، يوافق باقي الاكليروس والشعب على هـــذا الانتخاب الجديـد . وللحيلولة دون سم المنفعة وتدخله متنحلاً هذا العذر أو ذاك يجب على رجـــال الدين أن يقوموا بالانتخاب وعلى الآخرين أن يتبعوهم » . أما حقوق الامبراطور ، ملك جرمانيا ، فقد صيغت بعبارات مبهمة : « مع سلامة الشرف والاجلال الواجبين لابننـا العزيز جداً هنري ، الملك حاليـاً ، والذي نأمل أن يكون امبراطوراً إن شاء الله » .

وإذا تبين أن الانتخاب غير ممكن في روما فعلى الكرادلة ـ الأساقفة أن ينتقلوا إلى غيرها مع الأكليركيين والعلمانيين « ولو كانوا قلائل » ؛ وإذا لم يستطـع المنتخب ان يعتلي عرش البابوية بسبب الحرب أو نزاع الأحزاب فله الحق في حـكم الكنيسة الرومانية والتصرف بوارداتها .

وهذا التحليل البسيط لمرسوم ١٣ نيسان ١٠٥٩ يبين لنـــا بوضوح خصائص التشريع الحديث لأن نيقولا الثاني يرجع انتخاب الحبر الأعظم إلى الاكليروس كما كان عليه قبل دستور روما ٨٢٤ ؛ ويحـدث في الاكليروس فئة ممتازة من الناخبين وتتألف من الكرادلة ـ الأساقفة أو من الأساقفة الذين تتألف منهم أبرشية روما . أما العلمانيون فقد أخرجوا من الانتخاب ، سواء الطبقة النبيلة المحلية في روما أو ملك جرمانيا أو حامي الرومانيين . وعلى هذا فاستقلال الكرسي الأقدس حيال السلطات العصرية قد قطـع مرحلة هامة نحو التحرير .

ولاشك في أن هذا المرسوم لم يرض من كانوا يتمتعون بامتيازاتهم التقليدية . فقد ظلت الارستقراطية الرومانية تدعم بندكت العاشر . غير أن الكرسي الأقدس لم يخش هذا الخطر ويحسب له حساباً ، فلديه من الأحلاف الأقوياء مايجعله في أمان . ولم تكن المانيا بالتي يخشى خطرها أيضاً .

وإذا استطاعت الوصية أن توطد السلام الداخلي في المملكة فقد وجدت أن من الفطنة في مثل هذه الظروف أن تلزم جانب السكينة لاسيما وأنها لاتستطيع أن تعتمد في ايطاليا على أي مساعدة فعليـة . ولكن يجب ألا ننسى أن هذا التدبير الذي اتخذه البابا كان من شأنه الضرر بصالح التاج ، ولذا لم يكن بالإمكان أن يترك وشأنه دون أن يلقى ، على الأقل ، حركة استياء .

وفي الحقيقة ، ان البابا نيقولا الثاني بعث الكاردينال ايتين إلى الوصية ليعلمها بالمقررات التي اتخذت في قصر لاتران . غير أن البلاط الملكي رفض استقبال الرسول البابوي . وظل هذا خمسة أيام يرجو مقابلة الوصية فلم يظفر ، وعاد أدراجه دون أن يؤدي رسالته . وبعد بضعة أشهر اجتمع الأساقفة الألمانيون في مجمع خاص وحكموا على أعمال البابا بالبطلان وشجبوا جميع مقرراته .

ولكن نيقولا الثاني لم يعبأ بهذا التدبير ، وعقد في نيسان ١٠٦٠ مجمعاً ثانياً في قصر لاتران وأذاع من جديد المرسوم المتعلق بانتخاب الحبر الأعظم واحتفظ بأحكامه الأساسية : وهي أن يسوى الانتخاب بمعرفة الكرادلة — الاساقفة ويوافق على ذلك من هم دونهم في الرتبة الكنسية ، على أن يكون بامكان الكرادلة إجراء الانتخاب في خارج روما .

ومن مقارنة المرسومين الآنفي الذكر : ١٠٥٩ و ١٠٦٠ نرى أن مرسوم ١٠٥٩ ينص على رضى الاكليروس والشعب ، في حين أن مرسوم ١٠٦٠ يبقى صامتاً عن العنصر العلماني ، حتى ان الجملة « الشرف والاجلال الواجبين لابننا العزيز جداً هنري » حذفت . وهكذا كان جواب البابا على مكايد الارستقراطية الرومانية وموقف البلاط الجرماني .

الاتجاه الجديد في السياسة الحبرية . — واذ سمح البابا نيقولا الثاني لنفسه باتخاذ هذا الموقف الحازم تجاه خصميه فذلك لأن وضعه في ايطاليا كان قوياً . فمازال غودفروا اللورين حليفه . وفي العام الفائت (١٠٥٩) تصالح والأمراء النورمانديين في ايطاليا الجنوبية . ففي شهر تموز من هذه السنة ذهب إلى بوي وعقد مجمعاً في آمالفي في ٢٣ آب وتقبل يمين الولاء من روبير غيسكار .

كانت المفاتحات الأولى من جانب روبير . وقد رأى هذا من صالحه أن يتفق مع الكرسي الأقدس ، وذلك لأن الدولة التي أسسها في جنوب ايطاليا كانت سلسلة من الاغتصابات والاعتداءات على حقوق الغير وليس لها أي وجود شرعي ، فضلاً عن أنه كان منافساً لبيزنطة ، ولم يكن بإمكانه أن يكون تابعاً للأمبراطور الجرماني لأن هذا كان يطمع منذ قرن بوضع يده على الأراضي التي استولى عليها الأمير النورماندي . ورأى روبير أن البابوية قد تخلصت من الوصاية الالمانية فوجد من صالحه أن يتحد معها ويعترف بسيادتها ويشغل مكانه في الاطار الاقطاعي .

وفي اجتماع آمالفي صرح بأنه تابع للبابا وقبل منه لقب دوق مع امتلاك بوي وكالابر وبعض أراضي في لاتيوم ، كما وعد أن يكون حليف الكرسي الأقدس ، وتعهد ، إذا توفي البابا قبله ، « بأن يساعد خير الكرادلة واكليروس روما وعلمانييها على انتخاب البابا وعلى ارتقاء هذا البابا منصبه بشرف القديس بطرس » . هذا ومن المحتمل أيضاً أن يكون ريشار كابو قد سار على مثال جاره روبير واعترف بالسيادة الحبرية .

وأراد نيقولا الثاني ان يتمم هذا الاتجاه الجديد في سياسة الكرسي الأقدس بتقارب مع فرنسا ، فأرسل مندوبين حبريين لحضور حفلة المباركة التي جرت في ٢٣ أيار ١٠٥٩ على شرف فيليب الاول الذي سيخلف

والده هنري الأول على مملكة فرنسا . وتفاوض البابا مع الملكية الكابسية بواسطة مطران رنس جرفيه وأدت المفاوضات إلى تفاهم بين الجانبين . وستقوى أواصر هذا التفاهم في عهد الحبرية التالية . وفي الحقيقة ، ان هذه السياسة لم تكن إلا نتيجة لبرودة العلاقات مع الملكية الجرمانية .

التدابير الاصلاحية . — وبعد أن تحرر نيقولا الثاني من الوصاية الامبراطورية أصبح مطلق اليدين في متابعة الاصلاح الذي بدأ به ليون التاسع ، وكان تأثيره في هذا الحقل حاسماً أيضاً ، لأن مراسيمه المتعلقة بالانتخابات الحبري كانت ترافقها قوانين تستهدف النيقولاوية والسيمونية . حرم نيقولا الثاني بمقتضى تقاليد الكنيسة « على كل كاهن ، أو شماس ومن تحته ، يتخذ خليلة ، أو لايتخلى عن خليلته ، أن يرتل القداس أو يحضر الاحتفال الديني . كما حرم على المؤمنين أن يستمعوا إلى القداس من كاهن عنده خليلة » . ولم يكتف بالضرب على أيدي المجرمين بل أراد أن يمنع الشر قبل وقوعه ، ففرض على الاكليروس حياة مشتركة ليستطيع بعضهم مراقبة بعض .

وكذا السيمونية أيضاً كانت موضع عناية الحبر الأعظم . ففي مجمع ١٠٥٩ جدد بحقها جميع الأحكام السابقة . وفي مجمع ١٠٦٠ وطد العزم على الا يتخذ أي محاباة أو مداراة حيال السيمونيين ، ويجرمهم من مناصبهم ، ويلغي في المستقبل حق تخويلهم الترفيع الكنسي ؛ واذا صادق على أعمالهم في الماضي فذلك « بداعي الرحمة أكثر منه بعاطفة العدالة » ، كما قرر أيضاً بأنه لايحق لأي اكليركي بحال من الأحوال « أن يتناول كنيسته من يدي علماني مجاناً أو بمال » .

أثارت هذه التدابير مقاومة الاكليروس الفاسد . وقد حفظ صدى الاحتجاج على هذه التدابير في رسالة قدحية ألفها في اولريك ايمولا ، عام

١٠٦٠ ، وفيها يعارض نظرية الحبر الأعظم في العزب الكنسي بنظريته في الزواج الكهنوتي . وفيهـــا يشكو حالة التفسخ التي وصلت إليها الأخلاق الاكليركية ، ويرى أن خير وقاية لذلك هو السماح للكهان بعقد زواج شرعي « والا يجبر أحد على ملازمة العفـة ويكره عليها اكراهاً » . وقد لاقت هذه النظرية السهلة تحبيذاً ، كما هو منتظر ، ونجحت نجاحـاً كبيراً في ايطاليا والمانيـــا وفرنسا وظهرت تفسيرات موسعة لرسالة اولريك .

ومهما تكن هذه المعارضة شديدة فلم تثن عزم الكرسي الأقدس عن القيام بالاصلاح . وقد ظهرت إرادته جلية في مدينة (ميلانو) حيث أرسل بطرس داميان ، كاردينال اسقف اوستي ، وآنسلم بادجيو ، اسقف لوقة ، وكلاهما حواري متحمس للعفة الاكليركية ، وبعد مجادلات عنيفة استطاعا ان يأخذا على المطران غي عهداً بالا يأخذ في المستقبل أي اتاوة على منح المناصب الكنسية والا يتساهل في قضية الزواج الاكليركي . إلا أنه لم يكن صادقاً في وعده ، ورغم أنه اقسم اليمين ظل يغمض عينيه على المساوىء التي تفتك بالكنيسة . ولذا فان قضية ميلانو سوف توضع من جديد في عهد خلفاء نيقولا الثاني .

وتابعت حركة الاصلاح سيرها في **فرنسا** أيضاً . فبعد أن رجـع الـكاردينال ايتين من المانيا عقـد ، في ١٧ شباط ١٠٦٠ ، في مدينة تور ، مجمعاً واذاع باسم البابا التشريـع الجديد المتعلق بالسيمونية والنيقولاوية وبقيت **جرمانيا** وحدها مغلقة أبوابها في وجه النفوذ الروماني .

وفاة نيقولا الثاني . — وتوفي نيقولا الثاني في ٢٧ تموز ١٠٦١ . وكانت حبريته قصيرة ولكنها مليئة وخصبة بجلائل الأعمال . وتعتبر من هذه الناحية مقدمة لحبرية غريغوار السابـع . وقد خلف نيقولا الثاني

بابا حسن النيات ، إلا أنه لم تكن له تلك القوة التي امتاز بها سلفه ، ولذا لم يستطع الدفاع ضد حملات القيصرية البابوية الامبراطورية ليزيد في رسوخ الأوضاع التي ظفرت بها الكنيسة من ١٠٥٧ إلى ١٠٦١ .

حبرية الكسندر الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣) ورد الفعل الامبراطوري

توفي البابا نيقولا الثاني وبقي الكرسي الحبري شاغراً أكثر من شهرين : فقد قامت في أثناء ذلك اضطرابات شديدة في روما بتدبير من الطبقة النبيلة الرومانية التي رأت نفسها اقصيت عن الانتخابات وحاولت أن تمنع تطبيق مرسوم ١٠٥٩ . غير أن أنصار الاصلاح لم يقفوا مكتوفي الايدي . وذهب ديديه مونكاسينو إلى الأمير ريشار آفيرسا وتحت حماية الجنود النورماندية اجتمع الكرادلة — الاساقفة وقاموا بتنفيذ الامتياز الذي خولهم إياه التشريع الجديد وألبسوا تاج البابوية الى آنسلم لوقة. وأصبح هذا بابا باسم الكسندر الثاني (١ تشرين الأول ١٠٦١) .

ولا شك في أن انتخاب هذا البابا كان موفقاً من عدة نواح ، لأن آنسلم هذا كان خصماً للمساوىء التي تشين بالكنيسة . وقد كافح بعزم وحرارة الاكليركيين النيقولاويين في لومبارديا . وليس هنالك مايؤخذ عليه سوى أنه لم يكن له ذكاء سلفه . فمنذ أن أعتلى عرش البابوية وجد في وضع حرج ، وذلك لأن الكونت جيرارد غاليريا أرسل وفداً إلى جرمانيا ليوجر باسم الرومانيين تعيين كادالوس أسقف بارما بابا في روما . فلم يتردد البلاط الجرماني ونادى بكادالوس بابا في مجمع عقد لهذا الغرض في مدينة بال . وإذا حللنا حقيقة الوضع رأينا أن البلاط الجرماني لم يكن ليشعر تجاه هذا البابا المزعوم بأي عطف خاص ، ولكن الغاية من هذا

الانتخاب هي عدم الاعتراف بمنتخب الكرادلة وتهديم عمل نيقولا الثاني التحريري وإرجاع الامتياز الذي يتمتع به الامبراطور .

وأثار موقف الامبراطورة آنيس استياء رجال الكنيسة لاتفاقها مع النبلاء الرومانيين ، أعداء الامبراطورية التقليديين كما هم أعداء الكهنوت، وموافقتها على تعيين كادالوس ، لاسيا وإنه يجر وراءه ماضياً ثقيلاً لا يشرفه كثيراً ولا يجعله قريباً إلى عطف المصلحين الذين أخذوا يناوؤونه مناوأة شديدة .

كان رجال الكنيسة يؤملون بمساعدة غودفروا اللورينوزوجته بياتريكس . فما كاد **كادالوس** يبارك بابا باسم **هونوريوس الثاني** إلا وحاولوا أن يسدوا طريق روما في وجهه ، ولكنه ضرب جنود الحبرية واستطاع أن ينفذ إلى كنيسة القديس بطرس . وعاكست الظروف الكسندر الثاني واضطر إلى الالتجاء في أحد الأديرة .

أما غودفروا اللورين فقد لبث حكماً على الوضع يراقب سير الحوادث عن كثب . وكان يرغب بالكسندر الثاني ولكنه كان يتمنى أن يتصالح مع البلاط الألماني لينظم كفاحه ضد نورمانديي ايطاليا الجنوبية لأن تقدمهم نحو الشمال بدأ يقلقه ويقض مضجعه . ويبدو أن الظروف كانت مواتية لتحقيق مثل هذه الامنية : فقد قامت ثورة في القصر الالماني جردت الملك الشاب هنري الرابع من وصاية أمه وأوصلت آنون مطران كولونيا إلى السلطة في نيسان (١٠٦٢) . وفي أيار ١٠٦٢ وقف غودفروا أمام روما وأمر الطرفين المتخاصمين بالانسحاب كل في ابرشيته حتى يتخذ ملك جرمانيا قراراً حاسماً في هذا الشأن .

ويمكننا بعد أن رأينا تسلسل الحوادث ، أن نقول : لو كان البابا نيقولا الثاني حياً لما قبل بهذا الأصول المشين الذي يعود فيضع ، بين

يدي السلطة العلمانية ، أمر الفصل في قضايا القوانين الكنسية . ولكن الكسندر الثاني لم يدرك ، ولا شك ، انه إذ أطاع غودفروا فقد عرض تحرير الكنيسة الرومانية للخطر ، وضحى بالمبادىء الأساسية التي وضعها سلفه . عاد إلى ابرشيته في لوقة وظل من آب ١٠٦٢ إلى ربيع ١٠٦٣ ينتظر القرار الملكي .

ورأى البلاط الالماني في هذا الوضع فرصة سانحة يسترجع بها ما فقده من سلطة ، ويصبح سيد الموقف ، فضلاً عن ان الحل الذي ارتآه غودفروا يمهد له السبيل للتخلص من منتخب النبلاء الرومانيين . لذا كله دعا آنّون إلى انعقاد مجلس في اوغسبورغ للنظر في حجج كل من المتنافسين ومعرفة أيهما البابا الحقيقي .

انعقد المجلس في تشرين الأول ١٠٦٢ وبدا أنه منصرف لانقاذ الظواهر ، حتى انه أرسل من جانبه رسولاً إلى إيطاليا ليقوم بتحقيق جديد . وبقي الكسندر الثاني ساكتاً على هذا الأصول الشاذ الذي يخضع رئيس الكنيسة العامة إلى حكم الاساقفة الالمانيين والامير الرمزي ، وأخيراً اعترف به في اوغسبورغ ودخل روما في أوائل آذار ١٠٦٣ وظفر على منافسه ، ولكنه بقبوله حكم الملك الجرماني ، الغى مرسوم ١٠٥٩ وضرب استقلال الكرسي الاقدس ضربة كبرى .

ولم يكف هذا الاذلال الذي لحق بالبابا ، بل ان بطرس داميان ، اثناء انعقاد مجمع اغسبورغ ، حاول الدفاع عن الكسندر الثاني فبعث من فرنسا ، حيث كان مندوباً لمهمة ، إلى آنّون كتاباً يرجوه فيه أن يعقد مجمعاً بأسرع وقت ممكن ويقطع دابر الخصام . وعلى مايبدو أنه كان على غير علم بما جرى فأساء إلى الكسندر الثاني من حيث لا يريد ، وهو على ما هو عليه من حسن نية . يضاف إلى ذلك أن الكسندر الثاني لم يجرأ على

التهرب من هذا الاقتراح الذي أوحى به مندوبه وليس فيه ما يرفع من شأنه . وربما شعر الكسندر الثاني بعد عودته إلى روما بمحاولة جديدة من قبل أنصار كادالوس فدعا ذلك بطرس داميان إلى مثل هذا الطلب .

وعقد مجمع في مانتو ١٠٦٤ أثناء عيد العنصرة وترأسه آنّون ودافع فيه الحبر الشرعي عن نفسه بخضوع أمام الحبر الالماني وأخذ يرد الاتهامات الكاذبة التي ألصقت به . وأخيراً حكم على كادالوس الغائب بالحرمان والطرد من الجماعة واعترف بالكسندر الثاني وعاد إلى روما . وحلت الأزمة ولكن البابوية خرجت منها صاغرة تجرر أذيال الخيبة . وهكذا بعد ان قضت مراسيم نيقولا الثاني على القيصرية البابويــة الامبراطورية فترة من الزمن تعود هذه الأخيرة فتأخذ بثأرها وتقلق الافكار في المستقبل .

بتر العلاقات مع النورمانديين . — وكان لشقاق كادالوس نتيجة اخرى مؤسفة في حق الكرسي الأقدس ، لان الكسندر الثـاني سبب قطع العلاقات بين البابوية والنورمانديين ، اثر تحالف الكهنوت والامبراطورية. وفي الحقيقة ، لقد احترم النورمانديون تعهداتهم وسهروا حسب وعد آمالفي على تطبيق مرسوم ١٠٥٩ ، وبفضل ريشار آفيرسا ، كما رأينـا ، اجتمع الكرادلة — الاساقفة في تشرين الاول ١٠٦١ وانتخبوا خلف نيقولا الثاني. وفي مجمع مانتو طلب آنون إلى الكسندر الثاني أن يعرب عن علاقاته مع النورمانديين فانكر البابا حلفاءه الاقدمين فأصبحوا في حلٍ من تعهداتهم تجاهه . وتوترت العلاقات بين الكرسي الاقدس وبينهم حتى ان ريشار آفيرسا زحف على روما في آخر العام ١٠٦٦ .

حكومة الكسندر الثاني . — وإذا تخلى الكسندر الثاني عن الاتجاهات التي رسمها نيقولا الثاني فقد تابــع باخلاص وشدة العمل الاصلاحي الذي دشن في عهد أسلافه ، وأولى مكافحة النيقولاوية والسيمونية اهتمامه . وسبق

أن لاحظ ، مذ كان اسقفاً في لوقه ومندوباً حبريـاً في ميلانو ، ضعف الوسائل التي يستعملها أنصار الاصلاح وعدم كفايتها حتى توصل إلى هـذه النتيجة وهي : انهم لايستطيعون القيـام بالحرب إذا لم يسندهم الكرسي الاقدس ويوجههم . وعندما تولى المنصب الرسولي ، حاول أن يربط بالكنيسة الرومانية جميـع القوى المسيحية ، وأكد مرات عديـدة بان حكم البابا لا يمكن أن يلغى أو يحول من أحد ، وإن هـذا البابا له الحق أن يتدخل انى شاء ، وإن مقرراته يجب أن يقبلها الملوك والاساقفة دون نقاش . وبفضل هذا التوجيه الذي بدأت تتضح صورته منذ ليؤن التاسع وابتين التاسع ونيقولا الثاني عملت حبرية الكسندر الثاني ، وإن دشنت بتخاذل مؤسف ، إلى حد بعيد في تحرير الكنيسة الرومانية .

مشاورو آلكسندر الثاني . — وقـد ساعد الكسندر الثاني في تنفيذ برنامجه الاصلاحي حواريان متمسكان بالفكرة الرومانية وهما **بطرس داميان** و **هيلدبراند** .

كان **بطرس داميان** منعزلاً في دير فونته ـ آفللانا فأخرجه ايتـين التاسع وجعل منه كاردينالاً واسقفاً في أوستي . وكان هذا الراهب مأخوذاً بفكـرة التوبة والزهد والتقوى ، وجعل همه أن يبين للاكليروس واجباته الكهنوتية وينير سبيله وينتشله من حمأة الرذيلة والفساد ويطهره ، وبعد هذا يأمره بالتبشير بالانجيل ونشر الحياة المسيحية الحق في الاوساط العلمانية. وهو ما زال ، في كل ظرف من الظروف ، العبد المطيـع والخـادم المتواضع للكنيسة الرومانية التي أسسها « الاله فاطر السماء والارض »، وهي بفضل ذلك أعلى من كل سلطة كنسية أو علمانية .

وأكثر من بطرس داميان ، كان **هيلدبراند** يرى بأن الكرسي الاقدس وحده يستطيـع بما لديه من سلطة كافية أن يجبر الاكليروس على الخضوع

إلى نظام الكنيسة القديم وكان منذ شرخ شبابه خادم الكنيسة الرومانية ومتعصباً لها ويرى بأنها تمثل الكهنوت الاسمى ، ورسالتها قيادة الارواح في طريق السلام . وكان محاسباً لدير القديس بولس ومندوباً في غاليا في حبرية ليون التاسع وفيكتور الثاني وسفير ايتين التاسع في المانيا ، يدافع عن امتيازات السدة الرسولية ، وظهر هذا الدور بوضوح اثناء الشقاق الذي حصل في الكنيسة في عهد نيقولا الثاني ، وقد أبدى في كل مواقفه غيرة وحماساً ودفاعاً مجيداً عن البابا الشرعي ، وأصبح مشاوراً لالكسندر الثاني الذي أخذ يصغي اليه ويشاركه في الرأي ولا يعمل إلا حسب توجيهاته .

إصلاح الكنيسة في عهد الكسندر الثاني . — وبتأثير هذين الرجلين وأمثالهما نهض إصلاح الكنيسة نهوضاً جديداً وخاصة في ايطاليا . ففي جنوبها عقدت عدة مجالس تحت رئاسة مندوبي الحبر الاعظم أو من قبله مباشرة وكلها سهرت على الحفاظ على التشريع الروماني رغم كسر التحالف بين الكرسي الاقدس والامراء النورمانديين . وفي فلورنسا ، اتهم الاسقف بطرس بالسيمونية فأقيل عن كرسيه رغم دعم غودفروا اللورين له . وفي ميلانو حاول الكسندر الثاني أن يضع حداً للاضطرابات التي تعكر صفو العاصمة اللومباردية إلا أنه كان فيها أقل حظاً منه في غيرها .

وفي خارج ايطاليا سعى آلكسندر الثاني في نجاح الاصلاح أيضاً . وقد تدخل عدة مرات في فرنسا وخاصة اثناء الانتخابات التي جرت في سواسون (١٠٦٣) وشارتر (١٠٦٥) وكانت هذه المناسبات تظهر بوضوح إرادته في احترام التشريع الروماني . ولا شك أن الفضل في ذلك يعود إلى جيرفيه مطران رنس والمشاور الكنسي لدى الملك الشاب فيلبب الأول .

أما في المانيا فكان الأمر على العكس . ورغم أن البلاط الجرماني

اعترف أخيراً بألكسندر الثاني إلا أنه لم ينس حوادث عام ١٠٥٩ وبقي مصمماً على مكافحة النفوذ البابوي ليعيد سيطرة القيصرية البابوية الامبراطورية. ولكن نفوذ البابوية ما فتيء في ازدياد منذ حبرية ليؤن التاسع . ولذا فإن النزاع بين الكهنوت والامبراطورية أصبح أمراً محتماً،وقد ارتسمت معالمه منذ كان الملك هنري الرابع قاصراً ، وتهيأت في هذا العهد الحرب الأهلية وانضمت إلى المنازعات الدينية .

المانيا بعد وفاة هنري الثالث . – لم يكن لوفاة الامبراطور هنري الثالث نتائج يخشى خطرها بصورة مباشرة وذلك لأن الامبراطورة آنيس استطاعت بفطنتها واعتدالها وتنازلها عن بعض الامتيازات الخطرة في المستقبل ، ان تتغلب بسرعة على الصعوبات الداخلية التي واجهتها : ففي العام ١٠٥٧ ردت هجوم السلاف على حدود نهر الايلب . وفي **هونغاريا** كان الملك آندره قد تقرب من المانيا وخطب جديث اخت هنري الرابع إلى ابنه سالومون، إلا أن أخاه بيلا ازاحه عن العرش واضطر سالومون إلى الالتجاء عند الامبراطورة وظل حتى عام ١٠٦٣ واعيد إلى عرش هونغاريا .

أما سياسة الامبراطورة الكنسية فلم تكن موفقة : فقد أقصت غونتيه اسقف بامبرغ بعد أن كان مستشاراً عند هنري الثالث في ايطاليا ومشاوراً لها فأثارت سخط الاسقفية عليها . وقام آنون مطران كولونيا وأكبر الشخصيات الكنسية في ألمانيا بانقلاب ازيحت فيه آنيس عن الحكم ولم تفكر بعد باسترجاع سلطتها . وأخذ المطرانان آنون وآدالبرت يوجهان شؤون المملكة إلى أن بلغ الملك هنري الرابع سن الرشد .

ليس في حياة آنون الخاصة ما يؤخذ عليه فقد كان تقياً ورعاً وزاهداً متقشفاً في بعض الاحيان ، يتقبل الافكار الاصلاحية ويسعى لتحقيقها .

وهو الذي أصلح مابين الملكية الجرمانية والكرسي الاقدس باقصائه كادالوس والاعتراف بآلكسندر الثاني بابا شرعياً . غير أن حياة التقى لم تطفىء عند هذا الحبر حب الغطرسة والكبرياء . وهو وإن لم يطمح بالبابوية ، كما لمح بذلك اعداؤه ، إلا أنه كان يريد أن يسيطر على المانيا . ولم تكن السياسة الخارجية لتهمه كثيراً فترك إدارتها إلى آدالبرت مطران بريم والى أوتـّون نوردهايم دوق بافاريا .

أما آدالبرت بريم فلم يكن أقل طموحاً من زميله ، وحاول بشتى الوسائل أن يهدم جاهه لدى الملك هنري الرابع حتى اضطر آنـّون ان يقاسمه الوصاية . ولكن هذا لم يمنع آدالبرت من التأثير خلال فترة من الزمن على الملك هنري الرابع وجعله يعمل بوحيه .

ومما لاشك فيه ان هذا الحبر قد لعب دوراً هاماً في تاريخ المانيا في آخر حكم هنري الثالث وأول حكم هنري الرابع ، وظل لغزاً لايحل، وكان من ١٠٤٣ إلى ١٠٥٦ من مؤسسي الحضارة المسيحية في البلاد الاسكاندينافية . حتى إن عمله التبشيري امتد إلى عهد هنري الرابع القاصر ودل في كل هذا على غيرة الحواري وخصب الوسائل ونقاوة الايمان الخالص المنزه عن كل غرض أو منفعة ، الذي يرمي ، قبل كل شيء ، إلى إبعاد الوثنيين عن عبادة الأصنام والأوثان . ولم تقتل هذه الروح العلوية عنده عاطفة الكبرياء الفطرية التي تملكته فبلغت كنيسته . فقد شاد في هامبورغ كنيسة فخمة ودعـــا المصورين الايطاليين لزخرفتها حتى أصبحت آية في الابداع الفني وتفوق ، على ما يظهر ، كاتدرائيات الغرب كلهـا . وأراد أن يمتد بسلطته على جميع البلاد المجاورة لأبرشيته وخاصة ساكس والفريز ، كما رجا بفضل نفوذه على هنري الرابع أن يسخر قوى الملكية لخدمة كنيسته على أن يبقى خادماً لمصالح التاج ، ولكن أمله خاب .

إلا انه على الاقل استطاع أن يحول دون ذهاب الملك إلى إيطاليا ليساعد البابا ضد النورمـانديين . وبذلك أثار آدالبرت حوله ضجة من السخط والاستياء وبخاصة الامراء العلمانيين الذين نقموا عليه ، ورأى أن يلوذ بالفرار ويترك مكانه خلواً إلى زميله آنون . وأدى سقوطه إلى نتائج مؤسفـة حقاً في صالح المانيا والكنيسة أيضاً . فقد تقلص نفوذ بريم — هامبورغ وانقطع عمل التبشير وبدأ نفوذ الملك هنري الرابـع يظهر بالتدريج . إلا أن طريقة الحكم التي سلكها أدت إلى استياء الطبقة الارستقراطية في البلاد لاسيا وان البطانة التى التفت حوله أضرت به . وبعد أن كان الاستياء يتجلى ببعض حوادث عارضية دون كبير أهمية ، جعل يتفـاقم ويأخذ شكلًا خطراً . وإذا استطاع هنري الرابـع أن يظفر على حركات العصيان التي قامت ضده في ساكس وبافاريا وتورنجه فقد زاد استبداده في سخط الأمراء عليـــه وسارت المانيا في طريق الحرب الأهلية . واتفق في هذا الوقت أن اثارت سياسة هنري الرابع الدينية ، المستوحاة من نزعته الاستبدادية ، إلى وقوع الخلاف بينه وبين الكنيسة الرومانية التي شعرت بقوتها ولم تكن على استعـداد للاكتفاء ، كما في السابق ، بأن تكون آلة طيعة في يد القيصرية البابوية الامبراطورية .

هنري الرابـع والكنيسة . — كانت الكنيسة في عهد الوصاية في حالة محزنة . فقد كانت الاسقفيات والأبويات تباع بالمزاد أو توزع على أقارب الملك وأصدقائه ومقربيـه حتى ان منهم من كان يعـلو كرسي الاسقفية دون أن يبلغ السن القانونية ، ومنهم من يشتري الاسقفية بمبلغ عظيم من المال فاذا ما أعتلى كرسيها عمل على ملء جيوبه ببيـع المناصب الكنسية والأواني المقدسة وحتى الالبسة الكهنوتية . وقل في هذا الدور الحزين الأحبـار الذين انتخبوا بصورة صحيحة . ووقعت الكنيسة

الألمانية في فوضى حقيقية لم تخل من خصومات مفجعة سالت على ظبانها الدماء .

وتوجه أهل الغيرة على الدين خلال مرات عديدة إلى الكرسي الاقدس يطلبون تدخله . ولم يأل البابا الكسندر الثاني جهداً في هذه المناسبات . فتارة ينجح في فرض وجهة نظره وطوراً تتغلب إرادة هنري الرابع على إرادته . ولكن الكسندر الثاني ، رغم جهوده المشكورة ، لم يستطع أن يحد عبث السيمونيـــة ، أو يحول دون تعيين الاسقف من قبل الملك مباشرة .

وكان هنري الرابع مصمماً على الا يتساهل في تدخل البابا في القضايا الكنسية . ولكن الاحوال تبدلت منـذ عشرين سنة ، لأن الكنيسة الرومانية ، وقد تحررت على يد نيقولا الثاني ، كانت تحرص على استقلالها وتريد أن تحافظ على حريتها في العمل أيضاً . وتتمثل هذه العاطفة في شخص هيلد براند . فقد كان يدافع بحرارة عن الامتيازات التي تعترف بهـا القوانين للكرسي الاقدس ، ويطبـع السياسة الحبرية بطابـع جديـد لم يكن لها في الماضي . وستنفجر هذه النزعات الجديدة اثر حـــادث خاص كاد يؤدي إلى قطع العلاقات بين البابوية والملكية .

ولم يتلق هنري الرابع تربيته الاولى عن أمه الامبراطورة آنيس ولا عن وصيه المطران آنـّون ، بل كان العوبة الأهواء المغرضة . ومن أخطاء آدالبرت أنه شجعها طمعاً في أن يحكم المملكة وحده تاركاً الأمير الفتى وشأنه مستمتعاً بحياة الفسق والفجور . وخطب له آنون بيرت تورينو وعوضاً عن أن يتزوج ويلزم حياة الاسرة كان يؤخر زواجه ما أمكن . وعندما سقط آدالبرت عام ١٠٦٦ نزل عند إرادة الامراء وقاد بيرت إلى الكنيسة وما عتم بعد زواجه إلا أن هجر زوجته الشابة وعاود سيرتـه الاولى . وفي عام ١٠٦٩ أراد أن يطلقها وتفاهم لهذا الغرض مع سيغفريد

مطران ما ينس ، فعقد له مجمعاً للبحث في هذه القضية . وادعى أن زواجه لم يتم واستطاع ان يهدد بيوت البائسة وحصل منها على تصريحات لا تفهم معناها ولا مغزاها .

غير أن سيغفريد خشى الصواعق التي قد تنزل عليه من روما فلم يجرأ على فسخ هذا الزواج الذي ليس له أي مبرر قانوني ، ورجا البابا أن يبعث اليه برسول حبري ينظر في الأمر فقدم بطرس داميان باسم البابا وصرح ، في حضرة هنري الرابع ، ان الطلاق تحرمه الكنيسة على الملوك كسائر المؤمنين وأضاف بأن الكسندر الثاني ، حارس القانون ، لا يبارك مرتكب هذه الكبيرة ، ولا يتوجه امبراطوراً . ولم يكن من هنري الرابع إلا ان اذعن . ولكنه بالمقابل ، احاط نفسه بلفيف من المشاورين المناوئين للكنيسة الذين طردتهم من الجماعة . وهذا ما ادى إلى وقوع الملك بدوره تحت طائلة الحرمان ايضاً . وكل هذه القرائن ، رغم رغبة الكسندر الثاني وهيلد براند في الصلح ، تدل دلالة واضحة على ان السلام قصير الأمد بين البابوية والامبراطورية .

البابوية والنورمانديون . - وإذا كان هذ التوتر لايخلو من خطر على البابوية فقد كان يهددها أيضاً خطر النورمانديين بسبب تصريحات الكسندر الثاني في مجمع مانتو وبتر العلاقات بينهم وبين البابوية . فمنذ مجمع آمالفي انصرف روبير غيسكار إلى أخذ كالابر من أيدي البيزنطيين وتم له فتحها في ١٠٦٠ ، وتقدم عام ١٠٦٢ واستولى على برنديزي . وانتهز الصعوبات التي تتخبط فيها الامبراطورية الشرقية واستولى على باري (١٠٧١). وأصبح سيد بوي بعد أن أجلى الاغريق عنها . وفي الوقت ذاته أخذ روبير وأخوه روجه صقلية من أيدي المسلمين ودخل الأميران بالرمو .

وهذه العمليات الحربية الشاقة المصحوبة بالفوز تارة وبالخذلان اخرى

صرفت روبير عن ايطاليا الوسطى . أما جاره ريشار آفيرسا فقد استقر في كابو منذ العام ١٠٦٢ وغايت (١٠٦٣) وحاول العدوان على الكرسي الأقدس واجتاح الريف الروماني .

ولم يكن لدى الكسندر الثاني أمام هذا الخطر الذي يداهمه إلا الالتجاء إلى نجدة البلاط الجرماني . وكان هنري الرابع يرغب في تجهيز حملة إلى ايطاليا رغبة في الحصول على عدة فوائد أهمها تهديم نفوذ النورمانديين في ايطاليا ، وحماية الكرسي الأقدس حماية ظاهرية تضطره إلى الاعتراف بالوصاية الألمانية ، واحتمال التتويج الامبراطوري بعد الظفر . وعقد في ٢ شباط ١٠٦٧ مجلساً في اوغسبورغ فرحب بهذا المشروع .

ولكن هذه الحملة المزمع تسييرها إلى ايطاليا لم تقع ، ولا تعلم على وجه الصحة الأسباب المانعة . وربما فكر هنري الرابع بان الابتعاد عن مملكته في مثل هذه الظروف قد يدفع بالاستياء الذي حوله إلى الثورة . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا التأجيل بسبب دبلوماسية غودفروا اللورين الذي خشي من أن الجيوش الألمانية ، اذا أتت إلى ايطاليا واخضعت النورمانديين ، تعود وتهدد استقلال دوله . وعلى كل حال استطاع غودفروا أن يبعد هنري الرابع ويحصل منه على لقب نائب الامبراطور ، وبعدها سار إلى ريشار كابو الذي حرمه البابا وحاصر آكوينو . ثم تصالح البابا والأمير في (آب ١٠٦٧) .

وكان هذا الصلح خير حل للسدة الرسولية ، لأن التدخل الجرماني لم يبق له مسوغ . وهدأ بال البابا من جانب النورمانديين ، ووثق من مساندة غودفروا اللورين له ، وأصبح بامكانه أن يتخذ بعد الآن موقفاً مستقلاً عزيزاً . وقد قدم عليه من قبل هنري الرابع عام ١٠٦٨ آنون مطران كولونيا واوتون دوق بافاريا فرفض استقبالهما لأنهما تقابلا في الطريق مع

سقف بارما ومطران رافينه وكلاهما محروم ، حتى ان آنون اضطر إلى التوبة ليحظى بحضرة البابا .

وهكذا نرى ان الكسندر الثاني ، بعد أن تخلى عن سياسة نيقولا الثاني ، يعود من جديد فيجنح إليها في السنوات الأخيرة من حبريته ويرى أن التحالف مع النورمانديين ضرورة ماسة ، لأنه خير مجيب لما تتطلبه الحالة العامة للكنيسة ، ولا سيما عندما ينشب النزاع بين الكهنوت والامبراطورية .

والنقطة الأخرى التي يستند عليها الكرسي الأقدس في ايطاليا هي دولة طوسكانا حيث توفي غودفروا الألحى . ولكن موته لم يبدل شيئاً في الوضع لأن ابنه من زوجته الأولى ، **غودفروا الأحدب** ، تابع سياسة أبيه حيال الكنيسة وتزوج ماتيلد ابنة بياتريكس زوجة أبيه . وكانت ماتيلد هذه متعلقة بالبابوية وستقدم إليها خدمات جليلة .

وتوفي الكسندر الثاني في ٢١ نيسان ١٠٧٣ . ورغم أن الظروف التي أحاطت بداية حبريته كانت شاقة فقد فارق الحياة والكنيسة تتمتع بوضع جيد .

فاتحة حبرية غريغوار السابع

١٠٧٣ — ١٠٧٦

وفي ٢٢ نيسان ١٠٧٣ ، وبينا كان يجهز الكسندر الثاني ، ارتفعت جلبة كبرى في الجمهور الذي حضر الجناز ، وصرخ الناس من اكليركيين وعلمانيين رجالاً ونساء : « هيلدبراند اسقف » . وبعد حين اجتمع الكرادلة وصادقوا على هذا الانتخاب الشعبي ورفعوا إلى السدة الرسولية هيلدبراند بابا باسم غريغوار السابع .

وظاهر الحال يدل على أنه لم يراع مرسوم نيقولا الثاني في هذا الانتخاب ، لأن الشعب انتخب هيلد براند بصورة عفوية قبل أن يقوم الكرادلة - الأساقفة بأي عمل . ولكن هؤلاء لم يبدوا أي اعتراض ، كما لم يتخذوا أي حيطة أو حذر في هذا الانتخاب . ولو تركوا وأنفسهم لما انتهوا إلا إلى هـــذه النتيجة التي كان يتمناها جميع أنصار الاصلاح بكل حرارة .

كان غريغوار السابع رجل الكنيسة الرومانية الذي يشار إليه بالبنان ويستطيع أن يسير بالاصلاح إلى الغاية المتوخاة ، هـذا الاصلاح الذي اقترن باسمه وعرف بالاصلاح الغريغوري . فمذ ثبت أن السجل ، الذي يتضمن رسائله ، ليس كما ظهر طويلاً من جمع أحـد تلاميذه ، بل هو سجله الأصيل ، وأن اوراقه الأساسية قـد أملاها بنفسه ، تكشفت لنا سيماء هذا الحبر العظيم وأصبح من السهل أن نستخلص منها صفاته العامة .

حرارة إيمان تنيرها تقوى صوفية ، وعاطفـة عميقة في عجز الانسان أمام الله ، تسيره دوماً مشيئته وتهيمن عليه في كل لحظة أرادته . فهو الذي يقضي وهو الذي يعفو ، ولا مرد لحكمه ، وحاجة لاتقهر في السمو إلى الملأ الأعلى لتتقرب من الحضرة الالهية بالصلاة والزلفى والعزف الكلي عن الذات وحب الألم والاحسان الفائض الذي يعز الناس ويكره الرذائل ويظل أفضل مصدر للسلام المسيحي .

هذه هي العناصر المختلفة التي تؤلف صورة غريغوار السابع وشخصيته . ان فكرة الاله ولدت عند هذا البابا عاطفة خالصة للقيام بواجباته التي تتلخص بكلمة واحـــدة : **التبشير** . وليس التبشير في نظر هذا الحبر، نشر المذهب المسيحي فحسب بل هو أيضاً تقويم المساوىء وممارسة سلطة

اصلاح المفاسد التي تؤلف جزءاً متمماً من السلطة العامة التي خولها المسيح الى القديس بطرس وخلفائه من بعده .

البرنامج الغريغوري . — وهذه السلطة التي تؤخذ من المسيح هي التي جعلت غريغوار السابع ينصرف بكليته إلى خدمة الكنيسة واصلاحها لأن همه الأول « استئصال شأفة البدعة السيمونية والعودة بالاكليروس ، المكبل بتفسخ الحياة المخجلة ، إلى لزوم العفة » . ويرى غرايغوار السابع أكثر من أسلافه أن للكرسي الأقدس وحده من السلطة مايكفي لتقويم المساوىء . ان المسيح أسس الكنيسة الرومانية وجعلها أفضل الكنائس المسيحية . فهي رسول الله تصدق بكلماته وتعبر عن إرادته إلى الأساقفة والمؤمنين ، وتتمتع بسلطة مطلقة وغير محدودة. ولذا يجب على كل إنسان ، مهما كان شرطه ، أن يخضع أمامها . وكان غريغوار السابع ، منذ أن اعتلى عرش البابوية وقبل أن يعرف طبيعة السلطة الجبرية في « أمالي البابا » ، موطداً العزم على أن يستعمل جميع الامتيازات التي تخوله إياها التقاليد الكنسية في اصلاح الاكليروس الفاسد .

وفي سبيل هذا الاصلاح كان يريد ان يحشد جميع القوى المسيحية ، ويعتمد على الأساقفة ، ويحاول أن يربطهم بصورة وثيقة بالسدة الرسولية ، وذلك بالاكثار من المندوبين الرسوليين . وان مراسيمه الاولى تدل على هذا الجهد القوي القلق الذي بذله في إزالة الخمول عن الأحبار الذين كانوا يتطلعون قبل كل شيء « إلى مجد هذا العالم وشهوات اللحم » . وكان يأمل بأن تسهم السلطة الزمنية أيضاً في عمل السلام. وليس لديه ضد الملوك أي رأي مسبق أو أي فكرة حزبية . وقد لاحظ نيات هنري الرابع السيئة تجاه قوانين الكنيسة ، إلا أنه كان يرغب من صميم نفسه

ودون أن يضحي بالتفوق الروماني ، أن يوطد التفاهم والوئام التقليدي بين الكهنوت والامبراطورية . وقد كتب إلى رودولف سؤاب عام ١٠٧٣ : « وكما أن جسد الانسان تسيره العينان ، نوره الزمني ، فكذلك جسد الكنيسة يسيره هذان المنصبان : الكهنوتي والعلماني اللذان يوفـــق بينهما الدين الحنيف ويؤلفان نوره الروحي » .

وطبقاً لهذا المذهب حاول غريغوار السابع أن يحل المشاكل المعلقة مع الملك الجرماني لينصرف بعد ذلك إلى تطبيق برنامجه الاصلاحي .

غريغوار السابع وهنري الرابع . — عندما أصبح هيلد براند بابا كان هنري الرابع مطروداً لأنه لم ينفصل عن مشاوريه المطرودين . كما أنه في آخر أيام حبرية الكسندر الثاني لزم جانب خصوم الاصـــلاح في لومبارديا وأراد أن يفرض في ميلانو مطراناً من انتخابه الخـاص بعد أن رفض منتخب الكنيسة . غير أن غريغوار السابع كان يريد أن يحل القضية حلاً سلمياً ويثبت إرادته على ألا يخالف القواعد القانونية التي خرقها هنري الرابـع ، ولذا أبدى لهذا الأمير بواسطة غودفروا اللورين الأحدب بأنه على استعداد للعفو والسماح ، ولمح بتتويج الامبراطور في المستقبل القريب ، وحاول أن يدل على صدق نواياه وإخلاصه وحبه للصلح رغبة منه في الحيلولة دون الحرب الأهلية التي كانت تهدد هنري الرابع بعد أن قامت الثورة في ساكس وأخذ سكان هذه الدوقية على هنري الرابع أنه لا يحترم حرية الأهلين ولا امتيازاتهم ويمـــلأ البلاد بالقصور والحصون والحاميات . وقد ازداد هذا الاستياء فانقلب إلى حركة تمرد وعصيان حقيقية . وحاول هنري الرابع المفاوضة فطلبوا إليه تدمير الحصون الملكية لأنها لم تبن للدفاع عن الامبراطورية . وتحرج موقف هـنري الرابـع وامتدت الحركة من

ساكس إلى تورنجه . كما أن الجيش الذي كان مقرراً أن يهاجم ساكس لم يحشد . ولو كان غريغوار السابع يشعر بأدنى عداوة تجاه هنري الرابع ، كما نسب إليه ، لكانت هـــذه المناسبة فرصة وحيدة لإثارة النزاع بين الكهنوت والامبراطورية . ولكنه كان أبعد من أن يعير المتمردين عطفه وسلطته المعنوية لأن البابا كان يشعر برغبة ملحة في السلام . وفي رسالة مؤرخـــة في ١ ايلول ١٠٧٣ بعث بهـــا إلى رودولف سؤاب يظهر أنه غير راض عن ثورة ساكس وانه يحبذ كل حل من شأنه أن يعيد الوئام والتفاهم بين الجانبين .

امام هذا الموقف الحرج كانت المقاومة مستحيلة ، ولذا فكر الملك بمصالحة الكرسي الأقدس والتساهل مع الساكسونيين . وفي أوائل ايلول كتب إلى البابا رسالة أعرب فيها عن أسفه واغتصابه أمـــوال الكنيسة وبيعه الأسقفيات بغير حق ورجاء عفوه بكل خضوع وتقديم جليل احترامه للكرسي الأقدس ، وصرح بأنه على أتم الاستعداد لحل القضية الميلانية بشكل يتفق ورغبات الكنيسة .

وهكذا تحقق حلم غريغوار السابع : لأن ثورة ساكس أدت بصورة غير مباشرة إلى اتفاق بين الكهنوت والامبراطورية دون أن تتنازل الكنيسة الرومانية عن امتيازاتها وتتخلى عن استقلالها تجاه السلطة الزمنية .

ولم تكن نتائج هذه التسوية أقل حظاً في المانيا ، لأنه أصبح بامكان هنري الرابع ، بعد أن اطمأن من جهة روما ، أن يبدأ مفاوضاته مع الساكسونيين ويعتمد على مساعدة غريغوار السابع المعنوية . وفعلاً جرت المفاوضات إلا أنهـــا ظلت عقيمة ، لأن الثائرين كانوا يطلبون تقويض الحصون التي شادها هنري الرابع . وامتدت العداوة بين الجانبين إلى عام

١٠٧٤ عندما وعـــد هنري بتهديم الحصون ، سبب النزاع ، وخضع له الساكسونيون والتورنجيون .

المراسيم الاصلاحية آذار ١٠٧٤ . — واستبشر غريغوار السابع خيراً بعودة السلام الذي يرجوه من أعماق نفسه . ولكن هـــل يقوم هنري الرابع بعد هذا بما يتوجب عليه فيظهر اعترافه وشكره للكرسي الأقدس ويساعده في إتمام رسالته الاصلاحية ؟ كان غريغوار السابع منذ بداية حبريته يكرر نداءه إلى الأساقفة براعاة قانون العزب وحسن تطبيقه من قبل الاكليروس . وفي الاسبوع الأول من الصوم (من ٩ — ١٥ آذار ١٠٧٤) عقد مجمعاً في روما وأذاع مراسيمه في النيقولاوية والسيمونية . وتقرر أن كل من يصل بالمال إلى رتبة مقدسة أو وظيفة كنيسة لايستطيع ممارسة أي عمل كهنوتي ، وان كل من حصلوا على كنائسهم بالوسيلة ذاتها ، يفقدون كنائسهم . أما الاكليركيون الذين يتعاطون الفحشاء ويرتكبون الآثام فقد حرم عليهم القيام بالقداس كما حرم على الشعب حضور طقوسهم .

وفي الحقيقة ، ان هذه التدابير ليست الا نسخة جديدة للتدابير التي أتخذها نيقولا الثاني في مجمع لاتران ١٠٥٩ ، وكلها تدل دلالة أكيدة على رغبة البابا في القضاء على الكهان الأشرار وفصلهم عن قطيع المؤمنين ، كما تبدو أنها انعكاس لأفكار بطرس داميان التي تبناها غريغوار السابع .

تطبيق المراسيم . — لقد دل سياق الحوادث على أن هذه المراسيم كانت غير كافية : فقد بعث البابا برسله إلى المانيا ليصالحوا هنري الرابع مع الكنيسة ويذيعوا التشريع الروماني في النيقولاوية والسيمونية فأدوا القسم الأول من رسالتهم هذه خير الأداء ونجحوا في مسعاهم . إلا انهم عندما أرادوا أن يفرضوا مراعـــاة قانون العزب الكنسي اصطدموا بمعارضة الاكليروس الأعلى والأدنى ، حتى ان سيغفريد مطران ماينس وليار بريم

ادعيا بأن ليس لمندوبي البابا الحق في الدعوة الى مجمع في داخل المملكة الجرمانية . وثار الاكليركيون على السلطة الرومانية ، ونادوا بالبابا هرطقياً وجعلوا يقولون : « ان إجبار الناس بالقوة على أن يعيشوا كالملائكة ومناوأة الطبيعة في أن تتبع مجراها ، إن كل ذلك من شأنه أن يشجع على الزنى وفساد الأخلاق » .

وبدا أن اصلاح الكنيسة في المانيـــا قد مني بالاخفاق لسوء إرادة الأساقفة الذين عينهم الملك وثاروا ضد النظام الروماني . ولم يكن حظ غريغوار السابع في فرنسا بأسعد منه في غيرها لأن مقاومة الاكليروس هنا تضاعفت بعداوة المليك واحتقار المراسيم الحبرية ، حتى ان فيليب الأول أخذ يطبق السيمونية بصورة علنية . وفي الدولة **الانغلية - النورماندية**، حيث كان غليوم الفاتح يحبذ الاصلاح ، كان الاكليروس على غير استعداد لتقبل الأفكار الرومانية .

تطور البرنامج الغريغوري . — وتأثر غريغوار السابع جداً أمام هذه المقاومات المختلفة حتى ان المراسيم الحبرية في بداية العام ١٠٧٥ كانت تدل على الحزن والقلق ، ولكنها لاتشعر باليأس والقنوط . لقد كان هم البابا المستقبل ، وثقته بالله تعالى عظيمة . وإذا أخفق جهده في التبشير والوعظ أمام أنانية الأساقفة ولا مبالاة الأمراء فهنالك طرق أخرى أدق وأنجح . وخير وسيلة تنضب فيها ينابيع السيمونية والنيقولاوية المسمومة هي العمل على انتقاء الاكليروس انتقاء حسناً وانتزاع انتخابات الأساقفة من أيدي الأمراء العلمانيين والرجوع ، كما كان يريد الكاردينال همبرت في العام ١٠٥٨ ، إلى القواعد القانونية القديمة التي تكفل استقلال الكنيسة . ولذا تم تشريعه في السيمونية والنيقولاوية بمرسوم خاص في التقليد العلماني .

موسوم التقليد العلماني (شباط ١٠٧٥) . — لم يحفظ نص هذا الموسوم الشهير ، ويبدو أن غريغوار السابع وسع القانون السادس لمجمع لاتران (١٠٥٩) المتعلق بالكنائس الخاصة ، فجعله يشمل جميع الأسقفيات والأبويات . وينص هذا القانون على أنه « لايحق لأي اكليركي أو كاهن بأي حال من الأحوال أن يأخذ كنيسته من يدي العلماني مجاناً أو بالمال » . ولذا فان إلغاء تدخل السلطة العلمانية في الانتخابات الاسقفية والأبوية يمنع كل تدخل سيموني ويبعد عن الكنيسة « الذئاب الضارية » التي لاتفكر إلا في افتراس قطيعها عوضاً عن أن تقوده في طريق السلام .

وفي الوقت ذاته حاول غريغوار السابع أن يعزز نجاح الاصلاح فسعى إلى تثبيت التفوق الروماني على دعائم متينة عملياً ونظرياً . فمن ذلك أن مجمع شباط ١٠٧٥ لم يكتف بالتشريع بل نظر في الحالات التي تُعصى بها السلطة الرسولية وفرض عقوبات شديدة في بعض الحالات وعزل الأساقفة الذين يقفون موقفاً عدائياً من البابا أو يقاومون رسله . ولم يوفر العلمانيين ، بل صب عليهم جام غضبه وطردهم من الجماعة ، مثل روبير غيسكار وابن أخيه ، لاعتدائها على أراضي البابا ، وهدد فيليب الأول ملك فرنسا بالحرمان . وفي كل ذلك كان يدل على أن التفوق الذي تطالب به السدة الرسولية لم يكن مجرد صيغة قانونية بل على العكس حقيقة حية .

أمالي البابا . — وكان غريغوار السابع يحرص على تعريف هذا التفوق وتحديده وبيان ميزاته ونتائجه كما أوضح في الأمالي[1] المعروفة باسم « امالي البابا » التي تتضمن ٢٧ مادة .

يقول غريغوار السابع : « ان مؤسس الكنيسة الرومانية هو السيد المسيح وحده » وعلى هذا القول يشيد هيكل نظريته في السلطة الحبرية ، ويعتبر سلطة العقد والحل التي خولها المسيح إلى القديس بطرس ذات

أصل الهي . ويقول ان السيد وعد بطرس بأنه يوفقه دومـاً ، ولذا فان الروح القدس هي التي تملي وتوحي أفعال الحبر الروماني وتعصمه من كل خطأ . وتنص المادة ٢٢ من الأمالي على : « ان الكنيسة الرومانية لم تخطىء ، كما يشهد بذلك الكتاب المقدس ، ولن تخطىء أبداً » .

وباسم هذه المبادىءيطالب غريغوار السابـع بسلطة مطلقة وغير محدودة على جميع المسيحيين . ويضيف بأنه لايحق لأحد أن يحاكم البابا بل له الحق أن يحاكم جميـع الأساقفة ويرفع إليه الدعاوى الـتي تبدو له ذات خطورة خاصة ، أو التي لم تستطع المحاكم الأسقفية البت فيها . وهو الذي يشرع لجميـع الكنائس ، ويبدل ، إذا أقتضى الأمر ، الدوائر الكنسية وله جميـع السلطات على الاشخاص الذين يأتمرون بأمره ، كما له الحق في نقلهم وعزلهم دون أن يسأل عمـا يفعل ، ولمندوبيه المكانة الأولى أنى وجدوا ومهما كانت درجتهم الكنسية .

وموقفه من السلطات العلمانية مستوحى من هذه المبادىء نفسها .فهو يعلن ان البابا يستطيـع ان يحرم الأباطرة من تاجهم ويجعل رعاياهم في حل من يمين الولاء التي أقسموها للملوك الظالمين .

وبعد اطلاعنا على أمالي البابا لانجد أي مصلح ايطالياً كان أو لورينياً استطاع أن يستخلص ، من المبادىء القانونية ، الـتي يرجع إليها أصل النظريات الغريغورية ، نتائج واضحة بهذا الوضوح . ان أصالة افكار غريغوار السابـع الحقيقية تبدو في ان اصلاح الكنيسة لايمكن أن يتحقق إلا بالمركزية الكنسية ، الوسيلة الوحيدة للقضاء على مقاومة الاسقفية ، وبربط الممالك المسيحية بالكرسي الأقدس .

ولم يبق على غريغوار السابع ، بعـد ان وضع نظريته في التفوق الروماني ، إلا أن يكيفها مع الظروف ويؤمن تطبيقها ، أي أن يبرهن

بافعاله على ان الكرسي الأقدس لايسمح بمخالفة مرأسيمه، وانه يستعمل، عند الاقتضاء ، جميع الامتيازات التي تخوله إياها قوانين الكنيسة . ولا أدل على ذلك من حكم الحبر الروماني بالحرمان على ملك جرمانيا هنري الرابع في شباط ١٠٧٦ .

علاقة غريغوار السابع وهنري الرابع حتى ١٠٧٥.— لبثت العلاقات في الظاهر ودية بين غريغوار السابع وهنري الرابع . ولقد رأينا أن الأمير الجرماني تصالح مع الكنيسة الرومانية واسترحم منها العفو عن أخطائه السابقة ، وأعلن عن حسن نواياه في المستقبل . وظل هذا التفاهم حتى أيلول ١٠٧٥ ، وعمل غريغوار السابع مافي وسعه لتهدئة حركة العصيان في ساكس ، واستقبل هنري الرابع ، بعد مجمع آذار ١٠٧٤ ، رسولي البابا وتناول من أيديها مرسوم العفو ووعدهما بالمساعدة لتأدية رسالتها الاصلاحية . ولم يكن باستطاعة هنري الرابع أن يسلك غير هذه الطريقة السلمية . فقد كان يستعد للقيام بحملة إلى هونغاريا ويفكر خاصة بالانتقام من الساكسونيين ، ولا يستطيع تحقيق خطته هذه إلا إذا عاش بسلام تام مع الكرسي الأقدس .

قام هنري الرابع بحملته التأديبية ضد الساكسونيين ونشر في بلادهم القتل والنار والرعب ، ولم يوفر الكنائس والنساء والاطفال ، حتى دانت له البلاد في (تشرين الأول — كانون الأول ١٠٧٥) وما أن تم له ذلك حتى بدا متعالياً متغطرساً متكبراً . وما خضوع الساكسونيين وبتره العلاقات بينه وبين البابا عقب ذلك مباشرة في كانون الثاني (١٠٧٦) إلا دليل واضح على ما كان يضمر في نفسه من سوء نية .

انقطعت العلاقات بين البابا والملك الجرماني بسبب الحادث التالي : وهو أن هنري الرابع أراد أن يرضي الحزب الامبراطوري في ميلانو، فعزل

آتون مطران هذه المدينة وعين بدلاً عنه تيدالد وهو مازال شماساً بسيطاً. ولم يستطع غريغوار السابع أن يغمض عينيه على هـذا الفعل الأليم والفضيحة الشنعاء ، لا سيما وانه تساهل معه من قبل عدة مرات في جرمانيا حباً في السلام . وكتب البابا للملك يأخذ عليه مخالفته للقوانين الرسولية ويظهر له استعداده للعفو إذا تخلى عن تيدالد ، ولكن هنري الرابع أجاب هذه الدعوة الأبوية بالتحدي الوقح .

عقد الملك هنري الرابع مجلساً من الأساقفة والأمراء في فورمز (٢٤ كانون الثاني ١٠٧٦) وقرروا خلع غريغوار السابع بعد أن اتهموه باغتصاب سلطته وتقويض سلام الكنيسة وتعديه على حقوق المحاكم الأسقفية بتخويل نفسه حق الحكم في جميع الدعاوى الكنسية ، وطموحه الزمني في ايطاليا ونزعه عن ملك جرمانيا المنصب الذي تخوله الوراثة له ووقع الحاضرون على التصريح الآتي :

« أنا ... أسقف ... أعلم هيلد براند بأنني امتنع عن الخضوع له وعن طاعته ، ولا اعترف به بابا ولا أمنحه هذا اللقب » .

إن حكم فورمز يعتبر من عدة نواح جواباً على « أمالي البـابا » ويبدو تعبيراً للقيصرية البابوية الامبراطورية أمام النظرية الغريغورية في التفوق الروماني . ومن هنا يمكن التنبؤ بتصادم المذهبين ووقوع الخلاف .

وبعد اجتماع فورمز أرسل أسقفا سبير وبال إلى ايطاليا ليدعوا أحبار لومبارديا إلى الاشتراك في الحكم على البابا بالخلع . وقد تم لهما ذلك دون صعوبة في مجلس بليزانس حيث تقرر أن يبعث رسول إلى المجمع الذي سينعقد في روما بمناسبة عيد الصوم ليبلغ المجتمعين الحكم الصادر بحق البابا .

عقد مجمع روما في ١٤ شباط وأدى المبعوث رسالته ودعا الاكليركيين أن يذهبوا إلى الملك هنري الرابع في عيد العنصرة ليتسلموا بابا من صنع

كفيه . وما انتهى من كلامه إلا وارتفعت أصوات الاحتجاج وكاد المجتمعون أن يجهزوا على المبعوث لولا أن تداركه غريغوار السابع وحماه بشخصه . وبعد هذا الحادث العارض تكلم البابا باسم سلطة العقد والحل التي خولها المسيح للحواري وحرم على هنري الرابع « الذي تجرأ بكبريائه الجنونية على الكنيسة » أن « يحكم مملكة المانيا وايطاليا » وحل بعد ذلك رعاياه من يمين الولاء له . وبعد أن ذكر أن الملك كان على صلة بالمطرودين ، وازدرى تنبيه السدة الرسولية له ، حكم عليه بالحرمان .

كان هذا الحكم حادثاً فريداً في تاريخ العلاقات بين البابوية والسلطات الزمنية . فهو يقضي بتطبيق النظريات المدرجة قبل عام في « أمالي البابا » ويشير إلى قيمتها المذهبية والعملية . وفي كل ذلك دليل على أن الكنيسة الرومانية ، التي تحررت على يد نيقولا الثاني من الوصاية الجرمانية ، قد اثبتت تفوقها لا على الاساقفة والاكليركيين فحسب بل أيضاً على الملوك الذين يجب عليهم ، تحت طائلة العقوبات الروحية والزمنية ، أن يمتثلوا لتوجيهات السدة الرسولية . هذا ويمكننا أيضاً أن نقدر سعة المرحلة التي قطعتها الكنيسة خلال الثلاثين السنة الاخيرة : ففي سنة ١٠٤٦ خلع هنري الثالث بسلطته الخاصة البابوات الثلاث : بندكت التاسع وسيلفيستر الثالث وغريغوار السادس الذين كانوا يتنازعون السدة الرسولية ، دون أن يثير أي مقاومة تذكر . وفي العام ١٠٧٦ يجيب غريغوار السابع على هذا الحكم بحكم من نوعه ويدعو رعايا هنري الرابع الا يعترفوا به ملكاً . وبعد أن كانت البابوية حتى ذلك التاريخ تابعاً للامبراطورية أصبحت الآن قوة يحسب حسابها .

الفصل التاسع والعشرون

تشكل المملكة الآنغلية ـ النورماندية

في الوقت الذي كان فيه جهد ايتين التاسع ونيقولا الثاني وغريغوار السابع يحرر الكرسي الأقدس من ضغط القيصرية البابوية ويؤمن له الاستقلال سبيلاً لتفوقه على الدول المسيحية ، كان فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح يحول سماء اوربة الغربية ويضع للمستقبل قضايا كبرى وخطيرة بين الكهنوت والامبراطورية . كذلك أنشأ اتحاد انكلترا ونورمانديا ، تحت صولجان واحد ، دولة جديدة ، حول المانش ، وولد في القرن الثاني عشر نزاعاً بين المملكة الكابسية والمملكة الآنغلية ـ النورماندية ودام هذا النزاع حتى أواخر العصر الوسيط .

دوقية نورمانديا في منتصف القرن الحادي عشر

غليوم الدعي ، دوق نورمانديا . ـ بينما كان تحرير الكنيسة الرومانية أثراً جماعياً طويل النفس تضافرت على تحقيقه جهود جيل من المصلحين ، كان فتح انكلترا من تصور وإعداد وتحقيق رجل واحد ، دون نورمانديا ، غليوم الدعي .

ولد غليوم الدعي عام ١٠٢٧ . وهو ابن روبير الشيطان من سريته آرليت . أصبح دوقاً في الثامنة من عمره (١٠٣٥) ، وكان من أبرز شخصيات العصر الوسيط . وإذا كان من الصعب الكشف عن ملامح

سياته ، التي أصبحت اسطورية ، فمن الخارج عن الشك أن هذا الأمير الشهير فرض شخصيته على معاصريه بمواهبه الطبيعية وصفاته الخلقية النادرة. كان عصلبياً ، جلداً ، مهيباً ، قويـــاً ، يحب التمارين الرياضية العنيفة كالفروسيـة والصيد والحرب ، ولا يشبه مع ذلك الأمراء الاقطاعيين الآخرين . وإذا كان كمعظمهـم لايستطيع السيطرة على أعصابه وسورة غضبه ، فقد كان يعنى بأن يكون سلوكه منسجماً مع ايمانه الديني ، ويعرف خطورة الالتزامات الادبية التي يفرضها القانون المسيحي . كان يكره الرذيلة ويكافح الاخلاق والعادات السيئة في محيطه ، وضرب للناس المثل في الاخلاص الزوجي ، ومنح زوجتـه الشرعية ، ماتيلد ، بنت بودون الخامس ، كونت فلاندر ، عطفاً خاصـاً وغمرها بحنان رقيق طاهر عف تقي نقي ، وطبق قوانين عادلة على رعاياه ، وفرض احترام سلطته على باروناته ، وعرف كيف يستدر عطف شعبه بتـأمين السلام في نورماندیا . وهذا الاعتدال لاينفي عنده الطموح الواسع واعـداد الوسائل لتحقيقه . ففي أقل من خمسين عاماً استطاع أن يقوم بعمل من الطراز الأول أكد فيه قوة مفاهيمه وتحقيقها بأصول وصبر وثبات .

دوقية نورماندیا . — كانت دوقية نورماندیا محور قوة غليوم الدعي فقد تمتعت منذ تسلمه حكمها عام (١٠٣٥) في داخل المملكة الفرنجية باستقلال تام تقريباً . ولا شك في أن ملك فرنسا لم يتنازل عن سيادته على هذه الاراضي التي تنازل عنها في السابق شارل الساذج إلى رولون ، ولكن الصلات التبعية اقتصرت عملياً على شيء قليل جداً . فمنذ الاضطرابات التي تلت وفاة غليوم ذي السيف الطويل (٩٤٢) نمت السلطة الدوقيـة باستمرار ، لأن كل شيء كان جديداً ولم تضرب السلطة العامة بالاقطاعات التي زعزعت سلطة الاقطاعي الكبير في غيرها من المناطق ، لأن جهود

سلفي غليوم الدعي ، ريشار الأول (٩٤٣ — ٩٩٦) وريشار الثاني (٩٩٦ — ١٠٢٧) كانت منصرفة إلى الحيلولة دون وقوع أي اغتصاب ممكن ، واستطاعت هذه الجهود أن تكلل بالنجاح في الحفاظ على وحدة نورمانديا ضد هجمات البارونات . ولم يتشكل فيها دومينات واسعة جداً يمكن أن تقاوم بقوتها الأرضية السلطة الدوقية التي ظلت في الواقع سليمة لم تمس . وفي الحقيقة ، لقد استعمل ريشار الأول وخلفاؤه سلطتهم المطلقة باعتدال باحثين قبل كل شيء عن سيادة العدل ونشر السلام . وهذا ما أكسبهم شعبية كبرى في قلب الجماهير .

حكم غليوم الدعي . — وظل غليوم الدعي أميناً على خط هذا السلوك ، واضطر في بعض الاحيان إلى استعمال القوة للحفاظ على امتيازاته . فقد اصطدم عند استلامه شؤون الدوقية بثورة البارونات الذين انتهزوا فرصة قصره لازاحة النير الذي يثقل كاهلهم . ولا شك في أن سلطته تعرضت في هذه الفترة لبعض الاضرار ، ولكنه منذ أن بلغ سن الرشد بادر إلى استرداد المواقع التي خسرها : أمر بحلق القصور التي شيدت في كل مكان ، وانتصر ، بفضل مساندة ملك فرنسا ، هنري الأول ، على الأمراء النورمانديين في معركة وادي الكثبان (١٠٤٧) ، وفرض طاعته ، واستعادت السلطة الدوقية شوكتها وبشكل أقوى مما في الماضي .

وكان غليوم الدعي أميناً على التوجيهات التي رسمها أسلافه . ولذا تحرر قبل كل شيء من السيادة الكابسية التي أصبحت في عهده بقية حقوقية . وكان الوحيد ، من بين كبار الاقطاعيين ، الذي لم يحضر عام ١٠٥٩ حفلة تتويج فيليب الأول . وفي داخل الدوقية أجبر تابعيه أن يقبلوا بوجود حاميات أميرية في قصورهم بغية استتباب الأمن الداخلي وقوة نفاذ نظم السلام التي شجع على انتشارها وحببته إلى قلوب الناس من علمانيين واكليركيين .

وسياسته الكنسية مستلهمة من الاتجاهات نفسها في علاقاته مع الأمراء . فهو يريد أن يكون سيد الكنيسة كما هو سيد المجتمع العلماني ، وأن يسمي بنفسه الأساقفة والآباء . ولكن انتخابه كان مجرداً من كل مفسدة . واستعمل سلطته لما فيه خير الدين : فقد أسس أديرة وشجع فيها دخول الاصلاح الكلوني وكافح السيمونية والنيقولاوية بشدة واستحق لذلك عطف الكرسي الاقدس الذي بارك مشاريعه وساعدها .

وبفضل هذا الاعتدال الذكي المعدل لقساوة الحكم المطلق نفخ غليوم الدعي في الدولة النورماندية قوة حقيقية تعتمد على شعبية اجماعية . وهذه الشعبية ساعدته على تصور ووضع خطط واسعة انضجها مع الزمن وأخذ ينفذها حسب الظروف .

غداة نصر وادي الكشبان (١٠٤٧) وبينا كان يخمد الاقطاعيـة النورماندية ، اتجه بانظاره صوب منطقة المين الواقعة بين نورمانديا والآنجو ويبدو أن هذه المنطقة مهيأة لتبتلع من إحدى هاتين الدولتين الاقليميتين . وقد أفاد غليوم الدعي من مساعـدة ملك فرنسا لـــه ومن ضعف الكونت جوفروا الاحلى وفرض نفوذه عليها . وبالرغم من الثورات التي قامت في سبيله استطاع الحفاظ على هذه الكونتية ووسع بها أملاكه من جهة الجنوب . ثم تابـع في الغرب مشروعاً من نفس النوع في بريطانيا ، اثر وفـاة ملك انـكلترا ادوارد المعرف (٥ كانون الثاني ١٠٦٦) ، وشغل نفسه بتعزيز السيادة النورماندية فيها .

غليوم الدعي وانـكلترا . — لقد حلم غليوم الدعي بالتاج الانكليزي لا سيا وان الملك إدوارد المعرف لم يكن له ورثة مبـاشرون . وكان إدوارد ، من جهة امه إيمّا، ابن اخت روبير الشيطان ، ابي غليوم ، ولم يستطعْ إعتلاء عرش أجداده ، كما رأينا ، إلا بفضل دعم القوة النورماندية له .

وكان للروابط العائلية والخدمات قيمة هامة لاجدل فيها ، حتى ان غليوم النورماندي الطموح لم يدعها تفوت فتسقط في زوايا النسيان .

في ١٠٥١ ذهب غليوم إلى انكلترا تصحبه حاشية فخمة ، فاستقبله ابن عمته الملك إدوارد المعرف بجفاوة ، ولم يعده بأي وعد ايجابي ، ولكنه دل على عطف خاص نحوه . وهذا العطف ولد عند غليوم آمالاً واسعة . وربما استسلم للوهم والضلال ، لأن ادوارد المعرف ، بالرغم من العطف الذي ابداه للامراء النورمانديين ، كان يفكر باستمرار سلالة الفرد الكبير ونقل التاج الى ابن أخيه ادموند ، ادوارد ، المنفى في هونغاريا ، وقد دعاه ليكون الى جانبه . ولكن ادوارد هذا توفي عند وصوله الى انكلترا وترك ثلاثة أولاد صغار لا يقدرون على المطالبة بارث ادوارد المعرف ومقاومة الاقطاعية الانكليزية التي يتزعمها هارولد ، بن غودون ، ويطمع بالملكية لشخصه ويفكر بان الوقت حان لاغتصاب مماثل للاغتصاب الذي قامت به الأسرة الروبيرتية في فرنسا في القرن الفائت .

ويبدو أن ادوارد المعرف كان يخشى هذا الحل الأخير بعد ان عرف ان الفتى ادغار بن ادوارد المتوفى لا يستطيع أن يحكم ، وبتأثير بطانته من الاكليركيين النورمانديين أرسل ، في العام ١٠٦٥ ، مطران كانتوربري ، روبير ، وقدم التاج الى غليوم . وبعد أسبوعين على مجيء هذا الخبر الى نورمانديا أوقعت عاصفة هارولد في يدي كونت بونثيو ، غي ، فسلمه الى دوق نورمانديا ، ولم يستطع زعيم الاقطاعية الانكليزية استعادة حريته الا بعد ان أقسم يمين الولاء الى غليوم ، منافسه في المستقبل . وكانت

هذه اليمين سلاحاً بيد النورماندي ؛ لأن هارولد يعتبر حانثاً اذا استمر بطالبته في أن يكون خلفاً لادوارد المعرف .

وفاة ادوارد المعرف (٥ كانون الثاني ١٠٦٦) . — وافتتحت قضية الخلافة في ٥ كانون الثاني ١٠٦٦ بموت الملك . وكان غليوم الدعي قوياً بقرابته وارادة الملك المتوفى واليمين التي أقسمها هارولد . ولذا كان في وضع ممتاز لتحقيق أكبر مطمح في حياته وتجديد مغامرات الفاتحين الدانيماركيين ، سفيند وكنوت الكبير ، مع كل حظ في النجاح .

سنة ١٠٦٦

انقلاب ٦ كانون الثاني ١٠٦٦ . — غداة وفاة ادوارد المعرف ، أي في ٦ كانون الثاني ١٠٦٦ لم ينتظر هارولد انتخاب الأمراء ونادى بنفسه ملكاً على انكلترا وباركه مطران يورك ، الدرد ، وسوي كل شيء في صبيحة واحدة . ورغم ان هذا الانقلاب مخالف للتقاليد الانكليزية ، لم يثر أي احتجاج مباشر ، وشايع معظم الاساقفة والبارونات هارولد وانحنوا أمام الأمر الواقع خوفاً مما هو أشد وأمر ، الغزو الاجنبي . إلا أن أهل نورثامبريا أبدوا بعض المقاومة التي استغلها أخو هارولد الخاص ، توستيغ . فقد ابعد هذا عن إرث أبيه غودون ، رغم أنه الابن البكر والتجأ في الفلاندر حيث تزوج بنتاً لبودون الخامس وأصبح بذلك عديلا لغليوم الدعي . والحق يقال ان توستيغ لم يكن بالذي يخشى خطره ، ومن الممكن كسبه ببعض الامتيازات . ولكن الخطر الحقيقي الذي يتهدد هارولد كان من الخارج : من ملك الدانيمارك سفيند ايسثريتسون ، ومن دوق نورمانديا ، غليوم الدعي الذي كان يتهيأ لاثبات حقوقه .

الاستعدادات النورماندية . — منذ أن عرف غليوم بنبأ وفاة الملك وانقلاب ٦ كانون الثاني أرسل إلى هارولد رسولاً وكلفه بان يذكره باليمين التي قطعها على نفسه قبل بضعة أشهر أثناء اقامته في نورمانديا . وحرص على القول ان منافسه حنث بيمينه ليبرر الحملة في أعين الكنيسة التي يعلق أهمية كبيرة على تحالفها معه . وفي الواقع،لقد اعترف البابا الكسندر الثاني بشرعية مزاعم غليوم وبعث اليه بشعرة من شعر القديس بطرس والراية التي تجلب لجيشه الحماية من الله تعالى .

وكان غليوم قوياً بدعم الكرسي الاقدس له ويمكنه الاعتماد أيضاً على مساندة تابعيه . وبينما كان يفاوض روما ، دعاهم إلى ليلبون . ويبدو من تعداد المؤرخين ان هذا المجلس ضم عدداً عظيماً من الامراء ، واثيرت فيه بعض الاعتراضات خوفاً من الاخطار التي قد تأتي عن اجتياز بحر المانش أو من القيمة العددية للجيش الانكليزي . وبالرغم من أن حملة غليوم إلى ما وراء البحار لا تتفق وقواعد الخدمة العسكرية الاقطاعية ، فقد وافق البارونات اجمالاً على مشروع مولاهم ، وبدا هذا المشروع مثمراً في نظرهم بعد أن تصوروا الهبات الأرضية الغنية التي تكافىء القيام بهذه الخدمة التبعية الاستثنائية . لقد كان الأمل بالغنيمة يحدوهم جميعاً . ومن الصعب ، بسبب مبالغة المؤرخين تقدير عدد الجنود التي صحبت غليوم ، ولكن من الممكن أن نفترض أن الجيش الذي اجتاز المانش معه لا يتجاوز خمسة الاف رجل إلا قليلاً .

وفكر الدوق غليوم ايضاً بالوسائل الضرورية لتأمين النقل ، فجمع وحدات الاسطول في مصب نهر الديف على المانش وتم الحشد في شهر آب في سان — فاليري ، ولم تكن الرياح مواتية للابحار واضطر ان

ينتظر حتى ٢٩ أيلول للاقلاع ، ثم نزل في بيفنسي على الشاطىء البريطاني واحتلها دون عناء .

استعدادات هارولد . — كان هارولد متهيأ لكل احتمال . وكما أشرنا ، لقد أعترف به القسم الاعظم من الشعب الانكليزي ، واستطاع أن يستدر العطف بحكمه المعتدل وحماية الكنائس والأديرة وملاحقة المجرمين وتأمين النظام والسلام ، وأفاد من ذلك لايقاظ العاطفة القومية ، وفي الوقت نفسه جعل المملكة في حالة دفاع ، والف في الغرب والجنوب جيشاً قادراً على مجابهة النورمانديين . وأفسد خطط أخيه توستيغ . وبعد أن حاول هذا عبثاً اثارة بلاد الهمبر جاء وساعد ملك النورفيج ، هارالد هاردرادا الذي احتل جزر أوركاد ونزل عند أفواه نهر الاوز وغلب في ٢٠ أيلول . وأدرك هارولد مدى الخطر ، وأفاد من جمود غليوم في سان فاليري فاسرع إلى توستيغ وهارالد هاردرادا ودارت معركة حامية قتل فيها الاثنان مع عدد من المحاربين الاسكاندينافيين . ثم عاد بسرعة الى منطقة لندن ووصلها متأخراً ولم يستطع مقاومة النورمانديين ، ولكنه تمكن على الأقل من أن يجمع القوى التي تسد طريق العاصمة في وجه الغزاة .

معركة هاستنغز (١٤ تشرين الأول ١٠٦٦) . — تقدم هارولد حتى سينلاك وحصن جيوشه على رابية بهذا الاسم . ووقع الاختيار على هذا الموقع لأن الرابية التي احتشد عليها الانكليز تشرف على سهل هاستنغز حيث ينتشر الاعداء ولا يستطيعون الزحف على لندن دون ترك الكثير من الضحايا . وكان هارولد متفوقاً بعدد جيشه . وإذا لم يمكن تقدير عدد جنوده بدقة فما لاشك فيه أنها كانت تفوق جنود غليوم الفاتح . ولكن النورمانديين كانوا يتفوقون بسلاحهم الخفيف وقيادتهم المجربة وفرسانهم المدربين وإلى هؤلاء يرجع الفضل في جزء من الفوز .

ومن الصعب معرفة ماتم على وجه الصحة في هذا اليوم الأغر ، فقد ظلت الاوصاف التي تتكلم عنه زمناً طويلاً مستوحاة من **قصة رو** التي كتبها **واس** حوالي العام ١١٦٠ ولم يعرف معركة هاستنغز إلا من قصص أبيه أو من **مطوزة بايو** الشهيرة التي فسح تاريخها مجالاً لكثير من الجدل ، ولم يكن سابقاً على وجه التأكيد للسنوات الاولى من القرن الثاني عشر . وإذا كانت هذه الوثائق المتأخرة تلون خاصة الأساطير التي بعث بها حادث من طبيعته أن يضرب الخيال ، فان المصادر المعاصرة في معظمها مصادر نورماندية ويتجلى فيها التحيز والتمجيد بكل صراحة : إن أسقف آميان ، غي بونتيو ، الذي نظم قصيدة عن معركة هاستنغز بين ١٠٦٦ و ١٠٧٤ ، وغليوم بواتيه مؤلف « تاريخ الدوق غليوم » الذي ظهر بين ١٠٧١ و ١٠٧٧ أثران مدحيان متحمسان مندفعان ولا يمكن قبول شهادتها إلا بحذر . وكذلك النص الانكليزي الممثل خاصة بغليوم مالمسبوري لم يظهر إلا في منتصف القرن الثاني عشر ويحتوي أيضاً كثيراً من التفاصيل الاسطورية . ولذا فان النقد يصطدم ، من أجل الأحداث التي جرت ابتداءً من ١٤ تشرين الأول ١٠٦٦ ، يوم الملحمة ، بسلسلة عقبات كأداء .

وفي الحقيقة ، ان النصر النورماندي ، في هاستنغز ، لايترك مجالاً لشك ، ولكن الذي يبدو أيضاً هو أنه كان مشكوكاً فيه في بعض الأحيان ، وانه كلف غالياً . وكل ما نستطيع استخلاصه هو أن معركة حامية الوطيس دارت في سهل هاستنغز ومات فيها الأمير هارولد واخوته . وبعد أن فقد الانغلو - ساكسون زعماءهم انسحبوا وقاتلوا متراجعين وغلب غليوم ولم يبق له إلا أن يقطف ثمار ظفره .

ويقول المؤرخون ان غليوم ، عوضاً عن أن يزحف مباشر إلى لندن ، بقي خمسة أيام في ساحة القتال يدفن القتلى . وهذا يعني أنه أراد أن يستجمع قوى جيشه بعد المعركة . وفي ٢٠ تشرين الأول تقدم على طول الشاطىء وأجتاز رومني حيث عاقب السكان الذين هاجموا جيشاً نورماندياً ودخل دوفر ، ثم نظم الساحل واتجه نحو لندن ولم يبد السكان نحوه أي عطف . فقد اجتمع مجلس من الوجهاء والمواطنين بوحي من رئيس أساقفة كانتوربري ، ستيغاند ، ونادى بالشاب ادغار آثيلينغ ابن أخي ادوارد المعرف ، ملكاً . ولكن الاجماع لم يتم على هذا الأمير الطفل وأعلن الكونتات موافقتهم شكلياً وكانوا على استعداد لمشايعة غليوم .

وفي هذه الظروف بدت كل مقاومة موقتة . واستطاع غليوم أخيراً أن يقطع مواصلات لندن مع الخارج ، واستعمل طرق التخويف باحراق الاحياء الواقعة على الضفة اليمنى لنهر التاميز ، واستسلمت المدينة أخيراً ، وكان ستيغاند أول من قدم خضوعه ، وقلده زعماء الحزب القومي ، حتى ان ادغار نفسه اضطر إلى الاعتراف بدوق نورمانديا ملكاً على انكلترا .

تتويج غليوم الفاتح (٢٥ كانون الأول ١٠٦٦) . — ولم يستسلم غليوم الفاتح للتوسلات التي كانت تنهال عليه من كل جانب ، ويتوج نفسه ملكاً ، بل فضل قبل كل شيء أن يهدىء الافكار ويحصل على مشايعة الناس له . وفي يوم عيد الميلاد في ٢٥ كانون الاول ١٠٦٦ تقبل التاج من يدي رئيس أساقفة يورك في كنيسة القديس بطرس في قصر وستمنستر حيث يرقد ادوارد المعرف .

وكان هذا الاحتفال تتويجاً للفتح الذي أراد غليوم أن يسبغ عليه

صفة الشرعية في أعين الشعب . وقد اصطبغ بصبغة البروتوكول التقليدي. وفي حضور الاكليروس والشعب أقسم غليوم اليمين « على أن يحمي كنائس الله المقدسة وكهانها ، وأن يحكم الشعب بالعدل والحكمة وان يعلن قانوناً عادلاً ويأمر الناس بمراعاته » . ولم يفته شيء من حيث تدخل الكنيسة وقبول الشعب . وهكذا امحت آثار الاغتصاب الفاتح وعادت انكلترا تسير قدرها .

تدابير التهدئة . — وإذا قبلت لندن النظام الجديد فان غليوم الفاتح لايمكنه أن يباهي بأنه حصل على اجماع الشعب الانكليزي في آخر العام ١٠٦٦ فما زال بحاجة إلى كسب معظم رعاياه . وهذا مادفعه إلى اتخاذ تدابير من شأنها بعث الثقة والخوف معاً .

وإذا أخذنا برأي المؤرخين وجدنا أن الملك أراد قبل كل شيء أن يقطع دابر الفوضى والعنف والاضطراب التي تخشى عادة في أعقاب النصر . فقد حرم على جنوده السلب والنهب والاختلاف إلى الحانات وأماكن السوء والاعتداء على النساء ، وأسس لهذا الغرض محاكم خاصة لتقمع بشدة مخالفة النظام . ومن جهة أخرى ، كافأ الزعماء النورمانديين الذين دفعهم الطمع إلى انكلترا بهبات أرضية على حساب أنصار هارولد ، وحاول أن يجنب الاعتداء على أموال الانكليز الذين لم يحاربوه ، حتى ان عامة الشعب لم تشعر بما يؤلمها من تبديل الاوضاع واحلال النظام النورماندي محل النظام الآنغلي — الساكسوني .

وهذه السياسة المعتدلة العاقلة لم تمنع الفاتح من اتخاذ حيطته . فقد وضع أخاه اودون بايو في قصر دوفر وكلفه بالاشراف على شاطىء كنت ، وعهد إلى مخلصيه بتهدئة الحالة في شمال المملكة . ووضعت الحاميات النورماندية

في كثير من القصور بغية التدخل مباشرة في الحالة التي يظهر فيها أقل حركة مقاومة .

وكان لهذه التدابير نتائج سعيدة . فقد توالى خضوع المناطق الواحدة بعد الاخرى ، حتى ان غليوم في العام ١٠٦٧ اطمأن عن سلطته في انكلترا وعاد الى نورمانديا ظـــافراً يصحبه الفتى ادغار وكثير من الامراء الانكليز .

ولكن الفاتح مالبث أن عاد إلى انكلترا لان نوابه كادوا أن يفسدوا عمله بظلمهم وجشعهم وطمعهم وفظاعتهم ، حتى تحولت الكراهيـة إلى ثورة . واستطاع غليوم أن يقضي على المقاومات واحدة بعد أخرى ويتمتع أخيراً بسلطة غير منازعة ، وينهي تنظيم مملكته .

تنظيم انكلترا في عهد غليوم الفاتح

صفات أثر غليوم الفاتح . — إن العمل الذي قام به غليوم الفاتح في العشرين سنة التي تلت الفتح ، كان مأخوذاً ببناء النظام على أسس دائمة وثابتة . ولكن كثيراً من العقبات وقفت في طريق الملك : فالثورات التي كافحها ، ان لم تدل على عاطفة قومية قوية جداً ، فعلى الاقل ، دلت على التردد والقلق وسوء الظن . ولذا ينبغي قبل كل شيء ، سلوك سياسة حازمة ورحيمة لجلب الشعب الانكليزي إلى جانبه . ومن جهة أخرى ، ينبغي ارضاء شهوات البارونات النورمانديين الذين استهوتهم انكلترا طمعاً في الحصول على دومينات لاستغلالها . ولم يرتبك غليوم لكل هذا ، وإذا لم يتوصل لارضاء كل الناس فقد استطاع على الاقل أن ينشيء في انكلترا ، وهذا ما يبدو مسبقاً متناقضاً ، ملكية ذات حكم

مطلق تعتمد على نظام أميري ولكنه عرف كيف يعدل هذا النظام ببراعته المعتادة .

ادخال النظام الأميري إلى انكلترا . — لقد كان النظام الاميري معروفاً في انكلترا قبل الفتح النورماندي ، ولكنه لم يكن ظاهراً بمثل ما كان عليه في القارة . فمنذ عصر الانغلو — ساكسون تنازل الملوك في بعض الحالات عن أراض إلى بعض الامراء ، وتركوا عليها الحقوق الملكية ، وفي المنازعات الكبرى التي قامت في القرن التاسع والعاشر كثر نقل الملكية ، وأفادت الكنيسة كثيراً من هذا النقل في بعض الأحيان . وفي بداية القرن الحادي عشر لم تقم الملكية الدانيماركية بحركة تقاوم هذا الدفع ، بل سلمت به وكافأ كنوت بهبات مماثلة محاربيه المخلصين له . ومع ذلك فان هذه الاقطاعات لم تكن عامة كما كانت في فرنسا . فقد وجد في انكلترا إلى جانب الارستقراطية العسكرية والعقارية طبقة عديدة نسبياً وهي طبقة الملاكين الأحرار ، وظل هؤلاء يستغلون أراضيهم كالمعتاد ، ولكنهم وجدوا في الغالب في ظروف صعبة لاستغلالها . لقد كانوا تحت رحمة ملاك كبير مجاور ، وأدى الأمر بهم أخيراً إلى أن طلبوا عونه ونجدته ووضعوا أنفسهم تحت تبعيته . ووجدت روابط غير معرفة جيداً ومتغيرة أساساً ونشأ عنها التباس عظيم .

هكذا كانت الحالة الاجتماعية في انكلترا عند مجيء النورمانديين ، ولكن غليوم الفاتح أدخل اليها النظام والوضوح وطورها في اتجاه يلائم الملكية .

وما زالت سياسة غليوم حتى اليوم مغلقة ببعض الغموض ولم يتفق المؤرخون على طابع التدابير التي بسط بموجبها النظام الأميري نفوذه في انكلترا .

ولكن من الواضح أن يكون الاغتصاب في أساس هذه التدابير ، وعنه نشأ التحول في صيغة الملكية . لقد وضع غليوم بادىء بدء يده على الدومينات الخاصة باعضاء الارستقراطية الانكليزية الذين أودوا في يوم ١٤ تشرين الأول ١٠٦٦ . ومن جهة أخرى ، ان الثورات ، التي قامت في السنوات الاولى من حكمه ، فسحت مجالاً لتدابير انتقامية لاقت بنتيجتها أراض كثيرة المصير الذي لاقته أراضي الابطال الذين سقطوا في معركة هاستنغز . وتشكلت بيد غليوم الفاتح على هذا النحو كتلة ملكيه كبرى وتقاسمهـا مع أبناء وطنه . ولم يقف الملك عند هذا الحد ، بل صادر أيضاً الأموال العقارية لمن لم يشايعوه منذ اليوم الاول ولكنه سمح لهم بافتدائها شريطة أن يأخذوها منه وأن يصبحوا رجاله . وهكذا زالت الملكية الصغيرة الحرة . وفي آخر حكم غليوم الفاتح لم يبق من كبار الملاكين الذين كانوا في العصر الآنغلي – الساكسوني إلا حوالي الف وخمسمائة متصرف . ولم يبق أي تمييز بين الانكليز والنورمانديين بل الكل تابعون للملك ، وكل واحد منهم يستغل مانواراً (المنزل والاراضي التي حوله) واحداً أو عدة مانوارات (مزارع)، ويستطيع أن يؤجر ويستأجر الاراضي . ويتوجب عليه تجاه الملك الخدمة الاقطاعية في العون والنصيحة ، ولكنه يقوم بالقضاء ويجبي الاتاوات .

الصفات الخاصة للنظام الأميري في انكلترا . — وبكلمة موجزة لقد أدخل الملك النورماندي النظام الأميري إلى انكلترا دون أن يترك أقل فارق حقوقي بين الغالبين والمغلوبين . ولكن هذا النظام أخذ فيها سيماء خاصة ، واستطاع غليوم الفاتح بتشجيعه انتشار النظام الاميري وتنظيمه أن يجنب المحاذير التي ظهرت للسلطة الملكية في غير انكلترا .

ولهذا السبب لم تضعف السلطة العامة بل خرجت قوية بهذا التحويل الاجتماعي .

وعندما ينظر إلى خارطة انكلترا في آخر القرن الحادي عشر يرى بان البلاد قسمت إلى عدة أمارات آخذة بالنمو ، مانوارات شبيهة بأمارات القارة التي تضم حول القصر دومينا ريفيا تختلف سعته حسب المناطق . ومن العبث أن نجد فيها أثراً لاقطاعات كبرى . ولقد أراد الفاتح هذه النتيجة عمداً لأنه قصد ، قبل كل شيء ، أن يحول دون تشكيل هذه الدول الاقليمية التي قد تزيل سلطتها سلطة التاج في داخل المملكة . لقد أراد الملك أن يكون أكبر ملاك عقاري واسمى زعيم تخشاه الارستقراطية العسكرية . ولذا حذف حكام الكونتيات (الدورمين) الذين يمكن أن يكونوا تابعين كباراً مستقلين ؛ ولم ينشىء أي سلطة من هذا النوع لصالح الزعماء النورمانديين الذين شعروا بنتيجة ذلك بخيبة أمل . وكان بينهم أغنياء غناء كبيراً ، ولكن مانواراتهم كانت مبعثرة عبر المملكة ومتناثرة في اثنتي عشرة وأحياناً في عشرين منطقة مختلفة . إلا أنه في بلاد الحدود ، مثل أسقفية درهام وكونتية شيستر وشروبشاير ، تألفت كونتيات متسعة قليلاً لمجابهة هجمات ممكنة من جهة ايكوسيا وبلاد الغال والبحر . وفيما عدا ذلك لايوجد دومينات واسعة مؤلفة من قطعة واحدة ، لأن السائد هو التجزئة غير المحددة والمعرفة التي من شأنها اشادة سلطة الملك الذي يعتبر بما يملك من ١٤٢٢ مانوار أعظم ملاك عقاري ، ومن حظه الا يجد أمامه أي قوة منظمة .

كتاب الحساب الأخير . — ومن المستحيل إعادة بناء مراحل هذا التعديل الأرضي الواسع . فقد سكت عنه المؤرخون سكوتاً موئساً .

بيد أنه حفظ على الأقل صك المساحة (الكاداستر) الذي أودعت فيه نتائج التحويل . فقد وضع عام ١٠٨٦ بأمر من الملك ودل عليه فيا بعد تحت اسم « كتاب الحساب الأخير » .

وانا لنتساءل ما هي فكرة غليوم الفاتح عندما أرسل المحققين إلى الكونتيات والمئويات والقرى وكلفهم القيام باحصاء جميع ملكيات المملكة وتعداد الواردات التي يمكن الحصول عليها ؟ وهل فعل ذلك في سبيل الحصول على الضريبة أو أنه أراد أن ينهي التحويل الاجتماعي الذي بدأ به في السنوات السابقة ؟ من الصعب الجواب ايجابياً في هذا الموضوع . وربما ظهر المفهومان معاً : فمن الممكن أن يكون الملك قد أراد معاً تامين جباية عادلة للضريبة وإنشاء مانوارات في كل مكان تماسكت فيه الملكية الحرة واستطاعت الحفاظ على بقائها . وعلى أي حال ، لم يغب شيء عن تحري المحققين الدقيق ، من حيث أصل الملكيات ، واسم مالكيها ، وعدد الفلاحين الذين يسكنون الدومين ، وعدد الحيوانات الداجنة الضرورية لاستغلاله ، وسعة السطح المزروع ، والمروج والغابات وبالغ الاتاوات من كل نوع . وبفضل هذا المنجم الذي لاينضب من المعلومات يمكننا أن ندرك أهمية الاصلاح الاجتماعي الذي قام به غليوم الفاتح من ١٠٦٧ إلى ١٠٨٦ والتأكد من أنه لم يكن هنالك أي تميز بين مختلف المتصرفين انكليزاً أو نورمانديين ، وان الخدمات الاقطاعية خاصة كانت نفسها بالنسبة للجميع .

الاتاوات الاقطاعية . — إن بعض هذه الاتاوات سابق للفتح ، والأخرى ادخلت من نورمانديا . بين الاولى ، الخراج ، وهي ضريبة استثنائية فرضت على الأرض التي كانت مخصصة في الأصل لتدفع إلى الدانيماركيين ، وعاشت إلى ما بعد الغارات الاسكاندينافية ، والغاها

ادوارد المعرف ثم أعادها غليوم الفاتح ، وفي آخر العهد ، كانت تأتي سنوياً بعشرين الف جنيهاً . ويضاف إلى هذه الموارد ، الموارد التي تأتي من العدلية والحقوق الدومينية ، والتي كانت على العكس ، من أصل نورماندي .

هذا ولما كانت حصيلة هذه الضرائب المختلفة تذهب مباشرة إلى التاج ، وكان الدومين الملكي ، من جهة ثانية ، يجهزه بواردات هامة أيضاً فقد وجد غليوم الفاتح غنياً جداً ، ومن الممكن أن نفترض أنـه كان عند وفاته يأخذ سنوياً خمسين إلى ستين الف جنيه ، وكان هذا المورد عاملاً في قوة الملكية الانكليزية وجعلها أقوى من غيرها .

النظم السياسية والادارية . — إن النظم السياسية والادارية التي منحها غليوم الفاتح لانكلترا ، وضعت بروح واحدة وأدت لهدف واحد وهو تقوية السلطة الملكية وخلق ملكية مطلقة الحكم .

لقد أعلن غليوم الفاتح ، غداة تتويجه ، انه ينوي حكم البلاد حسب قوانين ادوارد المعرف مع ما يجلب اليها من « إضافات يعتقد بأنها ضرورية لصالح الشعب الانكليزي » . وفي الواقع لقد تبنى الفاتح النظم السابقة للفتح عوضاً عن أن يقلبها ويستغني عنها في خطة الاصلاح الملكي . وفكر عن حق بأن احترامه ومراعاته للتعامـلات القومية تجلب له عطف رعاياه الجدد . وفي السنة الرابعة من حكمه نراه عين لجنة وكلفها بالبحث عن الأعراف في كل كونتية وطلب إلى الممثلين المحلفين فيها أن يعرفوا بالقوانين التي يبغون العيش في ظلها . وعندما علم أماني الشعب أذاع قوانينه الخاصة التي اشتقت في نقاط عديدة منها من القوانين التي منحها كنوت لانكلترا بعد الفتح الدانياركي . وهي تدل على اهتمام حقيقي باحترام تقاليد الماضي .

وعلى هـذا النحو وجدت ، إلى جانب الجيش الاقطاعي المؤلف من النورمانديين ، المليشا القديمة المؤلفة من رجال المثويات والكونتيات . وكذلك بلاط الملك يذكر في بعض نواحيه ، بمجلس العقلاء ، وللتوكيد على القرارات الهامة مثلاً في الظروف الكبرى ، كان غليوم يعقد مجالس ويدعو اليها جميع رجال الملك .

ورغم هـذا الاحترام للماضي ، كان غليوم الفاتح ينظم كل شيء بشكل يبقى فيه سيد الحكم . وكانت الاجتماعات العادية لبلاط الملك لاتضم إلا عـدداً صغيراً من الأشخاص ، كبار الموظفين ، حبرين ، بارون أو بارونين . وتنظم رغبة الملك وحدها الدعوات إلى هذه الاجتماعات . أما **الادارة المحلية** فكانت منوطة منذ ١٠٥٧ بـ **الشرفاء** ويرتبطون مباشرة بالمليك ويأمرون باحترام سلطته . وهم موظفون حقيقيون ، وكان غليوم ينتقيهم من النورمانديين ويعهد اليهم بتفويض حقيقي بسلطته . ومع ذلك لم يستطع أن يبقيهم تحت سلطته بصورة وثيقة كما تمنى ، ولم يستطع أن يمنع بعضاً منهم من نقل وظيفتهم لورثتهم ، وهذا من طبيعته إضعاف إشراف التاج وتشجيع توسع النظام الاقطاعي المعاكس لنزعات الحكم المطلق .

السياسة الدينية . — وامتد حكم غليوم الفاتح المطلق إلى الكنيسة ، واستطاع هذا الملك أن يؤكد سلطته عليها بسهولة ، لاسيما وان الكرسي الأقدس كان يثق به كثيراً . لقد كان الكسندر الثاني يقدر قيمة غليوم الاخلاقية حق قدرها ، وخاصة بعد أن برهن مراراً على غيرته الدينية وعطفه على الاصلاح ؛ وبناءً على نصيحة هيلدبراند ، الذي أصبح في العام ١٠٧٣ بابا باسم غريغوار السابع ، بارك الحملة النورماندية في

العام ١٠٦٦ ، وكان مقتنعاً بأنهـــا تستطيع أن تقوم بخدمة تجديد الكنيسة الانكليزية .

الكنيسة الانكليزية قبيل الفتح النورماندي . — لقـد تألمت الكنيسة الانكليزية كثيراً من الأزمة السياسية التي أثارتها المعارضـــة الارستقراطية خلال حكم ادوارد المعرف . وكان ايمان هذا الامير حياً وتقواه شديدة وكثيفة ، حاول اصلاح الكنيسة ولكن ظفر غودون في ١٠٥١ اضطره إلى ابعاد خيرة مساعديه ، الاكليركيين النورمانديين ، وقبول أساقفة من صنع الاقطاعية العليا في الاسقفيات الشاغرة . وانقسم الاكليروس إلى فئتين : أنصار غودون وقد التفوا حول ستيغاند ونشستر وآخرون، مثل ولستان ورسستر ، لم يقبلوا أن يكونوا تحت سلطة مطران ثائر على روما . ومن الطبيعي أن يشكو النظام الكنسي من هـــذا الانقسام . فقد كانت السيمونية والنيقولاوية تفتكان بشكل أقبح مما كان في أي وقت مضى . وفقدت الكنيسة الانكليزية كل حياة واستقلال . ومنذ القرن العاشر لم تعقد أي مجمع وكانت تكتفي بالاسهام في مجالس العقلاء ، ولكن الاكليروس فيها كان تحت سلطة الدولة ، سيدة الاشخاص والاموال الكنسية . ولكن البابوية ، منذ حبرية ليون التاسع (١٠٤٨ — ١٠٥٤) دخلت في طريق مصلحة وكانت تنتهز أول فرصة سانحة لاصلاح كل شيء وإعـــادة التفوق الروماني والتقاليد القانونية التي سقطت في حيز الاهمال .

وكان الفتح النورماندي الفرصة المنتظرة . واتفقت مصـالح غليوم الفاتح مع مصالح الكرسي الاقدس . فمن ذلك أن الاسقفية الانكليزية لم تسهم علناً بالثورات التي تلت نصر ١٠٦٦ ، ولكنها بالرغم من كل

شيء ، بسبب نفوذ ستيغاند ، بدت مخيفة بالنسبة للنظام الجديد . وكان من الممكن أن يخدم عمل التطهير الضروري قضية الدين الحنيف . وهكذا اتحدت البابوية والملكية في عملية الاصلاح ، ودخل الاصلاح الكنسي إلى انكلترا وتوطدت الملكية النورماندية .

تطهير الاكليروس الأعلى . — وعندما انتهت أعمال التمرد فكر غليوم الفاتح بتنظيم الحياة الدينية في انكلترا . وفي ١٠٧٠ طلب مجيء مفوضين حبريين ترأسوا في عيد الفصح وعيد العنصرة مجامع علنية في ونشستر وويندسور ، وخلع ستيغاند والاساقفة الذين باركهم . وأقام غليوم أساقفة نورمانديين ، ولم يبق الاعدد ضئيل من الاساقفة المحليين من أبناء البلاد . ورسم الملك لكرسي كانتوربري الاب لانفرانك بعد أن اختبر علمه القانوني وتفانيه اللامحدود . وأصبح هذا الجثليق مشاوره الكنسي ، وقام باتفاق معه في اصلاح عام للكنيسة الانكليزية .

اصلاح الكنيسة . — لقد أعد هذا الاصلاح في عدة مجامع عقدت في ونشستر (١٠٧٢) ، لندن (١٠٧٥) ، ونشستر (١٠٧٦) وستمنستر (١٠٧٧) غلوستر (١٠٨٠) وغلوستر من جديد (١٠٨٥) والاجتماع البسيط لهذه المجالس دليل على الاتجاهات الجديدة . لقد استلم غليوم الفاتح زمام المبادرة في الدعوة لهذه المجالس وصادق على مقرراتها ، ولم يؤثر أبداً على المناقشات التي كان يديرها جثليق كانتوربري ، زعيم الكنيسة الانكليزية . ومن هنا كان لهذه الكنيسة بعض الاستقلال ، وقد ظهر ذلك بقرار مجمع ونشستر الذي فصل القضاء الكنسي عن القضاء العصري وقرر بأن أي قضية من نوع روحي لاتعرض في المستقبل على قضاة علمانيين ؛ ومن جهة ثانية ، ان الاساقفة ورؤساء الكهان لايقومون بمرافعات كنسية في محاكم المئويات لان لهم محاكمهم الخاصة حيث يحكمون

حسب الحق القانوني لا حسب الحق العرفي . ومع هذا فان غليوم ، مع تخويله الكنيسة الحرية التي لم تتمتع بها حتى ذلك التاريخ ، حافظ بغيرة على امتيازاته الملكية : فلم يكتف بتسمية الاساقفة والمصادقة على قرارات المجامع ، بل الزم الاكليركين بالخدمة الاقطاعية وخص نفسه بحق تقرير الحالات التي يجب أن يتدخل فيها القضاء الكنسي ، بل ذهب وزعم أن الحرمان الذي يحكم به على بارون لايكون له مفعول إلا بعد أن ينال موافقته . وهكذا لم تنج الكنيسة المصلحة من الحكم الملكي المطلق .

وحصل الاصلاح على نتائج رصينة : إن العزب الكنسي الذي أسقط في زوايا الاهمال ، أعيد مع بعض التخفيف الذي لاغنى عنه مراعاة للمرحلة الانتقالية ، وتقرر على أن الاساقفة في المستقبل لايستطيعون رسم الكهان إلا إذا تعهد هؤلاء بأن يظلوا اعفاء . وشجبت السيمونية بشدة . وبرهن الاساقفة على الكثير من الغيرة في قيامهم بوظائفهم ، وتعامل الزيارة الرعوية للنهوض بأخلاق الاكليروس النظامي الذي كان موضع اهتمام غليوم الفاتح : فقد جاء رهبان كلونيون من القارة وقاموا في داخل الابويات بتطهير شديد ، وتوطد النظام البندكتي ، وشيدت أبنية جديدة ، وكانت مراكز لحياة دينية حية ونشيطة .

غليوم الفاتح والكرسي الأقدس . — لقد كانت هذه التدابير مطابقة لروح التشريع الذي أذاعته المجامع الرومانية في بداية حبرية غريغوار السابع . وهذا يوضح لنا كيف أن خلف الكسندر الثاني كان سعيداً إذ وجد ملكاً يقاسمه وجهة نظره ، وسمى غليوم الفاتح « الملك العزيز جداً والابن الوحيد للكنيسة الرومانية المقدسة » . وهنأه مراراً على عدم بيع الكنائس ، واجبار الاكليركين على العفة ، وسيادة

السلام والعدل بين رعاياه ، وعدم استسلامه لابحاءات أعـداء المسيح الذين حاولوا أن ينصبوه ضد السلطة الرسولية » . وبالرغم من هـذه الاحكام التفاؤلية فقد وجدت بعض الغيوم في علاقات ملك انكلترا والبابا . لقد كان غليوم شديد الغيرة على سلطته ، وأراد الحفـاظ على استقلال الكنيسة الانغلية ـ النورماندية حيال الكرسي الأقدس ، ولذا اصطدم بالنزعة المركزية لحكومة غريغوار السابع .

الملكية الانكليزية في زمن غليوم الفاتح . ـ لقد كان الخلاف مع الكرسي الأقدس نتيجـة ، من بين نتائـج أخرى ، للأفكار التي سادت حكم غليوم الفاتح . ان غليوم الفاتح لم يتسامح في انكلترا ، كما في نورمانديا ، بسلطة غير سلطته ، وإن كل سياسته تنتهي إلى الحفاظ على الأشكال التقليدية ، وتحت ظواهر خداعة ، اقامة ملكيـة مطلقة لاتشبه في شيء الملكية الممحية والجامدة في عهد ادوارد المعرف . ولقد رأينا أن هذا الحكم المطلق مارس سلطاته في الغالب تبعاً لمصالح الشعب . ولا شك في أن غليوم الفاتح كان في بعض الحـالات عنيفاً ومستبداً ، وخاصة عندما يكون لأهوائـه الشخصية دخل في الموضوع ، ولكنه بالاجمال ، أدخل إلى انكلترا سلاماً نورمانديا واثنى عليه مداحوه الثناء الذي يستحقه ، وهذا ما أكسبه شعبية خاصة .

نتائج فتح النورمانديين لانكلترا . ـ لقد عاش أثر غليوم بعد وفاته . وإذا انقسمت المملكة الآنغليـــة ـ النورماندية بعض الوقت في آخر القرن الحادي عشر فقد الفت وحدتها من جديد في بداية القرن الثـاني عشر . وبانتظار توسعها الكبير ، الذي تلا وصول هنري الثاني بلانتاجونيه (١١٥٤) ، أصبحت غداة حملة ١٠٦٦ عاملاً من العوامل الأساسيـة

في السياسة الأوربية . وتأثر تاريخ أوربة الغربية باتحـــاد انكلترا ونورمانديا تحت صولجان واحد : لقد نشأت قوة جديدة حول بحر المانش وهددت الدول المجاورة في القارة وخاصة المملكة الكابسية الناشئة . ولذا فان للتأريخ ٦٦ ١ أهمية خاصة في تاريخ العصر الوسيط مماثلة لتاريخ ١٠٥٩ الذي طبع تحرير الكنيسة الرومانية . ولذا فان النشاط السياسي في الغرب اتجه ، من جهة ، نحو النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ؛ ومن جهة أخرى ، نحو النزاع بين المملكة الكابسية والمملكة الآنغلية — النورماندية وسيدوم حتى فجر العصور الحديثة .

الفصل الثلاثون

النزاع بين الكهنوت والامبراطورية

حتى وفاة هنري الخامس

١٠٧٦ — ١١٢٥

غريغوار السابع وهنري الرابع (١٠٧٦ — ١٠٨٥)

بدأ النزاع بين الكهنوت والامبراطورية مباشرة عقب مجلس فورمز الذي صرح بسقوط غريغوار السابع عن منصب الحبرية (٢٤ كانون الثاني ١٠٧٦) وبعد مجمع روما (١٤ شباط ١٠٧٦) الذي أجاب بخلع ملك جرمانيا هنري الرابع . ودام هذا النزاع قرنين بين الأباطرة والبابوات أو بين نظريتين لاتتفقان : القيصرية الامبراطورية الجرمانية ، والنيافة الرومانية التي يدل عليها باسم التيوقراطية أي « الحكومة الالهية » أو « المشيئة الالهية » .

كانت الحالة ، عقب القطيعة بين السلطتين ، تتطور لصالح الكرسي الأقدس ، لأن الحكم الذي قضي به ، في ١٤ شباط ، كان له صدى عظيم في ألمانيا . ففي مجمع فورمز لم يكن أمام الأساقفة متسع من الوقت والحرية للتفكير . فقد أجبرهم هنري الرابع على تحرير وتوقيع تصريح عدم الخضوع والعصيان ؛ ولم يستطيعوا أن يفعلوا غير ذلك ، وإلا لتعرضوا لأشد الأخطار . غير أنه لم تمض بضعة أسابيع إلا وأفاقوا من حلمهم ،

وأخذوا يتصورون خطورة العقوبات القانونية التي قد تلحق بهم ، وجعلوا يبدلون وضعهم . يضاف إلى ذلك أن غودفروا الأحدب دوق اللورين الدنيا مات قتيلاً وبموته زال خير دعامة لهنري الرابع في ايطاليا .

لهذه الأسباب المختلفة أخذ الأساقفة يرجعون عن غيهم ويدخلون في طاعة الحبر الأعظم . وإذا لاحظنا أن الأمراء العلمانيين لايبدون تجاه مليكهم أي حماسة ، أمكننا أن نتصور أن وضع هنري الرابع في ربيع عام ١٠٧٦ بدأ يتضعضع عما كان عليه في السابق .

كان الملك في اوترخت يوم سبت النور (٢٦ آذار ١٠٧٦) عندما علم بالحكم الذي أصدره البابا بحقه . وكان إلى جانبه أسقف هذه المدينة، غليوم ، وهو من أنصاره المتحمسين ، وحبران آخران من دعاته . وقد خاف هذان الأخيران وفرا سراً في حلك الظلام . وكان لانسحابهما أكبر الأثر ، لاسيما وان صاعقة نزلت على كاتدرائية اوترخت ، في يوم الفصح ، حيث كان غليوم يجبر ، باسم الملك ، الحرمان ضد البابا ، فدل بذلك على حكم الله وزاده تأييداً أن مات الحبر المجدف بعد بضعة أسابيع على هذا الحادث .

واستمر هنري الرابع في مقاومته . فمن اوترخت وجه إلى غريغوار السابع رسالة شهيرة يتهم فيها الحبر « بوصوله إلى الكهنوت بالمال والحظوة والقوة » ويلقي إليه بهذا الأمر : « نحن ، هنري ، الملك بفضل الله ، ندعوكم مع جميع الأساقفة : اهبطوا ، اهبطوا فانتم محكومون إلى الأبد » . وفي الوقت ذاته دعا الأساقفة الألمان إلى الاجتماع في فورمز في عيد العنصرة (١٥ أيار ١٠٧٦) لانتخاب بابا جديد .

غير أن هيئة الأساقفة لم تستسلم في هذه المرة ، وكانت فورمز في اليوم الموعود خالية تقريباً ، واضطر الملك إلى تأجيل الاجتماع إلى ٢٩ حزيران

على أن يكون في ماينس . ولم يسفر هـــذا الاجتماع عن شيء لكثرة المتخلفين . وأخذ المترددون ينضمون شيئاً فشيئاً إلى صف البابا .

وظـل البـابا منـــذ مجمع رومـا (شباط ١٠٧٦) يعلن بأنه على استعداد للصفح عن الملك إذا قام هـــذا بما يتوجب عليه تجاه الكرسي الأقدس حسب قوانين الكنيسة . وكانت الرسالة التي بلـغ بها البلاد المسيحية جمعاء ، في آخر شباط ، قرار المجمع ، نداء حاراً للمؤمنين يدعوهم فيه أن يتوجهوا إلى الله بصلواتهم و « أن يلهم التوبة قلب الكافرين » لأنها الواسطة الوحيدة التي « تعيد الملك إلى حضن أمنا العامة التي عمـل على انقسامها ». وكان غريغوار السابع مسوقاً بعوامل دينية ، همه قبل كل شيء أن يمارس كامل سلطة العقد والحل التي خولهاالمسيح للحواري بطرس ، ولذا لم يكن له من رغبة سوى أن يلفظ حكم العفو الذي يدل، كحكم الحرمان ، دلالة واضحة على التفوق الروماني .

وكان لهـــذا الموقف المسالم أثر عظيم في المانيا . فقد كثر عـدد الأساقفة المنشقين عن الملك ، ودخل المسرح الأمراء الألمان ، وجعلوا يتساءلون ما إذا كان الوقت قد حان للتخلص من طغيان هنري الرابـع .

وفي بحر ايلول ١٠٧٦ ألتقى كبار أمراء ألمانيا بأساقفتها وقرروا عقد اجتماع في تريبور في ١٦ تشرين الأول للنظر في هـذه القضية التي تشغل المانيا . وانعقد المجلس في الموعـــد المعين وحضره مندوب عن البابا بين للحاضرين ألا يستبقوا الحوادث ويحاولوا قبل كل شيء الحصول على امتثال الملك وخضوعه . وكان هذا في اوبنهايم ، وأزعجه تخلي الأساقفة عنه ، فرأى ، إذا أراد الاحتفـــاظ بتاجه ، أن ينقاد للتيار العـام وحرر وثيقتين : الأولى وتسمى **الوعد** إلى مندوب غريغوار السابع ، وبها يتعهد بأن « يراعي طاعة الكرسي الأقدس في كل شيء » وأن « يعمل كل

مافي وسعه ليكون ممتناً منه ». والثانية بلاغ يتوجه بـــه إلى الأمراء ويصرح فيه بأنـه على استعداد « لتبديل حكمه الأول مقابل أي رأي سلمي » . وربما كان يؤمل أن يتأثر مندوب البابا لهذه العبارات الغامضة في الندم ويصالحه مع الكنيسة دون أن يقوم بتعهدات أخرى واضحة في قضايا الخلاف . ولكنه كان يجهل أن غريغوار السابع قد احتفظ لنفسه بحق العفو . وعندما علم بذلك قبل المقترحات التي قدمها إليـه مندوب البابا والأمراء ، وبموجبها يدعى البابا إلى اجتماع يعقد في اوغسبورغ تحت رئاسته في ٢ شباط ١٠٧٧ حيث يلفظ الحكم النهائي اما بالعقاب أو السماح.

وصادق على هذا الاتفاق غريغوار السابـع وتهيأ للسفر إلى المانيا في أوائل كانون الثاني ثم وصل ايطاليا الشمالية . وعوضاً عن أن يلقى فيها الحرس الذي يجب أن يرافقه إلى ألمانيا ، كما كان متفقاً عليه مع الأمراء الألمانيين ، إذا به يدهش عندما يعلم أن هنري الرابع في الطريق قادم إليه .

وفي الحقيقة ان الملك لم يكن ليرغب بمجيء البابا إلى ألمانيا . وكان يخشى من أن يقف مجلس اوغسبورغ ضده ، لأنه لايستطيع أن يعتمد على الأساقفة ، وأقل منهم على الأمراء ، لأنه يعرف عداءهم وموقفهم منه . أمام هذا المستقبل الذي لايطمأن إليـه رأى هنري الرابـع أن يستبق خصومه بالذهاب إلى ايطاليا ، وبتوبة مدبرة مصحوبة باخراج مسرحي رائـع يستدر عطف البابا ورحمته وينتزع منه العفو الذي يجعله من جديد كاثوليكياً رومانياً ، وأهم من ذلك ، ملك جرمانيا .

وقد استعان هنري الرابـع لهذه الغاية باشبينه ، هوغ كلوني ، لأنه يعلم منه رغبته في بقاء التفاهم سائداً بين الكهنوت والامبراطورية . وبعد أن وثق من هذه المساعدة انحدر إلى ايطاليا .

ولما سمع غريغوار السابع بمجيء الملك المفاجيء التجأ إلى قصر كانوسا

الواقع في الجنوب الغربي من ريدجيو التابعة إلى الكونتس ماتيلد .
وحاول هنري الرابع أن يتفاوض معـــه على الفور بواسطة هوغ كلوني
ومار كيز ايست ، آزون ، وآديلانيد سافوا وماتيلد نفسها أيضاً . وبدا البابا
في اول الأمر صلباً لايريد أي مفاوضة ، لأنه يعلم بأن العفو قبل أوانه
قد يفسد وضع الكنيسة ، وبعد لأي هزته الأريحية أمام مظاهر الندم
التي حاول هنري الرابع أن يحرك قلبه بها .

وفي ٢٥ كانون الثاني ١٠٧٧ وصل الملك كانوسا بصحبه حرس قليل
ليمنع عنه كل شبهة . وبقي ، كما يقول مرسوم لغريغوار السابع ، ثلاثة
أيام دون شارات ملكية ، عاري القدمين في ثياب التائب ، وهو يسترحم
العفو الرسولي حتى « أهاج من شهد هذا السلوك أو من ترك صداه في
نفوسهم » . وتوسطت حاشية الحـــبر الأعظم لصالح الأمير . وعجبت
الكونتس ماتيلد وهوغ كلوني لما رأياه من « قساوة غير عادية » عند البابا
وذهبا إلى أن انتهاه « بالفظاعة والظلم » . وظل غريغوار السابع يقاوم
ثلاثة أيام . ثم « غلبه استمرار النـــدم » واستقبل هنري الرابع على أن
يحلف يميناً يوقعها الحاضرون .

وقد حفظ نص هذه اليمين . وفيه يعد الملك في الحدود التي يعينها
البابا « أن يقيم العدل حسب حكمه وعلى وفاق مع نصيحته ويوافق ،
إلا لمانع حقيقي وموقت ، على منح غريغوار السابع مصدقة مرور إذا
أراد أن يأتي إلى ماوراء الجبال أي إلى ألمانيا ، ويسهر على سلامته وسلامة
حاشيته ، ويحول دون أي محاولة تدبر ضده » .

وتشبه هذه اليمين يمين اوبنهايم بغموضها ولا تتضمن من جانب الملك
تعهداً واضحاً بأنه سيمثل بين يدي مجلس أوغسبورغ . كما أنه لم يتعرض
لأي مشكلة من المشاكل الحارة ، كمشكلة مشاوريه الأشرار ، أو قضية

التقليد العلماني ، أو قضية التفوق الروماني . والخلاصة ان غريغوار السابع لم يحصل على أي ضمان .

أما هنري الرابع فقد استرجع تاجه بعد أن تصالح مع البابا وعندما يمثل أمام البابا لايكون مثله مثل المذنب الذي يرجو بكل ضراعة عفوه ويعترف باخطائه ، بـل يقف موقف الملك . ولو افترض أن المجلس المزمع عقده قد انعقد فكيف يستطيع البابا أن ينقض حكمه السابق ويلفظ حكماً يخالف حكمه في كانوسا ؟

وفي الحقيقة ، ان هنري الرابع ، قبل كانوسا ، كان واثقاً من ضياع تاجه ، أما بعد كانوسا فلديه من الحظ مايجعله يحتفظ به . وقد استطاع في نزاعه مع الكرسي الأقدس والأمراء أن ينجح ويكسب ما كاد يضيعه . ولا شك في أن غريغوار السابع قد أزال بفعله هذا جميع الفوائد التي حصل عليها في بحر عام ١٠٧٦ ، ولكن فعله كان علوياً تلهمه عاطفة مسيحية نبيلة . ولو أن البابا بقي متعنتاً واحتفظ بوضعه الاول وأبقى باب القصر موصداً في وجه المذنب المتوسل ، لأشتهر بأنه سياسي حازم ودبلوماسي متين بعيد النظر ، إلا أنه بعفوه وسماحه دل على أنه مسيحي حقاً وأهل للتخلي عن أعراض النجاح الزمني والتكيف مع مايطلبه الاحسان .

ومع هذا فان سلطته الروحية بقيت مصونة لم تمس . وإذا عقد في روما (شباط ١٠٧٦) ، فقد حل في كانوسا (كانون الثاني ١٠٧٧) مذنباً أثيماً طوراً وتائباً طوراً آخر . وسلطة العقد والحل هذه ، التي تملي جميع سياسة غريغوار السابع ، قد اعترف بها هنري الرابع ضمناً عندما توسل إليه أن يصفح عنه . وهـذا الاعتراف في نظر غريغوار السابع نتيجة هامة لأنه يرى فيه انحناء القيصرية البابوية الرومانية أمـام التفوق

البريطاني » ، فاذا فاز كانوسا ظفر لغريغوار السابع ، ولكن خداع هنري الرابع وطموح الامراء جعلاه ظفراً موقتاً قصير الأمد .

مجلسا أولم وفوردشهايم (شباط ـ آذار ١٠٧٧) . — وبينا كان ينتظر في المانيا اجتماع أوغسبورغ بفارغ الصبر ، أحدث عفو كانوسا اضطراباً عظيماً في الافكار . ومما لاشك فيه أن البابا كان يعلن دوماً عزمه على المجيء في القريب العاجل « ليحقق سلام الكنيسة ووفاق المملكة » غير أن الوضع قد تبدل بتمامه . ومن هنا حصل اختلاف بين غريغوار السابع وحلفاؤه الامراء الذين قلما يشعرون بالاعتبارات الدينية ويريدون قبل كل شيء أن يخلصوا المملكة من الطاغية الذي يكرهونه .

وفي منتصف شباط اجتمع كبار المملكة من أساقفة وأمراء في مدينة أولم وبعد أن درسوا الحالة قرروا أن يدعوا لاجتماع آخر يعقد في فورشهايم في ١٣ آذار ليتخذوا قراراً بشأن الملك . ولم يقطعوا اتصالهم مع البابا، بل كلفوا شخصاً يدعى رابوتون جاء يحمل إليهم خبر مقابلة كانوسا ، وطلبوا اليه أن ينقل إلى روما الآمال التي تعقد على سفر البابا وأضافوا مع شيء من التهكم أن غريغوار السابع يحسن صنعاً لو استرحم لهذه الغاية « موافقة هنري الرابع ومعونته » .

ولم يستطع الحبر الاعظم أن يقوم برحلته واكتفى بأن أرسل إلى فورشهايم مندوبين يحملان رسالة مبهمة يؤكد فيها دوماً عزمه على المجيء إلى المانيا متى أمكنه ذلك . ويبدو أن التعليمات الشفهية التي تلقاها سفيرا الكرسي الأقدس كانت أشد وضوحاً . فقد كانت ترمي إلى منع ما لا يمكن إصلاحه وإرجاء كل حل .

ولا يعلم على وجه الصحة تاريخ اجتماع فورشهايم لأن تحزب المؤرخين الساكسونيين قد شوهوه بصورة غريبة . والصحيح الثابت الذي خرج

عنه هو أن الأساقفة والأمراء المجتمعين خلعوا هنري الرابع ووضعوا مكانه رودولف سؤاب . وبعد بضعة أيام توج ردولف ملكاً في ماينس بحضور الاساقفة والامراء الذين انتخبوه وبتخلف المندوبين الحبريين حرصاً منهما على اتباع الخطة التي رسمها اليها غريغوار السابع .

وانتخاب رودولف سؤاب وضع البابا في موقف حرج : لأن هنري الرابع منذ كانوسا لم يبرح ايطاليا وأخذ يطلب منه أن يسنده ضد المغتصب ، وكذا رودولف أيضاً كان يصرح بأنه على استعداد لطاعة الكرسي الاقدس في كل شيء . ومما لا شك فيه أن مجلس فورشهايم لم يأخذ بتوجيهات الحبر الاعظم ، ولكن موقف هنري الرابع مازال غامضاً . وإذا امتنع الملك شخصياً عن كل عمل عدائي ضد الكرسي الاقدس فان الاساقفة اللومبارديين لم يتخذوا أي حيطة ، حتى تجرأ أحدهم وسجن مندوبي البابا بعد طرد تيدالد المطران الدخيل وإعادة الوضع إلى ما كان عليه في ميلانو . كل هذا يدلنا على موقف غريغوار السابع القلق . ولكن هذا الموقف ، وإن بدا متردداً في الظاهر ، كان في الواقع مسوقاً بدافع التكيف والعمل حسب القواعد القانونية : وإذ صرح البابا بان الكرسي الاقدس له الحق في معرفة الامور العصرية والبت فيها ، فهو يريد أن يدرس القضية ، وعندما ينتهي مندوبوه من تحقيقهم يعلن « أي الطرفين يمكن أن يحكم طبقاً للعدل » .

ولكن الحوادث ذهبت على نقيض هذه الخطة الرشيدة ، لان كلا الجانبين لم يثق بالوسائل التي اقترحتها روما وأراد أن ينهي الخصام بامتشاق الحسام .

ولما علم هنري الرابع بانتخاب رودولف سؤاب عاد إلى ألمانيا ووصل بافاريا حيث جمع أنصاره واتجه إلى سؤاب وأعمل فيها الخراب والدمار ،

وفي أولم عقد مجلساً وحكم غيابياً على الأمراء المتمردين وصادر اقطاعاتهم ثم رجع إلى بافاريا بعد عدته .

بدأت الحرب في تموز ١٠٧٧ وجرت بين الطرفين عدة مواقع غير حاسمة وتوسط البابا لاعادة السلام والوئام بين الطرفين . غير أن كل أمل في السلم قد أخفق ولم يبق أمل إلا في ظفر السلاح . ومضى العام ١٠٧٨ والسلاح عاجز كالدبلوماسية عن تسوية الوضع ، واستمرت الحرب الاهلية دون أن تأتي بنتائج يعول عليها . وأخذ كل من الملكين يزيد في نفوذه ويسعى في جلب البابا إلى جانبه ليحكم على خصمه . أرسل هنري الرابع إلى روما كتاباً يثبت فيه عزمه على الا يضايق عمل البابا ويرجو غريغوار السابع الا يقوم بأي حكم . وحاول رودلف والساكسونيون بدورهم أن يستعطفوا الحبر الاعظم على أعمال التخريب والقتل والاعتداء التي يرتكبها جيش هنري الرابع ، وتوسلوا إليه أن يجدد حكمه عليه . غير أن غريغوار السابع ظل ثبت الجنان لا يتأثر ولا ينحاز لطرف دون آخر واكتفى في مجمع تشرين الثاني ١٠٧٨ بأن يسمع إلى مندوبي الخصمين الذين أتوا إلى روما . كما رفض في مجمع شباط ١٠٧٩ « أن يستل السيف الرسولي من غمده » ، أي ان يصرح بشيء ، قبل أن يتضح له كل شيء . الا أنه على الأقل أجبر رسل هنري الرابع ورودولف مؤاب ان يمثلوا أمام حكم المندوبين الحبريين . وقبل على هذا النحو مبدئياً التحكيم الأعلى للكرسي الأقدس . وبقي على البابا أن يمارس هذا التحكيم بصورة فعلية .

قام مندوبو البابا بالتحقيق . وحاول هنري الرابع أن يرشوهم فذهبت جهوده عبثاً ، وعندئذ طلب خضوع الساكسونيين قبل كل شيء . ودعاهم للمجيء الى فرتزبورغ ليقدموا خضوعهم . وكان من الطبيعي أن يرفضوا

المثول فهاجمهم في بداية ١٠٨٠، ودل بذلك على تلاعبه وسوء نيته . وجرت بينه وبين رودولف سؤاب موقعة في فلارشهايم (٢٧ كانون الثاني ١٠٨٠) قاتل فيها رودولف متراجعاً، ولم يكن باستطاعة هنري الرابع ان يلاحقه واعتبر نفسه ظافراً . وأراد أن يخيف البابا بهذا الظفر المزعوم .

أرسل هنري الرابع الى روما مطران بريم ، ليار ، وأسقف بامبرغ روبرت . واختياره لليار له معناه ففيه يتمثل العصيان على السلطة الحبرية كما ظهر لنا ذلك عام ١٠٧٤ . ولكن غريغوار السابع كان أبعد من أن ينزل عند مناورة من هذا النوع ، لأنه لا يعلق موقفه على حوادث سياسية أو عسكرية ، بل كان همه أن يؤمن ظفر العدالة قبل كل شيء ويعطي أحكامه بعد دراسة التحقيق الذي قام به مندوبوه .

وفي ٧ آذار ١٠٨٠ افتتح المجمع الروماني الذي ينعقد عادة في كل سنة بمناسبة الصوم . وفي هذا المجمع أذاع البابا حكمه في القضايا الجرمانية ولخص في خطاب ممتع تاريخ العلاقات بين الكرسي الأقدس والمانيا خلال السنوات الأخيرة واتهم هنري الرابع بالحيلولة دون الاجتماع الذي قرر انعقاده في المجمع العام المنصرم . ثم حرم هنري واعترف برودولف سؤاب « الذي انتخبه الالمان ملكاً » .

وليس ضرورياً أن نبين خطورة هذا الحكم بعد تحقيق دقيق دام عدة سنوات . فهو تعبير صريح للتفوق الروماني الذي يطالب به في « أمالي البابا » . وفيه قرر غريغوار السابع ، باعتباره ممثلاً للقديس بطرس ، أي الحصين يعمل حسب أمر الله ، وقام بدور الحكم الأعلى الذي يعتبره امتيازاً من امتيازاته الأصلية .

مجلس بريكسن وانتخاب كليان الثالث (٢٥ حزيران ١٠٨٠) — . كان الملك هنري الرابع في ليبج في عيد الفصح عندما بلغه حكم الطرد

والخلع الذي نزل به . وفي عيد العنصرة جمع في ماينس تسعة عشر حبراً المانيا وأشاروا عليه بخلع البابا وقرروا أن يبعثوا أسقف سبير الى ايطاليا ليحصل على موافقة الاساقفة اللومباردين فنال موافقتهم دون رجاء . وعندما أمن جانب الاساقفة والعلمانيين عقد مجلساً في ٢٥ حزيران ١٠٨٠ في بريكسن على حدود المانيا وايطاليا .

لم يعطنا المؤرخون تفصيلات ضافية عن هذا المجلس . ولكن محضر الجلسة التي خلع فيها غريغوار السابع ، يعطى قائمة الاساقفة الحاضرين واكثرهم لومبارديون ، لأن الالمانيين الذين أتوا الى هذا الاجتماع كانوا قلة ، ولا نرى شيئاً ظاهراً يسترعي النظر في التهم الموجهة ضد البابا . وكل ما في الأمر ان اعيد الاتهام الذي وجه اليه في مجلس فورمز واضيف اليه اتهامه بالهرطقة . وبعد هذا أعلن سقوط هيلدبراند وانتخبوا مكانه مطران راڤينه ، غيبرت ، بابا باسم **كليان الثالث**، وكان مطروداً ومحكوماً عليه بالحرمان منذ ١٠٧٨ .

لا شك أن هذا الانتخاب غير قانوني ، لأن مجلس بريكسن لا يتمتع بأي صفة في انتخاب البابا . ولقد شعر بذلك حتى انه اضطر أن ينحت نصاً جديداً لمرسوم نيقولا الثاني ليجعل غريغوار السابع مخالفاً للقانون الكنسي . وعندما أراد أن يعين خلفه لم يراع بنود هذا النص المزيف . واذا كان المرسوم المزور الذي وضعه يخول الملك جزءاً هاماً في الانتخاب، ويحذف امتياز الكرادلة — الاساقفة الذين لم يحضر أحد منهم الى بريكسن فقد احتفظ على الاقل **لهيئة الكرادلة المقدسة** ببدأ انتخاب الحبر الروماني ومن بعدها الاكليروس وشعب روما . غير أن هذا العنصر الأخير لم يشترك في الانتخاب ، ولم يحضر هذا الاجتماع الا الكردينال هوغ كانديد الذي انتخب غيبرت راڤينه . ولكن لم يعلق على ذلك كبير أهمية ، ظناً

بأن بالرأي العام يجهل دقائق القضايا الحقوقية ، فلا يلاحظ عيوب الأصول الذي اتبع في الانتخاب . ويمكن بعد هذا أن ينصب كليمان الثالث على كرسي بطرس وتعترف به المسيحية جمعاء بابا شرعياً وخليفة الحواري ويضع على جبين هنري الرابع التاج الامبراطوري .

ولم تكن هذه الافعال الا ضلالاً ، لأننا ، اذا استثنينا مملكة جرمانيا ولومبارديا ، نجد الاكليركيين العلمانيين والأساقفة والملوك مازالوا متعلقين بالدين الحنيف . ويجب أن نرى في هذا الحادث نتائج الجهود التي بذلها غريغوار السابع في داخل الكنيسة . فقد فرض على الاكليروس احترام المقررات التي تتخذها المجامع ،وشد الاواصر التي تربط روما بمختلف الابرشيات ، واحدث الى جانب **المندوبين الموقتين** ، ووظيفتهم تمثيل السلطة الحبرية في ظروف معينة ، **المندوبين الدائمين** . ويمارس هؤلاء سلطة القضاء على قسم واسع من الاراضي ، ويرأسون المجامع المحلية التي تذاع فيها المراسيم الاصلاحية ، ويحاكمون الاساقفة والاكليركيين المتمردين ويعرضون على السدة الرسولية القضايا الهامة . وبفضل هذه الجهود المستمرة تمت السلطة الحبرية وتوطدت . يضاف الى ذلك أن المجموعات القانونية ، التي صدرت بوحي من غريغوار السابع ، كانت تحرص على تبرير نظريات التفوق الروماني التي ذكرت في « أمالي البابا » وتدلل على ذلك بفقرات من الكتاب المقدس وشواهد من آباء الكنيسة وقوانين المجامع الدينية والمراسيم المزورة. وكذا رسالة الكاردينال آتون أتت فأغنت بنصوص جديدة المجموعة التي تضم ٧٤ عنواناً والتي الفت في عهد ليون التاسع . وبين ١٠٧٥ و ١٠٨٠ عهد البابا الى آنسلم لوقا والى دوسدودي بمهمة ثقيلة يراد منها جمع مختلف « الأحكام » التي من شأنها أن تثبت قانونياً أن الكرسي الأقدس له كل السلطة على الكنيسة العامة وليس لأحد من الناس أن يحاكم الحبر الروماني

خليفة بطرس الذي عهد اليه المسيح برساله الهبة . واذا لم تظهر مجموعة آنسلم لوقا الا حوالي العام ١٠٨٣ ومجموعة دوسدودي في ١٨٠٦ أو ١٠٨٧ فمن المقبول ، في الوقت الذي انعقد فيه مجلس بريكسن ، ان تقاليد الكنيسة كانت في صالح البابا غريغوار السابع ، وإذا استثنينا الاحبار اللومبارديين والألمانيين الذين عملوا تحت إكراه الملك هنري الرابع ، أمكننا القول ان هيئة الأساقفة في أوربة الغربية بقيت ملتفة حول البابا الشرعي .

ومثل هذا الموقف كان موقف اكثر الأمراء المسيحيين . لان حكم بريكسن لم يكن له صدى في انكلترا حيث ظل غليوم الفاتح ، كما يقول البابا ، يقاوم الرجاء الذي يقدم اليه من اعداء الكنيسة الرومانية ، ولا في اسبانيا حيث كان ملوك آراغون وليون ونافار « الابناء الخاضعين للحواري » . وفي فرنسا لم يكن فيليب الاول مطيعاً للاوامر الحبرية إلا أنه كان يؤمل أن يكفر عن مشاريعه السيمونية بحسن التفاته وحياده . أما البلاد المتاخمة لألمانيا ، باستثناء بوهيميا حيث كان وراتيسلاس ينتظر من هنري الرابع التاج الملكي ، مطمح أنظاره ، فكانت بصورة عامة في صالح غريغوار السابع لغرضين : الأول ، غيرتها على الدين ؛ والثاني ، مصلحتها السياسية ، لأنها كانت تريد التخلص من النفوذ الجرماني الذي يهددها . ولذا فان هنري الرابع لايستطيع أن يعتمد في آخر العام ١٠٨٠ على أي مساعدة خارجية ، ولكن يمكن القول ان سلطته توطدت في المانيا بعد أن اضطربت معارضة الساكسونيين له ، وقتل رودولف سؤاب (في ١٥ تشرين الاول ١٠٨٠) وعلى اثر ذلك كان هنري الرابع يرغب في خضوع الساكسونيين مها كلف الأمر ويعيد السلام إلى ألمانيا قبل أن يذهب إلى ايطاليا لينصب كليمان الثالث بابا في روما . ويبدو ان هنري

الرابع بذلك جهداً كبيراً في اقناع الساكسونيين إلا انــه لم يحظ بما يريد .

وبينا كانت هذه الحوادث تجري في المانيا كان غريغوار السابع يتهيأ للنزاع ، ولم يثن شيء من عزمه وظل إيمانه لا يتزعزع ، وثقته بالله عظيمة لانه يرى « ان الكنيسة المقدسة ، بعد أن تغلب أعداءها وتوقعهم في حيرة من أمرهم ، سوف تتمتع بالراحة في نشوة المجد » . وفي ١١ كانون الاول ١٠٨٠ عين راعياً لكنيسة رافينه بدلاً عن غيبرت المنشق . وفي آخر شباط ١٠٨١ عقد مجمعاً في روما وجدد حكمه بالطرد على هنري الرابع وأنصاره . وفي ١٥ آذار ، أي في الوقت الذي يتهيأ به الملك لعبور الألب، وجه البابا إلى أسقف متز ، هرمان، رسالة عرض فيها نظريته في التفوق الروماني ونادى باسم سلطة العقد والحل التي خولها المسيح إلى القديس بطرس أن سلطة الحبر الأعظم لاتحتمل أي استثناء أو تحديد . فهي تتناول العلمانيين كالاكليركيين والملوك كالأساقفة . ولما كان هنري الرابع عصا نائب الله ، لذا كان من العدل أن يجرد من المنصب الملكي . وصفوة القول ان البابا كان ينتظر الحوادث بصفاء ثابت ولكن هذا لم يمنعه من القيام ببعض التدابير الضرورية .

كان غريغوار السابع يعتمد في شمال ايطاليا على الكونتس ماتيلد التي وهبت دولها إلى الكرسي الأقدس . وقرر أن يجدد تحالف نيقولا الثاني مع النورمانديين الذين يستطيعون أن يناوؤوا الجرمانيين في ايطاليا . وليس بالسهل أن يتقرب من هؤلاء الأمراء بعد أن لمس منهم اعتداءهم على أرضي البابا وعدم برهنتهم على احترام السدة الرسولية ، ولكنه اضطر تحت ضغط الظروف إلى الدخول معهم بمفاوضات أدت إلى اعتراف روبير

غيسكار بسيادة البـــابا وتجديد الوعود التي قطعها على نفسه في عهد نيقولا الثاني .

وكان البابا يعول على هذا التحالف كثيراً ، وقد أخطأ في ذلك ، لأن روبير غيسكار في العام ١٠٨٠ كان يطمح بفتح الامبراطورية البيزنطية ، أو على الأقل ، بفتح ايلليريا . في العام ١٠٧٨ سقط الامبراطور ميشيل السابع عن العرش وكان قد خطب لابنه قسطنطين ابنة غيسكار ، واتخذ الأمير النورماندي من هذا الحادث عذراً للتدخل ، لا سيما وان مغتصب الامبراطورية في بيزنطه بوتانياتس زج الخطيبة المسكينة في الدير . لذا كان روبير غيسكار منصرفاً بكليته إلى مشاريعه الشرقية ولا يفكر بحماية البابا ضد هنري الرابع الذي انحدر إلى ايطاليا بعد أن خذل اللومبارديون جيش الكونتس ماتيلد .

خيل إلي هنري الرابع أن الحملة الألمانية في ايطاليا ستكون نزهة عسكرية بسيطة ولذا لم يصطحب معه عدداً كثيراً من الجنود . والواقع أنه لم يلق فى طريقه أي مقاومة . ووقف أمـام أسوار روما في ٢١ أيار يحيط به الاحبـــار المنبوذون من غريغوار السابع . ثم وجه إلى الرومانيين نـداء لم يتعرض به إلى غريغوار السابع وأعلن عزمه على توطيد السلام في الكنيسة .

ظلت أبواب روما موصدة . ولم ينصب كليمان الثالث على عرشه كما لم يتوج الملك امبراطوراً في اليوم الموعود وهو يوم عيد العنصرة . وتعزى الملك باجتياح الريف الروماني . وبعد أربعين يوماً اضطر إلى رفع الحصار عن المدينة الخالدة . وليصلح هنري الرابع هذا الاخفـاق الذي ناله في روما حاول أن يعدل الكفة ليقوي وضعه في ايطاليا وخاصة في المدن التي أخذ يغدق عليها الامتيازات . واعتزلت الكونتس ماتيلد فى قلعة

كانوسا . وفي الوقت ذاته غادر روبير غيسكار ايطاليا وذهب لفتح ايلليريا وحاصر دورازو وظفر على الجيش البيزنطي الذي أرسله الامبراطور الكسيس كومنين لنجدة المدينة ، وبدا أن كل شيء يبسم له وصار يتطلع بانظاره نحو القسطنطينية .

ان ضعف مقاومة ماتيلد وبعد غيسكار جعلا هنري الرابع يستمر في تحقيق مشروعه في أخذ روما . وفي شباط ١٠٨٢ ظهر أمام المدينة وبين لسكانها أنه لايضمر في نفسه أي حقد عليهم ، ودعا في الوقت ذاته هيلدبراند أن يأتي اليه ويبرهن على عدالة دعواه ، وتعهد أن يصون حياته حتى ولو برهنت القوانين على إدانته .

لم يقبل البابا أن يحاكم من سلطة زمنية . وفهم الرومانيون ذلك وظلت أبواب المدينة موصدة . وحاول هنري الرابع الهجوم على حي المدينة الليونية فرد . وفي أحد الشعانين (١٧ نيسان) من تلك السنة عاود الهجوم دون نجاح ، واضطر إلى الاحتفال بعيد الفصح في ٢٤ نيسان ، في مدينة البانو .

ورغم هذا الاخفاق فان وضع الملك في ايطاليا تحسن . فقد استطاع أن ينزع من جانب البابا أمير كابو ، جوردان الذي حسد روبير غيسكار ورغب أن يوسع أملاكه على حسابه بمساعدة الجيش الألماني ، حتى ان جوردان مهد له السبيل بمقابلة مع ديديه أب مونكاسينو. وتهور هذا ووعد الملك بان يتوج امبراطوراً بيدي البابا الشرعي . وفي أثناء حصار روما عقد هنري ، بواسطة جوردان ولاشك ، تحالفاً مع امبراطور الشرق ، الكسيس كومنين ، وكان هم هذا أن يوحد بين جميع أعداء روبير غيسكار في ايطاليا حتى يضطره إلى العدول عن مشروعه في الزحف على القسطنطينية . ورجع غيسكار إلى ايطاليا عن

طريق اوترانت ولبث سنتين في اخماد عصيان تابعيه . وحاول هنري الرابع أن يأخذ روما قبل أن تتدخل القوى النورماندية . ووقف للمرة الثالثة أمام روما . وقبل الهجوم النهائي رجح أن يضعف معنويات السكان خلال بضعة أشهر بقطع مواصلاتهم مع الخارج . وقد نجحت هذه الخطة وبدأ من كانوا مع البابا ينفضون من حوله وجنحوا الى السلم . وسلمت المدينة ودخل كليمان الثالث كنيسة القديس بطرس باحتفال مهيب . أما غريغوار السابع فظل محاصراً في قصر سانتانج ورفض الاستسلام . ولكن النبلاء في روما رغبوا في المصالحة واقنعوا الطرفين المتخاصمين بقبول فكرة عقد مجمع يدعو اليه غريغوار السابع جميع أساقفة البلاد المسيحية .

انعقد المجمع فى ٢٠ تشرين الثاني ١٠٨٣ الا أنه لم يضم الا الأساقفة الايطاليين والفرنسيين ، وذلك لأن هنري الرابع كان يوقف الكثير من الاحبار وهم في طريقهم الى روما . ولذا فان المجمع فقد طابعه الذي أريد له .

وجرت محاولات الوصول الى حل وسط بين الطرفين انتهت بالاخفاق واستمر الحصار . وخاب أمل الرومانيين في السلام . وهجر البابا ثلاثة عشر كاردينالاً . أما العلمانيون فكانت تمدهم مساعدات روبير غيسكار ولذا كانوا أكثر استعداداً للمقاومة . وكان هنري الرابع يناضل بالذهب البيزنطي صد الذهب النورماندي . وفي آخر عام ١٠٨٣ وأول ١٠٨٤ استقبل وفداً من القسطنطينية قدم اليه المبالغ الضرورية للقيام بحملة ضد دوق بوي . ودفاعاً عن الشكليات ذهب إلى كامبانيا دون أن يقوم باي عملية جدية وعاد إلى روما ليقوم بالهجوم النهائي . وفي هذه المرة احتل

أحياء الضفة اليسرى لنهر التيبر ودخل عدو البابا كليمانت الثالث قصر لاتران .

وظل غريغوار السابع غير مبال بما يحدث . ولما طوق في قصر سانتانج من كل جهة ، فضل أن يستسلم للموت ، إذا لزم ذلك ، على أن يضحي بالمبادىء التي دافع عنها طوال حياته . ثم دعاه هنري الرابع إلى المثول أمام مجمع يجتمع في كنيسة القديس بطرس في ٢٤ آذار ١٠٨٤ فبقي في ازدراء المستنكف لايجيب على شيء . ونظمت دعوى في حق البابا كانت مجرد اتهام ضده أكثر بكثير منها دفاعاً عن الملك . وأخيراً حرم مجلس لاتران غريغوار السابع وخلعه واعترف بكليمانت الثالث بابا بصورة رسمية . وتبع هذا الاحتفال احتفال آخر كان ينتظر منذ عهد طويل . ففي ٣١ آذار توج عدو البابا هنري الرابع امبراطوراً كما توجت معه الملكة بيرت وتحققت الغاية من الحملة الايطالية .

ثم تابعت العمليات العسكرية سيرها وظل قصر سانتانج محاصراً واحتل الملك البالاتن والكابيتول . ووقف النجاح عند هذا الحد . وكان غريغوار يعتمد على أنصار له في الريف الروماني وقد ساعدته مقاومتهم على الانتظار ريثما تأتي النجدة النورماندية .

بادر روبير غيسكار لانقاذ البابا . ولم يكن باستطاعة هنري الرابع مقاومة النورمانديين فحارب متراجعاً . ودخلت جيوش روبير روما . وجرت موقعة بين الطرفين خرج منها روبير ظافراً ووصل إلى قصر سانتانج وخلص غريغوار السابع . ثم عاد القتال من جديد وأعمل النورمانديون النهب في روما . واضطرب وضع البابا على اثر ذلك واضطر إلى البعد عن روما ولجأ إلى سالرنو أخيراً . وفي آخر ١٠٨٤ عقد مجمعاً جدد فيه حرمان كليمان الثالث وهنري الرابع وأرسل إلى مختلف البلاد

المسيحية مندوبيه ليعلموها بهذا الحكم . وفي الوقت ذاته نشر آخر رسالة له . ويمكن اعتبارها وصيته الروحية . وفيها يعلن إيمانه بنجاح عمله واقتناعه ، رغم الحدثان والنوائب التي ألمت بالكنيسة الرومانية ، بأن المسيحيين الحق سيأخذون على أنفسهم حماية السدة الرسولية ويؤمنون تفوقها على ملوك الأرض « المتألبين على الرب ومسيحه » .

وبعد إعلان هذه الرسالة بقليل توفي غريغوار السابع في (٢٥ أيار ١٠٨٥) . ولقد ترك لنا مداحته بول برنيد قصة تشيد بأيام البابا الأخيرة وتتضمن أخباراً لاصحة لها البتة . ولاشك أن العبارة التي يذكرها على لسان البابا المحتضر وهي : « كنت دوماً أكره الظلم وأحب العدالة » إنما هي محض اختلاق وليست حقيقية ، غير أنها تلخص لنا هذه الحياة المشبعة بالمثل الأعلى التي رصدت نفسها بكليتها لخدمة الكنيسة والكرسي الأقدس . لقد كان غريغوار السابع علوياً قبل كل شيء ، نائباً للمسيح ، وممثلاً للحواري بطرس ، وبقي ، كبابا ، صحيفة كبرى في التاريخ وعلماً من أعلام الكنيسة . إلا أنه يجب أن نقول أيضاً ان الحس السياسي كان ينقصه . ففي كانوسا خاصة فرط بظفره ليؤدي الاحسان النبيل السامي الذي يعتبره واجباً من أقدس واجباته .

أثر غريغوار السابع . — إذا أخذنا بالظواهر فان حبرية غريغوار السابع انتهت بالفشل ، لأن استيلاء هنري الرابع على روما وإقامة عدو البابا على كرسي القديس بطرس ، وذهاب غريغوار السابع الى سالرنو ، كل هذه الوقائع الأليمة تدل على بطلان الجهود التي بذلها لتأمين التفوق الروماني . ولكن سياق الحوادث لايبرر في المستقبل مثل هذا التشاؤم . ويجب ألا ننسى أن غريغوار السابع اذا لم يستطع أن يحقق ظفر نظريته في التفوق الروماني بصورة عملية كما أراد ذلك في « أمالي البابا » ،

إلا أنه استطاع أن يصنع السلاح الضروري للدفاع عنها . فقد ظهرت في آخر حبريته مجموعة القوانين التي جمع فيها آنسلم لوقا النصوص التي تبرهن على شرعية هذه النظرية . وفي الوقت ذاته كان المحاجون بالأقلام يعتمدون على هذه النصوص ويستخلصون منها النتائج الصالحة لمزاعم البابا . كان أضداد غريغوار وأنصار الامبراطور يحاولون أن يضعوا الحكم الملكي المطلق المؤسس على وراثة الحق الإلهي ، خارجاً وفوق قوانين الكنيسة . وكان الغريغوريون يناهضونهم بالتقاليد الكنسية ويظهرون أثر غريغوار السابع إرجاعاً للقواعد التي وقعت في حيز الاهمال مذ أن هبت العاصفة وزالت الامبراطورية الكارولنجية . وطوراً وطوراً كان رجال البابا يجردون أقلامهم للرد على حجج خصومهم . كل ذلك أثرى المفهوم الغريغوري في سلطة العقد والحل بأفكار جريئة وجديدة . وفي السنة التي توفي غريغوار السابع قام الالزاسي مانيغولد يعرض **النظرية العقدية** في الملكية . وتتلخص بأن الملك لايحكم إلا بموجب عقد ضمني بينه وبين رعيته فاذا كسر هذا العقد وحكم دوله خلافاً للعدالة والاحسان فان رعيته تكون في حل من يميز الولاء له ، وعلى البابا أن ينظر في الأسباب التي تبرر عصيانها ويؤيدها بسلطته العليا .

وأفادت هذه الحركة الفكرية في تثبيت التقاليد القانونية ، وقبول السلطة الرومانية واحترامها ونشر الأفكار الغريغورية التي تخول الكرسي الأقدس كل السلطة على الكنيسة العامة وعلى الأمراء المسيحيين ، وهيأت ظفر البابوية في حبرية اوربينو الثاني بعد أن ألمت بالسلطة الرسولية أزمة حادة بعد وفاة غريغوار السابع .

أزمة البابوية بعد غريغوار السابع

١٠٨٥ — ١٠٨٨

انتخاب فيكتور الثالث . — رجا الكرادلة غريغوار السابع، وهو على فراش الموت ، أن يدلهم على أكفأ رجال الكنيسة ليكون خلفاً له فسمى لهم آنسلم أسقف لوقا وأود كردينال — أسقف أوستى ، وهوغ مطران ليون . ومع هذا فان تاج البابوية كان من نصيب أب مونكاسينو، ديديه ، مرشح جوردان أمير كابو ، الذي أقنع الكرادلة بأن ديديه يستطيع أن يخدم الكنيسة أكثر من أي شخص من الشخصيات التي سماها غريغوار السابع .

غير أن هذا الضغط العلماني كان مخالفاً للمبادىء الغريغورية ، ولذا أثار عند ديديه كثيراً من الوساوس ، وأنبه ضميره فذهب إلى مونكاسينو ورد المنصب الذي قدم اليه وجرت مساع أخرى إلا أنها لم تثنه عن عزمه ، وبعد سنة مضت بالمفاوضات انعقد مجلس الكرادلة وانتخب ديديه رغماً عنه في (٢٤ أيار ١٠٨٦) ، ولم يرض بذلك واعتزل في مونكاسينو .

ولا شك أن بقاء الكرسي الأقدس شاغراً طيلة هذه المدة يضر بمصالح الكنيسة لاسيما وان المسيحية ، في مثل هذه الظروف الحرجة ، أحوج ما تكون إلى رجل قوي الشكيمة كفء للقيام بما يتطلبه هذا المنصب ليجمع شمل أنصار البابوية في ايطاليا وألمانيا ويوحد كلمتهم . ولكن لا داعي لليأس وإن بدأ هذا الخطر جسيماً .

أما كليمان الثالث فلم يستطع البقاء في روما وذهب إلى رافينه . وفي شمال ايطاليا ظفرت الكونتس ماتيلد على جيوش هنري الرابع العائدة

إلى المانيا والتف حولها أنصار الحزب الغريغوري . أما في جنوب شبه الجزيرة ، فلم تكن الحوادث لتجري وفقاً لصالح السدة الرسولية . فقد توفي روبير غيسكار وخلف أبناً يدعى روجه . وكان هذا في نزاع مع بوهيموند أخيه لأبيه من زوجته الاولى . وعدا عن هذا الانقسام العائلي كانت عائلة غيسكار في خصام مع عائلة كابو . ولذا كان السلام في ايطاليا النورماندية رهن أقل حادث عارض .

ولم يكن الوضع في ألمانيا يدعو إلى الاطمئنان في المستقبل لأن الساكسونيين لم يعرفوا كيف يستغلون غياب هنري الرابع لصالحهم . يضاف إلى ذلك أن الزعماء الدينيين كانت تنقصهم الجرأة والقناعة بمبادئهم فلم يستطيعوا مقارعة خصومهم الحجة بالحجة ليظهروا عليهم . ولكن لم ينفذ كل أمل في صالح البابوية إذا وجه حماتها وأحسنت قيادتهم . ولسوء الحظ كان ينقصهم التوجيه الصحيح غالباً ، لأن خليفة غريغوار السابع ، ديديه ، لم يكن له من العزم والنفوذ والجاه ما يجعله يوفق بين النوايا الصالحة المبعثرة وينسق جهودها ويدفعها في الطريق السوي .

ولد ديديه في ١٠٢٧ من أسرة نبيلة في بينيفن وأصبح أب مونكاسينو عام ١٠٥٨ وكردينالاً في الكنيسة الرومانية عام ١٠٥٩ وظل في حبرية غريغوار السابع منعزلاً . كان مهندساً معماراً ، غاوية للفن ، جماعاً للتحف ، محباً للكتب ، لاهم له إلا تزيين مونكاسينو : شاد فيه مكتبة وصالة وكنيسة فخمة جمع فيها التماثيل والفسيفساء والفريسكات والمنمنمات والحلي وأدوات الزينة والكتب الدينية . وإذا تدخل في حكومة الكنيسة فلا يرمي من تدخله إلا الحفاظ على هذه الثروة الفنية ضد غارات الحرب وأعمال السلب والنهب . وهذا مايعلل لنا جهوده في عقد تحالف دائم بين البابوية والنورمانديين ومحاولة التوسط عام ١٠٨٢ بين

هنري الرابع وغريغوار السابع . كان ديديه ، رغم فضائله الكهنوتية التي لامجال للشك فيها ، قليل الاطلاع على شؤون الكنيسة ، قليل التدريب على خفايا الدبلوماسية ودقائقها ، وينقصه الحزم الضروري ليضطلع بأعباء البابوية . يضاف إلى ذلك أن الظروف التي أحاطت به ، عند اعتلائه كرسي البابوية كانت خطرة على الكنيسة الرومانية ، ولذا فان انتخابه بابا باسم فيكتور الثالث كان فاتحة لازمة ظهرت بهجومين على البابوية : الهجوم الامبراطوري ، ويرمي إلى دفع الغريغوريين المحرومين من زعيمهم إلى الانضمام في صف كليمان الثالث ؛ والهجوم الغريغوري الذي فرق الحزب الحنيف وأوشك أن يؤمن نجاح هنري الرابع .

الهجوم الامبراطوري . — وفي هذه الفوضى التي تتخبط فيها الكنيسة من جراء شغور الكرسي الحبري وانتخاب ديديه ، حاول أنصار هنري الرابع قبل كل شيء أن يبرهنوا لخصومهم أن كليمان الثالث هو البابا الشرعي . فقد حرر غي فراره ، بناء على طلب عدو البابا ، رسالة تدعى « هيلدبراند المنشق » . وفيها أظهر أن هيلدبراند منشق وانتخابه باطل ، ولذا يجب خلعه . أما غيبرت رافينه ، الذي نودي به باسم كليمان الثالث فيجب أن يكون وحده البابا . ولم تكن الحجة التي أدلى بها غي أقوى من حجة متقدميه ، ولكن الشيء المهم فيها هو الاعتدال الظاهر الذي يبرهن عليه هذا المدافع الجديد عن هنري الرابع . فأصوات الحقد والغضب، التي نراها في الآثار القدحية التي ظهرت في السنوات المتقدمة ، خمدت كلها . ولكن إذا تحولت الحيلة والوسيلة فليس في ذلك ما يدل على تبدل النظرية لأن غريغوار السابع بقي في رأي هذا الفريق مغتصباً .

الهجوم الغريغوري . — وكان الهجوم الغريغوري أشد خطراً على البابوية ويتمثل في شخص مطران ليون ، هوغ ، مفوض غريغوار السابع

في غاليا . كان هوغ رجل مبادىء ، قاسياً ، متطرفاً ، غريغورياً أكثر من غريغوار السابع نفسه ، لايعرف الهوادة في الدين ولا التسامح في العدل وتمكن هذه العاطفة في نفسه أزال من قلبه الشفقة على الضعف البشري . ولذا فان عقيدته الاصلاحية وميوله المتطرفة دفعته إلى الوقوف في وجه فيكتور الثالث .

وصل هوغ الى روما بعد انتخاب ديديه بقليل والتقى به في مونكاسينو فحدثه ديديه عن « الأعمال القبيحة » التي ارتكبها في آخر حبرية غريغوار السابع والظروف التي المت بانتخابه وجعلت هذا الانتخاب مضطرباً ومخالفاً لارادة الله ، وصرح بأنه لايقبله ولا يرضى به . كما برهن على سلامة نواياه بدعوته الى مجمع يعقد في آذار ١٠٨٧ ، ودعا اليه هوغ ليون وصديقه ريشار أب دير سن فيكتور مارسيليا الذي كان مرافقاً له .

اطمأن هوغ وريشار لما سمعا وذهبا إلى كابو لحضور المجمع . غير أن ضربة مسرحية حقيقية حدثت في هذا الاجتماع . فقد قبل ديديه تحت ضغط الامير جوردان وروجه غيسكار الشاب بانتخابه ولبس الجبة الحبرية ، وفي ٢١ آذار ١٠٨٧ قبل تاج البابوية ، واعترف به الكرادلة الأساقفة الحاضرون إلا هوغ ليون ، فقد لزم الصمت الجليل بعد أن تخلى عنه أخوانه . وبعد هذا دخل البابا روما وأزاح النورمانديون أنصار كلميان الثالث ، وجرت له في ٩ أيار حفلة دينية ،وبدا أن الازمة الداخلية ، التي مزقت الكنيسة منذ وفاة غريغوار السابع ،قد انتهت ولم يبق سوى الخطر الخارجي .

وهذا الخطر الخارجي أيضاً مال إلى الضعف لأن وضع الغريغوريين تحسن في إيطاليا كما في المانيا . ففي مجمع كابّو أنضم روجه غيسكار الى فيكتور الثالث ، وكذا أكثر الامراء النورمانديين . وفي الشمال كانت

الكونتيس ما تيلد في حالة حسنة بعد ذهاب هنري الرابع ، وقدمت روما لتحي البابا الجديد وتطمنه عن ولائها للكرسي الأقدس .

وفي ألمانيا كان هنري الرابع في حرب مع الساكسونيين ولذا لم يكن بامكانه أن يبتعد عن المانيا لينجد عدو البابا .

أما فيكتور الثالث فبعد أن استتب له الأمر عقد مجلساً في بينيفن (٢٩ آب ١٠٨٧) وجدد فيه حرمان هنري الرابع ، وطرد هوغ ليون وريشار مرسيليا دون أن يترك مجالاً للصلح معها . وليس بالمستحيل أن يكون قد أذاع من جديد التشريع الغريغوري في النيقولاوية والسيمونية والتقليد العلماني . إلا أن تاريخ هذا المجمع قد اغطش بسحب من الاساطير ومن الصعب الادلاء بشيء ثابت . ولا شك في أن فيكتور الثالث لم يقطع علاقاته مع توجيهات سلفه ، غير أن مراسيمه كانت قليلة ولذا لا نستطيع أن نستخلص منها نتائج صريحة .

ومات فيكتور الثالث في ١٦ ايلول ١٠٨٧ ولم تترك حبريته أثراً جديراً بالتسجيل. كان هذا البابا محباً للبديع ، مقدراً للفن،وليس لديه أفكار شخصية في حكومة الكنيسة . ولقد حاول في عهد غريغوار السابع أن يقرب بين الكهنوت والامبراطورية ، غير أنه لم يفكر في تلك الظروف إلا لصالح ديره دون أن يرتاب في خطر هذه المحاولة . وعندما زال الخطر عنه عاد فاقتفى آثار الحبر العظيم . ولما انتخب بابا بتأثير الامراء النورمانديين وقف أمامه الغريغوريون المتزمتون،وهذا لم يمنعه من ان يظل غريغورياً ، ولكنه كان قبل كل شيء شخصية ممحية كامدة شاحبة الوجه بين غريغوار السابع واوربينو الثاني .

اوربينو الثاني (١٢ آذار ١٠٨٨) . — رجا فيكتور الثالث قبل أن يلفظ نفسه الاخير أن يكون خلفه اود شاتيون كاردينال —

أسقف أوستي. وهكذا كان ، فقد اجتمع الكرادلة الأساقفة وانتخبوه بابا باسم اوربينو الثاني .

ولم يمض الانتخاب دون صعوبة . لأن المنشقين كانوا يهددون روما ورغم مساعدة جنود الكونتيس ما تيلد لم يستطع الكرادلة الاجتماع والمناقشة بسلام . وحسب الأصول المرعية في مثل هذه الحالة في مرسوم نيقولاالثاني ذهب الكرادلة إلى تيراسين وقبلوا التصويت بالانتدب ليسمحوا للاكليروس والشعب الروماني الاسهام في الانتخاب .

كان من الصعب إجراء انتخاب أفضل من هذا الانتخاب . كان أود فرنسي المنبت ، أصله من شاتيون على المارن من ابرشية رنس تتلمذ على يد القديس برونو والقديس هوغ كلوني،ثم سمي في عام ١٠٧٨ أسقف أوستي، وأنتدب في العام ١٠٨٤ - ١٠٨٥إلى المانيا.وهو من أفضل مساعدي غريغوار السابع ، حتى ان هذا الاخير دل عليه بين من اقترحهم خلفاً له . وقل من الاحبار من توصل مثله إلى السلطة بعد طول التجربة والحنكة في القضايا الكنسية ، فضلاً عن الذكاء والطباع التي يتحلى بها . ولقد قال عنه بطرس بيزان : « كان شجاعاً عليماً في الكتاب المقدس مفعماً بتقاليد الكنيسة، وعنده من الثبات مايجعله يسهر على مراعاتها وملاحظتها». وكذا برنولد كونستانس يشيد بعلمه بقوانين الكنيسة وتقواه التي هي ثمرة النظام الكلوني الذي جبل روحه. وهذا العلم وهذه التقوى اتحدا عنده مع الحس السليم وكرم النفس والارادة القوية التي لا تنفي العذوبة والاحسان . ولقد تبين له من طول صلته بالناس ان الوسيلة الوحيدة لتجديد الكنيسة والنهوض بها بعد أن حلت بها الأزمة التي لازمت حبرية فيكتور الثالث، هي السير على غرار غريغوار السابع وتقليده وإتمامه في كل شيء . وقد كتب إلى الاساقفة الالمان في ١٣ آذار ١٠٨٨ « ثقوا بي ثقتكم من

قبل بأبينا السعيد البابا غريغوار . انني أقتفي آثاره في كل شيء واطرح ما طرح ، وأشجب ما أشجب وأعز ما أحب وأثبت وأؤيد كل ما اعتبره عادلاً وكاثوليكياً ، وفي كل شي أفكر مثله » .

وهكذا فإن حبرية غريغوار السابع التي أنقطعت في ٢٥ أيار ١٠٨٥ تعود فتبدأ في ١٢ آذار ١٠٨٨ ، لأن النظريات الغريغورية بقيت تلهم جميع أعمال هذه الحبرية الجديدة ، وظلت الكنيسة الرومانية توجه المسيحية وتلاقي المقاومات نفسها والمعارضات نفسها والموالين أنفسهم أيضاً مع ما يقويها من حجج قانونية تؤلف القلوب وترد الحائرين وتهدي الضالين سواء السبيل .

الكهنوت والامبراطورية في حبرية اوربينو الثاني

١٠٨٨ — ١٠٩٩

الشقاق والقضية الرومانية . — ان متابعة العمل ، الذي بدأ به غريغوار السابع ، تقتضي قبل كل شيء إنهاء شقاق كليمان الثالث وإعادة البابوية إلى روما ومنحها الوسائل المادية التي تكفل لها ممارسة سلطتها العظمى . وهذا ماكان يرمي إليه اوربينو الثاني ، في السنوات الخمس الأولى من حبريته،وما تابعه بثبات وعزم وتفاؤل . وتحقيقاً لهذا البرنامج سعى أولاً في عقد الاحلاف التي يمكنه الاعتماد عليها .

رأى البابا أوربينو الثاني أن قوة الكرسي الأقدس ناجمة عن مساندة الأحبار والأمراء الايطاليين له ، وأن حملات هنري الرابع في إيطاليا أفقدت الملكية الجرمانية قسماً عظيماً من جاهها في شبه الجزيرة ولم يبق إلا فئة قليلة التفت حول أولريك بطريرك اكويله ولبثت منشقة .

أما باقي رجال الدين فقد دخلوا في طاعة الكرسي الأقدس وسعت الكونتس ماتيلد أن توحدهم في كتلة واحدة .

والسند الثاني للكرسي الأقدس في إيطاليا هو الأمراء النورمانديون ، فقد كان يهمهم كما يهم الكونتس ماتيلد الحد من التوسع الجرماني . ولكن الحرب بين بوهيموند وأخيه روجه عادت وأشتعلت بعد وفاة فيكتور الثالث ودامت إلى ١٠٨٩ . وإذا صرفنا النظر عن هذه الانقسامات فان الأمراء النورمانديين كانوا في صالح البابا بالاجماع ،وقد حاول هذا أن يقوي علاقاته مع جوردان كابو وروجه كونت صقلية .

وبالإجمال ، ان إيطاليا النورماندية كايطاليا الشمالية اعترفت بأوربينو الثاني . أما كليمان الثالث فلم يكن له أنصار إلا في الريف الروماني .

اوربينو الثاني والمانيا . — أما الوضع في ألمانيا فكان يختلف عنه في ايطاليا . إن شعاع الأمل ، الذي بدا في حبرية فيكتور الثالث ، عاد وانطفأ بسرعة لأن جميع الحوادث التي جرت في ساكس وبافاريا أضعفت وضع الكرسي الأقدس في المانيا . ويلاحظ المؤرخ برنولد كونستانس أن لم يكن في ألمانيا في بداية العام ١٠٨٩ سوى خمسة أساقفة مخلصين للبابوية ، ومن الصعب بمثل هذه القوى الضئيلة مباشرة عمل ناجح .

إلا أن أوربينو لم يترك اليأس ليدخل الى قلبه ، فبينما كان يشد أواصر التحالف في إيطاليا كان يعمل على تنظيم القوى الغريغورية في المانيا . ففي ١٨ نيسان ١٠٨٩ عين جيبارد كونستانس نائباً رسولياً في ألمانيا . ورسم له السياسة الحبرية في رسالة قيمة تدل على أنه لم يضح باي فكرة من الأفكار الغريغورية ، بل أظهر مرونة أكثر من غريغوار السابع . ولاريب في أن هذا التعيين لاقى محله لما يتمتع به هذا الحبر من حظوة ومكانة في المانيا . كان جيبارد عارفاً بالقضايا الألمانية ، واقفاً

عليها ، فضلاً عن انه كان على اتفاق تام مع البابا أوربينو الثاني ويقاسمه قوة العقيدة ورسوخ الإيمان ، وفوق هذا وذاك تهيؤه واستعداده للسلام والصلح . وإذا عرفنا أيضاً أنه قريب لأكثر أسر ألمانيا القديمة أمكننا أن نقول ان هذه القربى تزيد أيضاً في حظ نجاحه .

رسم أوربينو الثاني إلى « نائبه » في ألمانيا الخطة الواجب اتباعها ، وتمتاز باعتدالها الحازم لأن البابا احتفظ بالحرمان الذي يثقل كاهل الملك وعدو البابا والحق بهما « جميع الذين يساهمون في عمل السوء بأسلحتهم ومالهم ونصائحهم وطاعتهم ، وخاصة إذا قبلوا منهما أو من أنصارهما الرتب والوظائف الكنسية » . وقد منع تحت طائلة الحرمان الاتصال بأنصار كليمان الثالث وهنري الرابع المحرومين ، ولكنه أبدى استعداداً لتخفيف توبة الذين حادوا عن القانون بطريق الجهل أو الخوف أو الضرورة ، وترك إلى جيبارد حرية العمل ليدخل في حظيرة الكنيسة جميع الاكليركيين الذين وصلوا إلى مراتبهم عن غير حق . ولا شك أن هذا الوضع المسالم المصالح ، الذي أتخذه البابا أوربينو الثاني ، كان من شأنه أن يرد من أمعنوا في الضلال وأتبعوا سبل الغواية وظلوا في شقاقهم عن رد فعل أكثر منه عن قناعة شخصية . ولم يكن في وسع الرأي الألماني إلا أن حبذ هذه التوجيهات وأستقبلها برضى ، لأنها تمت عن إرادة خالصة في العودة إلى السلام في ظل الدين الحنيف . ولكن هذه السياسة الرشيدة لم تمنع وجود بعض الملحفين المتطرفين الذين أنكروا على البابا أوربينو وضعه .

وإذا نظم أوربينو الثاني الكفاح ضد الشقاق الامبراطوري في ألمانيا وإيطاليا فذلك لم يصرفه عن أهدافه في تطهير روما والريف الروماني من بذور الشقاق والنفاق ، لأن كليمان الثالث مازال يحتفظ فيها ببعض القوة ، حتى انه عقد مجمعاً في أيار أو حزيران ١٠٨٩ وحكم ببطلان بابوية أوربينو

الثاني ، كما حكم على المتمردين على سلطة هنري الرابع . وأذاع بالمقابل سلسلة من المراسيم حرم فيها السيمونية والنيقولاوية تحت طائلة العقوبات الشديدة وبفضل هذه السيرة التي سلكها أخذ يفخر بأنه خليفة بطرس الحقيقي وبه تتجسد الوحدة الرومانية التي فصم عراها غريغوار السابع عندما حكم على الملك الذي يتناول سلطته من الله تعالى .

ولكن هذه الخطة لم تنجح إلا قليلاً ولم تمنع أوربينو الثاني من الاستيلاء على روما ودخولها بين هتاف الشعب الروماني وتناثر الأزهار وإقامته القداس في كنيسة القديس بطرس . ولا شك في أن هذا الظفر كان عظيماً من الناحية المعنوية لأنه غسل العار الذي لطخ الكنيسة عام ١٠٨٤ . ولم يبق على أوربينو الثاني إلا أن يستقر ويوطد سلطته في المدينة بعد أن دخلها مباغتة . وهذا ماسعى إليه في آخر العام ١٠٨٩ وأول العام ١٠٩٠ بتحالفه مع النورمانديين وتقوية وضع الكونتس ماتيلد في إيطاليا الشمالية وفصل هنري الرابع عن عدو البابا كليمان الثالث .

وما كاد أوربينو الثاني يدخل عاصمته إلا وغادرها إلى آمالفي حيث عقد مجمعاً حضره روجه غيسكار محاطاً بكونتات بوي وكالابر . وبهذه المناسبة جدد التحالف مع آل غيسكار وأقسم روجه يمين الولاء للكنيسة الرومانية وتقبل دوقيته من يدي البابا . وبفضل هذه التعهدات استطاع أوربينو الثاني أن ينظر إلى المستقبل بثقة أكثر من ذي قبل . فاذا ما انحدر هنري الرابع إلى إيطاليا أدرك النورمانديون الخطر الذي يهددهم من تفوق الجرمانيين في شمال شبه الجزيرة وجنوبها ، ولذا ينحازون إلى جانب البابا ضد الفاتح .

وأهم من هذا أيضاً أن يسد البابا طريق روما في وجه الجيوش

الألمانية ، ولذا سعى في تقوية الكونتس ماتيلد في إيطاليا الوسطى . وكانت ماتيلد أرملة منذ ١٠٧٦ ولها من العمر ثلاث وأربعون سنة . ورغم أنها عاشت كراهبة تائبة في حياة العصر ، إلا أن البابا فكر في زواجها في آب ١٠٨٩ مع الشاب ولف الخامس بن ولف الرابع دوق بافاريا ، ولم يكن له من العمر سوى سبعة عشر عاماً . ولا شك أن هـذا الزواج الدبلوماسي يعود على البابوية بأفضل الثمرات والفوائد لأنه يربط بين زعيمي المعارضة في ألمانيا وإيطاليا ويقوي وضع الكونتس ماتيلد في إيطاليا الشمالية ويجعل بافاريا في صالح الغريغوريين . ولكننا نتساءل بعد هـذا ماإذا كانت هذه المناورة الجريئة سابقة لأوانها . وفي الحقيقة ان هنري الرابع قد نبه إلى الخطر الذي ينجم عن هذه القوة الجديدة ، وأشير عليه أن يقضي عليها قبل أن تستفحل وتصبح في حالة تشل تأثيره في إيطاليا . ولذا فان هذا الحادث قـــد عجل في الهجوم الامبراطوري على إيطاليا . أما البابا أوربينو الثاني ، رغم التقدم الذي تم في بداية حبريته ، فلم يكن على جانب من القوة يستطيع أن يقف بها أمام الضربة التي يمكن أن توجه إليه .

وربما كان يعرف مبلغ قوته ، لأنه ، وان حاول أن ينظم الدفاع عن شبه الجزيرة ، لم يعمل على مايعيق سير المفاوضات خلال العام ١٠٨٩ التي كانت تجري في ألمانيا بين هنري الرابع وخصومه . ففي هذا التاريخ تقدم الامراء الموالون للكرسي الاقدس إلى الملك معربين له أنهم على استعداد للاعتراف به إذا قبل الانضمام إلى صف البابا الشرعي . وكانت الفرصة مواتية ، حتى ان هنري الرابع ، على مايظهر ، جنح لهذا الحل ، غير أن الاساقفة المنشقين جعلوه يعدل عن رأيه لأنهم خافوا ، إذا تم التفاهم على هذا الأساس بين الكهنوت والامبراطورية ، أن يخلعوا من مناصبهم

لمشايعتهم الشقاق . وأخيراً تغلب رأيهم على الملك في مجمع سبير (١٤ شباط ١٠٩٠) . وعوضاً عن أن يسوى السلام ، بدىء على العكس بالاستعداد للحرب والحملة على إيطاليا .

أما جيبارد كونستانس فلم يكن في وسعه بعد أن يحدث في داخل المملكة تحولاً في الرأي يمنع هنري الرابع من الابتعاد عن المانيـا . وحدثت حوادث كان من شأنها أن قوت وضعه . فقد خسر الغريغوريون بوفاة أسقفين عظيمين من أصل خمسة ، وبوفاة برتولد ابن رودولف سوّاب من العلمانيين ، خير سند لهم .

ولذا يمكننا القول ان الأفق لم يكن نقياً من كل عاصفة رغم الظفر الدبلوماسي الذي ناله أووربينو الثاني خلال العام ١٠٨٩ . وثارت العاصفة في ربيـع ١٠٩٠ . وانحدر هنري الرابـع إلى إيطاليا وحاول قبل كل شيء أن يقضي على مقاومة الكونتس ماتيلد ، وحاصر مدينة **مانتو** ولاقى في هذا الحصار مقاومة عنيفة ، ولكنه فتحها أخيراً واستولى على كثير من الحصون . وجرت بينه وبين ولف بافاريا مقابلة . ولم يستطع هذا الأخير أن يفصل الملك عن عـدو البابا كليمان الثالث . وعمل هنري الرابـع على فتـح المدن في إيطاليا الشمالية .

وكما كان مرتقباً ، ألقى وصول هنري الرابع الرعب في إيطاليـا . وأضطر البابا أووربينو الثاني أن يفر إلى كابو ومنها إلى سالرنو ولم يستطع أن يؤمل بتدخل عسكري من قبل حلفائه النورمانديين لوفاة أرملة روبير غيسكار ووفاة جوردان ونزاع الأمراء النورمانديين فيما بينهم . وهكذا فان الفوضى التي وقعت فيها إيطاليا النورماندية حرمت الكرسي الأقدس في العام ١٠٩١ بجميـع ما كسبه بمشقة في العام ١٠٨٩ . وبينما كان البابا الشرعي يهيم على وجهه في جنوب شبه الجزيرة ، استولى خصومه على قصر

سانتانج ودخل كليمان الثالث روما . ولكن هذه الصدمة لم تؤثر في أوربينو الثاني ولم تفقده شجاعتـــه وتوازنه ، ولم يتنازل عن مزعم من مزاعمه بل عقد مجمعاً في بينيفن في ٢٨ — ٣١ آذار ١٠٩١ وجدد الحرمان ضد كليمان الثالث وأشياعه . ولكنه أمام خطورة الحالة جنح إلى المصالحة مع هنري الرابع شريطة أن يصون حقوق الكنيسة الرومانية .

ولم يكن الوضع العام في ألمانيا إلا مؤيداً لهذه الفكرة التي جنح إليها البابا ، لأن الجهود التي بذلها جيبار دكونستانس في تنظيم الغريغوريين لم تؤت أكلها بعد . كان جيبارد يكافح بشدة ولكن النجاح غير قريب .

وضعف الغريغوريين في إيطاليا وألمانيا يوضح لنا كيف أن أنصار أوربينو الثاني حاولوا مصالحة البابا والامبراطور . وقد بدأ التشبث في المفاوضات من قبل اتباع الكونتس ماتيلد الذين أجبروها على الدخول في المفاوضات بعد أن رأوا المدن الايطالية تسقط واحدة بعد أخرى في يد هنري الرابع . فوضع الملك شرطاً أولياً لكل اتفاق الاعتراف بالبابا كليمان الثالث الذي جاء ولحق به . ولذا لم تسفر المفاوضات عن شيء . لقد كانت الكونتس ماتيلد متعلقة بالكرسي الأقدس عن إيمان ولم يكن في وسعها إلا أن دفعت مستنكرة هذه الفكرة التي تسيء إلى وجدانها الحساس الرقيق . ولكن اتباعها الحوا عليها وبعد مناقشات حامية الوطيس قطعت ماتيلد المفاوضات وعادت مطمئنة النفس إلى الحـــرب وقررت أن تذهب بالكفاح إلى النهاية .

وقد ألفت هـــذه الجهود الفائقة مكافأتها لأن الظفر ماعتم أن بدل المعسكر وصار في جانب الكونتس . وأراد هنري الرابع أن تسلم كانوسا فغادرتها الى بيانللو ، ثم عاد جنودها وحاصروا جيوش هنري الرابع من كل جهة فلم يجد بداً من القتال متراجعاً نحو بيّانو .

لقد تجاوزت نتائج واقعة كانوسا جميع الآمال ، فقد اضطر هنري الرابع الى التراجع وتبعه جيش ماتيلد يستعيد القصور ، الواحد تلو الآخر، التي فقدها منذ بداية الحرب . وهكذا فان حملته بدأت ظافرة وأنتهت بكارثة حقيقية ، لأن طريق روما أصبح مغلقاً في وجهه . واذا لم يستطع أوربينو الثاني الدخول الى عاصمتـــه ، فكذلك كليان الثالث لايستطيع الظهور فيها . وسر الرأي الايطالي بنتائج حرب البو الظافرة فمال الى صالح البابا الشرعي . يضاف الى ذلك أن النجاح الدبلوماسي الذي حصل عليه الكرسي الأقدس في آخر العام ١٠٩٣ لم يكن منه سوى أن أيد هذه الأوضاع المواتية .

واتفق أن أنكسار هنري الرابع على نهر البو وقع عندما ثار ابنه البكر كونراد . ولا يعلم على وجه الصحة سبب هـذا الاختلاف الذي وقع بين الأب وابنه . ومهما يكن فان أوربينو الثاني والكونتس ما تيلد حاولا أن يستغلا هذا الاختلاف . إلا أن الحوادث لم تجر بالسرعة التي فكرا بها لأن هنري الرابع أكتشف المؤامرة وقبض على ابنه وزجه في السجن حيناً من الزمن، إلا أن كونراد استطاع أن يفر وتوج ملكاً على إيطاليا في ميلانو من قبل المطران آنسلم وبرضى من ماتيلد وولف . وهذا الانقسام الذي جرى في العائلة المالكة مع ما صحبه من تراجع جيش الامبراطور كان بمثابة ضربة قاسية ويمكن أن يسبب دماره وذهاب مزاعمه في ايطاليا .

وحدث في ذلك الحين حادث آخر عظيم الأهمية ، ويجب أن ترى فيه يد ولف وما تيلد . يقول برنولد كونستانس ان المدن اللومباردية : ميلانو ، كريمون،لودي ، بليزانس،ألفت حلفاًضد هنري الرابع في العام ١٠٩٣،ولا يعطينا أقل تفصيل عن طبيعة هذا الحلف ولا عن تنظيمه . وكل ما قاله

انه كان تحت رعاية ولف ، إلا أنه على ما يظهر كان مرحلة من حركة التحرر التي حدثت خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر في معظم مدن إيطاليا الشمالية . وإذا كان تنظيم المدن بصورة عامة لم يكن سابقاً للسنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر فعلى الأقل ان سلطة الأسقف العظيمة في القديم ، قد هوجمت بشدة . وتتويج كونراد بن هنري الرابع ملكاً على ايطاليا لم يكن منه إلا أن شجع المدن على التحرر من نير الاحبار الذين فرضهم الامبراطور ، وفي الوقت نفسه ، من الوصاية الألمانية . وهذا هو معنى الحلف اللومباردي الذي لم يكن منه سوى دعم جهد اوربينو الثاني والكونتس ما تيلد .

وسجل العام ١٠٩٣ كذلك تقدم الغريغوريين الذين استطاع جيبارد كونستانس أن ينظمهم . فقد عقـــد مجلس في أولم وانتخب برتولد أخو جيبارد دوقاً على سؤاب وتقرر أن يكون هذا الدوق مـع ولف الرابـع ملحقين بجيبارد بيمين التبعية . وبهـذا يكون ممثل الكرسي الأقدس في المانيا مقلداً سلطة سياسية عليا تساعده على إظهار عمله الشخصي .

وفي هذا الوقت الذي انتظم فيه عقد الغريغوريين في ألمانيا ، أخذ يظهر أثر الرهبان ،لأنهم لم يبقوا كما كانوا في عهد غريغوار السابـع بعيدين عن النزاع ، بل ان أثرهم فيه كان عظيماً . فقد انتشر الكلونيون في كل المانيا وكثرت مراكز الحياة النظامية . وبينما كان القديس هوغ ، أب كلوني ، يلازم الحياد في النزاع بين الامبراطورية والكهنوت نرى أن تلاميذ غليوم ، أب هيرشو ، اشتركوا في النزاع وأخذوا يبشرون ضد التقليد العلماني وضد الملكية المنشقة وضد أنصار عدو البابا . وبفضل هذه الدعاية استطاع جيبارد كونستانس ، وهو كلوني أيضاً ، أن يوقظ غيرة اللامبالين وينال الكثير من النجاح .

فمن هذا أن اللورين في العام ١٠٩٣ خرجت من يد هنري الرابع وأخذ الاساقفة يدخلون في طاعة البابا الشرعي . وارتسمت حركة مماثلة في المناطق المجاورة . وفي ساكس كان التبدل عظيماً ونشيطاً. فقد استيقظت ساكس على يد هران ، أسقف هلبرشتاد ، الذي عينه البابا اوربينو الثاني مفوضاً حبرياً ، ونسقت عملها مع بافاريا وسؤاب واللورين .

وفي الوقت الذي تطرح فيه إيطاليا هنري الرابع وتظهر في ألمانيا بوادر الاستقلال دخل أوربينو الثاني روما وضرب الشقاق ضربة قاضية، وبدا أن وضع البابوية قد تحسن أكثر من ذي قبل ، لأن الهجوم الالماني في إيطاليا رد على أعقابه كما خذل عدو البابا . وبذا استطاعت الكنيسة الرومانية العودة إلى غاياتها الاولى التي لم تصرف النظر عنها ، وباشرت عملها في الإصلاح الكنسي . وبعد أن عاد أوربينو الثاني إلى روما أذاع للعالم المسيحي أنه يحمل الأمانة الدينية التي حملها سلفه من قبل وانـــه سيجدد ويوضح التشريع الغريغوري الذي وافقت عليه المجامع الرومانية من ١٠٧٤ إلى ١٠٧٥ . وفي صيف ١٠٩٤ غادر روما بملء إرادته ، وفي بليزانس عقد مجمعاً دعا اليه أساقفة البلاد جميعاً . فأجابه ما يقارب من ٤٠٠٠ أكليركي و ٣٠,٠٠٠ علماني حتى ضاقت الكنائس بالحاضرين وعقد الاجتماع في الهواء الطلق .

وسبق هذا المجمع عدة مجامع اقليمية وافق فيها الأحبار على الأحـكام التي اتخذها غريغوار السابع ضد النيقولاوية والسيمونية وحظر على المؤمنين حضور القداس الذي يحتفل به الاكليركيون المجـرمون . وفي بليزانس جدد أوربينو الثاني بشكل صريح وعلـني المراسيم الانشائية في إصلاح الكنيسة . واحتفظ بأحكام سلفه كما أثبت الفقه الروماني في بعض النقاط التي تترك مجالاً للجدل والتـأويل وخـــاصة فيما يتعلق برقي المناصب

الكنسية على يد الاساقفة السيمونيين : فقد أثبت المجمع بطلان كل تقديس يدخل فيه المال ، إلا أنه قبل ،على العكس، تنازلاً، ان تقديس السيموني لشخص انتخب دون سيمونية يبقي ساري المفعول إذا كان هذا الشخص يجهل قباحة المقدّس . وكذا كل من كال قانونياً قبل أن ينال ربحاً سيمونياً يجب أن يحتفظ برتبته شريطه أن يعيد ما كسب من مال عن طريق السيمونية .

يلاحظ إذاً طابع الاعتدال في قوانين بليزانس التي كانت تعبيراً لرغبة أوربينو الثاني في الوفاق والصلح . وما فتىء البابا في مجمع بليزانس يبحث عن النتائج التي توصل إليها اللاهوتيون وتتفق مع وجهة نظره . ولا شك ان كان بينهم من كان متعنتاً مثل بونيزون أسقف سوتري مؤلف « كتاب الحياة المسيحية » الذي يقول ببطلان الرتب التي يمنحها الحبر السيموني أو المحروم ولا يقبل في ذلك التساهل بحال من الأحوال . وعلى نقيضه كان الكاردينال دوسدودي في إيطاليا وبرنولد كونستانس في ألمانيا يتدحان بقاء العقوبة التي حلت بالمنشقين،إلا أنهما يجنحان إلى تسهيل العودة إلى حضن الكنيسة لكل من أقترف جرماً عن غير إدراك ووعي .

وتجددت قوانين بليزانس مراراً حتى آخر حبرية أوربينو الثاني . وفي كل مجمع يعقد كانت تتمم هذه القوانين بعدة تدابير تهدف إلى نشر الأخلاق المسيحية بين الاكليركيين والعلمانيين كالقوانين المتعلقة بالقتل والغصب والزواج وغيرها .

وهذ النشاط الإصلاحي كان دليلًا على هدوء النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ، وليس في ذلك ما يدل على سلم دائم أو هدنة موقتة . لأن هنري الرابع لم تخامره أي فكرة في الخضوع رغم خذلانه العسكري

والدبلوماسي . ولم يمض قليل من الزمن على مجمع بليزانس إلا وبلغه ان ماتيلد خيبت ظن ولف الشاب ولم تنجب له اولاداً أو تزيد في قوة أسرته ، ولذا هجرها وتخلى عنها . فرأى هنري أن الكونتس ، بعد أن حرمت مساندة بافاريا لها،لا تستطيع مقاومة الجيش الجرماني.وهاجمها الملك في نوغارا فأخفق وسجل عاراً جديداً عليه ، ولم يستطع أن يخلص ايطاليا الشمالية من نفوذ البابا . وفي الجنوب ايضاً تزوج ابنه العاق كونراد ابنة كونت صقلية ، روجه . وفي كل هذا توطيد لنفوذ الكرسي الأقدس في شبه الجزيرة . لذا قفل راجعاً إلى جرمانيا . وكان وضعه فيها قلقاً لا يدعو إلى الاطمئنان ، فقد هجر الاساقفة الشقاق . ولم يكن أسعد حظاً مع العلمانيين . وعلى العكس كان وضع البابا في تحسن لان إيطاليا كلها التفت حول الكرسي الأقدس .

ومات البابا اوربينو في ٢٩ تموز ١٠٩٩ ، واذا لاقت حبريته في اول الامر بعض الصعوبات فقد سجلت ظفراً في السنوات الاخيرة . ففي العام ١٠٩٩ يمكن ان يقال ان الشقاق الامبراطوري قد انتهى ظاهراً ولم يبق لكليمان الثالث إلا نفر قليل من الأنصار . وأخذت الكنيسة في الغرب ، بفضل المركزية ، تنصاع لتوجيهات البابوية اكثر مما كانت في الماضي . ومن الناحية السياسية انحازت إيطاليا بكاملها إلى جانب روما . وفي ألمانيا أخذ الحزب الغريغوري بالتوسع . وقبل وفاة اوربينو الثاني بخمسة عشر يوماً سقطت القدس في ايدي الصليبيين (١٥ تموز ١٠٩٩) فكللت بذلك جهود البابا . وإذا حدثت الحرب الصليبية الأولى وبلغت هدفها فذلك يرجع إلى اوربينو الثاني لأنه ارادها وبشر بها ونظمها ووجهها وكانت منذ العام ١٠٩٥ الفكرة المسيطرة عليه . هذا ولما كان الملك هنري الرابع وسائر ملوك الغرب بعيدين عن هذه الحركة فإن المجد

المنبعث عن الفوز كل الكنيسة الرومانية التي اصبحت عند حد تعبير الدبلوماسية الحبرية ، ام الأمم كما هي ام الكنائس .

وهكذا فإن اوربينو الثاني منح الكرمي الأقدس هيبة لم يعرفها من قبل ، ولكنه لم يعده إلى حظيرة السلام الذي كان ينشده ويسعى إليه منذ اعتلائه عرش البابوية ، وذلك لان هنري الرابع رفض الامتثال والخضوع ولم يشأ ان يتنازل عن مزاعمه القيصرية بل تعنت برأيه وظل يدعم عدو البابا ، ولذا فإن النزاع بين الكهنوت والامبراطورية مازال مستمراً .

نزاع التقليد العلماني والكنسي

في عهد هنري الخامس

١١٠٠ — ١١٢٥

انتخاب باسكال الثاني (١٣ آب ١٠٩٩) . — خلف اوربينو على كرمي البابوية الكاردينال رونيه الذي انتخب في ١٣ آب ١٠٩٩ بابا باسم باسكال الثاني

وكان هذا رجلا قديساً ومساعداً أميناً للباباوات الذي تعاقبوا على عرش البابوية في آخر القرن الحادي عشر . غير أنه لم يكن لديه من المؤهلات ما يجعله يقوم بالمهام الملقاة على عاتقه ، وليس له ذكاء سلفه، بل ان صفاته الاخلاقية خولته الوصول إلى منصبه . كان راهباً يرغب قبل كل شيء بظفر الاصلاح في الكنيسة ، ولكن ينقصه التبصر في الأمور وبعد النظر والحزم والمرونة التي ساعدت الحبرية السالفة على تحقيق كثير من الآمال .

ولم تمض سنة على وفاة اوربينو الثاني إلا وتبعتها وفاة كليمان الثالث (٨ ايلول ١١٠٠) . وحاول المنشقون في روما أن يكون خلفه تيبري سنت روفين ، إلا أن الأحناف قبضوا عليه وزجوه في دير كافا . وجرت محاولة مماثلة لصالح البرت أسقف سانت سابين ، إلا أنها باءت بالخيبة ، وتوطدت أخيراً وحدة الكنيسة .

وبدا الجو ملائماً للصلح بين الكهنوت والامبراطورية ، حتى ان هنري الرابع لم يفكر في انعاش الشقاق المحتضر . فمذ علم بموت كليمان الثالث عقد مجلساً في ماينس في عيد الميلاد حضره الأساقفة والأمراء وتم الاتفاق على ارسال وفد إلى روما « لتحقيق وحـــدة الكنيسة وإقامة بابا بانتخاب الرومانيين وجميع الكنائس » .

وهذه الأمنية تعرب عن رغبة الأساقفة والأمراء في السلام . غير أن هذه الرغبة لم تلق أي صدى في روما لأن باسكال الثاني كتب إلى جيبارد كونستانس في ١٨ كانون الثاني ١١٠١ أنه على غـــير استعداد للصلح على هذا الاساس. ولكن الا يتضمن قرار ماينس تجديد انتخاب البابا لاسيما وان الداعين لذلك هم مندوبو الامبراطور ولا يعتبر ذلك مناقضاً للمبادىء الغريغورية ! لقد كان من الممكن بقليل من الذكاء والحكمة والارادة الطيبة الوصول إلى إيجاد حل وسط شريف يعيد السلام والوئام بين الطرفين . غير أن باسكال الثاني عوضاً عن أن يجنح إلى هذا الحل المعقول رجح استثمار الصعوبات التي كان يتخبط بها هنري الرابع في ألمانيا من جراء ثورة الأمراء عليه واضطراره لمحاربتهم . يضاف إلى ذلك أن البابا شجع أعداء الامبراطور . ففي ٢١ كانون الثاني ١١٠٢ ، أي في الوقت الذي كان يستعد فيه هنري الرابع للهجوم على الفلاندر ، كتب إلى أمير هذه المقاطعة روبير فريزون ، بعد عودته من الحرب الصليبية ، يحثه

على ملاحقة هنري الرابع رأس الهراطقة ويؤكد له « ان لا أحب إلى الله من ذلك » . وبعد بضعة أسابيع أي في ١٢ آذار عقد مجمعاً في قصر لاتران ضم الاساقفة الايطاليين خاصة وجدد فيه الحرمان الذي يثقل الملك ، كما حكم في الوقت ذاته ببطلان التقليد العلماني . ولقد عزا بعض المؤرخين هذه الشدة والصرامة من قبل باسكال الثاني إلى الحقد الذي يكنه ضد المانيا . ولكن العوامل الدينية عند هذا الراهب تفوق المفاهيم السياسية ، وربما يكون الدافع إلى ذلك أن باسكال الثاني أراد أن يعرب لهنري الرابع عن إيمانه واخلاصه للمبادىء القانونية التي تفرض عليه التوبة النصوحة مقدمة لكل عفو .

وهكذا فسر هنري الرابع موقف البابا . وفي ٦ كانون الثاني ١١٠٣ ، وفي مجلس حضره كبار الشخصيات الكنسية والعلمانية ، أعلن بصورة صريحة عزمه على الذهاب إلى القدس ليرفع عنه طائلة الحرمان ويعيد السلام إلى ما كان عليه بين المملكة والكهنوت . ولكن هل في هذا الفعل ما يدل على أن الملك كان صادقاً خالص النية ؟ لاشيء يناقض هذه الفرضية ، غير أن خداع هنري الرابع المتكرر وتجارب الماضي فرضت على باسكال الثاني التعقل والحذر وجعلته يتريث ويلاحظ الحوادث عن كثب ، ويسجل الوعود التي قطعها الملك على نفسه بالخضوع والندم على مافعل ، والايبرم عفواً عاجلاً ، حتى يرى كل شيء قد تم كما أراد . هذا فضلاً عن أن الوضع كان يقتضي اتخاذ مثل هذه الحيطة لأن هنري الرابع لم يفعل شيئاً يدل على رغبته في مغادرة المملكة . فقد كان في آخر عـــام ١١٠٣ وأول ١١٠٤ مشغولاً في توطيد السلام في فلاندر وتهدئة الاضطراب في ساكس ، واقرار بعض الاساقفة في مراكزهم

وليس هنالك ما يجعلنا نتنبأ بحجه الى الديار المقدسة لاسيا وان ابنه هنري أعلن العصيان عليه فحال دون تحقيق هذا الحج الى الأبد .

أزمة الملكية في جرمانيا . — كان هنري الخامس يشترك في الحكم مع أبيه منذ (١٠٩٨) وقد توج وقدس في (١٠٩٩) ولكنه ظل مبعداً عن كل مساهمة فعلية في الحكم ، كان طموحاً ، مستبداً مجرداً من الوساوس ووخز الضمير ، لا يعرف كبحاً لجماح أهوائه ، تواقاً إلى الحكم. غادر البلاط سراً في ١٢ كانون الأول ١١٠٤ وجر في ركابه جميع المستائين من ساكسونيين وسؤابيين وبافاريين . ولم يكن أبوه أقل منه طموحاً وحرصاً على الملك . لقد كان الاثنان مفعمين بنفس الغرائز والاهواء ولذا كان الصراع بينهما شديداً ودام حتى الموت . وقد جعل هذا النزاع بين الأب وابنه موقف الكرسي الأقدس دقيقاً . ولا مشاحة في أن البابا يعتبر راعياً عاماً لجميع المؤمنين وضماناً للسلام المسيحي ، ولذا فهو لايستطيع أن يكون الا فوق جميع القضايا الشخصية ويعمل على تهدئة الخلاف . ولكن يجب أن نعترف بأن باسكال الثاني ، وان كانت نواياه على مثل ماذكرنا ، كان ، من الناحية العملية ، العوبة بيد هنري الخامس ، ولم يستطع الحفاظ على توازنه وتجرده فيقف محايداً بعيداً عن كل غرض .

ومن المنتظر في مثل هذا الخصام أن يبحث كل من الأب وابنه عن مساندة البابا له . وقد استطاع هنري الخامس أن يستثمر الحرمان الذي وقع فيه ابوه ليجمع حوله أنصار الكرسي الأقدس في ألمانيا . وما كاد يعلن العصيان حتى أرسل إلى روما وفداً ليرى رأي باسكال الثاني في صحة اليمين التي أقسمها من قبل إلى أبيه ، وصرح فوق ذلك بأنه لن يقبل بالمملكة إلا بعد رضى البابا . واستسلم باسكال الثاني لأقوال

هذا الشاب المخادع وأوقع نفسه في حبائل مكره . وعوضاً عن أن يحتفظ برصانته ويتخذ حيطته ويبقى سيد الموقف،ويعرض تحكيمه على الاثنين ، هنأ هنري الخامس على عواطفه وطاعته ووعده بالامبراطورية وأنعم عليه ببركتة الرسولية . وبفضل ذلك استطاع هنري الخامس أن يجلب اليه عطف الغريغوريين في ساكس وبافاريا ويتحمسوا له عن نية صافية . وظنوا أن ساعة التحرر قد حانت والتفوا حوله معلنين تأييدهم له .

أمام هذا الموقف لم يكن في وسع هنري الرابع الا أن اقترح على ابنه اقتسام المملكة ووعده أن يجعله خلفاً له . فأجاب هنري الخامس بلغة المرائي المخاتل ان القضية الهامة في هذا الحين هي ارجاع الوحدة في الكنيسة . وموقف باسكال الثاني جعل الملك الشيخ يخشى من أن يؤدي التسليم بلا قيـــد ولا شرط الى خلعه عن العرش . لذا رجح أن يجرب حظه بقوة السلاح وفي غرة آب ١١٠٥ غادر ماينس وانحدر نحو الجنوب وقابل جنود ابنه بالقرب من راتسبون . وحاول كل منهما اجتناب الحرب : كان هنري الرابع يريد السلام ، ولم يشأ هنري الخامس أن يدشن حكمه بسفك الدماء ، ولكنه أراد أن يأخذ أباه على حين غرة وبالخيانة . الا أن خطته هذه افتضح أمرها وفر هنري الرابع وعاد الى ماينس فتبعه ابنه وهدده بمغادرة المدينة حتى اضطر إلى النزوح عنها الى كولونيا . ودخل هنري الخامس ماينس ودعا الى عقد مجلس عام بحضور المفوضين الرسوليين جيارد كونستانس وريشار البانو ليعلن سقوط هنري الرابع . وخاف هذا مغبة الأمر فخرج من عزلته وقدم إستعداده للمثول أمام المجلس ليعلن خضوعه التام أمام ممثلي الكرسي الأقدس . وحاول هنري الخامس أن يحوله عن غايته فقبض عليه وأخذه أسيراً عنده وتم لهنري الخامس ما أراد . وحكم المجلس على هنري الرابع غيابياً وجدد

حرمانه واضطر طوعاً أو كرهاً الى التخلي عن شاراته الملكية . وتوج هنري الخامس ملكاً في ٥ كانون الثاني ١١٠٦ . وذهب وفد يطلب إلى البابا تأييد هذا الحكم الذي أعلن خلافاً للقواعد القانونية لأن المجلس رفض سماع المتهم .

وبينا كان هذا الوفد في طريقه إلى روما حاول هنري الرابع أن يستعيد تاجه . فمن قصر انجلهايم حيث كان أسيراً وجه إلى سكان كولونيا نداء حاراً ورجا اشبينه هوغ كلوني أن يتوسط لدى باسكال الثاني في العفو عنه ، كما حاول أن يفصل بعض الأساقفة والأدواق عن ابنه هنري الخامس . وجرت واقعة بين هذا وبين أنصار أبيه عند كولونيا اضطرته إلى القتال متراجعاً نحو اكس - لا - شابل . وعندما ظهر اشعاع الأمل بالنصر لقي هنري الرابع حتفه في ٧ آب ١١٠٦ بعد أن أنهكه التعب . وقد اعترف بجميع أخطائه إلى بوركارد أسقف منستر وكلفه أن يسلم خاتمه إلى ابنه . وهكذا انتهت أزمة الملكية في جرمانيا . غير أن البابوية سوف تلقى في المليك الجديد ، الذي خدمت مصالحه ، ألد أعدائها . وعاد النزاع بين الكهنوت والامبراطورية سيرته الاولى منذ العام ١١٠٧ .

باسكال الثاني والتقليد العلماني . - إن النزاع بين الكهنوت والامبراطورية لم يبد ، في هذه المرة ، في وجهه العام من حيث السيطرة على العالم ، بل ظهر في الناحية الخاصة منه وهي قضية التقليد . فمنذ العام ١١٠٢ ، كما رأينا في مجمع لاتران ، جدد باسكال الثاني التشريع الغريغوري . وبعد أن اعتلى هنري الخامس العرش عقد البابا في تشرين الاول ١١٠٦ في غواستالا في ايطاليا العليا مجمعاً آخر حضره معظم الأساقفة الايطاليين وكثير من الفرنسيين وبعض الألمانيين ، وأعلن في

هذا المجمع عفوه عن عدد عظيم من الأحبار المنشقين المنزهين عن السيمونية ثم حرم على الاكليركيين أن يتقلدوا مناصبهم الدينية من أيدي العلمانيين كما حرم على العلمانيين تخويل أي تقليد كنسي كان . وليؤيد قوله بالفعل حكم بخلع برون مطران تريف من منصبه لمخالفته المبادىء القانونية .

ومثل هذا الموقف له في المستقبل معناه الواضح ، لأن باسكال الثاني لم يفكر بالتخلي عن التشريع الغريغوري أو طرحه في زاوية المهملات ، إلا أنه كان على استعداد لدراسة هذه القضية التي تركت مجالاً للنقاش والجدل .

وكذا هنري الخامس ، أبدى رغبته ، قبل وفاة أبيه ، في التفاهم على هذا الموضوع . ولكن هذا لم يمنعه ، منذ تسلم السلطة ، أن يتصرف بالاسقفيات بجرأة فاضحة ، ولم يكن في وسع الكرسي الأقدس أن يغمض عينيه عليها . واذا كان قطع العلاقات بينهما محتماً إلا إذا أمكن الوصول الى حل وسط يوفق بين الطرفين .

النظرية الفرنسية في التقليد . — وفكرة التقارب بين وجهتي النظر وجدت منذ بضع سنوات . وقد نشأت في فرنسا حيث وجد حل لمشكلة التقليد ، وهذا الحل يصون سلامة المبادىء القانونية ولا يمسها ، ويخول في الوقت ذاته السلطة الزمنية بعض الامتيازات .

لقد كان التشريع الغريغوري يتمشى مع التعاليم الكنسية الصرفة وقد تجاوز روح النص فأقصى كل تدخل للملوك أو الأمراء في الانتخابات الاسقفية والغى كل رضى كان لهم في الماضي . ولكن الا يمكن ارجاع هذا الرضى للأمراء الزمنيين فيرتاحون له وتسوى الأمور ، ويوضع حد للخلاف ؟ هذه هي النظرية التي عرضها ايف اسقف شارتر في آخر حبرية اوربينو الثاني . يقول ايف : ان التقليد العلماني لا يخرق

القواعد الكنسية ما دام مطبقاً على الأموال المتعلقة بالأسقفية أو الأبوية . ومن الهرطقة أن يظن بأن هذا التقليد العلماني يخول أي سلطة كنسية . وبعد ألا يمكن أن يتحقق الاتفاق بين الكنيسة والدولة اذا قبل أن الملك يخول التقليد الزمني فيما يتعلق بالأراضي والواردات الأخرى ، دون أن يكون له دخل في الوظيفة الكنسية ؟ لاشك أن هذه النظرية جريئة وتذهب على خلاف جميع المفاهيم المرعية الاجراء التي تجعل الأسقفية كلًا لايقبل الانقسام ولا الانحلال . ومع هذا فان النظرية لاتخرج عن التعاليم الكنسية، بل انها كانت سهلة التطبيق، فموجبها يحتفظ الاكليروس والشعب بحق الانتخاب ، والمتروبوليت (المطران) بحق المباركة ، ويقتصر الملك على تسليم الأسقف ، الذي هو تابعه ، الأموال الخاصة بوظيفته . وثم الا يستطيع باسكال الثاني وهنري الخامس أن يتفاوضا على هذه الأسس ويصلا إلى تسوية تقبلها البابوية وترضى عنها الملكية الجرمانية !

وفي العام ١١٠٥ كان في عزم باسكال الثاني السفر إلى ألمانيا لتسوية قضية التقليد . وفي مجمع (غواستاللا) ألح الأساقفة على دعوة هنري الخامس فأجاب البابا بالتخلي عن هذا المشروع موقتاً بعد أن قبله في أول الأمر . على أن المؤرخ ايكوهار أورا الذي نأخذ عنه هذا الخبر ، ينسب عدول البابا عن رأيه ، إلى الخوف من الملك . ويحتمل على الأكثر أن باسكال الثاني أراد ، قبل البدء في مناقشة خطيرة من هذا النوع ، أن يؤمن لنفسه حلفاً ، ولهذا السبب نراه بعد مجمع غواستاللا يذهب إلى فرنسا . ونرى سوجر مؤلف « ترجمة حياة لويس السمين » يلح في كتابه على الضرورة التي وجد فيها البابا وأضطرته إلى مشاورة ملك فرنسا وابنه على اثر التعديات والمطاليب المتعلقة بالتقليد والتي أضناه بها الملك هنري . وكان

فيليب الأول ، ملك فرنسا، قد رفع عنه في العام ١١٠٤ قرار الحرمان الذي ناله بسبب اتصاله الحرام مع برتراد مونفور . وكان ابنه لويس يشترك بالسلطة مع أبيه ويستشير سوجر ، ويبدي نحو الكرسي الأقدس آيات الاحترام . ولذا كان من المناسب انتهاز مثل هـذه الفرصة والاستفادة منها .

وعندما وصل البابا إلى حدود الأراضي الملكية في شاريته على اللوار استقبلته باحترام رسل الملك وابنه ، ولكنه ، عوضاً عن أن يتجه إلى سان ـ دوني مباشرة حيث كانا ينتظرانه ، ذهب إلى شارتر وتحدث إلى الأسقف ايف ليأتيه بحل نهائي . ووصل البابا أخيراً إلى سن ـ دوني بعد عيد الفصح (١١٠٧) وفيها انحنى الملكان احتراماً أمام خليفة بطرس وطلب إليها أن يساعدا الحواري ونائبه كما فعل أسلافها . ولم تعرف على وجـه الصحة الأحاديث المتبادلة في هذا الاجتماع ، ولكننا نستخلص من حديث سوجر نتيجتين : **الأولى** ، أن وضع الكنيسة في فرنسا قد سوي في خطوطـه الكبرى طبقاً لأفكار ايف شارتر . **الثانية** ، أن الملكين وعدا باسكال الثاني بالمساعدة إذا مست الحاجة ضد هنري الخامس .

وبعد أن حصل باسكال الثاني على هذا الوعد اقترح على ملك جرمانيا أن يقابله على الحدود بين فرنسا وألمانيا . واكتفى هنري الخامس بأن أرسل إليه وفداً التقى به في شالون على المارن . وتتلخص نظرية هنري الخامس بضرورة أخذ موافقة الامبراطور قبل الانتخاب ، وإلزام المنتخب ، بعد التقديس ، بأن يرجو هـذا الامبراطور أن يقلده منصبه رامزاً اليه بالخاتم والعصا . فرفض باسكال الثاني رفضاً مطلقاً وقال : « إذا لم يكن باستطاعة الكنيسة أن تنتخب حبراً دون استشارة الأمبراطور ، فهذا يعني أنها كالرقيقة ملحقة به وان المسيح قد مات جزافاً . ان التقليد

بالخاتم والعصا ، وهما شيئان متعلقان بالمذبح ، إنما هو اعتداء على حقوق الاله نفسه » .

واصطدمت النظريتان بشدة ، ولم تتركا منفذاً للخلاف . وإذ أعلن هنري الخامس رأيه في التقليد بالعصا والخاتم وهما شارتا الوظيفة الكهنوتية فهذا يعني أنه يطالب بامتيازات روحية ليس في وسع البابا أن يوافقه عليها . يضاف إلى ذلك أن ممثليه ، عوضاً عن أن يناقشوا النظرية الحبرية ويبحثوا عن مجال للتفاهم ، انسحبوا وهم يهددون « ان الخصومة لاتنتهي هنا بل في روما » . وكان باسكال الثاني يرغب في السلام ، همه أن يمنع عن الكنيسة الرومانية المحن الدموية ، وحاول استئناف المفاوضات والتفاهم على هذه القضايا بلهجة هادئة متزنة ، ولكن دون جدوى .

وبينما كان المجلس منعقداً في شالون ، كان هنري الخامس يعمل على تعيين الأساقفة بنفسه ، وصمم على أن تظفر أفكاره بالقوة ، وكما أعلن مندوبوه ، أن ينهي في روما خلافه مع الكرسي الأقدس . ولكن الحالة في ألمانيا أخرت ثلاث سنوات تنفيذ هذه الخطة المرسومة .

ولم يجزع باسكال الثاني لما حدث بل انه في مجمع عقد في لاتران في ٧ آذار ١١١٠ ، جدد تحريم التقليد العلماني ، وحاول محاجو الامبراطور الاشادة بقوة حجج سيدهم معتمدين في ذلك على امتياز مزور لهادريان الأول ، فأجابهم لاهوتيو باسكال الثاني بالدفاع عن النظرية الغريغورية وذكروهم بان الامبراطور لايمكن أن يتصرف بالخاتم ، رمز الزواج الصوفي ، الذي يعقده الأسقف مع كنيسته يوم المباركة ، ولا بالعصا التي يقود بها قطيعه ، وليس هنالك مايدل على تساهل البابا أو تخليه عن أي شيء .

هنري الخامس في ايطاليا . — وعندما أمن هنري الخامس الحالة في ألمانيا

عبر جبال الألب بجيش من ثلاثين ألف رجـل ، ودخل ايطاليا فأحدث فيها الخوف والذعر ، وخضعت له المدن دون حرب ، وتوصل إلى طوسكانا دون أن تبدي الكونتس ماتيلد أي مقاومة . ومن آريزو أرسل وفداً الى باسكال الثاني . ولم يشك بالفوز بعد هذا الزحف الظافر ، فقد كان البابا منعزلاً لاحليف له في ايطاليا ، وبقيت الكونتس ماتيلد على الحياد ، وليس من السهل معرفة الأسباب الموجبة لذلك . وفي الجنوب كان روجه ، دوق بوي ، منهمكاً بالمصاعب الداخلية . وفي صقلية توفي الكونت روجه الأول وكان ابنه الحدث روجه الثاني تحت وصاية أمـه آديلائيد وليس له من القوة مايجعله يتدخل في نزاع الكهنوت والامبراطورية . وإذاً كان باستطاعة هنري الخامس أن ينفذ ببرودة الخطة التي وضعها قبل النزول إلى ايطاليا . وواصل زحفه على روما ووجه الى الرومانيين رسالة ، على نمط والده ، وأعرب عن عطفه ووعده بالسلام والعدل وأسفه على عدم تمكنه من زيارة المدينة الخالدة قبل هذا الحين . وأرسل في الوقت ذاته وفداً الى البابا . وفي ٤ شباط ١١١١ التقى برسل باسكال الثاني وانعقدت المحادثات فـوراً بين الطرفين . وعجب ممثلو الملك كيف أن الحبر الأعظم لايريد الاعتراف بالتقليد الملكي الذي قبل خلال ثلاث وستين حبرية ، وذكروا بإلحاح أن الأساقفة تناولوا من شارلومان وحلفائه كثيراً من الأراضي التي تبرر مزاعم المليك الجرمـاني فيما يتعلق بالانتخابات الأسقفية . فأجابهم رسل باسكال الثاني : اذا كانت هذه هي النظرية الملكية ، فان البابا على استعداد لتخلي الأساقفـــة عن جميـع الأراضـي والأموال والواردات وبكلمة مختصرة عن جميـع الحقوق الملكية (ريغاليا) التي يأخذونها من الأباطرة . وطمنهم الجانب الآخر أن هنري الخامس يتخلى بملء إرادته عن التقليد اذا بر باسكال الثاني بوعـده .

وهكذا أخذ النقاش اتجاهاً لم يكن منتظراً وادى الى الفصل الكلي بين الروحي والزمني ، كما بين ذلك الكاردينال دوسدودي في رسالته « في الرد على السيمونيين المعتدين » التي نشرها في عهد أوربينو الثاني وقال فيها ان هذا الحل هو خير وسيلة تعيد الأكليروس إلى مراعـــاة واجبه الكهنوتي بعد أن انصرف الى خدمة البلاط . ومثل هذا الحـل يعجب باسكال الثاني لأنه مأخوذ بمثل أعلى مسيحي ، غير أنه لا يوافق ملك جرمانيا ، لأن الاقطاعية الكنسية الخارجة عن قوانين الوراثة أدت له كثيراً من الخدمات منذ قرن ونصف ؛ ولا يوافـق الأساقفة الألمانيين الذين عينهم الملك وتوصلوا الى وظيفتهم بالحيـلة ، لأنها تجردهم من طيبات هـذا العالم وتحرمهم من حياة الزهو ، وتضطرهم الى العيش في ظل الفقر الانجيلي . ولا شك أن هذا الأختلاف في وجهة النظر يؤدي إلى سوء تفاهم . وقد شاء هنري الخامس أن يزيله في الساعة التي يختارها .

والمرجح في مثـل ذلك الحين أن يترك باسكال الثاني الطاهر القلب يضل في أوهامه . وعقد مندوبو هنري الخامس مع الرسل الحبريين العقد المعروف باسم **كونكوردات سوتري** ، ويبدو بشكل تصريحين : أحدهما من البابا ، والآخر من الملك . يتخلى الأول باسم الأساقفة عن الأموال الكنسية وعن جميع الريغاليا ؛ ويعـد الثاني بأن يعزف عن الانتخابات الأسقفية والتقليد . وبعد توقيـع هذا الاتفاق جاء هنري الخامس بنفسه الى سوتري . وفي ٩ شباط وافـــق على التعهدات التي قبلها الطرفان واشترط لقبولها أن يقبل بها الأساقفة الألمانيون . وهذه خيانة منه ومخاتلة . فقد كان واثقاً من أن هؤلاء سيثورون على البنود التي تضر بمصالحهم المادية ، وبذا يلتمس عذراً لفرض مزاعمه الخاصة .

وبعد أن تبودلت الايمان تهيأ هنري الخامس لدخول روما . وفي ١٢

شباط حلف على احترام الأعراف الرومانية ، وذهب الى كنيسة القديس بطرس ، كما هي العادة ، وأقسم اليمين ووعد أن يكون في المستقبل حامياً للبابا وصديقاً يدفع عن الكنيسة شر أعدائها . وبعد هــذا نادى به باسكال الثاني امبراطوراً وقاده الى داخل الكنيسة نحو مائدة البورفير المستديرة حيث تلي الدعاء الثاني لحفلة التتويج . وهنا أعرب البابا عن استعداده لتنفيذ الشق الأول من كونكوردات سوتري وسأل هنري الخامس عن عزمه في تنفيذ الشق الثاني . غير أن الملك ، عوضاً عن أن يجيب عن السؤال المطروح ، طلب الى البابا أن يعرفه بتصريحه الخاص . وهذا أقرب للمنطق، لأن التخلي عن التقليد ان هو الا نتيجة لتخلي الحبر الأعظم عن (ريغاليا) الكنائس . فقام باسكال الثاني بما طلب إليـه بكل طيب وقرأ امتيازاً مطابقاً لقرار سوتري عدد فيه المحاذير التي قد تلحق بالنظام الكنسي من جراء التمتـع بالاعراض المادية وأبدى رغبته بالرجوع إلى التقاليد الكنسية الحنيفة . وما كاد يتم كلامه إلا وأضطرب المجلس . أما هنري الخامس فقد ظل أميناً على موقفه الذي اتخذه في سوتري وطلب أن يجتمع باساقفة مملكته قبل أن يبدي استحسانه وموافقته . وأنقطعت طقوس التتويـج . وأنسحب الملك مع الأحبار ، ثم عاد وصرح أن مشروع البابا غير قابل للتطبيق وهرطقي من بعض وجوهه . فشده البابا وخارت قواه ورفض أن يتمم الاحتفال . وألـح هنري الخامس على أن يتمم ، وظـل الحبر الأعظم ممتنعاً ، فرأى هنري الخامس أن يستعمل القوة . وتناقلت الأفواه هذه الاخبار في المدينة ، وقامت على اثر ذلك مشادة ، وأعطى الملك أمره إلى الجنود أن يقبضوا على البابا ويأخذوه أسيراً مع الكرادلة ولم ينـج منهم إلا أسقفان اختبآ في مستشفى قريب من كنيسة القديس بطرس .

وهكذا آتت هــذه الجناية ، التي دبرها هنري الخامس ، أكلها

ولم يبق عليه إلا أن يستخلص منها النتائج الضرورية ويجبر باسكال الثاني بالقوة على قبول المزاعم الملكية . أما الرومانيون فلم يقفوا مكتوفي الأيدي ، بل انهم ثاروا ، وفي فجر يوم الاثنين هاجموا الالمانيين باندفاع زائد وأوشكوا أن يطردوهم من كنيسة القديس بطرس . وجرح هنري الخامس في وجهه وفقد رشده وكاد يودي لولا أن تداركه الكونت أوتون ميلانو وأعطاه فرسه الخاص . ورأى الجيش الالماني أن يترك الكنيسة ويتراجع إلى شمال التيبر نحو موقع حصين حيث يمكنه الهجوم بشروط حسنة . أما البابا فقد أجبره الملك على خلع لباسه الحبري وقاده إلى قصر تريبيكوم. وبعد بضعة أيام نقله إلى المعسكر الالماني ، وبينما كان الرومانيون مستمرين في دفاعهم المجيد والكردينال جان توسكولوم ينادي ويستغيث بالامراء المسيحيين عن غير جدوى ، كان باسكال الثاني البائس يضطهد ويوقع على الاعتراف بالتقليد العلماني . وخشي البابا مغبة المثابرة على المقاومة ، وربما أضرت بالمساجين والكنائس فاستسلم والالم والذل يحزان في نفسه ، وتفوه بهذه الكلمات البسيطة: العمل لتحرير الكنيسة، ووعد بأن يصرح بمرسوم علني أن للملك الحق بأن يخول التقليد الاساقفة والآباء المنتخبين دون سيمونية وبصورة حرة ولكن مع الموافقة الملكية . وفي ١١ نيسان تبودلت الايمان بين باسكال الثاني وهنري الخامس . **وحرر البابا لدى كاتب العدل امتيازاً يخول الملك تقليد الاسقفيات** . وبعد ذلك عاد إلى كنيسة القديس بطرس وانهى حفلة التتويج .

واذا لاحظنا هذه الوقائع المباشرة نجد أن امتياز باسكال الثاني يقضي بخراب الاصلاح الغريغوري وظفر النظرية الجرمانية ، أي ان هنري الخامس يتمتع بسلطة تقليد الاسقفيات والابويات بالعصا والخاتم في الروحي كما في الزمني . ثم ان انطواء البابا تحت هذه الضرورة القاسية التي المت به

وخضوعه للمطاليب الامبراطورية ، يعود بالكنيسة الى اسوأ الايام التي استبدت فيها القيصرية الامبراطورية بالبابوية ، أي الى العهد الذي كان هنري الثالث يفرض فيه ارادته السامية . ولكن الحوادث برهنت على ان شيئاً قد تغير منذ نصف قرن . لان الاكليروس الاعلى ، وقد نفخت فيه روح الاصلاح الغريغوري ، لم يكن على استعداد لقبول مثل هذا الاعتداء على استقلاله وحريته . فما كاد ينتشر خبر استسلام باسكال الثاني في ديار الغرب الا وتملكت الوجدان المسيحي هزة عنيفة تعالت معها اصوات الاحتجاج والاستياء بأشكال مختلفة ، ولكنها كلها ترمي الى هدف واحد . وعرف في كل مكان ان مستقبل الكنيسة في خطر ، وتوجب اكراه باسكال الثاني على العدول عن فعله والغاء الامتياز الذي انتزع منه بالقوة .

ظهرت هذه الحركة في أول الامر من ايطاليا وقد تعرضت لقضية التقليد العلماني بوضوح مع جميع النتائج التي تتعلق بها في الحالة الحاضرة. يقول القائمون على هذه الحركة : ان الكرسي الأقدس حكم بالبطلان مرات عديدة على التقليد العلماني . ولذا فإن كل من يخالف هذا التشريع هرطقي، وبالتالي إن امتياز (١٢ نيسان ١١١١) الذي هو نفي لهذا التشريع لا يمكن أن تقبله الكنيسة . إذن فالاسقفية الايطالية تريد الحفاظ على التشريع الغريغوري وتطلب من باسكال الثاني أن يؤيده بطرح التعهدات المخالفة له .

ولكن إذا طرح الاكليروس الايطالي امتياز ١٢ نيسان ولمح بأن البابا كان في وسعه أن يقاوم أكثر مما قاوم فلم يخرج عن سلطة باسكال الثاني . أما في فرنسا فإن المعارضة كانت عنيفة جداً ويمكن ايضاح ذلك بسهولة : إن الاحبار الفرنسيين لم يكونوا كزملائهم الايطاليين شهوداً عياناً للحوادث التي مرت في روما ولم تأخذهم رعشة في الخوف على وحدة

الكنيسة وعلى حياة قطيعهم ، ومن جهة أخرى كانوا متعلقين بالأفكار الغريغورية التي تأصلت جذورها فيهم بفضل المفوضين الحبريين وخاصة هوغ ليون ، ولذ فهم يحكمون على الحاله من وجهة نظر موضوعية وبسيطة دون أن يدركوا تعقدها وخطورتها ، ويأخذون على البابا ، بشدة جاهلة وجائرة ، تخليه عن شيء أساسي في المراسيم الغريغورية ، حتى ان احتجاجهم أوشك أن يكون عصياناً .

وجّه جوفروا أب فاندوم إلى باسكال الثاني رسالة قليلة الاحترام يذكره فيها أن سفينة بطرس لم تنج من الغرق إلا بقوة رُبّانها ، ولذا فهو يخشى من أن يرطم الخليفة الحالي للحواري بالصخور الزورق الذي حمل عليه يوذا الجديد . ويقول : « إن بطرس السعيد الذي كان في السابق يطوف فوق الامواج أليس هو الآن مغمور تحت هذه الأمواج؟» وزاد فطبق على باسكال الثاني قول داود ، مؤلف المزامير ، : «كلمات الصلاة تنفي الظلم والمكر » ولم يتردد في أن يؤكد أن هذا الحبر الأعظم ليس راعياً بل ذئباً يتغذى بدم شياهه أو « نبياً أفسده إبليس » ولذا لا يمكن التعلق به و « إغماض العينين عن كفره » . وذهب بعضهم إلى محاكمة البابا في مجمع يعقد في آنس على نهر الصون .

ولكن الا يؤدي مثل هذه الاقوال والأفعال إلى حدوث أزمة داخلية في الكنيسة قد تكون أشدّ وقعاً وأعظم خطراً من الأزمة التي أثارها طموح هنري الخامس !

وجنب الشقاق في الكنيسة بفضل ايف شارتر . فقد استطاع هذا الحبر أن يحكم الدراية والفطنة والدين الحنيف . وعندما دعي إلى مجمع آنس رفض الذهاب وأظهر حيطته وكتب إلى جوسران ليون الداعي لهذا المجمع يقول : « ألم يجحد بطرس سيده ثلاث مرات . إن هذا لم يمنع من

بقائه رسولاً ومكلفاً بادارة الكنيسة ؟ » . ومن جهة أخرى ، ان باسكال الثاني انصاع للاكراه ولذا فات موافقته على التقليد العلماني لاقيمة لها ولن يألو جهداً ، متى استعاد حريتـــه ، أن يذيع المذهب الصحيح . وقد ذكّر ايف شارتر بالصفات الأساسية لهذا المذهب ليزيل كل التباس وسوء تفاهم بقوله : إن التقليد العلماني لا يكون هرطقة ما دام الملك أو الأمير الذي يخوله لا يتملكه جنون الارادة فينقل الروح القدس وحقيقة السر .

وبفضل ايف شارتر هدأت المعارضة ولم تتحول إلى ثورة وتابع الجميع المبدأ الغريغوري الذي لا يخول أحداً محاكمة الحبر الروماني . ولم يبق من حوادث (١١١١) إلا حركة عفوية إجمالية ، حارة ، مستاءة تريد الحفاظ على التشريع الذي أملاه غريغوار السابع ، حتى ان هذه الحركة امتدت إلى المانيا حيث غادر كونراد مطران سالزبورغ البلاط الملكي وحاول آدالبرت المستشار ، دون كبير نجاح ، أن يرد مليكه ويرجعه إلى لزوم الاعتدال .

أمام هذه المعارضة التي ارتفعت من كل مكان فكر باسكال الثاني بتقويم الحال . ورسائله في صيف وخريف (١١١١) تدل على نفس حزينة قلقة تشكو مرارة الشدة التي أثقلت كاهله ، ولم يكن له من هم سوى خير المؤمنين . حاول أن يستعطف الامبراطور وبين له أن الاتهامات الموجهة اليه بما يحمر لها وجهه . ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، ولم ير اذناً صاغية لما يطلب ولذا صار إلى النزول عند الرجاء الذي كان ينصب عليه من كل حدب وصوب وخاصة من جهة ايف شارتر . وسعى هذا الاسقف بما أوتيه من لباقة ان ينير ظلمات هذا البابا الطيب ويهدىء

من روعه ويعيد اليه الثقة بنفسه . وهكذا نرى أن باسكال الثاني في آخر عام ١١١١ يتخذ وضعاً جديداً ويكتب إلى إيف شارتر معترفاً انه لم يذعن إلا بحكم الاكراه والقوة . وفي كتاب آخر وجهه إلى غي فيينّا (في فرنسا) أعلن عن نيته في الغاء الامتياز الذي منحه لهنري الخامس .

وفي ١٨ آذار ١١١٢ افتتح مجمع في لاتران حضره أكثر من مائة أسقف وعرضت فيه تفاصيل الحوادث التي وقعت في شباط — نيسان (١١١١) فانقشعت غيوم الشك . وأراد الحاضرون أن يسكنوا وساوس باسكال الثاني لأنه لم يشأ أن يحنث بيمينه بعد أن أقسم بالا يحرم هنري الخامس ، وتبنوا الأصول الذي وضعه جيرارد أنغوليم . وفي ٢٣ آذار أعلن البابا أمام المجمع بأنه يتمسك بالكتاب المقدس وقوانين الرسل وقوانين المجامع الدينية العامة الأربعة : نيقية ، القسطنطينية ، أفسوس ، خالقيدونية ، ومراسيم الباباوات وخاصة مراسيم غريغوار السابع وأوربينو الثاني . ويمدح ما مدحوه ، ويطرح ما أطرحوه ، ويدافع عما دافعوا عنه ، ويحرم ما حرموه . وطبقاً لهذا التصريح ألغى الامتياز الذي اغتصبه هنري الخامس بالقوة .

وعاد على هذا النحو الاصلاح الغريغوري بارادة الكرسي الأقدس والأسقفية : غير أن هذا الحل المتزن المعقول لم يرض عنه بعض الأحبار المتطرفين وعدوه غير كاف . فمن ذلك أن غي مطران فيينا عقد في مدينته مجمعاً في ١٦ أيلول ١١١٢ وأعلن أن التقليد العلماني هرطقة وحرم هنري الخامس ثم طلب إلى باسكال الثاني أن يصادق على هذه القرارات فأوقع البابا في مشكلة عويصة ، لأن السياسة الحبرية تريد أن تتجنب كل ما يدعو إلى اثارة هنري الخامس . وبعد أن اختتم مجمع لاتران جلساته أرسل

جيرارد انغوليم بمهمة إلى البلاط الجرماني ليطلعه على القوانين الرومانية . ورغم ضجة الحقد التي قامت حول الامبراطور لم يجرأ على معاملة المفوض الرسولي معاملة سيئة كما فعل ذلك في العام المنصرم مع البابا . ولذا فإن موافقة البابا على مقررات مجمع فيينا وحرمان هنري الخامس مما يبعث الخلاف ويثير الانتقام .

وليسكت باسكال الثاني الاهواء المتطرفة أيد بشكل غامض مبهم مقررات فيينا (٢٠ تشرين الأول ١١١٢) وتجنب حرمان هنري الخامس والقى عليه مسؤولية كل اكراه جديد يقع في المستقبل . وبعد مجمع لاتران (آذار ١١١٢) رجا أنصار الامبراطور في إيطاليا أن يعود دون إبطاء إلى شبه الجزيرة لأن حضوره فيها يستوجب ذلك . غير أن الحالة العامة في ألمانيا حالت خلال أربع سنوات دون إجابة هنري الخامس هذا النداء . ووقفت خلالها في وجهه جميع ألمانيا الكنسية والعلمانية . غير أنه لم يفقد ثقته بنفسه وبامكانياته .

وفي آب ١١١٥ قدم عليه وفد يحمل اليه نبأ وفاة الكونتيس ماتيلد. ولا شك في أن ارملة غودفروا اللورين قد وهبت دولها إلى الكرسي الأقدس مرتين : الاولى عام ١٠٨٠ ؛ والثانية عام ١١٠٢ ، غير أنها في آخر حياتها تقربت من هنري الخامس واجتمعت به في بيانللو عام (١١١١) حين عودته إلى المانيا . وكان للامبراطور انصار في طوسكانا فنصحوه الا يتأخر ويأتي ويضع يده على الارث لا سيما وانه لم يكن في وسع البابا ان ينازعه عليها . لقد كانت هذه الدعوة مغرية . ولكن يجب تأمين الهدوء في المانيا اثناء غيابه في إيطاليا ، وإذا أمكن في نفس الوقت ، المصالحة مع الكرسي الاقدس . ولذا دعا هنري الخامس الأمراء إلى ماينس في أول تشرين الثاني واعلمهم ببرنامج إصلاحي أملاً في أن يساعد تطبيقه

على إصلاح الأخطاء السابقة . ولكن لم يأت أحـــد إلى الاجتماع . ودعا مجلساً آخر في سبير في ١٠ كانون الأول فلم يضم سوى بضعة أساقفة وعلمانيين لا شأن لهم . وحل ٢ كانون الثـاني ١١١٦ والامبراطور في سبير قلق ، متردد ، حائر في الطريق الواجب اتباعها : فهل يجب إرجاء السفر إلى إيطاليا والقضاء أولاً على المعارضة الألمانية ، أو على العكس الذهاب إلى شبه الجزيرة وتوطيد النفوذ الامبراطوري ليفسد خطط الخصوم ويفاوض في السلام مع البابا ؟ وبعد أن تردد في ايها يأخذ عزم على النزول إلى إيطاليا وبعث إلى باسكال الثاني بونس أب كلوني بمهمة قبله وانحدر في طريقه الى ايطاليا . وليبرهن على حسن نواياه المسالمة لم يصطحب معه الا لفيفاً من الأساقفة والأمراء . وبعد أن استملك ارث ماتيلد زار دوله الجديدة ولم يلق فيها أي مقاومة تذكر . وهكذا تحقق حلم أبيه وحلم أجداده من قبل ووقعت ايطاليا الشمالية والوسطى تحت سيطرة النفوذ الجرماني .

ولم يبق عليه الآن إلا أن يحصل بأقرب وقت ممكن من باسكال الثاني على تسوية لاتمس المزاعم الامبراطورية ولو أدى الأمر إلى التنازل عن بعض الامتيازات الشكلية . غير أن البابا ، وقد اشتدت عضده في هذه المرة بمناصرة الكنيسةله ، لم يكن على استعداد للتنازل عن امتيازات مضادة للحق القانوني . وفي ٦ آذار أي في الوقت الذي دخل فيه هنري الخامس ايطاليا عقد مجمعاً في لاتران وأيد التشريع الغريغوري في التقليد. وفي خلال الدورات التالية ألح بعض الأساقفة على الحبر الروماني أن يحرم الامبراطور . إلا أن باسكال الثاني بقي مصراً على موقفه وتحرزه ، واكتفى بأن أجابهم بلباقة واكتفوا بهذا الجواب الغامض .

وعندما اقترب هنري الخامس من روما رأى باسكال الثاني أن يغادرها ، معتبراً بتجارب الماضي ، إلى بينيفن . كما أن حالة روما كانت تقتضي هذا الرحيل . فقد توفي محافظ روما وأراد البابا أن يكون خلفه من خلصائه ، إلا أن حركة شعبية قامت ضد مرشحه وأقيم ابن المتوفى رغماً عنه . وفي مثل هذه الشروط كان من الأفضل أن يبتعد عن روما .

ودخل هنري الخامس روما دون صعوبة ، وعلى ما يبدو ، أنها استقبلته ببرودة ، وأراد مقابلة البابا فأجابه بالرفض . ثم قفل راجعاً ، وبينا كان يبتعد عن روما كان باسكال الثاني يقترب منها ودخلها في ١٤ كانون الثاني ١١١٨ ، وبعد بضعة أيام خلت توفي فيها (في ٢١ كانون الثاني ١١١٨) وخلف وراءه شهرة الحبر العادل الصالح وإن لم يكن حاذقاً دوماً .

انتخاب جيلاز الثاني . — وبعد ثلاثة أيام من وفاته اقترح الكرادلة أن يكون خلفه جان غايت مستشار الكنيسة الرومانية ومساعد اوربينو الثاني وباسكال الثاني . ثم نودي به بابا من قبل الاكليروس والشعب وسمي جيلاز الثاني .

لقد كان هذا الانتخاب موفقاً من عدة وجوه . لأن جيلاز الثاني يجمع إلى تقواه المثالية وأخلاقه الكريمة قوة العزم التي تنقص باسكال الثاني ، وقد أبدى ذلك منذ تسنمه عرش البابوية رغم الظروف الحرجة التي أحاطت به . فما كاد الانتخاب يتم إلا واقتحم تشانتشيوس فرانجيباني أبواب الكنيسة التي جرى فيها الانتخاب وأمسك بتلابيب البابا وضربه ضرباً مبرحاً وقاده إلى السجن . وأثار هذا الاعتداء استياء الجمهور فطالب فرانجيباني بتحرير أسيره . وعندها فك عقال جيلاز الثاني وذهب إلى قصر لاتران . ولما علم هنري الخامس بوفاة باسكال الثاني اقترب من روما

ودخلها على حين غرة . ولم يكن من البابا إلا أن غادرها إلى غايبت التي نشأ فيها ، حيث لاخوف عليه .

وخاب أمل هنري الخامس وأخذ يخيف جيلاز الثاني وهدده بالعودة إلى روما ليقيم له الاحتفال الديني ، وزاد بأنه سيعين بنفسه بابا إذا لم يطعه منتخب الكرادلة . وقبل جيلاز الثاني هذا التحدي لأنه يعلم أن الكنيسة وراءه تدعمه ، وأن عدو البابا سيكون سخرية الجميع . ولذا رد عرض هنري الخامس واكتفى بأن بين عزمه على عقد مجمع في ميلانو أو كريمون حيث يسعى إلى حسم الخلاف الذي أمتد طويلًا بين الكهنوت والامبراطورية . وبقي هنري الخامس متعنتاً ثم انتخب بوردن مطران براغا (في البرتغال) ونادى به ، على سبيل التهكم ، بابا باسم **غريغوار الثامن** (٨ آذار ١١١٨) .

لم يضطرب جيلاز الثاني وكتب إلى اكليروس وشعب روما يطمنهم في عواطفهم ، وإلى مؤمني فرنسا مبيناً لهم عيوب البابا الامبراطوري . وفي كابو في ٧ نيسان أعلن حرمانه لهنري الخامس وغريغوار الثامن وكلف من ينقل هذا الحكم الى المانيا . وخاف هنري الخامس أن يفقد ملكه فبادر إلى مغادرة ايطاليا (حزيران ١١١٨) دون أن يكترث بغريغوار الثامن المنكود الحظ الذي جلا عن روما بينا دخلها جيلاز الثاني في (٥ تموز ١١١٨) .

وإذاً فقد باءت بالفشل حملة هنري الخامس الثانية على ايطاليا . وإذا سمحت للامبراطور احتلال أملاك الكونتس ماتيلد إلا أنها لم تؤيد الحل الامبراطوري في الخلاف الذي يقسم الكهنوت والامبراطورية . كما أن هنري الخامس لم يحصل على سحب التدابير التي الغت امتياز (١١١١) ولا على تخلي باسكال الثاني وجيلاز الثاني عن المبادىء الغريغورية . وبعد الا يكون من المعقول أن يصار إلى فكرة حل وسط شبيه بالحل الذي تبنته

فرنسا بتأثير ايف شارتر منذ بضع سنوات خلت ؟ لقد وجد الحل ولكن يجب أن تمر ثلاث سنوات أخرى ليقبل كل من الطرفين التخلي عن نظريته المتطرفة ويرجح الوئام على الخصام .

ولكن يجب أن نقول انه لو لم تكن هنالك رغبة حقيقية في الصلح من كلا الطرفين ، لما تمكن كل من البابا والامبراطور من الوصول إلى الغاية المنشودة . فمذ أعتلى جيلاز الثاني عرش البابوية رأى أن الصلح غير ممكن ما لم يكن هنالك وساطة بينه وبين الامبراطور . وقد حدثت في روما مشادة (في ٢١ تموز ١١١٨) ورأى البابا أن يغادرها في (٢ ايلول ١١١٨) واتجه في هذه المرة نحو فرنسا عوضاً عن أن يبحث عن ملجأ في ايطاليا الجنوبية . لأن الملك لويس السادس ما زال يبدي حيال الكرسي الأقدس آيات العطف والاحترام ، ومازال نظام التقليد ، الذي امتدحه ايف شارتر ، مرعي الاجراء في دوله برضى الطرفين .

وما وصل البابا كلوني إلا ووافته المنية في (٢٩ كانون الثاني ١١١٩) . وموت جيلاز الثاني بعيداً عن روما ، والكرادلة مبعثرون ، كل ذلك من شأنه أن يخلق شتى الصعوبات في انتخاب خلفه . غير أن كونون برينست ولامبرت أوستي اللذين وجدا على فراش الحبر عند وفاته ، أخذا عاتقهما تعيين البابا الجديد على أن يصادق على اختيارهما بطرس أسقف بورتو الذي بقي في روما ليمثل البابا جيلاز الثاني في غيابه . ثم يلجأ بعد ذلك بواسطته إلى الحصول على موافقة الاكليروس والشعب .فانتخبا (غي) مطران فيينا ، وأحاطا روما علماً بهذا الانتخاب في (١ آذار ١١١٩) . ثم نودي بغي بابا باسم كاليكست الثاني في كنيسة القديس يوحنا المعمدان . في قصر لاتران .

كاليكست الثاني . — ولم تنتظر نتيجة المشاورة ، وجرت حفلة التتويج في كاتدرائية فيينّا ، وتسلم كاليكست الثاني حكم الكنيسة . ينتسب كاليكست إلى أسرة كونتات قديمة في بورغونيا ويمت بصلة القرابة إلى الامبراطور . أصبح مطراناً منذ ١٠٨٨ واشترك بجميع الحوادث التي رافقت أزمة (١١١١) فاكتسب بذلك حنكة التجربة وخبرة السلطة . ورغم أنه تتلمذ على هوغ ليون وميوله المتطرفة ، إلا أن لديه من المرونة والحس المسيحي الذي يجعله يتطور ، إذا مست الضرورة ، نحو المفاهيم المعتدلة . وكانت فكرته عند اعتلاء عرش البابوية أن يفاوض في صلح شريف بين الكهنوت والامبراطورية ، ويريد كسلفه الاعتماد على فرنسا . ولذا فان المقابلة التي أرادها جيلاز الثاني مع لويس السادس ستتم وتتبع في ١٨ تشرين الأول بجمع في رنس يدعى اليه الأساقفة الألمانيون .

ألمانيا بعد عودة هنري الخامس . — وجعلت حالة ألمانيا العامة الامبراطور يجنح إلى الصلح مع الكرسي الأقدس . فقد وجد أن الوضع مضطرب بعد أن عاد من ايطاليا . فما فتئت ساكس في غيابه ثائرة ، والحدود الشرقية غير مستقرة أمام هجمات الهونغاريين ، والكنيسة الألمانية التي تأصلت فيها روح الاصلاح الغريغوري في نزاع مع الامبراطور فيما يتعلق بقضية الانتخابات الأسقفية ، وكل فريق يريد فرض وجهة نظره على الآخر ، والاكليروس الأعلى كان يناصر كاليكست الثاني ويتكيف حسب النظام الروماني . إن كل ذلك جعل الامبراطور يفكر في الصلح . ودعا الأمراء الألمانيين إلى مجلس يعقد في ٢٤ حزيران في منطقة ماينس للبحث عن الوسائل التي يمكن أن يعود بها الوفاق بينه وبين رعيته من من جهة ، ومع الكنيسة من جهة أخرى . وأمام هذا الاستعداد

الذي أبداه الامبراطور ، رأى الأمراء ألا يمتنعوا عن الحضور كما في السنوات السابقة ، ولبوا نداء مليكهم وأسفر الاجتماع عن نتائج طيبة . فقد اتفق كل من الطرفين على أن يعيد الأراضي التي استولى عليها أثناء الحرب الأهلية . وأظهر الجميع رغبة في السلام الديني . وبحضور مفوضي كاليكست الثاني الذين أتوا ليعلموا البلاط الجرماني بالبابا الجديد ، تقرر ارجاء كل قرار إلى انعقاد مجمع رنس . وبالاجمال فان هنري الخامس أبدى استعداده للمفاوضة وأصبح التماس ممكناً بين الطرفين .

وفي هذه الأثناء كان كاليكست الثاني يتابع تحقيق برنامجه . ففي ايتامب تقابل مع لويس السادس . وبنتيجة هذه المقابلة أرسل إلى هنري الخامس وفداً مؤلفاً من بونس أب كلوني وغليوم شامبو أسقف شالون على المارن . وكان انتخاب هذين المفوضين الفرنسيين موفقاً لاسيما وانه وجد في المملكة الكابسية حل وسط لقضية التقليد ، ومن الممكن أن يتبنى هذا الحل في ألمانيا . والتقى بونس وغليوم بهنري الخامس في ستراسبورغ وبين الأسقف حسنات النظام الفرنسي بقوله « يا صاحب الجلالة ، إذا أردتم صلحاً حقيقياً وجب أن تتخلوا عن تقليد الأسقفيات والابويات . ولتطمئنوا بان سلطتكم الملكية لن ينالها أقل نقص فانى أعلمكم باني ، عندما انتخبت أسقفاً في فرنسا ، لم أتسلم شيئاً من الملك لاقبل المباركة ولا بعدها . ومع هذا فاني أؤدي له الضرائب وأقوم بالخدمة العسكرية وسائر الحقوق الأخرى الخاصة بالدولة ، وأخدمه بأمانة كما يخدمكم أساقفتكم في مملكتكم بموجب التقليد الذي تسلموه منكم وجر عليكم الحرمان » . فأجاب هنري الخامس بأنه لا يرغب في شيء سوى الولاء الاقطاعي ، وأختتم غليوم كلامه بانه مادامت هذه رغبة الملك فان الخلاف سهل الحل .

وأتى غليوم شامبو إلى باريس حيث التقى بكاليكست الثاني وقص عليه نتائج مهمته ، فسر الحبر الأعظم لذلك وأرسل الى الامبراطور مندوبين لوضع مشروع معاهدة . والتقى المفوضان بهنري الخامس بين متزو فردن . وجددت وعود ستراسبورغ . وتقرر باتفاق تام على مقابلة بين البابا والامبراطور في موزون في ٢٤ تشرين الأول ، ووقع الجانبان التصريح الآتي : يتخلى هنري الخامس عن كل تقليد في الكنائس ويضمن الصلح لخصومه ويعدهم بالمساعدة على استرجاع أموالهم ؛ وكذا كاليكست الثاني من جهته ، يقسم اليمين على الصلح ويتعهد بأن يعيد لانصار الامبراطور مالهم .

وفي غضون ذلك كان البابا كاليكست الثاني في طريقه الى رنس يصحبه الملك لويس السادس . وقد افتتح المجمع في ١٨ تشرين الأول ١١١٩ بحضور ثلاثة عشر مطراناً وثلاثة وستين أسقفاً وأكثرهم فرنسيون وايطاليون وألمانيون مع بعض الاسبانيين والانكليز . ثم ان البابا ترك المجلس يبحث في القضايا الكنسية وفي الدعوى التي أقامتها دوقة اكيتانيا هيلدوغارد على زوجها المتقلب غليوم التاسع ، ومن ثم ذهب الى موزون حيث كان هنري الخامس بانتظاره .

جاء هنري الخامس الى موزون يصحبه ثلاثون الف رجل ، فأحدثت رؤيتهم في نفس البابا انطباعاً سيئاً لاسيما وان ذكرى حوادث روما عام ١١١١ مازالت حية في ذهنه . وأشارت حاشية البابا أن تجري المفاوضة بواسطة مندوبين عنه في أول الأمر على أن يذهب الى قصر موزون التابع لمطران رنس لينظر سير المفاوضات عن كثب . وذهب غليوم شامبو مكانه ليقترح بعض التعديلات الأولى على التصريح الآنف الذكر .

ان نص التصريح الجديد غير معروف وكل مانعلمه أن الايضاحات

التي طلبها البابا كاليكست الثاني كانت ترمي الى أن الامبراطور ، بتخليه عن التقليد ، لايمكنه أن ينتزع من الأساقفة اقطاعات الامبراطورية ، وان الصلح الذي وافق عليه البابا لايتضمن بقاء الأحبار ، الذين عينهم هنري الخامس بصورة غير قانونية ، في مراكزهم .

وهذه التعديلات وإن كانت شرعية في ذاتها ، إلا أن محذورها هو إعادة البحث في نصوص اتفق عليها من قبل . وأبدى غليوم شامبو مهارة قوية ولكن هنري الخامس عرض بأنه لم يعد بما ورد في النص الجديد وألح على نوايا البابا الطيبة عندما قبل أن الأساقفة ، بعد الاتفاق ، يجب أن يخضعوا كأسلافهم إلى نفس الالتزامات الاقطاعية . ثم طلب هنري الخامس منحه مهلة للتحدث إلى الأمراء ، وما مضت هذه المهلة إلا وطلب أخرى فرفض غليوم . وانقطعت المفاوضات . وأعلم كاليكست الثاني الامبراطور بأنه ترك المجمع العام وأتى لمقابلته حباً في السلام ، ولذا فهو لايستطيع أن يترك قضـــايا الكنيسة معلقة طويلاً كما أنـه على أتم الاستعداد لاستقبال الملك .

وانقطاع المفاوضات في موزون كان له صداه المؤسف في ألمانيا حيث ينتظر الصلح بفارغ الصبر . وبمـــا أن هنري الخامس أبدى في اجتماع حزيران ١١١٩ استعداده للصلح ، وعرف عن كاليكست الثاني أنه يحمل وراءه ماضياً ثقيلاً ومتطرفاً ، لذا فقد ألقيت مسؤولية انقطاع المفاوضات على عاتق البابا لاسيما وانه ، قبل أن يغادر رنس ، حكم بالحرمان على هنري الخامس وعدو البابا غريغوار الثامن . ونرى أن تغيراً حدث في ألمانيا لصالح هنري الخامس في آخر عام ١١١٩ وأول ١١٢٠ . ولم يبق سوى الأساقفة الرينانيين والساكسونيين محافظين على موقفهم . وأوشكت الوحدة أن تتم حول الامبراطور ، لولا أنه أساء التصرف فبعث الخلاف

بينه وبين الأمراء من جديد . وجرت بينه وبينهم مواقع دامية ، ولكن ظهر فيها أن ألمانيا ملت الدماء . هذا ولما كان الصلح الديني ضماناً للصلح المدني ، لذا وجب استئناف المفاوضات للوصول إلى تفاهم ضروري بين الكهنوت والامبراطورية .

وتقرر أن يسمى من كل معسكر إثنا عشر وسيطاً على أن تدرس مقترحاتهم في مجلس يجتمع في فورتزبورغ في ٢٩ ايلول ١١٢١ . وقد اجتمع هذا المجلس في التاريخ المحدد وقرر الصلح العام في جميع ألمانيا تحت طائلة الموت ، ثم أعيدت إلى الامبراطور أراضيه وإلى الكنيسة أموالها ، وبعد أن شكا المجتمعون فداحة الحرمان الذي أثقل هنري الخامس اتفقوا على أن يبعثوا إلى البـابا أسقف سبير وأب فولدا ليبلغاه نتائج الاجتماع ويطلبا اليه عقد مجمع ديني عام « حيث تفصل الروح القدس فيما لم يستطع النـاس التوصل إلى حله » . ونالت المقررات موافقة هنري الخامس : وهذا يعني أن الامبراطور يعترف بسلطة الحبر الروماني السامية الذي أصبح يحمل بين يديه مقدرات البلاد المسيحية بأجمعها .

وبعد أن اختتمت دورات مجمع رنس أقـام كاليكست الثاني بعض الزمن في فرنسا ثم عاد إلى إيطاليـا في أول عام ١١٢٠ ودخـل روما في ٣ حزيران واستقبله فيها ممثله بطرس كاردينال أسقف بورتو والمحافظ بطرس وممثلا الأسرتين الشريفتين فرانجيباني وكولونا وقد نسيا أحقادهما القديمة وجعلا يتنافسان بالهتـافات . وأصبح البابا على هـذا النحو يتمتع بقوة حقيقية . واستطاع دون صعوبة أن يقبض على عدو البابا غريغوار الثامن الذي التجأ الى سوتري ويبعث به الى أبوية كافا . وانتهى الشقاق بهذا الشكل ولم يبد هنري الخامس أي رغبة باعادة غريغوار الثامن .

المفاوضات بين كاليكست الثاني وهنري الخامس . — وصل مندوبو هنري الخامس في أول عام ١١٢٢ ، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء المندوبون قد أتوا الى البابا بجميع الضمانات الضرورية لأن كاليكست الثاني كتب في ١٩ شباط الى الامبراطور كتاباً ملؤه الحنان والعطف وكلف آزون أسقف أكوي أن يحمله اليه . وانتخاب هذا الرسول المخلص لهنري الخامس يدل أيضاً على كرم فعال الحبر الاعظم . وبعد ذلك بقليل سافر ثلاثة كرادلة الى ألمانيا . وعوضاً عن أن تفتتح المفاوضات في ماينس كما كان مقرراً ، نقلت الى فورمز ودارت في جو هادىء بعيد عن مدينة المطران أدالبرت الذي ما زال يحقد على الامبراطور .

ولا تعلم على وجه الصحة تفاصيل هذه المفاوضات . والوثيقة الوحيدة الواضحة عنها هي كتاب أرسله المطران ادالبرت الى كاليكست الثاني . ولكن هذه الوثيقة من خصم يحقد على هنري الخامس ليس لها تلك السلطة التي منحها اياها بعض المؤرخين ، لذا يجب الاكتفاء بقول المؤرخ ايكوهار دورا الغامض وهو أن المفاوضات سارت بعناية دقيقة وانتهت في ٢٣ ايلول ١١٢٢ الى حل وسط عرف باسم كونكوردات فورمز .

كونكوردات فورمز (١٣ ايلول ١١٢٢) . — تتألف هذه الكونكوردات من تصريحين : احدهما من الامبراطور ، والآخر من البابا . « يدع هنري الخامس الى الله ورسوليه القديسين بطرس وبولس والى الكنيسة المقدسة كل تقليد بالخاتم والعصا » ؛ ويعد بأن تكون الانتخابات حرة ؛ ويتعهد بأن يرد الى الكرسي الأقدس الأموال والريغاليا التي في سلطته ، ويضمن الصلح الصادق الى كاليكست الثاني وأنصاره . ويسمح البابا ، من جانبه ، أن تجري الانتخابات الأسقفية والأبوية بحضور الامبراطور « دون سيمونية ودون أي اكراه » ؛ ويرضى في حالة

النزاع أن يعطي الامبراطور ، بمساعدة المتروبوليت ، « موافقته ومعونته الى من هو أصلح للمنصب ؛ ويقبل أن يتسلم المنتخب بالصولجان « الريغاليا » الا ما كان خاصاً بالكنيسة الرومانية ، ويقوم بالواجبات التي تقتضيها ؛ وبالمقابل يضمن الصلح للامبراطور والى جميع من حاربوا الى جانبه .

وبعد أن وقع الامبراطور والمندوبون الحبريون هذين التصريحين أقام الكردينال لامبرت أسقف أوستي قداساً رسمياً ، وفي ختامه قبل هنري الخامس قبلة الصلح وناوله بيديه . وأعيد الامبراطور إلى حضن الكنيسة دون أي توبة ، وفي ذلك دليل على كرم كاليكست الثاني وحسن التفاته . وقد تجلى ذلك منه أيضاً في رسالته، المؤرخة في ١٣ كانون الأول ١١٢٢ ، التي أظهر فيها إلى هنري الخامس فرحه بهذه الخاتمة السعيدة للمفاوضات .

خصائص كونكوردات فورمز . — وبعد فهل يحق للبابوية أن تفرح على هذا النحو وترى في كونكوردات فورفر ظفراً لجميع المزاعم التي رسمتها منذ حبرية غريغوار السابع ؟ قد يكون من الضلال القول بهذا ، كذلك لا يمكن أن نرى في هذه الكونكوردات ظفراً للنظرية الامبراطورية . ومن الملاحظ أن الكونكوردات لم تتعرض لقضية « السيطرة على العالم » الخطيرة ، لأن البابا لم يتخل أبداً عن الحق الذي طالب به غريغوار السابع في مراقبة أعمال الملوك وكذا الامبراطور لم ينحن أمام تفوق الكرسي الأقدس . وظلت التيوقراطية الرومانية والقيصرية البابوية الامبراطورية على استعداد للمجابهة في كفاح جديد . ولكن هل سويت قضية التقليد على الأقل طبقاً للنظرية الغريغورية ؟ لا شيء من هذا ؟ فبين كونكوردات فورمز ومرسوم ١٠٧٥ وهـــدة . إن غريغوار السابع يعتبر الأموال الكنسية خاصة برب الكنيسة لا بالمليك الذي يخول التمتع بها إلى من

يتسلم إدارتها أو إلى خلفائه من بعده . وهو بهذا ينفي كل تدخل للسلطة الزمنية ولا يعترف لها بملكية عليا . وكذا المزاعم الامبراطورية لم تنل بغيتها أيضاً ، لأن الفقهاء والمحاجين الذين يعملون لحساب هنري الرابع وهنري الخامس يقولون بان للملك ، نظراً للخدمات التي يؤديها للكنيسة والهبات العديدة التي يهبها إياها ، الحق في أن يقلد بالعصا والخاتم ؛ بينا نجد أن كونكوردات فورمز ترفض له هذه الشكلية في التقليد . وفي الحقيقة ، ان هذا الحل النهائي يتصف بصفة التسوية بين النظريات المتناقضة . وموجده القانوني هو إيف شارتر الذي امتاز بأنه تقدم عصره وفصل بين خصائص الأسقف الروحية والزمنية التي تم عليها الاتفاق بين كاليكست الثاني وهنري الخامس . وعن هذا التمييز نشأ التقليد بالعصا والخاتم من جهة ، والتقليد بالصولجان من جهة أخرى . الأول يذكر بزواج الأسقف بكنيسته زواجاً صوفياً وبالسلطات التي له على الأرواح . والثاني يعبر عن سيادة الامبراطور في القضايا الزمنية .

إن كونكوردات فورمز حل الحس السليم . ولا بد لنا أن نذكر أنها تتضمن بعض النقاط الغامضة . فمن ذلك أن تدخل الامبراطور في الانتخابات الأسقفية لم يعرف تعريفاً كافياً . فهل حق المراقبة ، الذي اعترف به التصريح الحبري ، يخوله أن يرفض تقليد الأموال الكنسية إلى مرشح انتخبه الاكليروس والشعب ولكن لا يعجبه لسبب من الأسباب ؟ إن الكونكوردات لاتفصل في هذه القضية الشائكة . ولوحظ أيضاً أن معنى كلمة **ريغاليا** لم تعرف تعريفاً واضحاً . وان البند المتعلق فيها بالكنيسة الرومانية غير واضح أيضاً . ولكن لايمكننا القول بان هذه المآخذ الحقوقية جعلت تطبيق هذه المعاهدة صعباً ، بل ان قليلاً من النوايا الحسنة والارادة الطيبة من كلا الجانبين كان منه أن أزال سبباً

من جملة الأسباب التي أدت الى الخلاف بين الكرسي الأقدس والامبراطورية.

نتائج صلح فورمز . — وبفضل هـذا الصلح استطاع الكرسي الأقدس أن يستأنف عمله الاصلاحي . واذا علق غريغوار السابع أهمية عظيمة على قضية التقليد فذلك لأن اصلاح المساوىء وبعث مكارم الاخلاق في الاكليروس منوط بها . وإذا كان من عمل فورمز أن فصل في هذه القضية وأتاها بالضمانات الكافية فان الكرسي الأقدس يستطيع من جديد أن يوسع البرنامج الغريغوري . وقد اختتم الكونكوردات بجمع عام عقد في لاتران أثناء الصوم لعام ١١٢٣ من ١٨ إلى ٢٨ آذار حضره ٣٠٠ أسقف من مختلف البلاد . **وأول** قانون صوت عليه في هذا المجمع يشجب السيمونية . **والسابع** يحرم على الكهان اتخاذ الخليلات أو معاشرة النساء المتزوجات والسكنى مع أي امرأة ماخلا الأم والأخت والعمة والخالة أو كل قريبة بعيدة عن الشك ؛ **والثالث** يحرم مباركة الاسقف الذي لم ينتخب بصورة قانونيـــة ؛ **والثامن والتاسع** يحميان الأموال الكنسية ضد مزاعم العلمانيين .

وإذا كانت الكنيسة مستقلة عن السلطة الزمنية في أشخاصها و أموالها وفي مأمن من قوة المال وتجنب الاكليروس عن أي تماس غير نقي مع العصر ، أفلا نرى في ذلك البرنامـج الغريغوري الأصلي الذي وضعه الباباوات نصب أعينهم وتابعوا تحقيقه رغم العقبات والمصاعب الكثيرة ! إن أول نتيجة للسلام الذي تم بين الكهنوت والامبراطورية هي أن البابوية دفعت الاصلاح دفعة جديدة ، هـذا الاصلاح الذي كافحت من أجله طويلاً وتألمت كثيراً .

وتستطيع الكنيسة الرومانيـة الآن المضي في هذا العمل الاصلاحي

لأنها تتمتع بقوة أكثر مما كانت عليه في عهد غريغوار السابع . إن مجموعة القوانين التي الفت في آخر القرن الحادي عشر وأول القرن الثاني عشر ، قد أوضحت سلطتها فيما يتعلق بالمذهب والنظام . وقد أخذت هذه السلطة بفضل المجامع الاقليمية والمفوضين الحبريين ، تفرض نفسها كضرورة. ومن جهة أخرى ، ان وضع الكرسي الأقدس في روما قد توطد في حبرية كاليكست الثاني . وقد أفاد من الحركة الشعبية التي قامت لصالحه أثناء عودته الى روما ليهدم بعض الحصون ويمنع اعادة بنائها ويقضي على أعمال النهب والسلب التي كان يقوم بها قطاع الطرق في الأرياف . وعندما مات كاليكست الثاني (١٣ كانون الأول ١١٢٤) كانت قوة البابوية الزمنية في تحسن ظاهر .

وعلى العكس ، ان كونكوردات فورمز لم ترجع السلام الى ألمانيا، ويعطينا المؤرخون لوحة قاتمة عن السنوات الأخيرة لحكم هنري الخامس. واذا أخذنا بقولهم نجد أن العصابات المسلحة كانت تذهب من ساكس وتجوب البلاد وتنشر فيها الرعب والخوف والارهاب . وربما يكون في هذه الأقاصيص بعض المبالغة . والصحيح فيها هو أن الامبراطور وقع في خلاف جديد مع ساكس . وكان الدوق لوثير يلتمس أي عذر للقيام بالمعارضة . يضاف إلى ذلك أن هنري الأول ملك انكلترا قد جر صهره ، زوج ابنته ، الامبراطور هنري الخامس ، إلى الحرب معه ضد فرنسا وانتهت هذه الحرب بالخيبة .

وهكذا ضاعت جهود هنري الخامس في تثبيت الحكم المطلق . وبعد أن كانت السلطة الملكية قوية في عهد الاوتونيين وأوائل الاباطرة الفرنكونيين أخذت قوة الأمراء تناوئها منذ آخر حكم هنري الثالث .

وكذا لم تكلل بالنجاح جميع المحاولات التي قام بها الأباطرة وترمي إلى توسيع سلطتهم في الخارج .

ومات هنري الخامس في ٢٣ أيار ١١٢٥ في اوترخت وله من العمر أربع وأربعون سنة . ولما لم يكن له أولاد فقد أبدى رغبته بأن يكون خلفه ابن أخته ، فريديريك هوهنشتاوفن . إلا أن التاج قدم إلى لوثير ساكس الذي لم يتصالح معه . وانطفأت السلالة الفرنكونية بموت هذا الأمير الطموح الاستبدادي الذي أراد أن يسيطر على الكنيسة وعلى ألمانيا ولكن دون أن يتوصل إلى تحقيق أي مشروع من مشاريعه .

الفصل الحادي والثلاثون

أصول النزاع

بين المملكة الكابسية والآنغلية ـــ النورماندية

المناوشات الاولى

١٠٦٧ — ١١٠٠

نتائج فتح النورمانديين لانكلترا . ـــ لقد أحدث فتح النورمانديين لانكلترا خللاً في توازن أوربه الغربية ، لأن اتحاد دولتين متقابلتين على شاطئي المانش ، تحت صولجان واحد ، أوجد لصالح غليوم الفاتح قوة جعلت جيرانه القاريين يخشون نتائجها . ولقد كان الملك الكابسي مهدداً أكثر من أي ملك آخر ، لاسيما وان سلطته ، في منتصف القرن الحادي عشر ، كانت محدودة وضعيفة .

ولكن هذا الحادث لم تكن له نتائج مباشرة على المملكة الفرنجية . ولا شك في ان اطماع غليوم الفاتح كانت تنمو كل يوم وتغريه باستعمال هذه القوة الجديدة التي يتصرف بها لتحقيق مشاريعه في مناطق **الفيكسان والمين وبروتانيا**، ولكن العمل التنظيمي في انكلترا عاكسته معارضة قوية ومديدة أخذت من وقت غليوم الفاتح أكثر مما ظن ، واضطرته الى البقاء في انكلترا ، وأفاد من ذلك الملك الكابسي وأخذ يعد عدته .

السياسة الكابسية . — ان بودون الخامس كونت فلانـدر الوصي الذي حكم المملكة الفرنجية منـذ وفـاة هنري الأول (١٠٦٠) ، توفي في ١٠٦٧ غداة فتح النورمانديين لانكلترا . وخلفه ابنه بودون السادس على الفلاندر ، وفي الوقت ذاته بلـغ فيليب الأول ، بن هنري الأول ، سن الرشد ، وأمن بنفسه إدارة أمور المملكة ، واستطاع ، على قـدر الامكان ، أن يلاحظ بسرعة الاتجاه الذي يجب أن تسير فيـه السياسة الكابسية بعد حادث عام ١٠٦٦

لقد فكر فيليب الأول بأن يناضل وحده ضد غليوم الفاتح . وللحيلولة دون هجوم ممكن ، جمع حوله الاقطاعيين الكبار الذين قلقوا من قوة النورمانديين ، وبالرغم من الصلات العائلية الـتي تربط آل بودون بغليوم الفاتح لم تكن الفلاندر بمنجى من امكان أطماعه دوماً . وفي الجنوب ظل كونتات آنجو ناقمين على ضياع منطقة المين وانتقالها تحت النفوذ النورماندي عام ١٠٦٣ . وقد دعت الظروف إلى أن يقوم تالب بين الملك الكابسي وكونت فلاندر ، وكونت آنجو ليكون ضماناً ضد أطماع النورمانديين.

وفي العام ١٠٧٦ كان غليوم الفاتـح مطمئناً من جانب انـكلترا فجاء وحاصر موقع دول في بروتانيا، وكان أمراء هذه المنطقة يناصبونه العداء ، فانتهز فيليب الأول الفرصة وأستعان بدوق اكيتانيا غي - جوفروا والانجوفيين وأضطر غليوم إلى الانسحاب والصلح . وكان لهذا النصر نتائج سعيدة عادت بالنفـع على ملك فرنسا : ففي عام ١٠٧٧ ضم الفيكسان الفرنسية الـتي تركها له سيمون كريبي قبل أن يكون راهباً ، ولم يثر غليوم الفاتح أي احتجاج ؟

فيليب الأول وروبير كورتهوز . — وفي العام ١٠٧٨ استقبل فيليب الأول الأبن البكر لغليوم الفاتح ، روبير كورتهوز ، وكان هذا جزعاً إلى

الملك وطلب من أبيه أن يتخلى له في حياته عن حكم نورمانديا ومين . ووعده فيليب الأول بالمساعدة ، وأعطاه مقر جربروا ، في منطقة بوفيه ، وكان قاعدة ممتازة للعمليات . فجاء غليوم حالاً وحاصر الموقع ، ولم يستطع أخذه عنوةً وانسحب جريحاً ، وفاوض ملك فرنسا ، وجاء هذا إلى جربروا (كانون الثاني ١٠٧٩) ولعب دور الوسيط بين الأب وابنه . وبحضوره وعد غليوم الفاتح أن يترك لروبير نورمانديا . وهكذا تهيأت تجزئة الدولة التي أنشئت عقب حملة ١٠٦٦ .

اجتياح الفيكسان ووفاة غليوم الفاتح (٩ايلول ١٠٨٧) . — لقد سجلت سياسة فيليب الأول بين ١٠٧٦ و ١٠٧٩ فوزاً حقيقياً. فقد قرر غليوم الفاتح أن يكسر الجهد الكابسي قبل أن ينمو ، ولكن تنظيم انكلترا أجل مشاريعه الهجومية . وفي آب ١٠٨٧ اتخذ ذريعة غارة فرسان فرنسيين على الفيكسان النورماندية واجتاح الفيكسان الفرنسية ، واندفعت جنوده في أعمال السلب وأحرقت مدينة مانت ، ولكن غليوم سقط بعدها مريضاً وعاد إلى روان حيث مات في ٩ أيلول ١٠٨٧ .

تجزئة المملكة الآنغلية ـ النورماندية . — لقد كاد زوال غليوم الفاتح أن يؤدي إلى دمار أثره بسبب تجزئة دوله . وطبقاً لإرادة المتوفى ، عادت نورمانديا إلى ابنه البكر ، روبير كوتهوز ، وانكلترا إلى الثاني ، غليوم الأشقر ؛ والثالث هنري ، حرمه أبوه من الأرث ، فاعطاه أخوه روبير ، الذي حرص على مداراته ، مدينة افرانش وكونتية كوتانس .

ولقد ولد تفتت المملكة الآنغلية ـ النوْرماندية أزمة دامت ، بالرغم من بعض الهدوء في بداية القرن الثاني عشر ، حتى وصول هنري الثاني بلانتا جونيه إلى العرش عام ١١٥٤ ، وساعدت المملكة الكابسية على تمتين

وضعها وتقويم السلطة الملكية الضعيفة ، لمجابهة منازعات لايمكن اجتنابها مع جيرانها الخطرين .

غليوم الأشقر ملك انكلترا . — لقد احترمت إرادة غليوم الفاتح الأخيرة . فقد خلف روبــير كورتهوز أباه على نورمانديا دون صعوبة مقابل بعض التنازلات للاقطاعية . وفي انكلترا استلم غليوم التاج بفضل مساندة جثليق كانتوربري ، لانفرانك ، الذي أمن له مشايعة مجلس العقلاء . وأقسم اليمين أن يحكم حسب قوانين العدل وأن يتكيف مع آراء الكنيسة ويحترم حرياتها .

ولكن من الممكن أن يشك بقيمة هذه التعهدات ، لأن غليوم الأشقر لايشبه أباه في شيء . وقد زعم اوردريك فيتال بأنه ضرب أسوأ مثل في السلوك ، ونهب أموال الكنائس إرضاء لاهوائه . ولم يشعر المؤرخون الانكليز بعطف نحو هذا الملك الجديد ، وكتب عنه هنري هنتينغدون « كان أكثر شراسة وخبثاً من أي إنسان آخر » ، وأحاطت به حاشية سيئة ، وكان مستعداً للاستسلام لمشاورين أفسد منه ، وغيوراً على سلطته كما كان أبوه غليوم الفاتح ، وحاول أن يبسط حكمه الملكي المطلق مسترسلاً في غرائزه الاستبدادية . فأثار معارضة النبلاء والاكليروس الأعلى واختلافه مع القديس آنسلم ، جثليق كانتوربري . وأراد هذا الأخير أن يتخلى عن مسؤولياته أمام البابا اوربينو الثاني ، فلم يقبل استقالته لصالح الكنيسة . وفي مجمع باري (تشرين الأول ١٠٩٧) هدد البابا غليوم الأشقر باللعنة والحرمان . وقامت مفاوضات بهذا الشأن ولكنها قطعت بوفاة البابا (٢٩ تموز ١٠٩٩) والملك (٢ آب ١١٠٠) .

سياسة غليوم الأشقر القارية . — لم تترك المعارضة لغليوم الاشقر في انكلترا متسعاً من الوقت للاهتمام بشؤون القارة ، ومع هذا فقد حاول أن يجمع قطاعي الدولة الآنغلية — النورماندية بطرد أخيه روبير كورتهوز .

وقد رسم المؤرخون عن روبير كورتهوز لوحة تختلف عن لوحة غليوم الاشقر ، ولكنها ليست لصالحه ، كان روبير محبوباً ، كريماً ، سخياً ، خفيفاً ، ينقصه الحس السياسي كاملاً . عاش صحبة المهرجين والنساء فأباد بسرعة الاموال التي خلفها له أبوه ونسي الحكم ، فوجد الامراء فرصة مناسبة للخلاص من الروابط التي غلهم بها غليوم الفاتح ، وتلت الفوضى السلام ، وأصبحت نورمانديا سهلة المنال .

وفي ١٠٩١ اجتاز غليوم الاشقر المانش ، وتقدم نحو أو ، ولاسباب مجهولة تصالح مع روبير واشترى انسحابه ببضعة قصور . وما لبث أن عاد ثانية إلى نورمانديا . ففي ١٠٩٦ ذهب روبير كورتهوز الى الحرب الصليبية وعهد إلى أخيه بحكم الدوقية في غيابه . فأفاد غليوم من ذلك لمعاودة سياسة التوسع نحو الشرق التي قطعها موت أبيه : وفي ١٠٩٧ طالب فيليب الاول بالفيكسان ، ومدن : بونتواز ، شومون ، مانت ، فقوبل بالرفض وعادت الحرب في تشرين الثاني ١٠٩٧ .

ولا نعلم جيداً تاريخ هذه الحرب . فقد كلف من الجانب الفرنسي الابن البكر لفيليب الاول ، لويس ، بصد الهجوم ، وكانت مهمته صعبة التنفيذ : لان كثيراً من الامراء الفرنسيين ، تحت تأثير الرشوة الانكليزية ، انتقلوا إلى صف العدو . ولكن الفرنسيين تغلبوا أخيراً وسلم الدومين الملكي .

المملكة الكابسية في آخر القرن الحادي عشر . — ووجد ملك

انكلترا في صعوبات من جراء قيام الثورات عليه في مين وآنجو ، ولكن ملك فرنسا لم يحاول استغلال هذا الوضع . وهـذا الجمود منه يتناقض مع النشاط الذي بذله في السنوات الاولى من حكمه الشخصي . ولاشك في أن هذا الجمود كان نتيجة الفوضى في حياته الخاصة . ففي ١٠٩٢ طلق فيليب الاول الملكة بيرت فريز ، وخطف برتراد مونفور الخليعة زوجة كونت آنجو ، فولك الريشن . وصرح سوجر ، مؤلف حيـاة لويس السادس ، بأنه أصبح منذ ذلك الحين أسير اللذة ولم يهتم بشؤون المملكة . وكان ابنـه ، الأمير لويس ، المولود ولا شك في ١٠٨١ ، فتىً لا يستطيع أن يحل محـله تماماً . وبتزامن يلفت النظر ، أي في الوقت الذي تجتاز فيه المملكة الآنغلية ـ النورماندية أزمة تخفف نتائج حادث ١٠٦٦ ، كانت المملكة الكابسية تشكو فقدان التوجيه الذي ظهر لكل عين وبشكل محسوس حتى بداية القرن الثاني عشر .

تقدم السلطة الملكية في عهد فيليب الأول . — ومع هـذا لم يكن حكم فيليب الأول غير مجد للملكية . ففي الربع الأخير من القرن الحادي عشر تحققت خطوة حاسمة نحو المركزية باحلال القصر محـــل البلاط في حكم المملكة . ففي وصاية بودون (١٠٦٠ — ١٠٦٧) كان الملك يأخذ رأي البلاط في القضايا الهامة . وشيئاً فشيئاً استغنى فيليب الأول عن هذه الموافقة والقرارات الأساسية التي تقع على أشخاص حاشيته المباشرة المجتمعين في القصر . وفوق ذلك ، حدث اختصاص في وظائف القصر نفسه ، ويلاحظ تشكل وزارة من كبار موظفي التاج، **مثل رئيس الديوان** المتعلق بشخص الملك ويرافقه في تنقلاته ، **والسينيشال** (قائد الجيش) ودوره عسكري خاصة ؛ **والكونيتابل** (الآمر الأعلى للجيش)

والساقي وليس لها صفات دقيقة معينة . وبكلمة لقد كان القصر على رأس الادارة . ولذا قويت السلطة الملكية .

توسع الدومين الملكي . — وفي عهد فيليب الأول نما الدومين الملكي بمكاسب هامة . ففي عام ١٠٦٧ كان هذا الدومين يضم مناطق باريس وايتامب واورلئان وسانس ، ومونتروي — على — البحر التي ضمت في عهد روبير التقي . ولكن فيليب الأول وسعه خارج نطاق المنطقة الباريسية . ففي ١٠٦٨ ضم منطقة الغاتينيه ثم كوربي ، التي تخلى عنها آرنول فلاندر . وفي ١٠٧٧ ضم الفيكسان الفرنسية أي منطقة مانت ، بونتواز ، شومون التي حماها ضد العدوان الآنغلي — النورماندي وأخيراً في ١١٠١ اشترى بورج من الفارس اود آربن الذي ذهب للأرض المقدسة ، وبها أصبح له موطىء قدم فيما وراء نهر اللوار . وبفضل هذه المنطقه ، في اكيتانيا ، هيأ توسع النفوذ الكابسي في الجنوب الغربي .

ولسوء الحظ ، ان هذا الدومين الذي يمكن أن يصبح عنصر قوة ما زالت إدارته سيئة . وكان مقسماً إلى دوائر على رأس كل منها قاض يقيم العدل في غياب الملك ويجبي الاتاولت الدومينية . وهؤلاء الموظفون مخولون بالسلطة الملكية ، ولكنهم لم يستعملوا هذه السلطة دوماً في صالح التاج . ومن جهة أخرى ، لقد وجد في داخل الدومين ، وهذا سبب ضعف أخطر ، أمارات صغيرة حافظ أصحابها على استقلال يكاد يكون تاماً : مثل أمارات بومون ، مونمورانسي ، مونليري ، بويزه . وكانت هذه الامارات متكتلة حول قصور حصينة ، وكثيراً ما كانت تثور على الملك .

نزاع المملكتين الكابسية والآنغلية — النورماندية في آخر القرن الحادي عشر . — ويفهم في هذه الظروف أن الملك الكابسي كان تحت

وحمة حادث يطرأ في دومينه الخاص ، ولذا لم يستطع أن يقوم بهجوم واسع النطاق ضد الدولة الآنغلية — النورماندية . ان تقسيم دول غليوم الفاتح ، والمعارضة التي لاقاها غليوم الأشقر من جهة ، وحياة فيليب الأول الخاصة المضطربة ، والوضع غير المستقر في الدومين الملكي من جهة أخرى ، إن كل هذه الأمور توضح لنا لماذا لم ينم النزاع في آخر القرن الحادي عشر ، ولن يبلغ أيضاً شكله الحاد في النصف الاول من القرن الثاني عشر . غير أن تواجد ملكين لهما قيمتها الحقيقية : هنري الاول في انكلترا ، ولويس السادس في فرنسا ، أدى إلى وجود قوى على استعداد لان تتجابه يوماً ما : فمن ١١٠٠ إلى ١١٣٥ توطدت السلطة الملكية في فرنسا كما في انكلترا . وقد بدأ الملكان ، في بعض الاوقات، بالمنازعات الكبرى التي عرف فيها عهد فيليب أوغست وأولاد هنري الثاني .

التنافس بين هنري الاول ولويس السادس

١١٠٠ — ١١٣٥

جلوس هنري الاول في انكلترا ولويس السادس في فرنسا ، — لقد توفي غليوم الاشقر في حادث صيد ، في ٢ آب ١١٠٠ . ولم يترك وارثاً مباشراً ، ولم يعد أخوه روبير كورتهوز من الحرب الصليبية ، وكان آنذاك في صقلية ، فطالب الابن الثالث المنحى لغليوم الفاتح بعرش انكلترا . وانحاز البارونات له ، عدا غليوم بروتوي ، وبعد أن انتخبوه قادوه إلى وستمنستر حيث توجه أسقف لندن (في ٥ آب ١١٠٠).

وفي هذا التاريخ أخذ لويس السادس على عاتقه إداره المملكة الكابسية . وإذا لم يحمل على وجه التخمين لقب الملك المسمى إلا بعد ذلك

بقليل ، فقد كان يشارك أباه في الحكم ويمارس منذ حرب الفيكسان ١٠٩٧ وظائف رئيس الجيش . ولا شك في أن فيليب الاول حتى وفاته (١١٠٨) ، لم يتخل تماماً عن الاهتمام بالادارة ، ولكنه ، ابتداءً من ١١٠٠ ، سلك سياسة جديدة في علاقاته مع الاقطاعية أوسع الكنيسة ، وفي الواقع ان حكم لويس السادس بدأ منذ ذلك الحين .

وفي الحقيقة إن اعتلاء عرش انكلترا وفرنسا في آن واحد من قبل هنري الاول ولويس السادس سيبدل بصوره محسوسة سيماء المملكتين الغربيتين .

هنري الاول ملك انكلترا . — لقد كان هنري الاول يشبه أباه أكثر من أخويه . كان وفياً ، عادلاً ، بعيداً عن المنفعة ، يكره الرذيلة والعنف ، وفي غداة جلوسه على العرش تزوج أخت ملك ايكوسيا ، اديث ، التي أخذت اسم ماتيلد ، وليس في حياته الخاصة ما يشبه حياة غليوم الأشقر . وإذا ورث عن غليوم الفاتح غرائز استبدادية ، فقد أراد خير رعيته وحماها من ظلم النبلاء وتمنى أن يصل مع الكنيسة ما انقطع من تفاهم في العهد السابق ، وعند تتويجه أصدر ميثاقاً يعكس استعداده الشخصي ويشجب مفاسد الحكم الراحل ، وارجع قوانين ادوارد المعرف مع التعديلات التي اجراها غليوم الفاتح ، ثم وعد الكنيسة بالحرية في الانتخابات واحترام أموالها ، ووعد الأمراء بحرية نقل اقطاعاتهم ، ورعيته بتشريع معتدل للديون والغرامات ، وأقسم اليمين على ذلك فأيد جميع هذه التعهدات ، وعبر عن نفس النوايا العادلة الرحيمة والسلمية . ودل كل شيء على أن عهده سيكون عهد إصلاح لما أفسده الاضطراب الذي ساد انكلترا منذ ١٠٨٧ .

لويس السادس ملك فرنسا . — كذلك ترك وصول لويس السادس إلى السلطة ، في فرنسا ، الأمل باتجاه جديد . ولد هذا الأمير في آخر ١٠٨١ . وكان أفتى من هنري الأول بعشر سنوات ، ولكن تجربته تختلف بحسب ظروفه ، فما كاد ينهي تربيته في ابوية القديس — دوني حتى قلده فيليب الأول (١٠٩٢) منطقة بونتواز و مانت والفيكسان . وفي العام ١٠٩٧ ، ولما ينه السادسة عشرة من عمره ، أسهم في الحرب ضد غليوم الأشقر . وخولته مغامراته الحربية وجولاته ، عام ١٠٩٨ ، أن يكون فارساً وان يشارك في الحكم رغم اختلافه مع أبيه في موضوع برتراد مونفور .

وكشف لويس السادس منذ فتوته عن مواهب رجل الحرب ، وهو كما وصفه مترجم حياته ، الأب سوجر ، « بطل لا مثيل له ومصارع عظيم » . هام طوال حياته بالحروب ولم يتردد في بذل شخصه والالتحام بقوى العدو والاندفاع وسط اللهيب والنار عند تهديم الحصون ، حتى انه اقترح أن ينهي الحرب بين فرنسا وانكلترا بكفاح فريد بين الملكين . وباختصار لقد كان فارساً حقاً ، وشجاعاً صدقاً ، مستقيماً ، مخلصاً ، يكره الخداع والخيانة ، همه أن يعمل طبقاً للعدالة وأن يحفظ لكل إنسان حقه » . غير أن العيوب الملازمة لسلالته لم توفره . فقد كان جشعاً قريباً إلى الفساد والرشوة ، واهلاً لبيع مساعدته لمن يقدم أكثر ، نهماً ، شهوانياً ، ولقبه السمين في التاريخ يذكر بسمنه المبكر الذي كان نتيجة الافراط في الشهوات ولذائذ المائدة ، ومنعه في سن الاربعين من ركوب الخيل . وعندما كان مراهقاً أتته بنت طبيعية ، ولم يتزوج إلا في سن الخامسة والثلاثين ، بعد أن قاوم طويلاً لوم ايف شارتر .

ورغم هذه المثالب ، كان لويس السادس أعلى من الملوك الذين سبقوه . وكان يريد ، مثل هنري انكلترا ، أن يقوي سلطته الملكية . ومن ١١٠٠

إلى ١١٣٥ يرى على شاطيء المانش جهد لتوطيد السلطة الملكية على قواعد واسس متينة ، واعادة وسائل العمل التي فقدتها أو التي جردت منها .

هنري الأول والبارونات الانكليز . — لقد كان هم هنري الأول منذ وصوله إلى العرش ان يفرض سلطته على البارونات الذي نصبهم استبداد غليوم الأشقر في وجه الملكية وعندما عاد أخوه البكر روبير كوتهوز من الحج طالب أيضاً بالتاج الانكليزي واثار اضطراباً دام قليلًا : ففي ١١٠١ حاول روبير كورتهوز اجتياح انكلترا ، ولكن وساطة كونت مولـَنْ أعاد السلام ، وأرجع هنري الأول إلى روبير الذي اعترف به ملكاً الكونانتان التي اشتراها منه في السابق ؛ وعفا الملك عن اوستاش بولوني، البارون الوحيد الذي انحاز الى منافسه .

ولم يأل هنري الأول جهداً في خضد شوكة المعارضة الارستقراطية ، حتى ان بعض النبلاء ممن ثاروا عليه أو ممن كانوا يعتدون على أموال الاخرين لاقوا جزاءهم وجردهم الملك من أملاكهم .

ومع انتهاء المعارضة الارستقراطية توطد السلام الديني الذي أضر به استبداد غليوم الاشقر .

كان هنري الأول ، الذي أخذ لقب « الاكليركي الصالح » يعطف على الكنيسة ، وقد برهن حيالها عن احترام عميق وتفاهم ونبذ كل شقاق . ولكنه ، فيما يتعلق بقضية التقليد ، ظل متمسكاً بسلطته ومطالبته بيمين الولاء ، وأخذت قضية التقليد العلماني دوراً كبيراً بين الملك هنري الأول والقديس آنسلم رئيس أساقفة كانتوربري ، ولكن المفاوضات انتهت أخيراً إلى نتيجة سعيدة بفضل وساطة آديل بلوا أخت هنري الأول التي هيأت في ليغل مقابلة بين الملك والمطران . وأخيراً تخلى هنري الاول

عن تقليد المناصب الكنسية ، وتنازل آنسلم على أن يقسم الاساقفة اليمين للملك من أجل الاقطاعات المتعلقة بالاسقفيات . وفي مرسوم ٢٣ آذار ١١٠٦ صادق البابا باسكال الثاني على هذا الاتفاق . وأخيراً انعقد مجلس في لندن في أب ١١٠٧ وثبت بصورة قطعية القواعد التي يجب أن تسود علاقات الكنيسة والدولة : ونص على ان الاسقف لايمكن أن يقلد وظيفته بالعصا والخاتم لا من الملك ولا من أي شخص علماني آخر . ومن جهة أخرى ، ان التكريس الاسقفي لا يمكن أن يحدث قبل ان يقسم المنتخب للملك يمين التبعية من اجل اقطاعاته . وهكذا توصل الجانبان إلى حل وسط يتفق ونظريات ايف شارتر .

توطيد الوحدة الآنغلية ـ النورماندية . ــ ان العودة إلى تقاليد غليوم الفاتح لم تتأكد وحدها ، في بداية حكم هنري الأول ، بتوطيد السلام المدني والسلام الديني اللذين كسرهما استبداد غليوم الأشقر ، بل لقد تشكلت أيضاً الدولة الآنغلية ـ النورماندية في ١١٠٦ من جديد كما كانت قبل ١٠٨٧ .

كانت علاقات هنري الأول مع أخيه روبير كورتهوز طيبة في الظاهر ، ولكن هنري مافتىء يعمل على توحيد نورمانديا وانكلترا تحت صولجانه : ففي ١١٠٤ قام برحلة إلى القارة وتصالح فيها مع خصومه ، واشترى معظم الأمراء النورمانديين بالمال . وفي الوقت ذاته أرسل وفداً إلى ملك فرنسا فيليب الأول ، ووفداً آخر إلى كونت آنجو ، جوفروا مارتل الثاني ، ليؤمن حياد الأول ، وتحالف الثاني . وفي ١١٠٥ اجتاز المانش من جديد وأعلن أنه اتى ليطالب بارثه الأبوي الذي أصبح فريسة الأشقياء ، فنجح في مسعاه بعد أن أحرق ودمر القصور واقام الحاميات . ودانت له البلاد ، وبدا ان الوحدة الآنغلية ــ النورماندية عادت من جديد وتوطدت بقوة .

قطع العلاقات بين هنري الاول والمملكة الكابسية . — وهذا التشكيل الجديد لدولة غليوم الفاتح أرجع العداوة مع المملكة الكابسية وحول حرب المناوشات إلى حرب حقيقية . وكان لدى هنري الأول جيوش تفوق جيوش أبيه في السنوات التي تلت فتح انكلترا ، ومن جهة أخرى ، لقد جمدت المعارضة الانكليزية غليوم الفاتح واضطر إلى كفاحها حتى وفاته . أما هنري الأول فكان يتمتع على شاطىء المانش بشعبية حقيقية . ولذا كان بامكانه أن يندفع إلى الأمام ، لاسيا وأنه عرف ضروره بسط نفوذه في القارة قبل أن يعطي لويس السادس إلى المملكة الكابسية القوة المادية التي كانت تنقصها في القرن الحادي عشر ، ولذا أثار القطيعة .

كانت هذه القطيعة محفوفة بالأخطار ، ولكن لويس السادس كان يتابع منذ ١١٠٠ هدفين أساسيين : السلام مع الكنيسة وتوطيد السلطة الملكية في داخل الدومين بخضوع اقطاعيي اقليم **جزيرة فرنسا** . وقد تحقق الهدف الأول عند وفاة فيليب الأول ، ثم تبعته القطيعة مع انكلترا ، ولم ينق الجو في الدولتين ، وكان الملك الكابسي في وضع دون قوة منافسه .

لقد قدم لويس السادس إلى المملكة الفرنسية خدمة جلى بوضع حد للمناقشات التي حالت حتى الآن دون اتفاق دائم بين الملكية الكابسية والكنيسة .

لم يوفر نزاع التقليد فرنسا ، ولكنه لم يكن بنفس الشدة التي كان عليها في ألمانيا ، ولم يذع فيها التشريع الغريغوري إلا في ١٠٧٧ في مجمع **أوتن** ، وبدت البابوية كريمة في تطبيقه مكتفية بملاحقة الأحبار السيمونيين وخلعهم . وسلك البابا غريغوار السابع حيال فيليب الأول سياسة الملاينة رغم ماأخذ عليه من اخضاعه الكنيسة وجعلها خادماً ، وحاول أن يعقد

معه اتفاقاً عندما دخل نزاع الكهنوت والامبراطورية مرحلته الحادة .

ولكن فيليب الأول جعل هذا الاتفاق مستحيلاً بسيمونيته الكريهة، وفي حبرية أوربينو الثاني (١٠٨٨ — ١٠٩٩) بفضيحة حياته الخاصة . ففي ١٠٩٢ طلق زوجته الشرعية ، برتفريز، وخطف برتراد ، زوجة كونت آنجو ، فولك الريشن ، واستطاع أن يبارك هذا الاتحاد على يد أحد الأساقفة ، ولكن البابا ثار على هذا العمل المخالف لقوانين الكنيسة ودعا الملك إلى العدول عن علاقاته غير المشرفة . ولكن هذا اللوم ظل دون نتيجة . وفي العام ١٠٩٤ حلت به اللعنة في مجمع أوتن على يد هوغ ليون ، وفي السنة التالية جدد البابا هذا الحكم بشخصه في المجمع الذي عقد في كليرمون فيران، وفي ١٠٩٧ أتمت اللعنة بالمنع الكنسي . ولكن هذا التدبير الخطير لم ينل شيئاً من عناد الملك وعشيقته . وتوفي أوربينو الثاني (في ٢٩ تموز ١٠٩٩) دون أن يفرح بمصالحة ملك فرنسا مع الكنيسة. وفي ١١٠٤ رجا فيليب الأول عفو باسكال الثاني ، مقابل الوعد بقطع علاقته مع برتراد ، ودخل في جماعة المؤمنين .

وأصبح السلام الديني ممكناً منذ الآن ، وتحقق أثناء رحلة باسكال الثاني إلى فرنسا (١١٠٦ — ١١٠٧) . وإذا اجتاز البابا جبال الألب إلى فرنسا فذلك ليؤمن المساندة الكابسية تجـــاه ألمانيا المهددة ، لأن التسوية العادلة لقضية التقليد يمكن أن تسهل أمر التحالف المرجو . وقبل أن يذهب البابا إلى القديس ـ دوني ، حيث كان ينتظره فيليب الأول ولويس السادس ، عرج على شارتر وزار ايف . وهذه الزيارة تدل بوضوح على الاتجاه الذي تسير فيه السياسة الحبرية التي جنحت إلى الاعتدال والحل الوسط بفضل أفكار ايف شارتر : وبموجبها يتم انتخاب الأسقف من قبل المجالس الكنسية ويحظى بموافقة الملك .

وشهدت نهاية حكم فيليب الأول مصالحة الملكية مع الكرسي الأقدس ، الشرط الأساسي الذي لاغنى عنه للسلام الديني . وقد نتساءل ماهو دور لويس السادس في المفاوضات التي انتهت إلى هذا الاتفاق ؟ ان فقدان النصوص الايجابية لايسمح بالايضاح ولكن حضور الملك في مقابلة القديس - دوني يؤكد بوضوح إرادته في التقارب مع البابوية .

لويس السادس واقطاعية الدومين (١١٠٠ – ١١٠٨) . - ولقد كان للملكية الكابسية كل الفائدة في تأييد هذا التحالف لما يتمتع به الاكليروس من جاه ونفوذ ، ولكنها لاتستطيع أن تفكر بزيادة قوتها مادام الملك غير محترم بشكل أفضل في داخل الدومين . وكان لويس السادس أول ملك رأى الاتجاه الذي يجب طبع السياسة الكابسية به : وابتداء من اليوم الذي يظهر فيه نفوذه الشخصي تبدأ الملكية بنزاع مستحر ودؤوب ضد الاقطاعية الصغيرة في « جزيرة فرنسا » التي فرضت عليها اخفاقات حادة .

وانطلاقاً من بداية القرن الثاني عشر يتغير موقف الملكية الكابسية حيال تابعيها المباشرين ، ويقوم الملك بعمل قوي يدل على وجود إرادة حازمة في فرض احترام النظام والسلام على أصحاب القصور الذين استحكموا في حصونهم واعتادوا أن ينظروا إلى مليكهم نظرهم إلى كمية مهملة . ولاقت هذه السياسة النجاح طوراً والاخفاق طوراً آخر . ولم يأل الملك جهداً في استخدام الطرق الدبلوماسية إلى جانب العمليات الحربية ، ولكن النجاح كان يتطلب منه الصبر والاناة والجهد الدائب الطويل . وعندما توفي فيليب الأول ، أدرك هنري الأول ملك انكلترا الصعوبات التي كان يتخبط بها لويس السادس في فرنسا ، فهاجمه على نهر الابت وخالف بذلك السياسة التي تقتضي منفعته الشخصية أن يؤخر مفعولها .

حاول البابا كاليكست الثاني الوساطة بين الملكين . وفي طريقه إلى رنس لحضور مجمع ٢٠ تشرين الأول ، اجتمع في مورينيي في ٣ تشرين الأول بالملك لويس السادس ، ورأى إمكان الوساطـــة في النزاع الفرنسي — الانكليزي ، وكان لويس السادس يظهر عطفه حيال الكرسي الأقدس ودعمه للكنيسة الرومانية .

وبالمقابل ، كان هنري الأول يبدي حيال السدة الرسولية عواطف أخرى : فبعد أن قبل بالكونكوردات في التقليد أخذ يشكو من البابا ، وفي ١١٠٨ لمح بانه يريد ممارسة حقوقه القديمة من جديد ، وعاد إلى تعامل أبيه وأخيه بعد وفاة مطران كانتوربري (في ٢١ نيسان ١١٠٩) وترك الأسقفيات شاغرة ليفيد من وارداتها ، ومنـع المفوضين الحبريين من المجيء إلى انكلترا . فاحتج البابا باسكال الثاني في ١١١٥ وتوترت الحالة بـين الملك والكرسي الأقدس . وفي تشرين الاول ١١١٩ كانت استعدادات كاليكست الثاني ملائمة لصالح لويس السادس الذي كانت الكنيسة الرومانيـة تثني عليه في شتى الظروف .

وبعد مجمع رنس ذهب كاليكست الثاني إلى الحـــدود الآنغلية — النورماندية وتقابل مع هنري الاول في جيزور ونقـل إلى ملك فرنسا اقتراحات منافسه . ولكننا لانعلمها بدقـة ، إلا أنهـا ، على مايبدو ، كانت تتضمن الوضع الراهن ، لأن كلًا من الأميرين ، في العام ١١٢٠ رد للآخر القصور والاسرى الذين وقعوا في سلطته ، حتى ان غليوم آدولن بن هنري الاول ، قدم بناء على طلب والده ، احترامه إلى لويس السادس من أجل دوقية نورمانديا .

وبعد قليل على توقيـع هذه المعاهدة غرق الابن البكر لهنري الاول ،

غليوم آدولن ، وكثير من أعضاء العائلة المالكة الانكليزية بسبب خفتهم وعدم فطنتهم . ولما لم يكن للملك وارث ذكر مباشر فان ابن روبير كورتهوز ، غليوم كليتون ، طمع من جديد بدوقية نورمانديا وتعلق منذ سنة ١١٢٢ بتشكيل تألب دخل فيه كونت آنجو ، فولك الخامس ، وآموري مونفور وغاليوان مولن . ورعى لويس السادس هـذا التألب دون أن يشترك فيه رسمياً . أليس في ذلك فرصة يحلم بها في تفريق المملكة الآنغلية ـ النورماندية من جديد ! أدرك هنري الاول الخطر بالحال ، وليتخلص من ملك فرنسا ، الذي لم يترك له وقتاً للراحة والاطمئنان ، هيأ عملية واسعة النطاق ودفع صهره ، الامبراطور هنري الخامس ، إلى مهاجمة المملكة الكابسية . وكان هذا يحقد على لويس السادس لموقفه في النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ، فوجد أن الفرصة مناسبة للانتقام وتهيأ لاجتياح فرنسا من الشرق ، في الوقت الذي نقل هنري الاول الحرب إلى الفيكسان حيث انتصر في روجموتيه (آذار ١١٢٤) .

الغزو الالماني لفرنسا (تموز ـ آب ١١٢٤) . — وفي آخر تموز ١١٢٤ دخل هنري الخامس المملكة الفرنجية وزحف على رنس وأراد انتزاعها فجأة . ولهذا الحادث « أنب لويس السادس النبلاء » وذهب إلى القديس ـ دوني يطلب حماية الشهيد وأخـذ الراية (راية ملوك فرنسا) وبسرعة وصل رنس حيث حشد قواه ، ولبي نداؤه وأقبل الامراء من كل حدب وصوب . وقد كتب سوجر « لقد كان الفرسان والمشاة على كثرتهم أشبه بالجراد يغطي سطح الارض على طول الانهار والجبال والسهول » . ومهما يكن في هذا القول من مبالغة فالباقي الصحيح هو أن كبار الاقطاعيين ، أمام الخطر الذي يتهدد المملكة بكاملها ، هرعوا بالمبادرة حتى من كانوا منهم يبدون حيال الملك اللامبالاة والعداء . وأرسلت الكنائس كتائبها التي

أخذت تنافس الجنود الاقطاعية حماستها . وباختصار ، كانت المملكة كلها وراء المليك ، ولاول مرة ظهر التضامن القومي .

ومن المستحيل تقدير عدد الجنود المحشودة في رنس في آخر تموز ١١٢٤، ولكنه من المؤكد أعلى من عدد الجنود الالمان . ووصلت اصداء هذه التعبئة العظيمة إلى اسماع هنري الخامس ، فرأى الامبراطور من العقل ألا يذهب إلى ماوراء الاخفاق . فما كاد يصل إلى متز إلا وانسحب مفضلاً ، كما يقول سوجر ، العـــار والشنار على تعريض امبراطوريته وشخصه لانتقام الفرنسيين . وامتنع لويس السادس عن ملاحقته ، لأن الانسحاب الالماني منحه من الجاه مايكفي حتى فضل البقاء عند مواقعه .

ان اخفاق التألب والغزو الجرماني في فرنسا كان له في تاريخ المملكتين الغربيتين نتائج هامة . فابتداء من ١١٢٤ لم يعـــد هنري الاول ملك انكلترا يهاجم المملكة الكابسية ، وبدأت هدنة طويلة امتدت الى مابعد جلوس هنري الثاني بلانتاجونيـه ١١٥٤ . ولذا فان المليكين الفرنسي والانكليزي ، بفضل هذا السلام ، تابعا ، بنشاط متجدد ، عملها في تثبيت السلطة الملكية التي انصرفا اليها منـذ تسنمها العرش . وافتتحت مرحلة حاسمة في تشكيل المملكتين الآنغلية ـ النورماندية والكابسية .

حكومة لويس السادس . ـ لقد حافظ حكم لويس السادس حتى النهاية على السلوك الذي حلم به منذ بداية القرن الثـاني عشر . ففي الادارة جدد لويس السادس قليلاً واكتفى ببقاء اصلاحات أبيه سليمة لم تمس . وبقي الحكم ، كما كان في الربع الاخـــير من القرن الحادي عشر ، مركزاً في أيدي عدد من رجال القصر الملكي . ويدور في فلك هؤلاء الكبار جهاز من الاكليركيين يصرفون الامور ، بينا يتابع المليك بنفسه الهدف الذي رسمه لنفسه منذ شبابه وهو فرض السلطة الملكية على مختلف

الطبقات التي تؤلف المملكة .

وبفضل السلام مع الآنغليين ـ النورمانديين أنهى لويس السادس اخضاع الاقطاعية الصغرى في الدومين التي مافتيء يباضلها بعزم لايلين ولايهن . وكللت جهوده بالنجاح . وفي آخر القرن الحادي عشر تبدلت سيماء الدومين الملكي . فقد كان في السابق مزبثراً بالحصون ، وفيه توصل أصحاب القصور الى الاستقلال التام تقريباً وأخذوا يناوؤون السلطة الملكية ويشلون التجارة . أما الآن فقد أصبح للسلالة الكابسية نقطة استناد قوية قادرة على دعم سياسة واسعة النطاق ، واستطاع ملك فرنسا لويس السادس ، بالقضاء على هؤلاء الاقطاعيين ، أن يخول التاج قوة مادية كانت تنقصه ،كما أغناه اخفاق الغزو الجرماني بجاه معنوي أفاد منه كثيراً .

وفي الوقت الذي أنشأ فيه هذه القوة المادية وولد هذا الجاه المعنوي أدى الى الملكية خدمة أخرى : فقد هيأ للمستقبل حلفين ثمينين : حلف الكنيسة وحلف الطبقات الشعبية .

في الظاهر ، يرى في سياسة لويس السادس الكنسية تناقضات . وهذا يرجع الى أن الملك ، مع مجاملته للاكليروس ، لم يشأ أن يضحي مايعتبره حق التاج الذي لايمس . وقد وقع في الخلاف مع الاسقفية عدة مرات ، اما لانه أراد أن يفرض مرشحه ، أو لأنه أراد أن يحل القضاء الملكي محل القضاء الكنسي في الدعاوي التي لايمكن أن تكون قانونياً من خصائص البلاط . وفي هذه الظروف المختلفة وفي غيرها كان الملك مستبداً عنيفاً غاضباً ، وهذا مادعا ايف شارتر الى لومه ، حتى ان القديس برنار ، على شدته المعروفة ، شكاه للبابا هونوريوس الثاني واعتبره هيرود جديداً . ولكن يجب ألا يعلق كبير أهمية على هذه الحوادث ،

لأنها لم تمنع تقدم الاصلاح الغريغوري في داخل المملكة الكابسية بمساعدة الملك لويس السادس نفسه ، وان نظرية ايف شارتر في التقليد قد ظفرت في فرنسا باستثناء بعض الحالات النادرة التي وقع فيها الملك في خلاف مع الكنيسة بشأن الانتخابات . وبالاجمال يمكن القول ان الحوادث أيدت ، في فاتحة القرن الثاني عشر ، النظرية الشارترية في فرنسا

وفي الوقت الذي احترم فيه الملك لويس السادس استقلال الكنيسة ، إلا في بعض الحالات ، كان يشجـــع على نشر الاصلاح الديري الذي جاء في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر يتمم إصلاح كلوني . وتدل كثرة الهبات على الأهمية التي يعلقها الملك على النظم الجديدة : مثل **آرووين** ، **فونتفرول** ، **تيرون** ، **سيتو** ، وجمعية **كلوني** القديمة التي حصلت منه على امتيازات ثمينة . وكذلك نظام **بريمونتريه** كان موضع اهتمامه وإنعامه . لقد أغنى لويس السادس الأديرة وجماعات الكهنة في الكنائس ، وسهر على مراعاة القاعدة الديرية وساعـــد الآباء على فرض احترامها ، وفي كل هذا كان يدل على غيرته الدينية الواضحة وعلى الشعبية التي تمتع بها بين رجال الكنيسة .

هذا فضلاً عن أن لويس السادس دعم الكرسي الأقدس في ظروف عصيبة ، ولقد رأينا دوره في النزاع بين الكهنوت والامبراطورية قبل كونكوردات فورمز . وفي العام ١١٣٠ مرت الكنيسة الرومانية عند وفاة هونوريوس الثاني بأزمة جديدة هددت الوحدة المسيحية : لأن البابا المنتخب نظامياً ، **اينوسان الثاني** ، رأى أمامه عدو البابا ، **آناكليت** . وكان كل من المتنافسين يبحث عن مساندة فرنسا . وقد علق لويس السادس تفضيله الشخصي برأي كنيسة فرنسا وعقد في إيتامب مجمعاً قومياً اعترف بشرعية اينوسان الثاني . وجرت مشايعة فرنسا مشايعة ملك انكلترا والامبراطور.

وأسهم أكثر من أي شخص آخر بانهاء الشقاق الذي يقسم المسيحية .

وفي الحقيقة ، ان البابوية مدينة في جزء كبير من نجاحها في حبرية باسكال الثاني وجيلاز الثاني وكاليكست الثاني واينوسان الثاني إلى التحالف مع فرنسا . ولكن الملكية الكابسية أفادت أيضاً من هذا الوفاق مع الكنيسة . ففي قضايا التنظيم الكنسي كان الحل الذي يتبناه الكرسي الأقدس على وفاق مع مصالح السياسة الفرنسية ، وبالتالي كان الكابسيون في توسعهم الأرضي يستطيعون الاعتماد عموماً على مساندة البابوية لهم .

وهنالك حلف آخر واضح قليلاً وخجولاً ارتسم بين الملكية والشعب : ان سياسة لويس السادس حيال الأقنان الريفيين لم يكن لها ذلك الاستمرار وسعة النظر اللذان نسبا إليه طويلاً . ومع هذا فقد نسبت إليه بعض أعمال التحرير التي أملتها نواياه التقية ، أو أيضاً اتفاقات تعود إلى تبادل الأقنان بقصد صيانة القوانين العائلية . وحاول الملك أيضاً حماية سكان الأرياف ضد مضايقات الموظفين وخاصة ضد متطلبات الضريبة المزعجة . وهذه الفكرة الشريفة أوحت بميثاق لوريس النموذجي الذي تبنته بالتالي عدة مدن حرة . ان سكان هذه المدينة الواقعة في منطقة غاتينيه قد تحرروا من خدمة الحراسة ، والسخرة ، والقامة ، والمساعدة وعدد من الضرائب غير المباشرة . واتاواتهم إلى الأمير ، وخاصة الملك معرفة بدقة . وما من أحد منهم متعلق بالأرض . وهذا يقتضي الحرية للجميع . وإلى هذه التحسينات الاجتماعية تضاف الامتيازات التجارية : فقد أخذ الملك على عاتقه رعاية الأشخاص الذين يأتون إلى السوق ، وأعفى البضائع التي ينقلها أبناء المدينة من كل رسم . أما الحقوق السياسية فلم تكن موضع بحث . فقد كان من الواضح أن لويس السادس أراد خاصة التنمية الاقتصادية في غاتينيه دون أن يفكر بكسب السكان بمنح الحريات . وسياسته حيال القومونات متأثرة بمشاغل مماثلة .

لويس السادس والحركة القومونية . — لقد تسارعت في فرنسا في عهد لويس السادس ثورة انتزعت من السلطة الأميرية عدداً من المدن وحولتها إلى قومونات أي إلى هيئات مستقلة ذاتياً ، أمارات حقيقية جماعية في داخل الاقطاعية . وقد بدأت هذه الحركة التحررية في عهد فيليب الأول وتحررت على هذا النحو لومانس ، كامبرية ، سان — كنتان ، بوفيه . وفي عهد لويس السادس السمين تحررت مدن شمال فرنسا بدورها : أراس ، نويون ، مانت ، فالانسيين ، آميان ، كوربي ، سواسون ، بروج ليل ، سانتومير . وفي عهد لويس السابع وفيليب أوغست امتدت الحركة إلى جنوب فرنسا .

وضع هذا الحادث للملكية قضية خطرة : لقد أصيبت الملكية مباشرة في نويون ومانت ، فهل يجب أن تكافح الحركة القومونية أو على العكس أن تشجعها ؟ ويبدو أن لويس السادس لم يتصور بهذا الشكل هذه الورطة المقلقة ، وان اللقب « ابو القومونات » الذي منحه أحياناً ينطبق على أبنه لويس السابع أكثر مما ينطبق عليه . لقد ظهرت سياسته مترددة ومتناقضة . ومع هذا فقد شجع لويس السادس طوعاً أو كرهاً الثورة القومونية ، وهذا يفسر لنا العطف الذي كسبه في أوساط المدن . وقد اعترف سكان المدن وسكان الأرياف بجميله بسيادة النظام والسلام التي أفادت منها المعاملات التجارية . وكانت الطبقات العاملة تشارك الاكليروس عواطفه ، ومافتىء اخلاصها للملكية ينمو في القرن الثاني عشر .

الاقطاعات الكبرى في عهد لويس السادس . — وبالمقابل ، ان ملك فرنسا ، الذي هدأ الدومين الملكي وهيأ فيه عن وعي أو غير وعي الأحلاف

التي ساعدت خلفاءه على إتمام الوحدة الفرنسية ، لم ينل من الاقطاعات الكبرى ، بل انها ، على العكس ، توحدت خارجاً عن الملكية في الثلث الأول من القرن الثاني عشر .

في فاتحة القرن الحادي عشر كانت فرنسا تتألف من أمارات لم يكن الاقطاعي الكبير ليمارس عليها الا سيادة وهمية ، ولكن الحال كانت على العكس في عهد لويس السادس ، فقد تم عمل مركزية في داخل الوحدات الاقليمية الكبرى التي ارتسمت في آخر العصر الكارولنجي . وإذا كان الاقطاعي الكبير ، في معظم الأحوال ، لايستطيع أن يفرض على اتباعه سلطته أو يسترد الحقوق الملكية التي اغتصبها في السابق ، فعلى الأقل وجدت روابط تضامن بينه وبين باروناته . ووضعت مجالس براءات عامة للاقطاع كله . وفوق ذلك ، توصل السيد الأعلى بحروب سعيدة دبلوماسية زواجية عليمة إلى توسيع اقطاعه ودومينه الشخصي ، واستطاع أيضاً أن ينمي سلطته وينقلها بانتظام إلى خلفائه وينشىء إدارة خاصة به . وبكلمة ، ان ما حققه في داخل اقطاعه هو ما حققه فيليب الأول ولويس السادس في الدومين الملكي . وعلى هذا النحو تشكلت هذه الدول الاقليمية التي أعطت فرنسا القرن الثاني عشر سيماءها الخاصة . وتجدر الاشارة إلى أن التطور الذي أحدثها كان أسرع في الشمال والغرب منه في الشرق والجنوب . وهذه الاقطاعات الكبرى هي : الفلاندر ، الآنجو ، بروتانيا ، دوقية اكيتانيا ، كونتية تولوز ، دوقية بورغونيا ، كونتية شامبانيا .

لويس السادس وكبار الاقطاعيين . — يلاحظ ، في الثلث الأول من القرن الثاني عشر ، في جميع الاقطاعات الكبرى ، عمل مركزية واحد . ولكنه يكاد يظهر في لانغدوك ، بورغونيا ، شامبانيا ، ويكون قريباً من نهايته كما في الفلاندر وآنجو واكيتانيا . وقد أنشئت في هذه الأقاليم الأخيرة

إدارة تشبه إدارة الدومين الكابسي وتنفذ إلى داخل الأمارات التابعة ؛ وفي تلك، على العكس ، لم يجرد البارونات من الحقوق الريغالية وظلوا يجهلون الاقطاعيين الكبار قليلاً أو كثيراً . وفي المجموع يوجد نزعة نحو إشادة دول إقليمية تحكمها سلالات وراثية .

وهذا التطور يجعل عمل الملك صعباً في داخل الاقطاعات الكبرى . ولا شك في أن الرابطة الحقوقية لم تزل ، لأن كبار الاقطاعيين ظلوا مخلصين للملك ويقدمون احترامهم له ، وكما لوحظ جيداً « يتحدرون، باستثناء دوق نورماندیا ، من كونتات وادواق ومراكيز العصر الكارولنجي »، ولم يكسر اغتصاب الحقوق الملكية روابط الفداء الشخصي الذي يربطهم بالملك ، ولكن هذه التبعية اقتصرت عملياً على شيء قليل . وقد استطاع لويس السادس أن يقوي في داخل الدومين السلطة الملكية ، ولكنه لاقى عنتاً في الخارج لفرض امتيازاته في السيادة ؛ ومع هذا ، إذا استطاع أن يفكر بمطالبة كبار الاقطاعيين بالقيام يوماً بالتزاماتهم الاقطاعية ، وحاول أن يقوم في مجموع المملكة الفرنجية بالواجبات التي يرى أنها تقع خاصة على كاهل الملكية حامية السلام ، بمحاربة الأمراء المشاغبين والناهبين الذين يعكرون صفو النظام .

وفي كل هذه الظروف المختلفة كان الملك يظهر بمظهر الملك القاضي ، والحكم الأعلى ، ويمارس امتيازات السيادة .

أثر لويس السادس . — غير أنه كان من الصعب على الملكية الكابسية أن تنال من الاقطاعات الكبرى التي اعتادت أن تحكم نفسها بنفسها ، وكان تحقيق الوحدة الاقليمية فيها يعارض تهيئة الوحدة الفرنسية المستقبلة بعقبات رصينة . والصحيح هو أن لويس السادس أوجد وسائل

التغلب على هذه العقبات : وذلك بأن جعل الملكية قوية في داخل الدومين ، وهيأ لها مساندة الاكليروس والطبقات العاملة ، وأظهر للجميع بأنها تقوم بمهمة الحفاظ على السلام والنظام ، وأعطاها القوة المادية والجاه المعنوي ، ووضعها في موضع جيد لاستئناف الحرب مع انكلترا ، حيث حاول هنري الأول أيضاً أن يقوي السلطة الملكية .

حكومة هنري الأول في انكلترا . — لقد حاول هنري الأول ، منذ بداية حكمه ، توكيد السلطة الملكية ، وأعاد إلى انكلترا السلام المدني والديني الذي أفسده استبداد غليوم الأشقر . وبالتالي ، ان مايميز قبل كل شيء حكومته هو هذا الجهد السعيد عموماً لتحسين إدارة المملكة وتوضيح التشريع الانكليزي . وإذا كان غير صحيح اعتبار هنري الأول منشئاً للحريات الشهيرة التي انتظرت زمناً طويلاً ، فقد كان له الفضل، على الأقل ،في تعديل الحكم الملكي المطلق بادخال قواعد دقيقة في عمل الحكومة. فاليه يرجع تنظيم القصر الملكي الذي بدأ بالتنوع في اختصاص الادارة القضائية والادارة المالية . فمن جهة ، تشكلت لجنة من البارونات تمارس إشرافاً حقيقياً قضائياً وتخول في الكونتيات قضاة مكلفين بالاستئناف وبفرض فقه القصر الملكي على المحاكم المحلية . ومن جهة أخرى ، عهد بالادارة المالية إلى عدد من المستشارين . ويؤلف هؤلاء مجلس المالية حيث يجلس مدير الخزانة والقائد الأعلى للجيش وموظفان من الديوان الملكي وعدد من الاكليركيين يكون أحدهم مقرراً ويحرر تقريراً لكل جلسة . ويرأس الملك مبدئياً الجلسات القضائية والمالية . ولما كان مضطراً إلى التغيب بسبب مشاغله القارية ، فقد كان يقوم مقامه قاض نائباً عنه ، وأخذ هذا النائب أهمية كبرى في عهد غليوم الأشقر . ووجد أيضاً في نورمانديا خمسة قضاة ، وكان أحدهم ، أسقف ليزيو ، يتمتع بتفوقه على الآخرين ،

ويقوم بدور نائب عن الدوق، والآخرون قضاة متنقلون أو مستشارون في مجلس المالية .

ويمكن القول أن الأطر الادارية في انكلترا العصر الوسيط قد ثبتت في عهد هنري الأول ونشأ عن ذلك ضبط في ممارسة القضاء وفي جباية الضرائب وجدد جهاز الموظفين في الوقت نفسه : فمن ذلك أن الشرفاء في الكونتيات ، الذين يؤخذون من بين الارستقراطية النورماندية الصغيرة كانوا يطبقون القانون بشدة ، وباعتدال أيضاً ، ويتكيفون في الغالب مع التعاملات النورماندية ، وقد أوجدوا على هذا النحو نوعاً من وحدة قضائية بين مختلف أقسام المملكة . وبهـــذا الاعتبار أسهم حكم هنري الأول كثيراً في صهر الدومينات الواقعـة على جهتي المانش ، مفضلاً بالتدريـج القانون النورماندي على حساب القانون الانكليزي . وفيما يتعلق بالضرائب كانت اصلاحات هنري الأول أقـل عمقاً . ففي الميثاق الذي نشره غداة تسنمه العرش ، أعلن عن نواياه العادلة والمعتـدلة ، ولكن لايبدو انه تمسك بوعوده . ان الضرورات القاربة اضطرته أن يجبي ضريبـة الخراج بنفس الشدة التي كانت في عهد أسلافه ، وأن يطلب مساعدة أثقلت كاهل الطبقات العاملة . غير أن مشاغـــله الضريبية حملته على تشجيع النهوض الصناعي والتجاري . أليس في إغناء المدن خير وسيلة لتغذية الخزانة الملكية وبالتالي جعـــل الرسوم التي تفرض عليها أكثر فائدة ! ويبدو أن هذا هو السبب الذي حمل هنري الأول على تشجيع نمو التظم البلدية في المدن الانكليزية . فقد كان عدد هذه المدن قليلاً في بداية القرن الثاني عشر . وكانت الأماكن المحصنة القديمة أو التجمعات التي تشكلت حديثاً حول القصور النورماندية « الأبراج » ، في ذلك التاريخ ، لاتضم إلا عدداً صغيراً من السكان . وكان من صالح التاج تشجيع توسعها بسبب الموارد

التي يمكن أن تنتجها . ولذا فان هنري الأول تسامح بتشكيل حكومات بلدية حسب صيغة ميثاق بروتوي النورماندي الذي تبنته كثير من المدن الانكليزية دون أن يعارض التاج في ذلك . وكذلك شجع « أصناف التجار » ، وشجع بالتالي النمو الاقتصادي . وحصلت لندن خاصة على بعض الامتيازات التي يجب ألا نبالغ في أهميتها ، ولكنها كانت في أصل نهوضها في المستقبل .

تطور المملكتين الكابسية والانكليزية — النورماندية

من ١١٣٥ إلى ١١٥٤

وفاة هنري الأول (١ كانون الأول ١١٣٥) ولويس السادس (١آب ١١٣٧) — لقد توفي هنري الأول في ١ كانون الأول ١١٣٥ وتبعه لويس السادس في ١ آب ١١٣٧ . وإذا لم يؤد خلافهما إلى إي نتيجة ملموسة فان قوى المملكتين زادت بشكل محسوس وسجلت السلطة الملكية في كل منها تقدماً حقيقياً . ويبدو أن مستقبل المملكة الكابسية ، عند وفاة لويس السادس ، كان لامعاً بسبب النجاح الدبلوماسي الذي أحرزه .

زواج الأمير لويس آلينور اكيتانيا . — في نيسان ١١٣٧ كان دوق اكيتانيا ، غليوم العاشر ، في الحج في شنتياقب (القديس يعقوب في كومبوستيل) . وقد شعر بقرب منيته فرجا البارونات الذين يحيطون به أن يعهد بدوقيته وابنته آلينور إلى ملك فرنسا ، سيده ، ليخطب هذه الأخيرة لابنه . وهكذا كان . فقد قبل لويس السادس عرض تابعه وأرسل بالحال لويس الشاب إلى الجنوب يصحبه حرس فخم ونخص بالذكر أب دير القديس — دوني ، سوجر . وذهب الموكب إلى بوردو واحتفل بالزواج في آخر تموز ١١٣٧ عند وفاة لويس السادس . وعلى هذا النحو

مما الدومين الكابسي بمناطق : بواتو ، ليموزن ، اوفيرن ، بيريغور ، بوردوليه ، آجونيه ، وغاسكونيا . وأفتتحت آفاق كبرى نحو الجنوب في فجر الحكم الجديد .

خلف هنري الأول . — وفي انكلترا كان العكس ، لأن البلاد كانت على أهبة الحرب الأهلية . فقد هلك بن هنري الأول ، غليوم آدولن ، عام ١١٢٠ ، في حادث غرق السفينة « بلانش — نيف » وكان الملك مشغولاً بمستقبل دوله . وفي سنة ١١٢٦ عرف الناس بأن وريثته ابنته ماتيلد ، أرملة الامبراطور هنري الخامس ، التي تزوجت ثانية بالشاب **جوفروا بلانتاجونيه** ، الابن البكر لكونت آنجو فولك الخامس. ومن هذا الزواج أتاه في ١١٣٣ ولد ، هنري (هنري الثاني في المستقبل) ، ولكن الأمير الفتى كان عمره سنتين عندما توفي جده . وكان من الواضح ان يرجع انتخاب الملك الجديد بخاصة إلى إرادة البارونات .

ايتين ملك انكلترا . — لم تحكم انكلترا في الماضي امرأة ولم تكن أرملة هنري الخامس مسماة لتوجد سابقة : كانت متغطرسة متكبرة ، مستبدة ، منفرة ، وقد أخطأت في نظر الانكليز بزواجها من شاب من القارة ، آنجفي ، ولم يرض البارونات به ليحكم باسم زوجته . ولذا لم تحترم إرادة هنري الأول : وعندما ذهبت ماتيلد مع أخيها ، الدعي روبيرت غلوسستر ، إلى نورمانديا حيث توفي هنري الأول ، لتحضر جناز أبيها ، نادى بورجوازيو لندن وبعض البارونات ملكاً ايتين ، بن كونت بلوا ، ايتين - هنري ، ومن جهة أمه آديل ، حفيد غليوم الفاتح .

كان هنري الأول قد تبنى ايتين قبل أن يأمر البارونات بانتخاب ابنته ، وربما فكر بان يورث تاجه إلى إبن أخته . ولاشك في أن هذا الأخير بايع ماتيلد في عيد الميلاد ١١٢٦ مع الأمراء الآخرين ، ولكن

على مايدو أن هذه اليمين لم تضايقه كثيراً . فقد كانت له شعبية كبرى بين الانكليز في عيشه معهم وظهر مجاملاً للبارونات وكريماً مع الكنائس . وما كاد يعلم بموت الملك ، إلا وترك ماتيلد تقوم بواجباتها الأخيرة نحو أبيها ، وهرع إلى لندن حيث نودي بـه ملكاً وتغلب على تردد مطران كانتوربري وتوج في وستمنستر في ٢٣ كانون الأول ١١٣٥ وسلمه روجر سالزبوري مفاتيح الخزانة الملكية .

وفي القارة ، شايعت نورمانديا ايتين ، وأصبح بامكان هذا الاعتماد على مساندة أخيه تيبو بلوا ـ شامبانيا الذي أسعده أن يجد مساعدة انكليزية له في نزاعه ضد منطقة آنجو . وكذلك تخلى كونت غلوسستر نفسه عن أخته ولم يبق لماتيلد إلا ملك ايكوسيا ، دافيد الأول ، اخو اديث ، زوجة هنري الأول الأولى . ورأى هذا الأمير خاصة في نزاع وراثة الملك في انكلترا فرصة مواتية لاجتياح مملكة نورثمبرلاند القديمة التي ما برح الملوك الايكوسيون يطالبون بامتلاكها .

حكم ايتين . — لم يفد ايتين من الظروف المواتية التي أحاطت تسنمه العرش . فقد كان مجرداً من التبصر بعواقب الأمور ، وخيل إليه أن منح بعض الامتيازات للبارونات والاكليروس يكفي لتوكيد سلطته : ولذا دشن عهده بميثاق يؤيد الحريات الانكليزية وينمي سلطات الكنيسة وخاصة فيما يتعلق بالقضاء . رأى أن يهدىء ملك ايكوسيا ، دافيد ، بالتخلي عن بعض المدن لابنه ، هنري ، الذي أقسم له يمين الطاعة . وفي العام ١١٣٧ اقتنع بأن هذه التدابير أمنت السلام على أسس صلبة وذهب إلى القارة ليطالب ملك فرنسا بالاعتراف به وينهي المشكل مع جوفروا بلانتاجونيه ، كونت آنجو ، وزوج ماتيلد ، الذي اجتاح نورمانديا واستطاع

ايتين أن يحصل على مشايعة الملك الذي قلد نورمانديا إلى ابنه أوستاش ، وأن يبرم هدنة سنتين مع جوفروا ، وتعهد له بدفع مبلغ مائتي ألف مارك فضي سنوياً . وكان عليه أن يبقى ماااستطاع بعض الوقت في دوقيته حيث ماانفك أنصاره وخصومه يتجابهون ، ولكنه اضطر قبل آخر سنة ١١٣٧ إلى الرجوع إلى انكلترا ليقمع ثورة هوغ بيغوت وبودون روفير .

معارضة البارونات ، — لم تبد العملية أي صعوبة ، ولكن الاستياء نما في بحر العام ١١٣٨ : فقد أخذ على ايتين الافاضة بالانعام على محظيه وتوزيع الألقاب والمناصب والدومينات عليهم ، وإعاشة جيش من المرتزقة الفلاماندين حوله ، وإظهار سوء ظنه بالانكليز . وقام روبيرت غلوسستر على رأس الثائرين في الجنوب والغرب واستطاع أن ينظمهم بسهولة ، لأن ايتين بعد أن تصالح مع البارونات سمح لهم بتحصين قصورهم ، وفي هذه الأثناء اجتاح ملك ايكوسيا دافيد النورثمبرلاند .

ومع ذلك أخفقت الحركة ، لأن ايتين حمل على الايكوسيين وتغلب عليهم في واقعة الراية وأجبرهم على العودة إلى بلادهم ، ثم أطبق على المتمردين وأعاد النظام إلى مجراه واسترجعت السلطة الملكية ، لولا أن اخطاء جديدة أفسدتها .

معارضة الكنيسة . — وأكبر خطأ ارتكبه ايتين اساءته إلى الكنيسة التي كان مديناً اليها بوصوله إلى عرش انكلترا . ففي حزيران ١١٣٩ اوقف روجر سالزبوري بعد أن شك في اخلاصه وأخذ عليه قوته المفرطة . والواقع أن دور روجر كان أساسياً في عهد الحكم السابق وحاسماً بعد وفاة هنري الأول ، ثم نما نفوذه . فأراد الملك أن يضرب هذه القوة الناشئة قبل أن تصبح خطرة على التاج ، واستولى على قصوره وعلى أصحابها ، فارتكب بذلك خطأً كبيراً . وحاول أن يقنع الرأي العام

بأنه هاجم البارونات الاغنياء غنىفاحشاً ولم يهاجم الأساقفة. وكرهته الكنيسة ، حتى ان المفوض الحبري ، هنري أسقف وينشستر ، الذي كان تأثيره لايقل عن تأثير روجر سالزبوري ، وقف ضده .

وفقد ايتين شعبيته في نظر الارستقراطية ، وتخلى عنه الاساقفة ، وأصبح في وضع لايمكنه من المقاومة في اليوم الذي تثبت فيه ماتيلد حقوقها في التاج ..

الحرب الأهلية في انكلترا (١١٣٩ – ١١٤١) . — لقد وجدت ماتيلد بعض البارونات الذين دعوها إلى انكلترا ولكنها لم تحصل على أي نتيجة حاسمة ، ثم لاقت بعض النجاح الذي فتح لها أبواب لنكولن نوتنغهام ، اوكسفورد ، لندن (حزيران ١١٤١) .

ولكن هذا النصر لم يدم طويلاً ، لأن ماتيلد ارتكبت أخطاء ايتين نفسها : رفضت ان تعترف بقوانين ادوارد ، وصادرت أموال الكنيسة، وأبعدت الأسقف هنري وينشستر فأثارت استياء الاكليروس الأعلى . كما اساءت إلى اللوندنيين بسحقهم بالرسوم . وظهر حكمها استبدادياً كحكم ايتين . ثم أن فظاظتها المتكبرة حيال زوجة منافسها ، ماتيلد بولوني جعلت آخر من بقوا معها ينفضون من حولها . واستمرت الحرب الأهلية . وفي ٢١ حزيران ثارت لندن وأجبرت الامبراطورة على الانسحاب العاجل إلى اوكسفورد . ومن جهة أخرى ، أعلن المندوب الحبري ، هنري وينشستر ، صراحة ورسمياً عن عدائه الصريح للنظام الجديد . ثم تطورت الحال لصالح ايتين الذي عاود الهجوم وساندته كونتيات الشرق بينما ظل الغرب أميناً لماتيلد . وأخيراً،في العام ١١٤٧،بعد موت روبير غلوستر ، تخلت ماتيلد عن كل شيء وعادت إلى القارة .

فتح جوفروا بلانتاجونيه لنورماندیا. — وبقي ایتین ملكاً وحیداً على انكلترا ، ولكن وضعه فيها كان ضعيفاً . وخرجت نورماندیا من يده : وعندما كان يناضل ماتيلد ، فتح جوفروا بلانتا جونيه هذه الدوقية . ومنذ ذهب ایتین في العام ١١٣٧ كانت البلاد فريسة الحرب الأهلية . وحافظ المدعيان على انصارهما ، ولكن حتى ١١٤١ اكتفى جوفروا بأن يدعم ، ببعض الغارات المنعزلة ، البارونات الذين كانوا إلى جانب ماتيلد . ثم أخذ يفتح المدن واحدة بعد واحدة ، وفي أيار أو حزيران ١١٤٤ أخذ جوفروا لقب دوق نورماندیا ، واعترف به ملك فرنسا دوقاً مقابل تخليه عن جيزور . وفي السنوات التالية نظم الدوقية ، واحترم النظم النورماندية القديمة ، وفي خريف ١١٥٠ سلمها إلى ابنه هنري ، وكان عمره سبعة عشر عاماً .

انكلترا ونورماندیا في منتصف القرن الثاني عشر . — وبفضل نشاط جوفروا بلانتا جونيه خرجت نورماندیا من يد ایتین . وحكم في هذه المدة أيضاً على دولة غليوم الفاتح بالتجزئة . ان خمسة عشر عاماً من المنازعات السلاليه أبادت عمل التنظيم الصابر الذي حققه هنري الأول ، وولدت الحرب الأهلية الفوضى والدمار . وفي نورماندیا ، كان البارونات مقسمين بين ایتین وماتيلد ، وعاودوا حياة الاستقلال ، حتى ان جوفروا لاقى مشقة عظيمة في كبح جماحهم . وفي انكلترا ، فقد الملك كل سلطة على الكنيسة التي حققت استقلالها الذاتي ، بينما غطى البارونات البلاد بالقصور واغتصبوا الحقوق الملكية واثقلوا سكان الارياف بظلمهم وطغيانهم . وباختصار ، ان الازمة السلالية الطويلة ، التي تلت وفاة هنري الأول ، أدت إلى ضعف سياسي واقتصادي جعل انكلترا في حالة صغار حقيقي وانقص قوة مقاومة نورماندیا .

لويس السابع ملك فرنسا . — ويبدو أن الملك الكابسي أفاد من هذا الوضع . ولا شك في أن فيليب الأول ولويس السادس كانا يترقبان الفرص المواتية لذلك ولم يقصرا في الافادة . غير أن لويس السابع لم يبرهن على مثل هذه المهارة . كان عمره ست عشرة سنة عند وفاة أبيه ، وكشف منذ بداية حكمه عن طبع ضعيف ، متردد ، مستعد للانحناء أمام إرادة قوية ولو قليلاً . لقد رضخ أولاً لنفوذ أمه اديلائيد سافوا ، ولنفوذ الاكليركيين الذين ربوه ، وأخيراً إلى نفوذ الملكة آلينور التي أحبها ، كما يقول المؤرخون « حباً مفرطاً » . واضطرت اديلائيد أن تغادر البلاط ، ورأى الأب سوجر بسرعة أن نفوذه على الملك الشاب لايمكن أن يمنع الاخطاء السياسية التي يوحي بها طيش الملكة التي لايساوي طبعها مهرها .

دور آلينور اكيتانيا . — لقد قضت آلينور شبابها في وسط لم تلمع فيه النساء بشدنهن ، وتأثرت بذلك ، واتحدت فيها الخفة الشهوانية بالزهو الغنج . كانت عذبة ظريفة ولا تجهل أي تكلف أو اصطناع تستطيع أن تسيطر به على هذا الأمير الذي لايعرف شيئاً عن الحياة ، وان تفرض نفوذها عليه ، ودام هذا النفوذ إلى اليوم الذي عرف فيه لويس السابع شخصياً طيشها واستهتارها . أما في الوقت الحاضر فالملك على استعداد لأن يضحي بذوقه وتفضيله لهواه الجنوني . لقد كان من عادته أن يحترم الكهان وان يحيطهم به ويسألهم النصح . وكان نفسه تقياً جداً موسوساً مهتماً بتكييف حياته طبقاً لتعاليم الانجيل . وكانت الينور على عكس ذلك تماماً : فقد اعتادت في بلاط إكيتانيا على الضحك من الاكليركيين وعدم إطاعة أوامر الأساقفة . ولما انتقلت إلى القصر الكابسي شعرت بسرعة أنها غريبة ، وبفضل سحرها وجاذبيتها اضطرت

الملك أن يتخذ حيال الاكليروس موقفاً لا يتجاوب مع عواطفه الشخصية .

نزاع لويس السابع مع الكنيسة . — لقد تميزت بداية حكم لويس السابع بخلافه مع الكنيسة التي جعلها أبوه لويس السادس حليفاً للتاج . ففي رنس ١١٣٩ وسانس ١١٤٦ ، دعم الملك القومونات القائمة في وجه مطارنتها . وفي بورج (١١٤١) أراد أن يعاكس منتخب الكهنة ويضع اكليركياً من رجاله بأي ثمن . وتدخل البابا اينو سان الثاني للدفاع عن الحريات الكنسية ، وبعد أن خول الوشاح للمنتخب النظامي منع الاحتفال بالعبادة حيث وجد لويس السابع . واستمر الملك في عناده ، وشجعته آلينور على المقاومة ، وكانت تحقد على الكنيسة لأسباب شخصية : وذلك أن أختها ، بتروني اكيتانيا ، تزوجت السينيشال رؤول فرماندوا . ولابرام هذا الزواج الذي باركه أساقفة لانْ وسانليس ونويون طلق زوجته الشرعية، وتسمى آلينور أيضاً وهي ابنة أخ كونت شامبانيا تيبو الرابع . واحتجت الزوجة المهجورة ، وجاء مفوض حبري خصيصاً إلى فرنسا والغى زواج رؤول وبتروني ، وأمام ثورتها المشتركة على مقرارات الكنيسة حرمها وضرب أراضي كونت فرماندوا بالمنع . ودعم لويس السابع رؤول ارضاء للملكة ، وهذا العمل منه غير سياسي لأنه اصطدم في آن واحد مع الكرسي الأقدس والكونت تيبو الرابع الذي أخذ بناصر ابنة أخيه وقدم ضيافته للمفوض الحبري المكلف باعلان قرار الحرمان .

حرب الشامبانيا . — وفي ١١٤٢ ،وبايحاء من آلينور أعلن الملك الحرب على تيبو الشامبانيا وأحرق فيتري حيث هلك الف وثلاثمائة شخص في اللهيب ولم يكن هذا العمل الشاذ بالذي يرفع جاه الملك في أعين الكنيسة والبابا ، بل أثار استياءهما كما حرك وساوسه لأن هواه لآلينور لم

يطفىء عاطفته الدينية ، ولذا لم يستطع مقاومة ضميره ، وأدرك الاخطاء التي ارتكبها بحق الكنيسة والمملكة وبعض الاقطـــاعيين من أنصاره ، وتقبل قبولاً حسناً اقتراحات السلام التي عرضها عليه القديس برنار .

السلام مع كونت شامبانيا والكنيسة . — كان القديس برنار في هذا الظرف وسيطاً وحكماً : فقد أثر على الملك وكونت شامبانيا والبابا ، واستطاع بعد مفاوضات حثيثة أن يوطد السلام المدني والديني . جعـل بادىء بدء تيبو الرابع ولويس السابع يوقعان في ١١٤٣ **معاهدة فيتري** التي لم تصبح قطعية إلا في السنة التالية بعد أن أدت توسلات هذا الراهب السيستوسي الذي لايقاوم بالملك والملكة إلى الخضوع إلى متطلبات الكنيسة : فقد قبل لويس السابع أن يتخلى عن رؤول فرماندوا وان يعترف ببطرس شاتر ، منتخب الكهنة ، مطراناً لبورج ؛ وتعهد منذ الآن أن يقف أثناء الانتخابات الأسقفية عند الامتيازات التي تعترف بهـا القوانين له . ويبدو منذ قضية فيتري ان نفوذ آلينور على الملك أخـــذ يعادله نفوذ الاكليركيين ، وان الوساوس الدينية ولدت سياسة جديدة .

الحرب الصليبية الثانية . — وفي يوم عيد الميـلاد ١١٤٥ ، في بورج ، أعلن لويس السابع إلى بلاطـه بأنه قرر الذهاب إلى الأرض المقدسة لينجد الدول المسيحية بعـد أن سقطت الرهـا وجعلت الموقف حرجاً . وفي ١١٤٧ تابع هذا المشروع الذي عبر عنه بالاخفاق ، وكان محذوره أن جعل الملك ينسى الحوادث التي جرت في غرب المملكة . إلا أن السلام ، على الأقل ، ظل مخيماً في غيابه بفضل حكمة الأب سوجر الذي عهد اليه الملك بالوصاية قبل سفره .

حكم سوجر . — ولم يكن في وسع لويس السابع أن يختـار أفضل من هذا الأب الحكيم . نشأ سوجر في وسط متواضع ، وتثقف

ثقافة واسعة ونفقه في الادارة في دير القديس – دوني وما لبث أن أصبح له أباً في ١١٢٢ . ورغم انتقاد القديس برنار لسوجر ، لايسعنا إلا أن نعترف بالخدمات الكبرى التي قدمها للدير : فهو الذي عمر الزمني فيه بادارة عاقلة حكيمة يجتمع فيها القلق في تخفيف تكاليف فلاحي الدومين والاهتمام الدائم بالا يترك أي مورد يفر من يده . وفوق ذلك رفع ووسع الكنيسة القديمة التي هددت بالخراب ، وجلب إلى القديس – دوني الفنانين اللانغدوقيين والبورغونيين والفلامان . وحتى ١١٤٧ لم يساهم بحكم المملكة إلا قليلاً : فقد عهد اليه لويس السادس بعدة مهمات لدى البابا وكلفه بتربية ابنه ، ومن ١١٣٧ إلى ١١٤٧ ابعدته كراهية آلينور له عن شؤون المملكة خوفاً من تأثيره على الملك ، ولكن لويس السابع كان يثق به حتى بدا له ، عند ذهابه للحرب الصليبية ، رجلاً ضرورياً للحفاظ على السلام في داخل المملكة .

وقام سوجر بهذه المهمة باعجاب ، ومع ذلك لم توفره الصعوبات ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها بالاعتماد على مجلس من الاساقفة والبارونات ، وقدم بذلك خدمة حقيقية للملكية . وفي الوقت نفسه استطاع ، بفضل تنظيمه المالي ، أن يؤمن حاجات الحرب الصليبية دون أن يضغط على أحد . وعندما عاد لويس السابع إلى فرنسا في عيد جميع القديسين ١١٤٩ وجد الحالة أحسن مما تركها ، ولكن موت سوجر (في ١٣ كانون الثاني ١١٥١) المفاجيء ، في الوقت الذي افتتحت فيه أزمـــة بالغة الخطورة ، كان نكبة للمملكة .

لويس السابع والقضية الآنغلية – النورماندية . – ولم يعرف لويس السابع كيف يجنب هذه الأزمة . إن الخلاف مع الكنيسة ،

والنزاع مع تيبو الرابع ، والحرب الصليبية الثانية ، لم تحول نظره عن القضية الآنغلية — النورماندية التي سيطرت حتى الآن على السياسة الكابسية . ونظراً لانصرافه نحو أهداف أخرى ، لم يعرف كيف يفيد من الحرب الأهلية التي قامت عند موت هنري الأول . ولاشك في أنه كان يشعر بضرورة الحيلولة دون اتحاد الآنجو و نورماندیا . وغداة جلوسه على العرش ، عام ١١٣٧ ، قبل الاحترام الذي قدمه اليه اوستاش الابن البكر لايتين ، بغية اخفاق ماتيلد . ولكنه لم يدعمه بجد وترك جوفروا يفتح نورماندیا ، ويأخذ لقب دوق في ١١٤٥ . وبالرغم من تعهداته لاوستاش ، صادق على الأمر الواقع مقابل التنازل عن جيزور ، لأنه كان ، في ذلك التاريخ ، يفكر في الذهاب إلى الأرض المقدسة . وعند عودته ، أبدى بعض الاستياء ، لأن ابن جوفروا ، هنري ، تأخر في تقديم احترامه من أجل نورماندیا ، ولأن جوفروا في أيار ١١٥١ سجن في آنجيه صديقه جيرو برليه ، أمير مونتروي — بيلليه ، ولكنه اقتصر على التهديد واكتفى بأن يقسم هنري له اليمين ، وان تترك له بعض المناطق في الفيكسان ليوقع مع جوفروا السلام الذي وضعت بفضله آخر معالم الامبراطورية الآنجفية .

تشكيل الامبراطورية الآنجفية . — توفي جوفروا بلانتاجونيه في ٧ ايلول ١١٥١ وخلفه ابنه هنري في اقطاعه ، وحقق بذلك اتحاد آنجو مع نورماندیا التي قلد إدارتها . وأضاف الأمير الشاب إلى هذين الاقليمين في السنة التالية ، دوقية اكيتانيا . إن انحراف سلوك آلينور ، التي أخذها لويس السابع معه إلى الحرب الصليبية الثانية ، أثار غيرة الملك ، وعند عودته فكر بالانفصال عنها . وقد سبق للقديس برنار ان كشف عن روابط القرابة التي تجعل هذا الزواج حراماً . وفي مجمع بوجانسي

فسخ الزواج ، فتقدمت آلينور بشخصها ومهرها إلى هنري بلانتاجونيه الذي ستصير إليه انكلترا أيضاً .

ناهز الملك ايتين السادسة والستين من عمره وظلت سلطته ضعيفة . وبقيت الكنيسة معادية له ، وكان مجموع السكان يطالب بأن يعطى لأمير يعرف كيف يحكمه ويبعث السلام في النظام . وهذه الكراهية العامة لم يكن من شأنها إلا أن شجعت مزاعم ابن ماتيلد بالتاج الانكليزي . وفكر ايتين بالخطر : وفي ١١٥٢ حاول أن يشارك ابنه الخاص ، اوستاش ، بالملك ، ولكن الأساقفة قابلوه برفض رسمي صريح . فرأى هنري بلانتاجونيه في ذلك دعوة للاستيلاء على التاج : وفي كانون الثاني ١١٥٣ نزل في انكلترا يصحبه حرس عديد ، ولم يحصل مع ذلك على المشايعة المباشرة والاجماعية التي أمل بها . ولكن ، بعد موت اوستاش ، بن إيتين ، تطورت الحالة لصالحه . وارتأى البارونات عندئذ أن يوقع ايتين معاهدة ويلنغفورد ، وبموجبها تبنى هنري واعترف به وارثاً له . ثم توفي الملك العجوز وخلفه هنري الثاني بلانتاجونيه دون أقل نزاع . وتألفت الامبراطورية بصورة قطعية .

وهكذا تشكلت دولة واسعة قوية مغايرة للدولة التي شادها غليوم الفاتح . ومقابل المملكة الكابسية التي أخذ يرتسم أمامها في العام ١١٣٧ المستقبل المشع قامت في العام ١١٥٤ امبراطورية كبرى ضمت انكلترا إلى دومين قاري واسع . وفي أقل من عشرين عاماً تبدلت الحالة تماماً ، وسيأخذ التنافس الآنغلي ـ الفرنسي الناشىء عن فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، حدة متزايدة . وعرف هنري بسرعة كيف يعيد بناء انكلترا بعد أن أضعفتها الحرب الأهلية . ومن جهة أخرى ، إذا كانت بداية حكم لويس السابع أدت بالكابسيين إلى تراجع أرضي ، فان القوى التي أوجدها فيليب الأول ولويس السادس بقيت سليمة وسيعرف فيليب اوغست كيف يستعملها .

الفصل الثاني والثلاثون

الحرب الصليبية

تكوين فكرة الحرب الصليبية

مشروع الحروب الصليبية . — إن الخلافات الدينية والسياسية التي قسمت الغرب الأوربي ، في آخر القرن الحادي عشر ، لم تمنع بقاء الوحدة المسيحية وتوكيدها أمام الاسلام ؛ وان الحملة ، التي أدت في العام ١٠٩٩ إلى أخذ القدس ، على أيدي الفرسان الغربيين ، كانت تضم ، تحت ادارة البابوية ، فرنسيين وألمانيين ونورمانديين وانكليز واسبانيين ؛ وبينما كان نزاع الكهنوت والامبراطورية يدور فى المانيا وايطاليا ، والكابسيون في الغرب يتجابهون مع الملوك الآنغليين — النورمانديين ، اهتز البارونات والجماهير الشعبية ، ولبوا نداء الحبر الروماني ، واندفعوا نحو الشرق لحرب الاسلام في ملحمة كبرى سميت الحرب الصليبية الاولى.

ولم يكن هذا المشروع الكبير ، كما ظن أحياناً ، ثمرة حماسة عفوية ، أو اندفاعاً مباشراً ، بل ظهر ، على العكس ، نتيجة مخاض نشيط ، ومن المهم ، قبل كل شيء ، أن نرسم مراحله المتتابعة .

القضية الاسلامية في القرن العاشر . — لم يثر فتح البحر المتوسط على أيدي المسلمين في القرن السابع والثامن من جانب العالم الغربي رد فعل مباشراً . وظلت الدول المسيحية ، حتى منتصف القرن الحادي عشر

تدافع بمشقة عن مواقعها دون أن تحاول استرداد الاراضي التي فقدتها ، وتلاءمت مع الوضع المتصاغر الذي نجم عن النكبة الكبرى ، واكتفت بتسوية لارضاء تقوى المؤمنين . ولم يمنع هـذا الوضع الحج إلى الديار المقدسة ، وتسامح به المسلمون فكثر في القرن العاشر . ومما لاشك فيه أن الحج لم يخل من كل خطر . ولكن أليس في ركوب الاخطـــار وسيلة للسلام ؟ لقد كان طريق فلسطين يعج بنخبة الحجاج المسيحيين ممن يهتمون بتقديسهم الشخصي ، وبكبار المجرمين الذين يجدون في التوبة وسيلة للعفو .

إن فكرة الذهـاب إلى الأرض المقدسة وتخليصها من أيدي المسلمين لم تخامر فكر الغربيين في القرن العاشر ولا في القسم الأعظم من القرن الحادي عشر . وكان يبدو أن الاغريق وحدهم أهل للقيام بمبادهة الاسترداد وتخليص الاراضي المقدسة من أيدي المسلمين . غير أن الواقع دل على أن الهجوم على العالم الاسلامي ، من قبل الدول المسيحية ، قد أتى من البلاد الواقعة حول البحر التيراني : فمن ايطاليا وبروفانس واسبانيا ، تلقى الاسلام هجمات الأمراء المسيحيين الغربيين ، ولم تكن الحرب الصليبية ، في آخر القرن الحادي عشر ، إلا امتداداً في الشرق للنزاع الذي جرى في أشباه جزر غربي المتوسط .

فتح النورمانديين لصقلية . — لقد لعبت القضية الاسلامية ، كما رأينا ، دوراً هامـاً وأساسياً في السياسـة الايطالية في القرن العاشر . ولا شك في أن النفوذ الاسلامي ، بعـد معركة غاريليـانو (٩١٥) وسقوط فرينيه (٩٧٢) ، قد زال من ايطاليا القـارية وبروفانس ، ولكنه تماسك طويلاً في صقلية واضطر الاغريق إلى الانسحاب . وحتى

منتصف القرن الحادي عشر اجهضت جميع المحاولات لاسترداد الجزيرة . وكانت نكبة رأس كولون خاتمة الحملة التي قام بها في العام ٩٨٢ اوتون الثاني . ومن جهة بيزنطه لم يكن الخصي جان ، في العام ١٠٣٥ ، أسعد حظاً عندما حاول اقتلاع صقلية من سلطة المسلمين . غير أن استقرار النورمانديين في ايطاليا الجنوبية فتح دوراً لحرب الاسترداد : ففي ١٠٦٠ عبر روجيه غيسكار مضيق مسينا ، فرد على أعقابه ، ثم جدد جهده في شباط ١٠٦١ فباء بالخيبة . وعندئذ أدرك صعوبات المشروع وعدم كفاية التعبئة ، وبمساعدة أخيه روبير استولى على مسينا في صيف ١٠٦١ . وبفضل هذه النقطة الصلبة استطاع أن يتوغل في داخل الجزيرة عندما دعاه أمير سيراكوزة ، **ابن الثمنة** ، وكان في حرب مع أمير جيرجانتي ، **ابن الحواس**، والتحم مع هذا الأخير في معركة غير فاصلة أمام كاسترو — جيوفاني وعوض نفسه عن هذا النصر المزيف بنهب جيرجانتي . ولكن مقتل ابن الثمنة ، في ١٠٦٢ ، حرمه من حليف ثمين ، ورده ، خلال فترة من الزمن ، إلى دور الدفاع . وفي العام ١٠٦٣ حاز نصراً مبيناً في **سيرامي** وتقدم في منطقة كاستروجيوفاني . وفي ١٠٦٤ ساعده أخوه روبير من جديد وحاصر بالرمو ولم يستطع انتزاعها . وعقب هذا الاخفاق جمد عدة سنوات . وفي العام ١٠٧١ قام الهجوم الحاسم وسقطت على اثره **كاتان** في تموز ١٠٧١ ثم **بالرمو** (كانون الثاني ١٠٧٢) . وسقط الحكم الاسلامي في صقلية ، واستقر روبير غيسكار في بالرمو وفي مسينا ، بينما احتل روجيه ، تحت سيادة أخيه ، باقي الجزيرة وانتزع بعد ذلك آخر ما تبقى فيها من المواقع الاسلامية .

الحكم الاسلامي في اسبانيا . — وعندما كان الاسلام يجلو عن

صقلية تحت ضغط النورمانديين ، كان النزاع محتدماً في شبه جزيرة ايبريا ، حيث استطاع العرب ، بعد انسحابهم من غاليا على أيدي الامراء الكارولنجيين، البقاء وتثبيت مواقعهم . وبعد دور مديد مليء بالمنازعات الداخلية أمتد طوال القرن التاسع ، أخذ ممثل السلالة الأموية عبد الرحمن الثالث في العام ٩٢٩ لقب خليفة ووطد الوحدة بين رجاله وتشكلت حول قرطبة امبراطورية متجانسة عرفت في منتصف القرن العاشر اشراقاً حقيقياً . فمن ٩٣١ إلى ٩٧٤ شغل فتح المغرب وتخليصه من أيدي الفاطميين ، الخلفاء ، ولكن عندما انتهى هذا المشروع بدأ الهجوم في الشمال على المسيحيين وأخذ برشلونة في ٩٨٦ ثم ريبول في ١٠٢٧ — ١٠٢٨ ، وحول ١٠٤٥ توصلت الجيوش الاسلامية إلى قلب كاتالونيا وهددت من جديد بعبور حدود البيرينه . وتواجد هذا التقدم مع النصر على البحر ، فقد فتحت ساردينيا ، ونهبت آنتيب (١٠٠٣) ، وبيزا (١٠٠٥ و ١٠١٦) . واربونه (١٠٢٠) .

وهكذا ارتسم ، في بداية القرن الحادي عشر ، هجوم اسلامي جديد على البلاد المسيحية الغربية ، غير أن المنازعات الداخلية حالت دون الوصول إلى جني الفوائد المتوخاة . وإذا كان عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) والحكم الثاني (٩٦١ — ٩٧٦) قويين ومحترمين ، فان ابن الثاني ، الهيثم الثاني ، لم يستطع التغلب على المقاومة التي وقفت في سبيله وقلبته في (١٠٠٩) . ثم توالت الثورات ، وتجزأت خلافة قرطبة إلى عدة أمارات متنافسة . إلا أن دولة سرقسطة حافظت بهمة المقتدر (١٠٣٩ — ١٠٨١) على قوة توسعها وشملت الأمارات التابعة في لاردة(ليريدا) ، و وشقة (هويسكا) وقلعة أيوب . وبالاجمال ، ان الامبراطورية العربية المجزأة المقسمة لم تكن على درجة من القوة التي كانت لها في زمن خلفاء قرطبة

الكبار ؛ وفي منتصف القرن الحادي عشر، كان الوقت مناسباً في اسبانيا كما في صقلية ، للقيام بحرب استردادية مسيحية .

الممالك المسيحية في اسبانيا . — ولم يكن هذا الاسترداد ممكناً دون مساعدة خارجية ، لأن شبه الجزيرة الايبرية لا تستطيع تحرير نفسها بقواها الخاصة ، حتى ان الممالك المسيحية التي استطاعت أن تتماسك لم تتصرف إلا بوسائل ضعيفة وغير كافية . لقد كانت اسبانيا الشمالية في حالة تجزئة غير صالحة للقيام بمشروع عسكري . وفي القرن العاشر أصبحت بلاد بنبلونه (بامبلون) ، التي كانت في السابق داخلة في الثغر الكارولنجي ، نواة لمملكة مستقلة وامتدت على يد سانش الكبير (٩٩٤ — ١٠٣٥) على الحوض الأعلى لنهر الايبر : فقد ضم هذا الأمير العظيم إلى النافار قشتالة بعد أن انتزعها من ليون ، والاقاليم البشكنسية،البه(الافا) غويبوزكووا وبسكاي ، وكونتيات آراغون وسوبرارب . ولكن دولته ، التي كان من الممكن أن تأخذ على عاتقها توجيه الدفاع ضد الاسلام ، تجزأت بعد موته (١٠٣٥) إلى عدة امارات ضعيفة : ففي الغرب ، استعادت قشتالة استقلالها وانضمت من جديد إلى مملكة ليون المؤلفة من آشتوريا ، كانتابريا جيليقية (غاليس) وبلاد برغش (بورغوس) (١٠٣٧) ، وحكم ملكها فرناند الأول الكبير (١٠٣٥—١٠٦٥) البلاد التي تمتد من نهر دويره(دورو)إلى خليج غاسكونيا ؛ وفي الشرق : الآراغون التي انفصلت عن النافار ايضاً كان مركزها بلاد جاقة(جاكا)ومنها أمتدت تدريجياً،تحت حكم رامير الأول(١٠٣٥— ١٠٦٣) ، على السفح الجنوبي لجبال البيرنيه ، بينما ضم في الجنوب ، حوالي ١٠٤٥ ، السوبرارب . وبين آراغون والبحر بقي الثغر الاسباني القديم تحت اسم كونتية برشلونه ؛ وفي ٩٨٦ أدى الهجوم الاسلامي إلى سقوط عاصمتها ، وما لبث الكونت بوريل ان استعادها ، ولكن رامون

بوريل (٩٩٢ — ١٠١٨) تقاتل مع المسلمين من جديد وأصبح وجود امارته المطوقـــة في الجنوب والغرب من دولة سرقسطة القوية ، غير أكيد .

وباختصار ، لقد كانت اسبانيا الشمالية في منتصف القرن الحادي عشر مقسمة إلى أربعة دول مسيحية قائمة حول حوض الايبر ، وقيمتها تأتي من وضعها الجغرافي على حافة البيرنيه ، وإذا ردت إلى نفسها لما استطاعت أن تعمل شيئاً ضد الاسلام . لقد كانت مجردة من كل قوة دفاعية ومن الممكن أن تغرق في حال تشكل وحدة إسلامية ، وهذا ما فهمه أبناء الجانب الآخر من جبال البيرينيه حيث فكر في وقت مبكر بتقوية هذا الحصن الضعيف للبلاد المسيحية الغربية .

بوادر الحرب الصليبية في اسبانيا . — يرجع تاريخ الحرب الصليبية الاولى في إسبانيا إلى عام ١٠٦٣ . فقد تهيأت في القرن الحادي عشر بحوادث مختلفة : يأتي في الدرجة الاولى **الاحلاف الزوجية** التي قربت العائلات الاميرية في كلا البلدين : لقد كان سانش الأكبر (٩٩٤ — ١٠٣٥) ابن حمي سانش — غليوم ، دوق غاسكونيا ؛ وتزوج رامير الأول ملك آراغون ، حوالي ١٠٣٨ ، أميرة من بيغور ، ارميسند ، وكانت أخت هذه ، ايتينيّت ، في ذلك الحين ، ملكة نافار ؛ وأصبحت ابنة رامير الأول كونتس تولوز بزواجها من غليوم ، بينما تزوج كونتا برشلونة ، رامون بوريل (٩٩٢ — ١٠١٨) و رامون بيرانغر الأول (١٠٣٥ — ١٠٥٠) باميرتين من بيت قرقشونة ، وفي الآجل ستكون آلموديس المارش الليموزينية كونتس برشلونة ، وستتربع كونستانس البورغونية ، بزواجها من الفونسو السادس ، على عرش قشتاله . وأخيراً ، بين ١٠٥٠ و ١٠٦٠ ، تم زواج فيليسي ، ابنة كونت روسي هيلدوَن بابن ثان

للملك آراغون ، سانش راميريز ، يمكن أن يعتبر سبباً مباشراً للحرب الصليبية الاسبانية التي كان أحد زعمائها ايبل روسي ، ابن حمي سانش .

وهكذا نشأت علاقات وثيقة بين الممالك المسيحية في اسبانيا والاقطاعات الكبرى الفرنسية في الجنوب والشرق ، ولا غرابة منذ ذلك الحين أن تجهز هذه الاقطاعات بخاصة الفرسان الذين يكافحون الاسلام في شبه الجزيرة . وارتسمت أيضاً علاقات سياسية : ففي تشرين الأول ١٠١٠ ذهب سانش الكبير إلى مدينة القديس يوحنا آنجيلي ، والتقى فيها بملك فرنسا ، روبير التقي ، ودوق اكيتانيا ، غليوم الكبير ، وكونت بلوا ، اود ، ولكن لم يكن ذلك إلا اتصالاً بسيطاً ، حتى ان آدمار شابان الذي يذكر لنا قصة هذا اللقاء لا يأتي بأي تلميح عن مفاوضات للقيام بحملة فرنسية في اسبانيا . وفي العام ١٠٢٧ رجا سانش ، في نزاعه ضد المسلمين ، مساندة ابن حميه ، سانش - غليوم ، الذي أتاه بجيوش غاسكونية وبمساعدته استطاع أن يفتح سينكو فيلاس ويوطد نفوذه في وادي الايبر . غير انه لايمكننا أن نصف هذه العملية بحرب صليبية ، كما لا يمكن أن نعطي هذا الاسم إلى الجولة الاسطورية التي قام بها النورماندي روجيه الثاني التونيئي الذي هرع بعد ١٠١٨ . لنجدة الوصية على برشلونة ، ارميسند .

الحرب الصليبية الفرنسية الاولى في اسبانيا (١٠٦٣ — ١٠٦٥) . — لم توجد ، حتى منتصف القرن الحادي عشر ، حرب صليبية على سبيل الحصر . بل يلاحظ ، بعد وفاة سانش الكبير (١٠٣٥) ، بعض الهدوء في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين . فقد اقتصر خلف سانش في نافار، غارسيا ، على بعض العمليات التفصيلية التي ثبتت سيطرته على الحوض

الأعلى لنهر الايبر . وحاول معاصره ، راميرو الأول في آراغون (١٠٣٥ — ١٠٦٣) الحصول بالدبلوماسية على امتيازات للمسيحيين في دولتي سرقسطة وتطيله (توديلا) ؛ ومع هذا ، ففي ١٠٦٣ ، ولأسباب لا تعرف جيداً عاود الهجوم على الاسلام زاحفاً على بربشتر (بارباسترو) ، ولكنه قتل بينما كان يحاصر غرادوس (أيار ١٠٦٣) .

وأثار هذا الحادث المفجع استياءً عميقاً في اسبانيا وفي العالم الغربي . وكانت البابوية أول من تأثر له ، حتى ان البابا الكسندر الثاني فكر حالاً بتنظيم حملة لدرء الخطر الذي لم يقدره الكرسي الأقدس حق قدره حتى حادث غرادوس . وتلبية لدعوة الحبر الروماني ، جمع غليوم مونتروي جيشاً في ايطاليا الجنوبية ، كما جمع الشامباني ايبل روسي ، ابن حمي سانش راميريز ، جيشاً من فرنسيي الشرق وانضم اليهم نورمانديون ؛ وأخيراً هرع الاكيتانيون . وسمي دوقهم ، غي جوفروا ، قائداً أعلى لجميع الجيوش الفرنسية والايطالية . وهكذا تهيأ العالم الغربي تحت أمر البابا للهجوم على الاسلام ، ونشأت فكرة الحرب الصليبية .

لقد تجاوز نجاح الحملة كل أمل . وفي ربيع ١٠٦٤ نفذ الاكيتانيون إلى وادي الايبر وانضموا إلى غليوم مونتروي وذهبوا لحصار بارباسترو ودخلوها في آخر تموز ١٠٦٤ . وإذا سلمنا بما تقوله المصادر الاسلامية ، وجدنا أن انتصارهم قد تلطخ بكل أنواع الشطط . ومهما تكن قيمة هذا الحكم فالصحيح هو أن الغنائم التي كسبها الصليبيون كانت كثيرة ، وان الصليبيين الذين بقوا لحماية الموقع استسلموا بسهولة لحياة البذخ التي لا تتفق وتعاليم الاخلاق المسيحية . وفقدوا على هذا النحو قوة كفاحهم وأصبحوا في حالة لاتمكنهم من الصمود أمام هجوم اسلامي معاكس .

وهكذا عادت المدينـــة فسقطت في أيدي المسلمين ، وانتهت الحرب الصليبية الايبرية الاولى ، رغم بدايتها الطيبة ، بالاخفاق .

أخذ طليطلة على يد الفونسو السادس (١٠٨٥) . — وفي السنوات التالية ضعف وضع المسيحين الاسبانيين . ولكن فكرة تخليص شبه الجزيرة من السيطرة الاسلامية ، بمساعدة الفرسان الفرنسيين ، ظلت مستحكمة دوماً . ان زواج الفونسو السادس ، ملك قشتالة ، من كونستانس ، أخت هوغ ، دوق بورغونيا ، أثار ، في ١٠٧٩ ، الأمراء البورغونيين وقادهم هوغ بنفسه . وفي آراغون كان سانش — راميرز (١٠٦٣ — ١٠٩٤) ، بعد ضم النافار إلى مملكتـه (١٠٧٦) ، تخامره فكرة الاسترداد ولم يكتم أمله : ففي ١٠٧٣ ، دعا من جديد ابن حميه ايبل روسي ولم يتوصل هذا إلى نتائج ذات أهمية . وفي ١٠٨٠ استؤنف النزاع ، وما فتئت البابوية تشجعـه في عهد غريغوار السابع والكسندر الثاني ، وعهد في هذه المرة بادارة الهجوم إلى قاهر بارباسترو ، غي جوفروا ، دوق اكيتانيا . ولا يعلم على وجه الدقة الميزان الصحيح لهذه الحملة التي اشترك فيها أمراء بيغور و بيارن ، ولكن يعلم ، من ١٠٨١ إلى ١٠٨٥ بفضل المنافسات بين الأمراء المسلمين الذين يتنازعون خلافة ملك سرقسطة ، المقتدر ، ان المسيحيين الاسبانيين الذين يساعدهم الغاسكونيون واللانغدوقيون الذين يقودهم فيكونت اربونة و كونتات قرقشونة وبيغور ، قووا الفوائد التي حصلوا عليها وتقدموا نحو بارباسترو (بربشتر) وتوديلا(تطيلة) . وفي الوقت نفسه ، في أيار ١٠٨٥ ، أخذ الفونسو السادس ، ملك قشتالة ، طليطلة ، فتوج هذه الانتصارات .

رد الفعل الاسلامي . — ويبـدو في ذلك التاريخ ، ان الاسلام اضطر ، لأجل قصير ، أن يستسلم تحت ضغط الفرسان المسيحيين ولفترة

بضع سنين عادت الحالة إلى ما كانت عليه تماماً . لقد هز هجوم غي - جوفروا والفونسو السادس المسلمين بقوة ، ففكروا بنجدة أبناء دينهم من افريقية ، وعقب تفتيت الامبراطورية العربية وضع المرابطون تحت سيطرتهم المغرب العربي كله والفوا دولة قوية ، عاصمتها مراكش ، قادرة على التوسع والفتح . وفي ٣٠ حزيران ١٠٨٦ نزلوا في الجزيرة الخضراء ، وأطبقوا في الزلاقة ، بالقرب من باداجوز ، على الجيش المسيحي ، المؤلف من اسبان وفرنسيين . وفكر الفونسو السادس بالتراجع حتى البيرينيه ، بينما تخلت جيوش آراغون ونافار عن حصار سرقسطة ، كما تخلى كونت برشلونة عن حصار طرطوشه (تورتوزه) ، وازدادت الحالة سوءاً بموت غي - جوفروا . وعلى هـذا النحو أصبح من الصعب تنظيم حرب صليبية جديدة .

حرب صليبية فرنسية جديدة في اسبانيا (١٠٨٧ - ١١٠١) . - ان النصر الذي حققه المرابطون في الزلاقة أيقظ حمية الفرسان الفرنسيين ، وفي جميع الاوساط التي كان الناس يتابعون فيها باهتمام حوادث اسبانيا ، كانت تتخذ الأهبة لدحر الفاتحين الجدد . وتجمع النصوص ، وان كانت تنقصها الدقة ، على الاشارة إلى الزخم والاندفاع في كل مكان ، و « ذهبت ألوف الفرنسيين إلى اسبانيا » ، كما يقول المؤرخ السينوني كلاريوس . ويميز فيهم ثلاث فرق :

١ - البورغونيون والشامبانيون بزعامة الدوق اود .

٢ - النورمانديون والبواتفيون (سكان اقليم بواتو) والغاسكونيون وزعيمهم فيكونت مولن ، غليوم شاربانتيه .

٣ - اللانغدوكيون والبروفانسيون وقائدهم الكونت ريمون سان جيل .

ويبدو أن نتيجة هذه الحرب الصليبية لم تكن متناسبة مع الجهد العجيب الذي بذل لها : لقد أخذ الصليبيون ايستيلا على حدود نافار ، ولكنهم اخفقوا أمام تطيلة (١٠٨٧) ، فثبطت همتهم وعادوا إلى فرنسا عدا البورغونيين الذين ساعدوا الفونسوا السادس على تقوية نفسه على نهري دويره والتاج . وظل حكم المرابطين في اسبانيا سليماً .

ثم استؤنفت الحرب الصليبية عام ١٠٨٩ وكان البابا اوربينو الثاني دافعاً لها . وكما رأينا ، ينتمي هذا البابا إلى أسرة نبيلة قديمة في اقليم شامبانيا ، ولد نحو ١٠٤٠ في شاتيون على المارن وكان عمره عشرين أو خمسة وعشرين عاماً عندما قاد ابن وطنه ايبل روسي الفرسان الفرنسيين للهجوم على بربشتر (بارباسترو) . ومن هنا يفهم بأن البابا الذي قضى شبابه في هذه البيئة كان ، منذ بدء حبريته ، مأخوذاً بفكرة الاسترداد المسيحي في اسبانيا . وسمع نداؤه ، وخاصة في جنوب فرنسا ، حيث تجمع الجنود الذين سيقاتلون لخلاص شبه الجزيرة . وكان هدف هذه الحرب الصليبية الجديدة وشقة (هويسكا) أهم موقع في مملكة سرقسطة ، ولكن لم يتوصل اليها إلا بجهد طويل مستمر . وفي العام ١٠٨٩ انتزعت مونسون ، ثم في ١٠٩١ أو ١٠٩٢ ناباك ، بينما استولى إرمنغول الرابع من ارقله (اورجيل) على بالاغير في اتجاه لاردة (١٠٩١) . ثم تبع ذلك فترة توقف ثبت فيها الصليبيون وقووا المواقع التي فتحوها . وفي ١٠٩٤ هاجم سانش راميريز هويسكا أخيراً . ولكنه جرح جرحاً مميتاً أثناء الهجوم في ٤ حزيران ١٠٩٤ وفي العام ١٠٩٦ فقط بعد انتصار الغاسكوثيين في الكوراز (١٨ تشرين الثاني ١٠٩٦) سقطت المدينة في يدي خلف سانش ، بطرس الأول ، الذي أقام فيها عاصمته : وسيتم استسلام بربشتر (١١٠١) هذه الانتصارات الفرنسية في اسبانيا .

البابوية والحروب الصليبية . — إن تحرير قسم عظيم من شبه جزيرة ايبريا كان يتواجد مع الزحف على القدس (١٠٩٦ — ١٠٩٩) ، وقد تقرر هذا الزحف في شهر تشرين الثاني ١٠٩٥ في **مؤتمر كليرمون** . وينتج من الصفحات السابقة أن الهجوم المسيحي على الاسلام الذي أطلق عليه اسم « الحرب الصليبية » كان أولاً في أشباه جزر غربي المتوسط . ولا شك في ان حملة صقلية بسبب اطماع النورمانديين لم يكن لها صفة الحرب المقدسة ، وحتى في اسبانيا فاق الروح الأميري على الروح الديني . ومهما يكن فقد تابعت البابوية هذه المشاريع عن كثب . ومنذ آخر الدور الكارولنجي اعتبرت الدفاع عن المسيحية ضد الاسلام جزءاً من امتيازاتها وخصائصها . وإذا نجت شبه الجزيرة الايطالية ، في بداية القرن العاشر ، من السيطرة الاسلامية فالفضل في ذلك يرجع إلى البابا جان العاشر . وفي القرن الحادي عشر ، عندما ارتسم الاسترداد المسيحي ، ظل الكرسي الأقدس أميناً على تقاليده ، وأهتم بالنزاع وأخذ يطالب بالحقوق العليا على اسبانيا باسم هبة قسطنطين المنتحلة . وفي ١٠٦٣ استلم الكسندر الثاني زمام المبادهة في الحملة التي أدت إلى سقوط بربشتر ؛ وفي المرسوم الحبري المؤرخ في ٣٠ نيسان ١٠٧٣ خول غريغوار السابع الصليبيين التمتع بالاراضي التي يأخذونها من المسلمين ، شريطة أن يعترفوا بأنها أتتهم من القديس بطرس ، لأن مملكة اسبانيا « كانت تابعة في القديم إلى القديس بطرس » ، وظلت ، بالرغم من سيطرة الوثنيين الطويلة « تابعة للسدة الرسولية » . اليس في ذلك دليل واضح على أن الحرب الصليبية الفرنسية في اسبانيا كانت تحت اشراف الحبر الروماني وتوجيهه الأعلى !

ولكن هل فكرت البابوية بعد هذا الهجوم على الاسلام في الشرق ؟

لقد تصور غريغوار السابع إرسال نجدة عسكرية إلى الامبراطور البيزنطي لمساعدته على كفاح البتشينيغ ، ولكن هذا التدبير ، باعتراف البابا ، كان يراد منه ايجاد استعداد ملائم عند الاغريق لاتحاد كنائس روما والقسطنطينية الذي انكسر قبل بضع سنين بشقاق ميشيل سيرولير . ولكن هذا المشروع لم تكن له نتيجة ، وقد حول النزاع بين الكهنوت والامبراطورية اهتمام غريغوار السابع عن الشرق بسرعة . غير أن الحرب الصليبية التي ظلت محدودة في الغرب أخذت تعم في حبرية اوربينو الثاني وتتسع وتتجه نحو أهداف بعيدة .

مجمع بليزانس (آذار ١٠٩٥) . — إن الفكرة الاولى للحرب الصليبية في الارض المقدسة كانت ببادهة البابا اوربينو الثاني وحده . ففي السنوات الأخيرة من حبرية غريغوار السابع كانت الحالة في الشرق تستدعي القلق بسبب الأتراك السلجوقيين الأشداء الذين أخذوا القدس (١٠٧٨) وانطاكية (١٠٨٥) واحتلوا في ١٠٩٢ عدداً من الجزر في البحر المتوسط . وأصبح حج المسيحيين مستحيلاً بعد أن دمرت الكنائس وعاث الاضطهاد بشدة غير مألوفة . وبعد أن لوحظ الهدوء في منتصف القرن الحادي عشر ، ساد الخطر وأخذ الاغريق أنفسهم يوجهون انظار الغرب اليه .

وفي المؤتمر الذي ترأسه اوربينو الثاني في بليزانس من ١ إلى ٧ آذار ١٠٩٥ قدم عليه وفد أرسله امبراطور بيزنطه ، الكسيس كومنين ، بغية « التوسل باصرار إلى البابا وجميع المؤمنين بالمسيح لاسعافه بنجدة للدفاع عن الكنيسة المقدسة » . ويبدو أن رسل الكسيس ، لاستدرار عطف وشفقة الأشخاص الحاضرين في المجلس ، رسموا لوحة مؤثرة عن

الآلام التي يتحملها المسيحيون الشرقيون من الأتراك ، حتى ان اوربينو الثاني أخـــذته الرأفـة بهذا الشقاء الانساني ، وأخذ يتصور تدريجيـاً تشكيل جيش غربي يخلص الأرض المقدسة ويضع حداً لتعصب السلجوقين. وكان مواطنه ايبل روسي مهيأ لدراسة القضية الاسلامية في مجموعهـا : كما أن اوربينو الثاني كان يتابع باهتمام ديني النزاع الكبير القائم في شبه جزيرة ايبريا منذ ١٠٨٩ ؛ ومن جهة ثانيـة ، اضطر ، في السنوات الاولى من حبريته ، أن يغادر روما وعاش في ايطاليا الجنوبية وتحـدث مراراً مع روجيه غيسكار فاتح صقلية . فلا غرابة اذن أن تحدث الأخبار التي نقلها رسـل الكسيس في نفسه صدمة خرج عنهـا هذا التحويل في سير الحرب الصليبيـة .

اوربينو الثاني في فرنسا . — إن مشروع إرسال حملة إلى الشرق ، بتأثير الوفد البيزنطي في مجمع بليزانس ، أخذ يتضح في صيف ١٠٩٥ . وحتى آخر حزيران ، جاب اوربينو الثاني لومبارديا ثم اتجه صوب فرنسا وحل بها في آخر تموز . وفي ٣ آب كان في فالانس ، وفي ١٥ منه في بوي ، وفي ١٨ في لاشيز — ديو حيث بارك كنيسة الدير الذي شاده القديس روبير . ومن هنا اتجـه نحو الجنوب ، ووصل في أول ايلول إلى سان — جيل حيث قضى بضعة أيام ، ثم في تاراسكون ، آفينيون ، سان بول القصور الثلاثة ، ليون ، ماكون ، ووصل كلوني في ١٨ تشرين الأول ، ومنهـــا ذهب إلى كليرمون ليفتتح في ١٨ تشرين الثاني المجمع الكبير الذي دعا اليه أثناء إقامته في بوي .

وهذا الطريق الذي سلكه البابا له معناه . فما كاد يدخل فرنسا إلا وذهب رأسـاً إلى بوي التي حج أسقفها ، ايمار مونتي ، إلى الأرض المقدسة . ومن المحتمل أن يكون المشروع الشرقي قد نضج في بوي التي

تقرر فيها عقد مجمع كليرمون . من المؤكد أن ايمار مونتي أشار على البابا بأنه يستطيع تأمين القيادة العسكرية للحملة إذا عهد بها إلى ريمون الرابع سان جيل ، كونت تولوز ، الذي وضعه دوره في الحرب الصليبية الاسبانية في الصعيد الأول مع دوق بورغونيا ، أود الأول ، ولكنه كان يفوق رفيقه في السلاح بتقواه وعواطف احترامه للسلطة الدينية . ثم ان الضرورة التي دفعت البابا اوربينو الثاني للتحدث مع ريمون سان جيل توضح وحدها لماذا جاء إلى فرنسا بطريق البحر ، لأن الحبر الروماني ، بعد إقامته في بوي وقبل الذهاب إلى كلوني ، عاد مباشرة إلى جنوب فرنسا بعد أن أتى منه . يضاف إلى ذلك أن اشتراك الكونت بالحملة الصليبية غداة مجمع كليرمون الذي بشرت فيه هذه الحرب ، لايمكن إيضاحه اذا لم يكن ريمون ، قبل افتتاح المجمع ، على علم بسياق النوايا الحبرية .

وبعد أن أمن اوربينو الثاني هذا السند العظيم تابع محادثاته وحاول أن يجمع حول ريمون سان جيل أمراء فرنسيين آخرين : فاوض اود ، دوق بورغونيا ، الذي لعب دور الوسيط بين البابا وملك فرنسا ، فيليب الأول الذي حرم في العام الفائت لزواجه ببرتراد مونفور . وقبيل مجمع كليرمون تم لقاء في موزا بين فيليب الأول وأود والمفوض الحبري ، هوغ ليون ، ولكن فيليب لم يرض بالانفصال عن زوجة كونت آنجو الخائنة ، ولم يرفع عنه قرار الحرمان ، وأصبح اسهام ملك فرنسا بالحرب الصليبية التي خطط لها مستحيلاً . ويبدو أن هذا الامتناع جر امتناع اود الأول الذي لم يذهب إلى الأرض المقدسة رغم بلائه اللامع في اسبانيا . وهكذا استطاع البابا اوربينو الثاني ، بمساعدة ايمار مونتي وريمون سان جيل ، أن يجمع جيش الشرق من بين أمراء جنوب فرنسا الذين تدربوا على نضال الاسلام .

مجمع كليرمون (تشرين الثاني في ١٠٩٥) . — في منتصف تشرين الثاني ١٠٩٥ وضع البابا خطته وعين الزعماء الذين سينفذونها وتنبأ بالوسائل الضرورية لتحقيقها . وفي المجمع الذي افتتح في كليرمون ، في ١٨ تشرين الثاني ، كشف عن مشروعه الكبير ووضحه .

أجاب نداء البابا اثنا عشر مطراناً وثمانون اسقفاً وتسعون أباً . وخصصت الجلسات الاولى لاصلاح الكنيسة وتوضيح نظم السلام . وفي ٢٧ تشرين الثاني خرج اوربينو الثاني من الكنيسة التي انعقدت فيها حتى هذا التاريخ دورات المجمع وجابه الجمهور الذي كان يتدافع بالمناكب في الساحة أمامه . ولم يحفظ النص الصحيح لخطابه ، ولكن التحاليل التي تركها مؤرخو الحرب الصليبية عنه تتفق بصورة كافية ، ومن الممكن إعادة بناء هذا النص بشيء من الدقة. لقد توجه البابا إلى « الفرنسيين الذين أحبهم الله واختارهم » ، وأعلمهم بالاخبار السيئة التي تلقاها من الشرق وقال : لقد اجتاح شعب لعين كافر الاراضي المسيحية ، وأعمل فيها الحديد والنار وقتل السكان ، او ردهم إلى العبودية ، وخرب الكنائس أو تملكها لاقامة الشعائر الاسلامية . وبعد أن رسم اوربينو الثاني هذه اللوحة القاتمة القى على سامعيه نداء حاراً أثار حماسة الجمهور . وقوطع الخطاب الحبري ، ودوى صوت «هذه ارادةالله» مجلجلا كالرعد من الصدور اللاهثة ، ثم كرره البابا وجعل منه علامة للمشايعة ، وطلب من جميع الذين يريدون ان يضحوا بانفسهم في سبيل الله ان يضعوا شارة الصليب . وبينما كانت قطع القماش الاحمر تتنقل بين الحضور ، كان الكردينال غريغوار يتلو ، باسم الجميع الجاثين على الركب ، الاعتراف العام بجميع الذنوب . وبعد ذلك أخذ البابا يمنح عفوه الرسولي إلى الذين يصرحون بأنهم على استعداد للذهاب إلى الأرض المقدسة .

ولم يكن عدد الحضور في الاصل عظيماً جداً ، ثم أخذ يزداد تدريجياً في الاشهر التاليـة من انعقـاد المجمع ، ولكن سكوت المؤلف المغفل لكتاب « تاريخ المملكة الفرنجية » وريمون ايغيل يدل بوضوح على أن المجمع الشهير لم يكن له تلك الأهمية التي عزيت اليه طويلاً ، ولم تنشأ الحرب الصليبية فيه مباشرة من تماس الحماسة بين الحضور . ان المرحـلة الاساسية فيه هي تهيئة حملة الشرق عندما أعلن اوربينو الثـــاني رسمياً مشاريعه ليقوم فيما بعد بالاعمال الضرورية لتحقيقها . وربما كان يوم ٢٨ تشرين الثاني حاسماً أكثر من يوم ٢٧ منه . ففي هذا التاريخ عين البابا باتفاق مع اعضاء المجمع ، أسقف بوي ، ايمار مونتيْ ، مفوضاً حبرياً ، وكلفه أن يحتل مكانه على رأس الجيش الذي سيذهب إلى الأرض المقـدسة ، واستقبل سفراء ريمون سان جيل الرابـع حملة امنية سيدهم ، وأملى التدابير الخاصة المتعلقة بأموال الصليبين الموضوعة تحت حماية الكنيسة ليستطيـع هؤلاء استعادة تملكها عند عودتهم .

رحلة أوربينو الثاني في غرب فرنسا وجنوبها (١٠٩٥ — ١٠٩٦) . — وفي الأشهر التالية تمت فكرة أوربينو الثاني بمنطق أخاذ . ولم يفكـر البابا مطلقاً بتجنيد الجيوش الأربعة التي سيتوزع عليها الصليبيون ، ولم يتصور إلا جيشاً واحداً يحتشد في بوي في ١٥ آب ، ودعا جميـع الفرسان الذين أبدوا رغبتهم في الذهاب إلى الأرض المقدسة أن يلتحقوا ، قبل هذا التاريخ ، بجيش ايمار مونتي وريمون سان جيل ، كما لم يعتمد كثيراً على إقبال أمراء الشمال . وان طريقة ، بعد مجمع كليرمون ، يدل على انه يفكر خاصة بدعوة بارونات غرب فرنسا وبخاصة جنوبها . ومن كليرمون توجه إلى ليموج وبشر من جديد بالحرب الصليبية في يوم عيد الميلاد . ثم ذهب إلى بواتيه حيث بقي من ١٤ إلى ٢٧ كانون الثاني ١٠٩٦ وجاب

أقليم آنجو والمين في شباط ، ثم أخذ طريق الجنوب ماراً من سانت وبوردو وبلغ تولوز في بداية أيار ، واتى اليه ريمون سان جيل وصحبه عبر اقطاعه في اللانغدوك حيث أقام البابا قرابة ثلاثة أشهر . وعقـد في نيم آخر مجمع وتمم العمل الذي بـدأ به في كليرمون وتابعه خلال جولته الكبرى .

وللمرة الثانية كان لطريق البابا معناه ومغزاه . لأن مقاومة فيليب الأول لأوامر المفوض الحبري هوغ ، اثناء مقابلة موزا ، اضطرت اوربينو الثاني إلى التخلي عن كل فكرة للتبشير في شمال فرنسا وفي بورغونيا حيث كان الدوق اود مخلصاً لسيده . ولذا جمع البابا جيش الارض المقدسة من جنوب فرنسا وبخاصة من اقطاع تولوز . ولم يستجب لدعوة البـابا فولك الريشن ، كونت آنجو ، وغليوم التاسع دوق اكيتانيا . وركز البابا شيئاً فشيئاً كل آماله على ريمون سان جيل الرابـع وقرر معه في تولوز وفي نيم من أيار إلى تموز ١٠٩٦ آخر تدابـير التنظيم . ولكن الوقائع تجاوزت تنبؤاته بشكل واسع : فبينما كان البابا ينشيء ، في البلاد التي ألفت النضال ضد الاسلام ، الجيوش الضرورية لتنفيذ مشروعه الشرقي ، كان البارونات يجهزون أنفسهم في كل مكان في فرنسا بدافـع من الاساقفة والمبشرين الشعبيين ، والجماهير الشعبية تسير بارتياح على الطريق المؤدية إلى القدس .

جيوش الحروب الصليبية — وفوجىء اوربينو الثاني في العام ١٠٩٦ بأن ثلاثة جيوش تشكلت بصورة مستقلة عن الجيش الذي أجهد نفسه في تشكيله .

الأول ، يضم فرنسيي الدومين الملكي والاقطاعات الكبرى المجاورة. ولم يستطع الملك قيادته بشخصه لأن اللعنـة طرحته خارج الكنيسة ، وكان زعيمه الخاص أخو فيليب الاول ، هوغ ، كونت فرماندوا .

وهو شخصية متكبرة مستعلية ، ولكنه لايخلو من مواهب دبلوماسية ، وتجمع حوله ايتين – هنري ، كونت بـــلوا ومو وشارتر ؛ وروبير كورتهوز ، كونت نورمانديا ؛ وروبير ، كونت فلاندر .

الثاني ، يضم فرنسيين من الشمال ولورنيين والمان ، وكان يقوده **غودفروا بويون** ، دوق اللورين الدنيا ، حامي القبر المقدس في المستقبل، وكان نصيراً لهنري الرابع في نزاع الكهنوت والامبراطورية ، ولذا لم يكن مهيئاً للدور الذي سيلعبه في الأرض المقدسة .

الثالث ، يضم نورمانديي ايطاليا الجنوبية . وقد تجمع حولهم صليبيو شبه الجزيرة الآخرون وتهيأوا أيضاً للانطلاق تحت ادارة **بوهيموند** تارنت وابن أخيه **تانكويد** الذي بدت الحملة له وسيلة ممتازة لتحقيق اطماع روبير غيسكار القديمة واقتطاع أمارات لنفسه في شرقي البحر المتوسط .

هذا ويجب الا يظن بان هؤلاء الفرسان كانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بنجدة المسيحيين المضطهدين أو بتخليص قبر المسيح . ولقد أشار المؤرخ البير ايكس – لا – شابل إلى أن كان بينهم زناة وقتلة ولصوص وكفرة ؛ وان الرغبة في المغامرات وسحر الشرق وجاذبية المناطق المجهولة التي يفتخر بثروتها ، لم تكن ، بالنسبة للكثيرين ، غريبة عن الرغبة بالحرب الصليبية . أما جيش الجنوب الذي يقوده المفوض الحبري وكونت تولوز فقد بقي أميناً لفكرة اوربينو الثاني . لقد كان ايمار مونتي في أبوشيته حوارياً للاصلاح الغريغوري ، وما من أحد أجدر منه في الحفاظ على الروح الديني في هذه الاقطاعية التي ينتسب اليها بولادته ويعرفها باندفاعها الكريم وغرائزها الجشعة . وسيدعمه باعجاب ريمون سان جيل ، النموذج الكامل للفارس المسيحي ، العف ، المؤمن ، الذي نسي أن اقطاعـــه المتشكل حديثاً يتطلب حضوره، واقسم اليمين، تحت الراية المقدسة،على الا يعود

إلى أمارته ، والذي عهد اليه البارونات ، بسبب طهره وأخلاقه ، بعد اكتشاف الرمح المقدس الذي طعن به المسيح ، بحراسة هذه البقية الثمينة. وبهذا الزعيم ظهر جيش الجنوب بحق جيش الايمان ، وكما لاحظ بعض المؤرخين ، كان المفوض الحبري ومساعده الأمين ، كونت تولوز ، على رأس هذا الجيش ، يشبهان موسى وهارون .

الحروب الصليبية الشعبية . — لم ينطلق أي جيش من الجيوش قبل آخر صيف ١٠٩٦ . ففي ٣٠ تموز من هذه السنة هاجمت القسطنطينية أفواج مضطربة ، بعد أن اجتازت اوروبة على أقدامها مجردة من كل شيء ، معدمة ، وأعربت للاغريق عن رغبتها بالعبور إلى آسيا للذهاب إلى القدس . ولم يكن شيء من هذا في خطة اوربينو الثاني . ففي مجمع كليرمون خشي البابا انطلاق الحماسة الشعبية ، وأراد تنظيم حملة مماثلة للحملات التي كانت تستهدف اسبانيا ، وحرم صراحة على الشيوخ العجز والنساء غير المتزوجات الاسهام فيها ، ولكن المبشرين الشعبيين الذين كلفوا بنشر فكرته تجاوزوا تعليماته وأثاروا عن وعي أو غير وعي بين الجماهير اندفاعاً واسعاً نحو القدس . ولدى سماع صوت الراهب البيكاردي، بطرس الناسك وأقرانه استسلم الفلاحون المصابون بالجدب والواثقون بمستقبل أفضل ، لدافع ايمانهم ، وأخذوا يحدون ثيرانهم وخيولهم ويشدونها بعرباتهم ويكدسون فوقها دون تنظيم أطفالهم ومتاعهم وبناتهم وأثاثهم المتواضع ، ثم شخصوا إلى المكان المحدد للتجمع وانطلقوا في الطرق الكبرى مقتنعين بانهم ذاهبون لفتح السماء ، وطلبوا من جميع المدن التي يلقونها في طريقهم ما إذا كانت هذه هي القدس التي يؤملون أن يذوقوا فيها طعم الراحة والأفراح الصافية التي تتوج تضحيتهم التي قبلوا بها عن طيب خاطر . وكان الزعماء : بطرس الناسك ، غوتشالك ، غوتيه المعدم

يشبهون الجنود . ولم يلامس ذكاؤهم الفج ونفوسهم الساذجة بأي حال شكل الصعوبات التي تلازم توجيه هذه الأفواج غير المنظمة ، ولكن الايمان في نظرهم يقوم مقام كل شيء ويؤدي إلى الهدف السري البعيد ، ويكون الانسان في سبيله مستعداً لتحمل كل شيء حتى الشهادة . اليس الثواب على قدر المشقة !

صفات الحروب الصليبية . — وهذا الرحيل الجماهيري نحو الأرض المقدسة يطبع ، نوعاً ما ، آخر مرحلة للحرب الصليبية . لأن الهجوم على الاسلام، تحت ضغط الظروف ، بدل طابعه تدريجياً فبارادة اوربينو الثاني تكاثف وانتشر من الغرب نحو الشرق ، من شبه الجزيرة الايبيرية والايطالية نحو آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ، ولم يحرك في العام ١٠٩٦ الأمراء الاكيتانيين واللانغدوكيين والبورغونيين فحسب ، بل العالم الاقطاعي كله في الغرب الاوربي وعدداً لايحصى من صغار الناس ، وأخذ طابع حج جماعي كما هو حرب استرداد مسيحية . ولكنه احتفظ على الاقل ببعض ملامح تقليدية تذكر بأصوله الاولى فالبابوية في ١٠٩٥ ، كما في ١٠٦٣ وحتى في ٩١٥ أخذت المبادهة على عاتقها ، ودور اوربينو الثاني ، يذكر بدور الكسندر الثاني قبل بربشترو (بارباسترو) او دور جان العاشر في معركة غاريليانو . ومن جهة أخرى ، في الشرق كما في اسبانيا ، كان الفرنسيون، وبخاصة فرنسيو الجنوب، ينفذون الخطط الحبرية ، ويكتبون على الطرق المؤدية إلى القدس : هكذا أراد الله للفرنجة .

الزحف على القدس

١٠٩٦ — ١٠٩٩

اخفاق الحروب الصليبية الشعبية . — لقد كان الصليبيون الأوائل الذين أتوا إلى الشرق ممن استجابوا لدعوة المبشرين الشعبيين . وقد انقسم هذا القطيع البشري الذي جمعه بطرس الناسك وأقرانه إلى خمسة أفواج غير منظمة : اثنان منها، يوجهها الكاهنان فولكمار وغوتشالك ، لم يصلا إلى الغاية المقصودة : فقد جاءا من اللورين وسؤاب وفرانكونيا وبلغا هونغاريا ، أحدهما عن طريق بافاريا ، والآخر عن طريق بوهيميا والنمسا . ولما علم ملك هونغاريا ، كولومـان ، بفظاعتها منعها من المرور من دوله فأرادوا اقتحامه . وقامت معركة حقيقية في **نيترا** أبيد فيها معظم الصليبيين (حزيران ١٠٩٦) . والفوج الثالث ، فوج الكونت اميش ، وصل بدوره إلى هونغاريا ولم يتقدم إلى أبعد منها . أما الفوجان الآخران فقد تجمع أحدهما حول بطرس الناسك ، والآخر وراء غوتيه باسي وغوتيه المعدم ، واستطاعا أن يبلغا شواطىء البوسفور .

انطلق في البدء غوتيـه باسي وعبر هونغاريا دون حادث ، وجرت مناوشات بينه وبين الصرب والبلغار ، ومات بعد ذلـك وانتقلت قيادة جيشه إلى غوتيه المعدم الذي استطاع بفضل الحرس الذي قدمته حكومة نيش (صربيا) أن يصل في ٢٠ تموز ١٠٩٦ إلى القسطنطينية حيث لحق به بطرس الناسك .

غادر بطرس كولونيا في ١٩ أو ٢٠ نيسان وقد طبـع عبوره من هونغاريا والامبراطورية البيزنطية بانواع الحوادث التي لانعلمها جيداً .

ولم يتورع الصليبيون من النهب والسلب ، وكلف حاكم بلغاريا نيكيتاس بحصارهم ، ولكنه اضطر إلى الفرار إلى نيش التي نهبت مثل بلغراد . ولما علم الامبراطور الكسيس الأول بما أخبره به نيكيتاس ، تسامح مع هذه الأقوام الفوضوية وأجبرها على ألا تقيم أكثر من ثلاثة أيام في المدن التي تدخلها . ومن صوفيا وفيليبوبولي وادرنة وصل بطرس الناسك القسطنطينية في ٣٠ تموز . وقابله الكسيس الأول ونصحه بان ينتظر مجيء الجيوش المنظمة المتجهة نحو الشرق ايضاً ليعبر معها البوسفور . فكافأه الصليبيون على هذا الفعل الكريم بتخريب العاصمة ونهبها وسلبها . وبادر إلى التخلص من هؤلاء الضيوف الغلاظ وتركهم يعبرون البوسفور في ٥ آب ١٠٩٦ . ولم يعط القرب من الأتراك هؤلاء الجنود الشذاذ معنى النظام : فعوضاً عن أن يبقوا بالقرب من المضيق تحت حماية الجيش الاغريقي قاموا ينهبون حتى مدينة نيقية ، وأدى هذا العمل منهم إلى القضاء عليهم جميعاً تقريباً ، واضطر بطرس الناسك إلى العودة إلى القسطنطينية مع فلول جيشه العرمرم .

وانتهت الحرب الصليبية الشعبية إلى كارثة ، وجسمت الكراهية بين الاغريق والغربيين ، كما وضعت العقبات على طريق البارونات الذين اقتربوا تباعاً ، في خريف ١٠٩٦ ، من حدود الامبراطورية البيزنطية للاجتماع في القسطنطينية طبقاً لتعاليم المفوض الحبري ايمار مونتي .

حشد الجيوش الصليبية في القسطنطينية . — ولم يتحقق حشد مختلف الجيوش على شواطىء البوسفور إلا في أيار ١٠٩٧ ، وأول بارون وصل عتبة الامبراطورية الاغريقية كان هوغ فرماندوا . فقد اجتاز هذا الأخير بسرعة ايطاليا والبحر الادرياتيك ونزل في دورازو ، وكان حاكمها جان ، ابن أخ الامبراطور . وقد علم بمجيء هوغ من الوفد ، المؤلف من أربع وعشرين فارساً ، الذي أرسله الأمير المغرور أمامه ليمهد له الطريق .

وعوضاً عن أن يستقبله الحاكم رسمياً قبض عليه وسلمه إلى الجنود الاغريقية فقادوه إلى القسطنطينية ووصلها في تشرين الثاني ١٠٩٦ مستغرباً من معاملته أسيراً عوضاً عن معاملته أخاً للملك . ومع هذا ، أطلق الكسيس سراحه مقابل يمين الولاء ، وأقسمها هوغ على عجل دون أن يقدر ولاشك قيمتها ونتائجها .

ولحق بهوغ فرماندوا غودفروا بويون . فقد سلك هذا الاخير ، عبر هونغاريا ، الطريق التي سلكها بطرس الناسك ، ودخل الامبراطورية البيزنطية من نيش حيث جمع الكسيس المؤن لمنع النهب . ولكن هذه الحيطة لم تحل دون نهب سيليفوي الذي لم يلطفه غودفروا ولم يمنعه ، وسبقته على أي حال شهرته السيئة . وهكذا وصل زعـــيم الصليبين اللورنيين القسطنطينية في ٢٣ كانون الأول ١٠٩٦ .

ولم يأت الصليبيون الآخرون إلا آجلاً : وصل روبير كورتهوز وايتين بلوا و روبير فلاندر الى بويْ في تشرين الثاني ١٠٩٦ بعد أن باركهم اوربينو الثاني اثناء مرورهم من لوقا . وأرادوا أن يشتوا قبل أن يعبروا الادرياتيك . وفي ربيع ١٠٩٧ أبحروا إلى ابيروس . ولم توفر المحن جنودهم من الغرق في البحر والنهر ومهاجمة البلغار و حتى ان كثيراً من الامراء ، وقد ثبطت همتهم ، عادوا إلى الغرب . وباختصار كان هذا الجيش ، الذي كان قـائده الأعلى هوغ فرمـاندوا الذي سبقه ، عديداً عندما وصل في أيار ١٠٩٧ إلى العاصمة البيزنطية حيث تقدمته قبل بضعة أسابيع الجيوش اللانغدوكية والنورماندية .

كان قائد الجيش اللانغدوكي ريمون سان جيل كونت تولوز والمفوض الحبري ايمار مونتي . عبر منطقة البندقية وشعاب الالب الجوليانية واتجه صوب اسكلافونيا (الصربيا) . واجتاز هـذه المنطقة الجبليـة الوعرة

المسالك في أربعين يوماً وعانى فيها من جفاف الماء وهبوب ريح « البورا » القطيعة الجليدية ما عانى ، واعترضت الصليبيين المشاكل ، ولم يساعدهم السكان الذين يكرهونهم على التغلب عليها . وتجشم ريمون سان جيل كثيراً من الصعوبات في منع العصابات من قتل المتخلفين أو مهاجمة المنعزلين ، أو في رفع معنويات رفاقه الذين انقلبت حماستهم الاولى الى يأس عميق . وبعد كثير من المتاعب والمنازعات وصل الى **سكوتاري** حيث يقيم ملك السكلافون (الصرب) قسطنطين بودين ، تابع الكرسي الاقدس ، الذي سهل تموين الجيش وساعده على بلوغ دورازو . ثم سار في الطريق الى القسطنطينية ماراً من سالونيك بعد أن لاقى من سوء ارادة الاغريق وهجوم البتشينيغ الشيء الكثير ، ووصلها في آخر نيسان ١٠٩٧ .

ووصل نورمانديو ايطاليا الجنوبية ، الذين يقودهم بوهيموند ، الابن البكر لروبير غيسكار ، وابن اخيه تانكريد ، في الوقت نفسه تقريباً ، فقد أبحر خمسمائة أمير وعشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل في بدء تشرين الثاني ١٠٩٦ الى دورازو وما ، بطريق كاستوريا وبيلاغونيا ، بلغوا القسطنطينية ، وكان البتشينيغ يهاجمونهم على طول الطريق وخاصة على ضفاف نهر فاردار .

موقف الامبراطور الكسيس من الصليبيين . — لقد تجمعت الجيوش الصليبية كلها في القسطنطينية ، ووضع عبورها من العاصمة البيزنطية قضايا كبرى ، وكشف عن سوء تفاهم خطير فسح مجالاً لمفاوضات شائكة بين الصليبيين والامبراطور الكسيس : لقد جاء الصليبيون الى الشرق لخلاص الارض المقدسة ، وأتى بعضهم ، مثل ريمون سان جيل ، اطاعة لمثل أعلى ديني ، والآخرون ، مثل بوهيموند ، أملاً بانشاء امارات غنية في الشرق وللعيش بسهولة ويسر وبذخ ، ولم يفكر أحد منهم بأن يعمل لحساب

بيزنطة أو أن يفتح لها الامارات التي خسرتها سابقاً في آسيا الصغرى وسورية وفلسطين . غير أن الكسيس الأول اختط لنفسه برنامجاً معاكساً : ففي ربيع ١٠٩٧ فكر خاصة باستغلال الحرب الصليبية لصالحه ، واقترح على الصليبيين العمل في آن واحد لله الذي أراد انطلاقهم وللامبراطور البيزنطي الذي لايطلب شيئاً غير تخويلهم المرور عبر دوله ، ومساعدتهم على تحقيق الغاية التي ارادتها العناية الإلهية لهم .

بين الزعماء الصليبيين . — لقد كان هوغ فرماندوا اول من جاء إلى القسطنطينية ، وبادر بحلف يمين الولاء التي طلبها البازيلوس لاسترجاع حريته . وعندمـــا دخل غودفروا بويون العاصمة بدوره حاول الكسيس الأول أن ينتزع منه وعداً ممـاثلا ، فرفض ، وقد ادرك غودفروا ، اكثر من كونت فرماندوا المتكبر ، خطورة هذا التعهد : ان قسم الولاء الى الكسيس معناه انه يعترف بأنه تابع له ويقبل سلفاً بأن يقدم له احترامه من اجل الاراضي التي يأخذها من الترك ؛ فلا المصلحة العليـــا للحرب الصليبية ولا مصلحة زعمائها يمكن ان تتفقا مع هذا التعهد الذي قد يضع مصير الأرض المقدسة بين يدي الامبراطور المنشق ويلحق الفرسان الغربيين بالامبراطور البيزنطي . وهكذا ظهر اختـــلاف وجهات النظر واوشك ان ينقلب الى نزاع ، ولكن الموارد من كل نوع المكدسة في القسطنطينية كانت تؤمن حتماً ظفر البازيلوس على الامراء المعوزين ، وكان سهلا عليه ان يجعلهم تحت رحمتـه ، لأنهم كانوا مجردين من كل شيء ومضطرين الى تموين أنفسهم من البلاد التي يمرون بها . وبعـــد مفاوضات عابثة قرر الكسيس الاول ان ينتزع منهم خبزهم اليومي باغلاق انبار القسطنطينية (في ٢ نيسان ١٠٩٧) . فأجاب بودون اخو

غودفروا بويون على هذا التهديد بنهب جوار العاصمة وحرق احد ابوابها . ولكن الكسيس تغلب على اندفاع الصليبيين . وأخيراً ، اقسم غودفروا اليمين المطلوبة ، وبعد ان استقبل على المائدة الامبراطورية رضي بعبور البوسفور ليفسح المجال للجيوش الأخرى القادمة .

وبعد ان حقق الكسيس هذا النجاح الاول أمل باستسلام الزعماء الآخرين . وكان يخشى خاصة بوهيموند ، بعد ان عرف احلامه الشرقية الواسعة ، فأرسل اليه الى **دوزا** دبلوماسيين وكلفهم بتهيئة الجو ليجعلوا هذا النورماندي المخاتل يترك جيشه تحت قيادة تانكريد ويأتي مباشرة الى القسطنطينية حيث عومل باكرام وعن سعة . ان رؤية الغرفة المملوءة بالذهب والفضة والاحجار الكريمة والاقمشة الفنية وما قدم اليه كانت كافية لاقناع هذا الجشع بن غيسكار الذي اقسم أيضاً يمين الولاء طالباً فقط منصب دمستق الشرق الاكبر . ولكن الكسيس لم يمنحه اياه نظراً لأنه يخوله سلطة زائدة على الجيش الاغريقي .

موقف ريمون سان جيل من الكسيس الاول . — وبعد هوغ فرماندوا وغودفروا بويون وبوهيموند انحنى الزعماء الآخرون تباعاً أمام طلبات الكسيس باستثناء واحد منهم ، كونت تولوز ، ريمون سان جيل ولما طلب اليه أن يقسم اليمين الاقطاعية ، إلى الامبراطور البيزنطي ، رفض وقد أصر ولمح بانه يغذي مقاصد سوداء . وليقطع دابر هذه الشكوك الظالمة رضي ان يقسم « بأن يحترم حياة الكسيس وشرفه » ولا اكثر ، وذلك « لأنه لم يأت ، كما قال ، ليخدم أميراً آخر غير الأمير الذي ترك من اجله وطنه » . وبقي وحده أميناً مخلصاً لروح الحرب الصليبية وبرهن بهذا الموقف العزيز على أنه كان غريباً عن الترتيبات السياسية كلها

وانه يريد فقط ان يتابع العمل الديني الاكبر الذي رسمه هدفاً للجيش الذي يقوده ، من فوقه ، مفوض اوربينو الثاني . وعندما وصل تانكريد أخيراً إلى القسطنطينية تبنى الموقف نفسه . وبقي ريمون منعزلا وسيدافع وحده حتى النهاية عن الفكرة الأولى للحرب الصليبية التي أصبحت مشروعاً سياسياً عقب استسلام بوهيموند وغودفروا بوبون واترابها ، ولذا فان الاقامة في العاصمة البيزنطية تسجل بداية لتطور تدريجي تصعب معاكسته .

أخذ نيقية (حزيران — ١٠٩٧).— وكلما ابرمت الاتفاقات مع الامبراطور الكسيس كانت الجيوش الغربية تجتاز البوسفور وتنفذ إلى آسيا . ثم بدأت الحرب ضد المسلمين . وقد بولغ طويلاً بالصعوبات . إلا أن مقارنة المصادر اللاتينية والاغريقية مع المصادر العربية برهنت على أن المقاومة لم تكن منظمة جدياً . فقد أضنى القتل والاغتصاب والحروب الأهلية الدول الاسلامية في آسيا الصغرى وسورية . وجعل التحاسد والشقاق بين الأمراء الاتحـــاد ضد العـدو المشترك أمراً مستحيلاً ، ولم يصطدم الصليبيون بتألب عام بل بمقاومات محلية عنيدة متفاوتة القوة .

وفي ١٤ أيار بدأ حصار **نيقية** التي أخذها السلطان السلجوقي ، سليمان ، في العام ١٠٨١ . وكانت هذه المدينة ، بابراجها الثلاثمائة وبحيرتها التي تشكل في الغرب دفاعاً طبيعياً عجيباً ، تؤلف عقبه قوية لايمكن التخلي عنها وتركها ظهرياً ، فضلاً عن النجدات التركية التي أتت لتساعد على الدفاع . وقد هاجم البروفانسيون جيش النجدة واجبروه على الانسحاب ، ثم أخذ الحصار يشتد شيئاً فشيئاً : ضرب الصليبيون الاسوار بالقذائف والكباش ، وانهار أحد الابراج بعد أن لغمه ريمـون سان جيل ، وانطلق اسطول اغريقي على البحيرة التي كان التموين بها ممكناً . وفي ١٩ حزيران ، عندما

لم يبق إلا اعطاء الامر بالهجوم العام ، شهد الفرسان الغربيون فجأة العلم البيزنطي مرفرفاً فوق المدينة : حقاً لقـــد أسهم الكسيس في العمليات العسكرية ولكنه كان يتفاوض مع المحاصرين وحصل على استسلامهم واحتلت الجيوش الاغريقية نيقية التي لم يتوجب على الصليبيين تسليمها الى الامبراطور ، وطلب هذا تجديد يمين الولاء فـأصر ريمون سان جيـل وتانكريد على الرفض ، ثم تمنى النجاح لحلفائه الممتازين الذين تقدموا دونه عبر آسيا الصغرى .

انتصار دوريليه (١ تموز ١٠٩٧) . — كان الزحف نشيطاً واقتضى أولاً عبور هضبة الاناضول القاحلة . وبعد عشرة أيام على أخذ نيقية التقى الصليبيون ، في سهل دوريليه ، بجيش تركي قوي (١ تموز ١٠٩٧) . ودام القتال يوماً كاملاً وانتهى بفرار الاتراك بعد أن تخلوا عن غنائم كثيرة على أرض المعركة . ووجدت الطرق المؤدية الى سورية مفتوحة أمام الفرسان المسيحيين .

أخذ هرقلة (ايلول ١٠٩٧) — وكانت تنتظر الصليبيين محن أخرى . لأن البلاد القاحلة والمجدبـة بطبيعتها تحولت إلى صحراء حقيقية بعد أن غادرها الاتراك . وكان التموين شاقاً : فقد نقص الماء والعلف ومات كثير من الخيول وعـانى الجيش شدة الحرارة القائظة . وفي شهر آب سقط كونت تولوز مريضاً حتى كاد يودي ، ثم عادت اليه الروح عندما بدأ اسقف أورانج بقراءة قداس الأموات على روحه . وخرج الصليبيون من هذه البلاد القاسية ودخلوا مملكة أرمينية الصغيرة حيث الانهار والسكان المسيحيون فسهل عليهم التموين . وتوج أخذ هرقلة (ايلول ١٠٩٧) هذا الجزء من الحملة ، وأنهى التفاهم الذي استطاع ايمار مونتي أن يحافظ عليه بين هؤلاء

القادة الذين لم يطفىء الايمان المسيحي عندهم الغرائز الجشعة ولا الاطماع الزمنية .

بودون أمير الرها . — وغداة هذ النصر الجديد لم يستطع بودون، أخو غودفروا بويون ، وتانكريد أن يكبحا طويلا جماح رغبتهما في المغامرات الحربية ، فانفصلا عن مجموع الجيش وتسلقا جبال طوروس وهاجما الاتراك في منطقة تارس . وفوجىء الاتراك بهذا العدوان ونزحوا عن المدينة ، فاحتلها بودون حالاً بينما اتجه تانكريد صوب أضنه ، حيث كان الارمن يلتمسون مجيئه ، وبعد أن التحق بعض الوقت بالصليبيين عاد فتركهم من جديد وذهب إلى العراق حيث دعاه أمير الرها الارمني ، توروس ، وكان مسناً وليس له أولاد ، فاستقبله استقبالا عظيماً ، وترك له دوله ، وعاجلته المنية حتى اتهم بودون بقتله . وعلى أي حال أصبح أخو غودفروا بويون في ٨ آذار ١٠٩٨ أمير الرها ؛ وبعد ذلك تزوج أرمنية وأصبح شرقياً .

حصار انطاكية . — وبينا كان بودون وتانكريد يضربان هذا المثل المؤسف كان الصليبيون يوالون زحفهم نحو القدس . ففي ١٥ ايلول ١٠٩٧ غادروا هرقلة ؛ وفي ٢٧ منه كانوا في قيسارية كابادوكيا ؛ وفي ٣ تشرين الأول استقبلهم بلاسانتيا بحماسة . وبعد استراحوا بضعة أيام دخلوا ثنايا طوروس الشرقي « وهو جبل شيطاني مرتفع كثيراً وضيق كثيراً ، ولا يجرأ أحد في الطريق الواقع على سفحه أن يسبق الآخرين » . وبعد أسبوع دخلوا وادي العاصي . وفي ٢٠ تشرين الأول كانت الطليعة على ثلاث ساعات من أنطاكية ، وبدأ حصار عاصمة سورية الشهيرة بذكرى الحواري بطرس .

كانت انطاكية مركز معسكر محصن تهيمن عليه قلعة قوية ، وأسوارها

محصنة باربعمائة برج وتستند على المنحدرات العمودية لذرا الجبال المجاورة . وقد جمع فيها الحاكم ياجي سيان ، بغية الحصار ، مؤناً وافرة ، وقرر بحاميته المؤلفة من ستة آلاف رجل أن يدافع حتى النهاية . ولم يكن بيد الصليبيين لأخذ هذا الحصن المنيع وسائل كافية : لم يكن عندهم عتاد الحصار ، وهذا ماينفي امكان الهجوم. ومن جهة اخرى، كانت تنقصهم وحدة القيادة ، لأن كل واحد منهم كان يعمل حسب هواه دون أن يهتم بجاره ودون أن يخضع إلى توجيهات عامة . غير أن الحوادث ، مع ذلك ، تكفلت بتعليم هؤلاء الزعماء الغربيين . ويبدو أن المبادهة، لاقامة ارتباط بين مختلف الجيوش المنتشرة على ضفاف العاصي ، أتت من ايمار مونتي وريمون سان جيل : ولتسهيل المواصلات بين المحاصرين أقام ريمون جسراً من الزوارق على النهر ، وعندما بدد الصليبيون مواردهم من البلاد ، نظم التموين باحداث مجلس تقرر فيه أن يذهب بوهيموند وروبيرفلاندر للبحث عن المؤن ، بينا تستمر الجيوش الأخرى بالحصار .

امتد الحصار . وفي ٢٩ كانون الأول ١٠٩٧ حاولت حامية انطاكية الخروج في وقت تواجد فيه فجر شمالي وزلزال أرضي ، فنشر الذعر بين الصليبيين ؛ حتى ان بطرس الناسك نفسه لاذ بالفرار بعض الوقت، وعانى المفوض الحبري كثيراً من العنت في نضال اليأس العام . وبفضل وصول جيش من الانكليز جاءوا إلى ميناء انطاكية ، السويدية ، (في ٥ آذار١٠٩٨) ووجد بينهم مهندسون، استطاع الصليبيون أن يبنوا ، في المكان المسمى المحمرية التي ينفذ منها الأتراك ، دبابة من الخشب كان وجودها كافياً لايقافهم . ومن جهة ثانية بدأ الجوع يعمل في داخل الموقع والمعنويات تضعف بين المحاصرين . وتمكن بوهيموند أن يتصل بهم ، وبعد أن عرض على البارونات أن يدخلهم انطاكية إذا قبلوا أن يسلموه

المدينـة ، استطاع ، بفضل الخيانة ، أن يحتل برجاً وان ينفذ منـه إلى الداخل ويفتح الأبواب (في ٢ حزيران ١٠٩٨) .

انتصار الصليبيين على كربغا (٢٨ حزيران ١٠٩٨) . — أصبح الصليبيون سادة انطاكية . بيد انهم لم يكونوا في نهاية متاعبهم ، لأنهم انقلبوا من محاصرين الى محاصَرين . فقد أتى جيش تركي يقوده أمير الموصل ، كربغا ، وحاصرهم في ٤ حزيران ، ولم يهيء الصليبيون شيئاً لمواجهة الحصار ، ونقصت المؤن ، وبعد بضعة أيام اضطروا لسد جوعهم إلى قطع أوراق الأشجار وغلي جلد الأبقار ، وضعفت معنوياتهم من جديد : وفكر كثير من الفرسان بالاستسلام ، وآخرون ، أثناء الليل ، علقوا حبالاً في شرفات الحصن وانزلقوا في الريف . وفي وسط هـذا القلق ، في ١٠ حزيران ، أعلم فلاح بروفانسي ، بطرس بارتلمي ، بأن الحواري القديس آندريه تجلى له وأمره أن يدل زعماء الحرب الصليبية على أن الرمح ، الذي خرق به القائد الروماني لونجن خاصرة المسيـح ، يوجد مطموراً في كنيسة في أنطاكية . وفي ١٤ حزيران اكتشف الرمح في المكان المعين . وبفضل هذه الحيلة عادت الشجاعة إلى نفوس الصليبيين ، وفي ٢٨ منه ، بعد ثلاثة أيام من الصيام ، انطلق الصليبيون في القتال تحت قيادة بوهيموند ، ودخلوا المعسكر التركي ، وهزموا جيش كربغا ، وأصبح طريق القدس مفتوحاً أمامهم .

الزحف على القدس . — ولم يتقدم الصليبيون مباشرة . فبعد أن أخذت انطاكية نشب النزاع بين الأمراء . فقد قرر بوهيموند الاحتفاظ بالمدينة لنفسه دون أن يهتم بالتعهدات المعقودة في القسطنطينية . غير أن رفاقه لم يقاسموه وجهة نظره ، وقرروا ، رغماً عنه ، ارسال هوغ فرماندوا

ليحمل إلى الامبراطور الكسيس مفاتيح انطاكية ، وقبلوا مع ذلك ان يسلموا النورمانديين المواقع التي كانوا يحتلونها . ولم يشأ البروفانسيون وحدهم الانحناء أمام مطاليب بوهيموند ورفضوا أن يجلوا عن قصر الحاكم الذي استقروا فيه .

وأخر هذا النقاش بين الزعماء الانطلاق . ولم يبد الصليبيون الآخرون أي مبادرة لاستئناف الزحف نحو القدس ، وفضلوا بعد النصر أن يعوضوا الآلام التي تحملوها حتى الآن . و اتبع أخذ انطاكية بذابح وأعمال نهب لا حصر لها ، ولم توفر البلاد المجاورة . وبينما كان الصليبيون منصرفين لفظاعاتهم من كل نوع ، انتشر وباء الطاعون وفتك فيهم فتكاً ذريعاً : وكان يموت منهم في كل يوم من ١٠٠ إلى ٣٠٠ شخص . وأصابت الوافدة المفوض ايمار مونتي ، فأودى في أول آب . وفقد هذا الحبر الذي عرف حزمه المشبع بالبصيرة والذوق الصائب كيف يهديء طموح البارونات ، كان كارثة حقيقية أدت إلى تشعث عام : ذهب بوهيموند لزيارة ممتلكاته في كيليكيا ، وشخص غودفروا بويون وأمراء آخرون إلى الرها ، بعد ان جذبتهم وعود بوهيموند الساحرة . وباختصار ، استؤنف الزحف على القدس في نيسان ١٠٩٩ تحت قيادة ريمون سان جيل وتانكريد و روبير كورتهوز ، ثم لحق بهم غودفروا بويون أثناء حصار عرقة .

أخذ القدس (١٥ تموز ١٠٩٩) . — وأخيراً ، بطريق بيروت و صيدا وقيسارية ، وصلوا في ٧ حزيران ١٠٩٩ إلى تل يطل على مدينة القدس. وكان فرح الصليبيين عظيماً : وإذا أخذنا بما قاله بعض المؤرخين وجدنا ان الجميع ، أمام منظر المدينة المقدسة ، خروا على ركبهم يذرفون الدموع. وبقي عليهم أن يدخلوا المدينة ، واتخذت كل الاستعدادات لذلك : استقر روبير كورتهوز في الشمال : وعسكر غودفروا بويون وتانكريد

وروبير فلاندر في الشمال الشرقي ، بينما استقر ريمون سان جيل على جبل النبي داود (صهيون) .

بدأ الحصار صعباً . فقد توقعته الحامية منذ تاريخ مديد وأمنت التموين لزمن طويل ، بينما كان الصليبيون ، كما في انطاكية ، بحاجة إلى كل شيء ، بدءاً من الماء واضطروا إلى الذهاب إلى بعيد للبحث عنه . ولحسن حظهم وصل حديثاً اسطول جنوي إلى يافا فسهل بذلك التموين وبالتالي العمليات العسكرية .

بدأ الهجوم الأول في ١٣ حزيران فأخفق اخفاقاً ذريعاً يستدعي الشفقة . وبعد هذه التجربة القاسية تعلم الزعماء الغربيون وقاموا بأعمال كبرى . كما أن قصة رؤيا بطرس ديديه ، الذي تجلى له ايمار مونتي ، قوت حمية الجنود . وفي يوم الجمعة ، في ٨ تموز ، طاف المسيحيون حفاة في موكب رسمي حول الأسوار وهم ينشدون الاناشيد فتجيبهم عليها من اعلى الحصون أصوات الرقى السحرية والاغاني الحربية التي ترددها النساء المسلمات. وفي الأيام التالية تم بناء دبابات من الخشب ، وردمت الخنادق ، وجمعت الآلات والادوات ، وفي الليل، من ١٣ إلى ١٤ تموز ، اعطي الامر بالهجوم العام ، ودام هذا طيلة نهار ١٤ تحت طوفان من السهام والقذائف المحرقة. ولم تمنع مقاومة المحاصرين دبابة دائرة يحتلها غودفروا بويون واخوه أوستاش من إصابة السور في شرقي المدينة .وفي ١٥ تموز ، في الساعة التي صلب فيها المسيح ، كما يقول المؤرخون ، نفذ قسم من الصليبيين إلى المدينة من هذه الثغرة ، وفي الوقت نفسه اقتحم تانكريد باب القديس ايتين وتسلم ريمون سان جيل برج داود .

وانتهت الحرب الصليبية الاولى بخاتمة دامية : ففي نشوة النصر أخذ

الفرسان الصليبيون يخبطون خبط عشواء ويقتلون الرجال والنساء والاطفال وقاموا بأعمال تلطخهم بالعار . وعندما كلوا من القتل ذهبوا إلى القبر المقدس وحمدوا الله بدموع الفرح .

الحرب الصليبية في الشرق والغرب

في بداية القرن الثاني عشر

حملة النجدة (١١٠١) . — لم ينه أخذ القدس الكفاح ضد الاسلام لان الحماسة ، التي أثارها في الغرب حضت ، على العكس ، الفرسان غير الصليبيين في ١٠٩٦ على الانطلاق لنجدة من ناضلوا «لتحرير المسيحية الشرقية» وقبل أن يصل البارونات الغربيون إلى نهاية الحملة وجد من الضرورة المجيء لمساعدتهم . وما فتيء أوربينو الثاني يحض على إرسال النجدات . وتوفي البابا الفرنسي في ٢٩ تموز ١٠٩٩ بعد بضعه أيام على سقوط القدس . ولكن فقده لم يمنع ذهاب جيش النجدة الذي أسهم في تشكيله . وكان هذا الجيش يتألف بخاصة من لومبارديين ، واتجه صوب القسطنطينية بطريق البلقان العادية . وبعد بضعة حوادث مماثلة لمرور الصليبيين الاوائل من العاصمة البيزنطية ، عبر البوسفور ، ودخل آسيا الصغرى والتحق به جيش فرنسي يقوده ايتين بلوا . وكان ريمون سان جيل في القسطنطينية آنذاك فاستلم قيادة هذه الجيوش وذهب بها نحو بغداد ، وبمساعدتها استطاع أن يخلص بوهيموند بعد أن وقع اسيراً بيد الاتراك في العام ١١٠٠ ، ولكنهم، بعد أخذ آنسير ، غلبوا بالقرب من سيرفا ، وبكل مشقة وعناء استطاع بعض الفارين الوصول إلى ميناء سينوب .

ثم تشكلت حملة ثانية بقيادة كونت نوفير ، ولم تكن أسعد حظاً ، وتحولت إلى هزيمة في جوار هرقلة .

وأخيراً تشكلت حملة ثالثة من الاكيتانيين والالمان يقودها غليوم التاسع الاكيتاني و فيلف بافاريا الرابع ، فانهزمت ايضاً في منطقة هرقلة . وباختصار ، لقد أخفقت حملة النجدة إخفاقاً تاماً . ثم انطلقت بضع نجدات من الموانى الايطالية ، جنوة ، بيزا ، البندقية ، وحتى مجيء لويس السابع إلى الارض المقدسة لا توجد حرب صليبية حقيقية في الشرق .

الدفاع الاسلامي في اسبانيا . — وبينما كان الصليبيون يفتحون القدس ، أعد هجوم إسلامي في شبه الجزيرة الايبرية . وبالرغم من انتصار الفرسان الغربيين ، ما فتئت قوة المرابطين في ازدياد في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، بفضل ضم دولتين مستقلتين حتى ذلك الحين، اشبيلية (١٠٩٧ — ١١٠٦) وبلنسية (فالانس) (١٠٩٩ — ١١٠٢) . ومنذ ان خلف السلطان علي (١١٠٦ — ١١٣٠) أباه يوسف كانت امبراطوريته تغطي افريقية الشمالية مع اسبانيا في جنوب الايبر ، وكان يفكر في استئناف الجهاد ودحر المسيحيين إلى شمال البيرينه . وفي ١١٠٨ اجتاح قطلونية (كاتالونيا) وتوصلت جنوده إلى ستين كيلو متراً عن برشلونة .

الحرب الصليبية عام ١١١٤ . — وأحدثت هذه الغارة ذعراً حقيقياً. وكما يحدث في مثل هذه الحال ، فكر بنجدة فرنسية ، واوفد أسقف برشلونة الى الملك لويس السادس لاعلامه بخطورة الوضع ، فوصل في وقت غير موات ، عندما استؤنفت الحرب ضد ملك انكلترا . وذكر الحبر ان المسلمين على مسافة خمسة أيام سيراً من مونبليه وسان جيل . ولم يحصل على مساعدة مباشرة واكتفى بالوعود . وكان الملك منهمكا بكثير من القضايا المختلفة ، ولذا لم يستطع أن يتمسك بشيء منها ، وانتقلت المفاوضات إلى

أعلى : واستقر الرأي على ان النجدة الخارجية لا غنى عنها ولايمكن ان تأتي إلا من بلاد البحر المتوسط والبيرينه التي تهتم مباشرة بالقضية الاسلامية .

ولكن الخطر خف موقتاً : لأن الجيش الاسلامي انسحب بعد ان جمع كثيراً من الغنائم . وكان لدى رامون بيرنغر الثالث (١٠٩٣ — ١١٣١) متسع من الوقت لاتخاذ استعداداته المفيدة ، فضلاً عن ان المرابطين، في السنوات التالية ، انهمكوا خاصة بإتمام الوحدة الاسلامية ببسط سلطتهم على سرقسطة (١١١٠ — ١١١١) . وتفاوض رامون مع امراء جنوب فرنسا وهيأ معهم حملة ضد جزر الباليئار ليفيد في آن واحد من هدوء اسبانيا الشمالية وأمن تجارة البحر المتوسط لانتزاعها من المسلمين . ومنذ ١١١٢ بدأ اللانغدوقيون والبروفانسيون بعبور البيرينية تحت قيادة برنار آتون صاحب قرقشونه ، و ايميري الثاني صاحب ناربونة ، و غيلهم الخامس صاحب مونبليه ، وريمون ديه بو . وقد حان الوقت ، لأن كاتالونيا اجتيحت من جديد في العام ١١١٤ وأحرز ايميري ناربونه ورامون بيرنغر في مارتوريل نصراً عظيماً اضطر جيش المرابطين الى الانسحاب ، ولكنه انطوى بانتظام . وبعد بضعة أسابيع ، في بداية ايلول ، عاد يحاصر برشلونة وخلصها بعد عشرين يوماً . وفي الوقت نفسه ، خلف ملك آراغون الفونس الأول في العام ١١٠٤ ، أخاه بطرس الأول ، وبفضل زواجه من ابنة عمه **اوداكا** ضم قشتالة حيث توفي الفونس السادس (١١٠٩) ، وعاون عمل كونتي ناربونه وبرشلونه ، وبمساعدة ابن عمه ، كونت بيرش ، روترو الثاني ، وفيكونت بيارن ، غاستون الخامس ، هاجم سرقسطة ولم يستطع الاستيلاء على المدينة ، ولكنه احتل جوانبها وانتزع تطيله (توديلا) في آب ١١١٤ .

الحرب الصليبية عام ١١١٨ وأخذ سرقسطة . — وانتقل الصليبيون

من الدفاع إلى الهجوم . ففي ١١١٥ قام الهجوم الذي خطط ضد البالئار : احتلت بالما في شهر آب ، وانتهى فتح ماجورقة في ١١١٦ . وكانت هذه العملية مقدمة لعملية أخرى أهم منها بكثير في اسبانيا القارية . ففي ١١١٨ ، وبمبادهة البابا جيلاز الثاني ، انعقد مجمع في تولوز ونظم حملة صليبية واسعة ضمت أمراء جنوب فرنسا كلهم تقريباً ، وكان على رأسهم كونت تولوز ، برتران ، وكونت قرقشونه (كاركاسون) ، برنار آتون ، وفيكونت بيارن ، غاستون . وانضم الكونت روترو ، صاحب بيرش ، الذي لعب دوراً نشيطاً على الايبر عام ١١١٤ ، إلى البارونات اللانغدوقيين والغاسكونيين وقاد مع غاستون بيارن الحملة التي كان هدفها في هذه المرة سرقسطة .

وانتزع الموقع بعد سبعة أشهر . وقد طبق فيه غاستون بيارن ، الذي اسهم بقسط نشيط في أخذ القدس ، الطرق نفسها : انشأ دبابات وابراجاً من الخشب وهاجم بها الأسوار التي تحمي المدينة . فقابلته الحامية بمقاومة عنيفة وناضلت يائسة إلى اليوم الذي ارسل فيه علي اليها جيش النجدة الذي انهزم في ملتقى الايبر و وشقة (هويسكا) في ٨ كانون الأول ١١١٨ ، وفي ١٩ كانون الأول استسلمت سرقسطة : وكان هذا الفوز اكبر نجاح أحرزه الصليبيون في اسبانيا .

حاول المرابطون أن يعوضوا اخفاقهم بهجوم جديد ، واصطدمت جيوش المسيحين والمسلمين في حرب دامية في **كوتاندا** بين سرقسطة وبلنسية (فالانس) في ١٨ حزيران ١١٢٠ ، وظلت ساحة القتال بيد الفرنسيين والآراغونيين الذين قتلوا خمسة عشر إلى عشرين الف مسلم وعادوا بالكثير من الاسلاب والغنائم . وتداعت مواقع الدولة الاسلامية القديمة في سرقسطة ، الواحد بعد الآخر ، وخاصة قلعة ايوب ودروقة (**داروكا**).

ومن جهة أخرى ، وبينما كانت آراغون تمتد على كل حوض الايبر الأوسط ، كان الكاتالونيون ، الذين فتحوا سرقسطة ، يتقدمون نحو افواه النهر . ولم يسجل الاسلام تراجعاً مثل هذا التراجع في أي وقت مضى .

نتائج الحروب الصليبية الفرنسية في اسبانيا . — لقد أدت الحرب الصليبية في الغرب إلى نتائج حاسمة كالحرب الصليبية في الشرق . وكان أخذ سرقسطة صدى لأخذ القدس . كما كانت نتائجه ، من بعض الوجوه ، أكثر صلابة ودواماً بفضل الروح السياسية التي برهن عليها الرجلان اللذان كانا روح هذه الحركة التحريرية ، ملك آراغون ، الفونس الأول ، وكونت برشلونة ، رامون بيرنغر الثالث الذي استحق لقب «الكبير» . لقد ضم الأول إلى الاراغون قشتالة مع جميع توابعها . وكان الثاني المؤسس الحقيقي للدولة الكاتالونية التي شادها على جانبي سلسلة البيرينه وضم اليها كونتيات بيارن وسردانيا (١١١٧ — ١١٢٩) ثم أضاف اليها ، بسبب زواجه من دوس ، بنت جيربيرج ، كونتس بروفانس وجيفودان ، كونتيات بروفانس وجيفودان و روويرغ و ميللو . وفي ١١٣٦ انضمت الدولة الآراغونية والدولة الكاتالونية تحت صولجان واحد ، وتمت وحدة اسبانيا المسيحية التي دشنت فيها الحرب الصليبية الفرنسية ، بتشجيع من البابا وات الكسندر الثاني و غريغوار السابع و اربينو الثاني و جيلاز الثاني ، الدور الكبير الذي لعبه العصر الوسيط .

وهكذا سيطرت الحرب الصليبية الشرقية والحرب الصليبية الغربية على تاريخ القرن الحادي عشر الراحل وتاريخ القرن الثاني عشر في فجره ، وكانتا ، في المسيحية المنقسمة ، خميرة وحدة معنوية ، ودشنتا عصراً جديداً حاولت الروح الدولية فيه أن تؤكد وجودها فوق جميع النعرات الاقليمية الخاصة .

الفصل الثالث والثلاثون

حضارة القرنين العاشر والحادي عشر

القرن العاشر

لم تكن الأزمة التي تلت تفتيت الامبراطورية الكارولنجية أزمة سياسية فحسب ، بل كانت أيضاً أزمة إقتصادية ودينية وفكرية ، ولاقت الحضارة الغربية ، على اختلاف أشكالها ، مالاقت من الغارات والحروب الأهلية وتجزئة الدولة وضعف التسلسل الكنسي . وفي الحقيقة ، كان القرن العاشر عصر قلق واضطراب وانحراف ، ثم تلتـه ، في القرن الحادي عشر ، نهضة بدت تباشيرها للعيان قبل حلول العام ١٠٠٠ .

الأزمة الاقتصادية

انحطاط التجارة . — إن الانحطاط الاقتصادي ، الذي يلاحظ في بداية القرن العاشر ، كان سابقاً لتفتيت الامبراطورية الكارولنجية وظهور النظام الأميري ، ويمكن الصعود به إلى عهد الفتح الاسلامي عندما أغلق البحر المتوسط في وجه التجارة الغربية ، ولكنه تفاقم أيضاً عندما أدت الغارات النورماندية ، بين ٨٣٤ و ٨٤٤ ، إلى تدمير ميناءي دورشتيد وكانتوفيك . وكانت الصفات الغالبة على الحالة الاقتصادية ، عندما خلع لويس السمين عن العرش وتداعت الامبراطورية الكارولنجية ، تظهر في

زوال المراكز العمرانية كمواطن مبادلة ، والاستعاضة عن التجارة الكبرى بالاستهلاك المحلي في داخل الدومين ، وتغلب الحياة الزراعية . ثم أخذت تزداد في النصف الأول من القرن العاشر .

وفي خلال هذا الدور ظل البحر المتوسط وبحر الشمال مغلقين في وجه التجارة الغربية ، ثم جسمت معاودة الهجوم الاسلامي ، في إيطاليا وإسبانيا والبروفانس ، الشروط السابقة . وإذا استقر النورمانديون في فرنسا عام ٩١١ ، فقد أثار ظهور الهونغاريين الاضطراب في ألمانيا وإيطاليا واللورين وبورغونيا والشمبانيا حتى استحال القيام بالمعاملات التجارية .وإلى هذه الآلام التي سببها الغزو تضاف الآلام التي ولدتها الحروب الأهلية : فالمنازعات السلالية التي عاثت خاصة في ايطاليا وفي فرنسا ، وثورات كبار التابعين وجولاتهم وأشواطهم زادت في عدم الأمن ، كما أوجد استقرار النظام الأميري عقبات جديدة .

وفي الواقع ، إن الحصون ، بعد أن أفادت كملاجىء في زمن الغارات ، أصبحت في الغالب الأعم وجراً حقيقية يأوي إليها الأشقياء الذين لم يكتفوا بنهب أراضي الجار بل أثروا بقطع الطرق ونهب التجار الآمنين . وفي ألمانيا ، استطاع هنري الأول واوتون الكبير أن يحددا أعمال السلب والنهب . أما في فرنسا وايطاليا فكان من الخطر المغامرة على الطرق الكبرى ، لأن الانسان في كل وقت كان معرضاً للمهاجمة والنهب . وفي العصر الأميري كانت ضرائب التجار ورسوم المرور التي حافظت الملكية على فائدتها زمناً طويلاً ، تعيق التجارة ، ولكنها تخلت عنها أخيراً كسائر الحقوق الملكية الأخرى : وكان على السلع التجارية التي تسير على الطرق أن تدفع رسم الحركة والغبار المثار . أما التي تنقل على الماء

فتدفع : ضريبة الجسر والضفة والميناء . ولم تفقد التجارة من تحويل الضرائب العامة إلى اتاوات دومينية ، بل ازداد عدد الرسوم بسبب التجزئة الأرضية . وكان الأمراء حريصين على زيادة مواردهم ، ولذا أوجدوا رسم المرور دون أن توجد جسور للعبور ، وتوسعوا في جباية الرسوم التجارية من السفن التي لاترسي . وازداد سعر الرسوم أيضاً وبلغ نسباً مفرطة . ولا عجب اذا قل عدد التجار ، بعد أن هددوا ، في أموالهم وأرواحهم ، وتعرضوا للأخطار التي امتدت في بعض المناطق الى آخر القرن الحادي عشر.

النظام الدوميني في القرن العاشر . — وبسبب هذه الظروف تسارع التطور الذي بدأ في زمن شارلومان . ان مايميز الحياة الاقتصادية في القرن العاشر هو أنها كانت متمركزة في داخل الدومين أكثر من أي وقت مضى . ففي العصر الكارولنجي امتصت الملكية الكبرى الملكية الصغرى . وقد عاشت هذه الدومينات الكبرى في الغالب : ففي انكلترا بقي ثلثا الأرض في أيدي بعض الأسر النبيلة ؛ وفي المانيا ، كان زعيم بيت آل فيلف يمتلك حتى أربعة آلاف مانس . وفي بعض المناطق ، كالبلاد الواقعة على شاطىء بحر الشمال واكيتانيا وغاليا الجنوبية، وكشمال وشرق انكلترا ، كان الملاكون الصغار ، على العكس ، محميين بقوة . أما في غير هذه المناطق فقد أدى نمو النظام التبعي الى بعض التجزئة ، وتألفت ،على حساب الدومينات الكبرى، الانتفاعات بشكل أراضي أي الاقطاعات التي أقام فيها الأمراء تابعيهم . ولم تتبدل الشروط الاقتصادية : فقدظل كل من هذه الدومينات يكتفي بنفسه ويستخدم موارده كلها . وحول مسكن الأمير ، أو الدومين الكنسي ، حول الكنيسة أو الدير، وجدت الأنبار والأهراءوالطاحونة والمعصرة والمشاغل التي يعمل فيها النجار والحداد والحياط والنساء اللواتي ينسجن الصوف ويصنعن الثياب .

انحطاط الصناعة . — ولا عجب في مثل هذه الظروف الاقتصادية أن تنمو الحياة الزراعية أكثر من الحياة الصناعية . وقد تراجعت هذه الأخيرة منذ عهد شارلومان وازداد التقهقر في ظل النظام الأميري . فقد زالت كل تجارة تبادل وأصبح الاستهلاك محلياً ، ولم يبق موجب للاهتمام بجذب الزبائن بطرق أفضل وأحسن . وشجعت اخلاق القرن العاشر الفظة والحربية على هذا الركود : فقد نزعت حياة المجتمع الى الزوال . وكان صاحب القصر يجهل نعومة البذخ ولا يتطلع ، لارضاء رغباته ، الى أكثر من مائدة عليها ما طاب من صنوف الطعام والشراب . واقتصرت مشاغل الدومين على صنع الأشياء التي لاغنى عنها للحياة اليومية ولا أكثر من ذلك. وكانت تصنع فيها الأسلحة وأدوات الفلاحة ، ولكن لاتعرف كيفية معالجة الفلز المعدني . أما صناعة النسيج فقد اقتصرت على بعض أعمال الغزل والنسيج والصباغة حسب طرق بدائية تماماً . أما في بعض المراكز الممتازة ، كمدن لومبارديا والبندقية ، مثلاً ، فقد حافظت على تقاليدها القديمة .

ركود الزراعة . — واذا انحطت الصناعة والتجارة فان الزراعة لم تدل على أي تقدم ورقي : ان مايلفت النظر في الصكوك هو كثرة الأراضي البور : فقد كانت الأقسام المنخفضة من أوربة الغربية مغطاة بالمرازغ ، بينما كانت الغابات الموحشة (اللاند) في هضاب فرنسا وألمانيا وانكلترا تحتل أماكن واسعة . وكانت الغابة تمتد على ثلثي غاليا ، وعلى كل ألمانيا الوسطى ، وعلى سهول البلاد المنخفضة وايرلنده وبلاد الغال وثلث انكلترا ، وعلى شمال شرقي اسبانيا وايطاليا الشمالية ، وتؤلف مورداً هاماً : كانت الغابات التي يؤخذ منها حطب التدفئة تتوالى عموماً مع الغابة ذات الدوحات العالية التي تأتي منها المواد الضرورية للبناء وصناعة العربات وصناعة البراميل . وكان الصيد أيضاً منتجاً للموارد ، وكذلك تربية النحل

الذي يعطي الشمع المستعمل في صنع الشمع العسلي والعسل المستعمل للتفكه وتحضير شراب العسل أو نبيذه . وأخيراً تساق في الغابة قطعان الخنازير عند قطاف البلوط . وفي بعض المناطق ، في الشمال الغربي من فرنسا وفي انكلترا تقطع الغابة مراع تختلف إليها الخيول والثيران وخاصة الخراف ، دون أن يكون هنالك تربية على سبيل الحصر . وكانت الزراعات قليلة جداً والطرق المستعملة في الزراعة محافظة على طابع لاشكل له : فحتى القرن الحادي عشر كانت الأدوات المستعملة بسيطة للغاية ، مثل الرفش والمعول والنورج والمحراث الخشبي . ولم يعرف استعمال السماد ، حتى ان أكثر الزراعات انتشاراً مثل زراعة الكرمة ، كانت في مرحلة ابتدائية .

إتلاف الأرياف . — ان انحطاط التجارة يوضح جزئياً هذا الركود في الزراعة ، لأن ضيق أسواق الاستهلاك لايدعو الى الانتاج . غير أن هذا لايكفي لايضاح أزمة الريف لأن الغارات والحروب الأهلية هي المسؤولة الكبرى عن هذا الانحطاط .

ولكن يجب ألا نعمم ، لأن جميع المناطق لم تصب بدرجة واحدة بهذا الوباء المزدوج : ففي فرنسا ، مثلاً ، نكب الجنوب في وقت متأخر وباقل عمقاً من الشمال ، ولكن مامن بلد في القرن العاشر نجا بكامله . وسواء أكان المقصود ملوكاً أم اقطاعيين كباراً أم أمراء بسطاء فلا يمكن تصور الحرب دون اتلاف منظم : ففي ٩٣٩ عبر أوتون الكبير الراين واجتاح بلجيكا لاخضاع الدوق جيلبيوت ، وحرق ونهب المناطق التي اجتازها وعاد بالاسلاب والغنائم . وأراد جيلبيوت أن يثأر لنفسه ، فعبر الراين وعاث في البلاد واشعل النيران فطلقت كل شيء حتى الأرض ، وجمعت جيوشه الغنائم وقطعان الحيوانات الكبرى والصغرى . وفي ٩٤٦ نهب الملكان لويس واوتون دون اشفاق المناطق التي اجتاحاها ،

وكان ذلك سهلاً عليها لأن الفلاحين فروا أمامها وتركوا كل شيء.

ويأخذ الألم شكلاً حاداً إذا كان الكلام عن البارونات المجردين من أي وازع أو رادع أو وسوسة ضمير. ان كتاب « خوارق القديسة فوا »، الذي يزخر بالتفاصيل المثيرة عن الحياة الاميرية، يبين أن فرسان منطقة الاوفيرن، عندما يتجابهون في حروب دموية وغير مجدية، يدمرون بالحديد والنار الدور وأراضي الفلاحين، ويعدد أمثلة واضحة مقنعة تماماً. وفي الطرف الآخر من فرنسا، في نورماندیا، كان روبير بلهيم من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٥ في حرب مع جيرانه، وعاث في الاراضي حتى فر الفلاحون وتركوا حقولهم بوراً زمناً طويلاً. وكذا الحال في كل مكان تقريباً: لقد كانت نتيجة كل حرب اميرية احراق القرى والمحاصيل الزراعية ونهب الحيوانات وفي الغالب قتل السكان.

النظام الأميري والطبقات الريفية. — لقد كان سكان الريف يتحملون نتائج الحروب العامة والخاصة، وهذا هو السبب في الركود الزراعي، كما يتحملون وطأة النظام الأميري الذي أوجد القنانة، من وجهة النظر الاجتماعية.

لقد شهد القرن التاسع، بصهر المعمرين والارقاء الزراعيين، تشكل طبقة الأقنان المتعلقين بالأرض. ومما شك فيه أن كان في القرن العاشر متصرفون أحرار يستغلون الأرض مقابل الاتاوات المحددة بيدل الايجار، ولكنهم شكلوا، في فرنسا وانكلترا كما في ألمانيا وايطاليا، استثناء، وإذا تركت جانباً بعض التكاليف الملازمة لشرط القنانة التي لاتثقلهم، فقد كانوا ملزمين بالالتزامات المتوجبة على الأقنان

وكان لهذا التطور بعض الفوائد: فقد أعطى للرقيق القديم في الدومين قطعة أرض، وثبته عليها، وسمح له أن يجد في الزراعة

الموارد الضرورية لاعاشته واعاشة ذويه . أما المعمر القديم الحر فقد أمن له هذا التطور بعض الحماية . وبالمقابل ، ان استقرار النظام الاميري في الغرب كانت لها أسوأ النتائج لدى مجموع الطبقة الريفية بجذفه كل رقابة لسلطة عليا ، وتسليمه الفلاحين لظلم البارونان الجشعين الطائشين والقطيعين أحياناً ، دون معاذ أو ملاذ ممكن . ولم يعد القن شيئاً من الملكية التي تباع أو تبادل مع الدومين الذي يؤلف جزءاً منها ، أولا يستطيع الاستغناء عن موافقة أميره في كل مايتعلق باعمال حياته كالزواج أو الادلاء بشهادته أو نقل أمواله إلى أولاده فحسب ، بل كان عليه أيضاً « أن يدفع ضريبة القامة ويقوم بالسخرة دون رحمة » . كان يدفع ضريبة القامة كلما كان البارون بحاجة إلى المال ، وضريبة الرأس السنوية الثابتة ، ولا يدخل في هذا المعنى أي اعتبار لمورد ، وأخيراً عليه أن يدفع الضريبة التي تتناول الناس الأحرار أيضاً . وكان عليه ، فوق ذلك ، أن يقوم بالسخرة والخدمات الأخرى ، ويتحمل العديد من الضرائب غير المباشرة دون حساب الغرامات التي هي وسيلة أخرى لسلبه قسطاً من موارده . وباختصار كان يؤدي الحقوق الاميرية العديدة التي تثقل كاهل الأشخاص والأراضي . فهو على هذا النحو مسحوق تحت ثقل الضرائب . ومن الوجهة الحقوقية ، كانت حالة الفلاح في صغار دائم تحيط به قساوة الحياة من كل جانب .

التحكم الأميري . — لقد كان التحكم الأميري ، أكثر من تعداد الاتاوات ، أصلًا لجميع الشرور التي تشكو منها الطبقة الريفية في القرن العاشر . وقد رأينا فيما سبق الخسائر التي كانت تسببها الحروب ، ولكن هذه الخسائر لم تكن الوحيدة . فمن ذلك ان الأمير ، إذا وجد قرى أو أراضي مزروعة تضايقه لتنظيم صيده ، لايتردد في تخريب بعضها

وقلب الأخرى دون أن يهتم بالشقاء الذي يحدثه بعمله . ان ممارسة حق الايواء تعطي مجالاً لمفاسد مطابقة : ويكفي لذلك أن يقرأ في كتاب « خوارق القديس بندكت » قصة وصول اود رابع أولاد روبير التقي إلى قرية جرميني : فمن ذلك أن خدم الأمير ، لاشباع شراهته ونهمه ، وضعوا أيديهم على كل ماوجدوه ، وهددوا بالجلد بالسياط الفلاحين الذين يحتجون على متطلباتهم ، واخذوا يجمعون في الكنيسة حصيلة هذه الاغتصابات ، وبينما كان الفقراء يتضورون جوعاً ، كان الخدم يعدون طعاماً تعجز عنه أقوى المعدات ، ويشعلون شموع عيد الفصح لاضاءة هذا الافراط في الشرب والاكل . والأمثلة من هذا النوع كثيرة . وان التقاويم لتزخر بهذه المغامرات التي تعتبر دليلاً على انحطاط المعنى الاخلاقي . وبصورة عامة ، لم يكن البارون ليصغي الا لأنانيته الشخصية وظل لامبالياً بآلام الغير ولا يحاسب نفسه على ما اقترفت يداه .

بؤس الفلاح . — وبعد أن رأينا مارأينا من أفعال هؤلاء البارونات نعود فلا نعجب للشقاء الذي كان يلم بالطبقات الريفية في القرن العاشر . لقد انعكس فقر الفلاح على داره ، وهي كوخ من الخشب بسقف من القش وأرض ترابية واصطبل مجاور للمسكن ، وعلى أثاث بيته وملابسه وغذائه القاصر على منتجات الأرض التي يتركها له الأمير ويتألف من الخبز الأسود والخضار والالبان ، ومن النادر السمك ولحم الخنزير . وهذه قرائن تدل على شظف في العيش مجرد من كل رفاه وكل فرح وينتهي في الغالب بالجدب المطبق والعدم . ونرى في « خوارق القديس بندكت » المليء بالمعلومات الثمينة عن الحياة الريفية أن قناً من أقنان الابوية فر إلى بورغونيا لانه فقير ؛ وآخر ارتكب سرقات لأنه لم يجد عملاً لسد حاجات أمه العجوز ؛ وآخرين اضطروا إلى التسول لأنهم

لايملكون شيئاً . وإذا فكرنا بان حالة الأقنان على الأراضي الكنسية أفضل مما في غيرها فمن الممكن أن نستنتج أن الأرض ، على الاغلب ، في القرن العاشر ، لاتغذي صاحبها . وإذا ما الفائدة من زرعها مادامت حاصلاتها لاتستعمل جملة إلا في تغذية الجشع الأميري .

المجاعات . — لقد كانت حالة الطبقات الريفية قاسية دوماً وأصبحت مفجعة في بعض الأوقات . ففي حوليات القرن العاشر والحادي عشر تتردد كلمة مجاعة دون انقطاع . وإذا أخذنا بما قاله المؤرخ رؤول غلابير وجدنا أن ثماني وأربعين سنة عجيفة مرت بين ٩٧٠ و ١٠٤٠ . وليس في ذلك مايدهش . فقد بلغ تدني التجارة حده الأقصى في القرن العاشر ، ويكفي أن تؤدي الشروط الجوية إلى محصول رديء ، أوان تجتاح الحرب بلداً من البلاد حتى تفتقد المواد الاولية الضرورية . ومما لاشك فيه أن كثيراً من المجاعات التي يشير اليها المؤرخون كانت ذات طابع محلي ، ولكن الكارثة كانت أحياناً عامة ، كالمجاعة الكبرى التي حصلت في العام ١٠٠٠ وعاثت في العالم الروماني حتى لم تبق منطقة الا وأعوزها الخبز ، كما كتب رؤول غلابير . ويذكر هذا المؤرخ أن الناس في كثير من الأماكن كانوا فريسة الآلام الفظيعة ، حتى انهم كانوا يتغذون بلحم الحيوانات والزواحف القذرة بل وأيضاً بلحم الحيوانات والنساء والأطفال . وفي العام ١٠٣١ حدث ماهو أسوأ ، وذلك أن الحرارة أصبحت معاكسة ولم يعد بالامكان وجود أي وقت ملائم لزرع الأراضي أو الحصاد بسبب المياه التي غمرت الحقول . فقد فاضت الارض بالامطار المستمرة التهطال وتعذر البذو . وفي أوقات الحصاد كانت الأعشاب الطفيلية والشيلم تغطي الأرياف . ولم تعط الارض الطيبة

إلا قليلًا جداً . ولم توفر هذه المجاعات ايطاليا وغاليا وانكلترا . وسادت في كل مكان مشاهد الهلع والذعر والخوف . وبالرغم من هذه المبالغات التي خرجت على قلم المؤرخ فهي لاتنفي صحة الكثير من الحوادث التي كان لها شاهداً عياناً حزيناً ، كبيع اللحم البشري في أسواق بعض المدن .

الأوبئة . — وكان للمجاعة نتائج أخرى . لأن التغذية السيئة ، التي يجب الاكتفاء بها في أوقات الجدب ، ولدت اوبئة مشؤومة . ويدلنا رؤول غلابير في قصته عن مصائب العام ١٠٣١ أن الخبز في بورغونيا صنع من التراب الأبيض المخلوط بالطحين أو النخالة ، ومالبث الكثيرون ممن تغذوا بهذا الغذاء الفريد الغريب أن تورمت أجسادهم وأودوا . ومن السهل أن ندرك بعد هذا أن نظام التغذية على هذا النحو كان خطراً على الصحة العامة ، ولا نعجب إذا فتك الطاعون بعد المجاعة فجعل اوربه بلاقع خلواً من السكان ثلاثة أعوام . ويشير آندريه فلوري إلى انتشار وباء في اكيتانيا كان يهاجم عظم الانسان وينخر فيه . أما الجذام فكان نادراً تقريباً ولم ينتشر في اوربه الا بعد الحروب الصليبية .

الأزمة الاجتماعية . — لقد انتابت هذه الآلام من كل نوع سكان الأرياف وزادت الشقاء الملازم للنظام الأميري . ولكن إلى أي حد استسلم الفلاحون لهذا المصير ؟ الحقيقة ان هذه القضية صعبة الحل . فمما لاشك فيه أن وجدت هنا وهناك اضطرابات تدل على الاستياء : فمن ذلك أن الفلاحين النورمانديين ثاروا عام ٩٩٧ بحجة أن الغابة ، التي يتصرف بها امراؤهم بحرية ، يجب أن تكون تابعة لهم ، وندبوا بعضهم لدعم مطاليبهم . ولكن هؤلاء السفراء رجعوا مشوهين وعاد كل منهم إلى محراثه . وهنالك حركات أخرى ، كحركة عام ١٠٠٨ في بروتانيا ، تدل على القلق الذي ساور النفوس في عالم الريف . ولاشك في أن

الفلاح ، في بعض الأحيان ، كان يلجأ إلى الطرق السلمية ، كأن ينخرط في عصبات السلام ، ولكنه ، حتى القرن الثاني عشر ، لم ينجح في الوصول إلى تحسين قدره . ولذا فان الأزمة الزراعية ، التي لازمت الظلم الاجتماعي بتأثير النظام الطبقي ، لم تضعف الا ببطء شديد .

الانحطاط الديني والفكري

ضعف الروح الدينية . — ان حدة الآلام الاجتماعية الناجمة عن الأزمة الاقتصادية تتضح جزئياً بضعف الروح الدينية . فاذا أساء الأمير استعمال السلطة التي خولتها اياه النظم فذلك قبل كل شيء لأنه فقد احترام الاشياء المقدسة بل وحتى أبسط المعاني الاخلاقية . وفي الواقع ان مايميز قبل كل شيء العالم الاميري في القرن العاشر إنما هو فساد الأخلاق المريع . ولا مرية في أن البارون كان يختلف إلى الكنيسة ويتقبل الأسرار ، وفي ساعة الموت كان يحاول تقديم بعض الهبات والاعطيات ليدفع عنه غضب الله ، واعلان التوبة النصوحة ، ولكن هذه الاعمال المتأخرة ليست إلا بقايا ايمان محروم من كل غذاء فكري وأخلاقي . لقد كان أمير القرن العاشر يعتقد بوجود الله وخلود الروح ولكنه كان يجهل شروط السلام وغير قادر على كبح جماح غرائزه . وكان يرى أن الزنا ذنب لانتيجة له ، وحب الكسب هفوة وزلة صغيرة ، والمرأة رقيقة لتخليد اسمه واشباع رغباته وأهوائه ، والفلاح مادة بشرية يجب استغلالها ما أمكن .

الأخلاق الأسقفية . — وغزت روح العصر الكنيسة أيضاً . لأن زوال الامبراطورية الكارولنجية وضعف السلطة الرومانية وضعاها تحت

رحمة الأمراء الذين كانوا ، في كثير من الحالات ، يعينون الأساقفة والآباء عوضاً عن الملك . ولذا ظلت المشاغل الدينية غريبة عن هذه الأسماء الملطخة بالرشوة والفساد . وعندما أصبحت المدينة الاسقفية امارة لم يعد إنسان يذكر الاسقف بواجباته الروحية ، فنسي الصفة المقدسة لوظيفته ، وسيطر عليه الاهتمام بالمشاغل الزمنية ، وانزلق في مهاوي الرذيلة . ولقد كتب القديس اودون أب كلوني : « لقد شبع الكهان لحماً وثملوا غطرسة وجفت قلوبهم بخلاً ، والانتهم اللذة ، واقلقهم الخبث ، واستشاطوا غضباً ، وقسمهم الشقاق ، وأفسدهم الحسد ، وقتلهم الفجور » . وتبرهن الحوادث على ان هذا الاب لم يبالغ في قوله ، لأن قوانين المجامع الدينية خاصة ترينا لأي درجة سقط العزب الكنسي في زوايا الاهمال ، حتى بين هيئة الاساقفة . ومن جهة أخرى ، لقد قتل الروح الأميري الروح المسيحي : فمن ذلك ان سالومون كونستانس قضى حياته في الحرب وشارك في المنازعات السياسية في سؤاب دون أن يتراجع أمام أقبح أنواع العنف . وأصبح ارشامبو سانس في العام ٩٥٨ مطراناً بارادة قريبه . وانغمس الكونت رينو في حياة الفجور ، وكان يهتم بكلابه وعقبانه اكثر من رعاياه ، ويواظب على الصيد أكثر من القيام بالخدمة الإلهية .

انحطاط الأديرة . — وتسللت الاخلاق الوثنية إلى داخل الابويات ، ولولا قوة حواريي الاصلاح الكلوني الاوائل لزالت التقاليد البندكتية في بداية القرن العاشر . ففي مملكة اللورين ، في سينون وفي جمبلو ، انتشرت الاباحة والفجور . وفي ايطاليا ، كانت الحالة أكثر قبحاً ، لأن الرهبان كانوا يعيلون خليلات منعهن الحياء في بادىء الأمر فاختبأن عن الأنظار ، ومالبثن أن أظهرن مفاسدهن في وضح النهار . وفي فرنسا ،

اجتنب الشر بسرعة بفضل التوسع الذي لاقته طريقة كلوني . ولكن الاستقبال السيء ، الذي لاقاه المصلحون ، يبرهن على أن الحالة لم تكن في فرنسا أفضل مما في غيرها من البلاد المجاورة .

وتراكم الخراب المادي إلى جانب هذا الخراب المعنوي . وشكت الكنائس والأديرة بخاصة ويلات الغارات النورماندية والهونغارية والاسلامية حتى ان بعض المناطق ، كما في بافاريا ، السوّاب ، اللورين ، الشمبانيا ، البورغونيا ، ودبان السين واللوار ، ولومبارديا وايطاليا الجنوبية ، كانت تجتاحها الغارات بصورة دورية ، ولا تكتم قصص المؤرخين وسير القديسين مدى الكارثة . وكان الرهبان ، عندما يقترب البرابرة منهم ، يهجرون الأبويات دون أن يكون لديهم متسع من الوقت يخفون فيه الكنوز المحفوظة لديهم . ولم تهدم الكنائس أو تحرق فحسب ، بل سرقت التحف الفنية وبعثرت ، واحرقت المكتبات مع وثائقها الغنية ومخطوطاتها الثمينة . وفي آخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر هجر دير مونكاسينو مدة سبع وستين عاماً . وتحت الحاح البابا آغابيت جاء بندكتيون من كابو ، في العام ٩٥٠ ، وسكنوا الدير وأعادوا اليه تقاليده المجيدة . وكذا الحال في فرنسا وانكلترا والمانيا . وحيث مر الغزاة ابيدت حضارة القرون السابقة .

الانحطاط الفكري . – من المحتم أن يؤدي خراب الكنائس والأديرة إلى الانحطاط الفكري والفني . فقد حافظت الكنائس والأديرة في العصر الميروفنجي والكارولنجي بكل تقوى على التقاليد الأدبية القديمة الوثنية والمسيحية ، إلا أن غزو الابرشيات من قبل أساقفة الأمراء المجردين من كل ثقافة والمهتمين بالمشاغل المادية ، وبعثرة الرهبان أثناء الغارات الكبرى ،

وزوال مدرسة القصر مع الامبراطورية ، كانت ،في القرن العاشر ، ظروفاً قاسية لاتتلاءم ونهوض الفكر الغربي .

الأدب الكنسي . — لقد امتاز العصر الكارولنجي بنمو الأدب الكنسي ، وكان قصر اكس — لا — شابل مركزاً للدراسات اللاهوتية التي شعت بصورة واسعة في الخارج . وانتهت هذه الحركة مع الامبراطورية ولم يبق في القرن العاشر لاهوتيون أو فلاسفة . والاسم الوحيد الذي يمكن ذكره هو **ديمي اوسير** الذي علم الجدل في رنس ثم في باريس ، والف عدداً من الكتب ، دون كبير أصالة ، لتفسير الكتاب المقدس والمزامير . وهنا وهناك ، وبخاصة في ايطاليا الجنوبية ، نشرت مجموعات قوانين كنسية في النصف الأول من القرن العاشر والفت حلقات السلسلة التي تربط القديس ايزيدور الاشبيلي ببوركارد فورمز . وأهم ما يمثل هذا الأدب الكنسي هو هذه المؤلفات التي نشأت عن الجدل الذي رافق حبرية البابا فورموز ، وعن رد الفعل الذي كانت مركزه كلوني ضد روح العصر .

اوكسيليوس وفولغاريوس . — ولقد حاول الكاهنان اوكسيليوس وفولغاريوس اثبات صحة الأعمال التي قام بها البابا فورموز وتجريد الاحقاد التي قامت ضد هذا البابا البائس بعد وفاته من سلاحها . وكثير من مجموعاتها التي ضمت النصوص الملائمة لم يكن لها أهمية أدبية . ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى حوارهما وحججها لصالح البابا ، فقد عرضت بمنطق أخاذ .

القديس اودون . — ان الاضطراب الاخلاقي ، الذي تلا الازمة الرومانية في القرن العاشر ، انعكس عند القديس اودون أب كلوني .

فقد كتب بناء على طلب توربيون ، اسقف ليموج ، كتاب « المقارنات »
وصور فيه رذائل المجتمع الكنسي والعلماني بواقعية مفرطة أحيانـاً . كما
ترك القديس اودون أيضاً أثراً يتعلق بسير القديسين والليتورجيا . وكان
اخلاقيـاً قبل كل شيء ، ولذا لم يكن لبعض الاعتبارات الميتافيزيائية،
التي زين بها كتابه ، قيمة كبرى . حتى ان الأدوية ، التي يقترحهـا
لمعالجة أمراض زمانه الاجتماعية وتكيف بخاصة مع غيرته الرهبانية ، لم
لم تكن ناجعة . وفي الحقيقة ، ان مايجعل له مقاماً في الآداب إنمـا هو
هجومه اللاذع على الاكليركيين والعلمانيين الذين أهلكهم الفجور والكبرياء ،
المصدران السامان لجميع الذنوب الأخرى . وقـد أجاد في رسم صورة
كبار الاقطاعيين الذين يتخذون شتى السبل لملء جيوبهم ، ويكونون على
استعداد دائم لاستئناس الفقراء ليجعلوا منهم زبائن يجرونهم وراءهم بكل
أبهة ، ويهتمون بالاسراف ، ويجهلون أفراح الفكر والروح ، وتستعبدهم
اللذة دون القدرة على التفكير بشيء آخر غير هذا الجمال الجسماني الذي
يقف على الجسد وحده . و « لو أن الناس يرون ما هو كائن تحت الجلد ،
مثل أوس تراكيا الذي ينفذ بصره ، كما يقول ، إلى جميع الأشياء ،
لشعروا بنفور عميق لدى رؤية النساء » . ولم يوفر الاكليركيين الذين
انساقوا أيضاً نحو الهاوية بغطرسة ابليسية . « إن قانون العمل ، الضروري
لعامة الناس الفانين ، لايوجد بالنسبة لهم . وهم يهوون في الرذيلة وأيديهم
ملأى . وعلى مثال الغني الذي يلبس الارجوان يقضون نهارهم بالمآدب ،
ويزدانون بالملابس الفاخرة ، ثم ينسون واجباتهم الوظيفيـة ، ويرتمون
بجسدهم الضائع في مهاوي الفجور . وحسب تعبير الشاعر الكوميدي،
ان فينوس لتبرد إذا لم ينتج باخوس وسيريس وفرة كهذه » .

آتـون فوسي وداتيه ليبيج . — لم تولد التطلعات المصلحة كتاباً

عظاماًفي داخل الكنيسة العصرية . وقد ترك أتّون ، اسقف فرسي ، من ٩٢٤ الى ٩٦٤ بعض الرسائل وحاول فيها ان يعيد الاكليروس الفاسد الى ممارسة حياة افضل ، وكشف هجومه على السيمونية والنيقولادية عن لاهوتي ورجل عمل وحبر مقدس لم يكن له حماس اودون كلوني ، ولكنه عرف كيف يجد اللهجة المحببة التي يستطيع ان يؤثر بها في النفوس . اما راتيه لييج فقد تتلمذ على الأب هيلدوين ثم أصبح اسقف فيرونه واضطر فيها مراراً الى الهرب امام مقاومة كهانه . توفي في نامور عام ٩٧٤ ، وكان اكثر اصالة من آتون فرسي . واثره الأساسي « المقدمة » الذي الفه في سجن بافيا ، حيث زجه ملك ايطاليا ، هوغ ، يضم برنامجاً جذرياً لاصلاح الكنيسة أخذ عنه الكتاب اللورينيون فيما بعد ، كما عبر فيه بتظلمات حارة عنه الآلام التي تحملها اثناء اسره

الشعر الحماسي . — اما في الأدب الدنيوي فقد كان الشعر الحماسي ، الذي توحي به الظروف والمناسبات ، يحتل المكان الأول : فعلى عتبة الدور الذي تلا زوال الامبراطورية الكارولنجية اوحت الغارات النورماندية للشاعر الراهب آبّون بالقصيدة المسماة « حصار باريس ». وقد كتبها في ٨٨٨ ، وفيها يقص حصار النورمانديين لباريس (٨٨٥— ٨٨٧). وتعتبر هذه القصيدة وثيقة ممتازة تزخر بالتفصيلات الممتعة؛ وبفضلها انتعشت حياة الاشخاص والوقائع بأدوار ملؤها الحياة واللون . فوصف باريس وتحصيناتها ، والمدافعين والمهاجمين ، وقصة الزحف النورماندي، وغير ذلك ، تقرأ كلها بلذة حقيقية بالرغم من الاخطاء وفساد الذوق والاهتمام بالشكل .

اما « أعمال الملك بيرانجيه » التي تصف النضال الذي قام به ملك ايطاليا فهي ابعد عن ان تكون لها نفس القيمة ، لأنها تخلو من البحث

الصابر ، ويغلب عليها المدح الفخم ، ولكنها تزود بمعلومات قيمة عن المنازعات السلالية التي قامت في شبه الجزيرة الايطالية .

ريجينون بروم . — اما التاريخ المنثور فلم ينتج ، فيما عدا تكملات الحوليات الكارولنجية ، الا اثراً له بعض الأهمية وهو : « تاريخ ريجينون بروم » . وليس لهذا التاريخ أهمية الا فيما يتعلق بالحوادث المعاصرة . لأن القسم الأول منه جمع بما الفه غيره . وكذا الحال في بداية القسم الثاني من ٧٤١ الى ٩٠٦ . اما عمل ريجينون الاصيل فيتضمن تاريخ السنوات الاخيرة من القرن التاسع والسنوات الاولى من القرن العاشر . ويمكن ان يؤخذ عليه قبوله الأخبار الشفوية التي تتناقل حوله ، واستسلامه لتقليد المؤلفين القدامى . ولكن سرده للحـوادث ،ببساطة واعتدال ، جعله مستساغاً وابعده عن الجفاف العادي الذي يرى في الحوليات ، فضلاً عن الأحكام التي تصحب سرده وتدل على روح في تقصي الحوادث .

الفقر الأدبي . — توفي ريجينون عام ٩١٥ ولم ينتج التاريخ بعده ، كسائر الأنواع الأدبية الأخرى ، شيئاً يذكر قبل عصر اوتون الكبير ، الذي شهد بداية نهضة أدبية تعاصر وتساير قليلاً أو كثيراً عودة الامبراطورية . وحتى ذلك التاريخ ، كان العالم الغربي فريسة المحن ، يشكو فقراً فكرياً مدقعاً . وإذا استثنينا المؤلفات التي أتينا على ذكرها أعلاه ، لم يكن بين الشعراء الغنائيين من مدرسة القديس — غال ، تلاميذ نوتكر الذي توفي ٩١٢ ومازال ينتسب إلى العصر الكارولنجي ، أو واضعي سير القـديسين ، ومنهم القديس اودون ، من يستحق الوقوف عنده ، وكذا الحال فيما يتعلق بالحياة الفنية في العصر الكارولنجي التي تقاعست موقتاً ، ولكنها بدأت ، في آخر القرن العاشر ، بنهضة رومانسية خلفت دور الغارات المخربة .

القرن الحادي عشر

النهضة الاقتصادية

صفات القرن الحادي عشر العامة . — قامت في الغرب الاوربي حوالي العام ١٠٠٠ نهضة حقيقية ، ولم تبدأ في وقت واحد في جميع البلاد ، كما لم تتناول بنفس الشدة مختلف فروع النشاط البشري ، ولكنها لامستها جميعاً وبشرت ببداية عهد جديد . لقد خلف المنحنى النازل ، الذي سلكه العالم الغربي حتى الآن ، منحنى صاعد يختلف حسب البلاد بين نهاية القرن العاشر في مكان وبداية القرن الحادي عشر في مكان آخر . وسجل عصر الاوتونيين فجر حضارة العصر الوسيط التي بلغت كامل تفتحها في زمن القديس لويس .

لقد اندفعت الحياة الاقتصادية اندفاعاً حاسماً . وإذا لم تحقق الزراعة سوى تقدم خجول ، فعلى الأقل عدت تجارة التبادل إلى مجراها بعد انقطاع ، واحدثت نهضة عمرانية ظهرت نتائجها للعيان في الحياة الاجتماعية .

الاستثمار الزراعي

الظروف الملائمة للنهوض الزراعي . — ارتسمت في القرن الحادي عشر ، وفي تواريخ مختلفة حسب المناطق ، ظروف ملائمة للزراعة . فقد وجد ، في بادىء الأمر ، بعض الاستقرار في النظام الأميري . ففي هذا العصر قويت في المانيا سلطة الاساقفة والآباء الأرضية ، وتألفت في فرنسا الشمالية دول اقليمية مركزية قليلاً أو كثيراً استطاع فيها بودون فلاندر الخامس ، وغليوم الفاتح ، وحتى روبير التقي ، بانتظار

لويس السادس ، أن يوطدوا أمناً نسبياً أفاد الفلاح منه . وفي الوقت نفسه قام الأساقفة ، في اكيتانيا ، واللانغدوك ، وبورغونيا ، برد فعل ضد روح العصر وقرروا « سلام الله » الذي انتشر في كل مكان تقريباً وامتد به البابا اوربينو الثاني عام ١٠٩٥ على جميع البلاد المسيحية . وفي هذا العالم المضطرب أخذ النظام بالنشوء ، وحاول كبار الاقطاعيين ترقية الزراعة بحماية الفلاح وتجنيبه الغارات المنظمة التي كانت في العصر السابق تشل نشاطه ، وذلك بتشجيع إحياء الاراضي البور ، وجذب اليد العاملة الضرورية اليها . ويعود الفضل إلى بودون الخامس ، كونت فلاندر ، في أعمال التجفيف الكبرى التي قام بها على طول شاطىء بحر الشمال . وشجعت الكنيسة أيضاً القيام بهذه المبادهات وسبقت غيرها أحياناً : لقد ضمت الاملاك الكبرى الكنسية والديرية المستغلات الزراعية الاولى واستخدمت فيها الطرق العلمية المفيدة التي تزيد المحصول .

التقدم الاجتماعي . — وشجعت الكنيسة أيضاً حركة تحرير الاقنان التي ارتسمت خجلى وتعممت في القرن الثاني عشر . ومنذ آخر القرن العاشر وجد ميثاق ، في « كتاب الاقنان » في مار موتيه ، يعلن بأن تحرير الرقيق عمل خيري صالح . ثم أكد فيما بعد ايف شارتر في رسالة شهيرة بأن جميع الناس سواسية أمام الله الذي لا يميز بين الأحرار والاقنان . فتحرير الرقيق اذن هو اعداد لخلود أفضل ، وتأمين في هذا العالم ، لدخل مباشر ، لان القن إذا أراد كسب حريته دفع رسماً مرتفعاً أحياناً ، وفوق ذلك ، قلق كثير من البارونات من الهجرة بسبب ظروف الحياة القاسية . وللحيلولة دون الذهاب زرافات علقوا اقنانهم بالارض التي يفلحونها وحولوهم إلى متصرفين احراراً وأخذت اتاواتهم المحدودة تخفف من ثقل ديونهم . ومهما يكن فقد تحقق على الاقل تقدم

اجتماعي ، لان الفلاح الحر لم يعد يدفع ضريبة القامة ويقوم بالسخرة دون رحمة ، بل تحددت التزاماته بعقد ، ولم يعد معرضاً لمضايقات التحكم الاميري ، وتمتع بأمواله بأمن وأصبح لديه من الحماسة ما يجعله يفلح حقله ويزرع كرمه .

زيادة الولادة . — وفي الوقت الذي تهيأت فيه هذه الظروف المناسبة لنمو الزراعة أخذت زيادة الولادة تجهز السواعد الضرورية . وإذا نكبت المجاعات والاوبئة سكان اوربه الغربية في القرن العاشر وبداية الحادي عشر فقد توصلوا إلى الحفاظ على عددهم بل وعلى زيادته . وتكشف الصكوك، في كل مكان تقريباً ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، عن تشكل قرى ، وأكثر من ذلك عن اقبال اليد العاملة الجديدة التي أصبح دورها غالباً .

الضيوف . — وتتألف هذه اليد العاملة من الضيوف الذين ثبتهم كثير من الأمراء ، منذ القرن الحادي عشر ، على أراضيهم البور . وقد وجد في ذلك العصر سكان كثيرون رحل يتألفون من الأقنان الذين غادروا أرضهم لسبب من الأسباب ، وأبناء العائلات من غير الابكار ، وجنود تبحث عن عمل بعد انتهاء الحرب . وليس لدى الجميع إلا فكرة واحدة وهي الخلاص من حياتهم التائهة والعمل في سبيل الأجرة . ولذا وضعوا أنفسهم تحت تصرف الأمراء الكنسيين والعلمانيين الذين يفكرون باحياء غاباتهم وأراضيهم الموات . وكانوا يقيمون بعيداً عن بلدهم الأصلي ويشكلون في الغالب في وسط الغابة تجمعات تضم خمسين داراً . ومن الطبيعي أن يتغير ظرفهم بعد أن نظم بعقد شخصي . وهذا الظرف ، بعد تدخل العقد ، يختلف عن ظرف القن : فقد

عرفت جميع التزامات الضيف ورقم الغرامات التي يدفعها في حال المخالفة ؛ وامتنع الأمير عن قبول أي خدمة غير عادلة ، وأحياناً تخلى عن كل اتاوة في السنوات الاولى التي تلي الاقامة . وبكلمة مختصرة ، ان الضيف حر : وهو تارة مزارع وتارة مستأجر ، وشرطه الحقوقي لا يشبه في شيء شرط القن .

تقدم الاستعمار الزراعي . — لقد لعب الضيوف دوراً عظيماً في تاريخ القرن الحادي عشر الاقتصادي . فقد كانوا رواد أعمال احياء الاراضي الموات وبناء السدود التي غيرت سيماء اوربه الغربية . ولا شك في أن تاريخ النهوض الكبير هو القرن الثاني عشر ، ولكن العمل اندفع منذ القرن الحادي عشر . فقد بدىء بتجفيف المزارع في جنوب فرنسا وفي الاوفيرن . وفي الفلاندر ، على طول الشاطىء ، بدأ النضال المنظم ضد البحر بواسطة المهاجرين الآتين من الداخل ونشأت أراضي غنية وخصبة بنيت عليها القرى التي تنتهي اسماؤها عادة بلفظ **كوك أو كايبل**. ومن هذه المنطقة الفائضة بالسكان انطلق رواد آخرون أخذوا يجففون مستنقعات (مور) بلاد بريم ويفيدون بتجربتهم المنطقة الواقعة وراء نهر الايلب .

وبفضل هذا الاحياء زرعت أراضي جديدة . وشجع الاكليروس بقوة الاعمال من هذا النوع ، وبالتالي أدرك كثير من الامراء الفائدة التي يجنونها من انقاص الاراضي المغطاة بالاحراج والعواسج . ولتحويل هذه المسافات إلى أراضي مزروعة كان يلجأ عموماً إلى قلع الاعشاب واحراقها وتنظيف الارض من بقايا جذوع الاشجار مما يساعد الحراث على عمله في حرث الارض . وتراجعت الغابة في كل مكان كثيراً أو

قليلاً حسب المناطق . ففي المانيـا ، وانكلترا ، وفرنسا ، ومن ثم في اسبانيا ، أخذت الاراضي المحرجة تفسح المجال إلى الاراضي المفلوحة والكروم.

الزراعات الأساسية . — وبين هذه الزراعات التي خلفت الغابة ، يجب أن تذكر الاهمية التي تركت لزراعة الخضار والبساتين . واستطاعت الاديرة خاصة أن تفيد من الخضار والفواكه موارد هامة . وعرفت زراعة الكرمة توسعاً سريعا في بروتانيا ، حول روان وكوتانس والقديس — برتن في الفلاندر . أما الزراعات الاخرى فقد ظلت في مرحلة دنيـا . وظلت الدورة الزراعية الثلاثية بتوالي البور وحبوب الشتاء وحبوب الصيف ؛ وكانت المستغلات ضعيفة الامتداد ، ويستعمل فيها المحراث الخشبي مـع البقر حيواناً للحرث أكثر من الحصـان . وكان المردود بهذه الطرق ضعيفاً : فقد كان القرن الحادي عشر عصر أحياء الاراضي ؛ أما عصر التقدم الفني في الزراعة فسيأتي بعد ذلك .

تربية الحيوان . — واقتصرت تربية الحيوان على شيء قليـل ، كتربية قطعان الخنازير والاغنـام خـاصة . وتتوالى بين مسافة وأخرى المروج مع الحقول المزروعة . وفي بعض البلاد ، كما في انكلترا وشمال غربي فرنسا ، بدىء بتربيـة الابقار مع تفضيل تربيـة الخيول . وتكاثرت هذه الخيول عندما انطلق العالم الاميري في الحملات البعيدة التي كانت تتطلب سلاح الفرسان أكثر من أي حرب بسيطة خاصة .

غنى الطبقة الريفية . — ولايمكننـا أن نصف هذه النتائج الخجلى بنهضة زراعية ، بيد أنها تؤلف بوادر مشجعة ، لأن اعداد الوسائل الضرورية لتوسع الزراعة وتحسين المستغلات الزراعية كان ملحوظاً وعظيماً . وباختصار ، إذا تحقق تقدم كبير في القرن الثاني عشر والثالث عشر

خاصة فذلك لأن حالة الارياف ظهرت منذ القرن الحادي عشر على ضوء ملائم : لقد بدا نقص البؤس بشكل ظاهر ، وندرت منـــذ ١٠٩٠ سنوات العوز والجدب ، وازدادت غلة الارض بينما ثبتت الاتاوات الامـيرية وسار الفلاح في طريق اليسر وتهيأ للافادة من الغنى العام الذي احدثته النهضة التجارية .

النهضة التجارية

العودة إلى اقتصاد المبادلة . – وبينا كانت الزراعة تعود إلى الحياة ببطء كانت التجارة تسجل في القرن الحادي عشر صعوداً عجيباً مطبوعاً ، قبل كل شيء ، بالعودة إلى اقتصاد المبادلة بعد أن زال بتأثـــير الغزوات والغارات . ولقد دعت إلى هذا البعث الجديد أسباب عدة أهمها : عودة أهمية ميناء البندقية ، وافتتاح الموانى الفلاماندية وإنشاء منافذ جديدة .

التجارة البندقية . – إن النمو الاقتصادي الذي لاقته البندقية كان سابقاً للقرن الحادي عشر . ولقد كان من حسن حظهـــا ان بقيت تحت الحماية الاغريقية بعد سقوط السيطرة البيزنطية في ايطاليا ، وهـذا ما ساعدها على التخلص من التقلبات السياسية التي هزت شبه الجزيرة بعد تفتت الامبراطورية الـكارولنجية . ونظراً لموقعها الجغرافي في معزل عن الغارات الاسلامية ، لم تقطع علاقاتها التجارية مع القسطنطينية ، فضـلاً عن أن المعاهدة ، التي وقعتها ، في آذار ٩٩٢ ، مع الامبراطور باصيل الثاني ، خولتها فوائد جمركية ، وأمنت لها حماية قوية في الموانى الشرقية ، وساعدت على ازدياد تجارتها . ان الدوج بطرس الثاني اوسيؤلو (٩٩١ – ١٠٠٩) ، وهو من أحسن صانعي العظمـة البندقية ، استطاع على اثر

حملة شهيرة عام (١٠٠٠) أن يحرر الجمهورية من ضريبة كانت تدفعها إلى السلافين ، وأن يوطد ، في الوقت نفسه ، نفوذه على موانيء ايستريا ودالماسيا ، في زارا و سبالاتو وراغوزه ، التي تعتبر مراحل على طريق الشرق . وأخيراً أفادت البندقية من الاعياء الذي ظهر في البلاد الاسلامية الشرقية ، في آخر القرن العاشر ، وقامت بمفاوضات أدت إلى تخويل تجارها امتيازات في حلب والاسكندرية والقاهرة ودمشق والقيروان وبالرمو . وهكذا القت بقواعد قوتها التجارية : ففي آخر القرن العاشر أصبحت ، بسبب موقعها عند منفذ سهل البو والشعاب الالبية ، وسيطاً بين المانيا وايطاليا من جهة ، والشرق الاغريقي والاسلامي من جهة أخرى . وبلغت حركة الميناء نسباً عظيمة . ثم ان روح المبادهة والقيام بالاعمال ، اللذين كشف عنها البنادقة خلال توسعهم الذي تابعوه بانتظام ، كانا ضماناً للمستقبل : فقد كانوا سادة أسواق البحر المتوسط ، وسيخرجون تجارة الغرب من خبالها ويفيدون كهمزة وصل بين عالمين منعزلين اقتصادياً وسياسياً ودينياً .

ومنذ القرن العاشر ايضاً ، كانت البندقية تكثف تجارتها مع بيزنطة ، وفي الوقت نفسه تضع المعالم نحو الغرب . فقد انشأت علاقات تجارية مع بافيه ، ثم افادت من العلاقات الطيبة مع اوتون الأول و او تون الثاني و اوتون الثالث ، وبسطت نفوذها الاقتصادي على جميع مدن سهل البو ، التي نشأت على الصناعة في بداية القرن العاشر ، وصدرت منها انتاجها الى الخارج . وبفضل المعاهدات التي وقعتها مع الاباطرة الجرمانيين حصرت التجارة مع كل هذه المدن . ثم انتشر اشعاعها فيما وراء لومبارديا : فقد بلغت بطريق الشعاب الألبية ، وخاصة برينر وشبلوغن والقديس ـ برنار ، المانيا وغاليا واسبانيا . وتقدمت موانيء البحر التيراني الذي كانت

تمخره الاساطيل الاسلامية دون انقطاع وظل ممنوعاً على الملاحين . ولذا كان القرن الحادي عشر ، بالنسبة لجمهورية البندقية ، بداية عصر ازدهار سينفتح مع الحرب الصليبية الاولى عندما أمن انشاء الدول اللاتينية في سورية وفلسطين للتجارة البندقية منافذ جديدة .

التجارة الاسكاندينافية . — وفي الوقت الذي القت البندقية فيه قواعد قوتها للمستقبل ، يلاحظ أيضاً يقظة النشاط الاقتصادي في شمال غربي أوربة ، لأن تثبيت الغزاة الاسكاندينافيين، في نورماندیا وفي انكلترا[1]، كان من نتيجته تحويل هؤلاء القرصان الجريئين إلى تجار وديعين . وقد جذبهم الشرق بسحره ايضاً ، وعبروا روسيا بطريق كييف ونوفغورود ، ووصلوا إلى القسطنطينية وبغداد ، ولكن تجارة بحر الشمال والبالطيك ، التي انقطعت بسببهم في القرن التاسع ، اعيدت بعنايتهم . وبفضلهم انفتحت للتجارة تدريجياً الموانيء القائمة على مصبات انهار أوربة الوسطى أو المصبات الانكليزية . وبفضلهم أيضاً استأنفت البلاد المنخفضة نشاطها وموهبتها البحرية بسرعة .

نهضة الحياة البحرية في البلاد المنخفضة . — لقد هيأت الطبيعة البلاد المنخفضة للتجارة . ففيها تلتقي الانهار : الايسكو والموز والراين وتفتح طريقاً عريضه للنفوذ نحو الداخل . ومن جهة أخرى ، ان بحر الشمال ، المحصور بين الجزر البريطانية والقارة ، يؤلف ممراً تستعمله ضرورة الملاحة التي تضم البلاد الشمالية إلى بلاد اوربة الجنوبية الغربية ، وهو في الوقت نفسه رابط طبيعي بين انكلترا والدول التي تواجهها . وفي كل عصر لعبت موانئ الشاطيء الفلاماندي نشاطاً كثيفاً انقطع اثناء عصور الكوارث فقط . وقد ظهر فيه ميناء بروج بعد ان دمرت كانتوفيك ودورشتيد

في منتصف القرن التاسع ، وبدأ مستقبلها الزاهر منذ القرن الحادي عشر .

ولا تعرف جيداً الظروف التي أدت إلى هـذا التجديد التجاري ، ولكن الوثائق من كل نوع تشير ، منذ بداية القرن الحادي عشر ، إلى وجود علاقات بين الفلاندر من جهة ، وانكلترا والدانيمارك وبروسيا وروسيا من جهة أخرى . واذا لم يكن لدينا فكرة واضحة عن عناصر هذه التجارة فيبدو البنا ان الموانئ الفلاماندية كانت تصدر منذ ذلك الحين الأقمشة الصوفية الناعمة التي كانت تصنع دوماً في داخل البلاد .

وفي آخر القرن الحادي عشر ، نمت نهضة البلاد المنخفضة التجارية ، واوجد فتح انكلترا ، على يد غليوم الفاتح ، منافذ جديدة ومن جهة أخرى ، شعت التجارة البندقية ، ووصل التجار الايطاليون إلى الشامبانيا وسيختلفون ، في بداية القرن الثاني عشر ، إلى عدد من الاسواق الشهيرة ، وستقوم لحمة بين التيارين التجاريين الكبيرين اللذين نشآ في آخر القرن العاشر وسيطبع اتصالها التجارة الدولية بطابع جديد .

انشاء أسواق جديدة . — وهذا التوسع التجاري ، الذي سيتوطد خاصة في القرن الثاني عشر ، سيكون ايضاً نتيجة للتوسع الديني والسياسي. وفي الوقت الذي تؤمن فيه البندقية حصر العلاقات مع الشرق البيزنطي وينهض فيه بحر الشمال للحياة ، تفتتح الاسواق في كل مكان تقريباً . كما أن الضغط التبشيري نحو الشمال الشرقي ، الذي بدأ مع حكم أوتون الكبير ، أدخل في المسيحية الشعوب السلافية الممتدة فيما وراء الايلب . وفي الجنوب ، حيث انتظم النزاع ضد النفوذ الاسلامي ، جذبت اسبانيا الفرسان الغربيين وعقدت الصلات الوثيقة مع البلاد المجاورة ، بانتظار الحملة الصليبية الاولى التي تسهل استئناف التجارة المتوسطية . وكان للنشاط الكثيف في البلاد المسيحية نصيب في النهضة الاقتصادية : أصبح الحج ، شيئاً فشيئاً ، في القرن الحادي عشر ، شكلاً من الاشكال الأساسية للتقوى في العصر

الوسيط ، وأخذ الناس يسلكون الطرق المؤدية إلى روما وشنت ياقب في كومبوستيل ، وشارتر وبوي ، وتدفعهم الرغبة إلى تقديس انفسهم بالتوبة ومن الطبيعي ان تكون هذه الطرق التي يسلكها الحجاج مطروقة بالتجار الذين يجدون ربحهم في ظواهر الايمان .

ومن جهة ثانية ، أصبحت المواصلات أمينة بفضل عمل الشرطة ، الذي قام في داخل الاقطاعات الكبرى في آخر القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر وافاد في حماية الزراعة والتجارة .

وهكذا تهيأت جميع الظروف الاقتصادية والدينية والسياسية فشجعت النهضة التجارية . واذا انتجت هذه النهضة آثاراً دائمة فهذا يعود إلى أنها أفادت منذ الأصل من تنظيم فائق دام حتى آخر العصر الوسيط .

تشكيل رابطات التجار . — ان الشكل الأساسي لهذا التنظيم هو الرابطة التجارية التي وجدت منذ بداية القرن الحادي عشر . فقد كان التجار ، في الأصل ، كالضيوف ، من بين الشعب العائم الهائم على وجهه باحثاً عن وسائل عيشه . وقد شعروا بضرورة تجمعهم ، وتفادوا بهذا التجمع الاخطار على الطرق التي ما زالت غير آمنة ، وقاموا في الوقت نفسه باعمال تجارية هامة . وعلى هذا النحو نشأت الرابطات الاولى ، وتألفت من مغامرين نشيطين اشتركوا في السراء والضراء ووحدوا جهودهم واستطاعوا أن يثروا. وشيئاً فشيئاً نمت هذه الروح المتقابلة وتألفت قافلات حقيقية نظمتها الرابطات « الغيلد » في الشمال و « الفريري » أو « الشركات » في الجنوب ؛ واستطاعوا أن ينقلوا المنتجات البعيدة جداً عن بلادهم الأصلية . فما يذكر مثلا في لندن ، منذ القرن العاشر ، وجود تجار متجمعين على هذا النحو اتوا من كولونيا و دينان و روان ، وفيما بعد ، في اسبانيا ، وجود تجار من شرق فرنسا . وفي القرن الحادي عشر أثرت الغيلد والشركات

وازدهرت في الفلاندر وايطاليا الشمالية ونورمانديا وبيكارديا ومنطقة السين والبلاد الرينانية . وكان ينظر اليها في البدء بحذر ، ولكنها تمكنت تدريجياً من عطف الناس بعد أن أتت إلى المناطق المعوزة بالسلع الضرورية التي تنقصها ، ومن ثم أعادت اقتصاد المبادلة ، وكانت مصدر رفاه عام للجميع . ولذا لم يفكر أحد باعاقة حريتها أو تحديد أرباحها ، وامتد عملها تدريجياً ، ونشأ عن ذلك نمو واسع في التجارة الدولية .

الطرق التجارية الكبرى . — لقد كانت السبل التي أخذتها التجارة على صلة وثيقة بالظروف التي انشأتها . فمن البندقية من جهة ، ومن بروج من جهة أخرى ، انطلقت الطرق نحو داخل القارة . فوراء البندقية ، أصبحت لومبارديا ، في القرن الحادي عشر ، بلداً من انشط بلاد العالم الغربي في الزراعة والصناعة. وعندما خرج المسلمون من بروفانس وساردينيا وصقليـــة انساق البحر التيراني بدوره في حركة التوسع هذه ؛ وبعد البندقية ، شعرت جنوه و بيزا بوهبتها التجارية ، وأصبحت لومبارديا أكثر من ذي قبل منطقة عبور : وغدت برغام ، فيرونه ، ميلانو ومعظم مدن حوض نهر البو مراحل ضرورية لمنفذ الجبال . وفـــيما وراء الالب ، نقلت أنهار الدانوب والراين والرون بدورها المنتجات الآتيةمن الشرق أو ايطاليا ولامست التجارة البندقية المانيا الوسطى .

وحدث الشيء نفسه للداخل فيما وراء بروج : كانت حركة السفن نشيطة على نهري الايسكو والموز ، وشيئاً فشيئاً خلفت التجارة الداخلية التجارة البحرية ، وأنشئت سلسلة مستودعات في المدن الفلاماندية ، في غاند ، ايبر ، ليل ، تورنيه ، وقليلا إلى الجنوب ، كامبرية ، فالانسين على الايسكو ، ليبج ودينـــان على الموز ، كولونيا وماينس على الراين كانت أيضاً تابعة للمواني الفلاماندية . وعلى هذا النحو اقتربت الطرق

التي تنطلق من بروج من الطرق التي يسلكها التجار البنادقة ، وتم الاتصال بين هذه الطرق ، في القرن الثاني عشر ، في الشامبانيا ، وأمن هذا اللقاء ازدهار الاسواق التي جعلت من تروا ، بار على الارب ، بروفن ، لاني ، من أشهر الاسواق التي يكثر اليها الاختلاف في عالم العصر الوسيط .

وكانت بروج والبندقية قطبي التجارة الغربية في القرن الحادي عشر . ولم تعرف الموانئ الأخرى مصيراً لامعاً كهذا المصير . فعلى المحيط ، أخذت روان بعض الأهمية بسبب روابطها السياسية التي تربط نورمانديا بانكلترا ، أما بوردو فلم تستيقظ الا آجلاً . وعلى المتوسط كانت ناربونة في انحطاط عضال ، ولم تنافس مرسيليا جنوة بعد ، الا أن المنطقة المتوسطية من غاليا عادت فربطت ، بعد الحروب الصليبية ، التقاليد القديمة التي كانت في السابق ، وبفضل الاسكاندينافيين أقام البحر البالطيك ملاحة نشيطة تابعة لحد ما إلى بروج وبحر الشمال .

نهضة الحياة المدنية . — وعلى طول هذه الطرق البحرية أو القارية بعثت المدن . وكلما توسعت التجارة استخدمت اجهزة اكثر : فالى جانب التجار الذين يسافرون دون انقطاع ، كانت تتطلب ، عند عقد المواصلات الكبرى ، وجود يد عاملة مستقرة مقيمة تحمل البضائع وتفرغها ، وتنشىء السفن ، وتصنع العربات ، وبما أنه كان يتوجب تجهيز هذه اليد العاملة بما تحتاج اليه في حياتها ، فقد تم التجمع بتوافد الخبازين واللحامين وصانعي البيرة (الجعة) والحياك . وفي جميع النقاط التي تترك فيها البضائع الطريق المائية لتسلك الطريق البرية أو بالعكس ، وفي النقاط التي تحتشد فيها هذه الطرق أو النقاط التي تتفرع منها ، وبكلمة واحدة ، في أي مكان يتم فيه عمل الحياة التجارية ، تشكلت تكتلات عمال وتجار وأصحاب

مصارف تختلف أهميتهم حسب اهمية المكان الذي هم فيه . وكانت هذه الضرورات التجارية مصدراً لنمو المدن الذي ارتسم ، حسب تواجد فائق ، على طول هذه الطرق التي المعنا اليها : ففي ايطاليا الشمالية والفلاندر ظهرت المدن الاولى التجارية التي تختلف عن المدن المحصنة التي كان السكان يجدون فيها ملجأ زمن الغارات النورماندية أو الهونغارية .

غير أن فقرنا بالنصوص لا يسمح بمعرفة مختلف أوقات هـذا التطور . وفي الاغلب ، كان تجمع التجار ينشأ على جانب التجمع الذي كان موجوداً في السابق : ففي ستراسبورغ و راتسبون ظهر بجانب المدينة الأسقفية ، وفي غاند في أسفل القصر ، وتارة يكون محصوراً في سور المدينة القديمة التي اتسعت بمناسبة الظروف ، كما هي حال مرسيليا ، وتارة يقوم خارج الأسوار ويؤلف أيضاً ربضاً ملحقاً بالمدينة أو مدينة جديدة تقابل القديمة ، أو ميناء واقعاً على حافة النهر حيث تحمل البضائع وتنزل . ثم أخذ هذا الربض يتجاوز المدينة في الأهمية واغتصب اسمها وأصبح سكانه حوالي العام ١٠٨٠ يسمون **البورجوازيين** (سكان المدن) مقابل سكان الحصن الذين يسكنون المدينة القديمة المحصنة . وكانت هذه المدينة الجديدة نفسها محاطة بسور يحمي ثرواتها من العدوان الخارجي ؛ ولها كنيستها وسوقها، وباختصار لقد أصبحت مركزاً حقيقياً للحياة المدنية .

ظهور الصناعة . — لقد أعطى ظهور الصناعات الجديدة التي تجمعت ، حول أماكن المبادلة في أرباض المدن ، نشاطاً كثيفاً ، ولم تعد الصناعة الدومينية قادرة على أن تكفي الحاجات التي نجمت عن الغنى العام . وكان الاستهلاك النامي يتطلب انتاجاً وافراً وتقنية متطورة وعلى هذا النحو عرفت صناعة النسيج في المدن التجارية ، في لومبارديا والفلاندر ،

منذ القرن الحادي عشر ، نهضة حقيقية : كانت لوقا تصنع الأقمشة ولحرائرها شهرة أكيدة . وتنقصنا المعلومات الدقيقة عن المدن المجاورة ، ولكن استخدام ميلانو ، في القرن الثاني عشر ، ستين الف عامل لصنع الاصواف الناعمة ، يجعلنا نفترض أن أصول هذه الصناعة تصعد إلى أعلى من ذلك. وكانت الفلاندر ، منذ القرن العاشر ، تصدر الأقمشة إلى انكلترا ، وستصدر دوويه وغاند وايبر ، في القرن الثاني عشر ، من هذه الاقمشة إلى جميع الأسواق الأوربية . وانتشت الصناعات الغذائية ايضاً في كل مكان تقريباً أما الصناعة المعدنية فقد استيقظت بعد زمن طويل ، ويبدو انها لم تغذ التجارة الاوربية إلا في وقت متأخر جداً .

طبقة وجهاء المدينة . — ومثل هـــذه الأحداث لابد وان تترك اصداءها في النظام الاجتماعي . كتب هنري بيرين : « ان نشوء المدن يسجل بداية عصر جديد في التاريخ الداخلي لأوربة الغربية ، فحتى ذلك الحين كان المجتمع يضم طبقتين نشيطتين : الاكليروس والطبقة النبيلة . وعندما أخذت الطبقة البورجوازية مكانها إلى جانبها تممته أو بالاحرى انهته . ولم يتغير تركيبه حتى آخر النظام القديم » . وفي الواقع ، ان العودة إلى اقتصاد المبادلة فجرت في المدن ارستقراطية تجار أثرت بسرعة . ومنذ القرن الحادي عشر يرى في ايطاليا العليا وفي المـدن التي تتسلسل على طول انهار الايسكو ، الموز ، الراين ، الدانوب ، تجار يتعاطون أعمال البنك والتجارة معاً ، وما لبثوا أن أصبحوا اغنياء ووجهاء . وكان الفرسان يبحثون عن بناتهم للزواج طمعاً في مهرهن العظيم ، كما كان يبحث عنهن ايضاً من كانوا يسمون في المدن اللومباردية الزعماء الذين يقابلون الاقطاعية العليا . وهكـذا تشكلت طبقـة الوجهاء المدنية ،

وكانت تؤلف قوة حقيقية ، لانها كانت تملك الثروة المنقولة ، الرساميل التي اصبح دورها حاسماً في حركة الحياة الاقتصادية .

ولم يكن لهذه الطبقة الوجيهة مكانها في التنظيم الاجتماعي المنبثق عن النظام لأميري الذي لا يفترض وجودها ، لأن الاقتصاد الدوميني لا يعرف الا الصناع بعد أن ردهم إلى حالة شبيهة بحالة الفلاحين . ولذا فان تجار القرن الحادي عشر الغريبين عن الدومين والآتين من الخارج وجدوا انفسهم على هامش المجتمع ؛ وليس لهم شرط قانوني ولا يعيشون إلا بفضل حالة واقع . وإذا احترم الامراء حريتهم الشخصية ، فلا يعترفون بها حقاً ويحاولون أن يثقلوا معاملاتهم برسوم جائرة ، كحق المرور وضريبة السوق ، وبالغرامات والاتاوات الباهظة جداً من جميع الانواع التي تشل نشاطهم . ومن هنا أخذت العداوات والاحقاد تزداد وسببت بالتالي ثورة حقيقية .

لقد كان التجار اقوياء بوسائلهم المادية التي يتصرفون بها ، وأقوياء بمساعدة الصناع والعمال من كل طبقة الذين تتضامن مطاليبهم معهم ، ولذا قاموا يدافعون عن مصالحهم المادية وحريتهم ويبحثون في المجتمع عن كسب مكانة رفضت لهم ، ولن يكون هذا ممكناً إلا في اليوم الذي يتحرر فيه الربض من المدينة (البرج) مركز السلطة الاميرية ويكسب مع استقلاله حكماً ذاتياً متحرراً من سلطة صاحب القصر والأسقف . ان الرابطات القوية ، التي تحمي المصالح الاقتصادية وتساندها في الغالب الفرق الدينية والشركات التجارية والاصناف الصناعية ، أعطت قوة الدفع ونسقت جهودها . وبكلمة ، ان النهضة المدنية ، وهي نتيجة عودة اقتصاد المبادلة ، أدت إلى تحرير المدن التي بدلت سيماء المجتمع الغربي .

حركة تحرير المدن . — كان من المحتم بعد هذا الارتباط الذي يربط الأحداث الاقتصادية والاجتماعيـــة أن تبدأ حركة تحرير المدن في قطبي التجارة ، في ايطاليا الشمالية وفي الفلاندر . وهذا ماحصل فعلاً .

في ايطاليا الشمالية . — ان تفصيلات الحوادث في ايطالية الشمالية غير معروفة جيداً . فمن المعلوم ان الحكم في البندقية ، قبل ١٠٣٢ ، كان ملكياً ، ولكنها هزت سلطة الدوج الحاكم ومنعته منذ توليـــه منصبه أن يشرك معه ، خلفـــاً يختاره . وعلى هذا النحو استعادت طبقة الوجهاء حقها في الانتخاب بعد أن اهمل وعهدت إلى عضوين منها بالاشراف على السلطة التنفيذية . وفي الوقت نفسه ، أي في النصف الأول من القرن الحادي عشر ، حاولت كريمون وميلانو أيضاً أن تتحررا من طغيان الاسقف أو الاقطاعية العليا ، ولكن الفوز لم يكلل دومـــاً جهود التجار المتحالفين مع الزعماء ، بيد أن المدن اللومباردية توصلت في آخر القرن إلى الحصول على استقلالها . وفي هذا التاريخ ، وجدت الطبقة الوجيهة المدنية نجدة غير منتظرة من **الباتاديين** ، وكان هؤلاء يتألفون من أعضاء الاكليروس الأدنى والشعب النحيل ، مأخوذين بمثل أعلى اخلاقي وبرغبة حارة لاحياء الطهر التقليدي في الكنيسة ، فقاموا على الاسقفية السيمونية الفاسدة . وأحدث هذا التحالف نتائج سعيدة ، وتحررت على هذا النحو مدن لومبارديا ، وامتدت الحركة منها إلى البروفانس واللانغدوك .

في الفلاندر وفي شمال فرنسا . — وفي الوقت نفسه تحررت المدن في الفلاندر وفي شمال فرنسا . وأول قومون (مدينة) تحررت كانت قومون كامبريه ولها تاريخ نموذجي خاص : كانت كامبريه في القرن الحادي عشر تابعة للأسقف ، ومع الزمن تشكل حول القصر ربض نشطت

فيه التجارة . وفي العام ١٠٧٧ كان السكان على خلاف مع جيرارد الثاني . وقد أفادوا من غياب هذا الحبر في المانيا ، حيث ذهب ليتقلد منصبه من يدي الملك هنرى الرابع ، وثاروا عليه . وقاد التجار الاغنياء الحركة ، وتبعتهم جماهير الصناع وحتى الاكليروس ، واتهموا جيرارد بالسيمونية . واستولوا على أبواب المدينة ونادوا باستقلال القومون ونظموا أنفسهم لعودة الأسقف . ولهذه الغاية شكل البورجوازيون رابطة محلفة وما لبثت أن أصبحت بالنسبة لغيرها خلية خرج منها النظام القوموني . ولم يتماسك هذا النظام المرتجل ، وعندما عاد الاسقف قضى على القومون ، وانطلق الاندفاع : وبين ١٠٨٠ و ١١٢٠ استطاع كثير من مدن شمال فرنسا مثل سان كنتان ، بوفيه ، آراس ، نويون ، فالانسين ، لان ، آميان ، كوربي سواسون ، بروج ، ليل ، سان — اومير أن تتحرر وان تنشيء فيها ادارة مستقلة . وكانت الحركة في كل مكان على صلة بالتنظيم الاقتصادي : ففي بوفيه ، مثلاً ، قام صنف الصباغين بالمبادهة ، وتألفت تحت رعايته ، كما في كامبريه ، رابطة محلفة اعترف بها الاسقف آنسو اولاً ثم انكرها فيما بعد ، ولكنها تجاوزت دفاعها وبقيت محور التنظيم القوموني . وبصورة عامة يمكن القول ان انشاء القومون كانت نقطة انطلاق ثورة ترافقها كل أنواع الشدة والعنف . ففي لان ، أفاد البورجوازيون ، كما في كامبريه ، من غياب الاسقف غودري ، وهو شخصية فريدة تحب الحرب أكثر من القيام بالطقوس الدينية ولا يتراجع أمام قتل أعدائه ، وعند عودته دخل في نزاع مع القومون ، فثار الصناع عندئذ على الحبر البغيض وأغلقوا دكاكينهم وهاجموا القصر الاسقفي وانتزعوا غودري من قبوه ونشلوه من قعر برميل اختبأ به وعرضوا جثته لكل اهانة ، ثم احرقوا دور الاكليركيين والفرسان . ولكن جميع القومونات لم تنشأ

في مثل هـذه الأمواج من الدم ، لأن الثورة تمت أحياناً سلمياً ، ومهما يكن طابعها فالنتيجة تبقى نفسها دوماً : وهي أن المدن ، التي انطلقت في حركتها على هذا النحو ، تحررت من أميرها .

الحريات المدنية . — ان مايميز القومون ، قبل كل شيء ، هو الحرية . وكما يقول المثل الالماني ان هواء المدن يحرر . فقد زالت منها كل عبودية . ويقول هنري بيرين في هذا الصدد : « لقد كانت الحرية في السابق حصراً على الطبقة النبيلة ، ولا يتمتع بها رجل الشعب إلا بصفة استثنائية . وبالمدن تستعيد الحرية مكانها في المجتمع كصفة طبيعية للمواطن . فيكفي منذ الآن أن يقيم الانسان على الأرض المدنية ليحصل عليها . ان الحرية التي تمتع بها التجار وحدهم في الواقع ، هي الآن في الحق رابطة مشتركة بين جميع البورجوازيين » .

ولم يكن الاشخاص يتمتعون وحدهم بهذه الحرية ، لأنه لوحظ بحق أنها امتدت على الأرض أيضاً : فقد تغطت المدينة في القرن الثاني عشر بالدور ، ثم ان هذه الدور ، المعفاة من الرسوم الاقطاعيـة ، أصبحت وراثية . ثم أدى تحرير المدن إلى حذف هذه الرسوم الاقطاعية ، وخاصة الاتاوات الاميرية وضرائب التجار التي تعيق نقل البضائع . ولاشك في أن الأزمـة المالية ، التي انتابت معظم المدن المتحررة ، أدت إلى فرض رسوم غير شعبية ، ولكنها ، في الوقت الحاضر ، ليست بذات موضوع : لأن حرية التجارة ، التي أضيفت إلى حرية الاشخاص وحرية الاراضي ، بقيت حسنـة من الحسنات الكبرى التي أتت بهـا الثورات القومونيـة الأولى .

وهذه الحركة المدنيـة الناشئة عن اليقظـة الاقتصادية احدثت في المضمار التجاري والصناعي تقدماً جديداً أخذ يتوطد في القرن الثاني عشر ،

أي العصر الذي تفتحت فيه النظم البلدية التي طبعت مجتمع العصر الوسيط بسيماء جديدة : ان الثروة المنقولة والحرية والاستقلال السياسي أمنت للمدن في العالم الغربي مكاناً هاماً لم تجرأ أن تتطلع اليه حتى ذلك التاريخ .

النهضة الفكرية والفنية

اليقظة الدينية

اشعاع نظام كلوني . — لقد رافق تحسين شروط الحياة المادية الناشىء عن عودة اقتصاد المبادلة ، في القرن الحادي عشر ، تقدم في مضمار الفكر ، وتواجدت مع نهضة التجارة والصناعة نهضة فكرية وفنية . وكان مصدر هذه النهضة اليقظة الدينية التي ارتسمت منذ آخر القرن العاشر وكانت ظاهرتها الاولى الانتشار غير العادي لطريقة كلوني .

وإذا بولغ في بعض الأحيان تأثير جمعية كلوني في داخل الكنيسة وأسيء القول ونسب اليها مبادهة الاصلاح الغريغوري ، فلا يسعنا ، بالمقابل ، أن ننازع اسهامها الواسع في العمل الحضاري في القرن الحادي عشر . ففي هذا العصر بلغت أقصى توسعها . ولقد تابع خلفاء القديس أودون ، المتوفى عام ٩٤٢ ، عمله بنفس الاخلاص إلى المثل الأعلى البندكتي وبنفس الذكاء المبدع ، ونفس المتانة الخصبة المثمرة . وإذا استثنينا ايار الذي لم يعمل شيئاً سوى ان مر مرور الكرام من (٩٤٢ — ٩٤٨) ، واهتم خاصة بزيادة زمني السير وجدناهم كلهم قد أخذوا مكانهم بين قديسي الكنيسة بعد أن ضربوا في حياتهم المثل لمعاصريهم بسعة جهدهم . فقد وهبوا عمراً طويلاً ونشاطاً يتجاوز الطبيعة البشرية العادية ، وكانوا ، دون انقطاع ، في الطرق والسبل يكثرون فروعهم في كل -

مكان ويجذبون بفصاحتهم التي لاتقاوم الأرواح القاسية إلى الرقة الديرية ويعرفون ، في المناسبة ، كيف يستعملون سحر جاذبية الدبلوماسية التي لايحتقرونها . فقد أثار مايول (٩٤٨ — ٩٩٤) ، لتحقيق البرنامج الكلوني ، اهتمام سادة اوربه الغربية ، وخاصة الملوك الكابسيين هوغ وروبير . ولم يكن اوديلون (٩٩٤ — ١٠٤٩) بعده أقل مهارة في استغلال الثقة التي يتمتع بها لدى البابابوات والأمراء الزمنيين في صالح الجمعية ، حتى ان جميع اديرة اوربة الغربية تقريباً تبنت الأعراف الكلونية في بداية القرن الثاني عشر .

كلوني والعمل الفكري . — وهذه الأعراف الكلونية ، كما قننت في القاعدة التي حررت في عهد القديس مايول ، تستلهم مباشرة من التقاليد البندكتية وقد غيرت في بعض نقاطها . والتجديد الذي أتت به كلوني هو التفوق الذي خولته للعمل الفكري بالنسبة للعمل اليدوي . ففي بداية القرن الحادي عشر كان آبون فلوري يعتبر ان الوسيلة الناجعة ، التي يكافح الراهب بها الرذيلة وينمي الفضيلة ، هي دراسة الآداب ، ويفرض على تلاميذه واجباً من واجباتهم الاساسية ، نسخ المخطوطات . ولذا فالعلم ، تحت أشكاله المختلفة ، كالنفوذ إلى أسرار الكتاب المقدس أو كشف أحسن الطرق في البناء ، يبدو هدفاً أساسياً ، وعلى الراهب الكلوني أن يسعى اليه . فمنذ عهد برنون كان لكلوني مدرسة ، وقد أدارها القديس اودون قبل أن يصبح أباً ، واكتسب بعدها شهرة عامة . وكان للأبوية عقب تأسيسها مكتبة ضمت ، في منتصف القرن الحادي عشر ، عدداً هاماً من المخطوطات الثمينة المزينة بالمنمنمات ، وجمعت المؤلفات الكبرى التي وضعها آباء الكنيسة . وشيئاً فشيئاً قبل الكتاب الدنيويون في الأديرة اللورينية التي نافست بحماستها الأديرة الكلونية في دراستها . ولكن القديس

اوديلون اعتبر هؤلاء الكتاب سامين للأفكار، ومع هذا فقد وضعت مؤلفاتهم على الرفوف إلى جانب المؤلفين المقدسين ، وأخذ فيرجيل ، و اوفيد ، و جوفينال مكانهم إلى جانب القديس غريغوار والآباء الآخرين . وأطاعت الفروع بالطبع الدفع الذي تلقته من الابوية الأم ، وفي كل مكان في فرنسا ، في المانيا ، في ايطاليا ، كانت الأديرة المرتبطة بكلوني تتنافس بتقوى على الدراسة : وفي الحقيقة ، ان العلم والفن لمدينان كثيراً إلى هذه الأديرة الكلونية .

حركة النسك . — ومع هذا ، اصطدم النظام الكلوني ببعض المقاومات . فقد اخذت عليه المركزية الشديدة والبذخ المفرط . وتوضح الشكوى الاولى معارضة الابويات الفلاماندية واللورينية والجرمانية التي فضلت عليه نظاماً أقل شدة كالنظام الذي تبناه مصلحو دير القديس — فان . والشكوى الثانية هي شكوى الأرواح المأخوذة بالمثل الأعلى النسكي الذي لم تستطع كلوني اشباعه وارضاءه . وعندما جاء القديس بطرس داميان في العام ١٠٦٣ إلى كلوني مفوضاً حبرياً اشتكى من الطعام الذي وجده موفوراً غزيراً ، ونصح الرهبان بان يقتروا على انفسهم كثيراً ، ولكنهم ردوا عليه بأن الحرمان الشديد لايتلاءم مع العمل الفكري الكثيف . وهكذا تجابه مفهوما الحياة الديرية . وكان مفهوم بطرس داميان مفهوم النساك ، وكانوا كثراً في ايطاليا في القرن الحادي عشر ، كما وجدت اديرة للنساك في فرنسا ، أرض كلوني ، ووجدت منهـا اديرة للرجـال والنساء وأهمها دير سيتو الذي انشأه في العام ١٠٩٨ روبير موليسم ، وكان هذا الدير يجسد ، في آخر القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر ، النزعة المعارضة لكلوني .

دير سيتو . — في العام ١٠٧٥ جمع روبير ، وهو شاب شريف من

الشامبانيا ، في موليسم ، بعض رفاقه وعزموا على ممارسة طريقة القديس بندكت بكاملها . بيد انه وجد ان النظام قاس جداً فعدل ، كما في كل مكان ، بالاقلال من العمل اليدوي . ومع هذا فقد احتج كثير من الرهبان ، ومنهم روبير ، ضد هذه الليونة وحصلوا من المفوض الحبري ، هوغ ليون ، على السماح بالبحث عن عزلة جديدة في الغابة الممتدة في جنوب ديجون ، في سيتو ، واقاموا فيها ، في ٢١ آذار ١٠٩٨ . وادخل فيها روبير دير موليسم باعتباره اباً له . ثم امتد دير سيتو وأصبح له أربعة فروع .

تختلف قاعدة سيتو كثيراً عن قاعدة كلوني . ويمكن اختصارها بكلمتين : فقر و اماتة . وكان على الاديرة أن تبنى خارج المدن ، ويفضل أن تكون وسط الغابات التي يجب قطعها واحياؤها للزراعة . ويتألف الطعام فيها من الخضار والماء فقط ، واللباس من بزة فضفاضة يعلوها اسكيم . وينام الرهبان بلباسهم في مهجع مشترك على فراش ووسادة من القش . وقد ارادت سيتو بذلك الرجوع إلى القاعدة البندكتية . ومثل هذا النظام يلائم بصورة افضل العمل اليدوي ، الذي وضع موضع الشرف ، أكثر مما يلائم الثقافة الفكرية التي اقتصرت ، بالعكس ، على قراءة الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . أما الدراسات الدنيوية فلا تستطع بالفعل أن تساعد في في ثقافة الراهب الروحية . ولان هذا التقييد مع الزمن ، ولكن تلاميذ روبير موليسم أبدوا حيال الاشياء الفكرية احتقاراً واعراضاً يختلفان بشدة مع المثل الأعلى الكلوني . ويرى القديس برنار ، أب كليرفو ، الذي يجسد ابتداء من ١١١٤ حركة سيتو ، أن لا يكون للراهب هدف الا الغوص في تأمل الذات الآلهية ، وان اماتة الجسد تستطيع أن تفجر رؤى الروح .

سيتو وحضارة العصر الوسيط . — ولكن هذا المفهوم للحياة الديرانية يمكن أن يكون خطراً على الحضارة . ومع هذا لم تكن الحال كذلك . لان الشهرة التي تمتعت بها النظم الزهدية في آخر القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر لم تقطع مصادر الاقبال على كلوني ، وإذا اثار بذخها الغني وبذخ بعض اخواتها ، في ذلك العصر ، النقد اللاذع فقد نبه هذا النقد إلى ضرورة الاصلاح الذي تعلق به اسم بطرس الجليل اب الدير من ١١٢٢ إلى ١١٥٦ الخلف الأهل للقديس اودون ، والقديس مايول والقديس أوديلون والقديس هوغ . ومن جهة أخرى ، لقد أسهم نظام سيتو ، هو ايضاً ، بهذه الحضارة التي عمل على ازدرائها . لقد اضطر أن يبني كنائس ، وإذا لم تشبه هذه الكنائس بشيء الكنائس الكلونية وكانت مجردة من كل تزيين نحتي أو تصويري ، واقتصر فيها الأثاث على ابسط تعبير له ، فقد ولدت ، رغم كل شيء ، بخطوطها الشديدة والعارية ، شكلاً عظيماً للفن المسيحي ، هذا فضلاً عن ان التقوى السيتوية قد عبرت عن نفسها بصوفية انتجت آثاراً ذات أهمية ادبية رفيعة مثل تفاسير القديس برنار لنشيد الاناشيد .

اصلاح الكنيسة العصرية . — وانتقلت النهضة الدينية من الكنيسة النظامية إلى الكنيسة العصرية . ولكن هذه الأخيرة اقتضت زمناً طويلاً لتتحرر من العادات الوثنية التي الفتها اثناء الأزمة التي تلت سقوط الامبراطورية الكارولنجية . ولا شك في أنه وجد هنا وهناك ، منذ القرن العاشر ، اساقفة اتقياء تدفعهم غيرة حارة لخير الارواح ولكن عملهم لم يثمر إلا قليلا . وقد ازداد عددهم في عصر هنري الثاني في المانيا وروبير التقي في فرنسا . ومع هذا ونستطيع بعد الاصلاح الغريغوري أن نرى نتائج ملموسة . وقد تأكدت هذه النتائج خاصة في الدور الذي تلا كونكوردات

فورمز (١١٢٢) ومجمع لاتران الكبير (١١٢٣) . ولكن ، منذ آخر القرن الحادي عشر ، اخذ الاساقفة الاقطاعيون السيمونيون النيقولاويون ، الذين شجبتهم المجامع،يتركون المكان للرعاة الحقيقيين ، مثل ايف شارتر الذي يمثل النموذج الكامل. ومنعت المجامع الترقية بطفرات . ولم يتوصل من بعد إلى الاسقفية إلا عند بلوغ الثلاثين أو الخامسة والثلاثين وقطع الدرجات المتعاقبة في الاكليركية . وانتقلت الانتخابات بالتدريج إلى يد الكهنة القانونيين ، وانتظم هؤلاء في كثير من الابرشيات حسب قاعدة القديس اغسطينوس التي طبقت في منتصف القرن الحادي عشر في بعض مجالس الكهنة وتعممت في فرنسا والمانيا وانكلترا . وقد تأثر النظام الكنسي بانتشار هذه القاعدة التي تتضمن ، مع الحياة المشتركة ، نذري الفقر والطاعة . وفي بدايه القرن الثاني عشر قامت صلات بين مختلف هذه الطوائف التي استقرت خارجاً عن الكنائس الكاتدرائية .

المدارس الأسقفية . — وتأثرت الحضارة بتنظيم الابرشيات الجديد وبنمو التقوى التي كانت نتيجة لهذا التنظيم . أليست الدراسة شكلاً من الأشكال الأساسية للحياة الدينية ووسيلة آمنة للوصول إلى الله ! وقبل الاصلاح الغريغوري كان الهم الأساسي للأساقفة ، الذين يقاومون طغيان العصر ، إنشاء المدارس وتنميتها في ظل كاتدرائياتهم ، لأن العلم عندهم لاينفصل عن التقوى .

التعليم . — وهذه المدارس المختلفة ، ديرية أو أسقفية ، فرنسية أو المانية ، كان برنامج الدراسة فيها لايختلف في الواحدة عن للأخرى. فقد استمر التعليم في كل واحدة منها كما كان في زمن شارلومان وحسب الطرق التقليـدية : **الثالوث** أي النحو والبلاغـة والجدل ؛ **والرابوع** ،

ويتألف من الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . ومع ذلك ، كان الطالب يتعمق ، حسب مزاجه الشخصي ، بهذا الفن أو ذلك قليلاً أو كثيراً. وتوطد على هذا النحو اختصاص نسبي يفسر كيف أن الأجانب كانوا يقبلون تباعا على هذه المدرسة أو تلك .

الجدل الديني المذهبي . — ان نهضة المدارس الديرية والأسقفية ، التي رافقت اليقظة الدينية ، توضح لحد عظيم تجديد الحيوية الفكرية التي امتاز بها القرن الحادي عشر . فقد عاد تذوق الدراسة : بديء بقراءة المؤلفين المقدسين والدنيويين ، وأريد من جديد عقد الصلات مع تقاليد آباء الكنيسة وتكييفها مع الحاضر . وهذه الرغبة وحدها تكفي لاعداد حصاد وافر من الكتاب الكنسيين . وجهز ظهور الهرطقة الجدل بغذاء جديد نشط رقي الفكر . ومنذ آخر القرن العاشر انتشرت مذاهب قريبة من المانوية — الجديدة في شمال فرنسا وانحدرت منه إلى جنوبها ثم إلى ايطاليا . ولا يعلم ماهو مضمونها الصحيح : فهل ذهب تلاميذها حتى المناداة بخلود المادة ؟ لايمكن الجزم بذلك . وعلى كل حال ، لم يعتقدوا بقوة التعميد ولا بضرورة الممارسات الخارجية وأطرحوا التسلسل الكنسي . وفي آخر القرن الحادي عشر ظهرت هرطقة أخرى وهي هرطقة بيرانجيه التودي فأثارت في العالم المسيحي قلقاً شديداً : لقد درس هذ الراهب في شارتر واقتنع بان جميع القضايا يمكن أن تحل بجدل واحد ، وطرح في سر القربان المقدس نظريات مناقضة لتعليم الكنيسة التقليدي : فهو لايرى في هذ السر استحالة تامة ، بل ان الخبز والخمر يحتفظان بجوهرهما حتى بعد التقديس ، بحيث أن المسيح لايكون تحت هذين العرضين الأقدسين (الخبز والخمر) إلا كائناً روحياً (لا مادياً) وفكرياً . وهذه النظريات الجريئة ، التي شجبتها عدة مجامع ، مالبثت أن أثارت ردوداً

أتت من قدامى زملاء بيرانجيه شارتر ، مثل لانفرانك كانتوربري ، اديلمان لييج ، هوغ بروتوي. وإلى جانب هذا الجدل الافخارستي ، فسحت قضية الثالوث بعض الوقت مجالاً إلى أدب غزير نشأ عن نظريات روسلّن ، وهو اكليركي من كومبين ، شجب في العام ١٠٩٢ في سواسون لأنه جاهر بان أشخاص الثالوث الثلاثة ، مع كونها متطابقة بالارادة وبالقوة ، تبقى مع ذلك متميزة كثلاثة ملائكة أو ثلاثة أرواح .

الجدل حول الاصلاح الغريغوري . — لم تثر الهرطقات وحدها الجدل الفلسفي ، بل ان إصلاح الكنيسة ، الذي تعلق به إسم غريغوار السابع وبدأ قبل حبريته ، أثار بين اللاهوتيين والحقوقيين تصادمات في الأفكار وتبادلات في وجهات النظر ملائمة لحركة أدبية . فمنذ منتصف القرن الحادي عشر ، أي من اليوم الذي شجبت فيه السيمونية والنيقولاوية ولاحقها الكرسي الأقدس بشدة ، كان أنصار هذه المفاسد وخصومها يتجابهون بالأقلام ويدافعون عن حلول متعارضة ، وبعد ١٠٧٥ ، عندما وسع غريغوار السابع ساحة الاصلاح ، تكاثف هذا النشاط الأدبي أيضاً . ولم يدر النقاش حول ضرورة العزب الكنسي فحسب ، بل في أصل الكنائس ، وفي الحقوق العائدة للسلطات الروحية والزمنية ، وفي التفوق الروماني والامتيازات الامبراطورية ، والبحث عن الحجج في الكتاب المقدس ، وعند آباء الكنيسة ، وفي التاريخ ، ونتج عن ذلك عودة لدراسات الحق القانوني الكنسي والجدل القلمي .

تحويل العالم الأميري . — لقد ظهر نمو الأدب الكنسي في القرن الحادي عشر مرتبطاً بمختلف ظاهرات اليقظة الدينية . وتجاوزت إحدى هذه الظاهرات حدود العالم الاكليركي وبلغت المجتمع العلماني ، ووجد في

الواقع أمراء واكليركيون ، وإذا ظل بعضهم خاضعين لأهواء العصر ولا يستطيعون التخلص من رذائلهم ، فان آخرين كيفوا حياتهم تدريجياً مع المبادىء المسيحية الشريفة . ولاشك في أن التطور في هذه الناحية بطىء كثيراً ، ولم يأت بنتائجه حقاً إلا في القرن الثالث عشر . ومع هذا ، فمنذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، ظهرت روح جديدة في العالم الأميري ، وكان تعبيرها الواضح في الحرب الصليبية في اسبانيا والحروب الصليبية في الشرق ؛ وفي الوقت نفسه ، وتحت تأثير مثل أعلى ديني يدفع هذه الحملات التقية ، تحولت بعض النظم وخاصة نظام الفروسية .

الفروسية . — الفارس ، في التعريف ، رجل يقوم بالخدمة العسكرية على الفرس . وهو يأتي في أدنى التسلسل الاقطاعي ، ويتبّع سيداً ويرتبط به بيمين الولاء وبمختلف الالتزامات التبعية . وعندما يبلغ سن الرشد ، أي عندما يكون قادراً على القيام بواجبه العسكري « يسلح الشاب النبيل فارساً » ، وكان لهذا الطقس ، في العصر الكارولنجي ، صفة علمانية محضة ، حتى أصبح ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر نوعاً من تعميد ثان وأخذت رمزيته تتعقد دوماً . وهذا الفارس مؤمن وحياته الأخلاقية ليست دوماً على وفاق تام مع تعاليم الانجيل ، ولكنه ، على الأقل ، يدعو إلى الايمان المسيحي ويتعهد بنشره وحمايته . وفي العام ٨٧٨ فرض البابا جان الثامن على جميع الفرسان الذين يريدون أن يكسبوا حياة الخلود ، وجوب كفاح الكافرين ، ولاسيما بعد أن أصبح هذا الكفاح ملحاً في القرن الحادي عشر عندما هب العالم الأميري الفرنسي لنجدة المسيحية التي يهددها الاسلام في اسبانيا . وحاولت الكنيسة في الوقت نفسه أن تفرض السلام في الغرب وأن تضع حداً للحروب الخاصة ، واضطرت أن تذكر الفرسان بواجباتهم الدينية . وترينا بعض نصوص

القرن الحادي عشر هذا التدخل عند تقلد الأسلحة : وذلك بأن يبارك الكاهن السيف ويذكر بأن عليه أن يخـــدم في الدفاع عن الكنائس والأرامل واليتامى ، وعلى العموم ، كل خدام الله ضد « فظاعة الوثنيين ». وفي القرن الثـاني عشر ، كان الفارس الشاب يغتسل ويلبس قميصاً من الكتان ، رمز الطهر ، وثوباً اوجوانيـاً ، صورة الدم الذي يجب أن يسفكه في سبيل الله ، منتظراً أن يكافح ، وهذا مايكون أقل أخلاقية ، في سبيل حب سيدة متزوجة على العموم .

وهذه العواطف الجديدة وجدت تعبيرها في مضمار الأدب ، لأن ظهور الملحمة باللغة العامية ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحرب الصليبية وبتحويل الحرب الأميرية إلى جهاد (حرب مقدسة) .

الفكر المسيحي في القرن الحادي عشر

كانت النتيجة الأولى لليقظة الدينية نهضة في الفكر المسيحي بأشكال مختلفة : فقد نهضت الفلسفة واللاهوت والعلوم والحق القانوني الكنسي ، في آخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر ، نهوضاً لم تعرفه منذ آخر عصر آباء الكنيسة .

جيربير . — كان الصانـع الأول لهذه النهضة جيربير الاوفيرني (وهو البابا سيلفستر الثاني في المستقبل) . درس دراسة قـوية في دير أورياك الكلوني وأقام في اسبانيا بالقرب من أسقف فيش ، العالم آتون ؛ ثم أصبح زعيم مدرسة رنس منتظراً انعام اوتون الثاني واتون الثالث ليجعل منـه مطران رافينه ثم بابا . كان هذا الحبر رجل عمـــل طبع بطابعه مصير المسيحية الغربية ، وعالماً أصيلا . وبالرغم من أن هذه الأصالة كانت موضع نزاع في بعض الميادين ، فقد استطاع أن يقف ، قبل البير الكبير والقديس

توماس الاكويني ، على معارف عصره كلها : كان أديباً إنسانياً بحسب القديم ، فقد تغذى بأدب فيرجيل وهوراس ولوكن والشعراء اللاتينيين الآخرين ، وكاتباً رشيقاً ، بسيط الاسلوب ، ورسائله المتقنة على الطريقة الشيشيرونية ذات سحر أخاذ ، وموسيقياً وتلميذاً لبويس ، وقد تأثر به وألف نثر على شرف الملائكة ، كما كان لاهوتياً ورياضياً وفيلسوفاً .

والحق يقال ، ان هذه الشخصيات الثلاثة واحدة عنده . فاللاهوت عند جيربير ، لاينفصل عن العلم والجدل اللذين يقويان معطياته . وآثاره اللاهوتية خاصة قليلة . وقد حاول أن يوفق بين النظريات المتباينة عند باسكاز رادبير و رابان مور في سر القربان المقدس . وإنتاجه العلمي هام جداً : وإذا لم يأت بمفاهيم جديدة حقاً ، فعلى الاقل يجب أن نقول ان مامن أحد في عصره دفع بعيداً مثله دراسة الرياضيات باهتمامه قبل كل شيء بالتطبيقات التي تقبلها : اما لأنه يوضح طرق الحساب المعروفة قبله أو يبين كيفية استعمال الجدول الحسابي ، وهو نوع من لوحة ذات اقسام كتبت عليها الأعداد ، واما لأنه يدرس وسائل قياس السطوح » فيتابع ، قبل كل شيء ، هدفاً عملياً ويتجنب الغوص في النظرية المحضة . وهذا مايؤلف أصالته الحقيقية التي تظهر في الفلك أيضاً : ولا شك في انه في هذه المادة لم يخترع شيئاً ، ولكنه كان عصرياً باهتمامه في جعل هذا العلم يعتمد على مسلمات التجربة ؛ وكان تلميذاً حقيقياً لبطليموس ، فقد عرف عنه مباشرة ، أو على الاقل بالواسطة ، الكرة المسطحة والمدافع ، وطبق الطريقة التجريبية وصنع كرات خاصة لتسجيل أوضاع الكواكب ومتابعة سيرها في السماء؛ واذا كان « كتاب الاسطرلاب » أثره ، فيمكن أن يعتبر رائداً . وبفضل الترجمات اللاتينية بدأ بنشر الافكار العربية في الفلك في الغرب . وكان

له في ليج وشارتر تلاميذ امناء لطرقه حاولوا صناعة الادوات الفلكية واستعمالها .

وكان تأثير جيربير الفيلسوف كبيراً ، واليه تصعد أصول الجدل . وللأسف لا تعرف مذاهبه إلا من فقرة من ريشيه وصف فيها مناقشة بقيت شهيرة مع اوتريك . وكان عالماً بالمنطق مقتنعاً بان الحقائق اللاهوتية يمكن أن تتوطد بالبرهان . وكان ينزع إلى البرهان بالعقــل ما هو معقول . وفي كثير من الاعتبارات نجد ان الحركة الفلسفية ، التي ثبتت في القرن الحادي عشر في شارتر ، جرت على طريقته .

مدرسة شارتر . — ان اسم مدرسة شارتر لا ينفصل عن قضيــة **الكليات** التي سادت الجدل الفلسفي في القرن الحادي عشر وما بعده . وقد وضعت القضية في شارتر منذ عصر فولبير . وكان يراد تعيين العلاقة التي توجد بين الاحساسات التي يستطيـع العقل بواسطتها القبض على اشياء حقيقية والمفاهيم المجردة التي تعمم المعارف الخاصة الناتجة عن الاحساسات . وبتعبير آخر . هل هذه المفاهيم تنطبق على الحقيقة أو هي انشاء فكري بسيط ؟ هل يوجد تطابق بين الشيء المفهوم والشيء الموجود خارج الفكر الذي فهمه ؟ أجـاب فولبير وتلاميذه ، متأثرين بافلاطون والقديس اغسطينوس بقولهم : يوجد فوق الأشيـاء المرئية أشياء لا مرئية ولكنها حقيقية ايضاً ، يعود بعضها للعقل ، وبعضها الآخر للايمان ، أو ، اذا استعملنا لغة فولبير نفسها ، : ان الجواهر الفلسفية وجوهر الله لها حقيقة مستقلة عن الفكر .

ويعارض هذا الموقف الافلاطوني ، **للواقعية** ، موقف شارتر، موقف **الاسمية «** اللفظية »، وهو موقف ارسطو . يرى هـذا الفيلسوف أن ما يوجد في

الطبيعه هو الفودي وحده ؛ وبالتالي فان « الكليات » ليست اشياء موجودة محققة فيها ، بل تظهر كمفاهيم مجردة تطابق الحقيقة كثيراً أو قليلاً . ومن هنا اذا اكد بأن الانواع والأجناس كلمات وليست اشياء فلا يوجد الاخطوة ، وقد قطعت هذه الخطوة ، بعد موت فولبير ، من قبل بعض تلاميذه الذين لم يشاءوا أن يقبلوا معرفة أخرى غير المعرفة التي تأتي من التجربة . فعوضاً عن ان تلحق الحواس بالعقل والعقل بالايمان ، كما فعل فولبير، وهوغ لانغر وآدلمان لييج ، اريد أن تخضع الى مسلمات العقل وحتى مسلمات الايمان الى النقد بحجة ان مايبقى وحده انما هو الأشياء التي ترى وتلمس . وبكلمة ، ان الكلي لايكون واقعاً . وليس ذلك الا اسماً ، ومن هنا اتت التسمية الاسمية التي اعطيت لهذه النظرية .

ولكن الاسمية لم تنجح في شارتر الا نجاحاً موقتاً . وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر ظل المفكرون مخاصين لفكر فولبير وتفوقت الواقعية . وكان ممثلها اللامع في بداية القرن الثاني عشر برنار شارتر استاذ جيلبير دولا بوريه وجان سالز بوري ، اكبر فيلسوف فيما وراء الطبيعة في هذه المدرسة . ويظهر من مؤلفات برنار ومن شواهد تلاميذه انه يقسم الكائنات الى ثلاث طبقات : الله ، المادة ، الأشكال البدائية التي تفيض عن العقل الالهي وتتحد بالمادة وتحولها .

وكان برنار آخر المفكري الشارتريين ، وعنه أخذ الأساتذة الذين علموا في باريس في منتصف القرن الثاني عشر ، واتموا تثبيت المذهب الواقعي ، ولكن في وقت كسفت فيه مدرسة باريس مدرسة شارتر ودشنت مستقبلاً لامعاً .

روسلن كومبين . — لقد وجدت النظريات الاسمية ، في خارج مدرسة شارتر ، محامياً مكافحاً في شخص روسلن كومبين . ولسوء الحظ لم

يحفظ عنه شيء ، ويعرف خاصة برده على القديس آنسلم ، ولكن ينتج من هذه الردود نفسها أن روسلن كان ، في آخر القرن الحادي عشر ، خصماً لايقاوم للواقعية ، ويرى بأنه لايوجد في الطبيعة إلا ذاتيات ، وليست الكليات إلا تعابير لفظية ، ولا يسعنا أن نقول مع ذلك بانه كان يقيم تطابقاً بين الأسماء والأشياء . ويبدو أن نظرياته لم تعش إلا قليلا بعد الضربات القطيعة التي وجهها اليها القديس آنسلم اشهر جدليي مدرسة بيك .

القديس آنسلم . — كان القديس آنسلم ، مثل جيربير ، رجل دراسة ورجل عمل ، ولكنه لم يأت إلى العمل إلا آجلا ورغماً عنه . فقبل أن يصبح مطران كانتوربري ، كان مدير مدرسة ، ثم أب بيك حيث وضع سلفه لانفرانك الدراسات الفلسفية موضع الشرف . لقد كتب كثيراً ، والف تعاليم الكنيسة على وجود الله وطبيعته ، على الله والخلق ، وحاول أن يدعم معطيات الايمان بحجج العقل ، وان يربط التعاليم الاخلاقية بهذه النظرات الفوق طبيعية .

وإذا اريد تحديد مكان القديس آنسلم بين اتجاهات الفكر الكبرى في العصر الوسيط لوجب أن نصنفه بجانب الواقعيين . فهو يرى أن العدل والحقيقة والخير والأفكار الأخرى من هذا النوع التي يفهمها الفكر لها وجود واقعي ، وفوق الأجناس والأنواع وفوق العالم المحسوس ، يرى الله الوحيد ، العلة والمبدأ لكل الاشياء . ان ما يسيطر على فلسفته ، وبهذا تغنى قضية الكليات بظاهر جديدة ، هو الحجة الكلامية الخاصة بالبرهان على وجود الله الذي يعرفه بأنه أكبر الكائنات ولا يمكن تصور أكبر منه » . ويضيف : « ان مثل هذا الكائن لايمكن أن يوجد ببساطة في فكرنا الذي يتصوره . وإذا لم يكن فينا إلا بصفة كائن متصور ،

فيمكن أن نتصور ، عدا ذلك ، بأنه ، في الواقع ،على ما هو عليه من كمال اسمى . وإذا كان الكائن الاعظم الذي يمكن تصوره لايوجد الا في عقلنا فيكون في الوقت نفسه كما يمكن أن يفهم أنه أعظم ، وهذا مستحيل ، لأن الكائن الاعظم يوجد ولاشك بشكل لايمكن أن يتصور أعظم منه لا في العقل ولا في الواقع » .

ان القديس آنسلم ، ببيان الحجة الكلامية التي تجعل الله كائناً شخصياً ، قوةً لا متناهية وخيراً أعظم معاً ، فتح طريقاً جديدة للجدل الفلسفي ، ولكن ليست هنا أصالته الوحيدة . ان ما يجعله في أصل حركة العصر الوسيط ليس هو نظرياته الملهمـــة من القديس اغسطينوس أو الفلسفة الافلاطونية الحديثة بل ما هو أكثر ، أي طوقه : فهو أول من طبق بجزم في العصر الوسيط الجدل في أمور الايمان ، وأدخل الفلسفة في مضمار ظل حتى الآن محجوزاً للاهوت . ويقول ان الايمان في جوهره لايعفي من فهم العقائد التي يعلمها ولا من فهم الكتاب المقدس : وكان يتخذ الايمان سبيلا للفهم . وانطلاقاً من الايمان صل إلى العلم مع قبوله بأنـه يمكن بالعقل وحده ، الوصول إلى البرهان على وجود الله وحقيقة بعض العقائد . ومع هذا ، فان العقل لايبرهن إلا على الوجود نفسه ، ولكنه لايعرف طبيعة هذا الوجود ، وان الايمان وحده قادر على وصفه . العقل يفهم أن الكائنات المنتهية لايمكن أن تستمد وجودها من نفسها بل تأخذه من كائن أعلى هو الله ، أو أيضاً ان كل الأشياء الصالحة تصدر بالضرورة عن صلاح واحد يسلك سبيل الله ، ولكنه إذا انتهى إلى فكرة الكائن الكامل فهو لايعلم النفوذ الى صفاته ، بل ان الأيمان وحده يؤدي إلى إله واحدٍ ومثلث .

الجدل في بداية القرن الثاني عشر . — جذبت هـذه الطريقـة

المعاصرين ، وأحدثت ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، نشاطاً غير عادي . حقاً لقد كان القديس آنسلم أعظم اسم للفكر المسيحي في بداية العصر الوسيط ولكن كان له منافسون . ومن الممكن أن نذكر بين معاصريه ، عدا ممثلي مدرسة شارتر ، اودون ، زعيم مدرسة تورنيه الذي توفي عام ١١١٣ على كرسي أسقفية كامبريه ، وقد طبق النظريات الواقعية على الذنب الأصلي ، وآنسلم لان (حوالي ١٠٥٠ – ١١١٧) تتلمذ في بيك على القديس آنسلم كانتور بري والف مجموعة كبرى تسمى « الأحكام » ، وأخيراً غليوم شامبو الذي تخلى عن مواقف الواقعية وغاص في نوع من اللامبالية . وبموجبها يوجد الواقع نفسه دون تمييز في جميع الأفراد . وقد ارتسم رد الفعل ضد الواقعية عند اديلارد باث ، وكان عالماً وعلى صلة بالطرق التجريبية ، ويرى أن الأنواع والاجناس بالنسبة لها ليست إلا أشكالاً لتصور الفودي المنبعث عن حدس عميق . وعلى هذا النحو يبشر بمفهوم جديد لقضية الكليات التي تعلق بها اسم ابيلار في منتصف القرن الثاني عشر .

رد الفعل الصوفي . – لقد كان من المحتم أن تثير نهضة الفلسفة في القرن الحادي عشر معارضة النساك الذين يرون أن الحياة المسيحية المؤسسة على الايمان تقتضي خاصة جهداً مستمراً نحو الكمال ، وان تبرير العقيدة بحجج العقل انما هو اسراف غير مفيد لوقت ثمين ؛ ولذا فمن الأفضل أن يبحث ، عند تأمل الكتاب المقدس ، عن غذاء اخلاقي معنوي يغذي الروح وينفخ فيها القوة الضرورية لاستكمال السلام ، هذه هي النظرية النسكية والصوفية معاً التي وسعها في منتصف القرن الحادي عشر بفصاحة حارة القديس بطرس داميان .

القديس بطرس داميان . لقد أصبح هذا الناسك بارادة البابا ليتين

التاسع كاردينال أسقف اوستي ، وترك عدداً عظيماً من المؤلفات والرسائل والمواعظ والخطب التي توحي بالازدراء العميق للفنون الحرة وبخاصة للجدل العاجز عن بلوغ الله القادر دوماً على قلب منشآت العلم البشري الضعيفة. ومن الافضل ، كما يقول ، التأمل في قصر الحياة وضعف الأشياء البشرية وفي الموت الذي يتبعه يوم الحساب وفي العقوبات المخلدة التي تهددنا ، داعماً هذه الأفكار القاسية بالصوم والجلد والاماتات المختلفة الأخرى . ومن هنا ينشأ الخوف من الذنب ، الغاية القصوى للحياة الدينية التي يصل اليها الانسان قطعاً باتصال سرمدي مع كلام الله المحفوظ في الكتاب المقدس أكثر من النقاش في حقيقة الأفكار .

هذا هو النص العادي لكتب ورسائل القديس بطرس داميان ، وقد وجد لتوسيعها لهجات لامثيل لها تجعل منه ممثلا علوياً للأدب الصوفي قبل القديس برنار . كما أظهر معاصره اوتلوه القديس عميران (١٠١٠ — ١٠٧٠) الازدراء نفسه حيال الجدل وحرم استعماله على الرهبان . وستظهر هذه الأفكار نفسها في الآجل القريب على لسان مانيغولد لاوتنباخ . ووقفت النزعة الصوفية أمام النزعة العقلانية : وتجابهت النزعتان في القرن الثاني عشر على يد خصمين عبقريين ابيلار والقديس برنار .

الآثار الجدلية . — لم يتناول جدل القرن الحادي عشر وحده ميدان الفكر المحض بل ان المناقشات الكبرى التي أتاحها اصلاح الكنيسة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر كان لها صداهـا الأدبي . فقد نوقشت بادىء بدء اشكال الاصلاح : وكان بطرس داميان ، الحواري والناسك معاً ، مقتنعاً بان التبشير لايكفي لانتزاع الاكليروس من حمأة الفساد وحب الكسب ، وكتب في النيقولاوية والسيمونية صحائف غراً وفضل فيها اصلاحاً اخلاقياً صعباً ان لم يكن مستحيلاً . وبالمقابل

نجد الكاردينال همبرت موايتموتيه ، وهو من المدرسة اللورينيـة ، في مطوله « خصوم السيمونية » الذي ظهر عام ١٠٥٨ ، الحق تحقيق الاصـلاح الاخلاقي بتحقيق الاصلاح الكنسي ، وكان أقل عاطفة وأكثر منطقاً من حبيس فونته ـ افيللانا ، ودل على الوسائل التي يتحقق بموجبها انتقاء الهيئة الاسقفية ، الدواء الوحيد للمفاسد التي تفتك في الكنيسة .

وفي حبرية غريغوار السابع ، الذي كان لرسائله الى هرمان متز قيمة أدبية لاجـدل فيها ، تطور الجدل نحو أهـداف جديدة : فعلى اثر الموقف المعـادي ، الذي وقفـه الملوك حيـال الاصلاح ، احتلت قضية علاقة الكنيسة والدولة المقام الأول : فمن جهـة هنري الرابـع ، شاد فنريك تريف وبطرس كراسوس ، لتبرير خلع البـابا من قبل ملك جرمانيا ، نظرية الملكية الوراثية في الحق الإلهي التي يكون بموجبهـا الملك ، صورة الله ، غير مسؤول الا أمام الله . أما غريغوار السابـع وانصاره : برنولد كونستانس ، غيبارد سالزبورغ ، مانيغولد لاوتنباخ فقد وسعوا الكلام الانجيلي الذي أقر سلطة العقـد والحل لصالح بطرس ، وتعلقوا بتبرير شمول هذه السلطة التي نقلها بطرس الى خلفائه والتي يجب على الملوك أن يخضعوا لها كسائر الناس الفانين . وكما أشرنا سابقاً يرى مانيغولد أن النظرية الرومانية ترافقها فكرة جريئة خاصة وحديثة جداً : وهي أن ممارسة السيادة مرتبطة بالقيام بالواجب الذي تتضمنه ، وعندما يعتلي الأمير العرش يقوم بين هذا الأمير ورعيته عقد يبقى ساري المفعول ما دام الأمير متمسكاً بوعده . ولكن هذا العقد ينكسر في اليوم الذي يخرق هذا العقد بتماديه في طغيانه . وهذه هي النظرية العقدية للسيادة التي يتناولها العصر الوسيط غالباً وترجع الى مانيغولد لاوتنباخ .

ان الطريقة التي اتبعها هؤلاء الجدليون تلفت النظر كافكارهم . ومهما

يكن الحزب الذي ينتمي اليه الواحد منهم فانه يزعم بان التقاليد الكنسية الى جانبه ويحاول ان يبرهن ، اما بنصوص مقتبسة عن الكتاب المقدس والآباء ، او بحجج تاريخية ، على حقيقة تؤكيده ، ولكن استعمال النصوص المذكورة أو الحوادث التي استشهد بها ، فيه شيء من السفسطة لأن النصوص نفسها والحوادث نفسها اذا فسرت أو نقلت بشكل مغاير أفادت ايضاً في دعم النظريات المعاكسة .

النهضة الحقوقية . — ان طرق الجدل توضح وتشترط من عدة اعتبارات نهضة الحقوق التي هي صفة تلفت النظر في تاريخ القرن الحادي عشر الفكري . لقد كان فقهاء هنري الرابع ، لتبرير نظريتهم في السلطة الملكية ، يستشهدون بعدد من النصوص مقتبسة من الحق الروماني ؛ وكان بطرس كراسوس خاصة ، يعرف قانون جوستنيان ومجموعة الفتاوى التي درسها ولاشك في رافينة حيث كان هذا النوع من الدراسة مزدهراً قبل ان يتركز في بولونيا (في ايطاليا)

ونما الحق الكنسي بصورة موازية للحق الروماني . والحق يقال ان نهوضه كان سابقاً : فمنذ بداية القرن الحادي عشر الف بركارد فورمز في المانيا وآبون فلوري في فرنسا مجموعات قوانين كنسية تفوق مجموعات العصر السالف . وقد تعددت المجموعات ، ابتداءً من حبرية غريغوار السابع ، وأصبحت في آن واحد تامة ومنظمة . فقد حرر آتّون وآنسلم لوقا والكاردينال دوسدودي مطولات حقيقية للبرهنة ، حسب عنوان الكتاب الأول من مجموعة آنسلم ، على « تفوق الكنيسة الرومانية وسيادتها » وعرفوا ، بفضل جمع النصوص المستعملة ، كيف يبرزون الحقوق والامتيازات ، وعدا ذلك ، تتميز مجموعاتهم عن المجموعات السابقة بكثرة النصوص التي

جمعوها وبالعناية بنسخ النصوص الصحيحة أو على الأقل المعتبرة كما هي في العصر الذي كتبوا فيه .

وهذا الاندفاع الذي أعطي في العصر الغريغوري انتشر في الدور التالي : فمن ذلك أن بونيزون سوتري وايف شارتر وكثير غيرهما ، حرروا بدورهم مجموعات قوانين كنسية ، وأدت الحركة في آخر الأمر الى مجموعة غراسيان وتعتبر الاولى من نوعها .

بداية الفن الرومانسي

النهضة الفنية في القرن الحادي عشر . – لقد تأثر الفن ، كالفكر ، بنتائج اليقظة الدينية . وكتب المؤرخ رؤول غلابير : في السنة الثالثة بعد العام ألف أعيد بناء الكنائس من جديد ، في العالم كله تقريباً ، وبخاصة في ايطاليا وغاليا ... وحدث تنافس عام في بناء الكنائس الجميلة والغنية : وقد قيل ان العالم المسيحي ، بالاجماع ، نزع اسماله العتيقة واكتسى بثوب الكنائس الأبيض » . ينتج عن هذا الشاهد أن كثيراً من العمائر شيدت في القرن الحادي عشر ، وإذا صرفنا النظر عن العمائر التي زالت من الوجود فان إحصاء المباني يؤيد أقوال المؤرخ . ولسوء الحظ ، ان نقص النصوص وأكثر من ذلك أيضاً صعوبة تكييف النصوص التي حفظت مع المباني التي تتعلق بها ، بسبب الترميمات التي اجريت لها ، لاتساعد على تتبع الانتقال من الفن الكارولنجي ، الذي امتد حتى منتصف القرن العاشر ، إلى الفن الرومانسي ، كما تفتح في كاوني وفيزليه أو في سان - سيرنن تولوز . ان تواريخ بناء هذه العمائر الكبرى يحتمل النقاش ولا يوجد اتفاق ، بسبب فقدان النصوص التي يطمأن إليها ، على تحديد الزمن الذي خرج فيه فن التمثال من دور التلمس الطويل وتفتح عن منشآت كبرى مثل تركيب مواساك وفيزليه ، فضلاً عن أنه من الصعب من الوجهة

الزمنية إعادة بناء تطور ماسمي « الفن الرومانسي الأول » الذي بدت تباشيره منذ النصف الثاني من القرن العاشر ، وكان فناً أساسياً في القرن الحادي عشر .

ولكن أين نشأ فن البناء الرومانسي ؟ يبدو من دراسة الأعمال التي تناولت هذا الموضوع بالدرس أن هذا الفن رأى النور في منطقتين مختلفتين : منطقة **الأوفيرن** في فرنسا من جهة ، **وبلاد البحر المتوسط** : في لومبارديا وبروفانس ، وكاتالونيا ، حيث كانت له قوة توسع كبرى ، من جهة أخرى . وذلك لأن الحفريات كشفت عن أسبقية هذه المناطق ، ومنها انتشر في البلدان الأوربية وتحسن وازدهر .

وصحب هذه النهضة في البناء نهضة في **النحت** . فقد اختفى فن التمثال تماماً منذ الغارات الجرمانية في القرن الخامس ، ولكنه ظهر تدريجياً في آخر القرن العاشر ، في المناطق التي نشأ فيها فن البناء الرومانسي .

كان الفن الرومانسي فن بناء أكثر مما هو فن تزيين ، وقد امتاز باستعمال الحجر المنحوت وظهور العقد الحجري والترتيب المنظم للأشكال والحجوم .

وساد هذا الفن أبنية علمانية : قصوراً ودوراً وجسوراً وأبنية دينية . وقد ذهب أكثر المباني الأولى وظلت الكنائس دور الله تفوق على دور عباده . ولكن مبادىء البناء والاسلوب واحدة في الأبنية الدينية والدنيوية .

أخذ هذا الفن الجديد عن الفن الروماني والفنون الشرقية (الكنائس الأرمنية والقبة البيزنطية والقوس العربي أو المستعرب) ، وبدت هذه التأثيرات واضحة في التزيين ، وتضاف إليها التأثيرات الايرلندية والاسكانديناافية والجرمانية والبربرية والبدائية ، ولكن الفن الرومانسي يمتاز عنها بسعته وقوته وتجديده في إعطاء الأولوية إلى الحجر لا إلى التزيين : وقد استخدم

الحجر المنحوت والمرصوف فوق بعضه بدقة وضبط على صفوف عوضاً عن الأحجار المختلفة الأشكال المكسرة بغير انتظـام والمغموسة في المونة . وهذا ماساعد على تقدم حاسم في بناء الأقواس والعقود .

أما مخطط الكنائس فكان على شكلين : المخطط بشكل صليب ، وهذا يساعد المؤمنين على التقدم في داخل الكنيسة من الصحن المركزي نحـو الخورس ، ومن صحنين أو أربعة صحون جانبية باجتياز جناح الكنيسة نحو الدهليز الصدراني الذي يحيط بالخورس وعليه تفتح القابلات المشعة حيث تحل بقايا القديسين . والمخطط الثاني هو المخطط ذو الثلاثة صدور المتوازية. وهناك مخططات أخرى مثل المخطط الدائري تقليداً لكنيسة القيامة في القدس .

الرسم والمنمنمات . ــ ومن الملاحظ ، في الواقع أنه إذا وجد في القرن الحادي عشر تجديد شامل في البناء ونهضة في النحت فلا يمكن أن يشار إلى شيء من هـذا في الرسم . لقد كان للرسم الجداري والمنمنمات توسع كبير في العصر الكارولنجي وظلت هـذه الفنون في القرن الحادي عشر شكلاً أساسياً للفن ولم تخضع بالتالي إلى تحويل جذري .وقد وجد لفن الرسم مدرسة ، في جنوب فرنسا وشمـال إسبانيا ، سبقت مدرسة النحت . كما وجدت مراكز أخرى في المانيا وايطاليا الجنوبية .

الحركة الادبية في القرن العاشر

صفات النهضة الأدبية . ــ لقد انبعثت النهضة الفلسفية والنهضة الفنية في القرن الحادي عشر عن اليقظة الدينية التي بدأت في منتصف القرن العاشر وما فتئت تتكاثف حتى الاصلاح الغريغوري . وارتسمت النهضة الأدبية أيضاً حول ٩٦٠ وكانت على صلة بالأحداث السياسية ، وظهرت

في أصلها ، كنتيجة لارجاع الامبراطورية على يد اوتون الكبير . وعمل الأباطرة الساكسونيون وأيضاً الامبراطورتان اديلاييد وتيوفانو أكثر من غيرهم على إيقاظ الآداب الدنيوية التي وقعت في حال سبات وخبال في النصف الأول من القرن العاشر ، وجذبوا الكتاب إلى بلاطهم ودفعوا نشاط الأديرة . وكان للأمبراطور اوتون الثاني بنتان راهبتان ، وقد لعبتا في هذا الاتجاه دوراً حاسماً ، وامتد الدفع إلى الأديرة ، واتجهت هذه المؤسسات الدينية نحو الآداب الدنيوية والجدل ، وظلت فرنسا أرضاً خصبة لها .

التاريخ في عصر اوتون الكبير : ليودبراند كريمون . — ان رجعة الامبراطورية في الغرب ، في ٢ شباط ٩٦٢ ، نشطت المؤرخين . وبعد سنتين على هـذا الحادث الف ليودبراند أسقف كريمون كتاباً عنوانه : « كتاب الحوادث التي جرت للامبراطور اوتون الكبير » .

كان ليودبراند يعيش في بلاط بيرانجيه ، ملك ايطاليا ، ثم اختلف معه وأخذ يخدم المصالح الجرمانية في شبه الجزيرة الايطالية ليثأر من الظلم الذي لحق به واعتبر نفسه ضحيته . والحق يقال ان « أعمال اوتون » لم يكن كتابه الأساسي ، فقد ألف في العـام ٩٥٨ كتاباً يسمى « آنتابو دوزيس » وحاول فيه ، بحجة تأليف تاريخ لعصره ، أن يهيء رجعة الامبراطورية مشيداً بمدح العمل الذي قام به اوتون الاول ، ومنكراً لكل من وجهوا السياسة الايطالية ، منذ آخر القرن التاسع ، مهما اختلفت ألقابهم . ولذا فليس لهذا الكتاب سوى قيمة تاريخية ضعيفة . لأنه مؤلف قدح ومدح معاً يكشف عن صفات المؤلف الادبية ، لقد كان ليودبراند يجيد بخبث في سرد قصص حقيقية أو منتحلة ، ولكنها على كل حال ، جائرة على أعدائه ، كما يجيد في رسم صفات وملامح حاقدة أو هجائية ساخرة . لقد كان متهكماً

لاذعاً يعرف كيف يكون في المناسبات مؤثراً ومهيجاً للعواطف : إن سرده للحوادث العسكرية الكبرى في عهـــد اوتون الكبير يعتبر من أفضـل أجزاء مؤلفه .

فيدوكند كودفيه . — وهو مؤرخ آخر للسلالة الساكسونيـة في جرمانيا ، ويختلف عن ليود براند . وتتضمن « الكتب الثلاثة في الحوادث التي جرت للساكسونيين » التي وضعها بين ٩٦٥ و ٩٦٧ ، تاريخ ساكسونيا من أصولها الخرافية حتى عصره ، وتمجد الشعب الساكسوني أكثر بكثير من المليك الذي شرفه ونشر شهرته . وبينا نجد ليودبراند لايهتم بالصحة إلا قليلا ، فان فيدوكند أراد أن يصنع مؤلفاً تاريخياً حقـاً وصدقاً : فاجلاله للسلالة الاوتونية لم يؤثر على حياده ، وعند الحاجة ، احترامه لاعداء الامبراطـور العظيم . ويستحق فيدوكند أن يذكر في سجل الكتاب العسكريين ، لأن الصفحات التي خصصها لبعض الوقائـع الحربية والثورات قوية في اعتدالها .

وعدا ليودبراند وفيدوكند ، أنتـج التاريخ الالماني والايطالي ، في زمن الاوتونيين ، تآريخ نادرة مثـل « تاريخ بندكت جبل سقراط » وهو مجموعة كبرى تذكر فيها نوائب البلاد المسيحية بعبارات مؤثرة ، كما تضم تراجم كتبت بشكل مرض وتتناوب فيها التوسيعات التقليدية والقصص الدقيق الذي يتمم قصص ليودبراند وفيدوكند .

الشعر الحماسي : روزفيتا . — واوحى عمـل اوتون الكبير أيضاً بقصيدة حماسية نظمتها روزفيتا الراهبة في دير غاندرسهايم . وقد تفتحت الموهبة الشعرية لهذه الراهبة الفتية بقراءة الاساطير المأخوذة عن الاناجيل المنتحلة ومن سير القديسين . وبنـاء على طلب الام جربرج ، ابنـة أخ

اوتون الكبير ، بدأت ، بعد تتويج الامبراطور عــام ٩٦٢ ، بنظم قصيدة في « أعمال الامبراطور اوتون الاول » وجدت فيها « أعمال قيصر اوغست » . وهذه القصيدة تعتبر نصاً رسمياً للحكم لان البلاط نفسه قدم لها وثائقه . بيد أن الحوادث العسكرية والدبلوماسية لاتحتل فيها المكان الذي تحتله في آثار ليودبراند وفيدوكند . وقد ذكرت روزفيتا برقة تقية الحياة الخاصة لاسرة الامبراطور وأظهرت نحوها كل عطف وإجلال : ففي شعرها يبدو اوتون داود ثانياً بعثه الله ليخزي الوثنيين ويؤمن سلام الكنيسة ، وشخصية ارسلتها العناية الإلهية لسلام العالم .

ونظمت روزفيتا قصيدة أخرى تاريخية على شرف ديرها تسمى « مؤسسة دير غاندرسهايم » ، وقطعاً مسرحية مجردة من كل عمل ، حتى ليمكن أن توصف بالقصص الحماسية الحوارية . وبالرغم من الغاية الاخلاقية ، التي تعترف فيها بصراحة ، فهي لاتتوانى عن تصوير المشاعر الحسية التي تنم عن الهوى العميق . ويبدو تأثير الشاعر اللاتيني تيرانس واضحاً في هذه الآثار الاخيرة . وفي ذلك مايدل على صلة الاديرة الالمانية بالادب القديم .

ايكهارد القديس ــ غال . ــ لقد كانت روزفيتا تمثل حركة الشعر في العصر الاوتوني اكثر من أي شخص آخر ، وكان لها منافسون نخص بالذكر منهم ايكهارد راهب دير القديس ــ غال في سويسرا . نظم في عهد هنري الأول ، أي حوالي العام ٩٣٠ ، قصيدة قص فيها في ١٤٥٦ بيتاً اسطورة فالتاريوس بن ملك اكيتانيا وخطيبته هيلدوغارد ، وتتلخص في انها ارسلا رهينتين لدى آتيلا ، زعيم قبائل الهون ، فأسرهما . ولكنهما استطاعا ان ينجوا من الأسر ويتزوجا . وتعتبر هذه القصيدة الغنائية قصيدة قوية تمجد بشكل شخصي فضائل جرمانيا الحربية مع مايعدلها من عاطفة مسيحية ظاهرة .

الأدب الرمزي . — وفي الوقت نفسه عرفت قصيدة أخرى ، من نوع آخر ، نجاحاً عظيماً ، وضعها راهب القديس — ايبر في مدينة تول على لسان الحيوانات . وقصتها مقتبسة من ايزوب ، ولها طابع رمزي مسيحي : وفيها يظهر الذئب كصورة للشيطان ، بينما يمثل المسيح فيها تارة بأسد وتارة بثعلب . والحيــوانات الأخرى تنطق وتعقل وتعيش كالرهبان . وتأثير القديم فيها ظاهر : فقد نهب هوراس و او فيد وبرودانس فيها بكثرة ، ولكن الاطاو فيها أصيل .

النهضة الأدبية في فرنسا . — وتؤكد هذه الآثار المختلفة حيوية المانيا الأدبية في عصر الاوتونيين . وفي فرنسا اقتصر الشعر على بعض المقطوعات الحماسية ، والتاريخ الطبيعي بشعر دون كبير أهمية . ولكن التاريخ مثل بشكل افضل على يد فلودوآر وريشيه .

فلودو آر رنس . — يتمثل تاريخ العصر في فرنسا بأدب فلودوآر رنس وهو مـؤرخ فرنجي يكتب باللاتينية . ولد في ايبرنيه عام ٨٩٤ ومات نحو ٩٦٦ . عمل كاهناً قانونياً في كنيسة رنس . وكتب « تاريخ كنيسة رنس » وحوليات تغطي الدور ٩١٩ — ٩٦٦ . وبالرغم من ميله المفرط للحوادث الاسطورية والعجيبة فان معلوماته بوجه عام موثوقة يطمأن لها . الا انه لايضاهي من حيث القيمة الادبية ليودبراند كريمون بل وحتى فيدو كند كورفيه .

ريشيه راهب دير القديس ريمي . — كان ريشيه راهباً في دير القديس ريمي في مدينة رنس .الف تاريخاً « يشمل الدور ٨٧٩ — ٩٩٥» وتمم به حوليات هنكمار مطران رنس . وكان ريشيه كاتباً حقاً يهتم قليلاً بالصحة والضبط ، معجباً بالمؤلفين اللاتينيين القدامى ، وبخاصة سالوست . فقد كان يقلده باستمرار وبشكل موفق لحسن الحظ . وامتاز دون سائر مؤرخي

عصره بحس مرهف يعرف كيف يصور التفصيلات بمهارة وفن وحياة . ويعتبر قصصه من أحسن القصص الذي كتب في آخر القرن العاشر . غير انه لم يكن في كل ذلك مؤرخـــاً ، ولذا لايمكن الاعتماد عليه والثقة باخباره .

الحركة الادبية في القرن الحادي عشر

وخارجاً عن الشعر والتاريخ لا نجد في عصر. الاوتونيين آثاراً أدبية هامة جديرة بالاشارة الا مؤلفات جيربير . فقد كان مفكراً وكاتباً من الطراز الأول ورسائله يمكن أن تضاهى رسائل أشهر مؤلفي العصر القديم. ولذا كانت النهضة محدودة في اغراضها الأدبية كما هي محدودة في الزمان، لأن الشعراء بعد زوال السلالة الساكسونية أصبحوا نادرين ، ولا نجد في القرن الحادي عشر اسماً يمكن أن يوازي روزفيتا : فلا الالماني ريو دليب الذي وضع أول رواية في الفروسية ، ولا الفرنسي سيرلون الذي نظم قصيدة في مدح غليوم الفاتح وقصيدة في هجو جيلبير أب دير القديس مارتن في مدينة كنْ ، ولا الايطالي دونيزون الذي غنى مجد الكونتس ماتيلد ، يستحقون أن يلفتوا النظر زمناً طويلا . يضاف إلى ذالك أن التاريخ زال كنوع أدبي .

وإذا وضعنا جانباً بعض التراجم مثل ترجمة حياة روبير التقي التي وضعها هيلغو ، وترجمة كونراد الثاني التي الفها فيبون ، أو بعض المؤلفات الشخصية مثل تاريخ رؤول غلابير ، وجدنا أن التاريخ قد آل ، حتى عصر الحروب الصليبية إلى حوليات جافة وباردة تذكر الحوادث دون نظام ودون أي اهتمام بالتأليف . وهكذا لم تولد بعض الحوادث العظيمة ، مثل

فتح النورمانديين لانكلترا ، أو النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ، سوى تآريخ مجردة من كل اهتمام ادبي . وفي هذه الطبقة من التآريخ يجب وضع مؤلفات غليوم جوميج ، وغليوم بواتيه ، ويونولد كونستانس وايكهارد اورا . إلا أنه يجب أن نذكر ان هوغ فلافيني وسيجوبير جبلو قد وضعا في آخر القرن الحادي عشر في قصصها بعض النور واللون وذكرا ، ولو من بعيد ، بكتاب العصر الاوتوني .

مطروزة بايّو . — ويضاف إلى هذه المؤلفات مصدر قصصي آخر ، مطرزة بايو . وهي تاريخ مصور على قطعة قماش مطرزة طولها ٧٠ م وعرضها ٥٠ س م وتضم ٦٢٣ شخصاً . تصور هذه المطرزة فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح حتى معركة هاستنغز في ٧٩ لوحة مع سلسلة نقوش كتابية . وقد اختلف في تاريخ صنع هذه المطرزة وحامت حولها مناقشات عديدة . ويعتقد من صور الاشخاص المعروفين في محيط غليوم الفاتح ان هذه المطرزة معاصرة له وانها صنعت بايحاء من اسقف بايو ، أخي غليوم ، وتعتبر هذه المطرزة نوعاً جديداً للتاريخ المصور .

مؤرخو الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٥ — ١٠٩٩) . — لقد أوجدت الحرب الصليبية الاولى عدداً من المؤرخين . ولكن هؤلاء وجدوا أمام صعوبات جمة . فمن ذلك ان الحرب وقعت في ديار الاسلام بعيداً عن الغرب الاوربي ، وان الصليبيين الذين اشتركوا في هذه الحرب كانوا يميلون إلى المبالغة في سرد الحوادث ، فضلاً عن ان ذكريات هذه الحوادث قد نسيت مع الزمن وتعاقب الاحداث ، وان الحرب الصليبية قامت في البدء على عناصر فرنسية وما لبثت أن اصبحت مشروعاً دولياً ضخماً ، وكان كل مؤرخ ينزع إلى تمجيد زعمائه وجيشه . ونظراً لكثرة الجيوش

وتعددهما لم يستطع المؤرخون الوقوف على احوالها العامة ، ولكنهم قصوا ما رأوه وما سمعوا به ، وهذا يوضح كثرة الأساطير التي رافقت قصة الحرب الصليبية ، ويدعو الباحثين إلى نقد دقيق للمصادر وتصنيف زمني لمؤرخي هذه الحرب مع دراسة كل منهم دراسة عميقة وافية .

لقد عرف تاريخ الحملة الصليبية الاولى أربعة مصادر معاصرة وهي :

١ — « تاريخ الحملة الصليبية الاولى » لمؤلف مجهول .

٢ — « تاريخ الفرنجة الذين فتحوا القدس » لمؤلفه ريمون ايغيل .

٣ — « تاريخ حملة القدس » لمؤلفه البيرت اكس — لا شابل (آخن) .

٤ — « تاريخ القدس » للمؤلف فوشيه شارتر .

وحولت الحرب الصليبية كتابة التاريخ وأخذ هذا التحويل يظهر في بداية القرن الثاني عشر على يد كاتبين هامين : غيبير نوجان وسوجر .

غيبير نوجان . — كان غيبير أب نوجان — تحت — كوسي ، وتوفي عام ١١٢٤ . الف ترجمة حياته وتسمى « حياتي » ، قلد فيها تقليداً واضحاً « اعترافات » القديس اغسطينوس ، وهذا الكتاب ينفصل عن الكتب التي كتبت في الوقت نفسه . وفيه يعرض غيبير ببساطة حية الظروف التي خالط فيها ، كما يقص بامتاع ذكريات شبابه وانطباعاته عن البيئة العائلية والارستقراطية في مدينة بوفيه حيث عاش بادىء بدء ، ويرسم الأطوار الأساسية لتاريخ ديره وكنيسة لان ، دون أن ينسى الثورة القومونية التي ترك عنها قصة مبتذلة قليلاً ولا تذكر في شيء الحوليات الجافة التي وصلتنا بها تاريخ القرن الحادي عشر السياسي والديني .

سوجر . — ونجد الصفات الأدبية نفسها في حياة لويس السادس

لمؤلفه سوجر أب دير القديس - دوني ، وكان قصاصاً بارعاً يجيد وصف الحوادث وتمييز نفسية الشخصيات . والصورة التي تركها عن لويس السادس ، رغم أنها مطبوعة بالاعجاب العميق ، تظل حقيقية ومخلصة ، ويوجد في هذا الاخلاص نفسه شيء مؤثر يضاف إلى سحر « حياة لويس السادس » . ورغم ان سوجر كان عقلاً راجحاً ، فهذا لا ينفي عنه الحماسة : فقد استهوته الذكريات المتعلقة بديره ، وعندما اخفق هنري الخامس في عام ١١٢٤ فاضت وطنيته بشيء من الغناء . وقد أخذ عليه نقص ذوقه ورشاقته الناعمة ، واسلوبه المعقد الذي يقلد فيه المؤلفين القدامى . ورغم هذه المثالب تبقى « حياة لويس السادس » ، بعفويتها وصدقها ، أثراً من اعلاق الأدب اللاتيني في بداية القرن الثاني عشر .

مجموعات الرسائل : ايف شارتر . - ومن الممكن أن نضع ، بصورة ، موازية لحياة لويس السادس ، رسائل ايف شارتر التي تدشن مجموعات رسائل القرن الثاني عشر . كان ايف حقوقياً ، ساهم في الأمور السياسية ، ومشاوراً يصغي اليه البابوات ويعملون بنصحه في كل ما يهم علاقاتهم مع كنيسة فرنسا والملكية . وهذا ما خوله سلطة واسعة . وقد ترك أكثر من ثلثمائة رسالة موجهة في معظمها إلى الملوك والاساقفة . وفي هذه المراسلات معلومات ثمينة تتعلق بتاريخ السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر والسنوات الاولى من القرن الثاني عشر . وفيها نجد صورة الشخصيات المرموقة ، وقد رسمت بحماسة ورشاقة تجعلان قراءتها جذابة ومثيرة .

والى جانب رسائل ايف يمكن ذكر رسائل أخرى لا تخلو من فائدة وتؤكد تقدم اللغة اللاتينية في فرنسا .

ظهور الشعر في اللغة العامية . - ومع هـذا فان هذه اللغة

اللاتينية ستنمحي أمام اللغة العامية ، لغة وايل في الشمال ، ولغة اوك في الجنوب ، التي نفذت في فرنسا الى الأدب في القرن الحادي عشر . وهذه ميزة من مميزات النهضة التي أتينا على ذكر مراحلها الأساسية . فمنذ النصف الاول من القرن كتبت سير قديسين شعراً : ألم المسيح ، سيرة القديس ليجيه ، سيرة القديس الكسيس في شمال فرنسا ، سيرة القديسة فوا في اللانغدوك ، ويجب ان نضيف اليها قصيدة عن بويس الشاعر اللاتيني . وربما يجب ان نرى في ذلك شكلاً بدائياً وتقياً لأغاني الفخر التي ستنجح في الآجل القريب .

اغاني الفخر الاولى . — أغاني الفخر هي ملاحم باللغة العامية تمجد اعمال بعض الشخصيات المشهورة بمغامراتها ومآثر بطولتها . وكان هذا النوع من الأدب في نشأته على صلة وثيقة بالحوادث الكبرى التي مرت في القرن الحادي عشر وأهمها الحج والحرب الصليبية . ففي الأديرة الممتدة على طول الطرق المؤدية الى دور العبادة والمزارات ، وفي الطرق الموصلة الى اسبانيا كان المنشدون ، على وفاق مع الرهبان ، يمجدون ويوسعون في غنائهم المراحل التي مرفيها تاريخ الأديرة التي ذكرت باختصار في الحوليات . وفي الحروب ، التي دارت رحاها في اسبانيا في منتصف القرن الحادي عشر ، استيقظت ذكرى المنازعات الكبرى التي اصطدمت فيها المسيحية بالاسلام واخذت تقوى . وكان الفرنسيون الذين يعبرون جبال البيرينه يتغنون بذكرى شارلومان الذي سبقهم ومر في هذه الطريق :

غير ان معظم اغاني الفخر التي ترجع الى القرن الحادي عشر مفقودة اليوم ولا تعلم الا من الاشارة اليها في النصوص . ومع ذلك فقد احتفظ بقصيدة « ايزامبارت وغورمون » التي يرجع تاريخها الى السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر وتغني انتصار ملك الفرنجة . وبين ١١١٠

و ١١٢٠ ظهرت ، أشهر هذه الملاحم ، « اغنية رولان » ، وهي قصيدة تتألف من اربعة الاف بيت نجـــد فيها قصة طويلة لحادث عسكري وهو مقتل مؤخرة جيش شارلومان في شعب رونسفال (رونسوفو) عام ٧٧٨ وتعددت فيها اعمال البطولة وانعكست حوادث الحرب الصليبية في اسبانيا ، وظهر رولان ورجاله يكافحون كفاح المستميت اربعمائة الف مسلم ويتركون انفسهم يقتـلون على ارض المعركة دون ان يطلبوا أي نجدة . وهؤلاء الابطال يمثلون الفرسان الفرنسيين الذين بذلوا دماءهم على تراب شبه جزيرة ايبريا دون حساب في سبيل الدفاع عن الايمان المسيحي .

الشعراء الطوافون الأوائل . — ورأى هذا العصر نفسه نشأة اوائل الشعراء الطوافين . ففي آخر القرن الحادي عشر تحول العالم الأميري ، في بعض المناطق على الأقل ، ولانت الاخلاق ، حتى ان البارون الذي ما كان ليحلم حتى ذلـك الحين الا بالحرب والشرب سما شيئاً فشيئاً نحو تمتع ادق وانعم . وهذا التطور محسوس بخاصة في الجنوب الغربي من فرنسا في منطقة اكيتانيا التي تميل فيها رقة المناخ ووفرة الموارد الى العيش الهادىء والبطالة . وفي هذه المنطقة ظهر الشعر الغنائي : وكان اول الشعراء الطوافين الدوق غليوم التاسع . وهذا الأمير الذي لاتأخذه أي مهبوسة دينية كان شهوانياً يحب الكسب ، وغـــير قادر على ان يأخذ الأمور الخطيرة ، كالحرب الصليبية وبين الزواج ، مأخذ الجد ، كما كان مستعداً لتضحية كل شيء في سبيل اهوائه وحبه . وقد ترك احدى عشرة قصيدة تمتزج فيها الحساسية بالشهوانية كما تنسي النغمات العلوية الخلاعة الروحية . وفي العام ١١٠١ ، أي عندما سافر للحرب الصليبية، بعد لامبالاة مفرطة ، أعرب عن ندمه بوصانة مؤثرة فاضت بالشعر الجميل ، وهذا لم يمنعه من ان يجر في حاشيته عدداً من المحظيات اللاتي ، اذا اخذنا بقول المؤرخ

جوفروا فيجوا ، اسهمن في اخفـــاق الحملة و اوحين الى الدوق الحوّل المتقلّب بأشعار اقل ابداعاً .

الحيوية الأدبية والفنية في القرن الحادي عشر . لقد كانت اغنية رولان واشعار غليوم اكيتانيا نقطه انطلاق لحركة شعرية واسعة باللغات الرومانسية « اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية والسابقة للغة الفرنسية من من الوجهة التاريخية » . والقرن الحادي عشر ، في الأدب كما في الفن ، ليس الا فجراً ، ولكنه فجر حضارة متألقة تفتحت في القرنين التاليين، بينما استمر التحول الواسع الديني والاجتماعي والسياسي الذي تهيأ في الوقت نفسه .

* * *

الفهرس

المقدمة

العصر الوسيط

الفصل الأول

نهاية العالم الروماني والغارات الكبرى

الفصل الثاني

نتائج الغارات

الفصل الثالث

المدخل إلى تاريخ الكنيسة

الفصل الرابع

المملكة الفرنجية

حكم السلالة الميروفنجية

٤٨١ — ٧٥٢

الفصل الخامس

الحضارة الميروفنجية

الحياة الاقتصادية

الفصل السادس

الكنيسة في العصر الميروفنجي

المملكة الفرنجية

حكم السلالة الكارولنجية

٨٩٩ - ٧٦٨

الفصل السابع

تأسيس الامبراطورية الكارولنجية في الغرب

٨٠٠ — ٧٦٨

الفصل الحادي عشر

نهاية الامبراطورية الكارولنجية

٨٨٧ — ٨٩٩

تجزئة الامبراطورية الى ممالك

الفصل الثاني عشر

الكنيسة في العصر الكارولنجي

الفصل الثالث عشر

الحضارة الكارولنجية

الحياة الاقتصادية

الفصل الرابع عشر

النظم الميروفنجية

الاستبداد الملكي

الفصل الخامس عشر

النظم الكارولنجية

الفصل السادس عشر

تحول المجتمع الفرنجي

الاصول الاقطاعية

الفصل السابع عشر

العالم الاسكانديناقي حتى آخر القرن التاسع

الفصل الثامن عشر

الجزر البريطانية

من القرن الخامس إلى القرن العاشر

الفصل التاسع عشر

اسبانيا المسيحية

من ٧١١ إلى ١٠٣٧

التاريخ السياسي

الفصل العشرون

المانيا وايطاليا

من وفاة ارنولف إلى اوتون الأول

المانيا

من ٨٩٩ إلى ٩٣٦

ايطاليا

من ٨٩٦ إلى ٩٤٧

الفصل الحادي والعشرون

فرنسا بين الروبيرتيين والكارولنجيين

من ٨٨٨ إلى ٩٨٧

الفصل الثاني والعشرون

الكنيسة في أيدي العلمانيين

الفصل الثالث والعشرون

اوتون الكبير

و

ارجاع الامبراطورية في الغرب

الفصل الرابع والعشرون

النظام الاميري

النظام السياسي والاداري في ممالك اوربة الغربية

الفصل الخامس عشر

السياسة الامبراطورية

من اوتون الأولى إلى وفاة هنري الثالث

٩٦٢ — ١٠٥٦

المانيا بين ايطاليا والعالم السلافي

٩٦٢ — ٩٩٦

الفصل السادس والعشرون

التوسع الدانياركي

أصول الامبراطورية الدانياركية

كنوت الكبير

١٠١٤ — ١٠٣٥

تفتيت الامبراطورية الدانيماركية

١٠٣٥ — ١٠٤٢

الفصل السابع والعشرون

الملوك والتابعون

في النصف الأول من القرن الحادي عشر

النتائج السياسية للنظام الأميري ٦٣٣ . ضعف السلطة الملكية في المانيا : سلطة اوتون الكبير الملكية . الملكية الجرمانية عند وفاة هنري الثالث ٦٣٥ . قصر هنري الرابع ٦٣٦ .

فرنسا في عهد اوائل الكابسيين

اوج النظام الأميري ٦٣٧ . الكنيسة ٦٣٨ . السلطة الملكية ٦٣٨ . القضية السلالية ٦٤٠ . حكم هوغ كابيت (٩٨٧ — ٩٩٦) ٦٤٠ . روبير التقي (٩٩٦ — ١٠٣١) ٦٤١ . فتح بورغونيا ٦٤١ . روبير التقي والاقطاعية ٦٤٢ هنري الأول (١٠٣١ — ١٠٦٠) ٦٤٢ . الازمة السلالية والنزاع ضد آل بلوا ٦٤٢ . هنري الأول ونورمانديا ٦٤٣ . المملكة الكابسية عند وفاة هنري الاول ٦٤٤ . قصر فيليب الاول (١٠٦٠ — ١٠٦٧) ٦٤٤ .

انكلترا في عهد ادوارد المعرف

النظام الأميري في انكلترا ٦٤٥ . السلطة الملكية ٦٤٦ . ادوارد المعرف ٦٤٧ . دور غودون ٦٤٨ . ازمة (١٠٥١ — ١٠٥٣) ٦٤٩ . حكم هارولد ٦٤٩ . ظفر التبعية في منتصف القرن الحادي عشر ٦٥٠ .

الفصل الثامن والعشرون

تحرير الكنيسة الرومانية

حبرية ايتين التاسع

١٠٥٧ — ١٠٥٨

حبرية نيقولا الثاني

(١٠٥٩ — ١٠٦١)

حبرية الكسندر الثاني (١٠٦١ — ١٠٧٣)

ورد الفعل الامبراطوري

فاتحة حبرية غريغوار السابع

١٠٧٣ — ١٠٧٦

الفصل التاسع والعشرون

تشكل المملكة الآنغلية — النورماندية

دوقية نورمانديا في منتصف القرن الحادي عشر

حملة ١٠٦٦

تنظيم انكلترا في عهد غليوم الفاتح

التنافس بين هنري الاول ولويس السادس

١١٠٠ — ١١٣٥

تطور المملكتين الكابسية والآنغلية ـ النورماندية

من ١١٣٥ إلى ١١٥٤

الفصل الثاني والثلاثون

الحرب الصليبية

تكوين فكرة الحرب الصليبية

الزحف على القدس

١٠٩٦ – ١٠٩٩

الحرب الصليبية في الشرق والغرب

في بداية القرن الثاني عشر

الفصل الثالث والثلاثون

حضارة القرنين العاشر والحادي عشر

القرن العاشر

الازمة الاقتصادية

الانحطاط الفكري

القرن الحادي عشر

النهضة الاقتصادية

الاستعمار الزراعي

النهضة التجارية

النهضة الفكرية والفنية

اليقظة الدينية

الفكر المسيحي في القرن الحادي عشر

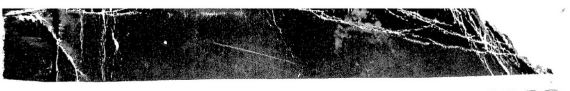
بداية الفن الرومانسي

الحركة الأدبية في القرن العاشر

الحركة الأدبية في القرن الحادي عشر

كلمة شكر

أعمق الشكر لكل من أسهم
في نشر هذا الكتاب



الموسوعة التاريخية الحديثة  التاريخية الحديثة

تاريخ العصر الوسيط

من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر

تاريخ العصر الوسيط

من القرن الثاني عشر إلى عصر النهضة

تاريخ عصر النهضة
تاريخ القرن السابع عشر
تاريخ القرن الثامن عشر
تاريخ النصف الأول من القرن التاسع عشر
تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر
تاريخ القرن العشرين

١٩٠٠ - ١٩٤٥

التاريخ الدبلوماسي

١٩٤٠ - ١٩٥٨

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوربية)

أربعة أجزاء